مَوسُوعة النَابُلسي للعُلوم الإسلَاميّة

الفقهَ الإسلامي

العبادات الشعائرية

www.nabulsi.com info@nabulsi.com

الفصل الأول : الوضوء

الدرس 1 : الوضوء : أركانه – شروطه – سننه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

مقدمة :

أيها الأخوة المؤمنون، فقرة الفقه المتعلقة بالعبادات التي وعدتكم بها بالدرس الماضي لا تزيد عن عشر دقائق، إن كانت في كل درس فهذا أعون على إتقان الصلاة التي هي عماد الدين، وكتاب مراقي الفلاح، كتاب في العبادات فقط، وفي الفقه الحنفي فقط، كتاب موجز، ومبوَّب، ومقنَّن ومرقَّم، والقراءة فيه سهلة، وله متن وله شرح، فإذا استعصى عليك شيءٌ في المتن، رجعتَ به إلى الشرح.

أركان الوضوء :

في الوضوء يقول مؤلف الكتاب طبعاً استناداً إلى استنباطات العلماء: أركان الوضوء أربعة، وهي فرائضه:

1 . غسل الوجه :

الأول: غسل الوجه، وحدُّه طولاً، من مبدأ سطح الجبهة إلى أسفل الذقن، وحدُّه عرضاً ما بين شحمتي الأذنين.

2 . غسل اليدين مع المرفقين :

والثاني: غسل اليدين مع المرفقين، ليس إلى المرفقين بل مع المرفقين، فالمرفق داخل في غسل اليد.

3 . غسل الرجلين مع الكعبين :

والثالث: غسل الرجلين مع الكعبين.

4 . مسح ربع الرأس :

والرابع: مسح ربع الرأس.

سبب الوضوء :

استباحة ما لا يحل إلا به، فهل تحل الصلاة بغير وضوء؟ لا، فإنها لا تحلُّ إلا به، لاستباحة الصلاة، واستباحة الطواف، وهذا حكمه الدنيوي، وحكمه الأخروي الثواب في الآخرة.

الوضوء عبادة، فإذا قام الإنسان ليتوضأ، وقال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، دخل في عبادة.

شرط وجوبه :

العقل، البلوغ، الإسلام، القدرة على استعمال الماء الكافي، فإذا كان الإنسان لا يقدر على استعمال الماء، أو يقدر والماء غير كافٍ فعندئذٍ يتيمَّم، وجود الحدث، عدم الحيض والنفاس، فلولا الحدث لما وجب الوضوء، وضيق الوقت.

في بعض الصلوات، كصلاة العيدين، أو صلاة الجنازة، إذا كان الوقت ضيقاً حيث تفوته الصلاة إذا ذهب ليتوضَّأ جاز له التيمم، لضيق الوقت.

إذاً شرط وجوبه: العقل، والبلوغ، والإسلام، والقدرة على استعمال الماء الكافي، ووجود الحدث، وعدم الحيض والنفاس، وضيق الوقت.

شروط صحته :

شروط صحته ثلاثة: عموم البشرة بالماء الطهور، أي أن يبلغ الماء كل الأماكن التي نصّ عليها الشرع بالماء الطهور، وانقطاع ما ينافيه من حيض، ونفاس، وحدث، وزوال ما يمنع وصول الماء إلى الجسد، فطلاء الأظافر يمنع وصول الماء، والشحم يمنع وصول الماء، والعجين يمنع وصول الماء.

وعندنا شروط الوجوب، كما عندنا شروط الصحة.

هذا فصل قصير، وبعدها ننتقل إلى موضوع آخر.

معلومات جانبية متعلقة بالوضوء :

يجب غسل ظاهر اللحية الكثة، واللحية نوعان، طبعاً الذقن غير اللحية، وكثيرون يظنون أنّ الذقن هو اللحية، فيقال: ليس له ذقن، أو لم يربِّ ذقنه، فكل واحد منا له ذقن، الذقن شيء، واللحية شيء، ويستعمل العامة خطأً الذقن بدل اللحية، إذًا فمن كانت له لحية كثة، أي غزيرة الشعر، يجب غسل ظاهرها، والشرع لم يكلّفكَ بغسل أصول اللحية، عندئذ تحتاج إلى تنشيف على الهواء، وهذا أمرٌ صعب، فوق الطاقة، وعليه غسل ظاهر اللحية الكثة في أصح ما يُفتى به، ويجب إيصال الماء إلى بشرةِ اللحية الخفيفة، فإذا كانت اللحية خفيفة وجب أن يصل الماء إلى البشرة، أيْ إلى أصل اللحية، ولا يجب إيصال الماء إلى المسترسل من الشعر عن دائرة الوجه، فإذا كان لك شعر مسترسل لا يجب إيصال الماء إليه، ولا إلى ما انكتم من الشفتين، إذا ضمَّ إنسان شفتيه فهناك جزء من الشفتين من داخل الفم، فالجزء الذي يعد من داخل الفم لا يجب إيصال الماء إليه، ويجب تحريك الخاتم الضيق، وإيصال الماء إلى أصل اللحية الخفيفة، وغسل ظاهر اللحية الكثة، أي الكثيفة، وعدم وجوب إيصال الماء إلى ما استرسل من الشعر الخارج عن دائرة الوجه، فهذه معلومات جانبية متعلقة بالموضوع. شيء آخر: لو ضره غسل شقوق الرجلين، إذا كان في الأرجل شقوق، أي مذبوحة من الشتاء، وهي مؤلمة، ويؤذيها الماء وضره غسل شقوق رجليه جاز إمرار الماء على الدواء الذي وضعه فيها.

وبعد: شخص واحد له لحية كثة توضأ فرضاً وحلقها، لا يقال له: أعد الوضوء، ولا يعاد المسح، ولا الغسل على موضع الشعر بعد حلقه ولا الغسل بعد قص ظفره، وشاربه.

فإذا طرأ بعد الوضوء قص ظفر، أو قص شارب، أو حلق شعر لم يصل الماء إليه عند الوضوء، فالشرع متساهل لا يجوز أن تعيد الوضوء في هذه الحالات، أ ي معلومات لطيفة ويحتاجها كل إنسان، وهذا مما يعين على إتقان الوضوء، لا زلنا في موضوعات أخرى، وإن شاء الله نتابعها في الدرس القادم، هذا ويسن في الوضوء ثمانية عشر شيئاً، نقرؤها الآن مجرد قراءة، وربما عدنا إليها في الدرس القادم.

ما يسن في الوضوء :

يسن في الوضوء ثمانية عشر شيئاً: غسل اليدين إلى الرسغين، والتسمية ابتداء، والسواك في ابتدائه ولو بالإصبع عند فقده، فالسواك من سنن الوضوء، لم تجد السواك فبالإصبع، والمضمضة ثلاثاً ولو بغرفة واحدة، طبعاً عندنا سنة التكرار، وسنة المضمضة، فإذا أخذت غرفة يمكن أنْ تتمضمض فيها ثلاث مرات، فالمضمضة تحريك الماء بالفم مرة أولى، ثم مرة ثانية، ثم مرة ثالثة، إذاً والمضمضة ثلاثاً ولو بغرفة واحدة، والاستنشاق بثلاث غرفات، قطعاً لأن الاستنشاق ليس عندك عضلات بالأنف تحركها ثلاث مرات، فلابد من المرة الأولى، والثانية، والثالثة، أما بالفم فممكن، إذاً يجوز أن تتمضمض ثلاث مرات بغرفة واحدة، ولا يجوز أن تستنشق ثلاث مرات بغرفة واحدة، فثلاث مرات ثلاث غرفات، والمبالغة في المضمضة والاستنشاق، المبالغة تعني إيصال الماء إلى كل أنحاء الفم، وإيصال الماء إلى أقصى الأنف، المبالغة لغير الصائم، وتخليل اللحية الكثة بكف ماء من أسفلها، والتخليل يعني بالأصابع، الأصابع مبتلة تخلل اللحية الكثة بكف ماء من أسفلها، وتخليل الأصابع، وتثليث الغسل، كل عضوٍ ثلاثًا ثلاثًا، أول مرة تدلك، والثانية إسالة الماء، والثالثة التأكد من التنظيف، واستيعاب الرأس بالمسح مرة، ويجوز مسح ربع الرأس، أما السنة فكامل الرأس، ومسح الأذنين ولو بماء الرأس، فهذا ممكن، أن تمسح الأذنين بماء الرأس نفسه، طبعاً تُدخل إصبعك إلى داخل الأذن، وتمررها بتجاويفها وخطوطها، ثم ظاهر الأذن والرقبة، و الدلك.

أحدث شيء سمعته من طبيب جزاه الله خيراً أن هناك عصيات بالمستقيم اسمها العصيات الزرق، هذه متواجدة بالمستقيم، ولها وظائف حيوية، ومحظور عليها لأسباب يصعب شرحها أن تنتقل إلى داخل الجسم أو إلى الدم، فإذا دخلت في الفم بسبب عدم الاحتراز منها، عدم إتقان الغسل، إذا دخلت إلى الفم ووصلت إلى الدم سببت أمراضًا وبيلة.

فالأحاديث الشريفة تحضُّنا على المبالغة بالطهارة، فإذا دخل إنسان المرحاض وجب أن يبالغ في تنظيف يديه، ولا سيما الأنامل عند الأظافر، عند هذه الثنيات، فلو أن عصية زرقاء دخلت إلى الفم ولم يكن المتوضأ قد اعتنى بتغسيل يديه، فهذا يسبب له أمراضاً، يجب أن تعلموا أن أوامر النبي الكريم مبنية على حقائق علمية لأن الله سبحانه وتعالى أوحى له بذلك:

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

[سورة النجم: 3-4]

ومسح الأذنين ولو بماء الرأس، و الدلك، والولاء، كشخصٍ غسل وجهه، فرنَّ جرس الهاتف، وتكلَّم ربع ساعة، ثم رجع وأكمل غسل يديه، فلم تتوفَّر الموالاة، بل صار في الوضوء انقطاع، فيجب أن يتوضأ مرة واحدة، والنية، والترتيب، فالإنسان أحيانًا ينسى فيغسل رجليه قبل يديه، فاختلَّ الترتيب وخالف السنة كما نص الله تعالى في كتابه، والبداءة بالميامن، في كل شيء تبدأ باليمين، ورؤوس الأصابع، ومقدم الرأس، ومسح الرقبة إلى الحلقوم، إذًا الميامن، والترتيب، والنية، والولاء، والدلك، ومسح الأذنين بماء الرأس، واستيعاب الرأس كله، وتثليث الغسل، وتخليل الأصابع، وتخليل اللحية الكثة من أسفلها، والمبالغة في المضمضة، والاستنشاق لغير الصائم، والمضمضة ثلاثًا بغرفة واحدة أو بثلاث غرفات، أما الاستنشاق فبثلاث غرفات قطعاً، والسواك ولو بالإصبع، والتسمية ابتداءً، وغسل اليدين إلى الرسغين، وهذه ثمانية عشر شيئاً هي سنن الوضوء، وفي الدرس القادم إن شاء الله نتحدث عن آداب الوضوء وهي أربعة عشر أدبًا.

***

للإنسان في علمه أربعة أحوال :

وبعدُ فإلى بعض الفصول المختارة من إحياء علوم الدين، ولا زلنا في الموضوع الكبير، وهو العلم.

الدرس اليوم: "وظائف المعلم"، تحدثنا عن آداب المتعلم، واليوم وظائف المعلم، فإذا وضعك الله عز وجل وأكرمك في مقام التعليم فعليك واجبات، ابحث عن واجباتك قبل أن تبحث عن حقوقك قبل أن نبدأ بالواجب الأول هناك مقدمة لطيفة.

اعلَمْ أن للإنسان في علمه أربعة أحوال، كحاله في اقتناء الأموال، إذ لصاحب المال حالةُ استفادةٍ فيكون مكتسباً، إذًا أولاً كسب المال، وحالُ ادخار لما اكتسبه، فيكون به غنياً عن السؤال، وحالُ إنفاقٍ على نفسه فيكون منتفعاً، وحالُ بذلٍ لغيره فيكون به سخياً متفضلاً، وهو أشرف الأحوال.

اكتساب، وادخار، وإنفاق على نفسه، وإنفاق على غيره، والإنفاق على الغير هو أشرف الأحوال، هو السخاء، هو الفضيلة، وكسب المال ضرورة، وادخاره شح، وإنفاقه على النفس أنانية، وكسبه ضرورة، فلا بد أن نعمل، فادخاره شح، وإنفاقه على الذات أنانية، أما إنفاقه على الآخرين فهذه فضيلة، فكذلك العلم يُقتنَى كما يُقتنَى المال، فله حال طلب واكتساب، وحال تحصيل يغني صاحبه عن السؤال، وحال استبصار، وهو التفكر المحضُ والتمتع به، وحال تبصير، وهو أشرف الأحوال.

إذًا أوّلاً تَعَلُّم، وبعدما تعلمت، جمعت حقائق كثيرة، ومعلومات كثيرة، وفهمت شيئاً كثيراً من كتاب الله، ومن سنة رسول الله، فشعرت بالغنى، هذا الادخار، تأملت فيما تعرف، وتبصرت فيما حصّلت، فشعرت بالراحة، الآن أنفقته على نفسك، فاعملْ به، واستفد منه، أما حينما تعلِّمه غيرك فهو أشرف الأحوال.

فمن عَلِمَ وعمل وعلّم فهو الذي يدعَى عظيمًا في ملكوت السموات والأرض، عَلِم وعمِل وعلّم، هذه سورة نقرؤها كل يوم عشرات المرات

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

[سورة العصر: 1-3]

عَلِمَ وعمل ودعا، علم وعمل وعلّم، وإذا واجهته معارضات ولاقى تضيقًا صبر، فلا يترك طلب العلم بسرعة، واللهِ أنا لا أريد هذه العمل، لأنّ به وجع رأس فلا أريده، علم وعمل وعلّم وصبر، فإذا توافرت هذه كلها فيسمَّى عظيماً في ملكوت السموات والأرض.

من يتعلم ويعمل ويعلّم كالشمس والمسك :

اسمعوا التشبيه اللطيف، قال: فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيّب غيره وهو طيب، والذي يعلِّم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال من العلم، والدفتر الفارغ تملؤه علمًا فيفيدك، أما الدفتر فهو جاهل ويبقى جاهلاً، وكالمِسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع، والإبرة تكسو غيرها وهي عارية، والمصباح يضيء لغيره وزبالته تحترق، فالذي يتعلم ويعمل ويعلّم، كالشمس، والمسك، والذي يتعلم ويعلم ولا يعمل كالشمعة تحرق نفسها وتضيء غيرها، لذلك نسأل الله أنْ الله يجعلنا من الصادقين في طلب العلم، وأنا أدعو

بدعاء دائماً: "اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعدَ بما علمت مني"، أي أنَّ واحداً علَّمتُه ويسبقني، واللهِ هذه صعبة، وشيء مؤلم، تعلّمه حديثًا يطبقه ويسعد به إلى الأبد، وأنت لا تطبقه، تُعلمه آيةً ويطبقها بحذافيرها، فيجلب منها خير الدنيا والآخرة، وأنت لا تطبّقها، واللهِ هذا الشقاء كلُّه، لذلك سئل النبي الكريم: مَنْ أندم الناس؟ – أندم اسم تفضيل – قال رجل دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار.

وفي صحيح البخاري حديثٌ يقصم الظهر:

((عَنْ أَبِي وَائِلٍ قَالَ: قِيلَ لأُسَامَةَ لَوْ أَتَيْتَ فُلانًا فَكَلَّمْتَهُ قَالَ إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لا أُكَلِّمُهُ إلا أُسْمِعُكُمْ إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ وَلا أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ، قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ: يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيْ فُلانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ قَالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

[البخاري عَنْ أَبِي وَائِلٍ]

لذلك:

وعالم بعلمه لم يعمـــلن معذب من قبل عباد الوثن

***

"اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد مني بما علمتني، اللهم أعوذ بك أن أكون عبرة لخَلْقك، اللهم إني أعوذ بك أن أتجمل بشيء يشينني عندك، اللهم إني أعوذ بك أن أقول للناس قولاً في رضاك ألتمس به أحدًا سواك"، القول جيد، القول في رضى الله عز وجل، لكن القائل يلتمس به أحدًا سواك، لذلك أيها الأخوة الأكارم، الإخلاصَ، الإخلاصَ، فقليل من العمل ينفع مع الإخلاص، ومع غير الإخلاص لا ينفع لا قليل العمل ولا كثيره، لذلك: يا معاذ أخلص دينك يكفِكَ القليلُ من العمل، أخلص دينك.

وظائف المعلم :

1 . الشفقُة على المتعلمين :

وبعد هذه المقدمة نقول: الوظيفُة الأولى للمعلم الشفقُة على المتعلمين، وأن يجريهم مجرى بنيه:

((إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، أُعَلِّمُكُمْ إِذَا أَتَيْتُمُ الْغَائِطَ فَلا تَسْتَقْبِلُوا الْقِبْلَةَ، وَلا تَسْتَدْبِرُوهَا، وَأَمَرَ بِثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، وَنَهَى عَنِ الرَّوْثِ وَالرِّمَّةِ، وَنَهَى أَنْ يَسْتَطِيبَ الرَّجُلُ بِيَمِينِهِ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ لِوَلَدِهِ، حتى الشيء الثابت الذي لا يأتيه الباطل، أنا رحمة النبي عليه الصلاة والسلام لأمته والخلق جميعاً أشد من رحمتهم لأنفسهم.

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

[سورة التوبة:128]

إذا تحدَّاك إنسان، وقابلك مقابلة سيئة، وأنت تقتدي برسول الله فكيف تواجهه؟ جاءه جبريل قال: أمرني ربي أن أكون طوع إرادتك، لو شئت لأطبقت عليهم الجبلين، يقصد أهل الطائف، قال: لا، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون، لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّد الله، فرحمته فوق رحمتنا لأنفسنا، وفوق رحمتنا لأولادنا، هذا شيء ثابت، إنما أنا مثل الوالد لولده، إذاً على المعلم أن يقصد إلى إنقاذ المتعلمين من نار الآخرة، وهي أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا، فإذا كان نشب بالبيت حريق، والابن بالحمام، والحريق من أطراف البيت كله، فإنَّ الأم أو الأب يقتحم أحدهما النار لينقذ ابنه، فإنقاذ الأب ابنه من نار الدنيا ليس بشيء أمام إنقاذ النبي عليه الصلاة والسلام أتباعه من نار الآخرة، فهذه نار مؤقتة، قد يكون الحريق من الدرجة الأولى ولكنه يشفى بإرادة الله، والدرجة الثانية يشفى أيضًا، وبالدرجة الثالثة قد يعيش مشوَّهًا، أما نار الآخرة فليس لها حل، لذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية، والمعلم سبب الحياة الباقية، وبالنسبة للدنيا إذا دلَّك شخص على عمل مربح وربح منه فأنت مدِينٌ له، لقد حكى لي أخ، وهو واللهِ صادق عندي، أنَّه اشترى بيتًا أنزل صاحبُه السعر سبعين ألفًا، أنا مبدئيًّاً ما صدقت، خفَّض سبعين ألفًا، قال لي: نعم والله، سألت ما السبب؟ قال لي: إنَّ صاحب البيت في بداية عمله التجاري دَلَلْتُه على مصلحة ربح منها الملايين، فلم ينس هذا المعروف، إذًا فتخفيض سبعين ألفًا مبلغ يسير، لكنها ثروة طائلة جاءت نتيجة مساعدة

سابقة وإرشاد، فقد دعمه ووجهه، فإذا نزل له في سعر البيت سبعين ألفًا فمبلغ بسيط مقارنة بالمليون، فإذا أصاب شخصًا في الدنيا خيرٌ عن طريق شخص آخر فتراه مدينًا له طوال حياته، فإذا كانت المساعدة والدلالة تتعلق بالحياة الأبدية وبالجنة التي عرضها السموات والأرض، إذْ لا فناء، ولا كبر، ولا مرض، ولا هم، ولا حزن، ولا قلق:

((قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[البخاري عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

إذا دخل شخص بيتًا فخمًا بمصيف جميل، فقال: وَاللَّهِ إنّه جميل ، فقال لك صاحبه: خذه، و يقدر ثمنه بمليونين ونصف، إنّه لك، مع السيارة، وهذا دخل شهري قدْرُه عشرة آلاف ليرة، ألا تشعر أنك صغرت أمامه، والمعلم في الدنيا هو السبب في دخول الجنة، لذلك قالوا: حق المعلم أعظم من حق الوالدين، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، إذا ترك لك الأبُ مئة مليون، أجلْ هناك آباء تركوا مئة مليون، فإذا مات الابن انتقلت التركة إلى غيره، فمهما كان عطاء الأب غزيرًا يفقده الابنُ بالموت، أما عطاء المعلم فهو إلى أبد الآبدين، لا ينفد خيرُه، والمعلم سبب الحياة الباقية، ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم، وإنما العلم هو المفيد إلى الحياة الأخروية الدائمة، أعني معلم علوم الآخرة، لا رياضيات ولا هندسة، معلم علوم الآخرة، فإذا عرفت الله عز وجل، واستقمت، وعملت الأعمال الصالحة هذا الذي يعلمك، فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك، نعوذ بالله منه، تتعلم من أجل الوجاهة، والمنصب، والرياسة، وترؤس المجتمعات، وتصدّر المجالس، فإذا كان هذا هو العلم فهذا هلاك بهلاك، هذه الوظيفة الأولى للمعلم، أن يعلم المتعلمين كأبنائه.

2 . أن يقتديَ بصاحب الشرع :

الوظيفة الثانية: أن يقتديَ بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه، فلا يطلب على العلم أجراً، ولا يقصد به جزاء ولا شكوراً، بل يعلمه لوجه الله تعالى، وطلباً للتقرب إليه، وأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه تعالى، لا يريد جزاء، ولا شكوراً، ولا تلميحاً، ولا تصريحاً، ولا مادة، ولا معنى، ولا شيئًا من هذا، ولا يرى لنفسه مِنَّة عليهم، هنا تبرز المشكلة، إنّه لم يطلب منهم شيئًا، ولكنه شعر بذاته أن له فضلاً عليهم، وهذا أكبر عيب، قال العلماء: ولا يرى لنفسه منَّة عليهم، وإن كانت المنّة لازمة عليهم، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ إذا علَّمتَ إنسانًا وقبل أنْ يتعلم

منك استجاب لك، فهو ذو فضل عليك، وليس لك فضل عليه لو ما تعلم منك، فلو أنّه لم يتعلم على يديك، فقد حُرِمتَ الأجر عند الله، لكن هؤلاء الذين استجابوا لك، واستمعوا، وطبقوا، وسعدوا كلهم في صحيفتك، فهم سبب سعادتك، كالتاجر الذي فتح محلاً فخمًا، ثم لم يدخله أيُّ زبون، فما قيمة المحل؟ فهنا الإمام الغزالي رَضِي اللَّه عَنْه يقول: لا يكفي ألاّ يطلب أجرًا ولا أن يحس أن له فضلاً عليهم، فهو مخطئ، بل لهم الفضل عليك، لأنهم استمعوا، واستجابوا، وإن كانت المنَّة لازمة عليهم، بل يرى الفضل لهم إذ هذَّبوا قلوبهم، فأنتَ تتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها، وهذه الأمثال جميلة.

قال: كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك، فقال لك: خذ الأرض وازرعها، والمحصول لك، فمنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض، فكيف تقلده منَّة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى؟ ثواب المعلم عند الله أكثر من ثواب المتعلم، إذاً من له الفضل على الآخر؟ المتعلم له الفضل، إذْ لولاه لمَا نلت هذا الثواب، فلا تطلب الأجرة إلا من الله تعالى كما قال عز وجل:

﴿ وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴾

[سورة هود :29]

فإن المال وما في الدنيا كلها خادم للبدن، والبدن مركب النفس ومطيتها، والمخدوم هو العلم، قال العلماء: إذ به شرف النفس، فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل حذائه بوجهه لينظفه، إذا طلب أحدٌ على دعوته إلى الله منفعةً ماديةً أو معنوية كمن مسح حذاءه بوجهه لينظفه، الحذاء خادم، والوجه مخدوم، لكنك جعلتَ المخدوم خادمًا، والخادم مخدومًا، وهذا هو الانتكاس على أم الرأس، وسوف نتابع هذه الوصايا.

3 . أن يترفع عن الدنيا :

ثم عليك أنْ تترفع عن الدنيا، اجعل الدين في السماء، ولا تمرغه في الوحل، هناك أناس مرَّغوه في الوحل، وأساؤوا إليه إساءة كبيرة، فلا تطلب على دعوتك إلى الله ولا على تعليمك أجراً، واحتسب الأجر عند الله تعالى، وإذا كنت طموحًا فاترك الأجر لله عز وجل، وإليك بعض الأحاديث الشريفة.

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّه عَنْه]

وبصراحة أريد أنْ أقول لكم: إذا كان الدين عندك حضور مجالس علم فقط، فليس عندك روحانية، ولا تشعر بسرور، واعلم أنّ الإيمان له حلاوة، فإذا أكلَ الإنسانُ أكلة طيبة وهو جائعٌ، ألا يسعد بها؟ بلى، فالإيمان له حلاوة، قال عليه الصلاة والسلام:

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ– الأولى– أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...))

كيف ذلك؟ مثلاً دعاك شخصٌ وأنت لم تصلِّ الظهر، تعتذر حتى تصلي الظهر أولاً، اعتذِرْ عن كل شاغلة لتصلي الظهر بإتقان ورويَّة وإلاّ فأنت في غنى عن دعوته.

مثالٌ آخر: دخلتَ أنت وصديق محلاً، وهذا المحل لا يجوز أن تدخله، تقول: استحييت منه فدخلتُ، أي أنّ هذا الصديق أغلى عليك من الله ورسوله، وإذا قلت: أنا لا أدخل، وهذا خطأ، وكان الأولى ألاّ تدخل، وأنت حين تضحي بصداقات الناس من أجل إرضاء الله عز وجل فقد عملتَ صوابًا، ولن يتخلَّى الله عنك، فهو وليُّك، وعندما تؤثر صديقًا على محبة الله، وتؤثر مبلغًا من المال على رضى الله عز وجل، فقد جعلتَ منفعتك مقدمة على طاعة الله و مرضاته، لكنّك إذا كان الله ورسول أحبَّ إليك مما سواهما، فتقول: معاذ الله، كما قال سيدنا يوسف حين دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله رب العالمين.

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

[سورة يوسف: 23]

المؤمن صاحب مبدأ وله مواقف عظيمة :

المؤمن صاحب مبدأ، وله مواقف، فقد يلين الجبل ولا يلين هو، فمواقفه صلبة، لأنه يحب الله ورسوله أكثر مما سواهما، أما بعض الأشخاص إذا دعي إلى حفلة مختلطة يقول: واللهِ استحييت، وأنا أرى أنّ مجاملة الآخرين لا بد منها، ولا بد من مسايرتهم، وأرجو الله أنْ يغفر ذنوبنا، هذا يعني أنّ محبة الناس ومجاملتهم مقدمة على محبة الله و رسوله، إذا كانت لك علاقة ربوية قلت: هكذا يريد شريكي، فالدرهم والدينار أحب إليك من الله ورسوله، قال لي شخص: الحمد لله، إني أصلي الصلاة في وقتها وفي المسجد، ولكن أسأل الله أنْ يصلح شريكي في المطعم فإنّه يقدِّم خمرًا، أصلحه الله و هداه، قلت له: انسحب، فقال: أنسحب؟ أرباحه طائلة، لكنني لا أذهب إلى المطعم

أبداً، والحمد لله، الأمرُ برقبته، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، واللهُ عز وجل يضع المؤمن في ظروف، وهذه الظروف يخلقها الله خلقًا، ليظهر الإنسانُ على حقيقته، فيما إذا كان الدرهمُ والدينا أحبَّ إليه من الله ورسوله أو أن الله ورسوله أحبُّ إليه من الدرهم والدينار، يقول: الضرورات تبيح المحظورات، العلماء قالوا: هذه الضرورات إذا خِفْتَ فَقْدَ الحياة، أو فَقْدَ أحد الأعضاء، فعندئذ الضرورات تبيح المحظورات، يقول المؤمن: واللهِ آكلُ خبزًا يابسًا ولا آخذ مالاً حرامًا، أرضى أنْ آكُل خبزاً فقط، ولا آخذ هذا المال الحرام، نجحت حينئذٍ، وبعدها سوف نعطيك الرضا، والرحمة، والتجلي، والمال، فالله عز وجل قال:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

[سورة العنكبوت:2]

لا يمكن لإنسان أنْ ينجو من الفتنة، فربنا عز وجل عنده محكٌّ، لتَتَكَلَّمْ بما شئت، كأنْ تقول: أنا أحب الله، ومحبة لا يعلمها إلا الله، ثم تمر أمام فتاة جميلة فتنظر إليها و تحدق، فأين الذي في قلبك من محبة الله؟ لا توجد مادة في قانون أرضي تحاسبك، تنظر، أوْ لا تنظر، أما ربنا فيحاسبك إذا نظرت وضربَ على اسمك بأنك لستَ له محبًّاً، ورسبتَ في الامتحان، فاحذرْ فإنَّ علاقتك مع الله عز وجل:

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ، أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا...))

فإذا آثرتَ محبة الله ورسوله جمعت الدنيا والآخرة، لذلك: من آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

علامة المؤمن الصادق أنْ يحب أخوانه في الله محبة عجيبة :

أمّا الثانية:

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ))

في دنياكَ أشخاص تحبهم لله، لا هو زبون، ولا صديق، ولا قريب، ولا صهر، ولا جار، ولا عنده سيارة فتركبها، ولا حالته المادية جيدة، فيدعونا لمائدته، ليس مِن علاقة بينك وبينه إلا علاقة الأخوة في الله، تشعر نحوه بمحبة آسرة، وتعقيبًا على هذه الظاهرة ذكر لي شخصٌ فقال: واللهِ إذا مضى يومٌ ولم أرَ صديقي الذي صادقتُه لله فإنّي لا أهنأ، وإذا رأيته أشعر بسعادة عارمة، إذًا علامة المؤمن الصادق أنْ يحب إخوانه في الله محبة عجيبة، خالصةً لله، لا يطمع في مالهم، ولا في مناصبهم، ولا في أي شيء، بل رآه مؤمناً فأحبَّه، ورآه أخلاقياً فأحبه، جاء في

الحديث القدسي:

((وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ، وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ، وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ))

[أحمد عَنْ مُعَاذٍ]

وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ– وجبت– وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ، انظُر مليًّاً، فهذه مجالسة لله، دونما مصلحة دنيوية صغرتْ أو كبرتْ، وَجَبَتْ مَحَبَّتِي، أنت الآن ضيف الله عز وجل: "إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر".

((وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ المتحابُّون في جلالي لهم منابرُ من نُور، يغبِطهم النبيُّون والشهداءُ))

[أخرجه الترمذي ومالك عن معاذ بن جبل]

((...وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

في أحيان كثيرة تجد الإنسان المسلم يفضل أنْ يأكل تحت المطر، إذا كان خارج بلده و لا يدخل مطعمًا فيه معصية، يفضل أنْ يأكل شطيرة (سندويشة)، يأكل ما خَشُنَ في طاعة الله، ولا يأكل أفخر المأكولات في مكان يعصى الله فيه، فهذه علامة المؤمن.

ابتعاد المسلم عن كل ما هو غير أخلاقي :

((...وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

هذا مقياس لنا جميعاً، أن تنفر من كل ما هو جاهلي، ومِن كل ما هو غير أخلاقي، وأنا أشبه هؤلاء بشخصٍ سقط في كنيف ثم خرج أو أُخرِج و دخل حماماً، واغتسل ساعة ثم تعطَّر بالعطورات ذات الأرج الفوَّاح، ولبس الثياب النظيفة، وصفَّف شعره، ثمّ ما لبث أنْ رأى السياقات بمياهها السوداء، أيشتهي أنْ ينزل إلى الكنيف مرة ثانية؟ فلو حَنَّ إلى الكنيف لكان مجنونًا حقًّاً، وهكذا المؤمن بعد أنْ أنقذه اللهُ من القاذورات، والسفالات، والسخافات، ومن كل ما يشين الإنسانَ، كالمزح الفاحش، والغرور، وبذاءة اللسان، والضلالة، فإذا أنقذك الله عز وجل من القاذورات، والبذاءات، وطهَّر قلبك بالإيمان، فأنت ذو حظٍّ عظيم:

((... وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

وإذا تحقَّق للمرءِ هذه الهداية فإنّه يقول: واللهِ لو قطعت إرباً إرباً فلن أعود إلى ما كنت عليه، هذا شيء يعلمه كل منكم، تكره أن تعود إلى ما كنت عليه، هذا الحديث أُحبُّ أن تحفظوه، وتتمثلوه دائماً.

صفات المؤمن الحق :

إذًا ألخِّص وأكرِّر: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، فإنْ كنتَ في زيارة لبعض أرحامك ووجدتَ ما لا يرضي الله عز وجل مِن منكر، إذًا تودِّع، والسلام عليكم، وهذا تعليم و تنبيهٌ بمَن كنتَ في زيارتهم. ثانياً:

((...وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ..))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

فلا تقيم مودة و صداقة خالصةً إلاّ إذا كانت قائمةً على رضا الله تعالى، فهذا الذي ينمو بذرُه، ثم يكون منها شجرة، ثم تكون هذه الشجرة، شجرة المحبة والمودة مثمرةً ثمرًا يانعًا، فإنها تعود ثمراتها بخيرٍ على الفرد و المجتمع، و بهذا يكون ظلُّ الإسلام ظليلاً، و يتحقق لنا المعنى السامي للحديث:

((...وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

هذه صفات المؤمن الحق:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ...))

[متفق عليه عن أنس بن مالك]

حاسبه الله تعالى حساباً يسيراً يوم القيامة، وأدخله الجنة برحمته، فأعطى المال و عفا عن أهل الإساءة، ووصل رحمه، و ردَّ على الإساءة بإحسان، فسيدنا ابن مسعود رَضِي اللَّه عَنْه فَقَدَ مالاً، فتوجه إلى الله عز وجل وقال: "اللهم إن كان الذي أخذ هذا المال عن حاجة فبارك له فيه، وإن كان قد أخذه بطراً فاجعله آخر ذنوبه يا رب"، وآخر بالغ في الإساءة لصحابي فقال له: "إن كنتَ صادقًا فيما تقول فغفر الله لي، وإن كنتَ غير صادق فغفر الله لك"، فالمؤمن يترفَّع عن مستوى المشاحنة، والخصومات، ويعلو عن كلِّ ما فيه عيبٌ وشين، ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، فقد سما في معارج القبول، فأنت رجلٌ منَّ الله عليك بنعمةٍ كبرى هي نعمة الهداية، والسلوك الأخلاقي

الإيجابي، وكذلك من أدَّى، وأقرى الضيف، وأعطى على النائبة، فهذا برئ من الشح، فلا يسمى شحيحاً، وبرئ من الكبر من حمل حاجته بيده، ودخل بها على أولاده، فقد يذهب الإنسان إلى السوق يشتري خضارًا ويحمل حملاً ثقيلاً، فهذا فخر، أنت عندئذٍ بريء من الكبر، فاحملْ حاجتك بيدك، لقد برئ من الكبر من حمل حاجته بيده، الثالثة: برئ من النفاق من أكثر من ذكر الله ، فإذا أكثرت من ذكر الله، فأنت بريء من النفاق، وبريء من الشح من أدى زكاة ماله، وأقرى الضيف، وأعطى على النائبة، وبرئ من الكبر من حمل حاجته بيده، وبرئ من النفاق من أكثر ذكر الله.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 2 : تتمة الوضوء : فرضيته – وجوبه – ندبه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أقسام الوضوء :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى أوصاف الوضوء، والوضوء على ثلاثة أقسام:

الأول: فرض، أي من أراد أن يصلي وهو محدث فالوضوء فرض، فعلى المحدث للصلاة، ولو كانت نفلاً، أو فرضًا، أو سنةً، أو تطوعًا، فإن كان المصلي محدثاً، فالوضوء لها ولصلاة الجنازة ولسجدة التلاوة فرضٌ، والوضوءُ فرض لِمَسِّ القرآن، ولو لمراجعة آية.

والثاني واجب: وأما الوضوء الواجب فللطواف بالكعبة، وكما يتضح لكم أن الفرض إذا تركه الإنسان لأيِّ سببٍ يأثم، وإن تركه تهاوناً أَثِم، وإن تركه إنكاراً كَفَر، ومن ترك الصلاة استخفافاً بحقها كفر، أمّا من ترك الصلاة تهاوناً فقد فَسَقَ.

والثالث: مندوب – دققوا أيها الأخوة كيف كان السلف الصالح يتخذون من الوضوء أدباً، حتى يرفع من طاهرة نفوسهم – فيُنْدَب للنوم على طهارة، فإذا أردت أن تذهب إلى النوم فالوضوء مندوب لك، لأنّ النوم على طهارة يجعل النائم يغيب في منامات سعيدة، فيرى نفسه يقرأ القرآن، أو في مجلس علم، وقد يرى نفسه في زيارة الحبيب المصطفى، وما دام قد نام على طهارة فلنْ يأتيه كابوس في النوم، عند الكوابيس يستيقظ، وكأن الشيطان قد مسّه، هذه المنامات الموحشة، التي تفزع منها النفس، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتوضأ إذا ذهب إلى النوم، ويتوضأ إذا استيقظ منه،، فمثلاً أنْ يستيقظ من النوم مباشرةً إلى الأكل صباحاً، فهذا تأباه النفوسُ الطيّبة، ولا يجوز له، فالوضوء بعد النوم، أي أنْ يغسل يديه، وكذلك إزالة بعض المفرزات من عينيه، وإزالة بعض الزبد على فمه، وغسل أنفه، وتنظيف ما تراكم فيه، فإذا استيقظ الإنسان من النوم وتوضأ فهذا من السنة بعدَ الاستيقاظ

من النوم، كما يُسنُّ المداومة عليه، والمسلم إذا توضّأ وصلى الضحى وخرج من بيته، ثم انتقض وضوءه في أثناء الطريق، ووصل إلى مكتبه، أو وصل إلى مكان عمله فليتوضأ، وهذا الوضوء مندوب للمداومة عليه وعلى استمراريته، وكذلك في الصيف مثلاً رجلٌ متوضئ دخل المسجد، والبحرة فيها ماء زلال، واشتهى أنْ يتوضأ، مع أنّه متوضئ، فهذا مندوب، الوضوء على الوضوء، دخل إلى المسجد الحرام وهو متوضئ وتوضأ فهذا مندوب.

مندوبات الوضوء :

وبعد غيبة، فإذا كان الإنسان في غيبة ندب له الوضوء، وبعد كذب، فإذا وقع الإنسان في كذب فعليه أن يتوضأ، لأن نفسه تنجست:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلالِ كُلِّهَا إِلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

فلا يخون المؤمن ولا يكذب، وكذلك بعد كذب وغيبة ونميمة، تكلَّم عن شخص، وشعر بوحشة وبحجاب، وانقطعت الصلة مع الله عز وجل، أول عمل أنْ يتوضأ، وبعد كل خطيئة أيضًا، والوضوء يلازم التوبة، والتوبة طهارة الباطن، والوضوء طهارة الظاهر، وبعد إنشاد شعرٍ، وكما قال بعض الشعراء: أعذب الشعر أكذبه، قال تعالى:

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾

[سورة الشعراء: 224 ـ 226]

إذاً إنشاد الشعر يندَب له الوضوء، فهناك شعر فيه غزل، فيه هجاء، فيه وصف لمحاسن امرأة، شعر من هذا القبيل، عليك أن تتوضأ منه، وكذلك قهقهة خارج الصلاة، اللهم صلِّ عليه كان جلُّ ضحكه تبسمًا، وهناك ضحكة يكاد الشخصُ ينقسم نصفين من فَرط ارتفاع صوته، فهذا الضحك يُندَب أن تتوضأ منه، وغسل ميت، فكل من ساهم في غسل ميت، أو حمله، عليه أن يتوضأ، مع أن الميت طاهر، والمؤمن لا ينجس، ولكن هذا توجيه صحي، أي قد تكون الوفاة بسبب مرض سارٍ، وقد تكون الوفاة قد نتج عنها بعض المفرزات التي فيها بعض الجراثيم، فمن ساهم في غسل ميت، أو حمله فعليه أن يتوضأ، وهذا توجيه صحي كما نوَّهت، ولوقت كل صلاة، أذن العصر وأنت متوضئ فمندوب أن تتوضأ لكل صلاة، وقبل غسل الجنابة، مندوب أن تتوضأ قبل غسل الجنابة، وللجنب عند أكل، وشرب، ونوم، جنب لم يغتسل، وقام ليشرب أو ليأكل فعليه أن يتوضأ، إذًا أكلٌ وشربٌ ونوم ووطء، ولغضب كذلك، فإذا غضب الإنسان وتوضأ فقد يذهب عنه الغضب، وهذا مفهوم ومجرَّب،

أو يسكت عنه الغضب، كما قال الله عز وجل:

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

[سورة الأعراف: 154]

وهذا من أروع تشبيهات القرآن الكريم، وكذلك يتوضَّأ لقراءة قرآن، أو حديث شريف، أو قراءة، فهذا مندوب، أمَّا المسُّ ففرض، فشخص حافظ القرآن أحبَّ أنْ يقرأ القرآن، أو أنَّ المصحف مفتوح، فله أنْ يقرأ دون أن يمسَّ المصحف، ومن دون أن يتوضَّأ، لكن المندوب أن يتوضأ إذا قرأ القرآن، ولقراءة الحديث الشريف كذلك، تعظيماً لهذا العلم الشريف، وروايته، ودراسة العلم الشرعي، كأن يحضر مجلس علم، أو أحبّ أنْ يتدارس مع غيره موضوعًا شرعيًّاً فليتوضأ تعظيماً لهذا العلم، والوضوء مندوب للأذان، وللإقامة، وللخطبة، ولزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، وللوقوف بعرفة، وللسعي بين الصفا والمروة، وكذلك أكل لحم جزور، فالفقهاء في هذه المسألة وقفوا عند النص، فالنبي الكريم كان مع الصحابة الكرام في دعوة، ويظهر أن رجلاً من الحاضرين صدرت منه رائحة كريهة، وكان الصحب الكرام قد صلوا الظهر، وتناولوا لحم الجزور، أي الجمل، ثم دخل وقت العصر، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: كل من أكَلَ لحمَ جزورٍ فليتوضأ، فالنبي لفطنة عالية، ولكمال عظيم فيه أراد ألا يخذل هذا الذي سوف يبادر إلى الوضوء، فقال: كل من أكل لحم جزور فليتوضأ، فقال الصحب الكرام: يا رسول الله كلُّنا أكلنا لحم جزور، فقال: فليتوضأ جميعكم، والفقهاء هنا وقفوا عند الظاهر، وإذا مس امرأة، والإمام الحنفي قال: لا مانع، ويقصد زوجته، أما المرأة الأجنبية فيُنتقض إسلامُه، وليس وضوءه، ولكن إذا مس امرأته فعلى المذهب الحنفي لا يتوضأ، وعلى المذهب الشافعي يتوضأ، فأيهما أكثر حيطة؟ المذهب الشافعي، وإذا أردتَ أن تخرج من خلاف العلماء وأنت حنفي المذهب، وأردت أن تصلي بالناس، وبينهم من هو شافعي المذهب، فإذا أردت أن يطمئن الناس لك، فلتتوضَّأ لتخرج من خلاف العلماء، والوضوء يسع كل المصلين، أما عدم الوضوء فيسع الأحناف فقط، فمن أجل أن تسع كل الناس توضأْ واخرج من خلاف العلماء، هذه مندوبات الوضوء، ولا بأس بعد هذا الشرح المسهب من إعادة موجزة.

إعادة موجزة لما سبق :

أوصاف الوضوء: الفرض والواجب والمندوب.

الوضوء على ثلاثة أقسام:

الأول: فرض على المحدث للصلاة ولو كانت نفلاً، ولصلاة الجنازة، وسجدة التلاوة، ولمس القرآن ولو لمراجعة آية.

والثاني: واجب للطواف بالكعبة.

والثالث: مندوب، للنوم على طهارة، وإذا استيقظ منه، وللمداومة عليه، وللوضوء على الوضوء، وبعد كذب وغيبة ونميمة، وكل خطيئة، وإنشاد شعر، وقهقهة خارج الصلاة، وغسل ميت وحمله، ولوقت كل صلاة، وقبل غسل الجنابة، وللجنب عند أكل، وشرب، ونوم، ووطء، ولغضب، وقرآن، وحديث، وروايته، ودراسة علم، وأذان، وإقامة، وخطبة، وزيارة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووقوف بعرفة، وللسعي بين الصفا والمروة، وأكل لحم جزور، وللخروج من خلاف العلماء إذا مس امرأة.

* * *

صفات العلماء الذين يعلِّمون الناس العلم الشريف :

وبعد هذه العجالة إلى بعض ما جاء في إحياء علوم الدين من صفات العلماء الذين يعلِّمون الناس العلم الشريف.

1 . أن يقتصر المعلم مع المتعلم على قدر فهمه :

الوظيفة السادسة: أن يقتصر المعلم مع المتعلم على قدر فهمه، فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفر، أو يخلِّط عليه عقله، أو يشوشه، اقتداءً في ذلك بسيد البشر عليه أتم الصلاة والسلام، ماذا قال؟

((نَحْنُ مَعَاشِرَ الأَنْبِيَاءِ أُمِرْنَا أَنِ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ، وَنُكَلِّمَهُمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ"، والله هذا الحديث جميل، فليبث إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَنْتَ مُحَدِّثٌ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ عَلَى بَعْضِهِمْ فِتْنَةً))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

عليك أنْ تنتقي من الأحاديث ما هو واضح، وأنا أنصح أن الخلافيات يجب ألا نبحث فيها، لماذا؟ هناك أشياء متفق عليها في الإسلام، لا يختلف عليها اثنان على وجه الأرض، وهذه ما أكثرها في كتاب الله، والقرآن كله متفق عليه، التفكر في الكون، وعظمة الله عز وجل، من خلال خلقه، الاستقامة على أمر الله، وتطبيق آيات القرآن، فهناك آلاف الموضوعات التي إذا حدثت الناس بها اجتمعت قلوبهم، وتوحدت كلمتهم، والتفُّوا حولك، من دون أن تبحث في خلافيات لا تقدم ولا تؤخر، لذلك النبي الكريم قال:

((مَا أَنْتَ مُحَدِّثٌ قَوْمًا حَدِيثًا لاَ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلاَّ كَانَ عَلَى بَعْضِهِمْ فِتْنَةً))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

وهذا حديث آخر لم يذكره الإمام الغزالي، قَالَ عَلِيٌّ:

((حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ))

[البخاري عن علي]

وقال علي رَضِي اللَّه عَنْه وأشار إلى صدره: "إن هاهنا لعلوماً جمَّة، لو وجدت لها حَمَلَةً"، مثلاً كأنْ تقول لفاسق: إنّ هذه المصيبة لرقي الإنسان، فأعظم الناس بلاء الأنبياء، هذا الكلام ليس صحيحًا لإنسان فاسق، يقول لنفسه: فأنا مبتلى، وأنا مثل الأنبياء إذًا، هذا الفاسق لا تقل له هذا الكلام، قل له: المصيبة عقاب من الله عز وجل، ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، ويعفو الله عن كثير، فإذا خاطبت فاسقًا فبادِره بهذا التوجيه، وإن دخلت على أخ مؤمن راقٍ تائب منيب تقي نقي، مريض فلا تقل له: ربما فعلت ما فعلت، وهذه عقوبة، بل قل لهذا الأخ المؤمن: هذا ابتلاء لرقي المؤمن.

((عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ،عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ مِنْ حَرِّ الْحُمَّى، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بَلاءً الأَنْبِيَاءَ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أحمد عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ حُذَيْفَةَ عَنْ عَمَّتِهِ فَاطِمَةَ]

ما أصاب عبد مصيبة إلا بإحدى خلتين، بذنب لم يكن الله ليغفر له إلا بتلك المصيبة، أو بدرجة لم يكن الله ليبلِغه إياها إلا بتلك المصيبة.

فمثلاً إذا قام شخصٌ يدعو عند عقد قران، فليدعُ بما يناسب عقد القران، وهناك أدعية تناسب عقد القران، كما أن هناك أدعية تناسب الزفاف، وللمناسبات الحزينة أدعية، والإنسان ينتقي الدعاء المناسب، والوقت المناسب، والرجل المناسب، كما قال سيدنا علي: "ما كل ما يعلم يقال، وما كل ما يقال له رجال، ولكنْ إذا وجد الرجال فقدْ آن الأوان"، ويجب أن تقول ما يمكن أن يقال، وفي الوقت الذي يقال فيه، وللرجل الذي يستوعب هذا القول، وهذه هي الحكمة، ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً.

وعن سيدنا عيسى أنه قال: "لا تعلق الجواهر في أعناق الخنازير"، والجواهر هنا تعني الحكمة، فإذا حدثت بها مَنْ ليس أهلاً لها فكأنك علَّقتَ الجواهر في أعناق الخنازير، قيل: كِلْ لكل عبد بمعيار عقله، وزِنْ له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع بك، وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار، وسئل بعض العلماء عن شيءٍ فلم يجب، فقال السائل: أما سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

((مَنْ كَتَمَ عِلْمًا مِمَّا يَنْفَعُ اللَّهُ بِهِ فِي أَمْرِ النَّاسِ أَمْرِ الدِّينِ أَلْجَمَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنَ النَّارِ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

فقال له العالم: اترك اللجام واذهب، يبدو أنه رآه ليس في مستوى هذا السؤال، فقد يفتنه إنْ أجابه، وقال تعالى:

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

[سورة النساء: 5]

استنبط بعضهم من هذه الآية أن العلم أثمن من المال، فإذا كان المال لا ينبغي أن نؤتيه السفهاء، فالعلم أثمن منه، فلا ينبغي أن تعلِّم السفهاء كلاماً ليس في مستواهم، يتخذونه حجة للحذلقة والاستعلاء على الناس وتغرير الناس وإيهامهم أنهم علماء وهم ليسوا كذلك.

2 . المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجَلِيَّ اللائقَ به :

الوظيفة السابعة للمعلم النصوح: أن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجَلِيَّ اللائقَ به، والأمور الواضحة، أما أنْ تعمد إلى كتاب الفتوحات مثلاً لعوام الناس، واللهِ يكفرون لأن به أشياء دقيقة، وبعيدة عن أفهام العامة، وقد لا تقبل لمخالفتها للكتاب، وقد تكون منسوبة إلى الشيخ محي الدين، فقبل أن تقرأ، وقبل أن تدرس محِّصْ، أما أن تقرأ ما في الكتب من دون تمحيص، من دون تقييم، ومن دون تقيد بكتاب الله، فهذا ليس من صفات العلماء في شيء، ليس كل شيء قرأناه ننقله للناس، فهناك أقوال وقصص تقلب الموازين كلها رأسا على عقب، قال العلماء: ولا تذكر لهذا المتعلم القاصر أن وراء هذا العلم الجليّ اللائق علماً دقيقاً لا أعلمك إياه، لأنك لست في مستواه، قال: عندئذ تفتر همة هذا المتعلم عن الجليّ، ويشوش عليه قلبه، ويوهم إليه البخل به عنه، إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق، فهذه المصيبة أن كل إنسان يعتقد أو يتوهم أنه أهل لكل علم دقيق، فإذا قلت للمبتدئ إن هذه معلومات ساذجة بسيطة، وعندي معلومات دقيقة لا أحدِّثك بها، إذا قلت له هذا زهد فيما تعلمه، وظن نفسه أهلاً لهذا الذي ضننت به عليه، فشوشت قلبه، وحيرت فؤاده، وأوقعته في الفتنة، وأنت لا تدري. إنّ التجار يعرفون هذه الحقيقة، إذ عند أحدهم مساطر متنوعة بالأسعار، فإذا ذهب إلى منطقة فقيرة مثلاً، لا تنفق فيها البضاعة الثمينة، وعرض ما هو ثمين، ثم عرض الوسط، ثم الأدنى، يتعلق أحدهم بالثمينة ولا يملك ثمنها، فلن يشتري إطلاقاً، تلك غالية ولا تباع في المنطقة الفقيرة، وهذه حينما عرضها مع هذه فقدت رونقها، فزهد بها، هذا شيء متبع، والتجار أذكياء، فلما يعرض التاجر الجيد والغالي لإنسان لا يستطيع أن يدفع ثمنه، ولا أن يتذوقه تعلق به، وزهد في الذي دونه ولم يشتر شيئاً، وهذه الظاهرة في التجارة تنطبق تماما على العلم.

فإذا قلت للمتعلم: عندي علم أعمق و أشمل، وأنت لستَ في مستواه الآن، زهد في الذي تعلِّمه إيّاه ممَّا هو مستواه، قال الغزالي: هذه ليست من صفات العلماء الحكماء، فما من أحد سبحان الله إلا وهو راض عن الله سبحانه وتعالى في كمال عقله، فلا أحدَ من بني البشر إلاّ ويظن أن عقله كامل، كل واحد يرى كمال عقله مئة بالمئة، و الناس كلهم راضون عن عقولهم، وساخطون على أرزاقهم، مع أن تفاوت العقول تفاوت كبير، كالذرة جنب أُحُد، ولكن الناس راضون عن عقولهم، فإذا قلت لهم: أنتم لستم في مستوى هذا الكلام، قالوا: بل أنت وعليك ذلك، قال: وأشد الناس حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله، قال: وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع، ورسخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه، ومن غير تأويل، وحسن مع ذلك إسلامه، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده، شخص له مصلحة، تفكيره محدود،

مستقيم، يصلي، يغض بصره، ماله حلال، فعليك أنْ تقبل منه هذا الوضع، وإن أردتَ أكثر فَتَنْتَه، ليس لديه إمكانية في أنْ يفهم أدق من ذلك، الصلاة فرض فهو يصلي، أما الصلاة فدرجات، والصلاة الوسطى، التفات إلى الله بين الصلاتين، والصلاة لها معوقات، ولها مثبطات، ولها هذه التعقيدات، فلا يفهم عليك، وعليك أنْ تخاطب كل إنسان على قدر عقله.

3 . أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذّب قولَهُ فعلُهُ :

آخر صفة من صفات العلماء العاملين، أن يكون المعلم عاملاً بعلمه، فلا يكذّب قولَهُ فعلُهُ – مفعول به مقدم – فلا يكذب قولَهُ فعلُهُ، لأنّ العلم يدرك بالبصائر، والعمل يدرك بالأبصار، وأرباب الأبصار أكثر من ستة آلاف مليون إنسان، ولكل إنسان عينان، ولا تجد بالمئة ألفٍ واحدًا عنده بصيرة، فأصحاب الأبصار أكثر من أصحاب البصائر، والناس يرون الظاهر، وأرباب الأبصار أكثر، فإذا خالف العملُ العلمَ مُنِع الرشاد، وكل من تناول شيئاً ما، مثلاً لو أنّ شخصًا أمسك الكأس وشرب منها، وقال للناس: لا تشربوا من هذا الماء فإنه سم مهلك، سخر الناس منه واتهموه، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه، فيقولون: لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما شرب منه، فإذا ارتكبتَ مخالفة، وحاولتَ أنْ تقنع الناس أنّ هذه مخالفة فلن يسمعوا إليك، ولو أنّ أحدًا منع الناس عن فتِّ البعر لفتوه، وقالوا: ما نهينا عنه إلا لشيء، فإذا فتَّه هو ظنَّ الناسُ أنّ هذا شيء ثمين، إذاً كل إنسان يخالف قولُه فعلَه يغري الناس بالمعصية، هم لا يزهدون به، بل إنه يغريهم بالمعصية، ومثل المعلم المرشد مع المسترشدين مثل النقش من الطين والظل من العود، فكيف يتنقش الطين بما لا نقش فيه؟ ومتى استوى الظل والعود أعوج؟ خُذْ الآن قضيبًا أعوج، واغرزه في الأرض، فهل ترى ظلَّه مستقيمًا؟ مستحيل، لا بد أن يكون ظله أعوج مثله، ومتى استوى الظل والعودُ أعوجُ؟ متى رأيت هذا؟ ولذلك قيل في هذا المعنى:

يا أيها الرجل المعلم غيره   هلاّ لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهَهَا عن غيّها   فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

***

وقال تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[سورة البقرة: 44]

ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكبر من وزر الجاهل، إذْ يزل بزلته خلقٌ كثير، ويقتدون به، فإذا كان للعالم غلطة، أو له معصية، أو مخالفة، أو انحراف طفيف، صار هذا الانحراف سُنَّة وديناً، وفلان لا يُناقش، هذه لا تجوز، إنّ أكثرَ مِن خمسين شيخًا أفتوا فتاوى خاطئة، هذا الجهاز كيف تحويه، أناس كثيرون عندهم مثله عمائم ولِحًى، فعندما يكون الإنسان ذا مظهر ديني، ويخالف الشرع، صارت مخالفته سنة، قدوة، وديناً، فهذا الذي يخالف الشرع يغري الناس بالمعصية، فلو أنّ واحدًا عصى الله عز وجل ومظهره عادي فالخطرُ محدود، لأنه لا يُتَّخَذ قدوة، بل يسمَّى عاصيًا، أما أنْ يكون للشخصِ مظهر ديني، وله مخالفة والعياذ بالله فهذا قدوة للناس إلى النار، لذلك ورد عن النبي الكريم في صحيح البخاري حديثٌ مخيفٌ، أنّ النبي الكريم وصف شخصًا من وجهاء الدنيا في العلم، رآه أهل النار بينهم فقالوا له:

((عَنْ أَبِي وَائِلٍ، قَالَ: قِيلَ لأُسَامَةَ لَوْ أَتَيْتَ فُلانًا فَكَلَّمْتَهُ قَالَ: إِنَّكُمْ لَتُرَوْنَ أَنِّي لا أُكَلِّمُهُ إلا أُسْمِعُكُمْ إِنِّي أُكَلِّمُهُ فِي السِّرِّ دُونَ أَنْ أَفْتَحَ بَابًا لا أَكُونُ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهُ، وَلا أَقُولُ لِرَجُلٍ أَنْ كَانَ عَلَيَّ أَمِيرًا إِنَّهُ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ شَيْءٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالُوا: وَمَا سَمِعْتَهُ يَقُولُ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ أَيْ فُلانُ مَا شَأْنُكَ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))

[البخاري عَنْ أَبِي وَائِلٍ]

لذلك قال بعض الشعراء:

عالم بعلمه لم يعملَنْ معذبٌ من قبل عُبَّاد الوثن

***

على الإنسان أن يكون عالماً عاملاً مخلصاً يقظاً :

النبي الكريم يقول: " تعلموا ما شئتم، فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم"، وقال:

((كل علم وبال على صاحبه إلا من عمل به))

[رواه الديلمي عن ابن عباس]

وقال: "كل الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم"، فيجب أن تكون عالماً، عاملاً، مخلصاً، يقظاً، فلو كنتَ تقود سيارة منذ خمسين سنة، فكل هذه السنوات وكل الخبرات لا تسمح لك أن تغمض عينيك وأنت تقودها لأنّك ستصاب بحادث، يجب أن تكون عالماً، عاملاً، مخلصاً، يقظاً، هذا كلام لبيب ناصح، فمن أجل ألاّ يضيع أحدٌ وقته سدى، ويبذل جهدًا بلا طائل، ويكون ممن حصّل العلم ولم ينتفع به، فيجب أنْ يكون جامعًا لكل تلك الأوصاف التي سبقت للعلماء، واللهِ لقد مرَّ معي حديث لا أزال أذكره: " أندم الناس يوم القيامة عالم دخل الناس بعلمه الجنة ودخل هو بعلمه النار"

أربعة أدعية أدعو بها، وكلما دعوتُ بها شعرتُ أنه على كل مسلم أنْ يدعو بها:

"اللهم إني أعوذ بك أن أتزين للناس بشيء يشينني عندك"، "اللهم إني أعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك ألتمس به أحدًا سواك"، "اللهم إني أعوذ بك أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني"، "اللهم إني أعوذ بك أن أكون عبرة لأحد من خلقك".

لا يتجنَّب الناس السوءَ فأعمل معصية، فيأخذوا منها عبرةً، ويعاقبني الله عليها، وأصير حديث سوء للناس، فيقال: فلان هكذا عمل، وجرى معه هذا، قال تعالى:

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ﴾

[سورة سبأ: 19]

هؤلاء القوم الذين كفروا بالله، ودمرهم الله عز وجل فجعلهم أحاديث تتلى.

* * *

أحاديث شريفة :

إليكم بعض الأحاديث الشريفة:

1 . ثلاث من نعيم الدنيا وإن كان لا نعيم لها :

((ثَلَاثٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ لاَ نَعِيمَ لَهَا....))

[كنز العمال عن أبي قرة]

وكل إنسان يوطِّن نفسه أنّه سيُسَرُّ بالدنيا يكون مخطِئًا، وطِّن نفسك على ألاّ تُسرّ فعندها ستجد السرور، هذا من الأقوال المتناقضة فيما يبدو، إن أسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها، إنّ الذين وصلوا بدنياهم إلى قممها، في المال والعز والجاه والقوة هم أشقى من فيها، وأولئك الذين أخذوا منها اليسير، وعرفوا الله عز وجل، وقنعوا بما آتاهم، هؤلاء أسعد الناس فيها، لِتَكُنْ هذه الكلمة دائمًا في قلبك، إن أسعد الناس في الدنيا أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها:

((ثَلَاثٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا وَإِنْ كَانَ لاَ نَعِيمَ لَهَا : مَرْكَبٌ وَطِيءٌ ، وَالْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ ، وَالْمَنْزِلُ الْوَاسِعُ))

[كنز العمال عن أبي قرة]

2 . ثلاث من كنوز البر :

((ثلاث من كنوز البر إخفاء الصدقة .....))

[ابن عساكر عن أنس]

إنْ فعلتَ خيرًا فلا تذكره لأحد إطلاقاً، هل يقول لك الشيطان: أنت منافق؟ لا يمكن، إذا قمت بالليل وصليت ركعتين، وأهلك لم يعلموا، وزوجتك ما دَرَتْ، والأولاد ما دروا، ونِمتَ وما ذكرتَ شيئًا مِن هذا، هل يقول الشيطان: لستَ مخلصًا؟ فكتمان الصلاة في الليل، وكتمان الصدقة، يثبت للإنسان أنه مخلص، ثلاث من كنوز البر إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وكتمان الشكوى، فإذا كان يقينُ الإنسان على مستوى رفيع، يعرف أنّ كل الأمور بيد الله عز وجل، والله يعلم، والشكوى للناس ما فائدتها؟ فالذي يشكو للناس تذهب هيبته، الناس لا يزيدون عن أحد رجلين، إما محب فيتألم وإما عدو فيشمت.

ويعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يـرحم

***

الآن إذا أصيب أحدٌ بمصيبة وأخفاها، فقد جعل سيدنا يعقوب قدوة له، قال تعالى:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة يوسف: 86]

تجد شخصًا يثور بسرعة ويضجر، فيأتي بعض الناس ليزوروه، فيعيد القصة إعادة مسهبة، وكل مرة يحسِّنها، حتى تصير قصة تروى، أنا أقول لمثل هؤلاء: اكتُبها على شكل نشرة، ثم اطبعها ووزِّعها على الناس، لكنّك تجد آخر مستسلمًا ساكتًا، يعلم أنَّ العباد كلهم لا شيء بيدهم، وأنَّ الأمر كله لله، لذلك لا يشكو إلا لله، وبعضهم قال: من اشتكى إلى مؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، فإذا شكوتَ إلى كافر همَّك أصابك منه الهمُّ، فيقول: أنا قلت لك منذ زمن أنّ هذا الطريق يعود عليك بالشرّ، فهل نفعك الدينُ؟ لقد كان ينتظر أنْ تصاب فيقول هذه الكلمات، ولعله يدفع عليها مئات الألوف، ويقول: ماذا نفعتك الاستقامة؟ أمَا قلت: إنّ المستقيم ينجيه الله؟ قلت لك: هذا كله خلط، فما صدقتني، فإذا بُحْتَ بشكواك لمؤمن فلا مانع، فإنّه يصبّرك، ويخفف عنك، ويذكرك بآيات القرآن الكريم، وبرحمة الله، وحكمته، وحلمه، والمؤمن الحقُّ لا يقصُّ لأحد إطلاقاً، مثل سيدنا يعقوب " إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون "، أما إذا قام أحدٌ بالليل وصلى قيام الليل، ثم دعا: يا رب ألَّمت بي هذه المصيبة فارفعها عني، فهَذِهِ أرقى أنواع الشكوى إلى الله وحده، والعوام يقولون: الشكوى إلى الله عزٌّ، والشكوى لغير الله مذلة.

إذاً:

((ثلاث من كنوز البر؛ إخفاء الصدقة، وكتمان المصيبة، وكتمان الشكوى))

[ابن عساكر عن أنس]

يقول الله تعالى:

((إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر لم يشكني إلى عواده ثم أبرأته أبدلته لحمًا خيرًا من لحمه ودمًا خيرًا من دمه وإن أرسلته أرسلته ولا ذنب له وإن توفيته توفيته إلى رحمتي))

[ابن عساكر عن أنس]

فَعَوِّد نفسك، قال: هذه حالها كحال السفن بالبحر، فإذا هاج البحر قليلاً تجد أنّ السفن الكبيرة مثل الجبل، والقوارب الصغيرة متأرجحة، هناك شخص يشبه السفينة الكبيرة، فالموج متلاطم، وهي شامخة كالجبل، وأمّا القوارب فأضعف الموج يكاد يقلبها، فلا تكن قاربًا خفيفاً، بل كن سفينة شامخة، ولا تشكُ مصيبتك لأحد، فإنَّ الله يعلم ويرى، والله عز وجل يقدر الليل والنهار، ويعلم إيمانك، ويرى ثقتك به سبحانه، فإذا أصابتك مصيبة، ولم تشكُها لأحد فهذا يؤكد علمك بالله، علمك برحمته، وبحكمته، وبقدرته، وبرأفته، وَاللَّهُ سبحانه وتعالى لا يخيِّب ظنَّك.

3 . ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ :

((ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ وَالْإِنْفَاقُ مِنْ الْإِقْتَارِ))

[البخاري عن عمَّار موقوفًا]

طبعاً إذا كان الشخص ميسور الحال وأنفق، فالإنفاقُ كلُّه مقبول، وهو واللهِ مشكور، لكن إذا كان دخلُ الإنسان محدودًا، وجاءه ضيف من بلد آخر، واعتنى به، وأكرمه، فهذا الإنفاق بالإقتار، وكذلك أنْ يكون له قريب محتاج للمساعدة من أجل عملية جراحية، وراتبُه محدود، فأعان قريبَه، وضغط المصروف، هذا الذي ينفق بالإقتار، لا يعلم كم له من الأجر إلا الله، فالإنفاق من الإقتار، وكذلك بذل السلام للعالم، فأنت مصدر طمأنينة للبشر، لا تُخِفْ أحدًا، بعض الأشخاص مخيفون، المرعبون في النار: "شر الناس من اتّقاه الناس مخافة شره". هذا شخص يخيفك، إذا قصصتَ عليه حادثةً وأخطأتَ خطأً، خشيتَ أنْ يفشيَ سرَّك، فهو مصدر قلق دائمًا، والنبي الكريم:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنا، ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيّ))

[أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

إذا دخَل شخصٌ غير مؤمن إلى بيتك فقد يحسدك على بيتك، وقد يسمعك كلماتٍ مؤلمةً، وإذا أطعمت واحدًا فقد يحسدك أيضًا على طعامك، إذًا:

((لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِناً، ولا يأكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيّ))

أكرِّر:

((ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ وَالْإِنْفَاقُ مِنْ الْإِقْتَارِ))

فلو فرضنا أنّ أحدًا بمحل تجاري، وأعطى أمرًا للصانع، ونفّذ الأمر، لكنه كسر شيئًا ما مثلاً، فإذا كان مؤمنًا، قال: واللهِ الحقُّ عليَّ، أنا السبب في كسره، والخطأ منِّي لا مِن الصانع، أمّا إذا كان غير مؤمن فيمطِره بوابل من السباب، فلما ينصِف الإنسانُ الناسَ من نفسه فهذا عدل و إحسان، وهذا السلوك المغلوط يقع فيه الأباء مع أبنائهم، والأزواج مع زوجاتهم، فلا يكون منصفًا، بدعوى أنه أبٌ له مكانة، وزوج يجب أنْ يُطاع ولو أخطأ، فعلامة المؤمن أنه ينصف الناس من نفسه، ما دمتَ مخطئًا فاسكت:

((ثَلَاثٌ مَنْ جَمَعَهُنَّ فَقَدْ جَمَعَ الْإِيمَانَ الْإِنْصَافُ مِنْ نَفْسِكَ وَبَذْلُ السَّلَامِ لِلْعَالَمِ وَالْإِنْفَاقُ مِنْ الْإِقْتَارِ))

4 . ثلاث من الفواقر :

آخر حديث:

((ثلاث من الفواقر إمام إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر.....))

[الطبراني وابن عساكر عن فضالة بن عبيد]

إذا غلطتَ غلطة ليس لها حل، ولا مغفرة، وإن أحسنت وأحسنت وأحسنت يتعامى عن إحسانك، وكأنك لم تحسن، فهذه قبيحة، فإذا كان لرجل صانع، أو عنده موظف، عيَّنوه مدير مدرسة، أو عيَّنوه معلمًا لصف، وجاء طالب في الوقت، وهو منظم ومجتهد، فأثنِ عليه، وأسمعه كلمة لطيفة، أو موظف ليس له أيَّة مشكلة، فابتسمْ بوجهه، وقل له: أسأل الله أن يعطيك العافية، واللهِ أنا مسرور منك، أنت موطنُ اعتزازٍ عندي، وأنا أثق بإخلاصك، وأضربك مثلاً للآخرين، واللهِ يبقى أسبوعًا متأثِّرًا بهذه الكلمة الطيبة، أمَّا إذا أحسن أحدُهم وتجاهلتَ إحسانَه فقد حطَّمتَه، لكنْ إذا أحسن فأثنِ على إحسانه، لكنَّ النبي الكريم يقول:

((......إمام إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، وجار إن رأى خيرًا دفنه وإن رأى شرًّا أشاعه....))

قد يمضى على جوارك له ثماني سنوات، ولم تسمع منه كلمة شرٍّ أبداً، وذات مرة أخطأت خطأً، فإذا به يفتح عليك السياقات:

((.....إن رأى خيرًا دفنه وإن رأى شرًّا أشاعه، وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت خانتك))

إذاً:

((ثلاث من الفواقر إمام إن أحسنت لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، وجار إن رأى خيرًا دفنه وإن رأى شرًّا أشاعه، وامرأة إن حضرت آذتك وإن غبت خانتك))

[الطبراني وابن عساكر عن فضالة بن عبيد]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 3 : نواقض الوضوء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

نواقض الوضوء :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع الفقه إلى نواقض الوضوء، ونواقض الوضوء لا نحتاج إلى أن نقف عندها كثيراً، بل نكتفي بأن نقرأها، ونشرح بعضها.

أولاً: خروج شيء من أحد السبيلين.

ثانياً: ينقض الوضوء ولادة من غير رؤية دم.

ثالثاً: نجاسة سائلة من غيرهما، أيْ من غير السبيلين، والنجاسة السائلة دم أو قيح.

رابعاً: قيء طعام ملء الفم، فالقيء إذا ملأ الفم ينقض الوضوء.

خامساً: دم غلب على الريق أو ساواه، فإذا خرج من الفم دمٌ غلبَ على الريق فهذا ينقض الوضوء.

سادساً: النوم، وليس النوم ذاته ينقض الوضوء، ولكن النوم يضعف سيطرة الإنسان على أعضائه، فالنوم ينقض الوضوء لغيره لا لذاته.

سابعاً: إغماء، وجنون، وسكر، وقهقهة بالغ يقظان في صلاة ذات ركوع وسجود، والعلماء قالوا: القهقهة وحدها لا تنقض الوضوء، ولكن الإنسان يتوضأ إذا تقهقه في الصلاة تأديباً له على استخفافه بهذه العبادة العظيمة.

عشرة أشياء لا تنقض الوضوء :

1 . ظهور دم لم يسل عن محله :

ظهور دم لم يسل عن محله، فلو فَرَضْنا إنسانًا ثقبت يده بدبوس صغير، فخرجت نقطة دم لم تسل من محلها فهذا الدم لا ينقض الوضوء.

2 . سقوط لحم من غير سيلان دم :

سقوط لحم من غير سيلان دم، فقد يكون هناك بثورٌ في الجلد، فإذا نزعت هذه البثور لم ينتقض الوضوء.

3 . مسُّ الرجل امرأته :

من مس امرأة، على المذهب الحنفي امرأة أي زوجته، فإذا مس امرأة أجنبية فإن وضوءه ينتقض، فمسُّ الرجل امرأته لا ينقض الوضوء في المذهب الحنفي، والإمام الشافعي يقول: مس امرأة ينقض الوضوء، والتوفيق بينهما، أن الإنسان إذا مس يد امرأته وشعر بشيء فعليه أن يتوضأ، وإذا لم يشعر بشيء فلا عليه إذا لم يتوضأ. إذاً: التقليد في المذاهب وارد، والتلفيق مرفوض، التلفيق تصَيُّد الرخص في المذاهب، والتقليد أن تقلِّد المذهب في العلّة التي شرع هذا الحكم من أجلها، لذلك بعض العلماء قال: اختلاف الأئمة ليس اختلاف حجة وبرهان، إنما اختلاف بيئة وزمان، فلو أن الإمام أبا حنيفة رَضِي اللَّه عَنْه وُجِد في زمان الشافعي وفي بيئته لانطبقت أحكامُه على أحكام الإمام الشافعي، فاختلاف الأئمة ليس اختلاف حجة وبرهان إنما اختلاف بيئة وزمان. شيء آخر: اختلاف العلماء الفقهاء اختلاف رحمة، فاتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة، و الاختلاف اختلاف غنى.

جاءني رجل قبل الدرس يستفتيني في موضوع، والإمام مالك قال: أحقًّا لو أن الإنسان أقسم بالطلاق ثلاث طلقات في مجلس واحد لا تنعقد إلا طلقة واحدة؟ نعم، لأن الثانية والثالثة تأكيد للأولى، فوقع طلقة واحدة، فاختلاف المذاهب رحمة واسعة، جاء عالم آخر قال: إن لم تكن الزوجة طرفاً في الموضوع، وكان زوجها يكره فراقها كما يكره مفارقةَ دينه، فإن هذه اليمين لا تنعقد، لا ينوي الطلاق، ولا يقصد الطلاق إطلاقاً، أراد أن يردعها، فإنّ هذا الطلاق هو المعلق، فهناك طلاق منجز، وطلاق معلق، وعلى كلٍّ اختلاف الأئمة رحمة

واسعة.

4 . تمايل نائم :

تمايل نائم، يسمع ما يقال، فما دام الذي يغمض عينه ويسمع ما يقال فوضوءه لم ينتقض، طبعاً هناك حكم: " ونومُ مصلٍّ، المصلي ينام؟ فلو فرضنا إنسانًا متعبًا تعبًا شديدًا،، وغفل ثواني وهو في القعود فلا ينتقض وضوءه ما دام مصلياً.

وسوف نتابع هذه الموضوعات في درس قادم إن شاء الله تعالى.

* * *

علامات العلماء المخلصين :

1 . أن يقصد بعلمه اللهَ والدارَ الآخرة وألاَّ يقصد العالِمُ الحقُّ بعلمه الدنيا :

سنقوم فيما يلي بمتابعة فصول مختارة من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رَضِي اللَّه عَنْه، ولهذا الإمام كلمة في العلم يقول: "العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك، فإذا أعطيته بعضك لم يُعْطِك شيئاً".

تحدثنا في الدرس الماضي عن آفات العلم، وقد بيَّن الإمام الغزالي أن للعلماء المخلصين؛ وهم علماء الآخرة علامات، فمن هذه العلامات ألاّ يطلب العالم الدنيا بعلمه، فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكدورتها، وخطورتها، وانصرامها، أيْ زوالها، وأن يدرك عظم الآخرة ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، والموضوع دقيق، وهذه آيات تقول:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾

[سورة الرحمن: 46]

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

[سورة البقرة: 201]

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة النحل: 97]

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[سورة الجاثية: 21]

﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ ﴾

[سورة السجدة: 18]

﴿ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

[سورة القصص: 61]

من كل هذه الآيات والأحاديث يتضح أن المؤمن سعيد في الدنيا.

من طلب الدنيا لذاتها فقد أضرّ بآخرته :

إذاً كيف يفسر قول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى))

[أحمد عَن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ]

هذا الحديث قد يحمل على محمل آخر، هناك في اللغة العربية أسلوبُ استفهامٍ ليس فيه أداة استفهام، وسيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه فيما يروي التاريخ حينما رأى امرأة جائعة مع أطفالها، ذهب إلى بيت مال المسلمين، وقال لخادمه: احمِل على ظهري كيساً، فقال: أحمله عليك أم عنك؟ فقال له: احمله علي، أنت تحمل وزري يوم القيامة؟ كلمة "أنت تحمل وزري يوم القيامة "، هذا كلام بحسب الظاهر تقريبي، لكن صياغة هذا الكلام والسياق العام يؤكد أنه استفهامي، وكذلك سيدنا موسى حينما التقى بفرعون:

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾

[سورة الشعراء: 20]

لا يمكن أن يستقيم السياق على أن تفهم الجملة فهماً تقريرياً، وهل يُعقل أن يكون النبي ضالاً؟

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾

[سورة الشعراء: 20]

يجب أن نفهم هذه الآية فهماً على صيغة الاستفهام، بعض العلماء قالوا: من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنياه؟ لا:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾

[سورة الرحمن: 46]

لكن من طلب الدنيا لذاتها ربما كان هذا ضرراً لآخرته، فعلى هذا المحمل نحمل هذا القول الطويل، يقول الإمام الغزالي: لو يعلم أنهما كالضرتين، مهما أرضيتَ إحداهما أسخطتَ الأخرى، وأنهما ككفتي ميزان، مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وكأنهما كالمشرق والمغرب، مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ، فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلئ يفرغ الآخر، فإنه من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج لذتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منها، فهو فاسد العقل.

من آثر شهوته على محبة الله حرمه الله لذة مناجاته :

في أثناء أدائنا العمرة، لي قريب قال لي: انظر إلى هذا البناء، بناء يناهز ثلاثين أو أربعين طابقًا، ما وقعت عيني على بناء أجمل منه، قال: هذا البناء توفي صاحبُه قبل افتتاحه بأسبوع، وقيل: هذا البناء كلف صاحبه عشرات الملايين، وتوفي عن عمر لا يزيد عن سبع وأربعين سنة، وكان طويل القامة، وضع في قبر صغير فلم يتسع القبر له، فضغطوه ضغطاً حتى جاء رأسه ملتويًا مع رقبته، والبيت الذي كان يسكنه يزيد ثمنه عن عشرات الملايين، وهكذا حكمة الله عز وجل، أن ينزل في قبر يضيق عنه طولاً، فالإنسان حينما يتيقن من زوال الدنيا يلتفت إلى الآخرة، فإذا طمع فيها فقد أهلكته وهلك.

من أقوال السلف الصالح: "إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي "، وأحد العلماء الكبار توفي فشاهده بعض تلامذته في المنام، فقال له: يا سيدي ما فعل الله بك؟ يبدو أن هذا العالم له شأن كبير، ومؤلفات خطيرة، وكتب، وآراء، وإنتاج علمي، وسمعة، وصيت، وهو نجم متألق، فقال له: يا بني طاحت تلك العبارات، وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل. فليحذر المرءُ أنْ يصيبه غرور ويقع في غشاشة نفسه، إذا كان لك صلة بالله حقيقية مبنية على استقامة تامة، وعلى عمل صالح فهنيئاً لك، وما سوى ذلك فقد يملأ الإنسان الآفاق بسمعته، وعند الله لا يساوي جناح بعوضة، طاحت وذهبت تلك الإشارات، ولم يبق إلا ركيعات ركعناها في جوف الليل، قِفْ في الصلاة، وانظُرْ إلى قلبك،

هل لك صلة بالله عز وجل؟ أَلك التفاف نحوه؟ وهل تدمع هذه العين لآية تقرؤها؟ هل لك عمل خالص لوجه الله لا تبتغي به أحداً إلا رضا الله عز وجل؟ إن كنت تخشى على نفسك بعض الشرك الخفي فاكتم عملك؟ إذا استيقظت قبل صلاة الفجر، وصليت قيام الليل، ولم تحدث بهذه الصلاة أحداً، هذا مما يؤكد لك بأنك مخلص، فإن فعلت عملاً ولم تحدث به أحداً، فهذا مما يؤكد لك بأنك مخلص، فالإخلاص له طريق، عبادة في جوف الليل والناس نيام، وعمل صالح لا يبغي به أحدًا من الناس، وهذا يؤكد إخلاصك لله عز وجل، وكلما تعاظم شعورك بإخلاصك كلما ازداد إقبالك على الله عز وجل، وما أقبل عبدٌ بقلبه على الله عز وجل إلا جعل قلوبَ المؤمنين تنساق إليه بالمودة والرحمة، وكان اللهُ له بكل خير أسرع.

الابتعاد عن الشرك الخفي :

الإنسان خلاصتُه علاقتُه مع الله عز وجل، وَحّدْ، وإياك أن تشرك، فإنَّ الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، وأدناه أن تحب على جور، وأن تبغض على عدل، فإذا نصحك شخصٌ نصيحة، وهو محق فيها فقلتَ له: أنت مخطئ، وغضبت، فقد أشركتَ نفسك مع الله، أو أنّ شخصًا له انحراف وأحببته على انحرافه، فهذا شرك، فإذا أحببت إنساناً مع انحراف فهذا أحد أنواع الشرك الخفي.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ فَقَالَ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ، قَالَ: قُلْنَا بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّهُ بَكَى فَقِيلَ لَهُ مَا يُبْكِيكَ قَالَ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُهُ فَذَكَرْتُهُ فَأَبْكَانِي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْكَ وَالشَّهْوَةَ الْخَفِيَّةَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتُشْرِكُ أُمَّتُكَ مِنْ بَعْدِكَ قَالَ نَعَمْ أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا حَجَرًا وَلَا وَثَنًا وَلَكِنْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَالشَّهْوَةُ الْخَفِيَّةُ أَنْ يُصْبِحَ أَحَدُهُمْ صَائِمًا فَتَعْرِضُ لَهُ شَهْوَةٌ مِنْ شَهَوَاتِهِ فَيَتْرُكُ صَوْمَهُ))

[أحمد عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

فهذه انتهى وقتها، هذه لن تعود إلى قيام الساعة، ولكن شهوة خفية، وأعمال لغير الله، فإذا الإنسان آتاه اللهُ عز وجل رقابة صارمة على نفسه، فقد يلاحظ أحيانًا أنّ له أعمالاً يبتغي فيها غير وجه الله، بل يريد وجه الناس، ويُلاحِظ أنّهم لم يشيروا إلى عمله الصالح فينزعج فمثَلُه كمثلِ طبيبٍ عمِل عمليةً جراحيةً، وبذلَ فيها وقتًا كبيرًا،

وضحّى، وما تقاضى شيئًا، فإذا لم يُكتب عنه في الصحيفة تألَّم، يقول: يكتبون ولو كلمة عني، وعن مهارتي في العملية، فحينما يراقب الإنسان نفسه مراقبة صارمة يجد نفسَه أنّ له أعمالاً كثيرة ظاهرُها حسن، وتنطوي على شرك بالله عز وجل، والله سبحانه وتعالى يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، لذلك:

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾

[سورة يوسف: 106]

قد تقيم وليمة لا تبتغي بها وجه الله، هناك أدعية كنت أقولها لكم دائماً: "اللهم إنا نعوذ بك أن نقول قولاً في رضاك نلتمس أحداً سواك"، "اللهم إنا نعوذ بك أن نتزين للناس بشيء يشيننا عندك"، "اللهم إنا نعوذ بك أن يكون أحد أنفع بما علمتنا منا"، "اللهم إنا نعوذ بك أن نكون عبرةِ لأحد من خلقك"، فلا نكون نحن قصة، يتعلمُ الناس فينا، "إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي أنْ أحرمه لذيذ مناجاتي".

وتروي كتب الأثر أن مؤمنًا ارتكب مخالفة فخجلت نفسه وأحجمت، وعاش في جفوة طويلة، وهو ينتظر أن يعاقبه الله عز وجل.

((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حُزْنٍ وَلا أَذًى وَلا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

حال الجفاء مع الله عز وجل حال صعب :

وبعدُ فكلُّ واحد منا حسب ما سمعتم أنه:

((ما من عثرةً، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عودٍ، إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله أكثر))

[أخرجه ابن عساكر عن البراء]

صار عنده قناعة أنّ كل شيء يصيبه بسبب تقصير، أو ذنب، أو مخالفة، فهذا وقع في مخالفة فانتظر الجواب، كطالب اقترف ذنبًا ومرَّ بالأستاذ في مكان ضيق فحاول أنْ يتوارى، كمَن يتوقع أنه سيأكل صفعةً على قفاه، وأحسَّ لها فتجمع، فهذا المؤمن ارتكب مخالفة وينتظر من الله العقوبة، فلم يحصل معه شيء، مرَّ يومٌ، وثانٍ، وثالث، ولم يحصل له شيء، وما أحد حاسبه أو أساء له، ولا أحد أهانه، وما فقد شيئًا، تعجب وهو ينتظر العقوبة من الله عز وجل، ويظهر أنه في ساعة صفاء قام وناجى ربَّه، قال: يا ربي لقد عصيتك ولم تعاقبني؟ فقال:

عبدي قد عاقبتك ولم تدرِ، ألم أحرمك لذة مناجاتي؟ ألا تكفيك هذه؟ تريد أخطر؟ يكفيك هذا، فهذه الجفوة لأسبوعين أو ثلاثة، وصلاةٌ شكلية، وعباداتٌ شكلية، وقد شعر بضيق، وانقباض نفسٍ، وضاقت عليه الأرض على رحابتها، إنّها عقوبة صارمة.

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

[سورة التوبة: 118]

هذا حال يكفي، حال الجفاء صعب، لذلك بعض قال الشعراء:

فما حبنا سهل و كل من ادَّعى سهولته قلنا له قد جـهلتنا

فأيسر ما في الحب بالصب قتله و أصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

وقال أحدهم: لو قال محبوبه:

لَو قالَ تِيهاً: قِف عَلَى جَمْرِ الغَض ىَا لوقفتُ مُمْتثلاً ولَـمْ أَتَوقَّفِ

أو كان من يرضى بخدي موطئاً لوضعته أرضاً ولم أستنكف

***

جمر الغضا أشد أنواع الجمر، وقال آخر:

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدل و إن عدلوا

والله إن فتتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راضٍ بما فعلوا

***

بطولة الإنسان أن يحب الله وهو في وضع صعب :

لا تنظر إلى نفسك حالَ الرخاء، ففي الرخاء كلنا نحب الله عز وجل، والبطولة إذَا لاح شبحُ مصيبة، أو ضائقة، أو مشكلة، أو أصاب شيءٌ الجسد، أو أصاب الدخل، أو الأسرة، أو نقص في الثمرات، في الطعام، في مِثل هذه الظروف إذا قلت: الحمد لله رب العالمين، فأنت مؤمن وربِّ الكعبة، لأنّ الإمام علي كرم الله وجهه قال: "الرضا

بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين "، فالبطولة أن تحب الله وأنت في وضع صعب، النبي الكريم علمنا:

((عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[مسلم عَنْ صُهَيْبٍ]

أما محبُّ الدنيا فيتكبر في الرخاء، ويصرخ في الشدة، فذو دعاء عريض، في الرخاء يشعر أنّ الأرض لا تسعه، فالمتكبر أحمق، وجاهل، وفي الشدة تجده يئوسًا، قنوطًا.

﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا *قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾

[سورة الإسراء: 83 . 84]

من كان قلبه عامرًا بذكر الله فلن يخاف أحداً :

يا ذا العزة والجبروت، يا ذا الملك والملكوت، يا من حفظت موسى بالتابوت، صندوق في النهر، ونجيت يونسَ من بطن الحوت، وحفظت الحبيب محمداً بنسيج العنكبوت، والله كلمة لو أقرؤها مئة مرة لا أشبع منها: "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟" فإذا كنت معه مستقيمًا، وإذا كان قلبك عامرًا بذكر الله، فينبغي ألاّ تخاف مِن أيِّ جهة في الأرض، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

[سورة المائدة: 12]

هذه المعية ليست مطلقة، بل مشروطة " إني معكم " كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي بما أريد ولا تقل ما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتُك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، فإذا كان الإنسان يتعامل مع هذه المعاني، يجد علاقته كلها مع الله عز وجل.

في الحياة أشياء متعاكسة و أشدُّ شيءٍ راحةً أنْ ترضي الله وحده :

في الأرض مليون جهة، تريد أنْ ترضي زوجتك فتغضب أمُّك، أو بالعكس، ترضي الوالدة فتغضب الزوجة، ترضي هذا الابن فيسخط الثاني، وإذا زرت هذه البنت سخِطتْ الثانية، إنْ أرضيتَ في الوظيفة مَن هُم أعلى منك أسخطتَ الله عز وجل، إنْ بَعتَ بسعر معقول فلا تربح، وإنْ أردتَ أنْ تربح أغضبتَ الله عز وجل، ففي الحياة أشياء متعاكسة تماماً، وأشدُّ شيءٍ راحةً وأسهله أنْ ترضي الله وحده:

((اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي والديلمي عن أنس]

وفي قول آخر:

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها))

[الجامع لأحكام القرآن]

وهناك قول ثالث:

((ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

وأوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمك فاخدميه، ومن خذلك فلا تخذليه، إنّ أدنى ما أصنع بالعالِم إذا آثر شهوته على محبتي أنْ أحرمه لذيذ مناجاتي، " يا داود لا تسأل عني عالمًا قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي– يقول مثلاً: ماذا جدَّ معك؟ اشتريتَ بيتاً أم تزوجتَ؟ كم دخلك؟ ماذا فعلت؟ أذهبت إلى المحل الفلاني؟ هل سافرت أم خرجتَ إلى نزهة؟ يدعوك إلى الدنيا– فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي، فإذا قابلتَ محبًّاً للدنيا فهذا من قُطَّاع الطريق على عبادي، يا داود إذا رأيت لي طالباً فكن له خادماً، يا داود من رد إليَّ هارباً أكسبته جهبذا"، شخص شارد ضائع، يعصي الله ثم جئتَ فأكرمته، وأقنعته، ودللته، وخدمته، وجئت به إلى الدرس، وتحمَّلته وأعنتَه، وذاكرت معه الدرس حتى صارَ مستقيمًا استقامة تامة، بهذا قد آويتَ لله هاربًا، فما قولك إذا كان عند شخصٍ ابنٌ غالٍ، وضاع هذا الابن، فوجده شخص يعرف أباه، فأكرمه، وأطعمه، وألبسه، وردّه إلى أبيه، سيقول له الأب: أنت فعلتَ معي معروفًا لا أنساه حتى الموت، وكثيرًا ما كنت أضرب مثالاً، لو فرضنا ضابطًا في الجيش، برتبة عالية، لواء مثلاً، وعنده مجنَّد، وهذا المجند رأى ابن هذا الضابط الكبير يغرق في النهر، فألقى بنفسه في النهر، وكان على وشك الموت فأنقذه، وأكرمه، وردَّه إلى أبيه، ألا يستطيع هذا المجند

أن يتجاوز التسلسل ويدخل على هذا الضابط الكبير في كل لحظة يشاؤها؟ هذه هي الخلاصة كلها.

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾

[سورة الكهف:110]

باب الله مفتوح على مصراعيه و ثمنه العمل الصالح :

إذا أردتَ مثلاً أنْ تدخل إلى موظَّف، مدير تربية، مدير معمل، إلخ ... فلا بد من انتظار، ومع الانتظار أسئلة، ما اسمك؟ وما الموضوع؟ تعالَ غدًا، فالمقابلة ليست سهلة، أمّا ربنا عز وجل فيقول:

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ﴾

[سورة الكهف: 110]

اعمل بهذه الوصفة، فباب الله مفتوح على مصراعيه، والدخول بثمن، وثمنه العمل الصالح، وأبواب الأعمال الصالحة:

((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم– العمل يحتاج مالاً– فسعوهم بأخلاقكم))

[أخرجه أبو يعلى عن أبي هريرة]

الكلمة الطيبة عمل صالح، وأن تتبسم في وجه أخيك، وأن تلقاه بوجه طيب، و أنْ تردَّ الضال إلى أرضه عمل صالح، وأن ترشد الغريب عمل صالح، وأن تميط الأذى عن الطريق عمل صالح، وأن تفرغ من دلوك في إناء المستقي عمل صالح، وأن تعود مريضاً عمل صالح، وأن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، وأن تعلم الناس آية من كتاب الله، فأبواب الأعمال الصالح مفتوحة على مصاريعها، وهي ثمن اللقاء مع الله عز وجل.

موت القلب طلبُ الدنيا بعمل الآخرة :

قال: فلان ذو قلب ميّت، أي أنّ موت القلب طلبُ الدنيا بعمل الآخرة.

وقال يحيى بن معاذ: "إنما يذهب بهاءُ العلم والحكمة إذا طلب بهما الدنيا "، العلم والحكمة لهما بهاء، وهذا البهاء يذهب إذا طلب بهما الدنيا، وقال عمر رَضِي اللَّه عَنْه: "إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم، فإن كل محب يخوض فيما أحب "، وقال رجل إلى أخ له: "إنك قد أوتيت علماً، فلا تطفئن نور علمك بظلمة الذنوب،

فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم في نور علمهم "، ويحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا: "يا أصحاب العلم! قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآتمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟".

قيل لبعض العارفين: "أترى أنّ من تكون المعاصي قرة عينه لا يعرف الله عز وجل"؟ إطلاقاً، قد يجلس في سهرة وفيها معصية، فيها سرور بزعمه، وفيها اختلاط، يخوض في بحر الغيبة والنميمة، والغمز واللمز، ثم قام مرتاحًا، ونام بكل راحة، واستيقظ صباحًا مسروراً، وقال: واللهِ البارحة سهرنا سهرة لا أنساها، فما دام مرتاح النفس بالمعصية فهو لا يعرف الله تعالى أبداً، هذا لو كان يعرف الله قليلاً لنام متألمًا على هذه المعصية، لكنّه ما دام لا يتألم فليس به إحساس كالمؤمنين.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾

[سورة الأنعام: 44]

الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، فقال هذا العارف بالله: "لا أشك أن من تكون الدنيا عنده آثر من الآخرة فإنه لا يعرف الله تعالى"، وقال بعضهم ": لا تظنن أن ترك المال يكفي في اللحوق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال " ففي الحياة شهوات غير المال، الوجاهات شهوات أيضًا يحرص الناس عليها، وعندما تموت من قلبِ الإنسان كلُّ الشهوات المنحرفة، وكل أنواع الشرك، عندئذٍ يتقبَّله الله عز وجل.

الله سبحانه وتعالى لا يجمع على عبده أَمْنَيْنِ وخَوفَيْنِ :

كان بِشرٌ يقول: "أنا أشتهي أن أحدِّث، لذلك لا أحدِّث أحداً، ولو ذهبت عني شهوةُ الحديث لحدَّثتُ "، هذا هو الإخلاص، وما دمتُ أشتهي أن أحدِّث فلن أحدث أبداً، فإذا ذهبت عني شهوةُ الحديث حدَّثتُ، وقال هو وغيره:" إذا اشتهيت أن تحدث فاسكت، فإذا لم تشتهِ فحدِّثْ ".

قال سهل رحمه الله: " العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به "، العلم دنيا، هذا معه مال، هذا أثاث بيته فخم، وهذا متعلِّم علمًا، يتيه به على الناس كالطاووس، فالعلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص.

وقال بعضهم: "الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء سكارى بعلمهم إلا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وَجَل حتى يدري ماذا يختم له به ".

يقول النبي عليه الصلاة والسلام: "ولا أدري ما يفعل بي"، أي هو صلى الله عليه و سلم في وجل، وكل إنسان لا يخاف، ولا يكون قلقاً، بل هو مطمئن بالدنيا، فهذا في غفلة و ضياع، فالله سبحانه وتعالى لا يجمع على عبده أَمْنَيْنِ وخَوفَيْنِ، فإنْ أمنه في الدنيا خافه يوم القيامة، وإن خافه في الدنيا أمنه يوم القيامة، ومن علامات الإنسان المخلص أنه قلق، يخاف ألاّ يكون مخلصاً، ويخاف ألا يكون موحِّداً، يخاف أن يكون عمله مشوباً بنية لا ترضي الله، وما دام في قلق، بخ بخ فذلك محض الإيمان:

((مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَعْنِي رِيحَهَا))

[أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

لي قريب توفي منذ زمنٍ، فذهبنا لإجراء المعاملة، آلمني كثيرًا أنّ على أبوابِ مكتبِ دفنِ الموتى قراء كثيرون، وكلهم يرجو ويتوسل أنْ تكلِّفه بقراءة القرآن في المساء، ويقول لك: لباس موحد، وأصوات عذبة، يحاول أنْ يغريك، سبحان الله، كتاب الله ينزل إلى هذا المستوى عند هؤلاء؟ فَلْيَبْحَثْ الإنسأن عن أيّ عملٍ آخر، فهذا كتاب الله، إنه شيء مقدس، وإنْ كان العلماء أجازوا أن يأخذ الإنسان أجراً على كتاب الله، لأنه كالمعلِّم قد تفرَّغ للتعليم، وهو يعلم الأطفال كتابَ الله، فمِن أين يأكل إنْ لم يتقاضَ أجرًا؟ لذلك أجاز العلماء له أخذ الأجرة على ذلك، لكن أن يرجوَ أحدُهم، ويلحّ، ويطالب، ويتحدث عن ميزاته، ويحسد أخاه الذي كانت هذه المسائية من حصته ونصيبه، ويتهمه بأشياء كثيرة، هذا شيء مؤلم، فكتاب الله ينبغي أن يكون في الأوج.

وهذا خبر آخر: إن العبد ليُنشَر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب، وهو لا يزن عند الله جناح بعوضة، فهذه الأحاديث والأقوال يجب أن تُؤخذ مأخذ الجَدِّ، فعلى الإنسان أنْ يراقب نفسه، ويراقب قلبه، ويتوخى الإخلاص، أخلص دينك يكفِك القليلُ من العمل، درهم أُنفِق في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهم أُنفِق في رياء، هذه الصفة الأولى، أنْ يقصد بعلمه اللهَ والدارَ الآخرة، وألاَّ يقصد العالِمُ الحقُّ بعلمه الدنيا.

2 . ألاّ يخالف فعلُه قولَه :

الصفة الثانية ومنها ألاّ يخالف فعلُه قولَه، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أولَ عاملٍ به، قال تعالى:

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[سورة البقرة: 44]

﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

[سورة الصف: 3]

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

[سورة هود: 88]

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 282]

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[سورة البقرة: 233]

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

[سورة المائدة: 108]

وفي بعض الأقوال: يا بن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحيِ مني:

((مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي عَلَى قَوْمٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِيضَ مِنْ نَارٍ، قَالَ: قُلْتُ مَنْ هَؤُلاءِ، قَالُوا: خُطَبَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا كَانُوا يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا يَعْقِلُونَ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

أشدّ الناس حسرةٍ يوم القيامة من علَّم الناسَ علماً فعمِلوا به ولم يعمل هو به :

هلاك أمتي عالِم فاجر، وعابد جاهل، وشر الشرار شرار العلماء، وخير الخيار خيار العلماء "، أي أنّ العلماء الورعين في القمة، والعلماء غير العاملين بعلمهم في الحضيض، ليس ثمَّةَ حلٌّ وسطٌ، إما في القمة، أو في الحضيض، وقد قال الإمام الأوزاعي رحمه الله: "شكت النواويس – بعض أنواع الطيور – ما تجد من نتَن جِيَفِ الكفار، فأوحى الله إليها أنّ بطون علماء السوء أَنْتَنُ من هؤلاء، ويُروَى أن حجرًا ضجَّ إلى السماء، وقال: يا رب عبَدتُك خمسين عاماً تضعني في مرحاض؟ فقال له: تأدَّبْ، إذْ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم"، فَلأَنْ يكون

الحجرُ في مرحاض أشرفَ له ألف مرة من أن يكون في مجلس قاضٍ ظالمٍ.

يقول أبو الدرداء رَضِي اللَّه عَنْه: "ويلٌ لِمَنْ لا يعلم مرة، وويلٌ لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات "، لمن لا يعلم مرة، لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات، وقال الشعبي: "يَطَّلع يومَ القيامة قومٌ مِن أهل الجنة على قوم من أهل النار، فيقولون لهم: ما أدخلكم النار ونحن إنما أدخلنا اللهُ الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم إيانا؟– نحن بالجنة والفضل لكم، أنتم علمتمونا، أنتم وجهتمونا، أنتم هذّبتمونا، وأمرتمونا بالصلاة فصلينا، وأمرتمونا بغض البصر فغضضنا بصرنا، نحن الآن في الجنة، لماذا أنتم في النار؟ – فقالوا: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله، وننهى عن الشر ونفعله"، صار عملهم وظيفة، ولقد بلغني عن بعض المطوّعين أنّهم يضربون الناسَ لتخلُّفهم عن الصلاة وهم لا يصلون، وأبعدُ الناس عن الموعظة مَن يعمل في تجهيز الأموات، فقد يسرق شرشفًا أو أيَّ غرض فيأخذه خلسةً، ألا يعتبِر وهو يدفن في اليوم أكثرَ مِن ميت؟ فأين العبرة و العظة من نفسه؟!.

وقال حاتم الأصم رحمه الله: " ليس في القيامة أشد حسرةِ من رجل علَّم الناسَ علماً فعمِلوا به، ولم يعمل هو به، ففازوا بسببه وهلك هو ".

وقال مالك بن دينار: " إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفا "، الموعظة من إنسانٍ غيرِ عاملٍ بموعظته لا تؤثر في القلوب.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله:" مررت بحجر بمكة مكتوب عليه: اقلبني تعتبر، قال: فقلبته، فإذا عليه مكتوب أنت بما تعلم لا تعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم؟ ".

وقال ابن السماك رحمه الله: " كم من مذكِّرٍ بالله ناسٍ لله، وكم من مخوفٍ بالله جريء على الله، وكم من مقرب إلى الله بعيد منه، وكم من داع إلى الله فار من الله، وكم من تال لكتاب الله منسلخ عن آيات الله ".

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: "لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن، ولحنا في أعمالنا فلم نعرب "، وقال الأوزاعي: " إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع ".

أكثرُ المجالس بركةً المجلسُ الذي فيه خشوعٌ للقلب :

الآن نتكلم بشيء في قواعد اللغة و إعرابها، "إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع"، يذهب الخشوع كله، أحيانًا تجد الإنسان ينهمك في معلومات ظاهرية، ويدقق بها، ويحفظها، ويعلمها، وليس مِن خشوع في قلب صاحبه، لذلك أكثرُ المجالس بركةً المجلسُ الذي فيه خشوعٌ للقلب، وهذه نصيحة لوجه الله، فإذا كنتَ في مجلس، سهرة مثلاً،

وتتكلم عن الله عز وجل فلا تختم الجلسة بالدنيا، فكل هذه البركة تذهب، اجعلْ آخرَ المجلس ذكرًا، ولينفضّ المجلسُ على طعم طيب، وعلى سرور، واستبشار، وتفاؤل.

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ، إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وبعد، فجرِّبْ أيَّ موضوع آخر مؤلِم مقنّط، يدعو إلى اليأس، والقنوط، والألم، والضيق، والحسد، والتنافر، ثم اذكر آية أو حديثًا، أو قولاً فيه عِظة، تجد نفسك قد انتعشت.

سيدنا عمر رَضِي اللَّه عَنْه قيل له في مجلس من مجالسه: واللهِ يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضلَ منك، وسيدنا عمر تعلمون ما ورد عن رسولِ الله فيه: " لو كان نبياً بعدي لكان عمر "، لكنّ سيدنا عمر تفرَّس في الحاضرين كلهم، واستعرضهم واحدًا واحدًا، ينتظر منهم أيسكتون أم يتكلمون، وفي أثناء استعراضه لوجوههم تكلم أحدهم، وقال: لا واللهِ يا أمير المؤمنين، لقد رأينا من هو خير منك، فقال له ومن هو؟ قال: أبو بكر الصديق، فقال سيدنا عمر للحاضرين: لقد كذبتم جميعاً وصدق هذا، علّمهم قولَ الحق، ثم قال: والله إن لأبي بكر ريحاً أطيب من ريح المسك، وكنت أنا أضل من بعيري، حين كان لأبي بكر ريح أطيب من ريح المسك كنت أنا أضَّل من بعيري، لقد كذبتم كلُّكم وصدق هذا، لو أنهم سكتوا جميعاً لأغلظ لهم القول، فسيَرُ الصحابة– سبحان الله– تنعش القلوب، وتعطِّر المجالس، إنّه نموذج فَذٌّ من الكمال الإنساني، علماء حكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء.

روى مكحول عن عبد الرحمن أنه قال: حدثني عشرة من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا: كنا ندرس العلم في مسجد قباء، إذْ خرج علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "تعلَّموا ما شئتم أنْ تعلموا، فلن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم "، تعلّم فالأجر لن يكون حتى تعمل بما علمت.

وقال عمر رَضِي اللَّه عَنْه: " إذا زل العالم زل بزلته عالم من الخلق "، وقال أيضاً: "ثلاث بهن ينهدم الزمان، إحداهن زلة العالم ".

وقال ابن مسعود رَضِي اللَّه عَنْه: " أنزل القرآن ليعمل به، فاتخذتم قراءته عملاً".

من سبّ الدين ولم يتُب ففي الشرع إجراءات تلاحقه :

وَرَدَنِي سؤالٌ يومَ الجمعة تسأل فيه أختٌ مؤمنة، إذا سَبَّ الإنسانُ الدينَ فما حكمه في الإسلام؟ طبعاً إذا سبَّ الدين ولم يتُب فهذا ارتداد، وحول هذا الموضوع بحث لطيف، في درس آخر سأقرأ لكم بعض ما فيه، كأنْ يرميَ الإنسانُ المصحفَ على الأرض فكأنما سبَّ الدين، وارتدّ عن دينه، ولدينا حوالي ثلاثين إلى أربعين حالاً ولفظًا إذا قالها الإنسان أو فعلها فقد كفر، وسببُ سؤال الأختِ أنها سمعت مني سابقاً أنه إذا سبَّ الإنسانُ الدينَ تطلَّق منه زوجته، وعليه أن يجدّد إسلامه، وهذا صحيح، إلا إذا كان هذا السب في ساعة غضب، وتاب فوراً، فهذا الحكم عندئذٍ لا يطبق عليه، أما إذا سبَّ الدين، وبقيَ مصرًّاً، فإنّه قطعاً تطلّق منه زوجته، وكأن الإنسان بهذه الشتيمة قد رسب في الامتحان كله، وعليه أن يتوب إلى الله عز وجل، وأن يجدّدَ إسلامه، قال بعض العلماء: القاضي يمهل هذا الذي يسب الدين ثلاثة أيام، فإن تاب ورجع إلى الله عز وجل فبها ونعمت، وإلا فهناك سلسلة إجراءات، منها أنه يفقد أملاكه، وتنزع منه، لأنّه أصبح كافرًا مرتدًّاً، إنّ الإنسان قد يغضب، ولكن عليه ألاّ يتجاوزَ الحدود مهما اشتدَّ غضبُه، فهذه مقدسات، والله عز وجل له عقوبات أليمة، كان رجلٌ يصلي، فقال له شخص آخر: لِمَ تصلي فهذه اعتقاداتٌ قديمة نحن الآن في زمن التقدُّم والعلم وإذا كان الله موجوداً فليثبتْ وجودَه؟ وأنا سأمهلك ثلاثة أيام، فهذا الشخص لم يعرف سبيل الإجابة، لكنّ الشخص الذي تحدّى لم يمضِ يوم أو يومان حتّى فَقَدَ بصرَه كلَّه، فالله عز وجل أعطى المهلة للثاني، وكان من الممكن أنْ يموت، لكن اللهَ أعطاه مهلة أوسع، فبكلمة كبيرةٍ قد يفقد الإنسانُ إسلامه كلّه، وإيمانه كله، لذلك جوابًا عن السؤال أقول: إنه من سبّ الدين ولم يتُب، ففي الشرع إجراءات تلاحقه، لكن إذا استرجعَ رأساً وتاب إلى الله عز وجل واغتسل وتشهد مرةِ ثانية، وكفَّرَ عن هذه الكلمة بصدقة كبيرة، وتاب توبة نصوحًا، فالحكمُ بطلاق زوجته لا ينسحب عليه، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 4 : الغسل : فرائضه، سننه ،ندبه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

فروض الاغتسال :

أيها الأخوة الكرام؛ انتهينا من الوضوء وها نحن ننتقل إلى الغسل، ففي الاغتسال يُفرض أحدَ عشرَ شيئاً، أولاً: غسل الفرج والأنف والبدن مرةً واحدة، وداخل المضفور من الشعر، لا المضفور من شعر المرأة لحديث أُمِّ سَلَمَةَ:

((قَالَتْ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي امْرَأَةٌ أَشُدُّ ضَفْرَ رَأْسِي أَفَأَنْقُضُهُ لِغُسْلِ الْجَنَابَةِ، قَالَ: لا إِنَّمَا يَكْفِيكِ أَنْ تَحْثِينَ عَلَى رَأْسِكِ ثَلاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ مَاءٍ ثُمَّ تُفِيضِينَ عَلَى سَائِرِ جَسَدِكِ الْمَاءَ فَتَطْهُرِينَ))

[مسلم عن أم سلمة]

أما الرجل فيجب أن يصل الماء إلى أصل شعره بخلاف المرأة، وعلى الرجل في الغسل أن يسري الماء إلى بشرة اللحية، وبشرة الشارب والحاجب، هذا مما يفترض من الغسل.

سنن الاغتسال :

ويسن في الاغتسال اثنا عشر شيئاً، الابتداء بالتسمية، والنية، وغسل اليدين إلى الرسغين، وغسل نجاسةٍ إن وجدت، وغسل الفرج، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، ويمسح الرأس، ولكنه يؤخر غسل الرجلين إن كان يقف في محل يجتمع فيه الماء، ثم يفيض الماء على بدنه ثلاثاً، ولو انغمس في الماء الجاري أو مكث فقد أكمل السنة، ويبتدئ برأسه في صب الماء، ويغسل بعدها منكبه الأيمن ثم الأيسر، ويدلك جسده.

آداب الاغتسال :

وآداب الاغتسال هي آداب الوضوء، إلا أن المغتسل لا يستقبل القبلة، لأنه يكون غالباً مكشوف العورة، وكره فيه ما كره بالوضوء، و يفرض الاغتسال من الجنابة، ويسن بأربعة مواضع، لصلاة الجمعة، ولصلاة العيدين، وللإحرام، وللحاج في عرفة بعد الزوال.

مندوبات الاغتسال :

ويندب الاغتسال في ستة عشر شيئاً، لمن أسلم، ولمن بلغ بالسن، من بلغ سن البلوغ فعليه أن يغتسل، ولمن أفاق من جنون، وعند حجامة، وغسل ميتٍ، وليلة براءة، أي ليلة النصف من شعبان، وليلة القدر، ولدخول مدينة النبي عليه الصلاة والسلام، وللوقوف بمزدلفة غداة يوم النحر، وعند دخول مكة لطواف الزيارة، ولصلاة استسقاءٍ، هذه الأشياء يندب فيها الغسل وفي أربعة مواضع يسن ويفترض في الجنابة.

* * *

صفات العالم :

1 . أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات :

وننتقل إلى فصل من كتاب إحياء علوم الدين، ولازلنا في باب العلم:

الصفة الثالثة للعالم أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات، مجتنباً العلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدل والقيل والقال.

((كَتَبَ مُعَاوِيَةُ إِلَى الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، أَنِ اكْتُبْ إِلَيَّ بِشَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَكَتَبَ إِلَيْهِ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

[البخاري عَنْ الشَّعْبِيِّ]

روي أن رجلاً جاء النبي عليه الصلاة والسلام: فقال يا رسول الله علمني من غرائب العلم – الأشياء اللطيفة التي إذا حدثتُ بها الناس تأثروا ونلت إعجابهم بهذا المعنى – فقال عليه الصلاة والسلام: ما صنعت في رأس العلم؟ فقال هذا الرجل: وما رأس العلم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هل عرفت الرب تعالى؟ قال: نعم، قال: فماذا

صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله، فقال عليه الصلاة والسلام: هل عرفت الموت؟ قال: نعم، قال: فماذا أعددت له – إذًا فقبْل هذه الأشياء التي تريدها لتنتزع إعجاب الناس أنْ يعرف المسلم الرب، وأنْ يعرف ماذا صنع في حقه– أعود لأكرِّر: فقال عليه الصلاة والسلام: هل عرفت الرب تعالى؟ قال: نعم، قال: فماذا صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله، فقال عليه الصلاة والسلام وقد علم أن كلمة ما شاء الله تعني أنه لم يحصل هذه المعرفة: اذهب فأَحكم ما هناك، ثم تعال لتتعلم من غرائب العلم.

هناك أشياء أساسية في حياتنا، وأشياء ثانوية، هناك مهم وهناك أهم، وردت قصة في الإحياء لكنها جاءت مختصرة وسأرويها لكم بشكلها المختصر.

ثماني فوائد في العلم :

1 . الأعمال الصالحة أفضل محبوبٍ للمرءِ تدخل معه إلى قبرِه وتؤنسه فيه :

حاتم الأصم كان من أصحاب شقيق البلخي، وهو عارف بالله، رحمة الله عليه فسأله يوماً: يا حاتم لقد صاحبتني ثلاثين سنة فما حصلت فيها؟ وهذه لها معنى، يقول أحدهم: أنا مستمر على حضور الدروس سبع سنوات، أو خمس سنوات، أو أربع سنوات، أو سنة، أو ستة أشهر، فماذا حصلت في هذه الفترة؟ هذا سؤال مهم، فقال: حصلت ثماني فوائد من العلم، وهي تكفيني لأني أرجو بها خلاصي، فقال شقيق: وما هي؟ فقال: أما الأولى فإني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوبًا يحبه، فهذا غارق في التجارة، وهذا في الملذات المحرمة، وهذا بالنساء، وهذا بجمع الدرهم والدينار، وهذا غارق ببعض المتع، وهذا غارق بجمع اللوحات النادرة، وهذا يحب السياحة– بالمناسبة لي قريب أحبَّ في آخر حياته أن يحوز جميعَ أنواع السجاد النادر، فجمع ما لا يحتاج إليه ولا إلى عُشره، ولي قريب آخر أحب في آخر حياته القطع من الصيني أيضاً، فجمع منها ما يزيد عن مئات الألوف– فهذا شقيق البلخي يقول: إني نظرت إلى الخلق فرأيت لكل منهم محبوباً يحبه ويعتقده، وبعض أولئك المحبوبين يصاحبه إلى الموت– أي إذا أحب الرجل أن يقتني سيارة فخمة، وأصابه مرض عضال وأصبح على مرض الموت فهذه السيارة انتهى بقاؤها، فإما أن تباع أو أنْ يأخذها أحد الورثة– فرأيت لكل منهم محبوباً يحبه ويعتقده، وبعض أولئك المحبوبين يصاحبه إلى الموت، والبعض الآخر إلى شفير القبر، ثم يتركه المودِّعون وحيداً، ولا يسكن معه في قبره منهم أحدٌ.

الأهل من النساء يودعونه في البيت ويخرجون إلى الشُرف أحياناً، أمّا الأولاد الذكور فإلى شفير القبر. فتفكرت وقلت: أفضل محبوبٍ للمرءِ ما يدخل معه إلى قبره ويؤنسه فيه، فما وجدته في غير الأعمال الصالحة، فاتخذتها محبوباً لي، لتكون سراجاً في قبري تؤنسني فيه ولا تتركني فريداً، قال تعالى:

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾

[سورة العصر: 1-3]

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾

[سورة الفجر: 24]

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[سورة المؤمنون: 99-100]

قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ، لماذا يرجع؟ ليعمر بناء، أو يأخذ شهادة دراسية.

2 . القرآن حق ثابت و على الإنسان أن يقود نفسه حتى ترضى بطاعة الله :

فقال له: هات الثانية؟ فقال: إني رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم، ويبادرون إلى مراد أنفسهم فتأملت في قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾

[سورة النازعات: 40-41]

وبعد؛ فالأشخاص العاديون في زماننا هذا إذا دعي أحدُهم إلى سهرة مختلطة يقول لك: نذهب ونتسلى، وليس عندنا شيء يشغلنا، وإذا دعي إلى رحلة فيها اختلاط، وفيها أشياء يحرمها الله، يقول لك: هذه مناسبة لأرى البلاد الأخرى، وفرصة لا تعوض للاستجمام، أو يقول: هذه الرحلة فيها شواطئ جميلة، هل من المعقول أن أتركها؟ من الذي يقوده؟ هوى نفسه.

إني رأيت الخلق يقتدون بأهوائهم، ويبادرون إلى مراد أنفسهم، فتأملت في قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾

[سورة النازعات: 40-41]

فتيقنت أن القرآن حق ثابت، فبادرت إلى قياد نفسي، وتشمرت في مجاهدتها، وما متعتها بهواها، هل يستطيع المؤمن الصادق أن يرتاح بالنوم إلى أقصى الحدود؟ لا، لن يستطيع، فاسمع قوله تعالى:

﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾

[سورة السجدة: 16]

لا يستطيع عنده صلاة الفجر، ولا سيما في أيام الشتاء، وهل يستطيع أن يرتاد مجلسًا ويتكلم في الغيبة عن الناس؟ لا يستطيع، وإذا كان جالساً على شرفة أو في الطريق فهل يستطيع إذا مرت امرأة أن يمتع نظره فيها؟ لا يستطيع.

فتيقنت أن القرآن حق ثابت، فبادرت إلى قياد نفسي، وتشمرت في مجاهدتها، وما متعتها بهواها حتى رضيت بطاعة الله سبحانه وتعالى وانقادت، فهذه هي الفائدة.

3 . الإكثار من الأعمال الصالحة :

فقال له: هات الثالثة؟ قال: يا سيدي إني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا، ثملاً ينفقه، قابضاً بيديه عليه، فتأملت قوله تعالى:

﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة النحل: 96]

فلذتُ بالإيثار، واستودعتُ عند الله إعانة البائس وإسعاف الفقير، لعلي أحشر في ظل صدقتي يوم يقوم الناس لرب العالمين، ليس كل مصلٍّ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكفّ شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، نحتاج إلى عمل صالح.

4 . الابتعاد عن الملهيات والأباطيل :

قال له: هات الفائدة الرابعة؟ قال: فإني رأيت بعض الخلق أنّ ظن عزه في كثرة الأقوام والعشائر، فاعتز بهم، وزعم آخرون أنه في حيازة الأموال وكثرة الأولاد، وحسب بعضهم العز والشرف في غصب أموال الناس وظلمهم، واعتقدت فئة أنه في إتلاف المال وصرفه وتبذيره.

وأنتَ ترى أناساً إما أن يتحدث عن إتلافه المالَ، أو يتحدث عن عشيرته، أو عن أولاده، أو عن ثروته، أو عن شخصيته، أو عن ماله، فهذا الذي يقول: "أنا" فإنه لا يعرف الله عز وجل، قالها الشيطان فأهلكه الله عز وجل، فتأملت قوله تعالى:

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

[سورة آل عمران: 185]

فأقبلت على ربي، ونفضت يدي من هذه الملهيات والأباطيل، فكلها فارغة.

5 . القسمة من الله تعالى فلا تحسد أحداً و ارض بقسمة الله :

ثم قال له: هاتِ الفائدة الخامسة؟ قال: رأيت الناس يذمّ بعضهم بعضاً، ويغتاب بعضهم بعضاً، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم، اسأل طبيباً عن طبيب آخر فيذمُّه، لماذا؟ واسأل محامياً عن زميله، فيقول لك: هذا المحامي لا يفهم شيئاً، اسأل تاجراً فيقول لك: هذه البضاعة مضمونة، وغيره يقول: في السوق بضاعة مقلدة، وتكون التي عنده تقليد، كل إنسان يذم غيرَه بدافع الحسد في المال والجاه والعلم، فتأملت قوله تعالى:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[سورة الزخرف : 32]

فعلمت أن القسمة من الله تعالى، فما حسدت أحداً، ورضيت بقسمة الله عز وجل.

6 . لا يجوز معاداة غير الشيطان :

أما الفائدة السادسة: فإني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً فتأملت قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

[سورة فاطر: 6]

فعلمت أنه لا يجوز معاداة غير الشيطان.

7 . الرزق على الله تعالى وقد ضمنه لعبده :

والفائدة السابعة: إني رأيت كل واحد يسعى بجهده، ويشتغل في طلب القوت والمعاش، حيث يقع في شبهة أو حرام، فتأملت قوله تعالى:

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

[سورة هود: 56]

فعلمت أن رزقي على الله تعالى وقد ضمنه، فاشتغلت بعبادته، وقطعت طمعي عمن سواه، وترفعت عن الشبهات والدنايا.

8 . التوكل على الله :

وأما الفائدة الثامنة والأخيرة: رأيت كل واحد من الخلق يعتمد على مخلوق، بعضهم على الدينار والدرهم، وبعضهم على المال، وبعضهم على الحرفة والصناعة، وبعضهم على مخلوق مثله، من الأمراء وأصحاب الحول والطول، فتأملت قوله تعالى:

﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾

[سورة الطلاق: 3]

فتوكلت على الله فهو حسبي ونعم الوكيل، فما زاد شيخُه على أن قال له: وفقك الله يا ولدي.

إذاً عندما يرافق الإنسانُ العلماءَ، ويحضر مجالس العلم، فعليه من حين لآخر أنْ يسأل نفسه ماذا حصّلت؟ هل تقدمت؟ هل ازداد عملك الصالح؟ ماذا قدمت للآخرة؟ لو جاء الموت فجأةً هل أعددت له عدته؟ أم ماذا تفعل؟.

هذا من توفيقات الله لهم.

التزين بالمباح ليس حراماً ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به :

هناك ملاحظة للإمام الغزالي يقول: التزيُّن بالمباح ليس حراماً، فإذا سكَن إنسان بيتاً فخماً وفرشه بفرش ضخم، وأكل ما لذّ وطاب فما حُكمه وما شأنه؟.

التزين بالمباح ليس حراماً، ولكن الخوض فيه يوجب الأنس به، فإذا بالغ الإنسان في المباح استأنس إلى الطعام، والشراب، والدنيا، والمباهج، فإذا استأنس بها شقّ عليه تركها، واستدامة الزينة لا تكون إلا بمباشرة أسباب ينشغل بمراعاتها، فينفق الإنسان من أصحاب اليسار في السَّنة الكثيرَ، وتراه يقول لك: أنا مصروفي في السنة ثلاثمئة ألف، لو فرضنا لأسباب ما ضاقت بعض المكاسب، فماذا تفعل بنفسك؟ عوّدتَ الأهل على هذا المصروف العالي، تجد نفسك مضطراً فتقع في الشبهات، مضطرًا لتكسب المال الحرام، فلما يغوص الإنسانُ في الدنيا ويخوض فيها وفي المباح منها فقط يجد نفسه لأسباب قاهرة قد ضاقت المكاسب، وليس عنده حل، فيبدأ يتساهل بنوع الكسب، وعندما يعّوِد نفسه على الترف فهذا يغامر بدينه، ويخشى عليه التردِّي.

والحزم في اجتناب ذلك، لأن من خاض في الدنيا لم يسلم منها، ولو كانت السلامة مبذولةً مع الخوض فيها لما ترك النبي عليه الصلاة والسلام الدنيا، لكنه تركها حفاظاً على دينه.

2 . من صفات المتعلم أيضاً ألاّ يكون مسارعاً إلى الفتوى بل يكون متوقفاً ومحترزاً :

وعندنا صفة أخرى من صفات العلماء؛ ألاّ يكون مسارعاً إلى الفتوى، بل يكون متوقفاً ومحترزاً، فإذا قال عمّا يعلمه تحقيقاً في كتاب الله، أو في حديث رسول الله، أو إجماعاً، أو قياساً فلا حرج، وإن سئل عما يشك فيه قال: لا أدري، احفظوا هذه القاعدة نصف العلم لا أدري، وإن سأل عن اجتهاد احتاط ودفع عن نفسه وأحال إلى غيره فهذا هو الحزم، وفي الخبر: العلم ثلاثة؛ كتاب الله، وسنة قائمة، والشيء الثالث لا أدري.

وقال الشعبي: لا أدري نصف العلم، ومن سكت حيث لا يدري احتسابًا لله تعالى فليس بأقل أجراً ممن نطق صوابًا، لأن الاعتراف بالجهل أشد على الناس، هكذا كان أصحاب النبي عليهم رضوان الله تعالى. كان ابن عمر إذا سئل عن فتيا قال: "اذهب إلى هذا الأمير الذي تقلَّد أمور الناس، وضَعْهَا في عنقه "، اسأله فهو المسؤول، وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: "إن الذي يفتي الناس بكل ما يستفتونه مجنون " وقال: "جملة العالم لا أدري، فإن أخطأها فقد هلك "، وقال إبراهيم بن الأدهم:" ليس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم، يقول: انظروا إلى هذا أشد عليّ من كلامي ".

وُصف بعضهم بأنّ أكلهم فاقة، ونومهم غلبة، وكلامهم ضرورة، لا يأكلون إلا إذا جاعوا، ولا ينامون إلا إذا ضربهم النوم، بينما تجد أنّ بعضهم عند الظهر ينام ساعتين، ويستيقظ عقب العصر بكثير، ما هذا؟ من قضى عمره نائمًا يرى نفسه يوم القيامة مفلساً.

ومر عليٌّ وعبد الله رضي الله عنهما برجل يتكلم على ملأٍ من الناس، فقال: "هذا الذي يتكلم يريد أن يشد الناس إليه، وفي نفسه شهوة خفية "، وقال بعضهم: "إنما العالم الذي إذا سئل عن مسألة فكأنما يصعق "..

وكان ابن عمر يقول: "أتريدون أن تجعلوني جسراً تعبرون عليه إلى جهنم؟؟"، هذا الذي يفتي من دون علم جعل من نفسه جسراً يعبره الناس إلى جهنم، وقال: "العالِم هو الذي يخاف عند السؤال يوم القيامة أنْ يقال له: مِن أين أفتيت؟ "، لكنّ عالم السوء يقال له: أنت أفتيت في الموضوع الفلاني أن النسب القليلة من الربا تجوز فمِن أين جئت بهذا الكلام؟.

من سكت حيث لا يدري احتسابًا لله تعالى ليس بأقل أجراً ممن نطق صوابًا :

وكان إبراهيم إذا سئل عن مسألة يبكي ويقول: "ألا تجدون أحدًا غيري حتى جئتم إلي؟":

((مَا أَدْرِي أَتُبَّعٌ لَعِينٌ هُوَ أَمْ لا وَمَا أَدْرِي أَعُزَيْرٌ نَبِيٌّ هُوَ أَمْ لا))

[أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

النبي الكريم علمنا بهذا الكلام إذا واجهتكَ أشياء فَقِفْ عندها، ولما سئل عليه الصلاة والسلام عن خير بقاع الأرض وشرها، قال: لا أدري، حتى جاء جبريل عليه السلام فسأله فقال: خير بقاع الأرض المساجد وشرها الأسواق.

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يسأل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة، يروون بعض القصص ما أنزل الله بها من سلطان منها أنّ رجلاً متصوفًا له شأن كبير، فبينما هو في الحمام أعطوه مسألة، فغمسها بالجرن وأعطاهم الجواب، فهذه قصص غير مقبولة، وكان مِن الفقهاء مَن يقول: لا أدري أكثر مما يقول أدري.

((قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي لَيْلَى: لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ عِشْرِينَ وَمِائَةً مِنَ الأنْصَارِ وَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ إِلا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْحَدِيثَ وَلا يُسْأَلُ عَنْ فُتْيَا إِلا وَدَّ أَنَّ أَخَاهُ كَفَاهُ الْفُتْيَا))

[الدارمي عن عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ]

وفي حديث آخر، كانت المسألة تُعرَض على أحدهم فيردها إلى الآخر، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتدافعون عن أربعة أشياء؛ الإمامة، – وهي الآن موضِعُ تزاحُمٍ – والوصية، والوديعة، والفدية.

وقال بعضهم: "أسرعهم إلى الفتيا أقلهم علماً، وأشدهم دفعاً لها أورعهم "، وكان شغل الصحابة الكرام والتابعين بخمسة أشياء؛ بقراءة القرآن، وعمارة المساجد، وذكر الله تعالى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. طبعاً لما سمعوا كلام النبي الكريم: "كل كلام ابن آدم عليه وزرُه إلا ثلاث؛ أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو ذكر لله تعالى".

وقال ابن حصين: "إن أحدهم يفتي في مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجمع لها أهل بلدةٍ جميعاً ".

((عَنْ أَبِي خَلادٍ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ قَدْ أُعْطِيَ زُهْدًا فِي الدُّنْيَا وَقِلَّةَ مَنْطِقٍ فَاقْتَرِبُوا مِنْهُ فَإِنَّهُ يُلْقِي الْحِكْمَةَ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي خَلادٍ]

وقال أبو سليمان:" المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام، وإذا كثر العلم قل الكلام، وإذا كثر الكلام قل العلم"، وهذا آخر قول: إنّ ابن عباس رضي الله عنهما كان إذا سئل يقول: "اسألوا حارث بن زيد"، وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: "اسألوا سعيد بن المسيب"، وذكر أن صحابياً روى في حضرة الحسن عشرين حديثاً، فسئِل عن تفسيرها فقال: ما عندي إلا ما رويت، فأخذ الحسن في تفسيرها حديثاً حديثاً، فتعجبوا من حسن تفسيره فأخذ الصحابي حفنة من حصى ورماهم به، وقال: "تسألوني عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم ". انظروا إلى التواضع، إذا عزّ أخوك فهن، هكذا كان السلف الصالح، وهكذا كان التابعون.

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

[الجامع الصغير عن أنس]

من لم يكن له ورع يَصُدُّهُ عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله.

* * *

قصة من قصص الصحابة الكرام :

وبعد فهذه قصة من قصص الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين:

ما أدري عن هذه القصة إنْ كنت قرأتها من قبل أم لم أقرأها، والذي ترك أثراً في نفسي أني لمّا قرأتها وكنتُ أظن أني ما قرأتها من قبل، لكنني قرأتها، وكأني أقرأها أول مرة، هناك استنباطات كثيرة قد نقف عندها.

قال مؤلف هذا الكتاب: قلَّما اتصلت الأسباب بين شخصين وتوثقت العرى بين اثنين كما اتصلت وتوثقت بين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وبين أبي سفيان بن الحارث، فقد كان أبو سفيان ترباً من أترابه، فقد وجدا في زمن متقارب، ونشأ في أسرة واحدة، وكان ابن عم النبي اللزم، اللصيق، فأبوه الحارث وعبد الله والد النبي الكريم أخوان، ينحدران من صلب عبد المطلب، ثم إنه كان أخاً للنبي من الرضاع، فقد غذتهم السيدة حليمة السعدية من ثدييها معاً، وكان بعد ذلك كله صديقاً حميماً للرسول صلوات الله عليه قبل النبوة وأشد الناس شبهاً به.

فهل رأيت أو سمعت قرابة أقرب أو أواصر أمتن من هذا الذي كان بين محمد بن عبد الله وأبي سفيان بن الحارث؟ لذا كان من المفروض أن يكون أبو سفيان هذا أصدقَ الناس إلى تلبية دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وأسرعهم مباشرةً إلى اتباعه، لكن الأمر جاء على خلاف كل ما يتوقع، إذْ ما إنْ بدأ النبي عليه الصلاة والسلام ينذر عشيرته حتى شبت نار الضغينة في قلبِ أبي سفيان على النبي عليه الصلاة والسلام، فاستحالت الصداقة إلى عداوة، والرحم إلى قطيعة، والأخوة إلى صدّ و ردّ، كل هذه الأسباب قامت في نفس أبي سفيان، ولكن: إنّك لا تهدي من أحببت، لقد كان أبو سفيان لما صدع النبي بأمر ربه فارساً من أنبل فرسان قريش، وشاعراً مقدَّمًا بين الشعراء، فوضع كنانته ولسانه لمحاربة النبي عليه الصلاة والسلام، ومعاداة دعوته، وجنّد قوته كلها ضد الإسلام والمسلمين، فما خاضت قريش حرباً ضد النبي إلا كان مسعِّرها، وما وقع بالمسلمين أذىً إلا كان له فيه يد، ولقد أيقظ أبو سفيان شيطانَ شعره، و أطلق لسانه في هجاء النبي صلوات الله عليه، فقال فيه كلاماً مقذعاً فاحشاً، وطالت عداوة أبي سفيان للنبي عليه الصلاة والسلام حتى قاربت عشرين عاماً، لم يترك خلالها ضربًا من ضروب الكيد للنبي إلا فعلها، ولا صنفاً من صنوف الأذى للمسلمين إلا عمله، وقبيل فتح مكة بقليل كُتِبَ لأبي سفيان أن يسلم، وكان لإسلامه قصة مثيرة وَعَتْهَا كتبُ السير، وتناقلتها كتبُ التاريخ، ولنَدَعْ للرجل نفسه الحديث عن قصة إسلامه، فوصفُه لها أدق.

قصة إسلام أبي سفيان :

قال: لما استقام أمر الإسلام، وقرّ قراره، وشاعت أخبار توجُّهِ النبيّ إلى مكة ليفتحها، ضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، وقلت إلى أين أذهب؟ ومن أصحب، ومع من أكون؟

عكرمة بن أبي جهل قبيل فتح مكة فرَّ، وعندما وصل إلى شاطئ البحر رأى صاحب سفينة، قال: أركب معك إلى الشاطئ الآخر، قال له: هل أنت مسلم؟ قال: وما مسلم؟ قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله فقال له: إذًا لِمَ هربت؟.

وقلت: إلى أين أذهب؟ ومن أصحب؟ ومع من أكون؟ ثم جئت زوجتي وأولادي وقلت: تهيؤوا للخروج من مكة، فقد أوشك وصول محمد وإني لمقصود، ليس هو مشركًا عاديًا، ولكن له باع طويل في الأذى، وقال في نفسه: وإني لمقتول لا محالة إن أدركني المسلمون، ثم قال: أما آنَ لك أن تدرك أن العرب والعجم قد دانت لمحمد بالطاعة، واعتنقت دينه، وأنت ما تزال مصِرًّاً على عداوته، وكنت أولى الناس بتصديقه ونصره، ومازال أهلي يرغبونني بدين محمد حتى شرح الله صدري للإسلام.

قمت من توي وقلت لغلامي هيئ لي نوقاً وفرساً، طبعاً ولكن النبي الكريم في الطريق، وأخذت معي ابني جعفرًا، وجعلنا نسير نحو منطقة بين مكة والمدينة، وقد بلغني أن محمداً نزل فيها، ولما اقتربت منها تنكرت حتى لا يعرفني أحد فأقتل قبل أن أصل إلى النبي، وأعلن إسلامي بين يديه، وبقيت أمشي على قدمي، وطلائع المسلمين تمضي ميمنة شطر مكة جماعة تلو جماعة، فكنت أتنحى عن طريقهم خوفاً من أن يعرفني أحد من أصحاب النبي، وفيما أنا كذلك إذْ طلع النبي في موكبه فتصديت له ووقفت تلقاءه، وما إن ملأ عينيه مني، وعرفني حتى أعرض عني إلى الناحية الأخرى، فتنحيت إلى ناحية وجهه، فأعرض عني وحوَّل وجهه، فتحولت إلى ناحية وجهه حتى فعل ذلك مراراً، كنت لا أشك و أنا مقبل على النبي أن رسول الله ﷺ سيفرح بإسلامي، وأن أصحابه سيفرحون لفرحه، لكن المسلمين حينما رأوا إعراض رسول الله عني أعرضوا عني جميعاً، لقد لقيني أبو بكر فأعرض عني أشد الإعراض، فنظرت إلى عمر بن الخطاب نظراً أستلين به قلبه، فوجدته أشد إعراضاً من صاحبيه، بل إنه أغرى بي أحد الأنصار، وقال لي الأنصاري: يا عدو الله، أنت الذي كنت تؤذي رسول الله ﷺ، وتؤذي أصحابه، وقد بلغت في عداوة النبي مشارق الأرض و مغاربها، ومازال الأنصاري يستطيل عليّ ويرفع صوته، والمسلمون يقتحمونني بعيونهم، ويُسَرّون مما ألاقي، عند ذلك أبصرت عمي العباس، فلذت به، وقلت: يا عم؛ قد ظننت أن يفرح رسول الله بإسلامي، فإذا آمن رجل بعد فترة طويلة فهو ملوم، وأحلى شيء في مسألة الإيمان أنْ يأتي في

الوقت المناسب، وأنت شاب، وأنت قوي، وأنت صحيح، وأنت غني، وليس بعد أن شاب شعرك، وانحنى ظهرك، وانزوت عنك الدنيا، وصرتَ قعيدَ البيت عندئذٍ أخذتَ تصلي.

فقلت: يا عم قد كنتُ أرجو أن يفرح رسول الله بإسلامي، لقرابتي منه، وشرفي من قومي، وقد جرى بي ما تعلم، فكلِّمه في أمري، فقال: لا والله لا أكلمه أبداً بعدما رأيت من إعراضه عنك، فإن سمحت فرصة فإني أرجو رسول الله، أمّا الآن فلا يجرؤ أحد أن يكلمه، فقلت: يا عم إلى من تكلني إذاً؟ فقال: ليس عندي غير ما سمعت، فتملكني الهم، وركبني الحزن، ولم ألبث أن رأيت ابن عمي علي بن أبي طالب، فحدثته بأمري، فما لبث أن قال لي كما قال عمي العباس، عند ذلك رجعت إلى عمي العباس وقلت: يا عم، إذا كنت لا تستطيع أن تُعَطِّف عليَّ قلب النبي الكريم فكُفَّ عني ذلك الرجل الذي يشتمني، ويغوي الناس بشتمي، فقال: صِفْهُ لي، فوصفتُه له، فقال: ذلك نعيمان بن الحارث النجاري، فأرسل إليه وقال له: يا نعيمان إن أبا سفيان ابن عم رسول الله، وابن أخي، فإن يكن رسول الله ساخطًا عليه اليوم، فسيرضى عنه يوماً، فَكُفَّ عنه، وما زال به حتى رضي أن يكف عني و قال: لا أعرض له بعد الآن، أغلق الجبهة عليه، ولما نزل النبي عليه الصلاة و السلام بالجحفة جلست على باب منزله، ومعي ابني جعفر قائماً، فلما رآني وهو خارج من منزله أشاح عني بوجهه، فلم أيأس من استرضائه، وجعلت كلما نزل في منزل أجلس على بابه، وأبقي ابني جعفراً واقفاً بإزائي، فكان إذا أبصرني أعرض عني، وبقيت على ذلك زماناً، فلما اشتد علي الأمر وضاقت نفسي، قلت لزوجتي: والله ليرضين عني رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهبن هائمين على وجهَيْنا في الأرض حتى نموت جوعاً وعطشاً.

فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ رقّ له، ولما خرج من بيته نظر إليَّ نظراً ألين من النظرة الأولى، ثم دخل النبي عليه الصلاة والسلام مكة فدخلتُ في ركابه، وخرج إلى المسجد فخرجت أسعى بين يديه لا أفارقه على حال، وتمَّ إسلام أبي سفيان بن الحارث أخي النبي في الرضاع وابن عمه.

إرضاء أبي سفيان للنبي الكريم :

هذه واقعة أخرى؛ فقدْ وقف أبو سفيان بن حربٍ على باب عمر ساعات، فلم يسمح له بالدخول، وصهيب وبلال يدخلان ويخرجان بلا استئذان، فلما دخل عاتبه، وقال: أبو سفيان زعيم قريش يقف في بابك ساعات طويلة وصهيب وبلال يدخلان بلا استئذان؟؟ فقال له: هؤلاء اتبعوا النبي في ساعة العسرة وأنت أين كنت؟. ولما كان يوم الخندق، وجمعت العرب لحرب النبي عليه الصلاة والسلام، وأعدت للقائه ما لم تعد من قبل،

وقررت أن تجعلها القاضية على الإسلام والمسلمين، وخرج النبي صلوات الله عليه للقاء الجموع مع أصحابه، ففي أيّ صف كنت؟ ويوم حنين ماذا كان لك من دور؟ قد قال تعالى:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾

[سورة التوبة:25]

إنّ الصحابة الذين خاضوا بدراً وأحداً والخندق، باعوا أنفسهم، ويوم حنين ظنوا أنفسهم أقوياء فخذلهم الله عز وجل، أمّا أبو سفيان بن الحارث فقال: فخرجت مع النبي، ولما رأيت جموع المسلمين الكبيرة قلت: والله لأكفِّرنَّ اليوم عن كل ما سلف مني من عداوة رسول الله ﷺ، وليرين مني من أمري ما يرضي الله ويرضيه، الآن جاء الوقت المناسب.

ولما التقى الجمعان اشتدت وطأة المشركين على المسلمين، فدب فيهم الوهن والفشل، وصار الناس يتفرقون عن النبي، وكادت تحل بنا الهزيمة المنكرة، فإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام فداه أبي وأمي يثبت في قلب المعركة على بغلته الشهباء كأنه الطود الراسخ ويجرد سيفه، ويدافع عن نفسه وعمّن حوله كأنه الليث عادياً:

((عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: رَجُلٌ لِلْبَرَاءِ ابْنِ عَازِبٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا أَفَرَرْتُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ قَالَ: لَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَفِرَّ إِنَّ هَوَازِنَ كَانُوا قَوْمًا رُمَاةً وَإِنَّا لَمَّا لَقِينَاهُمْ حَمَلْنَا عَلَيْهِمْ فَانْهَزَمُوا فَأَقْبَلَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْغَنَائِمِ وَاسْتَقْبَلُونَا بِالسِّهَامِ فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يَفِرَّ فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّهُ لَعَلَى بَغْلَتِهِ الْبَيْضَاءِ وَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ آخِذٌ بِلِجَامِهَا وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ]

عند ذلك وثبت عن فرسي، وكسرت غمد سيفي، واللهُ يعلم أني أريد الموت، وأخذ عمي العباس بلجام بغلة النبي، ووقف بجانبه، وأخذت أنا مكانه من الجانب الآخر، وفي يميني سيفي أذود به عن رسول الله ﷺ، أما شمالي فكانت منصفةً...، وإلى الآن لم يتبسم له النبي ﷺ، فلما نظر النبي عليه الصلاة والسلام إلى حسن بلائي قال لعمي: من هذا؟ قال: هذا أخوك وابن عمك أبو سفيان بن الحارث، فارضَ عنه يا رسول الله، فقال: قد فعلت، وغفر الله له كل عداوة عادانا إياها.

فاستطال فؤادي فرحاً لإرضاء رسول الله صلى الله عني..ثم التفت إلي وقال: أخي تقدم... ألهبت كلمات النبي حماستي فحملت على المشركين حملةً أزالتهم عن مواضعهم، وحمل معي المسلمون حتى فرَّقناهم إلى كل مكان، وظل أبو سفيان بن الحارث منذ حنين ينعم بجميل رضى النبي عنه، ويسعد بكريم صحبته، ولكنه لم يرفع نظره إليه أبداً، ولم ينظر إلى وجهه حياءً منه وخجلاً من ماضيه معه.

الابتعاد عن معاداة الله و رسوله و اغتنام كل لحظة في الطاعة :

بعدما أسلم لم ينظر إليه خجلاً، عشرون سنة وهو يعادي النبي، فأحياناً يقصر الإنسانُ ويؤذي الناس، ويحمّل نفسه ما لا يطيق، إذا جاءت الصحوة أعانه الله، والقضية ليست سهلة؛ أن تعادي الله ورسوله، فلا تصلي، وتستهين بالدين، وتؤذي الناس وتغشهم، ماذا يفعل هذا بنفسه؟ يحمِّلها ما لا تطيق.

وجعل أبو سفيان يعض بنان الندم على الأيام السود التي أمضاها في الجاهلية محجوباً عن نور الله، محروماً من كتابه، فأكبَّ على القرآن ليله ونهاره يتلو آياته، ويتفقه في أحكامه، ويتملى من عظاته، وأعرض عن الدنيا وزهرتها، وأقبل على الله بكل جارحةٍ من جوارحه حتى إن النبي صلوات الله عليه رآه ذات مرةٍ يدخل المسجد فقال لعائشة أتدرين من هذا يا عائشة؟ قالت: لا، قال: ابن عمي – أبو سفيان– إنه أول من يدخل المسجد، وآخر من يخرج منه.

ولما لحق النبي صلوات الله عليه بالرفيق الأعلى حزن عليه أبو سفيان بن الحارث حزنَ الأمِّ على وحيدها، وبكاه بكاء الحبيب على حبيبه، ورثاه بقصيدة من غرِّ المراثي تفيض حزنًا ولوعة، وفي خلافة الفاروق رضي الله عنه أحسّ أبو سفيان بدنو أجله، فحفر لنفسه قبراً بيديه، ولم يمض على ذلك ثلاثة أيام حتى حضرته الوفاة، كأنه مع الموت على ميعاد، فالتفت إلى زوجته وأولاده وأهله وقال: لا تبكوا علي فو الله ما تعلقت بخطيئةٍ منذ أسلمت. إذا تاب الرجلُ إلى الله توبةً نصوحًا، وعاهد الله ألاّ يؤذي أحدًا أبداً، ولا يعصي أبداً، فإذا جاء ملك الموت يقول: مرحباً به وبالموت.

والله ما تعلقت بخطيئةٍ منذ أسلمت، ثم فاضت روحه الطاهرة، فصلى عليه الفاروق رضوان الله عليه، وحزن لفقده هو والصحابة الكرام، وعدوا موته مصابًا جللاً حلَّ بالإسلام والمسلمين.

فاغتنم أخي المسلم خمساً قبل خمس؛ شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، ولا يعرف الإنسان بعد ذلك متى يصيبه آلام، وأوجاع، أيستطيع أن يتصدق أم لا، اكسب الوقت، قم الليل إن كنتَ تستطيع أن تقوم للصلاة، اقرأ القرآن وأنت في شباب، واستغل هذا الشباب، واستبق الخيرات، وإذا درَّتْ نياقُك فاحتلبْها، وإذا هبَّبتْ رياحُك فاغتنمها، فإنَّ الريح عادتها السكون.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 5 : التيمم : تعريفه – شروطه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

شروط التيمم :

1 . النية :

أيها الأخوة المؤمنون؛ تحدثنا في الدرس الماضي عن الغسل، واليوم نتحدث عن التيمم.

يصح التيمم بشروط ثمانية: الأول: النية، وحقيقتها: عقد القلب على الفعل، والعلماء على خلاف في النية، فأكثرهم أنها عمل قلبي، فإذا عزَم الإنسان على أن يفعل هذه العبادة، فهذه العزيمة هي النية، ووقتها: عند ضرب يده على ما يتيمم به، ففي أثناء الضرب على الحجر، أو التراب، أو الرخام، في أثناء الضرب ينوي الإنسانُ التيممَ من هذا الصعيد الطاهر لأداء الصلاة، أو لقراءة القرآن، أو لشيء آخر.

وشروط صحة النية ثلاثة: الإسلام، فلا تصح النية لغير المسلم، وهذا شيء بديهي، والتمييز، يعني العقل، والعلم بما ينويه، ينوي التيمم للصلاة، كأنْ ينوي التيممَ لصلاة جنازة، أو ينوي التيمم لقراءة القرآن، وهكذا. ويشترط لصحة نية التيمم للصلاة أحد ثلاثة أشياء: إما نية الطهارة، هذه نية، أو نية استباحة الصلاة، أو نية عبادة مقصودة لا تصح بدون طهارة، من هذه العبادة المقصودة قراءة القرآن.

إذا نعود فنذكِّر أنَّ للتيمم ثمانية شروط:الشرط الأول النية، وهي عقد القلب على فعل طاعة ما.

2 . العذر المبيح للتيمم :

الشرط الثاني: العذر المبيح للتيمم، فإذا لم يكن هناك عذر مبيح للتيمم لم يصحّ التيمُّمُ، ما هي الأعذار؟ بُعْدُه مسافة ميل عن الماء، أي إذا كان بينك وبين الماء ميل، ولو في المصر، ولو كنت في بلد آهل بالسكان، وبينك وبين الماء ميل، هذا الميل يجيز لك التيمم، وكذلك حصول مرض، كمثل أشخاص يعانون مِن مرض الروماتيزم، وبردٍ يخاف منه التلف أو المرض، أي يخاف من التلف أي الهلاك، أو المرض، أو ازدياد المرض، إذاً بعد المسافة، والمرض، وخوف عدو، أو حيوان مفترس أو نحوه، فأحيانا عند الماء عدو ما، والعدو بطاش، كما في أثناء الحرب، وخوف عطش، فإذا كان مع الإنسان كمية ماء، وهو في الصحراء، وإذا توضأ بما معه من ماء ربَّما مات عطشا، إذًا خاف العطش، أو خاف المرض، أو خاف العدو، واحتياج ماء لعجن لا لطبخ مرق، فإذا كان معك ماء يكفي لعجن العجين، فلو أنك توضأت به لبقيت بلا خبز، ولفقد آلة أيضًا، فحبل الدلو مقطوع مثلاً، أو ليس لديه حبل للدلو، والماء على بعد أمتار، لكن لديك حبلٌ، فهذا يعني فَقْدَ آلة، وخوف فوت صلاة، أي الصلاة التي لا تقضى، مثل الجنازة وصلاة العيدين، فإذا خفت أن تفوتك صلاة الجنازة، أو صلاة العيدين فعليك بالتيمم.

إذاً فالأعذار المبيحة للتيمم، البعدُ عن الماء، وخوفُ المرض، وخوفُ العدو، وخوفُ العطش، والاحتياجُ لعجن لا لطبخ مرق، لأنّ المرق شيء ثانوي في الطعام، أما الماء للعجين فشيء أساسي، ولفقد آلة كحبل الدلو، أو السطل، أو ما شاكل ذلك، وفي أيامنا هذه إذا انقطع تيارُ الكهرباء، وعنده محرك يعمل على الكهرباء، والماء على بعد خمسين مترًا، وتيار الكهرباء مقطوع، فعليه أنْ يتيمم، وخوفُ فوت صلاة جنازة، أو عيد، هذا الشرط الثاني.

3 . أن يكون التيمم بطاهر :

الشرط الثالث: أن يكون التيمم بطاهر، نويت التيمم من هذا الصعيد الطاهر، من جنس الأرض، كالتراب، والحجر، والرمل، فالرخام حجر، أما الحطب، والفضة، والذهب فليست من جنس الأرض.

الشرط الأول: النية، الشرط الثاني: وجود العذر المبيح، البعد، وخوف المرض، وخوف العطش، وخوف العدو أيًّاً كان، واحتياج ماء لعجن، وفقدُ الآلة، وخوفُ فوات صلاة، والشرط الثالث: أن يكون التيمم بطاهر من جنس الأرض كالتراب، والحجر، والرمل، لا الحطب، والفضة، والذهب.

4 . استيعاب المحل بالمسح :

الشرط الرابع: استيعاب المحل بالمسح، أي استيعاب الوجه كاملاً، من منبت الشعر إلى أسفل الذقن، وطرفي شحمتي الأذنين استيعابًا كاملاً، وكذلك اليدين استيعابهما كاملتين.

5 . أن يمسح بجميع اليد أو أكثرها :

الشرط الخامس: أن يمسح بجميع اليد، أو أكثرها، فلو مسح بإصبعين لم يصحّ، ولو كرّر حتى استوعب، بخلاف مسح الرأس.

6 . أن يكون بضربتين بباطن الكفين :

الشرط السادس: أن يكون بضربتين بباطن الكفين، ولو في مكان واحد.

7 . انقطاع ما ينافي التيمم من حيض ونفاس :

الشرط السابع: انقطاع ما ينافي التيمم من حيض، ونفاس، فلو كانت المرأة في حيض أو نفاس لم يصحّ التيمم، إذْ لا بد من انقطاعهما انقطاعًا كاملاً.

8 . زوال ما يمنع المسحَ كشمعٍ و شحمٍ :

الشرط الثامن: زوال ما يمنع المسحَ كشمعٍ و شحمٍ، فإذا وُجدَ على الأظافر طلاءٌ، أو شحم، أو عجين، أو مادة مانعة فسدَ التيمُّم، فهذه ثمانية شروط للتيمم، وأعيدها سريعاً، أولاً: النية، ثانياً: وجود العذر المبيح، ثالثاً: التيمم بصعيد طاهر من جنس الأرض، رابعاً: استيعاب المحل بالمسح، خامساً: أن يمسح بجميع اليد، أو بأكثرها، سادساً: أن يكون بضربتين بباطن الكفين، ولو في مكان واحد، سابعاً: انقطاع ما ينافي التيمم، من حيض أو نفاس، الثامن: زوال ما يمنع المسحَ كشمعٍ، وهذه المعلومات أكثر الإخوة الحاضرين على علم بمعظمها، ولكن فذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين.

* * *

صفات العالم :

1 . أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور :

ولننتقل إلى فصل مختار من إحياء علوم الدين عنوانه " صفات العالم "، وهي: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وما أكثر البدعة التي تقطع الإنسان عن ربه كأجهزة اللهو، إذْ يقول بعضُهم: به نسمع تلاوة القرآن، وتقدِّم أحاديث دينية، كما تقدِّم مواضيع علمية، فربنا عز وجل قال:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة البقرة: 219]

مثلاً برميل فيه ماء مر، مذاب فيه ملعقة عسل، فمن أجل أن تصل هذه الملعقة إلى جوفك، يجب أن تشرب هذا البرميل بكامله، وهو مرٌّ، وقد يكون ساماً، وقد يكون مؤذياً، فلذلك عليه أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، وإن اتفق عليها الجمهور، أي يجوز للجمهور في آخر الزمان أنْ يتفقوا على ضلالة، كأنْ يصير شيء بحكم العادة، أو شيء بحكم العرف، فيصير لكثرة انتشاره بديهيًا، فيقال: فمَن أنت حتى تجيز ما لا يجوز؟ ومن أين تأتينا بهذا الدين؟

فهنا يقول الإمام الغزالي: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، وإن اتفق عليها الجمهور، فلا يغرنّه إطباق الخلق على ما أُحدِث بعد الصحابة رَضِي اللَّه عَنْهم.

2 . حرصه على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم :

ليكن حريصًا على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم، فإذا اقتدى إنسان بالصحابة كان في قمة الذكاء والتوفيق، وإذا اقتدى بغير الصحابة فل، طبعاً هم رجال ونحن رجال كما قال بعض العارفين، وقال بعض العارفين: ما جاءنا عن صاحب القبة الخضراء فعلى العين والرأس، لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وما جاءنا عن أصحابه الكرام فعلى العين والرأس، لماذا؟ لأنهم أخذوا عن النبي، والنبيُّ معصوم، وما جاءنا بعد ذلك عن غيرهم، فنحن رجال وهم رجال، وقال بعضهم الآخر: كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه، إلا

صاحب هذه القبة الخضراء، ما ينطق عن الهوى، وقال بعضهم: ما من أحد يكبر عن أن يُنقَد، وما من أحد يصغر عن أن يَنقَد، فالإنسان غير معصوم.

لذلك قال سيدنا عمر: " أحبُّ ما أهدى إليّ أصحابي عيوبي "، أكبر هدية تقدمها لأخيك إن رأيت فيه شططاً، أو انحرافاً، أو تقصيراً، أو مخالفةً، أو معصيةً، فبينك وبينه، وبمنتهى اللطف والتهذيب، قل له: يا أخي إنني أحبُّك، وأنت مؤمن، وأنت قارئ قرآن، وهذا الذي تفعله لا يليق بالمؤمنين، إذا قلت له بينك وبينه فهذه نصيحة، فإذا وجهت له هذه الملاحظة أمام ملأٍ فهذا تشهير، وقد يكون الرد عنيفاً، لأنك شهرت به.

ويسأل الغزالي هذا السؤال فقال: أكان همُّ الصحابة في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولّي الأوقاف والوصايا وأكل مال الأيتام ومخالطة السلاطين ومجاملتهم في العِشرةِ أم كان همُّهم في الخوف والتفكر والمجاهدة والمراقبة واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرص على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكايد الشيطان إلى غير ذلك من علوم البطون؟.

سيرة الصحابة العطرة قدوةٌ لنا :

إنّ سيرةَ الصحابة العطرة قدوةٌ لنا، فأحيانا قد تحضر مجلسًا فيقال لك: هذا مجلسُ ذكر، وتجدهم يلبسون ثيابًا بيضاء، ويقومون بحركات، وفي أثناء الدوران السريع تصير ملابسُهم مثل المظلة، يا ترى أهكذا فَعَلَ الصحابة؟ وبهذه الطريقة وأمثالها فتحوا العالم؟ وبهذه الطريقة انتزعوا إعجاب الأمم؟ وبهذه الطريقة صاروا قادة الشعوب؟ والخلاصة أنّك تشعر أنّ هناك أفعالاً ليست من الدين في شيء.

يقول الحسن رَضِي اللَّه عَنْه: "محدثان أُحدِثا في الإسلام؛ رجل ذو رأي سيئ زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه، ومُترَف يعبد الدنيا، لها يغضب، ولها يرضى، وإياها يطلب".

والحقيقة هنا تحليل دقيق، فأنتَ أمام رجل آثر الدنيا على الآخرة، وكلُّ همّه الدنيا، أو رجل آخر همُّه أن يتتبَّع أفكار الناس، فمن وافقه على أفكاره المنحرفة ظنّه صالحاً ومن خالفه كَفَّرَه، وهذان المُحدَثان ليسا من الدين في شيء.

ويقول الإمام الغزالي رَضِي اللَّه عَنْه: واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان، وأقربهم إلى الحق أشبههم بصحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أَخَذَ الدينَ.

لذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه: خيرنا أتبعنا لهذا الدين لما قيل له: خالفتَ فلاناً؟ فلا ينبغي أن يكترث بمخالفة أهل العصر إذا كان عملُه موافقًا عملَ أهلِ عصر رسول الله وهم الصحابة الكرام. فإذا خالفتَ أهل عصرك، واتبعت أهل عصر رسول الله فأنت على حق، وكلمة الإمام علي كرم الله وجهه يقول: " نحن نعرف الرجال بالحق، ولا نعرف الحق بالرجال "، هذه كلمةٌ في منتهى الدقة، فلا يعرف الحق لأن فلانًا قاله، بل يعرف فلانًا أهو على حق أو على باطل في ضوءِ الحق الذي تعرفه، فالحق هو الأصل. فلو فرضنا مدرس لغة عربية نصب الفاعل، فإنّ الفاعل لم يَعُدْ منصوبًا، فحكمُ الفاعل الرفع، إذا ذاك المدرِّس مخطئ، ففي اللغة قواعد ثابتة في ضوئها تقيّم ضوابطها، فإذا قرأ جاهلٌ في كتابٍ مطبوعٍ ونصَب الفاعلَ فليس الصواب في قراءته، وقال: أنا أظنه مرفوعًا، لا، فهذا خطأ مطبعيّ، فأنت تعرف الكلام بالحقائق التي تعرفها من قبل، ولا تستنبط الحقائق من كتاب طارئ.

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا هُمَا اثْنَتَانِ الْكَلَامُ وَالْهَدْيُ فَأَحْسَنُ الْكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ وَأَحْسَنُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ أَلَا وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدِثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ شَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ أَلَا لَا يَطُولَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُوَ قُلُوبُكُمْ أَلَا إِنَّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ وَإِنَّمَا الْبَعِيدُ مَا لَيْسَ بِآتٍ))

[ابن ماجه عن ابن مسعود]

من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة :

سألني الأسبوع الماضي رجلٌ، فقال: أليس هناك حديث " من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة "، فأردت أن أبسِّط له الموضوع، فقلت: لما وضعوا في المساجد برادات للماء في أيام الصيف الحارة، والمصلي يتمنّى أن يشرب كأس ماء بارد، فهذه البرادات انتشرت بعد ذلك فهذه سنّة حسنة، ووضعوا في المساجد سخانات للمياه، ففي أيام الشتاء يتمنى المتوضِّئُ أن يكون الماءُ ساخناً، وهذه أيضًا سنة حسنة:

((اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَإِنَّهُ قَدْ أَتَاهُمْ أَمْرٌ شَغَلَهُمْ))

[رواه أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ]

طبعاً هذه سنة نبوية مطهرة، فإذا أصيب مسلم بمصاب، أو بلاء، أو حادث وفاة، فهو بعيد عن جو الطعام والشراب، فإذا قَدَّم له الأهل الطعام والشراب جاهزين، فهذا اتباع لسنة النبي عليه الصلاة والسلام، فأبواب الخير كثيرة، وقد بلغني أنّ أحَدَ الصالحين بالشام أوقف مبلغًا كبيرًا من المال لكل غلام كُسِر معه إناء، ويخاف عقاباً

أليماً من وليه، أو سيده، يأتيه بقطعة من هذا الإناء فيعطيه إناءً كاملاً جديداً، فهذا الإنسان أراد أن يخفِّف مآسي المجتمع، وَاللَّهِ هذه سنَّة حسنة، فإذا فكر الإنسانُ في أعمال الخير، فأعمال الخير لا تُعدُّ ولا تُحصَى، لكن هذه ليست بدعاً ، هذه من صلب الدين، ومغطاة بآيات، وأحاديث كثيرة، من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة فإذا أَلْحَقَ شخصٌ بالمسجد مستوصفًا، وعولِج فيه مريض فقير، فهذا شيءٌ جميل، وهذه سنة حسنة، وإذا علَّم الإنسان الأولاَدَ القرآنَ الكريمَ، فألزم المدرِّسُ نفسه بذلك، فهذا شيء يُحمَد عليه.

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكم، وجانب أهل الزلل والمعصية، طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت خليقته، وصلحت سريرته، وعزل عن الناس شرَّه، طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله، ووسعته السنَّةُ، ولم يَعْدُهَا إلى بدعة))

[أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي و البزار من حديث أنس]

هناك كثير مِن الأمثلة على البدع، فبعضُ المسلمين يرغب في حضورِ احتفال رأس السنة، وآخرُ يحبُّ أنْ يقلِّد الأجانب، وهذه بِدَعٌ.

إكرام الوالدين وحسن صحبتهما يوازي الجهاد في سبيل الله :

في خطبة الجمعة حدَّثتُكم أنّ عيد الأم شيءٌ مستورَد، لكن المسلمين يملكون من هذه البضاعة الشيءَ النفيس:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنِّي جِئْتُ أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَوَيَّ يَبْكِيَانِ، قَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا))

[النسائي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

فلقد رأى النبيُّ الكريمُ أنَّ إكرام الوالدين وحسن صحبتهما أولى لذلك الرجل من الجهاد، وعَدَّ الإحسانَ إليهما موازياً للجهاد في سبيل الله، وإليكم حديثًا آخر:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَلَكَ وَالِدَانِ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

حادثة أخرى:

((عَنْ الْعَبَّاسِ الشَّاعِرَ، وَكَانَ لا يُتَّهَمُ فِي حَدِيثِهِ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو رَضِي اللَّه عَنْهما يَقُولُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاسْتَأْذَنَهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَاكَ، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))

[البخاري عَنْ الْعَبَّاسِ]

جاءه رجل ثالث قال له: لي أم تركتها وحيدة، وأتيت لأجاهد معك يا رسول الله – أو كما قال – فقال عليه الصلاة والسلام: " قَابِلْ اللهَ في برِّها "، فبرُّ الوالدة عملٌ يكفي أن تقابل اللهَ به عز وجل، " قَابِلْ اللهَ في برِّها "، وقال عليه الصلاة والسلام: لو أن في اللغة كلمة أقل من "أف" لقالها الله عز وجل، إذا نحن عندنا في العام 365 عيدًا للأم، كل يوم أنت مكلف بطلبِ رضى الوالدة، لا بالكلام بل بالإحسان والأدب وطلب الرحمة، وتدعو لهما في آخر كل الصلاة؛ ربِّ اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربَّياني صغيرة، لكن في مجتمع آخر يكون للأم خمسةُ أولاد، ولا ترى أحدًا منهم طيلة العام، فلمثل هذا المجتمع كان عيد الأم، أَجَلْ لمثل هؤلاء كان عيد الأم، لرجل يموت في بيته فتتفسخ جثتُه، ويبقى ستة أشهر إلى أن يُقتحم عليه البيت من نتن الرائحة، وله خمسة أولاد متزوجون يقيمون في لندن، في المدينة نفسها التي هو فيها، ولم يخطر على بال واحد منهم أن يزور أباه خلالَ هذه الأشهر الست، فلمثل هؤلاء كان عيد الأم، وغالباً حتى في هذا العيد يكتفون بإرسال بطاقات زيارة بدل الزيارة الحقيقة.

إذاً المسلمُ وسعته السنَّة، ولم تستهوِه البدعة، وكثير من الصراعات في حياتنا؛ صراعات لها أول وليس لها آخر، كلها مستوردة من الغرب ، فمصمِّم أزياء في فرنسا مثلاً، لنزوة شيطانية أَلَمَّتْ في عقله يمكن أنْ يجعل نساء المسلمين يخرجنَ على قواعد الشرع، وإذا رضينا هذا، وإذا تتبعنا هذه الصراعات، وبجَّلناها، وقدّسناها، فأين نحن إذًا من الإسلام؟

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوِه البدعة))

[أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي و البزار من حديث أنس]

كلُّ كلام لا علاقة له بذكر الله لغو ملغي :

وفي هذا الحديث:

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس....))

[أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي و البزار من حديث أنس]

لما يتعامَى الإنسان عن عيوب الناس، وينشغل بعيوب نفسه، فهذا مؤمن حقاً، أمّا التافه فهمُّه الأول تتبُّعُ عورات الناس، لِمَ فلانة طلقت؟ ولِمَ فلان ليس له أولادٌ؟ يا ترى السبب منه أم منها؟ وما دخلك أنت بينهما؟ ومَن استشارك؟ ومَن شكا لك الموضوع؟

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس....))

[أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي و البزار من حديث أنس]

((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ومن علامة الإيمان.

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

[سورة المؤمنون:1-3]

قال بعض المفسرين: كلُّ كلام لا علاقة له بذكر الله فهو لغو ملغي، إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها، ودنيّها، فلذلك:

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية...))

[أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي و البزار من حديث أنس]

و:

((أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هذه الدعوات يا ربّ يا ربّ صارت هباءً منثورًا، فإذا كان دخله حرامًا، يا ربّ ويا ربّ، فهذا نفاق، وإذا لا يصلِّي الفرض إلا في الصف الأول وفي وقته، والله شيء جميل، لكنه يملك مطعمًا تباع فيه الخمرة، قلت له: ما هذا؟ فقال لي: إنْ شاء الله في رقبة شريكي، أنا لا أذهب إلى المطعم أبدًا، و الحمد لله، ولكنه يقبض الربح في آخر السنة، وإن شاء الله بيعُ الخمرة في رقبة شريكه كما يزعم:

((يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ ؟))

[مسلم عن أبي هريرة]

أي أنا لا أعتقد شيئًا في الحياة أخطر من الدعاء، لأنك بالدعاء تستعين بأقوى قوة بالكون وهي الله عز وجل، وبالدعاء أنت أقوى إنسان على وجه الأرض.

الإنسان بالدعاء يعلن أنّ له عند الله رجاء :

كان سراقةُ بن مالك فارساً شجاعاً صنديداً طمع في الجائزة، إنها مئتان من الإبل لمن يأتي بمحمد حياً أو ميتاً، وحينما اقترب منه غاصت قدما فرسه في الرمل أول مرة والثانية والثالثة، شعر أن هذا ممنوع مني، إذًا في الكون قوة إلهية تحميه بالدعاء، فيكون أقوى إنسان على وجه الأرض.

كذلك معركة الخندق معركة كبيرة، كانت على وشك أن تستأصل المسلمين، إنّها حرب تدميرية هدفها إنهاء الإسلام كلياً، فالله عز وجل أرسل رياحًا عصفت بخيام الكافرين فأطفأت نيرانهم، وقلبت قدورهم، ودبّت بينهم الخلافات، وكان سيدنا نعيم بن مسعود قد أسلم في الوقت المناسب، قال للرسول الكريم: مُرْني يا رسول الله، فقال له: أنت واحد، ولكن خذِّلْ عنا ما استطعت، فذهب إلى الأحزاب وقال لهم كلاماً عن اليهود، وذهب إلى اليهود وقال لهم كلامًا آخر، فأوقع بينهم الشقاق، وكانت النتيجة أن انصرفت الأحزاب، ونصر اللهُ عبده، وهزم الأحزاب وحده، ولا شيء قبله ولا شيء بعده.

وفي حنين أمسك النبي الكريم حفنة من رمل ورماها في الوجوه وقال: شاهت الوجوه:

أنا النبيُّ لا كذب أن ا ابنُ عبدِ المطلب

***

إنّك بالدعاء تعلن أنّ لك عند الله رجاء، واللهُ سبحانه وتعالى هو هو، قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، وآياته هي هي، وقوانينه هي هي، في أي زمان إذا قلت: يا ربّ، يقول الله عز وجل: لبيك يا عبدي، فما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السموات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجًا، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه، وجعلت الأرض هوياً تحت قدميه، الدعاء شيء خطير، أنت بالدعاء يستجيب الله لك، لكن العبد الذي يقول:

((... يَا رَبِّ يَا رَب، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

من أراد تحقيق أهدافه فلابد له من التفرغ ولزوم مجالس العلم والبذل :

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((...وأنفق من مال اكتسبه من غير معصية، وخالط أهل الفقه والحكم...))

فمِن أين ترجو الخير إن كنت بعيدًا عن أهل الخير؟ ومِن أين ترجو أن تكون عالماً إذا كنت بعيدًا عن مجالس العلم؟ وهل سمعتُم في حياتكم أنّ إنسانًا صار طبيبًا وهو جالس في بيته أو وهو مقيم بالسوق؟ فلا بد من التفرغ، ومِن لزوم مجالس العلم، ومن البذل، حتى تكون محققًا لأهدافك.

من فهم مضمون الآيات و عمل بها فقد فقه :

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((.....وجانب أهل الزلل والمعصية، طوبى لمن ذل في نفسه، وحسنت خليقته، وصلحت سريرته...))

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الشعراء:88-89]

إذا كنتَ ذا قلبٍ سليمٍ فهنيئا لك، لأنّ الله معك:

((.....وعزل عن الناس شرَّه، طوبى لمن عمل بعلمه....))

والله شيء جميل، لِيَضَعْ كلُّ واحد منا يضع نفسه محلّ البدوي الذي قال للنبي الكريم: يا رسول الله عظني وأوجز؟ فنظر إليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و قال له:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة: 7-8]

قال الأعرابيُّ: قد كفيت، فقال عليه الصلاة والسلام: فَقُهَ الرجل، لو قال: فَقِه فلها معنى آخر، أما قال: فَقُه الرجل، لو قال: فقِهَ، أي عرف أحكام الفقه، لكنّه قال: فقُه أي أصبح فقيهاً، كأنْ تكون آية قرآنية قرأتها فشعرت أنك اكتفيت بها لعشرات السنين، تطبيقاً لهذا الحكم، قال تعالى:

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾

[سورة طه: 123]

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[سورة البقرة: 38]

هذه آية ثانية.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[سورة النحل: 97]

فإنْ فهمتَ مضمون هذه الآيات و عملتَ بها فقد فقُهتَ بإذن الله.

التطاوُل على الناس وصفاتهم في المجالس شيءٌ قبيحٌ وحسابُه عند الله عسيرٌ :

واللهِ في القرآن آيات كثيرًا، كل آية إذا عقلتها تقول: كفيت:

((.....طوبى لمن عمل بعلمه، وأنفق الفضلَ من ماله، وأمسك الفضلَ من قوله....))

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

فأنْ يقول قائلٌ: الحمد لله لا أسرق، ما هذا الكلام؟ هذه كبائر، مِن البديهي ألاّ تسرق، فإذا قال لك طبيب: أنا الحمد لله أقرأ وأكتب، أتتعجب من ذلك و تقول: تقرأ وتكتب!! هذه بديهية، هذه يفعلها طالب ابتدائي، أنت مطالب بعلم دقيق، مطالب باستشارات، مطالب بمطالعة عميقة، مطالب بحل معضلات، أمّا أنْ تقرأ وتكتب، فهذه بديهيات، أما إذا كنت في مجلس، وطُرِح موضوع عن إنسان، فسلَقَتْهُ الألسنة، أنت كمؤمن ماذا تفعل؟ أتجري مجراهم؟ لا، فإمّا أن تقوم من هذا المجلس، وإما أن تسكِتهم، فهذه غيبة، أو حدّثك شخصٌ بقصة عن فلان، أتنقلها مكبراً فيدبّ الخلافُ بينهما؟ فاعلمْ أنّه لا يدخل الجنة نمّام أبداً، أو قتات، والمعنى واحد، إنه شي خطير على مستوى اللسان، هناك كبائر، فاحذر الغيبة والنميمة والسخرية، قالت له: صفيَّةُ قصيرة، فقال لها: يا عائشة لقد قلتِ كلمةً لو مُزِجتْ بمياه البحر لأفسدته، فكلمة "قصيرة "، يقولون: قصيرة مثل المسطيجة، وأحياناً يقولون: إذا كان طويلاً زيادة مثل الحورة !! أمَّا إذا كان قصيرًا زيادة فيغتابونه غيبةً مهلِكةً، فالتطاوُل على الناس وصفاتهم في المجالس شيءٌ قبيحٌ، وهذا كله حسابُه عند الله عسيرٌ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم.

من قرأ ما جاء في كتاب الله بهرته حقائقُ الإيمان :

لذلك:

((......وأمسك الفضلَ من قوله، ووسعته السنَّةُ، ولم يَعْدُهَا إلى بدعة))

عليك بكتاب الله، أما يكفيك؟ ففيه كل شيء، والحديث النبوي الشريف ألا يكفيك؟ وَاللَّهِ هذه الأيامُ أقرأ مسرحية شكسبير، وماذا يعنيك من شكسبير؟ أعنده حكمة؟ أيصف لك نفوسًا مريضة؟ فإذا نقب شخصٌ في صندوق قمامة فماذا سيجد؟ سيجد قشر برتقال، والأكلة المتعفنة، واللحمة المتفسخة، هذا ما في صناديق القمامة، فإذا قرأت الروايات والقصص فلن يطالعك منها إلاّ انحراف أخلاقي، وهبوط نفسي، وضعف إنساني، وواقع مؤلم، وفقر مدقع، ولؤم لا يحتمل، فعندما تنتهي من القراءة تشعر بانقباض شديد، لأن الكاتب أوصلك إلى الوحل الذي صنعتْهُ قبائحُ الناس، فمرَّغك في وحل البشر، لكن اقرأ عن صحابي جليل، ستبقى أسبوعًا مترنمًا، واللهِ الأسبوع الماضي ذهبت إلى البيت، ومن عادتي أن أقرأ قبل أن أنام، لشدة استمتاعي بالقصة التي تلوتها على مسامعكم، لكنّني واللهِ ما تمكَّنتُ من أن أقرأ شيئاً، فبقيت هكذا مستمتعاً بهذه المواقف التي وقفها سيدنا أبو سفيان بن الحارث، وما استُنبِط من مواعظ من هذه القصة، اقرأ قصص الصحابة تجد نفسَك ارتفعت، ويمكن أنْ تنسى

نفسك أنك من مواليد الشام ومن أبناء سنة ألف و تسعمئة و خمس و ثمانين، تُشَدُّ بروابط متينة إلى ذاك المجتمع الفاضل، وإلى هذه القيم العالية، وإلى هذه البطولات، وتتمنى أن تكون خادمًا عندهم، وتتمنى أن تكون حارسًا لهم، وتعجب لِما هم عليه مِن هذا الكمال، والإنسان يذكر الصالحين الأبطال، فيتعطر المجلس بذكرهم، ويعتمر قلبه بالإيمان، وترتفع معنوياته، ويشعر أنّه إنسان آخر، بينما إذا قرأ القصص الحديثة، فكأنّه خاض في صندوق قمامة إلى قمة رأسه، تجد فيها السفه، والحمق، والخيانة، والغدر، واللؤم، والفقر المدقع، والغنى الفاحش، والفرق الطبقي الذي لا يحتمل، والضعيف الذي لا ناصر له، لكن اقرأ ما جاء في كتاب الله؛ فتروعك حقائقُ الإيمان، إذْ يقرأ كلامًا يفيده، "طوبى لمن وسعته السنة، ولم تستهوِه البدعة"، يقول أحدهم: واللهِ أنا أعلِّم ابني العزف على الكمان، وهي آلة حنونة، ولكن السنة ما اكتفيت بها، وما لامست مشاعري، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ إن طرب المؤمن بكتاب الله لمقياسٌ فنيٌّ بحت، ولو اجتمع ذواقو الغناء في العالم لما طربوا مجتمعين كما يطرب مؤمن بآيات الله، تذوب نفسُك مع معانيها، وتشعر أن المتكلم هو الله عز وجل، خالقك.

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾

[سورة ص: 44]

ثم اقرأْ هذه الآية:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

[سورة الحديد: 16]

دخلت منزلَ شخصٍ منذ يومين، وهو متقدم في السن، حدّثني موجزًا بكلمتين، فقد سمعنا أن لك دروسًا، قلت له: نعم، يقول الله عز وجل في الحديث القدسي: "عبدي كبرت سنك، وضعف بصرك، وشاب شعرك، وانحنى ظهرك، فاستحِ مني فأنا أستحيي منك"، فقال: لا تضيّق و لا تشدِّد فكل سنٍّ لها ظروفها، فهو يبقى إلى الساعة الثانية يلعب بالنرد رغم كِبَر سنِّه، فهذه مِن رجل كبُرت سنُّه ثخينةٌ حقًّا، ولا تُقبَل أبدًا، وعلمت أنّه جاءت امرأة إلى البيت، وهي صديقة زوجتك فيقول: تعالوا إلى هنا ليجلسهما إليه، رغم سنه، بحجَّة أن غرفته فيها مدفأة، فأنا أذكر هذا و أمثاله بالحديث القدسي: "فاستحِ مني فأنا أستحيي منك".

* * *

قصة وحشي بن حرب الحبشي :

هذه قصة صحابي، ونقول " صحابي" والله أعلم بحاله، فهذا الرجل فعل مأساة في تاريخ المسلمين؛ قتل خير الناس بعد محمد صلى الله عليه و سلم، وقتل شرَّ الناس أيضاً، فلعل الله عز وجل يغفر له هذه بتلك، فَمَنْ هذا؟ هذا الذي أدمى فؤاد رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أدمى فؤاده حينما قتل عمه حمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وإنْ أحدٌ منكم أكرمه الله عز وجل بزيارة الحرم النبوي الشريف، فلينتقل إلى الأماكن المقدسة، ومنها أُحُد، فإنه سيجد قبر سيدنا حمزة، أشهر قبر هناك، في ساحة معركة أحد، ثم شفى قلوبَ المسلمين حينما قتل مسيلمة الكذاب يوم اليمامة، إنه وحشي بن حرب الحبشي، المكنى أبو دسمة، و له قصة عنيفة حزينة دامية، فأَعِرْهُ سمعك ليروي لك مأساته بنفسه، قال وحشي: كنت غلاماً رقيقاً لجبير بن مطعم أحد سادة قريش، وكان عمه طعيمة قد قتل يوم بدر على يد حمزةِ بن عبد المطلب، فحزن عليه أشد الحزن، وأقسم باللات والعزى ليثأرنّ لعمه، وليقتلن قاتله، وجعل يتربص بحمزة الفرص، ولم يمضِ على ذلك طويل وقت حتى عقدت قريش العزم على الخروج إلى أُحُد للقضاء على محمد بن عبد الله، والثأر لقتلاها في بدر، فكتَّبتْ كتائبها، وجمَّعتْ أحلافها، وأعدَّت عدَّتها، ثم أسلمتْ قيادتها إلى أبي سفيان بن حرب، فرأى أبو سفيان أن يجعل مع الجيش طائفة من عقيلات قريش، أيْ من نساء قريش، ممَّن قتل آباؤهن، أو أبناؤهن، أو أخوتُهن، أو أحٌد من ذويهن في بدر، ليَحمسْنَ الجيش على القتال، وَيَحُلْنَ دون الرجال ودون الفرار، فكان في طليعة من خرج معه من النساء زوجه هند بنت عتبة، وكان أبوها وعمها وأخوها قد قتلوا جميعاً في بدر، ولما أوشك الجيش على الرحيل التفت إليّ جبير بن مطعم وقال: هل لك يا أبا دسمة – أأي وحشيًا – في أن تنقذ نفسك من الرق؟ قلت: ومن لي في ذلك؟ قال: أنا لك به، قلت: وكيف؟ قال: إن قتلتَ حمزة بن عبد المطلب عم محمد بعمي طعيمة بن عدي فأنت عتيق، قلت: ومن يضمن لي الوفاء بذلك؟ قال: من تشاء، ولأُشهِدَنَّ على ذلك الناسَ جميعاً، قلت: أَفعلُ وأنا لها، قال وحشي: وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلّما أخطئ شيئاً أرميه بها، فأخذت حربتي ومضيت مع الجيش، وجعلت أمشي في مؤخرته، قريباً من النساء، فما كان لي أربٌ بالقتال، له مصلحة بسيدنا حمزة فقط، وكنت كلما مررتُ بهند زوجة أبي سفيان، أو مرَّتْ بي، ورأت الحربة تلتمع في يدي تحت وهج الشمس تقول: أبا دسمة أشفِ واستشفِ، فلما بلغنا أحد والتقى الجمعان خرجت ألتمس حمزة بن عبد المطلب، وقد كنت أعرفه من قبل، ولم يكن حمزة يخفى على أحد، لأنه كان يضع على رأسه ريشة نعامة، كما كان يفعل ذوو البأس من شجعان العرب، وما هو إلا قليل حتى رأيت حمزة يهدر بين الجموع كالجمل الأورق، وهو يهد الناس بسيفه هداً، فما يصمد أمامه

أحد، ولا يثبت له شيءٌ، وفيما كنت أتهيأ له، وأستتر منه بشجرة أو حجر متربصاً أن يدنو مني، حتى تقدمني إليه فارسٌ من قريش يدعى سباع بن عبد العزي، وهو يقول: بارزني يا حمزة، بارزني، فبرز له حمزة وهو يقول: هلمّ إلي، ثم ما أسرع أن بادره بضربة من سيفه فخر صريعاً، يتخبط بدمائه بين يديه، عند ذلك وقفت من حمزة موقفاً أرضاه، أي صارت المسافة قريبة، وجعلت أهز حربتي، حتى إذا اطمأننت لها دفعت بها نحوه، فوقعتْ في أسفل بطنه، فخطا متثاقلاً نحوي خطوتين، ثم ما لبث أن سقط والحربة في جسده، فتركتها حتى أيقنت أنه مات، ثم أتيته وانتزعتها منه، ورجعت إلى الخيام وقعدت فيها، إذ لم تكن لي حاجة غيره، وإنما قتلتُه لأُعتَق، ثم حمي وطيس المعركة وكثر فيها الكر والفر، غير أن الدائرة ما لبثت أن دارت على أصحاب محمد، وكثر فيهم القتل، عند ذلك غدت هنُد بنتُ عتبة على قتلى المسلمين، ومن ورائها طائفة من النساء، فجعلت تمثّل بهم، فتبقر بطونهم، وتفقأُ عيونهم، وتجدع أنوفهم، وتصلم آذانهم، وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه و سلم دُعِي إلى التمثيل في قتلى بدر، فقال عليه الصلاة والسلام: "لا أمثل بهم فيمثل الله بي ولو كنت نبياً"، ثم صنَعَتْ من الأنوف والآذان قلادةً وأقراطاً فتحلّت بها، ودفعت قلادتها وقرطيها الذهبيين لي وقالت: هما لك يا أبا دسمة، هما لك، فاحتفظتُ بهما فإنهما ثمينان، ولما وضعت الحرب أوزارها، عدتُ مع الجيش إلى مكة فبرَّ لي جبيرُ بن مطعم بما وعدني، وأعتق رقبتي، فغدوتُ حرًّاً، لكن أمر محمد صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعل ينمو يوماً بعد يوم، وأخذ المسلمون يزدادون ساعة بعد ساعة فكنتُ كلما عظم أمر محمد، عظم عليَّ الكرب، وتمكن الجزع والخوف من نفسي، وما زلتُ على حالي هذه حتى دخل محمد مكة بجيشه الجرار فاتحاً، والعاقبة للمتقين، عند ذلك ولَّيْتُ هارباً إلى الطائف، ألتمس فيها الأمن، لكن أهل الطائف ما لبثوا كثيراً حتى لانوا للإسلام، وأعدُّوا وفداً منهم إلى لقاء محمد، وإعلان دخولهم فيه، وعندما أنزل ربنا عز وجل قوله تعالى:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا *فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

[سورة النصر: 1 . 3]

قالوا: في هذه الآية نَعيُ النبي عليه الصلاة والسلام، أي أنّ رسالته تحققت وتمَّت، وقال عليه الصلاة والسلام:" يأتي على أمتي زمان يخرج الناس من دين الله أفواجًا"، وكيف ذلك؟ فهذه مثلاً مضى عليها أربعون سنة محجَّبة ثم سفرت وأظهرتْ مفاتنها، وتدَّعي أنّ خلقها قد ضاق، بل قد ضاقت نفسُها ذرعًا بالحجاب، فيخرج الناسُ أفواجاً، كما دخلوا أفواجاً، عند ذلك قال وحشي: سقط في يدي، وضاقت عليَّ الأرضُ بما رحبت، وتعيَّت عليّ المذاهب، فقلت: ألحقُ بالشام، أو باليمن، أو ببعض البلاد الأخرى، فوالله إني لفي غمرة همَّي هذه إذْ رقّ لي رجل ناصح

وقال: ويحك يا حبشي، إن محمدًا واللهِ لا يقتل أحدًا من الناس إذا دخل في دينه، وفي الإسلام قواعد صارمة، ولو أنّ هذا الحبشي قالها نفاقاً، أو شكلاً، أو تقية، أو ممالأةً، أو مماراةً، لو قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقد حقَن دمه، قال له: ويحك يا حبشي، إن محمدًا والله ما يقتل أحدًا من الناس إذا دخل دينه، وتشهد بشهادة الحق، فما أنْ سمعتُ مقاله، حتى خرجت ميمّمًا وجهي شطرَ يثرب، أبتغي محمدًا، فلما بلغتها تحسّست أمَره، فعرفت أنه في المسجد، فدخلت عليه في خفةٍ وحذر، ومضيت نحوه، حتى صرت واقفاً فوق رأسه، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فلما سمع الشهادتين، رفع بصره إليّ، فلما عرفني ردّ بصره عني، وقال: أوحشي أنت؟ قلت: نعم يا رسول الله، فقال: اقعد وحدِّثني كيف قتلت حمزة؟ فقعدت فحدثت خبره، فلما فرغت من حديثي أشاح عني بوجهه، وقال: ويحك يا وحشي، غيِّب وجهك عني، فلا أرينَّكَ بعد اليوم، أيْ لن يقتله رسول الله، ففي الإسلام قواعد ثابتة، لكن غيِّبْ وجهك عني، فلا أرينَّك بعد اليوم، فكنت منذ ذلك اليوم أتجنب أن يقع بصر النبي الكريم عليّ، فإذا جلس الصحابة قبالته أخذتُ مكانًا خلفه، وبقيتُ على ذلك حتى قبض النبي عليه الصلاة والسلام، فموقفي مُخْزٍ إلى يوم القيامة، ثم أردف وحشي يقول: وعلى الرغم من أني عرفت أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله، فقد ظللتُ أستشعر فداحة الفعلة التي اجترحتها، وأستفظع الأمرَ الجلَلَ الذي نزل بي، وطفقت أتحيَّنُ الفرص كي أكفِّر عمَا سلف، وصدَق النبي الكريم إذْ قال: " ألا يا رب شهوةِ ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً "، فعلى الإنسان أنْ يفكِّر مليون مرة قبل أنْ يعمل عملاً، كقتل النفس، فيمكن لعملٍ ما أنْ يجعله في حجاب إلى يوم القيامة، فقدْ يكون ذاك العملُ أحَدَ أسباب هلاكه، " ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزنًا طويلاً "، ثم قال: فلما لحق النبي الكريم بالرفيق الأعلى، وآلت الخلافة إلى صاحبه أبي بكر، وارتدَّ بنو حنيفة أصحاب مسيلمة مع المرتدين، جهّز خليفةُ رسول الله جيشاً لحرب مسيلمة، فقلت في نفسي: إن هذه وَاللَّهِ فرصتك يا وحشي فاغتنمها، ولا تدَعْها تفْلتُ من يديك، ثم خرجت مع جيوش المسلمين، وأخذت معي حربتي التي قتلت بها سيد الشهداء حمزة، و آليت على نفسي أن أقتل بها مسيلمة الكذاب، أو أظفر بالشهادة، فلما اقتحم المسلمون على مسيلمة وجيشه حديقة الموت، والتحموا بأعداء الله جعلت أترصد مسيلمة، فرأيته قائماً والسيف في يده، ورأيت رجلاً من الأنصار يتربص به مثلما أتربص أنا به، فلما وقفتُ منه موقفاً أرضاه هززت حربتي حتى إذا استقامت في يدي دفعت بها نحوه فوقعت فيه، وفي نفس اللحظة التي أطلقت حربتي على مسيلمة كان الأنصاري يثب عليه ويكيل له ضربة بالسيف، فربك يعلم أيّنا قتله، فإن كنت أنا الذي قتلته أكن قد قتلتُ خير الناس بعد محمد، وقتلتُ شر الناس بعده، لعلّ الله عز وجل يجعل هذه بتلك.

عذاب النفس يسبق كل عذاب :

هذه القصة هدفها أنّ الإنسان أحياناً في ساعة الغفلة، أو طغيان الشهوة، أو الطمع في المال، أو القوة العمياء، يرتكب حماقة كبيرة من السذاجة والغباء، حيث تقول: أتوب منها، هذا كلام، فلما تشعر النفس بشناعة عملها وفظاعة فعلتها فليس مِن قوة تزيح عن كاهلها الشعور بالإثم، فمثلاً إذا كان الإنسان في ساعة سكر شديد، قام يذبح ابنه، وبعدما ذهب عنه أثرُ السكر وصحا منها رأى ما فعلتْ يدُه، ولات حين مندَم، ولو تصورنا أنّ أحداً لم يحاسبه، ولم يعتقله، وليس مِن قضاء يحاكمه، لكنّه يتفتَّت ألمًا وحسرةً، و يموت كل ساعة مئة مرّة، لماذا؟ لأن عذاب النفس يسبق كل عذاب، و قد حُكيَ لي أنّ شخصًا منذُ ثلاثين سنة تقريبًا في بيروت دهس طفلاً بسيارته، فلما أوى لينام ما استطاع، والحادث وقع الساعة الواحدة ليلاً حسب الرواية، إذْ بعث الوالدُ ابنه لشراء حاجة من الدكان، وبينما الولدُ يقطع الشارع دهسته سيارة فمات، فأول يوم ما استطاع أن ينام، وثاني يوم، وثالث يوم، ورابع يوم، ومضى عليه عشرون يوماً لا ينام، فالتجأ إلى طبيب نفسي علَّه يجد ما يريحه و يهدِّئ من رَوعه، فحذارِ من ساعة الغفلة، ومن ساعة طغيان الشهوة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 6 : التيمم : أركانه – سننه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، اللهم يا أكرم الأكرمين أغننا بالعلم، وزيّنا بالحلم، وأكرمنا بالتقوى، وجمّلنا بالعافية، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أركان التيمم و سننه :

وصلنا في الدرس الماضي في بحث الفقه إلى " التيمم "، وتحدثنا عن تعريفه، وعن شروطه، ووصلنا إلى أركانه، وسننه.

التيمم له ركنان فقط: مسح الوجه، ومسح اليدين فقط.

وأما السنن فسبعة: التسمية في أوله، لا بد من أن تسمي في أول التيمم، والترتيب، تبدأ بالوجه، وتثني باليدين، ثم الموالاة، تمسح الوجه، وتمسح بعده اليدين مباشرة، دون أن تمسح الوجه وتمضي إلى حاجة، ثم تعود فتمسح اليدين، وهذا معنى الموالاة.

أكرِّر: التسمية: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ، والترتيب: مسحُ الوجه أولاً، واليدين ثانياً، والموالاة: متابعة مسح الوجه واليدين في وقت واحد.

وإقبال اليدين بعد وضعهما في التراب، وإدبارهما، تضع اليدين على التراب وتجعلهما تقبلان وتدبران، ونفضُهما، إذا علقت بهما كمية من التراب كثيرة ينبغي أن تنفضهما، تفريج ما بين الأصابع.

أكرِّر: إقبال اليدين، وإدبارهما، ونفضهما، وتفريج ما بين الأصابع.

وندب تأخير التيمم لمن يرجو الماء، بعثتَ إنسانًا ليأتي بالماء، وأنت في انتظاره، فيندب تأخير التيمم، طبعاً قبل خروج الوقت، فإذا خرج الوقت المستحب ينبغي أن تتيمم وأن تصلي.

ويجب طلب الماء إلى مقدار أربعمئة خطوة، تقريباً نصف كيلومتر، إن ظن قربه مع الأمن وإلا فلا، فإذا كنت مثلاً في أثناء حرب داخل أرض عدو، فالأمن غير متوافر، فلو أن الماء على بُعد ثلاثمئة متر لا ينبغي أن تذهب، وإذا توافر الماء إلى قدر نصف كيلومتر مع وجود الأمن تذهب إليه وإلا فلا.

ويجب طلبه ممن هو معه، إنسان معه ماء فمرّت شاحنة عندها مستودع ماء، فإن كان هناك محل تشح به النفوس، أو غلب على ظنك أن أحداً لن يلبيك، فتيمَّمْ وصلِّ، لكن إذا كنتَ في أرض خيّرةٍ وأناس طيبين، أو كنت في أرض يغلب على أهلها حبُّ الخير، فاطلب الماءَ من المارة، وإن لم يعطه إلا بثمن مثله لزمه شراؤه، كأنْ يقال لك: صفحة الماء بليرة، أما أن تكون بمئة ليرة، فهذا ليس ثمن مثله، فصار ذاك ابتزازًا لكن الصفيحة بليرة ثمن معقول، وإن لم يعطه إلا بثمن مثله لزمه شراؤه إن كان المالُ فاضلاً عن نفقته، معه مال زائد عن حاجته فالسعر معقول، والمبلغ موجود وفائض، عندئذ لزمه الشراء.

ويصلي بالتيمم الواحد ما شاء من الفرائض، فكلما كثرت الفرائض قلَّ سعر الماء، فيقل السعر للمرة الواحدة يقسمهم على عشرة فروض، أو على خمسة فروض، يجد أنّ الفرض الواحد تكاليفه قليلة.

وفي بعض المذاهب لا يصح التيمم قبل دخول الوقت، ولكن في المذهب الحنفي يصح التيمم قبل دخول الوقت.

كذلك إن كان أكثر البدن أو نصفه جريحاً تيمَّم، ولو وجدَ الماء، فمثلاً وقع حادث، ومعظم البدن مضمد، أو فيه جروح و رضوض، فما دام نصف البدن أو أغلبه مجروحًا فهذا يتيمم ولو وجد الماءَ.

أمّا إنْ كان أكثرُه صحيحاً غسَله ومسَح على القسم المضمد.

ولا يجمع بين الغسل والتيمم، فلا يجوز الجمع بينهما، فما دام يستطيع الغسل، والماء متوافر، فلا ينبغي أن يجمع مع الغسل التيممَ.

نواقض التيمم :

اذا ينقض التيمم؟ كلُّ ما ينقض الوضوء ينقض التيمم، ويضاف إليه شيء آخر وهو القدرة على استعمال الماء الكافي.

فقرة من باب أرأيت لو أنه فعل كذا وكذا :

وبعد فهذه فقرة من باب: " أرأيت لو أنه فعل كذا وكذا "، هؤلاء سمُّو في علم الفقه "آرائيين"، أحد الصحابة الأجلاء عرضت عليه قضية نادرة، فقال رَضِي اللَّه عَنْه أَوَقَعَتْ؟ قيل: لا، قال: إن وقعت نفتي بها، توفيرًا للوقت، وهذه الحالة النادرة؛ قال: رجل مقطوع اليدين والرجلين، وبقي منه الجذعُ، هذا ما حكمه؟ قال: هذا يصلي من دون طهارة، ولا وضوء، ولا تيمم عليه، فمِن أندر الحالات أن يعيش الإنسان جذعاً فقط، من غير يدين ولا رِجْلين، وعلى كلٍّ فنحن في صدد القضايا الواقعية، وهذا هو الصواب من غير تنطُّع.

تلخيص لما سبق :

إذاً التيمم له ركنان، وله سبع سنن، أمّ الركنان فإنّي أعود لذكرهما مع إعادة موجزة للموضوع كله: مسح الوجه، ومسح اليدين، فتُمسَح اليدُ ظاهرها أولاً وباطنها ثانياً، اليمين ثم الشمال، والوجه من منبت الشعر إلى أسفل الذقن، وعرضاً إلى شحمتي الأذنين، وركناه مسح اليدين والوجه، وسننه التسمية بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والترتيب، مسح الوجه ثم اليدين، والموالاة، الوجه واليدان في وقت واحد، وإقبال اليدين بعد وضعهما في التراب وإدبارهما، ونفضهما، وتفريج الأصابع، وتأخير التيمم لمن يرجو الماء، وطلب الماء إلى مقدار أربعمئة خطوة، إن ظن قربه مع الأمن، وإلا فلا، ويجب طلبه ممن هو معه مِن المارة إن كان في محل لا تشح به النفوس، أو يغلب على ظنه أن الناس لا يبخلون بالماء، وإن لم يعطه إلا بثمن مثله لزمه شراؤه إن كان معه فاضلٌ عن نفقته، ويصلي بالتيمم الواحد ما شاء من الفرائض والنوافل، وصحّ تقديمه على الوقت، أي يجوز التيمم قبل دخول الوقت، ولو كان أكثر البدن أو نصفه جريحاً تيمم، وإن كان أكثره صحيحاً غسله ومسح على القسم الجريح، ولا يجتمع غسل وتيمم، وينقضه ما ينقض الوضوء، ويضاف إلى النواقض ناقض آخر وهو القدرة على استعمال الماء الكافي، أما مقطوع اليدين والرجلين فإذا كان في وجهه جراحة يصلي بغير طهارة ولا يعيد.

* * *

صفات العلماء بالله تعالى :

والآن إلى إحياء علوم الدين، طبعاً قد يسأل سائل ما حكمة تنوع الموضوعات؟ تنوع الموضوعات يدفع السقم، فنتحدّث في الفقه عشر دقائق، على مدى الأشهر والسنوات فنتعلم كل شيء، لكن لو أمضينا الوقت كله بالفقه لثقل ذلك على النفس، والآن إلى صفات العلماء بالله تعالى، وهنا صفحة يجب أن أقرأها لكم وأشرحها.
من صفات العلماء بالله تعالى أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب، ومعرفة طريق الآخرة وسلوكه.
فهناك علم الظاهر، رجلٌ وقف ليصلي فصلى صلاة صحيحة، وقف منتصبًا، وقرأ وفق أحكام التجويد، وركع مطمئناً، وسجد مطمئناً، فقد توافرتْ جميع الصفات الواردة فالصلاة الصحيحة، لكن قلبه ساهٍ، مشغول بالدنيا، كل خواطره تواردتْ عن الدنيا، وجميع المشكلات في الأسبوع تأتيه وهو في الصلاة، لماذا لا تزوره أخته فما لها حق في عدم زيارته؟ وهنا انتهت الفاتحة وقال: ولا الضالين، ثم تذكَّر أنها زارته من يومين ولم تجده، ثم قال: آمين، أهذه هي الصلاة؟ لو أنه طبَّق الشروط تطبيقًا ظاهريًا فإنها صلاة، لكن هنا الإمام الغزالي رَضِي اللَّه عَنْه يلفت النظر إلى أن علماء الآخرة ينبغي أن تكون عنايتهم منصبةً على تطهير القلب، والالتفات إلى الله عز وجل، وعلم الباطن.

يقول: "إن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة"، شيء جميل، المجاهدة تفضي إلى المشاهدة، أتحب أنْ تجرِّب فجرِّب ولا بأس، اعمل عملاً صالحًا يكلفك شيئًا ثمينًا، اخدم إنسانًا خدمة شاقة، امشِ معه عشر ساعات، لا تبتغي بها إلا وجه الله، زرْ مريضاً في أقصى المدينة، اركب أول حافلة ثم الأخرى لبُعدِ المسافة، وخذ له معك هدية، وحدثه عن الله وارجع، إنْ رأيتَ واحدًا بحاجة إلى مال، فاقتطع جزءًا من مصروفك وادفعه له، اعمل عملاً صالحًا حقيقيًا، فستجد نفسك إذا قرأت القرآن تنهمر الدموعُ انهمارًا، وتفهم شيئاً لم تكن تفهمه من قبل، هاتان الكلمتان دقيقتان، جاهِدْ تشاهِدْ، شيء عجيب أن العلم بالله تعالى ثمنه ليس من جنسه، بل ثمنه بعيد عن جنسه، فغضُّ البصر، وإنفاق المال، وخدمة الناس، والتودُّد إليهم، وتقديم خدمات قيّمة لهم، والمساعدة، والنصيحة، وبذل الوقت رخيصًا، وبذل الجهد سخياً، تقرأ القرآن فتنهمر الدموع، والفكر مفتوح، والعقل متفتح، تفهم عن الله أشياء لم تقرأها في تفسير، هذا معنى قول الإمام الغزالي:" جاهد تشاهد ".

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة العنكبوت: 69]

هذه المعية لمن؟ للمحسنين، معية الله بتجلّيه على قلبك.

المجاهدة تفضي إلى المشاهدة :

هذه المشاهدات القلبية التي اتصف بها الصوفيون لا تتأتَّى إلا بالمجاهدة، بالِغْ في غضِّ البصر، وبالغ في العمل الصالح، ولا تنتظر أن يأتيك الناس ويطلبون منك عملاً صالحاً، بل أنت ابحث عن عمل صالح، وكل واحد منا لو بحث لوَجَد في انتظاره آلاف الأعمال الصالحة، ألا يستطيع أن يزور مريضاً؟ ألا يستطيع أن يقدم مساعدة؟ ألا يستطيع أن يفعل معروفاً؟ ألا يستطيع أن يخدم إنساناً؟ ألا يستطيع أن يمشي في حاجة أخيه؟ الأعمال الصالحة كثيرة جداً، فلو أنك تتبعتها، وبحثت عنها لوجدتها، فإذا فعلتها سعدت برضى الله عز وجل، وإذا أردتم ملخص الملخص دون الغوص في متاهات العلوم الدينية، ودون تضييع الوقت الثمين في علوم لا تنفع ولا تضر، إذا أردتم أن تكونوا على جوهر حقيقة الدين فعليكم بالمجاهدة، فإذا جاهدتم شاهدتُم، هكذا يقول الإمام الغزالي.

فإن المجاهدة تفضي إلى المشاهدة، ودقائق علوم القلوب تتفجر بها ينابيع الحكمة من القلب، وأما الكتب والتعليم فلا تفي بذلك.

الحكمة الخارجة عن الحصر والعد تنفتح بالمجاهدة والمراقبة :

كتب فقط؟ علوم عصرية تعارف الناسُ عليها، هذا درس الحقوق، عنده أصول القانون، تاريخ القانون، القانون المقارن، الأحوال الشخصية، الفرائض، علم المواريث، أصول المحاكمات، درجات المحاكم، أنواع الأحكام، آداب القضاة، فهذه علوم عصرية، ثم دارس الفيزياء، درس الفيزياء، والكيمياء، والحرارة، والمغناطيس، والضوء، والكهرباء، والطاقة، والطاقة الذرية، والكيمياء النووية، ثم دارس الرياضيات، درس الرياضيات الحديثة، والرياضيات التقليدية، والهندسة الفراغية، والهندسة المستوية، ثم اللغة العربية، فهذا درس أصول اللغة، وعلوم اللغة، وتاريخ اللغة، والنحو والصرف، هذه كلها فروع الجامعة، وكل فرع له مجموعة مواد، وكتب تقرؤها، وتفهمها، وتحفظها، وتلخصها، وتذاكر فيها، تأخذ درجة مقبول، أو جيد، أو امتياز، فتنجح، وتأخذ شهادة، هذه أشياء كلها مبذولة للناس، أما الهدى فغيرُ هذا الشيء، فإذا نزل الدينُ إلى هذا المستوى، وصار كتبًا تقرأ، وتُحفظ، وتلخَّص، وتُفهم، ويتكلم الناسُ بها في المجتمعات، هذا مثقف ثقافة تاريخية، وذاك مثقف ثقافة حقوقية، وآخر مثقف ثقافة إسلامية، وهذا دراسته بالفلك، وذاك دراسته بالرياضيات، وآخر دراسته بعلوم التجارة، ويحمل بكالوريوس تجارة، أو بكالوريوس بالمحاسبة، هذا بالإعلام، وذاك بالصحافة، وغيرُه في الأدب، وآخر في اللغة

الأجنبية، وهذا بالتاريخ، وهذا في الجغرافيا، وهذا بالفلسفة، وهذا بالشريعة، نزلنا الدين العظيم إلى مستوى العلوم العصرية، لكل مؤلفات، وكتب، وفهارس، وتواريخ، ومقررات، وامتحانات، الفصل أول، والفصل الثاني، والنتيجة جيد أو مقبول أو امتياز، وهذا مرقم قيده، وآخر مفصول، هذا يحمل شهادة في الشريعة، أما الهدى فشيء آخر، الهدى انضباط، وغض بصر، وخوف من الله عز وجل، فإنّ رأس الحكمة مخافة الله، فلو قطعتَ رأس الثعبان مثلاً لمات، فلو ألغيتَ خوف الله هل بقيت حكمة؟ لا تبقى حكمة، إذًا هذا العلم بالله تعالى، وثمنه المجاهدة، ولتبقَ الآية في ذهنك:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة العنكبوت: 69]

هذه آية يجب أن تحتلّ بؤرةً ذهنك دائماً.

قال العلماء: أما الكتب، والتعليم من خلالها فلا تفي بذلك، بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة، والمراقبة، ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة.

البحث عن الأعمال الصالحة و عملها كقربة لله عز وجل :

قال لي صديق: كنتُ راكبًا سيارتي قادمًا من الزبداني الساعة الثانية عشرة ليلاً، وجدتُ امرأة مع رجل وتحمل وعلى يديها طفلاً، وشعرت أنهما بحاجة للمساعدة فوقفت، صعد الزوج وزوجته ومعهم طفل حرارته مرتفعة تقدر بأربعين درجة، ويظهر أنهم غرباء، كان ذلك في أثناء أحداث لبنان، فأخذتهم إلى طبيب، ومن الطبيب للصيدلي، ثم إلى المشفى من أجل ضرب الإبرة، وقال: أربع ساعات أمضيتها في خدمة هذه الأسرة، فوصل الساعة الرابعة إلى البيت مرهقًا، ثم قال: أمضيت أسبوعين في سرور عارم، وكأنني في الجنة، ولما أُصلي أشعر كأنني محلّق في جوِّ السماء، ولما أقرأ القرآن أشعر كأنني أفهم القرآن كلمة كلمة وحرفًا حرفًا، وهذا شيء ثابت حقًّا، والتجربة أكبر برهان، فابحث عن عمل صالح وافعله قربة إلى الله عز وجل، ثم انظر كيف أن الله عز وجل يفتح قلبك لمعرفته، ويتجلى عليك بالسكينة، والطمأنينة وتحس أنك إنسان آخر، هذا ملخص الكلام، واسمعوا هذه الكلمة؛ قال: فكم من متعلم طال تعليمه، ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة.

نسأله: ما تفسير هذه الآية، يقول: واللهِ سأراجع كتب التفسير، وهذه الآية؟ يقول: والله نسيتُ تفسيرها، وسأرى ماذا قال عنها العلماء، رَجَعَ بعد حين وقال: واللهِ قال البيضاوي مثلاً كذا وكذا، حسنًا وهذه الآية التي في زيد،

قال: واللهِ إنّ سيدنا رسول الله شاهد السيدة زينب في وضع متبذِّل فأعجبه حسنُها، قال: سبحان الله! فسمعتْه، فحدثت زيداً فكرِهها، فنوى طلاقها، هكذا قالوا عن رسول الله في التفسير – أعوذ بالله– أهذه أخلاق رسول الله؟ فإذا كان الشخصُ لا معرفة له برسول الله، وقرأ في التفسير كلامًا مغلوطًا، أفيصدِّقه؟ فليحذرِ المسلم المؤمن مِن التقوُّل على الرسول ﷺ وأصحابه الكرام، فهو وإياهم قمّة الهرم البشري.

((كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[مسلم عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ]

أنتَ لك عقلٌ، ولا بد لك من موقف، فلو قال المفسر: إنّ القصة هذه هكذا رواها الطبري، أأُعفِي من الإثم؟ لا، كيف قبلتها؟ وكيف صدقتها؟

أعظم الأهداف مبذولةٌ لكل مسلم :

قال العلماء: وكم من مقتصر على المهم في التعلم، ومتوافر على العمل، ومراقبة القلب، فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار به عقول ذوي الألباب.

فإذا تعلم الإنسان الأساسيات، والتفتَ إلى قلبه، ولعمله الصالح، ومجاهدة نفسه وهواه، فتح اللهُ عز وجل على قلبه من معاني كتاب الله ما تحار به الألباب، وهذا الشيء ليس مبذولاً لواحد فقط، بل هو لكل واحد منكم، وهذه عظمة الإسلام، لا أحد أحسن من أحد، فالتفاضل في درجات الإيمان فقط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وكل من سار على هذا الدرب وصل إليه وإلى هدفه، وأعظم الأهداف مبذولةٌ لكل مسلم، ليس في الإسلام طبقة رجال الدين، وطبقة بعدهم ثانية، وطبقة وسطى، لا شيء مِن هذا، بل كل مسلم مفتوح أمامه الباب ليصل إلى أعلى مستوى في الإيمان:

((مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوَرَثَهُ الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ))

[أخرج أبو نعيم في الحلية عن أنس]

الحديث الأخير في هذا الموضوع، قال الإمام علي رَضِي اللَّه عَنْه: القلوب أوعية، وخيرها أوعاها للخير إما أكثرها سعةً، أو أكثرها وعياً– والناس ثلاثة، عالم رباني، أي يستمد علمه من الله عز وجل.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 282]

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾

[سورة التغابن: 11]

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

[سورة الأنبياء: 79]

إلا أن يؤتى فهماً في كتاب الله، هذا نص قرآني " ففهمناها سليمان" وهذه آية ثانية " واتقوا الله ويعلمكم الله " وهذه آية أخرى " ومن يؤمن بالله يهد قلبه" هذه آيات مِن القرآن الكريم تؤكد أن الله سبحانه وتعالى إذا رأى من عبده صِدْقاً في طلبه فتح قلبه لمعرفته.

منافع المال تزول أما منافع العلم فلا يستطيع أحد أن يسلبها من الإنسان :

لذلك قال أحد العلماء الكبار وقد دخل إلى مسجد فرأى فتًى يحدث الناس، والناس مقبلون عليه، فرأى إقبال الناس على هذا الفتى مما يحط من قدره هو، فهو العالم الكبير، الذائع الصيت، العالم العلامة، الحبر الفهامة، وحيد عصره، فريد زمانه، رأى فتى صغيرًا، لا يعرفه أحد، والناس مقبلون عليه إقبالاً شديداً، فأراد أن ينتقص من شأنه، فقال: واللهِ يا فتى ما سمعنا بهذا الكلام، من أين جئت به؟ فقال الفتى على مسمع الناس جميعًا: يا شيخ أتعلمت كل العلم؟ قال: لا، فقال الفتى: أتعلَّمتَ جله؟ قال: لا، فقال الفتى: أتعلمتَ نصفه؟ فخجل، وقال: نعم، قال له: هذا من النصف الذي لم تتعلمه إذًا، فقال هذا العالِم: والله ما ندمت على قول قلته في حياتي كندمي على قولي لهذا الشاب: يا فتى ما سمعت بهذا الكلام.

والإنسان حين يعرف أن العلم بحرٌ ليس له نهاية يتواضع، ويظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه علم فقد جهل، عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم، إياك أن تكون منهم، فالناسُ ثلاثة أصناف الناس؛ عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل ناعق، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق، فاحذر يا كميل أن تكون منهم، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق، العلم دين يدان به، العلم دين، تكتسب به الطاعة في الحياة، وتكتسب به جليل الأحدوثة بعد الممات، العلم حاكم، والمال محكوم، ومنفعة المال تزول بزواله، فإذا فلَّس إنسان فجأة وأُخِذتْ أمواله منه فقد زالت كل منافع المال، أما منافع العلم فلا يستطيع أحد على وجه الأرض أن يسلبها منك، مات خزان المال وهم أحياء، وهم في قمة حياتهم وأوج شبابهم ميتون كما قال الله تعالى:

﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾

[سورة النحل: 21]

همُّهم بطونهم، وقبلتهم نساؤهم، والدنيا أكبر همهم، ومبلغ علمهم، يغضبون لزوالها، ويرقصون طربًا لمجيئها، وهم في غفلة عن الموت، يأتيهم بغتة فيصعقهم، مات خُزان المال وهم أحياء، والعلماء أحياء باقون ما بقي الدهر.

أصناف البشر :

ثم قال الإمام علي كرم الله وجه: "إن ها هنا علماً جمًّاً، آه لو وجدت من حمله، بل أجد طالباً غير مأمون، يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا"، انظر إلى هذا الصنف الخطير، يريد الدنيا، يريد الطعام والشراب، والمال، والوجاهة عن طريق الدين، ويستطيل بنعم الله على أوليائِهِ، ويستظهر بحججه على خلقه، هذا صنف، صنف أراد الدنيا عن طريق الدين.

الصنف الثالث: " أو مناقض لأهل الحق"، لكن يُزرع الشك في قلبه لأول عارض، مثلاً هو مع هذا العالم خمس سنوات، ثم قرأ مقالة في مجلة فيها: " إنهم عرفوا جنس الجنين ذكر أم أنثى "، فالمعنى عنده أنّ القرآن ليس صحيحًا ولا صوابًا، وأنّ الدينَ خَلْط، فهذا الإنسان ضعيف التفكير، فأولُ شخصٍ ذكيٌّ، لكنه استخدم ذكاءه لاغتنام الدنيا عن طريق الدين، وهذا غير مأمون، أما الثاني فليس عنده هذا الخبث، لكنه محدود التفكير، يشك في الأمور بسرعة، هذا النوع الثاني لا بصيرة له، وهو لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، والثالث: أو موهوماً باللذات، سلس القياد إلى الشهوات.

الصنف الرابع: مغرماً بجمع الأموال والادخار، فهؤلاء جميعاً أقربُ شبهٍ بهم الأنعامُ السائمةُ، اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه، ثم لا تخلو الأرض من قائم لله بحُجَّةٍ، إما ظاهراً مكشوفاً، أو مستتراً مقهوراً، هذا إما مشهورٌ، وإمّا مغمورٌ، لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبيناته، وكم هؤلاء الصادقون؟ وأين أولئك؟ هم الأقلون عدداً، والأعظمون قدراً، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، يحفظ الله بهم حججه، حتى يودعوها مَنْ وراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقة الأمر، فباشروا روح اليقين، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون، أي رضوا ببيت صغير، بفراش غير وثير، بطعام خشن، بثياب قليلة، بأدوات متواضعة. مال، وسيارة فخمة، وبيت فخم، فقط، هذه كل أهدافنا، أما أنْ يدرك أنّ هناك آخرة، راجع إلى إله عظيم، أسماؤه حسنى، خالق الكون العظيم، هذه أشياء لا تعنينا أبداً، سبحان الله " أموات غير أحياء".

لكنْ هناك مَن صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى، أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه، وأمناؤه، وعماله في أرضه، والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال: "وا شوقاه إلى رؤيتهم".

لا تخلو الأرض من صادقين، معهم الحجة، مخلصون في دعوتهم إلى الله عز وجل، مترفعون عن الدنيا، صغرت أم كبرت.

* * *

الجالب مرزوق والمحتكر ملعون :

وبعد فإلى بعض الأحاديث الشريفة:

((الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ))

[ابن ماجه عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ]

هذا مبدأ عام، فالإنسان يأتي ببضاعة يبيعها بسعر معتدل، ويربح منها، ثم يأتي بغيرها، فهذا مرزوق، هذا الإنسان ماذا يفعل؟ يخفف عن المسلمين أعباء الحياة، ويسهم في خفض الأسعار، يجلب البضاعة ويبيعها، ويجلب غيرها ويبيعها، لماذا باعها سريعاً؟ لأنه ربح فيها ربحًا معقولاً، سعره معقول، بضاعته جيدة، تهافت الناس عليها فاشتروها، هذا اسمه جالب، وهذا الجالب مرزوق، فأحد كبار الصحابة، وربما كان أغنى الصحابة سئل: كيف حصَّلتَ هذا المال؟ فقال: لم أبعْ دَيْناً، ولم أستقلَّ ربحاً، فمهما ربحتْ الحاجةُ يبيعها، لكنّ التاجر الآن يفكر، يريد أنْ يحل مشاكله بالبضاعة هذه، فيخطِّط ليبيعها بربح فاحش، فتُحَلّ فيه مشاكله كلها، فالذي يجري أنه عندما رفع السعر قلَّ الشراء، وحدَث تضخم نقدي، فصار الناسُ طبقة غنية، وطبقة فقيرة، ونشأت مشاكل، ناس من دون دخل، فبحثوا عن أساليب غير مشروعة للدخل، كل هذه الأمراض ربما سببها ارتفاع الأسعار، هذا الجالب الذي يشتري ويبيع، ويشتري ويبيع، يسهم في خفض الأسعار، ويسهم في خفض مستوى المعيشة، وفي توفير الحاجات للناس، ويسهم في الرخاء الاجتماعي، طبعاً على قدر إمكاناته، وله نيته دائماً، في الإسلام عندنا قاعدة " فاعل الخير خيرٌ منه"، أي الفاعلُ للخير خيرٌ من الخير، وهذه النفس التي أرادت الخير، والخير مهما كان له حجم فهناك أعظم منه، فاعل الخير خيرٌ من الخير، فأعظم من الخير أن تفعل الخير، هذه النفس الراقية التي تحب الخير للناس، يقلقها شقاُء الناس، هناك أشخاص إذا سَكَنَ أحدُهم في بيت فخم، فليَكُنْ من بعده الطوفان، بينما تجد شخصًا يتألم لوجود هذه الأزمة، ويتألم آخرُ لأن بعض الناس باحتكار البيوت يؤخِّرون الزواج، علمًا بأنّه عندنا فتيات كثيرات في سن الزواج، وهذا الزواج معطل بسبب عدم وجود بيت، وبعض

الأشخاص يتهم أسرته لبساطتها وقناعتها، وإنّ الله عز وجل زرع في قلب كل أبٍ وكل أمٍّ عطفًا على الأولاد، وهذا من دون جهد، وهذه فطرة الله، حتى المرأة الكافرة الملحدة تخشى على أولادها، لكن النبي الكريم أثنى على من كان في قلبه رحمة عامة للناس، هذه الرحمة العامة كسبية، تكسبها بالصلاة، فلو كانتْ أمورك الذاتية محلولة، لما كنتَ مرتاحًا حتى تزولَ مشكلات الناس، فالجالب مرزوق، والمحتكر ملعون، لأنه لا يهمه إنْ حُرِم الناسُ من هذه المادة، وارتفعت أسعارها إلى درجة أصبحت قلّةٌ قليلة من الناس يشترونها، فحرم منها الجميع، والأطفال لا يدركون هذه الناحية، فيشتهون و يلحُّون على الآباء الذين يتألَّمون لعجزهم عن الشراء، والبائع لا يهمه الأمر، وكلُّ همِّه الربح، فيرفع سعر البضاعة، وإذا لم يحقق ربحًا فاحشًا فلنْ يبيعها، إذْ ليس لديه رحمة.

من يفعل خيراً يتنزل على قلبه تجليات شتى :

واللهِ ذات مرةِ حدّثني شخص بقصة دمعت لها عيني، مضمونها: طفل صغير وقف عند بائع فول، وقال له: أريد صحن فول، معه ربع ليرة، والصحن ثمنُه ليرتان ونصف، قال له: ادخُلْ وتفضل، ووضع له صحنًا عاديًا، بالبندورة والزيت والحمض، كما وضع له مقبِّلات، فقال شخصٌ جالسٌ: ما هذا؟ كلُّه بربع ليرة، قال له صاحبُ المحل: طفلٌ اشتهى أنْ يأكل فولاً، أَأَدَعُهُ من دون فول؟! أَكُلُّ الربح ماديٌّ، هنا نقطة الخلاف، الناس يقيسون الربح فقط بالمال، أَكُلُّ الربح مال؟! هناك تجليات تتنزل على قلب الإنسان إذا فعل خيراً لا يعلمها إلا الله. سائق سيارة أجرة وقف لإنسان مقطوع، ليس معه إلاّ مبلغ يسير، فأخذه ولم يدعْه مقطوعًا، أَكُلُّ الربح مال؟ لا، ليس كل الربح مالاً، فبعض الربح سكينة في القلب، يستحقها صاحب المعروف، لذلك فعلى الإنسان ألاّ يضنَّ بمعروفه على أحد، قال له: ادخلْ وكُلْ فولاً، قال له: اشتهى أن يأكل فولاً، أفأدَعُه من دون فول؟ وأخذ منه ربع ليرة، وأشعَرَ الولدَ أنه دفع ثمن الفول، وشعَر صاحبُ المحلِّ أنّه أخذ ثمن الفول، فالجالب مرزوق، والمحتكر ملعون.

* * *

قصة عبد الله بن أم مكتوم :

قصة قصيرة عن عبد الله بن أم مكتوم:

لا شك أنكم جميعاً تعرفون أن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عوتب به، فكلما رآه يقول: أهلا بمن عاتبني به ربي. قال: لما ضيَّقتْ قريش على النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والذين آمنوا معه واشتد أذاها لهم، أَذِن اللهُ للمسلمين بالهجرة، فكان عبد الله بن أم مكتوم أسرَع القوم مفارقةً لوطنه، وفراراً بدينه، فقد كان هو ومصعب بن عمير أول من قدما المدينة من أصحاب رسول الله.

عبد الله بن أم مكتوم فاقد البصر، حكمة ربنا أن الله سبحانه وتعالى جعل صحابيًّاً جليلاً عظيم الشأن فاقِدَ البصر، لماذا؟ ليؤكد لنا أن طريق الجنة مفتوح لكل الناس، حتى من فقدوا أبصارهم، وقد يبلغون أعلى المراتب، وما أنْ بلغ عبد الله يثربَ حتى طفِق هو وصاحبه مصعب بن عمير يختلفان إلى الناس، ويقرئونهم القرآن، ويفقهانهم في دين الله، لقد كان نشيطًا، ولما قدم النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة اتخذ عبد الله بن أم مكتوم وبلال بن رباح مؤذنين، سيدنا بلال، وعبد الله بن أم مكتوم صارا للنبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤذنين، يخضعان لكلمة التوحيد كل يوم خمس مرات، ويدعوان الناس إلى خير العمل، ويحضانهم على الفلاح، فعَمَلُ المؤذن عملٌ عظيم، حتى إن بعضهم قال في قوله تبارك و تعالى:

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة فصلت: 33]

إنَّ الآية تعني " الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله " إلى تمام الأذان، فهذه دعوة إلى الله، فكان بلال يؤذن، وابن أم مكتوم يقيم الصلاة، وربما أذن ابن أم مكتوم وأقام بلال الصلاة، وكان لبلال وابن أم مكتوم شأن آخر في رمضان، فقد كان المسلمون في المدينة يتسحرون على أذان أحدهما، ويمسكون عند أذان الآخر، فصار أذانٌ قبل الفجر، وهو لتذكير الناس بوقت السحور، وأذان للإمساك، كان بلال يؤذن بالليل ويوقظ الناس، وكان ابن أم مكتوم يتوخى الفجر فلا يخطئه، وقد بلغ من إكرام النبي عليه الصلاة والسلام لابن أم مكتوم أن استخلفه على المدينة، فجعله أميرًا عليها في غيبته، أكثر مِن مرّةٍ، كانت إحداها يوم غادرها لفتح مكة، وفي أعقاب غزوة بدر أنزل الله على نبيه من آيات القرآن ما يرفع شأن المجاهدين، ويفضلهم على القاعدين، لينشط المجاهد إلى الجهاد، ويأنف القاعد من القعود، فأثَّرَ ذلك في نفس ابن أم مكتوم، إذْ لا يقوى على الجهاد، والآيات كلها تحضُّ

على الجهاد، وتغضّ من شأن القاعدين المتخلفين، فقال: يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت؟ ثم سأل الله بقلب خاشع أن ينزل قرآنًا في شأنه، وشأن أمثاله ممن تعوقهم عاهاتهم عن الجهاد، وجعل يدعو في ضراعة:" اللهم أنزل عذري، اللهم أنزل عذري "، فنزل القرآن بآيات تتحدث عن أناس يحبون الجهاد ولا يقوون عليه.

عقد ابن أم مكتوم العزم على الجهاد في سبيل الله :

حدّثَ زيد بن ثابت كاتب وحي رسول الله، فقال: كنت إلى جنب النبي عليه الصلاة والسلام فغشيَتْهُ السكينة، وثقل رأسه، ثم سُرِّيَ عنه فقال: اكتُبْ يا زيد:

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة النساء: 95]

لا يستوون، فالقاعد مرتاح مسترخٍ، لا يريد أن يعمل، فلا يستوي هذا مع المجاهد، فقام ابن أم مكتوم وقال: يا رسول الله فكيف بمن لا يستطيع الجهاد؟ قال سيدنا زيد: فما قضى كلامه، حتى غشيتْ رسولَ اللهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السكينةُ، ثم سُرّي عنه فقال: اكتب يا زيد:

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة النساء: 95]

قال هذه كتبتها، قال اكتب:

﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ﴾

[سورة النساء: 95]

إلا إذا كان هذا من أصحاب العاهات، فهو مستثنى من هذه الآية، ومن هذه القاعدة، فنزل الاستثناء الذي تمنَّاه ابن أم مكتوم، وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى أعفى عبد الله بن أم مكتوم وأمثاله من الجهاد، فقد أَبَتْ نفسُه الطموحُ أن يقعد مع القاعدين، وعقد العزم على الجهاد في سبيل الله، ذلك لأن النفوس الكبيرة لا تقنع إلا بكبار الأمور.

وغريب حقًّاً كيف سيجاهد وهو لا يرى بعينه!! اتخذ لنفسه وظيفة، فكان يقول: أقيموني بين الصفين، وحمِّلوني اللواء أحمله لكم وأحفظه، فأنا أعمى لا أستطيع الفرار، لقد قَبِلَ أنْ يمتطيَ ظهرَ فرسٍ، ويحمل راية الجهاد دون أن يرى.

استشهاد ابن أم مكتوم في معركة القادسية :

في السنة الرابعة عشرة للهجرة عقَّد عمر بن الخطاب العزمَ على أن يخوض مع الفرس معركة فاصلة، تزيل دولتهم، وتزيل ملكهم، وتفتح الطريق أمام جيش المسلمين، فكتب إلى عماله يقول: "لا تدعوا أحدًا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا وجّهتمُوه إليَّ والعَجَلَ العَجَلَ"، وطفقت جموع المسلمين تلبِّي نداء الفاروق، وتنهال على المدينة من كل حدب وصوب، وكان في جملة هؤلاء المجاهدين مكفوف البصر عبد الله بن أم مكتوم، فأمَّر الفاروقُ على الجيش الكبير سعدَ بن أبي وقاص، وأوصاه وودعه، ولما بلغ الجيش القادسية برز عبد الله بن أم مكتوم لابسًا درعه، مستكملاً عدَّته، وندب نفسه لحمل راية المسلمين، والحفاظ عليها، أو الموت دونها، والتقى الجمعان في أيام ثلاث قاسية عابسة، واحترب الفريقان حربًا لم يشهد لها التاريخ مثيلاً، حتى انجلَى اليومُ الثالث عن نصر مؤزَّر للمسلمين، فزالت دولة من أعظم الدول، وزال عرش من أعرق العروش، ورُفِعتْ راية التوحيد في أرض الوثنية، وكان ثمن هذا النصر المبين مئات الشهداء، وكان من بين هؤلاء الشهداء عبد الله بن أم مكتوم، استُشهِد في معركة القادسية وهو كفيف البصر.

فهذه القصة سُقْتُها لكم، ليَعلم القاصي والداني أنّه ليس مِن عقبة تقف أمام المسلم، حتى لو فَقَدَ بصره، ومع ذلك فباب الجنة مفتوح، فإنْ كان بالمسلم ضعفٌ في جسمه، أو أحد أعضائه، كأنْ يكون لا يرى بعينيه جيداً، أو أنّ ماله قليل، أو نحو ذلك، فباب الله عز وجل مفتوح على مصراعيه، وكلما سِرتَ في طريق الله عز وجل ازددتَ حبًّاً وشوقاً واندفاعاً ومجاهدة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 7 : المسح على الخفين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

المسح على الخفين :

أيها الأخوة المؤمنون، (باب المسح على الخفين)، صحَّ المسح على الخفين في الحدث الأصغر، وما هو الحدث الأصغر؟ ما يوجب الوضوء، والحدث الأكبر ما يوجب الغسل، صحَّ المسح على الخفين في الحدث الأصغر للرجال والنساء ولو كانا – هذه الألف على من تعود؟ على الخفين – ولو كانا من شيء ثخين غير الجلد، فعلى المذهب الحنفي لا يشترط أن يكون الخف جلداً، بل شيء ثخين غير الجلد، سواء كان لهما نعل من جلد أو لا.

شروط المسح على الخفين :

يشترط لجواز المسح على الخفين سبعة شرائط.

الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه في آخر أيامه ألَّف رسالةً عنْونَها بالمسح على الخفين، وعدَّ الجوربين خفَّين، ويشترط لجواز المسح على الخفين سبعة شرائط:

1 . لبسهما بعد غسل الرجلين :

لبسهما بعد غسل الرجلين، فلا يجوز لك المسح على الخفين إلا إذا لبست الجوربين، الترتيب سنة، فلو أنّ إنسانًا غسل رجليه ولبس الخفين وأتمَّ الوضوء جازَ، لكن يجب أن يتم الوضوء قبل نقضه، لأن الخفين يمنعان سريان نقض الوضوء إلى الرجلين، لكنهما لا يرفعان نقض الوضوء، وهذا شيء دقيق، فيجب أن يلبس الخفين بعد غسل

الرجلين ولو قبل كمال الوضوء، وقبل أن ينتقض، فلو انتقض الوضوء قبل كماله لوجب نزع الخفين، إذاً الشرط الأول لبسهُما بعد غسل الرجلين ولو قبل كمال الوضوء، إذا أتمه قبل حصول ناقض للوضوء.

2 . سترُهما للكعبين :

الشرط الثاني سترُهما للكعبين، أن يكونَ الخفان ساترين للكعبين.

3 . إمكان متابعة المشي فيهما :

الثالث إمكان متابعة المشي فيهما، أيْ أنْ يستطيع لابسُ الخفين أن يمشي بهما، فلا يجوز المسح على خف من زجاج، ولا من حديد، ولا من خشب، فيجب في الخفَّين استطاعةُ المشي بهما.

4 . خلوُّ كلٍّ منهما من خرق قدر ثلاثة أصابع من أصغر أصابع القدم :

الشرط الرابع خلوُّ كلٍّ منهما من خرق – ثقب – قدر ثلاثة أصابع من أصغر أصابع القدم، فإذا كان في الجورب أو الخف خرقٌ يزيد عن مقدار ثلاثة أصابع من أصغر أصابع القدم لم يجُز المسحُ عليهما.

5 . استمساكهما على الرجلين من غير شدٍّ :

الشرط الخامس استمساكهما على الرجلين من غير شدٍّ، أي من قماش له قوامٌ يقوم بنفسه.

6 . منعهما من وصول الماء إلى الجسد :

الشرط السادس منعهما من وصول الماء إلى الجسد.

7 . مدة المسح على الخفين يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام بلياليها للمسافر :

الشرط السابع مدة المسح على الخفين يوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام بلياليها للمسافر.

وقت المسح :

متى يبتدئ وقت المسح؟ قال الفقهاء: ابتداء المدة من وقت الحدث بعد لبس الخفين، مثلاً إنسان توضَّأ عند العصر ولبس الخفين عند المغرب، وما انتقض وضوءه بين العصر والمغرب، إذًا لم تبدأ بعدُ مدةُ المسح، وعند العشاء انتقض وضوءه الآن من العشاء يوم وليلة للمقيم، أو ثلاثة أيام بلياليها للمسافر، إذاً مِن أولِ حدثٍ بعد لبس الخفين يبدأ وقت المسح، فإن مسح مقيمٌ ثم سافر استمتع برخصة السفر، وهو مقيم مسح عند صلاة الصبح، وعند العصر طرأ له سفر، انقلبَت المدةُ من يوم وليلة إلى ثلاثة أيام بلياليها على مسحه الأول، وإنسان آخر مسافر وصل إلى بيته، وكان قد مضى على لبس الجوربين أو الخفين بعد غسلهما يوم وليلة، فمنذ أقام المسافرُ يدخل في حيِّز الإقامة، ويجب نزعهما إنْ كان قد مضى على إقامته منذ بدأ المسح يوم وليلة، وإذا كان أقل فلَهُ أن يتمَّ يومًا وليلةً، أي إن كان مقيمًا وسافر يدخل في مدة السفر، وإنْ كان مسافراً وأقام يدخل في مدة الإقامة.

وقدر المسح قدر ثلاثة أصابع من أصغر أصابع اليد على ظاهر مقدَّم كل رِجْل، ثلاثة أصابع إذا مررت بها من أصغر الأصابع على مقدم الرِجْل فهذا هو المسح على الخفين.

سنن المسح على الخفين و نواقضه :

سننه: مدُّ الأصابع منفرجة من رؤوس أصابع القدم إلى الساق، ومع مدِّ الأصابع انفراجُها أيضًا. ينقضُ مسح الخف أربعة أشياء، كلُّ شيء ينقض الوضوء ينقض المسح، ولا ينقض لبس الجوربين أو الخفين، أي أنك لا تحتاج إلى مسح مرة ثانية، ونزعُ الخف ولو بخروج أكثر القدم، فلو فرضنا طفلاً نزع جورب والده فخرجت معظَمُ الرِّجل من الجورب انتقض المسح على الخفين، وإصابةُ الماء أكثر إحدى القدمين في الخف على الصحيح، لو فرضنا شخصًا من دون أن ينتبه داس في مجمع ماء فابتلَّتْ أكثر القدم بالماء انتقض المسح على الخفين، لأنه وقع عندئذٍ اختلاطٌ بين المسح والغسل، ومضيُّ المدة ينقض المسح على الخفين، مضى يوم وليلة أو ثلاثةُ أيام بلياليها، فالمضيُّ وحده أو نزعُ الخف أو ابتلالُ الرجل بالماءِ أو ما ينقض الوضوء، أربعةُ أشياء تنقض المسح على الخفين، هذا هو المسح على الخفين، له فرض، وله سنن، وله نواقض، وله شروط، وله مدة، وله تعريف وهو ثابت عن رسول الله ﷺ.

روى حديث المسحِ أكثر من ثمانين صحابياً، منهم العشرة المبشرون بالجنة، وقال بعض الحفاظ: خبرُ المسحِ على الخفين متواترٌ كما في فتح الباري، طبعاً وحتى لو كان الماء متوافرًا، وأناس يعانون من التحسس، أو أنْ يكون الشخص في الخدمة العسكرية ويصعب عليه خلعُ هذا البوط، فالإسلام يسر في وقت حرج كبير، وفي أيام الشتاء البارد تخاف أن تصاب الرِّجلُ بأمراض كتسليخ لحمها، فالإسلام يسر، فحيثما وُجِدَتْ حاجةٌ للمسح على الخفين فهذه رخصة، وإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.

* * *

صفات علماء الدار الآخرة :

عودٌ إلى إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، صفات علماء الدار الآخرة، وها نحن نعرض صفةً من صفاتِ علماءِ الدار الآخرة وهي أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين قال عليه الصلاة والسلام:

((اليقين الإيمان كله))

[الطبراني عن ابن مسعود]

قد قال بعضهم: "رأسمال الدين اليقين"، وقال عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا اليقين))

[أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد]

ماذا فهِم الإمام الغزالي من هذا الحديث الشريف؟ فهِم أن معناه: جالِسوا الموقنين، واستمعوا منهم علم اليقين، وواظبوا على الاقتداء بهم ليقوى يقينكم كما قوي يقينهم، وبعد قليل سأشرح لكم ما هو اليقين، قال عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا اليقين))

[أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد]

((اليقين الإيمان كله))

[الطبراني عن ابن مسعود]

وقد وردت في وصية لقمان لابنه: " يا بني لا يُستطاع العمل إلا باليقين"، فإذا ثبت لك أن في هذه الأرض ماء، وعندك مزرعةٌ كبيرةٌ توشك أن تموت عطشاً، وقد ثبت لك يقيناً أن في الأرض ماءً، فما الذي يحملك على أن تستأجر حفارةً وتدفع لها ثمناً باهظاً وتؤمن لها المعدات وتشتري القمصان وتدفع مبلغًا مقدمًا قد يصل إلى مئة ألف؟ ما الذي يحملك على دفع هذه المبالغ؟ إنّه يقينك أن هناك ماءً يمكن استخراجُه، وهذه الوصية لطيفة. "يا بني لا يُستطاع العمل إلا باليقين"، تقول لإنسان: هذه الصفقة حرام، يقول: لا، ليست حرامًا، فيها ربح مئتان وخمسون ألفًا، " ضع في الخرج"، طبعاً لا يتيقن أن الخسارة من الله سبحانه وتعالى، ولو تيقن أن معصية الله تسبِّب خسارةً ماديةً في الدنيا قبل الآخرةِ لَما أقدم عليها، يعرض له بيت ليشتريَه، ونقص ماله مئتي ألف، فيأخذها قرضًا بفائدة، ركبتُ بالسيارةِ العامة منذُ يومين، فقال رجل لآخر: مئة ألف صارت مئة ألفٍ وثلاثة وثمانين ألفًا مع الفوائد، لأنّ يقينه ليس هناك حل لهذه القضية إلا بهذه الطريقة، فلو كان عنده يقين بأن الله سبحانه وتعالى حاضر ناظر، ورأى أن عبده يتهيَّب أن يأكل مالاً حراماً فإنّه يَيَسِّر له هذا المبلغ من طريق شرعي، إذا قال رسول الله:

((اليقين الإيمان كله))

[الطبراني عن ابن مسعود]

فهذا صحيح وصواب، تجد طالبًا يدرس ولا يوقن بالنجاح، ولو لم يكن موقِنًا بالنجاح لمَا درس، تجد طالبًا يختار فرعًا في الجامعة ولا يوقن من جدواه، فلو تتبَّعتَ أعمالنا اليومية فلن تجد إنسانًا موقنًا بأنّه لا يربح، ولَم فتَحَ محلاً، فلو لاحظت أعمالنا لوجدتَ أنّ المحرك الأول لأعمالنا الدنيوية هو اليقين، فإذا كنت ضعيفَ اليقين تتردَّد وتقول: لا يوجد همّة، ضعفُ الهمّة من ضعف اليقين، وانعدام العمل من انعدام اليقين، وقوة العمل من قوة اليقين، فلذلك النبي الكريم قال:

((اليقين الإيمان كله))

[الطبراني عن ابن مسعود]

وقال:

((تعلموا اليقين))

[أبو نعيم من رواية ثور بن يزيد]

من يوقن بشيء يعمل له بصدق و مثابرة :

"يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين"، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، فلو فرضنا إنسانًا قرأ القرآن، وهو موقن أنه كلام الله، وأنّ كلام الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الله عز وجل وعَد المنفق بالتعويض والخَلَف، وأنّ هذا المبلغ مهما كبُر إذا دفعه ابتغاء مرضاة الله فإن الله عز وجل سوف يعوضه أضعافاً مضاعفة، إذا بلغ يقينك بهذه الآيات مبلغاً صحيحاً عندئذ تفتح وتعطي، وتقول: هذه خمسة آلاف أقدِّمها للمسجد، أو هذه عشرة آلاف، فمتى تدفع المالَ؟ إذا كان عندك يقين مئة بالمئة أن هذا المبلغ سوف يضاعفه الله لك أضعافاً كثيرة في الدنيا والآخرة.

إذا كان الإنسانُ صاحبَ مصلحة، وهذه البضاعة عليها طلبٌ شديد، وأسعارها مرتفعة تراه يشتريها بقوة قلب، ويقول لصاحب البضاعة: أعطِني كلَّ شيء عندك، فيقول له: السعر مرتفع، يقول له: لا يهم أنا ما فاصُلتك، ولا سُمتُ البضاعة، لماذا اشترى هذا بقوة؟ لأنه يعرف أنه سيبيعها بسرعة، وسوف يربح بها أضعافًا مضاعفة، فلما يتيقن التاجر أنّ هذه البضاعة مطلوبة، وزبونها موجود ويتقاضى الثمن نقدًا، وسيربح بالمئة مئة، تراه يسعى لشراء البضاعة بشكل جنوني، لأنه متيقن من الربح، فانظر إلى الإنسان كيف يسلك للدنيا، أمّا إذا كانت بضاعة لا يعرفها يقول لك: لا أعرف أَتُباع أم لا تباع، هذه بضاعة جديدة، وسوف أجرب السوق، هل تباع؟ فتراه يشتريها بتردد، أما إذا تيقن من بيعها فسيشتريها، هذا في الدنيا، وإذا تيقن الطالبُ أن هذه الشهادة سوف يتعين بموجبها فوراً، ودخلُها كبير، ترى دراسته جدية، وانظر إلى إنسان درس الطب، وعلِمَ أنّ البلد بحاجة إلى أطباء، والأطباء دخلُهم كبير، ولهم مكانة اجتماعية، فإذا درسَ الأول الطب، والثاني درسَ الحقوق، فترى طالب الطب همَّتُه للدراسة أشدُّ، وطالب الحقوق باعتبار أنّ حمَلة هذه الشهادة كثروا، وفرص العمل قليلة، فترى دراسته لا هِمَّةَ فيها، لأن يقينه بالتعليم أقل.

أعتقد أنّ الأمثلة أصبحت كافية، فعندما يوقن الإنسان بالربح، ويوقن بالفائدة تراه يحمله يقينُه على عمل صادق.

أسباب استقامة المؤمن أنه يوقن أن لكل سيئة عقاباً :

هات ليَ يقينًا بالآخرة وخذْ عملاً صادقًا متواصلاً، والنفس لها قوانينها، فإذا تيقنت أن الحياة فانية وزائلة وأن ما عند الله خير وأبقى، وإذا تيقنت أن الآخرة هي كل شيء، فلا يمكن إلا أن تعمل لها بصدق و مثابرة، وإذا تيقن الإنسانُ أن هذه المعصية لها عقاب، وأنّ لكل سيئةٍ عقاباً، ولن يفوت عقاب سيئة واحدة عند الله عز وجل فلن

يسيء أبدًا، وهذا الذي جاءه زبون وطلب منه سعرًا فوق الحد المعقول، التكلفة بقيمة ألفين، فقال له: عشرة آلاف، فقال له جاره: لماذا طلبتَ أضعاف ما تستحقُّ؟ فأجابه: هكذا أصول العمل، وهذه تصليحة وهي غنيمة، هذا الرجل عنده ابن يعمل بمخرطة، فتدخل نثرة فولاذ في عينه، تكلفه في اليوم الثاني عشرة آلاف ليرة بالعملة الصعبة، هذا لو حضر مجلس علم وعنده يقين أن المال الحرام لا بد أن يذهب أضعافاً مضاعفة لمَّا غشَّ زبونه صاحب التصليحة، ولماذا المؤمن يستقيم؟ لأنّ عنده يقينًا أنّ هذه المعصية لها عند الله عقاب، ومن الناحية المادية والتفسير العلمي أحدُ أسباب استقامة المؤمن أنه يوقن أن لكل سيئة عقاباً، إذا أكل مالاً حراماً فسوف يتلف اللهُ له ماله، وإن اعتدى على الآخرين أُعتُدِيَ عليه، وإن نظر إلى نساء الآخرين فسينظر الناسُ إلى نسائه، وإن أزعجهم أزعجوه، فلكل سيئة عقاب، واليقين شيء مهم، ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه، ولا يُقصر عامل حتى ينقص يقينه، ما يقصِّر عامل إلا إذا تزعزع يقينه، وإذا كان عندك يقين أن كتاب الشكر من رئيسك في الدائرة يترجم إلى بعثة فوراً، والبعثة وراءها دكتوراه، ومن ورائها منصب أعلى، ودخل أكبر تهتم برضا رئيسك اهتمامًا بالغًا، أما إذا كان كتاب الشكر حبرًا على ورق، ولا يقدم ولا يؤخر فإنّك لن تبالي به، إنّها قضايا ثابتة، وهي قوانين مرغِّبة للنفس.

معنى اليقين :

وبعد، فما معنى اليقين؟ تكلمنا عن أهمية اليقين، قال: اليقين له معنيان، عند الفلاسفة له معنى، وعند المتصوفين له معنى، عند الفلاسفة: الأمور أربع درجات، أن يستوي عندك الإنكار والثبوت، سُئِلتَ عن فلان وأنتَ لا تعرفه أمسافر هو أم مقيم؟ فتقول: لا أدري، فهذه درجة يستوي عندك سفره وعدم سفره، ودرجة أعلى يغلب على ظنك أنه مسافر، ودرجة أعلى من ذلك أنّك ودَّعته في المطار، لكن لا تدري أعاد أم لم يعد؟ والدرجة الرابعة ودَّعته في المطار وجاءتك رسالة منه قبل يوم يخبرك فيها أنه مقيم هناك، فصار اليقين عدم الشك، أعلى درجة في اليقين انعدام الشك، قالوا: هذا تعريف الفلاسفة، وهناك أمثلة معقدة أنا بسَّطتُها لكم، فإما أن يستوي عندك الثبوت أو النفي، أو أن يغلب عندك الثبوت مع احتمال النفي، أو أن يغلب عندك الثبوت مع ابتعاد النفي، وإما أن يغلب عندك الثبوت مع نفي النفي، إذاً انعدام الشك هو اليقين عند الفلاسفة.

أما ضعف اليقين عند الصوفيين فله معنىً آخر، مَن منا يشك أنه لن يموت؟ لا أحد، ومع ذلك معظم الناس لا يعملون لما بعد الموت، فهؤلاء وإنِ اِنعدم الشكُّ عندهم، وإنْ ثبت لديهم يقيناً أنهم سيموتون فلأنهم لا يعملون لما بعد الموت فهم ضعاف اليقين بالموت، وهذا معنىً أرقى، أحياناً يكون الطبيبُ عنده يقين قاطع أن التدخين يضر، ومع ذلك يدخن، نقول: هذا فلسفياً يوقن بضرر التدخين، أما صوفياً فضعيف اليقين بضرره مع أنه يوقن، ولكنه لأنه لم يترك الدخان فهو ضعيف اليقين به، وهذا الموضوع دقيق.

عند الصوفيين أو عند الفقهاء ضعف اليقين عدم الالتفات إلى الشيء، إذْ يؤمن بالآخرة ولا يعمل لها، ويؤمن بالنار ولا يتّقيها، ويؤمن بالجنة ولا يسعى لها، ويعرف أن هذه معصية ولا يتركها، ويعرف أن هذه طاعة ولا يقبِل عليها، هذا هو ضعف اليقين عند الفقهاء والصوفيين.

مواضيع نموذجية عن اليقين :

1 . التوحيد :

وبعد فهذه أربعة مواضيع نموذجية عن اليقين، فأولُ هذه الموضوعات التوحيدُ، إذْ لا يوجد إنسان إلاّ ويعرف معنى لا إله إلا الله، أي لا مسيِّر لهذا الكون إلا الله، ولا معطي إلا الله، ولا مانع إلا الله، ولا رافع إلا الله، ولا خافض إلا الله، ولا معز إلا الله، ولا مذل إلا الله، ولا قابض إلا الله، ولا باسط إلا الله، فهذا المعنى لا يوجد إنسان إلا ويعرفه، ولكن عملياً عندما تغضب من زيدٍ لأنه حرمك شيئًا، فهذا الغضب من زيدٍ هو إشراك بالله عز وجل، وهو ضعف اليقين بالتوحيد، وحينما يمتلئ قلبك حباً لمن أعطاك شيئًا ما، ونسيت أن الله سبحانه وتعالى هو الذي سمح له أن يعطيك، فهذا إشراك بالله، وضعف يقين بالتوحيد، فالتوحيد على المستوى النظري سهل، أما على المستوى العملي فهو صعب.

لو فرضنا أن إنسانًا أساء إليك إساءة بالغة لا سمح الله، تقول لصديقك: بقيتُ ثلاثة أيام لا أنام الليل مِن فِعلتِه، فهل رأيتَ هذا من الله عز وجل؟ لا، بل رأيتَه من صديقك، وامتلأ القلب غيظاً منه؛ هذا هو الشرك بالذات، هذا هو ضعف اليقين، ولكنك لو كنت قويَّ اليقين بالتوحيد لرأيت أن هذا الذي أساء إليك إنما هو عَصا بيد الله عز وجل، وأن الله سبحانه وتعالى هو الذي سمح له بذلك تأديباً لك ومعالجةً، فينتفي من قلبك كلُّ غضب وحقد على الناس، انظر فإنّ الأدوات بيد الله، قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴾

[سورة البروج : 20]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

[سورة الفتح: 10]

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة الأنفال: 17]

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[سورة هود: 123]

أسعد إنسان في الأرض هو الإنسان الموحد :

لذلك أسعد إنسان في الأرض هو الموحد، لأنّه يعلم أنّ كل علاقاته مع جهة واحدة، مع الله عز وجل، وأيّ إنسان أساء له يراه عصا بيد الله، عندئذٍ ينعدم من قلبه الحقدُ والكراهية، ويرى علاقته مع الله وحده، وهذه واحدة من وحدات اليقين، فكل إنسان يمتحن يقينه، من أي مستوى يقينه؟ هل ترى الخير من الله؟ هل تذم الناسَ على ما لم يعطك الله؟ هل تمدحهم على ما آتاك الله؟ هذا هو ضعف اليقين بالذات، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفى من العقل واليقين، فحقائق الدين واضحة، ولكن إمّا أن تعيشها، وإما ألاّ تعيشها، إن عشتها فأنت موقن بها، وإن لم تعشها فلست موقنًا بها، وهذا هو التوحيد.

2 . الرزق :

موضوع آخر لليقين هو الرزق، قال تعالى:

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

[سورة هود: 6]

إذا بلغك أنه سوف يستغنون عن خدماتك في هذه المصلحة، تقول: من أين آكل وعندي خمسة أولاد وبيتي بالأجرة؟ تنام مذعورًا لأنّ يقينك بهذه الآية ضعيف، أما المؤمن فهو موقن أنّ الله هو الرزاق ذو القوة المتين:

((أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ رَهْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا رَآهُ أَوْ شَهِدَهُ فَإِنَّهُ لَا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ وَلَا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ أَوْ يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

المؤمن موقن أن رزقه بيد الله، وأجله بيد الله، لذلك يقول الحق، ولا تأخذه بالله لومة لائم، ولا يخشى أحداً إلا الله، فاليقين بالتوحيد موضوع كبير، ولاحظ نفسك حين تنقم على الناس إذا حرموك شيئًا تجِد يقينك بالتوحيد صفرًا، ولما تحب إنسانًا أعطاك شيئًا يقينك بالتوحيد صفر أيضًا، ولما يمرض أحدُ أولادك وتأخذه إلى الطبيب فيعاينه ويصف له دواء ويشفى، فتقول: ما شاء الله، ما أمهرَ هذا الطبيب، يحمل شهادة بورد، أمّا قبل أنْ تأخذه إلى الطبيب، يا ربِّ حرارته واحد وأربعون، التهاب سحايا، يا رب ليس لي غيرك، فأرسلك إلى طبيب ألهمه الدواء الناجح، وهذا الدواء سمح له أن يؤثر، فلمّا أثّر وتراجعت الحالة تقول: هذا طبيب ليس له مثيل، فهذا هو ضعف اليقين بالله عز وجل، أما المؤمن إذا أخذ ابنه إلى الطبيب وشفي، يقول: يا رب لك الحمد، أنت ألهمت الطبيب الدواء الناجح، وأنت سمحت للدواء أن يؤثر التأثيرَ الشافي، وأنت كتبت له الشفاء، لكن لما تعتقِد أنّ الخيرَ والشرَّ من الناس فهذا هو ضعف اليقين بالتوحيد.

3 . جزاء العمل :

عندما يعتقد الإنسان أنّ دخله كبير نظرًا لخبرته العالية، ويقال عنه: هو في هذه المصلحة ثلاثون سنة، فهو فارسُ مهنته، والزبائن يتزاحمون فوق بعضهم، فالله عز وجل يؤدِّبه، قالوا: رجلٌ وصل إلى درجة مذهلة من الغنى في قطر عربي مجاور، فقال: أنا اغتنيتُ، أي أنّه لن يفتقر بعد اليوم و في اللغة الدارجة (قَبَرَ الفَقْرَ) – قال رجل صادق عندي: حينما مات جمعوا له من الناس مالاً كي تنفقوا على تجهيزه ودفنه، هذا الذي قال: أنا اغتنيت، فهو ضعيف اليقين، لأن الله عز وجل الذي أعطاه يسلبه، الله الذي أعطاه هذا المال قادر أن يسلبه إياه في دقائق، كل خبراتك من هذا العقل لو تعطل شيء في العقل، نقطة دم إذا تجمدت في بعض الشرايين تفقد ذاكرتك وكل معلوماتك، قد يكون الإنسان له مكانة كبيرة، رجل وصل إلى درجة مدير عام معه دكتوراه بالجيولوجيا، وله مكانة كبيرة، وسيارته على الباب، وزوجته فرنسية فقد بصره تحملوه شهراً ذهب البريد إلى البيت ثم سرحوه، زاره صديق قال له: أتمنى يا دكتور أن أبقى على الرصيف على هذا الثوب وأتسول و يرد الله لي بصري. بالصحن قطعة لحم دفعتها إلى زوجتك حتى هذا المستوى يجب أن يجزيك الله عليه، أُعطيت قطعة حلوى قلت في نفسك: هذه لابني أطعمتها له، هذه القطعة لها عند الله حسابها، أنت كان من الممكن أن تأكلها لا أحد شاهد

ما قُدم لك، قال تعالى:

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾

[سورة الزلزلة: 7-8]

إذا عندك يقين في هذه الآية تقبل على العمل الصالح إقبالاً شديداً وتنتهي عن المعاصي انتهاءً عجيباً، بهذا الآية.

4 . اليقين الرابع أن الله مطلع عليك :

اليقين الرابع أن الله مطلع عليك، مثلاً إنسان دخل يسرح شعره بلّ شعره فتذكر أنه لم يصلِّ العصر فقام ليصلي، أي أنت تدخل لمقابلة إنسان وشَعْرُك غير مسرَّح ومبلَّل؟ سرِّحه أولاً قبل أنْ تدخل في الصلاة، كذلك ما وجدت جاكيت البيجامة فصليت العصر بالقميص الداخلي، ألم تعلم أنّ الله يطَّلع عليك وأنّ هذا اللباس لا يليق للصلاة؟ قال تعالى:

﴿ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

[سورة الأعراف:31]

سيدنا رسول الله استأجر أجيرًا، فخلع ثيابه واغتسل أمام الناس، فقال له: خذ أجارتك لا حاجة لنا بك إني أراك لا تستحيي من الله.

يجب أن يكون عندك يقين بأن الله مطلع عليك في سرك وجهرك، في خلوتك وجلوتك، من لم يكن له ورع يحجزه عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ الله بشيء من عمله، ويجب أن يكون عندك يقين أنه: من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وتحتاج إلى يقين تدرك به أن الله سبحانه وتعالى بيده كل شيء، وإلى يقين بأن الرزق بيد الله، فهذه إذًا أربعة مواضيع، التوحيد، والرزق، وجزاء العمل، والاطلاع عليك، كلُّ هذا بيد الله، ويعلمه الله، فراقِبْ نفسَك.

إذا خاطبك إنسان بلهجة قاسية تثب عليه لتأكله، أين اليقين بأن الله تعالى هو الذي أنطقه؟ وهو الذي سمح له أن يزعجك؟ فعُدْ إلى نفسك وانظُرْ ماذا فعلت، فما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بسبب منك:

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

[سورة آل عمران: 182]

هذا هو اليقين حقًّاً، لذلك، وما قسَم الله لعباده نصيباً أوفرَ من العقل واليقين، فإنْ كنت عاقلاً وموقناً فقد ملكتَ كلَّ شيء، لكن لضعف يقينه صار ضعيفًا متردِّدًا، وقد يغدو مخذولاً.

* * *

أخبار سيدنا جعفر رضي الله عنه :

لدينا بعض الوقت فلنَعُدْ إذًا إلى أخبار سيدنا جعفر رضي الله عنه، فقدْ قضى عند النجاشي عشر سنوات آمناً مطمئنّاً هو وزوجته، وفي السنة السابعة للهجرة غادرا بلاد الحبشة مع نفر من المسلمين متجهين إلى يثرب، فلما بلغوها كان رسول الله ﷺ عائداً لتوِّه من خيبر بعد أن فتحها الله له، فَفَرِح بلقاء جعفر فرحاً شديداً، حتى قال: ما أدري بأيهما أنا أشد فرحاً أبفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟ انظر إلى هذه اللغة اللطيفة.

ولم تكن فرحة المسلمين عامة والفقراء منهم خاصةً بعودة جعفر بأقلَّ من فرحة النبي عليه الصلاة والسلام، فقد كان جعفر شديد الحدب على الضعفاء، كثير البر بهم، حتى إنه كان يلقب بأبي المساكين، قال أبو هريرة: "كان خير الناس لنا معشر المساكين جعفر بن أبي طالب"، فإذا كان لك عمل يا أخي السامِع، وبُحِثَ موضوعُ الفقراء والضعفاء والمساكين فلا تأخذ موقفًا عنيفًا، بل خذ موقف العطف، وكنْ محامياً لهم، مدافعًا عنهم، فهؤلاء المساكين الضعاف، كما قالوا: كان يمضي بنا إلى بيته، ويطعمنا ما يكون عنده، حتى إذا نفدَ طعامه أخرج لنا القربةَ التي يوضع فيها السمن، فنشقُّها ونلعق ما علق بها، ولم يطُل مكثُ جعفر بن أبي طالب في المدينة، ففي أوائل السنة الثامنة للهجرة جهز النبي عليه الصلاة والسلام جيشاً لمنازلة الروم في بلاد الشام، وأمَّر على الجيش زيد بن حارثة، وقال: إنْ قُتِل زيد أو أصيب فالأمير جعفر، فإن قُتِل جعفر أو أصيب فالأمير عبد الله بن رواحة، فإنْ قُتِل عبد الله أو أصيب فليَختَرِ المسلمون لأنفسهم أميراً منهم، فلما وصل المسلمون إلى مؤتة، وهي قرية واقعة على مشارف الشام، وجدوا أن الروم قد أعدّوا لهم مئة ألف تظاهرهم وتساندهم مئة ألف أخرى من قبائل لخم، و قضاعة، أما جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف رجل، وما أن التقى الجمعان ودارت رحى المعركة حتى خرّ زيد بن حارثة شهيدًا مقبلاً غير مدبر، فأسرع ووثب جعفر بن أبي طالب عن ظهر فرس كانت له شقراء، ثم عقرها بسيفه حتى لا ينتفع بها الأعداء من بعده، وحمل الراية وأوغل في صفوف الروم وهو ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابهــا طيبة وبارد شرابــها

الروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابــها

عليَّ إن لاقيتها ضرابها

***

وظل يجول في صفوف الأعداء بسيفه ويصول حتى أصابته ضربة قطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، فما لبث أن أصابته أخرى قطعت شماله، فأخذ الراية بصدره وعضديه، فما لبث أن أصابته ثالثة شطرته شطرين، فأخذ الراية عبد الله بن رواحة، فما زال يقاتل حتى لحق بصاحبيه، فبلغ النبيَّ صلوات الله عليه استشهادُ قواده الثلاث، فحزن عليهم أشد الحزن، وأمضه الألم، وانطلق إلى بيت ابن عمه جعفر بن أبي طالب، فألفى زوجته أسماء بنت عميس تتأهَّب لاستقبال زوجها الغائب، فهي قد عجنت عجينها، وغسّلت بنيها ودهَنَتْهُم وألبستهم، فقالت أسماء: فلما أقبل علينا رسولُ الله ﷺ رأيت غلالة من الحزن توشح وجهه الكريم، فَسَرَت المخاوفُ في نفسي، غير أني لم أشأ أن أسأله عن جعفر مخافة أن أسمع منه ما أكره، فحيا وقال: ائتني بأولاد جعفر، فدعوتهم له فهبُّوا نحوه فرحين مزغردين، وأخذوا يتزاحمون عليه، كلٌّ يريد أن يستأثر به، فأكبَّ عليهم صلى الله عليه وجعل يتشمَّمُهم، وعيناه تذرفان من الدمع، قلت يا رسول الله: بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء؟ قال: نعم لقد استشهدوا هذا اليوم، عندئذ غابت البسمة من وجوه الصغار لما سمعوا أمهم تبكي وتنشج، وجمدوا في أماكنهم كأن على رؤوسهم الطير، أما النبي عليه الصلاة والسلام فمضى وهو يكفكف عبراتِه ويقول: اللهم اخلف جعفراً في ولده، اللهم اخلف جعفراً في أهله، ثم قال: رأيت جعفرًا في الجنة له جناحان مضرَّجان بالدماء وهو مصبوغ القوادم.

قصة جعفر بن أبي طالب مع النجاشي :

الإنسان له مواقف فلتَكُنْ نبيلة، وسيدنا جعفر وقف هذا الموقف المشرف، فما عليه إن مات شهيدًا، فإذا كان الإنسان منا له مواقف مشرفة في الحياة، فكل شيء زائلٌ عدا هذه المواقف، وكلٌّ إلى زوال، ماذا أكل؟ ماذا شرب؟ ماذا لبس؟ أين ذهب؟ ما نوع بيته؟ ما نوع أثاث بيته؟ كم دخْلُه؟ هذا كله زائل، ولكن الذي يبقى هذه المواقف المشرفة، مِن حبٍّ لله ورسوله، ألا لا إيمان لمن لا محبَّة له، ألا لا إيمان لمن لا محبّة له، ألا لا إيمان لمن لا محبّة له، سيدنا جعفر له قصة مطولة مع النجاشي، وأنا آثرت أن أتجاوزها لضيق الوقت أولاً، ولأنكم

سمعتموها مني مرات عديدة، لكني أوجزها، فقد وقف أمام النجاشي وقال:

((أَيُّهَا الْمَلِكُ كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ وَصِدْقَهُ وَأَمَانَتَهُ وَعَفَافَهُ فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ وَقَوْلِ الزُّورِ وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ قَالَ فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ فَعَبَدْنَا اللَّهَ وَحْدَهُ فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنْ الْخَبَائِثِ فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا وَشَقُّوا عَلَيْنَا وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ سِوَاكَ وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ))

[أحمد عن أم سلمة]

هذا الكلام الموجز من سيدنا جعفر لخَّص الجاهلية والإسلام، فهو كلام بليغ موجز، هكذا كنا، وهكذا أصبحنا، ما قال له: خِفْنَا أن نصلي، مع أن الصلاة فرض، والصلاة وسيلة لهذه الأخلاق.

الإسلام بقي عند الناس صومًا وصلاة وشعائر مفرغة :

سبحان الله فلقد اختلف الأمر وصار الإنسان إذا صلى ولو أكل أموال الناس بالباطل ولو آذاهم فإنه يحجُّ ويظن أنّ حجَّه يمحو كل مساوئِهِ مع الناس، إساءات، وإخلاف مواعيد، وكذب، وعدوان، وتلبيس على إبليس، فهذا كلُّه يفعله ولا يبالي، لذلك زَهِدَ الناس بالدين، وانفضوا عنه، ولو كان أهلُ الدين يعيشون قيمًا إسلامية رفيعة، إخلاصًا، وفاء، رحمة، بذلاً، تضحية لإدخال الناس في دين الله أفواجاً، ولهذا خرج الناس حقيقةً من دين الله أفواجاً، لأن الإسلام بقي عند الناس صومًا وصلاة وشعائر مفرغة، وعلى المسلمين أنْ يجعلوا الدينَ مكارم أخلاقية، وسيرة اجتماعية حسنة، وقدوة فذَّة اقتداءً برسول الله صلى الله عليه و سلم، وعندئذ ترفرف راية الدين عالية. لكن الإنسان يفهم الدين عبادات فقط فهذا هو الفهم القاصر، أمَّا إذا فهم الدينَ كمالات، فهذا هو الفهم الصحيح، وبهذا الفهم الصحيح فتح الصحابةُ قلوبَ الناس قبل فتح البلاد.

الجمال و الكمال :

ثم إني أعرّج على موضوع قصير أعرِّف مِن خلاله الجمال والكمال، فاستمعوا لتعريف رسول الله حيث قال: "الجمال صواب القول بالحق"، فلنتكلم بالحق، والحق ليس عليه رد، والحق غذاء للنفوس كما أن هذا الجسد يحتاج إلى غذاء يومي هذه النفس تحتاج إلى غذاء والحق غذاؤها، الجمال صواب القول بالحق، والكمال حسن الفعال بالصدق، يكون عملك طيبًا، ولكن ليس نفاقاً ولكن صدقاً.

((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

تقع حالات وفاة مفاجئة، كأنْ تكون وفاة بحادث، فهذا إنسان عملُهُ طيب، فبينما هو بين أهله إذْ به بعد نصف ساعة قد توفي، وبعد ثلاث ساعات صار في القبر، لا يوجد روتين في دفن الموتى، يموت مثلاً الساعة العاشرة وعند الظهر يصير في التربة، يكون الساعة التاسعة لا يشكو من شيء، وفي التاسعة والنصف أصابتهُ سكتة قلبية، الساعة العاشرة توفي الساعة الثانية عشرة والنصف كان في التربة، فإذا كان مؤمنًا صار في الجنة، والنار كذلك فإذا كان في بحبوحة مثلاً ودخل كبير وعز وجاه، فحادث بسيط قد يجعله من أهل القبور، وإذا كان عمله سيئًا فإلى جهنم:

((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

فالإنسان العاقل يهيِّئ نفسه، والمؤمن العاقل يعدُّ نفسَه دائمًا كأنه على سفر، وكل شيء جاهز، فالموت أقرب إلى المرءِ من بياض العين إلى سوادها، فالله نسأل الصواب والسداد.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 8 : المسح على الجبيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

المسح على الجبيرة :

أيها الأخوة الكرام، موضوع قصير عنوانه " المسح على الجبيرة " فمن افتصد، أي أخرج دماً من جسمه، أو بجرح، أو بكسر عضوٍ فشدَّه بخرقةٍ، أي الضمّاد، أو بأيِّ حادث، وأيّ كسر إذا شُدَّ بضماد، أو جبيرة، وكان لا يستطيع غسل العضو، ولا يستطيع مسحه وجب المسح على أكثر ما شدَّ به العضو.

اليد مكسورة ومجبَّرة بجبصين وقماش، مجروحة عليها شاش ومادة معقمة، فصد دمه ربط مكان الفصادة بشاش، أي جبيرة أو أي ضماد شده الإنسان على جسمه إن لم يستطع غسله أولاً، وإن لم يستطع مسحه كذلك فماذا يفعل؟ وجب المسحُ على أكثر ما شدّ به العضو، على القماش وكفى المسح على ما ظهر، وإذا كانت الجبيرة طبقات متعددة فيمسح الطبقة الأخيرة فقط، والمسح كالغسل، معنى كالغسل هناك فرق كبير بين المسح على الجبيرة وبين المسح على الخفين، المسح على الخفين مسح بدل، بدل من غسل الرجلين، وله مدة يوم وليلة للمقيم، وثلاثة أيام بلياليها للمسافر، وله نواقض، لكن المسح على الجبيرة كالغسل فلا يتوقف بمدة، ولا يشترط شد الجبيرة على طهر، رجل أُخِذَ بحالة إسعاف إلى المستشفى ولم يكن متوضئًا، فماذا نفعل؟ هل نفكُّ الضماد؟ لا، إذْ لا يشترط شدُّ الجبيرة على طُهر، ويجوز مسحُ جبيرة إحدى الرجلين، أما بالخفين فيمسح الاثنتين معاً، رِجْل واحدة مضمَّدة والثانية معافاة، تَغسل واحدة وتَمسح على الثانية، ولا يبطل المسح بسقوطها قبل البرء، وإن سقطت فالمسح لا يبطل بل تصلي ولو سقطتْ، ويجوز تبديلها بغيرها، ولا يجب إعادة المسح عليها، فالمريض مجروح، ولهُ في الشرع وُسعةٌ كبيرة، والشرعُ سَمحٌ في تعامله مع هذا المريض.

ثم إذا رمَد الإنسان وأُمِر ألاّ يغسل عينه، ماذا يفعل؟ أو انكسر ظفره، وجُعِل عليه دواء أو مادة عازلة ويضرّه نزعُه، جاز له المسح، لا يوجد جبيرةٍ للعيون، عينٌ رمداء وضِع لها الدواء، والماء يضرها، يمسح على جفنه من دون غسيل، ظفره انكسر وضع عليه مادة معقمة يضرها الماء يمسح على ظفره، الآن لا يوجد جبيرة، فلتَعلمْ إذًا أنّ الدين يسر، فلك أن تمسح على الخفين، ولك أن تتيمم، ولك أن تمسح على الجبيرة، أو أي ضماد، ولك أن تمسح على عضو يضره الماء من دون ضماد.

المسح على الجبيرة لا يفتقر إلى نية ولا توقيت ولا زمن :

والمسح على الجبيرة لا يفتقر إلى نية، حتى لو كان العضوُ يضرُّه الماء جاز له تركُ المسح، أكرِّر وأقول: ولا يفتقر المسْح على الجبيرة إلى نية كما في المسح على الخف، فلا نية ولا توقيت ولا زمن، ولا يشترط أن تكون الجبيرة على طهر، وإذا سقطت لا ينتقض الوضوء، ويجوز تبديلها وتغيرها، ولا يشترط النية، فقدْ رُفِع عن أمتي كلُّ ما يبعث على الضيق والتبرم من الشرع، فالدين يُسْرٌ.

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: مَا خُيِّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا]

* * *

المؤمن الصادق يجب أن يكون حزيناً منكسراً يقلقه أمر آخرته :

وبعدُ، فإلى فصل آخر مختار من إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، كنا في الدرس الماضي تحدثنا عن اليقين، وقلنا: إنَّ اليقين عند الصوفيين أو عند الفقهاء يختلف عن اليقين عند المتكلمين والفلاسفة، فاليقين عند المتكلمين هو عدم الشك، أما اليقين عند الفقهاء والصوفيين فهو أن توقن بالموت ولا تعمل لما بعد الموت، أن توقن بالجنة ولا تعمل لها، أن توقن بالنار ولا تتقي النار، هذا هو ضعف اليقين، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين.

إنّ المؤمن الصادق يجب أن يكون حزيناً، منكسراً، مطرقاً، صامتاً، لأنه كما قال عليه الصلاة والسلام: "الحزانى في كنف الله"، إن الله يحب كل قلب حزين، الحزانى معرضون إلى الرحمة، ما معنى "حزانى" أي أنّ أحدهم يقلقه أمر آخرته، ويخشى أن تأتيه المنية وليس معه زاد كافٍ إلى الآخرة، فهذا الحزن المقدس، يخشى ألاّ يكون الله راضيًا عنه، ويخشى أن يكون في عمله رياء، يخشى أن يكون في قلبه نفاق، يخشى أن تخونه عينه، وأن ينطلق لسانُه في غضب الله، وأن يكون هذا العمل لغير الله، وأن يرجو غير الله، وأن يخاف من غير الله، فالطالبُ في أثناء العمل الدراسي وهو طموح، ويعلّق أهمية كبرى على نجاحه، يرجو أن ينجح، ولكنه يخاف ألاَّ يُجمِّع معدلَ الطب، فهو قلق، فيطمئنه أهله، وجيرانه، وأصدقاؤه، ومع ذلك يقول: الأسئلة صعبة هذه السنة، وسوف يرفعون المعدلات، وأخاف ألاّ أدخل كليةَ الطب، فالمجتهد يقلق، أما الكسول فيجد طمأنينة بلهاءَ.

المؤمن يقلق أما المنافق فمطمئن طمأنينة بلهاء :

المؤمن يقلق، أما المنافق فمطمئن طمأنينة بلهاء، معها غباء، لذلك لا يجتمع على عبد أمْنَانِ ولا خوفان، إن أمِنَني في الدنيا أخَفْتُه يوم القيامة، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، والكافر كما قال تعالى:

﴿ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾

[سورة الانشقاق: 13]

كان مسروراً، يضحك ملء فمه، يتمطى، أما المؤمن فقال تعالى:

﴿ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴾

[سورة الانشقاق: 9]

تخاف ألاّ تكون في مستوى ما تقول، هذا حزن، تخاف أن يكون قولك أرقى من عملك، وهذا شيء مخيف، تخاف أن يسعدَ الناسُ بدعوتك وتشقى بها، تخاف أن يكون أحدٌ أسعدَ منك، وعِلمُك كان لغير الله، تخاف أن تكون عبرة لأحد من خلق الله، تخاف أن تقول قولاً ظاهرُه فيه رضى الله عز وجل، لكنك تلتمس به رضى أحد سوى الله عز وجل، وتخاف أن تتزين للناس بما يشينك عند الله، فهذا هو القلق، وإذا لم يكن للإنسان قلق من هذا المستوى فهو إنسانٌ جاهل، وإذا كان الطالب خارج المدرسة من أبناء الأزِقة، فهل هذا يقلق على وظيفة؟ أو على واجب مدرسي؟ أو على امتحان؟ أو على مذاكرة؟ أو على دوام مدرسي؟ أو من استدعاء وليّ؟ لا أحَدَ يحاسبه، فهذا مطمئن، لكنها طمأنينة بلهاء، وطمأنينة الجُهلاء، لكن العالم لا يطمئن.

القلق من عقاب الله عز وجل قلق مقدس :

ذات مرة قلت لكم: لو أن إنساناً وجد شقًّاً أساسيًا بجسر أساسي في بنائه، فقد يعرضه على دهَّان، يقول له الدهَّان: هذا يحتاج إلى معجون وسوف أصلِحه لك إن شاء الله، ويتوارى الشقُّ، لكن قد يعرضه على مهندس، ويقول له: هذا البناء خطر، يحتاج إلى إخلائِه فوراً، فبين أن يصلحه له الدهَّان وبين الإخلاء مسافة كبيرة وشاسعة، وهي كالمسافة بين العلم والجهل تماماً، فبقدر علمك تخشى الله، بقدر علمك عن الله تخافه، بقدر ما تعرف عن الآخرة ترجوها، بقدر ما تعرف عن النار تتقيها، بقدر ما تعرف عن كرم الله تطمع بكرمه، بقدر ما تعرف عن عقاب الله تخاف عقابه، فهذا القلق هو القلق المقدس، إنسان يعيش على هامش الحياة لا يدري لماذا خلق، ولماذا جاء إلى الدنيا، وما جوهر الحياة وما المصير.

هذا هو الحزن المقدَّس، عندما النبي الكريم قال:" الحزانى في كنف الله"، هذا هو الحزن حقًّاً.

إذا وجد الأب ابنه غيرَ مستقيم، والابن لا يبالي ويضحك ملء فمه، والأب أعرض عنه، وهو لا يزال يضحك، ولا يزال مستهتراً، ألا يتألم الأب من هذا الابن؟ وإذا رأى الابن أباه معرضاً عنه، فقَلِقَ أشد القلق، فقلقُه دليلُ محبةِ الابن أباه، وحِرصُ الابنِ على إرضاء أبيه يجعله يقلق، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يحب كل قلب حزين))

[الحاكم عن أبي الدرداء]

والحزانى معرضون للرحمة، فعليه أن يكون حزيناً منكسراً مطرقاً صامتاً، يظهر أثر الخشية على هيئته، ومظهره، وسيرته، وحركته، وسكونه، ونطقه، وسكوته، أما أهل الدنيا فماذا يفعلون؟ يتهافتون على الكلام، ويتشدقون بألفاظ، ويستغرقون في الضحك، ويفعلون أعمالاً تدلُّ على بطرهم، واستهزائهم، وطمأنينتهم البلهاء.

أنواع العلم :

لذلك قال الإمام التستري: "العلم الذي لا يورث خشيةً هو نوع من الجهل "، أيضاً قال الإمام نفسه: " العلم على ثلاثة أنواع علم بالله، وعلم بأمر الله، وعلم بخلق الله "، فالمختص بالفيزياء والكيمياء، والرياضيات، والفلك، والطب، والهندسة، والجيولوجيا، وعلم طبقات الأرض، وعلم المستحاثات، وميكانيك التربة، والفيزياء النووية، والكيمياء العضوية، والكيمياء التطبيقية، والرياضيات البحتة، والرياضيات الحديثة، هذه علوم بمخلوقات الله بَرَعَ فيها الغربيون إلى حدّ كبير، ويظن الناس أن كلمة العلم تعني هذا، لا، بل هذه صنعة من صنعات الحياة، أما

العلم بأمر الله أن تعرف الحلال والحرام، وأبواب الفقه، والعبادات، والطهارة، وأنواع المياه، وأن تعرف أحكام الصلاة، وفروضها، وشروطها، وسننها، ومكروهاتها، وأن تعرف الصيام والحج والزكاة، وأن تعرف علم الفرائض والمواريث والتركات، وبحث البيوع، وبحث العقد، والوديعة، وأبواب الفقه معروفة عندك، عبادات، ومعاملات، وحدود، وأحوال شخصية، وهناك علم الأديان، علم الفقه المقارن، أصول الأديان، الفقه وأصوله، المذاهب الإسلامية، والفرق الإسلامية، ادخل إلى كلية الشريعة تجد موادَّ وكتبًا ومؤلفات ومجلدات تحوي تلك العلوم كلها، هذا علم بأمر الله، أما العلم الشريف فهو العلم بالله عز وجل، أن تعرف الله، فإذا جمعت بين معرفة الله ومعرفة أمره فقد جمعتَ أصول المجد من طرفيه، أن تعرف أمر الله، وأن تعرف الله.

معرفة أمر الله تحتاج إلى فكر نيّر وذكاء :

لكن معرفة أمر الله تحتاج إلى فكر نيّر، وذكاء، وإلى مراجع، وكتب، ودراسة، وملخصات، هذا العلم بأمر الله، والعلم بمخلوقات الله كذلك ، أما العلم بالله فلا يحتاج إلى شيء من هذا القبيل، يحتاج إلى مجاهدة، الإمام الغزالي يقول: " جاهد تشاهد "، أي العلم بالله لا يحتاج إلى مجلدات، يحتاج إلى غض بصر، العلم بالله يحتاج إلى عمل صالح، وحلم، و بر الوالدين، وضبط النفس، فإذا ضبطت نفسك، وبذلت من وقتك، ومن مالك، ومن جهدك، ومن خبرتك، وقدّمتَه لله خالصاً، تجلّى الله على قلبك فسعدتَ بقربه، فعرفتَ عن ذاته ما لم يعرف علماء الأرض، علماء الظاهر، قال تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة : 282]

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التغابن: 11]

إذًا هذا هو العلم بالله.

الخشية علامة العلم بالله :

لذلك الإمام الغزالي يقول:" حيثما وردت كلمة العلم في الكتاب والسنة فإنما تعني العلم بالله "، هذا المفروض، لكن ما أكثر المتعلمين، بعض الدول تقول لك: المتعلمون عندها مئة بالمئة، وبعض الدول يقولون: نسبة المتعلمين عندهم عالية، الآن صار العلم شائعًا، فمن الذي بقي جاهلاً؟ قلة قليلة، لكن ليس هذا العلم هو

المقصود، فمع هذا العلم هناك الفسق، والفجور، والزنا، والخمر، والانحراف، والربا، ومع هذه الثقافة الرفيعة والشهادات الجامعية العليا هناك الغش، والدجل، والمحاباة، والتدليس، حتى في المهن الراقية، فالطبيب مثلاً يكتب لك لإجراء تحليلين زيادة ولست بحاجةٍ إليهما، وذلك بالاتفاق مع المحلل في مناصفةً الأجر، فالطبيب كيف فعل هذا؟ والمحامي يعلم علم اليقين، وبعضهم ممن لا يخاف الله عز وجل، وبعضهم الآخر مِمَّن يخاف الله، ولهم عند الله مكانة عالية، لكن بعضهم مقتنع قناعة تامة أن هذه الدعوة لن تربح، وأن كل الاجتهادات لا تؤيِّدها محكمةُ النقض، ومع ذلك يقول لك: أنا أُربِحُها لك، وادفع لي دفعة مقدمة خمسة آلاف، والباقي عند انتهاء القضية، وتبقى في القضاء عدة سنوات، ثم يقول هذا المحامي مفترياً على القاضي النزيه: لقد ارتشى من خصمي، وقد نبهتك كثيراً، إلا أنه قد أخذ عشرة آلاف، وحلّ مشكلاته الشخصية، ووضعك في توتر نفسي سنوات عديدة، فهذا مثقف ودرس القانون، والأحوال الشخصية، ودرس أصول المحاكمات، ودرس أحوالَ القضاء، والعدالة، حتى إنه درَسَ سيرةِ سيدنا عمر، فهذا علمٌ بأمر الله لا يقدم ولا يؤخر، لكن العلم بالله هو الذي يجدي، وعلامة العلم بالله الخشية، لذلك:

((عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلاً أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

[الدارمي عَنْ مَسْرُوقٍ]

وإليكم مثل بسيط، إنسان يحمل دكتوراه في هندسة الميكانيك، وإنسان لا يقرأ ولا يكتب، فالذي لا يقرأ ولا يكتب عندما تألَّق الضوء الأحمر في سيارته توقف، وقال: هناك نقص في الزيت، والذي يحمل دكتوراه في الميكانيك تابع مسيره، فأحرق المحرِّك، وهذا الذي لا يقرأ ولا يكتب وقف في الوقت المناسب، فأيُّهما العالم؟ هذا الجاهل في نظر الناس هو العالم.

من خشي الله عز وجل واستقام على أمره وعمل للآخرة فقد نجا :

أمّا على مستوى الآخرة فهذا الذي لم يتعلم أصول الفقه، ولا أحكام التجويد، ولم يتعلم أحكام البيوع، لكنه خشي الله عز وجل، واستقام على أمره، وعمل للآخرة، هذا الذي نجَا، والذي تعلَّم علم الثقلين، ولم يعمل بعلمه فهو الذي هلك، لذلك تعلموا ما شئتم فو الله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم، سيدنا عمر قال: " تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وليتواضع لكم من يتعلم منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء"، وقد مرَّ معنا في درس سابق قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾

[سورة الضحى: 10]

بعض المفسرين وَّجه الآية توجيهاً آخر، فقال: هذا الذي يسأل العالم لا ينبغي للعالم أن يترفع عن الإجابة، فإجابة العالم للمتعلم فرض، فلا تنهره، ولا تقل له: ليس عندي وقت، أو هذا السؤال سخيف، أجبه بتواضع، ويقال: ما آتى الله عبداً علماً إلا آتاه الله معه حلماً وتواضعاً وحسن خلق ورقة، وإذا أردت أن تعرف إنْ كان هذا علمُك من الله عز وجل، فإنّ معه حلماً وتواضعاً وحسن خلق ورقّة، فإذا كان معه كبر وشعور بالعلو وعجرفة فهذا العلم من الكتب.

أرقى عطاء لله عز وجل أن تكون عالماً و أديباً :

ورد في الأثر: "من آتاه الله علماً، وزهداً، وتواضعاً، وحسن خلق فهو إمام المتقين"، هناك حديث – سبحان الله – كنت أقرؤه كثيراً، ومرةً ذكرته في خطبة، وكنت أغفل عن شقه الثاني، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ما استرذل اللهُ عبداً إلا حظر عنه العلم والأدب))

[ابن النجار عن أبي هريرة]

ومعنى استرذله أيْ رآه رذيلاً، سخيفاً، شهوانياً، دنيوياً، ذا أفق ضيق، يعيش لوقته، وهمومه دنيوية، وطموحاته أرضية، وميوله شهوانية، فإن رآه كذلك حَظَر عليه العلم والأدب، أحيانًا يضيق الوالد ذرعاً بابنه فيقول له: المدرسة ليست لك، هذه لغيرك، أنت للطريق، كنت أقف عند كلمة العلم، إلا حظر عليه العلم وأتابع دون أنْ ألتفت لكلمة الأدب، لكني مرة وقفتُ عند الكلمة الثانية العلم والأدب، معنى هذا أن أرقى عطاء لله عز وجل أن تكون عالماً وأن تكون أديباً، وقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ كما ورد:

((عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) قُلْتُ فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَتَبَتَّلَ قَالَتْ لا تَفْعَلْ أَمَا تَقْرَأُ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) فَقَدْ تَزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ وُلِدَ لَهُ))

[أحمد عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ]

سئلت مرة ثانية عن خلق رسول الله ﷺ قالت: ألا تقرؤون قوله تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾

[سورة المؤمنون:1-8]

هذه أخلاق النبي الكريم، فلا يقلُّ الأدبُ عن العلم، بل يزيد عليه.

الأدبُ لا يقل عن العلم بل يزيد عليه :

يا بني نحن إلى أدبك أحوج منا إلى علمك، أربعة أخماس الدين أدب، سيدنا زيد الخير، اللهم صلِّ على سيدنا محمد قال عن زيد هذا: ما وصف لي رجل إلا رأيته دون ما وصف، أحيانًا يقول لك رجل: المكان الفلاني رائع، فتذهب إليه فتجده عاديًا ودون الوسط، لكنه قال لك: مكان جميل ساحر، ثم تراه دون الوسط، فالنبي الكريم قال: "ما وصف لي رجل إلا رأيته دون ما وصف إلا زيد الخير"، زيد الخير سيد قومه، بلغه نبأ بعثة النبي عليه الصلاة والسلام، فجمع وجهاء القوم، ووفد إلى النبي الكريم، فدخل المسجد في أثناء الخطبة، والنبيُّ الكريم فَطِنَ وقد رأى أنه دخل أناس جدد، فقال: أنا خير لكم من اللات والعزى، أنا خير لكم مما تعبدون من دون الله، أنا خير لكم من الجمل الأسود، وهو من أرقى أنواع الأموال مثل الدولار، وبعدما انتهت الخطبة، سأله النبي الكريم: مَن الرجل؟ فقال: أنا زيد الخيل، فقال له: بل أنت زيد الخير، لله درُّك، ثم انطلق به إلى البيت، ولم يمض على إسلامه عشر دقائق حتى قال له: ما وُصِف لي رجل إلا دون ما وصف إلا أنت يا زيد الخير، وفي البيت دَفَع له وسادة، فماذا قال سيدنا زيد الخير؟ قال: والله لا أتكئ في حضرتك يا رسول الله، هذا هو الأدب، الدين كله أدب، كان ﷺ يُقرَع بابه بالأظافر، وهذا الذي رفع صوته فوق صوت النبي نزلت في حقه آية، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

[سورة الحجرات:2]

هذه لوحة خضراء معلَّقة على الحجرة الشريفة النبوية في الحرم المدني، كُتِبَ عليها " أن تحبط أعمالكم "، فلان عمَّر مسجدًا، فإذا وقفَ موقفاً ليس فيه أدب مع رسول الله حبط عملُه.

من آتاه الله علماً وزهداً وحسن خلق فهو إمام المتقين :

أنا أقرأ في بعض كتب الفقه، أنّ الإنسان إذا رمى المصحف يُعدُّ مرتداً، وتطلق منه زوجته، ويؤخذ ماله، فهو كتاب خالق الكون، حتى إذا كان الإنسان له أخ اسمه يحيى، وقال له: يا يحيى خذ الكتاب، ففي هذا إثم كبير، أَمِنْ أجل هذا أنزلت هذه الآية؟ من أجل أن تستخدمها مع أخيك يحيى، وتعطيه كتاب رياضيات، هذا استخفاف بكلام الله، فمن آتاه الله علماً، وزهداً، وحسن خلق، فهو إمام المتقين، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن من خيار أمتي قوماً يضحكون جهراً من سعة رحمة الله، ويبكون سراً من خوف عذابه، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة))

[الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن عياض]

ويقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((قيل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: اجتناب المحارم، ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله، قيل فأي الأصحاب خير؟ قال ﷺ: صاحب إن ذكرت الله أعانك – تقول لشخص: ادخل لنصلي، فيقول: نعم، جزاك الله خيرًا، بينما تقول لآخر: ادخل لنصلي، فيقول: لدينا متَّسعٌ من الوقت، نؤجِّلها – وإن نسيته ذكّرك، قيل: فأي الأصحاب شر؟ قال: صاحب إن نسيت لم يذكرك، وإن ذكرت لم يعنك، قيل: فأي الناس أعلم؟ قال: أشدهم لله خشية))

[سفيان عن مالك بن معول]

أنتَ إزاء اثنين يسيران في الطريق، الأول يحمل دكتوراه، والآخر يحمل لسانس، هذا يغض بصره، في حين أنّ الأول ينظر ويحملق، فأيُّهما أعلم؟ هذا مقياس رسول الله.

((قيل فأخبرنا بخيارنا نجالسهم؟ قال ﷺ: الذين إذا رُؤوا ذكر الله بهم))

[سفيان عن مالك بن معول]

إن رأيته ذكرتَ الله، تسمعه يقول: والله يجب أن أثابر على الحضور إلى المسجد، أو يقول: يجب أن أتوب إلى الله، أنتَ لمْحَته في الطريق ولم تسلم عليه لعجلتك، لكن نويت أن تتوب إلى الله مِن بعد أنْ رأيته بتلك النظرة الخاطئة.

((قيل فأي الناس شر؟ فسكت الرسول ﷺ، قالوا: أخبرنا، قال: العلماء إذا فسدوا..))

لأنهم قدوة يوقعون الناس في حيرة كبيرة، ويختل توازن الإنسان إذا رآهم، لماذا يفعل هذا؟ يشك في قدسية الدين، يشك في جدوى الدين وثمرته، هذا هو الدين.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما:" لقد عشنا برهة من الدهر وإنّ أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن – إن أوتيت الإيمان قبل القرآن فهمت القرآن وعملت به – وسيأتي بعدكم أقوام يؤتون القرآن قبل الإيمان، يقيمون حروفه ويضيعون حدوده ".

حروفه مئة بالمئة، مخارج الكلمات مئة بالمئة، صفات الحروف مئة بالمئة، أما حدوده فوسط، أو لا يطبق مما علِم شيئًا.

"....يقيمون حروفه ويضيعون حدوده وحقوقه، يقولون: قرأنا فمن أقرأ منا؟ وعلمنا فمن أعلم منا؟ فذلك حظُّهم".

علامات علماء الآخرة :

1 . خشية الله عز وجل :

آخر فقرة من الدرس: خمسٌ من الأخلاق، هي من علامات علماء الآخرة، مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل، واللهُ عز وجل سيعرفنا إلى الدعاة الصادقين من خمس آيات، أول آية، قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

[سورة فاطر:28]

فإذا رأيت إنساناً يخشى الله فهو عالم، قد يقول: أنا محتار، فكلُّهم يدَّعي العلم، لا تحتَرْ، فالذي يخشى الله هو العالم.

2 . الخشوع :

الصفة الثانية الخشوع، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

[سورة آل عمران: 199]

الخشية والخشوع.

3 . التواضع :

الصفة الثالثة: التواضع، قال تعالى:

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[سورة الحجر : 88]

فإذا كان النبي وهو سيد الخلق وحبيب الحق أُمِرَ أن يخفض جناحه للمؤمنين، فمن أنت حتى تتكبر عليهم؟ إنّ علامة العالم الصادق تواضعُه لمَن يعلم:

((عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اسْتَأْذَنَهُ فِي الْعُمْرَةِ فَأَذِنَ لَهُ فَقَالَ يَا أَخِي لَا تَنْسَنَا مِنْ دُعَائِكَ، وَقَالَ بَعْدُ فِي الْمَدِينَةِ يَا أَخِي أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ فَقَالَ عُمَرُ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ لِقَوْلِهِ يَا أَخِي))

[أحمد عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

كذا قال الرسول ﷺ، فهل هذا الكلام تواضع منه ﷺ؟ لا بل هو حقيقة.

4 . حسن الخلق :

الصفة الرابعة: حسن الخلق، أنْ يوجد في قلبك رحمة، ولين، أو لا رحمة ولين، بل عندك قسوة، فعالم قاسٍ لا وجود له، دخلت المسجدَ فرأيت طفلاً لا يعرف كيف يصلي، فلا تنهره، بل شجّعه، وعلّمه، وارفق به، فإذا كان لديك قسوة فليس لديك علم، الخشية، والخشوع، وحسن الخلق، والتواضع.

5 . الزهد :

وآخر شيء الزهد، قال تعالى:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾

[سورة القصص: 80]

ازهدوا في الدنيا، فالعالم زاهد وخاشع، يخشى الله، متواضع، وحسن الخلق، فإن توافرت هذه الصفات الخمسة في إنسان فتابِعْه وسِرْ معه، فلعل الله عز وجل يرحمك به.

* * *

قصة النبي الكريم مع سفانة بنت حاتم الطائي :

والآن إلى قصتين، الأولى منهما جرت مع النبي عليه الصلاة والسلام، والثانية جرتْ في عصر لاحق، وجَّه النبي عليه الصلاة والسلام إلى قبيلة طَيِّئ فريقًا من جنده يقدُمُهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ففزع عديٌّ بن حاتم، وكان من أشد الناس عداءً لرسول الله ففرَّ إلى الشام، فصبَّح عليٌّ القوم، واستاق خيلهم ونعمهم ورجالهم ونساءهم إلى رسول الله، فلما عرضت عليه الأسرى نهضت من بين القوم سفانة بنت حاتم الطائي، فقالت وكانت ذكية: يا رسول الله، لم تقل يا محمد وهي لم تسلم بعد: هلك الوالد وغاب الوافد، قال: من الوافد؟ قالت: عدي بن حاتم، قال: الفار من الله ورسوله؟ قالت: فإن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب، فامنن عليّ مَنَّ الله عليك، فالنبي الكريم ما استجاب إليها أول الأمر، وفي اليوم الثاني حينما مرّ بالأسرى وقفت وقالت: يا رسول الله هلك الوالد وغاب الوافد، فامنن علي مَّن الله عليك قال: من الوافد؟ قالت: عدي بن حاتم، قال: الفار من الله ورسوله؟ ثم تابع مسيره، وفي المرة الثالثة لم تقف لأنها يئست، والنبي الكريم حريص على إطلاق سراحها، فأشار إلى سيدنا علي أن يدعها وأن تسأله مرةً ثالثة، فلما سألته قالت: يا رسول إن أبي كان سيد قومه، يفكُّ العاني– أي الأسير– ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الذِّمار، ويفرِّج عن المكروب، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ويحمل الكلَّ– الفقير– ويعين على نوائب الدهر، وما أتاه أحد في حاجةٍ فردَّه خائباً، أنا بنت حاتم طيِّئ، هذه أخلاق الجاهلية، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً– ولكن أبوها لم يكن مؤمناً– ولو كان أبوك مسلماً لترَحمَّنا عليه، فماذا فهم؟ الإنسان قد يكون ذكيًّاً، وقد يفك العاني، ويحمل الكلَّ ابتغاء السمعة، فلا يمكن أن تعدَّ هذه الأعمال صالحةً إلا إذا بُنيتْ على إيمان بالله، يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، خلوا عنها فإن أباها كان يحبُّ مكارم الأخلاق.

النبي الكريم له كلمة مؤثِّرة: " ارحموا عزيز قوم ذل، وغنيًّا افتقر، وعالمًا ضاع بين الجهال". وامتن عليها وعلى قومها جميعهم فأطلقهم تكريماً لها، فهذه سفانة استأذنته في الدعاء وقالت: أصاب الله ببرك مواقعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمةً عن كريم قوم إلا جعلك سبباً في ردها.

فلما أطلقها رجعتْ إلى أخيها عدي بن حاتم وهو بدومة الجندل فقالت له: يا أخي ائتِ هذا الرجل قبل أن تعلقك حبائله، فإني قد رأيت هدياً ورأياً سيغلب أهل الغلبة، ورأيت خصالاً تعجبني، رأيته يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه، فإنْ يكن نبياً فالسابق فضله، وإن يكن ملكاً فلم تزل في عز ملكه.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ قَالَ أَكْرَمُهُمْ أَتْقَاهُمْ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي، قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

قصة معن بن زائدة و هروبه من المنصور :

وأمّا القصة الثانية فإنّي أضعها بين أيديكم وأتلوها على مسامعكم، قال معن بن زائدة: لما هربت من المنصور وخرجت من باب حرب، وهذا في بغداد، ففيها باب اسمه باب حرب، بعد أن أقمت في الشمس أياماً – بعد أن حَرَقَ وجهه ليغيِّر معالمه – إذْ كان المنصور قد أهدر دم معن بن زائدة، فماذا فعل؟ قال: أقمتُ في الشمس أياماً، وخففت لحيتي وعارضي، ولبست جبة صوف غليظة، وركبت جملاً، وكان مِن قَبلُ يركب فرسًا، وخرجت على هذا الجمل لأمضي إلى البادية، فتبعني رجل متقلد سيفه، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خصام الجمل فأناخه وقبض علي، فقلت ما شأنك؟ قال: أنت بغية أمير المؤمنين، فقلت له: ومن أنا حتى يطلبني؟ قال له: أنت معن بن زائدة، فقلت له: يا هذا اتقِ الله، وأين أنا من معن؟ قال: دع عنك هذا، أنا والله أَعْرَفُ بك، قلت له: فإنْ كانت القصة كما تقول فهذه جوهرة حملتها معي ثمنها أضعاف ما بذل المنصور لمن جاءه بي، وقد وضع المنصور مكافأة ألف دينار، وهذه ثمنها مئة ألف دينار، فخذها ولا تسفك دمي، فقال هذا الرجل المتقلد السيف: هاتها، فأخرجتها إليه، فنظر إليها ساعة وقلبها، ثم قال: صدقْتَ في قيمتها، ولست قابلها منك حتى أسألك عن شيء، فإنْ صدقتني أطلقتك، قلت: قل، قال: إن الناس يصفوك بالجود فأخبرني هل وهبت كل مالك مرةً؟ قلت: لا، قال: فنصفه؟ قلت: لا، قال: فثلثه؟ قلت: لا، حتى بلغ العشر، قال: فاستحييت، هو لم يعطِ العشر، فقال له: نعم، وقلت: أظن أني فعلت هذا، فقال: ما ذاك بعظيم، أنا والله راجل ولا يوجد عندي فرس أركبها، ورزقي من أبي جعفر عشرون درهماً، وهذه الجوهرة قيمتها مئة ألف، وقد وهبتها لك، ووهبتك لنفسك

ولجودك المأثور بين الناس، ولتعلم أن في الدنيا من هو أجود منك، أنت مالك ما دفعته كله ولا نصفه ولا ربعه ولا ثلثه ولا عشره، أما أنا فراجل لا أملك فرسًا أركبها، وراتبي عشرون درهماً، وهذه الجوهرة ثمنها مئة ألف، ومع ذلك وهبتها لك، فلا تعجبك نفسك، ولا تحتقرن أحداً بعد اليوم، ولا تتوقف عند مكرمة، ثم رمى بالجوهرة وخلّى خطامَ الجمل، وقال له: اذهب.

فقلت: يا هذا لقد فضحتني، والله الذي لا إله إلا هو لسفكُ دمي أهونُ عليّ ممّا فعلت، وكان أجود العرب، فضحك ثم قال: أردتَ أنْ تكذبني في مقامي هذا، فو الله لا أخذها، ولا آخذ لمعروف ثمناً، هكذا كان أجدادنا، الآن يقول لك: ماذا لنا على هذه الخدمة؟ يريد ثمنًا لمساعدتك إذا طلبتَ منه المساعدة، فو الله لا آخذها ولا آخذ لمعروف ثمناً، قال: فوالله لقد طلبته بعد إذ أمنتُ، وبذلتُ لمن يجيئني به ما شاء، فما عرفت له خبراً، وكأن الأرض قد ابتلعته، هكذا كان أجدادنا في الجاهلية مثل حاتم طيِّئ، وهكذا كان أجدادنا في العصور المتأخرة، فأين نحن من هؤلاء؟

من كان يرجو الله و اليوم الآخر فالنبي الكريم أسوة له :

وهذه كلمة موجزة حول آية قرآنية، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

[سورة الأحزاب : 21]

أما واقع الناس فهو غير ذلك، ليس لهم برسول الله أسوة حسنة، ولهم بزيد أو عبيد من أرباب الدنيا من أصحاب المال، ولهم بالغرب أسوة حسنة يقلِّدون الغربيين في عاداتهم ومأكلهم ومشربهم، فلمن هذه الآية:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾

[سورة الأحزاب : 21]

فإن كنت يا أخي الكريم ترجو الله واليوم الآخر وذكرتَ الله كثيراً تَرَ أن النبي عليه الصلاة والسلام بسنّته المطهرة وسيرته العطرة أسوةً لك في الدنيا، وإن كانت الدنيا أكبر هم بعض الناس، وصار الناس الكبراء أصحاب المال والجاه والسلطان والقوة هم أسوتهم السيئة، فهذا بوارٌ وخسار، ولكي يكون النبيُّ أسوة حسنة لنا يجب أن يرجو أحدنا اللهَ واليوم الآخر، فإذا رجا الدنيا انقلب كبراء الدنيا أسوة له في دنياه.

والقرآن الكريم قراءته سهلة، ولكن أن تقف عند آياته، وتعقلها، وأن تقف عند حدودها، وأن تعرف أين أنت منها، وماذا فعلت حتى وصلت، فهذا يحتاج إلى جهد، وهذا كلام الله سبحانه وتعالى، ونرجو أن يكون النبي أسوة حسنة لنا، قال عليه الصلاة والسلام:

((طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوهِ البدعة))

[أخرجه أبو نعيم من حديث الحسين بن علي و البزار من حديث أنس]

والحمد لله رب العالمين

الفصل الثاني : الصيام

الدرس 1 : الصيام : ثلاث مراتب : صيام الفم – صيام الجوارح – صيام القلب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الصيام :



أيها الأخوة الأكارم ، ترتيب كتاب الفقه بعد الحديث عن الوضوء والغسل والجنابة والحيض وما إلى ذلك تأتي أبحاث الصلاة ، وبعد أبحاث الصلاة يأتي بحث الصيام ، وسوف نقدم الصيام على الصلاة لقرب قدوم شهر رمضان المبارك ، وقبل قراءة ما في الكتاب عن الصيام لابد من التذكير لأن الصيام ثلاث مراتب صيام الفم ، وصيام الجوارح ، وصيام القلب، فانظر أين أنت من هذه المراتب .

صيام عامة الناس صيام عن الطعام والشراب وسائر المفطرات ، فإذا بقيت عاداتهم هي هي وأخلاقهم هي هي ، صلتهم بالله على فتورها وانقطاعها فكأنهم لم يصوموا، هذا الصيام لا يعتد به في الإسلام إطلاقاً .


البعض يزداد غضبه بسبب الصيام

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

عامة الناس أصبح عندهم الصيام عادة من عوائدهم، له ترتيب في رمضان يسهر حتى السحور ، يأكل وينام ، يتابع كل ما يستجد في شهر رمضان المبارك، وإكراماً لشهر رمضان المبارك هناك أشياء تستجد في البرامج يتابعها جميعاً إلى أن يأتي السحور يتسحر وينام ، لا نقول له : لا تصم ، صيامه كعدم صيامه لأنه لم يرقَ إلى الله عز وجل والله غني عن هذه العبادة ، الله عز وجل غني عن عبادة تبدأ بترك الطعام وتنتهي بتناوله ، هذا أمر إلهي ، هذا صيام العامة ، صيام عن الطعام والشراب وسائر المفطرات ، عاداته هي هي ، أخلاقه هي هي ، انقطاعه عن الله هو هو ، بل إن غضبه يزداد في رمضان ، لأنه جائع وصلت معي إلى هنا ، بل إن غضبه يزداد في رمضان ، هذا الصيام لا يريده الله عز وجل ، هذا صيام الجهلاء ، صيام عن الطعام والشراب ، لكن صيام الجوارح صيام المؤمنين، قال عليه الصلاة والسلام :

" خمسة يفطرن الصائم وينقضن الوضوء : الكذب والغيبة والنميمة والنظر بشهوة واليمين الغموس "

الفرق بين مدافعة التدني ومتابعة الترقي :

الصوم من أجل أن تسمو نفسك إلى الله عز وجل ، فإذا سمت إلى الله طهرت واصطبغت بصبغته ، وصارت ذات أخلاق رفيعة ، أما صيام القلب فأن يصوم عما سوى الله عز وجل هذا صيام المتقين ، صيام المسلمين ، وصيام المؤمنين ، وصيام المتقين ، صيام المتقين عما سوى الله ، مشغول به عما سواه ، ملتفت إليه عما سواه .

فليتك تحلو والحياة مريــرة وليتك ترضى والأنــام غضاب

وليت الذي بيني و بينك عامـر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تـراب

***

فرق كبير بين مدافعة التدني ومتابعة الترقي ، هناك إنسان طول حياته يدافع التدني ، نفسه تطلب المنكر ولا يسمح لها دائماً ، هناك صراع لأنه ما عرف الله ، ولا ذاق طعم القرب منه ، ولا ذاق حلاوة الإيمان ، هذه الحالة اسمها مدافعة التدني ، نفسه تأمره بالسوء وهو يخاف من الله تعالى ، وهو في صراع دائم ، هذه النفس الأمارة بالسوء ما علّمها صاحبها ، ما عرفها بدين الله ، ما فقهها بدين الله ، ما أعانها على الاتصال بالله ، أكثر عليها المخالفات فانقطعت وفجرت ، فجرها حجبها ، حجابها أشقاها ، هذه النفس الأمارة بالسوء ، وهناك نفس أمارة هذه نفس المؤمن يتكلم كلمة لا ينام طول الليل ، يقول : غضب مني لأني استغبته ، نقلت قصة من فلان إلى فلان وقع بينهما شر ، النمام لا يدخل الجنة ، لا ينام يقول لك : ما نمت ، يتقلب طول الليل وثاني يوم قدم إلى هذا هدية وإلى هذا هدية ، واستسمح وهو متألم من نفسه ، هذه مرتبة جيدة قال تعالى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ *وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾

[سورة القيامة :1-2]

الذي عنده هذه النفس اللوامة فهو بخير ، عنده حساسية في نبض ، كنت يوم الجمعة بأحد أسواق دمشق ، رأيت الناس متحلقين نظرت فإذا رجل قالوا : لقد مات وكان طبيب فقال : لقد مات ، يوجد شخص يفعل الذنب ، يستغيب ، يتكلم بالفاحشة ، يوقع بين اثنين ويقول لك : ماذا فعلت ؟ هذا خالص ، ليس معنى هذا أنه خلص من عذاب الله ، أي ميت لا يوجد نبض .

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي يشعرون بذنوبهم ، هذا ماذا يقول لك ؟ هل فعلت شيئاً ؟ خرب الدنيا وقال : هل فعلت شيئاً ؟ ويقول لك : الله غفور رحيم .

العاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني :

من يومين قال شخص لآخر : لماذا تعقدها ربنا عز وجل قال :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

[سورة الزمر : 53]

الله عز وجل قال : لا تقنطوا وأنت تيئس ، فعرض له القصة ، فقلت له : تابع الآيات ، الآية التي بعدها مباشرةً قال تعالى :

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ *وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ *أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴾

[سورة الزمر : 54-56]

ارجع له بالتوبة واستسلم له بالأوامر ، إذا لم تلحق نفسك عدت إليه تائباً وأطعته طاعةً تامة يأتيك العذاب فجأةً ، أين قول هذا الرجل لا تيأس الناس ؟

آيات قرآنية :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[سورة النحل : 110]

أنت تعامل إلهاً تظن أن جنة عرضها السموات والأرض تأتي بفرنكين تدفعهم لفقير وركعتين بلا وضوء ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله غالية ، ادخل إلى محل سجاد واطلب منه سجادة تبريزية إيرانية ترصف ، كاشاني ، واسأله عن ثمنها يقول لك : ثمانية وثلاثون ألفاً ، قل له : تأخذ ثمنها خمسمئة ليرة لا أملك غيرهم ؟ يسمعك كلاماً قاسياً هذا البائع ، يطردك ، سجادة تحتاج إلى ثمن وجنة عرضها السموات والأرض تريدها وأن تعطي نفسك ما تشتهي ثم تتمنى على الله الأماني ، هذا هو العاجز ، وهذا هو الغباء بعينه، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

الآن المسلمون في مشارق الأرض ومغاربهم كلما تحركوا يا رب ترزقنا الجنة ، شيء جميل ، يا رب نحن عبيد إحسان وليس عبيد امتحان ، يا رب لا يسعنا إلا عفوك وكرمك ، الله عز وجل قال :

﴿ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[سورة الزخرف : 72]

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

[سورة الحجر : 92]

اللهم لا تسألنا عن شيء ، خالق كل شيء لا تسألنا عن شيء ، هذا الدعاء خلاف القرآن ، هذا دعاء ليس عن رسول الله قاله إنسان لا يعلم القرآن الكريم .

أنواع الصوم :

عندنا صوم الفم صوم العوام ، وعندنا صيام المؤمنين صيام الجوارح ، وصيام المتقين عما سوى الله ، فإذا كان يمضى من وقتك اثنتا عشرة ساعة لا يأتيك من الخواطر إلا عن الله عز وجل فأنت من هؤلاء ، مشغول بالله ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

[سورة الأحزاب : 41]

الإنسان إذا ما تكلم بصوت عال يتكلم في نفسه ، اركب إلى حلب ، لا تعرف أحداً وأنت ساكت ، لست ساكتاً تقول في بالك مليون قصة سوف أعمل كذا وكذا ، سوف أشتري بيتاً ، وأتزوج ، تتكلم ولست ساكتاً ، راقب نفسك ماذا تقول طوال الطريق ، ليس في السفر ، في الشام من الشيخ محي الدين إلى المرجة اركب الباص وانظر ماذا تقول ، تتكلم مليون قصة ، في المساء افحص هذه القصص هل كلها متعلقة بالدنيا والله مشكلة .



من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له ، راقب نفسك تأتيك خواطر متعلقة بالآخرة ، هل تخاف ألا تكون في الآخرة من الفالحين ؟ هل أنت قلق على إيمانك ؟ قلق على استقامتك ؟ قلق على صلاتك ؟ هل ترى نفسك لست جيداً ؟ هل تخاف أن يكون فيك طرف من نفاق ؟ إذا سمعت قصة عن رسول الله هل تبكي ؟ إذا قرأت كتاب الله هل تتأثر ؟ هل تتفاعل معه ؟ هل تعرف مقامك عند الله ؟ إذا خواطرك من هذا النوع هنيئاً لك ، هذا صيام القلب عما سوى الله عز وجل .

وعندنا صيام الجوارح ، وعندنا صيام الفم ، عامة الناس صيامهم صيام الفم كالناقة عقلها أهلها فلا تدري لا لم عقلت ؟ ولا لم أطلقت ؟ لماذا صام ؟ لا يدري يقول لك ثبتوها ، كل عام وأنتم بخير ، ثم ثبتوا العيد إلى أين ؟ إلى اللاذقية نأخذ شاليه على البحر ، أخذ معه أجهزة ستريو إلى البحر وعيّد ، المنافق كالناقة لا تدري لا لم عقلت ؟ ولا لم أطلقت؟ هذا صيام الجهلاء صيام العامة ، نعوذ بالله أن نكون منهم ، إن شاء الله الدرس القادم نبدأ أحكام الصيام حكماً حكماً تمهيداً لشهر رمضان المبارك .

* * *

العقل و شرفه :

والآن إلى فصل مختار من إحياء علوم الدين ، انتهينا من موضوع العلم ، فضل العلم ، وفضل طلب العلم ، وفضل تعليم العلم ، وصفات العلماء المخلصين ، اثنتا عشرة صفة قضينا فيهم ثلاثة أشهر ، كل أسبوع صفة ، والآن إلى باب كبير آخر من أبواب هذا الكتاب القيم



وهو في : "العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه" .

قال الإمام الغزالي : العلم يجري منه – أي من العقل – مجرى الثمرة من الشجرة، أي العلم من العقل كمجرى الثمرة من الشجرة ، أي العلم ثمرة والعقل شجرة ، فالعلم من إنتاج الشجرة أي من إنتاج العقل .

والنور من الشمس ، العقل شمس والعلم نور ، الرؤية من العين ، العين عقل والرؤية علم ، فكيف لا يشرف به وهو أصله ، سماه الله نوراً ، سمى العقل نوراً فقال تعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة النور : 35]



وسماه روحاً ، قال تعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[سورة الشورى : 52]

انظر ما أجمل هذه الصفات ! نور و روح ، وسماه حياةً ، قال تعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة النور : 35]

وربنا سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

[سورة البقرة : 257]

صفة العاقل :

وقال عليه الصلاة والسلام :

((اعلموا أن العاقل من أطاع الله))

[ذيل تاريخ بغداد لابن النجار عن أبي هريرة]

لو التقيت بإنسان يحمل أعلى شهادة في العالم ، ورأيته لا يصلي أو يشرب الخمر أو لا يحتاط من حيث النساء فسمه جاهلاً ، ولو اطلعت على أعلى شهاداته ، لأن النبي عليه الصلاة السلام يقول :

((العاقل من أطاع الله وان كان دميم المنظر ، حقير الخطر ، دني المنزلة ، رث الهيئة))

[أبو داود عن أبي هريرة]

أي إذا دخلت إلى موظف من أعلى مستوى يوجد عنده مستخدم ، هذا المستخدم رث الهيئة مثلاً ، ليس قذراً ، ثيابه رخيصة ، وشكله ذميم ، و لا أحد يخاف منه ، لا يستطيع أن يفعل شيئاً ، قليل الخطر ، دميم المنظر ، منخفض المنزلة ، رث الهيئة ، لكنه يطيع الله ورسوله ، فهذا يسمى عند الله عاقلاً ، يقف حاجباً على باب موظف كبير جداً ، أناقة من أعلى مستوى ، غرفة فخمة ، اختصاصه دكتوراه ، متفلسف ، متحذلق ، معه حجة لكنه لا يصلي يعصي الله ورسوله ، ليس عاقلاً ، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((العاقل من أطاع الله وان كان دميم المنظر ، حقير الخطر ، دني المنزلة ، رث الهيئة ، وان الجاهل من عصى الله وان كان جميل المنظر ، عظيم الخطر ، شريف المنزلة ، حسن الهيئة ، فصيحاً ، نطوقاً))

كل هذه الصفات مع المعصية تساوي الجهل وكل تلك الصفات مع الطاعة علم .

الفرق بين الأحمق و الفاجر :

أثنى الصحابة الكرام على رجل عند النبي عليه الصلاة والسلام ، والنبي كان صاحب فطنة ، أثنى قوم على رجل عند النبي ﷺ حتى بالغوا ، فقال ﷺ : كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : يا رسول الله نخبرك عن اجتهاده في العبادة – عن قيام الليل ، عن صلاته ، عن صيامه – وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ – ما علاقة هذه بهذه ؟ – فقال عليه الصلاة والسلام :

((إن الأحمق يصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر))

[إحياء علوم الدين عن أنس]

أي إنسان يصوم ويصلي وله ورد صباحي طويل ، وله قيام ليل لكن جاهل ، عقله ضعيف ، يرتكب أخطاء ، ينفر الناس من الدين أضعافاً مضاعفة عن فاجر يفجر أمام الناس لماذا ؟ لأن الفاجر يراه الناس فاجراً لا يقتدون به ، إذا إنسان فاجر قال لك : لا يوجد آخرة وأنا أريد أن أعيش كما يحلو لي ، وهذا الذكاء ، أعوذ بالله ما هذا الكلام ؟ فاجر ، عاص ويفتخر بالمعصية ، لكن إنسان يصلي ويصوم ارتكب معك نقصاً شديداً ، كذب ، خان عهدك ، غشك في البيع والشراء ، أنت تنفر ليس منه بل من دينه .

فهذا الجاهل يصيب بجهله كما قال النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من فجور الفاجر :

((وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزلفى عند ربهم بقدر عقولهم))

لذلك النبي الكريم له حديث سبحان الله ، أنا خطر في بالي تعليق على الحديث ، أن إنساناً يوجد عنده بيت على الهيكل ، هذا البيت يطين ، ويدهن ، ويبلط ، وتمدد له كهرباء وماء ، ومرافق عامة ، ثم يفرش ، عنده قوام بيت، أما إذا كان لا يملك بيتاً على الهيكل ذهب و شارط طياناً على أي شيء تشارطه ؟ وأحضر اسمنتاً ورملاً ناعماً ، أين بيتك الذي تريد أن تبلطه ؟ اشترى البلاط ، اشترى الدهان لا يوجد عنده بيت . ما معنى قوام الشيء ؟ أي أساسه ، إذا إنسان لا يوجد عنده بيت كيف يقوم بكسوته ؟ رسول الله قال : " قوام الرجل عقله " إذا لا يوجد عنده عقل لا يوجد عنده شيء ، مهما زين نفسه ، واعتنى ببيته ، عقل لا يوجد ، والعقل قوام الرجل ودليل العقل آثاره ، العاقل من أطاع الله ، يخاف من الله فهو عاقل ، لا يسأل يكون جاهلاً ليس له عقل ، لا يوجد قوام هيكل فارغ ، يوجد إنسان رأى براد في السوق المستعملة وليس غالي الثمن بألف ليرة وثمنه أكثر من ثلاثة آلاف اشتراه، قال له شغله ؟ فوضعه في الكهرباء أنار الضوء ، أخذه على البيت وضع المأخذ بالكهرباء ليس له صوت ، محرك لا يوجد ، قوام هذا البراد المحرك ولا يوجد محرك ، وضع ثمنه على هيكل فارغ .



النبي الكريم قال : قوام الرجل عقله لا يوجد عقل لا يوجد شيء ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى))

[بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه]

لا يوجد كسب ، الآن الكسب أنواع ، يقول لك : هذا عنده أموال غير منقولة أي عنده أراض ، محاضر ، أبنية ، أراضي زراعية ، مزرعة ، الأموال غير المنقولة كسب هذه معروفة ، أو أموال منقولة عنده من كل أنواع الأموال، أما النبي الكريم يقول :

((ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى وما تم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله))

أي العقل هو الأساس ، لذلك النبي الكريم قال :

((تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتا إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ولكنهما يتفاوتان في العقل كالذَّرَّة في جنب أُحُدٍ وما قسم الله لخلقه حظا هو أفضل من العقل واليقين))

[الترمذي من رواية طاوس]

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه))

[أحمد عَنْ عَائِشَةَ]

العقل هو حجر الأساس :

سلسلة كل الأحاديث تبين أن حجر الأساس هو العقل ، لما الإنسان يسأل أخاه ماذا استفدت من هذه الدروس ؟ تكلم لنا عن درس الجمعة ؟ يمتحن عقله إذا له عقل مفكر والله هذا إيمانه جيد ، يقول لك : ما هذا الخطيب ؟ شيء يطير العقل ، ماذا سمعت منه ؟ والله خطبة عظيمة ما شاء الله ، صوت عال ، ما تذكرت شيئاً ؟ والله الخطبة ممتازة ، ما تذكرت آية حديثاً ؟ يقول : لا يوجد لهذا الخطيب مثيلاً ، أين عقل هذا الرجل ؟ اذكر آية حديثاً، الإنسان عندما يسمع درس العلم ماذا استفدت منه ؟ هذا الوقت ثمين ، اذهب ونم إذا كنت لا تستطيع أن تعقل ما سمعت ، لأن الوقت ثمين .

((....ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه))

لما رجع المسلمون من غزوة أحد سمع النبي ﷺ الناس يقولون:

((فلان أشجع من فلان وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أما هذا فلا علم لكم به ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه و سلم : إنهم قاتلوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم))

[أخرجه ابن المجبر عن أبي هريرة]

هذا قال : أنا لو قاتلت بشجاعة فسيثني الناس عليّ ، هذا عقله خرب ، خسر حياته ، لو إنسان هدفه إعلاء كلمة الله على قدر عقله يكسب الأجر الكبير .

((عن عائشة رضي الله عنها قالت يا رسول الله : بما يتفاضل الناس في الدنيا قال : بالعقل ، قلت وفي الآخرة ، قال : بالعقل ، قلت : أليس إنما يجزون بأعماله ، فقال عليه الصلاة والسلام : يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم الله عز وجل من العقل))

[عن عائشة]

عملهم بقدر عقلهم ، إذاً بالدنيا يتفاضل الناس بالعقل ، وفي الآخرة يتفاضلون بالعقل .

العقل كسبي و الإنسان مسؤول عن استعماله :

هل العقل كسبي أم فطري ؟ هنا سؤال دقيق إذا كان فطرياً لا يوجد ذنب له ، هذا أعطاه الله بالمئة ثمانين أخذ بالمئة ثمانين ، وهذا أعطاه بالمئة عشرة ، لا العقل كسبي العقل موجود إما أن تستعمله وإما ألا تستعمله ، أغبى الناس في الآخرة قد يكون أذكاهم في الدنيا ، العقل موجود فهو مسؤولية على عدم استعماله لا على عدم وجوده. لما خلق الله العقل قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، فقال الله عز وجل : " وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك ، بك آخذ وبك أعطي ، وبك أثيب وبك أعاقب "

قيمة الإنسان عند الله برجاحة عقله :

دائماً ملخص الملخص قيمتك عند الله برجاحة تفكيرك ، الأمور واضحة تماماً :

((أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكمل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح))

[أخرجه ابن المجبر من حديث ابن عمر]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((أتمكم عقلاً أشدكم لله تعالى خوفاً))

[أخرجه ابن المجبر من حديث أبي قتادة]



هذا الفصل على قيمة العقل ، فنحن لا نريد من هذا الفصل قراءة الأحاديث بقدر ما نريد الإفادة منها ، فكل إنسان يمتحن عقله بقدر طاعته لله عز وجل ، كل معصية لها عند الله عقاب ، وكل طاعة لها عند الله ثواب ، فإذا كانت استقامته تامة وعمله صالح فعقله راجح، أما إذا كان باستقامته خلل . كنت أضرب مثلاً قلته كثيراً ولكن الآن مناسب يعاد مرة ثانية ، باص المهاجرين كان في المرجة يقف في أيام الصيف الحارة ، كان يقف باتجاه الشرق ، وإذا صعد راكب إلى الباص يرى الشمس على اليمين ، و الظل على اليسار ، أنا كنت أصعد وأمتحن عقل هؤلاء الركاب ، يصعد راكب ويجلس في الشمس ، والشمس في تموز، ويصعد راكب يجلس في الظل ، الذي جلس في الظل عطل فكره ، لم يفكر ، وجد ظلاً فجلس بحكم الفطرة ، والذي جلس في الشمس أعمل عقله ، الذي جلس في الظل قد يتهم في نفسه من كان في الشمس بالغباء ، هذا الباص بعد دقيقتين سوف يلف ساحة المرجة ، وسوف يصبح الذي جلس في الشمس في الظل إلى نهاية الخط ، والذي جلس في الظل سيبقى في الشمس إلى آخر الخط .



تعريف العقل أن تصل إلى الشيء قبل أن تصل إليه، فلان ذكي ما معنى ذكي ؟ أي أنه تصور المستقبل، الطالب الذكي تصور الامتحان وهو في أيلول تصور الامتحان ورهبة الامتحان ودرس حتى هيأ نفسه ماذا يفعل .

صيادان مرّا أمام غدير فيه ثلاث سمكات قال : كيسة وأكيس منها وعاجزة ، تواعدا أن يرجعا ليصيدا ما فيه من سمك ، فسمع السمك قولهما – وهذه قصة رمزية – أما أكيسهما فإنها ارتابت وتخوفت وقالت : العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ، هل يوجد أحد من الحاضرين وأنا معكم لن يموت ؟ كلا ، إذاً العقل يحتاط إلى الأمور قبل الموت ، والأحمق من يأتيه الموت فجأة ، قال تعالى :

﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾

[سورة القيامة : 31-33]

هذه السمكة الكيسة جداً قالت : العاقل يحتاط إلى الأمور قبل وقوعها ، فلم تعمل شيئاً حتى خرجت من الغدير فنجت وارتاحت ، وأما الكيسة ولكن الأقل ذكاء فبقيت في مكانها حتى عاد الصيادان فذهبت لتخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا المكان قد سد ، فقالت : فرطت وهذه عاقبة التفريط ، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء فأخذها الصياد ووضعها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت في النهر فنجت ، لكن حرقت أعصابها وخاطرت ، غامرت احتمال نجاحها خمسون بالمئة ، لو وضعها في مكان بعيد ماتت ، وأما العاجزة الغبية فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت .

ملخص الدرس كله قول النبي عليه الصلاة والسلام : "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني" .

عرف النبي الكريم الذكي بأنه إنسان ضبط نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والغبي من أتبع نفسه هواها ، أنا مع الناس ، والناس كلها هكذا ، هل أنا أفضل منهم ؟ هل معقول كل الناس إلى جهنم ؟ هذا كلام فارغ ، الله عز وجل أوامره محددة وليس لك علاقة بسلوك أحد ، عليكم أنفسكم والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني .

* * *

ثابت بن قيس :

ثابت بن قيس رضي الله عنه سيد من سادات الخزرج المرموقين ، ووجه من وجوه يثرب المعدودين ، وكان إلى ذلك ذكي الفؤاد ، حاضر البديهة ، تطبيق لدرسنا ذكي الفؤاد ، حاضر البديهة ، رائع البيان ، جدير الصوت إذا نطق بزّ القائلين ، وإذا خطب أسر السامعين ، وهو أحد السابقين إلى الإسلام ، إذ ما كاد يستمع إلى آيات الذكر الحكيم يرتلها الداعية المكي الشاب مصعب بن عمير بصوته الشجي وجرسه الندي حتى أسر القرآن سمعه بحلاوة وقعه ، وملك قلبه برائع بيانه ، وخلب لبه بما حصل به من تشريع ، فشرح الله صدره للإيمان ، وأعلى قدره ، ورفع ذكره بالانزواء تحت لواء نبي الإسلام .

ولما قدم النبي صلوات الله عليه إلى المدينة مهاجراً استقبله ثابت بن قيس في كوكبة كبيرة من فرسان قومه أكرم استقبال ، أي إذا الإنسان أكرم النبي الكريم فهذا إكرام لله عز وجل ، إذا لك أخ مؤمن أكرمته فكأنما تكرم الله عز وجل ، هكذا الحديث الشريف :



((من أكرم أخاه المؤمن فإنما أكرم الله))

[الأصبهاني في ترغيبه عن جابر]

ورحب به وبصاحبه الصديق أجمل ترحيب ، وخطب بين يديه خطبة بليغة افتتحها بحمد الله عز وجل ، والثناء عليه ، والصلاة والسلام على نبيه ، وختمها بقوله أنا نعاهدك يا رسول الله على أن نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأولادنا ونساؤنا فما لنا لقاء ذلك؟ فقال عليه الصلاة والسلام : الجنة ، ما كادت كلمة الجنة

تصافح آذان القوم حتى أشرقت وجوههم بالفرحة ، وزهت قسماتهم بالبهجة ، وقالوا : رضينا يا رسول الله ، رضينا يا رسول الله ، ومنذ ذلك اليوم جعل النبي صلوات الله عليه ثابت بن قيس خطيبه كما كان حسان بن ثابت شاعره، فصار إذا جاءه وفود العرب لتفاخره أو تناظره بألسنة الفصحاء المقاول من خطبائها وشعرائها ندب إليهم ثابت بن قيس لمصاولة الخطباء وحسان بن ثابت لمفاخرة الشعراء .

بشارة النبي العظمى لثابت بن قيس :

كان خطيب النبي الخاص ، ولقد كان ثابت بن قيس مؤمناً عميق الإيمان ، تقي صادق التقوى ، شديد الخشية من ربه ، عظيم الحذر من كل ما يغضب الله عز وجل ، فلقد رآه النبي عليه الصلاة والسلام ذات يوم هرعاً ، جزعاً ترتعد فرائسه خوفاً وخشيةً فقال له : ما بك يا أبا محمد فقال : يا رسول الله أخشى أن أكون قد هلكت ، قال : ولم ؟ – ترى عامة الناس تفعل الموبقات وتقول لك : نمنا نوماً عميقاً مريحاً ، هؤلاء ميتون– أما سيدنا ثابت فقال أخشى أن أكون قد هلكت ، فقال سيدنا ثابت : لقد نهانا ربنا عز وجل عن أن نحب أن نحمد بما لا نفعل وأجدني أحب الحمد ، ونهانا عن الخيلاء وأجدني أحب الزهوة – كان أنيقاً جداً – فما زال النبي عليه الصلاة والسلام يهدئ من روعه حتى قال : يا ثابت ألا ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة ؟ فأشرق وجه ثابت بهذه البشرى وقال : بلى يا رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن لك ذلك .

مرة النبي الكريم بشر صحابي بالجنة اسمه عكاشة ، هناك صحابي ثان قال له : وأنا ؟ فإذا قال له : أنت لست من أهل الجنة حطمه ﷺ ، وإذا قال له : أنت منها كذب عليه ، حل هذه ، فقال له : وأنا ؟ فقال له صلى الله عليه سبقك بها عكاشة ، أي جواب بمنتهى اللطف أما سيدنا ثابت فبشره بالجنة .

وعندما نزل قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾

[سورة الحجرات : 2]

تجنب ثابت بن قيس مجالس النبي عليه الصلاة والسلام على الرغم من شدة حبه له ، وكثرة تعلقه به ، ولزم بيته حتى لا يكاد يبرحه إلا لأداء المكتوبة ، النبي الكريم وفي لأصحابه ويعرف من غاب .

افتقده النبي عليه الصلاة والسلام وقال من يأتيني بخبره ؟ كان محباً وكم هم يحبونه والله الذي لا إله إلا هو كان يحبهم أضعاف ما يحبونه ، فقال أحدهم : أنا يا رسول الله فذهب إليه فوجده في منزله محزوناً منكساً ، فقال : ما شأنك يا أبا محمد ؟ قال : شر ، قال وما ذاك ؟ ماذا فعلت ؟ قال : أنك تعرف أني رجل جهير الصوت – صوتي عال – وإن صوتي كثيراً ما يعلو على صوت النبي ﷺ وقد نزل في القرآن ما تعلم : " لا ترفعوا أصواتكم " ولا أحسب إلا حبط عملي وأنني من أهل النار ، كم كانوا يخافون على أنفسهم من مخالفة القرآن الكريم !! الآن يخرب بيته ويقول ماذا فعلنا ؟ فرجع الرجل إلى النبي الكريم وأخبره بما رأى وما سمع فقال له : اذهب إليه وقل له : لست من أهل النار ولكنك من أهل الجنة ، فكانت هذه بشارة عظمى لثابت ، ظل يرجو خيرها طوال حياته. هل يوجد عندنا هذا القلق ؟ هذا ميزان هؤلاء أصحاب الجنة ، هؤلاء ملوك الدار الآخرة ، هل يوجد عندنا هذا القلق ؟ من منا يخاف على نفسه ، الذي يخاف له البشرى والذي لا يخاف أعانه الله .

قصة استشهاد ثابت بن قيس :

وقد شهد ثابت بن قيس مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها سوى بدر وأقحم نفسه في غمار المعارك طلباً للشهادة التي بشره بها النبي ، فكان يخطئها في كل مرة إلا أن وقعت حروب الردة بين المسلمين ومسيلمة الكذاب على عهد سيدنا الصديق ، وقد كان ثابت بن قيس إذ ذاك أميراً لجند الأنصار وصار مولى أبي حذيفة أميراً لجند المهاجرين ، وخالد بن الوليد قائداً للجيش كله أنصاره ومهاجريه وما فيهم من أبناء البوادي ، وقد كانت الريح والدولة في جل المعارك لمسيلمة ، أول أمر طغى مسيلمة حتى بلغ بهم الأمر أن اقتحموا فسطاط خالد – خيمته – وقطعوا حبال الخيمة ومزقوها ، فرأى ثابت بن قيس يوم ذاك من تضعضع المسلمين ما شحن قلبه أسىً وكمداً وسمع ما ملأ صدره هماً وغماً عند ذلك تحنط وتكفن ووقف على رؤوس الأشهاد وقال : " يا معشر المسلمين ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ، بئسما عودتم أعداءكم من الجرأة عليكم ، وبئسما عودتم أنفسكم من الانخذال لهم، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال : اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء من الشرك – أي مسيلمة – وأبرأ إليك مما يصنع هؤلاء – أي المسلمون – " ثم هب هبة الأسد الضاري كتفاً لكتف مع الغر الميامين ، البراء بن مالك الأنصاري وزيد بن الخطاب و هو أخ أمير المؤمنين وغيرهم وأبلى بلاءً عظيماً ملأ قلوب المسلمين حميةً وعزماً ، وشحن أفئدة المشركين وهناً ورعباً ، وما زال يجالد في كل اتجاه ويضارب بكل سلاح حتى أثخنته الجراح فخر صريعاً على أرض المعركة قرير العين بما كتب الله له من الشهادة التي بشره بها النبي عليه الصلاة والسلام ،

القصة ما انتهت مع أنه استشهد رضي الله عنه .

وصية ثابت بن قيس :

وهذه أغرب قصة وكانت على ثابت درع نفيسة فمر به رجل من المسلمين من عام المسلمين فنزعها عنه وأخذها لنفسه ، وفي الليلة التالية لاستشهاده رآه رجل في منامه فقال للرجل : أنا ثابت بن قيس في المنام فهل عرفتني ؟ قال : نعم ، قال : إني أوصيك بوصية فإياك أن تقول هذا حلم إني لما قتلت أمس مر بي رجل صفته كذا وكذا فأخذ درعي ومضى بها نحو خبائه في أقصى المعسكر من الجهة الفلانية ، ووضعها تحت قدر له ، ووضع فوق القدر رحلاً فائت خالد بن الوليد وقل له أن يبعث إلى الرجل من يأخذ الدرع منه فهي ما تزال في مكانها ، وأوصيك بأخرى فإياك أن تقول هذا حلم قل لخالد : إذا قدمت على خليفة رسول الله في المدينة فقل له : إن على ثابت بن قيس من الدين كذا وكذا ، وإن فلاناً وفلاناً من رقيقه عتيقان لوجه الله تعالى فليقض ديني وليحرر غلامي ، استيقظ الرجل فأتى سيدنا خالد بن الوليد فأخبره بما سمع ورأى ، فبعث خالد من يحضر الدرع من عند آخذها فوجدها بمكانها وجاء بها كما هي ، ولما عاد خالد إلى المدينة حدث أبا بكر رضي الله عنه بخبر ثابت بن قيس ووصيته ، فأجاز الصديق بوصيته وما عرف أحد قبله ولا بعده أجيزت وصيته بعد موته ، طبعاً كل إنسان وصى تنفذ بعد موته هذه وصاها بعد موته ، أملاها بعد موته ونفذت ، النبي الكريم يقول : " لو بقيتم على الحال التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة " أحوال الكشوف الآن مفقودة لأن الدنيا غلبت على الناس، هموم الدنيا وزينتها غلبت على القلوب ، أما لو أن الدنيا بعدت لسمعت العجب العجاب .

رجل يمشي مع عالم صادق الناس تكلموا له عليه ، أن هذا يتهيأ أشياء غير صحيحة ، تشوش واضطرب وطالب العلم صادق فنام وقال : يا رب إن كان هذا على حق فأعلمني بذلك ولكن أنا توقعت أنه صادق جداً ، نام في الليل رأى النبي عليه الصلاة والسلام قال له : " والذي نفس محمد بيده هذا أحيا سنتي بعد موتي ". إذا أنت عندك صدق كاف والله ترى النبي الكريم وتسمع منه ، إذا عندك سؤال دقيق جداً وتريد جواباً شافياً ترى النبي عليه الصلاة والسلام يقول لك كذا وكذا وهذا سيدنا ثابت ، الإنسان عندما الله عز وجل يفتح له قلبه يرى رؤيا صحيحة تأتي كفلق الصبح يستبشر أما حب الدنيا فرأس كل خطيئة ، حبك الشيء يعمي ويصيب ، رضي الله عن ثابت بن قيس وأرضاه وجعل في أعلى عليين مثواه .

القصة بشكل موجز سيدنا ثابت كان ورعاً ، وكان حريصاً على رضاء الله عز وجل ورضاء نبيه ، لأنه كان قلقاً هو الآن آمن والآمن اليوم قلق يوم القيامة .

* * *

معرفة الله عز وجل أساس الدين :



حديث شريف قال عليه الصلاة والسلام :

((أفضل الأعمال العلم بالله))

[كنز العمال عن أنس]

سماه النبي عليه الصلاة والسلام عملاً ، أين ذاهب ؟ أحضر مجلس علم حتى أتعرف إلى الله عز وجل ، أفضل الأعمال العلم بالله السبب ؟ قال عليه الصلاة والسلام : " إن العلم بالله ينفعك معه قليل العمل وكثيره وإن الجهل بالله لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره "

أقل عمل مع العلم بالله ينفعك ، وأكبر عمل مع الجهل بالله لا ينفعك ، فالأساس العلم بالله ، إن العلم بالله ينفعك معه كثير العمل وقليله ، والجهل بالله لا ينفعك معه لا كثير العمل ولا قليله ، لأنه مبني على جهل ، ولو إنسان عمّر جامعاً ولا يعرف الله عز وجل وله معاص فالطريق إلى الله مسدود ، أما إذا عرف الله عز وجل ودفع ليرة سورية واحدة هذه ترفعه إلى أعلى عليين ، فالموضوع مبني على معرفة الله ، ومعرفة الله عز وجل أساس الدين.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 2 : الصوم : تعريفه – شروطه – أركانه – مفطراته

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

تعريف الصوم :

أيها الأخوة الأكارم ، مهدنا في الدرس الماضي لموضوع الصوم ، و اليوم نتحدث عن بعض أحكامه .

أولاً : تعريف الصوم هو الإمساك نهاراً عن إدخال شيء عمداً أو خطأ ، بطناً أو ما له حكم البطن ، و عن شهوة الفرج بنية من أهله ، هذا تعريف من نوع جامع مانع ، الإمساك أي ترك الطعام و الشراب ، نهاراً : لأن الطعام و الشراب في الليل مباح ، عن إدخال شيء عمداً أو خطأً : من تمضمض و بالغ في المضمضة و دخل شيء من الماء إلى جوفه فقد أفطر و عليه أن يبقي نفسه صائماً ، و أن يعيد صيام هذا اليوم عمداً أو خطأً ، بطناً ، و الإمساك عن شهوة الفرج بنية : لولا النية – النية تفرق العبادة عن العادة – لولا النية لاختلط الأمر بين العبادات و العادات ، من أهله : المرأة النفساء ليست أهلاً للصيام و كذلك الحائض ، و سبب وجوبه شهود جزء منه ، لو الإنسان أسلم بخمسة عشر من رمضان عليه أن يصوم الأسبوعين المتبقيين و سبب وجوبه شهود جزء منه ، و كل يوم منه سبب لوجوب أدائه ، كل يوم من أيام هذا الشهر الكريم سبب لأدائه ، و هو فرض أي الصيام أداءً و قضاءً ، أي إذا كانت المرأة تقضي بعض أيام رمضان في أشهر السنة لا يستطيع زوجها أن يأمرها بالإفطار هذا فرض ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، يقول لها : هذا ليس رمضان هي تقضي ما فاتها من رمضان ، و هو فرض أداءً و قضاءً على من اجتمع فيه أربعة أشياء : أولها الإسلام ، و ثانيها العقل ، و ثالثها البلوغ ، و رابعها العلم بالوجوب لمن أسلم بدار الحرب ، كيف؟ أي في أثناء المعارك أو في أثناء الحرب دخل أحد الكفار في الإسلام ، و قد شهد أنه لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله لكنه ، و هو في زحمة المعركة لم يبلغ أنه لا بد من صيام رمضان ، فالعلم بوجوب الصيام أحد الشروط التي

يجب أن تتوافر في الصائم ، الإسلام و العقل و البلوغ و العلم بالوجوب لمن أسلم بدار الحرب ، أما من كان في ديار الإسلام فلا يقبل منه الجهل ، ليس من المعقول إنسان في بلد إسلامي و يأتي رمضان و يقول لك : لا أعلم أن هناك صياماً هذا مرفوض ، لكنه إذا أسلم بدار الحرب كان العلم بالوجوب أحد الشروط اللازمة للصيام ، أما المقيم في دار الإسلام فهذا لا يعتد به .

شروط الصيام :

و يشترط لوجوب أدائه الصحة من مرض و حيض و نفاس ، و الإقامة أي أن يكون مقيماً و ليس مسافراً ، فالمسافر قال تعالى :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

[سورة البقرة : 27]

و يشترط لصحة أدائه ثلاثة : النية لابد من النية – كما قلنا قبل قليل – النية تميز العبادة عن العادة ، و الخلو عما ينافيه من حيض و نفاس و عما يفسده ، و لا يشترط الخلو عن الجنابة أي من أصبح صائماً و كان في الليلة جنباً فصيامه صحيح يغتسل و يتابعه ، و ركنه : الكف عن قضاء شهوتي البطن و الفرج و ما ألحق بهما، و حكمه : سقوط الواجب عن الذمة و الصواب في الآخرة و الله أعلم ، الصيام فرض إذاً لابد من أدائه ، حكمه أنك إذا صمت سقط عنك هذا الفرض و لك في الآخرة ثواب ، و هناك أهداف أخرى بيّنها القرآن الكريم و الله أعلم .

يتضح لكم أن هذه المعلومات أساسية و واضحة لكن إذا أردنا أن نقف عند بعضها الذي نحن بحاجة إليه ، أولاً: من أفطر مخطئاً عليه أن يعيد اليوم ، بالغ في المضمضة و الوضوء إلا أن تكون صائماً ، فإن كنت صائماً و بالغت في المضمضة و دخل شيء من الماء في جوفك عليك أن تعيد صيام هذا اليوم ، و أن تمسك بقية النهار هذا حكم ، هذا معنى خطأً ، طبعاً عمداً معروف ، إفطار قطعي ، النية أساسية في الصيام ، الأهلية أساسية في الصيام ، خلو الإنسان من مرض أو حيض أو نفاس أو سفر ، أي أدرك المؤمن من هذا الشهر يوماً عليه أن يصوم بقية الشهر ، كل يوم سبب لأدائه ، لا جهل في دار الإسلام إن كنت مقيماً بين المسلمين لا يعتد بالجهل، لكنك إن كنت مقيماً في دار حرب و حديث عهد بالإسلام علمك بوجوب صيام هذا الشهر شرط أساسي من شروطه .

الجنابة لا تفسد الصيام ، و الدرس القادم إن شاء الله نتابع فيه أنواع الصيام الستة؛ فرض و واجب و مسنون و مندوب و نفل و مكروه .

أما النية فهي من عمل القلب لكن بعض الفقهاء شدد في اللفظ و بعضهم قال : نية القلب تكفي .

* * *

الطهارة :

من الفصول المختارة من إحياء علوم الدين كتاب الطهارة و قال المؤلف رحمه الله و رضي عنه : اعلم أن الطهارة لها أربع مراتب ، الأولى : تطهير الظاهر من الأحداث و الأنجاس و الفضلات ، الأحداث هناك حدث أصغر و حدث أكبر ، و الأنجاس العينية ، و الفضلات كحلق شعر الإبط و ما شاكل ذلك ، و قص الأظافر ، فجمعت في هذه الكلمات الثلاث تطهير الظاهر من الأحداث و الأنجاس و الفضلات ، و الثانية : تطهير الجوارح من الذنوب و الآثام ، و الثالثة : تطهير القلب من الأخلاق المذمومة و الرذائل الممقوتة ، و الرابعة : تطهير السر عما سوى الله عز وجل – أربعة مراتب – و هذه هي الغاية القصوى ، قال : فمن قويت بصيرته سمت إلى هذا المطلب – الرتبة – سريرته ، و من عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى، هذه ظاهرة تجد مسلمين كثيرين لا يعنون إلا بطهارة الظاهر بل إنهم يصابون بأمراض نفسية اسمها الوساوس المتسلطة ، كم من قضية رفعت إليّ من أن إنساناً أصيب بأمراض من هذا النوع أصبحت حياته جحيماً لا تطاق، يتوضأ و يعيد الوضوء و يدخل دورة المياه و يخرج و يشك في نوع طهارته فيدخل ثانية و يخرج ، يتحرى مصلاه إن داس عليه طفل صغير يعيد الصلاة ، هذه أمراض نفسية أي مثل هذا الإنسان يعالج في مصحات ، فالإنسان عندما ينسى مراتب الطهارة و يكتفي بالمرتبة الأولى و هو تطهير الظاهر من الأحداث و الأنجاس و الفضلات فقد غفل عن حقيقة الطهارة لماذا ؟ لأن الإسلام بني على النظافة ، النظافة أي إياكم أن تظنوا النظافة المادية فقط ، كنت قد ضربت لكم مثلاً : قلت من قبل أن إنساناً يعمل في مصلحة فيها زيت و شحم و أشياء تلوث الثياب – مكنسيان مثلاً – و مرتدياً أفرول كما يسمونه أصله أزرق صار أسود اللون من الشحم و الزيت و الفحم و الوحل ، و انبطح تحت سيارة ليفك بعض أجزائها ، و أتقن عمله ، و أخذ أجراً معتدلاً ، فهذا العمل في الإسلام نظيف إلى أقصى الحدود ، وقد تقبع في غرفة مؤسسة بأفخر الأثاث ، و فيها أجمل المفروشات ، و هي

مكيفة ، و فيها كل وسائل الراحة ، فإذا كان هذا العمل مبنياً على إيذاء الناس في هذه الغرفة فهذا عمل قذر ، فالنظافة إذا أطلقت إياكم أن تظنوا أنها تنصرف إلى النظافة المادية ، ذاك العمل نظيف ، و النبي عليه الصلاة و السلام أثنى على من يعمل بيده و هو من الكسب الحلال ، وسيدنا عمر يقول : " إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني " ، و الإمام علي كرم الله وجهه يقول : " قيمة الرجل ما يحسنه " ، إن كان يحسن عملاً فله عند الله قيمة لأنه عنصر معطاء ، فالنظافة المقصود بها هي الطهارة الداخلية ، فالكذاب قذر ، المخادع قذر ، النمام قذر ، المتكبر قذر ، الذي يحتقر الناس قذر ، و هناك أعمال قذرة مبنية على إيقاع الأذى بالناس ، على أخذ أموالهم ، على إيقاع الرعب فيهم ، هذه أعمال كلها قذرة ، و الأعمال التي يحتاج فيها الإنسان إلى ثياب خاصة هذه الأعمال هي عند الله نظيفة ، و عند الناس نظيفة ، و أنعم بها من أعمال، فبني الإسلام على النظافة ، يجوز إنسان يذهب إلى أوربا يجد هناك مظاهر نظافة من أعلى مستوى ، لكن لو عاشرهم و أقام بينهم لرأى من قذارتهم ما لا يوصف ، من تفسخهم الاجتماعي ، من انحلالهم الخلقي ، من اختلاط الأنساب عندهم ، أي كيف تقبل أيها الإنسان أن إحصائية أجريت في أمريكا قبل أشهر عن بعض العلاقات المحرمة بين الأقارب فوجد أن ثلاثين في المئة من النساء هناك يمارسن علاقات محرمة مع محارمهن كالآباء و الأخوات ، ما تفسير ذلك ؟ هؤلاء ليسوا بناتهن ، و هؤلاء ليسوا أخواتهن بسبب اختلاط الأنساب ، لا يوجد عندهم عدة ، و لا هذا التشريع الحكيم الذي جاء به النبي الكريم ، فيظن أن هذه أخته هي ليست أخته ، يُظن أن هذه ابنته و هي ليست ابنته ، فهذه هي القذارة الحقيقية ؛ التفسخ ، و الانحلال ، و اللؤم ، و كسب المال الحرام ، و الكذب ، و الغش، و النميمة ، هذا كله يسبب قذارة النفس ، فمن قويت بصيرته سمت إلى هذه الأهداف همته ، و من عميت بصيرته لم يفهم من مراتب الطهارة إلا المرتبة الأولى فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء و غسل الثياب ، انظر المؤلف قال : زمانه الشريف ، أي أنت هذا العصر الذي تعيشه و هذا العمر الذي تستهلكه هو ثمين جداً ، أي كل دقيقة أحياناً يقول لك : هذه المركبة الفضائية كلفت كل دقيقة منها ثلاثة عشر مليون دولار مثلاً ، ما معنى ذلك ؟ أي هذه المركبة الفضائية بذل من أجل إطلاقها إلى القمر علم الأرض كله ، أي جميع العلوم ؛ الرياضيات ، الفلك ، الفيزياء ، الكيمياء ، كل هذه العلوم تضافرت و ساهمت في هذه المركبة الفضائية ، أحصيت نفقاتها فإذا هي رقم كبير كبير ، قسم هذا المبلغ الكبير على أيام بقائها في الفضاء ، و على ساعات بقائها ، و على دقائق بقائها ، فقيل : إن الدقيقة الواحدة كلفت ثلاثة عشر مليون دولار .

العمر ثمين جداً :

هل تصدق أيها الأخ الكريم أن الثانية الواحدة من حياتك تكلف ألوف ألوف الملايين من أجل أن تشرب هذا الكأس من الماء ، لابد من الشمس ، لا بد من السحاب ، لابد من البحار من أجل أن تأكل ، هذه المناخات المتقلبة من حر و قر و أمطار وثلوج و غيم و شمس ساطعة و شمس محجوبة ، هذه كلها تسهم في صنع الطعام و الشراب ، في صنع الخضراوات و المحاصيل و الفاكهة ، فأنت مثلاً قلبك من أجل تركيب دسام في القلب صناعي اسمع العمليات تقدر بمئتي ألف ، بثلاثمئة ألف ، تركيب كلية كلف ثمانمئة ألف ليرة ، زرع كلية مأخوذة لإنسان ، فالإنسان عندما تكون أجهزته سليمة مادام زرع كلية يكلف ثمانمئة ألف، و عملية بالقلب ثلاثمئة ألف ، ووضع دسام صناعي بأربعمئة ألف ، معنى ذلك أن الإنسان يكلف في كل ثانية ألوف الملايين ، و معنى هذا أن العمر ثمين جداً ، فمن استهلك هذا العمر في سفاسف الأمور ، في اللهو و الباطل ، و أهداف غير صحيحة ، و في طرق مسدودة ، و أعمال لا طائل منها ، في لعب و تفاخر بالأموال و الأولاد ، فهو من أخسر الناس ، لأن ساعة اللقاء لا يندم فيها المرء إلا على ساعة مرت في الدنيا لم يذكر الله فيها ، فالإنسان يدقق في وقته كيف يصرفه ؟ أي ما مضى فات ، و المؤمل غيب ، و لك الساعة التي أنت فيها ، ما مضى صليت أم لم تصلِّ ، صمت أم لم تصم ، فكرت أم لم تفكر ، أحسنت أم أسأت ، ما مضى مضى و انتهى أمره، و التفكير فيه مضيعة للوقت ، و المؤمل غيب ، سأفعل هذا بعد غد ، في نهاية الشتاء سوف أتوب ، في مطلع العام الدراسي سوف أتوب ، بعد أن أنجز هذا العمل سوف أتوب ، و المؤمل غيب ، و لك الساعة التي أنت فيها ، لا تملك إلا هذه الساعة ، فإذا عرفت الله عز وجل قم و بادر إلى طاعته قبل ألا تدري ما سيكون ، إذاً فتراه يضيع أكثر زمانه الشريف في المبالغة في الاستنجاء و غسل الثياب ظناً منه بحكم الوسوسة ، و قلة العلم أن الطهارة المطلوبة هي هذه فقط طهارة الثياب ، و جهلاً بسير المتقدمين الذين كانوا يستغرقون الزمان في تطهير القلوب ، ممكن أن تجد مسلماً نظيفاً و لكن عنده حقد ، عنده استعلاء ، عنده حسد ، ليس معقولاً ، ما قيمة هذه النظافة الظاهرة؟ لابد من تطهير القلب ، لذلك سيدنا عمر قال : " تعاهد قلبك " ، يجب أن تراقب قلبك ماذا يُكِن للناس ؟ هل يكن لهم المحبة أم الحقد ؟ ماذا يكن ؟ قال تعالى :

﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

[سورة الشعراء : 88-89]

عملية الطهور في كل المراتب تعد شطر الإيمان :

و قد انتهى الأمر إلى قوم يسمون الرعونة نظافة ، فترى أكثر زمانهم يمضي في تزيين الظواهر و بواطنهم خراب محشوة بخبائط الكبر ، و العظم ، و الجهل ، و الرياء ، و النفاق ، و لو رأوا النظافة مقتصرة على الاستجمار على الحجر أي رأوا النظافة مقتصرة على أمور التطهير المادية ، و هذا لا ينبغي أن يكون في هذا الفهم القاصر .

في الحديث عن النبي عليه الصلاة و السلام يقول :

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ))

[مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ]

فسر بعضهم هذا الحديث أن كل مراتب النظافة هذه ؛ مرتبة الجوارح ، و مرتبة تطهير الجوارح من الذنوب ، تطهير القلب من الأخلاق المذمومة ، تطهير السر عما سوى الله ، الطهور شطر هذه المراتب ، أي هذا القلب هذا السر من أجل أن يكون الله فيه ، ماذا ينبغي أن تفعل أولاً ؟ أن تطهره عما سوى الله ، فعملية التطهير نصف الإيمان ، و هذه الجوارح من أجل أن تكون قائمة بأمر الله ، ماذا ينبغي أن تفعل ؟ ينبغي أن تطهرها عن الذنوب و الآثام ، هذا القلب الذي هو موضع الأخلاق المذمومة كيف تحليه بالأخلاق الحميدة؟ لابد من تطهيره من هذه المذمومة ، إذاً عملية الطهور في كل المراتب تعد شطر الإيمان ، أي نصف الإيمان بالذات .

الإسلام نظيف ظاهراً و باطناً :

و هناك حديث آخر يقول عليه الصلاة و السلام :

((مِفْتَاحُ الصَّلاةِ الطُّهُورُ))

[الترمذي عَنْ عَلِيٍّ]

طبعاً الحديث يؤخذ على ظاهره ، لابد من الطهارة ، و الطهارة أحد شروط الصلاة ، و لكن لا ينبغي أن يقتصر الفهم على هذا المعنى ، مفتاح الصلاة الطهور بمعنى من كان غاشاً للمسلمين ، من كان مستغيباً لهم ، من كان ناماً فيما بينهم ، من نظر إلى عوراتهم ، من غشهم في بيعهم و شرائهم ، لا يستطيع أن يصلي ، و بعضهم حمل قوله تعالى :

﴿ يَا بَنِي آَدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾

[سورة الأعراف : 31]

بعضهم حمل قوله تعالى هذا على أن الزينة العمل الصالح ، البس أجمل الثياب و تعطر و تزين و هذا شكل الآية ، المعنى الآخر في الآية : لابد من عمل صالح تقدمه بين يديك في أثناء الصلاة ، فلو أغثت ملهوفاً ، أعنت فقيراً ، تصدقت ، عدت مريضاً ، أجبت سائلاً ، ثم ذهبت لتصلي فإن هذا العمل الذي قدمته يعينك على الاتصال بالله عز وجل ، قال تعالى :

﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

[سورة الكهف : 110]

على كلٍّ كل هذه المعاني التي ذكرناها لا تنفي المعاني الظاهرة للنظافة ، الإسلام نظيف ظاهراً و باطناً ، و إن رأيت إنساناً نظيفاً ظاهراً فادعه إلى نظافة الباطن لأن الأولى لا تكفي .

* * *

المساجد و الأسواق :

و الآن إلى بعض الأحاديث الشريفة يقول عليه الصلاة و السلام :

((. . . . خَيْرَ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِدُ ، وَأَنَّ شَرَّ الْبِقَاعِ الأَسْوَاقُ))

[الحاكم عن ابن عمر]

كلمة خير اسم تفضيل بمعنى أخير لكن لكثرة استعمالها اختصرت و أصبحت خير، فأنت في المسجد يطهر قلبك ، و تسمو نفسك ، و تشحذ عزيمتك ، و يلين قلبك ، و تنعقد توبتك ، و تطمح إلى أن تكون من أهل الجنة، و تحس بالصفاء ، و يبعد عنك الانقباض و الضيق ، و هكذا قال بعض الصحابة : " نكون مع رسول الله و نحن و الجنة كهاتين فإذا عافسنا الأهل و الأولاد ننسى "، هذه الحال تذهب عنا ، لكن في الأسواق هذه الحاجة جميلة لا تملك ثمنها إن اشتريتها ديناً أصابك ذل الدين ، و إن امتنعت عنها شعرت بالحرمان ، و إن كان في الطريق فهناك نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات تلعنهن لأنهن ملعونات ، الإنسان تغيرت وجهته ، فالنبي الكريم قال :

((. . . . خَيْرَ الْبِقَاعِ الْمَسَاجِدُ ، وَأَنَّ شَرَّ الْبِقَاعِ الأَسْوَاقُ))

[الحاكم عن ابن عمر]

إن لم تكن لك حاجة ماسة بالسوق لا تذهب إليه ، لأن السوق كما قلنا : موطن الفتنة ، إما فتنة في الحاجات أو فتنة فيمن حول الحاجات ، إياكم و فضول النظر فإنه يوقع في النفس الهوى ، حتى الحاجات التي لست بحاجة إليها لا تتأمل فيها كثيراً فقد تبذل في نفسك الهوى، هناك شيء آخر النبي الكريم كان إذا وقع بصرهِ على شيء من زينة الدنيا يقول :

((اللهم لا عيْشَ إلا عَيْشُ الآخِرَةِ . . .))

[البخاري عن أنس بن مالك]

هذا الدعاء يذكرك بالآخرة و ما فيها من نعيم مقيم ، و كيف أن أهل الجنة في الجنة ينعمون إلى أبد الآبدين ، فكلما لاحت لك زينة الدنيا تذكر الآخرة و ما فيها من سعادة عظمى .

خير الأعمال و الأصحاب عند الله :

و يقول عليه الصلاة و السلام :

((خير الأعمال الصلاة في أول وقتها))

[عن عثمان بن عمر وهو صحيح على شرط الشيخين]

يبدو أن الصلاة في أول وقتها تسعد صاحبها ، ومن أخّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره ، أي لا ينعم بالوقت ، إذا الإنسان صلى الظهر بوقته ، والعشاء بوقته ، يستريح فإذا أصابه النعاس نام فوراً ، فإذا أخّر العشاء وأصابه النعاس ولم يكن قد صلى فالصلاة أصبحت عبئاً عليه ثقيلاً ، فخير الأعمال الصلاة في أول وقتها ، و خير الأصحاب صاحب إذا ذكرت الله أعانك ، و إذا نسيت ذكرك ، إذا ذكرت الله أعانك فزادك قال لك: و الله إنه شيء جميل ، أكمل حدثنا ، أي شجعك على الحديث ، كنت معه بنزهة أو بسفر هذا الوقت الثمين أمضيتموه في معرفة الله ، إذا ذكرت الله أعانك هذه نصيحة لوجه الله ، إن حدثت صديقاً عن الله و قال لك : هذا الموضوع دعنا منه الآن ، لا تصاحبه ، هذا قد يسبب لك ضياعاً وفساداً ، إذا قال لك : دعنا من هذا الموضوع مازال باكراً علينا ، من مات و رأى ماذا يوجد بعد الموت ؟ الله كريم ، غداً نحج و نتوب ، هذه الأقوال إن قيلت فهذا الصاحب لا ينبغي أن تصاحبه .

و عض عليه بالنواجذ بمعنى الزم صحبته ، و يقول عليه الصلاة و السلام :

((خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

أي صاحبان هذا قدم لهذا خدمة كبيرة ، هذا عند الله خير من هذا ، الأكثر نفعاً هو الأفضل عند الله عز وجل ، أي يوجد أصحاب يبني صحبته على ابتزاز صديقه ، أي إذا تناولوا الطعام بمطعم يحب أن يدفع عنه ، حيث يتأخر بالدفع قليلاً حتى يدفع عنه ، إن ركبوا سيارة و ذلك أخرج بطاقة ليضعها يبقى ساكتاً ، فمادام الإنسان بهذه الصحبة يبتغي أن يستفيد من صاحبه فهذا أسوأ الأصحاب ، أما خيرهم عند الله من بادر بإكرام صاحبه حيث :

((خَيْرُ الأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

التوحيد يسعد النفوس :

و قال عليه السلام :

((خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))

[الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

أي خير قول يقوله الإنسان : لا إله إلا الله هذه كلمة التوحيد ، و ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد ، و بالتوحيد تصفو القلوب ، الآن كل مشاكل الناس من الشرك ، بالشرك يوجد خوف و يأس ، مع الشرك يوجد قنوت ، لكن مع التوحيد يوجد بشرى و أمل و طمأنينة و راحة و سعادة و استغناء ، إذا رأيت أن أمورك بيد فلان و فلان لئيم فهذا أكبر الشقاء أي أن ترى أمورك بيد فلان ، و فلان لا يعرف الله عز وجل ، لكنك إذا رأيت الأمر كله بيد الله وأنك عبد لله وأنك إذا أطعته أراحك من عناء الدنيا ، و حماك من شرار خلقه ، هذا هو التوحيد، و بالتوحيد تسعد النفوس :

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإن منحنا بالرضا من أحبنا

لذ بحمانا و احتم بـجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

طبعاً الحياة مخيفة ، الأخطار من كل جانب ، يكفي إنسان يركب سيارته و يكون نظامياً و إذا برجل نائم يدخل به و يقول لك : ابنه توفي و خمسة كسور متحركة ، أي احتمال الشر قائم في الحياة ، أما إن كنت مع الله عز وجل فيحفظك من مثل هذه المصائب .

((خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))

[الترمذي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده]

التوكل على الله و الاستسلام له يدخل السعادة على قلب الإنسان :

خير الدعاء الاستغفار ، الاستغفار هذه الوجهة إلى الله عز وجل التي تطهر النفس من ذنوبها ، و الذنوب الأعمال أو الشهوات التي علقت بها ، فإذا جاء النور الإلهي طهرها من هذه الذنوب و نقاها من هذه الأدران .

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي))

[أحمد عَنْ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ]

أي لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه ، أحياناً الإنسان تسمعون ببعض القراءات في المساجد أن الناس في نهاية الآية يصرخون بأعلى أصواتهم : الله ، لو خشع قلبهم لخشعت أصواتهم ، لو خشعوا لبكوا ، أما هذا الصياح على طرب فهذا صياح الطرب لا صياح الخشوع ، خير الذكر الخفي و خير الرزق ما يكفي ، أي : اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً، النبي الكريم تمنى لأحبابه أن تكون أرزاقهم كافية لهم من دون إسراف و لا مخيلة و لا تبذير و لا بذخ و لا كبر و لا فخر و لا خيلاء و لا استعلاء .

خير الزاد التقوى و خير ما ألقي في القلب اليقين ، طبعاً إذا الإنسان هيأ بيتاً و هيأ له فرشاً جيداً و مرافق جيدة و وضع ببيت المؤونة – إن صحّ التعبير – كل ما لذّ و طاب و جاءه الموت ، هذا الزاد لا قيمة له ، لكن أعماله الصالحة إن كانت كثيرة فهي خير زاد له، إذا جاء ملك الموت فالنبي الكريم قال :

((خير الزاد التقوى))

[الطبري عن عكرمة]

و قال :

((خير ما ألقي في القلب اليقين))

[شعب الإيمان عن ابن مسعود]

أي يقين هذا ؟ اليقين بلقاء الله ، اليقين بعدالة الله ، اليقين برحمة الله ، اليقين بأن ما في كتاب الله حق و سوف يقع ، اليقين بأن العاقبة للمتقين ، اليقين بأن أهل الباطل لابد خاسرون ، هذه الكلمات العظيمة من يومين قرأت في القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾

[سورة الزخرف : 79]

أي إذا أهل الدنيا أبرموا أمراً فالله عز وجل موجود ، أمره هو النافذ ، و الله سبحانه و تعالى يبرم أمراً ، أي الأمرين نافذ ؟ أمر الله عز وجل لو أبرم ، و لو أن هؤلاء الأجانب ائتمروا على هذه البلاد المستضعفة مثلاً ، أبرموا أمراً ، أما فإنا مبرمون ، و قال تعالى :

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة يونس : 24]

أمرنا لا أمرهم ، أجمل شعور للمؤمن يرى أن الله عز وجل ربه و إلهه رحيم سميع بصير غني ، فالتوكل عليه ، و التفضيل له ، و الاستسلام له ، شيء يدخل السعادة على قلب الإنسان .

أويس القرني :

في موضوع هذه الأحاديث التي تبدأ بكلمة خير مرّ معي هذا الحديث :

((نَادَى رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ يَوْمَ صِفِّينَ : أَفِيكُمْ أُوَيْسٌ الْقَرَنِيُّ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ مِنْ خَيْرِ التَّابِعِينَ أُوَيْسًا الْقَرَنِيَّ))

[أحمد عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى]

من سنتين أو أكثر فيما أذكر حدثتكم عن قصته ، و قد رجاني بعضهم أن أعيد القصة لما فيها من دقة ، و من موعظة ، و قد استجبت لهذا الطلب ، و سأتلوه على مسامعكم و قد جاءت مناسبة لهذا الحديث خير التابعين أويس .

أذن مؤذن الحج فهرع الناس رجالاً :

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾

[سورة الحج : 27]

ينشدون البيت العتيق و الحرم الآمن المقدس الذي رفع قواعده إبراهيم و إسماعيل، و طافت به الملائكة ، و طهره النبي ﷺ ، و فاضت رحاب مكة بالوافدين ، و تعطرت شعابها بأنفاس العابدين الركع الساجدين ، و دنت الأرض من السماء– تعبير لطيف – و التقى الصفاء بالصفاء ، و حان اليوم العظيم ، و تهيأت عرفات ، و خشعت القلوب ، و عنت الوجوه للحي القيوم ، فلا تسمع إلا هاتفاً بالدعاء ، و مسبحاً بالنجوى ، و متعطراً بالطاعة ، إنه يوم الإسلام الأكبر فلا رفث و لا فسوق و لا جدال ، و إنما إيمان و طهارة ، و ترفع عن الدنايا ، و تطلع إلى السماء ، و لكن ما بال عمر أمير المؤمنين وما خطب فارس قريش و عالمها علي بن أبي طالب ما بالهما ؟ و ما خطبهما ؟ إنهما يطوفان و يدوران بوفود العرب في تلطف و تطلع ، و يخصان حجيج اليمن برعاية واضحة ، و استقصاء شامل ، و عجب الناس لعمر و هو يقتحم قوافل اليمن سائلاً عن رجالهم ، متفرساً في وجوههم ، متسائلاً عن أسمائهم و أنسابهم ، و عجبوا أكبر العجب لعلي كرم الله وجهه في سمته و وقاره ، و هو يفحص ملامح اليمنيين ، و يستروح أنباءهم ، و يمازح فتيانهم كأنه ينشد ثأراً أو نسباً ، و نظر علي إلى عمر ، و ابتسما فكلاهما يعلم سر صاحبه و ما ينشدان ، و لقد ترقبوا مواسم الحجيج عشر سنوات فما عثروا على ضالتهما، و ما بلغا آمالهما ، لقد أسرّ النبي عليه الصلاة و السلام إليهما أمراً هاماً ، هما أحرص الناس عليه ، و لكن السنين مضت ، و العمر يتقدم ، و الأمنية الكبرى لم تتحقق ، إن كليهما ليذكر وجه محمد ﷺ الصادق الحبيب الأمين و هو يهتف بهما : يا عمر و يا علي إذا لقيتما أويساً القرني فاطلبا إليه أن يستغفر لكما فإنه مجاب الدعاء ، عشر سنوات في مواسم الحج يسألون ، يتفرسون ، يتأملون ، يتفحصون وقد أعيتهم الحيلة ، و إن صورة أويس لواضحة في قلبيهما ، لقد وصفه النبي عليه الصلاة و السلام فقال : " إنه أشهل ، ذو سهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة ، آدم ، يضرب بذقنه إلى بطنه ، واضع يمينه على شماله يتلو القرآن ، ذو

طمرين من صوف ، مجهول في الأرض ، معروف في السماء ، يقال للعباد يوم القيامة : ادخلوا الجنة ، و يقال له : قف فيشفع بإذن ربه في عدد ربيعة و مضر " ، هكذا وصف النبي الكريم أويساً القرني .

عشر سنوات و عمر و علي ينشدان في الحرم الأمين أويساً ، فقد أنبأهما النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بأنهما سيشاهدانه في مواسم الحج ، و من أصدق من النبي قيلة؟

الحوار الذي دار بين عمر و علي و بين أويس القرني :

و جاء رجل إلى عمر لينبئه بأن قافلة جديدة صغيرة هبطت من اليمن فوثب عمر راكضاً يدفئ صدره الأمل ، و في غمار القافلة شاهد علياً قد سبقه ، قافلة جديدة من اليمن ، يتحدث إلى رجل ناصع الثوب و الوجه ، تبدو عليه سمات السيادة ، و سمع علياً يهتف به : ألم يبقَ أبداً في قافلتك – تفحصهم واحداً واحداً – غير من حدثتني بأمرهم ؟ فقال سيد هذه القبيلة : أجل يا بن عم رسول الله ، و لكن صبراً لقد أُنسيته ، إن في رحالنا فتى خامل الذكر، ممزق الثوب ، يرعى لنا و نؤجره دراهم معدودات ، و ما أظنك تنشد مثله ، فصرخ عمر إنه أشهل ذو سهوبة ، بعيد ما بين المنكبين ، معتدل القامة ، آدم ، يضرب بذقنه إلى صدره ، و عجب الأعرابي و نظر إلى عمر و هو لا يعرفه قائلاً : لقد وصفته أكمل ما يوصف به فهل رأيته ؟ و أضاء النور قلبي عمر و علي فقد عرفا أنهما على الأثر الصادق ، و استنطقا الأعرابي فأرشدهما إلى مكان أويس ، فانطلقا إليه يتسابقان ، و في صحراء مكة بالقرب من أبي قبيس شاهدا رجلاً يرعى إبلاً فسلما عليه ، ثم قالا له : من الرجل ؟ قال : راعي إبل و أجير قوم ، قالا : لسنا نسألك عن ذلك ، ما اسمك : قال : عبد الله ، الذي يريدانه أويس ، قالا: قد علمنا أن أهل السماء و الأرض كلهم عبيد لله و لكن ما اسمك الذي سمتك به أمك ؟ قال : يا هذان ما تريدان مني ؟ من أنتما ؟ قالا : قد وصف لنا رسول الله ﷺ أويساً القرني و قد عرفنا الشهولة و السهوبة ، عندئذٍ أحسنا السلام و التحية ، و طلبا منه الدعاء و الاستغفار ، طبعاً هو أطرق و سكت و كأنه هو ، قال : ما أخص بالاستغفار أحداً و لكن للمؤمنين و المؤمنات ، ثم من أنتما ؟ قال علي هذا عمر أمير المؤمنين و أما أنا فعلي ، الإنسان ليس له حق أن يفخم نفسه ، فاستوى أويس القرني قائماً قائلاً : السلام عليك يا أمير المؤمنين و يا بن أبي طالب جزاكما الله عن هذه الأمة خيراً ، قال عمر : عظني يا أويس؟ عمر عملاق الإسلام قال له : عظني يا أويس ؟ لأنه صدق كلام النبي الكريم ، قال أويس : ابتغِ رحمة الله عند طاعته ، و احذر نقمته عند معصيته ، و لا تقطع رجاءك عنه خلال ذلك، هذه الكلمة تكفي وحدها ، ابتغِ رحمة الله عند طاعته ، و احذر نقمته عند

معصيته ، و لا تقطع رجاءك عنه فيما بين ذلك ، فمن رجا رحمته و هو يعصيه فهو الأحمق ، و من خافه و هو يطيعه فهو اليائس ، و هتف به علي : لقد حدثنا النبي عنك صلوات الله عليه و هم لم يرك و لكنه كان يحبك و يصفك ، و يقول : إنك أفضل التابعين فكيف تتصور النبي يا أويس ؟ لم يره ، فقال : يا علي لقد كان لكما فضل التمتع و الشرف برؤيته ، و أما أنا فقد حرمت هذا الشرف و الفضل ، و لكنني أتصوره صلوات الله عليه في بصيرتي على غير ما رأيتم بأعينكم و شاهدتم ، أتصوره نوراً ساطعاً يملأ الفضاء ، و يسري في الوجود، أتصوره و رأسه الشريف قاب قوسين أو أدنى من العرش ، و قدمه مستقرة في الأرض السابعة ، و بكى عمر و علي شوقاً للنبي عليه الصلاة و السلام ، ثم قال عمر : كيف الزمان عليك يا أويس؟ قال : كيف هو على رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي و إن أمسى ظن أنه لا يصبح ؟ هذه حال عالية جداً ، انحلت كل مشاكله لم يعد هناك هموم مادام الموت قريباً ، قال : كيف بلغت هذه المكانة العليا ؟ قال : إني أعيش في مقام الخوف و هو مقام لا يبلغه الإنسان حتى يصبح من خوف ربه و كأنه قتل الناس جميعاً ، الحقيقة إن لم يوجد خوف فالمشكلة كبيرة ، يجب أن تخاف على مقامك عند الله ، يجب أن تقلق على مصيرك في الدنيا ، يجب أن تخاف ألا تكون كما يحب الله ، هذا الخوف أكبر دافع للعمل الصالح و الالتزام و الاستقامة ، و تناجيا طويلاً ثم عرض عليه عمر كسوة و نفقة فقال : ما أصنع بهما ؟ أما ترى ردائي و إزاري من صوف متى تراني أخرقهما ؟ و أخذت من عملي أربعة دراهم متى تراني آكلها ؟ معي دراهم و ألبس رداء ، إن بين يدي و يديك عقبة كؤوداً لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول ، فأعرض عن الدنيا يا عمر ، و اخشّ يوماً لا ينفع فيه مال و لا بنون ، فضرب عمر بدرته الأرض ثم نادى بأعلى صوته : ألا ليت أم عمر لم تلد عمراً ، و همّ أويس بالانصراف فتعلق به علي و قال : إنما جئناك لنأنس بك ، قال : عجباً يا علي ، ما كنت أحسب أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره ثم ولى مدبراً ، طبعاً النبي صلى الله عليه و سلم ورد عنه الحديث عن أويس ، لم يره و لكن الله أنبأه به ، و طلب من عمر إذا لقي أويساً أن يستغفر له ، أن يسأله الاستغفار ، سيدنا عمر حريص حرصاً بالغاً على اللقاء مع سيدنا أويس ، و التقى معه هو و علي كرم الله وجهه و كان ما كان .

الحقائق المستنبطة من هذه القصة :

من هذه القصة كلها يجب أن يبقى في أذهاننا إن نسينا التفصيلات فلا ينبغي أن ننسى قول أويس ، ارجُ رحمته عند طاعته ، و احذر نقمته عند معصيته ، و ارجه فيما بين ذلك ، أي إذا الإنسان رجا رحمة الله و هو يعصيه فهذا هو الجهل و الغباء و الحمق ، و إذا قنط من رحمته و هو يطيعه فهذا هو الجهل أيضاً ، يجب أن ترجو رحمته عند طاعته ، و أن تحذر نقمته عند معصيته ، و فيما بين ذلك الخوف و الرجاء ، و الدنيا أساس كل خطيئة، أيضاً انصراف أويس القرني عن الدنيا أحد أسباب فوزه بهذا المقام ، و الشيء الثالث : أنه إذا أصبح قد لا يمسي ، و إذا أمسى قد لا يصبح ، و هناك شيء رابع : الخوف من الله عز وجل ، خوفه من الله و كأنما قتل الناس جميعاً ، و يقينه بالموت ، و زهده في الدنيا ، و رجاء الله عند طاعته ، و خوف نقمته عند معصيته، أربع حقائق تستنبط من هذه القصة ، من هذه التفصيلات الطويلة ، قال له : ابتغِ رحمة الله عند طاعته ، و احذر نقمته عند معصيته ، و لا تقطع رجاءك عنه خلال ذلك ، أصبحت من خوف الله و كأنني قتلت الناس جميعاً ، الشيء الثالث : كيف برجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي و إن أمسى ظن أنه لا يصبح . آخر شيء : عندما عرض عليه كسوة و نفقة قال : هذا إزاري و ردائي من صوف متى تراني أخرقهما ؟ و أخذت من عملي أربعة دراهم متى تراني آكلها ؟ أي أنا في بحبوحة ، فكل واحد منا عنده أكل يكفيه عام في البيت ، عنده سبع أو ثماني بدلات بالخزانة و يقول لك : السنة لا يوجد عندي شيء ، انظر سيدنا أويس ، عندما الإنسان تخف حاجاته في الدنيا تصفو نفسه ، عندما يقطع أسباب الدنيا تتفتح أسباب السماء ، أما إذا كان كل همه الدنيا:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وشتت عليه شمله ، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له ، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 3 : صيام الجوارح ....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

صيام الجوارح عن المحرمات :

أيها الأخوة الأكارم ، إتماماً لموضوع صيام الخصوص وهو صيام الجوارح عن المحرمات تحدثنا في الدرس الماضي عن صوم العين ، وكيف أن العين عليها أن تغض عن محارم الله ، وعن كل شيء يولد في النفس الشهوة والهوى ، إياكم وفضول النظر فإنه يبذر في النفس الهوى ، وتحدثنا عن صيام الأذن :

((من استمع إلى قينة صب في أذنه الآنك يوم القيامة))

[ابن عساكر عن أنس]

فالأذن تستمع ، وقد استنبط الإمام الغزالي قاعدةً وهي أن ما حرم فعله حرم النظر إليه ، وما حرم النطق به حرم استماعه ، فالذي يستمع إلى الغيبة شريك المغتاب بالإثم ، وقد حدثتكم من قبل : الذنب شؤم على غير صاحبه فكيف على صاحبه ؟ فكيف على غير من اقترفه ؟ الذنب شؤم على غير صاحبه إن عيره ابتلي به ، وإن ذكره فقد اغتابه ، وإن رضي به فقد شاركه بالإثم " قال تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

[سورة الإسراء : 36]

أخلاق المسلم علية ، وإذا رآها الناس عليه أحبوا أن يكونوا مثله ، فدخل الناس في دين الله أفواجاً ، إذا طبق المسلمون أوامر دينهم مئة في المئة دخل الناس في دين الله أفواجاً ، فإذا تخلوا عن الأوامر وطبقوا العبادات خرج الناس من دين الله أفواجاً ، أي بين المسلمين وبين غير المسلمين نفور لا يعلمه إلا الله ، سببه أن المسلمين حرفوا على العبادات وتركوا مكارم الأخلاق ، فلما تركوا مكارم الأخلاق نفر الناس منهم ، الذنب شؤم على غير

صاحبه ، إن عيره ابتلي به ، وإن ذكره فقد اغتابه ، وإن رضي به فقد شاركه بالإثم .

الصيام مدرسة خلقية :

فإتماماً لموضوع صيام الجوارح ، أي ترك الطعام والشراب شيء نعلمه جميعاً ، ما من مسلم على وجه الأرض إلا ويعلم أن الصيام ترك الطعام والشراب وسائر المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس بنية ، هذا تعريف الصيام ، ولكن هذا الصيام لا يرقى بالناس ، فالناس هم هم ، كيف يكون الصيام عبادة تلفت النظر؟ أمر إلهي ، خالق هذا الكون يأمر بعبادة لا تقدم ولا تؤخر ولا تسمو بصاحبها ولا تغير من أخلاقه ولا تسمو بميوله؟ ليست هذه عبادة كما نفهمها نحن ، ولكن الصوم إذا صمت ثلاثين يوماً فصامت جوارحك عن كل المعاصي ، وصام قلبك عما سوى الله عز وجل ، وخرجت من شهر الصيام إنساناً آخر بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، بقيمك ، بأخلاقك ، يجب أن تقول زوجتك : والله ما كان فلان هكذا ، ما لهذا الحلم الذي يتمتع به ؟ ما لهذه الرحمة ؟ ما لهذا اللطف الذي هو فيه ؟ هذا هو الصيام ، مدرسة خلقية لأنك إذا تركت الطعام والشراب لله وهو مباح.

((عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عنه يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ اللَّهُ كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ))

[مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ]

إذا تركت الطعام والشراب وسائر المفطرات والمخالفات والمعاصي كلها صغيرها وكبيرها ، لابد من أن تشعر أن الله راض عنك ، لابد من أن تقبل في الصلاة عليه، لابد من أن تدمع عينك ، لابد من أن تشعر أن الصلاة مائدةٌ ربانية ، كيف إذا دعاك إنسان إلى طعام نفيس وقدم لك من هذا الطبق ، ومن هذا الطبق ، وقال لك : كُل هذه ، ألا تشعر أنك أكرمت ؟ كذلك الصلاة ، الصلاة ميزان فمن وفى استوفى ، من وفى الاستقامة حقها استوفى من الصلاة ثمرتها ، الدين كله صلاة ، قال تعالى :

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

[سورة مريم: 31]

الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين ومن هدمها فقد هدم الدين ، لا خير في دين لا صلاة فيه ، من ترك الصلاة فقد كفر ، بين الرجل والكفر ترك الصلاة.

الصيام من أجل الصلاة ، والزكاة من أجل الصلاة ، والحج من أجل الصلاة ، والصلاة من أجل الصلاة ، أي هذه الحركات والسكنات والقراءات والوقوف والركوع والسجود والقعود من أجل أن تصلي ، فإن لم تصلِّ فلا صليت ، قم وصلِّ فإنك لم تصلِّ أي آن الأوان أن نتعامل مع الحقائق ، المسلم عمره ثمين جداً ، يعيش عمره كله في الأوهام ، أنا أصلي والحمد لله ، أنا أصوم والله ما فطرت شهراً في حياتي ، حج أربع حجج ، وثماني عمرات ، أي آن الأوان أن تتعامل مع الحقائق ، هذه أوامر إلهية ، عبادات راقية جداً لابد من أن ترقى بك.

المغبون من تساوى يوماه :

المغبون من تساوى رمضاناه ، أي إذا كان رمضان الماضي كهذا الرمضان فأنت مغبون ، أي يجب أن تقول : هذا الرمضان أنا إنسان آخر ، معلوماتي عن الله أعلى ، صفاتي الأخلاقية أرقى ، تطبعت بطباع أحسن ، تركت بعض الصفات المذمومة ، لابد من أن تقول هذا ، والمغبون من تساوى شهراه ، هذه كلها أقوال وليست أحاديث شريفة ، والمغبون من تساوى أسبوعاه ، والمغبون من تساوى يوماه .
يوماه إذا كنت البارحة كاليوم فأنت مغبون ، من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، لأن عمر الإنسان مثلاً ثلاث وسبعون سنة وثمانية أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام وثماني ساعات وسبع دقائق وثلاث ثواني وأربعة أجزاء الثانية ، وانتهت الحياة ، معنى هذا أن اليوم ثمين جداً ، اليوم جزء من الحياة ، كلما انقضى يوم انقضى بضع من الإنسان ، أي آن الأوان أن يتعامل الإنسان مع الحقائق .

الصيام من أجل التقوى والتقوى فوق الإيمان :

الصيام أمر إلهي ، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة : 183]

معنى هذا الصيام من أجل التقوى والتقوى فوق الإيمان ، التقوى رؤية ، وإذا ملك الإنسان الرؤية الصحيحة هل يعقل أن يختار الشر ؟ أن يختار ما يؤذيه ؟ أن يختار ما يشقيه؟ أن يختار ما يبعده ؟ أن يختار طريق جهنم ؟ الحياة كلها رؤية ، وإن كنت تملك رؤيةً صحيحة فأنت من السعداء ، وإن كنت لا تملك هذه الرؤية فهذا هو عمى القلب ، قال تعالى :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾

[سورة الحج : 46]

رمضان مناسبة لتطهير النفس من أدرانها :

إذاً الصيام صيام الجوارح ، نعوذ بالله أن نقنع بصيام الفم واللسان هذا صيام العوام ، وصيام لا يقدم ولا يؤخر ، رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش ، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر والتعب ، لكن الصائم الذي تصوم جوارحه ، أي الغيبة تفطر الصائم ، خمسة يفطرن الصائم وينقضن الوضوء ؛ الكذب ، الغيبة ، والنميمة ، والنظر بشهوة، واليمين الغموس ، تفطر الصائم.

أي الإنسان أحياناً تقف سيارته في الطريق يتوقع أنه يوجد علة ، لا يوجد بنزين فيجد أن البنزين موجود ، يتوقع أنه لا يوجد كهرباء فيجد كهرباء ، كلما توقع شيئاً ووجد العكس يتوقع شيئاً آخر ، فإذا كان الإنسان لا يصلي ، صلاته شكلية ، أليست نفسه أخطر من سيارته ، ما السبب ؟ ما الذي يحول بيني وبين الصلاة الصحيحة ؟ أمعصية ارتكبتها ؟ ذنب مقيم عليه ؟ إعجاب بالكفار ؟ مودةٌ مع معرض ؟ أنقاد لمن يدعوني إلى الله ، لابد من علة حالت بينك وبين الصلة الصحيحة ، فرمضان مناسبة جميلة جداً لتطهير النفس من أدرانها وتصفية الحسابات وكأنها دورةٌ مكثفة .

الأوامر الإلهية في القرآن الكريم تقتضي الوجوب :

في الدرس الماضي تحدثنا عن صيام العين ، وعن صيام الأذن ، وعن صيام اللسان ، إتماماً لموضوع صيام الجوارح قد يكون الصيام ترك ما نهى الله عنه ، لكن من أجل أن تحدث الصلاة الصحيحة لابد من فعل ما أوجبه الله عليك ، الإنسان أحياناً يظن أن الأوامر الإلهية ؛ الصلاة ، والصوم ، والحج ، والزكاة ، مع أن كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب ، إذا قال الله عز وجل :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

[سورة البقرة : 83]

هذا أمر إلهي يقتضي الوجوب ، إذا قال الله عز وجل :

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

[سورة النور: 30]

هذا أمر إلهي يقتضي الوجوب ، إذا قال الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾

[سورة النساء : 19]

أمر إلهي ، قد لا يقل هذا الأمر عن الصلاة ، أن تعاشر الزوجة بالمعروف فهذا أمر إلهي عظيم ، اقرأ القرآن في رمضان واستنبط الأوامر المتعلقة بالزوجة ، استنبط النواهي، قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾

[سورة الطلاق: 1]

أمر إلهي ولا يخرجن ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾

[سورة لقمان : 18]

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

[سورة القصص : 77]

اقرأ القرآن ودقق في الأوامر الإلهية ، وقس نفسك بها أين أنت منها ؟ أين أنت من قوله تعالى :

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

[سورة البقرة: 83]

أخي ما عجبك ضعها من يدك وانصرف أنا صائم ، هذه الكلمة معصية ، هذا زبون لماذا الغلظة معه ؟ هذه ليست مأكولك وصائم ؟ ما هذا الصيام ؟ أهكذا البائع يكون ؟ قال تعالى :

﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾

[سورة البقرة: 83]

اتبع أوامر الله عز وجل ، قال تعالى :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾

[سورة عبس : 24]

أمر إلهي يقتضي الوجوب ، قال تعالى :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

[سورة الطارق: 5]

أمر إلهي يقتضي الوجوب ، قال تعالى :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

[سورة آل عمران : 137]

أمر إلهي يقتضي الوجوب ، كتاب الله بين أيدينا نقرأه بلغتنا ، والحمد لله رب العالمين.

حق الزوج على الزوجة :

إتماماً لموضوع الأمس يقول عليه الصلاة والسلام :

((حق الزوج على زوجته ألا تمنعه نفسها ولو كان على ظهر قتب ، وألا تصوم يوماً واحداً إلا بإذنه إلا لفريضة ، فإن فعلت أثمت ولم يتقبل منها ، وألا تعطي من بيتها شيئاً إلا بإذنه فإن فعلت كان له الأجر وعليها الوزر، وألا تخرج من بيته إلا بإذنه فإن فعلت لعنها الله وملائكة الغضب حتى تتوب وترجع وإن كان ظالماً))

[أبو داود عن عبد الله بن عمر]

أي لا يقبل من الزوجة صلاة ولا صيام إن لم تؤدِ حق زوجها ، وإن كان الزوج بأوامره ظالماً في علاقته مع ربه، أما علاقتها مع الله عز وجل ألا تصوم إلا بإذنه ، وألا تنفق من ماله إلا بإذنه ، وألا تخرج من بيته إلا بإذنه ، وحسابه على الله عز وجل .

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لامْرَأَةٍ : لا تَصُومِي إلا بِإِذْنِهِ))

[أبو داود عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

إذا فعلت الزوجة هذا مع زوجها تقبل الله صيامها .

حق الزوجة على الزوج :

حق المرأة على الزوج ، أن يطعمها إذا طعم ، يجب أن تطعمها مما تأكل ، لا أن تأكل أنت مع رفاقك ما لذّ وطاب وتجعلها تأكل أخشن الطعام في البيت وتقول : أنا مؤمن وأنا صائم ، أداء الحقوق جزء من الصيام ، ولا يهجر إلا في البيت ، اذهبي إلى بيت أهلك هذا خلاف الدين ، أبيح لك أن تهجرها ولكن أين ؟ في البيت ، الهجر لا يصح إلا في البيت لأنه إذا كان في البيت فالأمل بحل المشكلة قريب ، بضعة أيام ، أما إذا كان الهجر في بيت أهلها فربما انتهى الأمر بالطلاق .

حق الجار :

حق الجار إذا مرض عدته ، الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه له جار مغن أزعجه كثيراً وأتعبه كثيراً ، كان يغني هذا البيت :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة و سداد ثغر

***

يبدو أن حرس الخليفة قبضوا عليه وساقوه إلى السجن ، فذهب بنفسه إلى المحتسب – يعادل وزير داخلية تقريباً – وتوسط له ، فقال : يا فتى هل أضعناك وأنت تقول أضاعوني وأي فتى أضاعوا فهل أضعناك يا فتى ؟ فكان إسلام هذا الجار على يد الإمام الأعظم أبي حنيفة لأن عليه حقاً ، هذا جار له حق ، حق الجار إن مرض عدته.

يروون قصة – الله أعلم بصحتها – أن رسول الله له جار يهودي ، وكان هذا الجار يضع شيئاً يؤذي النبي في الطريق – مرة النبي ﷺ لم يجد شيئاً في الطريق فقال : لابد أن جاري مريض فزاره وعاده فشهد أنه رسول الله وأسلم.

اصنع المعروف مع أهله – أخي فلان ليس أهلاً – ومع غير أهله فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله ، يكفيك فخراً أنك أهله ، إن قدر أو لم يقدر، إن شكر أو لم يشكر ، إن استجاب أو لم يستجب ، سيان فعلت هذا من أجل الله عز وجل ، لا تنسوا هذا الحديث ، و قال تعالى :

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾

[سورة الإنسان : 9]

إنسان عظيم له بنت قمة في العفاف والتقوى والصلاح ، يأتي إنسان ويشيع في المدينة إنها زانية ، وكان هذا الإنسان العظيم يساعده وينفق عليه ويعطيه من المال في كل وقت معلوم فلما سمع بفعلته الشائنة ، وخبثه ، وإشاعته هذا الافتراء ، تألم منه ونذر ألا يعطيه شيئاً فعاتبه الله ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

[سورة النور : 22]

إذا أنت أمرت أن تعطي من افترى على ابنتك الطاهرة ، سيدنا الصديق حديث الإفك لما توقف عن مساعدته ، الله عز وجل عاتبه وهو ليس أهلاً للمساعدة ، اصنع المعروف مع أهله ، ومع غير أهله ، فإن أصبت أهله أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت أهله ، يمكن أن تصنع معروفاً مع غير أهله ويسلم على يدك ، هكذا الإسلام ، هذا هو الدين أنعم به من دين ، يجب أن يقول الناس : فلان أين يحضر مجالس العلم ؟ على قدر ما سروا من معاملتك ، وأخلاقك ، وحيائك ، وعفتك ، وشرفك ، وتواضعك ، وكرمك ، وإنصافك ، وعدالتك ، من أين مأخذ هذا العلم ؟

هذه دعوة إلى الله في السلوك لا في اللسان هذا الذي نحن بحاجة إليه ، حق الجار إذا مرض عدته ، وإن مات شيعته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أعوز سترته.

الأمير عبد القادر الجزائري كان رجلاً من أهل الفضل ، له جار فقير الحال ، عنده بيت عرضه للبيع فدفع له ثلاثون ليرة ذهباً ، فغضب صاحب البيت ، والله لا أبيع جيرة الأمير بمئة ليرة ذهباً ، جاء إنسان وقال للأمير هكذا قال جارك ، قال له : هذه ثلاثون ليرة ذهباً وابقَ جارنا ، وابقَ في بيتك .

حق الجار إذا مرض عدته ، وإن مات شيعته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن أعوز سترته ، وإن أصابه خير هنأته ، أخي بيت فلان أين ؟ مرة طرقت بناء بيتاً بيتاً بيت الأستاذ فلان أين ؟ لا أعرف ، فكان في نفس البناء، هل هؤلاء جوار لا يعرف من فوقه بالضبط ؟ طرقت الباب الذي تحت صاحب البيت لا يعرفه أين . وإن أصابته مصيبة عزيته ، قديماً يكون رجل معه ضيف أهل الجيرة يلاحظون يقرع الباب صحن طعام ، يوضع على المائدة ستون أو سبعون صحناً من الطعام ، جارنا معه ضيف ، الضيف ينظر ويقول متى طبخ هذا كله ؟ لأن جارنا معه ضيف ، كان إذا لم يصلِّ في المسجد يتفقدونه ، الكل يقرعون عليه الباب ، قال تعالى :

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾

[سورة مريم: 59]

وقد لقوا هذا الغي ، ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها ، هذا حق الجار.

رأس الدين النصيحة :

يجب أن تعرف حق زوجتك ، وحق أولادك ، وجيرانك ، وأخوانك ، وزبائنك، أخي انصحني أنا في هذا الموضوع لا أعرف ، يوجد عندك شيء لا يباع تقول له : هذه أفضل بضاعة ، والله هذا الذي أخّر المسلمين ، رأس الدين النصيحة ، إذا شعر البائع أن هذا الزبون غشيم يلبسه هموماً وليس بضاعة ويقول : ركبت هذه البيعة ، عند الله لا تركب ، من غش فليس منا ، يقول : هذا ليس مسلماً ، ولو كان عابد صنم لو أنك غششت عابد صنم لحاسبك الله أضعاف ما يحاسبك فيما لو غششت مسلماً ، أنا هكذا فهمت الدين لماذا ؟ لو غششت مسلماً يقول هذا المسلم : فلان سيئ ، أما إذا غششت غير المسلم فيقول : الإسلام سيئ هكذا الدين !! هذا دينكم ، هكذا قال لك الدين .

"... ولا ترفع بناءك فوق بنائه فتسد عليه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها "

وفي رواية : " إذا اشتريت فاكهةً فأدي له منها ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ولا يخرج بها ولدك ليغيظ به ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها "

إذا الإنسان أعطى ابنه في المدرسة هذه القطع الأجنبية التي ثمنها اثنا عشر ليرة، وإذا أراد أن يأكلها أمام رفاقه ألا يشتهوا ؟ والله غلط كبير ، وكان فيها سموم ومواد مؤذية ، ثمنها اثنا عشر ليرة يأكلها ابنك أمام خمسة من رفاقه ، و يوجد واحد ليس مع أبيه اثنا عشر ليرة كل يوم ، أعطاه أبوه ليرة سورية ، وإذا اشتريت فاكهةً فأهد له منها فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ به ولده ، ولا تؤذه بقتار قدرك إلا أن تغرف له منها "

حق الولد على والده :

حق الولد على والده أن يحسن اسمه ، أي هناك أسماء محرجة ، إذا اسم الابن غير جيد سوف يصيبه أزمات نفسية مع أصدقائه في المدارس ، النبي الكريم صلى الله عليه إذا اسم لم يعجبه يبدله من أنت ؟ قال : أنا زيد الخيل ، قال : بل زيد الخير ، من أنت ؟ الحصين بن سلام قال : بل أنت عبد الله بن سلام .

أن يحسن اسمه ويزوجه إذا أدرك ، إذا كان الأب بإمكانه أن يستر ابنه في بيت صغير ويزوجه على حسابه والله هذا العمل يفوق حج بيت الله الحرام لأنه سوف ينحرف ، من تزوج ملك نصف دينه فليتق الله في النصف الآخر.

الإمام الكبير عبد الله بن المبارك كان في طريقه إلى الحج رأى في الطريق طفلاً صغيراً ينقب في القمامة حتى عثر على طائرٍ ميت تبعه حتى عرف البيت ، فإذا أسرة فقيرة جداً لا تجد ما تأكل ، وهو الفقيه أعطاها كل ما يملك ، وعاد إلى بلده ولم يحج ، قرأت هذه القصة مجدداً فإذا الناس الذين في الحج رأوه يطوف في البيت ، معنى ذلك أنها كتبت له حجةً تامة.

حق الله على كل مسلم :

وحق الله على كل مسلم أن يغتسل في كل سبعة أيام ، لأنه إذا لك رائحة طيبة لا تؤذي أحداً ، والماء أطيب الطيب المفقود ، قال الإنسان له رائحة عطرية لا تظهر إلا إذا كان نظيفاً ، أي إذا إنسان وضع يده على جلده وشمه وكان نظيفاً هناك رائحة عطرية ، الله عز وجل خلقه كاملاً لا يوجد عدم رائحة بل رائحة عطرية تفوح من الجلد ، اللهم إن كان هذا الجلد نظيفاً.

حق المسلم على الله :

حق المسلم على الله ، من نكح العفاف عما حرم الله ، قال رجل هذه قصة وقعت لصاحب مكتبة ، يظهر أن فتاة عابثة وأخلاقها سيئة أغرته فتبعها ، وكان شاباً وحاجاً هذا الشاب فقال في نفسه وهو في الطريق : أنا بهذا العمل سوف أضيع حجتي ، عاد إلى المحل وقال : إني أخاف الله رب العالمين ، في اليوم الثاني جاءه رجل وقور وقال له : أنت متزوج يا بني ؟ قال له : لا يا سيدي ، فقال له : أنا يوجد عندي بنت تناسبك ، هذا اعتقد أنه يوجد بها عيب خطير لأنه عرض ابنته ، فقال له : أرسل أمك لتراها ، فأرسل أمه فقالت له إنها ممتازة ، في اليوم الثاني جاء إلى عنده وقال له : كيف رأيتم ؟ فقال له : ممتازة ولكن أنا لا أملك شيئاً ، فقال له : هذا ليس عملك ، هذا الرجل من وجهاء الحي توسم في هذا الفتى الصلاح زوجه ابنته ، وشاركه في العمل ، والآن هو رجل حي يرزق من كبار التجار ، هذه الثروة الطائلة وهذا الزواج السعيد بسبب كلمة قالها : إني أخاف الله رب العالمين.

أي إذا الشاب أراد أن يتزوج ليعف عن الحرام وانطلاقاً من قوله تعالى :

﴿ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾

[سورة المائدة: 28]

فحق على الله أن يعينه رغم أزمات السكن العنيفة ، وأزمات المهور الغالية، والأثاث المرتفع الثمن ، رغم كل هذه الأزمات حق على الله عز وجل ، والقضية قضية نية وطلب ، اطلب هذا بقلب صادق فالله سبحانه وتعالى يعينك على هذا الزواج .

حقيق بالمرء أن يكون له مجالس يخلو بها ويذكر ذنوبه ويستغفر الله منها ، أي لابد من مجلس خاص مع الله عز وجل ، أنا جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني، لابد من جلسة خاصة مع الله تستغفر ، تذكر ، تناجي ، تسبح ، تهلل ، تقول : أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ، تقرأ كلامه ، تناجيه ، تمرغ جبهتك في الأرض ، تسأله ، تستغفره .

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

شهود العشاء والصبح آية بين المسلم و المنافق :

و :

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاسْتَهَمُوا وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

آية بيننا وبين المنافقين شهود العشاء والصبح ، لا يستطيع أن يستيقظ وقت الفجر هذا فوق طاقته ، طبعاً مضطر من أجل السحور أن تستيقظ ولكن جرب بعد رمضان إن طلبت هذا من الله عز وجل ، يا ربي أيقظني الساعة الرابعة والنصف ، جرب لابد من أن تستيقظ بهذه الدقيقة بالذات ، الله يوقظك ، هذه قال عنها علماء

النفس : ساعة الرأس لا تخيب أبداً ، أحياناً الإنسان يضبط الساعة يستيقظ قبل نصف دقيقة ، لو كان استيقظ بعد دقيقة معنى هذا أن الساعة هي التي أيقظته حتى يثبت الله له أنا الذي أيقظتك وليس الساعة ، فالآن رمضان فرصة أن تصلي الصبح حاضراً ولكن بعد رمضان البطولة أن تتابع هذه الفريضة طوال العام ، لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفك النهار كله ، أي أنت الآن طوال هذا النهار في رعاية الله لا يوجد مفاجآت ، ورطات ، تبلي ، مشكلة ، حادث ، رجل دخل يؤذيك وأنت في المحل ويقول لك : هات هويتك ، لأنك أنت اصطلحت مع الله عز وجل صباحاً بينك وبين الله عامرة إذاً يجعلها الله بينك وبين الناس عامرة ، إن كانت خربة بينك وبين الله ستكون بينك وبين الناس خربة ، من أصلح بينه وبين الله أصلح الله بينه وبين الناس .

موقف سيدنا ابن العاص من أقباط النصارى في مصر :

موقف واحد لسيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنه أردت أن أذكره لكم ، سيدنا عمرو بن العاص قال مخاطباً أقباط النصارى وكبار أساقفتهم في مصر : إن الله بعث محمداً بالحق وأمره به ، وإنه عليه الصلاة والسلام قد أدى رسالته ومضى بعد أن تركنا على الواضحة - أي الطريق الواضح المستقيم- وكان مما أمرنا به الإعذار إلى الناس - أي دعوتهم إلى الإسلام - فنحن ندعوكم إلى الإسلام فمن أجابنا فهو منا له ما لنا وعليه ما علينا، هذا منهج المسلمين.

فنحن ندعوكم إلى الإسلام فمن أجابنا فهو منا له ما لنا ، وعليه ما علينا ، ومن لم يجبنا إلى الإسلام عرضنا عليه الجزية وبذلنا له الحماية والمنعة ، الجزية مقابل الحماية، معفى من الخدمة الإلزامية لأنه دفع جزية ، هذا إذا بقي الذمي على دينه.

ولقد أخبرنا نبينا أن مصر ستفتح علينا وأوصانا بأهلها خيراً ﷺ فقال : ستفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً ، أين هذه القرابة ؟ السيدة هاجر من مصر ، انظر الوفاء ، السيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم من مصر ، وسيدنا إبراهيم أبو الأنبياء إذاً هذه أمه أم أبيه إذاً لها رحم .

فإن أجبتمونا إلى ما ندعوكم إليه كانت لكم ذمة إلى ذمة ، صار لكم ذمة القرابة وذمة أهل الذمة ، وفرغ عمرو من كلماته فصاح بعصا الأساقفة : إن الرحم الذي أوصاكم بها نبيكم لهي قرابة بعيدة لا يصل مثلها إلا الأنبياء - على هذا المستوى لا يذكرها إلا نبي -.

قصة إسلام عمرو بن العاص :

سيدنا عمرو بن العاص قضى حياته في مواقف متعددة يروي لنا الآن كيف أسلم؟ سأل عاهل الحبشة عمرو كيف لم تؤمن به وتتبعه وهو رسول الله حقاً ؟ قال له : يا عمرو كيف لم تؤمن به ؟ وسأل عمرو النجاشي قائلاً أهو كذلك ؟ أكيد رسول ؟ فأجابه النجاشي : نعم فأطعني يا عمرو واتبعه فإنه والله لعلى الحق وليظهرن على من خالفه ، سيدنا عمرو بن العاص كان إسلامه على يد النجاشي ، النجاشي لما أسلم النبي الكريم أكبر إسلامه جداً فلما جاءه وفد النجاشي أبى إلا أن يخدمهم بنفسه ﷺ إكراماً للنجاشي فلما مات صلى عليه صلاة الغائب. وركب عمرو البحر من فوره عائداً إلى بلاده ميمناً وجه شطر المدينة ليسلم لله رب العالمين ، وفق الطريق المفضية إلى المدينة التقى بخالد بن الوليد قادماً من مكة ساعياً هو الآخر إلى النبي الكريم ليبايعه ، ولم يكد الرسول يراهما قادمين حتى تهلل وجهه وقال لأصحابه : لقد رمتكم مكة بفلذات أكبادها ، وتقدم خالد فبايع ، ثم تقدم عمرو فقال : يا رسول الله إني أبايعك على أن يغفر الله لي ما تقدم من ذنبي ؟ فأجابه عليه الصلاة والسلام: يا عمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله ، هذه لنا تب إلى الله توبةً نصوحة إن الإسلام يجب ما كان قبله.

ذكاء عمرو بن العاص :

كان سيدنا عمرو ذكي جداً ، كان آية في الذكاء ، يقولون إن سيدنا معاوية قال له: يا عمرو ما بلغ من دهائك ؟ قال له : والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه ، قال له : لست بداهية أما أنا والله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه ، ومع ذلك يعد سيدنا عمرو داهية فكان سيدنا عمر رضي الله عنه إذا رأى إنساناً جاهلاً أبله ضعيف الذكاء كان يقول : سبحان الله ! إن خالق هذا وخالق عمرو إله واحد أي شتان بين الاثنين. يروى أنه في ساعات الرحيل استعرض حياته فقال : كنت أول أمري كافراً وكنت أشد الناس على رسول الله ، فلو مت يومئذٍ لوجبت لي النار ، هذه ساعة الوفاة ، ثم بايعت رسول الله ﷺ فما كان في الناس أحد أحب إليه منه ، ولا أجل في عيني منه، ولو سئلت أن أنعته ما قدرت لأني لم أقدر أن أملأ عيني منه إجلالاً له ، تصوروا سيدنا عمرو لو سئل أن يصف النبي الكريم لما استطاع لماذا ؟ لأنه ما كان يستطيع أن يملأ عينيه منه إجلالاً له ، فقال : فلو مت يومئذٍ لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ثم بليت بعد هذا بالسلطان وبأشياء لا أدري أهي لي أم علي – أي اجتهد اجتهادات لا يدري أكان مصيباً بها أم كان مخطئاً – ثم رفع بصره إلى السماء في ضراعة

مناجياً ربه الرحيم العظيم قائلاً : "اللهم لا بريء فأعتذر ولا عزيز فأنتصر وإن لم تدركني رحمتك أكن من الهالكين" .

أي الإنسان يجب أن يعرف قدر أصحاب الرسول ﷺ ، الحياة كلها مواقف ، وقف موقفاً مشرفاً وأخلاقياً يسعد به إلى الأبد ، وكل شيء ما سوى الأخلاق ماض، ماذا أكلنا وماذا شربنا وأين سكنا وكيف تاجرنا وكم ربحنا ؟ هذا ليس لك وليس لك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ، وما سوى ذلك ليس لك . أحد أثرياء مصر الكبار توفي فله أهل في بحبوحة كبيرة سألوا رجلاً عتالاً حمال حطب أن أنزل معه إلى القبر وخذ عشرة آلاف جنيه و آنسه ، فقال : عندما نزل إلى القبر جاء الملكان رأيا إنساناً ممدداً وإنساناً يتحرك ، فقال الملكان : لنبدأ بهذا الذي يتحرك فحزم نفسه بحبلة ، فقالوا له : هذه الحبل من أين جئت بها وكم دفعت ثمنها وممن اشتريتها ؟ يا أخي على هذه الحبلة خمسون سؤالاً ، فخرج فزعاً وقال : أعان الله والدكم ، هو على الحبل لم يتحمل والبطولة بعد الموت ، لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله ، لا تقول أنا غني ولا فقير.

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة ، ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة ، ألا يا رب مكرم لنفسه و هو لها مهين ، ألا يا رب مهين لنفسه و هو لها مكرم ، ألا يا رب متخوض و متنعم فيما أفاء الله على رسوله ما له عند الله من خلاق))

[السيوطي عن أبي البحير]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 4 : أنواع الصيام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

أنواع الصيام :

أيها الأخوة المؤمنون ، نظراً لقرب شهر الصيام ، شهر المغفرة ، وشهر التوبة لابد من الحديث عن أحكام الصيام وعن حكم الصيام ، فأما عن حكم الصيام إن شاء الله تعالى في أحد دروس التفسير سوف أنهي درساً في الحديث عن حكم الصيام من خلال آيات الصيام، وفي درس الأحد هذا والذي يليه إن شاء الله تعالى نتحدث عن أحكام الصيام لأن التفقه في الدين حتم واجب على كل مسلم ، وأحكام الصيام مأخوذة من كتاب : اللباب في شرح الصيام على الفقه الحنفي .

الصوم أيها الأخوان ضربان أي نوعان ، واجب ونفل ، والصوم في الأصل لغةً هو الإمساك بل هو مطلق الإمساك ، قال تعالى :

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾

[سورة مريم : 26]

أي إمساك عن الكلام ، وشرعاً : الإمساك عن المفطرات حقيقةً أو حكماً ، ما معنى حقيقةً أو حكماً ؟ لو أن الإنسان تناول الطعام وهو ناس وأكل ولكنه حكماً ممسك عن الطعام يبقى صائماً لأن الذي ينسى ويأكل لا شيء عليه .

الإمساك عن المفطرات حكماً أو حقيقة في وقت مخصوص بنية من المؤهل للصوم ، فإذا قلنا : واجب ونفل ، فالصيام الواجب يراد به ما يقابل النفل الذي يجب أن يؤدى، وفي معنى آخر هو الواجب الذي بين الفرض وبين النفل ، فصيام النفل واجب وصيام رمضان فرض ، وصيام النفل نفل ، الواجب إما أن يعني الفرض الواجب

معاً، وإما أن يعني حالة بين الفرض وبين النفل ، على كلٍّ الواجب ضربان أي نوعان منه ما يتعلق بزمان بعينه كصيام رمضان ، أو كصيام النذر المعين ، حينما ينذر الإنسان أن يصوم يوماً بعينه ، أو أسبوعاً بعينه ، أو شهراً بعينه ، فهذا صوم واجب يجب أن يؤدى في الوقت الذي حدد له، هذا الصوم الواجب المعين بزمن مخصص كصيام رمضان أو كصيام النذر المعين يجوز صومه بنية من الليل .

النية أحد شروط العبادة :

بالمناسبة النية أحد شروط العبادة ، لا تصح العبادة من دون نية لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[مسلم عن عَلْقَمَةَ بْنَ وَقَّاصٍ اللَّيْثِيَّ]

فلذلك ينوي الصائم صيام رمضان أو صيام النذر المحدد من الليل فإن لم ينوِ حتى أصبح الصبح أجزأته النية ما بين الفجر والزوال ، ومعنى الزوال زوال الشمس عن كبد السماء ، أي صيام رمضان أو صيام النذر المعين يجوز إذا نويت الصيام من الليل أو من الفجر وحتى الزوال أي حتى الضحوة الكبرى إلى ما قبيل أذان الظهر ، لأن أذان الظهر يأتي بعد الزوال ، بعد أن تزول الشمس من كبد السماء يدخل وقت الظهر .

النوع الثاني من أنواع الصيام :

وأما النوع الثاني من أنواع الصيام فهو ما يثبت في الذمة كقضاء رمضان وما أفسده من نفل ، الإنسان إذا بدأ بعبادة نافلة عليه أن يتمها لقول الله عز وجل :

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

[سورة البقرة:196]

أي إذا الإنسان بدأ بالعبادة ينبغي أن يمضي فيها إلى آخرها ، فإذا نوى صيام نفل ثم أفطر لعذر يجب أن يقضي يوماً مكانه ، والضرب الثاني ما يثبت في الذمة من غير تقيد بزمن ، لك أن تقضي هذا الصوم من أي وقت تشاء يثبت عليك في الذمة من دون زمن معين كقضاء رمضان ، السنة كلها تصح لقضاء رمضان أو ما أفسده من نفل ، صيام النفل الذي أفسده لعذر يجب أن يؤدى قضاء من دون تحديد زمن معين ، والنذر المطلق ، طالب نذر إذا نجح في الشهادة الثانوية أن يصوم أسبوعاً ولم يحدد هذا اسمه نذر مطلق ، بينما النذر المقيد

هو الذي قيد بزمان ، وصوم الكفارات أيضاً .

الصوم الغير محدد بوقت معين لا يجوز إلا بنية معينة من الليل :

كل هذه الأنواع من الصيام صوم غير محدد بوقت معين ، هذا الصيام لا يجوز إلا بنية معينة من الليل ، صيام رمضان وصيام النذر المعين بوقت محدد على المذهب الحنفي لا يجوز إلا بنية من الليل ، أو بعد الفجر حتى الضحوة الكبرى ، أي إلى زوال الشمس عن كبد السماء ، أي يجب أن يكون معظم اليوم داخلاً في عبادة دينية ، لو فرضنا إنساناً أراد أن يصوم نفلاً أو قضاءً غير معين وكان اليوم قصيراً واستيقظ الساعة الثانية ظهراً هذا الصيام لا يصح لصيام النفل ، لصيام قضاء رمضان، أو ما أفسده من نفل ، والنذر المطلق ، وصوم الكفارات ، لا يجوز إلا بنية معينة من الليل لعدم تعيين الوقت ، نحن في رمضان كلنا نعلم أننا في رمضان لذلك بعض الفقهاء قالوا : لمجرد أن تستيقظ تأكل طعام السحور فهذه نية ، والمسلم له أن ينوي صيام الشهر كله مرةً واحدة، لكن صوم الكفارات ، أو صوم قضاء رمضان ، أو صوم النذر المطلق ، أو صوم ما أفسده من نفل ، هذا يحتاج إلى نية مبيتة من الليل كي تصح هذه العبادة ، والشرط أن يعلم بقلبه أي صوم يقوم ، كل إنسان يعلم ما إذا كان يصوم صيام نفل ، أو صيام نذر مطلق ، أو صيام نذر معين ، أو صيام أداء ، أو صيام قضاءٍ ، أو صيام كفارةٍ ، أو صيام قضاء نفل ، كل إنسان مؤمن يعلم أن هذا الصوم هو كذا .

هذه هي أنواع الصيام ، صيام فرض وصيام نذر ، وصيام الفرض منه ما هو محدد بوقت معين كصوم رمضان والنذر المحدد ، ومنه ما يثبت في الذمة من دون تحديد كأداء النذر المطلق ، أو قضاء النفل الذي بدأ فيه ثم أفسده ، أو صوم الكفارات ، أو ما شاكل ذلك .

تلمس الهلال لصوم رمضان :

الآن ينبغي للناس أن يلتمسوا الهلال في اليوم التاسع والعشرين من شعبان ، بل ينبغي عليهم أن يلتمسوا هلال شعبان في أول الشهر ، لتكون عدة الأيام صحيحة ، لأنه لو غم علينا في أول رمضان أتممنا شعبان ثلاثين يوماً ثم شرعنا بشهر رمضان ، لأن الأصل بقاء الشهر فلا ننتقل عنه إلا بدليل ، والدليل إما إتمام العدة ، أو رؤية الهلال ، هذان هما الدليلان اللذان يكفيان لانتقالنا من شهر إلى شهر .

الآن من رأى هلال رمضان وحده صام ولو لم تقبل شهادته لأنه متعبد بما علم، من رأى الهلال وحده وذهب إلى القاضي الشرعي فلم يقبل شهادته ، لأن في قبول الشهادة شروطاً سوف نأخذها بعد قليل وإن أفطر ، من رأى الهلال وحده فعليه القضاء دون الكفارة وإن كان في السماء علة من غيم أو غبار ونحوه ، قبل الإمام شهادة الواحد العدل ، من هو العدل التي تقبل شهادته في رؤية الهلال ؟ العلماء قالوا : من غلبت حسناته على سيئاته ومن تستر على معاصيه ، أي من غلب عليه الصلاح والتستر ، أي هذا الذي يفعل سيئةً ويذكرها للناس هذا سقطت عدالته ، الذي يقول : أنا البارحة أفطرت في رمضان هذا ساقط عدالته ، هذا الذي يقول : أنا البارحة لم أصلِ ، إن غلب عليه التستر فشهادته مقبولة وإن غلب عليه الصلاح فشهادته مقبولة ، فإن جاهر بمعصية معنى ذلك أنه لم يتستر ، إذاً مطعون في شهادته ، فإن لم يكن في السماء علة لن تقبل الشهادة حتى يراه جمع كثير يقع العلم بخبرهم ، إذا السماء صافية ولا يوجد أي عذر ولا أي علة في السماء لا تقبل شهادة الواحد ، والسبب لأن المطلع متحد والموانع منتفية والأبصار سليمة والهمم لطلب الهلال مستقيمة ، هناك همم لطلب الهلال وهناك أبصار ، فكيف نجعل أمةً بأكملها تدخل في شهر الصيام بشهادة رجل إذاً هذا الرجل لابد أن في حكمه خطأ الواحد ، لكن بعضهم قال : إذا هذا مفوض إلى الإمام أو إلى القاضي الشرعي هو بحكمته الذي يقبل شهادة الواحد أو لا يقبلها ، لكن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه رجح في آخر الزمان حينما ينصرف الناس عن تلمس هلال رمضان ، حينما ينشغل الناس في أعمالهم وينصرفون عن هذه العبادة في آخر الزمان يجوز أن يقبل القاضي الشرعي أو الإمام شهادة الرجلين أو رجل وامرأتين ، عندئذ يصبح الصيام صحيحاً ، هذا الرأي الوسط بين أن ترد شهادة الواحد وبين أن تقبل شهادة الجمع الغفير وبين تقبل شهادة الرجلين أو رجل وامرأتين . قال بعضهم : ولم أرَ أرجح من هذه الرواية ، وينبغي العمل بها في زماننا لأن الناس تكاسلوا عن ترائي الأهلة فكان التفرد غير قائم بالغرض .

وقت الصوم :

الآن وقت الصوم من حين طلوع الفجر الثاني أي الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، لقوله تعالى :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة:187]

والخيطان بياض النهار وسواد الليل .

الصوم شرعاً :

الصوم شرعاً هو الإمساك حقيقةً أو حكماً، من تناول الطعام ناسياً فهو ممسك عن الطعام حكماً ومن أمسك عن الطعام فعلاً فهو ممسك عن الطعام حقيقةً ، الإمساك حقيقةً أو حكماً عن المفطرات كالأكل والشرب والرفث ، لأن الله سبحان وتعالى يقول :

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ ﴾

[سورة البقرة:187]

المفطرات هي الأكل والشرب والرفث ، فإن أكل الصائم أو شرب ناسياً لم يفطر لأنه ممسك حكماً ، لأن الله سبحانه وتعالى أو لأن الشارع الحكيم أضاف هذا الفعل إلى الله حيث قال عليه الصلاة والسلام :

((حَدَّثَتْنِي أُمُّ حَكِيمٍ بِنْتُ دِينَارٍ عَنْ مَوْلاتِهَا أُمِّ إِسْحَاقَ أَنَّهَا كَانَتْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُتِيَ بِقَصْعَةٍ مِنْ ثَرِيدٍ فَأَكَلَتْ مَعَهُ وَمَعَهُ ذُو الْيَدَيْنِ فَنَاوَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرْقًا فَقَالَ يَا أُمَّ إِسْحَاقَ أَصِيبِي مِنْ هَذَا فَذَكَرْتُ أَنِّي كُنْتُ صَائِمَةً فَرَدَدْتُ يَدِي لا أُقَدِّمُهَا وَلا أُؤَخِّرُهَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَكِ قَالَتْ كُنْتُ صَائِمَةً فَنَسِيتُ فَقَالَ ذُو الْيَدَيْنِ الآنَ بَعْدَمَا شَبِعْتِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتِمِّي صَوْمَكِ فَإِنَّمَا هُوَ رِزْقٌ سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكِ))

[أحمد عنْ مَوْلاتِهَا أُمِّ إِسْحَاقَ]

لكن الفقهاء توسعوا في هذا الحكم فقالوا : إذا رأيت شيخاً فانياً قد أكل ناسياً فلا تذكره ، وإذا رأيت شاباً قوياً جلداً يأكل ناسياً في رمضان فذكره ، أي شفقةً على هذا الشيخ ، قد يكون شيخاً فانياً ويصوم وقد جهد في الصيام ، فأول يوم من الصيام هو أشد الأيام على الإنسان ، فلو شرب كأس ماء وبدأ بشربه أنت ابقَ ساكتاً أما إذا كان

شاباً فذكره برمضان .

القضاء و الكفارة :

الآن من ذرعه القيء أي سبقه وغلبه إلى صنعة منه ولو ملء فيه لم يفطر ، لكن من استقاء عمداً أي تعمد القيء أفطر وعليه القضاء .

الآن من أكل شيئاً مما لا يأكله الإنسان أو مما يستقذره أفطر وعليه القضاء ، لكن ليس عليه كفارة ، إنسان أكل تراباً مادام أدخل إلى جوفه شيئاً إذاً عليه القضاء لكن لا كفارةً عليه لأن هذا الذي تناوله ليس في معنى الطعام ، لو فرضنا رجلاً أدخل إلى جوفه شيئاً عليه أن يقضي هذا اليوم ولا كفارةً عليه لأن هذا الذي أدخله ليس في قصد الطعام أو مما يشتهى .

الآن من أكل أو شرب ما يتغذى به أو يتداوى به فعليه القضاء والكفارة ، من أكل طعاماً أو شرب دواءً فعليه الكفارة لكمال الجناية أي أو من تعمد الرفث إلى النساء فعليه القضاء والكفارة ، الآن من احتقن أي صب الدواء في مكان الحقنة – التحاميل لا تفطر – أو من استعف أي صبّ الدواء في أنفه أو من قطر في أذنيه دهناً بخلاف الماء فيفطر على المذهب الحنفي ، تناول التحاميل أو وضع الدواء في الأذن أو في الأنف هذا لا يفطر الصائم، لكن لو تعمد إدخاله إلى الجوف دخلنا في حكم آخر ، لو أن الإنسان شعر بطعم الدواء في حلقه من دون أن يتعمد إدخاله لا يفطر ، أما إذا تعمد إدخاله إلى حلقه فإنه يفطر ، كل شيء يصل إلى جوف الإنسان بفعله وبإرادته فإنه يفطر ، أيضاً من داوى جائفةً أي جراحة في البطن أو آمةً جراحةً في الرأس بدواء فوصل إلى جوفه أو دماغه أفطر .

الآن من ذاق شيئاً بفمه لم يفطر ، أحياناً الإنسان يضطر أن يشتري شيئاً وقيمة الشيء يعرف من مذاقه ، طبعاً العلماء كرهوا ذلك لكن إذا كان في ضرورة بالغة ، متعهد طعام عليه إطعام أعداد كبيرة ، قد يكون هذا الجبن مسحوباً خيره ، فلو وضع شيئاً يسيراً على لسانه ليعرف نوعيته قال : من ذاق الطعام فإنه لا يفطر ، أيضاً لو أن الزوج قاس جداً فإذا كان الطعام فيه خلل ربما أقام على امرأته القيامة ، مثل هذا الزوج يجوز للمرأة أن تذوق الطعام تفادياً لشر هذا الزوج القاسي ، من ذاق الطعام فإنه لا يفطر لعدم وصول المفطر إلى جوفه ويكره له ذلك بما فيه لتعريض الصوم إلى الفساد ، ويكره للمرأة أن تمضغ الطعام لصبيها إن كان لها منه بد فإن كان لابد من أن تفعل ذلك فلا شيء عليها من دون أن يصل هذا إلى الجوف .

قال : مضغ العلك الذي لا يصل منه شيئاً مع الريق إلى الجوف لا يفطر ، كل هذا العلك مغطى بمادة سكرية فإذا تناولها الإنسان وصل السكر إلى الجوف إذاً هذا يفطر ، لو تصورنا أنه لا يوجد فيه أي مادة أخرى ، قال هذا لا يفطر ولكن يكره لأن صاحبه يتهم بالإفطار ، ويحمل على هذا إذا الإنسان حرك فمه تحريك من يأكل هذا مكروه أنت تعرض سمعتك إلى الفساد ، تتهم بالإفطار .

حكم الصيام للمريض و المسافر :

الآن من كان مريضاً في رمضان فخاف ، الخوف معتبر شرعاً ، يوجد عندنا الخوف معتبر شرعاً وهو ما كان بغلبة الظن بتجربةٍ أو إخبار مسلم عدل أو طبيب حاذق ، أي غلبة الظن عن طريق التجربة ، إنسان معه قرحة فكلما تأخر في شرب الحليب شعر بآلام لا تحتمل ، فغلبة الظن عنده أن الصيام يؤذيه ، أو أن طبيباً مسلماً حاذقاً نصحه بذلك ، أو أن إنساناً ذو تجربة كبيرة معهود عليه بالصدق قال له ذلك هذا هو الخوف معتبر شرعاً، فإن صام المريض وزاد مرضه بالصيام أو تأخر شفاؤه أفطر وقضى ، وإن كان مسافراً وهو لا يتضرر بالصوم فصومه أفضل ، أحياناً يسافر إلى حلب بالطائرة ساعة وأقل من ساعة ، أي الطائرة مكيفة ومن المطار إلى البيت هناك باص مكيف فلا يوجد حاجة لأن يفطر الإنسان ، ومن لا يتضرر بالصوم وكان مسافراً فصومه أفضل لقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة:184]

وإن أفطر وقضى جاز لأن السفر مطلق السفر من دون قيد يجيز لصاحبه الفطر، لكن ينصح بالصوم إذ لم يكن بالسفر مشقة ، أما المرض فلا يجوز اتخاذه عذراً للفطر إلا إذا كان معتبراً شرعاً ، بمعنى إنسان يده مجروحة مضمدها ، لا ، يجب أن يكون المرض له علاقة بالجهاز الهضمي ، له علاقة بالكليتين ، بتناول السوائل ، أو يكون له علاقة بالطعام والشراب ، أما مرض بالعظم ، أو مرض بالعضلات فهذا ليس له علاقة بالصيام ، أما مطلق السفر يجيز لصاحبه الإفطار ، بينما المرض المحدد بغلبة الظن عن طريق تجربة ، أو وصف طبيب مسلم حاذق أو له تجربة صادقة ، هذا الذي يجيز له الإفطار ، وسوف نتابع هذا الموضوع بدرس الأحد القادم ، وأرجو أن تنتهي هذه الأحكام بهذين الدرسين ليكون الصوم على بينة وعلى علم .

* * *

لمحة عن حياة القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق :

والآن إلى سير التابعين الأجلاء رضي الله عنهم ، التابعي لهذه الدرس القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، هذا التابعي الجليل فتى جمع المجد من أطرافه كلها ، حتى لم يفته منه شيء ، فأبوه محمد بن أبي بكر الصديق – أي جده سيدنا الصديق – وأمه بنت كسرى يزدجر آخر الملوك ، وعمته عائشة أم المؤمنين ، وهو فوق ذلك قد توج هامته بتاج التقى والعلم ، أتحسب أن فوق هذا المجد مجداً يتنافس فيه المتنافسون ؟؟ ذلكم هو القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق أحد فقهاء المدينة السبعة ، وأفضل أهل زمانه علماً ، وأحدهم ذهناً، وأشدهم ورعاً ، الآن يبدو أن والد هذا التابعي قد مات بمصر وكان والياً عليها قال : فجاءت عمتي عائشة رضي الله عنها فحملتنا من منزل عمي ، أكثر النساء يكثرن الخروج من البيت ويهملن أولادهن ، لكن المرأة التي تؤثر أولادها على حظها وتبقى في البيت ترعى أولادها وتعتني بهم قال عليه الصلاة والسلام :

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها فهي معي في الجنة))

[فيض القدير شرح الجامع الصغير]

وكانت تحنو علينا حنو المرضعات على الفطين ، فتغسل أجسادنا ، وتمشط شعرنا ، وتلبسنا الأبيض الناصع من اللباس ، الإسلام يرفع من قيمة الإنسان ، وكانت لا تفتأ تحضنا على الخير ، وتمرسنا بفعله ، وتنهانا عن الشر، وتحملنا على تركه ، وقد دأبت على تلقيننا ما نطيقه من كتاب الله ، وتروي لنا ما نعقله من حديث رسول الله ، وكانت تزيدنا براً واتحافاً في العيدين ، فإذا كانت عشية عرفة حلقت لي شعري ، وغسلتني أنا وأختي ، فإذا أصبحنا ألبستنا الجديد ، وبعثت بنا إلى المسجد لنؤدي صلاة العيد – هذه المرأة الصالحة – فإذا عُدنا منه جمعتني أنا وأختي وضحت بين أيدينا ، هذا درس لكل أم ، درس لكل زوجة .

وفي ذات يوم ألبستنا ثياباً بيضاً ثم أجلستني على إحدى ركبتيها وأجلست أختي على ركبتها الأخرى ، وكانت قد دعت عمي عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ، فلما دخل عليها حيّته ثم تكلمت فحمدت الله عز وجل ، وأثنت عليه بما هو أهله ، فما رأيت متكلماً قط من رجل أو امرأة قبلها ولا بعدها أفصح منها لساناً ، ولا أعذب بياناً ، ثم قالت : أي أخي إني لم أزل أراك معرضاً عني منذ أخذت هذين الصبيين منك وضممتهما إليّ ، يبدو أن أخاها عبد الرحمن كان يتمنى أن يضم إليه هذين الطفلين فجاءت أخته عائشة رضي الله عنها وضمتهما إليها ، يبدو أن أخاها عبد الرحمن كان واجداً عليها قالت : والله ما فعلت ذلك تطاولاً عليك ، ولا سوء ظن بك ، ولا اتهام لك بالتقصير في حقهما ، ولكنك رجل ذو نساء – لك زوجات – وهما صبيان صغيران لا يقومان بأمر نفسيهما ،

يحتاجون إلى تنظيف وإلى تغسيل وإلى إطعام فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقذرنه فلا يطبن بهما نفساً – سبحان الله الأم تطيب نفسها بخدمة أولادها ، غير الأم لا تطيب نفسها – فخشيت أن يرى نساؤك منهما ما يتقذرنه فلا يطبن بهما نفساً ، ووجدت أني أحق منهن بالقيام على أمرهما في هذا الحال، وهاهما الآن قد شبا وأصبحا قادرين على القيام بأمر نفسيهما فخذهما وضمهما إليك ، بعد أن أصبحا قادرين على خدمة أنفسهما الآن خذهما وضمهما إليك .

فأخذنا عمي عبد الرحمن وضمنا إلى بيته ، بيد أن الغلام البكري ظل معلق القلب ببيت عمته أم المؤمنين رضوان الله عليها ، فعلى أرض بيتها المضمخة بطيوب النبوة درج، وفي أكناف صاحبته تربى وترعرع ، ومن حنانها المتدفق نهل وارتوى ، فصار يوزع وقته بين بيتها وبيت عمه ، وقد ظلت ذكرياته في منزل عمته الشذية الندية ، فقد قال يوماً لعمته عائشة : يا أم – يا أمي – اكشفي لي عن قبر النبي عليه الصلاة والسلام وقبري صاحبيه فإني أريد أن أراهم ، وكانت القبور الثلاث مازالت داخل بيتها – أي الآن في الحرم النبوي الشريف مكان القبور الثلاث ؛ قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وقبر سيدنا الصديق ، وقبر سيدنا عمر في غرفة السيدة عائشة ، النبي عليه الصلاة والسلام دفن في بيتها ، فكشفت لي عن ثلاثة قبور لا مشرفة ولا واطئة معتدلة ، وقد مهدت بصغار الحصى الحمر مما كان في باحة المسجد ، فقلت : أين قبر رسول الله ﷺ ؟ فأشارت بيدها وقالت: هذا، ثم تحدرت على خديها دمعتان كبيرتان فبادرت فمسحتهما حتى لا أراهم ، وكان قبر النبي عليه الصلاة والسلام مقدماً على قبري صاحبيه فقلت : وأين قبر أبو بكر جدي ؟ قالت : ها هو ذا وكان مدفوناً عند رأس النبي عليه الصلاة والسلام ، فقلت : وهذا قبر عمر وكان رأس عمر رضوان الله عليه عند خصر جدي قريباً من رجل النبي عليه الصلاة والسلام .

مكانة القاسم بن محمد :

ولما شبّ هذا الفتى حفظ كتاب الله عز وجل ، وأخذ عن عمته عائشة من حديث رسول الله ﷺ ما شاء له أن يأخذ ، ثم أقبل على الحرم النبوي الشريف ، وانقطع على حلقات العلم التي كانت تنتشر في كل ركن من أركانه ، فروى عن أبي هريرة ، وعن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن خباب ، ورافع بن خديج ، وأسلم مولى عمر بن الخطاب وغيرهم وغيرهم ، قال : حتى بدا إماماً مجتهداً وأصبح من أعلم أهل زمانه بالسنة ، وكان الرجل لا يعد رجلاً عندهم حتى يتقن السنة ، ولم يمضِ وقت

طويل حتى أصبح القاسم بن محمد وابن خالته سالم بن عبد الله بن عمر إمامي المدينة الموثوقين ، وقد بلغ من مكانتهما في النفوس أن خلفاء بني أمية لا يقطعون أمراً ذا بال في شأن من شؤون المدينة إلا برأيهما . من ذلك أن الوليد بن عبد الملك قد عقد العزم على توسعة الحرم النبوي الشريف ولم يكن في وسعه أن يحقق هذه الأمنية إلا إذا هدم المسجد القديم من جهاته الأربع ، وأزال بيوت زوجات النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وهي أمور تشق على الناس ، ولا تطيب نفوسهم بها ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة يقول : لقد رأيت أن أوسع مسجد رسول الله ﷺ حتى يصبح مئتي ذراع في مئتي ذراع فاهدم جدرانه الأربعة وأدخل فيه حجر زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، واشتر من نواحيه من البيوت ، وإنك تستطيع ذلك لمكان أخوالك آل الخطاب ومنزلتهم في قلوب الناس ، فإذا أبى عليك أهل المدينة فاستعن بالقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وأشركهما معك في الأمر ، وادفع إلى الناس أثمان بيوتهم بسخاء ، وإن لك في هذا سلف صدق ، فدعا عمر بن عبد العزيز القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله وطائفةً من وجوه أهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين فسروا بما عزم عليه ، وهبوا لإنفاذه ، فلما رأى الناس عالمي المدينة وإماميها الكبيرين يباشران هدم المسجد بأيديهما قاموا معهما قوم رجل واحد ونفذوا ما جاء في كتاب أمير المؤمنين .

القاسم بن محمد أشد الناس تأسياً بجده الصديق :

شيء آخر : كان القاسم بن محمد أشد الناس تأسياً بجده الصديق حتى قال الناس : لم يلد أبو بكر ولداً أشبه به من هذا الفتى فلقد أشبهه في كرم شمائله ، و نبل خصاله ، و صلابة إيمانه ، و شدة ورعه ، و سماحة نفسه ، وسخاء يده ، ولقد أؤثر عنه كثير من الأقوال والأفعال تشهد له بهذا .

من هذا أن أعرابياً جاءه إلى المسجد فقال : أيكما أعلم أنت أم سالم بن عبد الله؟ فتشاغل عنه ، فأعادها عليه ، فقال : سبحان الله فأعادها كرةً ثالثة ، فقال : ذاك سالم يا بن أخي يجلس هناك ، فقال من في المجلس : لله أبوه لقد كره أن يقول أنا أعلم منه فيزكي نفسه وكره أن يقول هو أعلم مني فيكذب ، وكان أعلم من سالم . لقد رُئي ذات مرةٍ بمنى وأهله الأنصار من حجاج بيت الله يطبقون عليه من كل جانب وهم يسألونه ، فكان يجيبهم بما يعلم ويقول لهم فيما لا يعلمه : لا أعلم ، لا أدري ، هذه الكلمة قلها أيها الأخ قل : لا أعلم وهي وسام فخر ، نصف العلم لا أدري ، من ادعى أنه يعلم كل شيء فهو لا يعلم شيئاً ، كلمة لا أعلم فيها تواضع ، نصف العلم لا أدري ، هذا هو التواضع ، وهذه هي الدقة ، فكان يقول : لا أعلم ، لا أدري ، فأخذهم منه العجب فقال

لهم : والله لا نعلم كل ما تسألون عنه ، ولو علمناه ما كتمناه ، ولا يحل لنا أن نكتمه ، ولأن يعيش الرجل جاهلاً بعد أن يعرف حق الله عليه خير له من أن يقول ما لا يعلم .

من أخلاق العالم الحقيقي إذا سئل عن قضية أن يقول : لا أعلم ، أو دعها إلى وقت آخر ، لكن أجرأكم على الفتية أجرأكم على النار .

على الإنسان أن يقول ما يعلم دون زيادة :

في ذات مرة عهد إليه في قسم الصدقات بين مستحقيها فاجتهد في ذلك ما وسعه الاجتهاد ، وأعطى كل ذي حق حقه ، غير أن أحدهم لم يرضَ عن نصيبه الذي أعطي له فأتاه إلى المسجد وهو قائم يصلي ، وجعل يتكلم في أمر الصدقة ، فقال ابنه : والله إنك لتتكلم في رجل ما نال من صدقتكم درهماً ولا دانقاً – الدانق سدس الدرهم – ولا أصاب منها تمرةً واحدة ، فأوجز القاسم صلاته والتفت إلى ابنه وقال : يا بني لا تتكلم بعد اليوم فيما لا تعلم، فقال الناس : صدق ابنه ولكن أراد أن يربيه ، وأن يحفظ لسانه من التوسع بالكلام .

إياك أن تتوسع في الكلام ، قل ما تعلم من دون زيادة ، طال عمر القاسم حتى نيف على الثانية والسبعين ، ولكن كف بصره وهو شيخ كبير ، وفي آخر سنة من حياته قصد مكة يريد الحج وفيما هو في بعض طريقه أتاه اليقين – الموت – فلما أحس بالأجل التفت إلى ابنه وقال : إذا أنا مت فكفني بثيابي التي كنت أصلي بها ، قميصي وإزاري وردائي فذلك كان كفن جدك أبا بكر ، ثم سوِّ عليّ لحدي ، والحق بأهلك ، وإياكم أن تقفوا على قبري وتقولوا : كان وكان فما كنت شيئاً .

هذا التواضع ، لابد من حفل التأبين كان وكان . . . قال له : ما كنت شيئاً ، الإنسان عندما يعرف مقامه عند الله يزهد بكلام الناس عنه ، يزهد بتأبين الناس له ، يزهد بثناء الناس عليه ، من عرف نفسه ما ضرته مقالة الناس به ، ذلكم كان القاسم بن محمد بن أبي بكر رضي الله عنه .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 5 : صيام المريض والمسافر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

حكم الصيام للمريض و المسافر :

أيها الأخوة المؤمنون ، لازلنا مع دروس الفقه المتعلقة بشهر الصيام ، وصلنا في الدرس الماضي إلى أنه من كان مريضاً في رمضان فخاف الخوف المعتبر شرعاً – يوجد خوف غير معتبر شرعاً ؛ وسوسة ، أو وهم ، أو ظن ، لا يستطيع المسلم أن يفطر في رمضان بناءً على رخصة المرض إلا إذا كان خوف المرض معتبراً شرعاً – وهو ما كان مستنداً لغلبة الظن بتجربة ، رجل يعاني من آلام في المعدة فكلما صام اشتدت به الآلام يغلب على ظنه أن الصيام يؤذيه بتجربة سابقة محققة عنده ، أو إخبار مسلم عدل يخبره أن الصيام يؤذيه ، أو إخبار مستورٍ حاذقٍ والجمع بينهما ، أي أن يخبره طبيب مسلم ورع حاذق، إذا اجتمع في الطبيب المهارة والورع في الوقت نفسه فإخبار هذا الطبيب بضرورة الإفطار شيء يعد خوفاً شرعياً يجيز للمسلم الإفطار ، ماذا يخبره ؟ أنه إذا صام ازداد مرضه أو تأخر شفاؤه ، إذا كان كذلك أفطر وقضى ، أي أفطر ذلك اليوم وقضى مكانه ولا شيء آخر عليه ، لأن زيادة المرض وامتداده يفضي إلى الهلاك فيحترز عنه ، هذا إذا كان مريضاً، إذاً المرض مقيد ليس مطلق المرض يجيز الفطر ، بعضهم يتوهم أن مطلق المرض يجيز الفطر ، لا ، المرض المعتبر شرعاً بتجربة ثابتة فيها غلبة الظن ، أو بإخبار طبيب مسلم حاذق ورع.

وإن كان مسافراً وهو لا يضره الصوم ، أو لا يضره السفر إذا كان صائماً فصومه أفضل ، سافر إلى مسافة عشرين كيلو متراً أو ثلاثين كيلو متراً بسيارة مريحة ، والجو شتاء لا يوجد حر ، فمثل هذا السفر لا يضر الصائم بل إن الصيام لا يضر ، السفر إذا كان كذلك فصومه أفضل لقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة:184]

لكن إن أفطر جاز وقضى ، لأن علة المرض مشروطة ، بينما علة السفر مطلقة، فإن أفطر المسافر جاز وقضى ، لكن بعض العلماء قال : إن السفر الذي به تقصر الصلاة هو السفر الذي يجيز للمسلم أن يفطر به ، والمسافة التي تقصر بها الصلاة ثمانون كيلو متراً، وقال بعض العلماء : إن السفر أي سفر لا يعرى عن المشقة، فجعل نفسه عذراً ، أي السفر على إطلاقه عدّ عذراً بخلاف المرض لأنه قد يخف بالصوم ، فشرط كونه مفضياً إلى الحرج عدّ السفر على إطلاقه سبباً موجباً للفطر.

حكم المريض و المسافر إذا ماتا وهما على حالهما أو بعد الصحة و الإقامة :

الآن إذا مات المريض أو المسافر وهما على حالهما ، مسلم مسافر مات في أثناء السفر ، أو مسلم مريض وهو مفطر مات في أثناء المرض قال : لم يلزمهما القضاء ولا قضاء عليهما ، لأن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾

[سورة البقرة: 184]

هذا المريض وهذا المسافر اللذان ماتا في مرضهما أو سفرهما لم يجدا عدةً من أيام أخر ، إذاً لا شيء عليهم ، الآن وإن صحّ المريض وأقام المسافر هذه العلة برأ منها وهذا السفر عاد منه ، إذا صحّ المريض وأقام المسافر ثم ماتا لزمهما القضاء بقدر الصحة والإقامة ، إذا ماتا بعد مضي شهر من انتهاء الصوم وكانا في هذا الشهر صحيحين لزمهما القضاء بعد موتهما ، لوجود الإدراك بهذا المقدار ، لو عاشا بعد رمضان أسبوعين بصحة جيدة لزمهما قضاء نصف الشهر ، يلزمهما قضاء المدة التي صحا فيها أو أقاما فيها ، لذلك إذا صح المريض أو أقام المسافر ثم أدركه الموت وكان بوعيه لزمه أن يوصي بإطعام مسكين عن كل يوم لم يستطع أن يؤده قضاءً هذا هو الحكم.

قضاء رمضان :

الآن قضاء رمضان المسلم مخير فيه إن شاء فرقه ، وإن شاء جمعه بإطلاق النص ، قال تعالى :

﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

[سورة البقرة: 184]

يا ترى هذه الأيام الأخر متتابعة أم متفرقة ؟ ما سكت عنه القرآن كان في هذا إطلاقاً ، والمطلق على إطلاقه ، وهذا رحمة من الله تعالى ، والإنسان إذا شيء ربنا سبحانه وتعالى سكت عنه لا ينبغي له أن يسأل عنه ، لأن في السؤال حرجاً ، لكن المستحب لو سألت عالماً أيهما مستحب أن نصوم هذه الأيام التي فاتتنا في المرض أو السفر متتابعةً أم نصومها متفرقةٍ ؟ لكان الجواب المستحب المتابعة ، لماذا ؟ مسارعةً إلى إسقاط الواجب ، أما إذا أخر المسلم ما عليه من أيام أفطر بها أخر قضاءها إلى أن جاء رمضان آخر فهذا له حكم آخر ، وإن أخره حتى دخل رمضان آخر صام الثاني ، لأن القاعدة الشرعية تقول : رمضان ظرفٌ لا يسع غيره ، أي في رمضان لا يسع رمضان إلا أن تصوم رمضان ، أما أن تجمع في رمضان بين صيام الفرض وصيام الكفارة أو القضاء فهذا مستحيل.

إذاً من أخر من فاته من أيام في رمضان إلى أن جاء رمضان آخر صام الثاني لأن وقته حتى لو نواه عن القضاء لا يقع إلا عن أداء ، لو نوى أن يصوم رمضان قضاءً عن رمضان آخر لا يقع إلا أن يكون أداءً لرمضان جديد ، وقضى الأول بعده ، لأن وقت القضاء على مذهب أبو حنيفة رضي الله عنه لا وجوب عليه ، وعلى بعض المذاهب إذا جاء رمضان الآخر ففي هذا إهمال ، عليه أن يقضي ما فاته ، وأن يدفع عن كل يوم ثمن إطعام مسكين ، لكن على المذهب الحنفي لا شيء عليه لأن وجوب القضاء على التراخي من دون تحديد ، أي إذا الإنسان أفطر برمضان لعذر من سفر أو مرض وجاء رمضان الثاني صام الثاني وقضى ما عليه بعد رمضان الثاني .

حكم الصيام للحامل و المرضع و الشيخ :

الآن الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما نسباً أو رضاعةً ولو أنها ترضع غير ولدها ، أو إذا خافتا على أنفسهما ، إما الخوف على النفس أو الولد أفطرتا وقضتا دفعاً للحرج ، ولا فدية عليها لأنه إفطار بسبب العجز ، فيكتفى بالقضاء اعتباراً في المريض والمسافر هذا الحكم ، أما الشيخ الفاني الذي لا يقدر على الصيام لقربه إلى الفناء أو لفناء قوته فيفطر ويطعم لكل يوم مسكيناً كما يطعم المكفر في الكفارات ، وكذلك العجوز الفاني هذا إذا كان ميسور الحال ، وإذا كان فقيراً لا يملك قوت يومه ليس عليه شيء ، والأصل فيه قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[سورة البقرة: 184]

في بعض التفاسير أي لا يطيقونه ، أما لو قدر الشيخ الفاني على الصوم بعد انقضاء رمضان فلن تقبل منه الكفارة ، عليه أن يصوم لأن شرط الفداء تعذر القضاء.

حكم من مات وعليه قضاء رمضان :

الآن من مات وعليه قضاء رمضان فأوصى به أطعم عنه وليه ، إذا الإنسان كان على فراش الموت وقد أفطر في رمضان الماضي بعذر من مرض أو سفر ثم أدركه الموت فعليه أن يوصي بإطعام مسكين عن كل يوم أفطره ، بشرط أن تكون قيمة هذا المال لا تزيد عن ثلث التركة لأن الثلثين من حق الورثة ، لو كان الإنسان يجب أن يأكل بخمسين ليرة في اليوم فرضاً ، ثلاثون يوماً ألف وخمسمئة ، لو أن الألف والخمسمئة أقل من الثلث لا يجب عليه إلى الثلث ، لأن ثلث المال يحق للمتوفى أن يتصرف فيه أما الثلثان فمن حق الورثة. لكل يوم مسكيناً نصف صاع من بر – قمح – أو صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير ، لأنه عجز عن الأداء في آخر عمره فصار كالشيخ الفاني هذا الذي يأتيه الموت ولم يصم ما عليه من رمضان ، لابد من أن يوصي فإن مات ولم يوصِ بالإطعام لا يلزم على ورثته شيء ، لا ينبغي لناظر الوصية أن يأخذ من أموال الورثة مبلغاً ليقضي به ما فاته من صوم إن لم يوصِ لا يلزمهم شيء ، لو تبرعوا عنه من غير وصية جاز ، وعلى هذا الزكاة.

صوم التطوع :

الآن من دخل في صوم التطوع أو في صلاة التطوع ثم أفسده قضاهما ، يوجد عندنا قاعدة أن النفل إذا شرعت فيه يجب أن تتمه لقوله :

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

[سورة البقرة:196]

هنا الحكم ليس الفرضية ، الحكم الإتمام ، إذا شرعت في عبادة يجب أن تتمها وجوباً لأن المؤدى قربة وعمل فتجب صيانته بالمضي عن الإبطال ، وإذا وجب المضي وجب القضاء بتركه .

من يصوم نفلاً يجوز له أن يفطر بعذر :

إذاً لا يباح الإفطار عند بعض الأئمة بغير عذر في إحدى الروايتين ويباح بعذر في رواية أخرى ، أي الذي يصوم نفلاً في بعض الأحاديث : " الصائم نفلاً أمير نفسه إن شاء صام وإن شاء أفطر " ، بعض العلماء يقولون : لا يجوز أن يفطر إلا بعذر ، وبعضهم قال : يجوز أن يفطر من دون عذر لأنه صيام نفل أخذاً من هذا الحديث.

لكن من العذر أن تدعى إلى طعام ، أنت صائم صيام نفل دعاك أخ كريم وتكلف تقول له : إني صائم ؟ النبي عليه الصلاة والسلام غضب من بعض أصحابه وقد دعوا إلى طعام فقال أحدهم : إني صائم ، فقال عليه الصلاة والسلام : " أخوك تكلف ودعاك وتقول إني صائم أفطر واقض يوماً مكانه "

فالعلماء أخذوا أنه يجوز لمن يصوم نفلاً أن يفطر بعذر ، من العذر الدعوة إلى الطعام ، أو زارك ضيف ، جاءك ضيف من سفر وأنت صائم نفلاً الأولى أن تفطر من أجله، وأن تأكل معه إكراماً له . والرأي الثاني : يجوز أن تفطر من صيام النفل مطلقاً من دون قيد أو شرط ولكن المقصود من هذا الكلام أن المضي في العبادة واجب فمن بدأ نفلاً وأفطر فيه عليه أن يقضيه وجوباً لا اختياراً ، الصيام اختياري فلما بدأت فيه وأفطرت عليك أن تقضيه ، مثلاً طرح السلام سنة لكن ردّ السلام فرض ، قال تعالى :

﴿ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾

[سورة النساء:86]

لك أن تسلِّم أو لا ، ولكن إذا سلم عليك وجب عليك أن ترد السلام .

تعاليم خاصة بالصيام :

إذا بلغ الصبي أو أسلم الكافر بنهار رمضان أمسكا بقية يومهما ، لو تصورنا إنساناً لا يعتقد بالدين خلال مناقشة موفقة بين إنسان غير معتقد بالدين وهو مفطر اعتقد بأحقية هذا الدين الساعة الثانية عشرة النظام الدقيق يجب أن يمسك عن الطعام والشراب بقية اليوم .

إذا بلغ الصبي أو أسلم الكافر بنهار رمضان أمسكا بقية يومهما قضاءً لحق الوقت بالتشبه بالصائم ، وصاما ما بعده لتحقق السببية والأهلية ولم يقضيا ذلك اليوم الذي فيه تم الإسلام أو تم البلوغ ، لكن الإمساك عن الطعام مراعاة للنظام العام.

الآن إذا حاضت المرأة أو نفست – أي دخلت بالنفاس – وهي الأيام التي تلي الولادة أفطرت وقضت وليس عليها أن تتشبه حال العذر لأن صومها حرام ، والتشبه بالحرام حرام ، أي إذا امرأة في الحيض أو بالنفاس من حقها أن تفطر ، إذا في حالات نادرة أحياناً يكون الطفل صغيراً غير مدرك فإذا أفطرت أمامه يصعب عليه أن توضح سبب الفطر ، هذه حالة ربما استخف الطفل بقدسية هذا الشهر لأن أمه رآها قد أفطرت ، وقد لا تستطيع لصغر سنه أن تبين له لماذا هي تفطر ، أي يوجد حالات إذا كان المرأة حاولت أن تخفي إفطارها عن صغيرها لا مانع مراعاة للحرج .

الآن إذا قدم المسافر أو برأ المريض أو طهرت الحائض أو النفساء في بعض النهار أمسكا وجوباً ، المسافر وصل الساعة العاشرة إلى بيته في أيام رمضان صباحاً كان مفطراً مادام قد وصل إلى البيت ، ووصل إلى دار إقامته ، ينبغي أن يمسك بقية اليوم ، فإذا طهرت الحائض أو النفساء ، أو برأ المريض ، أو قدم المسافر في بعض النهار ، أمسكا وجوباً وهو الصحيح عن المفطرات من الطعام والشراب وغيرهما بقية يومهما قضاءً لحق الوقت تقديساً لهذا الشهر العظيم .

ومن تسحر وهو يظن أن الليل باق ، أي سمع القرآن فظن القرآن الذي قبل الفجر، فإذا هو قرآن بعد الفجر من إذاعة أخرى فرضاً وكان قد أذن الفجر هذه حالة ، أو أفطر وهو يرى أو يظن أن الشمس قد غربت ثم تبين أن الفجر كان ، أحياناً يسمع الإنسان أذاناً من غير محطة يكون هذا الأذان قبل نصف ساعة من أذان توقيت دمشق أو ما حولها ، أي قد يحصل خطأ في الإمساك عن الطعام بعد الوقت المناسب ، أو في الإفطار قبل الوقت المناسب ماذا يفعل ؟ قال : عليه أن يقضي ذلك اليوم الذي أفطر فيه خطأً لأنه حق مضمون بالمثل ، ولا كفارة عليه لقصور الجناية ، أي هذه الجناية ليست تامة ، كيف ليست تامة ؟ ليس فيها عزم على الإفطار ، فما دام هناك جناية ناقصة إذاً عليه قضاء وليس عليه كفارة.

ومن رأى هلال الفطر وحده لم يفطر ، الدرس الماضي : من رأى هلال رمضان وحده عليه أن يصوم ، فإذا أفطر وجب عليه القضاء ، الآن من رأى هلال الفطر وحده لم يفطر ويجب عليه الصيام احتياطاً ، النبي عليه الصلاة والسلام له أحاديث تعطينا نظاماً اجتماعياً.

((صومكم يوم تصومون))

[أبو داود عن أبي هريرة]

أنت عضو في مجتمع ، أنت مواطن في بلد مسلم إذا أعلن الصيام تصوم ، أعلن الإفطار تفطر ، أما أن تنفرد وحدك بالصيام أو الإفطار ليس هذا مما يصح في القواعد الاجتماعية ، من رأى هلال الفطر وحده لم يفطر ويجب عليه الصيام احتياطاً لاحتمال الغلط فإذا أفطر فعليه القضاء ولا كفارة عليه للشبهة ، الآن وإذا كان بالسماء علة لم تقبل في هلال الفطر إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين ، مرّ معنا أنه تقبل شهادة رجل واحد في الدخول في العبادة لكن الخروج منها لا تقبل إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين إذا كان في السماء علة من غيم أو غبار ، وإن لم يكن بالسماء علة لن تقبل إلا شهادة جمع غفير يقع العلم بخبرهم .

هذه بعض الأحكام الأساسية التي نصت عليها بعض كتب الفقه على المذهب الحنفي ، وهي من كتاب : " اللباب في شرح الكتاب " وسوف ننتقل في دروس أخرى إن شاء الله تعالى إلى بعض أبحاث الاعتكاف وما يتبعه من موضوعات متعلقة ، أو يأتي الصيام مناسبة لها كدفع الزكاة والصدقة .

* * *

صلة بن أشيم العدوي :

والآن إلى قصة تابعي جليل من التابعين الذين نحن في صدد الحديث عن حياتهم، تابعي اليوم اسمه صلة بن أشيم العدوي عابد من عباد الليل وفارس من فرسان النهار ، وهذا وصف بعض أصحاب رسول الله : رهبان في الليل فرسان في النهار.

كان إذا نشر الظلام أستاره على الكون ، وأسلمت الجنوب إلى المضاجع ، قام فأسبغ الوضوء ثم صف في محرابه ، ودخل في صلاته وهام وجداً بربه ، فيشرق في نفسه سناً إلهي ينير لبصيرته أرجاء الكون ، ويريه آيات الله في الآفاق ، وكان إلى ذلك مولعاً بقرآن الفجر قال تعالى :

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآَنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآَنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾

[سورة الإسراء: 78]

فإذا أقبل الهزيع الأخير من الليل انحنى بصلبه على أجزاء القرآن ، وانطلق يرتل آيات الله البينات بصوت ندي وجرس شجي ، فتارةً يجد للقرآن حلاوةً تأخذ بمجامع القلوب وتستأثر بمكامن الألباب من خشية الله ، وأخرى يستشعر للقرآن خشعةً تُصدع فؤاده ، ولم يكن صلة اسم هذا التابعي يفتر عن العبادة هذه قط ، لا فرق في ذلك بين حله وترحاله وشغله وفراغه ، حكى جعفر بن زيد فقال : خرجنا مع جيش من جيوش المسلمين في غزوة إلى مدينة كابل – وهي الآن عاصمة أفغانستان – رجاء أن يفتحها الله لنا ، و كان في الجيش صلة بن أشيم فلما أرخى الليل سدوله ونحن في بعض الطريق حطّ الجند رحاهم ، وأصابوا شيئاً من الطعام ، وأدوا العشاء الأخيرة ثم مضوا إلى رحالهم يلتمسون حظاً من الراحة – هذا جعفر بن زيد – فرأيت صلة بن الأشيم يمضي إلى رحله كما مضوا ، ويسلم جنبه إلى الرقاد كما فعلوا ينام ، هذا تصرف فيه إخلاص لا يريد أن يحدث ضجيجاً أنه يصلي قيام الليل ، ذهب إلى فراشه مع من ذهب ، وأوى إلى مكان نومه فقلت في نفسي : أين الذي يرونه من صلاة الرجل وعبادته ويشيعون من قيامه حتى تتورم قدماه ؟ والله لأرمقنه الليلة حتى أرى ما يكون منه ، فما إن غرق الجند في نومهم حتى رأيته يستيقظ من رقدته وينحاز عن العسكر مستتراً بالعتمة ويدخل في غابة لفاء باسقة الأشجار وحشية الأعشاب كأنها لم تطأها قدمان منذ دهر طويل ، فمضيت في إثره فلما بلغ منها مكاناً قصياً التمس القبلة ، واتجه إليها ، وكبر للصلاة ، واستغرق فيها ، فنظرت إليه من بعد فرأيته مشرق الوجه ، ساكن الأعضاء ، هادئ النفس ، كأنما يجد في الوحشة أنساً ، وفي البعد قرباً ، وفي الظلمة ضياءً منيراً ، وفيما هو كذلك طلع علينا سبع عظيم من الجانب الشرقي للغابة فما إن رأيته حتى انخلع فؤادي هلعاً حتى أصبح على قيد خطوات منه ، فوالله ما التفت إليه ولا حفل به فلما سجد قلت : الآن يفترسه ، فلما نهض من سجوده وجلس وقف السبع بإزائه وكأنه يتأمله فلما سلم نظر إلى السبع في سكون وحرك شفتيه بكلام لم أسمعه – يبدو أنه استعاذ بالله منه – فإذا بالسبع ينصرف عنه في هدوء ويعود من حيث جاء .

من اتق الله هابه كل شيء ومن لم يتقِ الله هاب كل شيء ، ولما انبلج الفجر نهض وأدى المكتوبة ثم طفق يحمد الله عز وجل بمحامد لم أسمع مثلها قط ، قال : " اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار وهل يجترئ أحد عبد خاطئ مثلي أن يسألك الجنة ؟ وما زال يكررها حتى بكى وأبكاني ، ثم رجع الجيش دون أن يفطن له أحد وبدا لعيون القوم كأنه بات على الحشايا – الفرش – وعدت أنا في إثره وبي من سهر الليل وفتور الجسم وخوف

السَبُعِ ما الله به عليم.

ترفق صلة بن أشيم في الدعوة إلى الله :

ولقد كان صلة إلى هذا كله لا يدع سامحة من سوامح الموعظة والتذكير إلا اغتنمها ، وكان أسلوبه في ذلك أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، فيستميل النفوس النافرة ، ويستلين القلوب القاسية ، من ذلك أنه كان يخرج إلى البرية في ظاهر البصرة للخلوة والتعبد فكانت تمر به طائفة من الشباب أرخت للصبا عنانها فتلهو وتلعب وتسرح وتمرح ، فكان يحييهم بأنس ويخاطبهم برفق ويقول لهم : ما تقولن في قوم أجمعوا سفراً لأمر عظيم غير أنهم كانوا في النهار يحيدون عن الطريق ليلهوا ويلعبوا وفي الليل يبيتون ليستريحون فمتى ترونهم ينجزون رحلتهم ويبلغون غايتهم ؟ ودأب على قول ذلك المرة تلو المرة فلقيهم ذات يوم وقال لهم : مقالتهم تلك فنهض شاب منهم وقال : والله إنه ما يعني بذلك أحداً غيرنا فنحن في النهار نلهو وفي الليل ننام ، ثم انحاز الشاب عن رفاقه ، واتبع صلة بن أشيم منذ ذلك اليوم وما زال في صحبته حتى أتاه اليقين . انظر الترفق بالدعوة إلى الله ، قال تعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

[سورة آل عمران : 159]

درس لمن أراد أن يأمر بالمعروف :

ومن ذلك أيضاً أنه كان يمضي ذات نهار في ثلة من أصحابه إلى غاية له ، فمر بهم شاب رائع الشباب ، ريان الصبا ، قد أطال إزاره حتى جعل يجره على الأرض جر الخيلاء ، فهم أصحابه بالشاب وأرادوا أن يأخذوه بألسنتهم وأيديهم أخذاً شديداً فقال لهم صلة: دعوه لي أكفكم أمره ، ثم أقبل على الشاب وقال في رفق الأب الشفيق ونبرة الصديق الحميم: يا بن أخي إن لي إليك حاجة ؟ فتوقف الفتى وقال : ما هي يا عم ؟ فقال : أن ترفع إزارك فإن ذلك أنقى لثوبك وأتقى لربك وأدنى لسنة نبيك ، هذه الموعظة بلطف ، بأدب ، بذكاء، بحكمة ، فقال الفتى في خجل : نعم ونعمة عين ، ثم بادر ورفع إزاره ، فقال صلة لأصحابه : إن هذا أمثل مما أردتم ، علموا ولا تعنفوا ولو أنكم ضاربتموه وشاتمتموه لضاربكم وشاتمكم وأبقى إزاره مسدلاً يمسح به الأرض ، هذا درس

لمن أراد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف ، جاءه مرةً فتىً من فتيان البصرة فقال: علمني يا أبا الصهباء مما علمك الله فهش له صلة وبش وقال : لقد أذكرتني يا بن أخي ماضياً لا أنساه حيث كنت إذ ذاك شاباً مثلك فأتيت من بقي من صحابة رسول الله وقلت لهم" علموني مما علمكم الله ، فقالوا لي : اجعل القرآن عصمة نفسك وربيع قلبك – اقرأه وافهم أحكامه وطبقه ، واجعله ربيع قلبك ، داوم على قراءته والتغني به – وانتصح له وانصح المسلمين به ، وأكثر من دعاء الله عز وجل ما استطعت ، فقال الفتى : ادعو لي جزيت خيراً، فقال : رغبك الله تعالى فيما يبقى ، وزهدك فيما يفنى ، ووهب لك اليقين التي تسكن إليه النفوس ، ويعول عليه في الدين .

عادات معاذة العدوية زوجة صلة بن أشيم :

كان لصلة ابنة عم تدعى معاذة العدوية وكانت هي الأخرى تابعية ، أخذت عن أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها ، ثم لقيها الحسن البصري نضر الله روحه وسمع منها، وكانت تقية نقية عابدة زاهدة ، وكان من عادتها إذا أقبل الليل أن تقول : قد تكون هذه آخر ليلة لي فلا تنام حتى تصبح ، وإذا أقبل عليها النهار تقول : قد يكون هذا النهار آخر يوم لي فلا يطمئن لها جنب حتى تمسي ، وكانت تلبس رقيق الثياب بفصل الشتاء حتى يمنعها البرد من الركون إلى النوم ، والانقطاع عن العبادة ، وكانت تحيي الليل صلاةً واقتراءً – أي التعبد بقراءة القرآن – فإذا غلبها النعاس قامت وجالت في الدار وهي تقول : أمامكِ يا نفس يوم طويل غداً تطول رقدتك في القبر ، إما على حسرة وإما على سرور ، فاختاري يا معاذة لنفسكِ اليوم ما تحبين أن تكوني عليه غداً. وكانت هذه زوجته وأنعم بها من زوجة .

شجاعة صلة و فروسيته :

ولم يكن صلة بن أشيم أواهاً ، أواباً، عابداً فحسب وإنما كان إلى ذلك فارساً مجاهداً ، وبطلاً مجاهداً ، قلّما عرفت ساحات القتال كمياً – أي بطلاً – أشد منه بأساً أو أقوى نفساً ، أو أمضى سيفاً حتى غدا قواد المسلمين يتنافسون في اجتذابه إليهم ، كل منهم يريد أن يظفر به في عسكره ليقطف بفضل شجاعته النصر الكبير الذي يطمح إليه .

" روى جعفر بن زيد قال : خرجنا في غزوة ومعنا صلة بن أشيم وهشام بن عامر فلما لقينا العدو انبرى صلة وصاحبه من صفوف المسلمين وأوغلا في جموع الأعداء طعناً بالرماح ، وضرباً بالسيوف ، حتى أثرا في مقدمة الجيش أبلغ الأثر ، فقال بعض قادة العدو لبعض : رجلان من جند المسلمين أنزلا بنا كل هذا فكيف لو قاتلونا جميعاً انزلوا على حكم المسلمين ودينوا لهم بالطاعة ، وفي سنة ست وسبعون للهجرة خرج صلة بن أشيم في غزاة له مع جيوش المسلمين المتوجهة إلى بلاد ما وراء النهر أي في تركستان وكان في صحبته ابن له فلما التقى الجمعان وحمي وطيس المعركة قال صلة لابنه : أي بني تقدم وجاهد أعداء الله حتى أحتسبك عند الذي لا تضيع عنده الودائع ، فانطلق الفتى إلى قتال العدو كما ينطلق السهم عن القوس ، وما زال يقاتل حتى خرّ صريعاً شهيداً ، فما كان من أبيه إلا أن مضى على أثره وظل يجاهد حتى ثوى شهيداً إلى جنبه ، فلما بلغ نعيهما البصرة اتجهت النساء إلى معاذة العدوية ليواسينها فقالت لهن : إن كنتن جئتن لتهنئتي فمرحباً بكم ، أما إذا كنتن قد جئتن لغير ذلك فارجعن وجزيتن خيراً ، ماداما قد قتلا في أرض المعركة ونالا شرف الشهادة فأنا ينبغي أن أهنأ بهما لا أن أعزى بهما ، هذه زوجته ، نضر الله هذه الوجوه النبيلة الكريمة ، وجزاها عن الإسلام والمسلمين خيراً ، فما عرف تاريخ الإنسانية أتقى منهما ولا أنقى .

* * *

آفة السخرية :

آخر فقرة في الدرس الآفة التي نتحدث عنها من آفات اللسان هي آفة السخرية ، السخرية والاستهزاء محرم بقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

[سورة الحجرات : 11]

أية لفظة ، أو عبارة ، أو حركة ، أو تصرف ، أو مشية ، أو محاكاة ، أو إشارة، أو عبارة تؤدي إلى السخرية فهي محرمة شرعاً بنص هذه الآية ، لذلك لما سمع النبي عليه الصلاة والسلام من السيدة عائشة أنها قالت عن أختها صفية قصيرة قال : " يا عائشة لقد قلت كلمة لو مزجت بمياه البحر لأفسدته" .

معنى السخرية :

ومعنى السخرية : الاستهانة والتحقير ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يُضحك منه ، وقد يكون ذلك بالمحاكاة بالتقليد في القول أو الفعل ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، ومرجع ذلك إلى استحقار الغير ، والضحك عليه ، والاستهانة به ، والاستصغار له وعليه ، قال تعالى:

﴿ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾

[سورة الحجرات : 11]

وفي حق النساء :

﴿ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾

[سورة الحجرات : 11]

كأن الله تعالى يقول : لا تدري لعلك إذا احتقرته استصغاراً له لعله يكون خيراً منك ، هذا يحرم في حق من تأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرةً – هكذا جاء في الكتاب –وفرح بمن يسخر به كان السخرية في حقه من جملة المزاح ، يوجد أشخاص قلة يحبون أن يضحك الناس عليهم ويستمتعون بهذا ، قال : هذا دخل في المزاح ولم يدخل في السخرية ، هو تكلم كلاماً عن نفسه أضحك القوم ، أنت لست آثماً هو يفعل هذا بنفسه ، يتحدث عن نفسه، طبعاً الإنسان إذا كان في مجلس بشكل عرضي كان راكباً سيارة عامة رجل قام وتكلم نكتة فضحك الناس فإذا ضحك ما فعل شيئاً ، ما سخر منه هو سخر من نفسه ، هذا دخل بالمزاح.

أما أن تستصغر أخاك المسلم بحيث يتأذى بهذه السخرية فهذا من باب المحرمات التي تقطع الإنسان عن ربه ، على كلٍّ كما قال عليه الصلاة والسلام :

((من كثر ضحكه قلت هيبته ، ومن كثر ضحكه استخف به))

[روضة العقلاء لابن حبان عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ]

إفشاء السر :

شيء آخر من آفات اللسان إفشاء السر وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء ، قال النبي عليه الصلاة والسلام :

((إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة))

[الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

يحدثك حديثاً ، سمع حركة فسكت هذه الالتفاتة تعني أن هذا الحديث يجب أن يبقى سراً بينك وبينه ، هكذا المسلم ، أما بعد أن يتوسل إليك ويؤكد عليك ويقول لك : هذا الشيء بيننا بعد نصف ساعة يسمعه بالطريق ، فهذه أخلاق ليست من أخلاق المسلم ، لم يقل لك شيئاً إنما التفت التفاته تعني أن هذا الذي قاله لك سر ، طبعاً إلا إذا كان موضوع مخالفة للشرع ، لو أسرّ لك إنسان أنه سيفعل كذا بفلان والفعل مناف للدين هذا بحث آخر ، ثلاثة مجالس لا أمانة لهم ؛ مجلس فيه سفك دم حرام ، وأكل مال حرام ، أو انتهاك عرض حرام ، هذه المجالس الثلاثة ليس لها سر ، سمعت أنه سوف يأكل مال فلان اغتصاباً لا يجوز أن تسكت عنه هذا فيه حق .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 6 : اختلاف المطالع ..... الاعتكاف ....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

اختلاف المطالع :

أيها الأخوة المؤمنون ، موضوع اليوم موضوع شغل الناس جميعاً ، فبعض الناس في حيرةٍ من أمرهم في موضوع الصيام ، رأى العلماء أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ فَإِنْ غُم عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ))

[مسلم عن أبي هُرَيْرَةَ]

صوموا فعل أمر أسند إلى الجماعة ، أي أيها المسلمون صوموا جميعاً لرؤيته ، لمطلق الرؤية ، ويا أيها المسلمون أفطروا جميعاً لرؤيته ، لذلك هذا الموضوع ينقلنا إلى بحث في الفقه اسمه اختلاف المطالع ، اختلاف المطالع كيف أن الأرض كروية تدور حول نفسها وتسبح في دورانها حول نفسها حول الشمس ، ففي دورتها حول نفسها تشرق الشمس على كل بقعة في الأرض في وقت غير الوقت التي تشرق فيه على بقعة أخرى ، فاختلاف مطالع الشمس شيء ثابت في الواقع وفي الشرع ، ففي كل بلد مواقيت لأداء الصلوات الخمس، قد يستمع الإنسان إلى أذان المغرب في بلد مسلم قبل نصف ساعة من أذانه في بلده ، فاختلاف مطالع الشمس شيء ثابت واقعاً وثابت شرعاً ، وليس هذا الاختلاف موضوع نزاع بين المسلمين من عهد النبي عليه الصلاة والسلام وإلى هذه الأيام لكل بلد مواقيته الخاصة في أداء الصلوات الخمس ، لأن مطلع الشمس يختلف من بلد إلى آخر.

الأصل في الصيام رؤية الهلال رؤية مطلقة و ممكنة :

الآن القمر في دورته حول الأرض يتم دورةً كاملةً حول الأرض في مدة تقترب من مدة دورة الأرض حول نفسها، لو أن هناك تطابقاً في دوران القمر حول الأرض مع دوران الأرض حول نفسها لبقي القمر ثابتاً في مكان موازياً للأرض لا يتغير ، ولكن هناك فارقاً وتفاضلاً بين دورة القمر حول الأرض ودورة الأرض حول نفسها ، هذا التفاضل يجعل للقمر مطالع كما للشمس مطالع ، بل إن مطالع الشمس تختلف من بلد إلى آخر ، أي وقت الفجر في دمشق غيره في بيروت ، غيره في بغداد ، غيره في دلهي ، غيره في الصين ، لكل بلد مطلع شمس خاص به ، وأيضاً لكل بلد مطلع قمر خاص به ، وكما أن مطالع الشمس مختلفة كذلك مطالع القمر مختلفة ، لكن مطالع الشمس يبنى عليها اختلاف مواقيت الصلاة في كل أقطار العالم الإسلامي ، وهذا ليس محل نزاع من عهد النبي ﷺ إلى الآن ، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام جعل رؤية الهلال شرطاً من شروط الصوم، صوموا أيها المسلمون جميعاً لرؤيته ، فالصوم موجه إلى كل المسلمين ، والرؤية مطلقة ، أي إذا رجلاً واحداً عدلاً ثقةً رأى الهلال وصحت شهادته ونقلت للناس هذه الشهادة وجب الصوم على كل مسلم ، هذا مذهب الأحناف أن الأصل في الصيام رؤية الهلال رؤيةً مطلقة ورؤيةً ممكنة ، تصوروا أن العالم الإسلامي المترامي الأطراف قبل ألف عام لم يكن هناك تواصل إعلامي ولا لاسلكي ولا هاتف ولا شيء من هذا القبيل ، لو أن أهل الشام رأوا الهلال كيف السبيل إلى أن ننقل هذا الخبر إلى أهل العراق أو إلى أو إلى المغرب أو إلى أهل شمال إفريقيا ؟ حينما يكون التواصل الإعلامي متعذراً فكل بلد يرى الهلال يصوم هذا البلد وفق رؤية الهلال ، فإذا أصبح العالم الإسلامي وحدةً إعلاميةً واحدة فممكن أن يصوم الجميع لرؤية واحد من هؤلاء ، بشرط أن يكون هذا العالم الإسلامي موحداً ، فإذا كان لكل بلد إسلامي أمير مسلم وله قاضٍ للشرع هو المخول في إثبات الهلال أو عدم الإثبات ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تُضَحُّونَ وَكُلُّ عَرَفَةَ مَوْقِفٌ وَكُلُّ مِنًى مَنْحَرٌ وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ وَكُلُّ جَمْعٍ مَوْقِفٌ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فصار على الإنسان أن يبقى مع المجموع ، لأن هناك جهةً موكلةً من قبل الأمير لتحري هلال رمضان ، هذه الجهة بسبب أنه قد غمَّ علينا فالنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((... فَإِنْ غُمَّ عَلَيْكُمْ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ))

[البيهقي عن أبي هريرة]

وهذا وفق الشرع ، وعندها يبدأ الصيام في اليوم الذي يلي اليوم الثلاثين من شعبان بعض الأشياء التي يجب أن نأخذ بها ، الفقهاء اتفاقهم حجةً قاطعة واختلافهم رحمة واسعة ، أي حينما يكون العالم الإسلامي موحداً ، والتواصل الإعلامي متعذراً ، فكل بلد له مطلعه الخاص إذا رأى الهلال يصوم وإذا رآه يفطر ، إذا رأى هلال رمضان يصوم ، وإذا رأى هلال شوال يفطر ، وإذا كان العالم الإسلامي موحداً والتواصل الإعلامي موجوداً الأفضل أن يصوم جميع المسلمين في يوم واحد وهذا ما نطمح إليه ، على كلٍّ النبي عليه الصلاة والسلام أمرنا أن نكون مع المجموع ، وأن نكون مع الجهة التي أوكل إليه أمر إثبات شهر الصيام ، فنحن لا نملك أن نصوم من تلقاء أنفسنا ما لم يكن هناك إثبات شرعي لشهر الصيام ، هذا الكلام ملخص الموضوع ولكن من القواعد الأصولية أن أمر الحاكم يلغي الخلاف ، مادام لم يثبت من الجهة الرسمية أن رمضان اليوم فالموضوع ألغي الخلاف فيه لأنك أنت مسلم في جماعةٍ مؤمنةٍ ، فيها جهة مسؤولة عن إثبات الشهر ، وعن إعلان الإثبات، فأنت تابع لهذا المجتمع الذي يتصرف وفق القواعد الشرعية ، هذا ملخص الموضوع.

على الإنسان أن يكون مع المجموع في صيامه و إفطاره :

لكن لماذا بقي الموضوع على الرؤية ؟ لأنه كما قلت قبل قليل : أحياناً يكون التواصل الإعلامي متعذراً والعالم الإسلامي موحد فصعب أن نبلغ الأقطار ، ثم هناك ناحية مهمة : الأقطار الإسلامية إذا تباعدت على خطوط العرض فاختلاف المطالع حتميٌ أما إذا تباعدت على خطوط الطول فاختلاف المطالع وهمي ، لأن الأرض في دورتها حول نفسها وفي دورة القمر حولها خطوط الطول تشكل مطلعاً موحداً ، أما خطوط العرض تشكل مطالع متباينة ، لذلك من الطبيعي أن يرى هلال رمضان في الهند ولا يرى في المغرب ، حتى أن بعض العلماء قالوا : من ضوابط التباعد بين الأقطار الإسلامية أن يشترك القطران معاً في الليل فهذا من دواعي التقارب ، أما هناك أقطار إسلامية بعضها نهار وبعضها ليل ، لو أخذنا الفيلبين مع المغرب فقد يتناقض الليل مع النهار ، إذاً اختلاف المطالع حقيقةٌ واقعة لا شك فيها ، ولكن العلماء بين من يأخذ بها وبين من لا يأخذ بها ، هناك من أخذ

بها وهناك من لم يأخذ بها ، اتفاق الأئمة حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة ، وصومكم يوم تصومون وفطركم يوم تفطرون ، والإنسان أولى أن يكون مع المجموع في صيامه ، وفي إفطاره ، وفي وقفته ، وفي كل مناسباته الدينية.

قال بعض العلماء تعليقاً على قوله تعالى :

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

[سورة البقرة : 185]

أي الإنسان قد يتبادر له أن كلمة شهد الشهر أنه رأى القمر ، شهد الشهر أي أدركه رمضان وهو مقيم في أهله وبلده وهو مكلف وصحيح ومعافى وعالم بدخول الشهر ، عندئذ وجب عليه الصوم .

* * *

الاعتكاف :

الآن ننتقل إلى موضوعه الاعتكاف ، كثير ما يسأل بعض الأخوة عن حكم الاعتكاف في الإسلام ، الاعتكاف في اللغة لزوم الشيء وحبس النفس عليه خيراً كان أو شراً، في كل الموضوعات الفقهية يبدأ علماء الفقه بالتعريف اللغوي ، ما هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون ؟ العكوف لزوم الشيء وحبس النفس عليه خيراً كان أو شراً ، قال تعالى :

﴿ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ﴾

[سورة البقرة : 187]

أي مقيمون متعبدون لها ، والمقصود به هنا لزوم المسجد والإقامة فيه بنية التقرب إلى الله تعالى ، قد يقول أحدكم : لا نرى أحداً يعتكف في المسجد ، أنا أريد من هذا الموضوع أن أصل إلى روح الموضوع ، روح الموضوع أن ينقطع الإنسان عن مشاعر الدنيا في رمضان ، وأن يكثر من الانفراد والتعبد وتلاوة القرآن ، والإقبال على الله سبحانه وتعالى.

أجمع العلماء على أن الاعتكاف مشروع ، فقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يعتكف في كل رمضان عشرة أيام:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْتَكِفُ فِي كُلِّ رَمَضَانٍ عَشْرَةَ أَيَّامٍ فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعْتَكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

في أواخر رمضان ، أي قياساً على هذا ؛ الإنسان إذا كان بإمكانه أن يفرغ نفسه في العشر الأخير من رمضان، يلزم المسجد إذا أمكن ، وإذا ما أمكن أن يلزم بيته ما أمكن ، يبتعد عن القضايا التي تشوش عليه حياته وصفاءه، أنا أريد أن أسهل عليكم الأمر ، إذا كان بإمكان الشخص أن يترك عمله إذا كان عمله حراً وغير مقيد بدوام وفي بحبوحة ولا يوجد شيء ملزم وأن يعتكف في المسجد أكمل شيء ، ما تمكن في المسجد يعتكف في البيت شيء جيد جداً ، ما تمكن أن يعتكف في البيت القضايا التي من شأنها أن تعكر عليه صفاءه عليه أن يبتعد عنها خلال هذا العشر من أواخر شهر رمضان.

أقسام الاعتكاف :

الاعتكاف كما يقسمه العلماء ينقسم إلى اعتكاف مسنون وإلى اعتكاف واجب ، وفي بعض الكتب يقسم إلى اعتكاف مسنون وإلى اعتكاف مستحب وإلى اعتكاف واجب ، فالمسنون أي ما كان في حكم السنة ، ما تطوع به المسلم تقرباً لله عز وجل ، وطلباً لثوابه ، واقتداءً بالنبي صلوات الله عليه ، ويتأكد هذا الاعتكاف بالعشر الأواخر من رمضان كما تقدم، والاعتكاف الواجب ما أوجبه المرء على نفسه إما بالنذر المطلق كأن يقول : لله علي أن أعتكف كذا وكذا ، نذر على نفسه أن يعتكف بضعة أيام في المسجد أو في المسجد الحرام أو في المسجد النبوي الشريف ، فمن ألزم نفسه أي نذر على نفسه أن يعتكف أياماً معدودات في مسجد مخصص فهذا اعتكاف واجب، وهو اعتكاف مطلق ، وهناك اعتكاف معلق أي اعتكاف واجب بالنذر المعلق ، كأن يقول : إن شفى الله مريضي لاعتكفن كذا وكذا ، وفي صحيح البخاري :

((مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلا يَعْصِهِ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْها]

وفيه :

((عَنْ عُمَرَ قَالَ : قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ : إِنِّي كُنْتُ نَذَرْتُ أَنْ أَعْتَكِفَ لَيْلَةً فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَالَ أَوْفِ بِنَذْرِكَ))

[متفق عليه عَنْ عُمَرَ]

زمان الاعتكاف :

زمان الاعتكاف الواجب يؤدى حسب ما نذر هو وسماه الناذر ، فإن نذر الاعتكاف يوماً أو أكثر وجب الوفاء بما نذر ، أما الاعتكاف المستحب فليس له وقت محدد فهو يتحقق بالمكث في المسجد مع نية الاعتكاف طال الوقت أم قصر ، المستحب كلما دخلت المسجد ومكثت فيه فأنت معتكف ، والاعتكاف بهذه الطريقة اعتكاف مستحب ، ويثاب المسلم في اعتكافه مدة بقائه في المسجد ، فإذا خرج منه ثم عاد إليه جدد النية إن قصد الاعتكاف ، أي أنتم في هذا المسجد مع بقائكم ساعة أو أكثر أنتم معتكفون في هذا المسجد لأنكم تركتم كل علائق الدنيا ، وأتيتم لتتعلموا شيئاً من حديث رسول الله ﷺ ، أو من سيرة التابعين الأجلاء ، أو من بعض أحكام الفقه ، فهذا اعتكاف أيضاً ولكن اعتكاف مستحب.

وللمعتكف أن يقطع اعتكافه المستحب متى شاء ، مادمت في اعتكاف مستحب لك أن تقطعه متى شئت قبل قضاء المدة التي نواها.

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ صَلَّى الْفَجْرَ ثُمَّ دَخَلَ مُعْتَكَفَهُ وَإِنَّهُ أَمَرَ بِخِبَائِهِ فَضُرِبَ أَرَادَ الاعْتِكَافَ فِي الْعَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ فَأَمَرَتْ زَيْنَبُ بِخِبَائِهَا فَضُرِبَ وَأَمَرَ غَيْرُهَا مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِخِبَائِهِ فَضُرِبَ فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ نَظَرَ فَإِذَا الأَخْبِيَةُ فَقَالَ : آلْبِرَّ تُرِدْنَ فَأَمَرَ بِخِبَائِهِ فَقُوِّضَ وَتَرَكَ الاعْتِكَافَ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ حَتَّى اعْتَكَفَ فِي الْعَشْرِ الأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا]

كانت تضرب له قبة في المسجد ليعتزل الناس ، كأن النبي عليه الصلاة والسلام ما ارتاحت نفسه لهذا التنافس في الاعتكاف ، وكأنه أشعر السامع أن نساءه كن أقرب إلى أن يظهرن بمظهر المعتكفات من هن بالوضع الذي أراده النبي عليه الصلاة والسلام ، فأمر ببنائه فقوض وأمر أزواجه بأبنيتهن فوقضت ، ثم أخر الاعتكاف إلى العشر الأواخر أي من شوال ، وأمر النبي عليه الصلاة والسلام نساءه بتقويض أبنيتهن وترك الاعتكاف بعد نيته فيه، وهذا دليل على قطعه بعد الشروع فيه ، وفي الحديث أن الرجل له أن يمنع زوجته من الاعتكاف بغير إذنه وإليه ذهب عامة العلماء.

شروط الاعتكاف و أركانه :

الآن شروطه : المعتكف يجب أن يكون مسلماً ، مميزاً ، طاهراً من الجنابة والحيض والنفاس ، فلا يصح من كافر ولا صبي غير مميز ، ولا جنب ، ولا حائض ، ولا نفساء ، أما أركان الاعتكاف فمن أبرز أركانه المكث في المسجد بنية التقرب إلى الله تعالى ، فلو لم يقع المكث في المسجد ، أو لم تحدث نية الطاعة ، لا ينعقد الاعتكاف إن لم يكن المكث في المسجد ، أو إن لم تكن النية هي التقرب إلى الله عز وجل ، فإن الاعتكاف لا يصح ، أما وجوب النية فلقول الله تعالى :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾

[سورة البينة : 5]

ولقول النبي ﷺ :

((عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[مسلم عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي الله عنه]

وأما أن المسجد لابد منه فلقول الله تعالى :

﴿ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

[سورة البقرة: 187]

إذاً الاعتكاف في المسجد .

إذاً من أركانه أن يكون بنية ، وأن يقتضي المكث ، وأن يكون في المسجد ، والعلماء اختلفوا في نوع المسجد الذي يصح فيه الاعتكاف ، فمنهم من قال : إنه يجب أن يكون في المسجد الجامع ، والمسجد الجامع هو المسجد التي تؤدى به الصلوات الخمس وتؤدى به صلاة الجمعة ، وهناك مسجد تؤدى به الصلوات الخمس فقط، وهناك مسجد ليس له إمام ولا مؤذن يسمى مصلى ، بعضهم قال : في أي مسجد كان ، وبعضهم قال : في المسجد الجامع ، وبعضهم قال : في أي مسجد تؤدى فيه الصلوات الخمس وله إمام وله مؤذن.

صوم المعتكف :

الآن صوم المعتكف ، المعتكف إن صام فحسن وإن لم يصم فلا شيء عليه ، أي اعتكاف هذا ؟ قلنا قبل قليل : هناك اعتكاف واجب ، الذي يجب بالنذر المطلق أو المقيد، وهناك اعتكاف مستحب ، وهناك اعتكاف مسنون ، الاعتكاف المسنون هو ما كان بالعشر الأواخر من رمضان فأنت صائم حكماً ، أما الحديث عن الصيام مع الاعتكاف فهذا في الاعتكاف المستحب أو الاعتكاف الواجب بالنذر المطلق أو المقيد ، فقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمراً قال : " يا رسول الله إني نذرت بالجاهلية أن أعتكف ليلاً في المسجد الحرام ، فقال : أوفِ بنذرك "

ففي أمر النبي عليه الصلاة والسلام له بالوفاء بالنذر دليل على أن الصوم ليس شرطاً في صحة الاعتكاف ، أي كلما دخلت المسجد وأردت أن تبقى فيه تقرباً إلى الله تعالى تتلو فيه القرآن الكريم ، أو تعلم الناس القرآن ، أو تقرأ كتاباً في العلم الشريف ، أو كتاباً في التفسير ، أو كتاباً في الحديث ، أو كتاباً في الفقه ، أو كتاباً في السيرة ، أو أن تذكر الله خالياً، أو أن تأمر بالمعروف ، أي عمل يؤدي إلى مرضاة الله عز وجل فهو عمل مباح في أثناء الاعتكاف.

" وروى سعيد بن منصور عن أبي سهل قال : كان على امرأتي من أهلي اعتكاف فسألت عمر بن عبد العزيز فقال : ليس عليها صيام إلا أن تجعله على نفسها "

وقال بعض التابعين وهو طاوس : " كان فلاناً لا يرى عليها صياماً إلا أن تجعله على نفسها " ، وقال عطاء بن رباح وهو تابعي أيضاً : " ليس عليها صيام إلا أن تجعله على نفسها " ، وقال الحسن البصري : " من اعتكف من غير صيام أجزأه " وإليه ذهب الشافعي.

وروي عن علي وابن مسعود أنهما قالا : " إن شاء صام وإن شاء أفطر " هذا في الاعتكاف.

ما يستحب في الاعتكاف :

المستحب في كل أيام العام أو في الاعتكاف الواجب بالنذر المطلق أو النذر المقيد، وكان النبي عليه الصلاة والسلام :

((... إِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ صَلَّى الْفَجْرَ ثُمَّ دَخَلَ مُعْتَكَفَهُ ...))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا]

معناه أنه كان يدخل المكان الذي أعده للاعتكاف في المسجد ، أما وقت دخول المسجد للاعتكاف فكان أول الليل ، يستحب للمعتكف أن يكثر من نوافل العبادات ، أن يصلي ، أن يذكر ، أن يسبح ، أن يهلل ، أن يكبر ، أن يحمد ، فالتسبيح والتهليل والتكبير والحمد وتلاوة القرآن ، هذا كله مما يستحب للمعتكف ، وأن يشغل نفسه بالصلاة وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاستغفار والصلاة والسلام على النبي عليه الصلاة والسلام والدعاء ، ونحو ذلك من الطاعات التي تقرب إلى الله تعالى ، وتصل المرء بخالقه جل ذكره ، ومما يدخل في هذا الباب دراسة العلم واستذكار كتب التفسير والحديث وقراءة سيرة الأنبياء والصالحين وغيرها من كتب الفقه والدين .

ما يكره للمعتكف :

ويكره للمعتكف أن يشغل نفسه بما لا يعنيه من قول أو عمل لما رواه الترمذي وابن ماجة :

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ويكره للمعتكف الإمساك عن الكلام ظناً منه أن ذلك مما يقرب إلى الله تعالى :

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا أَبُو إِسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلا يَقْعُدَ وَلا يَسْتَظِلَّ وَلا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ))

[أبو داود عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

((عن عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلامٍ وَلا صُمَاتَ يَوْمٍ إِلَى اللَّيْلِ))

[ابن ماجة عن عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه]

ما عمرك أخي ؟ خمسة وأربعون ، قال عليه الصلاة والسلام :

((عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْتَكِفًا فَأَتَيْتُهُ أَزُورُهُ لَيْلاً فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ فَانْقَلَبْتُ فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي وَكَانَ مَسْكَنُهَا فِي دَارِ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ فَمَرَّ رَجُلَانِ مِنَ الأَنْصَارِ فَلَمَّا رَأَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْرَعَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رِسْلِكُمَا إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ فَقَالا سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا أَوْ قَالَ شَيْئًا))

[مسلم عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيٍّ]

من هذه التي تمشي معه ؟ كم كان النبي عليه الصلاة والسلام حريصاً على سلامة صدر أصحابه ، لذلك قال عليه الصلاة والسلام مما ورد في الأثر : " رحم الله عبداً جب المغيبة عن نفسه "

سيدنا علي يقول رضي الله عنه : " لا تضع نفسك موضع التهمة ثم تلوم الناس إذا اتهموك " ، وقد قيل : " البيان يطرد الشيطان " ، الإمام الشافعي علق على هذه القصة ، قال : إن ذلك كان منه شفقةً عليهما ، هذا التصرف من رسول الله عندما قال : على رسلكما ، لأنهما إن ظنا به ظن السوء كفرا ، فبادر النبي عليه الصلاة والسلام إلى إعلامهما لئلا يهلكا.

كل واحد منا كمسلم أو كمؤمن مظنة صلاح ، مظنة استقامة ، مظنة طهر ، مظنة عفاف ، إذا فرضنا أن إنساناً له محل تجاري وزارته أخته في المحل ورحب بها ، ويوجد عنده أخ جالس في مكان آخر يقول له : هذه أختي لأنه رحب بها ترحيباً يختلف عن ترحيب امرأة عادية تدخل لتشتري ، تثير الشك ، قل لأخيك الذي في المحل أيضاً ، قل له : هذه أختي ، هذا من حسن إسلام المرءِ أن يدفع عن نفسه مظنة السوء ، والبيان يطرد الشيطان.
فقال الإمام الشافعي : كان هذا منه شفقةً عليهما لأنهما لو ظنا به ظن السوء لكفرا فبادر لإعلامهما لئلا يهلكا ، وقال الإمام الشافعي : إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا ، أنتم أيها المؤمنون إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا ، أي إذا أنت في مكان وهناك ثياب معلقة ومددت يدك إلى جيوب أحد هذا الثوب رآك إنسان اندهش قل له : هذا ثوبي آخذ منه حاجة لكيلا يظن بك الظنون ، أو هذا ثوب صديقي كلفني أن أعطيه القلم منه ، كل حركاتك وسكناتك اجعل

نفسك كالصفحة البيضاء ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ))

[ابن ماجه عن العرباض]

ما يجوز للمعتكف :

شيء آخر : أجاز العلماء أن يخرج المعتكف من مكان اعتكافه لحاجةٍ ضرورية، أي إيصال زوجته إلى البيت هذه حاجة ضرورية ، أيضاً يؤخذ منها أن الإنسان الأفضل دائماً يوصل أهله إلى المكان الذي هم بحاجة إلى الوصول إليه دون أن يتركهم وحدهم عرضةً لبعض الأخطار .

الشيء الثاني : ترجيل شعره ، وحلق رأسه ، وتقليم أظافره ، وتنظيف بدنه من الشعث والدرن ، ولبس أحسن الثياب ، والتطييب بالطيب ، هذا كله جائز في المعتكف.

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكُونُ مُعْتَكِفًا فِي الْمَسْجِدِ فَيُنَاوِلُنِي رَأْسَهُ مِنْ خَلَلِ الْحُجْرَةِ فَأَغْسِلُ رَأْسَهُ وَقَالَ مُسَدَّدٌ فَأُرَجِّلُهُ وَأَنَا حَائِضٌ))

[أبو داود عَنْ عَائِشَةَ]

أي كان يخرج ليغسل رأسه أو ينظف بدنه أو ليقضي حاجة .

الشيء الآخر الخروج للحاجة التي لابد منها ، الإنسان له حاجة ، الإنسان من حين لآخر يحتاج إلى أن يخفف مما تراكم في جسمه من فضلات ، هذه الحاجة معتبرة في الاعتكاف ، الإنسان قد يخرج من معتكفة إلى البيت ليقضي حاجةً ، وقد يحتاج إلى أن يأكل أو أن يشرب وهو معتكف طبعاً في الاعتكاف المستحب أو الاعتكاف الواجب ، وكل ما لابد منه ولا يمكن فعله في المسجد فله أن يخرج إليه ، وليس في هذا إفساد لاعتكافه ما لم يطل أو ما لم يشتغل بعمل يتنافى مع الاعتكاف ، ذهب واشترى بيتاً ، أو عقد صفقة ، أو عمل نزهة ، وهو معتكف بطل اعتكافه .

" وقد روى سعيد بن منصور قال علي بن أبي طالب : " إذا اعتكف الرجل فليشهد الجمعة ، وليحضر الجماعة ، وليعد المريض ، وليأتي أهله يأمرهم بحاجته وهو قائم ، وله أن يأكل ويشرب في المسجد وينام فيه مع المحافظة على نظافته وصيانته ، وله أن يعقد عقد نكاح في المسجد لأن هذا مما يرضي الله عز وجل " أي عمل صالح إذا كلفت به وأنت معتكف فهذا لا يتنافى مع اعتكافك ، لكن الذي يبطل الاعتكاف الخروج من

المسجد بغير حاجة عمداً وإن قل ، فإنه يفوت وهو ركن من أركانه.

من نذر أن يعتكف ثم شرع فيه وأفسده وجب عليه قضاؤه :

الآن من نذر أن يعتكف يوماً أو أياماً ثم شرع فيه وأفسده وجب عليه قضاؤه متى قدر عليه باتفاق الأئمة ، كل نفل شرعت فيه ثم أفسدته عليك أن تقضيه هذا حكم عام في العبادات ، ومن نذر أن يعتكف في المسجد الحرام أو في المسجد النبوي أو في المسجد الأقصى إن شاء الله تعالى وجب عليه الوفاء بنذره في المسجد الذي عينه ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ : سَمِعْتُ مِنْهُ حَدِيثًا فَأَعْجَبَنِي فَقُلْتُ لَهُ : أَنْتَ سَمِعْتَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : فَأَقُولُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ أَسْمَعْ؟ قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إِلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ مَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْمَسْجِدِ الأَقْصَى))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

هناك أناس يفهمون هذا الحديث فهماً خاطئاً ، أنه لا يجوز أن تسافر إلى أي مكان إلا إلى هذه الأمكنة ، لا ليس هذا هو المعنى ، أي لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، إذا شددت الرحال إلى مسجد ليس من هذه الثلاثة فلا شيء يستفاد منه لأن جميع المساجد على وجه الأرض في الثواب سواء عدا هذه المساجد ، رجل نذر أن يعتكف في مسجد في حلب ، لا تشد الرحال إليه لأن أي مسجد في دمشق أو في حلب سواء ، لكن إذا أردت أن تعتكف في مسجدٍ للثواب الجزيل فيه فليس هناك إلا هذه المساجد الثلاث ، أما إذا نذر الاعتكاف في غير هذه المساجد الثلاث فلا يجب عليه الاعتكاف في المسجد الذي عينه ، وعليه أن يعتكف في أي مسجد شاء ، النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

ومن نذر أن يعتكف في مسجد النبي جاز له أن يعتكف في المسجد الحرام لأنه أفضل منه ، هذا الأمر متعلق بالاعتكاف ، لكن أنهي الأمر بحديث عن رسول الله ﷺ :

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر، واعتكافه في مسجده هذا))

[الجامع الصغير عن ابن عباس]

* * *

علي بن الحسين :

والآن إلى قصة تابعي جليل من سلسلة التابعين الذين نحن نتحدث عنهم الحديث اليوم عن التابعي الجليل علي بن الحسين بن علي ابن عم رسول الله ﷺ.

ما كاد علي هذا يبلغ سن التميز حتى أقبل على طلب العلم بشغف وشوق ، وكانت مدرسته الأولى بيته أكرم به من بيت ، وكان معلمه الأول والده الحسين بن علي أعظم به من معلم ، أما المدرسة الثانية فمسجد رسول الله ﷺ ، أي المفروض بالإنسان أن يكون بيته أيضاً مدرسة ، إذا كان الأب من حين إلى آخر تحدث مع أولاده عن أمور الدين، وعن أمور القرآن ، وعن أحاديث النبي العدنان ، ووجههم توجيهاً صحيحاً في حياتهم وفي علاقاتهم وفي حلهم وفي ترحالهم ، فهذا مما يجعل من هذا الطفل الشاب يتزود بالعلم قبل أن يصل إلى أماكن التزود بالعلم.

وكان المسجد النبوي الشريف يموج بالبقية الباقية من صحابة النبي عليه الصلاة والسلام ، ويذخر بالطبقة الأولى من كبار التابعين ، وكان هؤلاء وهؤلاء يفتحون قلوبهم لهذه الأكمام المزهرة من أبناء الصحابة الكرام فيقرؤونهم كتاب الله عز وجل ، ويفقهونهم فيه، ويروون لهم حديث رسول الله ﷺ ، ويقفونهم على مراميه ، ويقصون عليهم سيرة النبي الأعظم ﷺ ، وينشدونهم شعر العرب ، ويبصرونهم بمواطن جماله ، ويملؤون قلوبهم الغضة بحب الله عز وجل وخشيته وتقواه ، فإذا هم علماء عاملون هداة مهديون .

لكن علي بن الحسين لم يتعلق قلبه بشيء كما تعلق قلبه بكتاب الله عز وجل ، فقد كان ربيع قلبه ، ولم تهتز مشاعره لأمر كما كانت تهتز لوعده ووعيده ، فإذا قرأ آيةً فيها ذكر الجنة طار فؤاده شوقاً إليها ، وإذا سمع آيةً فيها ذكر النار زفر زفرةً كأن لهيب جهنم في أحشائه ، وما إن اكتمل علي بن الحسين شباباً وعلماً حتى ظفر المجتمع المدني الأمثل بفتى من أعمق فتيان بني هاشم عبادةً وتقى ، وأعظمهم فضلاً وخلقاً ، وأكثرهم إحساناً وبراً ، وأوسعهم معرفةً وعلماً ، فقد بلغ من عبادته وتقواه أنه كانت تأخذه رعدةٌ بين وضوئه وصلاته ، يرتعد فينتفض جسده نفضاً ، فلما كلم في ذلك قال : ويحكم كأنكم لا تدرون لمن أقوم ولا تعلمون من أناجي !! فكانت هذه الرعدة التي تأخذه بين الوضوء والصلاة دليل خشوعه اللامتناهي ، وقد بلغ من إحسان الفتى الهاشمي لعبادته وإتقانه لشعائره أن دعاه الناس زين العابدين ، هذا اللقب الذي لقب ، علي بن الحسين زين العابدين ، حتى نسي قومه اسمه أو كادوا وآثروا لقبه هذا على اسمه ، وقد بلغ من إطالته لسجوده واستغراقه فيه أن ناداه أهل المدينة بالسّجّاد ، أي كثير السجود ، كان إذا سجد أطال السجود ، وقد بلغ من صفاء نفسه ونقاء قلبه أن نعتوه بالذكي ، وكان زين العابدين رضوان الله عليه يدرك أن مخ العبادة في الدعاء ، وكان يطيب له الدعاء أكثر ما يطيب وهو متعلق بأستار الكعبة ، فكم التزم البيت العتيق وجعل يقول : " ربي لقد أذقتني من رحمتك ما أذقتني وأوليتني من إنعامك ما أوليتني فصرت أدعوك آمناً من غير وجل ، وأسألك مستأنساً من غير خوف ، ربي إني أتوسل إليك توسل من اشتدت فاقته إلى رحمتك ، وضعفت قوته عن أداء حقوقه ، فاقبل مني دعاء الغريق الغريب الذي لا يجد لإنقاذه إلا أنت يا أكرم الأكرمين ".

وقع تحت يدي كتيب صغير عن أدعية هذا التابعي الجليل زين العابدين ، فعلاً فيه شيء يأخذ بالألباب.

موقف لزين العابدين يأخذ بالألباب :

لقد رآه طاوس بن كيسان ذات مرة يقف في ظلال البيت العتيق وهو يتململ تململ السليم ، ويبكي بكاء السقيم ، ويدعو دعاء المضطر ، فوقف ينتظره حتى إذا كف عن بكائه وفزع من دعائه تقدم نحوه وقال له : يا بن رسول الله رأيتك على حالتك ولك فضائل ثلاث أرجو أن تؤمن من الخوف ، أنت الذي تخاف ، فقال زين العابدين : وما هن يا طاوس؟ فقال " إحداهن أنك ابن رسول الله ﷺ أنت ابنه من نسل فاطمة ، والثانية: شفاعة جدك لك ،

والثالثة رحمة الله ، فقال له زين العابدين : يا طاوس إن انتسابي إلى رسول الله ﷺ لا يؤمنني بعد أن سمعت قول الله عز وجل :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾

[سورة المؤمنون: 101]

وأما شفاعة جدي لي فإنه الله علت كلمته يقول :

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾

[سورة الأنبياء: 28]

وأما رحمة الله تعالى فهو يقول :

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 56]

مواقف مشرفة لزين العابدين :

ولقد أفاضت التقوى على زين العابدين ما شاء الله أن تفيض من شمائل ، ومن نبل ، ومن فضل ، ومن حلم ، حتى ازدانت كتب السير بروائع أخباره ، وزهت صفحاتها بنبيل مواقفه .

من ذاك ما رواه الحسن بن الحسن ، قال : وقعت بيني و بين ابن عمي زين العابدين جفوة فذهبت إليه و كان مع أصحابه في المسجد ، فما تركت شيئاً إلا قلته له و هو ساكت لا يتكلم ، ثم انصرفت فلما كان الليل إذا طارق على الباب يقرعه فقمت إليه لأرى من هو فإذا زين العابدين ، فما شككت أنه جاء يرد إليّ الأذى و لكنه قال : يا أخي إن كنت صادقاً فيما قلت لي غفر الله لي ، و إن كنت غير صادق فغفر الله لك ، هكذا كان هؤلاء التابعون الأجلاء ، أخوك تكلم معك كلمة قاسية ، اتهمك بتهمة ، إن كنت صادقاً فيما تقول غفر الله لي و إن كنت غير ذلك غفر الله لك و انتهى الأمر ، ثم ألقى السلام عليّ و مضى فلحقت به ، و قلت له : لا عدت إلى أمر تكرهه ، فرق لي و قال : و أنت في حل مما قلت لي ، و روى أحد أبناء المدينة قال : كان زين العابدين خارجاً من المسجد فتبعته و جعلت ألوح له بالشتم و لست أدري سبباً لذلك ، فهجم عليّ الناس يريدون أخذي و لو أخذوني لم يفلتوني حتى أحطم ، فالتفت إلى الناس و قال : كفوا عن الرجل فكفوا عني ، و لما رأى ما أصابني من الذعر أقبل عليّ بوجهه الطلق و جعل يؤمنني و يهدئ من روعي ثم قال لي : لقد سببتنا بما علمت

و ما ستر عنك من أمرنا أكبر ، ثم قال لي : ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحييت منه و لم أقل شيئاً ، فلما رأى حيائي ألقى علي كساءً كان عليه و أمر لي بألف درهم فجعلت أقول : كلما أقوله بعد ذلك أشهد أنك من أبناء رسول الله ﷺ.

وروى أحد مواليه قال : كنت غلاماً لعلي بن الحسين فأرسلني في حاجة فأبطأت عليه فخفقني بالسوط ، أي على كتفي ، فقلت له : الله الله يا علي بن الحسين تستخدمني في حاجةٍ فأقضيها لك ثم تضربني ، فبكى وقال : اذهب إلى مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام وصلّ ركعتين ثم قل في السجود : اللهم اغفر لعلي بن الحسين فإذا ذهبت وفعلت فأنت حر لوجه الله ، استغفر لي في المسجد وأنت حر ، فذهبت وصليت ودعوت ولم أعد إلى داره إلا وأنا حر .

كان هذا التابعي الجليل إذا جنّ الليل يحمل أكياس الدقيق على ظهره الناحل ويخرج بها في عتمات الليل والناس نيام ، وكان يجوب بها أحياء المدينة ليتصدق على ذوي الحاجات ممن لا يسألون الناس إلحافاً فكانت جماعات كثيرة من أهل المدينة تعيش وهي لا تدري من أين يأتيها رزقها رغداً ، فلما مات علي بن الحسين فقد هؤلاء ما كانوا يأتيهم فعرفوا مصدره ، ولما وضع زين العابدين على المغتسل نظر غاسلوه فوجدوا على ظهره آثار سواد فقالوا : ما هذا ؟ فقيل لهم : إنه من آثار حمل الدقيق ، مئة بيت في المدينة فقدت عائلها بفقده .

زين العابدين بن علي كالبدر المنير :

وكان يومئذٍ ولياً للعهد فأقبل يريد الطواف ويبتغي استلام الحجر الأسود ، هذه كلمة الاستلام خاصة بالحجر الأسود لا تقول : استلمت من كذا مبلغ كذا قل : تسلمت منه ، أما الاستلام فهذه كلمة خاصة بالحجر الأسود ، استلم الحجر أي قبّله أو أشار إليه ، أما قبض المال فاسمه تسلم ، تسلمت من فلان كذا وكذا ولا تقل استلمت ، فأقبل هشام بن عبد الملك يريد الطواف ويبتغي استلام الحجر الأسود ، وأخذ الجند الحافون به ينبهون الناس إليه ويوسعون الطريق له ، ولكن أحداً من الناس لم يلتفت إليه ولم يوسع لهم ، فالبيت بيت الله والناس جميعاً عبيداً له ، وفيما هم كذلك سمعت أصوات التهليل والتكبير آتيةً من بعيد فاشرأبت نحوها الأعناق ، فإذا رجل في كوكبةٍ من الناس قسيم وسيم ، ضامر الجسم ، وضيء الوجه ، عليه سكينة ووقار ، قد مشى في إزار ورداء وبدا بين عينيه أثر السجود فجعلت كتل الناس تنفرج له ، وتغدو صفوفاً صفوفاً وهي تستقبله بنظرات الشوق والحب حتى بلغ الحجر الأسود واستلمه ، وهنا التفت أحد رجال الحاشية إلى هشام بن عبد الملك وقال له : من هذا الذي

أكرمه الناس كل هذا الإكرام وأجلوه كل هذا الإجلال ؟ فقال هشام : لا أعرفه ، وكان الفرزدق حاضراً فقال : إن كان هشام لا يعرفه أنا أعرفه والدنيا كلها تعرفه ، هذا علي بن الحسين رضي الله عنه وعن أبيه وعن جده ، ثم أنشد :

هذا الذي تعرف البطحاء وضأته و البيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهـم هذا التقي النقي الطاهر الـعلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهلـه بجده أنبياء الله قد ختمـوا

فليس قولك من هذا بضائـره العرب تعرف من أنكرت والعجم

كلتا يديه غياث عمّ نفعهمـا يستوكفان ولا يعروهما عـدم

سهل الخليقة لا تخشى بوادره يزينه اثنان حسن الخلق والشيم

ما قال لا قط إلا في تـشهده لولا التشهد كانت لاؤه نعـم

عمّ البرية بالإحسان فانقـع عنها الغياهب والإملاق والعدم

إذا رأته قريش قال قائــلها إلى مكارم هذا ينتهي الـكرم

يغضي حياءً ويغضى من مهابته فلا يكلم إلا حين يبتــم

بكفه خيزران ريحه عبـق من كف أروع في عرنينه شمم

مشتقة من رسول الله نبعتـه طابت مغارسه والخيم والشيم

***

هذا هو التابعي الجليل زين العابدين الذي لما قدم إلى بيت الله الحرام انفرجت له الصفوف ، واصطفت له الأبدان، وأفسح له المكان ، وكان بين من معه كالبدر المنير.

أي باب البطولة مفتوح إلى يوم القيامة ، قال تعالى :

﴿ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾

[سورة المطففين]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 7 : أحكام الصيام1 – الحامل والمرضعة....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

أداء الأمانة :

أيها الأخوة الكرام : لا زلنا في الحديث النبوي الشريف وها نحن أولاء ننتقل إلى باب آخر من أبواب رياض الصالحين إنه باب : "الأمر بأداء الأمانة" يقول الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾

[سورة النساء: 58]

حبذا لو تتبع المؤمن في القرآن الكريم مثل هذه الآيات :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾

[سورة النحل: 90]

فخالق الكون يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها بالعدل والإحسان ، أنت مأمور بالعدل ، أنت مأمور بالإحسان، والآية الثانية :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾

[سورة الأحزاب: 72]

تعلمون أن كلمة الأمانة لها مفهومات عديدة قد يضيق هذا المفهوم إلى ما يظنه الناس أن تعطي إنساناً شيئاً ثميناً ثم تسترده منه بعد أيام ، فهذه أمانة ، أو أن يوضع عندك مبلغ من المال وتؤديه بالتمام والكمال بعد حين فهذه أمانة ، ولكن هذا المفهوم من أضيق مفهومات الأمانة فهو يتسع ويتسع إلى أن يشمل التكليف ، نفسك أيها

الإنسان أمانة في عنقك، فقد أفلحت إذا زكيتها ، وقد خبت وخسرت إذا دسيتها ، هل عرفتها بالله عز وجل ؟ هل حملتها على طاعته ؟ هل حملتها على العمل الصالح ؟ هل بينت لها حقيقة الدنيا ؟ هل عرفتها بالآخرة ؟ نفسك أمانة بين جنبيك ، لذلك ربنا عزوجل قال :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ﴾

[سورة الأحزاب: 72]

فالأمانة بمفهومها الواسع أمانة التكليف أن تعرف نفسك بالله وتحملها على طاعته، وأن تعرفها بحقيقة الدنيا والآخرة من أجل أن تفلح ، وتنجح ، وتحرز المهمة التي من أجلها خلقت ، هذه أمانة التكليف وهي أوسع أنواع الأمانة .

أنواع الأمانة :

1 . أمانة التبليغ :

لذلك :

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[سورة البقرة: 57]

فإذا ما عرفت نفسك بالله عزوجل ظلمتها أكبر ظلم لأنك حرمتها الدار الآخرة ، وما فيها من نعيم مقيم ، ومتعتها بالدنيا الفانية ، فإذا جاء الموت انقضت المتعة وبقي العذاب، فهذا المفهوم يضيق حتى يشمل أمانة التبليغ ، وهي الأمانة العظمى التي حملها الأنبياء ، فإذا زرت قبر النبي عليه الصلاة والسلام تقول له كما في الدعاء المأثور : "أشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغم ، وجاهدت في الله حق الجهاد " .

2 . أمانة الأداء :

تضيق الأمانة إلى أمانة الأداء وهي الأمانة التي حملها العلماء " لتبيننه للناس ولا تكتمونه " تبليغ الناس الحق ، تبيين الحق كما هو من دون أن تخشى أحداً .

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ﴾

[سورة الأحزاب:39]

لأنك لو خشيت غير الله لسكت عن الحق ولتكلمت بالباطل ، فإذا سكت عن الحق وتكلمت بالباطل فماذا بقي من تبليغ أمانة الرسالة أو أمانة الأداء ؟ أمانة التكليف .

3 . أمانة التكليف :

أمانة التكليف ، يحملها كل إنسان على وجه الأرض ، أمانة التبليغ يحملها الأنبياء " إن عرضنا الرسالة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها " أمانة التبليغ العظمى حملها الأنبياء ، أمانة الأداء حملها العلماء .

4 . أمانة الولاية :

أمانة الولاية : سيدنا عمر بن عبد العزيز عندما دخلت عليه زوجته فاطمة رأته يبكي قالت له : ما يبكيك ؟ قال: إني فكرت في الفقير والجائع واليتيم والأرملة والشيخ المقهور وابن السبيل وهؤلاء جميعاً فعلمت أن الله سيحاسبني عنهم جميعاً .

5 . أمانة التولية :

هناك أمانة التولية ، عندما وكل سيدنا عمر والياً وقال له : ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب؟ فقال : أقطع يده ، قال : إذاً فإن جاءني من رعيتك من هو جائع أو عارٍ أو عاطل فسأقطع يدك ! إن الله قد استخلفنا عن خلقه لنسد جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفر لهم حرفتهم ، فإذا وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها ، يا هذا إن هذه الأيدي خلقت لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية .

6 . أمانة الواجب :

يضيق هذا المفهوم من أمانة التكليف ، إلى أمانة التبليغ ، إلى أمانة الولاية ، إلى أمانة التولية ، إلى أمانة أداء الواجب ، كل واحد منا في عنقه أمانة واجبه : أنت طبيب فهذا المريض أمانة في عنقك ، هل حرصت على شفائه من مرضه أم على ابتزاز ماله ؟ هذا الموكل أمانة في عنق المحامي ، هذا الطالب أمانة في عنق أستاذه، هذا الإنسان أمانة في عنق صاحب المتجر ، هل أعطاه سلعة جيدة ؟ هل غشه أم كذب عليه..؟ فهذا أمانة أيضاً ، الطفل أمانة في عنق والديه ، الأم أمانة في عنق الأب والابن ، هل عالجها علاجاً صحيحاً ؟ هل اختار لها طبيباً جيداً وسهر على راحتها ؟ فمفهوم الأمانة واسع جداً هذا المفهوم يكاد يستغرق كل شيء .

7 . أمانة المجالس :

أمانة المجالس هذه أمانة ، كما قيل : المجالس بالأمانة ، النبي الكريم علمنا أنك إذا حدثك إنسان وسمع وقع خطوات فالتفت فهذ الحديث أصبح أمانة ، معنى ذلك أنه حريص على أن يبقى بينك وبينه سراً ، الأم والأب أولادهم أمانة في عنقهم ، الجار أمانة في عنق جاره ، فالنبي عليه الصلاة والسلام فيما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه :

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وفي رواية أخرى :

((ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ ، مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[أحمد عن أنس بن مالك]

الإيمان ليس بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، فالآية هنا بمعنى العلامة ، فعلامة المنافق ثلاث ، العلامة الدليل ، ما دليل أن عنقود العنب قد نضج؟ كان أخضر وأصبح أصفر ، عرف من لونه، ما دليل أن هذه الفاكهة قد نضجت ؟ لونها أو طعمها ، هناك علامات على كل شيء ، ما علامة المنافق؟ أنه إذا حدث كذب ، ما علامة المؤمن ؟ كما قال عليه الصلاة والسلام :

((من عامل الناس فلم يظلمهم.....))

[مسند الشهاب عن علي بن أبي طالب]

دققوا في هذا الحديث :

((من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، و وعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته ، وحرمت غيبته))

[مسند الشهاب عن علي بن أبي طالب]

فالحديث يقول : إذا حدث كذب ، أي يطبع المؤمن على الخلال كلها ، إلا الكذب والخيانة ، فإن الكذب والخيانة يتناقضان مع الإيمان ، فالمؤمن قد تذل قدمه ، قد تغلبه شهوة أحياناً ، ولكنه لا يكذب ، فإذا كذب فليس بمؤمن، وإذا وعد أخلف ، وعد الحر دين ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أحمدعن أنس بن مالك]

الدين ليس صياماً و صلاة فحسب بل معاملة ووفاء أيضاً :

ما الذي أثقل الكلمة ؟ مضمونها وسحرها وجمالها وقدسيتها وقوتها ، هناك من يعد ويخلف ، يقولون : كلام فارغ، لكن إذا وجدت المروءة بين الناس فالكلام حقيقة وفعل والوعد دين :

((...... إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

قد يؤتمن الإنسان على المال فيخون الأمانة ، قد يؤتمن على تربية الأولاد فلم يعلمهم العلم الصحيح ، قد يؤتمن على مصلحة المسلمين فيطعمهم طعاماً فاسداً ليحقق الربح ، قد يؤتمن على أخلاق المسلمين فيكتب لهم قصة منحطة ، فالكاتب أخلاق الشباب أمانة في عنقه ، فإذا كتب قصة ليست كما ينبغي من أجل أن تباع كميات كبيرة فهذا الكاتب خان الأمانة ، وإذا علمت الطلاب علماً غير صحيح فهذا المعلم خان الأمانة ، وإذا وصفت لمريضك دواء يسكنه بسرعة ولكنه يؤذيه فهذا الطبيب خان الأمانة ، وإذا أوهمت الموكل أنك ستربح الدعوى وفي الحقيقة هناك اجتهاد قطعي يمنع من كسب هذه الدعوى لكنك طمعت بماله وستبلغه النتيجة بعد لحظات فهذا المحامي خان الأمانة ، إذا أخفيت عيب هذه البضاعة فقد خنت الأمانة ، فالمنافق إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان ، هذا الحديث متفق عليه.

((...وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ....))

فالدين ليس بالصيام والصلاة فحسب بل بالمعاملة ، والصدق ، والوفاء ، والإخلاص ، وما تخلف المسلمون إلا عندما فهموا أن الدين صوم وصلاة وليس غير. وما تقدم الأجداد والسلف الصالح إلا حينما فهموا أن الدين أخلاق ، إن شاء الله سنبقى أسابيع عدة مع هذا الباب باب أداء الأمانة ، فهو غني جداً بالأحاديث الشريفة ، نكتفي في هذا الدرس بهذا القدر من شرح حديث الأمانة ، وننتقل لبعض أحكام الصيام بمناسبة قرب هذا الشهر الكريم.

* * *

شروط وجوب صيام رمضان :

أولاً : الإسلام ، فليس على غير المسلمين صيام ، فهنا ينبع حكم ، لو زارك إنسان غير مسلم وقدمت له طعاماً جافاً فلا مانع لأنه غير مكلف بالصيام ، وإذا امتنع عن الضيافة فهذا أفضل مراعاة لك ، أما إذا هو جاهل بالدين وجاء من بلد آخر ضيف غير مكلف بالصيام ، لأنه شرط للخطاب بفروع الشريعة .

الشرط الثاني العقل شرط لوجوب الصيام ، فالمجنون أخذ الله منه ما أوهب فأسقط عليه ما أوجب ، والبلوغ بالاحتلام عند الفتى والفتاة ، أو الحيض بالنسبة للفتاة ، وإذا لم يكن بلوغاً ولا حيضاً إذا أتمّ الفتى أو الفتاة الخامسة عشرة وجب عليهما الصيام ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((بَاب لا يُرْجَمُ الْمَجْنُونُ وَالْمَجْنُونَةُ ، وَقَالَ عَلِيٌّ لِعُمَرَ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْقَلَمَ رُفِعَ عَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ ، وَعَنِ الصَّبِيِّ حَتَّى يُدْرِكَ ، وَعَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ))

[البخاري عن علي]

من شروط وجوب صوم رمضان العلم بالوجود لمن أسلم بدار الحرب ، في أثناء حرب لنشر هذا الدين رجل محارب كافر أسلم في أثناء الحرب ، لهذا لم يعلم أن في الإسلام صياماً وهو في رمضان فإذا لم يعلم فلا شيء عليه لمرة واحدة لمن أسلم بدار الحرب ، أما لمن هو مقيم في دار الإسلام فالجهل ليس عذراً ولا يعفيه إطلاقاً ، قاعدة : " لا جهل في دار الإسلام " لأن هذا الطفل نشأ في دار الإسلام ، حضر مع والده خطباً كثيرة ، ومجالس علم ، وسمع أنهم أثبتوا رمضان ، فمستحيل إنسان يعيش ببلاد المسلمين ويجهل وجود شهر للصوم، فلا عذر للمسلم بدار الإسلام في الجهل .

موضوع العقل والبلوغ : مستحيل أن تعفي ابنك من الصيام إلى أن يبلغ الخامسة عشرة ، لابد من أن تأمره بالصيام في سن مبكرة مهما عانى من الجوع أو التعب حتى يصل إلى سن الفرض وهو قد ألف هذه العبادة . وقد قاس العلماء أن الطفل إذا بلغ عشر سنين ولم يصم يضرب قياساً على الصلاة ، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام :

((مُرُوا صِبْيَانَكُمْ بِالصَّلاةِ إِذَا بَلَغُوا سَبْعًا ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا إِذَا بَلَغُوا عَشْرًا ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أحمد عن عمرو بن شعيب]

فالعلماء قاسوا على ذلك الصيام ، فمن كان له ابن في سن العاشرة ولم يصم عليه أن يعنفه ، ويجوز له أن يضربه ، حتى يعتاد الأمر عند بلوغه أن يصوم ، لكن عليه أن يضربه ضرباً غير مبرح .

شروط وجوب أدائه :

الصحة من المرض لقول الله عز وجل :

﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

[سورة البقرة : 184]

فيصح للمريض ترك الصيام في رمضان لمرضه إلى أيام أخر ، فلو المريض كلف نفسه الصوم هل يصح صومه ؟ نعم ، ومن شروط صحة أداء صيام رمضان خلو الصائم أو الصائمة عن حيض ونفاس لأن الحائض والنفساء ليستا أهلاً للصوم ، فلا يجب الأداء على المريض الذي يضره الصوم ، ولا على الحائض و النفساء ، ولا على المسافر ، وإن كان الأفضل للمسافر والمريض أن يصوم إن كان الصوم ليس فيه مشقة عليه.

شروط صحة أدائه :

النية في وقتها لكل يوم كما تحدثنا من قبل عن النية ، وعدم الصيام في الحيض والنفاس ، والمراد ابتداء عددهما من صلاة الفجر ، لو امرأة شعرت نفسها أنها حائض بعد الفجر تفطر ، أما أن تتوقع أنها حائض فتفطر قبل أن تتأكد من حيضها فهذا لا يجوز أبداً ، أو ولدت بعد الظهر عندها تفطر ، ولا يشترط لصحة الصوم الخلو من الجنابة ، الجنابة لا تفسد الصوم ، ولكن ينبغي أن يغتسل الجنب في أسرع وقت لأداء الصلاة ، فالجنابة تتناقض مع الصلاة ، لكن مع الصوم يصح للجنب صومه ، لو إنسان نائم في أثناء النهار فاحتلم صيامه

صحيح ، ولكن يغتسل من أجل إزالة الجنابة .

الأعذار الموضحة للفطر :

1 . المرض :

الآن الأعذار الموضحة للفطر ، فالعذر الأول المرض ، هناك تفصيلات دقيقة في المرض لقول الله تعالى :

﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

[سورة البقرة : 184]

خفف الله عن المريض بإباحة الفطر أيام المرض مع قضائها في أيام الصحة ، فلو كلف المريض نفسه وصام صح صومه كما أسلفنا من قبل ، ما هو المرض الذي يصح لصاحبه أن يفطر به ؟ المرض الذي يضر معه الصوم ، إنسان يده مكسورة وجبرها ليس لها علاقة بالجهاز الهضمي ، فالمرض الذي يضر معه الصوم ، أو يزداد بالصوم ، أو يتأخر الشفاء بالصوم ، أو يحصل بالصوم مشقة شديدة لا تحتمل ، عادة هذا هو المرض الذي يجوز معه أن تفطر ، وإذا غلب على الظن الصحيح ، الآن متى يفطر المؤمن بحجة المرض ؟ قال: إذا غلب على ظنه أي بالمئة تسعون ، فلدينا كما تعلمون شك ووهم وظن ، فلو أنك تؤمن بوقوع هذا الشيء بالمئة ثلاثون هذا اسمه شك ووهم ، بالمئة سبعون اسمه ظن ، أما أغلب الظن بالمئة تسعون ، فإذا غلب على ظن الصحيح أنه إذا صام سيحصل له مرض شديد ، كيف يغلب على ظنه ؟ قال : بتجربة سابقة ، مريض مصاب بالقرحة ، وصام بالعام الماضي والقرحة تفاقمت ، وتألم ألماً شديداً هنا غلب على ظنه بتجربة سابقة ، أو بإخبار طبيب مسلم مؤمن صادق تقي حاذق ، متى يجوز للمريض أن يفطر ؟ إذا غلب على ظنه أن هذا المرض يفسده الصوم ، يؤخر شفاءه أو يزيده أو يضره ، وعليه القضاء ، أما الطبيب غير المسلم فيقول لك : عليك الإفطار ، أو طبيب غير حاذق ، فالطبيب المسلم إذا أخبرك بأن هذا المرض يضره الصوم يجب أن تفطر ، أما ظن الصحيح فأساسه ضعف الإرادة وقلة العزيمة والوهم لأن جسمه لا يحتمل الصيام ، وأنه سيصاب بمرض بسبب الصوم فلا عبرة لظنه ، أنا شاعر أن جسمي لا يتحمل ، هذا أساسه التفلت من الفريضة وقلة الورع.

أحياناً تقول لك المرأة : انزعجت ومللت من الحجاب ، لكن هذا لا يكفي لأن تكشف نفسها ، فضعاف الإرادة والعزيمة يتعلقون بأتفه الأسباب حتى يخرجون من هذه الفريضة ، لكن الجواب الصحيح أن هذا الصحيح الذي لم يغلب على ظنه أن هذا الصوم يؤذيه ، ولم يبلغه طبيب مسلم حاذق وتقي يصوم ، فإذا شعر بعد ساعات من الصيام أنه قد انهارت قوته فعلاً عندئذ وجدت التجربة فيفطر.

قد يصيب بعض الأفراد أمراض مزمنة أي أمراض لا شفاء لها حتى الموت فكل الأمراض المزمنة التي لا يرجى شفاؤها أو التي يتعذر معها الصوم هؤلاء يفطرون ، ويدفعون فدية عن كل يوم نصف صاع من القمح ، أي ثلاثة آلاف وثمانية جرامات عند علماء الحنفية ، أي أربعة كيلو من القمح كل يوم ، هذا نصف صاع ، فعليه دفع ثمن كيلين من القمح ، هذه فدية من يفطر برمضان بسبب مرض مزمن ، ويجوز أن يستبدل القمح بالثمن في العملة الدارجة ، لكن القمح مدعوم من قبل الدولة يا ترى بسعر الحر أم الحقيقي ؟ أعتقد السعر الحر هذا غير حقيقي ، كما يجوز دفعها لفقير واحد ، ومن لم يقدر على الفدية لفقره يستغفر الله تعالى فقط ، إذاً عليه أداء هذه الأيام التي أفطرها ، وما دفعه من فدية يعد صدقة ليس غير ، إذا استمر المرض حتى الموت فالفدية فدية ، أما إذا الإنسان مضى عليه فترة شفاه الله عز وجل فهذه الفدية تصبح صدقة ، وعليه أن يقضي ما أفطر من رمضان .

2 . الإكراه الملجأ بقتل أو قطع عضو أو ضرب مبرح :

متى يفطر الإنسان؟ قال : الإكراه الملجأ بقتل ، أو قطع عضو ، أو ضرب مبرح ، إذا الإنسان كان بظرف فإذا قتلوه أو قطعوا أحد أعضائه هذا شيء مستحيل أساساً لكن من باب الافتراض ، أو عذبوه تعذيباً شديداً له أن يفطر ، فإذا صام عاتبوه بذلك ، وأخذوا عنه فكرة معينة ، يجب أن يتواجد الخوف من الموت ، أو فقد أحد الأعضاء ، أو التعذيب الشديد ، في مثل هذه الحالة يباح للمسلم أن يفطر.

3 . الشيخوخة :

الشيخوخة : وهي العجز الذي يصيب الرجل والمرأة بسبب كبر السن فيعجز عن الصوم إلا بمشقة ، يجوز له الفطر على أن يدفع عن كل يوم يفطره فدية بثمن كيليّن من القمح بالسعر الحر تعادل نصف صاع من القمح ، ولكن بشرط دوام العجز إلى الموت لقوله تعالى :

﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

[سورة البقرة : 184]

4 . الحمل و الإرضاع :

أما الحمل والإرضاع فالمرأة إذا حملت أو أرضعت بحاجة ماسة إلى التغذية لتقدم الغذاء لجنينها أو رضيعها ، لذلك أباحت الشريعة السمحاء للحامل والمرضع إذا خافتا ، فهناك امرأة حامل بنيتها قوية جداً ، وتأكل على السحور كمية جيدة من الطعام ، وعدد ساعات الصوم قليلة في الشتاء فلا حاجة لفطورها ، ولكن يوجد امرأة طبيعتها ضعيفة ، ينقصها الكلس ، أو فقر الدم و هي حامل ، فمثل هذه المرأة الحامل أو المرضع إذا خافت على جنينها أو رضيعها لها أن تفطر ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَضَعَ عَنِ الْمُسَافِرِ الصَّوْمَ وَشَطْرَ الصَّلاةِ ، وَعَنِ الْحَامِلِ أَوِ الْمُرْضِعِ الصَّوْمَ أَوِ الصِّيَامَ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

هذا الحديث رواه الخمسة.

على هذه المرأة التي أفطرت لعذر ما القضاء عند القدرة بدون فدية .

5 . الحائض و النفساء :

والحائض والنفساء لا يصح الصوم منهما بل يجب عليهما الفطر والقضاء بعد انتهاء الحيض والنفاس ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت :

((كَانَ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ ، وَلا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلاةِ))

[مسلم فعن عائشة رضي الله عنها]

6 . الاستحاضة :

أما المستحاضة : فالحيض غير الإستحاضة ، الإستحاضة تعني رؤية دم فاتح اللون لوجود عرق منقطع كما قال علماء الطب ، هذه مستحاضة تتوضأ لكل صلاة ، وعليها أن تصوم رمضان ، وفي درس آخر إن شاء الله تعالى نتحدث عن السفر وما يتبعه من أحكام تفصيلية .

* * *

عمر بن عبد العزيز :

والآن إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه ، والي خراسان استأذنه أن يسمح له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلاً له في رسالته :" يا أمير المؤمنين إنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط " فكان رد التقي الحازم : " كذبت بل يصلحهم العدل والحق ، فابسط ذلك فيهم واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين ، يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها " من قال لك : إنه لا يصلحهم إلا السيف والسوط ؟ قال له : كذبت بل يصلحهم العدل والحق ، لأن بنية الإنسان واحدة في كل مكان وزمان ، كانت لهذا الخليفة عزيمة تقطع الجبال ، قال مرة : " والله لو لم ينهض الحق ويدحض الباطل إلا بتقطيع أوصالي وأعضائي لأمضيت ذلك وأنا سعيد " فالمؤمن كلما ارتقى إيمانه يتمنى أن ينتشر الحق بين الناس ، لذلك تراه حريصاً حرصاً لا حدود له على نشر الحق فهذا الخليفة يقول : " لو لم ينهض الحق ولم يدحض الباطل إلا بتقطيع أوصالي وأعضائي لأمضيت ذلك وأنا سعيد ، و والله لو لبثت فيكم خمسين عاماً ما أقمت إلا ما أريد من العدل " أي ثابت على مبدئه لا يتزحزح.

دعنا نفرض أنك أب ، إذا كنت أباً قوياً قي البنية والمال والمكانة الاجتماعية من كل النواحي ، وعندك ابن في البيت ، وأصدرت تعليمات لهذا الابن كي ينفذها ، هل تعلم كيف يستطيع أن ينفذها ؟ هناك طريقان : استعمال القوة أو استعمال القدوة ، فاستعمال القوة سهل لو خالفها لقصمت ظهره و أنزلت به العقاب الأليم ، لكنك إذا كنت له قدوة نفذ هذه التعليمات عن طيب خاطر وعن تقليد لك ، لذلك سيدنا عمر بن عبد العزيز أراد أن يحمل الناس على الطاعة وعلى الاستقامة ليس عن طريق القوة بل عن طريق القدوة .

النبي قدوة لنا في كل أعماله و تصرفاته :

لذلك النبي الكريم جعله الله قدوة ، فلو لم يكن لنا قدوة في كل المجالات لما جعله الله قدوة ، الفقير يقول لك : الفقر لا يحتمل ، من قال لك إن النبي كان غنياً ؟ دخل إلى بيته مرة فقال : ماذا عندكم من طعام؟ لم يكن في البيت شيء من الطعام قال : فإني صائم ، أذاقه الله الفقر فكان متجملاً وصابراً وراضياً ، أذاقه الله الغنى قال له: لمن هذا الوادي يا محمد ؟ قال : هو لك ، قال : أتهزأ بي ؟ قال : لا والله هو لك ، قال : أشهد أنك رسول الله

تعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، أذاقه الله الفقر فصبر ، أذاقه اله الغنى فأعطى وشكر ، أذاقه الله الضعف في الطائف ، فإذا كان لحياة النبي خط بياني فالخط قد هبط إلى النهاية الصغرى ، إلى الحضيض وهو في الطائف ، كذبوه ، عارضوه ، استهزؤوا به ، سخروا منه ، أغروا به سفهاءهم ، ألجؤوه إلى حائط ، ماذا قال ؟ قال : " إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى ، لكن عافيتك أوسع لي ، أذاقه الله الهوان فأعلن شكواه وتضرعه إلى الله عز وجل ، وفي فتح مكة أذاقه الله القوة فدخلها مطأطئ الرأس ، دخول المتأدبين الشاكرين ، ولم يدخلها دخول المتجبرين المتكبرين ، ذاق الفقر ، وذاق الغنى ، وذاق الضعف ، وذاق القوة ، وأذاقه الله موت الولد ما ولول و ضرب نفسه قال :

((تَدْمَعُ الْعَيْنُ ، وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، وَلا نَقُولُ مَا يُسْخِطُ الرَّبَّ ، لَوْلا أَنَّهُ وَعْدٌ صَادِقٌ ، وَمَوْعُودٌ جَامِعٌ ، وَأَنَّ الآخِرَ تَابِعٌ للأَوَّلِ لَوَجَدْنَا عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ أَفْضَلَ مِمَّا وَجَدْنَا وَإِنَّا بِكَ لَمَحْزُونُونَ))

[ابن ماجة عن أسماء بنت يزيد]

أكمل موقف ، وأذاقه موت الزوجة ، وأذاقه ترك الوطن ، جاء صحابي اسمه أصيل وصف له مكة ، وكان قد هاجر منها في أيام الربيع فدمعت عيناه ﷺ وقال : " لا تشوقنا يا أصيل" فترك الوطن صعب ، اللهم آمنا في أوطاننا ، أذاقه الله موت زوجته السيدة خديجة التي كانت تكبره بخمسة عشر عاماً وبقي معها ربع قرن ، نحن إذا كبرها بسنتين ، لا يتحمل يقول : كبرت وعجزت علي ، هذه شريكة حياتك ، أين الوفاء والمحبة ؟ كل الحياة سرور ؟ الحياة مكارم أخلاقية ، فلما توفيت وكان في مكة المكرمة فاتحاً دعي لبيوت أصحابه فقال : " انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة وفاءً لها " ، والسيدة عائشة شابة صغيرة جميلة من أجمل الزوجات قالت له : " ألم يبدلك الله خيراً منها؟ قال : لا والله ، لا والله ، لا والله " هذه كلها دروس لك .

حمل الناس على طاعة الله عن طريق القدوة لا القوة :

سيدنا عمر بن عبد العزيز أراد أن يحمل الناس على طاعة الله لا عن طريق القوة بل عن طريق القدوة ، وأنت كمعلم أو أب أو مدير دائرة عندك موظفون تسلك معهم طريقين استخدام القوة في حملهم على طاعتك ، أو استخدام القدوة ، كن قدوة لهم هي أفضل طريق في التعامل مع الناس ، النبي الكريم كان في بيته زوج كامل ، سألته مرة السيدة عائشة : " كيف حبك لي ؟ قال : كعقدة الحبل ، وتسأله من حين لآخر : كيف العقدة يا رسول الله ؟ يقول : على حالها " وذات مرة غضبت السيدة عائشة غضباً شديداً فقال لأولاده : " غضبت أمكم –

غضبت أمكم " فإذا كانت زوجتك غضبانة لا تثيرها ، وتزيد عليها بل اخرج من البيت كله حتى لا تخلق المشاكل ، هكذا علمنا الرسول صلى الله عليه و سلم ، إذا غضبت فاسكت ، فالنبي كان في بيته مشكلات وهو قدوة لنا ، فإذا دخل بيته دخله بسّاماً ضحاكاً ، كان ألين الناس ، وكان يخصف نعله ، و يرفو ثوبه ، ويحلب شاته ، وكان في مهنة أهله ، و لم يذم طعام قط ، ما رئي ماداً رجليه قط ، إذا صافح إنساناً أبقى يده في يد المصافح حتى يسحب المصافح يده ، فكان قدوة لنا ، لذلك فعل في أصحابه فعل السحر ، وأحبه أصحابه حباً يفوق حبّ التصور ، وأنت كأب عود نفسك أن تكون قدوة بكل شيء فتجد الأهل انضبطوا .

عمر بن عبد العزيز قدوة لكل الناس :

لسيدنا عمر كلمة قال : " الوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، وأنا الركن الرابع " فهناك أركان الوالي أي المحافظ ، والقاضي ، العدل أساس الملك ، وصاحب بيت المال ، والخليفة ، دائماً كلمته الشهيرة : " لست إلا كأحدكم ، ولكنني أثقلكم حملاً " فالشعور أنه كأحد هؤلاء الناس .

عاد يوماً لداره بعد صلاة العشاء ولمح بناته الصغار فسلم عليهن كعادته وبدلاً من أن يسارعن نحوه بالتحية كعادتهن رحن يغطين أفواههن بأكفهن ، و يتبادرن الباب ، فسأل ما شأنهم ؟ فأجيب : بأنه لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل ، فكرهن أن يشممن من أفواههن ريح البصل فتحاشينه لهذا ، فبكى أمير المؤمنين وقال يخاطبهن : "

يا بناتي ما ينفعكن أن تعشين الألوان والطايب ثم يذهب أبوكم إلى النار " فإذا أكلتم هذا الطعام الخشن ودخلت أنا الجنة أفضل من أن تأكلوا أطيب الطعام وأدخل أنا النار .

زوجته فاطمة بنت الخلفاء الكبار ، وتملك الجواهر والحلي من الدرجة الأولى فقال لها مرة : يا فاطمة إنك لتعلمين من أين أتاك أبوك عبد الملك بن مروان من هذه الجواهر فهل لك في أن أجعلها في تابوت أضعه في أقصى بيت المال وأنفق ما دونه فإذا خلصت إليه أنفقته في حاجات المسلمين ؟ فأعطته كل الحلي ، ووضعها في بيت مال المسلمين.

عندما دخل سيدنا عمر على قوم وقفوا له فغضب غضباً شديداً وقال : " إنما يقوم الناس لرب العالمين ".

رجل قال له يوماً : يا خليفة الله في الأرض ، فأصابته الرعدة والرجفة وصرخ في الرجل ما هذا يا رجل ؟ إني عندما ولدت أسماني أهلي عمر ، فلو ناديتني يا عمر أجبتك، ولما كبرت اخترت لنفسي كنية فكنيت أبا حفص ، فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك ، ولما وليتموني أموركم سميتموني أمير المؤمنين ، فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك ، وأما خليفة الله في الأرض فلست كذلك ، إنما خلفاء الله في الأرض رسله وأنبيائه ، لا تتجاوز حدك .
مرة أرسل لكل أمير وأميرة بعض المال من أمراء بني أمية يدبرون به أمرهم ، ويستقبلون به حياتهم الجديدة الخشنة ، ويبدو أنهم في السابق كانوا يأخذون أربعين ألف دينار سنوياً لكن عمر قبل بمئتي دينار في السنة كلها، وهذه الأموال أخذها من قطعة أرض اشتراها من ماله الحر ، وأعفى نفسه من كل ما يعطى الخلفاء من قبله ، فأرسل لكل أمير وأميرة بعض المال فتنادوا واجتمعوا وقرروا أن يوفدوا إليه صديقاً له يرجوه باسمهم أن يرفع لهم هذا العطاء ، فكان جوابه لهذا الصديق : والله لقد ندمت على هذا الذي أعطيته لهم ، وإني لأعلم أن في المسلمين من هو أحق به وأحوج إليه منهم ، عاد مبعوثهم إليهم يقول لهم : " يا بني أمية لا تلوموا إلا أنفسكم فقد عمدتم إلى صاحبكم عبد العزيز بن مروان فزوجتموه حفيدة عمر بن الخطاب فجاءكم بعمر بن الخطاب ملفوفاً في ثياب عمر بن عبد العزيز فلا تلوموا إلا أنفسكم " هذا الإمام الخليفة هو عمر بن الخطاب أساساً لكن ملفوف بثياب عمر بن عبد العزيز .
مرة وجه الولاة بكلمة قال فيها : " كونوا في العدل والإصلاح والإحسان بقدر من كانوا قبلكم في الظلم والفجور والعدوان ".
ووجه الناس قائلاً لهم : " إني قد وليت عليكم رجالاً لا أقول أنهم خياركم ولكني أقول إنهم خير ممن هم شر منهم ".
وأرسل وصية لأحد ولاته قائلاً : " أما بعد : فإن من ابتلي من أمر السلطان بشيء فقد ابتلي ببلية عظيمة ، فنسأل الله عافيته وعونه ، وإني أدعوك أن تقف نفسك في سرك وعلانيتك عند الذي ترجو به النجاة من ربك ، تذكر ما سلف منك من خطأ فأصلحه قبل أن يتولى صلاحه غيرك ، ولا يمنعنك من ذلك قول الناس ، وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحاً لهم في دينهم وأعراضهم ، واستر كل عوراتهم ، واملك زمام نفسك تجاههم إذا هويت أو إذا غضبت ".

هذا الفصل عنوانه : " القدوة "، كان قدوة صالحة لولاته ، ولكل الناس ، وفي درس آخر إن شاء الله تعالى سنتحدث عن الشورى التي آمن بها هذا الخليفة العظيم ، وردتني أسئلة إن شاء الله تعالى أجيب عنها في الدرس القادم .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 8 : أحكام الصيام2 – مفسدات الصوم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهمّ لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم ، اللهمّ علِّمنا ما ينفعنا ، وانْفعنا بما علَّمتنا وزِدنا علمًا ، وأرِنا الحقّ حقًّا وارزقنا اتِّباعه ، وأرِنا الباطل باطلاً وارزقنا اجْتِنابه ، واجْعلنا مِمَّن يستمعون القَوْل فيتَّبِعون أحْسَنَهُ ، وأدْخِلنا بِرَحمتِكَ في عبادك الصالحين .

الترغيب بذكر الله عز وجل :

أيها الأخوة الكرام ، قال عليه الصلاة والسلام :

((ألا أخْبِرُكم بخيرِ أعمالِكم ، وأرفَعِها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليكِكم ، وخير لكم من الوَرِق والذهب ، وخير لكم من أن تَلْقَوا عَدُوَّكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقَكم؟ قالوا : بلى ، قال : ذِكْرُ الله))

[الطبري عن أبي الدرداء]

هذا الحديث أيها الأخوة ، أصل في الترغيب بذكر الله جلّ جلاله ، أجمع العلماء على أن ذكر الله يشمل تلاوة القرآن ، ويشمل الاستغفار ، ويشمل التسبيح ، والتهليل ، والحمد ، والتكبير ، ويشمل أيضاً الدعاء ، ويشمل تذكير الناس بالله ، أي كلمة تقولها تبتغي بها وجه الله فهي من ذكر الله ، أي كلمة تتقرب بها إلى الله فهي من ذكر الله ، بل إن الصلاة من أجل ذكر الله ، ذكر الله أكبر ما فيها ، تتوضأ ، وتستقبل القبلة ، وتقرأ الفاتحة ، وتركع ، وتسجد ، أكبر ما في الصلاة أن تذكر الله بقلب خاشع .

الفرق الحاسم بين المؤمن وغير المؤمن :

أيها الأخوة ، ورد في الحديث القدسي :

((إنك إذا ذكرتني شكرتني وإذا نسيتني كفرتني))

[أخرجه الطبراني عن أبي هريرة]

ذكر الله عز وجل هو الفرق الحاسم بين المؤمن وغير المؤمن ، بل إن المنافق لا يذكر الله إلا قليلاً ، يبدو أن الذكر الكثير من صفات المؤمن ، من هنا قال عليه الصلاة والسلام :

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

لا يجوز أن تقول عن إنسان أكثرَ من ذكر الله منافق ، فقد قال عليه الصلاة و السلام :

((ألا أُخْبِرُكم – هذه ألا تفيد الاستفتاح – بخيرِ أعمالِكم وأرفَعِها في درجاتكم وأزكاها عند مليكِكم وخير))

العمل الصالح من أجل أن تذكر الله ، فصار الذكر هو تاج الأعمال كلها .

أيّ شيء يقرب الإنسان من الله هو من ذكر الله :

((وأرفَعِها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليكِكم ، وخير لكم من الوَرِق والذهب وخير لكم من أن تَلْقَوا عَدُوَّكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقَكم ؟ قالوا : بلى ، قال : ذِكْرُ الله))

يفهم من الحديث السابق أن في الكون حقيقة هي الله عز وجل ، فأي شيء يقربك من هذه الحقيقة فهو من ذكر الله ، بل إن تفكرت في خلق السموات والأرض من أجل أن تزداد معرفة بالله ، هذا التفكر من ذكر الله ، بل إنك لو تلوت كلام الله من أجل أن تتقرب من الله عز وجل فهو من ذكر الله ، بل إنك إن ذكرت الله باسمه المفرد الله فهو من ذكر الله ، بل إنك لو قلدت النبي ﷺ بأذكاره فهو من ذكر الله ، إنك إن دعوت الله تذكره ، هذا الله جلّ جلاله ماثل في ذهنك ، المؤمن حتى في حديثه النفسي يذكر الله عز وجل ، أنك حينما تصلي تذكر الله ، لكن ذكرك لله يقابله ذكر لله لك ، وذكر الله لك أكبر من ذكرك له .

((فإن ذكرني في نفسه ذكرتُه في نفسي ، وإن ذكرني في مَلأٍ ذكرتُه في مَلأٍ خيرٍ منه))

[أخرجه البخاري ومسلم والترمذي عن أبي هريرة]

معنى ذلك : ذكر الله لك أكبر من ذكرك لله عز وجل .

المعنى الذي ينبغي أن نفهمه فهماً أعمق هو أنه كما ذُكر الله لك فعرفته ، واستقمت على أمره ، وأقبلت عليه ، ينبغي أن تذكره لعباده .

الدعوة إلى الله فرض عين :

الآن الشكر ، ذُكر الله لك ، دُعيت إلى الله ، دُعيت إلى طاعته ، دُعيت إلى التقلب إلى رحمته ، دُعيت إلى جنات القربات ، الوفاء يقتضي أن تذكره لعباده كما ذكرك فسعدت بقربه ، هذه الدعوة إلى الله ، وكل مؤمن يجب أن يدعو إلى الله ، والمؤمن الذي لا يفكر أبداً في أن يدعو إلى الله أحداً يُشك في إيمانه ، لأن حقيقة الإيمان ما إن تستقر في قلب الإنسان حتى تعبر عن ذاتها بذاتها ، بشكل دعوة إلى الله ، إنسان يتصل بالله ، ويذوق طعم القرب ، ولا يفكر أبداً أن يقنع أقرب الناس إليه ، أحب الناس إليه ، في أن يدعوهم إلى الله ، هذا يشك في إيمانه، فالإنسان أي إنسان يجب أن يدعو إلى الله عز وجل ، هذه الدعوة إلى الله فرض عين ، أي أن تذكره لعباده في حدود ما تعلم ومع من تعرف ، لست مكلفاً أن تجعلها دعوة عامة ، ولست مكلفاً أن تكون من أساطير العلماء حتى تكون داعية ، الذي سمعته ، الذي استوعبته ، الذي عقلته ، الذي تمثلته ، الذي تأثرت به ، هذا الجانب الذي تأثرت به انقله إلى أقرب الناس إليك ، لقد حققت الدعوة التي هي فرض عين ، وفرض كفاية .

من تشبث بذكر الله نجا و فاز :

إذاً هذا الحديث أيها الأخوة أصل في ذكر الله عز وجل :

((ألا أخْبِرُكم بخيرِ أعمالِكم ، وأرفَعِها في درجاتكم ، وأزكاها عند مليكِكم ، وخير لكم من الوَرِق والذهب ، وخير لكم من أن تَلْقَوا عَدُوَّكم ، فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقَكم؟ قالوا : بلى ، قال : ذِكْرُ الله))

الحديث الثاني عن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال يا رسول الله :

((إن شرائع الإسلام قد كَثُرَت ، وأنا قد كَبِرْتُ ، فأخبرني بشيءٍ أتشبَّث به ، ولا تُكثِر عليَّ فأَنسى ، قال : لا يَزَالُ لسانُكَ رَطْبا بذِكر الله))

[الترمذي و أحمد عن عبد الله بن بسر]

هذا الشيء الذي إذا تشبثت به أنجاك .

***

أنواع مفسدات الصوم :

1 . المفسدات التي توجب القضاء :

والآن إلى بعض الأحكام الفقهية المتعلقة برمضان ، وقد وصلنا إلى مفسدات الصّيام ، والمفسدات أيها الأخوة على نوعين : مفسدات توجب القضاء فقط ، ومفسدات توجب القضاء والكفارة .

فأما المفسدات التي توجب القضاء فقط ، فهي إذا تناول الصائم في أداء رمضان شيئًا ووصل إلى جوفه ، وكان ممَّا لا يتغذى به عادةً ، ولا يعتاد أكلهُ كالأرزّ النيء ، العجين، الدقيق ، الملح ، نواة تمرة ، حصاة ، ورق كتابة، شيءٌ لا يعتاد أكله ، ولا يُؤلفُ ، إذا وصل إلى جوف الصائم يوجبُ عليه القضاء فقط دون الكفارة ، هذا هو الحكم الأوَّل .

تراب ، شيءٌ لا يقبلهُ الطَّبع ، رزّ نيء ، عجين ، طحين ، إذا أكل شيئًا ممَّا لا يعتاد أكله ، ممّا ينفر الطَّبع منه، فوصَل إلى جوْفه فعليه القضاء دون الكفارة .

إذا تناوَلَ غذاءً أو دواءً لعُذْرٍ شرعي ، كالمرض والسَّفر ، مريضٌ تناوَلَ طعامه ومسافر تناول غذاءهُ ، أو دواءً ، هناك عُذْرٌ شرعي ، أيضًا هذا يوجب القضاء لا الكفارة .

من أكل أو شرب مضْطرًّا ، أو مكرهًا ، ومعنى مضْطرّ على وشك الهلاك فأكل ، على وشك الموت عطشًا فشرب ، أكل وشرب مضطرًّا ، هذا يوجب القضاء لا الكفارة .

من أكل وشربَ مكرهًا تحت قوَّة السِّلاح إذا لم تأكل قُتِلْت ، أكلت وشربْت الأوَّل مضطرّ ، والآن مكره ، وهناك فرْق بينهما ، من أكل أو شرب مضطرًا أو مكرهاً يوجب عليه القضاء لا الكفارة .

الآن إذا دخل إلى جوف الإنسان شيءٌ خطأ وهو يتمضْمض ، بالغَ في المضمضة مع أنّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول : " بالِغْ في المضمضة والاستنشاق إلا أن تكون صائمًا ..." وهو صائم بالغَ في المضمضة فابْتَلَعَ شيئاً من الماء ، يجب عليه القضاء لا الكفارة .

لو أنّ الإنسان ابتلع ماءً أثناء المضمضة وتوهَّم خطأً أنَّه أفطَر ، فهو أفْطر لكن عليه أن يمْسك بقيَّة اليوم ، هذا الحكم لا يعرفهُ ، ما دُمْتُ قد أفطرْت لا اكل ، الآن أكل وشرب ظانًّا أنّ خطأهُ السابق جعله مفطِراً أيضًا يجب عليه قضاء ذلك اليوم .

في المذهب الحنفي الحقنة الشرجيَّة تفطر ، لأنَّها دخول ماءٍ إلى الجوف ، هذا الموضوع خلافي ، بعض العلماء يرَوْن أنّ دخول الطَّعام والشَّراب إلى الجوف عن الطريق المألوف وهو الفم ؛ هذا الذي يُفطر ، وبعضهم أخذ في الاحتياط ، فقال : وُصول شيءٍ إلى الجوف ، ولو من جهة ليْسَت معتادة هذا أيضًا يُفْطر ، لذا قاسوا عليه صبّ الدواء في الأنف، والأذن ، واستعمال النشوق والسّعوط ، واستعمال الأدوية الطيَّارة بطريقة التَّنفّس أو التبخير، وإدخال الهواء بالحنجرة ، هنا دخلْنا في الخلافيَّات ، والأحْوَط إذا لمْ يكن الإنسان مضطرًّا ، له أن يُفطر إذا كان مريضًا .

إذا أمسك عن الطّعام والشراب ، ونسيَ أن ينْوي ، الأفضل أن ينْوي الإنسان عن طول شهر رمضان ، ولكن إذا أراد أن ينْوي كلّ يومٍ عن حِدَة وهناك يوم لم ينوِ ، وأمسك عن الطعام والشراب بلا نيَّة ، هذا اليوم يجب أن يصومهُ ثانيَة ، وعليه القضاء دون الكفارة .

الآن أكل وشرب ، وقد ظنّ أنَّ الفجر لمْ يطلع ، ثمَّ تبيَّن أنّ الفجر قد طلع ، سمع الأذان فظنَّه أذان الإمساك ، فشرِبَ كأس ماء ، ولمَّا انتهى الأذان عرف أنَّ هذا الأذان أذان الفجر إذًا عليه أن يصوم مكان هذا اليوم ، يجب أن يقضيَهُ دون كفّارة ، هذه كلّها أشياء توجب القضاء لا الكفارة .

مثال آخر : لو أنَّه سمع أذان المغرب فظنَّه مغربَنا ، فإذا هو مغرب بلدٍ آخر ، فأكل عليه أن يقضي هذا اليوم .

الآن من اسْتقاء ؛ تكلَّفَ القيْء عمْدًا ، وكان القيءُ ملء فمِهِ ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((من استقاء عمْدًا فلْيَقْضِ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

الآن من أكل ما بين أسنانه ، وكان قدْر الحمصة ، وهذه نادرة ، سمسمة والإنسان عليه أن يجهد بِغَسل أسنانه جيِّدًا ، أما إذا بقيَ شيئًا ، وكان حجمهُ قدْر الحمصة فعليه أن يقضيَ يومًا مكانه .

إذا أنشأ السَّفر بعد الفجر ، هذا مخالف للسنّة ، عليه أن يقضي ذلك اليوم .

تلخيص لما سبق :

لمزيد من الفائدة أعيد عليكم بشكل سريع الأشياء التي تفسد الصَّوم ، وتوجب القضاء لا الكفارة :

من أكل شيئًا لا يتغذى به عادةً ، ولا تألفه الطِّباع ، عجين ، رزّ نيء ، ورقة ، فإذا الطالب معه ورقة وخاف من المراقب ، وبلعها ؛ هذا يفطِر وأذْهب عليه يومًا ، وهذا يفعلهُ الطلاب ، عجين ، نخالة ، دقيق ، تراب ، أيّ

شيءٍ تنفر الطِّباع منه ، ولا تألفهُ الطِّباع ، ولا يُتغذَّى منه ، إذا أكله الصائم يجب عليه القضاء لا الكفارة .

إذا أكل طعامًا مألوفًا ، أو دواءً لِعُذرٍ شرعي ، مرض ، أو سفر يجب عليه القضاء لا الكفارة .

ومن أكل أو شرب مضطرًّا على وشك الموت عطشًا ، انْهارَت قِواهُ جوعًا ، هذا أكل مضطرًّا أو شرب ، ومن أكل أو شرب مكرهًا تحت قوَّة السلاح ، وهذا الذي يُهدِّدُه يفعلُ ما يقول وغلبَ على ظنّهِ أنَّه سيفعل هذا ، هذا عليه القضاء لا الكفارة .

ومن دخل إلى جوفهِ ماءٌ أو طعامٌ خطأً ، كمن تمضْمَض ، وسبق الماء إلى جوفه هذا يجب عليه القضاء لا الكفارة ، ومن فعل شيئًا يوجب القضاء فظنّ أنَّه أفطرَ فأكلَ أكلاً عاديًّا ، أثناء المضمضة صباحًا دخل ماءٌ إلى جوفه ، فظنَّ أنَّه أفْطر ، فأكل أكلاً عاديًّا ، هذا غلط ، من أفْطَر مخطئًا عليه أن يمسك عن الطعام والشراب بقيَّة اليوم حُرْمةً لهذا الشهر العظيم.

الحقنة الشَّرجيَّة ، دواء في الأذن ، في الأنف ، نشوق ، سعوط ، أدْويَة طيّارة لمَن يشْكون الرَّبو ، كلّ شيءٍ وصَل إلى الجوف ، إما إلى الرئة عن طريق الأنف أو الأذن أو عن طريق الحنْجرة ، أو عن طريق الشَّرْج ، هذا في الأحوط يوجب القضاء لا الكفارة ، إذا قلنا مريض هذا عليه أن يفطر .

إذا أمسك عن الطعام والشراب يومًا كاملاً من غير نيَّة ، هذا يجب عليه القضاء لا الكفارة .

أكل ويظنّ أنَّ هذا الأذان أذان الإمساك ، فإذا هو أذان الفجر ، أو سمع الأذان فظنَّه أذان المغرب ، فإذا هو أذان مغربٍ آخر بغير بلدنا ، هذا يجب عليه القضاء لا الكفارة .

ومن استقاء عمدًا ، هذا يجب عليه القضاء لا الكفارة ، ومن أكل ما بين أسنانه وكان فوق الحمصَة ، هذا يجب عليه القضاء لا الكفارة .

من أنشأ سفرًا بعد الفجر ، وهذا مخالفٌ للسنّة ، لأنَّ السَّفر لا ينعقد إلا فعلاً لا نيَّةً يجب أن تسافر قبل الفجر ، أما إذا سافرْتَ يجب أن تُتِمَّ الصِّيام ، فإذا بلغَتْ بك المشقَّةُ أوْجَها لك أن تفْطِرَ .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 09 : أحكام الصيام2 – ما لا يفسد الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

المفلس يوم القيامة :

أيها الأخوة المؤمنون : في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم عن أبي هريرة]

هذا حديث خطير ، المفلس من صلى وصام وزكى وهو مفلس ، شتم هذا ، قذف هذا ، أكل مال هذا ، سفك دم هذا ، ضرب هذا ، ماذا يملك هذا المفلس ؟ يملك هذه الأعمال، يعطى هذا من حسناته وليس معه أموال ، رأس ماله بعض الحسنات ، له سيئات وحسنات ، كيف يقضى بالسيئات ؟ يعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار . لما النبي عليه الصلاة والسلام سأل أصحابه أتدرون من المفلس ؟ معنى أتدرون من الدراية والدراية العلم ببواطن الأمور ، فلان من أولي الدراية ، أتدرون أي أتعلمون من هو المفلس حقيقةً ؟ هذا يؤكد قول سيدنا علي كرم الله وجهه : " الغنى والفقر بعد العرض على الله "

هم حينما سئلوا هذا السؤال أجابوا إجابةٍ من خلال خبراتهم ، المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، المتاع كل شيء تنتفع به في الدنيا ، فالدابة متاع ، والبيت متاع ، والسرير متاع ، والثياب متاع ، الحاجات إما عندك الحاجات أو عندك قيم الحاجات ، الحاجات هي المفروشات ، الألبسة ، البيوت ، الطعام ، الشراب ، المؤونة ، أو قيم الحاجات التي هي المال ، هذا المفلس بنظر أصحاب رسول الله ليس عنده لا درهم ولا متاع ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا ، لأن هذا المفلس ربما اغتنى في لحظة من اللحظات ، ربما أصاب مالاً فاشترى بيتاً ، واشترى مركبةً ، واشترى بستاناً .

((... قَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصِيَامٍ وَصَلاةٍ وَزَكَاةٍ))

[مسلم عن أبي هريرة]

هو من المسلمين جاء بصلاة وصيام وزكاة ، هذا يؤكد أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال :

((بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِة الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[البخاري وابن خزيمة عن عبد الله بن عمر]

بني على خمس دعائم ، والدعائم بالتأكيد ليست هي الإسلام وإن كان الإسلام قد بني عليها ، الدعائم ليست هي الإسلام ، فهذا جاء بصلاة وصيام وزكاة لكنه لم يستقم على أمر الله ، وهذا يؤكد قول سيدنا عمر : من شاء صام ومن شاء صلى لكنها الاستقامة ، لأن الصلاة والصوم والحج والزكاة هذه عبادات قد يفعلها الإنسان وفي نفسه إخلاص لها ، وقد يفعلها نفاقاً ، لكن مركز الثقل هو أن ينضبط على أمر الله يأتي وقت :

((وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا))

أي اتهم امرأةً بأنها زانية وهي ليست كذلك ، وقد مرّ بنا أن : " قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة ، وَأَكَلَ مَالَ أي بطريقة من الطرق ، إذا أوهمته أن البضاعة من نوع معين ورفعت السعر ، الفرق هو فرق حرام ، هو دفع على أساس البضاعة أجنبية وهي ليست كذلك ، إذا أوهمته بالكمية أكبر ، بالنوعية أكبر ، بالمصدر ، الصنع من نوع معين ، إذا أوهمته أن هذه البضاعة لن تحصل عليها بعد اليوم ، وهذه فرصة العمر هذا أيضاً إيهام ، أي إيهام خلاف الواقع فهو نوع من الغش ، أو نوع من التغرير ، أو نوع من الغبن .

((وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا))

طبعاً قتل ، وضرب ، وأكل المال ، وتحدث عن النساء ، وشتم ، يوم القيامة يعطى هذا من حسناته ، طبعاً هذا يبدو الذي يعنيه النبي عليه الصلاة والسلام خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، مادام هناك خلط أي معه حسنات ومعه سيئات ، كيف تحل هذه السيئات يوم القيامة ؟ أصحاب الحقوق عليه يأخذون من حسناته حتى يستوفوا حقوقهم ، لو أن حقوقهم لم تستوفَ بعد ماذا نفعل ؟ يطرح عليه من سيئاتهم ، عندئذٍ تذهب حسناته ويضاف إلى سيئاته سيئات ، عندئذٍ يطرح في النار رواه مسلم .

تحريم الظلم :

هذا الحديث ذكرني بحديث آخر يؤكده وهو قول النبي عليه الصلاة والسلام :

((بينا رسول الله ﷺ ذات يوم جالس إذا رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه ، فقيل له مم تضحك يا رسول الله؟ قال: رجلان من أمتي جثيا بين يدي ربي عز وجل فقال أحدهما يا رب خذ لي مظلمتي من أخي ، فقال الله عز وجل أعط أخاك مظلمته ، فقال يا ربي إنه لم يبقَ من حسناتي شيء))

.

معنى هذا أن المظلمة أن تأخذ من حسنات خصمك.

((فقال يا ربي إنه لم يبقَ من حسناتي شيء ، فقال صاحبه يا رب فليحمل من أوزاري ، ففاضت عينا رسول الله بالدموع ثم قال : إن ذلك اليوم ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم ، ثم قال الله تعالى للطالب حقه ارفع بصرك فانظر إلى الجنان فيرفع رأسه فيرى ما أعجبه من الخير والنعمة فقال : لمن هذا يا رب؟ فقال الله عز وجل : لمن أعطى ثمنه ، فقال : ياربِ ومن يملك ذلك؟ قال الله عز وجل : أنت، فقال : بماذا؟ قال : بعفوك عن أخيك ، فقال : أشهدك يا رب أني قد عفوت عنه ، فقال الله عز وجل خذ بيد أخيك ثم أدخله الجنة ، ثم قال رسول الله ﷺ : فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين عباده يوم القيامة))

[المستدرك عن أنس]

هذا كلام واضح كالشمس وكلام خطير ، أي من شتم وقذف وأكل مال الناس وسفك دماءهم وضربهم لا تنفعه صلاته ولا صيامه ولا حجه ولا صدقته ولا زكاته ، إنما يطرح في النار ، لأن هذه الحسنات أخذها أصحاب الحقوق وطرحوا عليه فوق سيئاته سيئات فانتهى به الأمر إلى الهلاك ، هذا الحديث في باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم حديث ورد في رياض الصالحين في باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم.

لذلك سيدنا رسول الله صلي عليه حينما ربى أصحابه الكرام رباهم على الاستقامة قبل كل شيء ، وحينما سأل النجاشي سيدنا جعفر بن أبي طالب عن الإسلام فقال : " أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية ، نأكل الميتة ، ونعبد الأصنام ، ونأتي الفواحش ، ونسيء الجوار ، ونقطع الرحم ، حتى بعث الله فينا رجلاً نعرف أمانته وصدقه ونسبه وعفافه ، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحده ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، والكف عن المحارم والدماء ، أي الإسلام كما بينه سيدنا جعفر هو انضباط ، وإحسان ، وأخلاق عالية.

* * *

ما لا يفسد الصوم :

1 . المضمضة و الاستنشاق :

والآن إلى بعض الأحكام الفقهية المتعلقة برمضان ، تحدثنا في الدرس الماضي عن مفسدات الصوم التي توجب القضاء فقط ، وعن مفسدات الصوم التي توجب القضاء والكفارة ، واليوم الحديث عما لا يفسد الصوم : أولاً المضمضة والاستنشاق ولو فعلها بغير وضوء ، إلا أنه لا يبالغ فيها خشية دخول شيء إلى جوفه ، بالغ في المضمضة والاستنشاق إلا أن تكون صائماً كما قال عليه الصلاة والسلام ، فإذا دخل شيء إلى حلقه أفطر وعليه القضاء كما تقدم .

2 . الاغتسال و السباحة :

الاغتسال والسباحة أو التلفف بثوب بارد بقصد التبرد لدفع الحر ، هذا لا يفسد الصوم ، إذا دخل الماء إلى الأذن في أثناء السباحة فإن الصوم لا يفسد ، أما إذا أدخل الإنسان الماء إلى أذنه عمداً فإن الصوم يفسد .

3 . الأكل أو الشرب ناسياً :

إذا أكل الصائم أو شرب أو قارب زوجته ناسياً لصومه فإن صيامه صحيح ولا يفسد ، ويستوي في ذلك صوم الفرض والواجب و النفل ، أي أن تنسى وتأكل ناسياً هذا لا يفسد صيامك لا فرضاً ولا واجباً ولا نفلاً ، لقول النبي عليه الصلاة والسلام :

((من أفطر في رمضان ناسياً فلا قضاء عليه ولا كفارة))

[مسلم عن أبي هريرة]

هذا حكم من انتهى من الطعام بعد أن انتهى تذكر أنه صائم ، لكن من تذكر وهو يأكل عليه أن يقلع فوراً عن الأكل والشرب ، فإذا تابع لقمةً واحدة أفطر ووجب عليه أن يؤدي ما عليه من قضاءٍ أو من كفارة ، لكن الحكم إذا رأيت شيخاً هرماً يأكل في رمضان ناسياً السنة أن تتركه حتى يشبع ، عندئذٍ تقول له : أنت صائم ، لكنك إذا رأيت إنساناً قوياً على الصوم رأيته يأكل ناسياً لا مانع من أن تذكره فوراً.

إذا أكلت ناسياً لا شيء عليك ، إذا تذكرت في أثناء الأكل يجب أن تقلع فوراً ، إذا رأيت من يأكل أثناء الصيام إن كان شيخاً هرماً أو مريضاً دعه حتى يتم طعامه فإن كان شاباً ذكره فوراً.

4 . السواك :

السواك لا يفسد الصوم بل هو سنة في الصوم ولا فرق بين أن يكون جافاً أو مبلولاً بالماء .

5 . القطرة في العين أو الاكتحال :

القطرة في العين ، والاكتحال في العينين ولو وجد الصائم طعم القطرة أو الكحل في حلقه ، القطرة أو الكحل لا يفسدان الصوم .

6 . الدخان أو الغبار :

إذا دخل حلقه دخان ، أو غبار ، أو غبار دقيق ، أو غبار بهارات ، أو غبار أشياء غذائية إذا دخل عفواً فلا شيء عليه ، فإذا دخل قصداً فهناك مشكلة إذا أدخله قصداً فقد أفطر ، أما يعمل في فرن أو يعمل في مطحنة لبيع المواد الغذائية هذه المواد لها غبار قد تدخل الفم فلا شيء عليه.

7 . خلع الضرس ما لم يبتلع دماً :

خلع الضرس لا يضر ما لم يبتلع شيئاً من الدم ، لو فرضنا خلع الضرس وصار هناك دم في الفم وابتلع الدم فهذا عليه القضاء ، أما يفضل أن يتحاشى قلع الضرس في رمضان لأنه لابد من أن يبتلع بعض ما ينزف من الدماء من أثر قلع الضرس ، الأولى بعد الإفطار .

8 . الاحتجام :

من احتجم في رمضان فلا شيء عليه .

من نوى الفطر ولم يأكل يبقى صائماً ولا شيء عليه ، نوى الفطر لعذر ثم لم يأكل شيئاً فهو صائم .

10 . شم رائحة ورد أو عطر :

إذا شمّ ورداً أو زهراً أو طيباً أو شم رائحة الفواكه لا شيء عليه .

11 . الحقن في العضل :

الحقن في العضل أي الإبرة في العضل ، أو تحت الجلد ، أو في الأوردة ، إن كان بالإمكان تأخير حقن الأوردة إلى المساء فهو أفضل ، لكن الحقنة تحت الجلد ، أو في العضل ، أو في الوريد ، لا تفطر الصائم على المذهب الحنفي ، لكن يوجد إبر مغذية هذه اختلف فيها العلماء ، إذا كانت إبراً مغذية أو إبراً في الأوردة مباشرةً هذا موضع خلاف بين العلماء ، والأحوط ألا تأخذ هذه الحقن في الأوردة ، وألا تأخذ الحقن المغذية .

12 . من طلع عليه الفجر وهو جنبٌ :

من طلع عليه الفجر وهو جنبٌ لا شيء عليه وصيامه صحيح ، أو نام في النهار فاحتلم صيامه صحيح ، لأن الجنابة لا تؤثر في صحة الصوم .

13 . ابتلاع البلغم :

ابتلاع البلغم أي القشع الذي يتجمع في الحنجرة ، لو أن الإنسان ابتلعه خطأ وإذا أخرجه أفضل وموقف صحي ، فإذا فرضنا موقفاً صعباً أو نسي ، ابتلاع البلغم لا يفطر الصائم لكن رميه أولى .

14 . القيء عفواً من دون عمدٍ :

القيء عفواً من دون عمدٍ لا يفطر الصائم .

15 . ابتلاع ما بين الأسنان بشرط أن يكون قليلاً جداً :

إذا ابتلع ما بين أسنانه من آثار السحور أو العشاء وكان أقل من الحمصة فإنه لا يفطر ، إذا مضغ قدر سمسمة ولم يشعر بطعمها في فمه فهو لم يفطر .

مكروهات الصيام :

1 . ذوق شيء لم ينحل منه ما يصل إلى جوفه :

الآن يكره للصائم فعل ما يلي : ذوق شيء لم ينحل منه ما يصل إلى جوفه سواء أكان الصوم فرضاً أو نفلاً لما فيه من تعريض الصوم للفساد ، رجل ذاق طعاماً وهذا يكره للصائم فعله إلا أن يكون الصائم طباخاً في مطعم ، وسوف يبنى على طبخه مسؤولية ، أو زوجة لها زوج أخلاقه شرسة ، فإذا الطعام فيه مشكلة يسبب لها المتاعب، أباح لها الشرع أن تذوق الطعام من دون أن تبتلعه.

2 . تجميع اللعاب في الفم قصداً ثم ابتلاعه :

يكره تجميع اللعاب في الفم قصداً ثم ابتلاعه هذا أيضاً يكره للصائم .

3 . فعل ما يظن أنه مفطر :

يكره للصائم فعل ما يظن أنه مفطر ، أي لو فرضنا حرك حنكه هذا يسبب للناس إحراجاً ، أنت مفطر ؟ نفخ الخد باللسان كأنه يوجد لقمة كبيرة هذا لا يجوز ، أنت تعمل فتنة وتسبب اتهامك.

4 . فعل ما يضعف الصوم :

فعل ما يضعف الصوم مثلاً حجامة ، العمل الشاق ، الرياضة العنيفة ، هذه الأعمال تضعف عن الصوم ، يمكن للظهر لا تستطيع أن تكمل ، يمكن في اليوم الثاني تقول : أنا لا أريد أن أصوم ، هذه الرياضة الشاقة والأعمال العنيفة ، إن كان من الممكن تأجيلها فالأولى أن تؤجل لكي يبقى الصوم مقبولاً عندك ، لذلك تخفض ساعات العمل في شهر رمضان ، وهذا ما تفعله الدولة منذ عشرات السنين ، من الساعة التاسعة عوض الساعة الثامنة ، تخفيض ساعات العمل هدفه أن تعين الصائم على الصيام .

يقول سيدنا علي كرم الله وجهه : " إياك وما يسبق إلى العقول إنكاره منك وإن كان عندك اعتذاره " انظر إلى هذه النقطة ما أدقها ، هناك عمل تعمله وأنت عندك جواب قوي ، لو فرضنا أنت كنت مسافراً ووصلت إلى الشام العصر فأنت مفطر ، فخرجت من بيتك ووجدت صنبور ماء فشربت أمام الناس ، أنت عندك اعتذار قوي وحجة، أنت اليوم مسافر ، وصلت العصر إلى الشام لكن هذا العمل يسبب لك اتهاماً خطيراً ، لو أنك تملك الاعتذار ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما : " من وضع نفسه موضع التهم فلا يلومن من أساء به الظن " ، يكره أن تفعل فعلاً شاقاً يضعفك عن الصوم ، يكره ذوق الطعام إلا للطباخ والمرأة ، يكره أن تفعل فعلاً تتهم به بصيامك ، أما ما لا يكره فعله فالكحل والحجامة إلا إذا كانا يضعفانه ، السواك لا يكره بل هو سنة ، المضمضة الاستنشاق و التلفف بثوب مبتل للتبرد ، والأكل والشرب ناسياً هذا كله لا يفسد الصوم إطلاقاً.

سنن الصوم :

1 . تعجيل الفطر بعد تحقق الغروب :

ومن سنن الصوم تعجيل الفطر بعد تحقق الغروب ، أي إذا غابت الشمس أفطر الصائم ولم يبقَ أجر ، تأخير الطعام إلى بعد نصف ساعة ساعة ليس له أي معنى إطلاقاً فمن السنة النبوية المطهرة تعجيل الفطر بعد تحقق الغروب ، والدعاء عند الإفطار بالمأثور :

((عن ابْنَ عُمَرَ يَقْبِضُ عَلَى لِحْيَتِهِ فَيَقْطَعُ مَا زَادَ عَلَى الْكَفِّ وَقَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَفْطَرَ قَالَ ذَهَبَ الظَّمَأُ وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ وَثَبَتَ الأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ))

[أبو داود عن ابْنَ عُمَرَ]

وقال عليه الصلاة والسلام :

((ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ الإِمَامُ الْعَادِلُ ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللَّهُ دُونَ الْغَمَامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ بِعِزَّتِي لأنصرك وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

2 . عدم تضييع الوقت بعد الإفطار باللهو :

من السنة المطهرة ألا يضيع الصائم وقته بعد الإفطار باللهو واللعب والتدخين بل يستحب للصائم أن يغتنم رمضان لعمل الخير والعلم وقراءة القرآن والذكر والشكر والدعاء والابتهال والتضرع والصلاة على النبي ﷺ ، المفروض في أوقات الفراغ أن تقضى في قراءة القرآن ، أو في ذكر ، أو في عمل صالح ، أو في تعلم ، أو في مدارسة، وما شاكل ذلك.

3 . كف جميع الأعضاء عن المعاصي وكف اللسان عن فضول الكلام :

كف جميع الأعضاء عن المعاصي وكف اللسان عن فضول الكلام واللفظ الفاحش أما كفه عن الغيبة والنميمة والمشاتمة فواجب في كل زمان ومكان.

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ورب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع ، وقائم ليس له من قيامه إلا السهر .

4 . اجتناب كلمات العوام :

الآن على الصائم أن يجتنب بعض الكلمات التي يستعملها العوام ، زارك شخص أخي رمضان بخيل ، هذا كلام باطل ، رمضان كريم ، أو رمضان ثقيل ، أو رمضان يضيق الخلق ، كلما غضب أنا صائم أي اعذروني صائم، الصيام يأمرك أن تفعل كذا وكذا؟؟ أن تضجر بالصيام أو أن تقول : رمضان بخيل أو رمضان ثقيل هذه كلمات يقولها العامة لا تتناسب مع كمال الصائم .

5 . الإكثار من الصدقة والإحسان إلى ذوي القربى :

ومما يستحب في رمضان الإكثار من الصدقة والإحسان إلى ذوي القربى والأرحام ومواساة الفقراء والمساكين ، ولا بأس أن يخرج المسلم زكاته في رمضان ، قال ﷺ :

((من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضةً فيما سواه ، ومن أدى فريضةً فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما عداه))

[شعب الإيمان عن سلمان الفارسي]

أي العمل في رمضان يضاعف ، وكان الرسول ﷺ أجود ما يكون في رمضان ، وكان حينما يلقاه جبريل :

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ))

[البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

6 . أن يفطر الصائمين على حسب استطاعته :

من مستحبات الصائم أن يفطر الصائمين على حسب استطاعته ، في بعض البلاد الإسلامية المغرب يؤدى في المسجد جماعةً ، وكل إنسان يحضر معه شيئاً من التمر ، أو شيئاً من الحلوى ، أو شيئاً من الشراب ، لأن تفطير الصائم أي إطعامه شيء من الشراب أو الحلوى أو شيء من التمر هذا من عمل النبي عليه الصلاة والسلام ، من أفطر صائماً كان له مثل أجره .

7 . ألا يدع طعام السحور :

أو لا يدع طعام السحور وهو طعام آخر الليل قال عليه الصلاة والسلام:

((تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والبركة أخرويةٍ ودنيوية لأنك في الدنيا تستعين على الصيام بالسحور ، استعينوا بطعام السحور على صيام النهار ، يستحب تأخير السحور إلى قبيل الفجر :

((قال عليه الصلاة والسلام : ثلاث من أخلاق المرسلين تعجيل الإفطار وتأخير السحور ووضع اليمين على الشمال في الصلاة))

[الطبراني عَنْ أبي الدرداء رضي الله عنه]

إذا إنسان يدعي أن الطعام في السحور يؤذيه عليه أن يستيقظ ، وأن يشرب جرعة ماء فقد أدى السنة المطهرة .

8 . أداء صلاة التراويح :

أداء صلاة التراويح أيضاً مما يستحب في رمضان تنشيطاً للبدن ، وتنشيطاً للنفس في آن واحد .

9 . الاجتهاد في العبادة في العشر الأواخر في رمضان :

يطلب من الصائم أن يجتهد في العبادة في العشر الأواخر في رمضان لأنها خلاصة الشهر كله روي عن النبي ﷺ أنه :

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا قَالَتْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا]

بهذا تنتهي أحكام الصيام وسوف نبدأ إن شاء الله تعالى في الأسبوع القادم بأحكام الزكاة ، لأن الزكاة يجب أن تؤدى برمضان في أصح الأقوال.

* * *

عمر بن عبد العزيز :

والآن إلى شيء يسير عن سيدنا عمر بن عبد العزيز وننهي به الدرس .

ركب هذا الخليفة يوماً في إحدى جولاته دابةً ، واصطحب مولاه مزاحم ، وخرج إلى مفارق الطرق ، وهناك راح متنكراً يسأل الغادين والرائحين عنه ، من بين هؤلاء رجل من إحدى القوافل اقترب منه عمر وسأله كيف تركت الناس في بلدك ؟ فقال الرجل : إن شئت جمعت لك خبري ، وإن شئتَ بعضته لك تبعيضاً ، فابتسم الخليفة وقال: بل اجمعه أي أوجزه ، فقال الرجل : تركت البلاد الظالم بها مقهور ، والمظلوم منصور ، والغني موفور و الفقير مجبور ، وسارع عمر بالانصراف بعيداً عن محدثه قبل أن تشي به انفعالاته ، ودموع الشكر التي راحت تنحدر من مآقيه ، وولى مسرعاً مسرعاً وقال لمزاحم : والله لأن تكون البلاد كلها على ما وصف هذا الرجل لأحب إلي مما طلعت عليه الشمس .

وصية عمر بن الخطاب لولاته :

أرسل مرة إلى الولاة أن إذا أرسلت إليكم أمراً يخالف الحق فاضربوا به الأرض واستمسكوا بالحق وحده ، وعلم الولاة أن يتحملوا المسؤولية ، فأرسل له أحد ولاته أمراً فأرسل الوالي يستوضحه ببعض التفصيلات فتجهم الخليفة وكتب من فوره : " أما بعد فأراك إن لو أرسلت إليك أن اذبح شاةً ووزع لحمها على الفقراء لسألتني ضأناً أو ماعزاً ؟ فإن أجبتك لسألتني كبيرة أم صغيرة ؟ فإن أجبتك لسألتني بيضاء أم سوداء ؟ إذا أرسلت إليك بأمر فتبين وجه الحق به ثم أقضه " مثل أن الإنسان عنده خوف لدرجة أنه يسأل عن أدق التفصيلات يسمونه بعلم الإدارة عدم تحمل المسؤولية ، أما سيدنا عمر فيتمنى والياً يتحمل المسؤولية ويمضي إلى تطبيق الحق كيفما رأى . عملت بعض التعليمات ، قال : " اتبعوا ما أحل الله وحرموا ما حرم ، واعترفوا بحق الله تعالى ، واحكموا بما أنزل، وافتحوا للمسلمين باب الهجرة ، ودعوا الناس يتجرون بأموالهم في البر والبحر ، ولا تحولوا بين عباد الله ومعايشهم ، أبيحوا أرض الحمى للمسلمين عامة – أرض المراعي – وليكن حق الأمير فيه كحق واحدٌ منكم ، الخمر باب الخطايا فحرموا كل مسكر ، كافحوا التطفيف في المكيال والبخس في الميزان ، لا تتجروا وأنتم ولاة ، فإن الأمير إذا اشتغل بالتجارة استأثر وأصاب ظلماً ، وإن حرص على ألا يفعل، لا تأخذوا من أموال الناس إلا الحق الذي شرعه الله ، وما عدا ذلك فضعوه كله ، لا أفرق بين مسلم وأهل كتاب ، ضعوا السخرة عن الناس وليكن لكل عمل أجره – عمل بلا أجر لا يوجد – ردوا المزارع لما خلقت له فإنما جعلت لأرزاق المسلمين كافة ، لا تتخذوا على أبوابكم حجاباً يمنعون عنكم ذوي الحاجات والمظلومين ، اقمعوا صوت العصبية والقبلية ، ولا تدعوا الناس يقول أحدهم : أنا مضري وآخر أنا يمني فالمؤمنون أخوة ، الخيل عدة الجهاد فلا تدعوها تركض في غير حق ، امنعوا النساء أن ينشرن شعورهن ، ويخرجن نائحات على الموتى ، قاتلوا هواكم كما تقاتلون أعداءكم، سددوا المخالفين وبصروهن وارفقوا بهم وعلموهم ، فإن اهتدوا كانت نعمة من الله وفضل ، وإن أبوا فتحروا الحق فيما تنزلون بهم من عقاب – هذه وصايا للولاة – أكثروا من دعاء الله بالعافية لأنفسكم ولمن ولاكم الله أمره، فإن لكم في إصلاحكم أكثر مما لهم ، وعليكم من فسادهم أكثر مما عليهم ، تعاهدوا حجابكم ورؤساء حرسكم وشرطكم والعاملين معكم ، وأكثروا المسألة عنهم حتى تستيقنوا أنهم لا يرتكبون غشماً ولا ظلماً ، لا يأخذنكم الزهو بنظر الناس إليكم ، و بحديثهم عنكم ، ودعوا أعينكم على الذي هو أمر وأتقى وأخلصوا لله رب العالمين – أي حديث الناس عليكم لا يغنيكم من الله شيئاً – اتركوا أعمالكم عند حضور الصلاة فإن من أضاع الصلاة كان لما سواها أضيع ، تحروا الحق ثم اعملوا به بالغاً ما بلغ به وبكم حتى وإن ذهب بحياتنا وبمهج أنفسنا"

* * *

لكل إنسان طبيعة خاصة في تناول الطعام :

تفسير آية :

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[سورة النور : 61]

ثمن هذا الطعام مشترك بينكم ليس عليكم جناح أن يكون هناك تفاوت في المطاعم، كل إنسان له طبيعة خاصة في تناول الطعام ، ولكن بالمقابل الإنسان يأكل حتى يشبع ، والأكل محدود ، ويأكل حتى يملي معدته والثاني جائع ، أيضاً ليس هذا من اللباقة والذوق في شيء ، أي المؤمن كالنحلة يأكل طيباً ويطعم طيباً ، ويعرف ماذا يأكل وماذا يدع، ليس معنى هذا لو فرضنا أن أحدهم أكل لقمة زيادة ، مستحيل أن تجري حسابات دقيقة تقول له: كبرت اللقمة صغرها هذه مستحيلة ، لا بد من أن يكون هناك تسامح ، ولكن بالمقابل إنسان يأكل أكلاً بلا وعي والثاني جائع ليس هذا من الدين في شيء .

السلام في المسجد :

قال تعالى :

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

[سورة النور : 61]

فإذا دخلتم بيوتاً المعنى الأول بيوتاً أي إذا دخلتم المساجد ، وهذا أول معنى ، لكن المطلق بالقرآن على إطلاقه ، فسلموا على أنفسكم وهذه دقيقة جداً في المعنى ، أي إذا سلمت على أخيك فكأنما سلمت على نفسك ، أي أنت وأخوك إنسان واحد كقوله تعالى :

﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[سورة النور : 61]

لم يقل : لا تأكلوا أموال إخوانكم بالباطل ، لأنك إذا أكلت مال أخيك فكأنما أكلت مالك وهنا ، سلموا على أنفسهم أي إذا دخلت إلى المسجد من في المسجد إخوانك المؤمنون سلم عليهم إذا سلمت عليهم فكأنما تسلم على نفسك، إلا أن السلام في المسجد محظور في مجالس العلم ، وفي إقامة الصلوات ، وفي قراءة القرآن ، دخلت إلى المسجد ليس فيه صلاة ولا مجلس علم ولا تلاوة قرآن ، لكن هناك أخاً جالساً ، قل له : السلام عليكم وتنفيذاً لهذه الآية وسلموا على أنفسكم ، هناك صيغة من السلام : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، إذا دخلت إلى بيت مسكون فقل : السلام عليكم قبل أن تقول : أعندكم خبز زائد تعطوننا ؟ قل: السلام عليكم ، وإذا دخلت إلى بيت غير مسكون فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وإذا دخلت إلى بيتك الغير مسكون ، اشتريت بيتاً ولم تسكن ودخلت إليه تتفقده قل : ما شاء الله ولا قوة إلا بالله ، هذه السنة ، دخلت إلى بيت مسكون قل : السلام عليكم ، دخلت إلى بيت مسكون غير بيتك قل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، دخلت إلى مسجد وفيه درس علم ابقَ ساكتاً ، هناك صلاة ابق ساكتاً ، تلاوة قرآن ، مسجد ليس فيه شيء من هذا القبيل ولكن فيه أخ لك قل له : السلام عليكم.

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[سورة النور : 61]

فإذا دخلت بيتاً تعلم علم اليقين أن صاحبه ينكر وجود الله مثلاً ، دخلت قل : السلام على من اتبع الهدى ، أنواع السلام السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، السلام عليكم ، ما شاء الله ولا قوة إلا بالله ، السلام على من اتبع الهدى.

تروي بعض الأحاديث أن الرجل إذا دخل بيته ولم يسلم قال الشيطان لإخوانه : أصبتم المبيت فإذا جلس الرجل إلى الطعام ولم يسمِ قال الشيطان لإخوانه : أصبنا العشاء ، فإذا دخل ولم يسلم وجلس إلى الطعام ولم يسمِ قال الشيطان لإخوانه : أصبتم المبيت والعشاء في هذا البيت.

الدعاء بدعاء النبي عند دخول البيت :

شيء آخر كان عليه الصلاة والسلام يقول إذا دخل بيته :

((عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَلَجَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ الْمَوْلَجِ وَخَيْرَ الْمَخْرَجِ بِسْمِ اللَّهِ وَلَجْنَا وَبِسْمِ اللَّهِ خَرَجْنَا وَعَلَى اللَّهِ رَبِّنَا تَوَكَّلْنَا ثُمَّ لِيُسَلِّمْ عَلَى أَهْلِهِ))

[أبو داود عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ]

ولج بمعنى دخل ، أحياناً الإنسان يدخل إلى البيت يسمع خبراً سيئاً ، يدخل إلى البيت يتشاجر مع زوجته يقع في إشكال لا ينتهي بأشهر ، الإنسان إذا دخل إلى بيته فليدعُ بدعاء النبي عليه الصلاة والسلام ، هذا معنى قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

[سورة النور : 61]

مطلقة ، المسجد ، بيت أقربائك ، أهلك ، بيتك الفارغ والمسكون ، قل : السلام عليكم ، أو السلام علينا ، أو ما شاء الله ، أو السلام على من اتبع الهدى ، وطرح السلام سنة ولكن إجابة السلام فرض .

وبقي علينا من صورة النور إن شاء الله تعالى درس آخر نتحدث عن بعض الآيات الأخيرة .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 10 : أحكام الصيام3 – فرضيته – شروط الوجوب والأداء – الأعذار المبيحة للفطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الصيام عبادة الإخلاص :

أيها الأخوة المؤمنون ، في الدرس الماضي الحديث عن شهر الصيام ، وقد تبين أن هذه العبادة لها طعم خاص، إنها عبادة الإخلاص ، ففي كل أمر إلهي نهانا الله سبحانه وتعالى عن شيء يؤذينا بشيء ينفعنا ، أحلّ لنا الطيبات ، وحرم علينا الخبائث ، ولكن في هذه العبادة التي هي ذات طعم خاص الله سبحانه وتعالى نهانا عن المباحات ، فكل من ائتمر بأمر الله عز وجل فهو يؤكد لنفسه أن الله أحب إليه من الطعام والشراب ، إذاً لا يستطيع الإنسان أن يتّهم نفسه إذا ما أدى صيام رمضان إيماناً واحتساباً بأنه منافق .

قال بعض العلماء : إن الصيام عبادة الإخلاص ، وهناك فوائد كثيرة ، كما قلت في الدرس الماضي ، إن أمر الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يكون له هدف واحد ، ولا هدفان، أهداف الصيام لا تعد ولا تحصى ، وكلما ارتقى الإنسان يكشف بعض هذه الأهداف ، على كلٍّ في وقت لاحق إن شاء الله تعالى نتابع الحديث عن فوائد الصيام.

أحكام الصيام :

والآن إلى بعض أحكام الصيام التي نحن في أمس الحاجة إليها .

قبل كل شيء الصوم ركن من أركان الإسلام الخمسة ، فالإسلام فيه خمسة أركان: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وصوم رمضان ، والصلاة ، وحج البيت ، والزكاة ، هذه هي أركان الإسلام ، فالصيام خُمس الإسلام ، في بعض الأحاديث يقول عليه الصلاة والسلام :

((عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ قَالَ : عَدَّهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي يَدِي أَوْ فِي يَدِهِ التَّسْبِيحُ ، نِصْفُ الْمِيزَانِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ يَمْلَؤُهُ ، وَالتَّكْبِيرُ يَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، وَالصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ ، وَالطُّهُورُ نِصْفُ الإِيمَانِ))

[الترمذي عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ]

إذاً الصوم ربع الإيمان ، خُمس الإسلام وربع الإيمان ، هو فرض عين ، وكلكم يعلم أن هناك فرضاً كفائياً ، الصيام فرض عينٍ أداءً وقضاءً ، فلو أن إنساناً كان معذوراً في رمضان لمرض أو لسفر ، أداء قضاء الصيام أيضاً فرض عين ، فالصيام فرض عين أداءً وقضاءً ، على من توافرت فيه شروط الوجوب ، ثبتت فرضية الصيام بالقرآن الكريم ، حيث قال الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة : 183]

هذه آية فرضية الصيام إن شاء الله تعالى ، ستشرح بإذن الله في درس الجمعة القادم ، الذي يأتي قبل شهر الصيام ، وفي السنّة قال عليه الصلاة والسلام :

((بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِة الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[البخاري وابن خزيمة عن عبد الله بن عمر]

وفي حديث آخر رواه الإمام البخاري ومسلم :

((صُومُوا لِرُؤْيَتِه ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ ،فَإِنْ غُبِّيَ عَلَيْكُمْ ، فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

الأمر موجه إلى الجماعة ، المسلم إذا رأى الهلال ، أو إذا علم بظهور الهلال عليه أن يصوم ، صوموا أيها المسلمون جميعاً لرؤيته ، وقد استنبط بعض العلماء من هذا الحديث : أنه يكفي أن يرى مسلم ثقةٌ عدلٌ هلال رمضان ، حتى يجب الصيام على كل المسلمين في شتى أقطارهم ، لو توافر نقل الخبر كما هي الحال الآن .

من أنكر فرضية الصيام فقد كفر :

الآن من أنكر فرضية الصيام فقد كفر ، لماذا الصيام ؟ لا جدوى من هذه ، هذا سلوك غير معقول ، من يقول هذا الكلام فقد كفر ، من أنكر فرضية الصيام فقد كفر ، كمن أنكر فرضية الصلاة والزكاة والحج ، ومن صام وترك الصلاة – وكثيراً ما يفعل هذا بعض الناس – ومن صام وترك الصلاة فقد ترك الأهم من أركان الإسلام ، لأنه كما بيّنا في الدرس الماضي الصيام من أجل الصلاة ، والحج من أجل الصلاة ، والزكاة من أجل الصلاة، والصلاة من أجل الصلة بالله عز وجل ، فمن صام ولم يصلِّ فقد ترك الأهم ، فإن لم يكن مؤمناً بما ترك كان مرتداً لا ينفعه صوم ولا عبادة ، وإن كان مؤمناً بما ترك لكنه ترك هذا كسلاً أو غلبة كان فاسقاً ، وهذا فيما جاء في السنّة ، وأما الإجماع فقد أجمع علماء الأمة على فرضية الصوم ، وعلى أنه ركن من أركان الإسلام.

شروط وجوب الصيام :

الحقيقة على من يجب الصيام ؟ لدينا شروط وجوب ، وشروط أداء ، وشروط صحة.

يجب الصيام على كل مسلم ، لأن الإسلام شرط الخطاب بفروع الشريعة ، أي إنسان مخاطب بأصل الشريعة .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾

[سورة البقرة : 21]

الله سبحانه وتعالى دعا كل الناس قاطبة إلى معرفته ، وإلى عبادته ، فإذا آمنت بالله عز وجل أنت الآن معني بفروع الشريعة ، والصوم من أكبر هذه الفروع ، إذاً الصيام يجب على المسلم ، والعاقل أيضاً إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب ، ويجب على البالغ أن يكون الصائم مسلماً عاقلاً بالغاً ، في البلوغ كما تعرفون الاحتلام للفتى أو الفتاة ، أو الحيض بالنسبة إلى الفتاة ، وإلا فأن يبلغ الشاب أو الشابة خمسة عشر عاماً . لكن أيها الأخوة ، عليكم أن تحضّوا أولادكم في سن دون هذا السن على الصيام ليألفوا هذه العبادة ، حتى إذا بلغوا السن الشرعي التي توجب الصيام كان الصيام عندهم مألوفاً.

شيء آخر : العلم بالوجوب لمن أسلم بدار الحرب ، فالإسلام والعقل والبلوغ والعلم بالوجوب لمن أسلم بدار الحرب ، إذا الإنسان أسلم بدار الحرب ، ماذا يقابل هذه الدار؟ دار الإسلام ، هناك دار الإسلام ، ودار الأمان ، ودار الحرب ، الأرض فيها بلاد المسلمين ، إذا كنت مقيماً في بلاد المسلمين فلا عذر لك بالجهل ، مستحيل ، لا بد من أنك سمعت في مدرستك الابتدائية والإعدادية والثانوية وفي الجمعة وفي الخطب أو من أهلك... لا بد

من أنك عرفت هذه الفريضة ، لذلك لا جهل في ديار الإسلام ، ولكم من أسلم في دار الحرب ، ودخل رمضان، ولم يعلم بدخوله ، ولم يعلم بفرضيته فلا شيء عليه .

إذاً الإسلام والعقل والبلوغ والعلم بالوجوب لمن أسلم بدار الحرب ، هذه شروط الوجوب .

شروط أداء الصيام :

الآن ما شروط الأداء ؟ الصحة من المرض ، بالمناسبة أي أمر إلهي ، إن هذا الأمر من عند خالق الكون ، وخالق الكون هو خالق الإنسان وهو الذي يعرف ما يحتمل وما لا يحتمل ، لذلك حينما قال الله عز وجل :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا ﴾

[سورة البقرة الآية : 286]

فأي أمر إلهي هو قطعاً في وسع النفس أن تفعله ، إذاً إذا دعوت إلى الله ، أو إذا حادثت إنساناً لا تقبل منه إطلاقاً أن يقول : لا أستطيع لأن أي أمر إلهي حينما أمرنا الله به ، الذي أمر هو الخالق ، والخالق هو الخبير ، قال تعالى :

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

[سورة فاطر: 14]

فالأمر ضمن الوسع ، أما الله سبحانه وتعالى فإذا كان هناك عذر قاهر ، هو نفسه الذي أمر بالصيام أمر بالرخصة ، قال تعالى :

﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

[سورة البقرة: 184]

إذاً يصح ترك الصيام في حالة المرض والسفر ، بالمناسبة : قد يقول قائل : السفر الشاق ؟ لا ، مطلق السفر يجيز الإفطار ، العلّة هي السفر ، والحكمة هي المشقة ، ولأن ضبط المشقة بالدقة صعب ، يا ترى هل هناك مشقة ؟ إنسان يسافر على فرس ولا يتعب وإنسان يركب طائرة ويتعب ، فلأن عنصر المشقة لا يضبط لذلك كانت العلة هي السفر أما المشقة فهي الحكمة من ترخيص الإفطار للمسافر .

لكن الإنسان معه ميزان إذا سافر سفراً قصيراً مرتاحاً ، ليس هناك مشقة الأولى أن يصوم لقوله تعالى :

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: 184]

شرط آخر : الخلوُّ من حيض ونفاس بالنسبة للمرأة ، فلا يجب الأداء على الحائض ولا النفساء ، ولا يجب الأداء على المريض ، هنا المشكلة ، من هو المريض ؟ هذا الذي يتوهم أن هذا المرض لا يناسبه الصيام هذا كلامه مردود ، المريض الذي يضره الصوم أو يؤخر شفاءه ، أو لا يحتمله لا برأيه بل برأي طبيبٍ مسلمٍ حاذقٍ ورعٍ تقيٍ ، لا يجوز أن تفطر برأيك ، إلا برأي طبيبٍ مسلمٍ حاذقٍ مخلصٍ .

أما شروط صحة الأداء من أجل أن يكون الصيام صحيحاً فلا بد من النّية في وقتها كل يوم ، وكلكم يعرف نويت صيام هذا الشهر إيماناً واحتساباً .

النية تفرق العادة عن العبادة :

سؤال : يا ترى لماذا النية ؟ لو فرضنا إنساناً في أيام الشتاء القصيرة استيقظ في الساعة الحادية عشرة ، وليس في نفسه رغبة للطعام فانصرف إلى عمله وانشغل به حتى غابت الشمس ، فأكل ، هل هذا صيام ؟ لا ، هذا عادة ، كيف نفرق العادة عن العبادة ؟ بالنية ، هناك فرق بين العادة والعبادة ، وأخطر ما في العبادة أن تصبح عادة لا معنى لها ، لذلك تأتي النية دائماً لتجعل من هذا السلوك سلوكاً تعبدياً لله عز وجل ، النية إذاً شرط صحة لا أداء.

سبب الصيام :

ما سبب الصيام ؟ نحن لدينا قاعدة : هناك سبب أو شرط ، وقد يلتقي السبب مع الشرط ، مثلاً لو رجل مسافر في وقت مبكر وبقي لأذان الفجر نصف ساعة ، أبإمكانه أن يصلي مقدماً ؟ لا ، لأن دخول الوقت شرط لصحة الصلاة ، كذلك الصيام سببه شهود جزء من الشهر صالح للصوم ، لو شهدت جزءاً من الشهر صالحاً للصوم فقد وجب عليك الصيام ، كيف يشهد ؟ عن طريقين ، رؤية الهلال أو العلم بدخول شهر رمضان ، والإنسان أحياناً مشكلة صغيرة جداً يكبرها إلى درجة غير معقولة ، أنت إذا سمعت أن غداً أول أيام رمضان عليك أن تصوم من دون تعقيدات ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول :

((صَومُكُمْ يَومَ تَصُومُونْ ، وَفِطْرُكُمْ يَوْمَ تُفْطِرُونَ ، وَأَضْحَاكُمْ يَوْمَ تُضَحُّونَ ، وَكُلُّ عَرَفَةَ مَوْقِفٌ ، وَكُلُّ مِنًى مَنْحَرٌ ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ مَنْحَرٌ ، وَكُلُّ جَمْعٍ مَوْقِفٌ))

[أبي داوود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والإنسان ضمن مجموع فإذا رأى بأم عينه الهلال عليه أن يصوم ، أما إذا بلغه أن غداً أول أيام شهر رمضان فعليه أن يصوم ، غير مكلف كل مواطن أن يعمل قاضياً شرعياً ، كل مواطن على حدة ، لا ، فعلاً ظهر الهلال أو لم يظهر ، ما حكم صيامنا ؟ ما حكم فطرنا ؟ هذه فتنة ، أنت مسلم في بلد إسلامي ، ويوجد إنسان مسؤول عن هذا الأمر وهو القاضي الشرعي ، فإذا قال لك القاضي الشرعي : غداً أول أيام شهر رمضان ، انتهى الأمر، أنت فرد مسلم ، ولست قاضياً شرعياً ، ولست خبيراً بالفلك ، هذا فوق طاقتك ، وذلك عن طريق رؤية الهلال أو العلم بدخول شهر رمضان ، وكل يوم من أيام رمضان سبب لأدائه ، فمن أسلم وبلغ في أيام رمضان وجب أن يصوم ما تبقى منه ، هذه قاعدة ، هذا هو السبب.

أما الركن : فهو الكفّ عن قضاء شهوتي البطن والفَرجْ ، ترك سائر المفطرات، تعريف ألطف : ترك سائر المفطرات ، وعما أُلحِقَ بهما ، الدواء ليس غذاء لكنه ملحق بالغذاء ، من طلوع الفجر الصادق لأنه قبل الفجر هناك فجر كاذب ، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس .

حكم الصوم :

حكم الصوم : سقوط الواجب في الذِّمة ، نحن دائماً الحكم له تعريف مادي ، وله تعريف آخر ، الصلاة لها أحكام ظاهرة ولها أسرار ، لها حكم ، ولها أحكام ، والصوم له حكم ، وله أحكام ، فحكم الصوم الظاهري سقوط الواجب من الذِّمة ، والثواب تكرماً من الله تعالى في الآخرة ، على شرط ألا يكون هذا الصوم منهياً عنه ، النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن صوم العيدين ، وعن صوم أيام التشريق ، وعن صوم يوم عرفة للحجاج ليَتَقَوَوا على الطاعة ، فإذا لم يكن هذا منهياً عنه ، فرجاء الثواب من الله عز وجل ، لكن نحن في درس الجمعة إن شاء الله حينما نتلو قوله تعالى :

>﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة : 183]

هذه لعل تفيد أن حكمة الصيام أن تصل إلى التقوى ، والتقوى لها تعاريف كثيرة إن شاء الله تعالى نأخذها في درس قادم .

الأعذار المبيحة للإفطار :

1 . المرض :

الآن ما الأعذار المبيحة للإفطار؟ أولاً المرض ، لقوله تعالى :

﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾

[سورة البقرة: 184]

المراد بالمرض : المرض الذي يضر معه الصوم ، هذه واحدة ، أو يزداد بالصوم ، أو يتأخر به الشفاء ، هذه الثالثة ، الرابعة : أو يحصل به مشقة شديدة لا تحتمل، أربع صفات ؛ المرض الذي يضر معه الصوم ، أو يزداد المرض بالصوم أو يتأخر ، ضرر زيادة تأخر بالصوم ، أو يحصل بالصوم مشقة شديدة لا تحتمل ، هذا هو المرض الذي يوجب الفطر ، أو إذا غلب على ظن الصحيح ، ما معنى إذا غلب على ظن الصحيح ؟ أي أيقن ، لدينا تَوَهم بالمئة ثلاثون ، وشَكّ بالمئة خمسون ، وظَن بالمئة سبعون ، وغلب على ظنه بالمئة خمس وتسعون عبارة أخرى تيقّن ، أما قطع فبالمئة مئة ، وَهْمْ شَك ظن غلبة ظن يقين قطع ، إذا غلب على ظن الصحيح أنه إذا صام سيحصل له مرض شديد بتجربة ، مثلاً معه قرحة فإذا ترك الطعام ساعتين أو ثلاث ساعات من دون حليب آلام لا تحتمل ، مصاب بقرحة مزمنة ، نقول : غلب على ظن هذا الصحيح غلب على ظنه بتجربة سابقة أن الصيام يؤذيه ، أو بإخبار طبيب مسلم صادق تقي ، فيجوز له الفطر أيضاً وعليه القضاء. اسمعوا الآن : أما ظن الصحيح المبني على ضعف إرادة ، وقلة عزيمة ، ووهم بأن جسمه لا يحتمل الصوم ، إذا ظن ظنوناً فقط ولم يغلب على ظنه ، فهذا الظن مبني على ضعف إرادة ، وعلى قلة عزيمة ووهم بأن جسمه لا يحتمل الصوم ، وأنه سيحصل له مرض بالصوم شديد فلا عبرة بظنه بل عليه أن يصوم ، وعندما تنهار قوته في أثناء الصيام ويخشى حدوث المرض أو أن يهلك ، عندئذ يفطر ويقضي ما عليه ، أحياناً يكون عندك يقين أو غلبة ظن ، بأنه من خلال تجربة سابقة أو عليك أن تبدأ بالصيام ، فإذا انهارت قوى الإنسان في أثناء الصيام عندئذ يفطر .

2 . الزمانة :

قال : هناك سبب آخر للفطر وهو الزمانة ، الزمانة أي المرض المزمن ، هناك أمراض لا يُرجى شفاؤها ومزمنة، في مثل هذه الحالة يعد هذا المرض المزمن عذراً للإفطار ، إلا أن عليه أن يدفع هذا المريض صاحب المرض المزمن فدية ، وهي نصف صاع من القمح الآن يعادل ألفي غرام أي اثنين كيلو قمح ، لكن على أي سعر ؟ على السعر الحر ، لدينا سعر مدعوم ، وسعر حر ، اثنان كيلو قمح على السعر الحر هذه فدية من يفطر بسبب مرض مزمن ، ويمكن أن تدفع ثمن القمح إلى فقير ، ليس شرطاً أن يكون الدفع قمحاً ، القمح الآن ممنوع نقله أساساً ، يمكن أن تدفع ثمن القمح إلى فقير .

يجوز أن تُدفَع هذه الفدية لفقراء أو لفقير واحد ، ومن لم يقدر ، إنسان مصاب بمرض مزمن وفقير ، نقول له : لا شيء عليك ، أما إذا شفي من هذا المرض فعليه القضاء وإن كان قد دفع فدية سابقاً ، هذا ماذا حصل معه ؟ هو دفع فدية على أساس أن مرضه مزمن والله عز وجل شفاه ، نقول له : هذه الفدية التي دفعتها من قبل تنقلب إلى صدقة ترميماً لهذا الإفطار ، بسبب مرض مزمن تنقلب إلى صدقة .

3 . الإكراه الملجأ بقتل أو قطع عضو أو ضرب مبرح :

ما العذر الآخر الذي يبيح الإفطار ؟ الإكراه الملجأ بقتل ، لدينا قاعدة بالإسلام: الإسلام في الأصل جاء لحفظ الدين ، ولحفظ النفس ، ولحفظ العقل ، ولحفظ العرض ، ولحفظ المال ، فهذه الأشياء الخمس لو درست قوانين العالم ، لو درست كل الشرائع لا تزيد عن حفظ هذه المصالح الأساسية ، دين الإنسان ، هذا الدعاء الشريف : " اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا " أنت بالدين تسعد في الدنيا والآخرة ، أنت تسير على نظام وعلى منظومة قيم ، تسير على تعليمات الصانع ، أنت مطبِق لتعليمات الخبير ، أنت مطبِق لدستور من عند حكيم عليم ، فالدين أصل صلاح الدنيا والآخرة ، هو في المقدمة ، حفظ النفس ، بقاء الحياة ، الحياة غالية جداً ، مثلاً أنت إذا كنت تصلي وأنت واقف بين يدي الله عز وجل ورأيت طفلاً كاد أن يقع في حفرة سحيقة ، من منكم يظن أو يصدق أن هذا المصلي إذا بقي يصلي فقد وقع في إثم كبير ، يجب أن تقطع صلاتك لإنقاذ هذا الطفل ، لأن الحياة عند الله غالية جداً ، إذاً الحياة تأتي بعد الدين ، لكن بالترتيب ، لذلك يجوز بذل النفس حفاظاً على الدين، وهذا هو الجهاد ، دائماً الأدنى يبذل من أجل الأعلى ، نبذل حياتنا من أجل الدين ، ونبذل المال من أجل الحياة، لو إنسان قال لك : إما أن تدفع لي أو أقتلك ؟ لا خذ ، أنت لست آثماً لأن الحياة أغلى من المال ،

والعقل كذلك والعرض والمال وهكذا....

بالمناسبة الدين والحياة والعقل والعِرض والمال ، هذه أيضاً في كل واحدة منها ضرورات وحاجات ومتممات ، لك أن تضحي بالمتمم من أجل الحاجة ، ولك أن تضحي بالحاجة من أجل الضرورة ، إذاً عندك شكل فيه خمسة حقول أفقية وثلاثة حقول عرضية مجموعهم خمسة عشر بنداً ، مثلاً : كشف العورة حرام ، لكن امرأة مريضة ، ومرضها وبيل والطبيب رجل ، نُضَحي بهذا الحكم من أجل الحفاظ على الحياة ! هذه قاعدة دقيقة جداً، إذاً الإكراه الملجأ بقتل أو بقطع عضو أو ضرب مبرّح هذه أعذار تجيز لصاحبها أن يفطر.

أما أن تقول : أخاف أن أصوم فيأخذون عني فكرة ، لا سيدي صم ولا عليك شيء ، دعهم يأخذون عنك فكرة ، أخاف أن أصوم فأحرج الآخرين هذا كلام الفسّاق أساساً الإكراه الملجأ بقتل ، أو قتل عضو ، أو ضرب مبرح ، هذا الذي يبيح الفطر .

4 . الشيخوخة :

الشيخوخة وهي العجز الذي يصيب الرجل أو المرأة بسبب كبر السن ، فيعجز عن الصوم إلا بمشق ، أمامه صندوق كبير من الأدوية بعضها قبل الطعام بساعة ، وأدوية مشكلة ملونة ، وبحاجة إلى مواد مغذية ، وبقي جلدة وعظمة فممكن بهذه الحالة أن يفطر ، فالشيخوخة سبب كاف للإفطار ، على أن يدفع عن كل يوم يفطره فدية كما تعلّمنا قبل قليل ، نصف صاع من البر .

5 . الحمل و الإرضاع :

الحمل والإرضاع أيضاً عذران يجيزان الفطر لكن النساء أنواع ، هناك امرأة وهي حاملة وهي مرضعة ذات بنيةٍ قوية ، أما هناك امرأة فإذا حملت وَهَنَ جسمها ، وربنا عز وجل قال :

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾

[سورة لقمان: 14]

والإرضاع كذلك ، الإرضاع يقع بالدرجة الأولى ، الآن بلغني حتى كل شركات الحليب للصغار.... لا شيء يعادل حليب الأم لماذا ؟ لأن هذا الحليب أولاً يأتي هذا الطفل معقماً ، ويأتيه بارداً في الصيف دافئاً في الشتاء ، ويأتيه معيّراً تعييراً يومياً ، نحن بعلب الحليب التعيير شهري ، كل أربعة أسابيع نضيف ملعقة ، العلماء قالوا :

تعيير حليب الأم يومي ، وفي هذا الحليب مادة تمنع التصاق الجراثيم بالأمعاء ، وفي هذا الحليب مادة تطهر الأمعاء ، لذلك أغلب الإرضاع الطبيعي الطفل ينجو من التهابات الأمعاء ، وإذا سألتني عن أكثر أمراض الأطفال شيوعاً لقلت لك : الإنتانات المعوية ، وحليب الأم فيه كل مناعة الأم ، كل مناعتها ، جميع اللقاحات التي تلقحتها الأم موجود في حليبها ، لذلك لا شيء يعدل حليب الأم.

والحمد لله رب العالمين

الفصل الثالث : الصلاة

الدرس 1 : أحكام الأذان والإقامة .... فضل قراءة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الأذان والإقامة سنةٌ مؤكدةٌ :

أيها الأخوة المؤمنون، أنهينا موضوع الصيام وموضوع الزكاة وكانا موضوعين مناسبين لشهر الصيام، وكنا قد بدأنا قبل رمضان بموضوعات في الفقه عن الصلاة والطهارة والوضوء وما شابه ذلك، وها نحن أولاً نتابع هذا الموضوع اليوم عن الأذان، فالأذان والإقامة سنةٌ، وهما سنةٌ مؤكدةٌ، إذ يوجد سنة مؤكدة داوم عليها عليه الصلاة والسلام كالفرائض ولو منفرداً، فإذا سمع الإنسان الأذان وكان في البرية أو في الخلاء وأراد أن يصلي وحده سنّ له أن يؤذن أداءً وقضاءً، فلو صليت فرض الظهر في وقته أو إن صليته قضاءً يسن لك الأذان، الأذان جماعةً ومنفرداً، أداءً وقضاءً، سفراً أو حضراً، ست حالات للرجال، وكره للنساء لأن صوت المرأة عورة، أي إذا قالت المرأة: أشهد أن لا إله إلا الله ووقفت أمام المذياع لتؤذن فصوتها عورة، وتفسد به صلاة الرجال، فكيف إذا غنت وتأوهت وتمايلت وتكسرت وترنحت؟ إن قالت: أشهد أن لا إله إلا الله تفسد صلاة الرجال فكيف إذا غنت؟

التمهل بالأذان و الإسراع بالإقامة :

ويكبر المؤذن في أوله أربعاً، الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر، ويسن تكبير آخره، وآخره يكبر تكبيرتين فقط، فأربع تكبيرات في أول الأذان وتكبيرتان في آخره كباقي ألفاظه، فألفاظه كلها مثنى مثنى، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله، حي على الصلاة حي على الصلاة،

حي على الفلاح حي على الفلاح، والإقامة مثله تماماً ويزيد بعد فلاح الفجر الصلاة خير من النوم، وبعد فلاح الإقامة قد قامت الصلاة، وعلى المؤذن أن يتمهل في الأذان ويسرع في الإقامة، ويستحسن أن يكون المؤذن صالحاً، عالماً بالسنة وأوقات الصلاة، وعلى وضوء مستقبل القبلة إلا أن يكون راكباً يصلي صلاة الخوف فلا يشترط في هذه الحالة أن يستقبل القبلة، لأن :" قبلة الخائف جهة أمنه، وقبلة المسافر جهة دابته ". وأن يحول وجهه يميناً بالصلاة ويساراً بالفلاح، ويفصل بين الأذان والإقامة بقدر ما يحضر الملازمون للصلاة، جرى خلاف أنه بين أذان الفجر والصلاة نصف ساعة لأن النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم كان يسفر أي إلى أن تسفر الوجوه، أي إلى أن تبدو ملامح الوجوه، وكان يبرد في صلاة الظهيرة إن كان الحر شديداً، فصلاة الظهر بعد الأذان بنصف ساعة، وكذلك العصر، أما صلاة المغرب والعشاء فبعد الأذان بخمس دقائق، وهذا الترتيب مأخوذ من السنة، ويفصل بين الأذان والإقامة بقدر ما يحضر الملازمون للصلاة مع مراعاة الوقت المستحب.

بعض أحكام الأذان :

والملاحظ أن النبي عليه الصلاة والسلام طلب من المؤذن أن يقيم الصلاة هو نفسه، فإذا كان المؤذن على المئذنة ونسيناه وأقمنا الصلاة فهذا ليس وفاء، فضماناً لحضوره معنا نقول: الذي أذن هو الذي يقيم الصلاة، ويستحب أن يقول المؤذن قبل الصلاة: الصلاة الصلاة، ويكره التلحين في الأذان، وإقامة المحدث وأذانه – فإذا كان غير متوضئ لا يجوز أن يؤذن ولا يقيم الصلاة – وكذلك أذان الجنب، فغير المتوضئ حدث أصغر وغير الطاهر الجنب حدث أكبر، وكذلك الصبي الذي لا يعقل، و المجنون، و السكران، وأذان المرأة مرفوض كما قلنا، و الفاسق، و القاعد، فلا يؤذن قاعداً، والكلام خلال الأذان والإقامة يكره، وإذا أردت السنة المطهرة فسمعت المؤذن فاسكت، ويستحب إعادته دون الإقامة، أي وإذا جرى حديث أثناء الأذان فيجب أن يعاد الأذان، وإذا كنا في سفر أو في نزهة وقلنا لأحدنا: قم فأذن فلا ينبغي لأحد أن يتكلم، فإذا تكلمنا فيجب أن يعاد الأذان، ولا تعاد الإقامة، ويكره الأذان لظهر يوم الجمعة في المصر، فأناس فاتتهم الجمعة فأذنوا ليصلوا الظهر هذا الأذان مكروه لأن صلاة الجمعة تجزئ عن صلاة الظهر، وهذا مما يشوش على المسلمين، وقد يؤذن للفائت، إذا إنسان فاتته صلاة في غير وقتها يستحب أن يؤذن لهذه الصلاة ويقيم أيضاً، وبعضهم قال: لأولى الفوائت، لو نوى أن يصلي مجموعة صلوات فاتته يؤذن ويقيم لأول فائتة، وكره ترك الإقامة دون الأذان، أي أذان وإقامة، ولكن أحدنا إذا

سمع المؤذن انتهى الأمر، وهذا الكلام إذا كان أحدكم يجلس في البرية، أو في الريف، في مكان لا يوجد فيه مسجد، أما إذا كان في بيته وسمع الأذان من مجموعة مآذن فبقي عليه الإقامة فقط، وإذا قام المصلي يقيم الصلاة.

ما يقوله المسلم عند سماع الأذان :

والآن المسلم إذا سمع الأذان ماذا يقول؟ أول شيء أمسك اسكت وقل مثل قوله، فإذا قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، يردد معه المستمع أشهد أن لا إله إلا الله، وإن قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله يردد معه المستمع طبعاً بصوت منخفض أشهد أن محمداً رسول الله، أما إذا قال: حي على الصلاة، يقولون: إعادة الأمر استهزاء، إذا أحد أمرك بأمر وأنت أعدته له مرة ثانية هذا استهزاء، ففي قول المؤذن: حي على الصلاة تقول أنت: لا حول ولا قوة إلا بالله، حوقل أي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، سبحل أي قال: سبحان الله، دمعز قال: أدام الله عزك، بسمل قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كبر قال: الله أكبر، هلل قال: الله أكبر، حي على قال: حي على الصلاة، إذا سمع المسلم الأذان المسنون أمسك وقال مثله، وحوقل في الحي علتين، إذا إنسان أراد أن يقرأ بمفرده يقول: ما معنى حوقل في الحي علتين؟ أي في حي على الصلاة يحوقل يقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي حي على الفلاح يحوقل ويقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، ويستحب أن يقول المسلم مع المؤذن صدقت وبررت، وله أن يقول هذا أيضاً عند قوله الصلاة خير من النوم، ويستحب لمن يقيم الصلاة أن يقول: "اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته".

والآن قبل أن يصلي الإمام يقرأ هذا الدعاء، وهذه بعض أحكام الأذان وفي درس قادم إن شاء الله ننتقل إلى شروط الصلاة وأركانها.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 2 : أحكام الصلاة : الفرائض ....أحاديث في ذم تلاوة الغافلين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الصلاة فرضيتها و أسبابها :

أيها الأخوة المؤمنون، تحدثنا في دروس سابقة عن الأذان، وعن موضوعات متممة، وها نحن أولاً نبدأ بموضوع الصلاة، يشترط لفرضيتها ثلاثة أمور : الإسلام والبلوغ والعقل، ولكن الأولاد قبل أن يبلغوا وقبل أن يعقلوا يؤمرون بها بسبع سنين، ويضربون على تركها بعشر سنين، ولكن الفقهاء نصوا على أن الضرب بيد لا بخشبة، بالخشبة تعقده، وأسبابها وأوقاتها: فما الذي يسبب فرض الصلاة؟ دخول الوقت، والصلاة تجب بأول الوقت لكن وجوباً موسعاً، ما معنى وجوباً موسعاً؟ أي أنت إذا كنت في حرج شديد فيمكن أن تصلي الظهر بعد نصف ساعة، فالوجوب ليس مضيقاً بل موسع، ولكن أحب الأعمال إلى الله الصلاة في أوقاتها، ومن أخّر الصلاة أذهب الله البركة من عمره.

أوقات الصلاة :

ووجوب الصلاة وجوبٌ موسع، والأوقات خمسة: وقت الصبح من طلوع الفجر الصادق – الفجر الكاذب طولي أما الصادق فعرضي – إلى قبيل طلوع الشمس، وقبيل اسم مصغر وهذا تصغير تقريب، ووقت الظهر من زوال الشمس أي إذا كانت الشمس في كبد السماء تماماً، فإذا تحولت عن كبد السماء فقد زالت، من زوال الشمس إلى أن يصير ظل الشيء مثليه أو مثله، تسمعون أحياناً أن هناك عصر أول وعصر ثانٍ، والعلماء على خلاف بين أن يكون ظل الشيء مثله العصر الأول، وظل الشمس مثليه العصر الثاني، ولذلك فالأحوط أن تصلي الظهر قبل أن يصبح ظل الشمس مثله، فإذا دخلت بين المثل والمثلين دخلت في الشبهة، والأحوط أيضاً أن تصلي

العصر بعد أن يكون ظل الشمس مثليه، أي بين المثل الأول والمثل الثاني لا ظهر ولا عصر يمكن أن تصلي، وقبل أن يكون ظل الشيء مثله هذا وقت الظهر، وبعد أن يكون ظل الشيء مثليه هذا وقت العصر. ووقت العصر من ابتداء الزيادة على المثل أو المثلين والأحوط المثلين إلى غروب الشمس، والمغرب منه أي من غروب الشمس إلى غروب الشفق الأحمر، وهذا هو العشاء.

لكن بالمناسبة تقول: إن الشفق الأحمر غاب لأقوم وأصلي العشاء، لا أنت مسلم في بلد إسلامي، وهناك نظام وتقويم وأذان ومساجد، فإذا خالفت الجماعة اتهمت اتهامات خطيرة، والآن أنت لا علاقة لك بغروب الشفق الأحمر، علاقتك بأذان العشاء، لكن إذا كنت في فلاة أي في مكان ليس فيه أذان، فيجب أن تعلم أن وقت العشاء دخل أو لم يدخل، هذا لكي تكون على علم، أما إذا كنت في الحضر ففي المدن مواقيت الصلوات في التقاويم، وفي الأذان الذي تسمعه هو الحكم، أما إذا سافرت إلى أوربا فلا يوجد أذان بضاحية لمدينة، ولا يوجد مساجد، فيجب أن تعلم أن غياب الشفق الأحمر يعني ذلك أن وقت العشاء قد دخل.

والعشاء والوتر من غروب الشفق الأحمر إلى الصبح، ولا يقدم الوتر على العشاء فيجب أن تراعي الترتيب، ولا يجمع على المذهب الحنفي بين فرضين في وقت بعذر إلا في عرفة للحاج بشرط الإمام الأعظم والإحرام، هذا رأي الإمام أبي حنيفة، ولكن الإمام الشافعي يجيز أن تجمع في الضرورات وفي السفر بين وقتين جمع تقديم أو جمع تأخير، ويستحب الإسفار بالفجر للرجال، أي أن تكون الصلاة بعد نصف ساعة من أذان الفجر، وهذا الوقت اسمه وقت الإسفار، فالوجوه تتضح، والعبارة المشهورة: تتعارف الوجوه، لو ألقيت على أخيك نظرةً عرفته وهذا قبل الكهرباء، أما الآن فإذا دخلت إلى المسجد تعرفه، أخي عرفنا بعضنا والإضاءة موجودة، ولو رأيته على الضوء الاعتيادي على ظلمة الليل لا تعرفه، أما بعد الفجر بنصف ساعة فتتعارف الوجوه، والسنة أن يصلى الفجر بعد أذان الفجر بوقت كاف كي تتعارف به الوجوه، والجوامع تقريباً جرت على أن يكون بين أذان الفجر وبين الصلاة نصف ساعة، ولكن إذا كنت مسافراً ودخلت إلى مسجد فبإمكانك أن تصلي الفجر بعد الأذان مباشرةً، وإذا كنت مسافراً ووصلت إلى حمص مع أذان الفجر وأنت بحاجة إلى وقت نقول لك: صلِّ الفجر مع الأذان، أما إذا كنت في حيك وفي جماعة فالأولى أن يصلى الفجر بعد مضي نصف ساعة من أذان الفجر، والإبراد بالظهر في الصيف، حيث يكون الحر شديداً أيضاً من السنة أن نؤخر صلاة الظهر أيضاً نصف ساعة كي تخف حدة الحر، وتعجيله في الشتاء، وفي الشتاء ربع ساعة، إلا يوم غيم فيؤخر به احتياطاً، وتأخير العصر جائز ما لم تتغير الشمس، الشمس بيضاء ساطعة لكن بعد العصر يتغير لون الشمس من اللون الأبيض إلى

اللون البرتقالي، وتأخير العصر ما لم تتغير الشمس، وتعجيله في وقت الغيم احتياطاً، وتعجيل المغرب من السنة لأن المغرب غريب كما يقولون، إلا في يوم غيم فيؤخر قليلاً لعل الشمس لم تغب بعد.

ثلاثة أوقات لا يصح فيها شيء من الفرائض والواجبات :

والآن بموضوع الساعات فالموضوع بالآذان محلول تقريباً، وتأخير العشاء إلى ثلث الليل، أي العشاء بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً مكروهاً أما الوتر فيمكن أن تصليه قبل صلاة الفجر بخمس دقائق، وتأخير الوتر إلى آخر الليل إذا لم يثق الإنسان بالانتباه، أي إن لم يستيقظ قبل الفجر فلا عليه أن يؤخر صلاة الوتر. ثلاثة أوقات لا يصح فيها شيء من الفرائض والواجبات التي لزمت في الذمة لا في الحاضر، أنت مثلاً لم تصلِّ العصر فنظرت فإذا الشمس على وشك أن تغيب ماذا تفعل؟ نقول لك: صلّ العصر، إذا كان عليك عصر سابق فلا يصلى في الأوقات المكروهة – الفرائض والواجبات التي لزمت في الذمة لا ينبغي أن تصلى في الأوقات المكروهة – ثلاثة أوقات لا يصح فيها شيء من الفرائض والواجبات التي لزمت في الذمة قبل دخولها، عند طلوع الشمس إلى أن ترتفع مقدار رمحين أي كصلاة العيد تقريباً، ويمكن أن تصلي بعدها، وعند استواء الشمس في كبد السماء إلى أن تزول، أي الشمس في كبد السماء تماماً إلى أن تنحرف عن كبد السماء، وهذا الوقت مكروه، وعند اصفرارها إلى أن تغرب، ثلاثة أوقات مكروهة، ويصح أداء ما وجب فيها مع الكراهية، والعصر ما صليته تصليه في وقت ولو كان قبل غروب الشمس بخمس دقائق يجب أن تصليه هذا ما وجب، أما ما لزم في الذمة مع الكراهة كجنازة حضرت، وسجود آية تلوت، لكن النبي الكريم نهى أن يصلى على جنازة في هذه الأوقات الثلاث المكروهة مع أن دفن الميت في هذه الأوقات غير مكروه، لو إنسان دفن ميتاً قبل غروب الشمس بدقيقة فغير مكروه، وصلاة الجنازة في هذه الأوقات المكروهة مكروهة، وفي هذه الأوقات الثلاث تكره فيها النافلة كراهة تحريم، فمثلاً تحية المسجد هذه نافلة، لا ينبغي أن تصليها في هذه الأوقات الثلاث.

متى يكره التنفل ؟

ويكره التنفل بعد طلوع الفجر بأكثر من سنته، ركعتا الفجر فقط ولكن بعد صلاته يكره التنفل مطلقاً، وبعد صلاة العصر يكره التنفل، وقبل صلاة المغرب، وعند خروج الخطيب إذا صعد المنبر فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ من صلاته، وعند الإقامة إلا في حالة خاصة سنة الفجر دخلت إلى المسجد، وتقام صلاة الفرض، والإمام يقرأ

ويطيل، وأنت متأكد من هذا، فركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها، صلّ ركعتي الفجر ولو أن المؤذن يقيم للصلاة، ولو أن الإمام شرع بالصلاة، وقبل صلاة العيد يكره التنفل، ولو في المسجد، وبعد صلاة العيد يكره التنفل ولو في المسجد، وبين الجمعين، جمع عرفة وجمع مزدلفة، وعند ضيق وقت المكتوبة أي الشمس بدأت تصفر قبل أن تصلي النفل صلّ الفرض، وعند مدافعة الأخبثين، طالما أنك متضايق تريد أن تصلي ما هذه الصلاة؟ وحضور طعام تحبه النفس، يشتهي أن يأكل، جاء إلى البيت يريد أن يصلي نقول له: قم وكل ثم صلّ، وما يشغل البال، جاءته رسالة من ابنه يا ترى هل أرسل لي الحوالة أم لا ؟ نجح أم لا؟ نقول له: افتحها واقرأها وقم وصلّ، اشترى آلة يريد أن يعرف كيف تستعمل، افتحها و اعرف كيف تعمل وقم وصل، كل شيء يشغلك عن الصلاة وما يشغل البال ويخل بالخشوع، طبعاً هذا تقديم للصلاة، وسوف يأتي موضوع الصلاة بشكل تفصيلي إن شاء الله في دروس قادمة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 3 : شروط الصلاة – الآداب الظاهرة لتلاوة القرآن الكريم :الترتيل – الاستعاذة – مقدار القراءة – مواضع الجهر والإسرار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

شروط الصلاة :

1 . الطهارة من الحدث و طهارة المكان و الثوب و الجسد و ستر العورة :

أيها الأخوة المؤمنون، لابد لصحة الصلاة من سبعة وعشرين شيئاً، هذا الكتاب "مراقي الفلاح" سبق أن درسته كله في هذا المسجد، ونظراً لأهمية موضوعاته؛ الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وهذه عبادات الإسلام، والصلاة عماد الدين، نعيده ثانية.

نحن الآن في شروط الصلاة، لابد لصحة الصلاة من سبعة وعشرين شيئاً، أولاً: الطهارة من الحدث، وكلكم يعلم الحدث الأصغر يطهر بالوضوء، والحدث الأكبر وهي الجنابة تطهر بالغسل، وكذلك الحيض والنفاس، فإذا قال الفقهاء: الطهارة من الحدث شرط للصلاة، أي الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر والحيض والنفاس، وطهارة الجسد والثوب والمكان.

لا تكفي الطهارة من الحدث فلابد من طهارة المكان الذي تصلي به وعليه، ولابد من طهارة الثوب، ولابد من طهارة الجسد، هذه الطهارة من نجس غير معفو عنه، إذ يوجد نجس معفو عنه، قليل بالحجم الصغير الجاف، فهذا معفو عنه، وهناك نجس غير معفو عنه ولابد من تطهيره، ولا سيما في طهارة المكان، موضع القدمين واليدين والركبتين والجبهة في الأصح.

((قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ عَلَى الْجَبْهَةِ وَأَشَارَ بِيَدِهِ عَلَى أَنْفِهِ وَالْيَدَيْنِ وَالرُّكْبَتَيْنِ وَأَطْرَافِ الْقَدَمَيْنِ وَلا نَكْفِتَ الثِّيَابَ وَالشَّعَرَ))

[مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا]

وستر العورة، العورة تقسم على طريقتين، يجب أن يستر لونها، ويجب أن يستر حجمها، فالثياب الضيقة التي تصف حجم العضو تماماً وهذا ما يسمح له أهل الأزياء في العصر الحديث، فهذه تصف حجم العورة تماماً، ولو أن الثياب ثخينة لا تصف لونها، إذا قلنا: ستر العورة فالمعني بستر العورة ستر لونها وحجمها، ولذلك فالثياب الفضفاضة. فهذا الثوب الذي يلبسه المصلون في الصلاة إن كان تحته بنطال أيضاً فهو أصح أنواع الثياب في الصلاة لأنه فضفاض ولا يصف حجم العورة ولا لونها.

2 . استقبال القبلة :

ومن شروط الصلاة أيضاً استقبال القبلة، لكن استقبال القبلة على أنواع؛ المكي الذي يصلي وسط المسجد الحرام يجب أن تقع عينه عليها بالذات وهذا استقبال القبلة، يصلي ولا تقع عينه عليها نقول لهذا المصلي في المسجد الحرام: أنت لست مستقبلاً القبلة، فإن كان مكياً أي هناك حاجز يمنعه عن الكعبة يمكن أن يتجه إلى عينها، فللمكي المشاهد فرضه إصابة عينها، ولغير المشاهد جهتها ولو بمكة.

3 . دخول الوقت :

والآن دخول الوقت، فالشرط الثالث دخول الوقت، يقول العلماء: دخول الوقت هو سبب الصلاة، ويقول رجل: أنا أريد أن أسافر فسوف أصلي قبل ربع ساعة من الأذان، وهذه الصلاة غير صحيحة إذ لم يدخل وقتها، فإذا كنت شافعياً وجمعت جمع تقديم أو جمع تأخير فهذا بحث ثان، أما إذا كنت تصلي الصلاة في بلدك فلابد من دخول الوقت، بالمناسبة ودخول الوقت ليس كما تريد، وأنت في مجتمع مسلم إذ يوجد مآذن وجوامع وتقاويم، ويقول لنا: غاب الشفق الأحمر سوف أصلي العشاء، لا هذا ليس من اختصاصك إلى أن يؤذن العشاء، وهناك بلاد مثل مضايا وبقين في غربها جبل فغياب قرص الشمس لا يعني الغروب، فبعد غياب قرص الشمس بربع ساعة يؤذن المغرب، لأنه يوجد جبل مرتفع، وأحياناً في المدن الساحلية يكون هناك غيماً كثيفاً وكأنه جبل فيغيب قرص الشمس قبل ربع ساعة، ويوجد ظروف معينة، ولست في مستوى أن تقول: الآن الشمس غابت، وأنا سوف أصلي

المغرب، إلا إذا كنت مسافراً في طريق صحراوي غير آهل بالسكان، عندئذ تعود إلى مواقيت الصلوات بحسب ما درسنا في هذا المسجد.

ولكن اعتقاد دخوله شرط آخر، فإذا كان الإنسان ليس متأكداً من دخول الوقت، فهذه عبادة مشكوك بها، وهذا الشك يفسد العبادة، فصار عندنا شرطان دخول الوقت شرط واعتقاد دخوله شرط آخر، ويجب أن تعتقد جازماً بأن الوقت قد دخل، ولذلك دائماً يكون هناك احتياط دقائق حتى يكون دخول الوقت حتمياً وفعلياً.

4 . النية والنطق بالتحريمة :

النية، نويت أن أصلي ثلاث ركعات فرض المغرب حاضراً، إماماً مقتدياً، ولابد من التحريمة، من تكبيرة الإحرام بلا فاصل بين النية والتحريمة، تنوي المغرب أحضروا لي كأس شاي، بعد أن شربتها الله أكبر، لابد من أن تكون النية والتحريمة بلا فاصل بينهما.

والآن الإنسان أحياناً يدخل إلى المسجد فيرى الإمام يصلي ركع الإمام وهو في آخر المسجد يركض ويركع ويقول: الله أكبر، وقد أتى تكبيرة الإحرام منحنياً، فالصلاة فاسدة، ولابد من أن تأتي تكبيرة الإحرام قائماً، وأن تأخذ وضعاً منحنياً الله أكبر هذه لم ترد، وكثيراً ما يفعلها المصلون، والإتيان بالتحريمة قائماً قبل انحنائه للركوع، وعدم تأخير النية عن التحريمة، لا تكون النية بعد التحريم، ولا تكون النية بعد التحريمة، الله أكبر نويت أن أصلي أربع ركع، لا يصح ذلك، لأن النية قبل التحريمة.

والنطق بالتحريمة بحيث يسمع نفسه على الأقل، ولابد من أن تلفظ بها لكن يوجد شخص أحياناً يصلي، ويكون هناك مجلس علم فيقول: الله أكبر بصوت مرتفع، هذه قلة ملاحظة يمكن أن تسمع نفسك، لابد من التلفظ بتكبيرة الإحرام، ولا بد من نية متابعة المقتدي إذا نويت أن تصلي ثلاث ركعات فرض المغرب مقتدياً، إذا كنت مقتدياً فيجب أن تذكر بالنية الاقتداء، وإن كنت إماماً فيجب أن تذكر بالنية أنك إمام.

5 . تعيين الفرض :

وتعيين الفرض، إنسان يريد أن يصلي الظهر فينوي صلاة السنة، وهو في الركعة الثالثة رأى أنه سوف يؤذن العصر فقلبها إلى فرض، فهذه لا تصح لأنه نوى السنة فهي سنة، فإذا نوى فرضاً فهو فرض، ولابد من تعيين نوع الصلاة، فرضاً واجباً، العلماء قالوا: لابد من تعيين الفرض، وتعيين الواجب، الفرض معروف فالصبح

والظهر والعصر والمغرب والعشاء، والواجب العيدان والجنازة والوتر، فهذه صلوات لابد من تعيينها، نويت أن أصلي ركعتي العيد، عيد الفطر، ولا يشترط التعيين في النفل، رجل قام ليصلي قيام الليل، بالنفل لا يوجد تعيين، التعيين بالفرض وبالواجب.

6 . القيام في غير النفل :

القيام في غير النفل، رجل يصلي الفرض على القاعد من غير عذر لا يجوز، عذر مقبول، أو عذر كافٍ، التهاب بالمفصل، أما أنا متعب، جئت إلى البيت الساعة الثانية بعد منتصف الليل فصليت و أنت جالس لا يجوز، أما السنة فيمكن لك أن تصليها قاعداً لا الفرض.

والقيام في غير النفل، طبعاً القيام إذا كان صحيحاً، أما إذا كان عنده مرض أو عذر صحي فيجوز أن يصلي الفرض قاعداً.

7 . قراءة ولو آية في ركعتي الفرض وكل النفل :

قراءة ولو آية في ركعتي الفرض وكل النفل، فإذا صلى الإنسان أربع ركعات سنة الظهر، يجب أن يقرأ مع الفاتحة سورةً قصيرةً أو ثلاث آيات في كل ركعة من ركعات النفل، وأربع ركعات قبل العصر في كل ركعة من ركعات النفل يجب قراءة شيء من القرآن، ومعنى القراءة رجل يقف ويصلي مفرداً ولا يوجد حركة في شفاهه، فهذه ليست صلاة، ولابد من أن تقرأ، وأن تسمع نفسك على حد أدنى، ولو آية في ركعتي الفرض.
وقد قالوا – الم – لا تكفي هذه آية – كهيعص – هذه آية – المر – هذه آية –مدهامتان – آية، إمام صلى التراويح فقرأ مدهامتان، فقال له المصلي: لقد أطلت الصلاة يا أخي، فقال له: قرأنا آية واحدة، فقال: اقرأ مدهامة واحدة لا اثنتين.

فالصلاة غير جائزة أن تقرأ – الم – كهيعيص – هذه آية – المر – هذه آية –مدهامتان – لا تكفي ولابد من آيتين جملة تفيد المعنى، قال تعالى:

﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾

[سورة المزمل: 20]

8 . قراءة شيء في الصلاة بشكل مسموع :

لابد من قراءة شيء في الصلاة بشكل مسموع، لكن بعض العلماء قالوا: هذا شرط جائز، لماذا؟ لأن المقتدي لا يقرأ، وقراءة الإمام قراءة للمقتدي، ورجل آخر دخل إلى المسجد ووجد الإمام راكعاً فتبعه، وكبر تكبيرة الإحرام، وركع وأدرك معه تسبيحة، ركعته صحيحة، وإن لم يقرأ بها شيئاً كتبت له ركعة مع أنه لم يقرأ ولم يسمع، لذلك قالوا: قراءة القرآن شرط، وعند بعض العلماء شرط جائز، لأنه يمكن أن تعد لك ركعة ركعتها من دون أن تقرأ فيها، أو أنك سمعت الإمام يقرأ فقراءته قراءة لك.

9 . عدم تعيين شيء من القرآن لصحة الصلاة :

عدم تعيين شيء من القرآن لصحة الصلاة، ولكن العلماء قالوا: إن حفظ القرآن كله فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الكل، لكن الحزب هو الحد الأدنى من القرآن، والحد الأدنى الفاتحة والمعوذتان والعصر والكوثر والقارعة وعدد من السور القصيرة، تكون هذه السور حداً أدنى، وربنا عز وجل أعطاك درساً، مرة إذا زلزلت، ومرة والعصر، ومرة القارعة، ومرة ويل لكل همزة، وتبت يد أبي لهب، وأنا الذي أراه أن جزء عم يجب أن يحفظه جميع الناس، وهو الحد الأدنى لأنه كله عن الإيمان بالله عز وجل والقرآن له مختصر، واختصاره جزء عم.

ومن قرأ الإخلاص فقد قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها ثلاث مرات فكأنه قرأ القرآن كله، وقد يقول شخص: اقرأ لي ختمة على روح الوالدة وهذه مئة ليرة، يقول له: نعم، يقرأ الإخلاص ثلاث مرات ويأخذ مئة ليرة، وفي هذه السورة حديث عن ذات الله، وهناك حديث عن خلقه، وهناك حديث عن شرعه، فالنبي عندما قال: الإخلاص ثلث القرآن معنى ذلك أن ثلثه فيه حديث عن أسماء الله الحسنى، فالإخلاص جمعت قل هو الله أحد الله الصمد، وليس معنى هذا أنك إذا قرأتها ثلاث مرات قرأت القرآن كله، فهذا فهم خاطئ.

10 . لا يقرأ المؤتم بل يستمع :

ولا يقرأ المؤتم، بل يستمع، ونحن ندرس المذهب الحنفي، والنبي الكريم مرة أثناء الصلاة عليه الصلاة والسلام سمع أحداً خلفه يقرأ القرآن.

((عَنْ أَبِـي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْصَرَفَ مِنْ صَلاةٍ جَهَرَ فِيهَا بِالْقِرَاءَةِ فَقَالَ، هَلْ قَرَأَ مَعِي أَحَدٌ مِنْكُمْ آنِفًا، قَالَ رَجُلٌ نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ، إِنِّي أَقُولُ مَا لِي أُنَازَعُ الْقـرْآنَ، قَالَ، فَانْتَهَى النَّاسُ عَنِ الْقِرَاءَةِ فِيمَا جَهَرَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقِرَاءَةِ مِنَ الصَّلاةِ حِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ))

[ابن كثيرعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي حصل تشويش، فالمذهب الحنفي يقول: على المؤتم أن يستمع وينصت، لقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآَنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

[سورة الأعراف: 204]

وإن قرأ كره تحريماً عند الإمام الحنفي، ولكن هذا الموضوع لو توسعنا به قليلاً، لو أن إنساناً يصلي في مسجد كبير، وفجأةً انقطعت الكهرباء، وانقطع مع الكهرباء صوت الإمام، فهل نقول له: أنت حنفي ابق واقفاً هكذا لا حركة ولا سكنة ولا قراءة؟ لا، بل نقول له: اقرأ، على المذهب الشافعي يجب أن تقرأ، ولكن إذا كان واقفاً وراء الإمام وصوت الإمام مسموع بشكل واضح هل تقرأ معه؟ لا، وكلهم من رسول الله ملتمس، رسول الله مرة قرأ ومرة لم يقرأ، والإمام الشافعي أخذ من الرسول، فهذه المذاهب متكاملة وليست متناقضة، واتفاق الأئمة حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة، ولما يسمع الإنسان الإمام بصوت واضح يستمع، وهذا اسمه التقليد، والتقليد في المذاهب مقبول، أما التلفيق فمرفوض، أخي أي مذهب لا يوجد على حلي النساء زكاة؟ أي مذهب ثلاث طلقات بطلقة واحدة؟ ابن تيمية، أنا على ابن تيمية، سموه العلماء التلفيق، تصيد الرخص، يريد أن يرتاح، أما التقليد فمقبول، رجل لامست يده يد زوجته وكأنها مست قطعة أثاث، إذا أحب ألا يتوضأ على المذهب الحنفي لا يوجد مانع، هو شافعي ومست يده يد زوجته وكأن مسح قطعة أثاث فأحب أن يقلد الإمام الحنفي ولا يتوضأ فلا مانع، وإذا كان حنفياً ومست يده يد زوجته وحصل شيء يذهب ويتوضأ ويقلد الإمام الشافعي، قال بعضهم: إن أي عبادةٍ وافقت أحد المذاهب فهي صحيحة عن علم أو عن غير علم، رجل لامست يده يد زوجته ولم يتوضأ، وهو لا يعلم نفسه أحنفي أم شافعي، ولم يتوضأ طالما وافقت المذهب الحنفي صحيحة، وهذه توسعة على الناس، ولذلك التقليد مقبول والتلفيق مرفوض، واتفاق الأئمة حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة، واختلافهم ليس اختلاف تناقضٍ بل اختلاف سعة وتنوع.

اتفاق الأئمة حجة قاطعة واختلافهم رحمة واسعة :

سبحان الله اختلاف الأئمة الأربعة يسع كل الحالات، فالإمام الحنفي أبو حنيفة رضي الله عنه كان في المدينة فقال: الزكاة نقداً، والإمام الشافعي كان في بر مصر فقال: الزكاة عيناً، قمح، كلاهما على حق، حتى إن بعضهم قال: لو أن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه عاش في بيئة الإمام الشافعي لحكم كحكم الشافعي، ولو أن الإمام الشافعي عاش في بيئة أبي حنيفة لحكم بحكمه، والآن نحن في المدينة قل لرجل: أنا أريد أن أعطيك زكاة مالي كيس قمح، فماذا يفعل به؟ يحتاج إلى أدوات نقل، أين يطحنه؟ وأين يخبزه؟ فهذا أعطاه هماً، إذا أعطاه مئتي ليرة يحل بها مشكلاته، أما رجل يسكن في الريف، فالطاحونة جاهزة، والتنور جاهز، تعطيه كيس قمح يقول لك: أفضل من ألف ليرة، المال ليس له قيمة ولا يوجد أحد يبيعه شيئاً، وفي البادية كيس قمح أفضل من ألف ليرة، ولذلك اختلاف المذاهب أحياناً ترى رجلاً منحرف الأخلاق، وله أهل فقراء، والآن نحن نقلد الإمام الشافعي ونعطيه الزكاة عيناً، سكراً أو رزاً أو زيتاً، هذه زكاة، الزوج: إذا كان رب البيت في الطبل ضارباً، يوم في الشرق ويوم في الغرب، وأولاده فقراء جائعون، أما إذا كان أباً حكيماً صالحاً، فالمال يحل به ألف مشكلة، على العيد ينقصه مال لأولاده، ويحتاج إلى محافظ لأولاده على المدارس، وحاجات كثيرة بخمسمئة ليرة يحل بها مشكلات كثيرة، أعطه كيس رز يسوس عنده في البيت، أعطه خمسمئة ليرة أفضل له، لذلك اختلاف المذاهب رحمة. ولا يقرأ المؤتم بل يستمع وينصت، وإن قرأ كره تحريماً.

11 . الركوع والسجود على ما يجد حجمه وتستقر عليه جبهته :

الركوع والسجود على ما يجد حجمه، وتستقر عليه جبهته، ولو على كفه أو طرف ثوبه إن طهر، وسجد وجوباً بما من أنفه وجبهته، الأنف والجبهة، الأنف وحده لا يجوز، والجبهة وحدها لا تجوز، ولا يصح الاقتصار على الأنف إلا من عذر، رجل أجرى عملية في أنفه، وأنفه مضمد أو لكم على أنفه، وأنفه متهشم فيمكن على الجبهة إذا كان هناك عذراً.

12 . عدم ارتفاع محل السجود عن موضع القدمين بأكثر من نصف ذراع :

عدم ارتفاع محل السجود عن موضع القدمين بأكثر من نصف ذراع، يجلس في صحن المسجد وله درجة عالية جلس على الصحن وسجد على الدرجة لا يجوز، لابد من أن يكون مستوى السجود مع مستوى القعود، وإن زاد عن نصف ذراع لم يجز السجود إلا في زحمة المسجد، أو أثناء الحج، في حالات نادرة قصوى يحصل السجود على ظهر الذي أمامك، وهذه لابد منها.

13 . تقديم الركوع على السجود والرفع من السجود إلى قرب القعود :

تقديم الركوع على السجود والرفع من السجود إلى قرب القعود، يجب أن يسجد ويرفع إلى القعود ثم يسجد، رفعة صغيرة هذه لا تكفي، والرفع من السجود إلى قرب القعود على الصح والعود إلى السجود مرة ثانية، والقعود الأخير قدر التشهد وتأخيره على الأركان، أي القعود الأخير يجب أن يكون أخيراً.

وأداؤها مستيقظاً، ومعرفة كيفية الصلاة شرط لها، تدريس هذه المعلومات أحد شروط الصلاة.

الركن و الشرط :

أما من هذا الذي ذكرناه جميعاً هذه شروط وداخلها يوجد أركان، الأركان أربعة القيام والقراءة، والركوع، والسجود، والقعود الأخير وبعضهم قال: خمسة، القيام، والقراءة، والركوع، والسجود، والقعود الأخير هذه أركان الصلاة، والباقي شروط الصلاة، وهذه الشروط بعضها لصحة الشروع بالصلاة، استقبال القبلة والطهارة، طهارة الجسد من الحدث والمكان والثوب، وبعضها لصحة دوامها، لكن الشيء الذي يجذب النظر أن تكبيرة الإحرام عند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه عدت شرطاً وليست ركناً، بينما تكبيرة الإحرام عند الأئمة الآخرين تعد ركناً لا شرطاً، وما الفرق بين الركن والشرط؟ الشرط يستمر طوال الصلاة، فالطهارة تستمر، فلو انتقض الوضوء تقطع الصلاة، واستقبال القبلة أثناء الصلاة، وطهارة المكان، وطهارة الثوب والبدن، وستر العورة، وهذه كلها شروط، ومعنى الشرط أنه يستمر طوال الصلاة لكن الركن ينقضي، تنتقل من ركن إلى آخر، فإذا قلنا: إن تكبيرة الإحرام شرط فمعنى ذلك أن استحضار عظمة الله عز وجل تشابه طهارة الجسد والثوب والمكان وبقية الشروط. ومن قال: إن التكبيرة ركن تنقضي بقضائه جعلها كالركوع والسجود، فالتكبيرة ركن، والركوع ركن، والسجود ركن،

والوقوف ركن، وهكذا وفي درس آخر إن شاء الله ننتقل إلى فصول أخرى عن واجبات الصلاة، وسننها، ومكروهاتها.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 4 : واجبات الصلاة الآداب لتلاوة القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

السنة طريقة بلوغ الفرض :

أيها الأخوة المؤمنون، تحدثنا عن أركان الصلاة، و قد نوهت إلى أن الفرق بين الشرط و الركن هو أن الشرط يستمر مع الفرض أو مع الصلاة كستر العورة، و استقبال القبلة، بينما الركن ينقضي بانقضائه، والآن إلى واجبات الصلاة، وقبل الحديث عن الواجبات قال بعض العلماء: شرعت الواجبات لإكمال الفرائض، أو بشكل أوضح: الفرض بلوغ قمة الجبل والسنة الطريق التي سلكها النبي عليه الصلاة و السلام لبلوغ هذه القمة، فأصبحت السنة متكاملة مع الفرض، السنة طريقة بلوغ الفرض والله عز وجل قال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

[سورة المائدة: 6]

فهل من المعقول لإنسان يغسل وجهه بيدين قذرتين؟ والنبي الكريم عليه أتم الصلاة و التسليم فهم أن غسل اليدين أول مرة و ثاني مرة و ثالث مرة طريق لغسل الوجه، و غسل الوجه يقتضي غسل الفم و الأنف، هذا الذي فهمه النبي عليه الصلاة و السلام من قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾

[سورة المائدة: 6]

بالأدب نطبق السنة وبالسنة نطبق الواجب وبالواجب نطبق الفرض :

كأن السنة هي الفهم الدقيق لرسول الله عليه السلام من أوامر الله عز وجل، فأما أن تفهم أن السنة إضافة فهذا هو الفرض و هذه هي السنة، لا، فالسنة هي الطريق التي سلكها النبي عليه الصلاة و السلام حتى أدى الفرض، ولذلك يؤيد هذا الكلام قول بعض العلماء: إن الواجبات شرعت لإكمال الفرائض، و السنن لإكمال الواجبات، و الآداب لإكمال السنة، فالأدب طريقك لتطبيق السنة، و السنة طريق لتطبيق الواجب، و الواجب طريق لتطبيق الفرض، أي إذا اشترينا بضاعة من دولة أجنبية، و عقدنا صفقة، فهناك أشياء بديهية لو لم تذكر، لا بد من أن توضع هذه البضاعة في علب أو في أوعية خاصة بها بحسب نوعها، ولابد من أن تشحن، ومن أن ترفق بوثائق، ولا بد من أن توضع عليها علامة الشحن، وهذه أشياء كلها بديهية من مستلزمات شراء البضاعة، إذاً الواجبات شرعت لإكمال الفرائض والسنن لإكمال الواجبات و الآداب لإكمال السنن، فصار الهدف هو الفرض، والواجب طريق الفرض، والسنة طريق الواجب، والآداب طريق السنة، ولا يوجد تناقض، فتقول لأحدهم: بالله كأس ماء إنه كلام مختصر، إذا كان ذكياً يأخذ الكأس و يغسلها أول مرة و الثانية والثالثة ثم يملؤها لك بماء بارد، فأنت ما قلت له: اغسل الكأس، و لم تقل له: أريد ماء بارداً، و لم تقل له: أريد كأساً نظيفاً، أخي إذا سمحت نقطة ماء، ذهب و أحضر لك قطارة، خذ هذه نقطة ماء، فهل معقول هذا الكلام؟ نقطة ماء أي كأس من الماء، فالنبي يفهم فهماً دقيقاً جداً، إذاً عليه الصلاة و السلام فهم من أوامر الله عز وجل فهماً دقيقاً دقيقاً، و فهمه الدقيق هو السنة.

واجبات الصلاة :

1 . قراءة الفاتحة :

قال العلماء: واجبات الصلاة ثمانية عشر واجباً أولها: قراءة الفاتحة، وبالمناسبة الإنسان إذا ترك واجباً عليه سجود السهو في السنة؟ لا، إذا ترك واجباً من واجبات الصلاة فعليه سجود السهو، إذاً و الفرض؟ أي إذا ترك فرضاً أو ركناً يجب أن يعيد الصلاة، فالصلاة أصبحت باطلة، الصلاة تسلم بترك واجب، ترمم بسجود السهو، لكنها تفسد بترك فرض أو ركن أو شرط، مثلاً لم يستقبل القبلة فسدت الصلاة، ولم يكن طاهراً من الحدثين، ولم يستر عورته والمكان ليس طاهراً، ولم يدخل الوقت، فهذه شروط و أركان إن لم تكن فالصلاة فاسدة، أما

الواجبات فإن لم تكن فالصلاة تحتاج إلى ترميم، و ترميمها سجود السهو، فواجبات الصلاة ثمانية عشر واجباً، قراءة الفاتحة لقوله عليه الصلاة و السلام:

((لا صَلاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ))

[عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ]

أي بلاغة النبي كلها في كلمة الباء، لم يقل لا صلاة لمن لم يقرأ فاتحة الكتاب بل قال: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، كأن القرآن لا يقرأ إلا بفاتحة الكتاب، وهذه الباء للاستعانة، أي تستعين على فهم كلام الله بقراءة فاتحة الكتاب، تقرأ فاتحة الكتاب فتفهم كلام الله، تقول:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾

[سورة الفاتحة: 5-7]

والآن كأنك تسمع قوله تعالى: يهديك الصراط المستقيم.

2 . ضم سورة قصيرة أو ثلاث آيات في ركعتين من ركعات الصلاة :

الشيء الثاني: ضم سورة قصيرة أو ثلاث آيات في ركعتين من ركعات الصلاة، هذا الواجب الثاني، قراءة سورة قصيرة أو ثلاث آيات في ركعتين من ركعات الصلاة.

3 . ضم سورة أو ثلاث آيات قصيرة في جميع ركعات الوتر و النفل :

الواجب الثالث: ضم سورة أو ثلاث آيات قصيرة في جميع ركعات الوتر و النفل، بالفرض ركعتان فقط، إن كان الفرض ثنائياً فبالركعتين مثل الصبح، و إن كان ثلاثياً فبركعتين فقط، و إن كان رباعياً فبركعتين فقط، فضم سورة أو ثلاث آيات قصيرة في ركعتين من ركعات الفرض و في كل ركعات النفل أو الوتر.

4 . قراءة سورتين في الفرض في الركعتين الأوليين :

الواجب الرابع، أن تكون قراءة السورتين في الفرض في الركعتين الأوليين، لا تقرأها بالثالثة و الرابعة، هذه أمور كلها بديهية طبعاً بالأولى و الثانية.

5 . تقديم الفاتحة على السورة :

و تقديم الفاتحة على السورة، لن نطول بشرحها، ولا أحد يخالفها من كل المسلمين.

6 . ضم الأنف للجبهة في السجود :

و ضم الأنف للجبهة في السجود، الأنف و الجبهة معاً هذا واجب، فإذا سجد الإنسان على جبينه فقط فعليه أن يسجد سجود السهو أو على أنفه فقط.

7 . الإتيان بالسجدة الثانية :

و الإتيان بالسجدة الثانية أي سجدتين – أما واحدة فنقص واجباً – وفي كل ركعة قبل الانتقال لغيرها.

8 . الاطمئنان في الأركان :

و الاطمئنان في الأركان، الاطمئنان أي السكون، والاطمئنان راكعاً و الاطمئنان ساجداً، أما نقر الديك فهذا ليس من الصلاة في شيء.

9 . القعود الأول :

و القعود الأول من واجبات الصلاة.

10 . قراءة التشهد في القعود الأول :

و قراءة التشهد في القعود الأول في الصحيح، أي: التحيات لله الصلوات الطيبات هذه معروفة، و قراءته في الجلوس الأخير، التشهد يقرأ مرتين في القعود الأول و في القعود الأخير.

11 . القيام إلى الركعة الثالثة من غير تراخ بعد التشهد :

و القيام إلى الثالثة أي إذا قعد شخص في القعود الأول و تشهد و قال:، اللهم صلّ على سيدنا محمد مشي بالصلوات إنك حميد مجيد، هذه ركعتان، وهناك الثالثة فقام ووقف فقد تأخر بالقيام للركعة الثالثة بأكثر من أداء ركن، فعليه سجود السهو، أما إن كان تأخره أقل من أداء كالركوع و السجود فلا عليه شيء، فإذا كان تأخره أطول من أداء ركن فعليه أن يسجد للسهو، إذاً و القيام إلى الركعة الثالثة من غير تراخ بعد التشهد.

12 . لفظ السلام دون عليكم :

و لفظ السلام دون عليكم، الواجب السلام و عليكم سنة.

13 . قنوت الوتر :

و قنوت الوتر: اللهم إنا نستعينك و نستهديك.

14 . تعيين التكبير لافتتاح كل صلاة :

و تكبيرات العيد واجبة فإن تركها المصلي وجب عليه السهو، و تعيين التكبير لافتتاح كل صلاة، والتكبيرة واجب لا للعيدين خاصة، فأي صلاة تحتاج إلى تكبيرة و تكبيرة الركوع واجب.

15 . جهر الإمام بقراءة الفجر و ركعتي المغرب و العشاء الأوليين :

و جهر الإمام بقراءة الفجر و ركعتي المغرب و العشاء الأوليين و لو قضاءً، أي إذا صلى الإنسان قضاء فعليه أن يجهر في الركعتين الأوليين، و الجمعة، و العيدين، و الوتر، و التراويح في رمضان، وكل هذه الصلوات جهرية، الفجر، و ركعتا المغرب و العشاء و لو قضاء، و الجمعة، والعيدين، و التراويح، و الوتر في رمضان.

16 . الإسرار في الصلوات:

و الإسرار في الظهر و العصر، و الركعة الثالثة في المغرب، و الثالثة و الرابعة في العشاء، و نفل النهار سراً، و أما المنفرد فمخير فيما يجهر كمتنفل الليل، إذا صلى الإنسان وحده المغرب أو العشاء أو الصبح فيجوز له أن يجهر، و يجوز له أن يخافت، متنفل الليل يجوز له أن يجهر، أو أن يخافت، ومتنفل النهار يسر، ومن صلى صلاة نفل في النهار فعليه أن يسرها أي يسر القراءة، ومن صلى صلاة نفل في الليل فله أن يجهر بها أو أن يسرها فهو مخير، و أما من صلى صلاة الفرض الجهرية منفرداً فله أن يسرها، أو أن يجهر بها، وهذه واجبات الصلاة أي أكثرها معروفة عند كل المسلمين، لكن قال تعالى:

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة الذاريات: 55]

* * *

تحسين الصوت في القراءة من الآداب الظاهرة لتلاوة القرآن الكريم :

والآن إلى فصل مختار من إحياء علوم الدين، ونحن الآن في قراءة القرآن الكريم، و قد تحدثنا في الدرس الماضي عن آداب تلاوة القرآن أي الآداب الظاهرة، والآن نتابع الآداب الظاهرة و نأخذ بعض الآداب الباطنة. فمن الآداب الظاهرة في تلاوة كتاب الله: تحسين الصوت في القراءة قال ﷺ:

((زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ))

[النسائي و ابن ماجه عن البراء]

و قال عليه الصلاة و السلام:

((مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصَّوْتِ بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فالله يرضى أن تقرأ القرآن بصوت حسن، وقال ﷺ:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ وَزَادَ غَيْرُهُ يَجْهَرُ بِهِ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والمؤمن الصادق لا يطربه إلا القرآن، ولا يتأثر إلا بالقرآن ولا ينفعل، ولا ترتاح نفسه إلا بالقرآن. والنبي عليه الصلاة والسلام كان ليلةً ينتظر عائشة رضي الله عنها فأبطأت عليه، فقال ﷺ:

((عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: أَبْطَأْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةً بَعْدَ الْعِشَاءِ ثُمَّ جِئْتُ فَقَالَ: أَيْنَ كُنْتِ قُلْتُ كُنْتُ أَسْتَمِعُ قِرَاءَةَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِكَ لَمْ أَسْمَعْ مِثْلَ قِرَاءَتِهِ وَصَوْتِهِ مِنْ أَحَدٍ قَالَتْ: فَقَامَ وَقُمْتُ مَعَهُ حَتَّى اسْتَمَعَ لَهُ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ هَذَا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا))

[أحمد عَنْ عَائِشَةَ]

طبعاً كانت غرفه صلى الله عليه مطلة على المسجد:

((.. فَقَامَ وَقُمْتُ مَعَهُ حَتَّى اسْتَمَعَ لَهُ ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَيَّ فَقَالَ هَذَا سَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي أُمَّتِي مِثْلَ هَذَا))

من آتاه الله صوتاً حسناً فقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود :

فإذا أكرمنا الله بقارئ يقرأ القرآن ندياً طرياً كما أنزل فهذه نعمة كبيرة، واستمع ﷺ ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهم فوقفوا طويلاً ثم قال ﷺ: "من أراد أن يقرأ القرآن غضاً طرياً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد"، يعني عبد الله بن مسعود.

فإذا آتى الله أحدنا صوتاً حسناً، وقام في الليل، وقرأ القرآن، وترنم بصوته، وهكذا شعر أنه مرتاح فقرأ صفحتين أو ثلاثاً أو خمس عشرة ووجد نفسه مسروراً، أي إذا قرأ القرآن وشعر بسرور فلا يقف بل يتابع هذه لأنها نفحة لا تعود، يجلس ليقرأ فلا يحس نفسه مرتاحاً، بل يقرأ صفحة أو صفحتين ويقول: يكفي، فإذا قرأ ووجد نفسه مرتاحاً يكمل، والنبي عليه الصلاة و السلام قال لعبد الله بن مسعود:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ؟ قَالَ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيدًا) رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود]

و استمع ﷺ إلى قراءة أبي موسى فقال:

((لَقَدْ أُوتِيَ أَبُو مُوسَى مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ))

[الدارمي عَنِ ابْنِ بُرَيْدَةَ]

فبلغ ذلك أبا موسى فقال يا رسول الله: لو علمت أنك تسمعه لحبرته لك تحبيراً أي كنت حسنته أكثر فلم أكن أعرف، أي قرأها درجة ثانية ليست أولى، و رأى هيثم القارئ رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك؟.

العدل و الإحسان :

إذاً فالرجل الذي له عمل طيب يتأكد أن هذا العمل الطيب يبلغ النبي عليه الصلاة و السلام، فكيف ذلك؟ الله يبلغه إياه، تعرض عليّ أعمالكم بعد موته ﷺ، فكل واحد له عمل طيب، هذا تزوج امرأة و بعدما تزوجها بفترة قليلة وجدها حاملاً، سلك طريق الإحسان، وهناك طريق العدل لو طلقها لعدل و لكن هناك طريق أرقى من العدالة وهو الإحسان، فإمام المسجد رأى النبي ﷺ فقال له: قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة لأنها أصبحت تائبة و سترها و أخذ بيدها و جعلها امرأة صالحة، و قد كان بإمكانه أن يطلقها، و أن يفضحها، و أن يجعلها بائسة، فهذا هو العدل و لكن الإحسان أرقى من ذلك، قال له: قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة.

صلاة الله على المؤمن تجلٍّ و صلاة النبي على المؤمنين تجلٍّ أيضاً :

قال له: أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك؟ قلت: نعم، فقال عليه الصلاة و السلام: جزاك الله خيراً، أي إذا شاهد الرجل النبي عليه السلام في الرؤيا و نادى له باسمه فهذه مكانة كبيرة جداً، فليفرح فرحاً ما بعده فرح، لأن النبي عليه الصلاة و السلام اطلع على عمله، وقد حكى لي أخ قصة ولولا أنه صادق لا أصدقها، رأى النبي

عليه الصلاة و السلام قال له: اذهب إلى فلان، قال له: لا أعرف بيته ؟ قال له: في المكان الفلاني و الحي الفلاني وفي الطابق الفلاني، وصف له العنوان بشكل تفصيلي، أي ﷺ هذا الذي نحن نصدقه أن أعمال أمته أعمال المؤمنين تعرض عليه و يعرفها، ولذلك فالله عز وجل قال:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 103]

هو الذي يصلي عليكم فصلاة الله على المؤمن تجلٍّ و صلاة النبي على المؤمنين تجلٍّ أيضاً:

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة: 103]

من قرأ القرآن الكريم كأنه في صلاة :

و قد كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما: "ذكرنا ربنا، فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال: يا أمير المؤمنين الصلاة الصلاة، فيقول: أو لسنا في صلاة؟" – أي إذا كنت تقرأ القرآن الكريم كأنك في صلاة– قال له: أو لسنا في صلاة ؟ إشارة إلى قول الله عز وجل:

﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

[سورة العنكبوت:45]

و قال ﷺ:

((مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا))

[الدارمي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

وتحسين الصوت بالقرآن هذه آخر أدب من آداب تلاوة القرآن الظاهرة.

الآداب الباطنة في قراءة القرآن الكريم :

1 . فهم عظمة الكلام و علومه :

والآن عندنا عشرة آداب باطنة وهي الأخطر وهذه معروفة كالوضوء، و استقبال القبلة، و الأدب، وهناك أشياء دقيقة جداً، والآن هذه الآداب هي: التعظيم، و حضور القلب، و التدبر، و الفهم، و التخلي، و التخصيص، و التأثر، و الترقي، و التبري، تحتاج إلى شرح تفصيلي.

أولاً فهم عظمة الكلام و علومه: ولذلك أصحاب النبي قالوا: "أوتينا الإيمان قبل القرآن"، وإذا قرأ رجل عن طبيب جراح قلب، أي قرأ عنه خلال خمس سنوات مقالات، و سمع أخباراً عن نجاحاته الرائعة في جراحة القلب، و سمع عنه من زملائه، و هناك زملاء ذهبوا لدولة أجنبية و التقوا معه، و رجعوا ممتلئين إعجاباً به، و كانوا قد قرؤوا له عدة كتب، و له نظريات، أي خلال خمس سنوات الطالب ممتلئ معلومات عن هذا الطبيب، فإذا التقى فيه تجده كله تعظيماً، أما إذا شاهد رجل إنساناً على علم عالٍ جداً و لا يعرف علمه يعامله كإنسان عادي، فعندما يقرأ الإنسان كتاب الله، و يعرف الله قبل أن يقرأ كتابه يقرؤه بتعظيم، لأنه كلام رب العالمين، ولذلك فالله عز وجل هذا من لطفه بخلقه، فالإله العظيم خالق الكون أمعقول أن يكون هذا كلامه؟ طبعاً كلامه.

الله لطيف و رحيم بالعباد صاغ لهم كلاماً يفهمونه :

إذاً نحن كيف أراد ربنا عز وجل أن ينزل إلى مستوانا؟ فالله عز و جل العظيم، العلي، الكبير، المتعال، رافع السماء بلا عمد، ليس كمثله شيء، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، كيف يصير كلامه من كلامنا ليفهمنا إياه؟ قال: هذا من لطفه، فالعلماء ضربوا مثلاً: إذا كان أحدهم إماماً عظيماً كالإمام الغزالي مثلاً صاحب هذا المؤلف، و عنده طائر و أحب أن يدعوه إلى الطعام، أو إلى الطيران، فهناك أصوات معينة يصدرها، فإن كان عنده دابة أو غنمة أو خيل مثلاً أو ناقة فأصحاب هذه البهائم لهم طرائق للتعامل مع البهائم، إذ هناك أصوات يصدرونها، إذاً هذا الذي يوجد عنده هذا المؤلف الضخم سيحاكي عصفوراً أو طائراً بلغة تناسبه، ويمكن أن يصفر له فقط، أو يصدر صوتاً معيناً ليتعامل مع هذا المخلوق على علم، مع هذا الإنسان العالي الذي استخدم كلاماً، أو استخدم صوتاً من مستوى هذا الكائن حتى يفهمه، فكلام الله عز وجل لا يحتمله أحد قال تعالى:

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة الحشر:21]

فلو أن كلام الله نفسه نزل على جبل لتصدع، ولكن هذه الصياغة التي صاغها الله عز وجل صياغة من لغتنا نقرؤها فنفهمها، وهذا من لطف الله عز وجل، فيجب أن تتأكد أن الله علي كبير، كبير متعال، واحد أحد، فرد صمد، ليس كمثله شيء، و مع ذلك فهذا كلامه، و هذا من لطفه، أي قال تعالى:

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة النحل: 60]

وأحياناً يكون هناك إنساناً على علم كبير جداً، يحمل أعلى شهادة في العالم، عنده ابن صغير فيحاول أن يفهمه بلغته، إما بالإشارة، أو بحروفه المتواضعة، فهذا اسمه نزول من هذا الأب العظيم إلى هذا الطفل الصغير، فربنا عز وجل مع علو شأنه و عظمته و قدرته اللامتناهية أنزل على نبينا عليه الصلاة و السلام كتاباً بلغتنا، بحروفنا، بصياغتنا، بقواعد لغتنا، نقرؤه فنفهمه، و هذا من لطف الله عز وجل، هذا الشعور يجب أن يرافق قارئ القرآن، و هذا كلام إله، لكن لأن الله لطيف و رحيم و رؤوف بالعباد صاغ لهم كلاماً يفهمونه، أي هذه المعاني هي كلامه، لكن المعاني ثقيلة قال تعالى:

﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

[سورة المزمل: 5]

أما صياغتها فمقبولة أي من مستوانا هذا أول معنى، وأول أدب من آداب تلاوة القرآن الكريم.

2 . التعظيم للمتكلم :

والأدب الثاني: التعظيم للمتكلم، فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن يجب أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، سوف أضرب مثلاً: لو أن أستاذاً في الجامعة دخل إلى قاعة المحاضرات، وألقى محاضرة، فالطالب امتلأ تعظيماً للإنسان، إذ شاهد علمه عالياً، و لغته قوية، وعنده منهج في التدريب، و له أسلوب واضح ممتع، و عنده إحاطة بالموضوع، عرضه عرضاً واضحاً، أي عمل على السبورة بعض الإشارات، و المخططات، أصبح وضوحه زائداً، يخرج الطالب ممتلئاً إعجاباً بهذا الدكتور، في المحاضرة الثانية ازداد إعجابه، والثالثة ازداد، والرابعة ازداد، وكلما

ألقى محاضرة جديدة يزداد إعجاب هذا الطالب بأستاذه، أما المستخدم الذي يجلس على باب غرفته من عشرين عاماً يسلم عليه فحجم معرفته بهذا الأستاذ محدود لا يزداد، فالذي يستمع إلى المحاضرات يزداد تعظيماً، وأما المستخدم فيقف له و يحييه، ولكن معرفته بهذا الطبيب أو بهذا الأستاذ محدودة، فعندما يقرأ الإنسان آيات الله بالكون يزداد تعظيماً لله، و إذا قرأ كتابه يستحضر عظمة الله عز وجل، فهذه هي القراءة المجزية.

حجم معرفة الإنسان بربه بقدر حجم تفكيره في آياته :

ولكن أحياناً يقرأ الإنسان و قلبه ساه و لاه، وليس كل إنسان قال لك: أنا أعرف الله يعرف الله عز وجل، ومرة ضربت مثلاً إذا ركب رجل طائرة فوق دمشق، قد يُسأل هل تعرف الشام؟ يقول: نعم أعرفها، رأيتها بأم عيني، طرت فوقها، و إذا رجل جاء إلى المطار فقط و تلقى وجبة و نام ليلة بفندق المطار و تابع سفره، يقال له: أتعرف الشام؟ يقول لك: نعم أعرفها، رأيت جبلاً من بعيد قالوا لي: هذا جبل قاسيون، ورجل وصل إلى المرجة فقط قيل له: أتعرفها؟ قال: أعرفها، و رجل ذهب إلى الجامع الأموي فأضاف إلى المرجة الجامع الأموي، ورجل مع الأموي الحميدية، و رجل قعد في الشام أربع سنوات درس في الجامعة، و سكن بأحد أحيائها، و شاهد عادات أهلها و تقاليدهم، و رجل ابن البلد يقول لك: من خمسة و ستين عاماً أنا ساكن بالشام، وكلهم يقول لك: أنا أعرف الشام، أليس هناك فرقاً كبيراً جداً بين معرفة كل واحد من هؤلاء و كل إنسان يقول: أنا أعرف الله؟ ما حجم المعرفة؟ قد تعرفه من آية، هذا يعرفه من آيتين، وهذا يعرفه من مئة آية، وهذا يعرفه من ألف آية، أي حجم معرفتك بقدر حجم تفكيرك في آيات الله أبداً، وإذا نظرت إلى طعامك، وشرابك، وكأس الماء، وكأس الحليب، وإلى هذه البيضة، وإلى هاتين العينين، والأذنين، واللسان، والدماغ، والأعصاب، والأوردة، والشرايين، والعضلات، وهذه الغدد الصماء، والبنكرياس، والطحال مثلاً، والغدة النخامية، والكظر، والكليتين، وهذه الأعضاء، وإلى الحيوانات، وإلى النباتات، وإلى الأطيار، وإلى الأسماك، والهواء وحده آية، والماء وحده آية، والضوء وحده آية، والشمس آية، والقمر آية، فبقدر ما تفكر بهذه الآيات تنمو عندك معرفة الله عز وجل، و إذا نمت هذه المعرفة و قرأت كلام الله عز وجل تزداد خشوعاً، ولذلك أوتينا الإيمان قبل القرآن، قال: فالقارئ عند البداية بقراءة القرآن يجب عليه أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، و يعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، قال: فضل كلام الله على كلام عباده كفضل الله على خلقه، و إن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر، فإذا أردتم أن تحدثوا ربكم فاقرؤوا القرآن، من قرأ القرآن فكأنما يوحى إليه غير أنه لا نبي بعدي، أي كأنك تسمع كلام الله

الذي أوحاه على نبيه عليه الصلاة و السلام.

للآية التالية فهم عميق و فهم ظاهري :

لكن يوجد نقطة قال تعالى:

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾

[سورة الواقعة: 79]

والإمام الغزالي فهم الآية فهماً عميقاً، فهمها فهماً ظاهرياً كما يفهمها عامة الناس و فهمها فهماً عميقاً، أما فهمها الظاهري فقال: و كما أن ظاهر جلد المصحف – المصحف كلمة ثلاثية معنى ثلاثية أو يقولوا: بالتثليث، لك أن تقول: مُصحف و مَصحف و مِصحف وكلها صحيح والأغلب أن تقول مُصحف بالضم – و ورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان طاهراً فباطن معناه أيضاً بحكم عزة الله و جلاله محجوب عن القلب إلا إذا كان طاهراً، فالقرآن أمامنا يتلوه أحد الناس فيزداد بعداً قال تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة الإسراء: 82]

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة الشعراء : 198–199]

ولو أن القرآن نزل على إنسان تركي باللغة التركية و قرأ علينا لا نفهم منه شيئاً قال تعالى:

﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾

[سورة الشعراء: 200]

لا يفهم منه شيء، ومعاني هذا الكتاب مصونة لا تتاح إلا لقلب طاهر وهذا المعنى العميق للآية الكريمة:

﴿ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾

[سورة الواقعة: 79]

وطاهر القلب إذا قرأ القرآن فهم معانيه، ومن أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة في قلبه، و أجراها الله على لسانه فجاهدْ تشاهدْ، قال تعالى:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 282]

القرآن تؤخذ ألفاظه من حفاظه و تؤخذ معانيه ممن يعانيه :

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آَتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

[سورة الأنبياء: 79]

هناك شيء اسمه فهم لكتاب الله، منحة من الله عز وجل يقرأ فيفهم، قال تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التغابن: 11]

فالإمام الغزالي رضي الله عنه فهم هذه الآية فهماً ظاهرياً و فهماً عميقاً، ولذلك الإمام العكبري قال: "تؤخذ ألفاظه من حفاظه، و تؤخذ معانيه ممن يعانيه"، فإذا عاين رجل مثلاً الزواج يعلم أن أول الأمر هناك سرور بالغ بالمخطوبة، وبعدما يكون العرس تقريباً بشهر أو شهرين أو ثلاثة يصبح شيئاً عادياً، ثم يخف بريق الزواج ثم يصير الزواج شيئاً طبيعياً جداً، أي لا يوجد عنده هذا الشعور أنه هو شاعر بالسعادة جداً بل شعور عادي فقط، فالمتزوج مرّ بهذه التجارب، فإذا التقى بإنسان خاطب الآن قال له: أنا وفقني الله بإنسانة ملك نازل من السماء، يقول له: على مهلك، على مهلك هذا الملك ستراه بعد ذلك إنساناً آخر، عنده خبرة، ضربت هذا المثل لأؤكد لكم أن هذا الإنسان يكون له خبرة مع الله عز و جل، أي قلبه ذاق الوجهة إلى الله عندئذ يفهم كلام الله، فالله تكلم عن المحسنين، لماذا يبكي بعض المؤمنين؟ لأنه محسن، تفاعلت نفسه مع هذه الآية، وعندما يتكلم الله عن العفو يبكي القارئ لأنه هو عفا بزمانه، وعندما ربنا يعاتب المؤمنين:

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

[سورة الحديد: 16]

يتلقى العتاب فله العتاب لأنه مؤمن، وعندما يقول الله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

[سورة الصف : 2-3]

يتأثر، فعندما يكون للإنسان تجربة، سير إلى الله حثيث، و صادق، و يتلو كلام الله عز وجل، تتفاعل نفسه مع كلام الله عز وجل، وهذا القرآن يريد قلباً تؤخذ ألفاظه من حفاظه، و تؤخذ معانيه ممن يعانيه.

ليس كل قلب يفهم القرآن الكريم :

و كما أن كل يد لا تصلح لمس المصحف كذلك لا يصلح لتلاوته كل لسان، ولا يصلح لفهمه كل قلب، وليس كل قلب يفهم القرآن الكريم، وسيدنا ابن عباس رضي الله عنه لما سمع قوله تعالى:

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ *وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾

[سورة النصر: 1-3]

فهم من هذه الآية أن أجل النبي عليه الصلاة والسلام قد اقترب، وعظماء العالم حياتهم منوطة برسالتهم، فإذا تحققت انتهت حياتهم، مرة النبي الكريم خطب قال: إن عبداً من عباد الله خيره الله بين ما عنده وبين زهرة الدنيا فاختار ما عنده، فجعل الصدّيق يبكي بكاءً مراً، والصحابة عجبوا ما له يبكي؟ فعرف أن المقصود هو النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ عَبْدٌ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ زَهْرَةَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَبَكَى فَقَالَ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا قَالَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ الْمُخَيَّرُ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا بِهِ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي مَالِهِ وَصُحْبَتِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ لا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلا خَوْخَةَ أَبِي بَكْرٍ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

من صفى نفسه فهم على الله الحركة و الإشارة و العبارة :

هناك أناس فهموا هذا القرآن الكريم فهماً عالياً، والله بحر، وكلما تصفي نفسك أكثر كلما تعمل أعمالاً طيبة أكثر، وتفهم على ربنا عز وجل الحركة، والإشارة، والعبارة، وهناك قلب أعمى يفهم القرآن فهماً معكوساً، أهي فئة ضالة لا تصلي حتى يمكنها الله في الأرض؟ فهموا قوله تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

[سورة الحج : 41]

وإذا ما مكناهم لا يصلون، هذا فهم شيطاني لكتاب الله، قال تعالى:

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

[سورة الحجر: 99]

إذا أنت أتاك اليقين فأنت في حل من العبادة، لأن اليقين جاء، في تلبيس إبليس يلبس عليه بعض الآيات فيفهمها فهماً خاطئاً، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[سورة آل عمران: 130]

فيقول الضال: أخي القضية مرتبة قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾

[سورة الصافات: 96]

فهذا الزاني خلق الله له هذا العمل، وشارب الخمر خلقه الله شارب خمر، وهناك أشخاص يصدقون هذه الآية.

من كان قلبه حياً وعمله طيباً و قرأ القرآن يفعل القرآن به فعل السحر :

أحد الصحابة عين والياً لحمص وهو سعيد بن عامر، ولما طلب سيدنا عمر أهل حمص سألهم عن واليهم قالوا له: لنا عليه مجموعة مآخذ، أحد هذه المآخذ أنه وهو بيننا يغمى عليه، ويغيب عن الوعي، وما فهمنا هذه الحالة، فلما سأل هذا الصحابي رضي الله عنه قال: شهدت مصرع خبيب ، وهو صحابي جليل والنبي الكريم أرسله بمهمة إلى مكة، فقبضوا عليه، وصلبوه، وقبل أن يصلبوه عرضوا عليه أن يكفر بمحمد، وقال له أبو سفيان: أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت معافى في أهلك؟ فهذا الصحابي الكريم انتفض كما ينتفض العصفور وقال له: والله لا أحب أن أكون في أهلي وفي ولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكة، قال أبو سفيان: ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً ، طلب أن يصلي ركعتين فسمحوا له ومن ثم صلبوه على نخلة، وهذا سعيد بن عامر الجمحي كان موجوداً أثناء مصرعه وكان مشركاً، وكان من وجهاء قريش، وكان بإمكانه أن ينصره، ولكنه كان مشركاً وكلما يأتي في ذاكرته هذا الموقف يصاب بالإغماء لشدة خجله من الله عز وجل، فالإنسان عندما يكون قلبه حياً وعمله طيباً، وعاطفته متأججة، وصلته بالله متينة، وسريرته كعلانيته، إذا قرأ القرآن يفعل به فعل السحر.

وكان سيدنا عكرمة بن أبي جهل إذا نشر المصحف أغمي عليه، ويقول: هو كلام ربي، هو كلام ربي، فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم، ولم تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته، وجلاله، وأفعاله، فإذا إنسان جاءته رسالة من صديقه يقرؤها، وإذا جاءته رسالة من المدير العام الذي يعمل في شركته إذا بعث له رسالة وتوقيعه بالأخضر، لا يلقيها على الطاولة بل يضعها في الدرج، وإذا كانت الرسالة من أعلى منصب في البلاد فيمكن أن يضع لها إطاراً، ويقول: هذه رسالة خاصة لي وهذا توقيعه، فعلى قدر مكانة المرسل تعظم الرسالة، فهذا كلام الله كيف تعظمه؟ إنه خالق الكون، وإذا ألقى الإنسان المصحف فعليه أن يجدد إسلامه، وإذا كان له أخ اسمه يحيى فقال له: يا يحيى خذ الكتاب، فهذا استهزاء بكلام الله، يستخدم آيات الله لغير ما صنعت له، أحياناً يقول لزبون و هو يطالبه بالحساب: ادفع بالتي هي أحسن، فهذه الآية ليست من أجل أن تطالب زبونك وتلم بها جمعية؟ لا يجوز أن تستخدم آيات الله عز وجل لأغراض تافهة، امزح واترك الدين والقرآن والحديث في عليائه، واترك الدين في السماء ولا تنزل الدين إلى الأرض، وتمزح فيه، وكثير من الأشخاص يستهزؤون بالله عز وجل بقسمهم.

3 . ترك حديث النفس :

والآن الأدب الثالث من آداب التلاوة: ترك حديث النفس، تقرأ القرآن وفي بالك مشاكل اليوم، والبيع والشراء، والزوجة والأولاد، والديون، والطبخ، وأنت تقرأ كتاب الله، اترك حديث النفس؛ يا يحيى خذ الكتاب بقوة. قيل لبعضهم: إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشيء؟ فقال: أي شيء أحب إلي من القرآن حتى أحدث نفسي بغيره؟ هذا أحب شيء إلي وكان بعض السلف إذا قرأ آيةً لم يكن قلبه فيها أعادها ثانيةً، إعادة الآية من تعظيم القرآن الكريم.

4 . التدبر :

والآن الأدب الرابع، أول شيء أن يكون حاضر النفس، حاضر القلب مع القراءة، والأدب الرابع التدبر، قال علي رضي الله عنه: "لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا في قراءةٍ لا تدبر فيها"، فقرآن من دون تدبر كأنك ما قرأت، ولكن إذا كنت وراء إمام وتفكرت في آية وركع فيجب في الركوع أن تنتبه إلى الركوع وما تبقى في الركوع مع الآية وهذا مما يسيء للصلاة، قرأ آية فتأثرت بها ركع، فالآن ادخل في حال الركوع، سجد فادخل في حال السجود، أما أن تبقى في الآية راكعاً وساجداً فهذه إساءة في الصلاة.

وروي أنه ﷺ قرأ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ فرددها عشرين مرة، يمكن أنه ترنم بها كثيراً، وتفاعل معها، ومرة عن أبي ذر قال: قام بنا رسول الله مرةً ليلةً.

لا تقل الله أهلكهم فإنهم يستحقون، هذا ليس عملك فقد يكون أكرمهم بعدما أهلكهم، وهذا من شغل الله وحده، من عرف حده فليقف عنده، قرأ النبي آية وأعادها كثيراً يبدو أنه عرف أن مقامه انتهى عند الحد، والله عز وجل هل أهل ألاسكا سوف يعذبهم؟ لا أعرف، قال تعالى:

﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة المائدة: 118]

هذا ليس عملي، هذا من اختصاص الله عز وجل، فلما يبحث الإنسان في هذه الموضوعات كأنه تجاوز حده، وأحد الأصحاب الكرام من قيام الليل وحتى الفجر يتلو هذه الآية ويعيدها، قال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

[سورة الجاثية : 21]

والله شيء جميل، والله هذه الآية تكفي إذا مشيت بشكل جيد، فهل من المعقول أن تكون حياتك مثل إنسان فاسق؟ ويمكن أن تتعامل معاملة الفاسق؟ وأن يخوفك الله عز وجل ويرعبك ويرسل لك مشكلات من مطب إلى مطب؟ فهل هذا معقول؟ وهل من المعقول أن يكون قلبك مخلوعاً خائفاً من الناس ذليلاً لهم؟ وهل من المعقول أن تخونك زوجتك؟ والله ليس معقولاً لأنك طاهر وأخذت طاهرة، والطيبون للطيبات.

التدبر في آيات الله واجب على كل مسلم :

سعيد بن جبير أيضاً صلى طوال الليل يقول قوله تعالى:

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

[سورة يس: 59]

يجوز في الدنيا وضعهم جيد، أي عندهم شيء أعلى من المؤمن، وقد يكون المؤمن حياته متواضعة، وبيته متواضع، وليس عنده حالة أساسية في البيت، ويوجد إنسان فاجر كافر جمعت له الدنيا من أطرافها، ولكن انظر إلى هذه الآية وحدها تكفي:

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ ﴾

[سورة يس: 59]

ابتعدوا عنهم، وفي أول العام الدراسي يقرأ المدير أسماء الراسبين ويقول: قفوا هنا بمفردكم، ويقول للناجحين: قفوا هنا، فيخرج الراسب مثل الحيوان الذليل لأنه راسب وامتازوا أي ابتعدوا، قفوا في مكان مستقل.

وقال بعضهم: إني لأفتتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عند الفراغ منها حتى يطلع الفجر، ويبدأ بسورة يتأملها ويتعمق بها ويعيدها، يترنم بها ويتفاعل معها، يبكي ويتأثر ولا ينهيها، وكان بعضهم يقول: آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعد لها ثواباً، أخي كل حرف بحسنة وألف حرف واللام حرف ركب عدداً، لا ليس هكذا، كل آية لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثواباً إطلاقاً.

وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال: "إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ولولا أني أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها".

وروي عن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها، وقال بعض العارفين: لي في كل جمعة ختمة، وفي كل شهر ختمة، وفي كل سنة ختمة، ولي ختمة منذ ثلاثين سنةً ولم تنتهِ، هذه تدبر، بدأ فيها منذ ثلاثين عاماً و لم ينهها بعد، له كل جمعة ختمة، و كل شهر، و كل عام.
بقي علينا من آداب التلاوة التفهم، و التوقي، و التبري، و التخصيص، و سوف نشرح هذا بالتفصيل إن شاء الله تعالى في درس قادم.

* * *

قصة قتيبة بن مسلم و أسيره مع الحجاج :

الآن إلى قصة من القصص التي لها مغزى، و القصة عن الحجاج، قيل: إنه أُتي للحجاج بقوم ممن خرجوا عليه فأمر بهم فضربت أعناقهم، و أقيمت صلاة المغرب، و قد بقي من القوم واحد لم تضرب عنقه، فقال الحجاج لقتيبة بن مسلم: انصرف به معك حتى تغدو به علي – أي خذه معك– قال قتيبة: فخرجت و الرجل معي فلما كنا ببعض الطريق قال لي: هل لك في خير؟– أي هل تخدمني هذه الخدمة؟ – قلت: و ما ذاك؟ قال: إني و الله ما خرجت على المسلمين أي أنا لم أسئ لهم، و لا استحللت قتالهم، و لكني ابتليت بما ترى – أي تهمة ألصقت

بي – و عندي ودائع و أموال فهل لك أن تخلي سبيلي؟ – والحجاج في اليوم الثاني يضرب عنق قتيبة إذا تركه– و تأذن لي حتى آتي أهلي و أرد على كل ذي حق حقه و أوصي، و لك علي أن أرجع حتى أضع يدي في يدك، عهد الله سأرجع، إلى أين يريد أن يرجع؟ إلى القتل، قال له: عهد الله سأرجع و لكن عندي أموالاً ليست لي و أرى أهلي و أودعهم و أوصي و أرد الأموال لأصحابها و آتي إليك، فعجب ما هذا السؤال؟ هذا سؤال مضحك أي طلب مضحك غير معقول، قال: فعجبت له و تضاحكت أي ضحكت هل من المعقول أن أطلقك تذهب، و مضينا هنيهة ثم أعاد عليّ القول و قال: إني أعاهدك الله لك عليّ أن أعود إليك، قتيبة رق قلبه، هو يريد أن يودع أهله، ويرد الأموال لأصحابها، ويعمل وصية، ويرى أولاده، قال: فما ملكت نفسي حتى قلت له: اذهب، بعدما قال له اذهب أشعل من الداخل، فلما توارى شخصه أسقط في يدي فقلت: ماذا صنعت في نفسي؟ و أتيت أهلي مهموماً مغموماً، أي لم يعد يرى، فسألوني عن شأني فأخبرتهم فقالوا: و الله قد غلطت، لقد اجترأت على الحجاج أي عملت عملاً كبيراً جداً، قال: فبتنا بأطول ليلة– وهذه الليلة أطول ليلة بحياته– لم يكن الوقت يجري أبداً، هل سيأتي أم لا؟ فلما كان أذان الفجر إذا بالباب يطرق فخرجت فإذا أنا بالرجل فقلت: أرجعت، فقال: سبحان اللهّ جعلت لك عهد الله علي أأخونك و لا أرجع؟ وهل من المعقول ألا أرجع؟ هكذا كان السلف الصالح، تأثر تماماً أي لم يصدق أنه سيعود، فقلت: أما و الله إن استطعت لأنفعنك لكونك رجعت، ولعل الله يقدرني أن أخلصك من الموت، و انطلقت به حتى أجلسته على باب الحجاج، و دخلت فلما رآني قال: يا قتيبة أين أسيرك؟ قلت: أصلح الله الأمير، بالباب و قد اتفق لي معه قصة عجيبة، قال: ما هي؟ فحدثته الحديث فأذن له فدخل ثم قال: يا قتيبة أتحب أن أهبه لك؟ قلت: نعم، قال: هو لك، فانصرف به معك، فلما خرجت به قلت له: خذ أي طريق شئت أنت طليق، فهذا الأعرابي أي هذا الرجل رفع طرفه إلى السماء و قال: لك الحمد يا رب، و ما كلمني بكلمة، لم يقل له أي كلمة – لا شكراً و لا الله يعطيك العافية أو فضلت أبداً فقط نظر– و قال: لك الحمد يا رب، رأى فعل الله و لم يرَ فعله، و لا قال لي: أحسنت و لا أسأت، تعجب هل هذا مجنون؟ فقلت في نفسي: مجنون و الله، قال: فلما كان بعد ثلاثة أيام جاءني و قال لي: جزاك الله خيراً أما و الله ما ذهب عني ما صنعت أي لست ناسياً فضلك، و لكنني كرهت أن أشرك مع حمد الله حمد أحد، لم أحب في هذه اللحظة أن أشكر مع الله إنساناً آخر، أي إذا بعث الله لإنسان فضلاً وعنده هذه الأخلاق يراه من الله عز وجل؟ استغرب نظر إلى فوق و قال: لك الحمد يا رب انظر العهد، العهد هكذا، قال عليه الصلاة و السلام:

((لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ ولا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

هذا عاهد الله عز وجل أن يرجع، و سيرجع ليموت، و كان بإمكانه أن يفلت من الموت، لا يوجد قوة ترجعه، لكن أخلاقه قد أعادته، فربنا كافأه أنه نجاه من الموت.

سجود الشكر :

لذلك يوجد شيء في الفقه اسمه سجود الشكر فإذا تحقق للإنسان مكسب، نجح في امتحان صعب، صرفت عنه مصيبة كبيرة، شبح مصيبة، مرض عضال فكان في التحليل سليماً لا شيء فيه، وكان يعتقده مرضاً خبيثاً فكان ورماً عادياً، التهاب سحايا كان ابنه سوف يموت فالله سلمه، مرض خبيث في الدم جعله الله سليماً، فهل يوجد عندنا مثل هذه المواقف أن هذا من الله عز وجل؟ لا تقولوا: هذا الطبيب ما شاء الله حوله وصف دواء بعد ثلاث ساعات شفي إذا هم يشركون، إذا تفضل الله عز وجل عليك بفضل بصحتك، بزوجتك، بأولادك، بعملك، بدخلك، اقتدِ بهذا الإنسان.

لك الحمد يا رب بعد أيام ثلاث عاد إليه وقال: جزاك الله عني كل خير أنا والله ما ذهب عني ما صنعت، ولكني كرهت أن أشرك مع حمد الله حمد أحد، وبهذه الساعة ما أحببت أن يكون لغير الله الفضل.

* * *

الحلال و الحرام و الشبهة :

والآن إلى بعض الأحاديث الشريفة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[مسلم عَنْ عَامِرٍ]

الحلال حلال واضح، أنا شربت ماء لا بأس، من مرة سأل عن شرب الماء حلال أم حرام؟ واضح، أنا أعمل في التجارة بضاعتي حلال، وربحي معقول، كلامي صدق، ووعدي صحيح، وسعري معتدل حلال، والحرام؛ السرقة حرام، والزنا حرام، والغش حرام، الحلال بين والحرام بين:

((...الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ...))

فهذه الشبهة فيها شك دعها واسترح، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك، لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام، الشبهة تنقل إلى الحرام، فمن ترك الشبهات كان لما استبان أترك، ومن وقع في الشبهات كان لما اشتبه عليه أوقع، فإذا ترك إنسان شبهة فمن باب أولى سيترك الفرض وسيترك الشيء الواضح، أما إذا وقع في شبهة فسوف يقع في الحرام، فلذلك كل شيء تشعر نفسك فيه أخذ ورد، وفي داخلك يوجد سؤال وجواب، أخي ذهبنا إلى لبنان وسخرني بغرض سوف أقسم المصروف على الأغراض كلها، فهل قلت له سوف أربح عليك؟ لا بل سخرني سخرة وأنا ماذا أفعل؟ هذه شبهة، إذا كان هو سخرك سخرة خدمة وأنت ربحت عليه فهذا حرام، تجد أخذاً ورداً فاتركها وارتح، خذ سعر الحاجة كما اشتريتها، وهناك أشخاص دائماً بأخذ ورد يقعون في الحرام.

((عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ السَّمْنِ وَالْجُبْنِ وَالْفِرَاءِ قَالَ الْحَلالُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَالْحَرَامُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ مِمَّا عَفَا عَنْهُ))

[الترمذي عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ]

لا يوجد إنسان يحرم شيئاً الله حلله، ولا يوجد إنسان يحلل شيئاً الله حرمه، أخي ضعها برقبتي، وعامة الناس يؤخذون ببعضهم بعضاً، الحلال ما حلله الله والحرام ما حرمه الله، وما سكت الله عنه فهو مما عفي عنه.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 5 : سنن الصلاة – آداب القراءة الباطنة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

حكم الشرع في السنة :

أيها الأخوة المؤمنون، الحديث اليوم عن سنن الصلاة، ومن أحسن أحكام السنة أن تركها ولو عمداً لا يفسد الصلاة، ولا يوجب سجود السهو، غير أنه يكون مسيئاً إذا تركها عمداً، والإساءة أقل من الكراهة، ويثاب على فعلها ويلام على تركها، هذا حكم الشرع في السنة.

فلو أن إنساناً سها عن إحدى سنن الصلاة لا يوجب هذا السهو سجود السهو، أما إذا سها عن بعض واجباتها، أو عن واجب من واجباتها، فهذا يوجب سجود السهو، أما إذا سها عن أحد أركانها فصلاته باطلة، فالفرض إذا ترك تبطل الصلاة، والواجب إذا ترك يوجب سجود السهو، وأما السنة فيثاب من فعلها ويلام من تركها. رفع اليدين للتحريمة حذاء الأذنين هذا من السنة، أما المرأة فحذاء المنكبين، فهم النبي عليه الصلاة والسلام رفيع المستوى لو رفعت المرأة يديها هكذا ربما ظهر ذراعها فيكتفي من المرأة برفع اليدين إلى حذاء المنكبين، و على هذا تنسحب أحكام عدة: فمثلاً المرأة ليس عليها أن تهرول بين الصفا والمروة، و بين الميلين الأخضرين، فإذا هرولت ربما اهتز صدرها فأثارت الفتنة، وكذلك المرأة إذا ماتت هناك كفن خاص لصدرها، لئلا يثير منظرها الرجال إذا حملوها، وهناك أشياء كثيرة حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا وجه امرأة من قريباته إلى التستر ذكر كلمات لا تثير أي شعور، لا تلبسي هذه الثوب فإنه يصف حجم عظامك، كلمة عظام لا تثير الشهوة إطلاقاً، و أي كلمة أخرى ربما أثارت، وهذا تعليم النبي عليه الصلاة والسلام، فلماذا هذه الكتب التي ألفت في العصور المتأخرة مفعمة بألفاظ العورات والأفعال كما هي وهذا مما يثير الحرج والخجل؟ قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ* فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾

[سورة المؤمنون: 5-7]

﴿ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ ﴾

[سورة النساء: 43]

فمن ابتغى وراء ذلك، دخل في هذه الآية كل أنواع الانحراف لكن بشكل لا يخدش حياء المستمع، قال تعالى:

﴿ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾

[سورة المؤمنون: 7]

سنن الصلاة :

1 . رفع اليدين للتحريمة حذاء الأذنين وحذاء المنكبين للمرأة :

يوجد كلمات قرآنية كنايات رفيعة المستوى، والإنسان المفروض به أن يتأدب بأدب القرآن، لا يذكر بموضوع الفقه العورات بأسمائها والأفعال بصفاتها، هذا مما يوجب الحرج، ويسبب الخجل والحياء من المستمع. فرفع اليدين للتحريمة حذاء الأذنين، وحذاء المنكبين للمرأة لئلا يظهر ذراعها، ونشر الأصابع، النشر حالة بين الضم وبين الانفراج، ومقابلة إحرام المقتدي لإحرام إمامه، لا ينبغي أن يتأخر المقتدي عن الإمام ولابد من التلازم والمتابعة، ومتابعة المقتدي لإمامه شيء أساسي في الصلاة، ووضع الرجل يده اليمنى على اليسرى تحت سرته، صفة الوضع أن يجعل باطن كفه اليمنى على ظاهر كفه اليسرى محلقاً بالخنصر والإبهام على الرسغ، ووضع المرأة يديها على صدرها من غير تحليق، أي تحت صدرها تماماً لئلا يظهر صدرها أيضاً وهذا هو الأدب، والثناء أي دعاء الثناء: "سبحانك اللهم وبحمدك، و تبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك"، والتعوذ أي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لكن أكثر العلماء على أن التعوذ يكون سراً، والتسمية أول كل ركعة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّ الله الرحمن الرحيم، بعضهم يقرؤها سراً وبعضهم يقرؤها جهراً.

2 . التأمين :

والتأمين، كلمة التأمين أي يا رب استجب لنا هذا الدعاء، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين هذا دعاء، فكلمة آمين أي استجب يا رب، لكن رفع الصوت بها ليس من أدب الصلاة، وأحياناً في صلاة الجماعة يرتفع الصوت حتى يصبح ضخماً إلى درجة غير مقبولة، لا إنكم لا تخاطبون أصماً، والذي تخاطبه يعلم سرك ونجواك، الذي تخاطبه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، و يعلم السر وأخفى، أي ما يخفى عنك فلا داعي لرفع الصوت بكلمة آمين، قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا قَالَ الإِمَامُ[غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ] فَقُولُوا: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

[مسلم، الترمذي، النسائي، أبي داود، ابن ماجة، أحمد، مالك، الدرامي عن أبي هريرة]

لقنني جبريل عليه السلام عند فراغي من الفاتحة آمين وقال: إنها كالختم على الكتاب، وهي ليست من القرآن ولكن في أثناء التلقين قال: آمين أي استجب يا رب، التأمين أيضاً من سنن الصلاة، لكن التأمين لمن؟ للإمام والمأموم معاً، الإمام يجب أن يقول: آمين بلسانه بصوت منخفض ومنفرد، حتى إن بعضهم قال: وقارئ الفاتحة خارج الصلاة عليه أن يقول آمين.

3 . التحميد :

والتحميد، التحميد أن يقول المصلي بعد أن يرفع من الركوع: ربنا لك الحمد والشكر حمداً طيباً كثيراً مباركاً عدد خلقك، ويسن هذا للإمام والمأموم معاً وقيل الإمام يقول: سمع الله لمن حمده، وبعدها يقول المأموم والإمام: ربنا لك الحمد والشكر، هذا هو التحميد والإقرار بها يعني التحميد ليس جهراً ولكن سراً، يسن التحميد والإقرار بكلمة التحميد ربنا ولك الحمد.

4 . الاعتدال عند التحريمة :

ويسن الاعتدال عند التحريمة، أي عند تكبيرة الإحرام يجب أن يكون مستوياً قائماً معتدلاً، فلو كان أقرب إلى الركوع فقد خالف واجباً من واجبات الصلاة، ويسن أن يكون معتدلاً تماماً، فانحناء خفيف مقبول.

5 . جهر الإمام بالتكبير والتسميع وتفريج القدمين بالقيام قدر أربعة أصابع :

ويسن جهر الإمام بالتكبير والتسميع، أي إذا كان لا يوجد أجهزة صوت فيجب أن يكبر الإمام وأن يسمع من يصلي خلفه، و لو لم يسمع من يصلي خلفه لركع أو سجد والذين خلفه واقفون، يسن الجهر بالتكبير والتسميع، وتفريج القدمين بالقيام قدر أربعة أصابع، أي بين القدمين يوجد أربعة أصابع، وإبعاد القدمين عن بعضهما مخالف للسنة ولصقهما ببعضهما مخالف للسنة، فإبعاد القدمين عن بعضهما مقدار أربعة أصابع.

6 . إطالة القراءة في الركعة الأولى عن الركعة الثانية :

وإطالة القراءة في الركعة الأولى عن الركعة الثانية بمقدار ثلثين إلى ثلث، يسن إطالة القراءة في صلاة الفجر والظهر، وأن تكون الصلاة معتدلةً في صلاة العصر والعشاء، وقصيرةً في صلاة المغرب، فالإمام جزاه الله عنا كل خير قرأ سورتين قصيرتين وهذا من السنة، أما في حال الضرورة فاقرأ أي سورة شئت، وإن كنت مسافراً فاقرأ الإخلاص في صلاة الظهر لا مانع، وتكبيرة الركوع والتسبيح ثلاثاً وأخذ الركبتين باليدين وتفريج الأصابع، والمرأة لا تفرج أصابعها تبقيها هكذا، ونصب الساقين، وبسط الظهر، وتسويته مع الرأس والعجز على استقامة واحدة، والرأس والظهر والعجز على استقامة واحدة، والساقان مشدودان، والرفع من الركوع والقيام بعده مطمئناً، وهناك من يرفع ويتابع، والرفع من الركوع والاعتدال بعده ثم العودة إلى السجود، أما في السجود فوضع الركبتين أولاً ثم اليدين ثانياً ثم الوجه ثالثاً، وفي النهوض ترفع عكس هذا الترتيب.

7 . مجافاة الرجل بطنه عن فخذيه و مرفقيه عن جنبيه و ذراعيه عن الأرض :

ومجافاة الرجل بطنه عن فخذيه و مرفقيه عن جنبيه و ذراعيه عن الأرض، ترفع الذراعين عن الأرض و تباعد العضدين عن الجانبين، و تباعد البطن عن الفخذين هذا للرجل، أما المرأة فعكس ذلك تتطامن، و الرجل يفرش رجله اليسرى و ينصب اليمنى هكذا.

8 . الصلاة على النبي في الجلوس الأخير و الدعاء :

و الإشارة بالمسبحة هذه الإصبع اسمها المسبحة و اسمها السبابة عند الشهادة برفعها أشهد أن لا إله إلا الله ووضعها عند الإثبات، و قراءة الفاتحة فيما بعد الركعتين الأوليين، و الصلاة على النبي ﷺ في الجلوس الأخير، و الدعاء بما يشبه ألفاظ القرآن و السنة لا بما يشبه كلام الناس أي إذا قلت في نهاية الصلاة:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ ﴾

[سورة البقرة: 201]

مقبول أو:

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾

[سورة إبراهيم: 41]

مقبول، كما قال سيدنا الصديق: إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت مقبول، أما إذا دعوت بكلام الناس فإن الصلاة تصبح مكروهة، يا ربي زوجني فلانة بنت فلان أي شيء من كلام الناس لا يصح دعاؤه في الصلاة، والالتفات يميناً في التسليمتين ثم يساراً، هذه سنن الصلاة ولا ينبغي للمسلم أن يتركها إلا سهواً فإذا سها فليس عليه لتركها سجود السهو والله أعلم.

* * *

التخلي عن موانع الفهم من آداب قراءة القرآن الباطنة و موانع الفهم هي :

1 . الحجب التي أسدلها الشيطان على قلب الإنسان :

والآن إلى فصل مختار من إحياء علوم الدين، هذا الفصل هو التخلي عن موانع الفهم، من آداب قراءة القرآن الباطنة، تحدثنا قبل درسين عن آداب تلاوة القرآن الظاهرة وها نحن أولاء نتابع آداب قراءة القرآن الباطنة، فمن آداب قراءة القرآن الباطنة التخلي عن موانع الفهم، وهناك موانع تقف بين الإنسان وبين فهمه لكتاب الله، وهذا أهم آداب تلاوة القرآن أن تفهم كلام الله، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب القرآن، قال ﷺ:

((هَذِهِ الشَّيَاطِينُ يَحُومُونَ عَلَى أَعْيُنِ بَنِي آدَمَ أَنْ لا يَتَفَكَّرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَوْلا ذَلِكَ لَرَأَوُا الْعَجَائِبَ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وفهم معاني كتاب الله نوع من معرفة الملكوت، أول هذه الحجب أن يكون الهم– الآن الإمام الغزالي لا ينتقد الذين يتقنون قراءة القرآن هؤلاء على العين والرأس، وهؤلاء ينفذون أمر الله سبحانه وتعالى، يتلونه حق تلاوته، ورتله ترتيلاً، ولكن الموضوع دقيق جداً– أن يكون الهم كله منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، ولا يوجد عنده همّ إطلاقاً إلا أن يتابع وينتقد القراء الذين أمامه، الباء لم يقلقلها، الجيم لم تكن معطشة، الضاد لم تكن بالصفة الفلانية، وهذا الذي لا يعرف من كتاب الله إطلاقاً إلا إتقان مخارج الحروف وأماكن الوقوف صار علم التجويد الذي هو مستحب وعلم علينا أن نأخذ به، وفرع من فروع العلوم الدينية صار هذا العلم حجاباً بينه وبين فهم القرآن، ولذلك نعوذ بالله أن يحجبنا علم فرعي عن أصول الدين، ويوجد عندنا أصول وعندنا فروع، أن يحجب الإنسان بالفرع عن الأصل هذا شيء كبير.

الله تعالى ينظر إلى القلب و العمل :

قال: ما يزال الشيطان يحملهم على ترديد الحرف ويخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تتكشف له المعاني، وأعظم ضحكة يضحكها الشيطان على قارئ القرآن أن يصرفه عن معاني كتاب الله، وأن يعلقه بمخارج الحروف فقط من غير أن يفهم، من هذا أننا لسنا مطالبين بتعلم علم التجويد وإتقان مخارج الحروف ومعرفة أماكن الوقوف؟ هذا من تلاوة كتاب الله، لكن الفكرة أن يقتصر على هذا، حتى إذا أتقن التجويد إتقاناً جيداً نشأ في نفسه نوع من الكبر يحول بينه وبين فهم كتاب الله، فكلما استمع إلى إنسان يقرأ كتاب الله صب عليه جام غضبه، وانتقده نقداً لاذعاً مهيناً، وقال له: أخطأت، وقد يكون الذي ينتقد قارئ القرآن هو الغافل، والذي يقرأ بخطأ هو الصاحي، طبعاً لا ندعو إلى إهمال علم التجويد إطلاقاً، ولكن نحذر من أن يكتفي الإنسان بعلم التجويد من علوم الآخرة التي هي أصل سعادة الإنسان، سيدنا موسى، قال تعالى:

﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي*يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾

[سورة طه : 27-28]

لو أن الأمر بالفصاحة، والطلاقة، والبلاغة، لكان النبي هارون، ولكن سيدنا موسى هو النبي المرسل، فالقضية بالقلب، وقد يكون الإنسان فصيحاً، متكلماً، طليقاً، خطيباً، خطيباً متفوقاً، وله صوت مجلجل، له صوت يصم الآذان، ونبرة نحاسية عالية المستوى، وقلبه غافل، وقد يكون هذا العيُ المتلعثم، الذي لا يحسن النطق ذا قلب حي، وكما قلنا لكم سابقاً العبرة: إن الله ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم، طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة؟ ما منظر الرب سبحانه وتعالى؟ هو القلب.

2 . أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه :

والآن المانع الثاني من موانع الفهم أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد وجمد عليه، وثبت في نفسه، وتعصب له، لمجرد الاتباع للمسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة فهذا الشخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر في باله غير معتقده، فهذا شيء خطر جداً.

قالوا له: إن هذه الآية معناها مثلاً الآية الكريمة التي تقول:

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

[سورة البقرة: 148]

سمع تفسير الآية أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يولي هذه الوجهة، معنى هذا أن الإنسان غير مخير بل مسير، أسمعوه مرة أن: الله خلقكم وما تعملون، عمل الإنسان من خلق الله، فهذا الزاني قدر الله عليه الزنا، وهذا السارق قدر الله عليه السرقة ولا صلة له بها، ولا مشيئة، ولا اختيار، هكذا سمع، فإذا قلد إنسان مذهباً واعتقد به، وتعصب له من غير فهم، ولا تبصر، ومن غير مرونة، و تأمل، ومن غير تحقيق، و تدقيق، هكذا سمع، هذا الذي سمعه وجمد عليه وتعصب له وعمي عما سواه هذا المذهب الذي يقلده مانع كبير من موانع الفهم.

الاعتقاد بشيء منقول والتعصب له والجمود عليه أكبر مانع من موانع الفهم :

و يوجد كثير من الآيات بحسب الظاهر، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾

[سورة السجدة : 13]

الله لا يريد أن يهدي الناس كلهم، هكذا قال المفسرون، لا، لها توجيه آخر، القرآن حمال أوجه، و القرآن ذو وجوه، وهذا المعنى لا يليق بالله عز وجل، الله خلقنا ليسعدنا، وخلقنا لنهتدي إليه، أما أن يمنع عنا الهدى فهذا شيء مستحيل، يقول لك: هكذا قال السادة المفسرون، فمن أنت؟ الاعتقاد بشيء منقول، والتعصب له، والجمود عليه، وعدم التدقيق به، وعدم تمحيصه، وعدم التأمل فيه، والإصرار عليه، هذا أكبر مانع من موانع الفهم، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق عن بعد، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه – أي تخالفه – حمل عليه شيطان التقليد، فعندنا شيطان القراء، وشيطان التقليد، حمل عليه شيطان التقليد حملةً وقال: كيف يخطر هذا في بالك وهو خلاف معتقد آبائك؟ فيرى أن هذا غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله، ولمثل هذا قالت الصوفية: إن العلم حجاب، العلم أحياناً يكون حجاباً، أي من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾

[سورة الحج: 15]

فإذا الإنسان ضاقت به الحياة، وضاقت به السبل، والطرق كلها مسدودة، ضيق بذات اليد، ومرض في البدن، وأمور معسرة، وعمل لا يوجد، ومطالب كبيرة، فإذا حصل للإنسان هذا قال بعض المفسرين: يشنق نفسه هذا الحاضر، أخي هكذا جاء في الجلالين فهل أنت أفهم منه؟ لا ليس أفهم منه ابق على هذا المعتقد واذهب واشنق نفسك.

هكذا جاء في بعض التفاسير، يوجد تفسير أرقى من هذا فليمدد بسبب إلى السماء، أي يعمل عملاً صالحاً بنية التفريج عنه، وليقطع كل منكر، ويستقيم استقامة تامة، ولينظر بعد ذلك كيف يذهب غيظ قلبه، ويفرج الله عنه، ويرفع عنه هذا الضيق، وهذا الكابوس، وهذا التعسير، فهذا معنى يتناسب مع عظمة الإله، ومع كرمه، و حنانه، و عطفه، و كماله، و رحمته، وحلمه، أما اذهب واشنق نفسك وهذا هو الحاضر، هذا لا يتناسب مع المعنى، فإذا قرأ إنسان الآية وقرأ تفسيرها وانتهى، أخي هكذا التفسير، أنا عندي الجلالين في البيت، أخي هذه ليست معقولة.

الابتعاد عن الإسرائيليات التي تفتري على كلام الله عز وجل :

يوجد أخ أعارني كتاباً قصصياً عن قصص القرآن الكريم، وطلب مني أن أقرأ فيه، فقرأت بعض القصص فيه، فيه شيء عجيب، سيدنا داود هذا النبي العظيم، ما معنى نبي أساساً؟ أي مصطفى، اصطفاه الله على علم على العالمين، وهو من خيرة الخلق، وسفراء وحي الله عز وجل، قال: هو جالس في غرفته فوجد طيراً من ذهب وأجنحته من فضة، وعليها أحجار كريمة، فظنه جماداً، فاقترب منه يريد أن يمسكه فطار، تبعه إلى أن وصل إلى مكان مطل على بيت فيه امرأة تستحم، وصف جمالها وصفاً يأخذ بالألباب، فهام بها حباً، فلما علمت أنه ينظر إليها نثرت شعرها عليها فزاد حبه لها، سأل عنها فإذا هي زوجة أحد قواده الكبار، ومن العادات العسكرية وقتها أن هناك تابوت في أثناء المعركة فإذا تقدم أحد أمام التابوت وجب أن ينتصر أو يموت، فأعطى أمراً أن يقدموا هذا القائد أمام التابوت فلعله يموت ويأخذ زوجته هذه، ويكتب هذا عن نبي؟ فقدموه فانتصر و لم يمت، فوقع هذا النصر في قلبه مؤلماً لماذا انتصر؟ لماذا لم يمت؟ فقال: قدموه مرةً ثانية فقتل، وعندئذٍ تزوج هذه المرأة.

وصلت إلى قصة يوسف عند قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾

[سورة يوسف: 24]

وجدت أنه همّ بها، أي شارف على الزنا بآخر مراحله، أول مرة، والثانية، والثالثة، والرابعة، وكل مرة يخرج له والده ويقول له: إياك ويتغافل ويبدأ، إذا كان سيدنا يوسف هذا النبي العظيم وصل إلى معنى هم بها أي كأنه أقدم على هذا الفعل الذي يخالف أمر الله عز وجل، فماذا بقي على من ليس نبياً؟ هذا الشخص يقول لك: هكذا ورد، هذه كلها إسرائيليات، وهذه كلها افتراءات على كلام الله عز وجل.

قرأت عن سيدنا سليمان أيضاً أشياء، منها ضاع الخاتم منه ففقد نبوته، وما أحد عرفه، لكن الله عز وجل حفظ نساءه من أن يقترن بهن الشيطان، لأن الشيطان هو الذي أخذ الخاتم وصار مكانه نبياً، كأن هذه النبوة كلها بهذا الخاتم، وبعد هذا فالشيطان رمى الخاتم في البحر، وسمكة من السمكات حملته وهو صار إنساناً عادياً جداً يبحث عن قوت يومه، ويهيم على وجهه في البراري، ووصل إلى شاطئ البحر فاشترى سمكة ففتحها فوجد الخاتم فوضعه فرجع سيدنا سليمان نبياً.

فإذا أراد إنسان أن يقرأ هذه القصص يجد أن هؤلاء الأنبياء، نخبة البشر، بل عباد مكرمون، قال تعالى:

﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾

[سورة الأنبياء : 27]

فإن العلم حجاب، فإذا قرأ إنسان هذه التفاسير وجمد عليها وقال: هكذا الأنبياء، فقد بصيرته.

3 . أن يكون مصراً على ذنب أو متصف بكبر :

والآن مانع ثالث من موانع الفهم: أن يكون مصراً على ذنب أو متصف بكبر، لأن الإنسان قد ينسى بعض العلم بالمعصية، لا تعصه بالنهار يوقظك بالليل.

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نــور ونور الله لا يهدى لعاصــي

***

ألقينا على كرسيه جسداً أي على علمه، الإنسان عندما يرتكب مخالفة يقع بالحجاب، فإنسان مصر على معصية، ومقيم عليها، فهذا لا يمكن أن يسمح الله له بفهم كتابه، فمحبة الدنيا سبب ظلمة القلب، وهو كالخبث على المرآة، إذا مرآة عليها طبقة غبار كثيفة، فهذه لا تعكس الصور عكساً صحيحاً، فإذا صقلتها عكست لك ما هو أمامها، وكلما كانت الشهوات أشد تراكماً كانت معاني الكلام أشد احتجاباً، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه، فالقلب مثل المرآة، والشهوات مثل الصدأ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى أمام المرآة، أنت مرآة والشهوات صدأ، والمعاني الشيء الذي أمام المرآة، فإذا جلوت الصدأ أصبحت المرآة صقيلةً لامعة فعكست ما أمامها، وإذا تراكم عليها الصدأ والخبث حجبت ما أمامها، وهذا هو الشأن في القرآن قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا عظمت أمتي الدينار والدرهم نزع منها هيبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرموا بركة الوحي))

[ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف معضلا من حديث الفضيل بن عياض]

ما هي بركة الوحي؟ فهم معاني كلام الله، قال الفضيل: "أي حرموا فهم القرآن"، والقرآن يجوز أن تسمعه بالسيارة فلا أحد يفهم شيئاً لأن لهم معاص، ولهم خواطر ثانية، وقد شرط الله سبحانه وتعالى الإنابة في الفهم والتذكير، قال تعالى:

﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾

[سورة ق : 8]

﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾

[سورة غافر: 13]

4 . اعتقاد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناولته بعض التفاسير: :

الآن المانع الرابع من موانع الفهم: أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما، فإذا قرأ تفسيراً ظاهراً وقرأ أن هذه الآية هكذا قال عنها ابن عباس رضي الله عنه، أو قال عنها مجاهد، هكذا وانتهى الأمر، وليس عنده إمكان أن يفهم شيئاً آخر، ولا يتوسع، القرآن ذو وجوه، القرآن حمال أوجه، قال تعالى:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

[سورة الكهف: 109]

هذه الآية لها معنى دقيق، فلو أن البحر كله مداد، أي حبر لكلمات الله، أي لتفسير كلمات الله، لنفذ البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً، أي لو أن البحر مداد لشرح كلمات الله لنفذ البحر قبل أن ينفذ الشرح، هذا هو المعنى.

وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي، وأن من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار، وهذا الحديث صحيح لكن لا يقصد النبي عليه الصلاة والسلام أنه من توسع في فهم كلام الله، من جر الآية جراً لتغطية شهواته، و هذا هو التفسير بالرأي.

من فسر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار :

أحياناً تقرأ كتاباً علمياً يقول لك: الموضوع الفلاني العلمي يوجد آية تؤيده، ترى التأييد غير طبيعي؟ مفتعل؟ كأنك تجر الآية جراً حتى تغطي هذه النظرية العلمية الحديثة، قال تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنْ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾

[سورة الأنبياء : 30]

فهذه النظرية الحديثة إن الأرض مع الشمس كانت كتلة واحدة ثم انفصلوا، لا يا أخي، هذه الآية غير مرئية، وهذه سابقاً يريد أن يجر الآية جراً إلى هذه النظرية الحديثة أن الأرض والشمس والكواكب كانت كتلة واحدة وانفصلت بحكم القوة النابذة، لا هذا جر، وأحياناً الإنسان يجر آية لتغطية شهواته، مثلاً قوله تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[سورة آل عمران : 130]

يقول الجاهل: يا أخي الله ما نهانا عن الربا، بل نهانا عن النسب العالية في الربا: وهذه الآية قال تعالى:

﴿ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: 279]

معنى هذا أن كل شيء فوق رأس المال حرام، هذه الآية تكمل الآية، أحياناً الإنسان يجر الآية جراً حتى يغطي شهواته، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

[سورة الحج : 41]

ما تمكنا إذاً لا نصلي، هذا افتعال للتفسير، قال تعالى:

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾

[سورة الحجر : 99]

فإذا أتاك اليقين انتهت العبادة!! وهذا شيء باطل، هذا هو التفسير بالرأي، من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار، لأنه يجر الآيات إلى شهواته، لكن من توسع في فهم كلام الله فهذا هو التدبر.

وهو من الحجب العظيمة، و سيدنا علي رضي الله عنه يقول: "إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن". هذه أربعة موانع تمنع صاحبها عن فهم كتاب الله، التعلق فقط، وقصر الهمة كلها على مخارج الحروف، والاستعلاء على الناس بهذا، وهناك شيطان موكل بالقراء، وأن يكون له مذهب معين، مذهب الجبر مثلاً، مذهب معتزلي، أي الإنسان خالق أفعاله، يأتي بآيات قرآنية تؤيد مذهبه، هذا من الصعب أن يفهم كلام الله، مادام مذهبه على خلاف أهل السنة والجماعة، ومعنى هذا أنه يفتعل الآيات افتعالاً ويجرها جراً حتى يؤيد مذهبه فيها وهذا مانع ثان.

المانع الثالث أن يكون له ذنب مصر عليه.

المانع الرابع أن يكون قد قرأ تفسيراً ولا يوجد عنده استعداد أن يجاوزه إلى معنى آخر، أو معنى أوسع، أو معنى أحدث.

* * *

قصة العباس صاحب شرطة المأمون مع الرجل الدمشقي :

والآن إلى قصة من القصص التي نحاول أن نستنبط منها موعظة، هذه القصة على صفة رفيعة في الإنسان، وهي الوفاء، كنت قد قرأتها لكم في أحد أيام الأعياد، وكان الحاضرون قلة، و أردت أن أعيدها الآن لما فيها من الفائدة.

قال صاحب شرطة المأمون: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين ببغداد، وبين يديه رجل مكبل بالحديد، فلما رآني قال لي: يا عباس، قلت: لبيك أمير المؤمنين، قال: خذه إليك واحتفظ به، وبكر به إلي في الغد، فدعوت جماعةً فحملوه – ويبدو أنه لا يقوى على السير ولم يقدر أن يتحرك – فقلت في نفسي مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به يجب أن يكون معي في بيتي احتياط، فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري، قلت لهم: انصرفوا، ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق، فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً– العباس صاحب شرطة المأمون– فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل أنت؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف ذلك الرجل أنت؟ قلت: وقعت لي معه قضية، فقال: والله ما كنت بالذي أعرف خبره حتى تعرفني قضيتك معه.

قال العباس: كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهلها، وخرجوا علينا، وهربت أنا وأصحابي وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب إذ بجماعة يعدون خلفي فما زلت أعدو أمامهم حتى فتهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك، وهو جالس على باب داره فقلت: أغثني أغاثك الله، قال هذا الرجل: لا بأس عليك ادخل الدار، فدخلت وأدخلني مقصورةً في صدر البيت، ووقف الرجل على باب الدار، وما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: بينكم الدار ففتشوها، ففتشوها حتى لم يبقَ سوى تلك المقصورة، فقال: هاهنا امرأتي فتراجع القوم، وانصرفوا، وخرج الرجل، وجلس على باب داره ساعةً، وأنا قائم أرجف خوفاً ما تحملني رجلاي من شدة الخوف، فقال لي بعد ساعة: اجلس لا بأس عليك، فجلست، فقال لي مرةً ثانية: لقد صرف الله عنك هؤلاء وصرت إلى الأمن والدعة اجلس، فقلت: جزاك الله خيراً ثم مازال يكرمني ويعاشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره، ولم يفتر عن تفقد أحوالي، فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش، وأهنئه، إلى أن سكنت الفتنة، وهدأت وزال أثرها، فقلت له: أتأذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني فلعلي أقف منهم على خبر؟ فأخذ علي المواثيق بالرجوع إليه، فخرجت فطلبت غلماني فلم أرَ لهم أثراً فرجعت إليه، وأعلمته الخبر، وهو مع هذا كله لا يعرفني، ولا يسألني، ولا يعرف اسمي، ولا يخاطبني إلا بالكنية، لا من أنت، و لا ما عملك، ولا من هذا القبيل.

ثم قال: علامَ تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد، فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام، وها أنا ذا قد أعلمتك، فقلت له: إنك تفضلت علي هذه المدة، ولك علي عهد ألا أنسى لك هذا الفضل، ولأكافئنك ما استطعت، ثم دعا غلاماً له، وقال له: أسرج الفرس ثم جهز آلة السفر، فقلت في نفسي: ما أظن إلا أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة، أو ناحيةً من النواحي فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب – أي يهيئون آلة السفر والعدة والطعام والفراش والرواحل – ولما حان يوم خروج القافلة جاءني السحر، وقال لي: قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أشتري به مركوباً؟ ثم قمت فإذا هو يحمل أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر، ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدم لي بغلاً حمل عليه صندوقين وفوقهما فرش، وقدم لي فرساً، وقال لي: اركب وهذا الغلام يخدمك طوال الطريق، ويسوس مركبك، غلام، وفرس، وطعام، وزاد، وفراش، وكل شيء.

وأقبل يعتذر إلي من التقصير في أمري– و أيضاً اعتذر منه إذا قصر معه في هذه المدة – وركب معي يشيعني، وانصرفت إلى بغداد، وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته، ومكافأته، واشتغلت مع أمير

المؤمنين فلم أتفرغ أن أرسل إليه من يكشف خبره، فلذلك أسأل عنه هل تعرفه؟ هذا من الشام؟ قال: فلما سمع الرجل الحديث، قال: قد أمكنك الله من الوفاء له، ومكافأته على فعله، ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك، ولا مؤونة تلزمك، قال: وكيف ذلك؟ أين هو؟ فقال: أنا ذلك الرجل وإنما الضر الذي أصابني غير عليك حالي، وما كنت تعرفني فيه، أنا الذي استقبلتك في البيت، وأكرمتك، وفعلت ما فعلت، فقال العباس: فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ثم قلت له: فما الذي أصابك حتى أصبحت على ما أرى؟ قال: هاجت بدمشق فتنةٌ ثانية، وكنت بريئاً منها، ثم ألصقت بي هذه التهمة، فبعث أمير المؤمنين بجيوش، وأصلحوا البلد، وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت، وقيدت وبعث بي إلى أمير المؤمنين، وأمري عنده عظيم، وخطبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة، وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافئتك لي أن ترسل من يحضره حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت هذا فقد جاوزت حد المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدك، قلت: يصنع الله خيراً، قال: ثم أحضر العباس حداداً في الليل فك قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال، وأدخله حمام داره، وألبسه من الثياب ما احتاج إليه، ثم سير من أحضر إليه غلامه، فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: علي بالأفراس والهدايا ثم أمره أن يشيعه إلى حد الأنبار، قال له: اذهب إلى الشام، أعطاه أفراساً وهدايا وبضاعة وطعاماً وشراباً وقال له، رافقه إلى آخر مشارف بغداد.

فقال له: إن ذنبي عظيم، وخطبي جسيم، وإن أنت احتججت بأني هربت بعث في طلبي حتى أرد إليه وأقتل، فقال العباس: انجُ بنفسك ودعني أدبر أمري، فقال: والله لا أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت، فقال العباس: إن كان الأمر على ما تقول فلتكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غدٍ أعلمتك، وإن أنا قتلت فقد وقيتك بنفسي كما وقيتني.

ثم تفرغ العباس لنفسه وتحنط وجهز له كفناً، فلما فرغ من صلاة الصبح جاءت رسل المأمون إليه وهم يقولون: هات الرجل معك وقم، فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين، فإذا هو جالس ينتظر فقال: أين الرجل؟ فسكت، قال: ويحك أين الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، قال: لله علي عهد لأن ذكرت أنه هرب لأضربن عنقك مكانه، فقلت: لا والله ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك وما تريد أن تفعله في أمري، قال: قل، قال: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت، وقصصت عليه القصة جميعها، وعرفته أني أريد أن أفي له، و أكافئه على فعله معي، وقلت: أنا سيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين، إما أن يصفح عني فأكون قد وفيت

وكافأت، وإما فيقتلني فأقيه بنفسي، وقد تحنطت، وهاهو ذا كفني معي يا أمير المؤمنين.
قال: فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً، إنه فعل بك ما فعل من غير معرفةٍ وتكافئه بعد المعرفة بهذا، فهلا عرفتني خبره، فكنا نحن نكافئه عنك، ولا نقصر في وفائه لك، اعتبر المأمون هذه المكافأة دون الحد المطلوب، قال له: إنه ها هنا في بغداد وقد حلف أنه لن يبرح حتى يعرف سلامتي، فإن احتجت إليه حضر، فقال المأمون: فهذه منة أعظم من الأولى، اذهب إليه الآن فطيب نفسه، وسكن روعه، وائتني به حتى أتولى أنا مكافأته.
قال: فأتيت إليه وقلت له: ليزل خوفك إن أمير المؤمنين قال كذا وكذا، فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه، ثم قام وركب، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأدناه من مجلسه، وحدثه حتى حضر الغداء، فأكل معه، وخلع عليه، وعرض عليه ولاية دمشق، فاستعفف، فأمر له بصلة، وكتب إلى عامله بدمشق يوصيه به.

الإيمان كله قيم أخلاقية و مكارم أخلاق :

الحياة كلها وفاء، الذي عنده وفاء لزوجته، ووفاء لأخيه، و لشريكه، ولأهل بلده، و لأمته، و لوطنه، و للإنسانية و لنبيه الكريم صلى الله عليه، فالوفاء هو كل شيء، فهذا الرجل عمل معروفاً لوجه الله تعالى، وما درى أنه وقع عند الذي فعل معه هذا المعروف، وهذا الذي فعل معه المعروف بذل نفسه رخيصةً من أجل الوفاء بعهده، هو طلب منه أن يطلب غلامه حتى يلقنه وصيته فقط، وتكون جاوزت المكافأة، فلم يرضَ إلا أن يضع روحه دونه.
و هكذا الأمة العربية كانت سابقاً، وهكذا السلف الصالح كان، و الإنسان كان، و الإيمان كله قيم أخلاقية، و مكارم أخلاق، وأحدهم يأخذ امرأة كاملة مكملة تمرض فيريد أن يطلقها أهكذا الوفاء؟ أخذتها شابة.
قالت: يا رسول الله تزوجني شابة ذات أهل ومال وجمال، فلما كبرت سني، ونثر بطني، وتفرق أهلي، وذهب مالي، قال: أنتِ علي كظهر أمي، فالآن بعدما كبرت، وذهب أهلي، ومات والدي، و سافر أخوتي، وكان معي مال أخذه مني، قال لي: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، فبكى النبي عليه الصلاة والسلام.
فالذي ليس عنده وفاء لا إيمان له، والذي لا وفاء له للذي أحسن إليه لا إيمان له.

ومن أسلم على يديه رجل وجبت له الجنة، ومن أسلم على يده رجل فله ولاؤه طوال حياته، وهذا معروف بسيط أكرمه شهرين أو ثلاثة، فوجد المناسب أن يضحي بحياته من أجله، فكيف بالذي هداك إلى الله عز وجل؟ فإذا كان لك أخ هداك إلى الله، فدعاك إلى مجلس علم، واعتنى بك، وأكرمك، أتنسى فضله؟ فهذا هو الوفاء. والنبي عليه الصلاة والسلام سيد الأوفياء حينما فتح مكة و دعي إلى بيوت أصحابه قال: انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة، هذه التي آمنت به يوم كذبه الناس، وأنفقت عليه مالها، هذه أحق إنسانة ينام إلى جانب قبرها.

* * *

الحج عرفة :

قال عليه الصلاة والسلام:

((الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْحَاجُّ وَالْمُعْتَمِرُ وَفْدُ اللَّهِ دَعَاهُمْ فَأَجَابُوهُ وَسَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ))

[ابن ماجة عَنِ ابْنِ عُمَرَ]

الحاج إنسان رفيع الشأن وفد الله. والحجاج والعمار وفد الله تعالى يعطيهم ما سألوا، ويستجيب لهم ما دعوا، ويخلف عليهم ما أنفقوا، ومهما ارتفعت التكاليف يخلف عليهم ما أنفقوا، الدرهم ألف ألف.

الحج سبيل الله، أي الطريق إلى الحج طريق إلى الله عز وجل، هذه سياحة روحية، وهذا ذهاب إلى الله تعالى، والله سبحانه وتعالى جعل الكعبة البيت الحرام بيته فمن زارها فكأنما زاره، والحج المبرور:

((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

المبرور لا لغو، و لا رفث، ولا فسوق، ولا جدال، بل نية خالصة، و مال حلال، وتوبة صادقة، هذا هو الحج المبرور يرجع المرء منه كيوم ولدته أمه.

((الحج عرفة))

[الترمذي و أبو داود عن النعمان بن بشير]

هذا حديث من الأحاديث ذات البلاغة العالية، الحج عرفة بمعنى أن الإنسان إن لم يقف بعرفة فلا حج له، في وقت محدد إن لم يكن في هذا المكان في عرفة فلا حج له، والمعنى الأوسع أن الحج معرفة الله سبحانه وتعالى، أنت ذاهب إلى الله من أجل أن تعرفه، فإذا عدت من الحج وقد عرفته، وقد أقلعت عن كل الذنوب لأنك عرفته،

وقد عزمت عزماً صادقاً أكيداً على متابعة طاعته حتى الموت، وقد انقطعت أمامك الحقائق، وظهرت الحقائق، و صغرت الدنيا في عينيك، وعظمت الآخرة، ورأيت الله سبحانه وتعالى أكبر من كل شيء، ولا شيء سواه، ولا شيء قبله، ولا شيء بعده، هو الظاهر والباطن، فإذا رأيت هذه الرؤية فقد حججت، أما إذا عدت كما أتيت، وأنت كما أنت مقيم على بعض المخالفات ومتساهل في بعض الطاعات فهذا الحج لا يقدم ولا يؤخر.

((الْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ))

[أحمد عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ]

فالسفر فيه مشقة، وفيه ازدحام، و مشقة بالعودة، و بالحجز، وبالحر، و بتأمين الحاجات، وبالسكن، فهذا جهاد الضعيف.

الحجر يمين الله في الأرض يصافح به عباده :

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((الحجر يمين الله فمن مسح يده على الحجر فقد بايع الله))

[الديلمي عن أنس]

إذا دخلت إلى الحرم المكي يجب أن تشعر أن هذا الحرم ليس له علاقة بالبلاد المحيطة به، هذا بيت الله، وهذه الكعبة كعبته، وهذا الحجر يمينه في الأرض، فمن فاوض الحجر فكأنما فاوض كف الرحمن، وإنك إذا تعلقت بأستار الكعبة فهذا قرب من الله شديد وإنك إذا قبّلت الحجر فقد قبلت يمين الله في أرضه.

هذه المناسك يجب أن يرافقها حالات نفسية، وإلا لا قيمة لها، و تصبح طقوساً، وما الفرق بين الطقس والعبادة؟ الطقس حركات لا معنى لها، لكن العبادة يرافقها مشاعر سامية جداً:

((الحجر يمين الله فمن مسح يده على الحجر فقد بايع الله))

وإذا صافح إنسان الحجر الأسود، أو استلمه، أو قبله، أو مسحه بيمينه، أو قبله بشفتيه، وعاد إلى بلده يجب كلما حدثته نفسه بمخالفة أن يذكر تلك البيعة، لقد بايع الله عز وجل على الطاعة، لقد عاهده على الطاعة حينما قبل يمينه في الأرض، والحجر يمين الله في الأرض يصافح به عباده.

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ مِنَ الْجَنَّةِ وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَم))

[النسائي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من يواقيت الجنة وإنما سودته خطايا البشر، يبعث يوم القيامة مثل أحد يشهد لمن استلمه وقبله من أهل الدنيا.

هذا حديث صحيح، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منا عبادتنا، وأن يتقبل منا حجنا لمن حج، وأن يرزقنا حجاً مبروراً، وسعياً مشكوراً، وذنباً مغفوراً.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 6 : آداب الصلاة .... تتمة الآداب الباطنة لتلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

آداب الصلاة :

1 . إخراج الرجل كفيه من كميه عند التكبير :

أيها الأخوة المؤمنون، تحدثنا من قبل عن أركان الصلاة، وعن واجبات الصلاة، وعن سنن الصلاة، و ها نحن أولاء ننتقل إلى آداب الصلاة، فمن آدابها إخراج الرجل كفيه من كميه عند التكبير، أي إذا كان الإنسان يلبس شيئاً له كم طويل فمن السنة ومن الأدب أن يخرج كفيه من كميه.

2 . نظر المصلي إلى موضع سجوده قائماً :

ونظر المصلي إلى موضع سجوده قائماً، وهو قائم ينظر إلى موضع سجوده و أحياناً على الإنسان أن يغمض عينيه ولكن متى؟ لو دخل إلى مسجد – قيل: يوجد مسجد تكلفته تقدر بثلاثة وعشرين مليوناً في المزة–، فإذا دخل ليصلي ونظر إلى هذه الزخارف والثريات، فأغلب الظن في هذه الحالة له حق أن يغمض عينيه داخل الصلاة، وإذا كان في الغرفة ابنه يتحرك أمامه وعينه على ابنه فأين الخشوع؟ ففي مثل هذه الحالة يغمض عينيه، وإذا لم يكن شيء يجذب النظر فيفتح عينيه وينظر إلى مكان سجوده، وهذا من آداب الصلاة.

3 . النظر إلى ظاهر القدم عند الركوع و إلى موضع السجود و هو قائم :

وإذا ركع ينظر إلى ظاهر القدم وإلى موضع سجوده وهو قائم، على ظاهر قدمه وهو راكع، وإلى أرنبة أنفه وهو ساجد، وإلى حجره – الحجر هو الحضن – وهو جالس بين السجدتين.

4 . النظر أثناء التسليم إلى المنكبين :

وأن ينظر أثناء التسليم إلى المنكبين، أحياناً يصلي الإنسان و على اليمين صديق له أو أخوه أو زوجته فيسلم ويقول: السلام عليكم ورحمة الله وينظر إلى الحاضرين، ويتأملهم، ويتفحصهم، وهو يسلم فهذه لا تجوز، فمن آداب الصلاة أن ينظر أثناء التسليم إلى منكبيه، أما أن يتفحص من هم في الغرفة قبل أن ينهي الصلاة فليس هذا من آداب الصلاة، هذه من آداب الصلاة.

5 . دفع السعال وكظم الفم عند التثاؤب :

ودفع السعال ما استطاع، والإنسان يستطيع أن يسعل لكن إذا كان من الممكن أن يتلافى السعال فالأدب أن يتلافى السعال، وأحياناً يوجد بلغم في حنجرته ويستطيع أن يتابع الصلاة من دون أن يقتلعه من مكانه بنحنحة قوية، فهذه النحنحة في أثناء الصلاة تشوش على المصلين وقد تدفع النفوس للاشمئزاز، فدفع السعال والنحنحة ما استطاع، وكظم فمه عند التثاؤب، وأحدهم سأل الرسول صلى الله عليه عندما كان يتثاءب أن يضع يده اليمنى أم اليسرى؟ ولم يجد ذلك في كتب السنة، فلما سأل العلماء قالوا: إن النبي صلى الله عليه ما تثاءب قط في كل حياته، قال: التثاؤب من الشيطان والعطاس من الرحمن، والتثاؤب دليل الملل، والضجر، وعدم المبالاة، لكن نحن لا نقول للمؤمنين لا تتثاءبوا، نقول: ادفع التثاؤب قدر الإمكان، والدليل أن تكظم الفم والكظم هو الإغراق، فأحياناً يشعر أن حنكه يرجف و يريد أن يتثاءب لكنه حافظ على فمه مضغوطاً و هذا هو الأدب أما أن يفتح فمه كالمغارة فهذا لا يليق.

6 . القيام إلى الصلاة :

القيام إلى الصلاة متى؟ قام المؤذن وأقام الصلاة تجد أناساً يقفون عند قوله: الله أكبر الله أكبر، وأناس عند: أشهد أن محمداً رسول الله، وأناس عند: حي على الصلاة، وأناس عند: حي على الفلاح، فتصير فوضى، والأدب أن تقوم إلى الصلاة عندما يقول المقيم: حي على الفلاح، والإمام إذا لم يكن موجوداً في مكانه الطبيعي ينتقل إلى مكانه عند قول المقيم: قد قامت الصلاة، هذه هي السنة.

تطبيق عملي حول حركات الصلاة واحدة واحدة منذ البدء وحتى الختام :

والآن عندنا بحث تطبيق عملي حركات الصلاة واحدة واحدة منذ البدء وحتى الختام:

أولاً: إذا أراد الرجل الدخول في الصلاة طبعاً الآن دمجنا الأركان مع الواجبات مع السنن مع الآداب في تسلسل واقعي عملي واحد، إذا قام الرجل إلى الصلاة أخرج كفيه من كميه ثم رفعهما حذاء أذنيه، ثم كبر بلا مد، المد في الأذان أما في التكبيرة فليس هناك مد، ماضياً أي نوى وكبّر، ويصح الشروع بكل ذكر خالصاً لله تعالى كسبحان الله، ثم يضع يمينه على يساره تحت سرته عقب التحريمة، ثم يضع يمينه على يساره محلقاً خنصره بإبهامه تحت سرته بعد التحريمة بلا مهلة مباشرةً، مستفتحاً بقوله: سبحانك اللهم، وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك، يستفتح الإمام ويستفتح المقتدي وكل مصلٍّ ولو كان منفرداً ثم يتعوذ سراً، ويسمي في كل ركعة: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، والأحناف يؤثرون أن تقرأ التسمية سراً ويسمي في كل ركعة قبل الفاتحة فقط، ثم قرأ الفاتحة وأمم الإمام والمأموم أي آمين يقولها الإمام والمأموم سراً، أما هذا الصوت المرتفع الذي يصم الآذان فهذا خلاف آداب الصلاة، والآن نرجو من كل مصلٍّ أن يقول: آمين بصوت لا يكاد يسمع، هكذا السنة، وهكذا الأدب، ثم يقرأ هذا الرجل سورة أو ثلاث آيات، ثم يكبر رافعاً مطمئناً يتلو سبحان ربي العظيم ثلاث مرات، مطمئناً مسوياً رأسه بعجزه على استقامة واحدة، أخذاً ركبتيه بيديه، مفرغاً أصابعه، مسبحاً ثلاثاً: سبحان ربي العظيم ثلاث مرات وذلك أدناه، ثم يرفع رأسه ويطمئن قائماً ويقول: سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد، ولو كان إماماً أو منفرداً، والمقتدي يكتفي بالتحميد فقط، ثم يكبر خاراً للسجود ثم يضع ركبتيه ثم يديه ثم وجهه بين كفيه، ويسجد بأنفه وجبهته مطمئناً مسبحاً ثلاثاً، ومعنى الاطمئنان: ألا يكون الركوع والسجود كنقر الديك أي ثلاث مرات سبحان ربي الأعلى، وذلك أدناه ويجافي بطنه عن فخذيه، ويبعد بطنه عن فخذيه وعضديه عن إبطيه في غير زحمة، أما إذا كان هناك ازدحاماً فيجب أن تضم المرفقين إلى الإبطين، لكن لا يوجد معك أحد في الغرفة

ممكن أن تباعد بين الذراعين وتوجه أصابع اليدين والرجلين نحو القبلة، والمرأة بالعكس تتجمع ولا تتباعد، ثم يرفع رأسه مكبراً للنهوض بالاعتماد على الأرض بيديه وبلا قعودٍ، والركعة الثانية كالأولى إلا أنه لا يثني دعاء الثناء ولا يتعوذ ولكن يبسمل، والثانية لا يوجد فيها دعاء الثناء ولا تعوذ ولكن فيها بسملة، ولا يسن رفع اليدين إلا عند افتتاح كل صلاة، وعند تكبير القنوت في الوتر، وتكبيرات الزوائد في العيدين، وحينما يرى الكعبة، وحين يستلم الحجر الأسود، وحين يقوم على الصفا والمروة، وعند الوقوف بعرفة، ومزدلفة، وعند رمي الجمرة الأولى والوسطى، وعند التسبيح عقب الصلوات، و هذه الحالات عند الإمام الحنفي التي يسن فيها رفع اليدين مع التكبير.

الآن يقرأ التشهد المعروف ويشير بالمسبحة في الشهادة يرفعها عند النفي لا إله إلا الله، ويضعها عند الإثبات، ولا يزيد على التشهد في القعود الأول وهو التحيات لله والصلوات الطيبات، القعود الأول تشهد والقعود الثاني تشهد مع صلوات إبراهيمية، ويقرأ الفاتحة فيما بعد الأوليين في الركعة الثالثة والرابعة، ثم يجلس فيقرأ التشهد، ثم يصلي على النبي ﷺ، ثم يدعو بما يشبه القرآن والسنة: رب اغفر لي ولوالدي، رب ارحمهما كما ربياني صغيراً، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ثم يسلم يميناً ويساراً ويقول: السلام عليكم ورحمة الله، السلام عليكم ورحمة الله، هذه صفة المصلي مدموجاً فيها أركان الصلاة، وواجباتها، وسننها، وآدابها، وفي درس آخر إن شاء الله ننتقل إلى باب الإمامة، وبعدها بعض مفسدات الصلاة.

* * *

آداب قراءة القرآن :

الأدب السابع هو التخصيص :

والآن إلى فصل مختار من إحياء علوم الدين حول آداب قراءة القرآن، هذا الفصل مهم جداً، أرجو أن تدققوا فيه، وأن تصغوا إليه.

الأدب السابع هو التخصيص لأهمية هذا الفصل سأقرأه على مسامعكم كلمة كلمة وسأحاول شرح الجمل الغامضة، والأماكن التي تحتاج إلى شرح، وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطابٍ في القرآن، والآن إذا كان طالب مثلاً في الصف الثالث الثانوي والامتحان على الأبواب يسمع الأخبار فكان البلاغ التالي: بلاغ إلى طلاب الشهادة الثانوية، بناءً على مقتضيات المصلحة يؤخر الامتحان من الخامس من حزيران إلى العاشر منه، هذا

طالب الشهادة الثانوية الذي على وشك الامتحان، ويستمع إلى هذا البلاغ حينما يقول: المذيع بلاغ إلى طلاب الشهادة الثانوية تراه كتلة إصغاء، وكتلة اهتمام، وهذا البلاغ له علاقة بدراسته وببرنامجه، مثلاً: لو أن التجار استمعوا إلى بلاغ متعلق بالاستيراد، أول شيء يشتري الجريدة، ويقول لك: ما انتبهت جيداً، يمكن الساعة الثانية عشرة ليلاً يبحث عن جريدة، وإذا سمع بلاغاً يمس تجار السيارات، وصدر بلاغ يمس بعض أنواع الفعاليات الاقتصادية كيف تشعر أن هذا البلاغ لك وله علاقة بمصيرك؟ يربحك وممكن أن يخسرك؟ مرة صدر بلاغ بالسماح باستيراد السيارات ثاني يوم هبط سعر كل سيارة مئة ألف ليرة، فكل صاحب سيارة وكل تاجر سيارات صار معنياً بهذا البلاغ، وهذا مثل منتزع من حياتنا اليومية، رجل يريد أن يسافر قالوا له: رسم الخروج صار ألف ليرة ترى أنه يعطي كل اهتمامه، وأما الذي لا يريد أن يسافر فلا يسأل.

على الإنسان أن يشعر أنه مقصود بكل خطاب بالقرآن :

إذاً الإنسان عندما يكون له علاقة بهذا الموضوع تراه مصغياً، مهتماً الآن من آداب تلاوة القرآن الكريم التخصيص، وهو أن تشعر أنك مقصود بكل خطاب بالقرآن، هذا سؤال ينبغي أن يكون الإنسان فيه صريحاً، إذا قال الله تعالى: يا أيها الذين أمنوا هل تشعر أنك معني بالخطاب؟ هل تشعر أن الله سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض يخاطبك أنت بالذات؟ قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

[سورة الصف: 2-3]

هل تشعر وكأن الله عز وجل يعاتبك؟ عاتب عليك، قال تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾

[سورة الأحزاب:69]

﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب:71]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

[سورة الأحزاب: 41]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ﴾

[سورة النساء: 71]

كلما تقرأ هذه الآيات بماذا تشعر؟ تشعر أنك معني بها، وأنك المخاطب، و المقصود، وهنا كل إنسان يعرف نفسه.

المؤمن إذا سمع نهياً أو أمراً قدر أنه المنهي والمأمور :

قال تعالى:

﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ ﴾

[سورة القيامة: 14-15]

قالوا: فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور، قال تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 104]

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾

[سورة الحجرات: 12]

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾

[سورة الحجرات: 11]

إذا سمع نهياً أو أمراً قدر أنه المنهي والمأمور، هذا الشيء تعرفه أنت، تحس أنك المعني بهذا الأمر، وأنت المعني بهذا النهي، وإذا سمع وعداً، قال تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾

[سورة النور: 55]

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

[سورة الحج: 38]

هل تحس أنك المعني بهذا الوعد الطيب؟ وإن سمع وعداً أو وعيداً يحس أنه الموعود وأنه المهدد.

حال المؤمن بين الخوف و الرجاء :

قال سيدنا عمر: لو أنزل الله سبحانه وتعالى أنه معذب رجلاً واحداً لخفت أن أكون أنا، ولو أنه أنزل أنه راحم رجلاً واحداً لتمنيت أن أكون أنا، هذا حال المؤمن رغباً ورهباً، بين الخوف والرجاء، وإن سمع قصص الأولين والأولياء علم أن الثمر غير مقصود، فإذا قرأ إنسان قصة يقول: قصة ممتعة لها بداية وعقدة ونهاية، ويوجد حوادث، وبيئة، ورسم شخصيات، وتحليل، وهذه قصة فنية وهي شيء ممتع، لا يا أخي ليس المقصود هو المتعة بل المقصود هو العبرة، المقصود من هذه القصة: والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون، هذا هو المقصود، الله عز وجل كلمة لا إله إلا الله عبّر عنها بشكل قصة فإذا قرأت قصة في القرآن مثلاً قصة سيدنا موسى، أو قصة سيدنا يونس، أو سيدنا إبراهيم مع قومه، أو سيدنا رسول الله، أو أصحاب الجنة، هذه القصص يجب أن توقن أنها ليست للمتعة إنها للموعظة، وأن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يعلمنا عن أخبار الأولين بقدر ما يريد أن نستنبط العظة من هذه الأخبار، وأن المقصود أن يعتبر به، وليأخذ منها ما يحتاج إليه، فما من قصة بالقرآن إلا وسياقها لفائدةٍ في حق النبي عليه الصلاة والسلام ولأمته.

القصص في القرآن الكريم ليست للمتعة إنها للموعظة :

لذلك قال تعالى:

﴿ وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

[سورة هود: 120]

قال: إنسان دخل إلى مستشفى في بريطانية جاءته ممرضة من درجة عالية، نسقت الأزهار في الغرفة، وسألت المريض ما مرضك؟ فأجابها: ومن طبيبك؟ قال لها: فلان، قالت: فلان، هل رضي أن يجري لك العملية هو بالذات، قال: نعم، قالت: آه هذا الطبيب أجرى مئة عملية وكلها ناجحة، وهذه الممرضة مهمتها رفع معنويات المريض لتكون معنوياته عالية، وهذه المعنويات العالية تسرع في الشفاء، ولذلك أسرع الناس شفاءً المؤمن، معنوياته دائماً عالية، واثق من الله عز وجل، دفع حوالي ألفي ليرة على هذه الكلمات بالفاتورة.

ومعنى هذا أن رفع المعنويات شيء مهم، رسول الله ﷺ في أحنك الظروف قال تعالى:

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 146]

أهداف القصص التي جاءت في القرآن الكريم :

الله عز وجل يذكر قصصاً لرسول الله حتى يثبت فؤاده، ويثبت معه المؤمنين، قال تعالى:

﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة الأعراف : 128]

ويذكر عن قارون فيقول:

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ المُنْتَصِرِينَ ﴾

[سورة القصص: 81]

تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض بل للمتقين، اطمأن الإنسان، فليقدر العبد أن الله سبحانه وتعالى ثبت فؤاد نبيه عليه الصلاة والسلام، وصبره على الإيذاء، وثبت المؤمنين، هذا كله من أهداف القصص التي جاءت في القرآن الكريم.

آيات جعلت القرآن الكريم نعمةً عامة وليست نعمةً خاصة :

الشيء الذي أحب أن أقوله لكم: إن هناك مجموعة آيات جعلت القرآن الكريم نعمةً عامة وليست نعمةً خاصة، مثلاً قال تعالى:

﴿ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 231]

وأكبر نعمة هذا الكتاب الذي أنزله الله على نبيه، إذاً نحن المعنيون به، ونحن المقصودون به.

شيء آخر قال تعالى:

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

[سورة الأنبياء: 10]

يعالج قضاياكم، أنا أقول لكم وواثق من قولي: اقرأ القرآن بتدبر كل يوم ترى أن كل مشكلاتك النفسية وجدت لها حلولاً، وكل مخاوفك تبددت، وكل اضطراباتك النفسية زالت، لأنه يوجد قوانين إله يقول لك و الذي خلق الكون:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

[سورة النحل: 97]

هذا كلام إله، كلام رب الوجود، كلام رافع السماء بلا عمد، كلام خالق الكون، من بعده يقول كلاماً خلافه، فإذا كان هناك إنساناً عظيماً قال: هكذا سيكون، وهل يوجد إنسان تافه يقول: سيكون خلاف ذلك، أي الله عز وجل وعد المؤمن بحياة طيبة في كل الظروف، وفي كل العصور، وفي كل الأحوال، وفي كل البيئات، وفي كل البلاد، و الأماكن، و الأصقاع، والأمصار، وبأي مكان وجدت فيه أنك موعود بحياة طيبةٍ إذا استقمت على أمر الله، يخلق لك من الضيق فرجاً، ومن الضعف قوة، بعض الشعراء قالوا:

وربَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعا ً وعند اللـه منها المخرج

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكـان يظن ألا تفرج

***

كن عن همومك معرض ا وكل الأمور إلى القضا

وابشر بخيـر عاجل تنسى به ما قد مضى

فلرب أمر مسخط لك في عواقبــه رضا

ولربما ضاق المضيـق ولربما اتســع الفضا

اللــه يفعل ما يشاء فلا تكـن معترضا

الله عودك الجميـل فقس على ما قد مضى

***

القرآن الكريم فيه حل لمشكلات الإنسان :

هذا قرآن كريم، اقرؤوا القرآن بتدبر وكل يوم وأنا متأكد لن تبقى في حياتكم مشكلة، وهذا الكتاب فيه ذكركم أي فيه حل مشكلاتكم، يأتي رجل يقرأ قوله تعالى:

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: 216]

تنحل كل مشكلاته، تريد أن تذهب بعثة ثم وضع اسم مكان اسمك تقرأ الآية فتجدها برداً وسلاماً:

﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾

إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، جاءتك زوجة وسطاً: وعسى أن تكرهوا شيئاً فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.

دخلك أقل من مصروفك، قال تعالى:

﴿ قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

[سورة الزمر: 10]

ذهب إلى الطبيب فوجد أن معه مرضاً عضالاً وأنت مؤمن، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴾

[سورة فصلت: 30]

الموت أكبر مصيبة عند الناس يغدو عرساً عند المؤمن :

لا تخف وأنت في الدنيا وإذا أزفت الآزفة لا تحزن عليها، أنت منقول إلى أهل خير من أهلك، وإلى بيت خير من بيتك، إلى جنة عرضها السموات والأرض، ترى المؤمن متوكلاً، حدثني طبيب في مستشفى جاءهم مريض معه مرض خبيث في أمعائه و هو مؤمن، قال: دخل على غرفته لا يوجد هذا الذعر بوجهه، دخل الطبيب وقال له: كيف صحتك؟ قال له: الحمد لله، واشهد أنني راض عن الله، كلما دخل إليه زائر يعوده يقول له: اشهد أنني راض عن الله، فإذا ضرب الجرس يتهافت الممرضون على خدمته، ويأتون ثلاثة معاً، وهذه الغرفة فيها نورانية عجيبة، خدمة ممتازة، ورائحة عطرة، من في هذه الغرفة ما سمعوا صوته ولا صراخه، وعندما يشعر أنه متضايق يمسك طرف السرير، وعندما توفي كانت نهايته جميلة جداً، وجه منير واستغفار، والله عز وجل لحكمةٍ أرادها حتى يعلم

الناس درساً، جاء بعده إلى هذه الغرفة مريض معه مرض مشابه للأول تماماً، فما ترك نبياً إلا وسبه، سباب الدين مثل الورد عنده، و روائح كريهة، يضرب الجرس لا أحد يرد عليه، يسبهم ويسب آباءهم، ثلاثة أيام شوش المستشفى، وبعد ذلك فطس، أنا لا أقول: مات بل فطس، انظر المؤمن والآلام واحدة الأول تلقاها بصبر أي أكبر شيء في الحياة المرض العضال، إذا كنت مؤمناً تتلقاه بالصبر، والله يشفيك، وأنا أقول: "اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء، ومن السلب بعد العطاء، ومن شماتة الأعداء".

لكن حتى إذا جاء مثل هذا المرض على المؤمن سهل، إنسان دخل إلى المستشفى أجرى تحاليل، وبلغه أهله بجواب هذه التحاليل، هذا جالس في الغرفة فتكلم أهله فرفع السماعة، والخبر كان أنه سوف يعيش ستة أيام معه ورم خبيث بالدم، وهو نفس المريض، وكان محسناً، وكان يتصدق –هكذا بلغني عنه– وكان صاحب دين، وعمّر جامعاً، ودخل إليه أول طبيب فقال له: ماذا أبا فلان؟ قال له: انتهيت والحمد لله رب العالمين، وكان عاقداً صفقة فقال له: لو سمحت ألغِ لي هذه الصفقة، واذهب إلى فلان فذهب إلى فلان وقال له هذه الصفقة اتركها، فقال له: لا أستطيع أن أتخلى عنها، وليس من المعقول أن يقول له سوف يموت بعد ثلاثة أيام، والصفقة قادمة قال له: وزعها على أولادي بالتساوي، بهذه الثلاثة أيام أنهى كل علاقاته، وعمل وصية، وما ترك قضية معلقة، وثالث يوم جاء إليه عدد من العلماء ورد وذكر، والساعة الواحدة ودع أولاده ،وقام وتغسل بنفسه، حمام جيد وأراح المغسل، والساعة الواحدة أغمض عينه واتجه إلى الله، الساعة الواحدة والنصف فاضت روحه.

والله رجل بلغه أن وفاته بعد ثلاثة أيام بكل نفس رضية، وبكل سرور أنهى كل علاقاته، ووزع أمواله، ووصى أشخاصاً يحلون له بعض المشاكل، وودع أولاده، فإذا عرف الإنسان الله عز وجل لا يوجد عنده شيء صعب، والموت أكبر مصيبة عند الناس يغدو عرساً عند المؤمن.

القرآن الكريم للمسلمين وهم المعنيون به :

القرآن الكريم كلام رب العالمين والله أنزله لنا وفيه حل لكل مشكلة قال تعالى:

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

[سورة النحل: 44]

﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

[سورة الجاثية: 20]

﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 138]

هذه الآيات كلها مضمونها لنا، فالقرآن لنا ونحن المعنيون بالقرآن الكريم.

آيات كريمة عن العلاقة بين الزوج و زوجته :

هل تريد علاقتك مع زوجتك؟ يوجد آيات واضحة، قال تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾

[سورة النساء : 19]

أمر إلهي فسرها، المعاشرة بالمعروف ليست عدم إيقاع الأذى بهن بل احتمال الأذى منهن، تقرأ الآيات وتفهم تفسيرها، وتدخل إلى البيت، و عندك حلم، عاشروهن بالمعروف، أي تحمل منهن، وهذا الحلم يرفع مكانتك عند زوجتك تعظمك، زوجي وقور وليس مصروعاً، أحياناً الزوج يغضب فتفضحه زوجته وتقول: جن البارحة.

من تزوج المرأة لجمالها أو لمالها أذله الله :

أما إذا قال الله تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾

[سورة الطلاق: 1]

هذا توجيه ثانٍ، أنت مؤمن، وهذه أولاً قال تعالى:

﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 228]

أنت جعلتها خمسين درجة، قال تعالى:

﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾

[سورة النساء: 34]

هذا الكلام للعازبين، اختر امرأة تكون أنت أعلى منها بالعلم، والثقافة، والفهم، والمكانة الاجتماعية، أخذتها أعلى منك، من تزوج المرأة لجمالها أذله الله، يقول لك دائماً: زوجتي لا تقبل، ومن تزوجها لمالها أفقره الله، ومن تزوجها لحسبها زاده الله دناءةً، قال تعالى:

﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

هذه لها معاش تساعدني في معاشها، إذا لم تنفق من مالك عليها تفقد قوامتك عليها، تقول لك: افتح عينك لي معاش مثلك تماماً، فلماذا البيت بهذه الفوضى؟ جئت متعبة وهذا الحاضر، أين ذاهبة؟ عندي بعد الظهر اجتماع وهذا الحاضر، اتبع هذه التوجيهات تكن سعيداً في بيتك، أمر إلهي.

قال تعالى:

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

[سورة النور: 30]

طبقها تجد امرأتك أجمل امرأة في العالم، هذا كلام الله رب العالمين، وانظر وشاهد ينقلب البيت إلى جحيم، تعيش الجحيم الزوجي، وهذا الزواج.

من طبق البيوع القرآنية عاش براحة و طمأنينة :

تعال إلى البيوع طبق البيوع القرآنية، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة النساء: 188]

أخي ألبسناه البيعة وربحنا بالمئة ثلاثين، فلو كشف الزبون رأس المال هل يرضى؟ إذاً هذه التجارة حرام، و ليست عن تراض، ويجب أن يرضى الزبون من أعماقه ولو عرف الحقيقة، مثال تقول: هذا البلور صناعة اليابان أخذت ثمن المتر مئة وستين ليرة وهو بلور وطني، ثمنه ثمانون ليرة، وركبته له في مكان مرتفع لا يرى وأخذت ثمنه، وإذا في يوم من الأيام كان ينظف البلور شاهده وطنياً يقول: أخذ ثمنه يابانياً هل يقبل؟.

استدان منك مالاً وتقول: أنا وأثق به، إن مات لك معه مئة ألف ذهب المال، ولو أخذت وصلاً رسمياً عليه توقيعه فحقك محفوظ عند الورثة، لقد استدان مني وهذا نوع من العنترية لا يوجد حاجة أبو فلان أنا أثق بك، أبو فلان ممكن أن يموت بعد ساعة، الورثة يقولون: ليس لك عندنا شيء، وإذا أرادوا أن يسمعوا كلاماً يجب أن يكون معك بينة.

طبق القرآن في كل نواحي حياتك تجد نفسك سعيداً في صحتك، وحياتك، وعملك، وتجارتك، ومع أهلك وأولادك، هذا القرآن الكريم شفاء للناس، نحن لا نريد أن نتبرك به، ونعلقه في السيارة، وعيننا على الحرام، لا نضعه في البيت، والبيت فيه اختلاط، ويفتح المذياع بالغناء، نريد القرآن الكريم ينقلب إلى سلوك، وفقه، وعفاف، والتزام، هذا التخصيص.

القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض :

قال تعالى:

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

[سورة الأنعام: 19]

لأنذركم أنتم يا من كنتم مع النبي عليه الصلاة والسلام، ومن بلغ أي نحن المقصودون بهذه الآية الآن، قال بعضهم: من بلغه القرآن وكأنما كلمه الله تعالى، يا أيها الذين أمنوا خذوا حذركم، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، أي كل الأوامر الله بلغه إياها، وقال قتادة: "إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض"، وقال: "لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان"، لقوله تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

[سورة الإسراء: 82]

فالذي يريد أن يستفيد من عمره، ومن هذه المبالغ المباركة يمسك القرآن آية آية، فيجب أن يقبل كلام الله عز وجل، هل أحد يسير في السيارة من دون شهادة؟ يحجزون السيارة، الناس صدقوا هذا البلاغ وخافوا، هكذا يجب أن تعامل الله عز وجل، الله قال لك ماذا تفعل فيجب أن تنفذ كلامه وإلا فلست مؤمناً.

إن شاء الله في درس قادم نأخذ الأدب الثامن وهو التأثر، واليوم كان درسنا التخصيص أي كلما جاء أمر أنت المعني بالأمر، قرأت نهياً فأنت معني بالنهي، وقرأت وعداً فأنت المعني بالوعد، وقرأت وعيداً فأنت المعني بهذا الوعيد، وقرأت قصةً فأنت المعني بهذه القصة، استخلص منها الموعظة، كلما قرأت في القرآن شيئاً يجب أن ترى نفسك معنياً به وإلا إن لم تكن كذلك فأنت لا تقرأ هذا القرآن، كأنك تقرأ كتاب تاريخ.

* * *

قصة قصيرة تبين لنا أن هذه الأمة التي ننتمي إليها هي أمةٌ مباركة :

والآن إلى قصة قصيرة تبين لنا أن هذه الأمة التي ننتمي إليها هي أمةٌ مباركة، لا أنسى قول النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا سلمان الفارسي، قال له:

((يَا سَلْمَانُ لا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ أَبْغَضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ؟ قَالَ: تَبْغَضُ الْعَرَبَ فَتَبْغَضُنِي))

[الترمذي عَنْ سَلْمَانَ]

أي إذا بغضت العرب انتقلت البغضاء إلي، فمن سمات المؤمن أن هذه الأمة المباركة التي نقلت له هذا الدين عليه ألا يتهمها ولو رآها في عصور ضعفها أو عصور تفككها ينبغي أن يحسن الظن بها.

قصة المنصور مع الرجل الأموي :

قال أحمد بن موسى: ما رأيت رجلاً أثبت جناناً – أي القلب – من رجل رفع فيه عند المنصور – أي رفعت شكوى بهذا الرجل عند المنصور – وقالوا: إن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية، فهذه تهمة كافية لتحطيمه، فأمر المنصور حاجبه الربيع بإحضاره فوراً فأحضر بين يديه، قال المنصور: قد رفع إلينا أن عندك ودائع وأموالاً لبني أمية فأخرج لنا ما عندك واحمل جميع ذلك إلى بيت المال، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين هل أنت وارث بني

أمية؟ – أي أنت وريث بني أمية – قال: لا، قال: أوصي أنت؟ قال: لا، قال: إذاً فلم تسأل عن ذلك؟ – وما توقع المنصور هذه الجرأة وهذا المنطق – أطرق المنصور ساعةً ثم قال: إن بني أمية ظلموا الناس، واغتصبوا أموال المسلمين، وأنا آخذها فأردها إلى بيت مال المسلمين، قال له: جميل يحتاج أمير المؤمنين إلى إقامة بينةٍ يقبلها الحاكم – القاضي – يريد دليلاً ومستمسكاً على أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يدي، وأنه هو الذي اغتصبه من الناس، وبنو أمية لهم أموال لهم هي حلال، ولهم أموال اغتصبوها هي حرام، نريد إثباتين؛ أول إثبات أن هذا المال الذي هو عندي هو نفسه لبني أمية وهو نفسه مغصوب وليس الحلال، فسكت المنصور ساعةً ثم قال: يا ربيع صدق الرجل لا يجب لنا عليه شيء، معه حجة قوية، ثم قال الرجل: ألك حاجة؟ قال: نعم، قال: وما هي؟ قال: أن تجمع بيني وبين الذي وشى علي، فوالله يا أمير المؤمنين ما لبني أمية عندي شيء من هذا القبيل، ولما حضرت بين يديك وعلمت ما أنت عليه من العدل، والإنصاف، واتباع الحق، واجتناب الباطل، أيقنت أن هذا الكلام الذي قلته هو أنجح وأصلح لما سألتني عنه وأقرب إلى الخلاص. إذا جادله، هذا الطريق مسدود، جاء من طريق آخر، هل أنت وصي؟ وهل أنت وارث؟ فما السبب؟ هذه أموال مغصوبة أريد أن أردها إلى أصحابها، هل معك بينة أن هذا المال الذي يوجد عندي هو نفسه مال بني أمية؟ لا، هل عندك بينة أن هذا المال الذي عندي إن كان لبني أمية هو المغصوب من الناس؟ قال له: لا، قال: إذاً لا يوجد لنا عنده شيء.

فقال المنصور للربيع: اجمع بينه وبين الذي وشى عليه، ولما جيء بالرجل عرفه وقال: هذا غلامي أخذ مني خمسمئة دينار وهرب ولي عليه كتاب بها– يوجد معي وثيقة– ثم استنطق المنصور الغلام فأقرّ أنه غلامه وأنه أخذ المال الذي ذكره مولاه، وسعى بمولاه ليجري عليه أمر الله، ويسلم من الوقوع بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين لقد وهبتها له من أجلك وادفع له خمسمئة دينار أخرى لحضوره مجلس أمير المؤمنين، فاستحسن المنصور فعله وكان في كل وقت يقول: يا ربيع ما وجدت من حاجَّني مثله.

الإنسان عندما يكون وقافاً عند حدود الله يكون إنساناً عظيماً، أما الإنسان فيقف عند كتاب الله هذا لي وهذا لك، قال عليه الصلاة والسلام " العدل حسن لكن في الأمراء أحسن، والتوبة حسن لكن في الشباب أحسن، والحياء حسن لكن في النساء أحسن، والصبر حسن لكن في الفقراء أحسن، والورع حسن لكن في العلماء أحسن ".

فالعلماء ألزم ما يلزمهم الورع، والأمراء ألزم ما يلزمهم العدل، والنساء ألزم ما يلزمهم الحياء، والأغنياء ألزم ما يلزمهم السخاء، والفقراء ألزم ما يلزمهم الصبر، والشباب ألزم ما يلزمهم التوبة.

* * *

بعض الأحاديث الكريمة تبدأ برحم الله :

والآن إلى بعض الأحاديث الكريمة، يقول عليه الصلاة والسلام طائفةً من الأحاديث الشريفة كلها تبدأ برحم الله، ومعنى رحم الله أي أن رحمة الله سبحانه وتعالى تنصب على هذا الإنسان، التجلي، والسرور، و الطمأنينة، والسعادة، إنسان مسرور، يشعر أن له عند الله مكانة كبرى، و قلبه عامر بذكر الله: رحم الله امرئ اكتسب طيباً... دخله حلال، وإذا كان الإنسان كسبه حراماً فوجهه أسود، قال لي أخ: ركبت مع إنسان دخله حرام حدثته بالدين فقال لي: هذا الموضوع دعنا منه، معه حق لأنه يوجد ظلام في قلبه، ودخل كبير حرام، فحدث معه حادث سير وجدوا رأسه في جهة وجسمه في جهة ثانية.

((رحم الله امرأ اكتسب طيباً وأنفق قصداً- لم يسرف، فالإسراف والتبذير، وإتلاف المواد، ورمي الطعام في القمامة- وقدم فضلاً ليوم فقره وحاجته... - دفع من أمواله صدقات وساعد الناس، و أقرضهم، أي اكتسب طيباً وأنفق قصداً وقدم فضلاً ليوم فقره وحاجته-))

[ابن النجار عن عائشة]

((ورحم الله امرأ أصلح من لسانه))

[الديلمي عن عمر]

ما نطق بكلمة فاحشة، وما نطق بكلمة شائنة، وما وشى بين اثنين، وما اغتاب، وما تكلم بكلمة فاحشة، وأصلح من لسانه، وجعل هذا اللسان رطباً بذكر الله، تكلم عن الله تعالى وعظ الناس فأمرهم بالمعروف و نهاهم عن المنكر، وأصلح بين اثنين.

حديث آخر:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

إذا إنسان كلامه مضبوط يشعر بسعادة كبرى:

((رحم الله امرأ تكلم فغنم أو سكت فسلم))

[البيهقي في شعب الإيمان والديلمي عن ثابت عن أنس]

قعد في جلسة فتكلموا بالغيبة فسكت، والأصح أن يقوم ولا يبقى جالساً، وإذا كان لا يستطيع أن يقوم وذلك بسبب أنه مركز عمله يبقى ساكتاً، أما إن جاء بزيارة فيستطيع أن يقوم، وإذا لك مكانة كبيرة قل: هذا الكلام كله نهش في أعراض الناس و لم يعجبني، يقل آية قرآنية أو آية كونية، يلفت نظرهم للآخرة، ويحدثهم عن الله عز وجل فغنم وموضوع لا يرضي الله فسكت.

((رحم الله عبداً علق في بيته سوطاً يؤدب به أهله))

[الديلمي عن جابر]

أي لم يستخدمه ولكن له في بيته شخصية ليس ضعيفاً لا يعبأ به أحد.

((رحِمَ اللهُ رجلاً قامَ من الليلِ فصلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِن أَبَتْ نَضَحَ في وَجْهِهَا الماءَ....))

[رواه أبو داود واللفظ له والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة]

كان النبي الكريم رقيقاً من آثار الوضوء، ينضح وجه زوجته بالماء، وليس كأس ماء.

((......رَحِمَ اللهُ امرأة قَامَتْ من الليل فصلتْ وأَيقظتْ زوجَها، فإنْ أَبَى نضحتْ في وجهه الماءَ))

[رواه أبو داود واللفظ له والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة]

أي هو أو هي، و رجل له زوجة تعينه على رضاء الله فليشكر الله عز جل، وإذا زوجة لها زوج يعينها على طاعة الله فلتكن له شاكرةً.

((رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا كَانَتْ لأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عِرْضٍ أَوْ مَالٍ...))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

قال عنه قصة غير صحيحة أو أخذ ماله.

((.... فَجَاءَهُ فَاسْتَحَلَّهُ قَبْلَ أَنْ يُؤْخَذَ وَلَيْسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ...))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هذا منتهى التوفيق إذا كان عليك ذمة، وعليك مال حرام، وتتكلم عن إنسان كلاماً غير صحيح، اذهب إلى بيته قبل أن يأتي ملك الموت واستسمح منه، وقدم له هدية، وإذا كان له عليك مبلغ من المال فادفعه له.

((........ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ حَسَنَاتِهِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ حَمَّلُوا عَلَيْهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى))

[الترمذي عَنْ جَابِرِ بْنِ عبد الله رَضِي اللَّهم عنهما]

((رحم الله من حفظ لسانه وعرف زمانه))

[الحاكم عن ابن عباس]

احفظ لسانك أيها الإنسـان لا يلدغنك إنه ثعبـان

كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءه الشجعان

***

لكل عصر طبيعة، يوجد عصر طبيعته علمية، الخرافة مرفوضة، تسبب استنكاراً للناس، عرف زمانه واستقامت طريقته:

((رحم الله والداً أعان ولده على بره))

[كشف الخفاء رواه أبو الشيخ في الثواب بسند ضعيف عن علي وابن عمر مرفوعاً]

بذل له، وراعى ظروفه، يريد أن يتزوج ويسكن في بيت، أنا ربيته، لك عند الله أجر خذ شيئاً بالمعقول.

((نَضَّرَ اللَّهُ عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا ثُمَّ بَلَّغَهَا عَنِّي فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

((حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ أَوْ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[النسائي و الدارمي عن أبي ريحانة]

هؤلاء كلهم مرحومون، معنى مرحومون أي في قلبهم تجلٍّ، و سعادة، وسرور، وراحة، وسكينة، إذا إنسان كان بيعه سهلاً وشراؤه سهلاً وأدى ما عليه فالله يرحمه، ورجل أعان ابنه على بره فزوجه وسكنه في بيت، يرحمه الله، وعين بكت من خشية الله يرحمها الله عز وجل، كان سمحاً إذا باع يرحمه الله، لك عند الله مظلمة ذهبت وطلبت

السماح منهم وصححت الخطأ، و إنسان قام وصلى في الليل فالله يرحمه و أدب أهله، وقال: خيراً فغنم أو سكت فسلم يرحمه الله عز وجل، اكتسب طيباً وأنفق قصداً، و رحم الله امرأً أصلح من لسانه.

هذا ملخص الأحاديث وهذه الأحاديث حول موضوع واحد، كل هؤلاء يرحمهم الله، ومن ذاق الرحمة عرفها، وإن رحمة الله قريب من المحسنين.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 7 : سقوط الجماعة عن الفرد المسلم .... الأحق بالأمامة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أسباب سقوط الجماعة عن الفرد المسلم :

1 . المطر الشديد :

أيها الأخوة المؤمنون، هناك فصل عنوانـه: "متى تسقط الجماعة عن الفرد المسلم؟" كلكم يعلم أن صلاة الجماعة أفضل عند الله بسبعة وعشرين ضعفاً، أولاً: المطر، طبعاً المطر الشديد ويجوز الآن هذا الشرط أن يكون ملغياً، الإنسان الآن عنده سيارة والطرقات كلها معبدة لا يشعر بشيء، ولكن يبدو أن هذا الشرط في ظرف معين كان يعيق الحركة.

2 . البرد الشديد و الخوف :

البرد الشديد والخوف، فمن خاف من عدوه فخوفه يسقط عنه حضور صلاة الجماعة.

3 . الظلام الدامس و الحبس و العمى و المرض و الوحل و الشيخوخة :

ظلمة ظلام دامس، وحبس، طبعاً إذا كان مسجوناً فهذا شيء بديهي، وعمىً، أعمى وليس له دليل، وشلل، وقطع يد أو رجل، وسقام أي مرض، وإقعاد، ووحل شديد، وزمانة أي مرض مزمن، وداء عضال، وشيخوخة.

4 . تكرار فقه لجماعة تفوته :

وتكرار فقه لجماعة تفوته، إذا اعتاد أن يحضر مجلس علم ثابت وما غاب عنه إطلاقاً فإذا فاتته صلاة الجماعة ليحضر مجلس علم لا شيء عليه.

5 . حضور طعام تتوق إليه النفس و السفر :

وحضور طعام تتوق إليه نفسه، وإرادة سفر، لأنه يستعد للسفر فيهيئ أغراضه، وإذا كان مجمعاً للسفر فيمكن أن يصلي في بيته.

6 . القيام بمريض :

وقيامه بمريض، ممرض، إنسان والدته مريضة تحتاج كل نصف ساعة إلى دواء فهذا يصلي في بيته.

7 . شدة ريح ليلاً لا نهاراً :

وشدة ريح ليلاً لا نهاراً، وإذا انقطع المسلم عن الجماعة لأحد هذه الأعذار المبيحة يحصل له ثواب الجماعة، أشياء كلها منطقية، مطر، برد، خوف من عدو، ظلمة حبس، عمى، فالج، قطع يد أو رجل، إقعاد، وحل، زمانة شيخوخة، يمكن أن يمشي والطريق وعر، يوجد إنسان تقدمت به السن لا يقوى على حمل نفسه، أو احتمال أن يقع فينكسر وكسر الشيخ يصعب التئامه، و تكرار فقه لجماعة تفوته، لو إنسان بيته فرضاً في الميدان وصلى فرضاً معين في بيته حتى يلحق درس علم هذا مباح له أن يصلي في بيته بهدف حضور مجلس العلم، وحضور طعام تتوق إليه نفسه، طبخة معينة فقال في نفسه: آكل معهم حتى لا تذهب حصتي من الطعام، وإرادة سفر، وقيامه بمريض.

قواعد دقيقة لاختيار الإمام :

1 . أن يكون صاحب منزل أو وظيفة :

الآن وقف المسلمون ليصلوا جماعةً من هو الإمام؟ يوجد عندنا قواعد دقيقة جداً، قال: إن لم يكن بين الحاضرين صاحب منزل، ولا وظيفة، ولا ذو سلطان، فصاحب المنزل أحق أن يصلي إماماً وصاحب الوظيفة دخلت إلى مسجد له إمام، أخي سوف نصلي بهم، لماذا تصلي بهم أنت؟ هذه وظيفته أدباً، دعه يصلي، كثير من الأشخاص يسافرون ومسجد له إمام يريد أن يصلي عنه، لماذا؟ هذا صاحب وظيفة أولى من كل الناس، إلا إذا قدمك هو شيء آخر، إذا عرفك وقدمك لفضلك فهذا أجازك، أما صاحب الوظيفة فأحق أن يصلي بالناس.

2 . صاحب منصب رسمي :

إن لم يكن بين الحاضرين صاحب منزل ولا وظيفة ولا ذو سلطان إذا صاحب منصب رسمي قاضٍ مثلاً، والقاضي أولاً إذا كان هناك جماعة في بيت وفيهم القاضي الشرعي الأول مثلاً يصلي القاضي، وأمير مثلاً، طبعاً هنا المقصود بالأمير التقي والنقي، قاض مطبق تعاليم الدين، إذا لم يكن بين الحاضرين صاحب منزل ولا وظيفة ولا ذو سلطان، أحد هؤلاء الثلاثة أحق بالصلاة من أي إنسان آخر، صاحب البيت، أو صاحب وظيفة الإمامة، أو ذو سلطان، و منصب رسمي؛ أمير، قائم مقام مثلاً، مدير الناحية، أي صاحب وظيفة، وهذه إشارة لطيفة، أي كل هؤلاء ينبغي أن يكونوا أتقياء مصلين صائمين.

3 . الأعلم :

الآن فالأعلم أحق بالإمامة أول شيء الأعلم، أكثر الناس يظنون الأقرأ، لا، الأعلم أحق بالإمامة.

4 . الأقرأ ثم الأورع ثم الأسن ثم الأحسن خلقاً ثم الأحسن وجهاً :

ثم الأقرأ، ثم الأورع، ثم الأسن، ثم الأحسن خلقاً، ثم الأحسن وجهاً، ثم الأشرف نسباً، ثم الأحسن صوتاً، ثم الأنظف ثوباً، إلى هنا انتهى المتن، وفي الحاشية يوجد تفصيلات فالأكبر سناً.

المقصود بالأعلم أي الأعلم بالفقه، بأصول الصلاة، بشروطها، وبأركانها، وبواجباتها، وبمكروهاتها، و بآدابها، ثم الأقرأ الذي يتقن أحكام التجويد، ثم الأورع، ثم الأسن، ثم الأحسن خلقاً، ثم الأحسن وجهاً، ثم الأشرف نسباً، ثم الأحسن صوتاً، ثم الأنظف ثوباً، إلى هنا انتهى المتن، وفي الحاشية يوجد تفصيلات فالأكبر سناً، فإذا استووا يقرع بين المصلين، وليس من المعقول أن يستووا لابد من التمايز، و هذه هي المقاييس، فإن لم يقرع بين هؤلاء فالخيار للمصلين، هم قدموا فلاناً، فإذا اختلفوا فالعبرة لمن اختاره الأكثرون، الأكثرية قدموا فلاناً، وغلب رأيهم رأي الأقلية، وإن قدموا غير الأولى فقد أساؤوا جميعاً، قدموا رجلاً لا يستحق الإمامة ولكن خوفاً منه، أو نفاقاً له، فقد أساؤوا جميعاً، وكره إمامة العبد، والأعمى، والجاهل، والفاسق، والمبتدع، هؤلاء جميعاً كره أن يكونوا أئمةً يؤمون الناس في الصلاة.

من دخل المسجد ليصلي فليصلِّ خلف أي إمام :

هنا يوجد موضوع دقيق إذا دخل إنسان إلى المسجد يجب أن يصلي خلف أي إمام دون التحقق من استقامته أو بره أو فجوره، فليس هذا من وظيفته، لكن إذا حصل له علم مسبق أن هذا صاحب بدعة أو صاحب عقيدة زائغة، أو صاحب عقيدة فاسدة، إن حصل لك هذا مسبقاً فلا تصلِّ خلفه، أما إذا دخلت إلى مسجد لتصلي صلِّ وراء كل بر وفاجر.

هذا الموضوع موضوع الأحق بالإمامة، وموضوع متى تسقط صلاة الجماعة عن الفرد المسلم، ويحصل له ثوبها كما لو صلاها، هذان الموضوعان هما الفصلان المختاران لهذا اللقاء.

* * *

آداب تلاوة القرآن الكريم :

1 . الترقي :

والآن إلى فصل مختار من إحياء علوم الدين، لازلنا في موضوع آداب تلاوة القرآن، تحدثنا عن الآداب الظاهرة، ثم تحدثنا عن الآداب الباطنة، ووصلنا في الدرس الماضي إلى التأثر، وها نحن أولاء ننتقل منه إلى أدب آخر وهو الترقي، فما هو الترقي؟ نعني بالترقي أن يسمع القارئ الكلام من الله تعالى لا من نفسه، فدرجات القراءة

ثلاث هناك أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرأ على الله عز وجل، أي يقرأ القرآن في حضرة الله عز وجل، واقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه، مستمع منه، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال، والتملق، والتضرع، والابتهال، وهذه درجة من درجات قراءة القرآن الكريم.

والدرجة الثانية أن يشهد بقلبه كأن الله سبحانه وتعالى يراه، ويخاطبه بألفاظه، ويناجيه بإنعامه وإحسانه، فمقامه مقام الحياء، والتعظيم، والإصغاء، والفهم، إما أن تقرأ القرآن في حضرة الله عز وجل، وإما أن تسمعه من الله عز وجل، وكأن الله عز وجل يخاطبك بكلامه، والدرجة الأعلى أن يرى في الكلام المتكلم، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وهذه درجة، وهذه أعلى مرتبة إنها الإحسان، أن يرى في كلام المتكلم وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه، ولا إلى قراءته، ولا إلى تعلق الإنعام به، من حيث إنه مُنعَم عليه، بل يكون مقصور الهم على المتكلم، موقوف الفكر عليه، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن غيره، وهذه درجة المقربين، فالإنسان يقيس نفسه إذا قرأ القرآن أين هو من هذه الدرجات الثلاثة؟ هل تقرأ القرآن بحضرة الله عز وجل وكأنك تبتهل إليه وتدعوه وتناجيه وترجوه؟ أم أنك تسمع القرآن من الله عز وجل وكأنه يخاطبك بكلامه؟ أم أنك غبت عن كل شيء واستغرقت بالله عز وجل وكأنك تراه وهذه درجة المقربين؟ الأولى درجة أصحاب اليمين، والثانية أصحاب اليمين، والثالثة المقربين، وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين، يقرأ القرآن وهو غافل، ما شعر أنه يقرؤه في حضرة الله عز وجل، و لا شعر أن الله سبحانه و تعالى يخاطبه بكلامه، ولا غاب عن كلام الله و استغرق في ذات الله، لا هذه و لا هذه و لا تلك إذاً هذه قراءة الغافلين.

و عن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال: "و الله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه و لكنهم لا يبصرون"، و قال أيضاً: "و قد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشياً عليه فلما سري عنه قيل له: ماذا أصابك؟ فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها"، رددها و رددها حتى سمعها من الله عز وجل، و من أراد أن يحدث ربه فليقرأ القرآن، ألا تحب أن أجلس معك؟ فصعق سيدنا موسى، و كيف ذلك يا رب؟ قال له: أما علمت أنني جليس من ذكرني، و حيثما التمسني عبدي وجدني، إذا أردت أن تناجي ربك فاقرأ القرآن، قال: "ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها"، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة و لذة المناجاة.

قراءة القرآن علامة دقيقة على استقامة الإنسان و طيب عمله :

أقول لكم: الإنسان إذا كان عمله طيباً جداً أمتع شيء في حياته أن يقرأ القرآن، اقرأ القرآن إذا شعرت بضيق فاعلم أنه يوجد تقصير، أو مللت فكذلك يوجد تقصير، لم تجد شيئاً قرأت و قرأت و فتحت لا على التعيين لم تتأثر، فإذا الإنسان لم يتأثر، و لم يشعر بانشراح، و لم يتمنَّ أن يقرأ ساعة أو ساعتين أو ثلاثاً، و لا شعر بسرور، فليعلم أنه يوجد خلل بالعمل، و بالاستقامة، أو تقصير، أو لا يوجد عمل صالح، أو لا يوجد تطبيق، فكأن قراءة القرآن علامة دقيقة على استقامة الإنسان و طيب عمله، مستحيل أن تقرأ القرآن وأنت ذو حال طيبة إلا وتحس بأنك مستمتع به إلى أقصى الحدود، حتى إنني أقول لكم: إن الذي يقرأ القرآن وله حال طيب يهبه الله سبحانه وتعالى صوتاً قد يقول لك وهو صادق: لم أسمع في حياتي أجمل من صوتي.

الإنسان عندما يستغرق ساعة أو ساعتين ما معنى هذه الحالة؟ عمله طيب جداً، فربنا عز وجل سمح له أن يقرأ كلامه، وسمح له أن يتلقى التجلي الإلهي، وسمح له أن يتنعم ويطرب بصوته، قال: فبمثل هذه الدرجة تعظم حلاوة المناجاة، ألم يقل له يا ربي لقد عصيتك ولم تعاقبني؟ قال له: عبدي لقد عاقبتك ولم تدرِ ألم أحرمك لذة مناجاتي، هذا لا يعرف ما نقول إلا إن اقتفى أثر الرسول.

هذه المعلومات لا يتذوقها المستمع إلا إذا عاش المناجاة، وشعر بقرب الله عز وجل، و إلا غابت عنه هذه الأحوال، وشعر بالجفاء، والوحدة.

فأحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا عن مذهب الحب شرعنا

فما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنـــا

فأيسر ما في الحب بالصب قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

تلاوة القرآن عبادة عظيمة :

من مناجاة رابعة العدوية رضي الله عنها أنه: "يا ربي لقد خلا كل حبيب بحبيبه"، هذا مع أصدقائه يلعبون ورقاً، وهذا سهر يأكل، وهذا سهر مع زوجته، وهذا سهر مع صديقه يعملون حسابات نتائج ربح العام، فكل إنسان استهلك الحياة بشيء، وهذا سهر مع الله عز وجل فخلا بحبيبه.

قال بعض الحكماء: "كنت أقرأ القرآن فلم أجد له حلاوة حتى تلوته وكأنني أسمعه من رسول الله ﷺ"، فما الذي صار معه؟ صار معه ارتباط نفسي برسول الله، ولما تصور نفسه يسمعه من رسول الله توجهت نفسه نحوه، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به، فعندما وجدت له لذةً ونعيماً لا أفتر عنه كان يقول لي إنسان: أنا إذا لم أقرأ قرآناً في اليوم لا يهنأ لي عيش.

قال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما: "لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن"، والآن يوجد أخبار تقرؤونها، و الإنسان يستغرب يقول لك: صلى وقرأ البقرة بركعتين فتعب، وتقول: البقرة جزآن ونصف الجزء تقريباً أما تعب من الوقوف؟ الآن إذا الإمام قرأ ثلاثة أرباع الصفحة يقولون له: لقد أطلت يا أخي، لا يجوز أن تطيل الصلاة يا أخي، كيف كانوا يقرؤون البقرة وآل عمران، كيف كانوا يقرؤون هذه السور الطويلة؟ معنى هذا أنه كان هناك استغراقاً شديداً جداً لتلاوة القرآن في الصلاة.

قال ثابت البناني: "كابدت القرآن عشرين سنة، وتنعمت به عشرين سنة"، كابده أي تعلمه، وتعلم قراءته، وطبق أوامره، وانتهى عن نواهيه، حتى صار في مستوى كلام الله عز وجل عندئذٍ تنعم به عشرين عاماً أخرى، ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر، قال: فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره، يجب أن تشاهد الله عز وجل في كل شيء، فهذا الذي آذاك الله سمح له، و الذي أكرمك الله ألهمه، إن شاهدت نباتاً فقل: سبحان من خلقه، وإذا قدم إنسان لك شيئاً فقل: سبحان الملهم، و إذا رأيت الله في كل شيء فأنت مؤمن، وإذا رأيت هذا الشيء من فلان وفلان وقلت: آذاني، فهذا هو الإشراك.

كلما التفت العبد إلى ما سوى الله ففي التفاتته هذه شرك خفي، و التوحيد الخالص ألا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل، وهذا هو الأدب التاسع الترقي، أن تسمع القرآن من الله عز وجل، وأقل من هذه الدرجة أن تناجي به ربك، و أعلى من هاتين أن ترى الله عز وجل من خلال كلامه، اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ولذلك تلاوة القرآن عبادة عظيمة فليست قراءة بل عبادة.

2 . التبري :

آخر أدب من آداب القرآن الكريم التبري ونعني به أن يتبرأ من حوله وقوته، التفاته إلى نفسه بعين الرضا والتزكية، فإذا قرأ آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك، فهناك أشخاص مغرورون، يقرأ عن المؤمنين هو مؤمن واثق من نفسه، وهذا سوء أدب مع الله عز وجل، يجب أن تكون في مقام الخوف والأدب لا في مقام الطمأنينة، من اطمأن في الدنيا خاف في الآخرة، ومن خاف في الدنيا اطمأن في الآخرة، لا يوجد إنسان في الأرض يستحق الطمأنينة أكثر من رسول الله صلى الله عليه، ومع ذلك دخل على أحد الصحابة وقد توفي وهو مسجى على الفراش فسمع امرأة تقول: "هنيئاً لك أبا السائب فقد أكرمك الله، فالتفت النبي عليه الصلاة والسلام وقال لها: وما أدراكِ أن الله أكرمه؟ قالت: ألم يجاهد معك؟ قال: قولي: أرجو الله أن يكرمه وأنا رسول الله لا أدري ما يفعل بي".

الإنسان لا يعرف، طبعاً الله كريم، أما أن يعتبر نفسه مؤمناً فلعله في خلل في استقامته، ولعله في شرك في نياته، فإذا الإنسان قرأ القرآن يجب أن يتبرأ من نفسه، و لا يكون معجباً بها، أو معجباً بإيمانه، بل معجباً بعمله الطيب، كلما قرأ آية عن المؤمنين الصالحين الأتقياء قال: أنا منهم، أنا من هؤلاء ولست من هؤلاء، بل يشهد ويتشوق أن يلحقه الله عز وجل بهم، وإذا قرأ آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً، ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: "اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري، فقيل له: هذا الظلم فما بال الكفر فتلا قوله عز وجل:

﴿ وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

[سورة إبراهيم : 34]

وأحياناً ينظر إلى الطعام وينسى المطعم، وينسى المنعم، وينتبه إلى هذا الطعام وإتقان الصنعة وينسى أن هذه المواد كلها من الله عز وجل، وهذا أحد أنواع الكفر المخفف، أي إن الإنسان لظلوم كفار هكذا قال سيدنا ابن عمر.

على الإنسان أن يفتقر إلى الله عز وجل و إلى معونته :

تلاحظ أن المؤمن الصادق يخاف على نفسه، فهل من المعقول أن نبياً يعبد أصناماً سيدنا إبراهيم قال: قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

[سورة إبراهيم : 35]

هل من المعقول سيدنا يوسف أن يقع بالفاحشة؟ قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

[سورة يوسف:33]

فهذا هو الافتقار إلى الله عز وجل، و إلى معونة الله، قال تعالى:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

[سورة الفاتحة: 5]

أما المتمكن من نفسه كثيراً فما تزل قدمه ويهوي في المعصية.

وقيل لأحدهم: إذا قرأت القرآن بماذا تدعو؟ قال: أستغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة، فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه، والشعور بالتقصير سبب القرب، و لذلك فربنا عز وجل أحياناً يحجب الأحوال الطيبة عن المؤمن حتى لا يطمع، ولو أنه بعث له أحوالاً طيبة وتجليات دائماً فيجوز أن يركن إلى هذه الحالة فلا يتقدم، وعندما يقع فتور في الأحوال تكون المعالجة من الله عز وجل، عملية تعطيش حتى يتابع الترقي ولا يتابع الاستقرار والسكون.

المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري من النفس وعدم الالتفات لها :

قال أبو سليمان الداراني رضي الله عنه: "وعد ابن شيبان أخاً له أن يفطر عنده، فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فلقيه أخوه في الغد فقال له: وعدتني أنك تفطر عندي فأخلفت، فقال: لولا ميعادي معك ما أخلفتك للذي حبسني معك، إني لما صليت العتمة – العشاء – قلت أوتر قبل أن أجيئك لأني لا آمن ما يحدث من الموت فلما كنت بالدعاء من الوتر رفعت إلي روضة خضراء فيها أنواع الزهر من الجنة فما زلت أنظر إليها حتى أصبحت"، الله كشف له عن بصيرته، عامة الناس صلاتهم شكلية يقول لك: ارتحنا منها، الحمد لله صليت العشاء، لكن إذا الإنسان التفت بكليته إلى الله عز وجل كانت الصلاة عنده أعظم متع الحياة، كما قال عليه الصلاة والسلام: "أرحنا بها يا بلال".

وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري من النفس، وعدم الالتفات لها، و الصوفيون قالوا: هناك حالة اسمها حالة الفناء، يغيب عن ذاته، فيوجد شخص ذاته صارخة، وإحساسه بذاته قوي جداً، يقول لك: أنا فعلت، تركت، أنجزت، ولولاي ما صار شيء، هذا إحساسه بذاته قوي، ولم يبلغ حال الفناء بعد، لكن حال الفناء حال راقٍ جداً، وهو حال الأنبياء، و حال كبار المؤمنين، ما عاد ينظر إلى ذاته نظره إلى الله عز وجل.

والعلماء شبهوا هذا الحال بإنسان نزل في البحر فما حجمه و هو شاهد أنه لا يوجد نهاية للماء؟ فإحساسه بعظمة البحر حجبه عن ذاته، أحياناً يلتقي طبيب ناشئ بطبيب جراح قلب درجة أولى في العالم جاء زائراً فينسى نفسه أنه الطبيب الناشئ، وإحساسه بذاته يتضاءل كثيراً، ويرجع كأنه تلميذ أمامه، وإذا ذهب إلى قرية وهو الطبيب الوحيد في القرية يشعر أنه طبيب متميز، إحساسه بذاته يتعاظم، أما إذا جلس أمام أستاذه بالطب مثلاً، فيصغر كثيراً، إذا جلس تويجر صغير مع أكبر تاجر في البلد مثلاً تراه يصغر ويصبح مثل الصانع أمامه، هو تاجر ولكنه تاجر أمام التجار، أما أمام التاجر الكبير فلا شيء، وهذه أمثلة أقربها لكم للفناء، فلما يشهد الإنسان عظمة الله عز وجل يغيب عن نفسه، فتجد السابقين حديثهم عن الله عز وجل، من أنا لأتحدث عن نفسي؟ لا شيء، وكلما ارتقت منزلتك عند الله تضاءل إحساسك بذاتك، وكلما كانت مرتبة الإنسان منخفضة كان عنده تضخم بالإحساس في ذاته، فهو مالئ الدنيا، وشاغل الناس، والناس لا يعنيهم أمره، وهذه قضية مهمة جداً، كلما شاهدت من عظمة الله أكثر غبت عن ذاتك أكثر، وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبري عن النفس، وعدم الالتفاف إليها.

أقنعة الحياة كثيرة جداً من يلتفت إليها تصبح حجاباً بينه و بين ربه :

أحياناً الإنسان يلتفت إلى شهاداته أي معه بورد، فإذ وجد إنساناً وليس دكتوراً يزوره، أو نسي أن يقول له: أستاذ يشعره أن يجب أن تناديني بلقبي العلمي، وهذا الإنسان بعد أن نال الدكتوراه عاش ثلاثين سنة ملتفتاً إلى ذاته، ومحجوباً عن الله عز وجل، فهذا ملتفت إلى ماله، وحالته المادية جيدة جداً، فإذا الإنسان عامله كأنه إنسان وسط تراه ينزعج لالتفاته لماله، وأحياناً الله عز وجل يعطي الإنسان شكلاً و طولاً وبياضاً وجاذبية فتراه يلتفت إلى شكله معجباً به، ودائماً يشاهد أنه متميز عن الناس، وأحياناً الإنسان يكون منتسباً إلى أسرة عريقة أيضاً وهذا النسب الرفيع يجعله يلتفت إلى هذا النسب، ويستعلي على الناس، فيوجد أقنعة في الحياة كثيرة جداً، قناع المال، وقناع الشهادات، وقناع القوة، والسلطة، والنسب والحسب، فالإنسان عندما يلتفت إلى هذه الأشياء تصبح حجاباً بينه

وبين الله عز وجل، فتراه مقطوعاً عن الله، ولا يوجد له وجهة إلى الله عز وجل، ولا يؤثر في الناس. سبحان الله مرة حضرت حفلاً فقام إنسان وألقى كلمة، الكلمة بمنتهى الذكاء، دقيقة، وفيها نصوص، وهو فصيح اللسان، متكلم، ولكن يوجد روحانية، فلم يتأثر أحد، لأنه ملتفت إلى إمكاناته العالية، وهذا الالتفات إلى قدراته العالية كانت حجاباً بينه وبين الله عز وجل، فالله سبحانه وتعالى مصدر كل شيء، العطاء منه والإنسان عندما يأتيه من باب الاستغناء فالله يحجبه عنه، فهو مقطوع عن الله، فيا أخوان هذه نقطة دقيقة جداً لا يوجد إنسان إلا وله ميزة، هذا ابن فلان، وهذا غني، وهذا متعلم معه ماجستير،... فالإنسان عندما يكون بعيداً عن الله عز وجل، ويلتفت إلى هذه الميزة، وقع في الحجاب، وانتهى، أما إذا استغرق الإنسان في تعظيم الله عز وجل فيقع في حالة اسمها الفناء، وهذه الحالة من أرقى الحالات، تتضاءل نفسه أمامه.

من يلتفت إلى ذاته يعالجه الله عز وجل :

دخل رجل أصابته رعدة لعند رسول الله:

((فعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

لما فتح مكة اذكر لي قائداً في العالم فتح بلدة ولم يستعلِ على أهلها إلا النبي عليه الصلاة والسلام؟ دخل وهو يفتح مكة مطأطئ الرأس تواضعاً لله وشكراً، حالة الفناء قائمة فيه، كأنه سبحان الله كلما علوت عند الله عز وجل يتضاءل إحساسك بذاتك، ويتعاظم إحساسك بعظمة الله عز وجل، وكلما الإنسان صغر في نظر الله يكبر في نظر نفسه، ولذلك فمن أجمل الأدعية: "اللهم أرني بعين نفسي صغيراً وأرني بعين الناس كبيراً".

الناس الآن يرون أنفسهم كبراء وهم في أعين الناس لا شيء، أمام نفسه منفوخ نفخة كبيرة جداً، وأمام الناس لا قيمة له، والعبرة ابتغوا الرفعة عند الله، آية أو آيتان في القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾

[سورة الكهف: 105]

إنسان ليس له وزن عندنا أبداً، لهم صغار عند الله، أن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، كأني أريد أن أركز في هذا الكلام على حالتين؛ حالة الاستغناء، القطيعة مع الله عز وجل مبنية على الإحساس بالذات، وحالة الفناء، الفناء أنت غائب بمشاهدة من تحب عن ذاتك. سبحان الله الإنسان عندما يلتفت إلى ذاته الله يعالجه، أعرف طالباً مرشحاً أن يكون الأول على القطر دخل إلى الامتحان فيبدو أن مراقباً وجه له ملاحظة فتوقف وتطاول عليه، وهذا المراقب كتب به تقريراً فتطاول فأعطوه صفراً في هذه المادة فتفاجأ أنه لم ينجح، عنده استعلاء من أعلى درجة، وعلى أتفه سبب رسب، وكل إنسان يتكبر فليلتفت إلى ذاته.

المتكبر يقصمه الله عز وجل وتأتيه ضربات قاسية :

هناك طبيب بلغت شهرته الآفاق وبعد هذا اشتغل بالعمار، يعطي وصفة لمريض قال له: حبتان قبل الطعام وحبتان بعد الطابو، نسي أنه طبيب، وكان يجري عملية جراحية لامرأة – وهو طبيب نسائي مولد– تجاوز الرحم وقطع الأمعاء، وكاد المجلس الطبي الأعلى أن يسحب منه الشهادة لولا أنه أخذ هذه المريضة إلى المستشفى وأسعفها، وتولى الأمر بنفسه لسحبت منه الشهادة، وبلغت شهرته الآفاق، صار التفات للذات، فانقطع عن الله عز وجل ووقع في الكبر، ولذلك فالمتكبر يقصمه الله عز وجل وتأتيه ضربات قاسية، وأحياناً الإنسان يمشي بأناقة مفرطة، بدلة بيضاء، والحذاء، والجوارب، وربطة العنق، والعطورات، فيتزحلق على رصيف رطب، فالكبر علاجه ضربة قاسية، وهناك إنسان معتز بعلمه فيأتي من يغلبه يسأله سؤالاً ليس مهيئاً للإجابة عنه، رجل في التدريس، أو في المحاماة، أو في الطب، وأحياناً يعطي الطبيب دواء قاتلاً، ولذلك يوجد أطباء مؤمنون وكلما بدأ بمعالجة مريض يغمض عينه ويطلب من الله المعونة، وهذا المريض يشفى على يده، لأنه مفتقر إلى الله.

ومالي سوى فقري إليك وسيلةٌ فبالافتقار إليك فقري أدفع

ومالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي باب أقرع؟

***

العاقل من طلب من الله أن يعينه :

كل منا له عمل، إذا كان موظفاً يقول: يا رب استر، فقد يلبسونك تهمة أنت بريء منها، فإذا دخلت مفتقراً إلى الله عز وجل فكلهم يحترمونك، ويحتفلون بك، وأعمالك يقدرونها لك، ويعطونك مكافآت، وإذا شاهدت نفسك تملك منصباً دقيقاً فالله عز وجل يلهم من هم أعلى منك أن يتجاهلوا كل أعمالك الطيبة، ويحاسبونك حساباً دقيقاً.

قال لي رجل : دخلت إلى الوظيفة فاشتغلت من الثامنة وحتى الثانية عشرة ما رفعت رأسي فتعبت، فخرجت إلى الممر، ووقفت فخرج المدير العام وقال: ما هذا أنت جالس هنا كفى إهمالاً لأنه ملتفت، ولو أنه توكل على الله عز وجل فالله يري رؤساءه أطيب عمل وإذا ما توكل يريهم أسوأ عمل، ويكون دائماً عمله منضبطاً، في هذه الدقيقة يأتي المفتش فيراه غائباً، ومنذ سنة لم يغب، والآن غاب فجاء المفتش، فالإنسان عندما يكون له صلة بالله عز وجل الله يدافع عنه، وييسر أموره، ولو أن إنساناً تكلم عنه بغيابه فالله يسخر إنساناً آخر يدافع عنه ويمحق ما قاله الأول وهو لا يدري.

وهذه جربوها وهذه وصفة مجربة، أي عمل لك إن كان في الزراعة، أو في التجارة، أو الصناعة، أو الوظيفة، أو التدريس، أو الطب، أو المحاماة أي عمل قبل أن تبدأ به اطلب من الله عز وجل أن يعينك، يا رب إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك يا ذا القوة المتين.

كم من طبيب ينزع الكلية الصحيحة، ومع المريض واحدة متوقفة عن العمل فيفتح البطن وينزع الكلية الصحيحة والثانية واقفة، فانتهى المريض، وهذه غلطة قاتلة، ومحامٍ ينسى موعد الجلسة أو ينسى مادة هامة في القانون، فمادام متكبراً ملتفتاً إلى نفسه فالله عز وجل يدفعه أثماناً باهظة، حتى في الصناعة قد يرتكب غلطاً فاحشاً يدفعه أثماناً باهظة، وكل إنسان يلتفت إلى ذاته، وإلى علمه، ومكانته، وخبرته، وشهاداته، وقوته، ونسبه، وحسبه، وشكله، فالله عز وجل يتولى تأديبه، فمؤتمر برلين ما كان يذكر أين عقد هذا المؤتمر؟ إذ قد ينسى فقرة في السؤال وهذه كلها من علاجات الاعتزاز بالنفس، أما الافتقار إلى الله فشيء جميل، فإذا افتقرت إلى الله فالله عز وجل إنه يتولى عنك كل الأمور، يسدد لك أعمالك، يلهمك، ويذكرك.

وإذاً نحن أطرقنا بالأدبين الأخيرين الترقي والتبري، فالإنسان لا يعتز بنفسه، لا ينظر إلى ذاته، ولا يكون إحساسه بذاته مضخماً.

* * *

قصة سعيد بن عامر الجمحي :

والآن إلى قصة أحد الصحابة الأجلاء، فهذه القصة هي قصة سعيد بن عامر الجمحي، واحد من الألوف المؤلفة الذين خرجوا إلى منطقة التنعيم في ظاهر مكة بدعوة من زعماء قريش ليشهدوا مصرع خبيب بن عدي، أحد أصحاب النبي محمد صلى الله عليه سلم بعد أن ظفروا به غدراً، النبي ﷺ أرسل صحابياً بمهمة فظفر به زعماء قريش غدراً، وأخذوه، وأرادوا أن يشفوا غليلهم منه، فدعوا سكان مكة إلى منطقة التنعيم، فإذا الإنسان ذهب إلى مكة المكرمة هذه المنطقة يحرم منها من هو في مكة، منطقة سهلية منبسطة في شرقي مكة.

خرجوا إلى منطقة التنعيم في ظاهر مكة، بدعوة من زعماء قريش ليشهدوا مصرع خبيب بن عدي، أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، بعد أن ظفروا به غدراً، وهذا سعيد بن عامر الجحمحي وقد مكنه شبابه الموفور، وفتوته المتدفقة من أن يزاحم الناس بالمناكب، حتى حاز شيوخ قريش من أمثال أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وغيرهما ممن يتصدرون الموكب، وقد أتيح له أن يرى أسير قريش مكبلاً بقيوده، و أكف الصبيان والنساء والشبان تدفعه إلى ساحة الموت دفعاً لينتقم من محمد في شخصه، وليثأروا لقتلاهم في بدر بقتله، ولما وصلت هذه الجموع الحاشدة بأسيرها إلى المكان المعد لقتله وقف الفتى سعيد بن عامر الجمحي بقامته الممدودة يطل على خبيب، وهو يقدم إلى خشبة الصلب، وسمع صوته الثابت الهادئ من خلال صياح النسوة وهو يقول: إن شئتم أن تتركوني أن أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا، ثم نظر إليه وهو يستقبل الكعبة، ويصلي ركعتين يا لحسنهما ويا لتمامهما، ثم رآه يقبل على زعماء القوم ويقول: والله لولا أن تظنوا أني قد أطلت الصلاة جزعاً من الموت لاستكثرت من الصلاة، على قدر ما شعر من السرور، ومن السعادة، ولولا أنه خاف أن يتهموه بالخوف لصلى طويلاً.

ثم شهد سعيد بن عامر الجمحي بعيني رأسه وهم يمثلون بخبيب حياً فيقطعون من جسده قطعة تلو القطعة، وهم يقولون له: أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت ناجٍ؟ فيقول والدماء تنزل منه: والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها و يصاب محمد بشوكة، فيلوح الناس بأيديهم في الفضاء ويتعالى صياحهم أن اقتلوه اقتلوه، هذا كله تحت سمع وبصر سعيد بن عامر الجمحي.

ثم أبصر سعيد بن عامر خبيباً يرفع بصره إلى السماء من فوق خشبة الصلب ويقول: اللهم احشدهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تغادر منهم أحداً، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وبه ما لم يستطع إحصاءه من ضربات السيوف، وطعنات الرماح، هذه القصة ليست عن سيدنا خبيب، القصة عن سيدنا سعيد بن عامر الجمحي.

عادت قريش إلى مكة ونسيت في زحمة الأحداث خبيباً ومصرعه، لكن الفتى اليافع سعيد بن عامر الجمحي لم يغب خبيب عن خاطره لحظة، كان يراه في حلمه إذا نام، ويراه في خياله وهو مستيقظ، ويمثل به أمامه وهو يصلي ركعتيه الهادئتين المطمئنتين أمام خشبة الصلب، ويسمع رنين صوته في أذنيه، وهو يدعو على قريش فيخشى أن تصعقه صاعقة، أو تخر عليه صخرة من السماء، ثم إن خبيباً علم سعيداً ما لم يكن يعلم من قبل، علمه أن الحياة الحق عقيدةٌ وجهاد في سبيل هذه العقيدة حتى الموت، وعلمه أيضاً أن الإيمان الراسخ يفعل الأعاجيب، ويصنع المعجزات.

الإيمان الراسخ يفعل الأعاجيب ويصنع المعجزات :

فعلاً شيء عجيب، هذه الخنساء مات أخوها صخر موتاً طبيعياً، وكان شاباً، وكانت شاعرة نظمت ديواناً بأكمله في رثاء أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنــه علــم في رأسه نار

حمّال ألوية هبّاط أودية شهّاد أندية للجيــش جرار

***

فلما أسلمت استُشهد أولادها الأربع في معركة القادسية دفعةً واحدة، فلم تزد عن أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، الخنساء في الجاهلية بكت وأبكت، وفي الإسلام وهي امرأة قالت بصبر وشجاعة: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم.

فخبيب علّم سعيداً بن عامر الجمحي عن طريق الحياة، وعلّمه أيضاً أن الإيمان الراسخ يفعل الأعاجيب، ويصنع المعجزات، وعلمه أمراً آخر أن الرجل الذي يحبه أصحابه كل هذا الحب إنما هو نبي، ليس معقولاً يقطعونه من أول يد وقدم، وكلمتهم أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت معافى في أهلك؟ والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها وأن يصاب محمد بشوكة.

يقول أبو سفيان: عندها ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً، فالإنسان إن لم يكن بقلبه محبة لله ورسوله فليعلم أنه لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، تسعة وتسعون وتسعة بالعشرة من الإيمان محبة، والباقي تطبيق، فإن طبقت بلا محبة فلا تؤثر بأحد. وعند ذلك شرح الله صدر سعيد بن عامر إلى الإسلام، فقام في ملأ من الناس وأعلن براءته من آثام قريش،

وأوزارها، وخلع أصنامها وأوثانها، ودخل في دين الله.

وهاجر سعيد بن عامر إلى المدينة، ولزم رسول الله ﷺ، وشهد معه خيبر وما بعدها من الغزوات، ولما انتقل النبي الكريم إلى جوار ربه وهو راض عنه ظل من بعده سيفاً مسلولاً في أيدي خليفتيه –أبو بكر وعمر– وعاش مثلاً فريداً فذاً للمؤمن الذي اشترى الآخرة بالدنيا، وآثر مرضاة الله وثوابه على سائر رغبات النفس، وشهوات الجسد، وكان خليفتا رسول الله ﷺ يعرفان لسعيد بن عامر صدقه وتقواه ويستمعان إلى نصحه ويصغيان إلى قوله.

اختيار سعيد بن عامر الجمحي لولاية حمص :

دخل على عمر بن الخطاب في أول خلافته فقال: "يا عمر أوصيك أن تخشى الله في الناس، ولا تخشى الناس في الله، وألا يخالف قولك فعلك، فإن خير القول ما صدقه العمل، يا عمر أقم وجهك لمن ولاك الله أمره من بعيد المسلمين وقريبهم، وأحب لهم ما تحب لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، وخذ الغمرات إلى الحق، ولا تخف بالله لومة لائم"، وسيدنا سعيد ينصح سيدنا عمر.
فقال عمر: ومن يستطيع هذا يا سعيد؟ قال: يستطيعه رجل مثلك ممن ولاهم الله أمر هذه الأمة وليس بينه وبين الله أحد – أي أعلى رجل بالأمة ليس بينه وبين الله أحد – كل إنسان يحاسب، أما أعلى إنسان من يحاسبه؟ الله سبحانه وتعالى، هذا معنى وليس بينه وبين الله أحد، الأب في المجلس، والابن يتحاسب تحاسبه أمه، والأخ يحاسبه أخوه الأكبر، والزوجة يحاسبها زوجها، أما الزوج فمن يحاسبه؟ الله عز وجل إذا ظلم.
وعند ذلك دعا عمر بن الخطاب سعيداً إلى مؤازرته وقال: يا سعيد إنا مولوك على أهل حمص، فقال: يا عمر ناشدتك الله لا تفتني، فغضب عمر وقال: ويحكم وضعتم هذا الأمر في عنقي ثم تخليتم عني؟ ألا تنصحني؟ تعال وساعدني، والله لا أدعك، ثم ولاه على حمص وقال له: ألا نفرض لك رزقاً؟ – أي أتحب أن نعمل لك راتباً؟ – قال: وما أفعل به يا أمير المؤمنين؟ فإن عطائي من بيت المال يزيد عن حاجتي ثم مضى إلى حمص.
وما هو إلا قليل حتى وفد على أمير المؤمنين بعض من يثق بهم من أهل حمص فقال لهم: اكتبوا لي أسماء فقرائكم حتى أسد حاجتهم، فرفعوا له كتاباً فإذا فيه فلان وفلان وسعيد بن عامر، فقال: ومن سعيد؟ قالوا: أميرنا هذا أيضاً فقير، قال: أميركم فقير؟ قالوا: نعم فو الله إنه ليمر عليه الأيام الطوال ولا يوقد في بيته نار، فبكى عمر حتى بللت دموعه لحيته، ثم عمد إلى ألف دينارٍ فجعلها في صرة وقال اقرؤوا عليه السلام مني، وقولوا له:

بعث إليك أمير المؤمنين بهذا المال لتستعين به على قضاء حاجاتك.

فجاء الوفد لسعيد بالصرة، ونظر إليها، فإذا هي دنانير فجعل يبعدها عنه، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، كأنما نزلت به نازلة، أو حلّ بساحته خطب، فهبت زوجته مذعورةً وقالت: ما شأنك يا سعيد أمات أمير المؤمنين؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: هل أصيب المسلمون بوقعة؟ قال: بل أعظم من ذلك، قالت: وما أعظم من ذلك؟ قال دخلت عليَّ الدنيا لتفسد آخرتي وحلت الفتنة في بيتي، قالت: تخلص منها، وهي لا تدري من أمر الدنانير شيئاً، قال: أو تعينيني على ذلك؟ قالت: نعم، فأخذ الدنانير فجعلها في صرر ووزعها على فقراء المسلمين، وعمل مع زوجته حيلة ووزع الأموال.

قصة سعيد بن عامر الجمحي مع أهل حمص :

ولم يمضِ على ذلك أمر طويل حتى أتى عمر بن الخطاب بنفسه إلى بلاد الشام يتفقد أحوالها فلما نزل في حمص وكانت تدعى الكويفة وهو تصغير الكوفة، وتشبيه لحمص بها لكثرة شكوى أهلها من عمالهم وولاتهم، فلما نزل فيها لقيه أهلها بالسلام عليه وقالوا: كيف أميركم؟ فشكوه إليه وذكروا له أربعاً من أفعاله كل واحد منها أعظم من الآخر، قال عمر: فجمعت بينه وبينهم، ودعوت الله ألا يخيب ظني به فقد كنت عظيم الثقة فيه، فلما أصبحوا عندي وهو أميرهم قلت: ما تشكون من أميركم؟ قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار، فقلت: وما تقول يا سعيد؟ فسكت ثم قال: والله إني أكره أن أقول ذلك ولكن لابد منه إنه ليس لأهلي خادم فأقوم في كل صباح فأعجن لهم عجينهم، ثم أتريث قليلاً حتى يختمر، ثم أخبزه لهم، ثم أتوضأ وأخرج للناس، قال عمر: وما تشكون منه أيضاً؟ قالوا: إنه لا يجيب أحداً بالليل، قال: ما تقول يا سعيد؟ قال: والله أكره أن أعلن هذا أيضاً إني قد جعلت النهار لهم والليل لله عز وجل، قال: وما تشكون أيضاً؟ قالوا: إنه لا يخرج إلينا يوماً في الشهر قال: ليس لي خادم، وليس عندي ثياب غير التي علي فأغسلها، ثم قال: وما تشكون أيضاً؟ قالوا: تصيبه من حين إلى آخر غشية فيغيب عن مجلسه – إغماء– قال: وما هذا يا سعيد؟ قال: شهدت مصرع خبيب وأنا مشرك ورأيت قريشاً تقطع جسده وهي تقول: أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت معافى في أهلك؟ فيقول: والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، وأن يصاب محمد بشوكة، وإني والله ما ذكرت ذلك اليوم وكيف أني تركت نصرته إلا ظننت أن الله لن يغفر لي.

من تلك الساعة إلى الآن، دخل في الإسلام، وخاض معارك، وحارب مع رسول الله، وجاهد، وهو يظن أن الله لن يغفر له ذلك الموقف، و كان قادراً على نصرته وما نصره، فأصابتني تلك الغشية، عند ذلك قال عمر: "الحمد الله الذي لم يخيب الله ظني فيك".

فكلما تذكر موقفه من سيدنا خبيب وحينما صرعه زعماء قريش ولم ينصره تصيبه غشية من الله عز وجل، فهو يظن أن الله لن يغفر له، عند ذلك قال عمر: "الحمد الله الذي لم يخيب الله ظني فيك".

ثم بعث له بألف دينار ليستعين بها على حاجته فلما رأتها زوجته قالت: الحمد لله الذي أغنانا، اشتر لنا مؤونةً، واستأجر لنا خادماً، قال لها: وهل لكِ فيما هو خير من ذلك؟ قالت: وما ذاك؟ قال: ندفعها إلى من يأتينا بها، قالت: وما ذاك؟ قال: نقرضها الله قرضاً حسناً، قالت: نعم وجزيت خيراً، فما غادر مجلسه الذي هو فيه حتى جعل الدنانير في صرر وقال لواحد من أهله انطلق بها إلى أرملة فلان، وإلى أيتام فلان، وإلى مساكين آل فلان، وإلى فقراء آل فلان، فوزعها.

طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب:

إذا ظن الرجل أن الجنة تأتي وهو في نعيم مقيم، وهو في بحبوحة، يأكل ويشرب ويتنعم، ولا يفعل خيراً، فهذا ذنب من الذنوب، طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، وأصحاب رسول الله فتحوا البلاد ورفع الله ذكرهم، وشأنهم، وسعدوا في الدنيا والآخرة، بفضل جهادهم، وأعمالهم الطيبة.

وأقول لكم هذا الكلام: الله سبحانه وتعالى هو هو، وأبواب العمل الصالح مفتوحة هي هي، وطريق البطولة سالك هو هو، وما بقي علينا إلا أن نسير، فالحق واحد، والحياة مؤقتة، والموت على الأبواب، و الجنة آمنا بها، وجهنم أيقنا بوجودها، فماذا بقي علينا؟ قال رجل لرسول الله: جئتك لتعلمني من غرائب العلم؟ قال: فماذا صنعت في رأس العلم؟ قال: وما رأس العلم؟ قال: وهل عرفت الرب؟ قال: نعم، قال: فماذا صنعت في حقه؟ اسأل نفسك هذا السؤال، إذا قال لك أحد هل تعرف الله؟ طبعاً حضرت مجالس العلم، إنها تفسير، وحديث، وسيرة، وشيء جميل، فماذا صنعت في حقه؟ قال له: هل عرفت الموت؟ قال: نعم، قال: فماذا أعددت له إن كنت بطلاً فاسأل نفسك هذين السؤالين وعندك الجواب، هل عرفت الله؟ فإذا قلت: لا فماذا تنتظر؟ وإن قلت نعم فماذا صنعت في حقه؟ وهل عرفت الموت؟ فإن قلت: لا، فأنت في ضلال كبير، وإن قلت: نعم، عرفت أني سأموت، أقول لك: ماذا أعددت له؟

أما عرفت الله وفي بيتك خمسون مخالفة، وأنت مقيم على خمسين معصية، وعلاقاتك المالية كلها ربوية، وأنت مسلم محب لله، هذا كلام فارغ، وهذه زعبرة وتلبسة، فإن قلت:عرفت الموت فماذا أعددت له؟ ومن منا يذهب في سفر من دون زوادة؟ إلى أين تذهب؟ إلى فرنسا؟ تحتاج إلى فرنك فرنسي، إلى أمريكا؟ تحتاج إلى دولار، إلى روسيا؟ تحتاج إلى روبل، إلى العمرة؟ تحتاج إلى ريال، والآخرة عملتها: العمل الصالح، والآن الأسعار رخيصة جداً، وبعد هذا يرتفع ثم يفقد نهائياً بعد الموت، فاستغل أن أسعار العملات النادرة في الآخرة الآن متوافرة، فتبسمك في وجه أخيك صدقة، أن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وأن تلقى أخاك بوجه طلق صدقة، و أن تعود مريضاً، وأن تبر والديك، فأبواب العمل الصالح مفتحة على أبوابها، فإذا الله عز وجل أكرمك بها فستعرف ما نقول، والغنى هو غنى العمل الصالح، قال تعالى:

﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾

[سورة القصص : 24]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 8 : متابعة المقتدي للإمام – فصلي في الأذكار وفي فهم القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الكلمات التي يقولها عامة الناس لو وقفنا عند معانيها لانقلبت حياتنا:

أيها الأخوة المؤمنون، الفصل اليوم فصل: "فيما يفعله المقتدي بعد فراغ إيمانه من واجب أو غيره"، وقبل الخوض في تفصيلات هذا الفصل أحب أن أنوه إلى أن هذه السنن النبوية من أدعية، وأذكار، و أعمال، و أقوال، لا بد من أن تكون هناك حالة نفسية ترافقها، فإذا اكتفينا بترددادها كما يفعل عامة المسلمين فاليوم انقلبت هذه العبادات السامية إلى طقوس جوفاء لا معنى لها، أحياناً الإنسان يسأل نفسه هذا السؤال، لماذا كان الصحابة الكرام لا يزيدون عن ألف و قد فتحوا العالم و نشروا هذا الدين و أسبغوا على العالم قيمهم و عدالتهم و دينهم و شريعتهم؟ و لماذا نحن مع أننا نزيد عن الألف مليون مغلوبون على أمرنا؟ السر هو أن الصحابي الجليل حينما قال: الله أكبر، أي لا تأخذه في الله لومة لائم، و لا يخشى إلا الله، و لا يطيع إلا الله، ولا يخاف إلا الله، ولا يرجو غير الله، هذه الله أكبر، فإذا قال لا إله إلا الله فمعنى ذلك أنه رأى أن الله سبحانه و تعالى بيده مقاليد الكون، و مقاليد الحياة، وبيده ملكوت كل شيء، فكلمات لا إله إلا الله، والله و أكبر، و سبحان الله، و لله الحمد، و لا حول و لا قوة إلا بالله، وإنا لله و إنا إليه راجعون، هذه الكلمات التي يقولها عامة الناس هي كلمات لو وقفنا عند معانيها لانقلبت حياتنا رأساً على عقب، ولحصل انعطاف جذري في حياتنا، لكن كلمات قد يعدها بعضهم من التراث، و قد يعدها بعضهم من التقاليد، لكن كلمة الله أكبر هز بها المسلمون العالم، لا إله إلا الله هو التوحيد، والإيمان بالقدر يذهب الهم و الحزن، فالأدعية و الأذكار بعد الصلاة أن تقول: اللهم إنك أنت السلام، و منك السلام، تباركت و تعاليت يا ذا الجلال و الإكرام، هذه الكلمات لو كانت هناك أحوالاً تقابلها لكنت إنساناً تطير في السلام.

ما ينبغي أن يتابعه المؤتم مع الإمام وما لا ينبغي أن يتابعه به :

لو سلم الإمام قبل فراغ المقتدي من التشهد يتمه، أي الإمام مسرع قبل أن تصل إلى التشهد لو سلم الإمام عليك أن تتم التشهد و تسلم ولا تقرأ الصلوات الإبراهيمية؟ لا، تنهي التشهد وتسلم، أما لو سلم قبل فراغك من التشهد فلابد من أن تنهي التشهد، ولو رفع الإمام رأسه قبل تسبيح المقتدي ثلاثاً في الركوع أو السجود يتابعه، ولو دخلت في الصلاة مسبوقاً ورفعت مع الإمام وقلت: سبحان الله مرةً واحدة، ورفع الإمام رأسه يجب أن ترفع رأسك معه، ولو رفع الإمام رأسه قبل تسبيح المقتدي ثلاثاً في الركوع أو السجود يتابعه، ولو زاد الإمام سجدة لا يتبعه المؤتم، و لو أول مرة سجد والثانية نسي وبدأ في الثالثة، فالمؤتم لا يتابعه بل يبقى قاعداً، ولو قام الإمام بعد القعود الأخير و قال: أشهد أن لا إله إلا الله وتوهم أن هذا القعود هو الأول وقام فالمقتدي لا يتابعه وهنا دقة الفصل، أي متى تتابع ومتى لا تتابع؟ هذا ما ينبغي أن تتابعه به وما لا ينبغي أن تتابعه به.

الأذكار الواردة بعد الفرض :

والآن فصل في الأذكار الواردة بعد الفرض، نحن بعد صلاة الفرض نقول: استغفر الله العظيم ثلاثاً، اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، فالقيام إلى السنة متصلاً بالفرض مسنون، وأن تقوم إلى السنة مباشرةً من الفرض مسنون، ولكن لا بأس بقراءة الأوراد بين الفريضة والسنة، ويستحب للإمام بعد سلامه أن يتحول إلى يساره، أي أن يغير مكانه، و أن يلتفت إلى المصلين، وأن يستقبل الناس، فيستغفرون الله ثلاثاً، ويقرؤون آية الكرسي والمعوذتين، ويسبحون الله ثلاثاً وثلاثين، ويحمدونه كذلك، ويكبرونه كذلك، هذه بعد انتهاء الفرض والسنة، بين الفرض والسنة يوجد عندنا أدعية الآن أقرؤها لكم:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاثًا وَقَالَ اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ))

[الترمذي عن ثوبان]

((مَنْ قَالَ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيَّ الْقَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ))

[أبي داود عن بِلالَ بْنَ يَسَارِ بْنِ زَيْدٍ]

إذاً الشيء الثابت المتفق عليه بعد الفرض الاستغفار ثلاثاً، ثم القول: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، ولكن بعد الفراغ من السنة في أكثر المساجد يوجد ورد مأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا الورد تقرأ آية الكرسي والمعوذات، وتسبح الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمده ثلاثاً وثلاثين، و تكبره ثلاثاً وثلاثين، ثم تقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، ثم تدعو لنفسك وللمسلمين، طبعاً ثلاثاً وثلاثين وثلاثاً وثلاثين وثلاثاً وثلاثين تسعاً وتسعين تنتهي بالمئة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير لقوله عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ))

[أبي داود وعن أبي هريرة]

والإنسان أحياناً في بيته يكون معه بحبوحة من الوقت، فإذا أنهى الصلاة ثلاثاً وثلاثين، وثلاثاً وثلاثين، وثلاثاً وثلاثين، ويتمها بالمئة لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

ترديد الأوراد يتطلب أن يكون الإنسان حافظ القلب :

لكن الإنسان حينما يتلو هذه الأوراد يجب أن يكون حافظ القلب، فإن أغمض عينيه وتوجه إلى الله عز وجل وقال: أستغفر الله، أستغفر الله، حتى فاضت عيناه بالدموع، وحتى شعر أن الله قد غفر له، وحتى شعر أن الله استجاب له، وغفر له، ثم قال: الحمد لله، الحمد لله، أي تصور النعم التي أسبغها الله عليه، تصور نعمة الإيجاد أولاً، فنعمة الإمداد، فنعمة الهدى، هذا الشيء الذي أكرمك الله به، مثل نعمة الصحة، ونعمة الولد، و نعمة الزوجة، ونعمة الرزق، ونعمة السلامة، والحمد لله إذا رددتها وكنت حاضر القلب سمت نفسك إلى الله سبحانه وتعالى فذقت طعمها، وإذا قلت: الله أكبر، الله أكبر ثلاثاً وثلاثين، بعدها لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا تخشى إلا الله، ولا ترضي إلا الله، و لا تسعى لغير الله، ولا تخاف إلا الله، ولا تستهدف إلا الله، فهذا كله من معاني الله أكبر.

دعاء الليل من أسرع الأدعية إجابةً :

((قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ: جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ))

[الترمذي عن أبي أمامة]

بالمرحلة الأخيرة من الليل إذا استيقظت من فراشك وصليت ركعتين، ورفعت يديك إلى الله سبحانه وتعالى مبتهلاً، ودعوته سواءً لحاجة من حوائج الدنيا المشروعة، أو لحاجة من حوائج الآخرة، فإن الله سبحانه وتعالى لابد من أن يستجيب لك.

((... قَالَ: جَوْفَ اللَّيْلِ الآخِرِ وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ الْمَكْتُوبَاتِ))

الدعاء، شرع بعد الصلاة وهو مقبول، وهذا من أسرع الأدعية إجابةً ولقوله ﷺ:

((عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ وَقَالَ يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ فَقَالَ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[النسائي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

ومما أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان يرفع يده بالدعاء، ويمسح بها وجهه الشريف، تعبيراً عن أدبه، وعن أن الله سبحانه وتعالى سيستجيب له بهذا الدعاء، وفي النهاية يقول: سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

ما يفعله المقتدي بعد الفرض وبعد السنة :

اتضح الآن بين السنة والفرض ثلاث مرات استغفار، اللهم إنك أنت السلام ومنك السلام تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام، و بعد السنة ثلاثاً وثلاثين أستغفر الله، والحمد لله، والله أكبر، مع آية الكرسي والمعوذات – الإخلاص والمعوذتين – وبعدها لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وفي النهاية الدعاء، وبعد الدعاء: سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، هذا ما يفعله المقتدي بعد الفرض وبعد السنة، والفصل الذي قبله ما يتابع به إمامه وما لا يتابع به، وفي الدرس القادم إن شاء الله ننتقل إلى مفسدات الصلاة وهي ثمان وستون.

* * *

التفسير وفهم كتاب الله :

والآن إلى فصل من إحياء علوم الدين، الحقيقة هذا الفصل مهم جداً، هذا الفصل في فهم القرآن وتفسيره وما من موضوع اختلف فيه الناس كموضوع التفسير وفهم كتاب الله.

قال الإمام الغزالي: لعلك تقول: عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن، وما ينكشف لأرباب القلوب الذكية من معانيه، فكيف يستحب ذلك وقد قال عليه الصلاة والسلام: "من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"، كنا نتكلم عن فهم القرآن، والتعمق بفهمه، وتدبر آياته، والاستنباط منها، فكيف نوفق بين هذا الذي قلناه من قبل من كتاب إحياء علوم الدين وبين قول النبي عليه الصلاة والسلام: "من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار"؟ فهل للإنسان أن يفسر أم لا يفسر؟ فإذا لم يفسر يقولون له قوله تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾

[سورة محمد: 24]

وإذا فسر يقولون له: "من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار " فماذا يفعل؟ إذا فسر ما انتهى من الناس وإن لم يفسر يقولون لماذا لم يفسر؟ لكن الإمام الغزالي يوفق بين هذين النصين توفيقاً جميلاً، قال: وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المفسرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين، فعندنا لوم شديد من علماء الظاهر على العلماء الصوفيين الذين فسروا القرآن تفسيراً إشارياً عميقاً مستندين إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام: "من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار " وذهب بعضهم إلى أنه قد كفر، قال: فإن صح ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره؟ ومادام القرآن مفسراً سابقاً عن ابن عباس، وعن مجاهد، وعن شريح، وفلان من التابعين، فانتهى الأمر، ولا يوجد إلا مهمة واحدة أن نقرأ هذه التفاسير، ونحفظها، وانتهى الأمر، وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله ﷺ: " من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار "؟

من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه :

الآن نحن في مشكلة هل نفسر أم لا نفسر؟ إن فسرنا يقال لنا: " من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار " وإن لم نفسر قيل لنا: أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها، قال: فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه، وهو مصيب بالإخبار عن نفسه، ولكنه مخطئ في الحكم برد

الخلق كافةً إلى درجته التي هي حده و محطه، فما معنى هذا الكلام؟ فإذا قال إنسان لك: أطيب شيء في الأرض هو الدبس، وهو لم يأكل غير الدبس فهو صادق، ولكن ليس له الحق أن يقول: الناس كلهم لا يوجد عندهم ذوق، فالذين أكلوا عسلاً يسخرون من هذا القول.

إنسان فهم الآية فهماً وإذا قال غير هذا المعنى فلا يكون غالطاً، فهذه حدوده، وهذا مستواه، وهذه درجته، أيحمل الناس كلهم على هذه الدرجة؟ و القرآن كما قلت من قبل: ليس ملك أحد، بل ملك المسلمين كلهم، فلما يقنن الإنسان يحصر آية على تفسير واحد، ويحمل الناس على درجته، وهو محدود، وفي الناس من هو أعلى منه، و من هو أفطن منه.

قال: فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما شرحه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه، وهو مصيب بالإخبار عن نفسه، لما قال: إن الدبس أطيب طعام صحيح – هذا الكلام له صحيح– ولكنه مخطئ في الحكم برد الخلق كافةً إلى درجته التي هي حده و محطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم، وفي القرآن يوجد مجال واسع للتفاوت في الفهم، وسيدنا علي رضي الله عنه يقول: "إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن".

هذه نعمة من نعم المولى الكريم أن يعطيك الله سبحانه وتعالى نعمة فهم كتابه، فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟ وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إن للقرآن ظهراً، وبطناً، وحداً، ومطلعاً"، ويروى أيضاً عن ابن مسعود رضي الله عنه موقوفاً عليه وهو من علماء التفسير فما معنى الظهر والحد والبطن والمطلع؟ هذا سؤال وهذا حديث لرسول الله صلى الله عليه.

وقال علي كرم الله وجهه: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير سورة الفاتحة"، أوقرت بمعنى حملت.

القوى الإلهية التي تعطي للأجسام خواصها إنما هي قوى من عند الله :

هناك آية ثانية أدق من هذا، قال تعالى:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

[سورة الكهف : 109]

قال لي رجل من أيام التقى بي أمام البيت: ما معنى قوله تعالى:

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾

[سورة القارعة : 5]

قلت له: العهن هو الصوف، قال لي: لا يكفي، أريد أعمق من هذا؟ قلت له: العهن هو الصوف والمنفوس، شعرت أن هذا المعنى فقلت له: الله عز وجل جعل ترابطاً بين ذرات الصخر، الصخر قاسٍ فجعل ترابطاً بين ذرات الحديد، وهذه الأجسام الصلبة تراها صلبة لأن الله سبحانه وتعالى ربط بين ذراتها بقوته، فلو أن الله سبحانه وتعالى قطع الإمداد عن هذه الذرات لأصبحت متفلتة، ولانعدم هذا الترابط، وتفككت، وتحررت، وأصبحت سائبة، ولم يبق الصخر صخراً بل صار الصخر طحيناً، وما عاد الحديد حديداً صار الحديد ماءً، فربنا عز وجل أراد أن يلفت النظر إلى أن هذه الأشياء الصلبة التي تراها في الأرض، وتنعم بها، وتقيم بناءك عليها، إنما هي صلبةٌ بقوة الله، فلو أن الله سبحانه وتعالى منع عنها قوته لأصبحت منحلة، مبعثرة، فكأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يقول: إن هذه القوى الإلهية التي تعطي للأجسام خواصها إنما هي قوى من عند الله عز وجل، فالحديد لا يسمى حديداً إلا إذا شاء الله له أن يكون حديداً، فإن لم يشأ صار غازاً أو سائلاً، وقنع وقال لي: هذا المعنى دقيق. الحقيقة قوله تعالى:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

[سورة الكهف : 109]

كل آية هي وسيلة إيضاح لتعريف الناس بالله عز وجل :

كلام إله ينحد بكلمة؟ العهن المنفوش الصوف الممدود فقط؟ هذه يتكلم عنها خمس ساعات، وهذه معلوماتي المحدودة، وشعرت أن في الذرات قوى تجاذب، وقوى ترابط، والذرة يكون لها شكل صلب، أو شكل سائل، أو شكل غازي، بحسب ترابط ذراتها، وللحرارة أثر في تباعد هذه الذرات، وفي تحويل الجسم من صلب إلى سائل إلى غاز، فهذه القوى التي تشد الذرات بعضها إلى بعض إنما هي قوة الله عز وجل، فالجبال يوم القيامة انتهت مهمتها، وانتهت وظيفتها، قال تعالى:

﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾

[سورة القارعة : 5]

والشمس انتهت وظيفتها، قال تعالى:

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾

[سورة التكوير: 1]

والنجوم انتهت وظيفتها، فصارت دليلاً على الله عز وجل، كوسائل إيضاح، وسائل معينة لتعريف الناس بالله عز وجل، مالك يوم الدين انتهت الحياة الدنيا، وفرصة الاختيار انتهت، وبدأ يوم الحساب، فقال تعالى:

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ *وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ*وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ*وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ*وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾

[سورة التكوير: 1-5]

والنجوم، فكل آية لها ظهر وبطن، قال تعالى:

﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾

[سورة الكهف : 109]

الله سبحانه وتعالى هو الآخر و من باب أولى كلامه الآخر، إلا أنه يكون عندك تفسير أربعمئة صفحة، كلمة العهن المنفوش الصوف الممدود فقط، وغير هذا لا يوجد، فاقرأ بعض التفاسير هكذا كلمة يقابلها كلمة ثانية، والإمام الغزالي يقول: لا فهذا شيء مستحيل، وسيدنا علي رضي الله عنه ليس نبياً قال: "لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير سورة الفاتحة"، وقال أبو الدرداء: "لا يفقه الرجل حتى يزعم للقرآن وجوهاً".

كل آية في القرآن الكريم لها مجموعة وجوه :

في دروس التفسير السابقة شعرت كيف ربنا عز وجل الآية الواحدة لها مجموعة معانٍ، حمالة الحطب، وربنا عز وجل رمز لكل ذنب بحبة لها ثقل، حطبة مع حطبة، فصار الثقل شديداً قد يعجز الإنسان عن حمله، فلماذا حطب وليس حديداً؟ الحطب يحترق لأن هذه الأوزار سوف تحرق صاحبها، وهذا معنى، حمالة الحطب كانت تؤذي النبي عليه الصلاة والسلام، وتضع في طريقه الحطب، وحمالة الحطب كانت بخيلةً. أي كل آية في القرآن الكريم لها مجموعة وجوه، قال تعالى:

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

[سورة الماعون: 7]

فالعلماء قالوا في هذه الآية أربعة عشر تفسيراً، وأوجه هذه التفاسير أنك إذا سببت أذىً لفاعل الخير فأنت مانع

الخير، وإنسان قدم خدمة مخلصاً بها فأصبته بالأذى فربما أخذ عهداً على نفسه ألا يفعل خيراً ما عاش، إذاً من هو الذي يمنع الماعون؟ هو الذي يسبب الأذى لفاعل الخير، ولاحظتم بتفسير جزء عم، كل آية لها مجموعة معانٍ كثيرة.

وقال أبو الدرداء: "لا يفقه الرجل حتى يزعم للقرآن وجوهاً"، وقال بعض العلماء: "لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر"، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: "من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن".

تتبع آيات القرآن الكريم وما تنطوي عليها من دقائق :

مثلاً لماذا قال ربنا عز وجل:

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾

[سورة النور: 2]

ولماذا بدأ بالزانية؟ لأن المرأة أقدر على الزنا من الرجل، و هي السبب في الزنا، لماذا قال:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾

[سورة المائدة: 38]

لأن الرجل أقدر على السرقة من المرأة، لماذا قال:

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

[سورة التوبة:24]

لماذا بدأ بالأب بالذات؟ لأن هذه الآية ساقها الله سبحانه وتعالى في معرض الاعتزاز الاجتماعي، والإنسان يعتز أكثر ما يعتز بأبيه. قال تعالى:

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾

[سورة عبس:34-35]

لماذا بدأ بالأخ؟ لأن الأخ أقرب الناس للإنسان، والأب كبير والابن صغير، ففي موطن الاستنجاد والالتجاء الأخ. قال تعالى:

﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴾

[سورة المعارج:11]

لماذا البني؟ لأنه من حيث المحبة الابن يقع في المقدمة، ففي الفداء الابن، وفي الالتجاء الأخ، وفي الاعتزاز الأب، قال تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾

[سورة آل عمران: 14]

في المتعة المرأة، هناك خمس آيات في كتاب الله ورد فيها الأقارب مرتبين ترتيباً خاصاً، لماذا قال تعالى:

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾

[سورة النور: 30]

لماذا بدأ بغض البصر وانتهى بحفظ الفرج؟ لأن حفظ البصر طريق لحفظ الفرج، حقائق، لو تتبعت كتاب الله، قال تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

[سورة الجمعة: 11]

لماذا بدأ الله سبحانه وتعالى بالتجارة ثم باللهو؟ لأن التجارة أساس اللهو، لا لهو بلا تجارة، واللهو يحتاج إلى دخل كبير، فلماذا بدأ باللهو ثم بالتجارة في آخر الآية:

﴿ خَيْرٌ مِنْ اللَّهْوِ وَمِنْ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

[سورة الجمعة: 11]

لأن الإنسان عندما يتغافل عن الصلاة بدافع اللهو فإثمه كبير، أما إذا تغافل عن الصلاة بدافع التجارة فإثمه كبير ولكن أيهما أكبر؟ بدافع اللهو، التسلسل دقيق جداً، فهلا تتبعت هذه الآيات وما ينطوي عليه من دقائق؟ ولما ربنا عز وجل قال:

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾

[سورة الواقعة: 20-21]

معنى الفاكهة قبل الطعام أول استنباط، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: "اقرؤوا القرآن والتمسوا غرائبه".

القرآن الكريم عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه :

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث علي كرم الله وجهه، كيف قال ﷺ في حديث علي؟ الحقيقة إذا قال الصحابي الجليل قولاً فهذا يصنف مع الأحاديث، لأنه ما قاله إلا عن رسول الله قال عليه الصلاة والسلام: " والذي بعثني بالحق نبياً، لتفترقن أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم، ونبأ ما يأتي بعدكم، وحكم ما بينكم، ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل، ومن ابتغى العلم في غير ذلك أذله الله عز وجل، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وشفاؤه النافع، عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستقيم، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلطه كثرة الترديد..."

الذي يعنينا: "إذا افترقت أمة محمد ﷺ عن أصل دينها إلى اثنتين وسبعين فرقة وكل هذه الفرق ضالة مضلة إلا واحدة" وهناك رواية ثانية:

((وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إلا مِلَّةً وَاحِدَةً قَالُوا وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

إذا افترقت أمة محمد ﷺ فعليك بكتاب الله، هو الأصل، وهو الينبوع، لما ترى الماء أسود ارجع إلى النبع، فبالنبع الماء زلال، فرات، عذب، صافٍ، نقي، سائغ للشاربين، تشتهي أن تشربه، لكن في المصب المياه سوداء لكثرة ما دخل عليها من رواسب، ومن مياه آسنة، ومن أشياء قذرة، ولذلك: بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء، والآن الحل أن نعود معاً إلى الينبوع الأول وهو كتاب الله، فإن كنتم في زمن الفتن من الفرقة، وزمن

الضلالة، وكل يدعي وصلاً بليلى، قال تعالى:

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾

[سورة المؤمنون: 53]

﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾

[سورة الحشر: 14]

((بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ يَعْنِي بِنَفْسِكَ وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ...))

[أخرجه الإمام الترمذي و أبو داود عَنْ أَبِي أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيِّ]

إذا وصلت إلى هذا الزمان يوم يؤمر بالمنكر وينهى عن المعروف، يوم يصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، يوم يخون الأمين ويؤتمن الخائن، ويكذب الصادق ويصدق الكاذب، يوم تلد الأمة ربتها، يوم يكون المطر قيظاً والولد غيظاً، ويفيض اللئام فيضاً ويغيظ الكرام غيظاً، ويوم يسند الأمر إلى غير أهله، عندئذ اعتصم بكتاب الله، لماذا؟ لأن كتاب الله سبحانه وتعالى فيه نبأ من كان قبلكم موعظة، وهناك أقوام أشادوا حضارات، وجاؤوا بمعجزات، وأشادوا الأهرامات، وبنوا القصور، ونحتوا الجبال، واخترعوا مواد لا تزال إلى الآن سر من أسرار هذه الأمم، كفروا بالله سبحانه وتعالى فأهلكهم الله سبحانه وتعالى، يوجد عندنا حوادث، وأنا أقول دائماً ربنا عز وجل، القرآن الكريم كون ناطق، والكون قرآن صامت، والحوادث قرآن عملي، فآكل المال الحرام الله في أغلب الأحيان يتلف ماله، والمعتدي يعتدى عليه، والظالم سوط الله ينتقم به ثم يُنتقم منه، ولو تتبعت ما يجري في الدنيا، فهذه المدينة الفاجرة أصابها زلزال جعلها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً، وهؤلاء القوم منحرفون أخلاقياً ابتلاهم الله بالأمراض، والآن في العالم الغربي في أمريكا يوجد أمراض تسبب الذعر، فقد سمعت عن أمراض عديدة كلها أمراض جنسية بسبب التفلت الأخلاقي فالقرآن كون ناطق، والكون قرآن صامت، ومعاملة الله للعباد وتصرفاته هي قرآن عملي، و الإنسان عندما يتعمق بالفهم يجد أن ما يجري في الأرض صادق لما في كتاب الله، إذ يوجد قانون السقوط قائم ثابت لا يتغير ولا يتبدل، وأن تعترف به، و تفهمه، وتتقيد بتعليماته، وتتأدب معه، وتنجو، وتستهين به، وتستخف به، وتنكره، وتكذبه، وتدفع الثمن فهذا كلام عام، دقق في بيتك، وفي زواجك، وفي بيعك، وفي شرائك، وفي معاملتك، وفي ربحك، وفي صحتك، كله مطبق.

إن كانت جميع الفواحش متوافرة كلها فالدمار حق :

إذاً فيه نبأ من كان قبلكم، الأقوام السابقة، ربنا عز وجل توجه إلى آخر الزمان قال تعالى:

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾

[سورة القمر: 43]

أي قوم لوط فعلوا فاحشة واحدة فدمرهم الله سبحانه وتعالى، و قوم ثمود فعلوا فاحشة من نوع آخر، قوم شعيب بخسوا المكيال، و كل قوم ارتكبوا فاحشة فاستحقوا الدمار، فإذا كانت جميع الفواحش متوافرة كلها فالدمار حق، ولذلك قال تعالى:

﴿ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾

[سورة الإسراء: 58]

سترون بأعينكم كل مرحلة من الزمن يحل البلاء في بلد.

القرآن الكرم فيه نبأ من كان قبلنا ونبأ من يأتي بعدنا :

والله عز وجل قال:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

[سورة الأنعام: 65]

من فوقكم البراكين، فهذا بركان سيزوف، ثار وغطى مدينة، ثمانية أمتار سحاب بركاني، حرارته ثمانمئة درجة، فالناس ماتوا إما احتراقاً أو اختناقاً أو انحباساً، إنها مدينة بكاملها، الساعة الثانية ظهراً تقريباً جمدت على حالها، و بعد ألف سنة أثناء تنقيب الآثار وجدوا مدينة طبعاً صخوراً كسروا الصخور فوجدوا تجويفات، فجاء علماء الآثار حقنوا هذه التجويفات بجبصين سائل فلما نشف الجبصين كسروا هذه الصخور فظهرت الأجسام، أم هاربة من السحاب، وامرأة تحتضن ابنها، والأشخاص في السجون، والذعر باد على وجوههم،و النساء في القصور يجمعن الحلي، كلها صور مأخوذة مجسمة، مثل أدوات الطعام، قال تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ ﴾

[سورة الأنعام: 65]

يوجد مدينة في اللاذقية اسمها أوغاريت، العلماء يقولون: إن بركاناً ثار بالقرب منها، وغطاها ثلاث مرات أي مدينة وتحتها مدينة، وتحتها مدينة، وجبل الأقرع ثار بركانه ودمر هذه المدينة ثلاث مرات، فهذه من فوقكم، والآن يوجد أسلحة من فوقكم، صواريخ يقول لك: قصف مدفعي كثيف، وتراشق صاروخي، و هذه أيضاً من فوقكم، أو من تحت أرجلكم، الزلازل، أغادير مدينة جميلة جداً على الساحل الأطلسي، هذه المدينة خاصة بالسياح الأجانب وكل أنواع المنكرات فيها، حتى الأماكن الرذيلة لا يسمح لأبناء المغرب بالدخول إليها لشدة الانحراف، ثلاث دقائق أصبحت ركاماً، فيها فندق كبير، ثلاثون طابقاً، حكمة الله سبحانه وتعالى هذا الفندق غاص كله، وبقيت لوحته الكبيرة على الطابق الثلاثين على مستوى الأرض، فهذه أو من تحت أرجلكم، وهذه على مستوى جماعي، وهذه على مستوى فردي، وهناك بناء يغوص بكامله بمن فيه، قال تعالى:

﴿ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ﴾

[سورة الأنعام: 65]

هذا من مستوى الزلازل، ومستوى البراكين، قال تعالى:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾

[سورة النحل: 112]

فالإنسان لا يأمن أن يسير متراً، قد يقتل بلا سبب، في بعض الأقطار التي تشهد صراعات داخلية فيها بلاء من الله عز وجل.

إذاً فيه نبأ من كان قبلكم، ونبأ من يأتي بعدكم، قال تعالى:

﴿ غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾

[سورة الروم: 2-3]

فتح مكة، نبأ من كان بعدكم، وانتصار الرومان على الفرس نبأ من كان بعدكم.

أحداث قيام الساعة :

الآن أحداث قيام الساعة، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ﴾

[سورة الزخرف: 61]

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا﴾

[سورة يونس: 24]

هناك أمور لما تفسر، قال تعالى:

﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ*وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

[سورة يونس: 24-25]

فالآن يوجد قمة في الزخرفة، أينما تذهب تجد زخرفة، أسقف مستعارة، وجدراناً مزينة بالزخارف، وإضاءة مخفية منوعة، وفرشاً وثيرة جداً، ومداخل حدائق، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

[سورة المائدة: 1]

ملكوا السلاح النووي، فيه نبأ ما كان قبلكم، ونبأ ما كان بعدكم، وحكم ما بينكم، فإذا اختلف اثنان فالقرآن الكريم يحكم بينهما، هو الحكم، وإذا اختلف الزوجان الحكم لكتاب الله، وإذا اختلف شريكان فالحكم لكتاب الله.

من قرأ القرآن قراءة صحيحة و عقل معانيه زالت كل أمراضه النفسية :

قال تعالى:

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾

[سورة النحل: 69]

اعمل عقداً معه، يأتيك الحكم بهذا الشكل.. ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله عز وجل، ومن ابتغى العلم في غيره أذله الله عز وجل...فإذا الإنسان لحق الكتب الأخرى قال لك: يوجد عندي المجموعة النفسية، كتاب لفرويد، إنه يجعل الجنس أساس الحياة، فالإنسان كتلة جنس، أو عندي كتاب مثلاً لدارون، أصل الإنسان.... "من ابتغى

العلم في غيره أذله الله عز وجل، وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع..."لا يحزن قارئ القرآن أبداً، فهو دواء لكل داء، فداء القلق القرآن الكريم، ومن الخوف اقرأ القرآن يذهب خوفك، الضياع تجتمع، والتشاؤم تتفاءل، و الشعور بالضعف تشعر بالعزة والكرامة، فلو قرأت القرآن قراءة صحيحة وعقلت معانيه تزول كل أمراضك النفسية، قال تعالى:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾

[سورة الإسراء: 82]

وشفاؤه النافع عصمة لمن تمسك به، قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، فإنسان كاد لإنسان بعث له امرأة بوقت متأخر صار هناك خلوة، وكلفها عندما تخرج من عنده تدعي أنه اغتصبها فشوه سمعته، ولو كان متمسكاً بكتاب الله ما سمح لها أن تدخل بيته إطلاقاً، إذ تحدث مشكلات كثيرة لعدم التمسك بكتاب الله، "عصمة لمن تمسك به، ونجاة لمن اتبعه".

التمسك بكتاب الله :

"لا يعوج فيقوم.. " القوانين تحتاج إلى تعديل، يصدر قانون فيعدل، والثاني، والرابع، والخامس، و تجده مربوطاً به خمسون ورقة، تعديلاته كلها، ثم يضيفون ثم يلغون القانون، ويصدر قانون جديد، بعد شهرين يعدل لأنه ناقص، أما ربنا عز وجل: "لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستقيم، ولا تنقضي عجائبه"، السماء ذات الرجع فهمها المفسرون أنها البخار يصعد إليها ثم يرجع مطراً شيء جميل، و هذا معنى بسيط، الآن الأمواج الصوتية تصعد في السماء هناك طبقة عليا تعكسها إلى الأرض، ولولا هذه الطبقة ما أمكن الاتصال باللاسلكي، والسماء ذات الرجع، ولا تنقضي عجائبه، العلم يتقدم يوجد في القرآن إشارة لهذا التقدم، قال تعالى:

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾

[سورة النمل: 88]

﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

[سورة الأنعام: 125]

هذا الضغط، فالضغط عندما يخف تضيق نفس الإنسان، "ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلقه كثرة الترديد..." ، كلما زدته نظراً زادك معنىً، وفي حديث حذيفة رضي الله عنه لما أخبره الرسول ﷺ بالاختلاف والفرقة بعده، "فقلت يا رسول الله فماذا تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: تعلم كتاب الله واعمل بما فيه"، فإذا كنت تعيش في عصر فيه

ضلالات، وفيه فتن، و ضياع، و عمى، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، واستعلاء الناس، واستخفافهم بالشرع، إذا كنت في هذا العصر ما المخرج وما النجاة؟ قال عليه الصلاة والسلام: "تعلم كتاب الله واعمل بما هو فيه، قال: فأعدت عليه ذلك ثلاثاً فقال ﷺ: تعلم كتاب الله واعمل بما هو فيه ففيه النجاة".

كلما تقدم العلم يصل إلى أصل ذكره الله في القرآن الكريم :

وفي الزمن الصعب تعلم كتاب الله، واعمل بما هو فيه، أي حضور مجلس العلم أثمن ما في الحياة، لأنك بهذا تعرف القرآن، وتعرف أحكام القرآن، وتعرف أوامر الله، و نواهيه، وقواعد الحياة، و طريق السير إلى الله عز وجل، و الهدف من خلقك، وقال علي كرم الله وجهه: "من فهم القرآن فسُرِّ به جمل العلم"، هذه كلمة دقيقة جداً، العلماء قالوا: العلوم الحديثة كل أصولها في القرآن الكريم لا تفريعاتها، فيتعمقون في العلم حتى يكتشفوا حقيقة يكون ربنا أشار إليها، وربنا عز وجل لو قال وقت نزول القرآن: الأرض كروية لكذب الناس القرآن، لكن أشار إشارات كثيرة بأنها كروية، قال تعالى:

﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ﴾

[سورة الزمر: 5]

﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾

[سورة الانشقاق: 3]

خطوط الدائرة متصلة مستمرة لا منقطعة، أما خطوط المكعبات فمنقطعة، وإذا الأرض مدت. قال تعالى:

﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾

[سورة النازعات: 30]

فما الذي جعلها كالدحية أي كالكرة، يوجد إشارات إلى أن الأرض كروية، والآن اكتشفوا أن العسل صيدلية كاملة، قال تعالى:

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾

[سورة النحل: 69]

وقوانين السعادة الزوجية غض الطرف، قرأت كتاباً لإنسان اسمه كارين–الإنسان ذلك المجهول– جذب نظري جملة قال: إن المخرج من التفسخ الاجتماعي، وانحلال الخلق، وضياع الأسرة، أن يقصر الرجل طرفه على زوجة واحدة، أي يغض بصره، وإذا لم يغض بصره فإنه لا يسعد في بيته، فالعلم كلما تقدم يصل إلى أصل ذكره

الله في القرآن الكريم.

في فهم معاني القرآن مجال رحب ومتسع بالغ :

الآن طموح المرأة في أوربا أن تكون سيدة منزل، وربة منزل متفرغة لزوجها ولو شقيت معه، فصار إذا كانت المرأة متفرغة لزوجها فهذه محسودة، بعد أن صار اختلاط، وبعد أن أصبحت المرأة مبتذلة، منفقة المتاع و ميسورة لكل إنسان، الآن صار هناك طموحاً في العالم الغربي أن تكون سيدة منزل كما جاء في الإسلام قال تعالى:

﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾

[سورة طه: 117]

فتشقى وحدك في العمل والسعي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:

﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾

[سورة البقرة : 269]

أي الفهم في القرآن، وقال عز وجل:

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾

[سورة الأنبياء: 79]

ثم ما آتاهما علماً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان الفهم لقوله تعالى:

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾

[سورة الأنبياء: 79]

فهذه الأمور كلها تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، وللبحث صلة نأخذها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

* * *

بعض الأحاديث النبوية الشريفة :

والآن إلى بعض الأحاديث النبوية الشريفة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((خياركم من ذكركم بالله رؤيته، وزاد في علمكم منطقه، ورغبكم في الآخرة عمله))

[الترمذي عن ابن عمرو بن العاص]

أي حديثه يزيدكم علماً بالله، وعمله يرغبكم في الآخرة، ورؤيته تذكركم بالله عز وجل، ولذلك فأولياء أمتي إذا رؤوا ذكر الله بهم، فالله عز وجل يهب المؤمن سمتاً حسناً، ونورانية في وجهه، واستقامة في عمله، فيصبح هذا المؤمن قدوةً لغيره، فإذا كنتم كذلك فأنتم من خيار الناس.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 9 : مكروهات الصلاة ....الأذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

مكروهات الصلاة :

1 . ترك واجب أو سنة عمداً كعبثه بثوبه وبدنه وهذا يخل بالخشوع :

أيها الأخوة المؤمنون، يكره للمصلي سبعة وسبعون شيئاً أولها ترك واجب أو سنة عمداً كعبثه بثوبه وبدنه هذا يخل بالخشوع، قال تعالى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾

[سورة المؤمنون الآيات: 1-2]

2 . سبق الإمام :

سبق الإمام، ترك الواجب يوجب سجود السهو، ترك السنة لا يوجب شيئاً، أما أن تترك الواجب عمداً وتسجد له أو أن تترك سنة عمداً فهذا من مكروهات الصلاة.

3 . قلب الحصى :

قلب الحصى أي إذا أراد أن يسجد الرجل وكان في موضع سجوده حصى مؤذية فأزاحها أو قلبها أو عدلها فهذا مكروه ولكن لمرة واحدة مقبول، أما أن يجعل من قلب الحصى طريقةً له في الصلاة دائمة كلما همّ في السجود مهد مكان سجوده، فهذه من مكروهات الصلاة.

و النبي عليه الصلاة والسلام كما قلنا قبل قليل عن العبث بالثوب والبدن رأى رجلاً يعبث بثوبه ولحيته فقال: "لو خشع قلبه لخشعت جوارحه".

والنبي عليه الصلاة والسلام في موضوع الحصى قال:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ مَسْحِ الْحَصَى فَقَالَ: وَاحِدَةٌ وَلَئِنْ تُمْسِكْ عَنْهَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ مِائَةِ بَدَنَةٍ كُلِّهَا سُودُ الْحَدَقَةِ))

[أحمد عن جابر]

فإذا وجدت ضرورة بالغة تزيح الحصى وتقلبها وتعدلها فمرة واحدة ولأن تمسك عنها خير لك.

4 . فرقعة الأصابع في الصلاة :

فرقعة الأصابع في الصلاة، أحياناً لمجرد أن يقوم إلى الوقوف يضغط على أصابعه على الأرض فيفرقعها هذا من مكروهات الصلاة، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تُفَقِّعْ أَصَابِعَكَ وَأَنْتَ فِي الصَّلاةِ))

[ابن ماجة عَنْ عَلِيٍّ]

5 . تشبيك الأصابع :

وتشبيك الأصابع أيضاً نهى عنها النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((عَنْ إسماعيل بْنِ أُمَيَّةَ سَأَلْتُ نَافِعًا عَنِ الرَّجُلِ يُصَلِّي وَهُوَ مُشَبِّكٌ يَدَيْهِ قَالَ: قَالَ ابْنُ عُمَرَ: تِلْكَ صَلاةُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ))

[أبي داود عَنْ إسماعيل بْنِ أُمَيَّةَ]

6 . التخصر :

أن يضع يديه على خصره وهذا أيضاً من مكروهات الصلاة أيضاً فيها تشبه بالجبابرة.

7 . الالتفات بالعنق :

والالتفات بالعنق من مكروهات الصلاة.

8 . الالتفات بالجسم :

طبعاً استقبال القبلة شرط من شرائط الصلاة فإذا اختل الشرط فالصلاة باطلة، أما الالتفات بالعنق فمن مكروهات الصلاة.

((عن عَائِشَةُ رَضِي اللَّهم عَنْهَا سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْتِفَاتِ الرَّجُلِ فِي الصَّلاةِ فَقَالَ: هُوَ اخْتِلاسٌ يَخْتَلِسُ الشَّيْطَانُ مِنْ صَلاةِ أَحَدِكُمْ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةُ رَضِي اللَّهم عَنْهَا]

((لا يَزَالُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُقْبِلاً عَلَى الْعَبْدِ وَهُوَ فِي صَلاتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ فَإِذَا الْتَفَتَ انْصَرَفَ عَنْهُ))

[النسائي عن أَبِي ذَرٍّ]

والله سبحانه وتعالى مقبل على عبده فإذا التفت انصرف عنه.

9 . البصاق في أثناء الصلاة :

وإذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه، أي هذا في المسجد مستحيل، أما إذا صلى في فلاة، فالبصاق في أثناء الصلاة مما يكره للمصلي.

10 . كره الإقعاء :

وكره الإقعاء، والإقعاء أن يجلس على أليتيه فهذا مكروه في الصلاة لقول أبي هريرة رضي الله عنه:

((نهاني ﷺ عن نقر كنقر الديك، وإقعاء كإقعاء الكلب، والتفات كالتفات الثعلب))

[أحمد عن أبي هريرة]

فالإقعاء مكروه في الصلاة.

11 . افتراش الذراعين :

وافتراش ذراعيه وضع كفه وذراعه على الأرض هذا أيضاً منهي عنه، لقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

((كان النبي صلى الله عليه ينهى أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع))

[البخاري عن عائشة]

12 . تشمير الكمين :

التشمير فيه سلوك ليس فيه أدب، قميص لـه زر وهو يفتح الثاني.

13 . الصلاة في السراويل :

والصلاة في السراويل– في البنطال – وهذه مكروهة لأن البنطال يصف حجم العورة وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الفخذ عورة))

[الترمذي عن ابن عباس]

فالبنطال ولاسيما الضيق قد يصف حجم العورة، سألني أخ يوم الجمعة قال لي: وأنا أصلي ساجداً الذي أمامي ظهره مكشوف.

هذا البنطال صنع خصيصاً لرجل يلبسه وهو واقف، أما إذا سجد وكان ضيقاً وخصره واسع طبعاً فسوف ينكشف ظهره، فالناظر ملعون، والذي كشف عن ظهره ملعون، فالصلاة في البنطال مكروهة طبعاً، فإذا خاط الإنسان بنطالاً فليكن عريضاً، أما متابعة صرعات الأزياء دقيقة بدقيقة فهذا لا يرضي الله عز وجل، والصلاة فيه مكروهة، وإذا الإنسان أحب في بيته أن يصلي بالثوب، فالثوب أكمل، وإن أحب أن يأتي إلى المسجد يوم الجمعة به فهذا أكمل، والصلاة بالثوب أكمل كما أن الثوب يحتاج إلى بنطال أيضاً، إذا جلس وأحب أن يغير جلسته فتبدو عورته كلها.

14 . التربع بلا عذر :

والتربع بلا عذر وهي أن يدخل ساقيه في فخذيه تشابكاً.

15 . رد السلام بالإشارة :

رد السلام بالإشارة هذا مكروه ولكن أحياناً يكون هناك أمراً هاماً جداً، قال: لو أن المصلي رد عن سؤال مهم في رأسه هكذا يجوز، أي خرجوا من البيت وهم على عجلة من أمرهم، وقالوا: هل معك مفتاح البيت؟ فأشار برأسه نعم قال الفقهاء: هذا جائز لحل مشكلة، ولا بأس أن يسلم الرجل المصلي كيف؟ استنبطوا من قوله تعالى:

﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾

[سورة آل عمران:39]

طبعاً لأمر قاهر جداً، سؤال مهم، فكان الجواب، هذا الفقهاء تجاوزوا عنه، أما الرد بالإشارة فلا يجوز.

16 . عقص الشعر :

عقص شعرهِ أي رفع شعره كله إلى خلف رأسه، لقول عائشة رضي الله عنها:

((مرّ النبي صلى الله عليه و سلم برجل يصلي وهو معقوص الشعر فقال: دع شعرك يسجد معك))

[ابن أبي شيبة عن عائشة]

17 . الاعتجار :

ويكره الاعتجار وهو شد الرأس بالمنديل – قمطة – فهذه مكروهة، أي تكوير عمامته وترك وسطها مكشوفاً، فالعمامة من دون طاقية عمامة كاملة.

18 . كف الثوب :

وكف ثوبه: أي رفع ثوبه ومسكه بيده فهذا مكروه أيضاً في الصلاة، قال عليه الصلاة والسلام:

((أُمِرْتُ أَنْ أَسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أَعْظُمٍ وَلا أَكُفَّ ثَوْبًا وَلا شَعْرًا))

[البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

19 . إسدال الثوب :

ويكره سدله، ومعنى سدل الثوب من دون أكمام أن يضعه على كتفه وهو نوع من الكبر، وهذا أيضاً مكروه في الصلاة، فهو تكبرٌ وتهاونٌ بالعذر.

20 . تغطية الأنف و الفم في الصلاة :

ويكره أن يغطي الرجل أنفه وفمه في الصلاة متبسماً أيضاً هذا من مكروهات الصلاة.

21 . الاندراج بالثوب :

الاندراج بالثوب، فإذا كان الثوب مغلقاً من الأمام والإنسان اندرج به ويداه لم تظهرا أبداً، ومظهره صار عبارة عن أسطوانة، فهذا مكروه في الصلاة.

22 . أن تكون حركة اليدين داخلية لا خارجية :

وألا تكون حركة اليدين داخلية بل خارجية.

23 . القراءة في غير حال القيام :

والقراءة في غير حال القيام أن يقرأ: قل هو الله أحد لم يلد وأصبح راكعاً، وتابع لم يلد ولم يولد وهو راكع، فمعنى هذا أنه قرأ في غير قيام، فيجب أن يقرأ في حال القيام لا في حال الركوع.

24 . إطالة الركعة الأولى في التطوع :

إطالة الركعة الأولى في التطوع، صلاة التطوع الركعتان متساويتان أما في صلاة الفرض فيستحب أن يطيل الأولى عن الثانية، فإذا أطلت الثانية عن الأولى فهذا من مكروهات الصلاة.

25 . تكرار السورة في ركعة واحدة :

أي قرأ الإخلاص ثم أعادها مرةً ثانية فهذا مكروه.

26 . قراءة سورة فوق التي قرأها :

قرأ الإخلاص ثم تبت يدا أبي لهب، لا، تبت يدا أبي لهب أولاً ثم الإخلاص ثانياً.

27 . فصله بسورة بين سورتين قرأهما في ركعتين :

وفصله بسورة بين سورتين قرأهما في ركعتين، فإذا قرأ آيات مختارة فبحث آخر، أما إذا قرأ سورتين قصيرتين فيجب أن يقرأ السورتين متتابعتين فأن يفصل بينهما بسورة فمكروه.

28 . شم الطيب :

إذا كان الوقت حراً فوضع أحد له عطراً على كتفه أثناء الصلاة وشم العطر فهذا مكروه.

29 . ترويح الثوب :

وترويح الثوب أيضاً مكروه.

30 . تحويل أصابع اليدين أو الرجلين عن القبلة :

وتحويل أصابع يديه أو رجليه عن القبلة أي يجب أن تكون أصابع اليدين وأصابع الرجلين متجهتين نحو القبلة، فإذا انحازتا فهذا مكروه أيضاً في الصلاة.

31 . ترك وضع اليدين على الركبتين في الركوع :

ركع وترك يديه سائبتين فهذا أيضاً من مكروهات الصلاة.

32 . تغميض العينين :

هناك حالات نادرة فالإنسان إذا دخل إلى مسجد ضخم، وأراد أن يصلي على هذه الزخارف والثريات سينشغل عن الصلاة، فهناك حالات نادرة إذا الإنسان أغمض عينيه فمقبول، أما الأصل فأن تنظر إلى موضع سجودك، فتغميض العينين أيضاً من المكروهات قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا قام أحدكم في الصلاة فلا يغمض عينيه))

[الطبراني عن ابن عباس]

33 . رفع العينين إلى السماء :

ولا يرفع طرفه إلى السماء أثناء الصلاة.

34 . التمطي :

أي شدّ عضلاته كي يستريح، وتطاول في وقوفه.

35 . العمل الكثير :

زرزر قميصه، حل الساعة درجة، أو نقطة ماء تضايق منها فإذا أزاحها لا يوجد مانع، أما من دون مبرر فلا يوجد داعٍ.

36 . وضع شيء في الفم يمنع القراءة المسنونة :

أي يوجد شيء في فمه حمصة تركها، إذا قرأ تحركت فاختلت قراءته فهذا مكروه.

37 . السجود على كور العمامة :

طبعاً إذا جبهته لم تمس الأرض فهناك ترك لواجب، ولكن لو أن جزءاً من عمامته لامست الأرض صار هناك نوعاً من الكراهة والأفضل أن يرفعها كي تسجد جبهته بكاملها على الأرض.

38 . السجود على صورة :

طبعاً الفقهاء صورة مقطوعة الرأس لا بأس، صغيرة جداً لا بأس، أما صورة أمامك لإنسان كامل أو حيوان كامل وكبيرة، فهذا مكروه أن تسجد على قماش فيه مثل هذه الصورة.

39 . الاقتصار على الجبهة بلا عذر :

وضع يده على الأرض ورفع أنفه فهذا من مكروهات الصلاة.

40 . الصلاة في الطريق :

والصلاة في الطريق مكروهة.

41 . الصلاة في الحمام :

وفي الحمام، أحياناً تجد في المسجد مؤضئاً ومراحيض ومباول وحصيرة يصلي هنا، بل توضأ وصلِّ في المسجد أنظف وأريح وأكمل.

42 . الصلاة في المخرج :

الصلاة في المخرج أيضاً مكروهة.

43 . الصلاة في المقبرة :

والصلاة في المقبرة مكروهة.

44 . الصلاة في أرض الغير بلا رضاه :

الصلاة في أرض الغير بلا رضاه مكروهة أيضاً.

45 . الصلاة بالقرب من نجاسة و مدافعة أحد الأخبثين :

الصلاة قريباً من نجاسة، ومدافعة أحد الأخبثين، أو مدافعة الريح مكروهة.

46 . الصلاة في ثياب مبتذلة :

والصلاة في ثياب مبتذلة، لبس لباساً كله شحم وزيوت ويداه سود، هذا شيء منهي عنه.

يروى أن سيدنا عمر رضي الله عنه رأى رجلاً فعل ذلك فقال لهذا الرجل: أرأيت لو كنت أرسلتك إلى بعض الناس أكنت تمر في ثيابك هذه؟ قال: لا، فقال عمر: الله تعالى أحق أن تتزين له.

لكن إنساناً سألني ومعه حق عمله حداد مثلاً يلبس ثياب العمل، وهو لوحده يصلي لا يوجد مانع، أما أن يأتي بهذه الثياب إلى مسجد ففي هذا أذى للمؤمنين، أما أن نقول له: كل وقت صلاة ادخل واغتسل بماء ساخن، وأنه عملك، والبس ثياباً نظيفة، ثم عد إلى العمل، صار مشقة، وفوق طاقته، لا أعتقد أنه يوجد تكليف إلى هذه الدرجة، لكن بعد أن ينهي عمله إذا اغتسل ولبس ثياباً نظيفة وصلى بها أكمل.

47 . الصـلاة والرأس مكشوف :

الصـلاة والرأس مكشوف أيضاً مكروهة، أي إذا وضع على رأسه طاقية.

48 . الصلاة بحضرة طعام تميل النفس إليه :

يوجد طعام يحبه ونادراً ما يصنعونه، وأذن العشاء، والطعام موضوع لا يعرف أن يصلي دعه يأكل أولاً.

49 . ما يشغل البال :

جاءت رسالة افتحها وصلِّ، اشتريت آلة افتحها شغلها ثم صلِّ، أحياناً يوجد أشياء تشغل البال، جاءت مكالمة

هاتفية يا ترى ماذا قالوا؟ افهم ثم صلِّ، هل أحد مات؟ ما الذي حدث؟ كل ما يشغل البال يخل بالصلاة.

50 . عد الآيات والتسبيح باليد :

بعض التسابيح تحتاج إلى عد إحدى عشرة مرة، يوجد أشخاص يقولون: سبحان الله والحمد لله يعدهم بأصابعه، عد الآيات في الصلاة مكروه.

51 . قيام الإمام في المحراب :

يجب أن يقف خارج المحراب، المحراب للسجود فقط أما أن يدخل الإمام كله في المحراب فهذا أيضاً مكروه.

52 . القيـام خلف صف فيه فرجة :

تصلي في صف ثانٍ وفي الأول يوجد فرجة، يجب أن تتقصى أن أول صف ملئ.

53 . لبس ثوب فيه تصاوير :

يوجد أثواب صينية عليها طاووس.

54 . أن يكون فوق الرأس أو خلفه أو بين اليدين أو بحذائـه صورة :

أن يكون فوق الرأس أو خلفه أو بين اليدين أو بحذائه صورةٌ إلا أن تكون صغيرةً أو مقطوعة الرأس أو لغير ذي روح.

55 . أن يكون بين يدي تنور :

الآن يفعلونها يضع بين يديه مدفأة هذه مظنة أن تعبد النار، أنت لا يجوز أن تضع أمامك مدفأة متوهجة وتصلي، فالنبي الكريم نهى عن الصلاة بين يدي تنور، أو كانون فيه جمر.

56 . الصلاة بين يدي قوم نيام :

أو أن تصلي بين يدي قوم نيام لا يجوز، هذا النائم مثل الميت يمكن أن تتكشف عورته أثناء النوم، فإذا كانت ابنته نائمة في غرفة الجلوس يجب ألا يصلي خلفها فقد تتكشف البنت، النائم لا يجوز أن يكون أمامك وأنت في الصلاة يمكن أن يخرج منه صوت، ريح، تتكشف عورته، يتكلم شيئاً يضحك أحياناً، هذا كله منهي عنه، لا تصلِّ وأمامك قوم نيام لا إناث ولا ذكور ولو من محارمك.

57 . مسح الجبهة من التراب :

ومكروه مسح الجبهة من التراب.

58 . تعيين سورة لا يقرأ غيرها :

تعيين سورة لا يقرأ غيرها إلا في حالتين؛ إذا كان لا يحفظ غيرها، أو النبي الكريم كان يقرأ في الجمعة السجدة "وهل أتى على الإنسان"، يقرأ الجمعة "سبح اسم ربك الأعلى"، إذا قرأ سورة بالذات اقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام فمقبول، أما أن تقرأ سورة وأنت تحفظ أكثر القرآن فهذا مكروه في الصلاة.

59 . عدم اتخاذ سترةٍ في محل يظن المرور فيه :

إذا توقف في محل يظن أنه ممكن أن يمر أحد أمامه فلابد من سترة يضعها أمامه.

هذه مكروهات الصلاة، نرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعلها علماً نافعاً نقتدي بها في صلواتنا المفروضة وغير المفروضة.

* * *

الأذكار و الدعوات :

والآن إلى فصل من فصول إحياء علوم الدين عنوانه: "الأذكار والدعوات" قال تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِي ﴾

[سورة البقرة: 152]

وقال ثابت البناني رحمه الله: "إني أعلم متى يذكرني ربي عز وجل ففزعوا منه، وقالوا: وكيف تعلم ذلك؟ قال: إذا ذكرته يذكرني". وقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

[سورة الأحزاب: 41]

من عرفات، واذكروه كما هداكم، والفصل ما من عبادة قولية بعد تلاوة كتاب الله أفضل من ذكر الله، فالعبادة الأولى بعد القرآن الكريم أن تذكر الله، لكن كلمة ذكر الله واسعة جداً إذا دعوت إلى الله فأنت ذاكر، إذا وضحت لأخيك المؤمن آية كونية فأنت ذاكر، حدثته عن المجرات هذا ذكر لله، وإذا حدثته عن العين، وعن المعدة، وعن الشعر، و عن الكبد، إذا حدثته عن حيوان نأكله من نعمة الله علينا، وإذا حدثته عن ظاهرة في النبات، و في الحيوان، والبحار، و اليوم قلت لرجل: نهر الأمازون كثافته في الثانية ثلاثمئة ألف متر مكعب، هو ماذا قال لي؟ يوجد دراسات حديثة جداً وجدوا أن نبع الفيجة– وأنا كنت أظن أن هذا النبع حوضه الجيولوجي يمتد من عين الفيجة إلى قارة، ومن طريق دمشق حمص إلى منتصف لبنان، هذا هو الحوض الجيولوجي لنبع الفيجة– يتصل بممرات تحت الأرض تصل إلى حدود إيران والاتحاد السوفيتي سابقاً، ولو أن هذا الحوض كما كنت أظنه سابقاً من دمشق إلى قارة ومن طريق دمشق حمص إلى نصف لبنان لجف من سنوات، هناك طرقات تحت الماء لا يعرفها إلا الله، وكشف بمصر الآن نهر يفوق نهر النيل كثافةً وطولاً تحت الأرض على يسار نهر النيل هذه العام الماضي، في بعض أماكن في الحجاز حفروا متراً واحداً فخرج الماء الكثيف في القصيم، فقلت له: هذا عطاؤنا هكذا قال تعالى، فقلت له: نهر الأمازون كثافته ثلاثمئة ألف متر مكعب بالثانية، هذا الماء العذب يمشي في البحر مئة وثمانية وخمسين كيلو متراً ولا يختلط بمياه البحر هذا من ذكر الله، إذا قلت لإنسان: إن في العين يوجد مئة وثلاثين ألف عصية، والعصب البصري فيه أربعمئة ألف عصب، وبرأس الإنسان يوجد ربع مليون شعرة ولكل شعرة وريد وشريان وعصب حسي وعضلة محركة وغدة دهنية وغدة صبغية، شيء لا يعقل هذا من ذكر الله.

وإذا بينت حكماً فقهياً هذا من ذكر الله، وبينت إذا الإنسان أكل في الطريق تجرح عدالته فهذا ذكر لله عز وجل، وإذا مشى حافياً، وإذا أكل لقمة من حرام، وإذا تنزه في الطرقات، إذا صحب الأراذل، وإذا كان حديثه عن النساء، و إذا علا صياحه في البيت، وإذا طفف بتمرة، إذا أطلق لفرسه العنان، و إذا قاد برزوناً، وإذا بال في الطريق، وإذا كانت هيئته رثة، وإذا لعب الشطرنج تجرح عدالته وهذا أيضاً من ذكر الله، وكل شيء يمت إلى القرآن وإلى الله عز وجل بصلة من ذكر لآياته الكونية، ومن ذكر لكتابه الكريم، و لأحاديث رسول الله، لبيان حكم فقهي، لآية دقيقة، كله من ذكر الله لذلك قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

[سورة الأحزاب: 41]

الأمر في كتاب الله يقتضي الوجوب :

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

[سورة البقرة: 198]

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

[سورة آل عمران: 191]

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾

[سورة النساء : 103]

هذه كلها أوامر، والأمر في كتاب الله يقتضي الوجوب، والعامة توهموا أن الأوامر صوم، وصلاة، وحج، وزكاة، لا يا أخي، أية آية في كتاب الله صيغت صياغة أمر فهي أمر إلهي يقتضي الوجوب، قال لك:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾

[سورة الأحزاب: 41]

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾

[سورة البقرة: 152]

قال ابن عباس رضي الله عنهما: أي في الليل والنهار، وفي البر والبحر، والسفر والحضر، وفي الغنى والفقر، وفي المرض والصحة، وفي السر والعلانية.

صفات المؤمنين و المنافقين :

وذم الله تعالى المنافقين فقال:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[سورة النساء: 142]

ومن صفات المنافقين أنهم لا يذكرون الله إلا قليلاً، ومن صفات المؤمنين أنهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وقال عز وجل:

﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنْ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنْ الْغَافِلِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 205]

﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

[سورة العنكبوت: 45]

الإكثار من ذكر الله أعظم عمل في الأرض :

و أعظم عمل في الأرض أن تكثر من ذكر الله، وقال عليه الصلاة والسلام:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

((وبرئ من الكبر من حمل حاجته بيده))

[ورد في الأثر]

فعندنا قواعد مادام قد أدى زكاة ماله فلا يسمى بخيلاً، ما دام قد حمل حاجته بيده فلا يسمى متكبراً، مادام ذكر

الله كثيراً فلا يسمى غافلاً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "له وجهان أحدهما أن ذكر الله تعالى لكم أعظم من ذكركم إياه هذا معنى، والمعنى الآخر أن ذكر الله أعظم من كل عبادة سواه، وأعظم عبادة أن تذكر الله سبحانه وتعالى لنفسك وللناس لأنك إذا ذكرت الله للناس وأحييت واحداً فكأنك أحييت الناس جميعاً"، والآن إنسان يؤمن ويستقيم ويتوب تجد أن زوجته لحقت به وأولاده، وجيرانه، وأصحابه، وأقرباءه، وأخته، وصهره، كان واحداً فأصبح خمسة عشر، قال تعالى:

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴾

[سورة المائدة: 32]

وسيدنا النبي صلى الله عليه قال:

((ذاكر الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم))

[أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر]

العمل الطيب ينهى الإنسان عن أعمال كثيرة لا ترضي الله عز وجل :

الإنسان المؤمن جلس في مجلس، وسمع حديثاً يجده حديث أموات، وكله شرك بالله، وكله حسد، وهذا الحديث كله باطل، والموضوع سخيف دنيء، قذر، ومزاح منحط، وهو عندئذٍ يشعر بطهارته، وبسمو نفسه، كشجرة خضراء نضرة وسط هشيم محترق.

((وذاكر الله في الغافلين كالمقاتل بين الفارين))

[شعب الإيمان عن عبد الله بن عمر]

((أنا مع عبدي ما ذكرني))

[تفسير ابن كثير عن أبي هريرة]

هنا ما مصدرية ظرفية أي أنا مع عبدي مدة ذكره لي، وتحركت شفتاه بي، وقال عليه الصلاة والسلام:

((ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل –هذا اللسان صباحاً ومساءً وظهراً في البيت والعمل، وفي الراحة، و النزهة، يجب أن يكون رطباً بذكر الله– قالوا يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله، قال: ولا الجهاد في سبيل الله))

[مالك عن معاذ بن جبل]

((من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل))

[الطبراني عن معاذ بن جبل]

((سئل رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل))

[الطبراني عن الحسن]

((من أصبح وأمسى ولسانه رطب من ذكر الله يمسي ويصبح وليس عليه خطيئة))

[أبو القاسم الأصبهاني في الترغيب والترهيب من حديث أنس]

هذه لها معنى، أقول الله الله واعمل خطيئة تذهب، لا، إذا ذكرت الله لا تفعل خطيئة بعدها لأنك دخلت في حصن، وإذا ذكرت الله خشيته، وإذا ذكرت الله أحببت طاعته، وتمنيت قربه، وإذا ذكرت الله تباعدت عن المعاصي، و إذا ذكرت الله فليس عليك خطيئة، فإذا الإنسان ذكر الله وفعل خطيئة لا تؤثر، لا، إذا ذكر الله لا يفعل خطيئة، ويوجد أحاديث دقيقة سيدنا رسول الله يقول – لما سيدنا عثمان رضي الله عنه جهز جيش العسرة وحده، هناك إنسان عمل حساباً دقيقاً عن عملة اليوم حوالي ستة ملايين ليرة دفع وحده – "اللهم إني راض عن عثمان فارض عنه"، وقال أيضاً: "ما ضر عثمان ما فعله بعد اليوم"، يوجد أناس أفقهم ضيق أن سيدنا عثمان بعد هذا اليوم لو فعل المعاصي فإنها لن تضره، لا، ليس هذا هو المعنى، بعدما فعل هذا العمل العظيم، وأقبل على الله ذلك الإقبال الكبير، واصطبغت نفسه بكمال الله عز وجل، لم يفعل شيئاً بعد اليوم، جرب اعمل عملاً طيباً فهذا العمل الطيب نهاك عن أعمال كثيرة لا ترضي الله عز وجل:

((لَذِكْرُ اللهِ بالغَدَاةِ والعَشِيّ أَفْضَلُ مِنْ حَطْمِ السُّيُوف فِي سَبيل اللهِ ، ومِنْ إعْطَاءِ المَال سحا))

[ابن شاهين في الترغيب عن ابن عمرو]

و:

((أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي ملأ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أخلاق الله عز وجل :

أنت تكلم عن الله عز وجل وتجاهل نفسك من أنت؟ كلما عرفت الله عز وجل تضاءلت نفسك، وكلما تعرفت إلى الله شعرت بصغرك، و النبي الكريم كان يقول: "اللهم أرني بعين نفسي صغيراً" الأنا كما يسميها علماء النفس عند الكافر متضخمة تضخماً سرطانياً، الأنا عند المؤمن متضائلة، ذاب في معرفة الله، فلذلك الإنسان إذا ذكر الله عز وجل في نفسه ذكره الله في نفسه، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه، إذا ذكرني بين عشرة من الطبقة الوسطى في المجتمع أنا أذكره بين مئة من الطبقة العليا من المجتمع، وإذا ذكرني بين أناس لا شأن لهم أذكره بين أناس لهم شأن، وإذا ذكرني بين المؤمنين ذكرته عند النبي صلى الله عليه، فالنبي ﷺ ترفع له أعمالنا، والله عز وجل يبلغه إياها.

((يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ ذَكَرْتُهُ فِي ملأ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هذه أخلاق الله عز وجل، وقال عليه الصلاة والسلام:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً :

والله الذي لا إله إلا هو لأن تسقط من عينيك مثل رأس ذبابة من دمع خير لك من الدنيا وما فيها، لوحدك في البيت فتحت المصحف وقرأت، ونزلت دمعة على خدك، فهذه الدمعة خير لك من الدنيا وما فيها، وهي تعني أشياء كثيرة، تعني أنك تحب الله، وتعني أنك تخافه، و ترجو رحمته وتخشى عذابه، وأنك مؤمن.

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِي اللَّه عَنْه مَا شَيْءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِي اللَّه عَنْه]

خير اسم تفضيل هي أخير لكثرة استعمالها عدلوا عنها إلى خير، كلمة خير تعني أخير، وكلمة شر تعني أشر. هذا الحديث لو ذكرته آلاف المرات لا أرتوي منه:

((يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ))

[الدارمي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

التفت إلى الله بكليتك، البيت سوف يتأمن و الله كريم، والزوجة صالحة سوف تتأمن، والعمل المريح سوف يتأمن، والدخل الكافي سوف يتأمن، فمن جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها، أنت تلتفت إليه فهل يجعلك قلقاً على الدنيا؟ أيكون هذا؟

"أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمكِ فاستخدميه وأما من خدمني فاخدميه"، تلتفت إلى الله عز وجل، وتحضر مجلس علم، وتقرأ كل يوم جزءاً، وتصلي في المسجد الصبح حاضراً، وتسعى إلى الخير، وتدعو إلى الله، وتنفق من مالك، وتبقى في الدنيا وراء الناس؟ حاشا لله أن يجعلك قلقاً على الدنيا.

"كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك فيما تريد، وإذا لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، وإن لم ترضَ بما قسمته لك لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، اطلبني تجدني فإذا وجدتني تجد كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء". ابن آدم أطع

ربك تكون عاقلاً، أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً:

((... مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ وَفَضْلُ كَلامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِه))

[الدارمي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

بعض الآثار المتعلقة بالذكر :

وأما الآثار المتعلقة بالذكر فقول الفضيل: "بلغنا أن الله عز وجل قال: عبدي لا تعجز عن ركعتين قبل الفجر أكفك النهار كله".

فإذا افتتحت نهارك بركعتين ذكرت الله فيهما أكفك النهار كله، وقال بعض العلماء "إن الله عز وجل يقول: أيما عبد اطلعت على قلبه فرأيت الغالب عليه التمسك بذكري إلا توليت سياسته، وكنت جليسه ومحادثه وآنسه"، وقال سيدنا الحسن: " الذكر ذكران، ذكر الله بين نفسك وبين الله، ما أعظمه أعظم أجره! وأفضل من ذلك من ذكر الله عندما حرم الله تعالى ".

فإذا واجهتك معصية قلت: إني أخاف الله رب العالمين، وإن كنت جالساً مع أناس فخاضوا في غيبة فذكرت الله فسكتوا، أو قمت من مجلسك، فشاهدت أناس ضالين مضلين فابتعدت عنهم، فأعظم أنواع الذكر أن تذكره عند المعصية، حتى إن جنيداً رضي الله عنه سئل من هو الولي؟ أهو الذي يطير في السماء؟ قال: لا ذلك الطير، قالوا: أهو الذي يمشي على وجه الماء؟ قال: لا، الولي الذي تجده عند الحلال والحرام.

والآن تبين معنا أن أعظم أنواع الذكر أن تذكر الله عز وجل أمام معصية وتقول: إني أخاف الله رب العالمين، وسيدنا يوسف هكذا فعل هم بدفعها، وذكر الله عز وجل وقال إني أخاف الله، فجعله الله عزيز مصر، و رفعه الله في الدنيا والآخرة.

ويروى أن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكر الله سبحانه وتعالى، وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: "لا يتحسر أهل الجنة على شيء إلا شيئاً واحداً– هو في الجنة جالس في مقام عظيم في مقعد صدق، وفي قصور، وعلى ضفاف الأنهار أمام الحوريات – إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله فيها، هذا ما سيكون فاتعظوا بما يكون قبل أن يأتي ما سيكون".

والحمد لله رب العالمين

الدرس 10 : فيما لايكره للمصلي....فضل مجالس الذكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

ما لا يكرِه للمصلي فعله :

1 . شد وسطه بحزام له أهداف عادية :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع الفقه إلى ما لا يكره للمصلي فعله، أي هناك أشياء إذا فعلها المصلي لا كراهة فيها مثلاً لا يكرِه له شد وسطه بحزام له أهداف عادية، إن كان الإنسان في الحج وفي هذا الحزام يضع ماله، وهناك حزام صحي يقي البطن من البرد أحياناً، وهناك نوع من اللباس يتممه الحزام، فالمصلي لا يكره له شد حزام على وسطه.

2 . التقلد بسيف :

ولا تقلد بسيف، يتقلد سيفاً ليس مكروهاً ونحوه.

3 . التوجه لمصحف :

ولا توجه لمصحف فلو أن أمامه مصحفاً وصلى وراء المصحف لا شيء عليه.

4 . الصلاة أمام سيف أو ظهر قاعد يتحدث :

أو سيف معلق في حائط، أما إذا صلى أمام سيف أو ظهر قاعد يتحدث – أنت صليت في المسجد وأمامك

إنسان قاعد ولكن لك ظهره ومادام ظهره لك فهو ستر لك – أو ظهر قاعد يتحدث.

5 . الصلاة أمام شمع أو سراج :

شمعة تشتعل أمامك لا شيء عليك، أو سراج.

6 . السجود على بساط فيه تصاوير يداس عليها :

السجود على بساط فيه تصاوير، و هذه الصور التي على البساط في العادة أنه يداس عليها إذاً هي ممتهنة لا شيء عليك.

7 . قتل حيةٍ أو عقربٍ خاف أذاهما وهو في الصلاة :

وقتل حيةٍ أو عقربٍ خاف أذاهما وهو في الصلاة.

8 . نفض الثوب كي لا يلتصق بالجسد أثناء الركوع :

ولا بأس بنفض ثوبه كي لا يلتصق بجسده بالركوع، فالإنسان إذا لبس ثوباً وكان رقيقاً، و رفع والتصق بظهره، وصار منظره مزعجاً جداً، وهذا الثوب وصف عورته بالكامل، فيجب على الإنسان أن يهتم ينفض ثوبه إذا وقف من الركوع، فلا بأس بنفض ثوبه كي لا يلتصق بجسده بالركوع.

9 . مسح جبهته من التراب :

إذا صلى على التراب وعلق تراب على جبهته ومسح جبهته فلا شيء عليه، طبعاً إذا كان ببقاء التراب يوجد انزعاج وتشويش.

10 . النظر بمؤق العين من غير تحويل الوجه :

ولا بالنظر بمؤق عينه، أي مؤق العين انحرف قليلاً، كأن يكون ابنه على اليمين ويوجد مدفأة فنظر هكذا لا شيء عليه من غير تحويل الوجه.

11 . الصلاة على الفرش والبسط والأفضل الصلاة على الأرض :

ولا بأس بالصلاة على الفرش والبسط واللبود، والأفضل الصلاة على الأرض أو ما تنبته، ولكن يجب أن يكون الفراش أو البساط أو اللبد بثخانةٍ معقولة بحيث تحس من خلالها بقساوة الأرض، أما إذا كانت سميكةً ووضعت يدك فيها فغارت فهذه لا يجوز أن تصلي عليها، لكن إسفنجاً سماكته تقدر باثنين سنتمتر – أحياناً في الصيف لا يوجد سجاد في البيت حتى بالركوع والسجود لا يشعر بقسوة الأرض– لا يوجد مانع، إن الله غني عن تعذيبنا.

12 . تكرار السورة في الركعتين في النفل :

ولا بأس بتكرار السورة في الركعتين في النفل، كررتها أو قرأتها في كل ركعة هي نفسها في صلاة النفل لا شيء عليك، هذه التي إذا فعلها المصلي فالأغلب أن الله سبحانه وتعالى لا يحاسبه على شيء.

ما يوجب قطع الصلاة أو تأخيرها :

1 . استغاثة ملهوف بالمصلي :

والآن يوجد موضوع دقيق جداً فيما يوجب قطع الصلاة، هناك أناس جاهلون، لي قريب و زوجته تعسرت بالولادة فأخذها إلى المستشفى وليس في المستشفى طبيبة، فاتصلوا بالطبيبة هاتفياً وأخبروها أن الحالة خطيرةٌ جداً، فقالت: سوف أتوضأ وأصلي وآتيكم فوراً، هذه الطبيبة ليست فقيهة ينبغي أن تترك الصلاة وتصلي بعد الولادة ولو فاتها العصر، والآن فصل فيما يوجب قطع الصلاة أو تأخيرها، قال: يجب وليس يجوز يوجد فرق بين يجب ويجوز، يجب قطع الصلاة باستغاثة ملهوف بالمصلي، إنسان وقع في خطر وأصبح على وشك الهلاك فاستغاث بالمصلي والمصلي في خشوع، أي خشوع هذا ولم خلقت أنت في الحياة؟ من أجل العمل الطيب، فالشرع يأمرك أن تقطع الصلاة ولو كنت في الفرض.

قال: الاستغاثة استغاثة ملهوف بالمصلي، مثلاً لو تعلق به ظالم وهذا المصلي بإمكانه أن يخلصه من هذا الظالم طبعاً يجب أن يقطع صلاته، أو وقع في ماء وكان على وشك الغرق تصلي على كتف نهر ورجل وقع في النهر واستغاث بك، تقطع الصلاة فوراً، أو طال عليه حيوان، إذا كان هناك طفلاً في حديقة وهجم عليه حيوان عقور ففزع وأنت تصلي تقطع الصلاة وتنقذ الطفل.

والآن النقطة الدقيقة إذا استغاث هذا المستغيث بالمصلي أو أنه استغاث بغير المصلي وسمعه المصلي فينبغي له أن يقطع صلاته تحرزاً من أن يكون هذا المستغاث لم يسمع، وهذه نقطة إضافية في الموضوع.

قطع الصلاة لا يجوز إلا لضرورة :

لكن المصلي لا ينبغي له أن يقطع صلاته إذا ناداه أحد أبويه، هنا يوجد موضوع دقيق سوف أفصله لكم.

ولا يجب قطع الصلاة بنداء أحد الأبوين من غير استغاثة، الأم جالسة في غرفة ثانية وأنت تتم صلاتك يا سعيد وأنت في الفرض لا يجب أن تقطع الصلاة لنداء أحد الأبوين لأن قطع الصلاة لا يجوز إلا لضرورة.

قال الطحاوي: هذا في الفرض وإن كان في نافلة فيوجد حكم آخر إذا كنت تصلي الفرض وناداك أحد والديك فلا ينبغي لك أن تقطع الصلاة، لكن إذا كنت في نافلة فإن علم أحد أبويك أنك في صلاة وناداك لا بأس بألا تجيبه إذا كنت في الصلاة وهو يعلم أنك في الصلاة وناداك وأنت في الصلاة لا ينبغي لك أن تجيبه، وإذا كنت في نافلة وأنت تصلي النافلة ولا يعلم أبوك أنك في صلاة وناداك أجاز الفقهاء أن تقطع الصلاة لتجيب والديك، فكم للأب من حق كبير على الابن.

2 . يجوز قطع الصلاة لسرقةٍ تخشى على ما يساوي درهماً :

ويجوز قطعها ولو كانت فرضاً لسرقةٍ، تصلي في المحل بزاوية لا أحد يشاهدك، مرّ شخص وأخذ حاجة وإن كنت في الفرض لك أن تقطع الصلاة لتمنع هذا السارق، الحقيقة هنا الموضوع دقيق قد يقول قائل: ليس له قيمة، الحقيقة ليس الموضوع أن هذا الشيء الذي سرق له قيمة أو عدم قيمة، إلا أن المال الذي يسرق إن كان في موضع غير حرزٍ يأثم صاحب المال إذا سرق لأنه سبب لإنسان أن يقع في جريمة السرقة، وأحياناً الإنسان يتوهم أنه ما عمل شيئاً وضع ماله في مكان، في مصنع، فالذي يُسرق يحاسب على أنه ساعد السارق على السرقة، فصاحب المال آثم، صاحب المال إذا وضعه في مكان غير أمين وسرق هذا المال فهو آثم، لأنه سبب

حدوث هذه الجريمة، أحياناً يكون هناك باعة لا يوجد عندهم أمانة، فالشخص إذا لم يدقق فهو آثم أيضاً لأنه سبب أن البائع يأكل مالاً حراماً.

ويجوز قطع الصلاة لسرقةٍ تخشى على ما يساوي درهماً، ليس الموضوع موضوع درهم بل موضوع لا ينبغي للإنسان أن يكون سبباً في ارتكاب جريمة السرقة ولو كان درهماً لأنه مال، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((قَاتِلْ دُونَ مَالِكَ حَتَّى تَكُونَ مِنْ شُهَدَاءِ الآخِرَةِ أَوْ تَمْنَعَ مَالَكَ))

[أحمد عَنْ قَابُوسَ بْنِ مُخَارِقٍ عَنْ أَبِيهِ]

3 . المرأة لها حق أن تقطع صلاتها إذا خافت على طعام أن يتلف :

والآن درجة أدنى لو أن قدراً على النار فيه حليب وشعر المصلي أو شعرت المصلية برائحة والقدر فيه ثمانية كيلو وعندهم مساءً سهرة، الحليب فار، يجوز أن تقطع صلاتها من أجل إنقاذ هذا المال، لو أنها قالت لزوجها: الحليب فار أحضر غيره، زوجها قد لا يتحمل هذا الكلام، كنت أصلي، يجوز أن يقول: كلمة قاسية، فالمرأة لها حق أن تقطع صلاتها إذا خافت على طعام أن يتلف، أو خافت على ولدها وولدها في غرفة فيها سكين، أو مدفأة، أو مروحة وضع يده عليها، والأم إذا قطعت صلاتها لا شيء عليها.

4 . يجوز قطع الصلاة لمنع سرقة :

هناك حالة ثانية وهي من مستوى حفظ المال، أنت في محل تجاري تصلي يوجد محل مقابلك وليس محلك، جاء شخص وهم بسرقة شيء من هذا المحل، يجب أن تقطع صلاتك لمنع هذه السرقة، وهذا حكم الشرع.

5 . يجوز قطع الصلاة خشية ذئب ونحوه :

يجوز قطعها خشية ذئب ونحوه، إنسان يصلي في البرية فلاح له شبح ذئب، أو كلب، فالصلاة انتهت، ما معنى انتهت؟ تشوش لم يبقَ وجهة خفت، أفعى، أو ذئب، أو عدو، فإذا حصل قلق وخوف لك أن تقطع الصلاة. أو راعي خشي ذئباً على غنمه، لا على نفسه بل على غنمه من باب حفظ المال.

6 . يجب قطع الصلاة لإنقاذ أعمى من خطر ما :

أو أنت تصلي فأعمى أمامه حفرة وليس منتبهاً فطبعاً من البديهي أن تقطع الصلاة لإنقاذ هذا الأعمى، أو يمشي على سطح وغير منتبه، أو على درج ولا يوجد سور فالبناء أول إنشائه يجب أن تقطع الصلاة.

7 . القابلة إذا خافت على المرأة التي تولدها :

الآن القابلة إذا خافت على المرأة التي تولدها، قالت لها: أنا سوف أصلي العصر، الطلق تابع في أثناء الصلاة والمرأة لا يوجد عندها أحد، وكاد الجنين أن يخرج منها، فالقابلة عليها أن تقطع الصلاة، والأصح من ذلك ألا تصلي وأن تؤخر الصلاة إلى ما بعد الولادة.

8 . المسافر إذا أصابه الخوف :

والآن المسافر إذا أصابه الخوف يجوز له تأخير الصلاة والوقتية، يمشي في فلاة فيها قلق وهو خائف، وكذلك المقاتلون في أثناء الحرب في الجبهة خائفون من كمين، من لغم، أو من استطلاع العدو فيجوز لهم تأخير الوقتية.

9 . تأخير قضاء الفوائت لعذر :

ويجوز تأخير قضاء الفوائت لعذر، ويجب أن يصلى فور التذكر فإذا كان في أمر قاهر يجوز له تأخير قضاء الفائتة.

أما تارك الصلاة عمداً، كسلاً، فيضرب ضرباً شديداً حتى يسيل منه الدم، ويحبس، وكذلك تارك الصوم أيضاً كسلاً، أما إذا ترك الصوم أو الصلاة استخفافاً وإنكاراً وجحوداً فهذا هو الكفر إن لم يسبقه إيمان، وهذا هو الارتداد إن سبقه إيمان، انظروا دقة الشرع في قطع الصلاة، الشرع الإسلامي يسع الحالات كلها، فالإنسان إذا اتصل بالله عز وجل صار على مستوى عال جداً من السمو النفسي، صار إنساناً إنسانياً، ولذلك فالعبادات في خدمة إنسانيته، في خدمة سموه، في خدمة أهدافه النبيلة.

* * *

للذكر معنى واسع جداً :

والآن إلى فصل من إحياء علوم الدين، وصلنا في الدرس الماضي إلى فضيلة الذكر، وبينت لكم كيف أن الذكر له معنى واسع جداً، فتفسير آية ذكر، وتفسير حديث ذكر، وتلاوة القرآن ذكر، وأمر بالمعروف ذكر، ونهي عن المنكر ذكر، وتوضيح آية كونية تظهر تعظيماً لله عز وجل ذكر، وأي حديث هدفه تقريب الناس إلى الله عز وجل ذكر، وقد قال تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِي ﴾

[سورة البقرة: 152]

((أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب : 43]

فضيلة مجالس الذكر :

اليوم درسنا فضيلة مجالس الذكر، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ الأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ أَنَّهُ شَهِدَ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: مَا مِنْ قَوْمٍ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا حَفَّتْ بِهِمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

[ابن ماجة عَنِ الأَغَرِّ أَبِي مُسْلِمٍ]

نصيحة كريمة من النبي عليه الصلاة والسلام، في بيتك، مع أهلك، مع أصحابك، مع جيرانك، إذا كان هناك سهرة أسبوعية، وليمة، نزهة في السوق، وأنت في سيارة عامة إلى جانبك إنسان وجدت فيه الصلاح والحياء حدثه عن الله عز وجل، و اجعل الذكر هدفك الأول، لأن أي حديث آخر يسبب انقباضاً للناس، أما ذكر الله فيسبب راحةً، وقول الله عز وجل:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾

[سورة الرعد: 28]

إن القلوب لتصدأ، فالإنسان في عمله التجاري حسابات، وصفقات، ومراسلات، وبضاعة لم تبع، وبضاعة بيعت، حديث ليس له نهاية يقول لك: والله صدأ قلبي، كلام صحيح لأن الدنيا طريق مسدود، في النهاية يوجد كسب للمال، وفي النهاية يوجد إنفاق للمال، تأكل وتشرب، أما إذا ذكرت الله عز وجل:

((إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد إذا أصابه الماء، قالوا: يا رسول الله فما جلاؤها؟ قال: كثرة ذكر الله))

[ابن عدي عن ابن عمر]

((مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللَّهَ لا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلا وَجْهَهُ إِلا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

طرق الدنيا كلها مسدودة تنتهي بالموت :

إنسان يذهب إلى سهرة، يذهب إلى مكان، لكن إذا جاء إلى مسجد ماذا يبتغي من ذلك؟ لا يوجد كرسي مريح تجلس عليه، ولا يوجد ضيافة نفيسة تقدم لك، لا يوجد إلا ذكر الله عز وجل، فعلاقة مادية لا يوجد، بيع شراء لا يوجد، أنت تأتي إلى هنا لا ترجو إلا رضا الله سبحانه وتعالى، وهذا الذي يتكلم لا يرجو إلا رضا الله عز وجل ولذلك قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾

[سورة الكهف: 28]

ويقول عليه الصلاة والسلام:

((مَا مِنْ قَوْمٍ جَلَسُوا مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ إِلا رَأَوْهُ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

سهرنا سهرة وذلك حتى الساعة الواحدة، وتكلمنا بأسعار العملات، وإلى أين ينتهي هذا الارتفاع، سهرنا سهرة تحدثنا عن البيوت، وأيهما أصح نركب الشوفاج مخفياً أو ظاهراً؟ صار نقاش حاد قالوا: أن الظاهر يدفئ أكثر وتصليحه أسهل، وأناس قالوا: المخفي أفضل وأجمل، وهذا الموضوع حتى الساعة الواحدة مساءً، ماذا استفدنا من

هذه الموضوعات؟ موضوعات كثيرة جداً وقد تكون استفادة الإنسان منها محدودة جداً، ولذلك يوجد حديث آخر:

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرٍ إِلا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

جربوا جلسة فيها ذكر لله عز وجل، وجلسة فيها ذكر للدنيا، طرق الدنيا كلها مسدودة تنتهي بالموت ولو أنها مفتحة على مصارعها فإنها تنتهي بالموت، ومهما علا الإنسان لابد من ساعة يفقد كل ما كسبه من الدنيا، في لحظة واحدة.

الابتعاد عن مجالس الغافلين و التمسك بمجالس الذاكرين :

هناك نص عثرت عليه وهذا النص منسوب إلى سيدنا داود فيما ترويه الكتب قال: "إلهي إذا رأيتني أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلي" - وكل إنسان له مجالس للذكر جالس عند بيت خالته، جهلة، يوجد اختلاط، وحديث عن الدنيا، وهم من أهل الترف والدنيا، وحديثهم عن الدنيا، والطعام، والنزهات، وعن فلان وعلان - فإذا الإنسان ذهب إلى هذا المجلس فهذا مجلس غفلة، ويخرج منه بانقباض، ويخرج منه بأنه أنت فوق هذا المستوى صغرت، أحياناً الإنسان يدخل إلى مجلس فيكبر وأحياناً يصغر، إذا كان مؤمناً ودخل إلى مسجد غافلين يصغر، يقيّمونه من دخله فقط، وإذا كان موظفاً، يقولون له: ما معاشك؟ يقول: ألفان، فيقال له: ألفان فقط لا يكفيان يومين، ما هذه الوظيفة؟ هذا هو الغافل يُقَيم الناس من المال فقط، فإذا الله عز وجل بارك بالألفين أفضل من مليونين، إذا كانت الصحة طيبة، و هناك اقتصاد، وتفاهم زوجي، وأولاد أبرار، ونظافة، وترتيب، فهذان الألفان أفضل من مليونين مع شقاق، مليونان مع مرض عضال، ومع زوجة شرق والزوج غرب، و مع معصية، لا يكفيان شيئاً، فإذا الإنسان دخل إلى الغافلين يصغر، وإذا جلس مع الذاكرين يكبر، ويشعر أنه استفاد، وانتعش قلبه، والنبي صلى الله عليه كان يقول:

((إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

الغني المؤمن قوة للمسلمين :

طبعاً إذا كان النبي الكريم ذكر الأغنياء فالمقصود بهم غير المؤمنين، لأن الغني المؤمن يشهيك الغنى، تواضع على سخاء، وعلى اعتدال، و قوة للمؤمن، و الغني المؤمن قوة للمسلمين، وتحتاج أحياناً مساعدة للإنسان يقول لك: تفضل هذه خمسة آلاف، والله هنيئاً لهذا الغني، وإنسان يريد بيتاً يساعده، وإنسان آخر يريد ديناً فيدينه، فالغني المؤمن على العين والرأس، والحديث عن الغني غير المؤمن مجلسه مجلس ظلمة.

قال سيدنا عمر: "من دخل على الأغنياء خرج من عندهم وهو على الله ساخط"، فعنده بيت مستور، وعنده سجادة وطنية، وثريا صغيرة، فيدخل إلى بيت فينظر أنه ليس عنده شيء أبداً، و الذي عنده لا يذكر، عنده براد ثمنه ألف ليرة فوجد براداً ثمنه يقدر بثلاثة وعشرين ألف ليرة.

"إلهي إذا رأيتني أجاوز مجالس الذاكرين إلى مجالس الغافلين فاكسر رجلي فإنها نعمة تنعم بها علي"، والإنسان يدع وجهته إلى الله عز وجل، و سهراته تكون كلها لله، و إذا كان أقرباؤه من أهل الغفلة لا يزورهم، ليس هذا قطيعة رحم، لا هذا وصله يقطع الصلة بالله عز وجل، من أين يأتيه ألم الرأس؟ من أقربائه.

المؤمن يعظم المؤمن أما الفاسق فيستصغر المؤمن :

إذا وجدك الإنسان صغيراً لا تصاحبه، صاحب إنساناً يراك كبيراً في نظره، فالمؤمن يعظم المؤمن، أما الفاسق فيستصغر المؤمن فلا تصاحبه، ويقول عليه الصلاة والسلام:

((إن أهل السماء ليتراءون بيوت أهل الأرض التي يذكر فيها اسم الله تعالى كما تتراءى النجوم))

[الزهد لابن المبارك عن أبي هريرة]

لو فرضنا إنساناً ركب طائرة وحلق فوق مدينة فماذا يرى؟ هنا ساحة عامة صفراء اللون، وهنا طريق أبيض أوتوستراد، و أثناء الأعياد كل الأبنية الحكومية مزينة، والملائكة إذا نظروا إلى بلدةٍ ليلاً تتراءى بيوت الذكر فيها كما تتراءى النجوم في السماء، بالعكس لو أن الملائكة اطلعوا على بلدة لا يرون تألق الكهرباء بل يرون تألق مجالس الذكر، وأحياناً يضعون على الخارطة بعض المصابيح الكهربائية فتتألق، فلو أن دمشق مثلاً رأتها الملائكة يرون فيها المساجد التي يذكر فيها اسم الله عز وجل متألقة، هذا الحديث لطيف.

وقال سفيان بن عيينة: "إذا اجتمع قوم يذكرون الله تعالى اعتزل الشيطان الدنيا – ليس له عمل– فيقول الشيطان للدنيا: ألا ترين ما يصنعون؟ تقول الدنيا له: دعهم فإنهم إذا تفرقوا أخذت بأعناقهم إليك، وإذا تفرقوا يرجعون إليك عن طريقي أي عن طريق الدنيا"، و هو حوار رمزي بين الدنيا والشيطان.

" عن أبي هريرة رضي الله عنه تعالى أنه دخل السوق مرةً وقال لمن في السوق: أراكم هاهنا وميراث رسول الله ﷺ يقسم في المسجد وأنتم هنا؟ فذهب الناس إلى المسجد وتركوا السوق ولم يروا ميراثاً، فقالوا: يا أبا هريرة لم نرَ ميراثاً يقسم في المسجد، فقال: ماذا رأيتم؟ قالوا: رأينا قوماً يذكرون الله عز وجل ويقرؤون القرآن فقال: ذلك ميراث رسول الله "، فالإنسان إذا كانت له مصلحة، محل تجاري، وصار وقت الدرس فهذا الوقت ليس له وليس وقت بيع وشراء، هذا وقت لله عز وجل، فإذا آثر ما يبقى على ما يفنى فالله عز وجل يبارك له في عمله، ويأتيه الناس أفواجاً بعد الدرس وقبل الدرس.

((فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ هُوَ شَكَّ يَعْنِي الأعْمَشَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ فُضُلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ اللَّهُ أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَ فَيَقُولُونَ تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيَذْكُرُونَكَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لا، فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي، فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَحْمِيدًا وَتَمْجِيدًا وَذِكْرًا فَيَقُولُ فَأَيَّ شَيْءٍ يَطْلُبُونَ فَيَقُولُونَ يَطْلُبُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ لا، فَيَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا قَالَ فَيَقُولُ وَمِنْ أَيِّ شَيْءٍ يَتَعَوَّذُونَ فَيَقُولُونَ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا؟ فَيَقُولُونَ: لا، قَالَ: فَيَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا فَيَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا هَرَبًا وَأَشَدَّ مِنْهَا خَوْفًا قَالَ فَيَقُولُ إِنِّي أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ قَالَ فَيَقُولُونَ فَإِنَّ فِيهِمْ فُلَانًا الْخَطَّاءَ لَمْ يُرِدْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ فَيَقُولُ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ سُلَيْمَانَ عَنْ ذَكْوَانَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَلَمْ يَرْفَعْهُ نَحْوَهُ حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا وُهَيْبٌ حَدَّثَنَا سُهَيْلُ بْنُ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلاً يَبْتَغُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ فَذَكَرَ الْحَدِيثَ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

البقاء في الدنيا محدود أما الآخرة فغير محدودة :

ملخص الحديث أن الإنسان عنده فكرة عن الجنة، وفكرة عن النار، ولكن أؤكد لكم هذه الفكرة لا تعادل واحداً من مليون من الحقيقة، ولا واحداً من مئة مليون، ولا من ألف مليون، ولا ألف مليار، لو أن الإنسان أتيح له جدلاً أن يعرف الجنة على حقيقتها فاستحيا أن يشرب كأس ماء فلا يجد وقتاً لأكل الطعام، ولا للنوم، ولو عرف النار على حقيقتها وكيف العذاب الأبدي فيها لخشي أن يأكل سمسمة من حرام، ولذلك الإنسان إن جاءه ملك الموت يصيح صيحةً لو سمعها أهل الأرض لصعقوا بها لهول الموقف، ويوجد أحاديث كثيرة بهذا المعنى، ومعنى هذا أن الإنسان كلما اجتهد لمعرفة الحقيقة يكون هذا أعون له عن السعي للجنة والخوف من النار. والإمام الشبلي رضي الله عنه قال: قرأت حديثاً عن رسول الله استغنيت به عن أربعين ألف حديث، ما هو هذا الحديث؟

"اعمل له بقدر حاجتك إليه، واعمل للدنيا بقدر بقائك فيها، واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واتقِ النار بقدر صبرك عليها".

هذا حديث جمع كل شيء، يوجد عندك الجنة والنار، والدنيا والآخرة، الدنيا بقدر مقامك فيها، قد تعيش سبعين أو ثمانين عاماً، يقولون: ما شاء الله، وعندما يموت الإنسان بالثمانين يستغرب الناس، أما الآن فيقولون: شبع من عمره، وإذا وصل الإنسان للأربعين ماذا يقولون له؟ على أقصى تقدير يقولون: له عشرون سنة أخرى، معترك المنايا بين الستين والسبعين هكذا قال ﷺ، البقاء في الدنيا محدود، أما الآخرة فغير محدودة: "واعمل للآخرة بقدر مقامك فيها، واعمل لله بقدر حاجتك إليه، واتق النار بقدر صبرك عليها".

العلم والأدب أثمن ما في الدنيا وهذا عطاء الأنبياء :

هذا فضل مجالس العلم أي كلمة من القلب للقلب، إذا الله عز وجل أحب عبداً أسمعه الحق، وما استرذل الله عبداً إلا حظر عليه العلم والأدب، ومعنى استرذله أي رآه شهوانياً، سخيفاً، أرضياً، متعلقاً بحطام الدنيا، وإذا رآه كذلك حظر عليه العلم والأدب، قال تعالى:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً ﴾

[سورة القصص: 14]

أي العلم والأدب أثمن ما في الدنيا، وهذا عطاء الأنبياء، فكل إنسان ينظر عطاؤه من الله من أي نوع؟ من نوع عطاء قارون أم من نوع عطاء الأنبياء؟ إن كان نصيبه من الله عز وجل من نوع عطاء قارون أو فرعون فهذا لا شأن له عند الله، أما إذا كان من نوع عطاء الأنبياء ولما بلغ أشده واستوى أتيناه حكماً وعلما فهنيئاً له؟ لذلك حافظوا على هذه المجالس؟ ولا تدعوها تفوتكم، والإنسان إذا دخل الجنة لا يتألم إلا لساعة مرت لم يذكر الله فيها.

* * *

الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها :

والآن إلى بعض الأحاديث الشريفة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((الرَّوْحَةُ وَالْغَدْوَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))

[مسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

مثلاً ذهبت مع أخ لخدمته، أو ذهبت إلى حضور مجلس علم، رجل جاء من دوما من باص إلى باص، فهذه في سبيل الله، والنبي الكريم يقول لك: "أفضل من الدنيا وما فيها"، من له بيت بعيد عن المسجد لا يتأسف، والله لو علم ماذا ينتظره في الجنة من أجر ومن سعادة لتمنى أن يكون في آخر الدنيا ويأتي لهذا المجلس، والثواب على قدر المشقة، أنا أسكن في زملكا، أو في دوما، أو داريا، أو كفرسوسة، من مكان بعيد نقول: هنيئاً لك لأن أجرك أعظم من أجرنا، على قدر المشاكل، والطريق، والتعب، والمواصلات، فالروحة والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها، إن ذهبت لحضور مجلس علم، أو لتعليم الناس شيئاً من كتاب الله، وإن ذهبت لتعاون أخاً في الله، فالنبي الكريم قال: "والله لأن أمشي مع أخ لي في حاجته خير لي من الدنيا وما فيها".

تعاون إنساناً، أو تعينه، أو تزور مريضاً، أو تساعد إنساناً، أو تغيث مستغيثاً خير لك من الدنيا وما فيها، فالروحة الواحدة، والغدوة في سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها، وبالمناسبة معنى راح أي عاد رجع، أي إذا رجل طرق الباب وقال لك: هنا والدك، تقول له: الآن راح، ما معنى هذا؟ أي أنه في البيت موجود أي الآن جاء، و إذا قال لك: سلم عليه، فهذا اسمه تدليس، هذا كذب شرعاً وصدق لغةً، إذا إنسان لغوي هل أنت كاذب أم صادق؟ الجواب أنت صادق لغةً كاذب شرعاً، فالشرع على المقاصد، فماذا فهم منك هذا الطارق؟ أن أباك ليس في البيت، إذاً هذا كذب لكن النص صحيح إذاً هذا هو التدليس، فالفقهاء قالوا: التدليس أخو الكذب، أخوه تماماً،

صنوه، الغدو والرواح، غدوها شهر ورواحها شهر.

((الرَّوْحَةُ وَالْغَدْوَةُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))

[مسلم عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

حضور مجلس العلم يحيي القلب و يسعد الإنسان :

تقوم، وتلبس، وتهيئ نفسك، وتتوضأ، وتصلي، وتخرج من بيتك لحضور مجلس علم، فلو اطلعت على الغيب لرأيت أن هذا العمل خير من الدنيا وما فيها قال العلماء: ما فيها من ثروات، إذاً الإنسان له حق النفط لوحده شخصياً، كل برميل ثمنه ثلاثة وثلاثون دولاراً وعنده ستة ملايين برميل مثلاً، فلو كانت هذه الحقول لإنسان وليست لدولة، وهذا لحسابه الخاص، قال: الروحة والغدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، لتفسير هذا الحديث في كتاب فتح القدير أشار إلى هذه الناحية، ما فيها من ثروات، ومناجم الذهب والألماس، ومناجم البترول، وحضور مجلس علم خير من الدنيا وما فيها، وحضور مجلس العلم يحيي القلب، وإذا القلب أصبح حياً سعد إلى الأبد.

الرهن :

((بَاب الرَّهْنُ مَرْكُوبٌ وَمَحْلُوبٌ وَقَالَ مُغِيرَةُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ: تُرْكَبُ الضَّالَّةُ بِقَدْرِ عَلَفِهَا وَتُحْلَبُ بِقَدْرِ عَلَفِهَا وَالرَّهْنُ مِثْلُهُ))

[البخاري عن إبراهيم]

فإذا وضع إنسان عندك رهناً – مثلاً فرس– لك أن تركبها بنفقتها وتنفق عليها من مالك، مقابل النفقة تركبها، وإذا رهن عندك مثلاً غنمة لك أن تشرب من حليبها مقابل أن تطعمها، فتركب وتحلب من نفقتها، يوجد عدل، تركبها بنفقتها وتحلبها بنفقتها، ويوجد حديث آخر:

((الرَّهْنُ يُرْكَبُ بِنَفَقَتِهِ وَيُشْرَبُ لَبَنُ الدَّرِّ إِذَا كَانَ مَرْهُونًا))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه]

الرفق و العنف :

والحديث الذي يقول فيه عليه الصلاة والسلام:

((الرفق يمنٌ والخرق شؤم))

[البيهقي عن عائشة]

الرفق يعني اللطف الحسن، والخرق بمعنى العنف، وإذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم باب الرفق.

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهَا: يَا عَائِشَةُ ارْفُقِي فَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا دَلَّهُمْ عَلَى بَابِ الرِّفْقِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

((إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ ، وَالْخَرْقَ لَمْ يَكُنْ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ شَانَهُ))

[البيهقي عن عائشة]

فالعنف بكل الوجوه شائن، قال عليه الصلاة والسلام:

((علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه البيهقي عن أبي هريرة]

فالإنسان على قدر ما كانت القضية كبيرة تحل بالحسنى والاجتماع من دون كلام قاس، والقضية مهما تكن كبيرة تصغر، أما كلمة قاسية واحدة، ضرب على الطاولة، أغلق الباب بعنف فالموقف تفجر، بين زوجين، وشريكين، عود نفسك تتكلم كلاماً لطيفاً حتى في المشكلات التي تعانيها.

" قال عليه الصلاة والسلام:

((الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

أي تجارة فيها حرام، وفيها مادة محرمة، ومواد حرمها الله وأنت تتاجر بها، اضغط مصروفك واقتصد فهذا أفضل لك من بعض هذه التجارة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 11 : صلاة الوتر ....شرح دعاء القنوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

صلاة الوتر :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع الصلاة إلى موضوع صلاة الوتر، والوتر بالفتح والكسر، لك أن تقول: صلاة الوَتر، ولك أن تقول: صلاة الوِتر، لكن القرآن قال:

﴿ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾

[سورة الفجر : 3]

الوتر واجب، وكلمة واجب أي أنه بين الفرض والسنة، فهو أقوى من السنة وأقل من الفرض، ولكن المسافر إذا قصر في صلاته يستطيع أن يصلي الظهر ركعتين فقط، ولا يصلي معها السنن، ويصلي العصر ركعتين، والمغرب ثلاث ركعات، والعشاء ركعتين، ولابد من صلاة الوَتر لأنه واجب، إذاً الوتر صلاة بين الفرض والسنة، وهو ثلاث ركعات بتسليمة، ويقرأ في كل ركعة منها الفاتحة والسورة، ما الفرق بين صلاة المغرب وصلاة الوتر؟ شيئان، الأول: أن صلاة الوتر تقرأ فيها سورة في كل ركعة، في الأولى والثانية والثالثة، في المغرب لا تقرأ سورة بالركعة الثالثة، وفي صلاة الوتر دعاء القنوت، وهذان الشيئان يختلف بهما الوتر عن صلاة المغرب، ويجلس على رأس الأوليين منه، أي يوجد عندنا جلسة أولى وجلسة طويلة، الأولى حتى التشهد والطويلة حتى السلام، ولا يستفتح عند قيامه للثالثة – إذا قام للثالثة لا يقول: سبحانك اللهم، لأن هذه الركعة عبارة عن تتمة لركعتين سابقتين – ولا يستفتح مصلٍّ صلاة الوتر بالركعة الثالثة، وإذا فرغ من قراءة السورة فيها رفع يديه لجانب أذنيه ثم كبر وقنت قائماً قبل الركوع في جميع السنة، أي بعد أن يصلي الركعة الثالثة وينتهي من قراءة الفاتحة وسورةٍ يرفع يديه إلى شحمة أذنيه ويكبر ويدعو دعاء القنوت ولا يقنت في غير الوتر.

والقنوت معناه الدعاء وهو أن يقول: اللهم إنا نستعينك، الاستعانة تعبير عن الافتقار والعبد فقير.

ما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

ما لي سوى قرعي لبابك حيلة فلئن رددت فأي باب أقرع

***

الناس رجلان مؤمن وكافر :

والناس رجلان مؤمن وكافر، وهذا التقسيم الوحيد، المؤمن مفتقر ومتواضع، والكافر متكبر مستغنٍ، المؤمن مفتقر متواضع مصبوغ بالكمال لافتقاره لذي العزة والجلال، بينما الكافر يستغني عن الله عز وجل لكبر في نفسه وباستغنائه يشقى، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[الترمذي عَنِ ابْنِ عُمَرَ]

والآن في الأرض مليون تقسيم، فقراء وأغنياء، العرق الآري، السامي، العرق السكسوني، أي تقسيمات عرقية، وتقسيمات إقليمية، و عشائرية، و قبلية، و قومية، و وطنية، وضمن الوطن الواحد يوجد طبقات، وضمن الطبقة الواحدة يوجد فئات، فالمجتمع الحديث مفكك، قال تعالى:

﴿ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[سورة الحشر: 14]

تحسبهم جميعاً، لو نظرت إلى قلوبهم لرأيت كل واحد من بني البشر المعرضين عن الله عز وجل جزءاً مستقلاً بذاته، لا تعاون، ولا تعاطف، ولا رحمة، ولا شفقة، ولكن المؤمنين كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤْمِنُونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ نَصَحَةٌ مُتَوَادُّونَ، وَإِنِ افْتَرَقَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ، وَالْفَجَرَةُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ غَشَشَةٌ مُتَخَاذِلُونَ، وَإِنِ اجْتَمَعَتْ مَنَازِلُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ))

[الترغيب والترهيب للمنذري، والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

يوجد في قلب المؤمن رحمة، وإنصاف، و حب للخير، و قناعة، فإذا باعك المؤمن يصدقك، ويربح عليك ربحاً معقولاً، لا يستغلك بل يرحمك، وإذا وقعت بين يدي إنسان معرض ورأى أن لك عنده حاجة استغلك أبشع استغلال، فالمؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم.

الاستعانة بالله دليل الافتقار إليه :

اللهم إنا نستعينك فالاستعانة دليل الافتقار إلى الله عز وجل، يا ربي أنا مفتقر إليك، فالمؤمن إذا دخل لحانوته: "اللهم افتح لي أبواب رزقك"، وإذا الطبيب وضع يده على مريض يقول: "اللهم لا علم لي إلا ما علمتني"، وإذا المحامي تسلم قضية: يا ربي ألهمني أن أكون مدافعاً عن الحق، وألا أكون عوناً للباطل، ترى القاضي، والطبيب، والمحامي، والمهندس، وصاحب المتجر، والتاجر، والصانع، حتى يوجد شيء آخر أذكره لكم الآن أن الله سبحانه وتعالى قال:

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾

[سورة المعارج: 23]

وهناك دوام في الصلاة، كيف يداوم الإنسان على الصلاة؟ الصلاة خمسة أوقات يوجد آيات:

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾

[سورة الأنعام: 92]

هذه واضحة أي يحافظ على صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء.

الدعاء صلاة :

ولكن الذين هم على صلواتهم دائمون أي دائمو الصلة بالله عز وجل، قال بعضهم: "الدعاء صلاة"، والنبي عليه الصلاة والسلام في كل حركة و سكنة يدعو الله عز وجل، أي وقف أمام المرآة يمشط شعره فقال: "اللهم كما حسنت خَلقي حسن خُلقي"، إنسان كامل لا يوجد فيه نقص ولا عيب مشين دخل إلى الخلاء فقال: "الحمد لله الذي أذاقني لذته – الطعام – وأبقى في قوته وأذهب عني أذاه".

فتح المفتاح ودخل إلى البيت: "الحمد لله الذي آواني وكم من لا مأوى له"، سافر: "اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد"، أصبح يقول: "أصبحنا وأصبح الملك لله، إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب".

ركب دابة يقول: "اللهم إني أسألك من خيرها ومن خير ما خلقت له، وأعوذ بك من شرها وشر ما خلقت له"، الآن إذا ركب سيارته يقول: "اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما صنعت له، وأعوذ بك من شرها وشر ما صنعت له"، ترى كتاب الأذكار للنووي يجمع أدعية النبي عليه الصلاة والسلام في كل أحواله؛ في صحوه و نومه، وفي عمله و سفره، وجهاده، وعلاقته مع زوجه، و مع أولاده، وجيرانه، خرج من المسجد: "اللهم افتح لي أبواب فضلك"، دخل إلى المسجد: "اللهم افتح لي أبواب رحمتك"، في المسجد لابد من رحمة تتنزل على قلب المؤمن، خرج من المسجد: "يا ربي أعني على تطبيق ما سمعت، افتح لي أبواب فضلك وارزقني عملاً صالحاً يقربني إليك".

الغنى والفقر بعد العرض على الله :

اليوم أكرمني الله فالتقيت مع إنسان شعرت أنه على شيء من الغنى، فقلت: الغنى والفقر بعد العرض على الله، قلت له أيضاً: لو أن الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء، قلت له أيضاً قوله تعالى:

﴿ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾

[سورة الإسراء: 21]

قلت له: "يقول الله عز وجل أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ يقول هذا العبد لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، يقول الله له: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين، إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، يقول لآخر: أعطيتك مالاً فماذا صنعت به؟ يقول: أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي أنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، يقول: أنا الحافظ لأولادك من بعدك".

قلت له: يحشر الأغنياء أربع فرق يوم القيامة؛ فريق جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حلال فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حرام وأنفقه في حرام فيقال: خذوه إلى النار، وفريق جمع المال من حلالٍ وأنفقه في حلال هذا يحاسب، هذا يقال له: قفوه فاسألوه عن كل صغيرة وكبيرة، هل ضيع فرض صلاةٍ أم كان منشغلاً بماله؟ وهل تاه على عباد الله؟ وهل قال جيرانه: يا رب

لقد أغنيته بين أظهرنا فقصر في حقنا؟ هل؟ هل؟ ومازال يسأل ويسأل، قلت له: يقول الله عز وجل: سبحان الله! اللهم ألهمني كل الأحاديث المتعلقة بالغنى، يقول الله عز وجل: "عبدي خلقت لك السموات والأرض و لم أعي بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين؟ عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمت ولا أبالي".

من اتكل على نفسه أوكله الله إياها :

ذكرت أحاديث كثيرة وشعرت أنه حصل تطور جذري في نفسه، فهذه الأحاديث شفاء للقلوب، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، استوقفني هذا كله كلمة: اللهم إنا نستعينك، هناك استعانة، من اتكل على نفسه أوكله الله إياها.

قال طالب: يا رب أنت تعرف أني في الهندسة قوي جداً فالجبر عليك يا رب والهندسة علي فأخذ في الهندسة صفراً وبالجبر نجح، وفي العام الثاني قال: يا رب الهندسة والجبر عليك، الاثنان معاً.

سبحان الله الإنسان عندما يعتمد على شيء من قدراته فالله عز وجل يغار على التوحيد، فلابد أن يؤتى الحذر من مأمنه، فطبيب معه بورد بأمراض الجهاز الهضمي هل يوجد معه قرحة؟ نعم معه قرحة، هو واثق أنه سوف يأخذ احتياطات كافية لصيانة جهازه الهضمي وهذه آية، وطبيب مختص بأمراض القلب هل يصير معه جلطة؟ يعرف أمراض القلب ما أسبابها، فالتوترات العصبية والراحة الجسمية أيضاً هذه آية، دائماً وأبداً من أي مكان أنت مطمئن إليه من هنا تأتي المشكلة، قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنْ اللَّهِ فَأَتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

[سورة الحشر: 2]

التوحيد هو الافتقار إلى الله :

ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، فالتوحيد هو الافتقار إلى الله، فكلما ارتقى الإنسان عند الله يفتقر في نفسه، وكلما هبط في دركات البعد يرتفع في نفسه، إنها علاقة عكسية بين الكبر والجهل، وبين العلم والتواضع، فمن علامات العلماء التواضع، والمتكبر جاهل، قال: يظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، الآن صار جاهلاً، عالم كبير دخل إلى مسجد فوجد شاباً ناشئاً يدرّس، والناس متحلقون حوله ومسرورون، و مقبلون، ومعجبون، فرآها كبيرة أن يهمله الناس و يلتفوا حول هذا الشاب، فجلس يستمع في نصف الدرس، قال له: يا هذا ما سمعنا بهذا الكلام؟ فقال الشاب: أحصلت جميع العلم؟ إذا قال له: نعم يكون كاذباً، قال تعالى:

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[سورة الإسراء: 85]

قال له: لا، قال له: أحصلت شطره؟ قال له: نعم، قال له: هذا من الشطر الذي لا تعرفه، فالإنسان يجب أن يتواضع، و ما من أحد أكبر من أن ينقد، وما من أحد أصغر من أن ينقد، تواضع، أحياناً يدخل مدرس إلى الصف ممتلئاً إعجاباً بشهادته، وذكائه، وشخصيته، فيطرح عليه طالب سؤالاً فيقف حائراً، فيكشفه الله ويفضحه، قال أحد العلماء جلس بمجلس والناس تحلقوا حوله، وشعر أن له مكانة كبيرة، فأراد أن يؤكد لهم اتساع علمه فقال: والله ما سمعت شيئاً إلا حفظته، وما حفظت شيئاً فنسيته، يا غلام هات نعلايَّ، فقال له الغلام هما في رجليك، فنظر فإذا هم في رجليه، ففضحه الله عز وجل في هذا الموقف، الإنسان لا يتكبر قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً قَالَ: إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

الكِبر من الشيطان :

و أعظم إنسان يفتح أكبر بلد يعاديه وليس الشيء سهلاً، فعمر طويل من الحروب، والإخراج، والائتمار من كفار قريش على النبي ﷺ، وحينما دخل مكة فاتحاً دخلها مطأطئ الرأس، ما وجدت موقفاً يهز مشاعر الإنسان كقوله لسيدنا علي وأبي لبابة:

((كُنَّا يَوْمَ بَدْرٍ كُلُّ ثَلاثَةٍ عَلَى بَعِيرٍ كَانَ أَبُو لُبَابَةَ وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَكَانَتْ عُقْبَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: فَقَالا نَحْنُ نَمْشِي عَنْكَ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى مِنِّي وَلا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأجْرِ مِنْكُمَا))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

علي سلخها، علي طبخها، قال عليه الصلاة والسلام: وعلي جمع الحطب، نكفيك هذا، قال: أعلم ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه، هذا قمة المجتمع الإسلامي، و قمة البشرية، فهذه أخلاقه فمن أنت؟ الكبر من الشيطان.

من اعتمد على نفسه فقد خسر خسراناً مبيناً :

اللهم إنا نستعينك، ألا أنبئكم بمعنى لا حول ولا قوة إلا بالله، لا قوة على طاعته إلا به، ولا حول عن معصيته إلا به، إياك نعبد وإياك نستعين، ربي إن لم تصرف عني كيدهن أصبو إليهن، ربي أجنبني وبني أن نعبد الأصنام، أدعية الأنبياء، أحياناً الإنسان يستقيم استقامة تامة، يشعر بنشوة هائلة، شاب في مقتبل حياته يغض بصره، ويتابع دينه، أحياناً يأتيه الشيطان فيقول له: ليس مثلك شاباً، أنت الورع، أنت قوي الشخصية، أنت صاحب الإرادة القوية، ولما صلى نسي قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين، فقد تفتنه امرأة، وأحياناً إذا حصل اعتماد على النفس فهذا هو الخسران المبين.

الهدى خط مستقيم و هو هدى الله عز وجل :

اللهم إنا نستعينك ونستهديك، إن الهدى هدى الله، قال تعالى:

﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[سورة الأنعام: 71]

لا يوجد هدى آخر، كما أنه لا يمر بين نقطتين خطان مستقيمان ولابد من انطباقهما على بعضهما، كذلك ليس في الأرض إلا هدى واحد ما سوى الهدى ضلال، يوجد آية هكذا قال تعالى:

﴿ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّا تُصْرَفُونَ ﴾

[سورة يوسف: 32]

الهدى خط مستقيم، خط آخر لا ينطبق عليه ما اسمه؟ منحنٍ، منكسر، لا يمكن أن يكون الخط الثاني الذي لا ينطبق على هذا الخط مستقيماً، يوجد آية دقيقة بهذا المعنى، قال تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾

[سورة الأنعام: 153]

تصور نقطتين، ويوجد مستقيم بينهما، هذا هو الحق، فممكن أن ترسم مئة خط منحن، ومئة خط منكسر، فالباطل متعدد أما الحق فواحد.

الاستقامة قطعية والانحراف نسبي :

هذا الموضوع يقودنا إلى موضوع آخر فالاستقامة قطعية والانحراف نسبي كيف؟ مستودع للوقود له حالتان؛ إما أنه محكم أو أنه غير محكم، والإحكام حالة واحدة ومعنى هذه الحالة أنك إذا أودعت به ألف لتر وتركته خمس سنوات فالألف لتر تبقى ألف لتر، وهذا معنى أنه محكم، وإذا كان غير محكم فهذه الكمية تفرغ بساعة أو ساعتين، أو شهر أو شهرين، هذا كله غير محكم، وعدم الإحكام نسبي، فبالاستقامة لا يوجد حل وسط، أما بالانحراف فيوجد حل وسط، يوجد زنا ويوجد نظر، ومصافحة، ومغازلة، وشرب خمر، وبيعه، والإعلان عنه، والخطاطون يدخلون في الموضوع، خطاط ورسام، بالسرقة يوجد سرقة ليرة ويوجد ألف ومليون فالانحراف نسبي، والزنا نسبي، والخمر نسبي، أما الاستقامة فتامة، الاستقامة قطعية ذات حد دقيق ولذلك قال ﷺ:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ شِبْتَ، قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلاتُ وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ))

[الترمذي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

ما معنى هذا الكلام، قوم هود شيبوه لا سورة هود؟ لأن فيها آية واحدة قوله تعالى:

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾

[سورة هود: 112]

كأن النبي عليه الصلاة والسلام استنبط من هذه الآية قوله الشريف:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

الآن أكثر كلمة على لسان الناس: أنا لست نبياً، شيء جميل، فلو فرضنا كلفنا ممرضاً أن يضرب إبرة ألا يعقمها وحجته أن يقول: أنا ليست طبيباً؟ هذا لا يصح، فلو جئنا بأعلى طبيب في العالم وهو جراح قلب مفتوح وكلفناه بضرب إبرة، وكلفنا ممرضاً متخرجاً حديثاً بضرب إبرة، فعلى الاثنين أن يطبقا التعليمات نفسها في التعقيم، فالأول أعلم بالعلم أما السلوك فواحد، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين حتى لا يدخل الشيطان على الإنسان ويقول لـه: أنت لست نبياً هذه مرتبة الأنبياء، لا المرتبة بالمعرفة، والإقبال، والشفافية، والفتوح، والرؤية، و لكن الاستقامة واحدة:

((وإنَّ الله أمرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين))

[أخرجه مسلم والترمذي عن أبي هريرة]

توبة الله على العبد أن يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة :

ونستهديك ونستغفرك ونتوب إليك، فموضوع التوبة موضوع دقيق جداً، وربنا عز وجل قال:

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

[سورة التوبة: 118]

فبالمنطق أيهما أولى؟ تابوا فتاب عليهم أم تاب عليهم ليتوبوا؟ بالمنطق: تابوا فتاب عليهم، بمعنى أن الله قبل توبتهم، أما هذه الآية فتاب عليهم ليتوبوا، قال بعض العلماء: توبة الله على العبد أن يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة، تاب عليهم ضيق عليهم، شح السماء، ارتفعت الأسعار ضاقت المكاسب، ضاقت الدنيا، تاب عليهم ليتوبوا، فدائماً وأبداً أريد أن يبقى هذا المعنى في أذهانكم، إذا شحت الموارد فليس هذا الشح عن عجز ولا عن افتقار ولكنه شح فمعالجة، تضيق فمعالجة، الله الغني كن فيكون، ومرة رأيت بأم عيني سنبلة قمح فيها خمس وثلاثون سنبلة أصلها قمحةٌ واحدة، أخذنا سنبلة وعددناها فكانت خمسين حبة، ضربنا خمسين في خمس وثلاثين فكان ألفاً وسبعمئة حبة من حبة واحدة، ذكرت قوله تعالى:

﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً* لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

[سورة الجن: 16-17]

كان في الشام قشاشو ثلج في الخمسينات والأربعينات، نهر يزيد كان عمره ثلاثة أمتار، العتيبة بحيرة ملآنة، أمطار غزيرة جداً، خيرات لا يعلمها إلا الله، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

[سورة المائدة: 66]

تضييق الله على العبد ليس عن فقر ولا عن عجز ولكن عن تربيةٍ و حكمةٍ :

ورغم شح الأمطار الشديد في هذا العام فالله عز وجل أذن للأشجار أن تضاعف ثمرها، فضاعفت ثمرها، وقل سعرها، فأكل الناس جميعاً فاكهةً في هذا الصيف، ما التفسير العلمي لهذه الظاهرة؟ لا أحد يدري، قال لي شخص: لا يوجد ضمان خسارته أقل من خمسين ألفاً، قلت له: ما السبب؟ فقال: إنه اشترى الكيلو بخمس ليرات وتوقع أن يبيعه بعشر، فباعه بثلاث، إنتاج غزير جداً، إذا أعطى أدهش، فكل شيء يحسبه الناس ضيقاً، هذا ضيق تربوي، ضيق معالجة، ضيق ليس عن فقر ولا عن عجز ولكن عن تربيةٍ، وعن حكمةٍ.
يقول أحدهم: أنا ما علاقتي إذا كان الناس فاسقين؟ أنا مستقيم، والله الذي لا إله إلا هو لو أنك أرضيت الله سبحانه وتعالى تماماً لأرضاك تماماً، ولعشت بين الناس وكأنك لست منهم، لعشت في ظروفهم وكأنها لا تؤثر عليك، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، فالتوبة إلى الله، توبوا إلى الله قبل أن يتوب عليكم، إذا تاب عليكم تضطرون إلى التوبة.

بطولة الإنسان أن يكون في الشدة كما في الرخاء :

ونؤمن بك ونتوكل عليك، فسهل على الإنسان بالرخاء أن يكون مؤمناً أما هذا الإيمان فيهتز أحياناً في الشدة، فربنا عز وجل قال:

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنْ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[سورة آل عمران: 179]

بالمنحدر كل أنواع السيارات جيدها وسيئها، الكبيرة والصغيرة، ما كان ذا قوة كبيرة، وما كان ذا قوةٍ ضعيفة، كله ينطلق، ولكن الصعود الشديد يميز، كلهم يدعي حب النبي فلما أحاط المشركون بالمدينة، وجاؤوا قرابة عشرة آلاف، ونقض اليهود عهدهم، وانكشف ظهرهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، انكشف المشركون، أما المؤمنون الصادقون فقال تعالى:

﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾

[سورة الأحزاب: 23]

فالبطولة أن تكون أنت أنت في الرخاء والشدة، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، في دخل محدود وفي دخل غير محدود، إن آتاك الله أولاداً أو لم يؤتك، إن كانت زوجتك على ما يرام أو ليست على ما يرام، هذه هي البطولة.

الخير كله من الله عز وجل :

ونثني عليك الخير كله، الخير كله من الله، نشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يكفرك، إذا التقيت بإنسان فاجر ليس لك الحق أن تصاحبه، والعلماء قالوا: هناك أشياء كثيرة تجرح عدالة الإنسان منه: صحبة الأراذل، والتنزه في الطرقات، والأكل في الطريق، والسير حافياً، والبول في الطريق، والحديث عن النساء، والتطفيف بتمرة، وأكل لقمة من حرام، والصياح في المنزل، ومن أطلق برزوناً - بغلاً - ومن أطلق لفرسه العنان - والسرعة بالسيارة - هذا كله يجرح العدالة، ومن لعب الشطرنج تجرح عدالته، والتطفيف بتمرة، وأكل لقمة من حرام، هذه الأشياء تجرحها، ولكن من عامل الناس فظلمهم، وحدثهم فكذبهم، ووعدهم فأخلفهم، تسقط عدالته، ويوجد فرق بين سقوط العدالة وبين جرحها، قال عليه الصلاة والسلام:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، و وعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

[مسند الشهاب عن علي بن أبي طالب]

ونثني عليك الخير كله، ونشكرك ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

((احثوا التراب في وجوه المداحين))

[رواه مسلم عن المقداد بن الأسود]

وسيدنا الصديق مدح فوقف أرقى موقف، قال: "اللهم أنت أعلم مني من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون – وكان طموحاً – واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تأخذني بما يقولون".

سيدنا عمر مدح فقال له رجل: "ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فنظر فيهم محداً البصر وكأنما يهم بشيء إلى أن قال أحدهم: بلى لقد رأينا من هو خير منك، قال: ومن هو؟ قال: أبو بكر، قال: صدقت وكذبتم جميعاً" عد سكوتهم كذباً قال: "والله لقد كنت أضل من بعيري وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك"، إنصاف لا يوجد نفاق، كان رضي الله عنه منصفاً.

الله عز وجل مالك كل شيء :

ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، لو قال: نعبد إياك لها معنى، لما تقدم المفعول به صار اختصاصاً، وقصر نعبدك وحدك، ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى، هذه الجهود، هذا العمل، قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

[سورة الأنعام: 162]

كم الزكاة يا سيدي؟ قال: عندنا أم عندكم؟ قالوا كيف عندنا أم عندكم؟ قال: عندكم واحد في الأربعين، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، هؤلاء السابقون السابقون، لا يوجد عندهم هذا لي وهذا لله، ماذا أبقيت يا أبا بكر؟ قال: الله ورسوله، أعطاه كل ماله وتخلل بالعباءة.

إن عذابك الجد بالكفار ملحق، وصلى الله على النبي وآله وسلم.

العبرة في القلب وما وعى من حقائق :

والمؤتم يقرأ القنوت كالإمام، لأن القنوت في الوتر ليس جهرياً، وإذا شرع الإمام بالدعاء بعدما تقدم قال أبو يوسف رحمه الله: يتابعونه ويقرؤونه معه، فلو فرضنا الإمام قرأه لأنه عندنا وتر في التراويح، والوتر في التراويح يصلى جماعةً، فإذا الإمام قرأه جهراً يتابعونه ويقرؤونه معه، وإذا قرأه سراً يقرأه هو سراً، و يفضل أن يصلى الوتر في رمضان في التراويح جماعةً وجهراً.

قال محمد: لا يتابعونه ولكن يُؤَمنون، يقولون: آمين، ويوجد رأيان متنوعان، إذا رجل ما حفظه ماذا يقول؟ يقول: اللهم اغفر لي ثلاثاً؛ اللهم اغفر لي، اللهم اغفر لي، اللهم اغفر لي، أو ربنا آتنا في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار، يا رب يا رب يا رب، أي توجه إلى الله عز وجل، وأنا أقترح على الأخ الحاج والمعتمر ألا يحمل دفتراً ويقرأ، ذهب حالك كله، توجه إلى الله عز وجل ادعُ من عندك، لأن الدعاء لو كان بلغة غير فصيحة يصل إلى الله عز وجل، لأن سيدنا هارون أفصح من سيدنا موسى، من كان النبي؟ إشارة دقيقة في القرآن يوجد إشارات دقيقة جداً، المرسل كان سيدنا موسى، والعبرة في القلب وما وعى من حقائق، أنا قرأت حديثاً تأثرت به كثيراً، قال:

((وَمَا أَقْبَلَ عَبْدٌ بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلاَّ جَعَلَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ تُقَادُ إِلَيْهِ بِالْوُدِّ وَالرَّحْمَةِ))

[أحمد عن أبي الدرداء]

المؤمنون الصادقون الورعون الزاهدون ملوك الدار الآخرة :

يمكن أن تتعلم علماً دقيقاً جداً، تحفظ أشياء نادرة، وأن يكون عندك ثقافة واسعة، محفوظات غزيرة، لغة فصيحة، نبرات حادة، لهجة خطابية، قدرات على الإقناع، لكن لا يوجد قلب رغم هذا الضجيج والصياح لا أحد يتأثر بك، لأن النية انتزاع إعجاب الآخرين، وقد حصل هذا، حصل إعجاب ولكن إذا كانت النية هدايتهم، وإنقاذهم، عندئذٍ الله سبحانه وتعالى يلقي في قلوب المؤمنين مودةً ومحبةً لهذا الداعي، فالقضية ليست بالحفظ ولا في الشهرة، أشهر مخلوق من هو؟ الشيطان مشهور جداً في كل لغات العالم، ليست الشهرة مقياس العظمة:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

و كلما رأيت مؤمناً مستقيماً استقامة تامة، وحريصاً على رضاء الله عز وجل، أقول له: أنت من ملوك الآخرة، فالدنيا لها ملوك والآخرة لها ملوك، والمؤمنون الصادقون الورعون، الزاهدون، ملوك الدار الآخرة.

* * *

التهليل :

سوف نأخذ بعض الأحاديث من إحياء علوم الدين من باب الأذكار.

في الدرس الماضي تحدثنا عن مجالس الذكر، وعن فضلها، واليوم في فضيلة التهليل فما معنى التهليل؟ رجل عمل تهليلاً يعتقد الناس عزيمة، التهليل قولك: لا إله إلا الله، فهلل قال: لا إله الله، كبر قال: الله أكبر، دمعز أي: أدام الله عزك، وسبحل قال: سبحان الله، و حوقل قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا اسمه نحت في اللغة، قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل ما قلت أنا والنبيين من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له))

[موطأ مالك عن مالك]

هذه الكلمة الأولى في الكون، لا إله إلا الله، والأديان كلها، رسالات الأنبياء كلهم، ودعوات العلماء كلها، وفحوى دعوة الله سبحانه تعالى لعباده لا إله إلا الله، علاقتكم كلها معي إذاً فاعبدوني، من خلال تفسير جزء عم توصلنا إلى أن هناك ثلاث كلمات تعد الأولى في الإسلام؛ أولاها: لا إله إلا الله، وثانيها: الحمد لله، وثالثها: لا نعبد إلا الله، التوحيد والحمد والعبادة، هذا هو الدين كله.

لا إله إلا الله كلمة التوحيد :

لكن علماء البلاغة يقولون: إن الكلمة إذا كثر استعمالها فقدت معناها، والآن الناس في اللغة الدارجة يقولون: سوف أقتلك، ما معنى أقتلك قتل أي أمات، وأخ قتله أي ضربه، كثرة استعمال هذا الفعل أفقده معناه، والآن إذا أراد الإنسان أن يقول: قتله، يقول: أرداه قتيلاً، و أزهق روحه، وألقاه صريعاً، ولقي نحبه، ومات حتف أنفه، ولابد من استعمال عبارات وكلمات تعني أنه مات، أما قتله باللغة الدارجة تعني أنه ضربه، و كلمة لا إله إلا الله هذه كلمة التوحيد، في أول الإسلام إذا قالها الإنسان مرة كفي، والآن يقولها الناس ليلاً ونهاراً وهم يعصون الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ))

[أحمد عَنْ أَبِي مَالِكٍ عَنْ أَبِيهِ]

فإن لم تحجزك هذه عن محارم الله فأنت لا تقولها ولو قلتها ألف مرة ومرة، تقول في العيد: الله أكبر بصوت مرتفع، وهذا التكبير المشهور والله شيء جميل، هذا شعار الإسلام، ولكن هذا الذي يقول: الله أكبر، لو أنه أطاع مخلوقاً وعصى الله عز وجل ما قالها ولا مرة ولو رددها بلسانه ألف مرة، فهذا هو الفرق بين مسلمي العصر و الصحابة الكرام، قال الرسول ﷺ:

((يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ مِنْ كُلِّ أُفُقٍ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمِنْ قِلَّةٍ بِنَا يَوْمَئِذٍ، قَالَ: أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَكُونُونَ غُثَاءً كَغُثَاءِ السَّيْلِ يَنْتَزِعُ الْمَهَابَةَ مِنْ قُلُوبِ عَدُوِّكُمْ وَيَجْعَلُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، قَالَ: قُلْنَا وَمَا الْوَهْنُ، قَالَ: حُبُّ الْحَيَاةِ وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[سنن أبي داود عَنْ ثَوْبَانَ]

لا تبلغ ما تريد حتى يستوي عندك التبر والتراب :

الذي يعصي الله ويحب مخلوقاً ماذا يرى؟ يرى أن هذا المخلوق أكبر من إرضاء الله عز وجل، إذا زوجته قالت له: اترك هذا الدرس واجلس أما كنت تتعلم إلى الآن؟ هذه الدروس كلها مثل بعضها، فجلس، هذا معناه أن زوجته أغلى عليه من الله عز وجل، فهذا مجلس علم، و مجلس رحمة، فإذا أطاع شريكه بالربا، يقول لك: فيه ربح مئة ألف في السنة ورزق واسع ماذا أفعل؟ إن شاء الله برقبته، قال لي أحدهم: أنا لا أذهب إلى المطعم أبداً لأنهم يبيعون الخمر، وإن شاء الله برقبة شريكي، والله كثيراً نهيته ولم يرضَ، يقول: الحمد لله يأتيني ربح جيد أثناء السنة، وهو يصلي أول إنسان في الجامع على الأذان، ما قال الله أكبر ولا مرة لأنه شاهد التسعين ألفاً أغلى من الله عز وجل، لا تبلغ ما تريد حتى يستوي عندك التبر والتراب، المليون مثل الليرة.

لمن هذا الوادي؟ وادي غنم ثمنه ملايين، قال عليه الصلاة والسلام: هو لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: هو لك، رأى هداية إنسان أغلى من كل الوادي، وكانوا قديماً إذا حلت مشكلة إنسان بمبلغ يقولون له: خذه ولكن صلِّ واحضر معنا، وإذا معلم عنده صانع و كان هناك درساً عند المغرب رجاه أن يحضر هذا الدرس، هو موظف في محل تجاري هلك أن يأخذ نصف ساعة ويحضر الدرس لم يسمح له أبداً، استغلال، دعه يتعلم كلمتين في صحيفتك، لا يرضى، ولا يوجد فيهم خير أبداً.

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّهُ خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ فَقَالَ: مَنْ قَامَ إِذَا اسْتَقَلَّتِ الشَّمْسُ فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ غُفِرَ لَهُ خَطَايَاهُ فَكَانَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ فَقُلْتُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَزَقَنِي أَنْ أَسْمَعَ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهم عَنْهم وَكَانَ تُجَاهِي جَالِسًا أَتَعْجَبُ مِنْ هَذَا فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْجَبَ مِنْ هَذَا قَبْلَ أَنْ تَأْتِيَ فَقُلْتُ وَمَا ذَاكَ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَقَالَ عُمَرُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ رَفَعَ نَظَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ))

[مسلم عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف وإكرام :

قل: لا إله إلا الله، لا يوجد أحد غيره، لا أحد يخيفك، الخير كله منه، وحده يرفع، ووحده يخفض، ووحده يعز، ووحده يذل، ووحده يعطي، ووحده يمنع، ووحده يقبض، ولا يوجد أحد غيره، كل علاقتك معه، ترى المؤمن مرتاحاً، جعل همومه كلها هماً واحداً فكفاه الله الهموم كلها، فالمؤمن عجيب لا يرى رزقه مع أحد غير الله، ولا يرى حياته يقوى على إنهائها أحد، ولا ينهيها إلا الله، فقال النبي الكريم: " كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً"، قلها، من أين تأتي العزة؟ من التوحيد، من أين يأتي الغنى؟ من التوحيد، من أين تأتي الجرأة؟ من التوحيد.

ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في نشورهم، كأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب، ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور.

((عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ) فَأَمَّا الَّذِينَ سَبَقُوا بِالْخَيْرَاتِ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَأَمَّا الَّذِينَ اقْتَصَدُوا فَأُولَئِكَ يُحَاسَبُونَ حِسَابًا يَسِيرًا وَأَمَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ يُحْبَسُونَ فِي طُولِ الْمَحْشَرِ ثُمَّ هُمِ الَّذِينَ تَلَافَاهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ فَهُمِ الَّذِينَ يَقُولُونَ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) إِلَى قَوْلِهِ (لُغُوبٌ)))

[أحمد عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ]

أحياناً الإنسان في الدنيا يشعر بضيق لماذا؟ يذكر أنه سمع خبراً سيئاً، أو يذكر أن ابنه مريض والطبيب متخوف من مرضه، ويشعر بحزن دائم عندما يغلب الحزن على الوعي ويذكر أن ابنه مريض، و أحياناً يكون قد وجد بيتاً مناسباً وبيع البيت يتضايق، وجميع أنواع الحزن في الآخرة معدمة. قال تعالى:

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾

[سورة فاطر: 34]

لا صغيرة ولا كبيرة، لا على ما فات ولا لما سيكون، الحياة لا تخلو من أحزان مهما جهد الإنسان، لكن الجنة تخلو، الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، ودار عطاء، ودار إكرام فقط، ولذلك ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، ولا في نشورهم، فالقبر روضة من رياض الجنة.

أهل لا إله إلا الله ليس عليهم وحشة في قبورهم :

هناك رجل كان له عمل في الشرطة – والقصة قديمة – فصار منازعة بالمقبرة، رجل متوفى من أربعين سنة ويجب أن ينزلوا عليه إنساناً آخر، فتحوا القبر فالميت مثلما هو، وهذا الإنسان ذهب حتى يفصل الموضوع قال لي: نزلت إلى القبر والله الذي لا إله إلا هو كأنه مات البارحة، هو هو ذقنه طويلة قليلاً، الشعر بعد الموت ينمو قليلاً، قال لي: أسبوع ورائحة المسك في يدي، أربعون سنة كما هو الكفن وجده مثل قميص اللوكس رماد أبيض أزاحه جلده هو هو، هذا الرجل إمام وحافظ القرآن الكريم، وكان ورعاً وصالحاً، وهذه القصة تطورت جداً، في السعودية بلغني أنهم نقلوا رفات بعض الصحابة كان الظن أن عملية شكلية أي عملية رمزية فوجدوا بعض الصحابة هم هم، و أجروا حفريات في القادسية فوجدوا بعض أجسام الصحابة كما هي، وفي اليرموك أيضاً، فهؤلاء الذين عرفوا الله تعالى لا يفنون، وليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم، فالقضية قضية هذا القبر وما بعد القبر، والناس كلهم الآن يعيشون لحظتهم، وأهل الهدى يعيشون ماذا سيكون.

سؤال و جواب :

س: وردني سؤال من امرأة تقول: رجل حلف على زوجته ثلاثة أيمان طلاق أن لا تخرج من بيته إلا بإذنه، وعندها طفل صغير خرج من البيت إلى بيت الجيران فذهبت إليه لتحضره فهل وقعت هذه الأيمان الثلاث مع العلم أن الزوج سأل شيخاً فقال له: ادفع كفارة تلك الأيمان؟ وقال له: اذهب واعقد عقداً جديداً لترجع زوجتك

إليك؟

ج: كما قلت سابقاً: هناك طلاق سني وطلاق بدعي، الطلاق السني أن تطلق زوجتك في طهر لم تمسها فيه، وأن تبقى في بيتك تتزين لك ثلاثة قروء، فإذا راجعتها بلسانك أو لمستها بيدك فهذه مراجعة وتعود لك وتحسب طلقة، وإذا مضت العدة ولم تراجعها تملك نفسها فعليك أن تعقد عليها عقداً جديداً، ومهراً جديداً من دون تعقيدات، هذه الطريقة تعيدها ثلاث مرات، والمرة الثالثة تبين عنك بينونة كبرى وهذا هو الطلاق السني.

أما الطلاق البدعي فتقول لها: طلقتكِ، ابن تيمية رضي الله عنه قال: "إذا كان الرجل لا ينوي الطلاق إلا أنه يريد منع زوجته من عمل ما وكان يكره فراق زوجته كفراق دينه، وحلف يمين طلاق فهذا الطلاق لا يقع لأن أصله نية منعها من هذا الشيء"، هذا رأي تأخذ به المحاكم اليوم، طبعاً إذا المرأة ليس لها علاقة بالموضوع إطلاقاً، خلاف نشأ بين شخصين في محل تجاري وحلف بالطلاق فليست طرفاً في هذا الموضوع، أو لا ينوي الزوج تطليقها ولكن ينوي منعها، وكان يكره فراقها كفراق دينه، وفي هاتين الحالتين تنقلب يمين الطلاق إلى يمين عادية توجب الكفارة، كما قال الشيخ المسؤول في هذه الورقة، وعند الأحناف تطلق، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام بلغه أن إنساناً حلف ثلاثة أيمان طلاق في مجلس واحد فغضب غضباً شديداً وصعد المنبر وقال: "أيلعب بدين الله وأنا بين أظهركم" ربنا قال: "الطلاق مرتان"، والثالثة طبعاً طلاق كلي، فأنت جعلته مرةً واحدة أي أنت لم تعبأ بكلام الله، ولم تعبأ بتشريع الله، فثلاثة طلقات في مرة واحدة، و النبي عليه الصلاة والسلام غضب حينما استخدمها بعض الرجال، وأيضاً ابن تيمية يرى أن هذه المرات الثلاثة في حكم المرة الواحدة، وهذا الموضوع راجع إلى أن هذه الزوجة حينما خرجت من البيت أيضاً إن لم تكن تنوي إطلاقاً أن تحنث بيمين زوجها إلا أن حبها لابنها أعماها، وأنساها المشكلة، وخرجت عفوياً، وأغلب الظن أن هذا اليمين لا يقع، والتي تخرج من البيت كي توقع زوجها في حرج، وكي تلعب في عواطفه، وتخلق له مشكلة، فهذه يقع يمينه عليها، وإن لم تكن طرفاً بالموضوع أساساً وكان يكره فراقها كفراق دينه، وكان ينوي منعها فقط ليس غير فإن هذا الطلاق لا يقع وينقلب إلى يمين عادية، توجب التكفير إطعام عشرة مساكين، هذا الرأي الذي تأخذ به المحاكم اليوم، ولكن أحياناً قد يسأل بعضهم هذا السؤال فيقول له: طلقت المرأة ثلاثاً، اختلاف أمتي رحمة، اختلاف العلماء الكبار توسعة على الدين، اتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة، وعندما تسلك سلوكاً مغطى من أحد المذاهب فهو صحيح، أي سلوك عن علم أو عن غير علم مادام عملت هذا العمل وأحد المذاهب مغطى فهذا العمل صحيح، وهذا الشيء يليق بالمؤمنين المعاصرين، أما أن نعطي الحنفية لشافعي فهذه مشكلة، وهذا غلو في الدين، قال تعالى:

﴿ قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾

[سورة المائدة: 77]

صار مشاحنات، وبغضاء، فهل النبي الكريم كان حنفياً أم شافعياً؟ هذا سؤال مهم كلهم أخذ منه.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 12 : السنة المؤكدة والسنة غير المؤكد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

سنة الفجر من أشد السنن توكيداً :

أيها الأخوة المؤمنون، في موضوع الصلاة، وفي موضوع النوافل بالذات، جاء في مراقي الفلاح أنه قد سنَّ سنَّة مؤكدة، ركعتان قبل الفجر، بل إن هاتين الركعتين قبل الفجر من أشد السنن توكيداً، وليس من سنة أشد توكيداً منها، حتى إن الفقهاء يرون أنك إذا دخلت المسجد والإمام يصلي الفرض وتظنه يطيل في القراءة، يجب عليك أن تصلي ركعتين خفيفتين إتماماً للفائدة التي نوه بها النبي ﷺ، ركعتان قبل الفجر وهي أقوى السنن، حتى روى الحسن عن أبي حنيفة رحمه الله تعالى: "لو صلاها قاعداً من غير عذر لا يجوز، والمقصود ركعتا الفجر".

((لا تَدَعُوهُمَا وَإِنْ طَرَدَتْكُمُ الْخَيْلُ))

[أبي داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي في كل الأوقات، في كل الأحوال، وفي كل الظروف، وفي الشدائد لا تدعوهما، وإن طردتكم الخيل، وقال عليه الصلاة والسلام:

((رَكْعَتَا الْفَجْرِ *خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

هناك أخٌ قال لي: سبحان الله، صلاة الفجر في المسجد لها طعم لا أتذوقه في صلاة أخرى، قلت له: إن الله سبحانه وتعالى هكذا يقول:

﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾

[سورة المزمل : 6-7]

ما ينشأ من صلة بين العبد وربه في الليل من نوع خاص، أشد وطئاً، أي أشد تأثيراً، وأقوم قيلاً، أي أصح علماً، أي قد يفتح الله سبحانه وتعالى على قلب المصلي معاني في كتاب الله لم تخطر بباله.

الصلاة مدرسة :

بل إنك إن أردت أن تتعمق في الأمر فالصلاة مدرسة، وإذا تلوت قوله تعالى في صلاتك فربما فهمت من قوله تعالى معاني لا تجدها في أي كتاب:

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 282]

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التغابن: 11]

إذاً رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إذاً سنَّ سنَّةً مؤكدة، ركعتان قبل الفجر، وركعتان بعد الظهر، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، هذه من السنن المؤكدة، ومعنى المؤكدة أن النبي ﷺ صلاها في كل الأحوال، وأربع قبل الظهر أيضاً من السنن المؤكدة، وأربع قبل الجمعة، وأربع بعد الجمعة.

أنواع النفل و السنن المؤكدة و السنن المندوبة :

والآن النفل نوعان: صلاة مؤكدة وصلاة مندوبة، ومعنى مندوبة أن النبي عليه الصلاة والسلام رئي يصليها وفي أوقات لم يصلها، أما المؤكدة فكان يصليها دائماً.

والسنن المؤكدة: ركعتان قبل الفجر، وركعتان بعد الظهر، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وأربع قبل الظهر، وأربع قبل الجمعة، وأربع بعد الجمعة، فهذه السنن المؤكدة.

أما أربع ركعات قبل العصر فمن السنن المندوبة، إي إذا كان الإنسان معه بحبوحة من الوقت، ومستريح جداً، ففي مثل هذه الأحوال يصلي أربع ركعات قبل العصر سنّة مندوبة، وأربع قبل العشاء أيضاً سنّة مندوبة وليست مؤكدة، وأربع بعده عوضاً عن ركعتين، ركعتان مؤكدة، وأربع ركعات مندوبة، وست بعد المغرب، وقالوا: هذه صلاة الأوّابين، وهذه الركعات المؤكدة، والمندوبة، لكن من أشد السنن توكيداً ركعتي الفجر، لأنها مؤكدة جداً لا ينبغي أن تصلى قاعداً إلا بعرف، وإذا تيقّنت أو ظننت أنك تصلي ركعتين، والإمام لا يزال في الركعة الأولى فصلِّ الركعتين والإمام يصلي، لشدة حرص النبي عليه الصلاة والسلام، ولأنه لا ينطق عن الهوى.

((رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

وإذا كان لدى إنسان فندق، ودخله اليومي مئة ألف صافٍ، فالنبي صلى الله عليه و سلم يقول:

((رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

وأحياناً تجد سوقاً بأكمله هذا لفلان، وإذا كان كل محل بمليون، فركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها، لأن الدنيا تنقطع، والآخرة متصلة و هذا هو السبب، فالدنيا تنتهي بالموت، ولكن الصلة بالله عز وجل، واكتساب الرحمات هذا زادك إلى قيام الساعة!

بالمناسبة لو صليت أربع ركعات نفل أي سنّة مؤكدة، أو غير مؤكدة فيجب أن تقرأ في الركعات الأربعة بعد الفاتحة، ولا ينبغي أن تقرأ دعاء الاستفتاح في الثالثة.

في درس آخر إن شاء الله تعالى ننتقل إلى فصل في تحية المسجد، وصلاة الضحى، وإحياء الليالي.

* * *

فضل التسبيح والتحميد :

والآن إلى فصل آخر مختار من إحياء علوم الدين: في الدرس الماضي تحدثنا عن فضل التهليل، أي قول لا إله إلا الله، وكيف أن لا إله إلا الله الكلمة الأولى في الإسلام، واليوم فضل التسبيح والتحميد.

بالمناسبة بعضهم يقول: التسبيح هو التنزيه، والله سبحانه وتعالى تنزّه عن كل نقص، وهذا جانب من معاني التسبيح، إنه جانب صغير، وجانب سلبي، لكن المعنى الإيجابي التمجيد، والتنزيه، فالتمجيد أي ذكر أسماء الله الحسنى، وذكر دقة صنعه، ذكر جليل حكمته، ذكر عظم خلقه، و ذكر عدالته، فهذا هو التسبيح، أن تجول في أسماء الله الحسنى، وأن تمضي وقتاً في التعرف إلى الله عز وجل، رأيت جبلاً شامخاً، تقول: سبحان الله!، خطر في بالي بموسم الحر يشترون مكيّفاً بعشرة آلاف ليرة، ويستهلك كهرباء بمبلغ كبير في الشهر من أجل تبريد غرفة ثلاثة أمتار بأربعة بثلاثة ونصف، وهذه النسمات اللطيفة التي تهب على الأرض كلها، أو على منطقة بكاملها، لو أردنا أن نكَعِّب الأراضي والبلاد ونحسب كم تكلف هذه النسمات، سبحان الله نسمات من الله لطيفات

خير من مكيفات الأرض كلها، وسبحان الله من خلق هذا الجو اللطيف وقد كان حارّاً؟ من خلق المطر؟ قال لي رجل: المطرة ثمنها أكثر من ألف مليون ليرة، بآخر الصيف الأمطار ثمنها أكثر من ألف مليون ليرة ،أي تتحول إلى محصول، و إلى إنتاج زراعي أكثر من ألف مليون! المطر، والجبال، والبحار الشاسعة، والحيوانات الجميلة، وأسماك الزينة لا تؤكل، لكنها كما سميت للزينة فقط، من أعطاها هذه الألوان؟ وبعضها شفاف، وبعضها أسود فاحم، وبعضها له أرجل صغيرة، وبعضها له زعانف، وأشكال مخروطية ومغزلية ومفلطحة وعريضة، وأشكال تأخذ بالألباب، من هذا كله تقول: سبحان الله.

وقد ترى طفلاً ينيخ جملاً فتقول: سبحان الله من ذلَّله؟ هناك حيوانات تحب أن تقترب منها، الخروف أحياناً يشعر الإنسان برغبة في وضع يده على صوفه، إنه وديع، وهناك حيوانات تتقزز منها، من جعله محبباً؟ الله سبحانه وتعالى، إنسان نظر لابنه يعرفه معرفة يقينية انه كان نقطة ماء من شكَّل صورته؟ كنت أسير في الشارع ابتدائية خرجت لتوّها، مئات الطلاب خرجوا إلى الشارع، لا يوجد طفل له صورة وجه يشبه طفلاً آخر، من صوّر هذه الوجوه بأرحام الأمهات؟ سبحان الله، سبحان الله تأخذ معنى التمجيد.

التسبيح سلبي و التمجيد إيجابي :

كلما وقعت على آية دالة على عظمة الله، وهذه الآية على لطف الله، وهذه الآية على حكمة الله وقدرته، وعلى عطاء الله وعدالته، وعلى حلم الله، ومن يشتم الدين وقوته كقوة الحصان، فالله عز وجل قادر أن يصيبه بفالج، يشله فوراً، سبحان الله ما أحلمه، فكلمة سبحان الله تأخذ معنى أن تجول في أسماء الله الحسنى. طبعاً التنزيه أولاً، والتمجيد ثانياً، أما هذه الكلمات التي جاء بها النبي الكريم، الآن كأنني أتصور أنها قد فقدت مدلولها، فكلمة سبحان الله يقولها كل إنسان، ولو عرف ما يقول لاستقام على أمره، فهذه الكلمات سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، كلمات لها وزن ثقيل جداً، ولكن لشدة غفلة الناس أصبحت كلمات تتلى وتقرأ وكأنها أوراد وتسابيح، والناس بعيدون عن فحواها ومضمونها.

إذاً معنى التسبيح التمجيد، وهناك معنى إيجابي، ومعنى سلبي، والتنزيه هو السلبي، وأما التمجيد فهو الإيجابي، ومعنى ذلك أن الإنسان إن التقى بصديق قديم، يقول له: هل عرفتني؟ يقول له: فلان، هل تعرف ماذا حدث في الذاكرة؟ حدثت عملية في منتهى التعقيد، صورة هذا الوجه عُرِضَت على الأرشيف! على أرشيف الصور، فأنت تعرف مئتين إلى خمسمئة ألف صورة، بأقل من ثانية عُرِضَت هذه الصورة على كل الصور التي في ذاكرتك،

إلى أن وصلت إلى هذه الصورة، فهذه الصورة هذا فلان، تقول له: فلان، تقول: سبحان الله، أحياناً الإنسان يسير في طريق مألوف لبيته من دون تفكير، ومن دون قصد، من أودع في الإنسان القدرة على العمل الآلي رحمة به؟ الله سبحانه و تعالى.

آيات الله الدالة على عظمته :

أحياناً يقوم بأعماله اليومية من دون تفكير! يلبس ويحلق ويذهب لعمله، وهناك أعمال في المنزل معقدة يقوم بها كل يوم من دون تفكير، فهو مشغول بموضوع آخر، و أحياناً يقود سيارته في مكان مزدحم جداً تجده يتكلم مع الذي يجلس بجانبه في السيارة، ومعنى ذلك أن الله عز وجل إكراماً لهذا الإنسان زوده بمركز العمل الآلي، هناك أعمال معقدة تنتقل من الإرادة إلى اللاإرادة، وأحياناً الإنسان يأكل، ولو عرف ما هذه العمليات المعقدة في الهضم، فاللعاب هضم، وحركة المري، وحلقات تتقلص بالتسلسل، فلو أن إنساناً علّقناه من قدميه بسقف وسقيناه ماءً فالماء يذهب نحو الأعلى على خلاف الجاذبية، فما الذي جعل الماء يصعد نحو الأعلى؟ لو دخل الإنسان لغرفة رياضة وكان على الحائط ثوابت، وعلّق قدميه وتدلّى نحو الأسفل، وسقاه صديقه كأس ماء يصعد الماء نحو الأعلى فما الذي جعل الماء يصعد نحو الأعلى خلافاً لمبدأ الجاذبية؟ هذه الحلقات التي في المري تتقلص بشكل تدريجي، قل: سبحان الله، هذا تسبيح، فمعنى التسبيح بطعامك وشرابك وغذائك وعملك.... و أحياناً الإنسان يضع أذنه على ركبته، يميل أذنه، تأخذ أذنه وضع توازن، فمعنى ذلك أن هناك جهازاً معقداً جداً، جهاز التوازن، عبارة عن قنوات نصف دائرية، فيها سائل، وفيها أشعار حساسة جداً، فإذا الطفل مال فالسائل يصعد نحو مسافة أعلى، قناة نصف دائرية فيها أشعار عند مستوى معين و تحته يوجد سائل، وعندما يميل الطفل، فالسائل بحكم توازن السوائل الأفقي يظهر بنصف أشعار القسم اليمين، فالإنسان يصلح.

رجل يسير في الطريق سمع زمور سيارة فابتعد نحو اليمين، فقلت سبحان الله، فماذا بهذه؟ كيف عرفت أن السيارة نحو اليسار؟ يوجد جهاز بالغ التعقيد في الإنسان، يتلقى الصوت، باعتبار أن هناك أذنان، تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، التفاضل واحد على ألف وستمئة وخمسين جزءاً من الثانية ! هذا الجهاز يعرف أن الصوت وصل إلى هنا قبل هنا بواحد على ألف وستمئة وخمسين جزءاً من الثانية، واحد من هذه الأجزاء وصل الصوت إلى هذا المكان قبل هذا المكان، فعرف الإنسان أن السيارة على اليمين فاتجه نحو اليسار، فتقول:

سبحان الله، طبعاً سبحان الله، وأحياناً الإنسان يضع شمعاً بالبيت يضعها على السقيفة على الرف تمضي سنة أو أكثر وهناك كهرباء، فتنقطع الكهرباء فجأة، فيقول لابنه اصعد إلى السقيفة وأحضر الشمعات، ما معنى ذلك؟ أن في الذاكرة مكاناً لهذه الشمعات، يعرف أن الشمعات مكانها بالبيت في المكان الفلاني، فقل: سبحان الله، من جهَّز لك هذه الذاكرة؟ الوقت ضيق ولا يتسع لذكر النعم التي نحن محاطون بها.

الله تعالى أمر الإنسان بالتجمل و أعانه على ذلك :

جلس إنسان ليحلق عند الحلاق فقل سبحان الله ! على ماذا أقولها؟ ماذا بها؟ لو كان لك أعصاب حسية في الشعر فعليك القيام بعملية جراحية تذهب بها إلى مشفى الشامي، وتحجز غرفة، ويعطونك إبرة مخدر لتحلق، ما رأيك؟ هل توجد غير هذه الطريقة؟ لا، لا يوجد حل آخر، عليك أن تتخدر من أجل أن تحلق، إذا الإنسان قصّ أظافره، قل: سبحان الله، حكمة بالغة، الله عز وجل جعل الأظافر بلا أعصاب حسية، فقط الأظافر، التي أمرك بالتجمل والتنظف هو الذي خلق الإنسان، لو كان الآمر غير الخالق يصبح هناك تناقضاً ! قال لك: تنظف وتجمل، لكنه أعانك على ذلك، جعل لك الشعر بلا أعصاب حس، سبحان الله، فإن حلقت سبحان الله، وإن أكلت سبحان الله.

يدخل الإنسان طبعاً إلى بيت الخلاء، هذا الطعام ما أجمله كان قبل أن يؤكل، فلما أُكِلَ صار كما ترون وتعلمون، إذاً هذه الدنيا، هذا الطعام الطيب الثمين اللذيذ هذا مصيره.

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة العنكبوت : 64]

تحريك الذهن في آيات الله و نعمه :

إذا كان الإنسان محبّاً لله عز وجل، صادقاً فكيفما تحرك؟ سمع صوت عصفور فمن إكرام الله لنا خلق هذه العصافير، وإن رأيت وردة، مررت اليوم بطريق مزروع حشائش لونها أخضر، وفيه أزهار يمكن أن تقول: يوجد عناية بالغة في المدينة، وهذه الخاطرة معقولة، والله يوجد قفزة نوعية في تجميل المدينة، هذا كلام معقول، ولكن يوجد أبلغ من ذلك ! سبحان من خلق هذا الورد، يبعث البهجة في نفوس الناس، ق: سبحان الله، أصبح نهارك كله تسبيحاً! أنا لا أريد المظهر الشكلي، أن يكون حاملاً مَسبَحَة سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، لا ليس

هذا المطلوب، المطلوب أن يجول فكرك في آيات الله ونعمه، وفي هذه الآيات التي أودعها الله في الأرض، هذا هو المطلوب، أنت مع الله، لا تكن في غفلة، مثلاً هذا التقويم، إن كنا قد كلفنا شركات أجنبية بعمل تقويم للأرض بكاملها، يقرؤه العربي والتركي والفرنسي والإنجليزي والياباني والهندي... تقويم واحد واضح، أحياناً تقرأ بالإنجليزي يوليو، ما معنى يوليو؟ شهر، أيضاً يوجد مارس أيار، لكن القمر تقويم.

﴿ وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾

[سورة يونس: 5]

هذه اللام لام التعليل، خُلِق لهذا الهدف خصيصاً، الأرض كلها ترى القمر، اليوم واحد، غداً اثنان، وبعده ثلاثة، أربعة... حتى عندما يختلفون في إثبات الشهر يقولون: يا أخي اليوم أربعة عشر واضح مثل الشمس استدارة كاملة، فمعنى ذلك ربنا عز وجل جعل للقمر ترتيباً أن يكون فرق باليوم، واحد اثنان ثلاثة أربعة.. هذا من فضله تعالى، نقول: سبحان الله، معنى سبحان الله طول النهار.

النوم آية من آيات الله عز وجل :

وضعت رأسك لتنام، فهذا النوم من نعم الله، فالأعصاب لها استطالات، وتنتهي بنهايات دقيقة وترية جداً، وتبدأ الخلية العصبية الجديدة، فهذه الاتصالات بين الخلايا في الليل تتباعد! فتأتي السيالة الكهربائية على الخلية وتجد مسافة كبيرة فتقف عندها، مثل إذا إنسان رأى ساقية عريضة جداً لا يستطيع أن يقطعها يبقى واقفاً، فالنائم طبعاً هو نائم يُفتَح الباب، ويرن الهاتف، يدخل شخص، و يعطس فلان... فالعطاس ألم يسمعه؟ نعم سمعه، لكن العطاس أراد أن يتابع فوجد طريقاً عريضاً، هذا هو النوم! جميع الأدوية المنبهة تقصر المسافة، والأدوية المنومة تبعد المسافة، لكن إذا كان هناك صوتاً كبيراً جداً فهذا الصوت الكبير يتجاوز المسافة البعيدة فيصحو الإنسان، وإذا كان الإنسان يلحق به وحش ووجد ساقية عريضة يقفزها، من دون مطاردة لا يقفز، يقول لك: واضحة جداً أنني لا أستطيع القفز فوقها، لكنه إذا كان مضطراً ويلحق به أحد فيقفز فوقها، وهكذا الصوت إذا كان الصوت شديداً جداً يستيقظ، كيف استيقظ؟ معنى ذلك أن السيالة العصبية بلغت من الدرجة أنها تجاوزت هذه المسافة، النوم نعمة:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾

[سورة الروم: 23]

مناكم في الليل، هذا النوم، ما النوم؟ يقول لك: استيقظت مثل الحصان مستريحاً، فإذا مرّ يوم واحد و لم تنم تتعكر ثلاثة أيام، يقول لك: اختل توازني، وكلامه غير طبيعي، وليس عنده إمكانية للتفكير صافياً، وهذه من آيات الله عز وجل، فالنوم آية! ومجال ممتع سبحان الله.

معاني التسبيح :

إذاً هذا هو المقصود من التسبيح، أما أن تمسك مسبحة وتقول: سبحان الله هذا مقبول، ولكنه غير مطلوب، والمطلوب أن تجول في عظمة الله، وفي أسمائه الحسنى وجلاله، وفي كماله وذاته المقدسة، وهكذا، فالنبي الكريم قال:

((مَنْ سَبَّحَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَكَبَّرَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَحَمِدَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَقَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، خَلْفَ الصَّلاةِ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ، وَلَوْ كَانَ أَكْثَرَ مِنْ زَبَدِ الْبَحْرِ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

بمعنى انتبه للمستوى، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله يجول بآيات الله، الحمد لله على نعم الله، الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين، ثلاثاً وثلاثين، ثم بعدها لا إله إلا الله وحده أي لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، طبعاً شُفيَت نفسه، وصار له صلة بالله عز وجل، نور الله عز وجل يمحو كل شيء، هذا أحد معاني التسبيح.

من سبح الله حق التسبيح وحمده حق الحمد وسّع عليه :

والتاريخ يعيد نفسه، رجل جاء النبي عليه الصلاة والسلام، قال يا رسول الله تولت عني الدنيا، وأحياناً الإنسان يضيق دخله رويداً رويداً فيسلّم محله، أعطوه فيه خمسين ألفاً، وضعها في جيبه، وعلى شهرين أو ثلاثة أو أربعة أنفقها جاء في يوم لا يملك ثمن الخبز ! أراد أن يعمل في وظيفة فلم يجد مكاناً، له قريب حالته جيدة، فسأله هل حولك عمل؟ فأجابه: والله الآن لا يوجد عمل، فالأعمال ضيقة قليلاً، ولا يوجد نقديات، أعطني مهلة قليلاً، فكر بالسفر فأخبروه أنه يلزمه فيزا، ولا يوجد فيزا، خطر بباله أن له ابن أخت ببلد نفطي، فقال له: أعوذ بالله لا أحد يسكن هناك! لم يدع باباً إلا وطرقه، وجميع الأبواب كانت مغلقة.

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَبِي عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَلام وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ تَوَلَّت عَنْيِ الدُنْيَا، – أريد أن أعمل، أريد أن آكل– وَقَلَّتْ ذَاتُ يَدِي–لا أملك شيئاً– فَقَالَ عَلَيهِ الصَلاةُ وَالسَلامُ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ صَلاةِ المَلائكَةِ؟ وَتَسْبِيحِ الخَلائِقِ، وَبِهَا يُرْزَقُونَ))

[أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث ابن عمر]

فربنا عز وجل يضيّق عن علم وحكمة، و عن مقدرةٍ وغِنى يضيّق، أي ضاقت الدنيا على ألف ليرة بالشهر يأخذها؟ لا يوجد ألف، خمسمئة؟ لا يوجد.. أحياناً الإنسان يضطر أن ينقّب بالقمامة! هل يوجد شيء يأكله؟ ضاقت الدنيا، ضاقت ذات يدي، فقال له: أين أنت من تسبيح الملائكة؟ هنا يوجد استنباط دقيق، أنك إذا سبّحت الله سبحانه وتعالى حق التسبيح، وحمدته حق الحمد، وسّع عليك.

من شغله ذِكري عن مسألَتي أَعطَيتهُ فَوقَ ما أُعْطي السَائِلِينَ :

هنا انتقلنا لموضوع آخر.

﴿ وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾

[سورة الجن: 16–17]

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾

[سورة المائدة: 66]

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

[سورة الأعراف 96]

أحياناً إنسان يملك ألفي شجرة زيتون، يعيش في بحبوحة كبيرة تأتي حشرة، قيل: إن هذه أخطر حشرة على الزيتون، لا أحد يعرف كيف تصبح الشجرة! من الجذر يبست وماتت من الأعلى! ولا تُجْدِي مع هذه الحشرة جميع الطرائق، إن بخختها من الأسفل تفرغ التربة كلها، من الخارج سهلة أن تبخها، و من الأسفل من الجذور هل تفرغ التربة كلها؟ شيء مستحيل، فربنا عز وجل على كل شيء قدير. والشام يهطل فيها المطر بالعام مئة وخمسين ميلي لتراً، والله الذي لا إله إلا هو، الله سبحانه وتعالى قادر أن ينزلها مرة واحدة، ويجعل كل مرة مئة وخمسين ميلي لتراً، وتجد الأنهار السبع الآن أكثرها واقف فنهر يزيد جاف، وبانياس جاف.. يزيد خمسة أمتار في الصيف! انتبه أن تغرق في النهر، هل سمعت أحداً غرق بالنهر اليوم؟ لا أحد يغرق بالأصل لا يوجد ماء عميق ليغرق به.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾

[سورة الأعراف 96]

.... مجلس علم من أوله، هذا دليل أن الله يرزقه، أنت فرغت من أجلي وأنا هل أنساك؟

((مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ فَوْقَ مَا أُعْطِي السَائِلِينَ))

[من الدر المنثور عن عمر بن الخطاب]

أنت قادم من آخر الدنيا، من قرية ركبت الباص الأول والثاني، وتحمَّل الطريق معك ساعتين، ما الهدف؟ لا يوجد عندنا شيء، ولا يوجد دنيا، الحمد لله، قدومك لله مئة بالمئة يهزأ ويقلل لك رزقك؟ مستحيل، وبها ترزقون. قال:

((فقلت : وما هي يا رسول الله؟ قال : « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح ، تأتيك الدنيا راغمة صاغرة))

[أخرجه المستغفري في الدعوات من حديث ابن عمر]

و هناك حديث آخر:

((كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ مَائَةَ مَرَّةٍ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾

[سورة المسد: 4]

الدعاء أعظم ما في الدين :

على أسفار الكعبة يوجد حرف ناعم جداً: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، وقل هذه أيضاً: استغفر الله مئة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة، الدنيا ليست مشكلة يا أخوان، كلمة دقيقة: الدنيا ليست مشكلة، المشكلة أن تكون بعيداً عن الله سبحانه وتعالى، إن كنت بعيداً فالأمور من ضيق إلى أضيق، فإذا توجهت إلى الله الدنيا ليست مشكلة، تأتيك وهي راغمة وصاغرة، كقوله تعالى:

﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾

[سورة المسد: 4]

راغمة صاغرة إذا التفت إلى الله، وإذا أعرضت عنه تجري بين يديك، وتضيق بك المكاسب، وتكثر المطالب، ويكثر الشجر، ويقل الثمر وتقع في حيص بيص كما يقولون.

قال الرسول عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا قَالَ العَبْدُ: الحَمْدُ لِلَّهِ مَلأَتْ ما بين السَمَاءِ وَالأَرْضِ))

[إحياء علوم الدين عن غياث بن إبراهيم]

فكلمة الحمد لله ليتنا نعرف معناها، الحمد لله على كل شيء، على السرَّاء والضرَّاء، فإذا قالها العبد وهو يعي ما يقول ملأت ما بين السماء والأرض:

((....فإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض السفلى فإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله عز وجل سل تعط))

واسمع من المؤمنين الصادقين، تطلب طلباً صعباً ينفذه الله، أعظم ما في الدين الدعاء! أنت بالدعاء أقوى إنسان في الأرض، وأنا أعي ما أقول تماماً، وربنا معك، والخالق معك، وإن كنت مخلصاً له ودعوته من كل قلبك لا بد من أن يجيبك.

من أراد أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله :

قال: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، سل تُعطَ، فالله عز وجل إذا أعطى أدهش! وأحياناً هناك صفقة واحدة يغنيك إلى ولد ولدك، وأحياناً من زرعة واحدة، وفي بعض السنوات التي سافرت فيها إلى حلب وجدت فيها أن القمح موضوع على أطراف الطرقات! سَألتُ جميع المستودعات في القطر، فأُجِبت بأنها لم تعد تتسع! فقاموا ببناء مستودعات إضافية سريعة فقلت: سبحان الله إنه إذا أعطى أدهش! إذا أعطى قمحاً أدهش، وإذا أعطى بترولاً أدهش... هناك دول فقيرة جداً أصبحت في مصافِ الدول الراقية عن طريق هذه الثروة!

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ*إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ*فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ*الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾

[سورة قريش:1-4]

الحمد لله يلزمها قلب يعرفها :

إذا قال رفاعة الزرقي: كنا يوماً نصلي وراء النبي عليه الصلاة والسلام، فلما رفع رأسه من الركوع، وقال: سمع الله لمن حمده، قال رجل وراءه: ربنا لك الحمد، فهذه الكلمة لم تكف قلبه، فلديه امتنان شديد، ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً! من كثرة سروره بالهدى، إذ نعمة الهدى معرفة الله، فإذا أنت عرفت الله فأنت لم يبق لديك الموت! ما الموت؟ الموت خَلْعُ بدلة فقط، وإذا عرفت الله حق المعرفة فأنت أصبحت بذلك خلقاً في الجنة! وتبدأ الجنة هنا في الدنيا، الدنيا ليس لها قيمة إن أقبلت أو أدبرت، قال سيدنا عبد الرحمن بن عوف فيما أذكر أو أبو الدرداء: جاءه رجل وقال له: لقد احترق حانوتك، قال: ما كان الله ليفعل، لا لم يحترق، بل احترق، ما كان الله ليفعل! أخبره انه رأى حانوته بعينه، فلما عاد فإذا به ليس هو! فعاد إليه وأخبره بأنه لم يحترق فأجابه: أعرف ذلك! ما هذه الثقة بالله عز وجل؟ هذا المؤمن إن أقبلت الدنيا أو أدبرت هي عنده سيان، و لكن الإنسان إذا عرف الله عز وجل فالطريق أصبح مفتوحاً للآخرة، للأبد، سعادة إلى ما شاء الله، فقال له: الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً، قال: فلما انصرف النبي الكريم عن صلاته، فقال: من قال هذا؟ النبي عليه الصلاة و السلام أُعجِب به، قال: أنا يا رسول الله، قال...

((كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ: رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ: مَنِ الْمُتَكَلِّمُ؟ قَالَ: أَنَا، قَالَ: رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ))

[البخاري عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ]

فانسرَّ النبي إذ وجد كلمة تنم عن معرفة! فكلمة الحمد لله يلزمها قلب يعرفها، وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ فِي الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ: إِنَّهَا قَوْلُ الْعَبْدِ اللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ))

[مالك عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ]

ما أزال أركِّز على أن هذه الكلمات لها محتوى كبير جداً، إذا عشت محتواها فقد قلتها.

أحبّ الكلام إلى الله عز وجل :

أما الآن فيوجد نوع من الناس يحمل مَسْبَحة يقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله.... ما هذه؟ هكذا أصبح الإسلام! أصبح طقوساً، كلمات بلا معنى، فكلمة سبحان الله تملأ ما بين السماء والأرض.

((أَحَبُّ الْكَلامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ))

[مسلم عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ]

هذه كلمات يسموّنها ملخصات ومبادئ، سبحان الله أي له الأسماء الحسنى، جُل بهذه الأسماء، والحمد لله كل شيء فيه خير، والله أكبر ما عرفته فهو أكبر، مهما عرفت عن عظمته فهو أكبر، لا حدود، ولا إله إلا الله، كل شيء بيده، ارتح علاقتك مع واحد فقط.

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

[سورة هود:123]

الإيمان طهارة و الصدقة برهان على محبة الله :

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآَنِ، أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ]

الإيمان طهارة، تجد المؤمن مثل الطفل، أي بصفائه، وذاتيته، وبراءته، فهو لا يعرف الحقد، والخب، والمخادعة.. هكذا قال سيدنا عمر:" لست بالخب ولا الخب يخدعني".

الذي في قلبه على لسانه، لا يوجد عنده مواقف مزدوجة، بل موقف معلن، وموقف حقيقي، بريء.

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآَنِ، أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[مسلم عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ]

والصدقة برهان، كل إنسان على وجه الأرض يقول: أنا أحب الله، كلام سهل، اسأل أي شخص أتحب الله؟ يجبك طبعاً، أعوذ بالله أن لا أحب الله، إنه روحي ودمي، يأتيه رجل ويسأله هل معك ليرتان؟ يجيبه: لا أملك فراطة، وبالوقت الذي يكون صندوقه كله فراطة، خمس ورقات لا يوجد والله، يقول له: والله، هل أنت تحب الله؟ تجد إنساناً ملهوفاً دخل يطلب خمس ليرات، مضطر، ومعك مئات الليرات فراطة، تقول: لا يوجد فراطة والله، وتقول والله أيضاً فوق كذبك! وأنا أحب الله، وأحلف به كذباً، هذا كلام فارغ، كلام سهل، فالنبي قال:

((الصدقة برهان))

وعندما تأخذ من جيبك مئة ليرة يمكن أن تتناول غداءك مع أهلك، وتأخذ عشرة الآلاف وتدفعها، وتأخذ خمسة الآلاف وتدفعها، تدفع لجامع خمسين ألفاً دفعة واحدة، رجل من مدة أسبوع دفع للجامع هنا خمسين ألفاً! وسجلوها، وأعطوه بها إيصالاً:

((الصدقة برهان))

تؤكد محبتك لله عز وجل، يؤكد إيمانك، والصدقة برهان.

َالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ.

أبواب الخير مفتحة لكل الناس :

((مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي عَنْ جَابِرٍ]

أي يرى عمله في الجنة.

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا))

[مسلم عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

إذا دفعت قطعة لحم من الصحن لأهلك وقلت: تناول هذه، فهي صدقة! وفي بضع أحدكم صدقة؟ هذه غريبة، حتى الزواج فيه أجر ! صنت نفسك، وصنت امرأة من الحرام فلك أجر على ذلك، فمعنى ذلك أن الفقراء صدقوا بما أن كل تسبيحة، وكل تحميدة، وكل تهليلة، وكل لقمة، وكل تكبيرة، وحتى الزواج فيه أجر، إذاً أبواب الخير مفتحة لكل الناس.

قيل: إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، قال الملك: هُديت، وإذا قال: توكلت على الله، قال: كُفيت، فإذا قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، قال الملك: وقيت، فتتفرق عنه الشياطين! فيقولون: ما تريدون من رجل قد هُدي وكفي ووقي؟ هديت وكفيت ووقيت.

مرة ثانية من باب التأكيد، ككلمات فقط ليس فيها قيمة، كما يفعل بعض المسلمين، حفظ أوراده كلها، يوجد بعض الكذب والغش أو عمل سيئ، أو يمين باطل وكاذب.... دائماً يقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله، هذه ليست واردة، هذا النمط مرفوض، أما أن تكون في معانيها السامية فهذا هو المطلوب.

على الإنسان أن يكون مع الله في كل أموره :

الآن الإمام الغزالي جاء دوره، هذه كلها نصوص، قال: "فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة!" هذا يلزمه قلب مستنير بالله عز وجل، قلب شفاف، وقلب يرى النِعَم فيحمد الله عليها، ويرى النِقَم فيخاف منها، ويرى فضل الله وتسييره، ويرى عظمة الله.

قال: "فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة !أما الذكر باللسان، والقلب لاهٍ فهو قليل الجدوى". اطمئنوا هكذا قال الإمام الغزالي !! أما الذكر باللسان، والقلب لاهٍ، فهو قليل الجدوى لا جدوى منه، مثل بعضه، إن قلت: سبحان الله مليون مرة و أنت تتابع مسلسلاً مثلاً، أو تسمع الغناء، أو تأكل مالاً حراماً، لا قيمة لها! ! "أما الذكر فباللسان والقلب لاهٍ، فهو قليل الجدوى وحضور قلب في لحظة الذكر، والذهول عن الله سبحانه وتعالى مع الاشتغال في الدنيا أيضاً قليل الجدوى"، هذه أثناء الذكر فقط، ذهب للعمل فغَرِق فيه، ومرة ثانية قليل الجدوى! أول مرة أثناء الذكر انشغال بالدنيا غير مجدية، والآن أثناء الذكر حضور قلب، التفت لعمله فنسي كل شيء، انغمس، أيضاً هذا قليل الجدوى، يجب أن تكون مع الله، في صحوك، وفي عملك، وفي بيتك، وفي الطريق، وهذا هو المطلوب، ذكر كثير، وسوف نتابع هذا الموضوع في درس قادم إن شاء الله تعالى.

بعض الأحاديث الشريفة :

والآن إلى بعض الأحاديث الشريفة:

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا،*وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا))

[مسلم عَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ]

أنا أريد هذه الكلمة:: ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَان، اسأل نفسك هذا السؤال: هل ذقت طعم الإيمان؟ طعم لا يوصف لشدة حلاوته، ولكن هذا الطعم لا يذوقه إلا من استقام على أمر الله ! كالطمأنينة، فالإنسان قد يعيش حياة قهر وخوف وقلق.. و لم يذق طعم الإيمان، ذقتم طعم التوكل وطعم الصبر والاستسلام و التفويض؟ فهذه طعوم لا يعرفها إلا من ذاقها، لها ثمن، إن دفعتم الثمن ذقتم طعم الإيمان، ولكن مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، اكتفى! وهناك شخص لا تسعه السنّة فيريد بدعة، يريد أجهزة، هذا جهاز تكنولوجيا العصر، نتركها لا نستفيد منها؟ لا، استفد منها، وافسد نفسك! و لكن الإنسان أحياناً يشعر بأن القرآن الكريم يكفي كل شيء، ذكر الله كل شيء، وصلاة قيام الليل كل شيء، وهناك شخص لا يكفيه هذا يريد أشياء أخرى، أشياء له، مسلّيات ومجلات وكتب.. وشيء للتسلية، أما المؤمن فهو مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، فكلمة ذاق، للإيمان طعم من ذاقه فقد عرفه.

((ذاكر الله في الغافلين كالمقاتل عن الفارين و ذاكر الله في الغافلين كالمصباح في البيت المظلم))

[شعب الإيمان عن ابن عمر]

و :

((ذاكر الله في الغافلين مثل الشجرة الخضراء في وسط الشجر الذي قد تحات يعني من الضريب))

[شعب الإيمان عن ابن عمر]

أي من العطش قد يَبِسَ.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 13 : صلاة الضحى والمكروهة – تحية المسجد – صلاة الحاجة – صلاة الاستخارة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

تحية المسجد :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع الصلاة إلى تحية المسجد وصلاة الضحى وإحياء الليالي، فسن تحية المسجد بركعتين يصليهما الرجل في غير وقت مكروه، أي إذا دخل الرجل إلى المسجد قبيل المغرب ليس عليه أن يصلي تحية المسجد لأن هناك في الفقه أوقات مكروهة، شروق الشمس إلى أن ترتفع، وانتصافها في كبد السماء إلى أن تزول، واصفرارها إلى أن تغرب، هذه الأوقات الثلاث مكروهة.

فسن تحية المسجد بركعتين يصليهما الرجل في غير وقت مكروه قبل الجلوس، لقوله ﷺ:

((إِذَا دَخَلَ أَحَدُكُمُ الْمَسْجِدَ فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ))

[البخاري عَنْ عَمْرِو بْنِ سُلَيْمٍ الزُّرَقِيِّ]

وأداء الفرض ينوب عنها، فإذا دخلت المسجد وصليت المغرب دمجت تحية المسجد في صلاة المغرب، أداء الفرض ينوب عن تحية المسجد، وكل صلاة أديتها في المسجد فور دخولك تنوب عن تحية المسجد، ولو كانت الصلاة بلا نية التحية، ولو صليت ركعتين نفلاً لله تعالى أو بما فاتك من قبل ولو لم تنوِ بهما تحية المسجد نابت عن تحية المسجد، و عند السادة الأحناف لا تفوت بالجلوس، فإذا الرجل دخل وجلس وبعد أن جلس تذكر أنه لم يحي المسجد ليقف ويصلِّ تحية المسجد، فإذا جلس لم ينته الأمر فلا تفوت عند الأحناف بالجلوس بعدها، وإن كان الأفضل فعلها قبل الجلوس، لكنك إذا جلست لن تسقط عنك تحية المسجد، أما الأفضل فأن تؤديها قبل أن تجلس، وأما إذا تكرر دخوله، إنسان مثلاً يعمل في المسجد دخل لحاجة، ودخل مرة ثانية، وثالثة، نقول: تصلى ركعتين مرة واحدة في اليوم، فإذا تكرر دخوله يكفيه ركعتان في اليوم، وندب أن يقول الرجل عند دخوله

للمسجد: "اللهم افتح لي أبواب رحمتك"، لأن الصلاة تجلِّ من الله عز وجل، إنسان دعاك إلى الطعام ولم يضع على الطاولة شيئاً، جلست ويوجد صحن وملعقة وفوطة، أين الطعام؟ هكذا الصلاة بلا إقبال، إذا الإنسان دخل إلى المسجد جوهر الصلاة أن يتنزل على قلبه رحمات من الله عز وجل، فحرام أن تزوره ولا يكرمك، "إن بيوتي في الأرض المساجد وإن زوارها هم عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني وحق على المزور أن يكرم الزائر".

وعند خروجه، خرج إلى دكانه، خرج إلى السوق، "اللهم افتح لي أبواب فضلك".

التجلي الذي يتجلى الله به على قلب المؤمن خير من الدنيا وما فيها :

الإنسان عند حالتين إما أن يرحمك الله وأنت في بيته، وإما أن يتفضل عليك وأنت في عملك، هكذا المؤمن إذا صلى رحمه الله وإذا عمل تفضل الله عليه، هذا معنى قوله تعالى:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

[سورة الزخرف: 32]

إذاً التجلي الذي يتجلى الله به على قلب المؤمن خير من الدنيا وما فيها.

((رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

غدوة وروحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها.

((فَوَ اللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجلاً خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

[البخاري عَنْ أَبِي حَازِمٍ]

من فعل شيئاً بخلاف ما قاله النبي فقد كذب النبي تكذيباً عملياً :

الدنيا فيها أشياء ثمينة جداً بنظر الناس، وفيها أملاك واسعة، وأموال منقولة وغير منقولة، و فيها بيت، ثمنه اثنا عشر مليوناً، وفيها مزرعة ورحلات، فإذا كنت تصدق النبي ﷺ فاسع في هذا السبيل، فالقضية ليست قضية معلومات، بل قضية سلوك ومواقف، فأنت تُقيّم من مواقفك، فإذا رجل سمع الحديث وآثر الدنيا على الآخرة

فمعنى هذا أنه لم يصدق، وهذا تكذيب عملي، وهو أخطر من التكذيب القولي، لمّا تأخذ موقفاً معاكساً لِما تسمعه من رسول الله فهذا تكذيب ولكن من نوع آخر، تكذيب عملي هذا خطير، ولو أنك كذبت بلسانك لأقنعك الناس بخلاف ذلك، و لو قلت: هذا الكلام غير صحيح لأقنعوك بخلاف ذلك، وتقول أنه حق وتفعل خلافه، هنا الخطورة، فلمجرد أن تفعل شيئاً بخلاف ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام فأنت تكذب النبي تكذيباً عملياً. إذا قرأ الإنسان قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

[سورة البقرة: 221]

وطرق بابه خطيبان، خطيب ميسور الحال دخله كبير، ومتجره رائج، ولكن في دينة رقة، وخطيب آخر لا يملك من الدنيا شيئاً ولكن إيمانه قوي، فلو قرأ القرآن وقال: صدق الله العظيم، وآثر الغني على الفقير، الغني مع رقة دينه على الفقير المؤمن فهو قد كذب هذه الآية ولو قال صدق الله العظيم مليون مرة هو كذبها بفعله، وأخذ موقف تكذيب.

ما الذي جعل المسلمين وهم ألف مليون وراء الأمم؟ ما الذي جعل كلمتهم ليست هي العليا؟ لأنهم قرؤوا القرآن، وجودوه، ورتلوه، وعرفوا أحكامه، وقالوا: صدق الله العظيم، وقبلوه من ستة وجوه وخالفوه في حياتهم اليومية، إذاً ليس لهم عند الله شأن، قال تعالى:

﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾

[سورة مريم: 59]

من أطاع الله و رسوله فقد فاز فوزاً عظيماً :

ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا، البطولة أن تكون في مستوى هذا الدين، وأوضح مثل الآية الكريمة:

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب: 71]

فإذا خطر في بالك خاطر أن الصديق الفلاني وهو على معصيته و فجوره و كفره أعطاه الله من الدنيا كل شيء فشعرت بالحرمان فأنت لم تقرأ هذه الآية ولا مرة ولو قرأتها ألف مرة، قال تعالى:

﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[سورة الأحزاب: 71]

إذا كنت حقيقةً مطيعاً لله ورسوله فلابد من أن تشعر بالفوز.

صلاة الضحى :

وندب ركعتين بعد الوضوء، هذه مندوبات أقل من السنن، درسنا في الماضي عن سنن الصلاة المؤكدة وغير المؤكدة وهذه مندوبات، وندب ركعتين بعد الوضوء وقبل جفافه، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ يُقْبِلُ عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ وَوَجْهِهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ))

[النسائي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ]

حصل إقبال حقيقي أي حصل صفاء، وحصلت مغفرة، ووجبت الجنة، وندب صلاة الضحى على الراجح وهي أربع ركعات لما رويناه قريباً عن عائشة رضي الله عنها:

((عَنْ مُعَاذَةَ الْعَدَوِيَّةِ قَالَتْ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ أَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي الضُّحَى؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَرْبَعًا وَيَزِيدُ مَا شَاءَ اللَّهُ))

[أحمد عَنْ عائشة]

فلذا قلنا ندب أربع ركعات في الضحى، وقت الضحى ابتداؤه من ارتفاع الشمس رمحاً أو رمحين إلى قبل زوالها، هذا وقت الضحى، فإذا صلى الإنسان الصبح حاضراً وذكر وتفكر، وذكر الله، ونام واستيقظ الساعة الثامنة والنصف، وتوضأ ولبس وصلى، وانطلق إلى عمله، فهذه الصلاة مندوبة، و قبل الانطلاق من البيت خرجت على طهارة و إقبال.

((من صلى الضحى ركعتين لم يكتب من الغافلين))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

((مَنْ صَلَّى الضُّحَى اثنتي عَشْرَةَ رَكْعَةً بَنَى اللَّهُ لَهُ قَصْرًا مِنْ ذَهَبٍ فِي الْجَنَّةِ))

[الترمذي و ابن ماجه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

ليس غافلاً، فالنبي الكريم له مقاييس دقيقة، قال مرة:

((وبرئ من الكبر من حمل حاجته بيده))

[رواه القضاعي والديلمي عن جابر مرفوعا وهو عند ابن لال عن أبي أمامة. وفي لفظ بضاعته بدل سلعته، والشرك بدل الكبر، قال ابن الغرس ضعيف]

وقال:

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

ذكر الله صباحاً ومساءً وزاره شخص ذكر له الله، ومرة فكر بآياته، ومرة شرح حديثاً، ومرة شرح آية، هل هو منافق؟ لا ليس منافقاً لأنه أكثر من ذكر الله، وقال:

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

له وجهة نظر بالمصروف فالأشياء التافهة لا يهتم بها ويهتم بالأشياء الجوهرية.

صلاة الليل :

وندب صلاة الليل خصوصاً آخره، وأقل ما يتنفل بالليل ثماني ركعات، ويمكن أربع ركعات، أو ركعتان، هذه نفل وندب، وقد قال تعالى:

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[سورة السجدة: 17]

قال بعض المفسرين: هذه الآية للذين يصلون في الليل والناس نيام، حينما يخلو كل حبيب بحبيبه، يقوم هذا المؤمن ليخلو بحبيبه وهو الله تعالى، "أتحب أن أجلس معك يا موسى؟ كيف ذلك يا رب وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني"، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأَبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ وَمَنْهَاةٌ عَنِ الإِثْمِ وَتَكْفِيرٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَطْرَدَةٌ لِلدَّاءِ عَنِ الْجَسَدِ))

[الترمذي عَنْ بلال]

قال: لا تعصه في النهار ليوقظك في الليل.

صلاة الاستخارة :

وندب صلاة الاستخارة، وهذه كلها مندوبات، وقد أفصحت السنة عن بيانها، قال جابر رضي الله عنه:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأمُورِ كُلِّهَا كَالسُّورَةِ مِنَ الْقُرْآنِ إِذَا هَمَّ بِالأمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

[رواه البخاري وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله]

فعندنا استشارة وعندنا استخارة، ومن صفات المؤمن لا يقدم على عمل مباح، إياك أن تظن أن الاستخارة في كل الأمور، فإنسان يريد أن يعمل معصية يستخير الله عز وجل، إنها في المباحات فقط، في التجارة، بشراء بيت، بشراء متجر، أو في رحلة، في سفر، هذه كلها أشياء مباحة وفي هذه الأشياء يوجد استخارة.

الاستخارة و الاستشارة :

لكن النبي علمنا صلى الله عليه الاستخارة والاستشارة، الاستشارة لذوي العقول النيرة من المؤمنين، ومن استشار الرجال فقد استعار عقولهم، خبرة خمسين سنة في الموضوع، يريد أن يشتري محلاً اسأل أحد التجار الكبار الذين يعرفون بالصلاح، هل يصلح إلى المصلحة الفلانية؟ هذا البيت اسأل عنه هل عليه قص؟ الاستشارة لذوي العقول النيرة من المؤمنين، وأي شيء تقدم عليه استشر فإذا جاءك الجواب بالإيجاب فعندئذ استخر الله عز وجل، كيف الاستخارة؟

((... إِذَا هَمَّ بِالأمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ..))

الله عز وجل هو العلام، علام الغيوب، العليم.

((... وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ...))

الإنسان قد يقدم على عمل يكون فيه نهايته، وقد يقدم على صفقة يكون فيها تفليسه النهائي، وقد يقدم على شراء بيت فيكون فيه احتيال، فالذي باعك إياه ليس مالكاً، والذي باعك إياه سافر والمالك أقام عليك دعوى إخلاء، رد حيازة وأنت دفعت مليوناً، فالنبي الكريم صلى الله عليه كان إذا دخل السوق يقول: "اللهم إني أعوذ بك من صفقة خاسرة ومن يمين فاجرة".

ويمكن بكامل ذكائك خبرة أربعين سنة بالأقمشة، أن تشتري صفقة قماش وتفلس من ورائها، فإذا الإنسان قال: أنا أوكله الله زلاته، من اتكل على نفسه أوكله الله إياها، أما المؤمن فقبل أن يعقد هذه الصفقة توجه إلى الله عز وجل وقال: "اللهم إني أعوذ بك من صفقة خاسرة ومن يمين فاجرة"، وحرام على الله عز وجل إلا أن يوفقه في هذه الصفقة، لا تقل أنا خبرتي عالية في هذا الموضوع، لي ثلاثون سنة في هذه المصلحة، كبار التجار وهم في أوج تجارتهم ومهارتهم وخبرتهم يرتكبون حماقات صعب تفسيرها لأنه يوجد واعتزاز بالنفس، اعتزاز بالخبرات، فليقل:

((... اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي...))

موضوع الدين أخطر شيء في حياة الإنسان :

أول شيء في ديني، مصلحة مربحة جداً علاقتها بالنساء، والنساء كاسيات عاريات، فأول أسبوع داوم، والأسبوع الثاني غاب درساً، الثالث غاب درسين من ثلاثة دروس، و الرابع غاب ثلاثة دروس، وبعد ذلك لم نره، أين هو؟ نفسه تلوثت، علاقة بالنساء باستمرار، ضبط نفسه أول أسبوع ومن ثم انتهى، وأول شيء موضوع الدين أخطر شيء، مربحة غير مربحة؟

((... اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي...))

الدعاء الشريف كان يقول ﷺ:" اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر".
فمن علامات قيام الساعة أن الرجل يمر بقبر رجل فيقول: ليتني مكانه، لأن النبي الكريم يقول:

((إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأمركم شورى بينكم فظهر الأرض خير لكم من بطنها، وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأمركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها))

[الترمذي عن أبي هريرة]

فهناك حالات الموت أشرف، والعرب كان لهم مثل جاهلي: المنية ولا الدنية، والآن عكسوا هذا المثل فأصبح: الدنية ولا المنية، ألف جبان ولا يقولون الله يرحمه هكذا يقولون.

الكسب و كسب الكسب :

((... وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي...))

إذا فيه خطر على ديني، يمكن أن أعصي الله عز وجل، و أن آكل ربا، وأن أرتشي بهذه الوظيفة، وظيفة في مكان مغرٍ جداً أي عملية يتساهل بها خمسة آلاف، باليوم عشرة آلاف، باليوم مئة ألف أحياناً كل يوم، إذا كانت هذه الوظيفة سوف توفر لي دخلاً حراماً على حساب عرق الناس وتعبهم، سيكون كسبي من كسب الناس، وعندنا كسب وكسب الكسب، فإذا الإنسان فلح أرض وزرعها وأخذ المحصول وباعه هذا الكسب، إذا إنسان أخذ مال هذا الذي زرع الأرض وأنبتها، فهذا عدوان على الكسب ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من أصاب مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابر))

[كشف الخفاء عن أبي سلمة الحمصي]

النهاوش أي بالخداع، أو بالقهر، أو بالحياء، أو بالإيهام، أو بالختل، أو بأي طريق غير مشروع:

((من أصاب مالاً من نهاوش أذهبه الله في نهابر))

رجل عرض براداً للبيع في سوق الأدوات المستعملة، براد اثنا عشر قدماً، قال له: ضع لنا المأخذ الكهربائي، وضعه، فقال له: كم تريد ثمنه؟ قال: ثمانمئة، وهو يساوي ألفاً، فاشتراه، فكان هذا البراد ليس فيه محرك إطلاقاً فقط ضوء وهذا سارق، لعب عليه وأخذ المال، يذهب المال نهباً أي يذهب من حيث أتى، لا يمكن أن يكون المال حراماً وتنفقه نفقة فيها بركة إلا ويذهب من حيث أتى.

أعرف رجلاً دخله غير مشروع اضطر أن يعمل صماماً لقلبه في أمريكا كلفه تسعمئة ألف ليرة، فكل الذي جمعهم لا يساوي ذلك، بين أن يكون القلب سليماً أو أن يكون بحاجة إلى صمام والعملية في دولة أجنبية، وبعد هذا صار نصف إنسان، الله عز وجل يحفظ الإنسان.

في حياتنا أكثر من مليون طريق للدخل غير المشروع، أحياناً بالاحتيال، أو بالغش، أو الكذب، وحيناً بتعقيد مصالح المواطنين، حتى يدفع بيسرها، هذا أصاب مالاً في نهاوش فأذهبه الله في نهابر.

((... أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ...))

بعثة إلى دولة أجنبية، فإن كان ضعيف الإيمان و ذهب إلى هناك فزنى وشرب خمراً، وقال: نحن العرب لا نعقل شيئاً وهذه هي الدول الراقية، وصار إنساناً آخر، إذاً سوف تعود من البعثة بهذا الشكل؟ لا وليتك لم تذهب إلى هذه البعثة.

من ترك شيئاً لله فلن يعذب بسببه :

أما دقة دعاء الرسول صلى الله عليه: "... وَاصْرِفْنِي عَنْهُ... " فأحياناً الإنسان يستخير الله عز وجل ويصرف عنه هذه البعثة، فيحترق قلبه بعد هذا، إذا احترق قلبه فمعنى هذا أن الله لم يصرفه عنها، صرفها عنه ولكن لم يصرفه عنها، فيجب أن يصرفها عنه ويصرفه عنها، لكن النبي الكريم ﷺ قال:

((الله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له))

[البيهقي عن أبي سليمان الداراني]

يستحيل أن تترك شيئاً لله وتُعذب بسببه.

((... وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

الاستخارة بالحج والجهاد وجميع أبواب الخير تحمل على تعيين الوقت فقط :

قال: والاستخارة بالحج والجهاد وجميع أبواب الخير تحمل على تعيين الوقت فقط، إذا استخرت الله بالحج ليس معنى ذلك أن تحج أو لا تحج، الحج فرض ولكن هذا العام أم العام الثاني؟ قد تكون الاستخارة بالفرائض بالوقت

فقط، وإذا استخار يمضي لما ينشرح له قلبه، وينبغي أن يكررها له سبع مرات لما روي عن أنس قال:

((قال النبي عليه الصلاة والسلام: يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك سبع مرات ثم انظر إلى الذي يسبق إلى قلبك فإن الخير فيه))

[ابن السني عن أنس]

يقول لك: الحر قلبه دليله، هذه الكلمة لها أصل، وانظر إلى الذي يسبق إلى قلبك فإن الخير فيه.

صلاة الحاجة :

الآن وندب صلاة الحاجة، رجل خطب وكتب كتابه، والعروس مناسبة جداً، ولكن لا يوجد بيت، والبيت هو الطامة الكبرى ماذا يفعل؟ نقول له: صلِّ صلاة الحاجة وهي ركعتان:

((خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ...))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الأسْلَمِيِّ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

جربوا وسترون، فمثل هذه القضية ليس لها حل أو صعبة جداً، ويبدو أنها مستحيلة أو حلها فوق طاقتك، أو فيها أزمة حادة:

((... مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ....))

هل يا ترى الله عز وجل يلين قلبه أم يتشدد؟ إذا لين قلبه انحلت، وإذا تشدد منعها عنه.

((... فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لِيَقُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْبًا إِلا غَفَرْتَهُ وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلا قَضَيْتَهَا لِي ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ))

يوجد دعاء آخر عن النبي ﷺ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَرَبَهُ أَمْرٌ قَالَ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ))

[الترمذي عَنْ أنسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

فالذي لا يجد بيتاً، أو عملاً، أو وجد أحداً في وظيفته يزعجه كثيراً، فعليه بهذا الدعاء.

من توجه إلى النبي بقلب مخلص قبله الله عز وجل :

ومن دعائه أيضاً:

((عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ رَجُلاً ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يُعَافِيَنِي، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ لَكَ وَهُوَ خَيْرٌ وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ، فَقَالَ: ادْعُهْ فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ فَيُحْسِنَ وُضُوءَهُ وَيُصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ وَيَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي قَدْ تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ))

[رواه الترمذي والنسائي والحاكم عن عثمان بن حنيف]

إذا أنت استنجدت بجاه الرسول ﷺ، فالله عز وجل إذا كنت مخلصاً لا يخيبك، جاء رجل إلى النبي ﷺ حاجاً ووقف ببابه الشريف وكان مفلوجاً فعافاه الله وقصته مشهورة جداً، وقد أصيب بفالج أقعده الفراش، فتاقت نفسه لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، وطلب من أقربائه شاباً قوياً شديداً عتيداً ينفق عليه في ذهابه إلى الزيارة والعمرة ويعطيه مكافأةً عشرة آلاف ليرة، فهو يحتاج إلى من يحمله، وهذه القصة وقعت ورواها لي أحد أصدقائي، وأثق بكلامه، وصلوا إلى المدينة المنورة، ووجدوا فندقاً مناسباً فقال له: هذا الفندق مناسب احجز به، وخذني إلى الحرم مباشرةً، أخذه هذا الشاب إلى الحرم فقال له: ضعني في هذا المكان مقابل القبة الخضراء و تعال الساعة التاسعة، جاء هذا الشاب في الساعة التاسعة والربع فلم يجده فصعق أين ذهب؟ فسأل عنه فقالوا له: كان هنا رجل وذهب سيراً على الأقدام، فذهب فرآه في الفندق جالساً.

هذا الدعاء دقيق جداً، والله لي قريبة مضى على زواجها أكثر من عشر سنوات ولم تنجب طفلاً، وكاد زوجها أن يطلقها، وضاقت بها الدنيا، ذهبت إلى مقام النبي عليه الصلاة والسلام فسألته أن يكرمها بغلام، وفي نفس العام حملت، وبعد أن يئس الأطباء من شفائها، ويقولون: إنها عقيم، ولكنها توجهت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، في قلب مخلص واستقامة فالله عز وجل قبلها:

((... اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِمُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي قَدْ تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ لِتُقْضَى اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ))

معنى هذا الذين ينكرون جاه النبي ﷺ، وينكرون الاستشفاع به، وينكرون الصلة به، وأن حياته خير ومماته خير، هؤلاء بعدوا جداً عن الحقيقة.

إحياء العشر الأخير من رمضان :

وندب إحياء العشر الأخير من رمضان لما ندب عن عائشة:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ وَجَدَّ وَشَدَّ الْمِئْزَرَ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا]

والقصد منها إحياء ليلة القدر فإن العمل فيها خير من العمل في ألف شهر، وسوف نتابع هذا الموضوع إن شاء الله في درس قادم.

* * *

الله عز وجل يحول بين المرء وقلبه و هو أقرب إليه من حبل الوريد :

الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله، وفضل بعض الأدعية المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام، وفضل الاستغفار، والصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

[سورة البقرة: 186]

فهو أقرب إلينا من حبل الوريد، واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه، و في القرآن اثنتا عشرة آية مشابهة لهذه الآية، قال تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة البقرة: 219]

قل، قال تعالى:

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 215]

اثنتا عشرة آية إلا هذه الآية الوحيدة، وإذا سألك عبادي عني، فلا يوجد قول قل، استنبط العلماء من هذا، من انفراد هذه الآية بهذا الأسلوب أنه ما من حجاب بين العبد وربه، قال تعالى:

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة النمل: 62]

الله عز وجل سميع مجيب :

قال رجل: ذهبت أنا و أهلي في نزهة، و توقفت في مكان مرتفع يشرف على وادٍ سحيق، ذهبت لأحضر غرضاً، فابني حلّ المكبح فنزلت السيارة وفيها الزوجة والأولاد الخمس، فقال: يا رب إذا أنقذت لي أولادي وزوجتي كل شيء أملكه لك- قصة تكاد لا تصدق- السيارة وصلت إلى قعر الوادي وزوجته وأولاده في سلامة، وتصدق وباع بيته وتصدق به، والله أكرمه بعد هذا، مثلما تكلف فعل، وليس من المعقول أن تتدهور بل مستحيل سيارة في الوادي للقاع ويسلم الولد والزوجة! ولكن لأنه دعا الله بإخلاص:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

[سورة البقرة: 186]

في هذا الموضوع يوجد قصص كثيرة جداً، هذه تؤكد أن الله سميع مجيب، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ﴾

[سورة الحديد: 4]

الآية التالية من آيات الله عز وجل :

﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾

[سورة طه: 45]

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾

[سورة الشعراء: 61]

وراءهم فرعون وجبروته وجنوده، لا بأس يوجد ثقة أن سيدنا موسى نبي سوف ينقذهم، ولكن البحر ظهر من جهة، وفرعون والجنود من جهة، وكلما اقتربوا من البحر تسربت الشكوك إلى نفوسهم، قال له قومه: انتهينا أين وعد الله؟

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

[سورة الشعراء: 62]

اقتربوا من البحر ووصلوا إليه فضرب البحر، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾

[سورة طه: 77-78]

هذه آية من آيات الله عز وجل.

وعد الله عز وجل قائم فعلى الإنسان أن يكون في مستوى الموعود :

قوم سيدنا إبراهيم جمعوا الحطب لأسابيع، وأضرموا النار، وألقوه فيها، قال له سيدنا جبريل: ألك حاجة؟ قال: منك، قال: لا من الله، قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي، قال تعالى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾

[سورة الأنبياء: 69]

فلو أنه الله عز وجل قال: برداً لمات من البرد، إله إبراهيم الذي أنجاه من النار، وإله سيدنا موسى الذي أنجاه من فرعون، وإله سيدنا يونس الذي أنجاه من بطن الحوت هو هو موجود، ولكن البطولة أن تكون أنت كما كانوا، قال تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ ﴾

[سورة النور: 55]

الوعد قائم بقي أن تكون أنت في مستوى الموعود.

القصص تلك ليست للتسلية بل لنستنبط منها الحقائق :

اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، عندما دخل سيدنا يونس بطن الحوت، ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، الله سبحانه وتعالى سماها ظلمات ثلاثة، قال تعالى:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾

[سورة الأنبياء: 87]

في كل عصر ومصر، وفي كل زمان ومكان، وفي كل وضع، و في كل ظرف، في كل بيئة، وكذلك ننجي المؤمنين، كن مؤمناً واستفد من هذه الآية، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي فيما تريد كفيتك ما تريد، وإذا لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، هذا القرآن كلام رب العالمين، هذه القصص ليست للتسلية، بل لكي تستفيد منها و تستنبط منها حقائق تعيشها.

الله عز وجل يحب الملحين في الدعاء :

قال تعالى:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

[سورة البقرة :186]

وقال تعالى:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[سورة الأعراف:55]

سوف يأتي في هذا الدرس أو في درس آخر ما معنى المعتدين في هذه الآية بالذات، وقال تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

[سورة غافر :60]

إن الله يحب الملحين في الدعاء، إن الله يحب من عبده أن يسأله شسع نعله إذا انقطع، ومن لا يدعني أغضب عليه، وقال تعالى:

﴿ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾

[سورة الإسراء:110]

أنت تدعو سميعاً، و تدعو بصيراً، كريماً، رحيماً، غنياً، قهاراً، جباراً، فهذا جبار الخواطر، أو جبار على الأعداء، تدعو متكبراً، كلمته هي العليا، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾

[سورة الأنعام:18]

تدعو الرحمن، وتدعو الرحيم، وقد ورد عن الرسول ﷺ:

((عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ ثُمَّ قَرَأَ (وَقَالَ رَبُّكُمُ أدعوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)))

[الترمذي عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ]

الله عز وجل خلق الإنسان ليسعد بقربه :

و هناك حديث آخر:

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

كيف أخطر شيء في الإنسان وأثمن شيء؟ أحياناً تصاب يده بمرض فيبترون له يده ويبقى حياً ثلاثين سنة، أما إذا قطع رأسه ولا ثانية يعيش، أخطر شيء في الإنسان المخ، فإذا خلت العبادة من الدعاء فقد تلاشت العبادة.

((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ))

[أحمد و الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

فملخص الملخص أن الله عز وجل خلق الإنسان ليسعد بقربه، فإذا دعاه اتصل به وسعد بقربه، وإذا لم يدع الله شقي، فالناس رجلان:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ))

[الترمذي عَنِ ابْنِ عُمَرَ]

((مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلا قَطِيعَةُ رَحِمٍ إِلا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلاثٍ إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا، قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

ثلاث حالات، المؤمن إذا خرج من بيته، وإذا دخل إلى عمله، وإذا عالج مريضاً، وإذا رافع في قضية، و إذا رسم مخططاً، وإذا قابل إنساناً، وإذا دخل إلى بيته، وإذا تناول الطعام، وإذا دعي إلى وليمة، وإذا انتهى من وليمة، وإذا دخل بيت الخلاء: "الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ قوته، وأذهب عني أذاه"، إذا تحقق لك هدف: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ما تحقق الهدف: الحمد لله على كل حال، هذا هو الدعاء، أن تكون مع الله دائماً.

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم عدل وإن عدلوا
والله إن فتتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راض بما فعلوا
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني و بين العالمين خراب
إذا صح منك الوصل فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب
وليت شرابي من ودادك سائغ وشربي من ماء الفرات سراب

* * *

هذا حال المؤمن.

أثمن شيء معرفة الله عز وجل :

لا أنسى قول النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا أبي بكر قال: "أبو بكر في الجنة"، و معظم الناس يتوهم أن مصيره في الجنة، لا الآن في الجنة، حياة المؤمن جنة، كيف الصحة؟ يقول لك: الحمد لله مغمور بفضل الله، ويكون دخله قليلاً، وأثمن شيء معرفة الله عز وجل و طاعته أثمن شيء، والمودة معه، مغمور بالفضل، كلام صحيح.

وقال أبو ذر رضي الله عنه:

((يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح))

[أحمد عن أبي ذر]

وقال ﷺ:

((سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود]

بُنيَّ آدم إن سألته يغضب، و إذا لم تقترب منه مادياً لا يوجد ألطف من هذا ولا أنعم من هذا، ولكن الله سبحانه وتعالى بالعكس إذا لم تطلب منه شيئاً يغضب منك، طلبت منه يفرح.

لا تسألنّ بنـيَّ آدم حاجة ً وسل الذي أبوابه لا تغلق

فالله يغضب إن تركت سؤاله وبنيَّ آدم حين يُسأل يغضب

***

والحمد لله رب العالمين

الدرس 14 : صلاة الضحى وصلاة الحاجة – إحياء الليالي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

إحياء العشر الأخير من رمضان :

أيها الأخوة المؤمنون، تابع فصل تحية المسجد، وصلاة الضحى، وإحياء الليالي، وكنا قد وصلنا في الدرس الماضي إلى صلاة الحاجة، وتحدثنا عن أن الإنسان إذا واجه مشكلة عويصة وظنها كبيرة قام الليل، وصلى ركعتين صلاة الحاجة، فإن الله قدير على حلّ هذه المشكلة المعضلة! وقال مؤلف الكتاب: ونُدِبَ إحياء العشر الأخير من رمضان، لما روي عن عائشة رضي الله عنها:

((أن رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ، أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ وَجَدّ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا]

والقصد منه إحياء ليلة القدر، فإن العمل فيها خير من عمل في ألف شهر خالية منها! وروى أحمد عن النبي الكريم أنه:

((مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَقَامَهُ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وقد بَسَطْتُ هذا في دروسٍ سابقة من أن ليلة القدر معناها أن معرفة الإنسان بربه بلغت الحدَّ الذي يخشاه منه، فأي إنسان يعصي الله سبحانه وتعالى لا يعرف ربه، فإذا عرفه حق المعرفة فإنه يطيعه، وإذا قدّر الله عز وجل تقديراً صحيحاً فإنه لا يعصيه، فلا عبادة كالتفكر، التفكر يفضي إلى الطاعة!

إحياء ليلتي العيدين :

ونُدِبَ إحياء ليلتي العيدين، الفطر والأضحى، لحديث النبي الكريم:

((مَنْ قَامَ لَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِبًا لِلَّهِ لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

ويستحب الإكثار من الاستغفار بالأسحار، وسيد الاستغفار: "اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي– أي أعترف بنعمتك يا رب– وأعترف بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت"، والدعاء في إحدى ليلتي العيدين مستجاب.

إحياء ليلة النصف من شعبان و ليلة الجمعة :

ونُدِبَ إحياء ليلة النصف من شعبان، لأنها تكفَّر ذنوب السنة، ونُدِبَ إحياء ليلة الجمعة.

فمعنى الإحياء إذا أردنا أن نتوسع فيه، إذا جلس الإنسان بعد العشاء بعض الوقت، وقرأ كتاب الله، وذكر الله عز وجل، ودعا إلى الله، وتذاكر مع إخوانه المؤمنين في بعض موضوعات الإيمان، وتفكَّر في بعض الآيات الكونية، وإذا زاد عن العشاء، أو قام قبل الفجر فهذا عند الله إحياء، لا أن تفهموا مني أن الإحياء ألا ينام الإنسان أبداً، هذا جسد وله حاجات.

((عبد الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَا عبد الله أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ، وَتَقُومُ اللَّيْلَ؟ قُلْتُ، بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ، فَلا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا))

[البخاري عن عبد الله بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ]

فهذه المرأة التي جاءت سيدنا عمر رضي الله عنه قائلة له "، يا أمير المؤمنين إن زوجي قوّامٌ قوّامٌ، سيدنا عمر يبدو أنه مشغول فظن أنها تمدحه، فقال، بارك الله لك فيه! قوّام في النهار، قوّام في الليل، سيدنا علي رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين إنها تشكو زوجها! فانتبه سيدنا عمر، و قال: يا أبا الحسن إن كنت فهمت هذا فاحكم بينهما، فأخذ الإمام علي كرم الله وجهه أن الإنسان المؤمن المسلم يحق له أن يتزوج أربع نساء، فإذا تزوج أربع نساء نصيب الواحدة منهن ليلة كل أربع ليال، فحكم سيدنا علي لهذه المرأة أن يتفرغ لها ليلة في كل أربع ليالي،

فلما بلغ عمر بن الخطاب هذا الحكم أُعجِب به" حكم صحيح.

معنى الإحياء :

فإذا قلنا: إحياء الليالي يعني إحياء تام من دون نوم إطلاقاً فهذا لا يتحمله الإنسان، ولكن يتحمله في العام مرات عديدات، أما هنا نُدِبَ إحياء ليلة الجمعة أي طوال ليلة الجمعة لم ينم، وإذا جاء إلى الخطبة ينام في المسجد، فمعنى الإحياء زاد عن الحد المعقول، وزاد عن العشاء جلسة، وإذا الإنسان سَهِرَ مع إخوانه المؤمنين في موضوع ديني فهذا إحياء! قام قبل الفجر، وصلى ركعات، فهذا إحياء!

ونُدِبَ إحياء ليلة النصف من شعبان؟ لأنها تكفّر ذنوب السنة، وليلة الجمعة لأنها تكفر ذنوب الأسبوع، ولكن يوجد هنا نقطة دقيقة: إذا ظن أحدكم أن عنده رصيداً ناجحاً يقوم بفعل الذنوب طوال الجمعة ويكفرها الخميس، يقوم بفعل الذنوب أثناء العام وفي شهر شعبان القادم على الطريق نكفر به عن ذنوبنا، هذا فهم سقيم، ومغلوط، فيما لو صدر من إنسان ذنب من دون قصد، أو تصميم، أو من دون إرادة، أو من دون رغبة، فإن جلسة إحياء هذه الليالي يشفيه من هذا المرض الذي سبب له الوقوع في الذنب. وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((من أحيا الليالي الخمسة، وجبت له الجنة، ليلة التروية، وليلة عرفة، وليلة النحر، وليلة الفطر، وليلة النصف من شعبان))

[الترغيب و الترهيب عن معاذ بن جبل]

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ قَامَ لَيلَةَ النِصْفِ مِنْ شَعْبَانْ، ولَيْلَتَيِ الْعِيدَيْنِ مُحْتَسِبًا لِلَّهِ، لَمْ يَمُتْ قَلْبُهُ يَوْمَ تَمُوتُ الْقُلُوبُ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

نقطة دقيقة، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

((مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ، فَهُوَ كَمَنْ قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ، فَهُوَ كَمَنْ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ))

[أحمد عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

هذا الذي قلته قبل قليل، إذا الإنسان استيقظ الساعة الخامسة أو الرابعة والنصف في هذه الأيام وصلّى قيام الليل، وذهب إلى المسجد فهذا قيام ليل، أي أحيا هذه الليلة، وإذا كان بعد العشاء عنده موعد، في موضوع فيه ذكر، فيه مذاكرة، فيه قرآن، فيه مذاكرة للحديث الشريف.. فهذا المجلس إن ذُكِرَ بعد العشاء فهذا إحياء! فالنبي الكريم كان رؤوفاً بأمته، وهناك أشياء لم يفعلها، كان صائماً في السفر فأفطر، فهل شعر بحاجة ماسة للطعام؟ أنا أظن قد يكون لا، ولكن لماذا أفطر؟ لئلا يشق على أمته، وهناك بعض السنن التي تركها ثم فعلها، ليست مؤكدة، أليس بإمكانه فعلها؟ نعم بإمكانه، لكن عمله تشريع، ومخالفة التشريع معصية، لا أنسى المرأة التي جاءت النبي عليه الصلاة والسلام تشكو زوجها، فقال النبي الكريم لها:

((أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ كَانَ عَبْدًا يُقَالُ لَهُ: مُغِيثٌ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَبَّاسِ: يَا عَبَّاسُ أَلا تَعْجَبْ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ، بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا؟ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ، قَالَتْ، يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْمُرُنِي؟ قَالَ، لا إِنَّمَا أَنَا شَفِيعٌ، قَالَتْ، فَلا حَاجَةَ لِي فِيهِ))

[النسائي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ أي لو أنك ترضين بما يقول، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْمُرُنِي؟ -أمرك منفَّذ- ومعصية أمرك معصية، قَالَ: لا إِنَّمَا أَنَا شَفِيعٌ، ما رضي النبي الكريم أن يضع مقامه مقام الرسالة مقام النبوة في الضغط على زوجة، قَالَ: لا إِنَّمَا أَنَا شَفِيعٌ، ولو أنني أمرتك لوجب التنفيذ، ولكانت المخالفة معصية كبيرة، قَالَ: لا إِنَّمَا أَنَا شَفِيعٌ.

الجماعة رحمة والفرقة عذاب :

((مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ، فَهُوَ كَمَنْ قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ، فَهُوَ كَمَنْ قَامَ اللَّيْلَ كُلَّهُ))

[أحمد عَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

فالإنسان إذا استيقظ قبل الفجر، وتوضأ وذهب إلى المسجد، إلى أين هو ذاهب؟ سؤال؟ إنه ذاهب إلى الله! إني ذاهب إلى ربي، ليس شيئاً سهلاً، لا يوجد طعام ولا شراب ولا دعوة، لا شيء في المسجد إلا الصلة بالله عز وجل، والصلة في بيته أشد، فإذا صليت الفجر في جماعة فكأنما أحييت الليل كله.

سبحان الله عندما يعتاد الإنسان صلاة الفجر في جماعة تنقلب هذه الصلاة إلى عادة ثابتة، فمن عاداته أنه ينام الساعة الواحدة ويستيقظ الرابعة والنصف، وينام الساعة الثانية، ويستيقظ في الرابعة والنصف، يكون مسافراً فيستيقظ بالرابعة والنصف، ويكون متعباً فيستيقظ الرابعة والنصف، الجماعة رحمة، والفرقة عذاب.

((خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا، فَقَالَ، أُوصِيكُمْ بِأَصْحَابِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَفْشُو الْكَذِبُ حَتَّى يَحْلِفَ الرَّجُلُ، وَلا يُسْتَحْلَفُ وَيَشْهَدَ الشَّاهِدُ، وَلا يُسْتَشْهَدُ، أَلا لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلا كَانَ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ، مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ، وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكُمُ الْمُؤْمِنُ))

[الترمذي عَنْ ابن عمر]

رجل يصلي وحده، يقول: أبقى نائماً، الله غفور رحيم، لست مرتاحاً، يأتي لجسدك معلومات من الشيطان معقولة، لو قمت للصلاة لن تفهم شيئاً منها لأنك نعسان، أما إذا عوّدت نفسك على الصلاة في جماعة، لحصل وضع آخر، أصبحت هذه الصلاة راسخة.

من اقتطع من وقته الثمين وقتاً لله عز وجل وفّر الله له وقته وبارك له فيه :

أخوة كثيرون يقولون لي: بعد أن صلينا الفجر في جماعة، أصبحت هذه الصلاة جزءاً من حياتنا، فلو أن مرة واحدة فاتتنا هذه الصلاة لتعكّر يومنا كله! وكأنهم فقدوا شيئاً ثميناً، "لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس، أكفك النهار كله".

فإذا الإنسان توضأ وارتدى ثيابه وتوجه إلى المسجد، إلى أين هو ذاهب؟ إلى الله، إذا كان قد جاء من مكان بعيد، من طرف المدينة، إلى المسجد فهذا شيء ثمين! والأجداد قالوا –رحمهم الله – : الثواب على قدر المشقة! أخ يجلس معنا هنا قد قَدِم من دوما، من حرستا، من زملكا، من عربين، من جوبر، ركب الباص الأول والثاني، و الباص لا يوجد فيه محلات، وانتظر، وتحمل الطريق ساعة ونصفاً حتى وصل، وعنده ساعة ونصف للعودة، والله هذا أجره لا يمكن أن يكون مثل الذي يسكن أمام الجامع، رب العالمين والله يقدر الليل والنهار، يقدر المسافات، ويقدر أزمة المواصلات، و الركوب في الباصات، ويقدر دفع المبلغ الكبير للتاكسي مثلاً، وجدت نفسك تأخرت فأخذت تكسي، فطلب منك تسع ليرات، والله يقدر الليل والنهار كله بقدر، يقدر حجم التضحية

تماماً، وأحياناً تكون على أحر من الجمر، وأحياناً يكون عندك موسم شديد جداً تقول: وقت الله مقدس، لا أعتدي عليه، توقف العمل وتتوجه إلى المسجد، حق على الله سبحانه وتعالى أن يكرمك، أنا أعتقد وجازم بهذا القول: إذا أغلقت المحل قبل الوقت المعتاد كي تتوجه إلى مجلس العلم، أنا أعتقد جازماً والله الذي لا إله إلا هو لا يمكن أن تفوتك بيعة، هذا الذي يأتيك ويراك قد أغلقت الدكّان سبحان الله يتعلق بهذا المحل، ويقول: غداً آتيه، و جارك الملاصق يكون عنده نفس البضاعة، فيريد من عندك.

والله عز وجل يلفت نظر الناس إليك، ويجعل قلوب الناس تهوي إلى هذا المحل، إنه مغلق وجاره لديه البضاعة نفسها، لا، لأن هذا أغلق محله ليتوجه إلى المسجد فهو في حفظ الله، وهذا الشاري لن يشتري من عند غيره، أنا أرى محلاً يبيع عصيراً في سوق الحميدية أذّن الظهر فأغلق محله، ينتظر الزبون نصف ساعة ليأتي البائع، اذهب وصلِّ معه، ينتظره حتى يعود من الصلاة ليسقيه كأساً من العصير! فالله عز وجل بيده قلوب العباد، وأنا أقول لكم كلاماً أعني ما أقول تماماً، مثلما ربنا عز وجل أمرنا بزكاة المال، أيضاً أمرنا بزكاة الوقت.

وأنا قلت اليوم لأخ: أحياناً ينكسر برغي وسط آلة، تنكسر قطعة منه فتجد نفسك لا يوجد حل، حتى تفك هذه الآلة وتأخذ لها سيارة إذا كان حجمها معقولاً أو تأخذ لها ونشاً، أو لمحل ليضعوا عليها ملحمة يلحمون عليها البرغي، وقد تأخذ من وقتك عشر ساعات أو عشرين ساعة، أو ثلاثين ساعة، وأحياناً تنكسر قطعة بآلة تضطر أن تسافر لبلد آخر لتحضر مثلها، الله عز وجل قادر أن يضيع من وقتك مئات الساعات، عدا النفقات، فلو أنك اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لله عز وجل، لا تحيد عنه، لوفّر الله لك وقتك، ولبارك الله في حياتك.

من أخَّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره :

أذكر حديثاً آخر:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا ذَرٍّ كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا أَدْرَكْتَ أُمَرَاءَ يُؤَخِّرُونَ الصَّلاةَ عَنْ وَقْتِهَا؟ قُلْتُ، مَا تَأْمُرُنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ، صَلِّ الصَّلاةَ لِوَقْتِهَا، وَاجْعَلْ صَلاتَكَ مَعَهُمْ نَافِلَةً))

[الترمذي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

أنه من أخَّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره ! أحياناً يجلس الرجل ليسهر مع أهله فلا يصلي صلاة العشاء، شيء يزعجه، لا يهنأ بقصة، ولا بحديث، ولا بقراءة مقالة، إذا فضّل الجلوس مع أهله وقرأ لا يهنأ لأنه لم يصلِّ العشاء، أصبحت الساعة الحادية عشرة نَعِسَ فقام للصلاة بكل نفس ذائقة الموت! إذا كان الإنسان يريد أن ينام لا يصلِّ فليرقد قليلاً حتى يصحو، إذا كان سيصلي وهو في تعب شديد ليست هذه صلاة، إذا كان صلى

الصلاة في المسجد مع أذان الظهر يأتي إلى البيت يأكل وينام وليس عليه شيء، أما إذا كان لم يصلِّ يريد أن يأكل وأكثر من الطعام لا يبقى به قوة للصلاة، وإذا صلى وكان جائعاً جداً فعقله بالطعام، وهذه مشكلة، فصلِّ الظهر في وقته، يبارك لك في وقتك.

من أخّر الصلاة عن وقتها أذهب الله البركة من عمره ! أحب الأعمال إلى الله الصلاة في أوقاتها.

كره الاجتماع على إحياء ليلة من هذه الليالي المتقدم ذكرها :

وهنا شيء جديد بالكتاب، يكره الاجتماع على إحياء ليلة من هذه الليالي! لأن قيام الليل من عمل السر، والإخلاص، ولو أنه أُبْدِيَ في جماعة لأصبح ذلك مشوباً بالنفاق! وقيام الليل إحياء الليالي هذا كما قال العلماء، يُكره الاجتماع على إحياء ليلة من هذه الليالي المتقدم ذكرها في المساجد ! وليس محرّماً، إذا الإنسان لم يحيها وحده إطلاقاً، لماذا الآن يقومون بالإحياء في المساجد؟ لعدم وجود الهمة الفردية بأن تحييها وحدك، وقديماً كان الإنسان عنده رغبة عظيمة جداً للتقرب من الله عز وجل، وهذه صلاة قيام الليل، تبكي، تطوّل، تقصر.. تركع أحياناً ربع ساعة، بالسجود لك عند الله قائمة مطاليب فطلبتها كلها في هذا السجود، أنت حر في بيتك، وأحياناً الإنسان يأتيه الخشوع ويطيل في السجود ويطيل في الركوع فهذه الصلاة خاصة جداً من خصوصيات المؤمن، لذلك النبي الكريم كان يصليها في البيت، ويكره أن تصلى في جماعة في المساجد.

لكن أفسر لكم لماذا الناس الآن يحيون هذه الليالي في المساجد؟ لأن همة الإنسان الآن ضعيفة جداً، فأنا أقول: إحياؤها في المسجد في جماعة خير من عدم إحيائها كلياً، وهذه مكروهة، إذا كانت مكروهة أن تصلى في المسجد في جماعة وأنت لا تصليها فأنا أفتي لك أن تصليها في المسجد في جماعة! ولو بلغك أن هناك جامعاً فيه إحياء ليلة العيد وأنت لم تنوِ إحياءها وحدك اذهب واحضر الإحياء في المسجد، وصلِّ قيام الليل في جماعة! فهو مكروه كراهة، أما لو عندك همة عالية وتحيي الليلة وحدك فأفضل، وأقرب، وأشد إخلاصاً، وتأكيداً لنفسك أنك مخلص، لماذا يُكْرَه؟ ليس هناك نهي إطلاقاً بالمناسبة! ولكن لأن النبي الكريم لم يفعل هذا لا هو ولا أصحابه، فالنبي الكريم وأصحابه الكرام ما فعلوا هذا، ولكن ربنا عز وجل قال:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾

[سورة المزمل: 20]

و الله عز وجل في القرآن الكريم ثبت قيام الليل للنبي ولأصحابه، ولم يصل النبي هذا القيام في المسجد في جماعة، لكن نحن في عصر متأخر جداً، إذا الإنسان لم يصلّ وحده وسمع أن هناك إحياء ليل لا مانع! أنا أحبذ أن يصلى قيام الليل في جماعة لأن همة الناس قد ضعفت! وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه الموضوعات.

* * *

الاتصال بالله جوهر الدين :

والآن إلى فصل مختار من إحياء علوم الدين؛ الاتصال بالله جوهر الدين، والدين فيه نصوص، وعلوم، وتجويد، وفقه، وعلم فرائض، وتاريخ، فيه علوم كثيرة، وعندما يتقن الإنسان علوم الدين الظاهرة وقلبه خاوٍ من ذكر الله، و من الصلة بالله، كأنه جسد بلا روح! والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: " إِنَّ لِلإِسْلاَمِ مَنَاراً وَ ضِيَاءً ". ما قيمة هذه المنارة إن كان مصباحها منطفئاً؟ لا شأن لها! وما قيمة هذا المصباح إن كان على الأرض؟ لا قيمة له، فالإسلام له جسد، وله روح، روحه الاتصال بالله عز وجل، وهيكله هذه العبادات؛ الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، وتنفيذ الأوامر، فالإنسان إذا كان قلبه لا يوجد فيه محبة لله عز وجل كان جسداً بلا روح!، " ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له ". لو أن دمعة هطلت على خدك من خشية الله لكان هذا أفضل من عبادة طويلة خالية من الخشوع!

((عَنْ أَبِي رَيْحَانَةَ أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةٍ، فَسَمِعَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ يَقُولُ: حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ دَمَعَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، قَالَ: وَقَالَ الثَّالِثَةَ فَنَسِيتُهَا! أَبُو شُرَيْحٍ سَمِعْتُ مَنْ يَقُولُ ذَاكَ: حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنٍ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ، أَوْ عَيْنٍ فُقِئَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[الدارمي عَنْ أَبِي رَيْحَانَةَ]

ومن باب التصميم، هذه عين لم تنظر إلى عورة ومن عادتها غض البصر تُحرمُ منها؟ لا والله، هذه الأذن ما استمعت إلى غناء إطلاقاً فهل تصاب بالصمم؟ لا والله، حاشا لله هذه اليد لم تفعل إلا الخير فهل تصاب بالشلل؟ لا والله، و هذه الرجل لم تتحرك إلا إلى المساجد و الطاعات و الأعمال الصالحة فهل تصاب بالقعود؟ لا والله ، ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا وعقولنا ما أحييتنا، هذا الدماغ الذي يحفظ كتاب الله، الذي يفهم ويعي كتاب الله وسنة رسوله يصاب بالخرف؟ لا والله، من قرأ القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، أنت تعامل من؟

تعامل خالقاً، إذا أحدكم عامل بشراً تجد بعض الوفاء، فتقول: هذا أعاننا بزمانه، إنسان لو أعان إنساناً لئيماً لا ينساها لك، فأنت تعامل إلهاً، وتعامل خالق السموات والأرض، وتعامل من له الأسماء الحسنى، تعامل الوفي، وتعامل الكريم والغني القدير..

وتغض بصرك عن محارم الله وتفقد بصرك؟ لا تسمع الغناء بأذنيك، بل تسمع القرآن وتفقد سمعك؟ لا والله، هذه الحواس إذا أطعت الله فيها فطاعة الله عز وجل ضمان من أن تفقدها، في ضمان ذلك: الحمد على النعمة أمان من زوالها، رجل نظر بالمرآة فرأى أن وجهه كامل، قال: يا رب لك الحمد الذي حسّنت خَلقي، وكما حسّنت خَلقي فحسن خُلُقي، إذا نظرت إلى وردة وقلت: والله إن الحمد لله بصرت، هذا الشكر بنعمة البصر أمان من زوالها.

الحمد على النعمة أمان من زوالها :

أنا أطمئنكم مهما قيل إن الأمور مثلاً أحياناً العالم يتجه نحو مجاعة، نقص في المواد الغذائية، وارتفاع أسعار شديد مثلاً مهما قيل هذا إن كنت شاكراً لنعمة الله عز وجل فلن تفقد هذه النعمة! هذا قرآن قال:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾

[سورة إبراهيم : 7]

حمدك على نعمة الله أمان من زوالها، كل منكم ينظر لوضعه راض عن وضعه الحمد لله على أحسن وليس على أسوأ كما يقول الناس، هناك أناس متشائمون، يجلس بمجلس يملأ قلوب الناس ضيقاً، هذه سيرتفع سعرها، وهذه ستفقد، وهذه لا توجد، وهذه توجد.. تجد الذي يجلس معه تشاءم، الله عز وجل قال:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

[سورة النحل: 97]

هذا وعد إلهي، وليس في بعض البلاد فقط، بكل البلاد مطبّق، لكل الأزمان والعصور، أنا أتمنى من كل أخ إذا قرأ آية، فهناك من يقرأ القرآن تبركاً، تجده متضايقاً نفسياً، متشائماً، عنده سوداوية، و المستقبل مظلم بنظره، ويقرأ قرآناً، الله عز وجل خالقك وخالق كل شيء، يقول لك:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾

[سورة النحل: 97]

كل هذا الوعد وتقلق وتيئس وتسوَّد الدنيا في عينيك؟ إذاً لا تقبل هذا الكلام! لست مصدقاً له.

علامة الإيمان أن الذي يقوله الله يدخل إلى أعماق قلب الإنسان :

الحقيقة علامة الإيمان أن الذي يقوله الله سبحانه وتعالى يدخل إلى أعماق قلبك! إذا كنت أنت على وشك الزواج، وخطبت فتاتين الواحدة منهن وسط نسبة جمالها، لكنها صاحبة دين، ومن أسرة ديّنة، والثانية جميلة لكن هناك رقة في دينها، وإذا أنت اخترت الذي أمرك به:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: 221]

هل تكون مخطئاً؟ ممكن أن تتعب مع المؤمنة؟ لا والله، لم تسعدك، تشقى بها، إذا أنت آثرت ما يقوله الله عز وجل:

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: 221]

فهل باختيارك الصحيح بما يرضي الله تشقى بها؟ لا والله، هنا يظهر المؤمن، إذا قلت: صدق الله العظيم، إذا قال الله:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾

[سورة البقرة: 276]

أنت تصدقه؟ يا أخي عصر صعب كل الناس هكذا، ماذا نفعل؟ تجد نفسك تمشي مثل الناس، وتأكلها مثل الناس، أما إذا كنت تقول: أخاف الله رب العالمين، تميزت عنهم، بعملك، وبمعاملة الله لك، رجل قال: والله هو شيء أنا أسمعه آلاف المرات، لكنه اليوم قال لي: البلاء يعم، والرحمة خاصة، قلت له: والله إذا كنت أنت معلماً، وقلت لطلابك افتحوا الوظائف، وفتحوها وكلهم لم يكتبوها، وغضبت، ومسكت العصا، وأمرتهم بفتح يديهم بالدور مقعداً مقعداً! المقعد الثالث أول طالب كاتب الوظيفة، كلمة كلمة مضبوطة وبخط جميل اضربه هيا تفضل! أنا قلت: سأضرب الجميع، لماذا الجميع؟ ماذا فعل هذا الطالب المجد؟ إن ضربته فلست معلماً! تُذَم، أنت لا تضربه.

الله عز وجل لا ينسى المؤمن :

أنا قلت كلمة اليوم: لو أن الله عز وجل أراد أن يهلك من في الأرض جميعاً بذنوبهم وكان في الستة آلاف مليون فقط إنسان مستقيم على أمر الله لا يمكن إلا أن ينجيه الله سبحانه وتعالى، هذه قصة أنا أرويها دائماً....قال تعالى:

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾

[سورة هود: 43]

وغرق، وسيدنا نوح في قمة الموج، وفي أشد اضطرابه تذكر المرأة التي لم يدعها فظن أنها ماتت، قال: بعدما انتهى الطوفان جاءته هذه المرأة وقالت له: يا نوح متى الطوفان؟ قصة لها معنى، إذا هو نسيها لكن الله لا ينساها، الله لا ينسى!

﴿ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

[سورة طه: 52]

الله عز وجل رحمته مطلقة :

ما معنى الله مطلق؟ أن رحمته مطلقة، ولا غلطة مع أيٍ كان، فالرحمة خاصة، والبلاء خاص، قال:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ*قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ*لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ*مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ*فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ*فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة الذاريات: 31-36]

أول شيء أخرجناهم، ثم أهلكنا الباقي! هكذا القرآن الكريم، أي عقيدة تعتنقها خلاف كتاب الله فهي ضلال كبير.

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة الأنبياء: 88]

تأكد بأي عصر وأي مصر لو جاء بلاء عام، لو جاء زلزال، يجب ألا يضر بيت المؤمن! أو ربنا عز وجل يخلق له حاجة في بلد آخر فيبتعد عن البلد فيأتي الزلزال! والله مشكلة ففي هذه الأيام نسمع قصصاً كثيرة منها إنسان كان بمكان و تركه لو بقي لمات، أنت لماذا غادرت البناء؟ قال: خطر ببالي أن آخذ ربطة من الخبز قبل خمس دقائق غادرت البناء فصارت المشكلة، الله عز وجل يحفظ المؤمن، يخلق له حاجة خارج هذا المكان،

يصرفه، أنت ما دخلت بهذا!

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة الأنبياء: 88]

إذا قال لك: أنا سأعيشك حياة طيبة أو لا تصدق، كن متفائلاً دائماً، أما أحياناً فالإنسان البعيد عن الله سوداوي المزاج، متشائم، ليس عنده إلا خبر السوء دائماً، ويجمعها بكثافة بحيث تجتمع على الإنسان فتهلكه، تجده قد أصيب بالشلل ليس به قدرة ليتحرك.

* * *

آداب الدعاء :

1 . أن يترصد الإنسان بدعائه الأوقات الشريفة :

تحدثنا في الدرس الماضي عن فضيلة الدعاء، والآن نتحدث عن آداب الدعاء:

قال الإمام الغزالي: آداب الدعاء عشرة: الأول: أن يترصد بدعائه الأوقات الشريفة، هناك أوقات شريفة للدعاء، كيوم عرفة من السنة، ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل. على مستوى اليوم هذه الأوقات الشريفة التي يستحب أن يدعو بها المؤمن ربه، قال تعالى:

﴿ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾

[سورة الذاريات : 18]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))

[أبي داوود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

من يحب أنا جاهز، نائم لا أحد لأحد، نام متأخراً لأنه كان يتابع فيلماً، وقيل: إن يعقوب ﷺ قال:

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾

[سورة يوسف: 98]

لماذا سوف؟ الآن استغفر ربك، يقصد للوقت الشريف. أي أخّر الدعاء لوقت السحر، هناك إشارات في القرآن دقيقة جداً على كلمة سوف.

2 . أن يغتنم الأحوال الشريفة :

الأدب الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة، قال أبو هريرة رضي الله عنه:

((إن أبواب السماء تُفَتَّح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى- هذه حالة شريفة- وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، فاغتنموا الدعاء فيها))

[إحياء علوم الدين عن أبي هريرة]

لماذا بعد الصلاة دعاء؟ هذا حال شريف فلو كان الرجل لاهياً يدعو، وصلى صلاة متقنة، نفسه صفت وأشرقت بنور الله، فالآن إذا دعا الدعاء فهو مقبول! أول أدب: الوقت شريف، أما الآن الحال شريف، وقت وحال، وقال مجاهد: إن الصلاة دعيت في خير الساعات، فعليكم بالدعاء خلف الصلوات، وقال ﷺ:

((لا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ))

[أبي داود عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

فإذا أذّن العشاء، أغمض عينيه ودعا الله عز وجل بين الإقامة والأذان فلا يرد!

((عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصَّائِمُ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ))

[أحمد عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات، كأن الأدبين أدب واحد، شرف الأوقات يرجع إلى شرف الحالات، وشرف الحالات إلى شرف الأوقات، لدينا شرف الأوقات على مستوى اليوم السحر، وعلى مستوى الأسبوع الجمعة، وعلى مستوى الأشهر رمضان، وعلى مستوى السنة يوم عرفة.

((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

إذا صلّى الإنسان وحده في البيت وسجد وقال: سبحان ربي الأعلى ثلاثاً، يقول: يا رب ارزقني رزقاً حلالاً طيباً، والله شيء جميل، يا رب زوجة صالحة لأنه على وشك الزواج، لا يعرف من يخطب؟ يا رب مأوى، يا رب الهدى، يا رب اجمعني مع أحبابك، يا رب اجمعني مع أهل الحق، مع الصادقين الذين تحبهم، هذا دعاء، له ابن

مريض يدعو: يا رب اشفه، له ابن ضال: يا رب اهده.

3 . أن يدعو مستقبلاً القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه :

الأدب الثالث: أن يدعو مستقبلاً القبلة، وينتبه باتجاه القبلة، ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه، هناك تذلل.

((رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ إِلَى الصَّخَرَاتِ، وَجَعَلَ حَبْلَ الْمُشَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا يَدْعُو حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلا حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ....))

[ابن ماجة عَن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

وفي غزوة بدر دعا النبي صلى الله عليه و سلم حتى سقط الرداء، سيدنا الصديق أشفق عليه، قال له:" يا رسول الله بعد مناشدتك ربك إن الله سينصرك، لكن هناك قصة لم أكن أفهمها كيف أصيب سيدنا الصديق بذعر شديد في غار ثور، لقد رأونا، قال له:

((عَنْ أَنَسٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْهم قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا فَقَالَ: مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ]

نحن مع الله عز وجل، وإذا كان أحدكم على حق فعليه ألا يخاف.

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾

[سورة النمل: 79]

أنت مستقيم لا تخف، ولا تجعل قلبك يمتلئ ذعراً من أحد، أنت مع الله، الله لن يتخلى عنك، غير معقول أن يتخلى عنك ولا بأي شكل، هذه أولى قواعد الإيمان، أنت في حفظ الله، بأعيننا، فكيف سيدنا أبو بكر في غار ثور النبي الكريم طمأنه، وكيف الصديق رضي الله عنه- الآن الآية معكوسة- يطمئن النبي في بدر؟ قال بعضهم: إن النبي الكريم في غار ثور أخذ كل الأسباب، فلم تبق خطة أفضل من هذه، خرج باتجاه البحر، وأمّن دليلاً، وأمّن رواحل، وأمّن إنساناً يأخذ الأخبار، وأمّن إنساناً يمحو الآثار.. ووضع خطة محكمة مئة بالمئة، ليس فيها أي ثغرة، وبعد أن أدى الأسباب توكل على رب الأرباب، ولكن في بدر خاف أن يكون هناك تقصيراً بالأسباب، ألا يكون هناك إعداداً صحيحاً.

الفهم السقيم للتدين الشكلي مرفوض والتوكل أن تأخذ بكل الأسباب :

طالب مؤمن الله ينجحه هذا كلام فارغ، لن تنجح إلا إذا بذلت كل طاقتك، سوء أدب، لا أدرس أنا مؤمن، ما هذا المؤمن؟ هل الله سيغير القوانين لأجلك؟ سيغير قوانين الكون كله، فأنت لا تقرأ وتريد أن تنجح؟ هذا لا يصح، فالفهم السقيم للتدين الشكلي مرفوض، والتوكل أن تأخذ بكل الأسباب.

وسيدنا عمر وجد أناساً فقراء فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون، قال: كذبتم! المتوكل من ألقى حبة في الأرض ثم توكل على الله، ازرع الأرض، اليد العليا خير من اليد السفلى، ما فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر! عندما ينوي أن يطلب باب فقر، عندما ينوي العمل باب غنى.

يا أخي خذ نصف مالي، خذ تفضل، الأنصاري للمهاجر لدي بيتين خذ واحداً منها، وبستانين خذ واحداً منها، هبة وليس مؤقتاً، لكن الزوجتين ليست واردة إطلاقاً ولا يصدقها أحد، فهذه خلاف الأصول وخلاف الدين، قال له: خذ واختر واحدة منهن، هذه غير واردة، أما بستانين فخذ واحداً منها صحيحة، اسمعوا الجواب والإيمان: قال له: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق! أنت أعطيت، لا أنا أعمل، إنسان شديد عتيد شاب قوي يطلب؟! عندما يفتح الإنسان باب عمل يفتح الله له الخير، يفتح باب مسألة يسدها في طريقه.

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ، فَيَأْتِيَ الْجَبَلَ، فَيَجِيءَ بِحُزْمَةِ حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا فَيَسْتَغْنِيَ بِثَمَنِهَا، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

[سنن ابن ماجة عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ]

وسأقول لكم كلمة أدق من هذه: كن عزيز النفس، واطلب من الله عز وجل، يا رب أنت الرزاق، عطاء ربنا عز وجل لا يوجد أحلى منه، فالإنسان لئيم ممكن ألا يتكلم ولا كلمة بخمس سنوات، ويمر بظرف صعب يقول لك: أنا أعطيتك، ولذلك ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس، وارغب بما في يدي الله يحبك الله.

أريد أن أوضح لكم نقطة كيلا يذهب الظن بكم إلى موضوع لا أريده: إذا الإنسان بذل طاقته في كسب المال، وواجه مشكلة فوق طاقته، وطلب معاونة أخوانه، فهذه ليست مسألة، أي إذا بذل كامل طاقته، أما إذا ادخر الطاقة، ولم يبذل، ولم يعمل، وطلب، هذا المقصود، أحياناً الإنسان يقع بأزمة يحتاج لأخيه المؤمن أن يساعده، فهذا إذا قبل المعاونة له أجر، والذي عاون له أجر، أما إذا لم يبذل جهداً، وجلس مستريحاً في البيت لا يعمل، وطلب معاونة، فهذا المقصود، من فتح باب مسألة فتح الله عليه باب فقر، ولكن إذا الإنسان بذل كل ما يستطيع ووقف به الجهد إلى هذا المكان، وهناك مسافة أبعد واحتاج لمعاونة فهذا شيء مشروع وليس فيه مانع.

إذاً أن يدعو مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه.

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَرْفَعُ يَدَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ دُعَائِهِ إِلا فِي الاسْتِسْقَاءِ، وَإِنَّهُ يَرْفَعُ حَتَّى يُرَى بَيَاضُ إِبْطَيْهِ))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

ولا يشير بإصبعه، فالدعاء بكامل الأصابع، وسوف نتابع آداب الدعاء في درس قادم إن شاء الله تعالى.

خاتمة :

كنت أعددت موضوعاً عن زواجه ﷺ، وعن خطبة النكاح، و لكن الوقت ما اتسع لهذا الموضوع، إن شاء الله في أسبوع قادم، والآن لدي ورقة من جهة تريد من الأخوة الأكارم الضيوف الأفارقة من كان بحاجة إلى عمل فهنا مجال لعمل جيد وأجر معقول، فكل أخ يحب أن يعمل من الأخوان الأفارقة الضيوف إذا لديهم وقت فراغ غير الدراسة مثلاً بعد الدرس يلتقون معي، وهنا رجل عارض عملاً بمزرعة فمن يحب من الأخوة الأفارقة وبحاجة للعمل ينتظرني بعد الدرس حتى أعطيه مواصفات العمل، والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم اجعل جمعنا هذا جمعاً مباركاً مرحوماً، واجعل تفرقنا من بعده تفرقاً معصوماً، ولا تجعل فينا ولا منا ولا معنا شقياً ولا محروماً، اللهم كما هديتنا للإسلام فثبتنا عليه، اللهم ألزمنا سبيل الاستقامة لا نحيد عنها أبداً، واهدنا لصالح الأعمال لا يهدي لصالحها إلا أنت، اللهم أعنا على دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وارزقنا الشوق إلى لقائك ولذة النظر إلى وجهك الكريم، اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 15 : صلاة النفل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

صلاة النفل :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع الصلاة إلى جواز صلاة النفل جالساً، يجوز النفل، وكلمة النفل يعني مطلق السنن المؤكدة وغير المؤكدة، يجوز النفل قاعداً مع القدرة على القيام، والفرض لا يجوز، لكن هذا الذي يصلي قاعداً وهو يقدر على أن يصلي واقفاً فنصف الأجر إلا إذا كان معذوراً، فإذا كان معذوراً فله الأجر كله، فيجوز التنفل قاعداً مع القدرة على القيام، وقد أجمع العلماء أن هناك استثناء واحد وهي سنة الفجر لأنها أشد السنن توكيداً، ومع أن النبي عليه الصلاة والسلام صلى بعض السنن قاعداً إلا أن العلماء يؤكدون على أن صلاة الفجر يجب أن تكون واقفاً، والتراويح فيها خلاف، وطبعاً المعذور لا يوجد فيها خلاف، والمريض، من يشكو ألماً، في أقدامه عروق، وآلام في عظامه، فهذا إنسان آخر لكن الحديث عن إنسان لا يشكو شيئاً وأراد أن يصلي بعض السنن قاعداً نقول له: لا، والتراويح قضية خلافية بعضهم أجازها وبعضهم لم يجزها، ولكن الأصح جوازها قاعداً من غير عذر.

نية المؤمن خير من عمله :

النبي ﷺ كان يصلي بعض الوتر قاعداً، وكان يجلس في عامة صلاته في الليل تخفيفاً، أي إذا الوقوف سوف يعيقه عن الإقبال على الله عز وجل بدل أن ينام يصلي قاعداً، والإنسان أحياناً يكون سنه متقدماً من فوق الخمسين لا يستطيع أن يقف كثيراً نخيره إما ألا تصلي واقفاً وإما أن تصلي و أنت قاعد، فعليه أن يصلي قاعداً ولكن الأجر أقل.

و للمصلي وهو قاعد كما قلت قبل قليل نصف أجر القائم لقوله ﷺ:

((عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ صَلاةِ الرَّجُلِ وَهُوَ قَاعِدٌ، فَقَالَ: مَنْ صَلَّى قَائِمًا فَهُوَ أَفْضَلُ وَمَنْ صَلَّى قَاعِدًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ الْقَائِمِ وَمَنْ صَلَّى نَائِمًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ الْقَاعِدِ))

[الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ]

إلا أنهم قالوا هذا في حق القادر أما العاجز من عذر فقد روي عن النبي ﷺ أن أجره يفوق الذي يصلي قائماً لأن هذا اسمه جهد المُقِل، أي رغم مرضه، ورغم ضعفه، ورغم آلامه قام وصلى قاعداً، أما العاجز من عذر فصلاته بالإيماء كإنسان مجبصن، وأجري له عملية جراحية، فيصلي بعيونه، فصلاته بالإيماء أفضل من صلاة القائم الراكع الساجد لأنه جهد المقل، والإجماع منعقدٌ على أن صلاة القاعد بعذر مساويةٌ لصلاة القائم في الأجر، الأجر نفسه. بل قال بعضهم: بل هو أرقى منه لأنه أيضاً جهد المقل، ونية المؤمن خير من عمله.

ما كل ما يتمناه المرء يدركه :

مرة قرأت كلمة تركت في نفسي أثراً بليغاً، طبعاً هذا الحديث له تتمة، فالإنسان يتمنى أن يكون له كجبل قاسيون ذهباً، ذهب ليحل مشاكل الناس كلها، هذا تنحل قضيته بثلاثين ألفاً، وهذا يحتاج إلى بيت بأربعين ألفاً، و هذا يريد أن يتزوج، المؤمن يتمنى أن يكون عنده حجم جبل قاسيون ذهباً حتى يحل مشكلات الناس، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه، النبي عليه الصلاة والسلام تمنى ذلك و قال:

((مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هَذَا ذَهَباً تَمْضي عَلَيَّ ثَلاَثَةُ أيّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ، إلا شَيْءٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ))

[البخاري عن أبي ذر]

نية المؤمن خير من عمله، وأحياناً يقدم المؤمن صدقة مئة ليرة فيتمنى من أعماقه أن يدفعها ألفاً ولكن هذه إمكانيته، عنده زوجة وأولاد، وأحياناً يقدم إلى المسجد خمس ليرات ويتمنى أن يدفعها مئة ليرة هذه إمكانيته، يقع هذا المبلغ بيد الله قبل أن يقع في يد الفقير و الله عز وجل يتقبله، وقد قال عليه الصلاة والسلام: "رب درهم سبق ألف درهم".

ودرهم أنفق في إخلاص خير من مئة ألف درهم أنفق في رياء.

فاعل الخير خير من الخير وفاعل الشر شر من الشر :

قرأت مرة كلمة مشابهة لهذا الحديث: فاعل الخير خير من الخير، وفاعل الشر شر من الشر، والإنسان مهما فعل من شر، وكان الشر مستطيراً، فبالنهاية محدود، لكن عذاب فاعل الشر غير محدود، وهذا الذي ألقى على هيروشيما وقتل ثلاثمئة ألف في ثوان وفقد عقله، طبعاً المنفذ له نصيب، والذي أعطى أمراً نصيبه أوفى، و على كلٍّ فهذا العمل محدود بثلاثمئة ألف لكن عذاب هذا الذي قتل هؤلاء بلا سبب قد يكون غير محدود، و الشر مهما كان كبيراً بالنهاية هو صغير، وفي نهاية الحياة قد ينتهي كل شيء، لكن عذاب فاعل الشر عذاب أبدي، وإلى ما شاء الله، وفاعل الخير والخير أيضاً محدود أطعمت مسكيناً، وعدت مريضاً، ودعوت إلى الله، و هديت إنساناً، لكن سعادتك بهذا العمل غير محدودة.

مرة توفي أستاذ لنا في الجامعة تصورت أن هذا الإنسان له مؤلفات ليس لها علاقة بالدين بل بالأدب، هذا الموضوع خارج اهتمام أي إنسان، قلت: لو أن الإنسان وقف بين يدي الله عز وجل وقال له: يا عبدي ماذا فعلت في الدنيا؟ يا رب المؤلف الفلاني، والمؤلف الفلاني ... و كل هذا لا علاقة له بالآخرة لا يتصل بالقرآن، ولا يتصل بالهدى، إنه جهد ضائع، ومتى يندم عليه ندماً شديداً؟ عند الموت وهذه الليالي الطويلة، وهذه الصفحات الكثيرة، والجهد المضني، والذي ألفه في موضوع الغزل كان من الممكن أن يفهم به كتاب الله، كان من الممكن أن يؤلف تفسيراً لكتاب الله يسعد به النفوس، وعلى الإنسان أن ينتبه لعمله أنه يوجد جهد ضائع، والحياة محدودة، وأخطر شيء الوقت، وأحد العارفين بالله مرّ في الطريق فرأى أناساً في المقهى يلعبون النرد قال: آه لو أن الوقت يشترى من هؤلاء لاشتريته منهم، الوقت ثمين جداً، بالوقت تعرف كتاب الله، وتفعل الخير، و تقبل على الله بالوقت، فأثمن ما في حياة المؤمن الوقت، لذلك:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

قال له: هل أنت غضبان مني؟ قال له: والله لا أغضب من أحد لأنه لا يوجد عندي وقت لأغضب من أحد، وهذا الموضوع دون اهتمامي وخارج اهتمامي.

المعذور كيفما يرتاح يجلس :

العلماء اختلفوا في كيفية القعود قال بعضهم – وكلامه وجيه – : إذا كان الأصل في الصلاة القيام تجاوزناه فلأن نتجاوز شكلاً خاصاً في القعود أولى، المعذور كيفما يرتاح يجلس.

والآن يوجد عندنا حالة يجوز أن تبدأ الصلاة قائماً وتتمها قاعداً، ويجوز أن تبدأها قاعداً وتتمها قاعداً، ويجوز أن تبدأها قاعداً وتتمها واقفاً، فمادام سنة عدا صلاة الفجر والتراويح فموضوع خلافي، والأرجح أنه يجوز، هذا الكلام ليس موجهاً لشاب عمره سبعة عشر عاماً وهو قاعد هكذا الأستاذ قال، والذي شعر في ضعف عام لا يستطيع أن يقف وقفة طويلة، هذا الكلام خاص بمن ليس فيه مرض، ولكن أي إنسان سبحان الله عمره ثمانون سنة والله كالشباب، قال لي: سبحان الله يا أستاذ أنا قبل أربعين سنة أنشط من الآن، قلت له: شيء طبيعي عامل الزمن وحده له قيمة، انظر إلى الشاب كيف يمشي، وفي الأربعين والخمسين يمشي بهدوء، فإذا الإنسان شعر بتعب عادي فله أن يصلي قاعداً، ألم أقل لكم من قبل إن أفضل أنواع تلاوة كتاب الله أن تتلوه مصلياً قائماً في مسجد أعلى درجة في الأجر.

الصلاة على دابة :

يوجد عندنا موضوع الصلاة على دابة، ولا أعتقد أن أحداً عنده دابة يصلي عليها، يحل محلها موضوع السيارة أي إذا كان أحدكم راكباً سيارة وأحب أن يصلي ركعتين نفلاً فممكن أن يصلي باتجاه حلب مثلاً، والقبلة نحو الجنوب، وقبلة المسافر جهة دابته، وقبلة الخائف جهة أمنه أي صلاة النفل ممكن أن تصلى بالسيارة وهذا الكلام ليس للسائق بل للراكب، لأنه يوجد مرة سائق صلى فما هذه الصلاة؟ قال: يجوز، من أين جئت بهذا؟ هذا تزيدٌ في الدين.

* * *

آداب الدعاء :

1 . أن يترصد الداعي الأوقات الشريفة :

والآن إلى متابعة فصل من إحياء علوم الدين، آداب الدعاء، تحدثنا عن الأدب الأول وهو أن يترصد الداعي الأوقات الشريفة، وذكرنا أنه على مستوى السنة يوم عرفة، وعلى مستوى الأشهر رمضان، وعلى مستوى الأسبوع الجمعة، وعلى مستوى ساعات الليل والنهار وقت السحر:

((إذا كان ثلث الليل الأخير نزل ربكم إلي السماء الدنيا فيقول: هل من تائب فأتوب عليه؟ هل من سائل فأعطيه؟ هل من مستغفر فأغفر له؟ هل من طالب حاجة فأقضيها له؟ حتى يطلع الفجر))

[أخرجه أحمد عن أبي هريرة]

وكلما قال لي أخ أنه مضطر إلى بيت أقول له: عليك بقيام الليل، قل: يا رب آوني برحمتك، إنه سميع مجيب، وكل شيء بيده، وأريد زوجة صالحة، قم وصلِّ قيام الليل يا رب زوجة صالحة تطيعني إذا أمرتها، وتسرني إذا نظرت إليها، وتحفظ نفسها إذا غبت عنها.

2 . أن يغتنم الإنسان الأحوال الشريفة :

والأدب الثاني أن يغتنم الإنسان الأحوال الشريفة:

((إن أبواب السماء تُفَتَّح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى– هذه حالة شريفة– وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، فاغتنموا الدعاء فيها))

[إحياء علوم الدين عن أبي هريرة]

وهذا الحديث عن النبي ﷺ، وإن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليكم بالدعاء خلف الصلوات، الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه:" اللهم أعنا على دوام ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، وارزقنا الشوق إلى لقائك، ولذة النظر إلى وجهك الكريم" هذه دبر الصلوات المكتوبات.

((لا يُرَدُّ الدُّعَاءُ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((الصَّائِمُ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُ))

[أحمد عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هذه أشرف الأحوال؛ حالة الصيام، وحالة الصلاة، وحالة السجود:

((أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ))

[النسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

إذا قال لك أحدهم: كم الساعة لو سمحت؟ على قدر ما كان الإنسان عديم إحساس يبقى يسيراً، طفل أحياناً يسألك كم الساعة؟ وعمره ثلاث سنوات تجد نفسك مضطراً أن تجيبه، وأنت تسأل الله عز وجل خالق الكون وهو معك السميع البصير ألا يوجد استجابة منه؟ ليس معقولاً.

((إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ))

[الترمذي عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ]

فاتقوا الله عباد الله فيما تدعون، أي اطلب طلباً معقولاً، إذا قال ابن لأبيه: أريد شفرة لأذبحك بها لا يرد عليه، وإذا قال له: أريد قراءة مصحف، أريد أن أدرس، فالطلب معقول وينفذ فوراً، أما إذا الطلب غير المعقول فلا ينفذ، ولذلك: فاتقوا الله عباد الله فيما تدعون، هناك شيء مهم جداً في الدعاء، استحيوا من الله:

((اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَالَ لَيْسَ ذَاكَ وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

لا ينفع حذر من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل :

بالرأس يوجد عين هل تنظر إلى عورات الناس؟ هناك أذن هل تستمع هذه إلى الغناء؟ بالرأس يوجد لسان هل ينطق بالباطل؟ بالرأس دماغ بماذا يفكر؟ بالدنيا أو بالآخرة:

((من أصبح وأكبر همه الدنيا جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له، ومن أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة))

[الترمذي عن أنس]

يوجد عندنا موضوع لا ينفع حذر من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل فادعوا الله عباد الرحمن، تصور أن الدعاء وحده يمنع القضاء والقدر، ويمنع ما هو مقدر، والتشبيه المناسب لهذا الموضوع أن طبيباً جراحاً جاءه مريض يشكو توقف كليته عن العمل، فصور فوجدها واقفة فلابد من استئصالها، فلو أنه أعاد الصورة مرة ثانية قبل العملية بساعة ورآها تعمل فالطبيب قرر استئصالها، وأخذ توقيعه، وانتهى الأمر على أساس أنها واقفة فإذا عملت يلغى هذا القرار، وربنا عز وجل قرر إرسال هذه المصيبة لزيد من الناس لأنه منحرف فإذا سار إلى الله ودعا ربه وشفيت نفسه توقف القدر.

((لا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلا الدُّعَاءُ وَلا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلا الْبِرُّ))

[الترمذي عَنْ سَلْمَانَ]

الدعاء وحده يرد القضاء، ما معنى لا ينفع حذر من قضاء؟ أي لو أن الأمة اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشي قد كتبه الله لك، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ قَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

الأمر بيد الله عز وجل أما على الرغم من أن الناس كلهم لو اجتمعوا على نفعك لا يستطيعون، ولكن الدعاء وحده يوقف القضاء، إذا أحدكم لاح له شبح مصيبة عليه بالدعاء، فالدعاء فيه صلة، والصلة في شفاء، والشفاء وقف تنفيذ العملية الجراحية، هذا كل الأمر.

3 . أن يدعو وهو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه :

الأدب الثالث: أن يدعو وهو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه:

((عن جابر بن عبد الله أن النبي عليه الصلاة والسلام أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس))

[مسلم عَنِ جابر]

الدعاء عبودية لله، والاستغناء عن الدعاء ادعاء الألوهية، من هو الذي لا يدعو؟ القوي، هل أنت قوي؟ من منا يضمن أنه يعيش إلى غد؟ رأيت محلاً لاحظت أنهم يعملون ديكوراً له أكثر من ثمانية أشهر ومن أعلى مستوى، ما وقعت عيني على تزيينات رخامية معقدة جداً كهذا العمل، فتح المحل و من فوق الخمسين باكيت ورد، ومضى على فتحه شهران رأيت منذ أسبوعين نعوة على المحل التجاري، توفي صاحب المحل، سبحان الله والله الدنيا لا تستحق هذا، إنه شيء مؤقت وماضٍ، الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له. زرت شخصاً عنده مزرعة فخمة جداً واسعة، وفيها من كل الأشجار المثمرة، وقيل لي: إن صاحبها توفي وهو فيها فدفن في طرفها، أنا أتأمل هذه المزرعة أين هو؟ تحت التراب، هل يستمتع بها؟ لا انتهى، فالإنسان قيمته بعمله، إن لك يا كييس قريناً يدفن معك وأنت ميت، وتدفن معه وأنت حي، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو ملك.

أحد العارفين بالله قبل أن يكون عارفاً بالله كان شقياً، شاهد في المنام ثعباناً كبيراً يلحقه وهو يكاد يصعق من الخوف منه، إلى أن رأى ابنته الصغيرة على رأس تلة ففعلت هكذا فكف هذا الثعبان عن اللحاق به، قال لها: يا بنيتي ما هذا؟ قالت: يا أبتِ هذا عملك، قال: من أنتِ؟ قالت: أنا عملك الصالح.

الدنيا دار من لا دار له ولها يسعى من لا عقل له :

القضية ليست سهلة، أنا أنصح الأخوان نصيحة أن موضوع الموت لا يغادر أذهانكم أبداً، اعمل، وتاجر، وبع، واشتر، وادرس، وافتح بيتاً، و لكن موضوع الموت لا يغادر ذهنكم، ترك الدنيا، يدخل ويخرج هناك دخول لا خروج منه مرة واحدة، جنازة نازلة من المهاجرين إلى باب الصغير، هل سيعود إلى البيت مساءً؟ لا، لا يوجد عودة، أحب ألا يصلي فلابد من الدخول إلى المسجد لا ليصلي ولكن ليصلى عليه، فالموت يهز النفس ويضبط الأمور والله عز وجل جعل الموت رحمة.

شاب مهندس ذهب مع أهله إلى البحر وفي باله ألف مشروع، نزل إلى البحر ليسبح فمات في البحر، إذ صار معه جلطة أثناء السباحة، وعمره سبع وعشرون سنة، يقول الشاب: أنا شاب لا يمسني شيء، وهذا الكلام ليس لي بل للشيوخ الكبار في السن، فالموت لا يعرف كبيراً ولا صغيراً.

إنسان ذهب إلى فرنسا ليدرس وعاد معه دكتوراه، وعاد بالتابوت أخذها ومات في المطار، وأحدهم عاد وأثناء نقل أمتعته إلى البيت دهسته سيارة، لم يقل له أحد: دكتور ولا مرة، وقد يموت قبل الزواج، ويوجد مهندس يطل من بناء يشرف عليه، العامل من فوق رمى بلوكة فجاءت فوق رأسه فقتلته، بعد أسبوعين عرسه، وأهله قد جهزوا ثلاثمئة كيلو من الحلويات كي توزع في عرسه، فوزعوها على المعزين من شدة الألم، والموت يصل إلى الشباب أيضاً.

فأرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب ما شئت فإنك مفارق، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وإذا أحببت شيئاً دائماً أبدياً تكون عاقلاً، وإذا أحببت شيئاً فانياً تكون أحمقاً، زوجته فانية لابد من أن يتركها أو أن تتركه، إن تركها وهي طيبة يا ترى هل تتزوج أم لا تتزوج؟ هل هي وفية إلى هذه الدرجة؟ وإن ماتت قبله يجوز بعد أسبوع أن يذهب ويخطب، يقول لك: لا يجوز أن يبقى الإنسان أعزباً يديرها دينية و النبي نهى عن هذا الشيء.

((كَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السِّتَارَةَ وَالنَّاسُ صُفُوفٌ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرَاتِ النُّبُوَّةِ إِلا الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ أَلا وَإِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَقْرَأَ الْقُرْآنَ رَاكِعًا أَوْ سَاجِدًا فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمَّا السُّجُودُ فَاجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ))

[النسائي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

فبالركوع لا يوجد قرآن، بل بالركوع سبحان ربي العظيم، وبالسجود سبحان ربي الأعلى، قال: ثم ينبغي له أن يمسح بيديه وجهه في آخر الدعاء، فقد كان عليه الصلاة والسلام إذا مد يديه بالدعاء لم يردهما حتى يمسح بهما وجهه:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَفَعَ يَدَيْهِ فِي الدُّعَاءِ لَمْ يَحُطَّهُمَا حَتَّى يَمْسَحَ بِهِمَا وَجْهَهُ))

[الترمذي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه]

وإذا دعا عليه الصلاة والسلام ضم كفيه، وجعل بطونهما مما يلي وجهه فهذه هيئات اليد، ولا يرفع بصره إلى السماء، قال ﷺ:

((لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي الصَّلاةِ إِلَى السَّمَاءِ أَوْ لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ))

[النسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

4 . خفض الصوت بين المخافتة والجهر:

الأدب الرابع خفض الصوت بين المخافتة والجهر لما روي عن أبي موسى الأشعري:

((عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزَاةٍ فَلَمَّا قَفَلْنَا أَشْرَفْنَا عَلَى الْمَدِينَةِ فَكَبَّرَ النَّاسُ تَكْبِيرَةً وَرَفَعُوا بِهَا أَصْوَاتَهُمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَصَمَّ وَلا غَائِبٍ هُوَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رُءُوسِ رِحَالِكُمْ ثُمَّ قَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَلا أُعَلِّمُكَ كَنْزًا مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ]

خير الذكر الخفي، قال تعالى:

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

[سورة مريم : 3]

وأفضل الزهد إخفاء الزهد، لا نحتاج إلى مسبحة بالطريق سبح بقلبك، يوجد أناس مسبحة بيده، ومسواك، وقبقاب، أي أنه مسلم وصاحب دين والشيء في القلب.

قالت عائشة: ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها أي بدعائك، وبعضهم حمل هذه الآية على الدعاء، ولقد أثنى الله عز وجل على زكريا حيث قال: إذ نادى ربه نداء خفيا، قال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ ﴾

[سورة الأنعام: 63]

فمن السنة والأدب أن تدعو وأنت خافض الصوت.

5 . ألا يتكلف السجع بالدعاء :

الأدب الخامس ألا يتكلف السجع بالدعاء، يوجد أشخاص حفظوا أدعية جميلة جداً مسجوعة، ولها جرس موسيقي، الواحد ينسى مضمون الدعاء وينسى التوجه إلى الله عز وجل، ينهى عن التكلف في الدعاء، وينبغي له أن يكون متضرعاً والتكلف لا يناسبه، وإذا أحدكم آلامه شيء يقول لك: إنني في أشد حالات الألم والضياع والضيق و إنني واثق من الله، كثرة الصياغة المتقنة والسجع برفع الطلب صار شيئاً مضحكاً ينافي أدب الدعاء، والسجع والعناية البالغة بنظم الدعاء ينافي أدب الدعاء، وقال تعالى:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 63]

قيل: معناه التكلف بالأسجاع، والأولى ترك أدعية مأثورة لا يستطيع أحد أن يقلدها، والأولى ألا تتجاوز الأدعية المأثورة ولا تدعُ من عندك، ماذا تريد أي دعاء؟ كل أدعيته جامعة مانعة، "اللهم ارزقنا العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة".

"اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الحياة زاداً لنا من كل خير، واجعل الموت راحةً لنا من كل شر، اللهم أنا بك وإليك، أنا قائم بك ومقصدي رضاك".

"اللهم ما زويت عني ما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب".

هل يوجد إنسان من الحاضرين لا يوجد شيء في حياته ما حصل عليه؟ أعتقد لا يوجد إنسان إلا و حصل على أشياء كثيرة ولكن هناك شيء لم يحصل عليه كنت متمنياً هذا و لم يحدث، وهناك دعاء خاص بهذه الحالة، "اللهم ما زويت عني ما أحب فاجعل هذا الذي زويته عني وأنا أحبه اجعله فراغاً لي فيما تحب، وما رزقتني مما أحب فاجعله عوناً لي فيما تحب"

تحب المال آتاك الله المال، اللهم اجعل هذا المال عوناً لي على طاعتك، تحب التجارة زويت عنك فبقيت موظفاً، اللهم اجعل هذا الفراغ لمرضاتك، وهكذا فالله اختار لك من الساعة الثانية بعد الظهر إلى ثاني يوم الساعة الثامنة وأنت لست تاجراً بل موظفاً، وهذا الوقت الطويل اللهم اجعلني أقضيه في طاعتك، و الإنسان يقرأ أدعية النبي

ﷺ، فإذا الإنسان حفظ أدعية النبي الكريم وأدعية القرآن تكفي، أدعية مانعة جامعة، بليغة دقيقة.

"اللهم أغننا بالعلم، وزينا بالحلم، وأكرمنا بالتقوى، وجملنا بالعافية".

قال عليه الصلاة والسلام:

((إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار))

[ابن ماجه عن عائشة]

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَّمَهَا هَذَا الدُّعَاءَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا))

[أحمد عَنْ عَائِشَةَ]

فالإنسان يكتفي بأدعية النبي عليه الصلاة والسلام، قال: مر بعض السلف بقاص يدعو بالسجع – دعاء مرتب – فقال له: أعلى الله تبالغ؟ – تتفاصح على الله – فأنت بحال تضرع، وبحال خشية، وترجي، المترجي لا يليق به أن يتفاصح على الآخرين.

قيل: أحد العارفين بالله كان دعاؤه مستجاباً، والناس إذا أمنوا على دعائه كان يستجاب لهم ماذا كان يقول؟ كان يقول: اللهم اجعلنا جيدين، اللهم لا تفضحنا يوم القيامة، اللهم وفقنا للخير، والناس يؤمنون على هذا الدعاء ويستجاب لهم، وقال بعضهم: أدعو بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق، وسوف نتابع هذا الموضوع في درس قادم إن شاء الله تعالى.

* * *

زواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد بنت أسد :

و الفقرة الثالثة من الدرس شيء عن السيرة النبوية موضوع اليوم زواجه ﷺ بخديجة بنت خويلد بنت أسد.
كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تدعى في الجاهلية قبل الإسلام بالطاهرة، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربعة آسيا امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد، و خديجة بنت خويلد:

((كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ غَيْرُ مَرْيَمَ بِنْتِ عِمْرَانَ وَآسِيَةَ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ))

[البخاري عَن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ]

فإحدى أربع نساء كملت لشدة عفافها وصيانتها، وكانت برةً وتقيةً، وذات عقل واسع، وذكاء لامع، وجمال وكمال وحسب ومال، وقد عرضت السيدة خديجة رضي الله عنها نفسها على النبي صلى اله عليه وسلم، وله من العمر خمسة وعشرون عاماً عند أكثر العلماء، ولها من العمر أربعون عاماً، إذا إنسان زوجته أكبر منه بسنة يبقى طول عمره محروقاً قلبه، أخي أخذتها كبيرة ونصحوني وما انتصحت، انظر إلى رسول الله ﷺ خمس عشرة سنة أكبر منه، أي بقدر والدته، والإنسان لا يعقدها كثيراً، قال سيدنا عمر لرجل متضايق، قال له يا أخي: إما أن نموت فتستريح منا وإما أن نموت فنستريح منها.

فأرسلت إليه نفيسة بنت منية كما روى ابن سعد من طريق الواقدي أنها تقول للنبي عليه الصلاة والسلام كانت خديجة امرأة حازنةً، جلدةً، شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير وهي يومئذٍ أوسط قريش نسباً، وأعظمهم نسباً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على الزواج منها لو قدر على ذلك، وقد طلبوها وبذلوا لها الأموال.
والحقيقة أن النبي الكريم أول شركة في الإسلام شركة مضاربة تمت بينه وبين السيدة خديجة هي بمالها وهو بجهده، وبالفقه هذه الشركة أول شركة، شاب ناشئ، متقد، متحمس، مختص بفرع من فروع المهمة، خبير ولا يملك مالاً، وشخص متقدم بالسن معه مال أشرف طريقة لاستثمار هذا المال أن تقيم شركةً بينك وبين إنسان مؤمن مستقيم، مندفع، خبير، مخلص، تنفعه وتنفع نفسك، أما طرق استثمار المال الأخرى فمشبوهة.
والسيدة خديجة عرضت نفسها على النبي وقالت: يا ابن عمي إني قد رغبت فيك لقرابتك، ووساطتك في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، و النبي ﷺ قبل، وإذا أحدكم جاءه عرض لا يرده، هذا هو، أي إذا رجل فتح له باب رزق فليلزمه، بلغه أنه يوجد امرأة تود الزواج وتقبل به يرسل والدته لتراها فلا يستنكف، ولا يستعلِ،

وأجمل ما في الموضوع كيف تمت خطبتها.

خطبة النبي الكريم لخديجة رضي الله عنها :

خرج النبي ﷺ وعمه أبو طالب وعمه حمزة، حتى دخلوا على أبي خديجة خويلد بن أسد، وحضر المجلس رؤساء مضر، وخطب فيهم أبو طالب وقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وجعلنا حضنة بيته، وسواس حرمه، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على ، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً – هذه قبل البعثة – وفضلاً وعقلاً فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائد أو حائل وعارية مسترجعة.

قيمة الشاب أخلاقه، وعلمه، وأدبه، وأعماله، والآن الناس يقولون: ماذا تملك؟ أين بيتك؟ ماذا تعمل؟ فقط النواحي المادية، أما الإنسان المؤمن الطيب فلا يوزن بالذهب.

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به شرفاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً، فإن كان في المال قل فإن المال ظل زائد أو حائل، وعارية مسترجعة، ومحمد بين قد عرفتم قرابته، وقد خطب إليكم راغباً كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما حكم عاجله وأجله اثنتا عشرة أوقية ذهباً ونصفاً، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل – يوجد دلائل الأخلاق العالية – هذه خطبة النكاح التي خطبها عمه أبو طالب حينما أجمع الزواج من السيدة خديجة رضي الله عنها، فزوّجها أبوها وقيل: زوجها عمها، وقيل: أخوها، فولدت له ﷺ جميع أولاده الكرام إلا إبراهيم فإنه من ماريا القبطية، وأولاده الكرام عليه وعليهم الصلاة والسلام قد اختلف في عددهم، والأصح أنهم سبعة، ثلاثة ذكور القاسم وعبد الله والطاهر، عبد الله كان يلقب بالطيب، ثلاثة ذكور وأربع بنات، السيدة زينب وهي أكبرهن، والسيدة رقية، والسيدة أم كلثوم، والسيدة فاطمة الزهراء البتول، على أبيهن وعليهن الصلاة والسلام.

العلاقة بين النبي صلى الله عليه و سلم و ابنته فاطمة الزهراء :

و كان يقول صلى الله عليه و سلم:

((فاطمة بضعة مني من أغضبها أغضبني))

[المعجم الكبير عن المسور بن مخرمة]

لما دنت منية النبي عليه الصلاة والسلام دخلت عليه تبكي فهمس في أذنها فإذا هي تضحك، قال: أنت أول أهلي لحوقاً بي، فضحكت، لشدة تعلقها بالله عز وجل وبأبيها، وقد قالت السيدة عائشة:

((مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلا وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللَّهِ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ...))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

أشبه بناته فيه، وقالت عائشة رضي الله عنها:

((وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ إِلَيْهَا))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

هل تعرفون أن البنت لا تهان أبداً، لأن كل كرامتها وعفتها من كرامتها، فالإنسان عندما يضرب ابنته يكون قد ارتكب خطأ كبيراً جداً، لأن هذه البنت إذا كان أبوها يكرمها ويحترمها تكون رافعة رأسها، حريصة على سمعتها، فإذا أهينت في بيتها يصبح الانحراف خطيراً، كان النبي ﷺ إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه –طبعاً مجلسه الخاص – وكان النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخل عليها قامت له فقبلته وأجلسته في مجلسها، فلما مرض النبي عليه الصلاة والسلام أتت فاطمة فأكبت عليه فقبلته ثم:

((عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشْبَهَ سَمْتًا وَدَلا وَهَدْيًا بِرَسُولِ اللَّهِ فِي قِيَامِهَا وَقُعُودِهَا مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ: وَكَانَتْ إِذَا دَخَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ إِلَيْهَا فَقَبَّلَهَا وَأَجْلَسَهَا فِي مَجْلِسِهِ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا قَامَتْ مِنْ مَجْلِسِهَا فَقَبَّلَتْهُ وَأَجْلَسَتْهُ فِي مَجْلِسِهَا فَلَمَّا مَرِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَتْ فَاطِمَةُ فَأَكَبَّتْ عَلَيْهِ فَقَبَّلَتْهُ ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا فَبَكَتْ ثُمَّ أَكَبَّتْ عَلَيْهِ ثُمَّ رَفَعَتْ رَأْسَهَا فَضَحِكَتْ فَقُلْتُ إِنْ كُنْتُ لأَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ مِنْ أَعْقَلِ نِسَائِنَا فَإِذَا هِيَ مِنَ النِّسَاءِ فَلَمَّا تُوُفِّيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ لَهَا أَرَأَيْتِ حِينَ أَكْبَبْتِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَفَعْتِ رَأْسَكِ فَبَكَيْتِ ثُمَّ أَكْبَبْتِ عَلَيْهِ فَرَفَعْتِ رَأْسَكِ فَضَحِكْتِ مَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ قَالَتْ: إِنِّي إِذًا لَبَذِرَةٌ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ مَيِّتٌ مِنْ وَجَعِهِ هَذَا فَبَكَيْتُ، ثُمَّ أَخْبَرَنِي أَنِّي أَسْرَعُ أَهْلِهِ لُحُوقًا بِهِ فَذَاكَ حِينَ ضَحِكْتُ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

معاملة النبي ﷺ لابنته فاطمة الزهراء :

كان النبي عليه الصلاة السلام إذا سافر كان آخر عهده إتيان فاطمة – آخر من يودعها فاطمة – وأول من يدخل عليها إذا جاء من سفره فاطمة، وكان ﷺ إذا قدم من سفر، أو من غزو، بدأ في المسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم أتى فاطمة، ثم أتى أزواجه، البنت أحياناً تكون سبباً لدخول الجنة، إنهن المؤنسات الغاليات، أحياناً البنت تجلب صهراً أغلى من الابن بكثير، الابن يجوز ألا يكون كما تريد أما الصهر فقد يكون مؤمناً فتشعر أنه أغلى من ابنك، وهؤلاء جالبات الأصهار المؤنسات الغاليات ما أكرمهن إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم ويغلبهن لئيم، كان إذا حمل فاطمة وهي صغيرة يضمها ويقبلها ويقول: ريحانة أشمها ورزقها على الله.

ترى الآن الإنسان عابساً إن جاءته بنت يطلق امرأته، هذا أحمق، لي صديق جاءته السابعة كل مرة يقدم لزوجته هدية ثمينة جداً، وهذه المرة قدم لها هديتين، وأرسل لكل أخت من أخواتها الصغار باقة ورد يقدمنها للأم، وهكذا يفعل المؤمن، السابعة لا يوجد عنده ولا صبي هذه هدية من الله عز وجل.

بشرها النبي عليه الصلاة والسلام أنها سيدة نساء أهل الجنة – السيدة فاطمة –.

آخر شيء عن السيدة فاطمة رضي الله عنها: يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين، وفي روايةٍ:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا قَالَتْ: أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْحَبًا بِابْنَتِي ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَقُلْتُ لَهَا: لِمَ تَبْكِينَ؟ ثُمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَضَحِكَتْ فَقُلْتُ مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ فَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلا أُرَاهُ إِلا حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي فَبَكَيْتُ فَقَالَ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

((فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ))

[الحاكم عن أبي سعيد]

وقد روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال:

((هذا ملك من الملائكة استأذن ربه ليسلم علي، وبشرني أن حسناً وحسيناً سيدا شباب أهل الجنة، وأمهما سيدة نساء أهل الجنة))

[الطبراني عن حذيفة]

هكذا النبي الكريم عامل ابنته، وكل واحد منا يجب أن يكرم ابنته، ويجبر بخاطرها، ويعلمها، ويهذبها، ويجعلها زوجة صالحة، ربما دخل عن طريقها الجنة: " من جاءه بنتان فأحسن تربيتهما فأنا كفيله في الجنة قالوا: واحدة؟ قال: واحدة".

والحمد لله رب العالمين

الدرس 16 : صلاة المسافر 1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

صلاة المسافر :

أيها الأخوة المؤمنون، درسنا اليوم صلاة المسافر، وقبل الحديث عن صلاة المسافر لابد من الحديث عن السفر، فالسفر يسبب تغيراً في بعض الأحكام الشرعية، من هذه الأحكام التي يطرأ عليها تغير في السفر أولاً: قصر الصلوات الرباعية، هذا أول تغيير، وإباحة الفطر في رمضان، وامتداد مدة المسح إلى ثلاثة أيام، وسقوط وجوب الجمعة والعيدين، وسقوط الأضحية، وحرمة الخروج على الحرة بغير زوج أو محرم - إذا كان المسافر امرأة يضاف إلى هذه الشروط أنه لا يجوز أن تسافر إلا مع زوج أو محرم- ويباح للمسافر التنفل على الدابة دون المقيم، المقيم لا يحق له ذلك.

هذا كله مما يطرأ عليه تعديل بسبب السفر.

ما يطرأ على الصلاة في السفر :

اليوم الموضوع ما يطرأ على الصلاة فقط، أقل سفر تتغير فيه الأحكام مسيرة ثلاثة أيام من أقصر أيام السنة بسير وسط مع الاستراحة، ومع الحسابات الطويلة قدرها العلماء بواحد وثمانين كيلو متراً، أي أقصر أيام العام مسير ثلاثة أيام مع الاستراحة سهلاً أو صعوداً أو هبوطاً المعدل واحد وثمانون ألف متر، لكن المذهب الحنفي يقيد هذه المسافة بالمدة، الآن بعد النبك واحد وثمانون كيلو متراً أي ساعة بالسيارة، ولكن يوجد شرطان هما شرط قطع هذه المسافة، وشرط أن يدوم السفر ثلاثة أيام، إذا قطعت هذه المسافة بثلاثة أيام لك الحق أن تقصر الصلاة، فيقصر الفرض الرباعي من نوى السفر، إلا أنه بالفقه يوجد أشياء يتوقف عندها الإنسان أحياناً، قال:

ولو كان عاصياً أي إذا خرج الإنسان ليقطع الطريق على الحجاج له أن يقصر الصلاة، أية صلاة هذه؟ قال: قاطع الطريق له أن يقصر الصلاة لأنه مسلم، وهل الذي يقطع الطريق ويخيف الناس ويسلبهم أموالهم هو مسلم، نحن يهمنا أمره إذا صلى أو لم يصلِّ.

على كلٍّ يقصر الفرض الرباعي من نوى السفر إذا جاوز بيوت مقامه، وجاوز أيضاً ما اتصل به من ثنائه، فلا يكفي أن يغادر بيته بل يجب أن يغادر المدينة بعد بيته يوجد بيوت، وبعد البيوت مقابر و فلوات، فيجب أن يتجاوز فناء المدينة.

شروط صحة نية السفر :

يشترط لصحة نية السفر ثلاثة أشياء؛ الاستقلال بالحكم، أي لا يكون جندياً في جيش، وأحياناً يسافر المعلم مع صانع، وهذا الصانع ليس له خيار في السفر، فالذي أمره بيد غيره لا يحق له قصر السفر، لكن من كان مستقلاً بالحكم، ومن كان بالغاً، وعدم نقصان مدة السفر عن ثلاثة أيام، فهذه هي الشروط الثلاثة، زوجة من زوجها لا يحق لها أن تقصر السفر وحدها، فلا يقصر الصلاة من لا يجاوز عمران قيامه، أي خرج من الشام ووصل إلى القدم فما تجاوز العمران، والآن يقول لك: ضموا برزة إلى دمشق، ويوجد قرار أن يضموا حرستا ودوما إلى دمشق، والمعضمية سوف يضمونها مع دمشق، وكفرسوسة مع دمشق، وداريا مع دمشق، وهذه كلها ملحقة بالشام، وعليه أن يجاوز عمران مقامه، فإذا كان صبياً بعد فلا يقصر، أو كان تابعاً لم ينوِ متبوعه السفر كالمرأة مع زوجها، والعبد مع مولاه، والجندي مع أميره، أو نوى السفر ولكن لم يدم سفره ثلاثة أيام فما فوق ودون الثلاثة أيام، على كلٍّ هذه بعض الشروط التي يمكن أن يقصر الإنسان صلاته.

فالرباعية تصبح ثنائية، أما صلاة الفجر فتبقى ثنائية هي هي، والمغرب هو هو، والوتر يصلى لأنه فرض عملي، أي أقرب إلى الفرض منه إلى السنة، أما السنن فالعلماء قالوا: لو رجل أثناء السفر يوم السفر يوجد مشقة وتعب فالفرض فقط، لكن وصل إلى مكان، ونزل بفندق واستراح، إذا كان مرتاحاً نفسياً وجسدياً يصلي السنن مع الفرض مقصوراً، أما إذا كان عليه مشقة وفي عجلة من وقته ويوجد تعب فالفرض فقط، والرباعي يصبح ثنائياً، وللسفر أحكام أخرى نتابع بها الدرس القادم إن شاء الله تعالى، وعلى كلٍّ بالمذهب الحنفي يكره أن تتم في السفر، المتمم بالسفر كالمقصر في الحضر.

* * *

موضوع الدعاء :

والآن إلى بعض فصول إحياء علوم الدين، وكنا قد وصلنا في الدرس الماضي إلى موضوع الدعاء، وبقينا في الدعاء أسبوعين كما أذكر، قلت لكم في الدرس الماضي: إن الدعاء مخ العبادة وإن الدعاء يرد القضاء، فبالدعاء يحصل صلة، ومع الصلة يحصل شفاء، وإذا شفي العبد ألغي العلاج، ومن بديهيات الطب إذا الكلية عملت بانتظام يلغى قرار استئصالها، وقرار استئصالها قائم مادامت واقفة عن العم،ل فإذا عملت يلغى قرار استئصالها، وكذلك الدعاء إذا حصل بإخلاص وصلة وشفاء يرد القضاء، وينفع الدعاء مما نزل ومما لا ينزل، فادع الله عباد الله.

آداب الدعاء :

1 . أن يترصد الداعي الأوقات الشريفة :

تحدثنا عن آداب الدعاء وقلنا هي عشرة آداب؛ الأول: اغتنام الأوقات الشريفة على مستوى السنة يوم عرفة، وعلى مستوى الأشهر رمضان، وعلى مستوى الأسابيع يوم الجمعة، وعلى مستوى اليوم الواحد وقت السحر.

2 . أن يغتنم الإنسان الأحوال الشريفة :

و على الإنسان أن تغتنم الأحوال الشريفة في السجود، وعند نزول المطر، ودبر الصلوات المكتوبة.

3 . أن يدعو وهو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه :

ينبغي أن ندعو ونحن مستقبلو القبلة تأدباً مع الله عز وجل.

4 . خفض الصوت بين المخافتة والجهر :

أن نخفض أصواتنا بالدعاء فإن الله سبحانه وتعالى يعلم السر وأخفى.

5 . عدم التكلف :

وتحدثنا عن أدب خامس: عدم التكلف، فالإنسان ليس له أن يتفاصح على الله عز وجل، وكأن التفاصح على الله عز وجل لا يتناسب مع الإخلاص في الدعاء، ومع التضرع، ومع الخفية، فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 55]

وفسر بعضهم العدوان في الدعاء: أن يتفاصح الإنسان على ربه، أن يرفع صوته، وأن يحكم السجع، وأن ينتقي الكلمات، وأن يلتفت إلى الصياغة، و أن يجعل همه في الدعاء انتزاع إعجاب الآخرين، فإذا كان هذا هو الهدف فالدعاء لا يقبله الله سبحانه وتعالى وينتظر التفات القلب، فسيدنا عمر قال: " تعاهد قلبك ".

القلب منظر الرب :

والله تعالى قال:

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الْأَنْفَالِ قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

[سورة الأنفال: 1]

ذات البين هي النفس، فكل واحد منا يصلح هندامه، فإذا كان زره مقطوعاً يصلحه، وإذا كان على معطفه وسخ ينظف، ويصلح منظره، وبيته، و غرفة الاستقبال، وغرفة الطعام، و يصلح مطبخه، و مركبته، لكن المؤمن يصلح نفسه لأن أخطار النفس تبقى مع الإنسان إلى الأبد، وكل متاعب الجسد تنتهي بالموت ولو اعتنى بجسده، فمصيره إلى الدود، والشيء اللطيف أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ليفنى، وخلق الإنسان ضعيفاً، ولكن الإنسان يوم القيامة خلق ليبقى إذاً لا يوجد مرض. والإنسان قد يكون مظهره حسناً، ولكن من داخله خرباً، واستعلاء، وخداعاً، وغشاً، و هذه كلها أمراض مهلكة، قال تعالى:

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾

[سورة الشعراء:88]

أنا أتحير أن هذا الإنسان يرتب وضعه، ويحسن بيته من داخله، ويعتني بمدخل البناء و ينظفه، يحتاج إلى باب، و أنترفون، يهتم بالمظهر، وهذا القلب، قال: "يا عبدي طهرت منظر الخلق سنين فهلا طهرت منظري ساعة". القلب منظر الرب، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، فالإنسان عندما ينام وهو غاش لأخيه المسلم يأتي لك زبون ويقول لك: انصحني؟ فما تنصحه، وتحاول أن تضع الأعباء كلها على الآخرين وأنت ترتاح، وتحب أن تحمد بما لا تفعل، فهذا الإنسان لا يستحق أن يكون عند الله مقرباً.

علامة المؤمن أنه يتأثر تأثراً شديداً :

يوجد شيء دقيق جداً لك مكانة عند الله عز وجل أم أنك ساقط من عين الله عز وجل؟ قد يكون له مكانة كبيرة في المجتمع، وقد يعظمونه لماله، فأهل الدنيا يعظمون أهل الدنيا، وقد يكون عند الله لا شأن له:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[الترمذي، ابن ماجه عن سهل بن سعد]

وعلامة المؤمن يشعر، عنده إحساس، فإذا قال لك أحدهم: أنا لا أتأثر، أنا أنظر ولا أتأثر، فهو معقد وليس طبيعياً، ماذا ترد على هذا الإنسان؟ هذه المعاصي نسبية بحسب المجتمعات، فكيف ترد على هذا الرجل؟ أنا أرد عليه وأقول له: إن الثوب الأسود القذر لا يتأثر، أحضر إنساناً وألبسه لباساً أزرق اللون، وصار بالشحم أسود، أمسك قلم حبر من ظهره وأعطه نقطة حبر لا يشعر ولا يشاهد، يقول لك: ماذا حدث؟ لا شيء، ولكن تعال إلى إنسان يلبس ثوباً أبيض، فبقدر رأس الدبوس يشعر، فإذا قال لك: أنا لا أتأثر فمعنى هذا أنه ليس عنده إحساس إطلاقاً، ومعنى هذا أنه لا يعي على خير، فالمؤمن يتأثر تأثراً شديداً، و المؤمن إذا اغتاب لا ينام الليل، سقط من عين الله، وإذا غش لا ينام الليل يقول لك: لم أستطع أن أنام الليل وهذه علامة إيمانه، أما اغتاب، وغش، وآذى، وفرق بين اثنين، وافترى على إنسان شيئاً ما قاله، وذهب ينام نوماً عميقاً، فهذا لباسه أسود اللون، وكثرة المعاصي لا تؤثر به، أما علامة المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ومعنى يذنبون أي يشعرون إذا أذنبوا، فالعناية بالقلب أي اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم.

على الإنسان أن يصلح علاقاته مع الناس :

هناك معنى آخر لهذه الآية أي أصلح علاقتك مع الناس إذا قصرت فاعتذر، وإذا كان لك أخ بحاجة إلى مساعدة ساعده، وإذا قدم لك هدية فهذه دين عليك فرد هذا الدين، وإذا أخوك بلغه عنك كلام غير صحيح فاذهب إليه وقل له الحقيقة، فالبيان يطرد الشيطان، وإذا كان لك علاقة سيئة مع شريكك فاجلس جلسة معه واشرح له كل شيء، وإذا كان التقصير منك فتلافى هذا التقصير، فمن علامة الإيمان أن علاقة الإنسان مع الناس كلها طيبة، ومن علامات النفاق يقول لك: اطرده فهذا أخرجنا له ورقة صفراء لا نريده، وإذا كان الإنسان لا تهمه مكانته عند الناس لأنه يقطع علاقات، ويؤذي، ويسبب فساد ذات البين، فليس مؤمناً، فأصلح علاقتك مع زوجتك فهذا الشيء يعكرها فلا تعمله، يحزنها الحديث عن أهلها فلا تفعل هذا، ابق علاقتك مع زوجتك عامرة بالصدق، والاحترام المتبادل، وابق صادقاً أمامها، وورعاً، ترى المؤمن علاقته مع زوجته طيبة جداً له قوامته، وعلاقته مع جيرانه كذلك، والنبي الكريم أحد الأعداء نال منه بلسانه فقال: من يقطع لسانه؟ يوجد فهم أن يقطع له لسانه بالمقص، أما علية أصحابه فهموا أن يقطعوا لسانه بالإحسان.

قال لي شخص: لي جار مزعج جداً، يفتح الإذاعة و نريد أن ننام، أو أن ندرس، يرمي علينا الوسخ، قال لي: لم أستطع عليه إلا بهدية، أرسلت له هدية بعد هدية فصار ألطف ما يكون، قطع لسانه بالهدية.

((تَهَادَوْا فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ وَلا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنِ شَاةٍ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الإنسان عليه أن يتعاهد قلبه، كما لو أنه شاهد شيئاً أسود يتحرك بعينه يسير مع نظره، يقول لك: إلى الطبيب لا يوجد معها لعب، هذه عين، يأخذ موعداً بعد شهر يخاف أن ينسى الموعد فيسجله معه على المفكرة، يكتبه على الحائط، فكيف الإنسان يخاف على عينه يجب أن يخاف على قلبه، و لذلك طوبى لمن كان قلبه سليماً.

6 . التضرع والخشوع والرغبة والرهبة :

إذاً الأدب السادس: التضرع والخشوع والرغبة والرهبة، قال تعالى:

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾

[سورة الأنبياء:90]

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 55]

قال عليه الصلاة السلام:

((إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه))

[الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس]

أي الله عز وجل يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان، يصلي شكلاً، و يصوم و لم تدمع عينه، وما قال: يا رب، إنه غارق بعمله، فالله عز وجل يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان، يرسل له مشكلة، أي يستفزه، يدعوه إلى مناجاته، فالعبرة أن يسجد هذا الإنسان ويقول: يا رب ما لي سواك، الله عز وجل يحب من العبد أن يتضرع له، ويحب من العبد أن يمرغ وجهه بأعتابه، و يحب منه أن يترجاه، وأن يسأله حاجته كلها ولو شسع نعله إذا انقطع، إذا إنسان أضاع مفاتيح البيت يبحث ويبحث، قل: يا جامع الناس، الله يعلم أين هي، تكون تحت الوسادة، وبين أن يبحث ساعتين وبين أن يقول: يا رب يا جامع الناس اجمع بيني وبين حاجتي، إن الله يحب من عبده أن يسأله حاجته كلها.

((من لا يدعوني أغضب عليه))

[الجامع الصغير عن أبي هريرة]

لأنه مستعلٍ، على قدر ما تستطيع كن عزيز النفس مع الناس، ولكن مع الله سبحانه وتعالى على قدر ما تستطيع تضرع، أنت عبد، والأدب السادس التضرع والخشوع والرغبة والرهبة، يا رب ارحمني إذا شئت، لا لماذا إذا شئت؟ يا رب ارحمني، إذا دعا أحدكم فليجزم في دعائه ولا يقل إذا شئت، يا رب ارحمني، يا رب وفقني يا رب ارزقني رزقاً حلالاً طيباً مباركاً، يا رب زوجة صالحة تعينني على أمر ديني، اطلب من الله، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة.

7 . أن يجزم الدعاء ويوقن بالاستجابة :

نحن استبقنا الأمور؛ الأدب السابع أن يجزم الدعاء ويوقن بالاستجابة، فالله عز وجل لا يشارط ولا يجرب، هاتان نقطتان دقيقتان، أنا أكره النذر، لي قريب يظهر أنه سبح في مسبح ملوث فصارت وشة في أذنه، فلم يبال فيها على يومين أو ثلاثة تفاقمت، فذهب إلى الطبيب فقال له: هذه حالة نادرة جداً بالمئة ألف، هذا جرثوم يلتهم

العصب السمعي رأساً، حالته المادية موفورة خرج خارج القطر نفس الكلام، رجع إلى البلد منهاراً نفسياً، وهو شاب أول حياته سوف يفقد حياته، فقال يا رب إذا شفيتني سوف أدفع خمسين ألفاً، والآن الله عز وجل أكرمه و شفي واستعاد سمعه، و الإنسان عندما يصاب بمصيبة ليس إذا شفيت لي ابني أدفع، لا، الله لا يجرب، أنت ادفع حباً بالله عز وجل إذا شفاه يكون خيراً وإذا لم يشفه خير.

أعرف رجلاً و هو بعيد عن الدين بعداً كبيراً، رأيته يصلي، حضر هنا في المسجد قال لي: أنا أحضر عندك من ستة أشهر، قلت له: أهلاً وسهلاً، قال لي: ابنتي أصابها مرض خبيث وما تركت طبيباً ولا بلداً، بعت بيتي وأخذتها إلى انكلترا، و بعد ذلك خطر في بالي خاطر أنه إذا أنا تبت وأمها إلى الله لعل الله عز وجل يكرمنا بشفائها، وبدأنا نصلي، لقد صلى وحجب امرأته، قال لي: فصار عندي محبة لله عز وجل، ونسيت ابنتي قلت: يا رب هذه ابنتي عبدة لك إن شئت شفيتها وإن شئت أمرضتها، ونسي الموضوع كله، مثل إنسان أحب فتاة وخطبها فكان أبوها عالماً فقال له: هذه مهرها أن تحضر عندي دروساً ولا يوجد عندي مهر آخر، وهذا لما حضر الدروس نسي وصالاً، فقالت له: أنت كنت قد خطبتني، فقال لها: يا وصال كنت سبب الاتصال فلا تكوني سبب الانفصال.

فأحياناً الإنسان ينسى الموضوع كله، إذا صار لك معرفة بالله فهو الحكيم والرحيم، وهو أرحم منك ومن نفسك، يا رب اشفني، وبعد هذا تجد الشفاء به، إذا شفاك فهذه الحكمة، وإذا لم يشفك فهذه أيضاً الحكمة، والإنسان إذا عرف الله عز وجل يستسلم، فهذا التشنج والإلحاح ينتهي، أي خر لي واختر لي، قرأت دعاء يوم الجمعة على المنبر فهذا الدعاء عن النبي قال: "يا ربي اجعلني أخشاك حتى كأني أراك".

ففسرته هل من الممكن أن يخالف الإنسان إذا كانت الإشارة حمراء وشرطي السير واقف أمام الإشارة، ويعرف أنه يوجد حجز، وسجن، وسحب إجازة؟ ليس معقولاً، وإذا أحد شعر أن الله يطلع عليه، "يا رب اجعلني أخشاك حتى كأني أراك"، بعد هذا يقول: "يا رب أسعدني بتقواك ولا تشقني بمعصيتك"، ومعنى هذا أن المتقي سعيد والعاصي شقي، "وخر لي في قضائك وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت". يقول لك أحدهم: أنا إلى الآن ما تزوجت وهذا ترتيب الله عز وجل، لا يحب تعجيل ما أخّر الله سبحانه وتعالى، يمكن هذه الفرص قبل الزواج – إذا كان الإنسان مؤمناً – للتعمق في الدين، فالزوجة لها طلباتها وتجلس معها، أين كنت إلى الآن؟ أما إذا كان عازباً فيجلس مع إخوانه في سهرة دينية يذوب ذوباناً، أما المتزوج فأنا لا أستطيع، تأخرت بعد هذا يصبح علي مسؤولية.

((اِغْتَنِمْ خَمْساً قَبْلَ خَمْسٍ))

[أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس وأحمد عن عمرو بن ميمون]

فلذلك: "حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت، خر لي في قضائك وبارك لي في قدرك".

البطل من يتضرع إلى الله وهو في الرخاء :

من آداب الدعاء حتى يسمع الله تضرعك، أنا أقول: البطل الذي يتضرع إلى الله وهو في الرخاء، لا يوجد بجسمك شيء من دون أن يكون التحليل فيه نسبة عالية بالأسيد أوريك، قبل النسب صلِّ صلاة محب، صلِّ صلاة مودع، ارجُ الله عز وجل أن يهديك ويجمعك مع أهل الحق، ويجعلك خادماً للحق، ارجُ الله وأنت في صحتك.

أن يجزم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه في الله عز وجل، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمُ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلا يَقُلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أكثر من الأسئلة مع الله عز وجل، اللهم ارزقني في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، اللهم ارزقني العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة، أي لا يطلب من الله شيئاً قليلاً.

قرأت قصة مرة تأثرت بها عن رجل كريم طرقت بابه امرأة، وعنده صديق له فأعطاها عطاءً كبيراً، فقال هذا الصديق: يا رجل كان يكفيها القليل، شيء آخر: إنها لا تعرفك، فأجابه إجابةً أسكتته، قال: إن كان يرضيها القليل فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

إذاً ولله المثل الأعلى اطلب من الله طلباً عظيماً، اطلب الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل.

على الإنسان أن يطلب الدنيا في سبيل الآخرة :

الدنيا ليس لها قيمة يعطيها من يحب، اطلب الدنيا في سبيل الآخرة، اطلب رزقاً وفيراً، اجعل لك وقت فراغ تتعرف إلى الله عز وجل، يوجد إنسان من الساعة السابعة صباحاً إلى الساعة العاشرة ليلاً يعمل ويصل إلى البيت على آخر نفس، اطلب من الله عملاً يفسح لك من الوقت ما تتعرف به إلى الله عز وجل. إذا الإنسان دعا الله عز وجل يجب أن يعظم، هل من المعقول تدخل على ملك وتقول له: أريد قلم رصاص؟ تقول له: أريد بيتاً، ولاية الشام، كان يذهب إلى استنبول يريد ولاية الشام، فإذا الإنسان وقف في باب ملك لا يطلب طلباً متواضعاً، بالمناسبة استغن على الناس يحبك الناس، ازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس، أما عند الله عز وجل فارغب بما عند الله عز وجل يحبك الله، والنبي الكريم علمنا:

((... لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أحياناً تطلب من أخيك شيئاً يقول لك: لا يوجد عندي إمكانية هذا الطلب صعب، والإنسان محدود، و لك صاحب بمنصب ذهبت إليه يقول لك: أنا لا أستطيع أنا أيضاً مسؤول، الإنسان محدود أما الله عز وجل فمن يحد عطاءه؟ كن فيكون.

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي: إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

[الترمذي عَنْ أَبِي ذَرٍّ]

((ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أنا أضرب مثلين؛ أول مثل: أنت عندما تقول: سمع الله لمن حمده، أحياناً الإنسان يقرؤها وهو غافل، سمع الله لمن حمده، فالآن الله عز وجل يستمع إليك، والله إذا الإنسان له شأن في المجتمع قال لك: تكلم تذوب خجلاً منه، وأحياناً تقابل شخصاً يرن الهاتف أول مرة والثانية والثالثة فلا يفهم منك قصتك، أما إذا دخلت إلى رجل مهم

فقال لأمين سره: اقطع جميع الهواتف الآن، وقال لك: تفضل وتكلم، ألا تذوب خجلاً من هذا الإنسان؟ قطع عنه كل المراجعين، وكل مخابرة حتى يسمع منك، فكلمة سمع الله لمن حمده في الصلاة، الله عز وجل خالق الكون يستمع إليك ماذا تقول له، ربنا لك الحمد والشكر، والنعمة والرضا، ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً، وأحياناً ترى هذه الكلمات لا تريح قلبك، سبحانك لا نثني ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، أي يا رب كيف أشكرك؟ قال يا عبد هذا شكرك.

الشيء الثاني الذي يؤثر فيّ إذا قال لك طفل كم الساعة؟ تستحي ألا تجيبه وتكون الساعة في جيبك وتلبس معطفاً، تفك المعطف، وتخرج الساعة وتقول له: الساعة السادسة والربع، تخجل من طفل ألا ترد عليه فالله تقول له: يا رب ارزقني رزقاً حلالاً ألا يرد عليك؟ تطلب بيتاً، و العفاف و زوجة صالحة، ورزقاً حلالاً، ومعرفته، وأن يجمعك مع أهل الحق الصادقين ألا يرد عليك؟ فهل يجمعك مع الكاذبين؟ هذا ليس معقولاً، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة العنكبوت: 69]

من شروط استجابة الدعاء الإيمان بالله والاستقامة على أمره والشعور بقربه :

الإنسان عندما يدعو الله عز وجل يتصور أن الله يسمعه وسوف يستجيب له، إن الله حيي كريم، يستحي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما خائبتين، فالله يستحي منك، وأنت اطلب طلباً معقولاً، ادعوا الله عباد الله واتقوا الله فيما تدعون، واطلبوا طلباً معقولاً، وإذا كان الطلب غير معقول فلا يستجيب لك.

قال سفيان بن عيينة: "لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلمن من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله"، المعنى هنا أن الإنسان ولو كان مقصراً يوجد آية:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾

[سورة البقرة: 186]

والعلماء استنبطوا من هذه الآية لابد من الإيمان بالله، والاستقامة على أمره والشعور بقربه، والإخلاص في الدعاء، يجب أن تحس أنه قريب، وأقرب إليك من حبل الوريد، أي من روحك، يحول بين المرء وقلبه، وإذا خطر في بالك خاطر فهذا الخاطر يقع في علم الله قبل أن تعلمه أنت، أي يحول بين المرء وقلبه، أجيب دعوة الداعي إذا دعاني حقيقةً، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، فليستجيبوا لي، ويطبقوا كلامي، وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون،

فالعلماء استنبطوا: لابد من الإيمان بالله، ولابد من الاستجابة إلى أمره، ولابد من الإخلاص في الدعاء، ولابد من الشعور بقرب الله عز وجل، وهو معكم أينما كنتم، وإذا توافرت هذه الشروط استجاب الله الدعاء.

المضطر يسمع الله دعاءه من دون شروط :

يوجد آية ثانية:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 55]

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 56]

أيضاً استنبطوا من هذه الآية يريد تضرعاً أي تذللاً، وخفية من دون ضجيج، وخوفاً وطمعاً، ولا تكن معتدياً، وكن محسناً ثلاثة شروط، لكن العلماء قالوا: إلا إذا كان العبد مضطراً فإن الله سبحانه وتعالى يسمع دعاءه من دون كل هذه الشروط، لقوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة النمل: 62]

فلو كان الإنسان مقصراً وقال: يا رب ليس لي غيرك، اعترف بذنبي، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى.

إذا قال العبد: يا رب وهو راكع قال الله عز وجل: لبيك يا عبدي، وإذا قال العبد: يا رب وهو ساجد قال الله عز وجل: لبيك يا عبدي، فإذا قال العبد: يا رب وهو عاص قال الله عز وجل: لبيك ثم لبيك ثم لبيك. إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أي إذا رجع العبد إلى الله عز وجل نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله، والله الذي لا إله إلا هو – ولا يعرف هذا الكلام إلا من ذاقه – ينغمر قلب التائب برحمة لو عرفها الناس جميعاً لتابوا إلى الله جميعاً، يا رب أعاهدك على الاستقامة التامة، وأعاهدك ألا آكل مالاً حراماً، وأعاهدك ألا أكذب، وألا أغش أحداً، وألا أنظر إلى امرأة في الحرام، وإذا الإنسان عاهد ربه عز وجل يتجلى الله على قلبه ولا يعرفه إلا من ذاقه، قال أحد العارفين بالله: "لا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول".

أخي ما طعم العسل؟ اكتب لي بورقة، العسل حلو الطعم، هل هو مثل الدبس؟ لا ليس مثل الدبس، وهل هو مثل القطر؟ لا، وهل مثل العنب؟ لا، اشرح لنا، لا شرح عندي هذا عسل لا يعرفه إلا من ذاقه، كذلك الله عز وجل، كيف الإقبال على الله عز وجل لا يعرفه إلا من ذاقه فلو أنك ذقت الإقبال على الله عز وجل لذبت شوقاً و محبة له.

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي رأوه لما وليت عنـا لغيرنا

ولـو سمعت أذنـاك حسن خطاب نا خلعت ثياب العجب عنك وجئتنـا

ولـو ذقت من طعم المحبة ذرةً عذرت الذي أضحى قتيلاً بحبنـا

ولـو نسمت من قربنا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنـا

ولـو لاح من أنوارنـا لك لائـحٌ تركت جميع الكائنات لأجلنـا

***

والرجل أحياناً يخطب فتاة فتجده ساح وناح أين؟ والله يوجد عندنا سهرة عند الخطيبة، مسحة جمال زحل عقله كيف لو كان الإنسان له صلة بمصدر الجمال؟ هذا سهل، الله عز وجل تجلى على التفاحة وأعطاها شيئاً من جماله، وتجلى على البحر فأعطاه شيئاً من جماله، وتجلى على البحر ساعة أو ساعتين فشيء جميل، والجبل الأخضر تجد منظره يسحر، فهذه المناظر التي في الكون أخذت مسحة من جمال الله، فما هي الصلاة؟ هي اتصال بمنبع الجمال، ولذلك أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني، لي مع ربي ساعة لا يسعني فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب لمثل هذا فليعمل العاملون.

الإنسان العاقل يمتن علاقاته مع الله عز وجل :

متن علاقاتك مع الله عز وجل لأنهم رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت، متن علاقتك مع الله عز وجل، إذا الإنسان متن علاقته مع زوجته فقط إما أن يتركها وإما أن تتركه، فإذا متن علاقته مع أولاده فيمكن أن يسافر ابنه، ويتزوج أجنبية، ويأخذ جنسية، ولا يهمه، ولا يرسل له رسالة وقد غاب سنة، وقد تعب وهلك من أجله، وأحياناً امرأة يتوفى عنها زوجها، ويترك لها ولداً ويتركها في سن الشباب، فلا تتزوج، وتعمل في البيوت من أجل ابنها، تخدم وتموت ألف موتة، صار طبيباً، و شاهد فتاة فأعجبته في الجامعة وتزوجها، وقالت له: لا أريد أمك فيتخلى عن أمه، ويقول لها: الآن اتركينا،

فالإنسان لئيم، وإذا الإنسان وضع أمله بابن، أو بزوجة، أو بشريك، أو بمال يملكه، يأتيه مرض لا يحله المال، فهو الآن أمام طبيب قال له: ماذا نفعل؟ قال له الطبيب: لا يوجد حل، قال له: ندفع ملايين، قال له: لا يوجد حل، إن المرض الخبيث في الأمعاء منتشر ويستأصل الآن وينمو بعد أسبوعين وتدفع مئة مليون فتذهب سدى فلا تغلب نفسك.

لي طالب خاله صاحب سينما، دخل عليه فوجده يبكي، لأنه أصيب بسرطان في الدم، هذه القصة من ثلاثين سنة، صار يبكي لأنه جمع خمسة ملايين من أجل أن يعيش بها في آخر حياتي ولم يهنأ بها، طبعاً جمعها من إفساد أخلاق الشباب، الإنسان لو معه مال قد يأتي مرض لا يحل بالمال، قال لي رجل: لا يوجد عمل ولا بيع، قلت له: إذا توقفت الكلية ماذا تشتهي ساعتها؟

والله الذي لا إله إلا هو أعرف رجلاً معه مبالغ من الصعب أن نحصيها، فصار معه مرض عضال زرناه قال كلمة تركت بنفسي أثراً عميقاً، قال لي: سابقاً أنا مصروفي في السنة أربعمئة ألف و كان هذا لا يكفيني، أتعرفون ماذا قال لي أيضاً؟ قال لي: يكفي الإنسان ألف ليرة في الشهر، ما قصده؟ إذا كان الإنسان معافى يكفيه ألف ليرة، كليته تعمل، وقلبه، و أمعاؤه، و أعصابه، وعضلاته، وقوته به، والإنسان عندما يعرف فضل الله عز وجل ويشكر نعمة الصحة فلن تزول هذه النعمة، ويشكر نعمة الزوجة الصالحة يزداد صلاحها.

8 . أن يلح في الدعاء :

والآن الأدب الثامن: أن يلح في الدعاء، ويقول لك: مثل الشحاذ اللحوح، يجب أن تلح بالدعاء، يا رب برحمتك أستغيث، يا رب إني ضعيف فوق ضعفي، لا تدعُ مرة واحدة، عندما تذهب إلى عملك طول الطريق ادعُ إلى الله، والإنسان إذا حفظ أدعية النبي يكون موفقاً جداً، فيقضي بها كل أوقات فراغه، عندما يركب سيارة مثلاً يغمض عينيه ويدعو الله عز وجل، فيشعر بنفسه أنه قريب من الله عز وجل، فالدعاء يعين على التوجه إلى الله عز وجل والإلحاح، يكرره ثلاثاً.

قال ابن مسعود:

((كان عليه الصلاة والسلام إذا دعا دعا ثلاثاً))

[مسلم عن ابن مسعود]

و الإنسان يدعو: "اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك، اللهم هب لنا عملاً صالحاً يقربنا إليك".

تكرار الدعاء من نوع الإلحاح فيه، ويجب ألا يستبطئ الإجابة، إذا كان الإنسان حريصاً جداً على مقابلة شخص، يطرق الباب ممكن أن يكون هذا الثاني يصلي فينتظر، ثم يطرق الباب مرةً ثانية لا أحد يرد، ممكن ألا يكون هناك أحد، أما بالعيد إذا عندك زيارات فتقرع الباب مرة واحدة وتضع بطاقة، أنت لا تريد أن تدخل، هذه رفع عتب، أما إذا كنت حريصاً على لقاء شخص فتنتظر ربع ساعة أو تذهب وتعود.

فإذا أنت حريص على شيء تلح به، ومن علائم إخلاصك بالدعاء وإلحاحك أن تكرر الدعاء مرات عديدة، ويجب ألا يستبطئ بالإجابة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يُسْتَجَابُ لأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فإذا دعوت فاسأل الله كثيراً لأنك تدعو كريماً، وقال بعضهم: إني أسأل الله منذ عشرين سنةً حاجةً وما أجابني وأنا أرجو الإجابة، والله عز وجل يحمي صفيه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام:

((إن الله ليحمي صفيه من الدنيا كما يحمي الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة))

[أخرجه البيهقي عن حذيفة]

طالب منه شيئاً أنت قانع به ولكن لا يناسبك، وهو ليس من مقامك، أي يعلم عنك أكثر مما تعلم عن نفسك، سلم له.

قال لي: زوجتي وسط، فقلت له: إذا كانت كما تريد فقد بركت أنت وإياها، وسط تأتي إلى المسجد، وإن كانت كما تريد لا تأتي إلى المسجد، كله خير.

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا رَأَى مَا يُحِبُّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بِنِعْمَتِهِ تَتِمُّ الصَّالِحَاتُ وَإِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ))

[ابن ماجة عَنْ عَائِشَةَ]

إذا أنت مع إنسان من وجهاء قومك قال لك: هذه المسألة لا يوجد إمكان، تقول له: خير إن شاء الله، وأنا شاكر فضلك، مع إنسان عادي، أما إذا كان للإنسان قيمته فتقول له: شكراً أنا لا أنسى فضلك، أما إذا كان الإنسان يعامل ربه ولم يستجب له فهذا لمصلحته.

9 . أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل :

الأدب التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل، فلا يبدأ بالسؤال، ادخل إلى نجار وقل له مباشرةً: انتهت المكتبة؟ يقول لك: قل السلام عليكم، صاحب الحاجة أرعن، صاحب الحاجة أعمى، أنت مع الله عز وجل قبل أن تسأله أثنِ عليه واذكره، لأن الأدب النبوي أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال. قال سلمة بن الأكوع: "ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا استفتحه بقول: سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب".

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله: "من أراد أن يسأل ربه حاجةً فليبدأ بالصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام، ثم يسأله حاجته، ثم يختم بالصلاة على النبي".

وقال الله عز وجل: "إن الله عز وجل يقبل الصلاتين وما بينهما، ابدأ بالصلاة على النبي الكريم، واختم بالصلاة على النبي الكريم، فإن الله يقبل الصلاتين وما بينهما وهو أكرم من أن يدع ما بينهما".

وروي بالخبر عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: "إذا سألتم الله عز وجل حاجة فابتدئوا بالصلاة علي، فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويرد الأخرى"، فابدأ بالصلاة على النبي الكريم واسأل حاجتك، فإن الله عز وجل أكرم من أن يسأل حاجتين فيقضي إحداهما ويرد الأخرى.

والأدب العاشر يحتاج إلى تفصيل كبير وسوف نفصله في درس قادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 17 : صلاة المسافر 2

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

شروط قصر الصلاة :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي في موضوع صلاة المسافر إلى أن قصر الصلاة لا يصح إلا إذا غادر المصلي تخوم المدينة، أي غادر أبنية قريته، فإن خرج من بيته وبقي في حدود مدينته، أو في حدود قريته، فلا يصح أن يقصر الصلاة، بل يجب أن يغادر أبنية القرية، ويجب أن يكون السفر ثلاثة أيام، أي ثمانون كيلو متراً في ثلاثة أيام، ويجب أن يكون مستقلاً بالحكم أي مسافراً أمره بيده لا جندياً مع أميره، ولا زوجةً مع زوجها، ولا عبداً مع سيده، الأمر للسيد والأمير والزوج، وأن يكون بالغاً، فمغادرة تخوم المدينة، واستمرار السفر ثلاثة أيام، وبعد هذا أن يكون مستقلاً بالحكم، وأن يكون بالغاً، هذه إذا توافرت كلها صحّ قصر الصلاة.

قصر الصلاة في المذهب الحنفي :

أما قصر الصلاة في المذهب الحنفي فهو عزيمة وليس رخصة، فأبو حنيفة رضي الله عنه رأى أن قصر الصلاة عزيمة فإذا أتمّ الصلاة فقد قام بعمل مكروه، فالقصر عزيمة، لكن إذا أتمّ الرباعية أي الظهر أربع ركعات صلى ركعتين وقعد وقام للثالثة قال: صحت صلاته مع الكراهة لماذا؟ لأن الركعتين الأوليين تعدان فرضاً وأما الركعتان الأخريان فتعدان نفلاً، فلا تصح إلا إذا نوى الإقامة لمن قام للثالثة، لكن لو فرضنا إنساناً وهو في الصلاة نوى الإقامة يقوم للثالثة فتصح عندئذ صلاته، ولا يزال يقصر حتى يدخل مصره- والمصر يعني بلده - وإنسان وصل إلى النبك يصلي قصراً، وصل إلى الشام يصلي تماماً.

القصر عند الإمام أبي حنيفة عزيمة، فإذا صلى الثنائية أربع ركعات عدت الركعتان الأوليان فرضاً، والأخريان نفلاً هذا من جهة، ومن جهة ثانية إذا نوى الإقامة في أثناء الصلاة عندئذ يقوم للركعة الثالثة على أنها من الفرض، ولا يزال يقصر حتى يدخل مصره أو ينوي إقامته نصف شهر، أي لا يوجد إقامة أقل من أسبوعين، و إذا أراد أن يقيم في بلد سافر إليه أكثر من أسبوعين يصلي صلاةً عادية وقصراً إذا نوى أقل منه، أو لم ينوِ وبقي سنين أي لم ينوِ الإقامة وبقي سنين يقصر في الصلاة، فإذا كان الجنود في أثناء الحرب مثلاً حاصر المسلمون أذربيجان ستة أشهر وهم يقصرون الصلاة طول هذه المدة لأنهم لم ينووا الإقامة.

فالقصر عزيمة، ومن أتمّ الصلاة في السفر فقد جاء بعمل مكروه، ولو صلى الثنائية أربع ركعات لعدت الركعتان الأوليان فرضاً والأخريان نفلاً، والقصر يستمر إلى ما شاء الله مادام المصلي لم ينوِ الإقامة فإذا نوى الإقامة أكثر من أسبوعين يصلي صلاةً تامةً كما لو كان مقيماً في بلده، ولا تصح نية الإقامة ببلدتين لم يعين المبيت بأحدهما، ولو فرضنا ذهب إلى بلد أجنبي مثلاً بين مدينتين يجب أن يعين أنه مقيم بإحداهما حتى يصح أن يقيم الصلاة، لو سافر شهراً وهو يتنقل من مكان إلى آخر يجب أن يعين أن هذه المدينة بلدة إقامتي عندئذٍ تصح الصلاة التامة، ولا يصح أن يقصر في مفازةٍ أي في الصحراء، ولا تصح نية الإقامة في مفازةٍ لغير أهل الأقبية، أي البدو فقط يصح أن يصلوا في الصحراء صلاةً تامةً، أما المسافر في الصحراء فيجب أن يقصر في صلاته، ولا في عسكر بدار الحرب، أيضاً الجنود إذا كانوا في حالة حرب مع العدو لا تصح منهم نية الإقامة، بل يبقى مسافراً ويبقى يصلي صلاة قصر، ولا بدار محاصرةٍ من قبل أهل البغي، أي إذا كان المسلمون محاصرين من قبل أهل البغي لا يصح أن ينووا الإقامة في هذه المواطن الثلاث فلا تصح نية الإقامة إلا إذا كان المقيم بدوياً وأساس إقامته في الصحراء.

يحق للمسافر أن يقتدي بمقيم إذا كانت صلاة الوقت :

والآن إذا الإنسان سافر ودخل إلى مسجد، واقتدى مسافر بمقيم صحّ منه ذلك، صحت صلاته ولو صلاها أربع ركعات، دخلت إلى مسجد بحلب تقام صلاة الظهر وأنت مسافر، تصلي خلف الإمام أربع ركعات لأنه لا يجوز لمصلٍّ أن يخرج من الصلاة من دون إمامه، هكذا النظام العام، ولو قلنا لمصلٍّ أنت صلِّ ركعتين وسلم فأنت مسافر صار فوضى في الصلاة، إذا كنت مسافراً ودخلت إلى المسجد وقت إقامة الصلاة فصلِّ مع الإمام أربع ركعات وهي مقبولة منك ولو أنها تامة.

لكن بعد صلاة الفرض لا يجوز لمسافر أن يقتدي بمقيم، أذن الظهر وصلى الناس صلاة الجماعة وانتهت الصلاة ودخلت بعد ربع ساعة وجدت أربعة يصلون ليس لك الحق أن تصلي معهم، كمسافر تصلي وحدك، أي يحق للمسافر أن يقتدي بمقيم إذا كانت صلاة الوقت، في الأموي دائماً يوجد صلاة جماعة، أما في صلاة وقت فواحدة تصلى من قبل الإمام الأساسي، وبعدها كلما اجتمع أربعة أو خمسة يصلون جماعة، والمسافر ليس له حق أن يصلي بإمام ثانٍ إلا مع الإمام الأول وهذه الصلاة صحيحة.

حكم المسافر الذي اتُّخذ إماماً :

والآن بالعكس أنت مسافر أقمت الصلاة وأردت أن تنوي فإذا خلفك جمع تقول لهم: إني مسافر، تعلمهم مسبقاً وتصلي ركعتين وتسلم، وتقول: أتموا صلاتكم فإني مسافر، والمصلون يقرؤون في الركعتين الأخريين الفاتحة فقط لأنهم قرؤوا مع إمامهم فاتحة وسورة.

مرة كنت مسافراً دخلت إلى المسجد وصليت وصلى ورائي أربعة، شعرت أن المصلين من عامة الناس، وأنا أثناء التحيات خفت أن أسلم وأقول لهم: إني مسافر، خفت ألا يفهموا علي فأتممت أربع ركعات وأنا في شك من أمري، هل يا ترى أنا اخترت هذا الموقف أن أصلي أربع ركعات هل هذا صحيح؟ عدت إلى أوسع كتاب في الفقه حاشية ابن عابدين وجدت هذا صحيحاً، إذا خشيت على المصلين خلفك ألا يفهموا مرادك وهم ليسوا فاهمين وضع صلاة السفر صلِّ أربع ركعات كما لو كنت مقيماً لأنك تخلق مشكلة، أما إذا بعصر العلم والناس كلهم متعلمون تقول: أتموا صلاتكم فإني مسافر.

كيفية قضاء الصلاة في الحضر لمن فاتته في السفر :

إذا فاتتك ركعتان في السفر كيف تقضيهما في الحضر؟ ركعات السفر تقضيها قصراً وإن فاتتك ركعات الإقامة تقضيها أربعاً تماماً بحسب الذي فاتك، والوطن الأصلي الذي تؤدى فيه الصلاة تامةً هو الوطن الذي ولد فيه الإنسان، ولد في الشام فإذا عاد إلى الشام يجب أن يصلي متماً، أو تزوج فيه، تزوج في حمص فحمص أصبحت بلد إقامته، أو لم يتزوج ولكن قصد التعيش فيه، له وظيفته بحمص صارت حمص بلد الإقامة، فإذا جاء إلى الشام له أن يقصر الصلاة، هو شامي من مواليد دمشق ولكن عمله الدائم في حمص جاء ليزور أهله خلال ثلاثة أيام فرضاً، فله أن يقصر الصلاة، فبلد الإقامة إما البلد الذي ولد فيه، أو البلد الذي تزوج فيه، أو البلد

الذي يعمل فيه.

ووطن الإقامة هو أي بلد نويت أن تقيم فيه أكثر من أسبوعين فهذه حالة رابعة، هذا كل ما يتعلق بصلاة المسافر فإذا كنت حنفياً فالقصر في الصلاة على المذهب الحنفي عزيمةٌ وليس رخصةً، فما معنى رخصة؟ الرخصة أنت مخير أن تفعلها أو ألا تفعلها ولكن العزيمة أنت ملزم أن تفعلها.

* * *

الشرط الأخير من شروط الدعاء هو الأدب الباطن :

والآن إلى آخر شرط من شروط الدعاء في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رضي الله عنه وأرضاه. الحقيقة تأثرت من هذا الشرح، في الدروس الماضية تحدثنا بفضل الله عز وجل عن تسعة شروط للدعاء المستجاب، ولكن الذي يجذب النظر أن الشرط العاشر يعدل كل هذه الشروط مجتمعةً، تحدثنا سابقاً أن شرط الدعاء الصحيح التضرع، والخشوع، واليقين بالإجابة، والإلحاح بالدعاء، والافتتاح بالذكر، وعدم تكلف السجع، وانخفاض الصوت، والأحوال الشريفة، واستقبال القبلة، والأوقات الشريفة.

فهذه الشروط كلها في كفة، وهذا الشرط الأخير في كفة أخرى، قال الإمام الغزالي الشرط العاشر: هو الأدب الباطن، وكل هذه الآداب ظاهرة في وقت شريف، وفي حالة شريفة، رفعت اليدين وخفضت الصوت، و تضرعت، وخشعت، شيء جميل، هذه كلها آداب ظاهرة، لكن الأدب الباطن في الدعاء يعدلها كلها، هو التوبة، ورد المظالم، والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة.

يروي التاريخ أن سيدنا صلاح الدين الأيوبي له شيخ نقشبندي فقبل أن يجمع على محاربة الصليبين جاء إلى شيخه وسأله الدعاء، فقال له شيخه: يا بني أزل المظالم، وأزل المنكرات، فقال له صلاح الدين: ليس معنا وقت لهذا العدو الذي على الأبواب وهذا يحتاج إلى وقت طويل-هكذا تروي القصة أن هذا الشيخ غضب من صلاح الدين ودفعه، وقال له: قم لا نصرك الله- يروي التاريخ أن سيدنا صلاح الدين أول عمل قام به أغلق أماكن المنكر، وردّ المظالم، بقدر الإمكان أزال المظالم والمنكرات ثم توجه بأهل الشام وحدهم ليحارب الصليبيين جميعاً، سبعة ملوك وسبعة جيوش، وقد أقاموا في فلسطين سبعين عاماً، وانتصر عليهم، فلما انتصر عليهم جمع قادته الكبار ودعا شيخه وقال لهم: لا تظنوا أنني انتصرت على العدو بفضلكم ولكن بفضل هذا التوجيه من شيخي.

وآخر شرط لا يمكن أن يستجاب لك دعاء وأنت مقيم على معصية، وأنت مغتصب شيئاً ليس لك، وأنت معتدٍ،

وأنت باغٍ، تختار دعاء لرسول الله، وتعتني بالدعاء، وتغمض عيونك، وتعصر نفسك، وترفع يديك، وتدعوه بقيام الليل، وبالسحر، ويوم الجمعة، و بعد الصلاة، ولو طبقت كل هذه الشروط مجتمعةً فالدعاء لا يستجاب ما لم تكن تائباً ولست معتدياً، ومقيماً على الحق.

الأدب الباطن هو الأصل في الإجابة :

الشرط العاشر هو الأدب الباطن، وهو الأصل في الإجابة؛ التوبة ورد المظالم والإقبال على الله، حدثني أخ في بلد اسمها خان الشيح هناك مزرعة فيها محرك للماء، جاء بدوي معه غنم طلب أن يسقي الغنم، فصاحب المزرعة رده رداً قبيحاً، وهدده إذا دخل مرة ثانية يكسر رجله، له جار محسن فتحول إلى عند جاره، قال له: اشرب أنت ومن تريد، وإذا كان هناك رعيان أرسلهم ليشربوا، عنده محرك ماء ستة إنش، فرأى صاحب هذه المزرعة أن شرب الغنم صعب – الذي حدثني القصة هو الذي باعه– ويوجد في السوق مشارب للإبل، فدفع ستة عشر ألف ليرةٍ ثمن مشارب من ماله الخاص ووضعها في مكان طويل، ودعا كل الرعيان ليشربوا غنمهم، فهذه المنطقة فيها أكثر من ثلاثين أو أربعين مزرعة، المحركات ليس فيها ولا نقطة ماء وإلى الآن عنده ستة إنش لم ينقصوا ولا سنتمتراً سبحان الله! لا أحد يعرف الله عز وجل، كل شيء بيده، بئر ماء، وهذا جاره الذي طرد الراعي غرز اثني عشر مكاناً في الأرض إلى العمق الأساسي و لم يخرج الماء، والذي دفع من ماله الخاص بقي الماء عنده، والذي كلمني القصة هو الذي باعه المشارب.

الله عز وجل كريم ويحب الكريم، إذا أنت ما دعوت، وما ظلمت أحداً، ولست مقيماً على معصية، وتائباً و لو لم تدعُ، عبدي كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، ولا تتكلم ولا كلمة أعرف كل حاجتك، وأعرف كل مطالبك، ورغباتك، وأعرف ما يسرك، وما يرضيك، كله أعرفه، وأنت كن لي كما أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد سلمتك وكفيتك ما تريد، وإذا لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

التوبة وردّ المظالم والاتجاه إلى الله هو السبب القريب للإجابة :

الشيء الذي أرجوه أن يتعلق الإنسان بالله عز وجل، يقيم علاقة حميمة معه، بدءاً من الإخلاص إلى خدمة الخلق، وإلى الاتصال به، وإلى خدمة عباده، عامل ربك عز وجل، إذا قلت له: ليس لي إلا أنت، وبيدك الأمر كله، وأنا تبت إليك يا رب، والله يوجد كل دعاء يأخذ العقل من كثرة التنميق وتجد لا يوجد إجابة، الله موجود

وسميع.

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) وَقَالَ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ثُمَّ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ذلك هو السبب القريب للإجابة، التوبة، وردّ المظالم، والاتجاه إلى الله، هو السبب القريب للإجابة، فيروى عن كعب الأحبار أنه قال: أصاب الناس قحط شديد في عهد موسى عليه وعلى نبينا أتم الصلاة والسلام، فخرج موسى ببني إسرائيل يستسقي بهم، فلم يُسقوا والذي دعا هو سيدنا موسى، وهو كليم الله، و لم تنزل قطرة مطر، أحياناً لا يوجد خطيب يقول: يا رب أغثنا، اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين، مطر لا يوجد، والجو صاح وتشرين، والقضية ليست قضية دعاء الخطيب بل قضية توبة العباد، إذا تابوا ولم يدعوا فالأمطار تأتيهم من فوقهم ومن تحتهم، فسيدنا موسى دعا ربه واستسقى ولا من مجيب، فقال يا موسى إن فيكم رجلاً عاصياً – وهذه القصة فيها موعظة – فقال موسى عليه الصلاة والسلام: "من كان عاصياً لله فليغادرنا" ثم إن السماء أمطرت، فقال: يا ربي أمطرتنا ولم يغادرنا هذا العاصي فمن هو قال: عجبت لك يا موسى لقد تاب أأستره وهو عاصٍ وأفضحه وهو تائب؟

فأنا أقول: إذا أحدكم له معصية لا يقولها لأحد، خلاف ما تقوله بعض الأديان، إذا اعترفت أمام الخوري بكل شيء ذهبت المعصية عنك، لا، إن الله ستير، إذا الإنسان له جاهلية فلا يقلها لأحد لأن الله عز وجل أسبل ستره عليه، فهل يفضح نفسه؟ فالإنسان عندما يتوب بينه وبين الله، الله عز وجل يقبله ويعفو عنه ويغير معاملته له.

وفي رواية أخرى: " فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا فأوحى الله عز وجل إلى موسى أني لا أستجيب لك ولا لمن معك وفيكم نمام، فقال موسى: يا رب و من هو حتى نخرجه من بيننا؟ فأوحى الله عز جل يا موسى أنهاكم عن النميمة وأكون نماماً، فقال موسى لبني إسرائيل: توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النميمة، فتابوا، فأرسل الله تعالى عليهم الغيث.

الله عز وجل لن يغير قوانين الأرض من أجلك فادعه و أنت تائب مطيع عادل :

وقال مالك بن دينار: "أصاب الناس في بني إسرائيل قحط فخرجوا مراراً، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إليّ بأبدان نجسة، وترفعون إليّ أكفاً سفكت بها الدماء، وملأتم بطونكم بالحرام، والآن قد اشتد غضبي عليكم ولم تزدادوا مني إلا بعداً".

فالمسلمون اليوم يأكلون أموال بعضهم، وينتهكون حرمات الله، ويفعلون كل المنكرات، وإذا جلس بمجلس يا رب ارحمنا فإنك بنا راحم، مهما عملت دعاء منمقاً لا يوجد إجابة، بل يوجد حقائق، الله عز وجل لن يغير قوانين الأرض من أجلك، اعمل قوانين إذا كنت تائباً، مطيعاً، عادلاً، منصفاً، وإذا دعوته يستجيب لك وإلا فلا. وقال أبو الصديق الناجي: "خرج سليمان عليه السلام يستسقي فمر بنملة ملقاة على ظهرها رافعةً قوائمها إلى السماء وهي تقول: اللهم أنا خلق من خلقك، ولا غنى عن رزقك، فلا تهلكنا بذنوب غيرنا، فقال سليمان: ارجعوا قد سقيتم بدعوة غيركم"، وكان يسمع النمل إذ علمه الله لغة الحيوان، قال تعالى:

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

[سورة النمل : 18]

وقال الأوزاعي: "خرج الناس يستسقون فقام فيهم بلال بن سعد فحمد الله وأثنى عليه وقال: يا معشر من حضر ألستم مقرين بالإساءة؟ قالوا: اللهم نعم، فقال: اللهم إنا قد سمعناك تقول: ما على المحسنين من سبيل، وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا لمثلنا؟ اللهم اغفر لنا، وارحمنا، واسقنا، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا". قيل لمالك بن دينار: "ادع لنا ربك، فقال: إنكم تستبطئون المطر وأنا استبطئ الحجارة عليكم"، و معنى ذلك إذا وجدت معاصٍ شديدة فالإنسان ينتظر العقاب.

وروي أن عيسى صلوات الله عليه خرج يستسقي فلما ضجروا قال لهم عيسى عليه السلام: "من أصاب منكم ذنباً فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبقَ معه في المفازة إلا واحد، فقال له: أمالك من ذنب؟ فقال: والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة فنظرت إليها بعيني هذه، فلما جاوزتني أدخلت أصبعي فانتزعتها، وأتبعت المرأة بها" – هذه القصة قد تكون رمزية – ولكن إذا عصى الإنسان الله عز وجل بعينه وقلعها وكان في قلعها تكفير لذنبه فهو الرابح، أما الذي يملأ عينيه من الحرام، يملأهما الله عز وجل من جمر جهنم، أنا سمعت

كثيراً عن العارفين بالله، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت.

وقال يحيى الغساني: "أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم، فقال أحدهم: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعفو عمن ظلمنا، اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا، وقال الثاني: اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعتق أرقاءنا، اللهم إنا أرقاؤك فاعتقنا، وقال الثالث: اللهم إنك أنزلت في توراتك ألا نرد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا، اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا". وهذا مغزاها؛ إذا الإنسان له ذنب، وتاب منه كأنه ليس له ذنب، التائب من الذنب كمن لا ذنب له، يا ربي أنا أخطأت وأستغفرك من هذا الذنب ولن أعود إليه، ادعُ الله عز وجل، أنا أقول: من يقيم على الذنب ويصر عليه هذا لن يستجاب له، ولو فرضنا إنساناً تاب من ذنبه لتوه، وأخلص في توبته، وندم عليه، فأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يعفو عنه ويستجيب له.

وقال عطاء السلمي: "منعنا الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسعدون في المقابر فنظر إلينا فقال: يا عطاء أهذا يوم النشور أم بعثر ما في القبور؟ قال: لا ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي، فقال يا عطاء: بقلوب أرضيةٍ أم بقلوب سماوية؟ لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير – البهرجة إظهار المحاسن وإخفاء المعايب –".

سلعة الله غالية :

قال له: يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، وأخلص النية فإن الناقد بصير، وخفف الأثقال فإن في الطريق عقبةً كؤوداً لا يجتازها إلا المخفون، وأكثر الزاد فإن السفر بعيد، حياة أبدية لا يكفيها ركعتان تصليهما ولا ليرة تتصدق بها.

إذا أردت سجادة إيرانية يدوية تدفع ثمنها ثمانية وسبعين ألف ليرة وتقول: تساوي، تريد جنة عرضها السموات والأرض بليرة سورية فقط أو بركعتين؟ ألا إن سلعة الله غالية:

فما حبنا سهل وكل من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنـــا

فأيسر ما في الحب للصب قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله غالية، حتى يقال لفلان دكتور يجب أن يدرس خمس سنوات أو سبع سنوات لا ينام الليل، بين تأليف أطروحة، وحضور مناقشتها، وأخذ التوجيهات من أستاذه المشرف، ويقول له: اقرأ هذا الكتاب، ويكون أربعمئة صفحة، يعطيه قائمة مصادر ثلاثمئة مصدر، وهذه اقرأها في المكتبة، ولخص عشرة منها وتعال إلى عندي، ولا يأخذ الدكتوراه حتى تخرج عيونه، تريد جنة عرضها السموات والأرض لذلك قال تعالى:

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة آل عمران: 92]

الشيء الغالي عليك، وقتك فابذله ومكانتك، ولك شخص فلان صاحبك، تذهب معي إليه؟ نعم على عيني، وأنت بمفردك لا تعمل عندك عزة لكن لله تعملها، فالإنسان يجب أن يبذل ماله، زهوة ماله، وزهوة وقته، وزهوة صحته وشبابه لله عز وجل حتى يستحق عطاءه.

قال له: "يا أبا ذر جدد السفينة فإن البحر عميق، وأخلص النية فإن الناقد بصير وخفف الأثقال فإن في الطريقة عقبةً كؤوداً لا يجتازها إلا المخفون- أول الحديث: شمروا فإن الأمر جد.

قال لي شخص: بني إلى جانب بيتنا بناء، حفروا الأساسات، وما وضعوا جداراً استنادياً، شعر أنه يوجد تنسيمات في الجدران فأحضر مهندساً فقال له: إخلاء فوري للبناء، لقد رتب في بيته غرفة ضيوف، وغرفة جلوس، قال له: إخلاء فوري فإن الأمر جد، هذا الذي يقال في مجالس العلم جد مصيري خطير، إذا رجل سمعه ومشى وقال: والله الدرس ممتع، هذا ما أخذه مأخذ الجد، أخذه مأخذ الهزل، أخذه كمتعة، ما أخذه كفكرة خطيرة جداً يتعلق بها مصيره، قال: "أيها الناس شمروا" فكيف إذا إنسان مُقدِم على عمل كبير؟ تجده شمر ورفع سرواله، وبدأ الإنسان المؤمن في حالة نفسية، حالة التشمير يجب أن يشمر، أما من بعيد إلى بعيد إذا أراد إنسان أن ينظف بيته فهل من المعقول أن يلبس ثيابه الفخمة؟ يلبس لباساً قديماً ويشمر ويبدأ: "أيها الناس شمروا فإن الأمر جد وتأهبوا فإن السفر قريب".

على الإنسان ألا يكون مقيماً على معصية وأن يكون تائباً منيباً ليستجاب له :

والإنسان رجل بين عشية وضحاها يصبح من أهل القبور، ولا يعرف متى، فقال: "قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير، ثم رمق السماء بطرفه وقال: إلهي وسيدي ومولاي لا تهلك بلادك بذنوب عبادك، ولكن بالسر المكنون في أسمائك، وما وارت الحجب من آلائك إلا سقيتنا ماءً غدقاً فراتاً، تحيي به العباد، وتروي به البلاد، يا من هو على كل شيء قدير، قال عطاء: فما أتم كلامه حتى أرعدت السماء، وأبرقت، وجاءت بمطر كأفواه القرب"، إذن استجيب له.

هذه لنا كلنا، تريد استجابة اعمل دفتراً أحص أخطاءك و المظالم و المخالفات في البيت ثم أصلحها واحدة واحدة وعندما تنتهي قل: يا رب، يقول لك: لبيك يا عبدي.

هذا هو الأدب الأخير في الدعاء ألا تكون مقيماً على معصية، وألا تكون مغتصباً حقاً، وأن تكون تائباً منيباً، وعندئذٍ ادعُ كيف شئت فالله سبحانه وتعالى سيستجيب لك، و هذا الشرط الأخير في كفة وكل هذه الشروط السابقة في كفة ثانية.

المصائب تأديب الله لعباده :

الله عز و جل يريدك أنت لا يريد مالك، ولا فصاحتك، ولا منظرك، ولا مكانتك، ويريد أن تلتفت إليه، ولن تستطيع أن تلتفت إليه إلا إذا استقمت على أمره، وأخلصت له، وخدمت خلقه، فالخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، هذا المراد.

قال ابن المبارك: "قدمنا المدينة في عام القحط، فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذا أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما، وألقى الأخرى على عاتقه، فجلس إلى جنبي وسمعته يقول: إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب، ومساوئ الأعمال، وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بهذا"، هذا الفقه، وهذا ملخص العلم، كل مصيبة حبس مطر، ومرض، وفقر، و ذل، و هم، وحزن، ونقص في الأموال، ونقص في الثمرات، ومتاعب، وأحزان مقلقات، كل هذه المصائب يؤدب الله بها عباده، طبعاً الله عز وجل قال:

﴿ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ *أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ *وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ *فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ *بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ *قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ *قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ *فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ *قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ *عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴾

[سورة القلم: 23-32]

هذا ليس بستاننا، الطريق نفسه، كذلك العذاب، أي يا عبادي كيف أن إتلاف هذه المحاصيل كلها نتج عنه توبةٌ لهؤلاء، وعودة إلى الله، كذلك عذابي كله، والآية دقيقة جداً، كيف هؤلاء رجعوا إلي بعد مصيبة قاهرة، إتلاف محاصيلهم، كذلك العذاب، وإذا ما عادوا إلي بهذا العذاب، يقول تعالى:

﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة القلم: 33]

و يقول:

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[سورة السجدة: 21]

هذا عذاب أدنى، قال سيدنا علي لابنه الحسن: "يا بني ما خير بعده النار بخير- لو جاءتك الدنيا كلها، لو ملكنا أطراف الدنيا كلها، لو كان دخلك في اليوم عشرة ملايين دولار- فما خير بعده النار بخير وما شر بعده الجنة بشر- فقر مع مرض مع موت زوجة مع أولاد عاقين، ومنزل فيه إخلاء، وعمل واقف، و محل احترق، كله معاً والمصير إلى الجنة هذا خير-".

"ما خير بعده النار بخير وما شر بعده بشر، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية"، وهكذا علمنا النبي ﷺ إذا الإنسان مرّ على بستان فخم في وسطه مزرعة، ومسبح، وفيلا حجر، سقف قرميد، وأشجار مثمرة، وأزهار رياحين، وممرات مداخل فخمة، فماذا يقول؟ "اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة"، هذه مؤقتة.

الإسلام يمتن العلاقات الاجتماعية ولا يفتتها :

إياكم وفلول النظر فإنه يبذر في النفس الهوى، وإذا تأملت كثيراً بهذه الحاجات تحبها، وبعد هذا أعرض عنها، اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة، أنت تسكن في بيت مستوراً، وعندك مدفأة، وتلبس كنزة، وعندك طعام في البيت،

وعندك أولاد وزوجة، طبعاً إذا دخل أحد على الأغنياء غير المؤمنين خرج من عندهم وهو على الله ساخط. قال:

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَدْتِ اللُّحُوقَ بِي فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

فإذا رجل عنده جوارب وثقبت فأتلفها فوراً فهذا إسراف:

((... وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

والمقصود بالأغنياء في هذا الحديث الأغنياء غير المؤمنين، لأن الأغنياء المؤمنين على العين والرأس، ويزيدك الاتصال بهم حباً لله، لسماحتهم، وتواضعهم، وإكرامهم، وقد حدثني أخ هنا في الجامع ليس معنا الآن كان طفلاً صغيراً أرسلته والدته وكان يتيماً إلى معمل ليعمل، مدير العمال ومشرف العمال شاهده ولداً صغيراً، يوجد عنده حراق فيه شحار قال له: ادخل إلى الداخل ونظفه، جاء مدير المعمل وجد خربشة في هذا الحراق، فسأل ما هذا؟ وجد طفلاً ألبسته أمه لباساً أبيض ونظيفاً وفرحت بعمله، فقير ويتيم، أخرجه فوجده أسود اللون، فأرسل إلى مدير العمال وبخه وقال له: افرضه أخاك، أو ابنك، فأهله أرسلوه إلينا، ثم قال لي: خذوه إلى الحمام، ونظفه، ورتبه، وله في المعمل عم، فقال هذا المدير لعمه: خذه إلى الحمام، وخذ له طقم ملابس جديداً كاملاً، ومعهم بذلة جديدة إنكليزية من إنتاج المعمل، وهذه أجرة خياطتها، فهذا الطفل عندما عاد مساءً إلى البيت، فهذه الملابس غير الملابس التي ذهب بها، ومعه بذلة، ومعه أجرة خياطة، ففرح الأهل كثيراً، ما هذا الإكرام؟ قال لي الأخ وهو نفسه الطفل: في اليوم الثاني أحضرت معي طعاماً، فقال لي المدير: يا فلان ما معك من طعام اليوم؟ فقال: بطاطا مسلوقة، والمدير معه طعام ما لذ وطاب، المدير أكل من طعام الطفل حتى يشجعه أن يأكل من طعامه، فصار يأكل كل يوم معه.

فكان يشعر العامل أن رب العمل مثل الأب، وهناك تواضع ورحمة، سمعت عن معمل أول النهار يجري وجبة غذاء للعمال على حسابه، والظهر يوجد غذاء، وفي الظهر تتوقف الآلات والكل يصلي، أذن العصر صلوا، أخذ من العامل خمسة آلاف وضعها في الشركة استثماراً، وأخذ أرض عمرها بيوتاً للعمال، ورأيت العمال عنده كيف يحبون صاحب المعمل أكثر من أبيهم، فهذا العامل مثل ابنك، يجب أن تزوجه، وتشتري له بيتاً، هكذا الإسلام، فالإسلام جعل العلاقات متينة جداً، فالغني المؤمن على العين والرأس لتواضعه وسخائه، والمال ليس له قيمة عند

الله، ولماذا المال؟ ليتقرب به إلى الله عز وجل، فالآن تجد الوضع اختلف كلما ازداد غنى الإنسان ازداد بخلاً، واستعلاء، وكبراً، إنه يحاسب على القرش، وينفق بالملايين على شهواته المنحرفة، وهذا العامل يحل مشكلته بخمسة آلاف، أما هو فيقول لك: ذهبت إلى أوربا وصرفت ثلاثمئة ألف، وأعطى العامل خمسة آلاف وحل له مشكلته.

فيوجد أخوان مؤمنون عندنا هنا من فضل الله، وعندهم عمال، والله سمعت عدداً من القصص عنهم مشرفة، بتواضعهم وبإكرامهم العمال، وهكذا الإسلام يمتن العلاقات الاجتماعية ولا يفتتها.

((... وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الْأَغْنِيَاءِ وَلا تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

"إلهي أخلقت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساوئ الأعمال، وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك يا حليم، يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل، أن تسقيهم الساعة الساعة، فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى اكتفت السماء بالغمام، وأقبل المطر من كل جانب، فجئت إلى الفضيل فقال لي: "مالي أراك كئيباً، فقلت: أمراً سبقنا إليه غيرنا وتولاه عنا، فقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخر مغشياً عليه".

المشكلات من نعم الله عز وجل لأنها سبب التوجه إليه :

آخر قصة يروى أن عمر بن الخطاب استسقى بالعباس رضي الله عنه، فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس: "اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب – مثل القوانين – ولم يكشف إلا بتوبة، قد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك صلى الله عليك وسلم، وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا بالتوبة، وأنت الراعي لا تهمل الضال، ولا تدع الكثير بدار المضيعة، فقد ضرع الصغير، ورق الكبير، وارتفعت الأصوات بالشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغيثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فإنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون، قال: فما أتمّ كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال".

ها نحن أولاء، وليس القصد القصص بل القصد نحن، لا يوجد واحد منا ليس له مشكلة مع الله عز وجل، إما بصحته، أو بماله، أو ببيته، أو بأولاده، أو بابنه المريض، أو بزوجته، لا يوجد إنسان، وهذه المشكلات من نعم الله عز وجل، وهذه المشكلات سبب التوجه إلى الله عز وجل، إن الله يحب أن يسمع تضرع عبده، إن الله يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان، وبدون مشكلة تقول: يا رب من قلبك، وتدعو دعاء بارداً، وحتى يكون الدعاء

ساخناً يكون وراءه مشكلة، إذا خاف أما أنت فلست بخائف يقول: اللهم اهدنا فيمن هديت، ولكن إذا وجد خوف حقيقي فمن أعماقك تدعو، والله يريد دعاء من الأعماق، ويريد دعاء حميماً، ودعاء فيه إخلاص، وترج، وإلحاح، وطلب، وثقة، وتوكل، و يقين، فهذا الدرس لنا وهذه القصص مضت قال تعالى:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ ﴾

[سورة البقرة: 134]

* * *

رحمة النبي صلى الله عليه و سلم :

وآخر فقرة قصيرة في الدرس سيدنا النبي صلى الله عليه:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ...))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

أنت مؤمن فيجب أن يكون عندك عطف على الأولاد منقطع النظير، مثلاً رسول الله في المهاجرين، وإبراهيم مسترضع في الميدان، في عوالي المدينة في الطرف الآخر.

((... فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ ...))

تصور إنساناً خرج من المهاجرين ومشى إلى الميدان وقرع الباب أين إبراهيم؟ أخذه وقبله وعاد، هكذا كان ﷺ. وسيدنا عمر عين والياً وأعطاه كتاب التعيين، وكان عمر يحب ابنه ويقبله، فهذا الوالي نظر إلى هذا الموقف نظر المستنكف، فقال له: ما بك؟ قال: والله إني لا أُقبّل أحداً من أولادي، فقال له: هات الكتاب فأخذه ومزقه، وقال له: كيف ترحم الناس إن لم ترحم أولادك فأنت لست أهلاً.

أنا أقول: إذا الإنسان كان معلماً فيجب أن يحب الأولاد، وأحياناً ترى المعلم له ضرب مبرح فأين رحمتك؟ إن لم تكن تحب هؤلاء الطلاب فكيف تعلمهم؟ اترك التعليم، فالتعليم يحتاج إلى رحمة، تعامله مثل ابنك، يمسكه من سوالفه ويرفعه فيخرج الشعر بيديه، لو أن معلماً فعل هذا مع ابنك فماذا تفعل معه؟ هذا له أب أيضاً. ومن رحمته روى الشيخان:

((عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنِّي لأَدْخُلُ فِي الصَّلاةِ وَأَنَا أُرِيدُ إِطَالَتَهَا فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلاتِي مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ))

[مسلم عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ]

يظهر أن امرأة تصلي خلف الصفوف، و لها ابن يبكي، والنبي الكريم في الصباح كان يقرأ السور الطويلة، فقرأ في الفجر قل أعوذ برب الناس، لأنه سمع طفلاً يبكي وقلبه رقيق ما تحمل فاختصر الصلاة.

امرأة في المستشفى على وشك الولادة ولا يوجد ولا قابلة في المستشفى فقالت الطبيبة: سوف أتوضأ وأصلي العصر وأحضر إليكم و يكون الأمر قد انتهى ولا يوجد فقه.

رحمة النبي بالصبيان :

وكان من رحمته بالصبيان أنه كان يمسح رؤوسهم ويقبلهم كما جاء في الصحيحين، قالت عائشة رضي الله عنها: قبّل النبي عليه الصلاة والسلام الحسن والحسين ابني علي.

((وحَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِالرَّحْمَنِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ))

[مسلم عن أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ]

وفي الصحيحين عن عائشة:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا قَالَتْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا]

أي أنت لا يوجد فيك رحمة، ومن رحمته بالصبيان وحبه إدخال السرور عليهم، كان عليه الصلاة والسلام إذا أوتي بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون في المجلس من الصبيان كما روى الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ

((كان إذا أوتي بباكورةِ الثمرةِ – أي أولها – وضعها على عينيه ثم على شفتيه وقال: اللهم كما أريتنا أوله فأرنا آخرهِ ثم يعطيه من يكون من الصبيان))

[روى الطبراني عن ابن عباس]

قدموا له أول تمرةٍ وضعها على عينيه ثم على شفتيه ثم أعطاها الطفل في المجلس، ومعنى هذا أن الطفل يشتهي الفاكهة أكثر من الكبير، وأحياناً الأب يتجاهل طلب الطفل، ويكون معه ولا يحب الأب الفاكهة والابن يحبها مثلاً.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلا نَقُولُ إِلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

البكاء رحمة أما رفع الصوت بالبكاء فمن الشيطان.

((... فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ قَالَ حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ كَأَنَّهَا شَنٌّ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ سَعْدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ))

[مسلم عَنْ أسامة بن زيد]

اللطم و ضرب النفس عذاب أما البكاء فرحمة :

و:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ فَأَتَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فِي غَشِيَّةٍ فَقَالَ أَقَدْ قَضَى قَالُوا لا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَوْا فَقَالَ أَلا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلا بِحُزْنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا وَأَشَارَ إِلَى

لِسَانِهِ أَوْ يَرْحَمُ))

[البخاري عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

فإذا صرخ الإنسان، ولطم، وضرب نفسه فبهذا يعذب، أما البكاء فرحمة، والنبي الكريم صلى الله عليه قبّل عثمان بن مظعون وهو ميت، له صاحب توفي فجاءه و قبّله وهو ميت وهو يبكي:

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ مَيِّتٌ فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى دُمُوعِهِ تَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهِ))

[الترمزي عَنْ عَائِشَةَ]

وعند ابن الجوزي في كتاب الوفاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: " لما مات عثمان بن مظعون كف النبي ﷺ الثوب عن وجهه، وقبّل ما بين عينيه، ثم بكى طويلاً، فلما رفع عن السرير قال: طوبى لك يا عثمان لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها، كان فقيراً جداً".

وعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويقول: "اللهم أحشرني مسكيناً – أي متواضعاً لله عز وجل– مؤمناً، لا متكبراً ولا مستعلياً" .

((لا يدْخُلُ الجنةَ مَنّ كان في قلبه مثقالُ حبَّة من كِبْر))

[مسلم عن عبد الله بن مسعود]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 18 : صلاة المريض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

صلاة المريض :

أيها الأخوة المؤمنون، درسنا اليوم: "صلاة المريض"، والمرض شيء يطرأ على الإنسان، والشرع الحكيم لم يدع قضيةً أو ظرفاً صعباً إلا وشرع له، ولكن لابد من تفصيلات.

يجوز أن يصلي المؤمن قاعداً، وأن يصلي جالساً، وأن يصلي مضطجعاً، وأن يصلي مستلقياً، وأن يومئ برأسه، ففي كل الأحوال يجوز أن يصلي، و هناك استنباط بسيط من هذا الإجمال، فما هذا الاستنباط؟ يجب أن تصلي واقفاً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فمضطجعاً، فإن لم تستطع فمستلقياً، فإن لم تستطع فمومياً برأسك، فإن لم تستطع فمومياً بعينيك، ماذا تستنبطون من هذا الإجمال؟ الصلاة عماد الدين من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين.

لا يجوز لرجل مؤمن أن يدع الصلاة بأي حال من الأحوال، يحارب عدوه فهناك صلاة الحرب، إذ يقف النبي عليه الصلاة والسلام ويأتم نصف الجنود وراءه، ويصلون ركعةً واحدة، والنصف الآخر يحرسه، فمادامت الصلاة يجب أن تكون حتى في ساعة اللقاء مع العدو فالصلاة هي الدين، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من ترك الصلاة فقد كفر جهاراً))

[الطبراني عن ابن مسعود]

و:

((بين الرجل والكفر ترك الصلاة))

[مسلم عن جابر]

((عَنْ أُمِّ أَيْمَنَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا تَتْرُكِ الصَّلاةَ مُتَعَمِّدًا فَإِنَّهُ مَنْ تَرَكَ الصَّلاةَ مُتَعَمِّدًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ))

[أحمد عَنْ أُمِّ أَيْمَنَ]

الحالات التي يجوز فيها للمصلي أن يصلي قاعداً :

قال العلماء: إذا تعذر على المريض كل القيام، كان يصلي واقفاً فوجد نفسه تضايق فيتابع جالساً، طبعاً القيام الحقيقي أن تقف على قدميك أو تعثر، ما الفرق بين التعذر والتعثر؟ التعذر الاستحالة لكن التعثر الصعوبة، كما هو الفرق بين التعذر في الإعراب منع من ظهورها التعذر، ومنع من ظهورها الثقل، إذا قلت: منع من ظهورها التعذر يستحيل على اللسان أن يحرك الألف، لكن الحركات على الواو لا تظهر للثقل، لأنه يثقل على اللسان أن يلفظ الواو مضمومةً أو مكسورةً.

إذا تعذر أو تعثر كل القيام لوجود ألم شديد فهذه أول حالة، أو خاف زيادة المرض، أو بطء الشفاء، أي وجود ألم حقيقي، هناك حالة لا يوجد ألم حقيقي، ولكن يتوقع إذا وقف أن يزداد المرض، ويتوقع أيضاً أنه إذا وقف مصلياً يتأخر الشفاء، هنا يوجد سؤال دقيق جداً فمن الذي يقول إنه إذا صليت واقفاً يتأخر الشفاء أو يزداد المرض؟ قال العلماء: إذا غلب على ظنه، فعندنا ظن، وإذا غلب على ظنه، أو أخبره طبيب مسلم حاذق، أو ظهر الحال في أثناء الوقوف، فعندنا ثلاث حالات تجعلك إذا وقفت يزداد المرض، أو يتأخر الشفاء، أو تحس بألم شديد، بشرط أن يغلب هذا على ظنك بتجربةٍ سابقة، أو أن يخبرك طبيب، أو أن يظهر الألم فجأةً، ففي هذه الحالات السابقة يجوز أن تصلي قاعداً لعدم وجود ألم حقيقي، أو ألم متوقع، أو تأخير شفاء، أو زيادة الداء.

إذا تعذر أو تعثر كل القيام بوجود ألم شديد فهذه أول حالة، أو خاف زيادة المرض، أو بطء الشفاء صلى قاعداً بركوع وسجود، قاعداً كما يقعد للجلوس الأخير، وقد مرّ معنا سابقاً أن الإنسان المتعب له الحق أن يصلي النوافل قاعداً، ولا يقبل منه الفرض قاعداً إذا كان متعباً، فالفرض يجب أن تؤديه قائماً، أما إذا كان هناك مرض فبحث آخر، لك أن تصلي الفرض والسنن قاعداً بركوع وسجود.

ورجل لا يستطيع أن يقعد على الطريقة التي نألفها في القعود النظامي لألم بعظام رجليه، له أن يقعد كيف يشاء، وله أن يقعد متربعاً، أو على طرفين، أو على ساقيه بأي شكل يريحه، و له أن يجلس، و بقدر ما يستطيع أن يجلس أيضاً يصح ذلك كما قلت قبل قليل.

من تعذر عليه الركوع و السجود يصلي قاعداً :

قال: وإذا تعذر عليه الركوع والسجود – إذا كان معه انزلاق غضروفي بفقراته وآلام لا تحتمل فإذا فعل هكذا شعر بألم شديد نقول له: صلّ قاعداً واركع واسجد برأسك، لكنه يجب أن يجعل إيماءه للسجود أخفض من إيمائه للركوع، فإن لم يخفضه عنه لا تصح صلاته، أما أن يضع شيئاً عالياً يسجد عليه فهذا مما نهى عليه النبي ﷺ، كان يضع كرسياً عالياً يسجد عليه فهذا مما نهى عليه النبي ﷺ.

((عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ: كَانَتْ بِي بَوَاسِيرُ فَسَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلاةِ فَقَالَ: صَلِّ قَائِمًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ))

[الترمذي عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

وزاد النسائي: " فإن لم تستطع فمستلقياً لا يكلف الله نفساً إلا وسعها "

و

((عَنْ جَابِرٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ عَادَ مَرِيضًا فَرَآهُ يُصَلّي عَلَى وِسَادَةٍ ، فَأَخَذَهَا فَرَمَى بِهَا ، فَأَخَذَ عُودًا لِيُصَلّيَ عَلَيْهِ فَأَخَذَهُ فَرَمَى بِهِ ، فَقَالَ : صَلِّ عَلَى الأَرْضِ إِنِ اسْتَطَعْتَ ، وَإِلا فَأَوْمِئْ إِيمَاءً وَاجْعَلْ سُجُودَكَ أَخْفَضَ مِنْ رُكُوعِكَ))

[البيهقي عن جابر]

يوجد عندنا إيماء بالرأس والسجود والركوع العاديين، وهو قاعد الركوع زاوية متوسطة بين القيام والسجود العادي، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من استطاع منكم أن يسجد على الأرض فليسجد ومن لم يستطع فلا يرفع إلى جبهته شيئا يسجد عليه بركوعه وسجوده يومئ برأسه))

[الطبراني في الأوسط عن ابن عمر]

من تعثر عليه القعود في الصلاة أومأ مستلقياً أو على جنبه :

وإذا تعثر القعود أومأ مستلقياً أو على جنبه، عمليات جراحية تكون في طرفه اليمين مضمد ومجبصن، فاستلقاؤه على جنبه، يجوز أن يصلي مستلقياً على جنبه الأيمن، أو الأيسر، أو على ظهره، أو قاعداً بأية صورة يرتاح معها، أو قائماً، لكن العلماء نهوا عن أن يستلقي الرجل على ظهره تماماً ويصلي ورأسه إلى السماء، أي النظر إلى السماء في الصلاة مكروه، ولذلك قالوا: يجب أن يوضع تحت رأسه وسادة تجعل نظره نحو الأمام لا نحو السماء.

ويجعل تحت رأسه وسادةً ليصير وجهه إلى القبلة لا إلى السماء.

الآن إذا كان مستلقياً باتجاه القبلة أي رجلاه نحو القبلة قالوا: الأدب أن ينصل ركبتيه لئلا يجعل ركبتيه نحو القبلة، وأحياناً الإنسان يستلقي على ظهره ويرفع ركبتيه نحو الأعلى، فهذا وضع فيه أدب أكبر مما جعل رجليه ممدودتين باتجاه القبلة وهذا من باب الأدب إذا قدر، وإذا كان المرض في عموده الفقري، أما كان المرض في ركبتيه فيجعلهما على طبيعتهما.

إذا تمكن الإنسان أن يكون سريره في غرفة نومه من الشرق إلى الغرب فرأسه نحو الغرب ووجهه نحو القبلة فليفعل أكمل نومة، أي السرير شرق غرب، ومكان الوسادة نحو الغرب، فإذا استلقى الإنسان على شقه الأيمن فيصير وجهه نحو القبلة وقدماه نحو الشرق ورأسه نحو الغرب ووجهه نحو القبلة، والإنسان بغرفة النوم ينتبه إلى هذا.

من عجز عن الإيماء و فهم الخطاب عليه أن يصلي ما فاته فإذا لم يفهم رفعت عنه :

وإذا تعذر الإيماء قال: أخرت عليه الصلاة مادام يفهم الخطاب، فإذا لم يفهم الخطاب رفعت عنه الصلاة، لا يوجد وعي بل غيبة مطلقة مستلقياً على فراش في المستشفى غيبوبة تامة، ارتفع ضغطه وفقد وعيه، إذا كان يعجز عن الإيماء و يفهم الخطاب عليه أن يصلي ما فاته من صلوات عندما يستعيد قدرته، فإذا غاب عن الوعي سقطت عنه الصلاة فإذا كانت الصلوات خمسة أوقات فما فوق، و إذا كانت أقل من خمسة أوقات لا تسقط ولو غاب عن الوعي فعليه أن يقضيها. سقوط القضاء إذا دام عجزه عن الإيماء أكثر من خمس صلوات فبعض العلماء قال: إن استطاع أن يومئ بجفنيه تقبل صلاته لعظم شأن الصلاة، وفي درس آخر إن شاء الله ننتقل إلى بحث آخر عن قضاء الفوائت.

الدعاء هو العبادة :

والآن إلى فصل من إحياء علوم الدين متعلق بالدعاء، طبعاً بعد أن انتهينا من موضوع آداب الدعاء، ننتقل إلى بعض الأدعية المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام، لا أدري إذا كان الأمر واضحاً لديكم، فالدعاء هو العبادة، والصلاة هي الدعاء، والصلاة الدائمة هي الدعاء، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾

[سورة المعارج: 23]

يدعون الله إذا خرجوا من بيوتهم، وإذا دخلوا مساجدهم، وإذا دخلوا إلى السوق، وإذا استلقوا على فرشهم، وإذا واجهوا صعوبةً، وإذا لبسوا ثوباً جديداً، وإذا تناولوا طعاماً، وإذا دعوا إلى وليمة، وإذا جاءهم مولود، أي في كل حركة وسكنة ذكر لله عز وجل، أي إذا الإنسان أحبّ أن يعرف هذه الأشياء الدقيقة الدقيقة يقتني كتاب الأذكار للنووي، وهذا الكتاب فيه كل أحوال النبي ﷺ في حله وترحاله، ونومه ويقظته، وصحوه، ومع أصحابه، وكل حركة وسكنة ماذا كان يفعل.

بعض الأدعية المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام :

هناك بعض الأدعية المأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام، من هذه الأدعية دعاء كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو به بعد ركعتي الفجر، قال ابن عباس رضي الله عنهما بعثني العباس إلى النبي صلى الله علية وسلم فأتيته ممسياً، فقام يصلي من الليل فلما صلى ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح قال:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ ....))

فالله عز وجل خلقنا ليرحمنا، ورحمته لا يعرفها إلا من ذاقها، فإذا ذقت رحمة الله عز وجل تصغر الدنيا في عينيك، وتنتقل من قلبك إلى يديك، وإذا ذاق قلب المؤمن رحمة الله عز وجل زهد في الدنيا، فمن عرف الله زهد فيما سواه، ولا يعرف هذه الرحمة إلا من ذاقها.

فالعسل صف لي إياه، أحلو هو مثل الدبس؟ لا، أمثل القطر؟ صفه لنا، أمثل العنب الحلواني؟ كيف أصفه لك؟ يجب أن تذوقه، ومن ذاق عرف، ولا يعرف ما نقول إلا من اقتفى أثر الرسول.

الإنسان مفطور على السلامة و السعادة :

إذاً يقول عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ ....))

قلت لكم في الدرس الماضي الأزمة أزمة معرفة، فلو أن الضال عرف ما عرفه النبي عليه الصلاة والسلام لأحب الله حبه، ولأقبل عليه إقباله، ولانضبط انضباطه، ولفعل الصالحات فعله، فالأزمة أزمة معرفة، لأن كل إنسان مفطور على حب السلامة والسعادة، و لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويرجو السلامة والسعادة، لا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتوخى السعادة، فلماذا يشقى الناس؟ لأن بعضهم يتوهمها في شيء ليس أهلاً لها، ويتوهمونها في جمع المال، قال تعالى:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾

[سورة يونس : 58]

يتوهمونها في الملذات الرقيقة، والله سبحانه وتعالى قال:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾

[سورة طه: 124]

((عن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلاتِهِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ اللَّهُمَّ أَعْطِنِي إِيمَانًا وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْعَطَاءِ وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْزِلُ بِكَ حَاجَتِي وَإِنْ قَصُرَ رَأْيِي وَضَعُفَ عَمَلِي افْتَقَرْتُ إِلَى رَحْمَتِكَ فَأَسْأَلُكَ يَا قَاضِيَ الْأُمُورِ وَيَا شَافِيَ الصُّدُورِ كَمَا تُجِيرُ بَيْنَ الْبُحُورِ أَنْ تُجِيرَنِي مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ وَمِنْ دَعْوَةِ الثُّبُورِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْقُبُورِ اللَّهُمَّ مَا قَصُرَ عَنْهُ رَأْيِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ نِيَّتِي وَلَمْ تَبْلُغْهُ مَسْأَلَتِي مِنْ خَيْرٍ وَعَدْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوْ خَيْرٍ أَنْتَ مُعْطِيهِ أَحَدًا مِنْ عِبَادِكَ فَإِنِّي أَرْغَبُ إِلَيْكَ فِيهِ وَأَسْأَلُكَهُ بِرَحْمَتِكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ ذَا الْحَبْلِ الشَّدِيدِ وَالْأَمْرِ الرَّشِيدِ أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْوَعِيدِ وَالْجَنَّةَ يَوْمَ الْخُلُودِ مَعَ الْمُقَرَّبِينَ الشُّهُودِ الرُّكَّعِ السُّجُودِ الْمُوفِينَ بِالْعُهُودِ إِنَّكَ رَحِيمٌ وَدُودٌ وَأَنْتَ تَفْعَلُ مَا تُرِيدُ اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا هَادِينَ مُهْتَدِينَ غَيْرَ ضَالِّينَ وَلَا مُضِلِّينَ سِلْمًا لِأَوْلِيَائِكَ وَعَدُوًّا لِأَعْدَائِكَ نُحِبُّ بِحُبِّكَ مَنْ أَحَبَّكَ وَنُعَادِي بِعَدَاوَتِكَ مَنْ خَالَفَكَ اللَّهُمَّ هَذَا الدُّعَاءُ وَعَلَيْكَ الْإِجَابَةُ وَهَذَا الْجُهْدُ

وَعَلَيْكَ التُّكْلَانُ اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي نُورًا فِي قَلْبِي وَنُورًا فِي قَبْرِي وَنُورًا مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَنُورًا مِنْ خَلْفِي وَنُورًا عَنْ يَمِينِي وَنُورًا عَنْ شِمَالِي وَنُورًا مِنْ فَوْقِي وَنُورًا مِنْ تَحْتِي وَنُورًا فِي سَمْعِي وَنُورًا فِي بَصَرِي وَنُورًا فِي شَعْرِي وَنُورًا فِي بَشَرِي وَنُورًا فِي لَحْمِي وَنُورًا فِي دَمِي وَنُورًا فِي عِظَامِي اللَّهُمَّ أَعْظِمْ لِي نُورًا وَأَعْطِنِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا سُبْحَانَ الَّذِي تَعَطَّفَ الْعِزَّ وَقَالَ بِهِ سُبْحَانَ الَّذِي لَبِسَ الْمَجْدَ وَتَكَرَّمَ بِهِ سُبْحَانَ الَّذِي لَا يَنْبَغِي التَّسْبِيحُ إِلَّا لَهُ سُبْحَانَ ذِي الْفَضْلِ وَالنِّعَمِ سُبْحَانَ ذِي الْمَجْدِ وَالْكَرَمِ سُبْحَانَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ قَالَ أبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ مِثْلَ هَذَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَقَدْ رَوَى شُعْبَةُ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ عَنْ كُرَيْبٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ هَذَا الْحَدِيثِ وَلَمْ يَذْكُرْهُ بِطُولِهِ))

[الترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ]

((... اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي ...))

[الترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ]

المؤمن بجهد قليل يحقق نتائج باهرة و الكافر يجعل الله أمره فرطًا :

انظر الآن إلى الكافر وكان أمره فرطاً، بيته غير منضبط، زوجته غير منضبطة، و مواعيده غير مضبوطة، وعلاقاته غير صحيحة، وبيعه وشراؤه فاسد، وكلامه فيه ظنون، ومعتقداته فيها انحرافات، قال تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾

[سورة الكهف: 28]

((... وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي...))

[الترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ]

لذلك قال النبي الكريم عليه الصلاة والسلام:

((من أصبح وأكبر همه الآخرة جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله وأتته الدنيا وهي راغمة...))

[الترمذي عن أنس]

أي بجهد قليل يحقق نتائج باهرة، فالله عز وجل جمع له شمله، و إذا أراد الله عز وجل أن يؤدبه يبذل جهوداً جبارة تعجز عنها الرجال، ومع ذلك لا يحقق شيئاً، ويشغله بصفقة ثلاث سنوات ثم يخسره بها مئة ألف، و يقول لك: يا ليتني أغلقت المحل وذهبت نزهات، أو نمت، إذ يشغله بطريق مسدود، وبطرق كلها متاهات، ولذلك:

((من أصبح وأكبر همه الآخرة ...))

أي:

((اعمل لوجه واحد يكفِك الوجوه كلها))

[أخرجه ابن عدي والديلمي عن أنس]

((من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله الهموم كلها))

[الجامع لأحكام القرآن]

((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[من الدر المنثور عن عمر بن الخطاب]

"عبدي كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمتني فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلمني فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد."

امتحان الإنسان من قِبل الله كشف لمعدنه :

نقرأ قصة سيدنا يوسف لماذا نقرأها؟ هل هي تسلية أم للمتعة؟ قال تعالى:

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة يوسف: 21]

عشرة أخوة أشداء ائتمروا على أخيهم الصغير، وأرادوا أن يقتلوه، قال قائل منهم: اجعلوه في غيابت الجب، وضعوه في بئر جاءت سيارةً فأرسلوا واردهم قال: يا بشرى، أسروه بضاعة، اشتروه بثمن بخس وكانوا فيه من الزاهدين، دخل قصر العزيز وكان خادماً عبداً و لكنه كان مخلصاً لله عز وجل وعفيفاً، عف عن المحارم، دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، قال: معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي، وفي النهاية صار عزيز مصر، قالوا: أ إنك لأنت يوسف؟ قال: أنا يوسف وهذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتقِ ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. هذه القصة ما معناها؟

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[سورة يوسف: 21]

ربنا عز وجل يخلق لك ظروفاً صعبة تضيق عليك الدنيا، ويفتحها من طريق فيه حرام، فهذا هو الامتحان الصعب، إذ لا يوجد أعمال إطلاقاً، ومفتوح عمل لا يرضي الله عز وجل، فالمؤمن الصادق الصابر يقول: أنا لو مت جوعاً لن أفعل هذا؟ والأقل صدقاً يقول: ماذا أفعل أنا مضطر وليس لي خيار في الأمر؟ لقد رسب في الامتحان، ولكن إذا كان إيمانك بالله قوياً فهذا الآمر العظيم خالق الكون هل يدعك بلا شيء إذا اخترت رضاه؟ وإذا آثرت رضاه هل يدعك خلف الناس؟ حاشا لله ،وهذا يتنافى مع أبسط قواعد الوفاء، وأنت تؤثر رضاه ثم يتركك!! محال أن تطلب رضاه ولا يرضيك، لكن يؤخر لك العطاء قليلاً حتى ينكشف المعدن و هذه على موضوع

((....وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي ...))

فالمؤمن مجموع الشمل و أموره ميسرة.

المؤمن لا يصدق إلا ما جاء به القرآن الكريم :

يا أخوان: التيسير له قانون لا تسموه حظاً، لا يوجد حظ، لا تقولوا: فلان يده خضراء، لا يوجد يد خضراء، لا تسموا فلاناً مرزوقاً، لا يوجد مرزوق يوجد الله هو الرازق، لا تقولوا: فلان القدر تبسم له، فهذا كلام فارغ، لا تقولوا: إن الأيام رفعته، فلا يوجد أيام، ولا يوجد إلا الله، لا تقولوا: الدهر كان له بالمرصاد، لا يوجد إلا الله، فهذه كلها كلمات الشرك، وكلمات الكفر، هذا قدمه نحس، ما هذا الكلام؟ فالله يؤدبه، دخل فلان البيعة فضت، ما هذا الكلام؟ يقول: أخي قدمه نحس، هذا الشيء توهم من الشيطان، لا إله إلا الله، لا خيرة ولا كهانة ولا سحر فالمؤمن لا يصدق إلا ما جاء به القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ*مَلِكِ النَّاسِ*إِلَهِ النَّاسِ*مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ*الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ*مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

[سورة الناس: 1-6]

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ*مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

[سورة الفلق: 1-2]

((... وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي...))

[الترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ]

كل هذا من رحمة الله.

الابتعاد عن الفتن :

هذه الرحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها شملي، وتلم بها شعثي المتفرق، وترد بها الفتن عني، وأحياناً الإنسان ينتكس، ويحضر جهاز لهو إلى البيت، يفسد له حياته المنزلية، وقعت جريمتان في دوما وفي الزبداني بسبب جهاز الفيديو، إنسان وجد ابنه فوق ابنته بسبب جهاز اللهو، وترد بها الفتن هذه فتنة طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي إِذَا رَأَيْتُكَ طَابَتْ نَفْسِي وَقَرَّتْ عَيْنِي فَأَنْبِئْنِي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ، فَقَالَ: كُلُّ شَيْءٍ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ، قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْبِئْنِي عَنْ أَمْرٍ إِذَا أَخَذْتُ بِهِ دَخَلْتُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: أَفْشِ السَّلامَ وَأَطْعِمِ الطَّعَامَ وَصِلِ الأَرْحَامَ وَقُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ثُمَّ ادْخُلِ الْجَنَّةَ بِسَلامٍ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ترد بها الفتن عني، يا رسول الله بم أنجو من عذاب الله؟ قال:

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ))

[الترمذي عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

فهذه الفتن ولاسيما في هذه الأيام الفتن يقظى، الفتنة نائمةٌ لعن الله من أيقظها، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

[سورة يونس: 24]

كل شيء مزين، الأسواق مزينة جداً، البضاعة معروضة عرضاً يسير لها اللعاب، و في الأسواق إضاءة، وعرض جميل، والأسواق كلها تضج بحاجات الإنسان، قال رسول الله: "شر البلاد أسواقها وخيرها مساجدها"، فهنا يوجد رحمة، وتذكير بالآخرة، وبساعة اللقاء، وبساعة الفراق.

((... اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ))

[الترمذي عن ابْنِ عَبَّاسٍ]

طريق الإيمان طريق مصيري :

أحياناً الإنسان له فورة يأتي إلى الجامع ويسمع الحق ويتأثر، ويثور و يحب الحق، وأنا يبلغني هذا الأمر، أقول لهذا الرجل: ثبتك الله يا أخي، لأن البطولة بالثبات وليست البطولة بالفورة ثم ينتكس نكسة شديدة، إذا الإنسان بنى إيمانه على علم لا ينتكس، أما إذا بناه على انفعالات وعلى عواطف فهذه خطرة، وهذه لها فورة، وعندما تنتهي الفورة يعود إلى ما كان عليه، وربما انتكس نكسةً خطيرة، فيفجر فجوراً لا يفجره أهل الفجور، والثبات نبات كما يقولون، أنت سلكت طريق الإيمان وهذا طريق مصيري، قال تعالى:

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾

[سورة الأحزاب: 23]

أي ليس مؤقتاً، قال تعالى:

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾

[سورة الحج: 11]

فإذا عمله قلَّ في المحل يقول: بعد أن آمنا هكذا صار معنا، والله كنت لا أهدأ من البيع، والآن بعدما لحقنا الدين نضب موردي.

يجب أن توطن نفسك أن تحب الله، وأن تستقيم على أمره في السراء والضراء، وفي الغنى والفقر، وفي إقبال الدنيا و إدبارها، إن كنت متزوجاً أو عازباً، جاءك أولاد أم لم يأتك، جاءك بنات أو ذكور، دخلك محدود أو غير محدود، الصحة طيبة أم غير ذلك، أنت آمنت بالله عز وجل؟ هكذا الصحابة كانوا.

المصائب محك الرجال :

سيدنا علي يقول: "الرضى بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين"، والله الذي لا إله إلا هو إذا الإنسان أصابته مصيبة وتوجه إلى الله وقال: يا ربي لك الحمد على هذه المصيبة، لاشك أن فيها حكمةً ورحمةً وعلماً، أنا فقير إليها، هل تعلمون أن هذا نجاح باهر عند الله، ابتلاه ونجح، ويوجد أشخاص على المصائب يتغير إيمانهم، وهناك أشخاص على المصائب الثقيلة يقول لك: أين الله؟ ينكر وجوده، فالإنسان يطلب من الله السلامة، ولكن إذا جاء البلاء فالمصائب محك الرجال.

وسيدنا رسول الله كان من الممكن ألا يواجه أعداء إطلاقاً، وكان من الممكن أن يضعه الله في بيئة كلها مؤمنة، مثلاً نشأ في مكة و لا يوجد فيها أي كافر وكلها مؤمنون، فلما جاءت الرسالة آمنوا به جميعاً، لا يوجد حروب، ولا أعداء، ولا شيء إطلاقاً، فالدعوة تنتشر بسرعة، والناس مقبلون عليها، وأصحابه محبون له، وإكرامهم شديد له، كان من الممكن، ولكن معدنه الثمين لا ينكشف في هذا، له معدن ثمين ﷺ فلا ينكشف إلا في غار ثور، قال: "يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا، قال له: لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا، قال له: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ قال له: لقد رأوني، قال: يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾

[سورة الأعراف: 198]

يجب أن يمر بموقف صعب، وأن يذهب إلى الطائف ثمانية كيلو مترات مشياً، فأنت اذهب إلى دوما مشياً فهل تستطيع؟ سبعة عشر كيلو حتى تصل والطائف ثمانون وليس الطريق سهلاً، شق طرقات إلى الطائف شيء لا يصدقه العقل، جبال وعرة كأنها جدر، وصل النبي الكريم مشياً على قدميه إلى الطائف ليدعوهم إلى الله ورسوله، فأبوا، وأنكروا، واستهزؤوا، وكفروا، وعاد إلى مكة مخذولاً، وقال له أحدهم استهزاءً: ألم يجد الله أحداً غيرك يبعثه إلينا؟ وقال له آخر: والله لو أنك نبي حقاً لمزقت أثواب الكعبة، فماذا قال عليه الصلاة والسلام؟ قال: "إن الله ناصر نبيه".

توفيت زوجته، وتوفي عمه، وضيق عليه المشركون، ألجؤوهم إلى الشعاب، ونصح أصحابه بالهجرة إلى الحبشة، وهاجر إلى المدينة، وتبعه سراقة ليأخذ الجائزة، مئتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، قال: يا ربي اكفنا إياه كما شئت وكيف شئت، فغاصت قدما الفرس في الرمل فوقع من على فرسه المرة الثانية والثالثة فعرف أنه ممنوع منه، وأنه نبي قال له: مرني قال: خذل عنا، فعاد سراقة ورد الناس عن النبي، قال: هذا الوجه ليس فيه أحد كفيتكموه.

يجب أن يمر في ظرف صعب، فإذا الإنسان خاف لا يحزن فالأنبياء مروا في ظروف صعبة، فيجب أن تخاف مرة، و أن يقل دخلك مرة، وأن تشعر بشبح مصيبة كبيرة فلا تقل نفسك: ما هذا الدين؟ يا رب إني راض.

الحيان امتحان وكل شِدّة وراءها شَدّة إلى الله عز وجل :

الإمام الشافعي رضي الله عنه أثناء الطواف سمع رجلاً يقول: يا رب ارض عني، إنه رجل عادي، فقال له: يا هذا لو رضيت عن الله لرضي الله عنك، قال: من أنت يرحمك الله؟ قال له: أنا محمد بن إدريس الشافعي، قال له: وكيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ ما هذا الكلام ما قنع به، فقال الإمام الشافعي: يوم تسر بالنقمة سرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله، وهذا المقياس الدقيق، شيء لا تحبه فعليك أن تقول من أعمق أعماقك: يا رب لك الحمد، أنا راض.

قال لي طبيب بمستشفى: جاءنا مريض معه سرطان في الأمعاء وآلام هذا المرض لا تحتمل، كلما دخل عليه زائر يقول له: اشهد يا أخي أنني راض عن الله، يا ربي لك الحمد، شيء غريب كلما دخل زائر يقول له: اشهد أنني راض عن الله.

هكذا المؤمن فإذا الله بعث بمشكلة – وهذه نصيحة لوجه الله – لا يفتر لسانه عن الحمد لله، يا ربي لك الحمد، فلابد من حكمة وراء هذه المشكلة، ولابد من رحمة وراءها، ولابد من قفزة، كل شِدّة وراءها شَدّة إلى الله. الحياة امتحانات من الذي قال لك: إنه ممكن أن تعيش حياة هادئة لا يوجد فيها ولا مشكلة؟ أين الامتحان؟ قال تعالى:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾

[سورة العنكبوت : 2]

تريد حياة على تصميمك لا يوجد فيها مرض، ولا انزعاج، ولا مشكلة مع الزوجة أبداً، ولا مشكلة مع الأولاد، ولا يظهر حلمك، ولا علمك، ولا رحمتك، و لا تظهر حكمتك، إن لم يكن هناك مشاكل أين حكمتك؟ لا تظهر، أحضر أغبى إنسان ضعه في موقف ميسور تجده بشكل جيد، ضع إنساناً في منصب ولا يوجد مشكلة في المعمل، ولكن المشكلة إذا الآلة تعطلت، أو العامل شذّ، أو مادة فقدت، فهنا تبدو حكمة المدير العام كيف يوفر المادة.

موقف النبي من الأنصار و حكمته العظيمة :

النبي ﷺ جاءه صحابي جليل يقول له: إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمُ الْقَالَةُ حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الأنْصَارِ شَيْءٌ قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأنْصَارِ قَالَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ...))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

انظروا إلى هذا الموقف، طبعاً هو موقف نبوي لكن علماء السياسة اعتبروه أذكى موقف سياسي.

((... قَالَ يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمُ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ قَالَ: أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا ...))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

أنا واثق من إيمانكم، أحياناً يأتيك ضيف ويكون عندك ثلاث برتقالات، تضعهم للضيف فيأكلهم، و ابنك لم يأكل برتقالاً لكنه يتحمل لأنه من أهل البيت، ويقول: أنا ما أكلت برتقالاً يا والدي، هذا طفل أحمق، نعم تأكل أما الآن فنريد أن نبيض وجهنا أمام الضيف.

((... أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ...))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

بأنفسهم أشياء كثيرة، نحن استقبلنا رسول الله، ونحن نصرناه، فهذه خواطر داخلية، ونحن منعناه، و جاهدنا معه، و لنا ميزة.

((... أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ...))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

قال لهم يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بينكم؟ ما بدأ بنعم رسول الله، بدأ بما يفكرون هم:

((... أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

ألا ترضون أن هذا أخذ غنمة، وهذا شاة، وهذا أخذ بعيراً فرح به، ألا ترضون، طمأن بين قلوبهم، وطمأنهم، وجبر خاطرهم، وسلاهم، واعتذر لهم تقريباً، وذكر ما يدور في خواطرهم، وبيّن له فضله عليهم، فهذا الموقف النبوي.

تواضع النبي صلى الله عليه و سلم :

صلى الله عليه جاءه صحابي وقال له:

((عن عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ الأَنْصَارِ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتِ الأَمْطَارُ

سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى...))

[مسلم عن عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ]

النبي الكريم ﷺ كان متواضعاً جداً:

((... فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ))

[عن عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ]

ومن علامة النية أنه لا يوجد عنده كبر أبداً، ما دعاك، إجابة الدعوة فرض، شأنه قليل و قال له النبي: على العين والرأس:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

لا تعرف قد يكون أعلى منك هذا الرجل.

((... سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ...))

انظر لو قال له غداً آتيك صار هناك إحراج، وسوف يغديه، انظر إلى الكمال النبوي ما حدد له موعداً معيناً لئلا يتكلف قال له:

((.. سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ...))

جاء إلى مهمة محددة.

((.. قَالَ: فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ قَالَ وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ قَالَ فَآبَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ فَاجْتَمَعُوا...))

سيدنا النبي صلى الله عليه يمكن كل واحد من الصحابة في ذاكرته يعرف مشكلته، هذا متقدم وهذا متأخر، وهذا غاب وهذا جاء.

((فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تَقُلْ ذَلِكَ أَلا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، قَالَ ابْنُ شِهَابٍ ثُمَّ سَأَلْتُ الْحُصَيْنَ بْنَ مُحَمَّدٍ الأَنْصَارِيَّ وَهُوَ أَحَدُ بَنِي سَالِمٍ وَهُوَ مِنْ سَرَاتِهِمْ عَنْ حَدِيثِ مَحْمُودِ بْنِ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ فَصَدَّقَهُ بِذَلِكَ))

[مسلم عن عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ]

ما هذه لا، البلاغة بكلمة لا فقط، لو أضاف لها كلمة ثانية ما عدّ نبياً، ولو أنه سكت لعدّ سكوت النبي عليه الصلاة والسلام إقراراً، و لو قال قائل منهم: لقد نافق مالك بن الدخشن وسكت النبي فهو منافق، ولو قال الثاني: إنه بغيض الله ورسوله وسكت النبي لكان كذلك، ولو قال الثالث: إن حديثه في المنافقين وسكت النبي لكان كذلك، ولو أن أحدهم قال: نافق مالك يا رسول الله، فقال: لا ليس منافقاً وهو منافق لطعن بهذه الشهادة، إنسان منافق فعلاً، قال: هذا ليس منافقاً أي هؤلاء الأصحاب القلة شكوا في حكمه منافق، ولم يعد نبياً في نظرهم، أما كلمة لا فتحتمل معنيين، تحتمل ليس كذلك وتحتمل لا تقولوا كذلك، فإذا نقلت هذه القصة إلى مالك بن الدخشن، يا رجل قال عنك فلان إنك منافق فقال عنك النبي: لا، كيف يفهمها مالك؟ ليس كذلك إنه نفى عني النفاق يميل قلبه نحو النبي ﷺ، ولو سمعها واحد في المجلس أنه منافق وقال: لا، يفهمها ألا تقولوا هذا أمامي، أحب أن أخرج وأنا سليم الصدر، لا تحدثوني عن أصحابي بما أكره.

الابتعاد عما يجرح شعور الآخرين :

أحياناً يكون أخ يمشي مع رجل بعلمه يحبه، فيأتي منافق ويقول له: هذا منافق، و هذا عنده الجهاز الفلاني، وزوجته سافرة، و ماله حرام، فلماذا تقول هذا الكلام دعه يمشي معنا، من المحتمل بعد شهرين أن يبيع هذا الجهاز، وبعد شهرين يحجب امرأته، وهذه المصلحة يتركها، لماذا أنت تقول هذا؟ إذا أنت غرت عليه فانصحه ولا تدريني، إذا ما دريتني فالأفضل أن يبقى بيني وبينه مودة، وهذه المودة تتصاعد ثم تجده ترك كل هذا، أما إذا أوغرت صدر هذا الإنسان على هذا الأخ فصار فساد بالعلاقة فقد وقعت بإثم، فكلمة لا تحير، هذه الكلمة لها

معنيان أي لا تقولوا كذلك، وإذا سمعها مالك ليس كذلك.

((.... لا تَقُلْ ذَلِكَ أَلا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ....))

هذا الكلام لا ينطبق عليه، انظروا إلى الذكاء، هذا كلام منطقي وليس له علاقة بالماضي، انتهت القصة. وعندما انتهت القصة تصورت أن هذا منافق، ولكن رسول الله ما أحب أن يجرح شعوره، ولا أحب أن يفضحه، وما أحب أن يسكت، لأنه لو سكت صار إقراراً، وقعت تحت يدي مجلة فيها مقالة عن تبوك، قرأت المقالة فإذا في نصفها الآخر إشارة كدت أذوب لما فيها فرحاً، المنافقون بنوا مسجد ضرار، وهذا المسجد مذكور في القرآن، فبعث النبي عليه الصلاة السلام صحابيين جليلين هما مالك بن الدخشن وآخر ليهدما هذا المسجد، ومعنى هذا أن سيدنا مالك لما بلغته القصة أنه قال عنك: فلان منافق، وقال عنك: إن حديثك في المنافقين، وقال عنك فلان: تبغض الله ورسوله، وكل مرة يقول رسول الله لا، فصار له ميل لرسول الله وبهذا الميل عاد وأسلم، وحسن إسلامه، وصار مجاهداً، وبعثه النبي بمهمة، هذه نتائج كلمة لا، هذه النبوة، لا تقل كلمة فيها جرح لشعور إنسان.

النبي الكريم أشد حياء من العذراء في خدرها :

صلى الله عليه شاهد ابنته فيما أذكر تلبس ثوباً شفافاً فقال: "لا تلبسي هذا الثوب إنه يصف- ماذا يقول ضع أي كلمة مشكلة- قال لها: إنه يصف حجم عظامك"، وهذه روعة الحديث هل من الممكن أن يخطر في بالك شيء بهذه الكلمة.

وأحدنا أحياناً يقول كلمة لا تليق وهو يريد أن ينصح ابنته فيقول كلمة لا تليق، كان النبي لا ينطق بكلمة واحدة فيها إثارة، فالآن تفتح كتاب فقه، والله تستحي بحالك، كل شيء باسمه الحقيقي، كتاب في البيت ممكن أن يقرأه طفل، وكبير، و لا يوجد شيء مستور في الفقه، وليس من المعقول أن تقرأ كتاب فقه في مسجد، أخي لا حياء في الدين، لا فالدين كله حياء، تعلم من الله عز وجل الكنايات الرائعة، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾

[سورة المؤمنون: 5-7]

هذه ينطوي تحتها مليون انحراف أخلاقي، قال تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمْ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

[سورة النساء: 43]

فيوجد أشياء لطيفة جداً، والنبي ﷺ له كنايات رائعة جداً، يظهر أن امرأة سألته:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنَ الْمَحِيضِ فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ؟ قَالَ: تَطَهَّرِي بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ؟ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ تَطَهَّرِي فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

فكان أشد حياء من العذراء في خدرها، كيف يفصل أكثر من هذا التفصيل؟ مجلسه مجلس علم، وحياء، ووقارٍ، ولطف.

أخلاق النبي صلى الله عليه و سلم العالية :

مرة كانوا مدعوين على غذاء، وكان اللحم لحم جمل، ويظهر أنهم صلوا الظهر، وجلسوا، ثم خرجت رائحة كريهة، يوجد واحد انتقض وضوءه هذه تفسيرها، أكلوا وأذن العصر وعليهم أن يصلوا العصر، وكل أصحابه متوضئون إلا هذا الذي انتقض وضوءه، طبعاً إذا أراد أن يتوضأ انكشف، فقال عليه الصلاة والسلام وهو سيد الأذكياء: "كل من أكل لحم جزور فليتوضأ قالوا كلنا أكلنا قال: كلكم فليتوضأ".

ستره، قال بعض الفقهاء هذا اللحم نجس، لا ليس نجساً، هذا ﷺ لدقته العالية قال: "لا تحمروا الوجوه"، لا تحرج أحداً، هناك أناس عندهم رغبة ألست أنت قلت غير هذا الكلام البارحة؟ أنت البارحة ذممته ولم تمدحه، هذه ليست من أخلاق المؤمن.

من جاءه أخوه متنصلاً فليقبل منه محقاً كان أم مبطلاً، تصور مبطلاً أي وعدك ولم يأتِ وقال لك: السيارة تعطلت، فالمؤمن يقول: لا بأس وأنت عندك يقين أن القصة كلها كذب.

ألم يأت المنافقون يعتذرون له وتخلفوا عن بعض المعارك؟ هذا قال له: بيتي سوف يسقط وهذا قال له... كلها أسباب منطقية، حتى جاء صحابي سيدنا مالك قال له: والله يا رسول الله أوتيت لساناً ذرباً – أي عندي إقناع قوي – ولو شئت أن أسترضيك لاسترضيتك، ولكنني لو استرضيتك الآن لأوشك الله أن يسخطك علي، والله يا رسول الله لم أكن بوقت من الأوقات بأقوى ولا أنشط حين دعوتني ولكنني تخلفت، قال صلى الله عليه أما هذا فقد صدق، إشارة لطيفة جداً.

تعلموا من أخلاقه العالية، إنسان دخل إلى المسجد راكضاً أحدث جلبة وضجيجاً:

((عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

[النسائي عَنْ أَبِي بَكْرَةَ]

البلاغة والروعة بكلمة زادك الله حرصاً، لو أنه لامه أو وبخه ينزعج فأثنى عليه وقال له: لا تعد.

بدوي أثناء الصلاة عطس صحابي فقال له: يرحمك الله، فالصحابة ضربوا على أرجلهم أن اسكت، فلما شاهد هذا خاف أن يضربوه بعد الصلاة، فلما انتهت الصلاة قال له النبي صلى الله عليه: يا عبد الله إن هذا الكلام لا يصلح في الصلاة، فقال: والله ما رأيت معلماً أحكم منه ولا أرحم منه، فوالله ما نهرني ولا قهرني، فقال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً، قال له: يا أخي لقد حجّرت واسعاً.

((وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامُوا إِلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تُزْرِمُوهُ ثُمَّ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصُبَّ عَلَيْهِ))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

صلى الله عليه حكيم، الفقهاء فهموا أن إذا رجل بدأ في التبول وتوقف يصبح معه مضاعفات كثيرة جداً، هذا خطأ كبير أن يحصر الإنسان نفسه، فلماذا سحر الصحابة؟ سحروا برسول الله، من كماله ﷺ.

رقة النبي صلى الله عليه و سلم و تواضعه :

إنه متواضع إلى أقصى الحدود، فيه رقة، وكان إذا دخل بيته لف ثوبه، كان يقول للسيدة عائشة يا عويش تحبباً لها، ومرة تسابقا فسبقته وكانت صغيرة جداً، ومن ثم سبقها، قالت: لما ركبني اللحم فسبقني فما زاد وزنه صلى الله عليه، هي زاد وزنها، قال لها: هذه بتلك. وكان إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، ألين الناس، وكان يقول: أكرموا

النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم.

أكرموا النساء فإنهن المؤنسات الغاليات، وكان يرفو ثوبه، ويخسف نعله، ويحلب شاته، وكان في مهنة أهله، رقيقاً، كانت تقول له السيدة عائشة كيف حبك لي؟ يقول لها: كعقدة الحبل، فكانت تقول له كيف العقدة؟ يقول: على حالها.

وهكذا يجب أن يكون البيت جنة يا أيها الأخوة، إذا كنت أنت مؤمناً صحيحاً ورسول الله قدوتك فيجب أن يكون بيتك جنة، لطف، ومودة، وسلام، السلام عليكم، فتح الباب وقال: الطعام جاهز، قل: السلام عليكم، تعلم الرقة مع زوجتك، مع أخوانك، ومع أصدقائك، والله يوجد أشياء في السيرة النبوية من العجائب.

إنسان قدم له خلاً فقال ﷺ: "نعم الإدام الخل"، فرجل غني قال: الخل أطيب شيء عند رسول الله دعاه إلى الخل فقال له: "بئس الإدام الخل"، قلناها لإنسان رقيق الحال فهل تليق به؟ فيجب على الإنسان أن يكون دقيقاً.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 19 : سقوط الصلاة (والصيام)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

إسقاط الصلاة والصوم :

أيها الأخوة المؤمنون، موضوع الفقه اليوم: "إسقاط الصلاة والصوم"، إذا مات المريض ولم يقدر على الصلاة بالإيماء تسقط عنه، فليست هناك فترة عفي فيها إلا أنه مرض وانتهى، ومرضه بالموت، وفي مرضه لم يقدر على الصلاة بالإيماء، وفي هذه الحالة تسقط عنه الصلاة، ولا يلزمه الإيفاء بها وإن قلت، وكذلك الصوم إن أفطر فيه المسافر ومات في سفره، أو أفطر المريض ومات قبل الإقامة، ومات قبل الصحة، لا يلزمه شيء فيسقط عنه الصيام، وتسقط عنه الصلاة، لكن ورد في النص الثابت عن الصوم من أفطر بعذر فالفدية تسقطه، قال تعالى:

﴿ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: 184]

وبعض العلماء وجه هذه الآية إلى أن الذي يستطيع أن يصوم ولكنه مسافر له أن يفطر ويستطيع أن يصوم في سفره، و المريض له أن يفطر ويستطيع الصيام في أثناء المرض، فهذا إذا أفطر أفطر بعذر، ولكن قد يكون هذا العذر غير مقبول أمام نفسه، فعليه الفدية، فقال بعض العلماء: إن الصيام بنص القرآن الكريم يسقط بالفدية، ولكن لم يرد في الصلاة نص يشبه ذلك، إلا أن السادة الأحناف قاسوا الصلاة على الصيام، ولكن السادة الشافعية قالوا: لا، فالصلاة لا يمكن أن تسقط بالفدية، ولو فرضنا إنساناً ما صلى وكان معذوراً عليه أن يدفع مقابل كل صلاة مد قمح فالشافعية لم ترضَ بهذا، فمن مات وعليه صلوات لا يكفي في إسقاطها الإطعام لحديث

أنس:

((مَنْ نَسِيَ صَلاةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَهَا لا كَفَّارَةَ لَهَا إِلا ذَلِكَ (وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي) قَالَ مُوسَى قَالَ هَمَّامٌ سَمِعْتُهُ يَقُولُ بَعْدُ وَأَقِمِ الصَّلاةَ للذِّكْرَى))

[مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

قضاؤها هو كفارتها، نتابع الموضوع، الآن لو فرضنا أن إنساناً صام في رمضان ثم مرض فعليه قضاء الأيام التي أفطر فيها خلال مرضه، ثم شفي من هذا المرض ولم يقض ما عليه و مات الآن وليه عليه أن يخرج من ميراثه إطعام مسكين عن كل يوم أفطره خلال المرض ولم يؤده في أثناء الصحة، وهذا النوع من الكفارة يسقط ما على هذا المريض الذي شفي من مرضه ولم يصم في أثناء الصحة. والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((لا يصلين أحد عن أحد، ولا يصومن أحد عن أحد))

[رواه عبد الرزاق في " مصنفه – في كتاب الوصايا " عن ابن عمر]

فإنسان معه قرحة في المعدة وصفنا له دواء فقال له أخوه: أنت متعب سوف آخذ الدواء عنك، هذا مستحيل، وسوف ننتقل في درس قادم إلى باب قضاء الفوائت.

* * *

العلم و العمل طريقا الوصول إلى الله عز وجل :

من كتاب إحياء علوم الدين انتقلنا إلى الجزء الثاني بعد أن تمت بعض الفصول المختارة بفضل الله عز وجل وتوفيقه، وها نحن أولاء ننتقل إلى الجزء الثاني، والشيء الذي يثلج الصدر أن الجزء الثاني كله متعلق بالآداب، فهناك مقدمة في موضوع الآداب، و أول هذه الآداب آداب الطعام والشراب، وآداب النكاح، وآداب الفقه فقه المعيشة، وآداب الاختلاط، وآداب الاعتزال، وموضوعات ثمينة جداً، من منا لا يأكل في اليوم ثلاث مرات؟ إذا عرف هذا الموضوع طبقه من توه، المقدمة التي أردت أن أذكرها لكم كلمة كلمة.

يقول الإمام الغزالي: أما بعد فإن قصد ذوو الألباب لقاء الله تعالى في دار الثواب – هذا الهدف الأكبر أن تلتقي بالله تعالى في دار الثواب ووجهك أبيض وعملك طيب – ولا طريقة إلى الوصول للقاء الله إلا بالعلم والعمل، وحضور هذا المجلس هو العلم والتطبيق في البيت هو العمل، ولا تمكن المواظبة على العلم والعمل إلا بسلامة البدن، تسلسل منطقي، هل تستطيع حضور هذا المجلس وأنت مريض؟ وهل تستطيع مباشرة هذه الآداب وهذه

الأوامر وأنت مريض؟ مستحيل، ولا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوال، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فمن هذا الوجه قال بعض السلف الصالحين: الأكل من الدين، أي العناية بهذا الجسد إطعامه، وتأمين حاجته، فهذا من الدين، لأن هذا الجسد مطيتك إلى الله، و إلى الجنة، ووسيلتك للعمل الصالح، وعليه نبه رب العالمين بقوله وهو أصدق القائلين:

﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

[سورة المؤمنون : 51]

أمر إلهي، أما الدقة البالغة الآن: فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل ويقوى به على التقوى فهذا هو من الدين، فلا ينبغي له أن يترك نفسه هملاً سدى، يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى، فإنما هو ذريعة إلى الدين، ووسيلة إليه، ينبغي له أن تظهر أنوار الدين عليه، مادام الطعام والشراب كما قال بعض السلف الصالح من الدين، وسيلة الرجل إلى العلم والعمل فينبغي له أن تظهر أنوار الدين عليه.

التزام الإنسان بسنن الطعم و الشراب مدفعة للوزر ومجلبة للخير وللأجر :

ما هي أنوار الدين على الطعام والشراب؟ الآن تأتي التفصيلات، وإنما أنوار الدين وآدابه وسننه، فإذا كان الإنسان يأكل ليتقوى على طاعة الله عز وجل، حتى يتقوى على العلم والعمل اللذين بهما يلقى الله عز وجل في الجنة ينبغي أن تظهر أنوار الدين عليه، وأنوار الدين آدابه، و عندنا طائفة كبيرة جداً من الأحاديث الشريفة والسنن النبوية الطيبة متعلقة بالطعام والشراب بالذات، فما هذه السنن؟ العبد يجب أن يلتزم بها وأن يلتزم بلجامها حتى يتزن بميزان الشرع فيصبح بسببها مدفعةً للوزر، ومجلبةً للخير وللأجر، طبعاً كل هذا الكلام مأخوذ من قوله عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: عَجِبْتُ لِلْمُسْلِمِ إِذَا أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ اللَّهَ وَشَكَرَ، وَإِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ احْتَسَبَ وَصَبَرَ، الْمُسْلِمُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِيهِ))

[أحمد عَنْ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ سَعْدٍ]

تقول: فم، فوه بالرفع، وفيهِ بالكسر، وفاهُ بالنصب، تقول: لا فض الله فاكَ، ولا فُض فوكَ، ووضعه في فيه أي في فمه. وإنما ذلك إذ رفعها بالدين وإلى الدين مراعياً فيها آدابه ووظائفه.

هذه المقدمة يعني الطعام والشراب إذا كان وفق آداب الإسلام صار عملاً صالحاً ومن الدين، وإذا خالفت آداب الطعام والشراب صار الطعام والشراب هدفاً لذاته وصار ليس للدين بل للدنيا، وصار استمتاعاً بالطعام والشراب، ويأكل هذا الكافر كما تأكل البهيمة، وهكذا قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾

[سورة محمد: 12]

الآداب الواجب اتباعها قبل الطعام :

1 ـ أن يكون الطعام حلالاً :

والآن يوجد ثلاثة آداب، آداب قبل الطعام، وآداب أثناء الطعام، وآداب بعده، فأما الآداب التي قبل الطعام فسبعة.

الأول: أن يكون الطعام حلالاً، التأدب في لحم الخنزير ليس وارداً، أو اللحم المذبوح ذبحاً غير شرعي، أو لحم دمه فيه، والدم من المحرمات إذ يجب أن يكون الطعام حلالاً، وربنا عز وجل قال:

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾

[سورة البقرة: 168]

الحلال و الطيب :

ما الفرق بين الحلال والطيب؟ العلماء بينوا الفرق، الحلال ما كان حلالاً في ذاته، والطيب ما كان الوصول إليه من طريق مشروع، فالتفاح حلال أكله، أما أن تأكل تفاحةً اغتصاباً أو سرقةً هذه حلال وليست طيباً، فالحلال الطيب أن يكون الطعام ذاته مباحاً أكله سمح به الشرع، والطيب أن يكون طريق وصول هذا الطعام إليه من طريق مشروع، فكل ما أخذ بسيف الحياء حرام، ولذلك أنا أقول دائماً: هذه التفاحة خلقها الله لك، وطريق وصولها

إليك باختيارك، هي لك قد تصل إليك شراءً بمال حلال، وقد تصل إليك هديةً، وقد تأكلها ضيافةً، وقد تأخذها غصباً، وقد يسرقها بعض الناس، وقد يأخذها بعض الناس تسولاً، كل هذه طرق، وهذه الطرق اختيار الإنسان أما هي فلك، فلذلك أول أدب من آداب الطعام أن يكون الطعام حلالاً، أي مباحاً أكله كالليمون، أما طيباً فأن يكون طريق وصوله إليك من طريق مشروع موافق للسنة، والورع لم يغتصب بسبب مكروه في الشرع، و الآن يوجد مكاسب للرزق محرمة والإمام الغزالي رضي الله عنه يقول: يجب أن تكون هذه الأطعمة قد وصلت إليك من طريق مكروه، أي حلفت يميناً كاذبة وبعت هذه البيعة وربحت ثمانين ليرة فاشتريت بها فاكهة ولحماً وطعاماً فهذه اليمين كاذبة، واليمين كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ إِنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[مسلم عَنِ ابْنِ شِهَابٍ]

ومن أكل لقمةً واحدة من حرام لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً، الشطيرة كم لقمة؟ إذا الإنسان أخذ مبلغاً يطعمه خمسين سنة بالحرام فهذا المبلغ ما وضعه؟

المداهنة و المداراة :

إذاً يجب ألا يكون كسب هذا الطعام من طريق مكروه بالشرع، ولا بحكم هوى، ولا مداهنة في الدين، أحياناً الإنسان يداهن، فما المداهنة؟ المداهنة يوجد شيئان قوله تعالى:

﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾

[سورة القلم : 9]

والمداراة، قال عليه الصلاة والسلام: "بعثت لمداراة الناس".

المداهنة محرمة، أما المداراة فمستحبة، ما هي المداراة؟ بذل الدنيا من أجل الدين، أي ساعدت صديقاً لك مساعدة ثمينة أحبك فجاء معك إلى المسجد فجاريته، بعته بيعة وما ربحت منه شيئاً استجلبت قلبه، خدمته خدمة كبيرة، وعلمته شيئاً يجهله.

حدثني أخ عنده محل حلويات، جاءه شخص من مكان بعيد قال له: علمني هذه المصلحة؟ قال له: نعم، قال لي: من ثلاثين سنة يأتي كل سنة أقرب لي من أخي من المودة، فتح محلاً في آخر الدنيا واشتغل، فالمداراة بذل الدنيا من أجل الدين، أما المداهنة فبذل الدين من أجل الدنيا، أي لك شريك وله مخالفات شرعية ويوجد منه ربح جيد فغضضت البصر عن هذه المخالفات، وعن الشبهات في كسب المال بغية الربح، فضيعت شيئاً من دينك من أجل الربح، هذه هي المداهنة، ولذلك ليس من شيمة المؤمن المداهنة بل من شيمته المداراة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: " بعثت لمداراة الناس "

إذاً يجب ألا يكون كسب هذا الطعام من طريق مكروه في الشرع، ولا بحكم هوىً أو مداهنة في دين، وسيأتي هذا في التفصيل في موضوع آداب الكسب والمعاش، وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال، وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[سورة البقرة: 188]

نهانا عن أكل الطعام بالباطل، وحثنا على أكل الطعام الطيب الحلال،

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾

ثم قال:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾

أول أدب واضح جداً أن يكون الطعام حلالاً طيباً، الحلال ذاته، والطيب طريقه واضحة.

2 . غسل اليد :

والآن الأدب الثاني: غسل اليد، قال عليه الصلاة والسلام:

((الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم))

[مسند الشهاب عن موسى بن جعفر عن أبيه عن جده]

أي بركة الطعام، و في حديث آخر:

((بَرَكَةُ الطَّعَامِ الْوُضُوءُ قَبْلَهُ وَالْوُضُوءُ بَعْدَهُ))

[الترمذي عن عن سلمان رضي الله عنه]

والعلماء قالوا: الوضوء هذا وضوء الطعام أي غسل اليدين فقط والفم، والإنسان أثناء عمله صافح إنساناً، أو مسك حذاءه، أو أمسك حاجة فيها جراثيم، أو هبت عاصفة شديدة وهناك غبار دخل إلى فمه، فغسل فمه وغسل يديه من الآداب قبل الطعام. قال: لأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة، ولأن الأكل بقصد الاستعانة على الدين عبادة فهو جدير بأن يقدم عليه ما يجري منه مجرى الطهارة من الصلاة، ومادام الطعام للمؤمن عبادة، والصلاة يسبقها وضوء، كذلك الطعام فيه وضوء وهو غسل اليدين والفم قبل الطعام.

3 . أن يوضع الطعام على الأرض :

والأدب الثالث أن يوضع الطعام على الأرض، لكن هنا الإمام الغزالي ملخص الصفحة الطويلة قال: هناك بدع وهناك سنن، فالبدعة التي لا تلغي سنة ليست مكروهة، فإذا الإنسان أَلِف أن يأكل هو وأولاده على الطاولة ويوجد كراسي ليست هذه بدعةً مكروهةً، فالنبي الكريم في عصره كانت الأرض هي أساس الحياة، فكان يأكل على الأرض كما يأكل العبد، يوجد وصف دقيق لطعامه وشرابه، ولكن حتى لا يكون هناك حرج فهنا توضيح طفيف، إذا كان هناك بدعة تلغي سنة فهي مكروهة باطلة، و لكن هناك بدع لا تلغي السنة ولا شيء عليها، مثلاً رسول الله كان يشعل سراجاً، فنسمي الآن الضوء بدعة؟ لا ليس بدعة لأنه ما غير شيئاً بمعايير الدين، وليس كل شيء ظهر جديداً يسمى بدعة.

4 . أن يحسن الجلسة على المائدة في أول جلوسه ويستديمها :

والآن أن يحسن الجلسة على المائدة في أول جلوسه ويستديمها، يوجد جلسات لا تليق قال عليه الصلاة والسلام:

((أما أنا فلا آكل متكئاً))

[البخاري عن أبي حجيفة]

الاتكاء فيه كبر، وكان رسول الله ﷺ ربما جثا للأكل على ركبتيه، وربما جلس على ظهر قدميه، وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى، وكان يقول:

((أما أنا فلا آكل متكئاً))

[البخاري عن أبي حجيفة]

((إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد))

[أحمد عن عطاء بن أبي رباح]

والشرب متكئاً مكروه أيضاً ويكره الأكل نائماً ومتكئاً إلا لضرورة.

5 . أن ينوي بأكله التقوي على طاعة الله ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل :

الأدب الخامس: أن ينوي بأكله أن يتقوى على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل، ولا يقصد التلذذ والتنعم بالأكل، قال إبراهيم بن شيبان: "منذ ثمانين سنةً ما أكلت شيئاً بشهوتي"، قال: "ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل فإنه إذا أكل لأجل قوة العبادة لم تصدق نيته إلا لأكله دون الشبع"، أي أنت قل ما شئت، قل أنا نويت التقوي على طاعة الله بهذا الطعام، إذا أكلت دون الحد النبوي فهذا الفعل يتناقض مع هذه النية، لأن العبادة تحتاج إلى خفة، اللقمة تذهب الفطنة:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[سورة النساء: 142]

الخير كله مجموع في خزائن الجوع.

من كانت نيته صادقة في التقوي على طاعة الله فيجب أن يأكل دون الشبع :

إذاً الإمام الغزالي يبين مقياساً دقيقاً أنه إذا شئت من هذا الطعام التقوي على طاعة الله كُلْ ما شئت، لكنك إذا أكلت أكثر مما ينبغي لك وفوق السنة المطهرة فإن أكلك هذا ينفي نيتك تلك، فإن الشبع يمنع من العبادة ولا يقوي عليها، فمن ضرورة هذه النية كسر الشهوة، وإيثار القناعة على الاتساع، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ مِقْدَامِ ابْنِ مَعْدِي كَرِبَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ))

[الترمذي عَنْ مِقْدَامِ ابْنِ مَعْدِي كَرِبَ]

ومن ضرورة هذه النية، أول شيء إذا كانت النية صادقة من أجل التقوي على طاعة الله يجب أن تأكل دون الشبع، فالسيدة عائشة تقول: "أول بدعة ابتدعها المسلمون بعد وفاة رسول الله الشبع"، وأول مخالفة للسنة بعد وفاته كانت الشبع، فمن أكل حتى الشبع فقد نقض نيته التي بدأها في أول الطعام وهي التقوي على طاعة الله، وطبعاً الحديث معروف ويعده العلماء قمة الطب الوقائي: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع".

وإنه من الإسراف أن تأكل كلّ ما اشتهيت:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنَ السَّرَفِ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ مَا اشْتَهَيْتَ))

[ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

من كانت نيته صادقة في التقوي على طاعة الله فيجب ألا يمد يده إلى الطعام إلا وهو جائع

ومن ضرورة هذه النية ومما يؤكدها ألا تمد يدك إلى الطعام إلا وأنت جائع، و قد قيل: " نعم الإدام الجوع". أطيب طعام أن تكون جائعاً، فيكون الجوع أساساً لصدق النية، ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب، هذا هو الطب الوقائي ألا يأكل حتى يجوع وإذا أكل لا يشبع، وفي ألمانيا مستشفى مكتوب عليها هذا الحديث: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع" محمد بن عبد الله.

قالوا: الطب الوقائي كله في هذه الحكمة، أي في هذا الحديث، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب، وسيأتي في فصول قادمة ممتعة عن فائدة قلة الأكل، والغزالي لخصها في كلمة: "الخير كله مجموع في خزائن الجوع، وطريقة التدريج في التقليل منه" وهناك كتاب "كسر شهوة الطعام من الأربعة المهلكات".

6 . أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام :

الأدب السادس: أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام، ولا يجتهد بالتنعم وطلب الزيادة وانتظار الإدام، بل من كرامة الخبز ألا ينتظر الإنسان به الإدام، فالخبز إدام، وقد ورد الأمر بإكرام الخبز، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا حَضَرَ الْعَشَاءُ وَأُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَابْدَءُوا بِالْعَشَاءِ))

[متفق عليه عَنْ أَنَسٍ]

وكان ابن عمر رضي الله عنهما ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشائه، ومهما كانت النفس لا تتوق إلى الطعام ولم يكن في تأخير الطعام ضرر فالأولى تقديم الصلاة، أما إذا حضر الطعام فالأولى تقديم الطعام، دخلوا طبعاً في متسع كبير من الوقت والطعام حضر، والعلماء أجمعوا على أن الأكل أولى من الصلاة، لأنه يحصل انشغال بالطعام، فإذا الطعام خارج الغرفة فالصلاة أولى، حان وقت العشاء وقد استعدوا للعشاء نبدأ بالعشاء ولكن أدخلوا الطعام نبدأ بالعَشاء ثم العِشاء.

7 . أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده :

الأدب السابع أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده، قال عليه الصلاة والسلام:

((حَدَّثَنَا وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبِ بْنِ وَحْشِيِّ بْنِ حَرْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ وَحْشِيٍّ أَنَّهُمْ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَأْكُلُ وَلا نَشْبَعُ قَالَ فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ قَالُوا نَعَمْ قَالَ فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ يُبَارَكْ لَكُمْ فِيهِ))

[أحمد وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ]

و:

((كان عليه الصلاة والسلام لا يأكل وحده أبداً))

[الخرائطي عن أنس]

وكان عليه الصلاة والسلام يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو من أهله وولده، فإنّ خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي.

كم حديث؟ ثلاثة، وفي درس قادم إن شاء الله نأخذ آداب حالة الأكل وآداب ما بعد الطعام.

* * *

من شمائل النبي ﷺ :

1 . شدة اهتمام النبي الكريم بمن يسأله عن أمور الدين من الرجال والنساء :

والآن إلى بعض شمائله ﷺ، كل هذه الحقائق والمعلومات والتوجيهات والأحاديث قابلة للتطبيق الفوري في أول وجبة طعام.

((عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ دَخَلَ رَجُلٌ عَلَى جَمَلٍ فَأَنَاخَهُ فِي الْمَسْجِدِ ثُمَّ عَقَلَهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَيُّكُمْ مُحَمَّدٌ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتَّكِئٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ فَقُلْنَا هَذَا الرَّجُلُ الأَبْيَضُ الْمُتَّكِئُ فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ يَا ابْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ أَجَبْتُكَ فَقَالَ الرَّجُلُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي سَائِلُكَ فَمُشَدِّدٌ عَلَيْكَ فِي الْمَسْأَلَةِ فَلا تَجِدْ عَلَيَّ فِي نَفْسِكَ فَقَالَ: سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ، فَقَالَ: أَسْأَلُكَ بِرَبِّكَ وَرَبِّ مَنْ قَبْلَكَ أَاللَّهُ أَرْسَلَكَ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ أَاللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نُصَلِّيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ قَالَ: اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ أَاللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ نَصُومَ هَذَا الشَّهْرَ مِنَ السَّنَةِ قَالَ اللَّهُمَّ نَعَمْ قَالَ: أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ أَاللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتَقْسِمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ نَعَمْ فَقَالَ الرَّجُلُ: آمَنْتُ بِمَا جِئْتَ بِهِ وَأَنَا رَسُولُ مَنْ وَرَائِي مِنْ قَوْمِي وَأَنَا ضِمَامُ بْنُ ثَعْلَبَةَ أَخُو بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ))

[النسائي عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ]

المغزى هذا الرجل جاء نيابةً عن قومه كلهم، وشدد في السؤال، واستيقن من النبي عليه الصلاة والسلام فإذا آمن هو آمن معه قومه جميعاً، فهذه القصة وردت هنا تحت عنوان شدة اهتمامه بمن يسأله عن أمور الدين من الرجال والنساء.

" وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: – كانت من ذوات العقل والدين– وروي عنها أنها أتت النبي ﷺ فقالت: "يا رسول الله إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي، وكلهن على مثل رأيي، إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك، ونحن معشر النساء مقصورات مخدرات في البيوت – قواعد في البيوت – وإن الرجال فضلوا بالجمعات، وشهود الجنائز والجهاد، فإذا خرجوا إلى الجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا لهم أولادهم أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت عليه الصلاة والسلام بوجهه إلى أصحابه وقال: هل سمعتم مقالة هذه المرأة؟ إنها أحسنت السؤال عن دينها، فقالوا: بلى يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: انصرفي يا أسماء وأعلمي من ورائكِ من النساء أن حسن تبع إحداكن لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقته، يعدل كل ما ذكرتِ للرجال، قال: فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً لما قاله النبي عليه الصلاة والسلام لها "

هذا الحديث مروي ثلاث روايات:

" قال: جاءت امرأة إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقالت: يا رسول الله أنا واثبة النساء إليك، هذا الجهاد كتبه الله على الرجال، فإن أصيبوا أجروا، وإن قتلوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون، ونحن معاشر النساء نقوم عليهم فما لنا من ذلك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أبلغي من لقيتِ من النساء أن طاعة الزوج واعترافاً بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من تفعله "

كأن النبي عليه الصلاة والسلام عرف ما سيكون وقليل منكن من تفعله.

الرواية الثالثة: " أن امرأةً جاءت النبي عليه الصلاة والسلام فقالت: إني رسول النساء إليك ما منهن امرأة علمت أو لم تعلم إلا وهي تهوى مخرجي إليك، الله رب الرجال والنساء وإلههم وأنت رسول الله إلى الرجال وإلى النساء، كتب الله الجهاد على الرجال فإن أصابوا أجروا، وإن استشهدوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة؟ فقال ﷺ: طاعة أزواجهن ومعرفة حقوقهن وقليل منكن يفعله "

إذاً هذ الروايات الثلاث والأولى تحت عنوان شدة اهتمامه ﷺ بمن يسأله عن أمور الدين من الرجال والنساء.

2 . مكافأته ﷺ الإكرام بأفضل الإكرام :

مكافأته ﷺ الإكرام بأفضل الإكرام، روى البيهقي في الدلائل وابن إسحاق عن أبي قتادة أنه قال: " وفدَ وفدٌ النجاشي على النبي ﷺ، فقام النبي ﷺ يخدمهم بنفسه فقال له أصحابه: يا رسول الله نحن نكفيك ذلك، فقال عليه الصلاة والسلام: إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وأنا أحب أن أكافأهم على ذلك "
نبي هذه الأمة كان يخدمهم بنفسه.

3 . مقابلة الإحسان بأجمل منه :

ومقابلة الإحسان بأجمل منه من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام.
فعن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: "استسقى رسول الله ﷺ، فأتيته بقدح فيه ماء فكانت فيه شعرة فأخذتها، فقال عليه الصلاة والسلام مقابلاً هذا الصنيع الجميل: اللهم جمله ".

ماذا فعل هذا الصحابي؟ قدم كأس ماء وجد فيه شعرة أزالها فدعا له الرسول عليه الصلاة والسلام أن يجمله، قال الراوي: "فرأيت عمراً وهو ابن تسعين سنة وليس في لحيته شعرة بيضاء لأنه قال له: اللهم جمله.

" وعن أبي أيوب الأنصاري قال:

((كان رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة فسقطت على لحيته ريشة فابتدر أبو أيوب فأخذها- أحياناً يكون على كتف أخيه شعرة، أو قشة، أو نملة- فقال عليه الصلاة والسلام: نزع الله عنك ما تكره))

[الطبراني عن أبى أيوب]

ما نسيها، سيدنا أبو أيوب أزال ريشةً عن لحيته ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام:

((...نزع الله عنك ما تكره))

ما هذه الدقة في ملاقاة الجميل؟ مسلم راوي الحديث الشهير روى عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال:

((حَدَّثَنِي رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الأَسْلَمِيُّ قَالَ: كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ فَقَالَ لِي: سَلْ؟ فَقُلْتُ: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ؟ قُلْتُ: هُوَ ذَاكَ، قَالَ: فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ))

[مسلم رَبِيعَةُ بْنُ كَعْبٍ الأَسْلَمِيُّ]

ملك قال لابنه: ماذا تريد أن تكون يا بني؟ قال له: أريد أن أكون رئيس الجامعة، فقال له: هذه تحتاج إلى دراسة، أنا أعطيك بيتاً فوراً، وطائرة، و يختاً، أما أعينك مدير الجامعة هذه تحتاج إلى دكتوراه، يجب أن تعينني، إذا أنت ما عملت لن تنال هذا المنصب، فهذا سيدنا ربيعة طلب طلباً عالياً جداً أن يكون رفيق رسول الله في الجنة، هذا المقام لا ينال إلا بالتعب الشديد.

قال ربيعة: فكنت أخدم النبي عليه الصلاة والسلام نهاري فإذا كان الليل أويت إلى باب رسول الله فبت عنده فلا أزال أسمعه يقول: سبحان الله، سبحان الله، سبحان الله حتى أمل أو تغلبني عيني والنبي لا ينام، قال تعالى:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنْ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾

[سورة المزمل: 20]

يا ترى إذا الناس كلهم ناموا، وكل حبيب أوى إلى حبيبه، فأنت من حبيبك؟ هل تقوم في الليل تصلي؟

((عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا بَقِيَ ثُلُثُ اللَّيْلِ نَزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَرْزِقُنِي فَأَرْزُقَهُ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَكْشِفُ الضُّرَّ فَأَكْشِفَهُ عَنْهُ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ]

هل لك ركعتان قبل الفجر بينك وبين الله عز وجل؟ في رواية ثانية قال:

" يا ربيعة سلني فأعطيك، قال: أنظرني حتى أنظر – مادام لي عندك هذه الحاجة أنظرني– وتذكرت أن الدنيا فانية منقطعة فقال يا رسول الله: أسألك أن تدعو الله لي أن ينجيني الله من النار ويدخلني الجنة، فسكت النبي عليه الصلاة والسلام ثم قال: من علمك هذا؟ قلت: والله ما علمنيه أحد ولكني علمت أن الدنيا منقطعة فانية وأنت من الله بالمكان الذي أنت منه فأحببت أن تدعو الله لي قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود ".

4 . تفقد أصحابه و السؤال عنهم :

النبي صلى الله عليه من شمائله الكريمة أنه كان يتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس، فإذا الناس في ضائقة يسألهم عن هذه الضائقة، فليس يعيش في برجه العاجي، يسألهم عما يعانونه، فأبو يعلى روى عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأله عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده.

عندما يغيب الرجل عن الجامع ثلاثة أيام كان النبي عليه الصلاة والسلام يسأل عنه، فإن كان غائباً دعا له، وإن كان شاهداً زاره، وإن كان مريضاً عاده، أما إذا كان مقيماً وما جاء إلى المسجد فمعنى هذا أنه يوجد مشكلة، قد يكون عنده مشكلة، مثل ضائقة نفسية، أو قضية مادية حبسته عن المجيء، وإذا كان مسافراً دعا له، ولكن إذا الإنسان سافر وما أعلم النبي عليه الصلاة والسلام فهذا مخالف للسنة.

5 . حفظه للود :

حفظه للود ﷺ:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهَا قَالَتْ مَا غِرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ وَلَقَدْ هَلَكَتْ قَبْلَ أَنْ يَتَزَوَّجَنِي بِثَلاثِ سِنِينَ لِمَا كُنْتُ أَسْمَعُهُ يَذْكُرُهَا وَلَقَدْ أَمَرَهُ رَبُّهُ أَنْ يُبَشِّرَهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ وَإِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيَذْبَحُ الشَّاةَ ثُمَّ يُهْدِي فِي خُلَّتِهَا مِنْهَا))

[مسلم عَنْ عَائِشَةَ]

إكراماً لخديجة، وحفظاً لودها، وحسناً لعهده معها بعد وفاتها، وروت عائشة أيضاً عن النبي عليه الصلاة والسلام: " أنه جاءت عجوز إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف أنتم بعدنا؟ فقالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله تقدم على هذه العجوز هذا الإقبال؟ قال: يا عائشة إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان ".

ابن طفيل قال:" رأيت النبي ﷺ يقسم لحماً بالجعرانة وأنا يومئذٍ غلام أحمل عدو البعير، فأتته امرأة فبسط لها رداءه، قلت من هذه؟ قال: هذه أمه الذي أرضعته ":

((حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ السَّائِبِ حَدَّثَهُ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ جَالِسًا فَأَقْبَلَ أَبُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ فَوَضَعَ لَهُ بَعْضَ ثَوْبِهِ فَقَعَدَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَقْبَلَتْ أُمُّهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ فَوَضَعَ لَهَا شِقَّ ثَوْبِهِ مِنْ جَانِبِهِ الآخَرِ فَجَلَسَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ أَقْبَلَ أَخُوهُ مِنَ الرَّضَاعَةِ فَقَامَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ))

[أبي داود عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ]

هكذا الوفاء تعيش مع الإنسان سنوات تكرمه وتدلله ثم يؤذيك! آخر قصة في الصحيحين:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ ثُمَّ قَالَ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ))

[مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

وهناك أعرابي آخر جاء النبي عليه الصلاة والسلام يستعينه في شيء ثم قال له: أحسنت إليك، قال: لا ولا أجملت، قال: فغضب المسلمون وهموا أن يقتلوه ما هذا الكلام؟ فقام عليه الصلاة والسلام وبلغ إلى منزله ودعا الأعرابي إلى البيت – انتقل إلى البيت وطلبه لوحده – فقال: إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت – هكذا تقول أمام أصحابي؟ – فزاده النبي وقال له: أحسنت إليك، قال: نعم، جزاك الله من أهل عشيرةٍ خيراً –القصة لم تنتهِ – فقال عليه الصلاة والسلام: إنك جئتنا فسألتنا فأعطيناك فقلت ما قلت، ولم يقل ماذا قال وفي نفس أصحابي عليك من هذا شيء فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي– سوف أجمعك معهم قل لهم ما قلت إلي حتى يذهب عن صدورهم ما هم فيه– قال: نعم، فلما جاء الأعرابي قال عليه الصلاة والسلام: إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال وما أعاد مقالته، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي كذلك يا أعرابي، فقال الأعرابي: نعم جزاك الله من أهل عشيرة خيراً، فقال عليه الصلاة والسلام: كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه فتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورها، فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها، وأنا أعلم بها، فتوجه إليها صاحبها وأخذ لها من خشان الأرض طعاماً، ودعاها حتى جاءت، واستجابت فشد عليها رحلها، وإني لو أطعتكم حيث قال ما قال لدخل النار". الإنسان يجب ألا يكون عون الشيطان على أخيه، يجب أن يكون عون أخيه على الشيطان.

النبي أسوة لنا :

هذه بعض شمائله ﷺ ونحن اقتربنا من عيد المولد، إن شاء الله في هذه الأيام المباركات سوف أكثر من الحديث عن شمائله ﷺ هو قدوة لنا، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾

[سورة الأحزاب: 21]

إن كنت ترجو الله واليوم الآخر فالنبي لك أسوة، وإن لم يكن لك أسوة فهذا الرجل الذي لم يكن النبي له أسوة قطعاً لا يرجو الله ولا اليوم الآخر، ومن علامة أنك ترجو الله واليوم الآخر أن تتخذه أسوة لك في معاملاتك اليومية، انظروا كيف وفاء العهد، والتحمل، والرقة، والوداعة، واللطف، والحلم، والشكر، والمودة، وهذه كلها من صفات النبي ﷺ.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 20 : قضاء الفوائت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

قضاء الفوائت :

أيها الأخوة المؤمنون، موضوع الفقه اليوم: "باب قضاء الفوائت"، والقضاء لغةً الحكم، ولكن شرعاً إسقاط الواجب بمثل ما عنده، أي عليك فرض صلاة فاتتك إذا صليتها بعد أن تذكرتها فقد قضيتها، فالعبادات تؤدى أداءً وقضاءً، إن صمت رمضان في رمضان فهذه عبادة أديتها أداءً، وإن كنت مريضاً، أو على سفر، وصمت أياماً أخر في وقت آخر، فهذه العبادة أديتها قضاءً، إما أن تؤدى العبادة أداءً أي في وقتها، وإما أن تؤدى قضاءً لعذر في غير وقتها.

فالترتيب بين الفائتة والوقتية وبين الفوائت مستحق، أي فاتتك صلاة الظهر وأذن العصر الترتيب بين الفائتة والوقتية مستحق أي عليك أن تصلي الظهر أولاً ثم العصر ثانياً، وبين الفوائت لو أنه فاتك عدة صلوات لأمر قاهر تصلي الصلوات التي فاتتك وفق ترتيبها الطبيعي الظهر فالعصر فالمغرب فالعشاء، وليس لك أن تصلي العشاء أولاً وهو أحدثها فالمغرب فالعصر، بل يجب أن ترتب الفائتة والوقتية وأن تراعي الترتيب فيما بين الفوائت.

شروط إسقاط الترتيب :

ولكن متى يسقط الترتيب؟ في ثلاث حالات؛ في ضيق الوقت المستحب، أي لو أنه بقي لاصفرار الشمس وقت قليل لا يتسع لصلاة الظهر الفائت والعصر الوقتي يجب أن تبدأ بالعصر، لأن صلاة العصر فيها وقت مستحب، وفيها وقت مكروه، وإذا بقي لدخول الوقت المكروه أمد قصير لا يسمح لك لصلاة الظهر أولاً ثم صلاة

العصر ثانياً، يجب أن تبدأ بالعصر لأن العلماء قالوا كلاماً لطيفاً: ليس من الحكمة إضاعة الموجود في طلب المفقود، و الآن معك وقت صحيح لأداء صلاة العصر، أضعت الوقت الصحيح المستحب لصلاة فائتة فاتتك، فلما جاء الوقت المستحب انتهى الوقت المستحب ودخل الوقت المكروه، إذاً ليس من الحكمة إضاعة الموجود في طلب المفقود، ومن نام عن صلاة فنسيها فلم يذكرها إلا وهو يصلي مع الإمام فليصل التي هو فيها ثم ليقض التي تذكرها.

فأول سبب يوجب إسقاط الترتيب ضيق الوقت المستحب، ودخولك في وقت مكروه، فابدأ في الوقتية ثم صلِّ الفائتة.

والنسيان؛ لو أن صلاة الظهر فاتتك ولم تذكر أنها فاتتك وشرعت في صلاة العصر فأنت بهذا لم تراعِ الترتيب، ولكن صلاة العصر صحيحة لأنك لم تتذكر الصلاة التي فاتتك، فنسيان الصلاة الفائتة يسقط مراعاة الترتيب بين الفائتة والوقتية، أما العبرة في موضوع ضيق الوقت فعند الشروع لا عند الانتهاء، فيجب أن تحسب إذا بدأت في صلاة العصر يجوز ألا يبقى وقت لنهاية العصر، فيجب أن تراعي إذا صليت الظهر ودخل الوقت المكروه أن العبرة في نهاية الصلاة لا في بدئها.

شرط سقوط مراعاة الترتيب بين الوقتية والفائقة :

ولكن العلماء قالوا: إذا صارت الفوائت ستاً فما فوق فعندئذٍ يسقط مراعاة الترتيب، وهذا في الفوائد القليلة، أي لأمر قاهر مثل عملية جراحية، أو حريق نشب، أو شيء فوق طاقة الإنسان، فاته مجموعة صلوات، فيجب أن تكون هذه الصلوات دون الست حتى تراعي ترتيبها مع الوقتية، فإذا تجاوزت الفرائض الست فعندئذ يسقط مراعاة الترتيب بين الوقتية والفائقة، ولكن الشيء العجيب أن الإنسان ينسى أنه صلى أم لم يصلِّ، وقد رفع عن أمتي الخطأ والنسيان، ولكن إذا نسي أنه صلى أم لم يصلِّ فهذه إشارة خطيرة إلى أن الصلاة عنده لا شأن لها، و نسيان أنك صليت أم لم تصلِّ هو نسيان ولن تحاسب علي،ه لكنه يعلن عن شيء، يعلن عن أن الصلاة في هامش حياتك وليست في صلب حياتك، والمؤمن الصادق ينتظر الصلاة إذا نادى المنادي يلبي النداء، حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح، ومن علامات المؤمن الصادق أنه لا تفوته الصلاة ولا ينساها، ولكن إذا نسيها فهذا هو الحكم، وسوف ننتقل في درس قادم إن شاء الله تعالى إلى باب إدراك الفريضة.

* * *

آداب المؤمن المسلم في أثناء الطعام والشراب :

1 . أن يبدأ بالتسمية :

والآن إلى متابعة آداب الطعام والشراب كما وردت في إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وسوف ترون كيف أن الطعام من الدين، فإذا كان الطعام بنية التقوي على العلم والعمل اللذين هما قِوام حياة الإنسان في الدنيا والآخرة فسوف تعلمون كيف أن الطعام من الدين بشرط الأخذ بهذه الآداب، وقد تحدثنا في الدرس الماضي عن الآداب التي ينبغي لها أن تسبق الطعام والشراب واليوم نتحدث عن آداب المؤمن المسلم في أثناء الطعام والشراب.

قال الإمام الغزالي: ينبغي أن يبدأ باسم الله في أوله، فاسم الله قبل الطعام ماذا يعني؟ يعني شيئين، الأول: أن هذا الذي تأكله من نعم الله، والثاني يجب أن تأكله وفق سنة النبي عليه الصلاة والسلام التي هي تفصيل لشرع الله، فإذا بسمل العبد قبل كل عمل فمعنى ذلك أنه انتبه إلى أمر الله، وراعى أمر الله في هذا العمل، وانتبه إلى أن هذه النعم هي نعم الله عز وجل، ثلاث كلمات مهلكات: لي، وعندي وأنا، قال قارون، قال تعالى:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمْ الْمُجْرِمُونَ﴾

[سورة القصص : 78]

فأهلكه الله عز وجل، وقال الشيطان، قال تعالى:

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾

[سورة ص : 76]

أهلكه الله عز وجل، وقال فرعون، قال تعالى:

﴿ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[سورة الزخرف: 51]

فإذا الإنسان جاءته خواطر وهو يأكل أن هذا الطعام هو اشتراه، وهو حصل خبرةً عالية، درس الطب وأخذ بورد، وهو الآن طبيب كبير، وله دخل كبير، أتاح له هذا الانصراف للعلم، وتحصيل هذه الشهادات، أن يشتري ما لذّ وطاب من الطعام والشراب، إذا تصور هذا لم يقل بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فإذا قال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فهذا يعني أنه يرى نعمة الله عز وجل في هذا الطعام، وأنه يذكر أمر النبي عليه الصلاة والسلام في تناول الطعام.

2 . يأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به :

أن يبدأ بسم الله في أوله، والحمد لله في آخره، ولو قال مع كل لقمة بسم الله فهو حسن، أي إذا الإنسان قالها مرتين أو ثلاثاً أثناء الطعام فهو حسن، لماذا؟ حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى، وأحياناً تأكل أمام إنسان يُكَرِهك في الطعام فهو شره وما سمّى، وإذا الإنسان دخل إلى بيته ولم يسلم قال الشيطان لإخوانه: أدركتم المبيت، ترى طوال الليل مشاكل لأسباب تافهة لا قيمة لها، وإذا جلس إلى الطعام وما سمى يقول الشيطان: أدركتم العشاء، لا يوجد بركة، وأول صحن ملئ وما شبعوا، ثلاثة صحون، وإذا جلس الإنسان ولم يسمِّ قال الشيطان لإخوانه: أدركتم العشاء، وإذا دخل البيت ولم يسلم قال الشيطان: أدركتم المبيت، طوال الليل مشاكل، فإذا دخل الرجل إلى البيت ولم يسلم وجلس إلى الطعام ولم يسمِّ قال الشيطان لإخوانه: أدركتم المبيت والعشاء. ولو قال الإنسان مع كل لقمة مرتين أو ثلاثاً بسم الله لا يشغله الشره عن ذكر الله تعالى، ويقول مع اللقمة الأولى بسم الله، ومع اللقمة الثانية بسم الله الرحمن، ومع الثالثة بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ويجهر بذلك ليذكر غيره، فالإنسان يبسمل بينه وبين نفسه، ولكن إذا قال بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أمام زوجته وأولاده فكأنه يقول لهم: بسملوا، ويأكل باليمنى، ويبدأ بالملح ويختم به، و لا يعلم إلا الله كم تنطوي هذه النصيحة النبوية على فوائد، ولو أن هناك متسعاً من الوقت لشرحت هذه الفوائد التي تنتج عن تناول شيء قليل من الملح قبل الطعام وبعده.

3 . تصغير اللقمة و إجادة مضغها :

ويصغر اللقمة، ويجيد مضغها وما لم يبتلعها لا يمد اليد إلى الأخرى – لقمة بفمه ولقمة بيده وعينه على الثالثة، لا ليس هكذا – فإن ذلك عجلة بالأكل.

4 . ألا يذم مأكولاً :

ألا يذم مأكولاً صلى الله عليه ما عاب طعاماً قط، ما رئي ماداً رجليه قط وما عاب طعاماً قط في كل حياته. لكن النفس لها رغبات، فمن آدابه النبوية المطهرة لا يعيب مأكولاً، كان إذا أعجبه أكله وإلا تركه، وأحياناً تدعو إنساناً من أهل الدنيا إلى طعام فيقول لك: الملح قليل، وأما السمن فقد غشوك به، والزيت كذلك، تراه يخجلك، وهذه من صفات المنافقين أن يعيب الطعام، فالنبي الكريم قال: نعم الإدام الجوع، جوع وانظر ترى أي طعام كأنه

الدنيا، نعم الإدام الجوع، تحدثنا في الدرس الماضي أنه لا يجوز لإنسان أن يأكل إلا وهو جائع، ولا أن يرفع يده عن الطعام إلا وهو جائع، أي قبيل الشبع.

لا يعيب مأكولاً كان إذا أعجبه أكله وإلا تركه.

5 . يأكل مما يليه و لا تجول يده على الطعام إلا الفاكهة :

وأن يأكل مما يليه، وألا أن تجول يده على الطعام مما يليه إلا الفاكهة، فإن له أن يجيل يده فيها، قال ﷺ:

((عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ أَبِي نُعَيْمٍ قَالَ: أُتِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَعَامٍ وَمَعَهُ رَبِيبُهُ عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمَةَ فَقَالَ: سَمِّ اللَّهَ وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ))

[مسلم عَنْ وَهْبِ بْنِ كَيْسَانَ أَبِي نُعَيْمٍ]

فأحياناً إنسان متقدم في السن وأسنانه لا تساعده ويحتاج إلى مشمشة ناضجة، وهذا شاب يحبها حامضة، تعال وقل له: كُلْ مما يليك، فهذا يحب التفاحة أن تكون هشة، و يريدها حمراء، وهذا يحبها قاسية، النفس لها رغبات متباينة، والفاكهة منوعة، فهذا يحب الخيارة صغيرة وهذا أكبر، و هذه الأشياء يختلف فيها الناس، فالنبي عليه الصلاة والسلام سمح للإنسان أن يختار من الفاكهة، قال تعالى:

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴾

[سورة الواقعة : 20]

حتى السنة أن تأكل الفاكهة قبل الطعام، لأن هذه الفاكهة فيها مواد سكرية بسيطة تنتقل إلى الدم في عشرين دقيقة، فلو أنك دخلت إلى البيت، وتناولت هذه البرتقالة التي مقرر أن تأكلها بعد الطعام أكلتها قبل الطعام وصليت الظهر، فحدة الجوع خفت، وكسرت، هذا الماء السكري الذي في الفاكهة سهل الهضم، وملأ المعدة وتمثلته بسهولة، إذاً حدة الجوع خفيفة،عندئذ نجلس ونأكل الطعام، والأفضل أن يكون بين تناول الفاكهة قبل الطعام وبين الطعام ما يزيد على عشرين دقيقة، و لذلك فالنبي الكريم في رمضان كان يأكل ثلاث تمرات وكأس ماء ثم يصلي المغرب قبل أن يأكل الطعام، وإذا جلس ليأكل يأكل كما يأكل وجبته العادية، ويكون الصيام سبع عشرة ساعة في أيام الصيف الحارة، فلو تناول ثلاث تمرات أو كأس عصير أو شيئاً من الفاكهة برتقالة أو تفاحة وتناول كأس ماء وقام وصلى المغرب والسنة ثم جلس ليأكل فإذا هو يتناول وجبةً عادية.

ومرة قيل له: يا رسول الله وكأن أحد الصحابة وجّه نظره أن يده الشريفة كانت تجول على طبق الفاكهة، فقال

عليه الصلاة والسلام ليس هو نوعاً واحداً.

6 . لا يأكل من منتصف القصعة بل يأكل من الطرف الذي يليه :

وألا يأكل من منتصف القصعة بل يأكل من الطرف الذي يليه وهذا من السنة، و مرة كنت في دعوة طعام هناك أخ وضع قطعة خبز تحت القصعة لئلا تؤذي الخوان – المشمع – والقصعة ساخنة ويوجد أخ آخر نهاه عنها، فاختلفوا لكن وجدت أن من آداب الطعام ألا تضع قصعة الطعام على الخبز لأنك قد استخدمت الخبز استخداماً رخيصاً، فنعمة كبرى أنعم الله بها عليك لتأكلها لا لتجعلها عازلاً بين الخوان وبين القصعة، قال ﷺ:

((أَكْرِمُوا الْخُبْزَ، فَإِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَهُ مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ))

[البزار والطبراني عن عبد الله بن أم حرام]

الله مرة شاهدت إنساناً يمسح حذاءه بالخبز، وإنساناً آخر يليف الصحن بلب الخبز، يرغو عليه الصابون ويليف الصحن، فإذا كان مما ينافي الآداب النبوية المطهرة أن تضع رغيف الخبز تحت قصعة الطعام، كأنك جعلت هذا الخبز عازلاً، فكيف إذا مسحت يدك بالخبز؟

و عليك ألا تمسح يدك بالخبز، أي إذا أكلت أكلة فيها مرق فالعق أصبعك بفمك ولا تمسح بها الخبز.

7 . غسل اليدين قبل الطعام :

وقال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى وَلْيَأْكُلْهَا وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ وَلا يَمْسَحْ يَدَهُ بِالْمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ الْبَرَكَةُ))

[ابن ماجة عَنْ جَابِرٍ]

مثلاً وقعت عنبة خذها واغسلها وتناولها، أو وقعت قطعة خبز أزل عنها ما أصابها، أما أن ترميها بالقمامة فهذا ليس من آداب المسلم في طعامه وشرابه، وبعض العلماء وجه لعق الأصابع بأنه إجراء احترازي ضماناً لنظافة الأصابع قبل الطعام، فانتبه أيها المسلم يجب أن تلعق أصابعك بعد الطعام إذاً عليك أن تغسل يديك قبل الطعام كي تستسيغ نفسك لعق الأصابع بعد الطعام.

8 . الوضوء قبل الطعام و بعده و عدم النفخ بالطعام الحار :

بركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده، ولا ينفخ بالطعام الحار وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إنه أعظم للبركة))

[البيهقي عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ]

بل يصبر إلى أن يسهل أكله.

9 . يأكل من التمر وتراً قبل الطعام :

يأكل من التمر وتراً، سبعاً أو إحدى عشرة أو ما اتفق، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق واحد، وأكثر الناس يضع في صحنه العظام المأكولة، أو بعض فضلات الطعام على طرف الصحن، ويعد هذا نوعاً من النظام الجديد، لا، النبي الكريم نهى أن يجتمع في طبق واحد التمر والنوى، لأن هذا النوى كان في فم الإنسان فإذا مست نواة تمرةً، فكأن سؤر هذا الذي أكلها قد انتقل إلى هذا التمر، وهذا قد يدعو إنساناً آخر إلى الاشمئزاز، فلا ينبغي لنا أن يكون النوى والتمر في طبق واحد، ولا يجمع في كفه، أي إذا أكل تمرة أخرج النواة أمسكها بيده وضعها في الصحن، أو وضعها على المائدة، وأمسك التمرة فوجدها قاسية وأخذ تلك، فهذا السؤر الذي خرج من فمه مع النواة – أمسك النواة بإصبعيه فوضعها على الخوان، ثم تناول تمرةً لن تعجبه وأخذ الأخرى- وصل إلى هذه التمرة، ماذا كان يفعل النبي عليه الصلاة والسلام؟ كان يأكل التمرة ويضع أصابعه الثلاث هكذا ويلفظها على ظهر أصابعه، ويضعها في طرف الخوان، ويتناول التمرة التي يجمع أكلها بإصبعيه من الداخل، هل يوجد أنعم و أنظف من هذا؟ وأحياناً الإنسان يأكل بطيخاً ينحت الحز ويضع على ظهره أي آثار أسنانه ظاهرة عليه، ويوجد إنسان يشمئز، فإذا الإنسان متبع للسنة يأكل الحز ويضعه على بطنه لكي لا تبدو آثار أسنانه عليه.
والخلاصة أن للإنسان في طعامه وشرابه آداباً كثيرة يجب عليه أن يتأدب بها.

10 . ألا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة :

ألا يترك ما استرذله من الطعام ويطرحه في القصعة فأثناء تناوله للطعام وجد شيئاً من اللحم لا يؤكل كوتر العضلة لا يضعها على الصحن نفسه، بل بطرف الصحن، ويوجد آثار قطع لحم لم تؤكل معه فلفظها من فمه، وفي الطرف الآخر يوجد رز أو طعام لا يجوز هذا، فهذا الذي لا يعجبه ما استرذله من الطعام لا ينبغي له أن

يبقى في الطبق، قال: حتى لا يلتبس على غيره فيأكله، ترك صحنه وقام جاء إنسان جائع وجد لحمة وأكلها وما أكلت معه لأنها مأكولة سابقاً فهذه مشكلة، والنبي الكريم نهى عن هذا.

11 . عدم الإكثار من الشرب أثناء الطعام :

وألا يكثر الشرب في أثناء الطعام، فالأطباء قالوا: كثرة الشرب في أثناء الطعام تمدد العصارة المعوية، ومع تمدد هذه العصارة تضعف فاعلية الهضم، إذاً أحد أسباب عسر الهضم كثرة شرب الماء في أثناء الطعام، إلا إذا غص في لقمةٍ، أو كان يأكل سفرجلاً، أو كان ذا عطش شديد، فقد قيل: إن ذلك مستحب في الطب.

آداب الشراب :

1 . أخذ الكوز باليمين :

وأما الشرب فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه، ويقول: بسم الله.

2 . الشرب مصاً لا عباً :

ويشربه مصاً لا عباً، كان يفتح البراد ويأخذ الماء ويكرع فيها، فشاربون شرب الهيم، أما المؤمن فيمص الماء مصاً ولا يعبه عباً، وفي حديث آخر:

((إن الكباد من العب))

[أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس]

أي أمراض الكبد، وهذا العضو ثمين جداً فالذي لا يعيش الإنسان من دونه أكثر من ثلاث ساعات هو الكبد وهو ملاصق للمعدة، وحرارته سبع وثلاثون، فإذا أدخلت إلى جوفك ماءً مثلجاً بكميات كبيرة عببته عباً فإن هذا قد يؤذي الكبد وقد يصيبه بعطبٍ شديد لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مصوا الماء مصاً، ولا تعبوه عباً فإن الكباد من العب))

[أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث انس بالشطر الأول، ولأبي داود في المراسيل من رواية عطاء بن أبي رباح "إذا شربتم فاشربوا مصا]

3 . عدم الشرب و أنت قائم أو مضطجع :

ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً فإنه ﷺ نهى عن الشرب قائماً إلا في شرب ماء زمزم، وكان حكيماً حكمةً بالغة لو أنه شرب ماء زمزم قاعداً لمات نصف الحجاج، حينما كان الازدحام الشديد أكثر من حجي قال لي: إذا سقط الإنسان مات من شدة الازدحام، ولذلك قال بعض السلف الصالح: لو أن إنساناً سقاك ماء زمزم في الشام فالسنة أن تشربه قائماً، لأنه من بيت الله الحرام.

ويوجد حالات قاهرة رجل أصابه عطش ويريد أن يأخذ حبة في الطريق ولا يوجد مكان أن يجلس، فيوجد استثناءات حتى لا يصبح مضحكة للناس، وفي هذه الحالة نقول له: اشرب الماء قائماً، فالنبي الكريم في بعض الحالات شرب الماء قائماً لسبب قاهر، وفي بيتك اجلس واشرب، وفي المسجد اجث على ركبتيك واشرب، و لكن في الطريق، أو في مكان لا يقدرون السنة النبوية إذا شربت قائماً فلعلة قاهرة، وكأن النبي الكريم أدرك ذلك، ونهى عن الشرب قائماً وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام شرب قائماً، إذ يوجد حالات ضرورية يسمح لك أن تشرب الماء قائماً.

4 . ألا تشرب و عينك على الناس :

وألا تشرب الماء وعينك على الناس، فهذا الشرب لا يوجد فيه أدب فيجب أن يكون النظر إلى الماء أثناء الشرب، فالنظر في كأس الماء وفي الكوز ولا يتجشأ، كفّ عنا تجشؤك، وأحياناً يأتي رجل في مجلس العلم فيتثاءب بصوت عالٍ وكأنه يسبح هذا سوء أدب، التثاؤب من الشيطان، رجل سأل: إذا تثاءب النبي ماذا كان يفعل؟ أيضع يده اليمنى أم اليسرى؟ فكان الجواب لم يتثاءب قط، لكن نحن إذا تثاءبنا فالإنسان لا يفتح فمه، وإذا فتح فمه يضع يده أو كمه أو منديلاً من دون صوت، أما كأنه جالس في بيته وأخرج صوتاً عالياً وكأنه في بيته فهذا ليس من آداب المسلمين.

5 . عدم التنفس في الكوز أو التجشؤ فيه :

ولا يتنفس في الكوز ولا يتجشأ، يجوز أن يكون معه أمراض تنتقل عبر التنفس فإذا تنفس في الكوز اختلط هذا الجرثوم في الماء، ولما رأى رجلاً يتنفس في الماء قال:

((أبن القدح عن فيك))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن أبي سعيد الخدري]

أي أبعده، ثم ينحيه عن فمه بالحمد ويرده بالتسلية، وقد قال ﷺ بعد الشرب:

((الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا))

[ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي جعفر]

6 . أن يدور الماء بدءاً من اليمين :

يجب أن يدور الماء بدءاً من اليمين وقد شرب النبي عليه الصلاة والسلام لبناً وأبو بكر عن شماله وأعرابي عن يمينه، وعمر ناحياً في طرف المجلس فقال عمر رضي الله عنه للساقي أعط أبا بكر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: الأيمن فالأيمن.

فالنبي الكريم أمر أن يدار الماء عن يمينه، و مرة غلام عن يمينه وعن يساره سيدنا الصديق قال له: أتأذن لي يا غلام لأنه حقه، ما أحب أن يعطي الغلام قبل سيدنا الصديق إلا عن رضا منه.

7 . شرب الماء في ثلاثة أنفاس :

ويشرب في ثلاثة أنفاس، ويحمد الله في أواخرها، ويسمي الله في أوائلها، ويقول في آخر النفس الأول: الحمد لله، وفي الثاني يزيد رب العالمين، وفي الثالث يزيد الرحمن الرحيم، قال: هذا قريب من عشرين أدباً في حالة الأكل والشرب دلت عليها الأخبار والآثار وقد أثرت عن النبي عليه الصلاة والسلام.

ما يستحب بعد الطعام :

1 . الإمساك عن الطعام قبل الشبع :

وأما ما يستحب بعد الطعام فإلى درس آخر إن شاء الله تعالى.

وهو أن يمسك عن الطعام قبل الشبع، قال لي طبيب: الإحساس بالشبع يحتاج إلى خمس عشرة دقيقة بدءاً من انتهاء الطعام، فإذا الإنسان أمسك عن الطعام قبل أن يشبع يعير الساعة بعد مضي هذه المدة يحس بالشبع،

كيف تصير؟ إذا الإنسان تناول شطيرة وكان مضطراً فأكلها في الطريق، وهذا العمل يجرح العدالة تناول الطعام في الطريق أو صحبة الأراذل، وهي ثلاثة وثلاثون بنداً، صحبة الأراذل، الأكل في الطريق، المشي حافياً، من علا صياحه في البيت حتى سمعه من في الطريق، الحديث عن النساء، التنزه في الطرقات، أكل لقمة من حرام، تطفيف بتمرة، من اتخذ برزوناً فأخاف به الأطفال، من أطلق لفرسه العنان، من بال في الطريق، من لعب النرد، هذه الأشياء إذا وقعت تسقط عدالة الإنسان ومن بينها الأكل في الطريق، أنا قصدت إذا الإنسان دخل إلى بائع شطائر وأكل شطيرة مضطراً، انتهى عمله الساعة الثانية وعنده موعد الساعة الثانية والنصف وفطر الساعة السابعة، و لكن إذا تناول الطعام في الطريق يقول لك: أستطيع أن آكل عشراً، وبعد ربع ساعة يشعر بحالة عجيبة لا هي شبع مع الثقل ولا هي جوع، بل حالة خفة وراحة وارتياح، لأن الشعور بالشبع وصل إلى منطقة الجوع في الدماغ، وهذا الشعور يحتاج إلى خمس عشرة دقيقة، فالإنسان يجرب إذا قام عن الطعام قبل أن يشبع فهذه الإرادة كلها نصف ساعة، و بعد هذا يشعر أنه اكتفى، وأحياناً الإنسان يسكت جوعته ويقول: بعد قليل سوف آكل، بعد أن تسكت جوعته شبع، أما بعدما ترك الطعام فما كان شبعاناً.

2 . التقاط فتات الطعام :

و النبي الكريم من آدابه أنه يمسك عن الطعام قبل الشبع، ويلعق أصابعه ثم يغسلها، ويلتقط فتات الطعام، من أكل ما يسقط من المائدة عاش في سعة وعوفي في ولده.

3 . تنظيف الأسنان و التمضمض :

ويتخلل، فالله عز وجل خلق لنا الخلة خصيصاً لاستخدامها في تنظيف الأسنان، وليتمضمض بعد الخلال ففيه أثر عن أهل البيت عليهم السلام، وأن يلعق القصعة، أكل صحن بيض وقلاه بالسمن البلدي، وثمن الكيلو ثمانون ليرة، وبقي أثر من السمن إذا بلقمة صغيرة مسح السمن مسحاً جيداً فهذه من السنة، وهذا شيء ثمين. ومن لعق القصعة كان له عتق رقبة، وإن التقاط الفتات مهور الحور العين.

4 . ذكر الله :

وأن يذكر الله في قلبه على ما أطعمه فيرى الطعام نعمةً منه، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

[سورة البقرة: 172]

والحمد على النعمة أمان من زوالها، ومهما أكل حلالاً يقول: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتتزل البركات، اللهم أطعمنا طيباً واستعملنا صالحاً"، هذا دعاء نهاية الطعام.

وإذا إنسان أكل من شبهة، أو أكل من طعام ليس متأكداً من كونه من مال حلال أو غير حلال فليقل: "الحمد لله على كل حال، اللهم لا تجعله قوة لنا على معصيتك"، ويقرأ بعد الطعام: قل هو الله أحد و لإيلاف قريش. سمعت قصة أن رجلاً عنده ملهى له بنت لا تأكل من طعام أبيها لقمةً واحدة لأنها ترى مال أبيها حراماً بحرام وإذ تناولت لقمة من مال أبيها يفسد عليها حياتها.

آداب المضيف :

وأنت مدعو إلى وليمة، ولك طبيعة خاصة، أكلت لقمتين وشبعت، لك محل على المائدة تركته، وجلست في مكان آخر هذا خلاف السنة، ما عملت شيئاً فأنت لست مضيفاً، المضيف يجب أن يبقى على المائدة طوال الوقت، مادام هناك ممن يدعوهم يأكل، فيجب أن يبقى المضيف على المائدة يأكل معهم ببطء، لأنه إذا أكل بشكل سريع لآخر واحد يضر نفسه، و من آداب الضيافة أن الذي دعوته إلى الطعام تأكل معه لقمة خفيفة، قطعة بندورة، حتى تشعر أنه ما بقي أحد على الطاولة فهذه آداب المضيف.

آداب الآكل :

والآن آداب الآكل أي أنت آكل، و دُعيت لطعام، ويوجد كرسي على المائدة ووراء الكراسي يوجد أرائك مريحة، فانتهيت من الطعام وانسحبت وجلست على الأريكة فهذا خلاف السنة، فالنبي عليه الصلاة والسلام لا يقوم عن المائدة حتى ترفع أولاً، ابق في مكانك جالساً، توقف عن الطعام حتى ينتهي الجميع، و يرفعوا الطعام تقوم، لأنك أنت تأكل أكلاً قليلاً لسبب معين، وإلى جانبك إنسان جائع عندما أنت انسحبت أخجلته، فابق في مكانك، وليس للإنسان الحق أن يغادر الطاولة حتى يرفع الطعام كله، أما أن يأخذ مكاناً آخر فلا يجوز هذه من السنة النبوية المطهرة.

إن أكل طعام الغير هذا الدعاء الذي قلناه قبل قليل: "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتنزل البركات، اللهم أطعمنا طيباً، واستعملنا صالحاً" فهذا إذا أكل من طعامه في بيته، أما إذا كان مدعواً إلى طعام فماذا يجب أن يقول؟ يقول: الله أكثر خيره، وبارك له فيما رزقته، ويسر له أن يفعل فيه خيراً، أقنعه بما أعطيته، واجعلنا وإياه من الشاكرين"، وإذا أفطر عند قوم والدنيا صيام فليقل: "أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة الأخيار"، فإن أكل من طعام غيره يقول: "اللهم بارك لنا فيما رزقتنا، وارزقنا خيراً منه" كذلك الدعاء مما خصّ به النبي عليه الصلاة والسلام.

أما اللبن فلم يقل وارزقنا خيراً منه، لأنه أنفس شراب كان يقول: "وزدنا منه"، أكلت زيتاً و زعتراً قل: يا رب وارزقنا خيراً منه، الجبن قد تكون أطيب، أما إذا أكلت لبناً فقل: زدنا منه، وإذا قلت: ارزقنا خيراً منه فخلاف السنة.

ما يقال بعد الطعام :

ويستحب أن يقول بعد الطعام: "الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا، سيدنا ومولانا يا كافي من كل شيء ويكفي منه شيء، أطعمت من جوع، وآمنت من خوف، فلك الحمد آويت من يتم، وهديت من ضلالة، وأغنيت من عيلة، فلك الحمد حمداً كثيراً، دائماً، طيباً، نافعاً، مباركاً فيه كما أنت أهله ومستحقه، اللهم أطعمنا طيباً، واستعملنا صالحاً، واجعلنا عوناً لك على طاعتك، ونعوذ بك أن نستعين به على معصيتك"، ثم غسل اليدين بعد نهاية الطعام، فهذه السنن التي يجب أن تراعى قبل الطعام، وفي أثناء الطعام وبعده إذا كنت مؤمناً حقاً هكذا تفعل.

لكن لا تفعل معصية كبيرة وتأكل ملحاً قبل الطعام، مقبول لكن هذه معصية كبيرة، فالمسلم كل السنن السهلة الخفيفة التي لا تكلف شيئاً يطبقها بحذافيرها وينتقد الآخرين فيها، و هناك أشياء كبيرة جداً في حياته هو واقع بها، وهذه الدقائق لمن أتمّ الفرائض، ولمن استقام على أمر الله استقامةً تامة، لكن إذا كان تاركاً أمر الله شاهدنا مسلسلاً ثم نقول: الملح سنة، فهذا التناقض صفةٌ بشعة في شخصية المسلم الحالي، بلع الثور وغص في الذنب.

* * *

شمائل النبي صلى الله عليه و سلم :

1 . صادق الوعد و وفي :

والآن إلى بعض شمائله ﷺ ونحن في عيده الشريف، كان النبي عليه الصلاة والسلام صادق الوعد يفي بوعده وإن شق ذلك عليه:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمْسَاءِ قَالَ: بَايَعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبَيْعٍ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ وَبَقِيَتْ لَهُ بَقِيَّةٌ فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ...))

[أبي داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمْسَاءِ]

وأصعب موعد أن يكون في الطريق في مكان، في البيت مقبول التأخر وإن كان المسلم يفي بوعده، لكن في الطريق!!!

((.... فَوَعَدْتُهُ أَنْ آتِيَهُ بِهَا فِي مَكَانِهِ فَنَسِيتُ ثُمَّ ذَكَرْتُ بَعْدَ ثَلاثٍ فَجِئْتُ فَإِذَا هُوَ فِي مَكَانِهِ فَقَالَ: يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ أَنَا هَاهُنَا مُنْذُ ثَلاثٍ أَنْتَظِرُكَ))

[أبي داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي الْحَمْسَاءِ]

2 . مكرم لأصحابه :

وكان عليه الصلاة والسلام يزور أصحابه ليكرمهم بذلك، وليدخل السرور على قلوبهم، ولينفعهم بإرشاداته وتعاليمه.

((حَدَّثَنَا رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ أَنَّ أَبَا بَكْرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ حَدَّثَهُ أَنَّ أَبَاهُ حَدَّثَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُكْثِرُ زِيَارَةَ الأَنْصَارِ خَاصَّةً وَعَامَّةً فَكَانَ إِذَا زَارَ خَاصَّةً أَتَى الرَّجُلَ فِي مَنْزِلِهِ وَإِذَا زَارَ عَامَّةً أَتَى الْمَسْجِدَ))

[أحمد عن أَبَي بَكْرِ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ]

وروى الترمذي والنسائي عن أنس رضي الله عنه قال:

((كان عليه الصلاة والسلام يزور الأنصار ويسلم على صبيانهم ويمسح رؤوسهم))

[الترمذي والنسائي عن أنس]

و :

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَارَ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَطَعِمَ عِنْدَهُمْ طَعَامًا فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ أَمَرَ بِمَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ فَنُضِحَ لَهُ عَلَى بِسَاطٍ فَصَلَّى عَلَيْهِ وَدَعَا لَهُمْ))

[أبي داود أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

عن جبير بن مطعم قال: كان النبي عليه الصلاة والسلام له صاحب من أصحابه كان كفيف البصر فأراد أن يزوره في البيت فماذا قال لأصحابه؟ قال: انطلقوا بنا إلى بني واقف نزور البصير ماذا سماه؟ البصير إكراماً له ما لفظ كلمة أعمى ولا كلمة كفيف:

((عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: زَارَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَنْزِلِنَا فَقَالَ: السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ قَالَ فَرَدَّ سَعْدٌ رَدًّا خَفِيًّا فَرَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ تَسْلِيمَكَ وَأَرُدُّ عَلَيْكَ رَدًّا خَفِيًّا لِتُكْثِرَ عَلَيْنَا مِنَ السَّلامِ قَالَ فَانْصَرَفَ مَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَرَ لَهُ سَعْدٌ بِغُسْلٍ فَوُضِعَ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ نَاوَلَهُ أَوْ قَالَ نَاوَلُوهُ مِلْحَفَةً مَصْبُوغَةً بِزَعْفَرَانٍ وَوَرْسٍ فَاشْتَمَلَ بِهَا ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُمَّ اجْعَلْ صَلَوَاتِكَ وَرَحْمَتَكَ عَلَى آلِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ قَالَ ثُمَّ أَصَابَ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمَّا أَرَادَ الانْصِرَافَ قَرَّبَ إِلَيْهِ سَعْدٌ حِمَارًا قَدْ وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ فَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ سَعْدٌ يَا قَيْسُ اصْحَبْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَيْسٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْكَبْ فَأَبَيْتُ ثُمَّ قَالَ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ قَالَ فَانْصَرَفْتُ))

[أبي داود عَنْ قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ]

ويوجد رواية أخرى للقصة قال: "والله كلما سلم علينا النبي ﷺ كنا نحس أن رحمةً تنزلت علينا"، لهذا السبب أخفى الجواب رد عليه رداً خفياً حتى يعيد السلام عليه.

((... ثُمَّ أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الطَّعَامِ فَلَمَّا أَرَادَ الانْصِرَافَ قَرَّبَ لَهُ سَعْدٌ حِمَارًا قَدْ وَطَّأَ عَلَيْهِ بِقَطِيفَةٍ فَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ سَعْدٌ يَا قَيْسُ اصْحَبْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَيْسٌ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارْكَبْ فَأَبَيْتُ ثُمَّ قَالَ إِمَّا أَنْ تَرْكَبَ وَإِمَّا أَنْ تَنْصَرِفَ قَالَ فَانْصَرَفْتُ))

ويوجد رواية ثانية:

((فأرسل سعد ابنه قيساً مع رسول الله ليرد الحمار فقال عليه الصلاة والسلام: احمله بين يدي، فقال سعد: سبحان الله أتحمله بين يديك يا رسول الله – ليس معقولاً – فقال: نعم هو أحق بدابته، فقال: هو لك يا رسول الله، قال: إذاً فاحمله خلفي، الرجل أحق بصدر دابته))

أحياناً يدخل إنسان لعند موظف ويجلس خلف الطاولة هذا ليس مكانك، هذا مكانه، هو الرجل أحق بصدر دابته، وهذه أيضاً لها معنى ثانٍ أحياناً الإنسان لا يحب أحداً أن يسوق له سيارته لعلك إذا جلست مكانه وحركتها ينزعج، الرجل أحق بصدر دابته فصدر السيارة مكان القيادة.

3 . يزور ضعاف المسلمين وعامة أهل الصفة :

وكان عليه الصلاة والسلام يزور ضعاف المسلمين وعامة أهل الصفة، فكان يزور هؤلاء، ويلاطفهم، ويؤنسهم، ويعود مرضاهم، ويحضر جنائزهم، وفي هذا تكريم لهم، وتبريك عليهم، ومواساة وإحسان إليهم، ليشعروا بعزتهم وكرامتهم وسعادتهم:

عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: "كان النبي عليه الصلاة والسلام يأتي ضعفاء المسلمين، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم"، معنى عصابة بالمعنى القديم أي جماعة، الكلمة لها معنى تاريخي ومعنى مستحدث، فمرة الشاعر أبو تمام مدح المعتصم فقال له: أنت جرثومة الدين والإسلام والحسب، فالجرثومة في اللغة أي أصل الشيء فإذا قال أبو تمام يمدح المعتصم أنت جرثومة الدين يا أيها الخليفة، أي أنت أصل الدين، والعلماء المحدثون بحثوا عن أسباب الأمراض، فإذا هي كائنات صغيرة هي الفيروسات فسموها جراثيم، فإذا قلنا لطالب: أنت جرثومة الصف لها معنى آخر، فالكلمات تأخذ معنى آخر، كلمة استعمار مثلاً تعني إعمار الأرض ومعناها الاصطلاحي الآن قبيح جداً.

قال عليه الصلاة والسلام:

((إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض))

[البيهقي عن ابن عباس]

أي هذه الجماعة ومأخوذة من العصبة التجمع.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ جَلَسْتُ فِي عِصَابَةٍ مِنْ ضُعَفَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَإِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَسْتَتِرُ بِبَعْضٍ مِنَ الْعُرْيِ وَقَارِئٌ يَقْرَأُ عَلَيْنَا إِذْ جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ عَلَيْنَا فَلَمَّا قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَكَتَ الْقَارِئُ فَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَا كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ؟ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَ قَارِئٌ لَنَا يَقْرَأُ عَلَيْنَا فَكُنَّا نَسْتَمِعُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ قَالَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ أُمِرْتُ أَنْ أَصْبِرَ نَفْسِي مَعَهُمْ ...))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

قال تعالى:

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً ﴾

[سورة الكهف: 28]

((... قَالَ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسْطَنَا لِيَعْدِلَ بِنَفْسِهِ فِينَا...))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

هؤلاء فقراء المسلمين أهل الصفة، الآن في الحرم النبوي بعد الحجرة النبوية المشرفة، بعد أن تسلم على النبي تنطلق شمالاً ثم تنحرف نحو اليسار فإذا بمكان في طرف المسجد النبوي هذا مكان أهل الصفة وهو موجود إلى الآن.

((... قَالَ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسْطَنَا لِيَعْدِلَ بِنَفْسِهِ فِينَا، ثُمَّ قَالَ بِيَدِهِ هَكَذَا فَتَحَلَّقُوا وَبَرَزَتْ وُجُوهُهُمْ لَهُ قَالَ فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَرَفَ مِنْهُمْ أَحَدًا غَيْرِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ صَعَالِيكِ الْمُهَاجِرِينَ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَاءِ النَّاسِ بِنِصْفِ يَوْمٍ وَذَاكَ خَمْسُ مِائَةِ سَنَةٍ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

الاحتفال الصحيح بعيد المولد أن تجعل النبي أسوةً لك في حياتك :

وفي درس قادم إن شاء الله نتابع هذه النبذة عن أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وعن شمائل هذا النبي الكريم الذي شرفنا الله به، واليوم عيد مولده الشريف، والاحتفال الصحيح بعيد المولد أن تجعل النبي عليه الصلاة والسلام أسوةً لك في كل حركاتك، وسكناتك، وفي تواضعك، و محبتك للناس، و عطفك عليهم، و رحمتك بهم، و لطفك، و إنفاقك، ومودتك، قال تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 159]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 21 : إدراك الفريضة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

إدراك الفريضة :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع الفقه إلى باب إدراك الفريضة، فإذا شرع المصلي في فرض منفرداً فأقيمت الجماعة - ومعنى أقيمت أي كبر إمام الجماعة تكبيرة الإحرام- قطع هذا المصلي صلاته واقتدى إن لم يسجد لما شرع فيه.

أي إذا شرع بصلاة ثنائية وسجد عليه أن يتم الركعة الثانية فإن لم يسجد سلم تسليمتين قائماً وترك صلاته منفرداً، والتحق بالجماعة، فإذا سجد سجدةً في غير الرباعية أتمها بالركعة الثانية، وإذا سجد في رباعية ضمّ ركعة ثانية - أي إذا صلى صلاة ثنائية أتمها ثنائية، وإن شرع في رباعية صلى ركعتين فقط ثم لحق بإمام الجماعة - فالجماعة كصلاة الجنازة، وإن صلى ثلاثاً هو في الركعة الثالثة، وأقيمت صلاة الجماعة عليه لو أنه يصلي صلاة نفل أربع ركعات في الركعة الثالثة أقيمت صلاة الفريضة أتمّ الرابعة واقتدى بالإمام إلا في صلاتين؛ صلاة العصر وصلاة الفجر لأنه لا تنفل بعد أداء الفريضة، فلم يؤثر عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه صلى صلاة نفل بعد أداء الفريضة في صلاتي الفجر والعصر.

ما يترتب على المكلف لإدراك الفريضة مع الإمام :

إن كان في سنة الجمعة فخرج الخطيب ماذا عليه أن يفعل؟ عليه أن يقطع صلاته لأنه إذا صعد الخطيب إلى المنبر لا صلاة ولا كلام، وإن كان في سنة الظهر فأقيمت صلاة الفريضة سلم على رأس ركعتين، كذلك في الجمعة صلى ركعة يتم الثانية، لو كانت أربع ركعات السنة القبلية يصلي ركعتين فقط ويستمع إلى الخطبة، وإذا

دخلت إلى المسجد في صلاة الظهر فرأيت الإمام يرفع يديه ويكبر تكبيرة الإحرام وأنت لم تصلِّ السنة بعد فماذا تفعل؟ تقتدي به وتدع السنة، لكن النبي عليه الصلاة والسلام كان يصلي ركعات السنة القبلية بعد السنة البعدية، أي إذا دخلت إلى المسجد ورأيت الإمام يرفع يديه ليكبر تكبيرة الإحرام كبر معه، واقتد به، ودع السنة القبلية، فإذا صليت الفريضة والسنة البعدية لا عليك أن تصلي السنة القبلية قضاءً، لكنك إذا دخلت إلى المسجد لتصلي صلاة الفجر، ومن عادة إمام الفجر أنه يطيل في القراءة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا))

[الترمذي عَنْ عَائِشَةَ]

ولأن ركعتي الفجر أأكد أنواع السنن على الإطلاق فيستحب أن تشرع في ركعتي السنة إذا كنت واثقاً أنك تدرك مع الإمام الصلاة، فقد يقرأ في الصلاة صفحتين أو أكثر وأنت بهذا تصلي ركعتين خفيفتين قبل الفجر، وإن كنت واثقاً أنك تلحق الإمام في الركعة الأولى، فإن غلب ظنك على أنك لن تلحقه دع السنة واقتد بالإمام، لأن صلاة الجماعة أفضل من إدراك السنة، ثم أداء صلاة الفرض منفرداً.

فإذا دخلت إلى المسجد ورأيت الإمام على وشك الركوع ولم يبقَ له إلا آية وأنت لم تصلِّ السنة وأتممت بالإمام وصليت الفرض فالسؤال هل تقضى سنة الفجر؟ الجواب: نعم ولا، لا تقضى قبل طلوع الشمس ولا بعد الزوال، بعد زوال الشمس عن كبد السماء، إنما وقت قضائها المحصور بين طلوع الشمس وإلى ما قبل صلاة الظهر تقضى ركعتا سنة الفجر إذا فاتتك، وقد التحقت بالإمام وضيعت ركعتي السنة.

من أدرك إمامه راكعاً فكبر ووقف حتى رفع الإمام رأسه، فاتتك هذه الركعة فإذا أدركت معه الركوع ولو تسبيحة واحدة فقد أدركت هذه الركعة.

كره خروج الرجل من المسجد إذا سمع الأذان فيه إلا في حالة خاصة نادرة :

وكره خروج الرجل من المسجد إذا سمع الأذان فيه إلا في حالة خاصة نادرة، أي إذا كان هناك جامعان متجاوران فلو فرضنا جامع الحاجبية وجامع النابلسي وأحد مستمعي درس من الدروس الدرس كان يومئذ بين المغرب والعشاء، وهو مؤذن في جامع الحاجبية، أو له درس هناك، أو عليه أن يصلي إماماً هناك، وقال مؤذن هذا المسجد: الله أكبر، له في هذه الحالة الخاصة أن يخرج من المسجد ليلحق صلاة الجماعة هناك، ليصلي إماماً بالجماعة، أو ليؤذن، أو لما شاكل ذلك، لأنه خرج من مسجد إلى مسجد، ومن جماعة إلى جماعة، فليس هناك

مكروه، وليس لأحد حق إذا رأى رجلاً خرج من المسجد بعد أن سمع الأذان أن يظن به السوء، ما أدراك أنه ذهب إلى جامع آخر؟؟ فهذا الذي يظن بالناس سوءاً هو سيئ و من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الظن بربه، وأحياناً الإنسان يخرج من المسجد ليلحق مسجداً آخر له درس هناك، وهو سيصلي إماماً في هذا المسجد، أما من دون أن تكون متوجهاً إلى مسجد آخر فلا يجوز أن تخرج من المسجد بعد سماع الأذان في المسجد نفسه، ولكن لو فرضنا – وهذه حالة خاصة – إنساناً مضطراً أن يغادر المسجد عند أذان العصر، ومن عادة هذا المسجد أن الصلاة تقام فيه بعد نصف ساعة، يستطيع هذا المصلي أن يصلي السنة والفريضة منفرداً، ويخرج من المسجد لأمر قاهر، له مريض في مستشفى، عليه موعد مهم جداً، هو لم يخرج حينما سمع الأذان حينما سمع الأذان صلى الفرض وخرج من المسجد لا شيء عليه.

وكره خروجه من مسجد أذن فيه حتى يصلي إلا إذا كان هناك جماعة أخرى، وإن خرج بعد صلاته منفرداً فلا يكره، إلا إذا أقيمت الجماعة أي قام ليخرج فأقيمت الجماعة، فالمغرب بين إقامة الجماعة والأذان خمس دقائق، بينما ينزل فيما مضى المؤذن من المئذنة ليلتحق بالحرم أقيمت الصلاة، صلاة المغرب التي تقام بعد الأذان مباشرةً أو في صلاة العشاء ينبغي له أن يصلي مع الإمام، أما في الصلوات التي كان النبي عليه الصلاة والسلام يؤخرها، أي النبي الكريم كان يؤخر صلاة الفجر حتى تسفر الوجوه أي حتى يعرف المصلي وجوه أخوانه من دون إضاءة، قدروها تقديراً نصف ساعة بعد أذان الفجر، والإمام الشافعي كان يؤثر الصلاة في غلس أي والوقت ظلام، وعلى كلٍّ إذا كنت في مسجد والصلاة تتأخر كثيراً، أي أخ في جامع يوجد عنده سفر، أو التحاق بعمل بوقت مبكر جداً، دخل إلى المسجد فوجد حتى تقام الصلاة نصف ساعة له أن يصلي ويخرج، أما المغرب والعشاء فمادامت الصلاة تقام بعد الأذان مباشرةً يكره له أن يخرج من هذا المسجد حتى يصلي الجماعة مع الإمام.

الابتعاد عن الجلبة و الضجيج في المسجد :

هذا ما يتعلق في إدراك الفريضة، يوجد شيء فاتني أن أقوله لكم هو أن المرء إذا دخل المسجد ورأى الإمام راكعاً فليس له الحق أن يركض في المسجد، ويحدث جلبةً وضجيجاً، ويشوش على المصلين بحركة عنيفة في الجامع قد تثير حفيظة المصلين جميعاً، فماذا حدث يا ترى هل أحد وقع؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى رجلاً يركض في المسجد ويحدث جلبةً وضجيجياً:

((عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

[النسائي عَنْ أَبِي بَكْرَةَ]

وذلك منتهى الرقة حتى إن علماء الاجتماع قالوا: "إذا أردت أن تنتقد من هو دونك في العمل فلابد من أن تمهد له بالثناء على خلق موجود فيه ثم توجه النقد كان هذا بذاك وتلك بهذا وخف عليه حدة النقد"، فالنبي الكريم قال لهذا الرجل: زادك الله حرصاً أي أثنى على حرصه ولكن هذا الركض في المسجد لا يجوز فقال: ولا تعد.

أداء السنن في البيت شيء مستحب :

يستحب أن تؤدى صلاة سنة الفجر في البيت هكذا ورد معي في شرح هذه الكتاب، أي تستيقظ في البيت وقد سمعت أذان الفجر تصلي ركعتي السنة في البيت، ثم تتوجه إلى المسجد فتؤدي ركعتي تحية المسجد، ثم تصلي الفرض فتصلي السنة في البيت والفرض في المسجد، لأن النبي الكريم قال مرةً:

((لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ولو كان المكان للنوم أو للطعام فصلِّ في هذا البيت، صلِّ السنة البعدية في البيت، يوم الجمعة صليت الفرض فيمكن أن تتوجه إلى البيت وتصلي في البيت السنة البعدية، وأن تصلي فرض العشاء في المسجد وتؤخر الوتر إلى ما قبل النوم، وهناك أشخاص يحبون أن يصلوا الوتر قبل أن يناموا، صلى العشاء في وقته وترك الوتر إلى ما قبل النوم، ويحب أن ينام على طهارة.

المتنفل لا يؤم المفترض بل يصلي معه :

أنت كنت في المسجد وصليت الظهر حاضراً، وأنت مدعو إلى الغداء الساعة الثانية مثلاً وهناك جماعة غير مصلين، أقيمت الجماعة في هذا البيت، وأنت قد صليت الفرض، فيستحب أن تصلي معهم، وتقتدي بهم، تحسب لك هذه الصلاة نفلاً، لكنك إذا كنت قد صليت الظهر فرضاً ثم ذهبت إلى البيت فأقيمت صلاة الظهر فليس لك الحق أن تصلي فيهم إماماً لأن المتنفل لا يؤم المفترض فتصلي معهم.

وبعض العلماء حاول أن يستنبط حكمة صلاة السنة القبلية والبعدية فإذا الإنسان حافظ عليهما قطع طمع الشيطان في نهيه عن الصلاة، فماذا يقول الشيطان إذا كان الإنسان محافظاً على السنن فمن باب أولى أنه

يحافظ على الفرض، لكن الشيطان يرى إنساناً قد تهاون بالسنن فيطمع أن يحمله على تهاونه في الفرض، ومن لم يطعني في ترك ما لم يكتب عليه فكيف يطيعني في ترك ما كتب عليه.

أحياناً الإنسان يدخل إلى المسجد فيرى الإمام قد ركع وقال: سمع الله لمن حمده، فيقول: لماذا أنزل معهم وأسجد؟ ذهبت الركعة، قال: هذا مكروه، فإذا رأيت الإمام ساجداً فاسجد معه فوراً، يقول: أوفر أول نزلة وثاني سجود وسجود ثم وقوف، لا، إذا دخلت إلى المسجد ورأيت الإمام ساجداً كبر واسجد هكذا السنة.

النبي عليه الصلاة والسلام يحثنا على أداء السنن في البيت :

آخر شيء يقول عليه الصلاة والسلام:

((صَلاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهِ فِي مَسْجِدِي هَذَا إِلا الْمَكْتُوبَةَ))

[متفق عليه عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ]

غير معقول هذا الكلام، و كأن النبي عليه الصلاة والسلام يحثنا على أداء السنن في البيت أمام الزوجة صليت السنة، عدت إلى البيت فصليت الوتر، فالابن شاهدك تصلي، صارت الصلاة سلوكاً مألوفاً في هذا البيت.

((عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ صَلاةٌ فِي مَسْجِدِي أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ وَصَلاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَفْضَلُ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ صَلاةٍ فِيمَا سِوَاهُ))

[أحمد عَنْ جَابِرٍ]

((صَلاةُ الرَّجُلِ فِي بَيْتِهِ بِصَلاةٍ وَصَلاتُهُ فِي مَسْجِدِ الْقَبَائِلِ بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ صَلاةً وَصَلاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُجَمَّعُ فِيهِ بِخَمْسِ مِائَةِ صَلاةٍ وَصَلاتُهُ فِي الْمَسْجِدِ الأَقْصَى بِخَمْسِينَ أَلْفِ صَلاةٍ وَصَلاتُهُ فِي مَسْجِدِي بِخَمْسِينَ أَلْفِ صَلاةٍ وَصَلاةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِائَةِ أَلْفِ صَلاةٍ))

[ابن ماجة عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

جميع مساجد الأرض متساوية بالأجر و الثواب عدا المسجد الحرام والنبوي والأقصى :

الحقيقة قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَسْجِدِ الأَقْصَى))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه]

فأي إنسان يتوجه من حلب إلى دمشق ليؤدي الصلاة في المسجد الأموي الكبير فالمسجد الأموي بحلب كالأموي بدمشق، وجميع مساجد الأرض متساوية عدا المسجد الحرام والنبوي والمسجد الأقصى، وما سوى هذه المساجد كلها متساوية بالثواب والأجر، فكلها مساجد لا فضل لواحد على غيره إلا إذا توجهت إلى الديار المقدسة مع أن الله في كل مكان وهذه حقيقة ثابتة لكنه جعل تجليه على البيت الحرام تجلياً مكثفاً ومركزاً، فمن ذهب إلى هناك وتجشم مشاق السفر، وأنفق ماله، فلابد من أن يشعر بشعور خاص وهو يصلي في هذه المساجد، قال تعالى:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾

[سورة آل عمران: 69]

كأن الإنسان حينما يتوجه إلى الله عز وجل فالله ليس له مكان، لكنه جعل هذا البيت بيته، وخصه بتجلٍّ خاص، فكل من ذهب إلى هذا البيت لابد من أن يشعر أن فيه تجلياً ليس في سواه.

والنبي صلى الله عليه في طريقه إلى الهجرة قال كلمة تترك أثرها في النفس قال: يا رب إني قد خرجت من أحب البلاد إليّ فأدخلني أحب البلاد إليك، أي خرج من مكة وهي أحب البلاد إليه وتوجه إلى مكان رجا الله عز وجل أن يكون أحب الأمكنة إليه لذلك قالوا: أحب الأمكنة إلى الله عز وجل المسجد النبوي الشريف، إذا الإنسان دخل إلى هذه الروضة فلابد من أن يشعر أنه في روضة، و تقول: إنها أجمل مكان في العالم، وتكون لست مبالغاً، و تجلس الساعات الطويلة لا تمل من الظهر إلى العصر، ومن العصر إلى المغرب، ومن المغرب إلى العشاء، والقرآن فيه طعم خاص، والصلاة فيها طعم خاص، و أنوار النبي ﷺ، وقد قلت إن أنوار النبي صلى الله عليه واصلة إلى أنحاء المسجد، بل إلى أنحاء المدينة المنورة، تحس بالسكينة في هذه المدينة، فهناك هدوء و معاملة لطيفة، و قلّما تشعر صياحاً في الأسواق، وهذه سكينة المصطفى ﷺ، قال تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة: 103]

* * *

آداب الطعام و الشراب :

والآن إلى بعض الفصول المختارة من إحياء علوم الدين، ولازلنا في موضوع آداب الطعام والشراب، طبعاً الطعام والشراب طعام المؤمنين كما قال الإمام: "الطعام من الدين".

تحدثنا من قبل عن آداب الطعام والشراب منفرداً في الآداب قبل الطعام، وفي الآداب أثناء الطعام، وفي الآداب بعد الطعام.

آداب الطعام المتعلقة بالجماعة :

1 . ألا يبتدئ الرجل بالطعام ومعه من يستحق التقديم عليه :

الآن لو أن جماعة جلسوا على مائدة ليأكلوا فهناك آداب خاصة تتعلق بالجماعة أول هذه الآداب: ألا يبتدئ الرجل بالطعام ومعه من يستحق التقديم عليه - جلس وبدأ يأكل ويوجد أعلى منه، فحتى يبدأ الكبير هناك مقامات - وقد يكون هناك إنسان له فضل اجتماعي، وقد يكون إنسان له فضل ديني، فلا يحق للآكل مع جماعة أن يمد يده إلى الطعام قبل أن يمد أوجه الناس على هذه المائدة فهذه من السنة، طبعاً هذا الذي يستحق أن يبدأ الطعام قد يكون لكبر سنه، أو لزيادة فضله، إلا أن يكون هو المتبوع، هو أكبر واحد سناً، أو أرفعهم شأناً يبدأ هو، لكن عليه أن يبدأ - أحياناً يكون الطعام موضوعاً وهو يتكلم والحديث ممتع وهو مسترسل وهناك أناس جائعون - فصار إحراج، وهذا الذي يسمى متبوعاً في الطعام هو أعلى شأناً ليس له الحق أن يتأخر عن الطعام بل يجب أن يبدأ، وأحياناً يحدث العكس تذهب إلى إنسان فيضع لك الضيافة ولا يقول لك: تفضل، وضعت الفاكهة أو أي شيء ربع ساعة، نصف ساعة وليس من المعقول أن يمد الضيف يده ويريد أن يذهب أيضاً هذا خطأ، وضعت الطعام للضيف ادعه إلى تناوله، فليس لك الحق إذا ضيفت إنساناً أن تضع الطعام وتبقى ساكتاً، وليس لكبير القوم الحق في أن يتحدث والطعام موضوع وهناك طفل يشتهي أن يأكل.

2 . عدم السكوت على الطعام :

الثاني: ألا يسكتوا على الطعام، السكوت ليس من السنة:

لقد رأيت عجباً مذ أمسا عجائزاً مثل السعالي خمسا

يأكلن ما في رحلهن همسا لا ترك الله لهن ضـرسا

ولا لقين الدهر إلا تعـسا

***

تناول الطعام مع السكوت ليس من السنة لماذا؟ الإنسان يعمل تسابقاً في الأكل، يمضغ مضغاً سريعاً ويكبر اللقمة، ويتنافس مع أخيه في الأكل، وهذا ليس من السنة، أما إذا وجد حديث ممتع فصار اعتدال في الطعام، ومضغ جيد، وبركة، والمائدة مناسبة للحديث الطيب، وطبيعة حياتنا المعقدة قد لا يلتقي الأب بابنه إطلاقاً، وكل واحد مشغول فصارت المائدة مناسبة بشكل إجباري، لقد جلست مع الأسرة للعشاء فحدثهم، اجعل الحديث هو الأساس ولو امتد الطعام ساعة لا يوجد مانع إنه سنة ولو أطلنا، كُلْ أكل الجمال وقم قبل الرجال، أهذه آية أم حديث؟ لا ليست آية و لا حديثاً، اجلس جلسة مريحة، وكُلْ على مهلك، وتكلم مع ابنك، وزوجتك، واسألهم وداعبهم في الكلام، تحصل بركة أكثر، وليس من السنة السكوت عند الطعام، وهناك أناس جالسون يأكلون أكل الوحوش، فقال له أحدهم: هل يوجد آية قرآنية مناسبة؟ فقال له: وإذا الوحوش حشرت.

3 . الرفق برفيقه في القصعة :

الأدب الثالث: أن يرفق برفيقه في القصعة، قال لي رجل: ذهبت إلى الخدمة الإلزامية فجلسنا على الطعام ستة على طاولة في كلية ضباط الاحتياط، فكل واحد أخذ قطعة لحم وما تركوا لي شيئاً إطلاقاً، أهؤلاء مسلمون؟ هذا لا يجوز، قال: أن يرفق برفيقه بالقصعة، ينتبه هل أكل اللحم بمفرده؟ هل أخذ زبدة الصحن بمفرده؟ ينتبه، أن يرفق برفيقه في القصعة فلا يقصد أن يأكل زيادةً على ما يأكل، وأحياناً يكون هناك لحم فيأكلون قطعة قطعة، وهو وضع اثنتين اثنتين، لا مع المجموع قطعة قطعة، وأحياناً يأكلون نصف قطعة بشكل معتدل فيجب أن تأكل بنفس المعدل كزملائك، فإن ذلك حرام، بل يجب أن يقصد الإيثار، أي إذا قدمت قطعة لحم للآكل معك لابنك، لزوجتك، فهذا من السنة، أي إذا دفع قطعة اللحم لزوجته فهذه حسنة يستحق عليها الثواب، وقد تكون تفاحة لها خد أحمر فأعطاها لابنه فيحصل مودة، وأحياناً الابن يؤثر أباه في التفاحة الجيدة، أي بين أن يكون أثرة وبين أن يكون مؤاثرة مسافة كبيرة جداً، أي بين أن يأخذ أطيب شيء له وبين أن يكون الأساس في الأدب الإسلامي كل أخ يقدم لأخيه أفضل الطعام.

والنبي ﷺ كان مع أصحابه في غزوة فيبدو أنهم أطالوا وآلمهم الجوع ولم يكن معهم الزاد الكافي، فجاء بعض الأصحاب للخيمة برغيفين خبز يابسين....

قال: ينبغي أن يقصد الإيثار، ولا يأكل تمرتين في دفعة إلا إذا فعلوا ذلك، ولكن إذا أحدهم قال لك: كُلْ و دعاك فقد تكون أول مرة مجاملة، والثانية مجاملة، أما الثالثة فليست مجاملة له بل رغبة سابقة، يقدم لك في الثالثة فكل

ولا يوجد مانع، وإذا كنت جالساً مع أخيك على الطعام وآثرك بشيء من الطعام، فقد يكون آثرك مرة واحدة فأنت لا تأكلها فوراً أما الثالثة فكلها هكذا النبي علمنا.

4 . لا يزيد في قوله كُلْ على ثلاث :

ولا يزيد في قوله كُلْ على ثلاث فإن في هذا إلحاحاً، وكان عليه الصلاة والسلام إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع، وإنسان دعاك ثلاث مرات فمعنى هذا دعوة حقيقية، ويوجد دعوة رفع عتب شكلية، فقد كنت مرة راكباً في سيارة عامة –باص كبير– يظهر وجد صديق لهذا السائق فقال له: تفضل، فقال له: شكراً، فقال له: والله تفضل واشرب فنجان قهوة، و في الباص خمسون راكباً، فهذه ليست دعوة جادة.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا خوطب في شيء ثلاثاً لم يراجع، وكان عليه الصلاة والسلام يكرر الكلام ثلاثاً من الأدب، أي إذا أحبّ أن يدعوك ومن أجل تتأكد أنه صادق في هذه الدعوة أول مرة وثاني مرة وثالث مرة، إذا خوطب في أمر ثلاث مرات لم يراجع، ولولا التشهد لكانت لاؤه نعم، مما أثر عنه ﷺ أنه ما طلب إليه شيء فقال: لا.

5 . عدم الحلف بالأكل :

أما الحلف بالأكل فممنوع، والله العظيم أن تأكل هذه اليقطينة هذه تطرح جملاً، قال: أما الحلف بالأكل فممنوع، قال الحسن بن علي رضي الله عنهما: "الطعام أهون من أن يحلف عليه"، لا يحرز أن تحلف يميناً معظماً ليأكل لقمة زيادة، شبع وانتهى أكل عنباً فلن يأكل تفاحاً، و لا يوجد رغبة عنده بهذا، أيمان معظمة على الطعام هذا لا يجوز، رجل قال لي كلمة: إذا إنسان دعاني إلى طعام فهل آكل؟ إذا كان بخيلاً لا يعيدها وإذا كان كريماً يفرح، دعاك ودعاك فالبطن لا يتحمل منيتين تتغذى في البيت مرة ثانية؟ كُلْ، ولكن يوجد أناس يتصنعون فقل: لا أستطيع، ليس بنفسي، ويكون ميتاً من جوعه هذا ليس من السنة.

قالت: يا رسول الله إذا قالت إحدانا الطعام لا أشتهيه وهي تشتهيه أيعد هذا كذباً؟ قال: نعم.

إذا دعاك إلى أكل قلّما تأكل، لماذا هذا الترفع على الطعام؟ قال أنس بن مالك: "إذا أكرمك أخوك..." أي أحب أن يقدم لك المنشفة، يوجد شخص لا يرضى وأنت ضيف وهو صاحب البيت.

6 . عدم استخدام الضيف :

و من آداب الضيافة أن يكون المضيف في خدمة ضيفه، ومن اللؤم في الإنسان أن يستخدم ضيفه، حتى إن القصة المشهورة عمرو بن كلثوم الذي دعاه النعمان وقالت أمه لأمه يا ليلى ناوليني هذه الحاجة؟ فصاحت الأم أن يا للعار فقد أهنا.

ومن اللؤم بالمرء أن يستخدم ضيفه، وإني لعبد الضيف مازال ثاوياً، فقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها".

أعطاك وسادة خذها لا ترد الوسادة، أحب أن يعطرك اقبل العطر، إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها، ومن أكرم أخاه المؤمن فكأنما يكرم الله عز وجل.

وروي أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية الضرير وكان مؤدب أولاده، فصب الرشيد على يديه الماء، فلما فرغ قال يا أبا معاوية أتدري من صب على يديك؟ قال: لا، قال: صبه أمير المؤمنين فقال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله.

7 . ألا ينظر إلى أصحابه في أثناء طعامهم :

الأدب الآخر: ألا ينظر إلى أصحابه في أثناء طعامهم، فالنظر إلى الآكلين لا يجوز، يتحدث وينظر إلى وجوههم، أما أن ينظر إلى أيديهم فيربكهم، ألا ينظر إلى أصحابه وألا يراقب أهلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم، ويشتغل بنفسه، ولا يمسك عن الطعام قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده، وأحياناً الإنسان يكون له مقام كبير يترك الطعام بوقت مبكر، و له تلاميذ فخجلوا أن يأكلوا بمفردهم، فعليه أن يراعي الجائعين، والضعفاء، فإذا كان من حولك يحتشمون وأنت أيضاً مدعو، لو كنت صاحب البيت لا يجوز أن تترك الطعام ولا يجوز أن ترفع يدك عن الطعام، ولذلك من السنة أن الإنسان في الولائم يأكل ببطء شديد، ويصغر اللقمة كثيراً حتى لا يحرج أحداً، بل يمد يده ويقبضها ويتناول قليلاً قليلاً إلى أن يستوفوا جميعاً الطعام.

فإن كان قليل الأكل قد عمل لنفسه نظاماً دقيقاً ولا يريد أن يكثر الأكل فماذا يفعل؟ قال: يدعهم يأكلون في أول الزمن ويبدأ بمنتصف الوقت على مهله، فالوجبة القليلة أكلها بالفترة الأخيرة التي فيها إحراج، حتى إذا توسعوا في الطعام أكل معهم أخيراً، وقد فعل ذلك كثير من الصحابة رضي الله عنهم.

أما إذا امتنع لسبب أن هذا الطعام لا يناسبه فاعتذر، فاعتذاره يخفف الحرج عن البقية، مثلاً هذه الأكلة هو ممنوع عنها، ويقول: أنا لا أريد أن أتعشى فلو اعتذر اعتذاراً صريحاً فهذا يخفف عن الباقين.

8 . ألا يفعل ما يستقذره غيره :

قال: ألا يفعل ما يستقذره غيره، إنسان نفض يده في القصعة ووضع رأسه وهو يشرب المرقة فنزل من فمه شيء إلى القصعة فلا يجوز أن يقدم فمه إلى القصعة المشتركة.

9 . ألا يمسك الطعام باليد اليسرى :

ولا يمسك الطعام باليد اليسرى فاليد اليمنى لها مهمة وهذه لها مهمة، حتى أن أحد الصحابة رضي الله عنه قد يكون سيدنا عثمان قال: منذ أن صافحت رسول الله ﷺ بهذه اليد ما مست عورتي أبداً، فهذه اليد التي صافحت النبي الكريم صانها أن تمس عورة اليد اليمين وهذا منتهى الأدب.
وإذا رجل أخذ خبزة وقطعها بأسنانه و بعد هذا يأكل فولاً يغمسها بمرقة الفول فهذا لا يجوز – لأنه قطعها بأسنانه فمست شيئاً من ريقه، فإذا أحب أن يأكل فول فغمسها بالخل وقال هذا أطيب – فغيرك يراقبك وتتضايق منه وهذه كلها آداب الطعام المشترك.

10 . ألا يتحدث عن موضوعات تثير القرف أثناء الطعام :

وبعد هذا ليس له حق أن يتحدث عن موضوعات تثير القرف أثناء الطعام، كأن يقول: وجدنا جرذاً فصدناه أثناء الطعام فأذهبت له شهوته في الطعام، وأيضاً هذه مذكورة في آداب الطعام.

* * *

شمائل النبي عليه الصلاة والسلام :

1 . تفقده ﷺ أصحابه في الليل واستماعه إلى قراءتهم :

والآن إلى شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، تفقده ﷺ أصحابه في الليل واستماعه إلى قراءتهم:

((عَنْ أَبِي قَتَادَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ لَيْلَةً فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ رَضِي الله عَنْه يُصَلِّي ويَخْفِضُ مِنْ صَوْتِهِ قَالَ وَمَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ، قَالَ: قَدْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَقَالَ: لِعُمَرَ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ، قَالَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُوقِظُ الْوَسْنَانَ وَأَطْرُدُ الشَّيْطَانَ زَادَ الْحَسَنُ فِي حَدِيثِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا أَبَا بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا وَقَالَ لِعُمَرَ اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا))

[الترمذي عَنْ أَبِي قَتَادَةَ]

وفي رواية لأبي داود:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ لَمْ يَذْكُرْ فَقَالَ لأَبِي بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا وَلِعُمَرَ اخْفِضْ شَيْئًا زَادَ وَقَدْ سَمِعْتُكَ يَا بِلالُ وَأَنْتَ تَقْرَأُ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَمِنْ هَذِهِ السُّورَةِ قَالَ كَلامٌ طَيِّبٌ يَجْمَعُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْضَهُ إِلَى بَعْضٍ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلُّكُمْ قَدْ أَصَابَ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أي أخذ بوجهة نظر أصحابه، فهذا صوته مصيب يسمع من يناجي سيدنا عمر رفع صوته فيوقظ الوسنان، وسيدنا بلال أخذ مقاطع متنوعة يجمع الطيب إلى الطيب، قال: كلكم قد أصاب، أي هذا من عنايته ﷺ بأصحابه.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ اعْتَكَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَسْجِدِ فَسَمِعَهُمْ يَجْهَرُونَ بِالْقِرَاءَةِ فَكَشَفَ السِّتْرَ وَقَالَ: أَلا إِنَّ كُلَّكُمْ مُنَاجٍ رَبَّهُ فَلا يُؤْذِيَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَلا يَرْفَعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْقِرَاءَةِ أَوْ قَالَ فِي الصَّلاةِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

آلمني بالعمرة أنه أثناء الطواف أو أثناء السعي رافع صوته إلى أعلى درجة، لا يدع أحداً يدعو، فصوته طاغ على كل شيء، أنا بين الصفا والمروة رأيت حاجاً مع أربعة من رفاقه معه كتب ومن أعلى طبقة ويدعو فسرت خلفهم ودعوت معهم لا يوجد طريقة ثانية.

ليس للإنسان حق أن يشوش على أخيه في الدعاء فيجب أن يخفض صوته مثلاً، دخلنا لنصلي في الجامع والدرس مستمر فهل نصلي جماعة ونرفع صوتنا؟ والله لا يجوز، بل هو خلاف السنة، والمقتدي وراءك يسمع هو فقط، أما بصوت مرتفع فتشوش على الآخرين وأحياناًً إنسان يصلي و يقول: الله أكبر بصوت مرتفع فهذا لا يجوز بل يجب أن يكون سرياً، ولا أدري هل يعدها ورعاً؟ و هذا ليس له علاقة بالدين بل هذا تشويش، تريد أن تصلي بأدب فطالما يوجد أخ معك يصلي فيجب أن تراعي شعوره، وما لاحظت هذا الشيء بالديار المقدسة أبداً، بل كل إنسان يدعو بمفرده بصوت مرتفع حتى النساء يرددن وراء أزواجهم بصوت مرتفع، وصوت المرأة عورة، ولا يوجد فقه، فقد قيل: "تفقهوا قبل أن تحجوا".

وهذا الذي يريد أن يزاحم على الحجر الأسود يؤدي إلى إيذاء، وأنا شبهتها أب حوله خمسة أولاد فجاء ابن مسك أول أخ و ضربه فطرحه أرضاً، والثاني ضربه على بطنه، والثالث على وجهه، ومن ثم هات يدك يا والدي كي أقبلها، فما هذه القبلة؟ هذا أيضاً جهل قبيح، وهذا الشيء منهي عنه، قال: ف

((لا يؤذين بعضكم بعضا ولا يرفعن بعضكم على بعض في القراءة أو قال في الصلاة))

[أحمد عن أبي سعيد الخدري]

2 . التواضع :

وكان عليه الصلاة والسلام عظيم التواضع.

فانظر إلى الأكحال وهي حجارة لانت فصار مقرها في الأعين

***

المتواضع يزداد من الناس رفعةً، والمتكبر يزداد ضعفاً، والبطولة ما يقوله الناس في غيبتك لا في حضرتك، فقد تكون قوياً فيخافونك في حضورك، فيجب أن تمدح في غيبتك، فمن علامة التواضع أن يمدحك الناس في غيبتك.

كان من تواضعه ﷺ بالمناسبة يوجد ثلاثة أحاديث قال عليه الصلاة والسلام:

((وبرئ من الكبر من حمل حاجته بيده))

[رواه القضاعي والديلمي عن جابر مرفوعاً وهو عند ابن لال عن أبي أمامة. وفي لفظ بضاعته بدل سلعته]

تحمل كيس بندورة إلى بيتك فلست متكبراً، و تحمل الخبز، وحقيبة فيها الخضار، و طعاماً لأولادك ومن قال: إنك متكبر فقد أخطأ، لأنه كبر عن الكبر من حمل حاجته بيده.

وإنسان أدى زكاة ماله، فمادام قد أدى زكاة ماله فلا يجوز أن ينعت بالبخل، هو حر، رغب أن يؤمن بيتاً لأولاده ولا يرد هذه الألبسة الفارغة، كل ثوب ثمنه ثمانمئة ليرة:

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

((وبرئ من الكبر من حمل حاجته بيده))

[رواه القضاعي والديلمي عن جابر مرفوعاً وهو عند ابن لال عن أبي أمامة. وفي لفظ بضاعته بدل سلعته]

((من أكثر ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[أخرجه الطبراني في الصغير عن أبي هريرة]

أينما جلس يتكلم عن الله عز وجل أخي هذا منافق، كيف منافق؟ المنافق له صفة، قال تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[سورة النساء:142]

لا يذكر الله إلا قليلاً، أما إذا أكثر حديثه عن الله عز وجل فهو ليس منافقاً.

3 . يخدم نفسه بنفسه :

وكان من تواضعه ﷺ أن يخدم نفسه بنفسه، و سيدنا رسول الله وهو قمة في العلم والرفعة والخلق خدم أصحاب النجاشي بنفسه، أصر على خدمتهم بنفسه، قالت عائشة رضي الله عنها:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا سُئِلَتْ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ: كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

فالآن كم مشكلة تقع من أجل خياطة رز؟ قلت لكم مرتين وأنت زوجة مهملة، أنت ... ترى طردها إلى بيت أهلها والأولاد من أجل زر وأدبها بخياطته، إذا أخاطه أمامها تخجل لأن عندها إحساساً، فعوضاً عن أن تعنفها وتطردها إلى بين أهلها من أجل هذا الزر، ابق عندك إبرة وخيطاً فإذا لم يستجيبوا لك فأخطه بمفردك. ويرقع دلوه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، أنا أستكبر من إنسان يقول: تعال واخدمني، فمن أنت؟ لا يوجد أعظم من رسول الله، قال: عليّ ذبح الشاة، وقال الثاني: عليّ سلخها، وقال آخر: وعليّ طبخها، فقال عليه الصلاة والسلام: وعليّ جمع الحطب، فقال الصحابة الكرام: نكفيك ذلك، قال: أعرف أنكم تكفوني ذلك ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه.

وفي الحرب في معركة بدر ثلاثمئة جمل لتسعمئة مقاتل من الصحابة أمر كل ثلاثة على راحلة وقال: أنا وعلي وأبو لبابة على جمل، ركب النبي الكريم وجاء دور أصحابه فخجلوا أن يركبوا وقالوا: ابق راكباً، فقال: ما أنتم بأقوى مني على السير ولا أنا بأغنى منكم على الأجر، هكذا النبي الكريم.

4 . يركب الحمار ولا يخص نفسه بركوب الخيل :

ومن تواضعه ﷺ أنه كان يركب الحمار ولا يخص نفسه بركوب الخيل كما هي عادة الملوك والأمراء، إنسان له مكانة رفيعة يريد أن ينقل شيئاً إلى بيته فوجد شاحنة صغيرة و ركب بجانب السائق، فيقول: نقص قدري؟ لا بل قدرك يبقى هو هو، فالإنسان لا يتكبر، اجلس يا أستاذ على الصندوق فجلس، فالكبر لله عز وجل.

5 . يعود المرضى ويشهد الجنائز ويجيب دعوة العبد :

وكان عليه الصلاة والسلام يعود المرضى، ويشهد الجنائز، ويجيب دعوة العبد.

6 . يردف بعض أصحابه على دابته :

ومن تواضعه ﷺ أنه كان يردف بعض أصحابه على دابته، وما كان يأنف من إنسان أن يركب معه بمفرده، وكان يردف صبيان أصحابه وراءه، فإذا كان لصحابي ابن كان يركبه والطفل يحب أن يركب الدابة.

((عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلا أَخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ يَا مُعَاذُ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ ابْنَ جَبَلٍ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ فَقَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ))

[مسلم عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِي اللَّه عَنْه]

وبما أنهم عبدوه فلا يعذبهم، فإذا كنت مستقيماً استقامة تامة اكتسبت حقاً على الله عز وجل، ألم يقل رجل لأبي الدرداء: احترق حانوتك تعال وانظر، بكل أعصاب باردة قال: ما كان الله ليفعل، فقال له: احترق، فقال: ما كان الله ليفعل، جاء رجل قال له: لا لم يحترق حانوتك بل حانوت جارك الذي احترق، قال: أعرف ذلك. للعبد حق على الله عز وجل، أنت تغض بصرك، وتدفع زكاة مالك، وتحرر دخلك من الحرام، وتخاف من الله عز وجل وليس لك ميزة؟ وحق على الله ألا يعذبك، لي صديق مؤمن استيقظ صباحاً وجد ابنته مشلولة، والزوجة صرخت، قال كلمة مشابهة لهذا الكلام: الله عز وجل لم يفعل هذا إذاً يوجد مرض مشابه جداً للشلل، بعد عدة أيام تشفى، وفعلاً بعد ستة أيام شفيت، إنه واثق أنه لا يستحق هذه المصيبة الكبيرة، بنت في البيت مشلولة وصغيرة لا يستحق هذا، اعرف ذلك، فإذا أنت استقمت على أمر الله تماماً تشعر أنك بعين الله، يمكن لا يوجد آية تثير مشاعر الإنسان كقوله تعالى:

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾

[سورة الطور: 48]

إذا طفل محبب وعمره خمس سنوات وهو جالس في الغرفة فراقب أمه كيف تحرسه فلا ترفع عينها عنه أبداً، مهما سار من مكان إلى مكان، وهذا دليل المحبة، إذا إنسان أخلاقه عالية جداً، ومتواضع، و محب لله، ويؤدي الصلاة بإتقان، ويدفع من ماله الحلال للفقراء والمساكين، وهو في خدمة الخلق، إنه جندي من جند الحق، والله عز وجل يحبه كثيراً، فإنك بأعيننا، فأنت جندي من جنود الله، والله يدافع عنك، ولك رعاية خاصة تحت المظلة:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلا ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 22 : سجود السهو

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

سجود السهو :

وصلنا في الفقه إلى موضوع: "سجود السهوِ"، وسجود السهوِ يجبُ لترك واجب، فإذا تُرِك الواجب يجب سجود السهوِ لترميم النقص، فيجب سجدتان بتشهد وتسليم، لترك واجب سهواً وإن تكرر ! وإذا ترك المصلي واجباً سهواً، وإن تكرر، و ترك أحد أركان الصلاة، فصلاته باطلة! ويجب أن يعيدها، ولو ترك أحد واجبات الصلاة فعليه أن يسجد للسهو دون أن يعيدها، فإذا ترك بعض السنن والمستحبات فلا شيء عليه، لكنه قد أساء لترك واجب سهواً وإن تكرر و لو ترك واجبين أو ثلاثة يجزئهما سجود سهوٍ واحد في نهاية الصلاة، أما إن كان تركه لهذا الواجب عمداً فوجبت إعادة الصلاة، إن تركه سهواً وجب عليه سجود السهو، فإن تركه عمداً وجب عليه إعادة الصلاة لجبر نقصها، لكن هناك حالات ثلاثة يسجد فيها الرجل لو ترك واجباً عمداً! هذه الحالات الثلاثة من ترك القعود الأول.

فلو فرضنا أربع ركعات، القعود الأول واجب، فلو ترك الرجل القعود الأول عمداً يُجزِئه سجود السهو، أو تأخير سجدة من الركعة الأولى إلى آخر الصلاة، إذا سجد سجدة واحدة، وما أن يتابع هذه السجدة في آخر الصلاة يجزئه سجود السهو عن هذا السهو، أو العمد، ومن تفكّر عمداً حتى شغل باله عن ركن وجب عليه أن يسجد للسهو فمتى يأتي بسجود السهو؟ العلماء قالوا: بعد السلام، لا بعد التسليمتين، ولكن بعد التسليمة الواحدة، يسلم نحو اليمين ثم يكبر، ويسجد سجدتين ويقعد ويتشهد، ثم يسلم تسليمتين.

وإن سجد للسهو قبل أن يسلم كُرِهَ ذلك منه تنزيهاً، وعليه أن يسلم تسليمة واحدة.

حالات سقوط سجود السهو :

ويسقط سجود السهو في حالات منها: طلوع الشمس بعد السلام في صلاة الفجر، ولو أن إنساناً يصلي في غرفة مرتفعة تُطِلُّ على المشرق، وهو يصلي برز قرن الشمس سقط عنه سجود السهو! لأنه لا يجوز أن تسجد وقت طلوع الشمس، ولا وقت توسطها في كبد السماء، ولا قُبَيل غروبها، يجب أن تصلي بعد أن ترتفع الشمس في كبد السماء، مقدار رمحين وحتى تزول من كبد السماء، و قُبَيل أن تصفرّ إذا آن أوان غروبها، في هذه الأوقات الثلاثة مكروه أن تصلي، فلو صدف أنك صليت صلاة الفجر، وحينما صليت رأيت قرن الشمس قد طلع سقط عنك سجود السهو، ويسقط أيضاً باحمرارها في العصر، وما يمنع البناء بعد السلام، لو أنه سلّم فسال منه دم غزير انتقص وضوءه، فهذا الدم الغزير يمنعه من متابعة صلاته، إذاً هذا الدم الغزير يسقط عنه سجود السهو.

حكم المأموم الذي لم يسهُ لكن الإمام سها :

والآن نتحدث عن المأموم الذي لم يسهُ، لكن الإمام سها، والإمام سجد سجدة السهو، والمؤتم ملزم أن يسجد مع إمامه! فالإمام سها في الركعة الأولى، مثلاً سجد سجدة واحدة ونسي، ووقف في الركعة الثانية فجاء مؤتم ائتم به في الركعة الثانية فهذا المؤتم ما سها، ولا رأى إمامه سها، فإذا سجد الإمام للسهو عليه أن يسجد معه متابعة للإمام.

فيسجد المسبوق مع إمامه، ثم يقوم لقضاء ما سُبِقَ به، ولو سها المسبوق فيما يقضيه، المسبوق وقف ليصلي فسجد سجدة واحدة، فعليه أن يسجد مرة ثانية لسهوه هو لا لسهو إمامه، وبعضهم اعترض! كيف يجوز أن نسجد مرتين لسهوين في صلاة واحدة؟ فكانت الإجابة: إن هذه الصلاة بحكم الصلاتين، مرة كنت مأموماً، ومرة كنت مفرداً.

الإمام لا يسجد للسهو في الجمعة والعيدين :

ولا يأتي الإمام بسجود السهو في الجمعة والعيدين، و لو فرضنا تشّهد الإمام أو نسي سجوداً ثم سجد لهذا السهو يحدث بلبلة في الجمعة! بعضهم يقول: يا أخوان أعيدوا الصلاة، وأحدهم يقول: لا هي صحيحة، لئلا تحدث فتنة بين الناس، ولئلا يحصل بلبلة، واضطراب، و زعزعة بالثقة لهذا الإمام، فلا ينبغي للإمام أن يسجد للسهو في

الجمعة والعيدين، هكذا الفقه.

الآن من سها عن القعود الأول من الفرض، إذا قال: الله أكبر أعطاها نبرة القيام، وينبغي له أن يقعد، إذا وصل إلى القيام الكامل عليه أن يسجد للسهو، فإذا كان أقرب إلى القعود يقعد ولا شيء عليه، حتى أن بعضهم قال: إذا كان أقرب إلى القيام عليه سجود سهوٍ، وإذا كان أقرب إلى القعود لا شيء عليه! وهناك أحكام دقيقة في سجود السهو نتابعها إن شاء الله في درس قادم.

* * *

آداب تقديم الطعام إلى الزائرين :

والآن إلى بعض فصول علوم إحياء الدين: آداب تقديم الطعام إلى الزائرين.

يقول الإمام جعفر بن محمد رضي الله عنهما: "إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس! فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم " فإذا جلس الإنسان إلى أخ مُحِبْ محبة سابقة، هناك صفاء و مودة، فشيء من الإخلاص ووجهة إلى الله عز وجل، فهذه ساعة مباركة أن تجلس إلى أخيك وتأكل معه، فأطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب من أعماركم.

ويقول الإمام الحسن رضي الله عنه: "كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه يحاسب عليها، إلا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام"، الطعام الذي قدمه الرجل ابتغاء مرضاة الله يقول عليه الصلاة والسلام:

((شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُدْعَى لَهَا الأَغْنِيَاءُ، وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ، وَمَنْ تَرَكَ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه]

وقيل في رواية أخرى: "وَالمُتَبَارِيَانِ لا يُؤْتَى طَعَامَهُمَا".

من هما المتباريان؟ الذي يود أن ينافس أخاه في تقديم الطعام، أن يقدم طعاماً أطيب، أو أنفس، أو مستواه أرقى، فزها به، فهذا طعام لم يُرَدْ به وجه الله سبحانه وتعالى، ومجموعة الأحاديث الواردة في هذا الفصل تعني أولئك الذين يقدمون الطعام كما قال الله عز وجل:

﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً ﴾

[سورة الإنسان: 9]

أحياناً تقديم الطعام لأخ في الله يزيد المودة هذا إن لم يكن فقيراً، فإذا كان فقيراً وأطعمته طعاماً طيباً لم يذق منه من أشهر عديدة فلك أجر كبير، حتى إن بعضهم قال: هذا قول فقط " لقمة في بطن جائع خير من عمارة جامع".

مجتمع فيه تفاوت لا يستحق الحياة :

والإمام ابن المبارك رضي الله عنه كان في طريقه إلى الحج فرأى طفلاً ينقّب في القمامة فلاحظه فإذا هو يعثر على طير ميت! فأخذه وانصرف به، فتبعه فعرف أن له أهلاً فقراء فقراً مدقعاً، فأعطاهم نفقة الحج وعاد إلى بلده! وقيل: إن بعض الناس رأوه في الحج يطوف حول الكعبة! وقيل: إنه رأى النبي عليه الصلاة والسلام وهنأه على هذا العمل! لا تستبعدوا هذا، الآن في الشام في هذا البلد الطيب هناك امرأة تشتري لأولادها أيدي الدجاج – الأيدي هذه التي لا تؤكل– ولا يمكن أن تؤكل تسلقها وتقدمها لأولادها اليتامى، فإذا وصل إلى علمك حال مثل هذه الحالات فإن أهل بلد بأكملهم يأثمون، إذا كان فيهم من هو محتاج أو مسكين، وقد تقول أنت: أنا لا علم لي بذلك! أجيبك بقول النبي الكريم:

((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم))

[المعجم الأوسط عن حذيفة]

أنا بدأت أرى كثيراً أناساً ينقبون في الحاويات ليأخذوا بعض الخضر الفاسدة ينظفونها ويأكلونها! ما رأيكم بإنسان ينفق أموالاً على شهوات مترفة بتبذير وإسراف وأناس ينقّبون في القمامة؟ هؤلاء لا يستحقون الحياة، هذا المجتمع الذي فيه هذا التفاوت لا يستحق الحياة، قال تعالى:

﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾

[سورة الحج: 45]

من دواعي إهلاك الأمم أن الحاجات الأساسية مفقودة و الترف موجود :

ومن دواعي إهلاك قوم أن الحاجات الأساسية مفقودة، والترف على أوجه:

﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾

[سورة الحج: 45]

الإنسان أحياناً يسمع أخباراً كالخيال: أخ ذهب إلى أمريكا، قال لي: عدد الأماكن ومحلات البيع الراقية لبيع ما يحتاجه الكلاب شيء يأخذ بالألباب! يحير العقول، وإن ما يستهلكه كلاب أمريكا من اللحوم يزيد على ما يستهلكه الشعب الهندي بكامله، أربعمئة وخمسين مليون من اللحوم، أماكن لتصفيف شعر الكلاب وأطعمة وألبسة خاصة بالكلاب..

شيء يكاد لا يصدق، شعوب تموت من الجوع، وشعوب تنفق على كلابها ما لو أنفق على هذه الشعوب لكفتهم، لذلك هذه من علامات قيام الساعة، أناس يموتون تخمة، وأناس يموتون جوعاً!

((لا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاةٍ مَا دَامَ يَنْتَظِرُهَا، وَلا تَزَالُ الْمَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَتْ مَائِدَتَهُ مَوْضُوعَةٌ بَيِنَ يَدْيِهِ حَتَىَ تُرْفَعْ))

[الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فإذا الإنسان وضع مائدة لإخوانه المؤمنين تصلي الملائكة عليه حتى يرفعها.

من علامة المؤمن أنه لا يحسد ولا يطعن ولا يغتب :

بالمناسبة النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا تُصَاحِبْ إِلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلا تَقِيٌّ))

[الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

فإذا خالفت هذا الحديث، وتلك السنّة، وقعت في شر عملك، ورجل غير مؤمن تدعوه لطعام نفيس فيحسدك على هذا الطعام، ويتكلم بحقك كلمات لا تليق، الذنب ذنبك، لا يأكل طعامك إلا تقي، من علامة المؤمن وهذا ما أنا متأكد منه أنه يفرح للخير يصيب أخاه!

و إذا شعرت أن هذا الأخ المؤمن كريم والذي أصابه خير لا يستحقه، أو كثير عليه، أو ليته يتحول إليك، فأنت لست مؤمناً أبداً! وعلامة أخوتك في الله أنك تفرح له، وأنت لا تملك بيتاً، وأخوك اشترى بيتاً، و من علامة إيمانك أنك تفرح له كما لو أن هذا البيت لك! وأنت معك ليسانس ولم تتعيّن، وأخوك تعيّن فتفرح له، وأنت لم تتزوج، وأخوك تزوج تهنئه وتفرح له، لأنه إذا قوي أخوك فهو قوة لك، فإذا كان أخوك في حاجة فهذا عبء

عليك، فالمؤمن لا يحسد، ولا يطعن، ولا يغتب، وهذا كله من علامة المؤمن، ولذلك فالنبي الكريم قال:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ))

[الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

وفي بعض الأقوال لا أدري مبلغها من الصحة أنه: لا يحاسب العبد على ما يأكله مع إخوانه، ويبدو أن الإنسان مع إخوانه يزداد طعامه، فتأتي القابلية أحياناً، وله عادات دقيقة في بيته لا يتجاوز حدوداً معيّنة، معتدل جداً، لكن إذا كان مع إخوانه المؤمنين الصادقين يمكن أن يأكل زيادة عن الحد فقال بعضهم: هذا مما عفا الله عنه. وكان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة لذلك، ويقلل إذا أكل وحده، ولكن يوجد بعض الناس بالعكس! تفضل كُلْ، يكون نائماً عندك، أو يحرجك، فلا يأكل إلا أكلاً يحرج به الحاضرين، يقوم الناس للنوم ويقوم هو قيام ليل وليس فقط للصلاة وللأكل، يلتهم وحده ما لذّ وطاب، ومع الناس طعامه قليل! لا بالعكس كُل وحدك طعاماً قليلاً، وكل مع الناس أكلاً طبيعياً معقولاً حتى تشجعهم، أما أن تأكل مثل المشمئزين من الطعام، وفي الليل يأكل ما يشاء، و هذا شيء يتنافى مع آداب الطعام.

إكثار الأكل مع الجماعة :

قال: كان بعضهم يكثر الأكل مع الجماعة، وليس معنى يكثر ألا يبقي شيئاً من الطعام، يأكل أكلاً طبيعياً ليشجع الناس على الأكل، ويقلل الأكل إذا أكل وحده، وفي الخبر أيضاً: ثلاثة لا يحاسب الرجل عليها: أكلة السحور، لأنه من الممكن أن يكون النهار طويلاً في الصيف حوالي اثنتي عشرة ساعة ولديه عمل شاق، وأكل طعاماً يسند جسمه زيادة فقام بقلي البيض، وتناول الجبن، وتناول بعض الطعام الدسم، وبعضهم يقول: إن أكل السحور مما عُفِيَ عنه، لأنه قد يكون عمله شاقاً، و قد يكون الصيام طويلاً سبع عشرة ساعة! انظر للفقه سبحان الله يوجد فيه واقعية، ثلاثة لا يحاسب عليها العبد: " أكلة السحور، وما أفطر عليه، وما أكل مع إخوانه"، إذا أكل مع إخوانه عليه ألا ينفرهم من الطعام بل يشجعهم على الطعام و لكن بشرط أن يكون الطعام كافياً للجميع، وإذا كانت كمية الطعام لا تكفي يقوم بنصف الطعام ويخبرهم هذه سنّة يا أخي! لا هذه ليست سنّة، وإذا كان الطعام كثيراً ولا حرج فتناول طعاماً اعتيادياً.

قال الإمام علي رضي الله عنه: "لأن أجمع أخواني على صاع من طعام أحب إلي من أن أعتق رقبة" ، وكان ابن عمر يقول رضي الله عنهما: "من كرم المرءِ طيب زاده في سفره"، أحياناً الإنسان يذهب إلى الحج، أو إلى العمرة، يسافر مع إخوانه فيأخذ معه بعض الطعام، وتجد أحدهم جائعاً والطعام لم يجهز بعد تقدم له شطيرة، هذا مصاب ببعض الدوار فأملك بعض الليمون فأقدمها له، و هناك من يستعد رغم أنه غير مكلف بهذا الشيء، فالطعام على المجموع، لكن لديه بعض الليمون الفائض عن حاجته، ولديه بعض البرتقال، ولديه قطعتان من الحلوى فأخذها معه، وهناك طفل جائع والطعام لم يجهز بعد، فتقدم له بعض الطعام، من كرم المرء طيب زاده بسفره، وبذله لأصحابه.

سبحان الله أعرف أناساً أحبهم يحملون بعض السكاكر كلما رأى طفلاً يعطيه واحدة، وهي لا قيمة لها، ولكن لها قيمة كبيرة عند الله عز وجل، الطفل جُبِل على حب من أحسن إليه.

الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق :

وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون: "الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق"، والنبي الكريم كان يقول:

((إنَّ طعامَ الواحدِ يكفي الاثنين و إن طَعَام الاثْنَيْنِ يَكفِي الثَلاثة و الأربعة))

[ابن ماجه عن عمر بن الخطاب]

وكان يذمُّ من أكل وَحْدهُ، وَمَنَع رِفْده، وَضَرَب عَبْدَه، وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن، ولا يتفرقون إلا عن طعام، أي دخلت لبيت فأقل شيء قدمه لك فنجان قهوة، وليس لديه سكرة، أو كأس من الشاي، وجِدَ الإكرام، من زار حياً ولم يكرمه فكأنما زار ميتاً! ويقول الله تعالى يوم القيامة:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي؟ قَالَ:يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

إكرام الضيف عمل طيب :

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا جَاءَكُمُ الصَّانِعُ بِطَعَامِكُمْ قَدْ أَغْنَى عَنْكُمْ عَنَاءَ حَرِّهِ، وَدُخَانِهِ، فَادْعُوهُ، فَلْيَأْكُلْ مَعَكُمْ، وَإِلا فَلَقِّمُوهُ فِي يَدِهِ))

[أحمد عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ]

هذا الزائر ضيف الله، وفي بعض الأحاديث: إنه يأتي برزقه ويرتحل بذنوب القوم! هذا الضيف، ولكنك تعلم علم اليقين ما إذا كان هذا الإكرام خالصاً لوجه الله عز وجل.

أخ في الله مسافر زارك من بلد آخر، وأغلب الظن لم يتناول غداءه قدم له الغداء، أغلب الظن لم يتناول عشاءه قدمه له، دعه ينم عندك و لو على المطرح لا مانع، فإذا أكرم الإنسان أخاً مسافراً غريباً من بلد آخر؛ أطعمه، وسقاه، وأكرمه، وبيّته عنده، فهذا عمل طيب، وكبير جداً، حتى أن النبي الكريم يقول:

((مَا أَحَبَّ عَبْدٌ عَبْدًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إلا أَكْرَمَ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ))

[أحمد عَنِ الْقَاسِمِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ]

((إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: لِمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ))

[الترمذي عَنْ عَلِيٍّ]

انظر لهذا الكلام ما أجمله:

((لِمَنْ أَطَابَ الْكَلامَ وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ وَأَدَامَ الصِّيَامَ وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ))

[الترمذي عَنْ عَلِيٍّ]

((إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خَيْرُكُمْ مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، أَوِ الَّذِينَ يُطْعِمُونَ الطَّعَامَ))

[أحمد عن حمزة بن صهيب عن أبيه]

الكرم من علامة الإيمان :

سيدنا إبراهيم عندما جاءه ضيوف، قال: فما لبث إلا أن جاء بعجل حنيذ أي مشوي على الحجارة، فقربه إليهم قال: ألا تأكلون؟ الكرم من علامة الإيمان، ولا يجتمع بخل مع إيمان، ولا يجتمع شحٌّ مع إيمان، والشح أشد من البخل، ولا يجتمع الجبنُ مع الإيمان، ولذلك في الدعاء الشريف: "اللهم إنا نعوذ بك من الجبن والبخل، ومن

العجز والكسل، ومن غلبة الدَين،وقهر الرِجال، اللهم إنا نعوذ بك من الخوف إلا منك، ومن الذل إلا لك، ومن الفقر إلا إليك، نعوذ بك من عضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء".

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ صَائِمًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْه: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْه: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مِسْكِينًا؟ قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْه: أَنَا، قَالَ: فَمَنْ عَادَ مِنْكُمُ الْيَوْمَ مَرِيضًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِي اللَّه عَنْه: أَنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا اجْتَمَعْنَ فِي امْرِئٍ إِلا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وكان السلف الصالح كراماً، لي صديق توفيت والدته فكنت في تعزيته، وكنت في آخر يوم، وفي آخر الوقت، فالذي جذب نظري أن زوج الفقيدة ويزيد عمره عن الثمانين عاماً يبكي بكاءً مرّاً، ويبدو أن الزوجة المتوفاة لا يقل عمرها عن السبعين عاماً، فلما انتهت قراءة القرآن والذكر، بدأ من في المجلس يخفف عنه ألمه، فقال كلمة تأثرت لها، قال: والله بقيت عندي أربعين عاماً ما نمت ليلة وأنا غاضب عليها! وكانت تقوم في أول الليل لتطبخ لضيوفي، كان مضيافاً جداً، وكان يطلب منها يا فلانة رضي الله عنك قد جاءنا ضيوف، قومي بتحضير الطعام من فضلك، أما اليوم فتحصل مشاجرة من أجل وضع مائدة فطور، لماذا الأكل؟ وإذا كان سهلاً قدم له الطعام في المطعم وأرحنا! لذلك هناك شاعر وصف قوماً بخلاء فقال:

بيض المطابخ لا تشكو إيماؤهم طبخ القدور ولا غسل المناديل

***

فهذا البيت دائماً نظيف ومرتب لا يتسخ أبداً، وأشعر أحياناً أن هناك مشكلة من أجل تقديم طعام لضيف مع الأزواج المحدثين، هذا الجيل الجديد، شيء صعب، مشقة، و لا يقدم الطعام إلا بشق الأنفس بعد أن كان هناك حوالي خمس مشاجرات حتى استطاع أن يعزمه على الفطور الصباحي! قال هذا الرجل: أربعون سنة لم ينم ليلة واحدة وهو غضبان منها! وكان أغلب الأيام يوقظها من النوم للطبخ لأنه مضياف.

* * *

الدخول للطعام :

الآن الدخول للطعام: قال تعالى:

﴿ وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾

[سورة الحج: 45]

فالإنسان لا يملك الحق أن يدخل لبيت في وقت الطعام كي يُطعَمْ، هذا اسمه تطفل ودناءة نفس، وفي الخبر: "من مشى إلى طعام لم يدعَ إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً".

والنبي الكريم كان صاحب أدب رفيع، ذات مرة دعي وعنده رجل من أصحابه، وهذا الإنسان غير مدعو، فلما انطلق إلى بيت المضيف، انطلق معه هذا الرجل، أحياناً يكون هناك حرج، طاولة تتسع لخمسة كراسي وكرسي سادس لا يملك، دعوا خمسة، وأحياناً يكون الطعام محدوداً جداً، خصص لكل شخص أوقية لحم، فجاء رجلان غير مدعوين لم يشبع أحد منهم، وكثيراً ما تحصل، فالنبي الكريم عندما فتح الباب المضيف: " قال له: هَذَا تَبِعَنا، فَإِنْ شِئْتَ دَخَلْ، وَإِنْ شِئْتَ اِنْصَرَفْ ".

استأذن من المضيف، وعلّم الذي تبعه من غير إذن، إذا وجدت أناساً متجهين لجهة علّهم مدعوون أما أنا فلست مدعواً، ولا ينقص من قدرك أنك لست مدعواً، قد تكون مكانتك عند الله أعلى من كل هؤلاء المدعوين، المؤمن ثقته بالله، لا أعرفك ولا يوجد بيننا أي علاقة أو وارد، لم يدعني، فلم يحصل شيء، هناك شخص إذا كان لم يُدعَ تجده قد تأثّر وبدأ يقول: ليس لي قيمة، أهملوني، تجاوزوني، نسوني، هذه من الله عز وجل، فالنبي الكريم قال له: "هَذَا تَبِعَنا، فَإِنْ شِئْتَ دَخَلْ، وَإِنْ شِئْتَ اِنْصَرَفْ ".

من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً :

إذاً من مشى إلى طعام لم يدع إليه، مشى فاسقاً، وأكل حراماً، وأحياناً الإنسان يدعى لعقد قران يحضر معه ولديه، هدية القران كلفتها ثماني عشرة ليرة، و في هذه الحال سيعطيك واحدة لك، ولكل ابن واحدة، فهذه مشكلة، أحضر الحلوى على عدد الحاضرين، عزم مئة شخص وأحضر مئة وعشراً، فوجد أن هناك خمسين ولداً زيادة لا يوجد شيء يكفي، وهنا إحراج، فالإنسان من المفروض إذا لم يخبرك الداعي بإحضار ابنك بالذات لا تحضره رجاءً! قال لك: أحضر معك ابنك فلاناً، سمّاه بالذات تحضره، وإن لم يسمه لا تحضره، وعوّد ابنك أنه إذا كان

غير مدعو ألا يذهب معك، ما هذه خذني معك يا أبي؟ لم يدعك يا بني هذا من أصول الضيافة، الإحراج صعب، لأن الإنسان أحياناً يهيئ نفسه لعدد معين فوجد هناك زيادة بالعدد! لكن إذا دخل إنسان لبيت من دون أن يقصد وقت الطعام ووضِع الطعام، واتفق أن صادفهم على طعام عليه ألا يأكل ما لم يؤذن له! يا الله بسم الله حماتي تحبني، ما هذا الحظ الجيد؟ ما هذا الكلام؟ ألا يأكل ما لم يؤذن له، فإذا قيل له كُل، ماذا يفعل؟ من يجيب؟ قال: نظر، فإن علم أنهم قالوا ما قالوا عن محبة فليأكل، وإن قالوا ما قالوا حياء منه فلا يأكل، تفضل كُل، لا شكراً، لكن أحياناً إذا كان هناك دعوة متينة يمسكه من يده ويقول له: تفضل، لا نأكل قبل أن تأكل معنا، إذا رأى أن هناك حرارة بالدعوة وهو جائع يأكل، ولكن كلمة رفع عتب، فجلس على الطعام! قال: فإذا دعي ما لم يؤذن له، فإن قيل له: كُل، قال: نظر، فإن علم أنهم قالوا ما قالوا عن محبة أكل، وإن قالوا ما قالوا عن حياء فلا ينبغي له أن يأكل، بل ينبغي له أن يتعلل، لست بجائع، الآن قد تناولت، هذا ليس كذباً، لأنهم دعوك دعوة ظاهرة، فليس فيها حرارة ولو كنت جائعاً.

من كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه فلا بأس :

إذا الإنسان غير كريم أكل البخيل داء، لكن هناك حالة أنه جائع وزوجته في بيت أهلها وله أخ محب وذهب إليه وقت الغداء ليأكل معه، هذه لا يوجد فيها شيء، ومعنى ذلك أن هناك محبة بالغة، فإذا كان لك أخ وعلاقتكم مع بعضكم حميمة، ولا يوجد في بيته شيء من طعام الغداء مثلاً وأخوك قريب منك، والله جئت نتناول الغداء معاً، فهذا الأخ يمكن أن يدخل على قلبه سرور لا يعلمه إلا الله، وهذه نعفو عنها، لكن بشرط أن يكون هناك علاقات متينة جداً، قال: من كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه فلا بأس فهذا فعله النبي عليه الصلاة والسلام. أنا أعرف الكريم فوراً، إذا قال لك أحدهم: سأتناول العشاء عندك، تشعر بسرور لا يعلمه إلا الله، طبعاً من غير تكلف، تقدم له كل ما وجد عندك، والدخول على مثل هذه الحالة إعانةٌ لهذا المسلم على حيازة ثواب الطعام، تكون قد أكسبته هذا الثواب لكن إذا كانت علاقتك معه متينة لدرجة متناهية.

الآن آداب تقديم الطعام كثيرة نكتفي بالأدب الأول، نتابعها في درس قادم إن شاء الله.

* * *

آداب تقديم الطعام :

آداب تقديم الطعام، ترك التكلف، وتقديم ما حضر، فإن لم يحضر شيئاً ولم يملك فلا يستقرض لأجل ذلك! لا يجب التكلف بل تكتفي بتقديم ما حضر، فليس عنده شيء، ولا يملك المال، نهى الشرع عن أن تستقرض مالاً من أجل تقديم الطعام للضيف!

قال بعض السلف: التكلف أن تطعم أخاك طعاماً لا تأكله أنت، فمثلاً: إذا قال لك أخوك: سأتغدى عندك، فأنت بالأحوال الطبيعية هل تحضّر ثلاثين لوناً؟ لا، لونان أو ثلاثة، الأكل الطبيعي، إذا كنت قد أطعمته من الأكل الطبيعي فكان قدومه خفيفاً، ولم تشعر بأي حرج لأنك لو لمحت وجهه في الشارع في اليوم التالي تدِرْ له ظهرك وتتجاوزه، أما لأنك لم تتكلف من أجله فأصبح الكرم سهلاً وليس صعباً، لا يوجد بيت لا يوجد فيه طعام، ولكن الآن يمتنعون لأنهم يدعون بقولهم: لا يوجد شيئاً مقدّر، يريد شيئاً يفتخر به، يعلو على هذا الضيف، أما إذا كنت قدمت له الموجود فهذا هو الحسن.

و أحياناً يكون أخ عندك سهران يوجد حسابات بالاجتماع، تعَبٌ وملَلٌ من الساعة الثامنة حتى الثانية عشرة، قدم له كعكة أو سندويشة من المطبخ فلا يوجد أي خطأ، إذا كنت لم تتكلف قضية سهلة، و إذا كنت تهيئ المائدة في غرفة الطعام، وكل شخص ثلاثة صحون، وثلاث شوكات، وسكينة، ووضع الطقم الزجاجي، تعمل خمس ساعات، فهذا يسبب الملل والنفور، فبالشرع نهى النبي الكريم عن التكلف.

أن تطعم أخاك ما تأكله أنت، بل تقصد زيادة عليه في الجودة والقيمة، اسمعوا لهذا الكلام و هو للفضيل: قال الفضيل: " إنما تقاطع الناس بالتكلف " كان هناك مجلس قرآن يجتمعون خمسة يقرؤون القرآن، أحدهم قدم محلاية، شيء جميل، والآخر قدم محلاية ومدلوقة، والثالث قدم محلاية ومدلوقة وعصافيري، والرابع أحضر صدر كنافة، وأحدهم درويش لا يستطيع حمل هذه الأشياء فامتنع عن المجلس! ثم التغت الجلسة! فما الذي قطع هذا المجلس الكريم؟ هذا البذل، قال: "إنما تقاطع الناس بالتكلف "، وهذا شيء لا يجوز، إذا كان هناك مجلس طيب، ذكر لله عز وجل، فالحد الأدنى كأس من الشاي فقط! وهذه تستمر، " إنما تقاطع الناس بالتكلف " يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه! وقال بعضهم: ما أبالي بمن أتاني من إخواني فإني لا أتكلف له، إنما أُقَرِبُ له ما عندي، ولو تكلفت له لكرهت مجيئه ومللته.

معاناة الإنسان أحياناً من عسر وقت لا عسر مادي :

أحياناً الإنسان ليس بعسر مادي، بل بعسر وقت، لا يملك الوقت ليتجول على بائعي الفاكهة ويحضر الفاكهة، فترة بعد الظهيرة لم يبق من البضاعة الجيدة شيء، بل كله سيئ، أسعار مرتفعة و سيئة، ولا يوجد من يحضر له، فابنه بالدرس، والابن الثاني بجهة معينة،و ليس هناك من يحضر له حاجته، فعوّدوا أنفسكم وأنتم مؤمنون أن تكونوا طبيعيين، وجِدَ عنك ما تقدمه قدمه، وإن لم يتوفر اكتفِ بكأس من الشاي فقط، أو فنجان قهوة، ولديك بعض البرتقال قدمه و لا مانع، لديك بعض الفاكهة قدمها وإن لم تتوفر فلا مشكلة.

أعرف بعض الناس لهم دور استمر سبعة عشر عاماً! مثلاً أخوان طيبون كل يوم ثلاثاء عند أحد منهم، و عادة الدور يستمر سنة أو سنتين ثم يفرط وحده! فسأل أحدهم: هؤلاء ما سر هذه الديمومة؟ فاجتمع رأيهم على أشياء ثلاثة: عدم التكلف، وعدم الغيبة، والعنصر النسائي غير موجود أبداً، فهذا الاجتماع استمر سبعة عشر عاماً! إذا كان هناك بعض الاختلاط يقول لها: لقد دققت النظر فيه زيادة، تجيبه: والله لم أنظر إليه، فيحصل بينهم شِجَار لأن الشكوك تأخذ مكانها فوراً، والمسلم طاهر.

من التكلف أن يقدم المضيف جميع ما عنده :

ومن التكلف أن يقدم المضيف جميع ما عنده، فيلحف بعياله ويرضي قلوبهم، مثلاً: أحضر نوعاً من الحلوى إلى البيت، الأطفال يشتهون هذه الحلوى، وضع الصحن كله لاثني عشر شخصاً تناولوه كله، فالطفل ألا يشتهي أن يتناول بعضها؟ فمن التكلف والإجحاف أن تقدم كل ما عندك للضيف! فهناك حقوق برقبتك، أطفال في البيت، والدتك، زوجتك، الطعام يُشتهى.

والله سمعت عن شخص عزم أصدقاءه فأحضر طعاماً بالألفات، خروفاً مكتّفاً، وحلويات، ووالدته في الطابق الأسفل، وأخواته البنات، والأب متوفى، فلم يستطع أن يقدم شيئاً لوالدته في الأسفل من هذا الطعام! وهناك أناس أعوذ بالله قلب مثل الصخر، قال: ومن التكلف أن تقدم جميع ما عندك تلحف بعيالك وتؤذي قلوبهم. ورجل دعا سيدنا علياً، فقال رضي الله عنه: أجيبك على ثلاثة شروط: ألا تدخل من السوق شيئاً، قدّم من الذي عندك، وألا تدخر ما في البيت، وألا تجحف بعيالك "وليس كل شيء أتناوله أنا، أبق شيئاً لعيالك، ومن السوق لا تحضر شيئاً، وإذا كان لديك قدّم لي ولا تخبئ عني شيئاً! شروط دقيقة جداً.

قال: دخلنا على جابر فقدّم إلينا خبزاً وخلاً، وقال: "لولا أنا نهينا عن التكلف لتكلفت لكم"، وقال سلمان رضي الله عنه: "أمرنا النبي الكريم ألا نتكلف بالضيف فيما ليس عندنا، وأن نقدم إليه ما حضرنا ".
وأيضاً رجل زاره أخوانه فقدم لهم طعاماً خشناً، وقال لهم: لولا أن الله لعن المتكلفين لتكلفت لكم، قول لطيف جداً.

أعظم الناس وزراً الذي يحتقر ما يقدم إليه :

يقولون: لا ندري أيهما أعظم وزراً الذي يحتقر ما يقدم إليه أم الذي يحتقر أن يقدم ما عنده؟ لا تعرف مكانتي، نعمة من الله لديه بعض الكعك قدم لك كعكاً وشاياً فماذا بهما؟ ليس لديه غيرها، قطعة بسكويت مع فنجان قهوة، فهذا ما عنده، و إذا احتقرت ما قدم إليك، فلديه بعض البرتقال الصغير، لأن أطفاله كثيرون أحضر من القياس الصغير، وضع أمامك منه، ماذا بها؟ نعمة الله عز وجل، فإذا احتقرت ما قدم لك فأنت أعظم الناس وزراً، وكذلك: أن تحتقر شيئاً تقدمه لضيفك! فلا تستحي من إعطاء القليل فإن الحرمان أقل منه، زارك ضيف، ولديك في صحن الشوكولا ثلاث قطع، تقول له: يا أخي الفضلة للفضيل لا شيء فيها، ونحن نقول: هذا عيب إذا لم يكن الصحن ممتلئاً، قال: " لا أدري أيهما أعظم وزراً الذي يحتقر ما يقدم إليه أم الذي يحتقر ما يقدمه " وفي درس قادم إن شاء الله تعالى نتابع هذه الآداب، فهذه أشياء نعيشها جميعاً لا يوجد أي بيت يخلو من ضيوف.

* * *

شمائل النبي صلى الله عليه و سلم :

1 . النبي الكريم عظيم الحلم لا يقابل السيئة بالسيئة بل يعفو ويغفر :

والآن إلى بعض شمائل النبي الكريم عليه الصلاة والسلام: أُثِرَ عنه حديث شريف: " كاد الحليم أن يكون نبياً ".
صحابي جليل تهجّم عليه رجل، وأقذع له في الكلام، بقي هادئاً ساكناً وادعاً، فلما انتهى من كلامه قال له: إن كنت صادقاً فيما تقول غفر الله لي، وإن كنت غير ذلك غفر الله لك، فكاد الحليم أن يكون نبياً، "فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر " فاعفُ عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، فاصفح الصفح الجميل.
قال تعالى:

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

[سورة يوسف: 92]

سيدنا يوسف لمن ائتمر به وأراد أن يقتله، كان ﷺ عظيم الحلم، لا يقابل السيئة بالسيئة، بل يعفو ويغفر، وما انتقم لنفسه في شيء قط! إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله، قال: اتسع حلمه لجميع خلق الله حتى لأعدائه الذين آذوه! استمعوا: قال: لما كانت غزوة أحد، وكُسِرَت رَبَاعيته، وجرحت شفته السفلى، وشُجَّ في جبهته الشريفة حتى سال منه الدم، قال: فجعل يجففه لئلا ينزل على الأرض، لأنه لَو وَقَعَ مِنْهُ شَيء عَلَى الأَرْضِ لنزل عليهم العذاب من السماء، لم يدع الدم ينزل على الأرض، ولقد شقّ ذلك على الصحابة فقالوا: رسول الله، نبي هذه الأمة، سيد الخلق، حبيب الحق، يُشَجُّ رأسه؟ تُكسَرُ رباعيته؟ تجرح شفته السفلى؟ يسيل الدم منه؟ شقَّ هذا على أصحاب النبي، فقالوا يا رسول الله: لو دعوت عليهم دعاؤك مستجاب، هؤلاء أعداء الله، فقال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ: إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((قَالَ عبد الله: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ، وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ))

[البخاري عن عبد الله]

لو علموا مقامي ما فعلوا ذلك، أحياناً الإنسان له ابن يقع بالساعة، وأثناء هذه النوبة ضرب أباه! فهل يحقد الأب على ابنه؟ لا، أحياناً طفل صغير والده يقوم بقلع ضرسه، فيقوم الطفل بحركة يضرب بها وجه أبيه، أو يجرحه، من ألمه، فالأب قلبه كبير، وقلب رسول الله يتسع للخلق جميعاً، يسع الأعداء.

2 . النبي الكريم يغضب لله تعالى ويرضى لرضاه :

أحياناً الإنسان يضيق ذرعاً بصديقه، بأخيه، بزوجته، وكان عليه الصلاة والسلام يغضب لله تعالى، ويرضى لرضاه، فاسمعوا هذا الكلام ما أجمله: ولم يكن تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، الدنيا وكلها إن أقبلت لا يفرح، وإن أدبرت لا يغضب، ولم يكن يغضب لنفسه، بل كان يغضب لربه تعالى! وقد جاء في حديث هند بن أبي هالة الذي رواه الترمذي وغيره، يصف النبي الكريم:

((لا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تُعرِض للحق لم يعرفه أحد، ولم يكن بغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها))

[الترمذي عن هند بن أبي هالة]

وذات مرة غضب صلى الله عليه و سلم من العمل الذي ينكره المؤمن كما في الصحيحين وغيرهما.

((أَخْبَرَنِي أَبُو مَسْعُودٍ: أَنَّ رَجُلا قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاةِ الْغَدَاةِ، مِنْ أَجْلِ فُلانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ! ثُمَّ قَالَ: إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ، فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ))

[البخاري عن أبي مسعود]

كان يغضب لله عز وجل، ولكن هذا الغضب لا يخرجه عن الحق.

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلِّمُوا وَيَسِّرُوا، وَلا تُعَسِّرُوا، وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ، وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ، وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ))

[أحمد عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

انظر لهذه القصة: بين الزوجين تعاهد نفسك إذا غضبت اسكت لا يحدث شيء، تفوهت بكلمة قاسية على والدتك، فاصمت أنت صمتاً رهيباً وعندئذ هي خافت! ولم تتابع في الحديث، فعوّد نفسك إذا غضبت فاصمت، لأنك إذا تكلمت وأنت غضبان سيكون كلامك قاسياً جداً وستجرح وتكسر، فعندما يغضب الإنسان يسكت، ولا يتفوه بأي كلمة، ومن السنة أن يتوضأ! وإذا بقي غضوباً يخرج من البيت، ويعود بعد ساعتين وليس فيه شيء، فعود نفسك أن تصمت إذا غضبت، أما أي كلمة تقولها وأنت غضبان فسوف تهدم بها عمل سنوات! وأحياناً الإنسان يستميل زوجته ويدللها ويكرمها على نية أن يضع لها الحجاب، ويعاملها شهراً شهرين أو ثلاثة أو سنة، ويغلط غلطة بكلمة قاسية، وكل شيء بناه خلال السنتين هدمه، مثلاً شتم والدها، وهذا لا يصح، فإذا غضبت فاسكت، وطّن نفسك أن تطبق هذه القاعدة، إذا غضبت فاسكت، وتوضأ واخرج.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ وَقَالُوا: تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا؟ فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ! فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَوْمَأَ بِإِصْبَعِهِ إِلَى فِيهِ وَقَالَ: اكْتُبْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنْهُ إِلا حَقٌّ))

[الدارمي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

3 . غضب النبي لا يخرجه عن الحق :

غضبه لا يخرجه عن الحق، انظر إلى الناس بين بعضهم يغضب فيتكلم بالباطل، يتهم ويفتري، أما المؤمن فلا يغضب.

قال: يا أمير المؤمنين أتحبني؟ قال: والله لا أحبك! سيدنا عمر، قال: وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي؟ قال: لا والله، حقك سيصلك، فعلامة المؤمن أنه إذا غضب لا يخرجه غضبه من الحق. هناك قول آخر: ولا يدخله غضبه في باطل، لا يخرجه من الحق ولا يدخله في باطل، هذا عن غضب النبي عليه الصلاة والسلام، وكيف أنه لله، وعن حلمه ﷺ، وكيف أن قلبه الكبير وسع جميع أصحابه، رضي الله عنهم أجمعين.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 23 : صلاة الإستسقاء

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

تقنين الله عز وجل تقنين علاج وتربية لا تقنين عجز :

أيها الأخوة المؤمنون، موضوع عنوانه: "باب الاستسقاء"، ونظراً لأن الناس كلهم متلهفون إلى المطر، وتأخر المطر يؤكد أن الرزق في السماء، قال تعالى:

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾

[سورة الذاريات: 22]

وأن الله سبحانه وتعالى إذا قنن المطر فتقنينه تقنين علاج وتربية لا تقنين عجز، قال تعالى:

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾

[سورة الحجر: 21]

وأن الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي يقول: "عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك"، ولأن الله تعالى يقول:

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾

[سورة هود: 6]

فهذه الدابة النكرة تعني أنواع الدواب كلها من دون استثناء، وهذه المِن لاستغراق أفراد كل نوع على حدة، أي دواب النمل نملةً نملة، ودواب الدجاج دجاجةً دجاجة، ودواب الخرفان خروفاً خروفاً، ودواب الإنسان إنساناً إنساناً، فما من النفي والاستثناء، للقصر والحصر، الرزق على الله وحده وليست على جهة سواه، والدواب كلها وأفراد كل نوع من أنواع الدواب استقصاءً وحصراً على الله رزقها، وكلمة على تفيد الاستعلاء وتفيد الإلزام، أي أن

الله عز وجل ألزم نفسه برزق العباد، ولكن يؤثر المطر لحكمةٍ يعلمها وللفت نظر البشر ولإيقاظهم من نومهم، ومن غفلتهم.

باب الاستسقاء :

على كلٍّ في الفقه باب عنوانه باب الاستسقاء، باب الاستسقاء له صلاة، دخل رجل على الإمام الحسن البصري فقال: يا إمام إن السماء لا تمطر؟ فقال: استغفر الله، ثم دخل رجل آخر فقال: إن زوجتي لا تنجب؟ فقال: استغفر الله، ثم دخل ثالث فقال: إني أشكو الفقر؟ فقال: استغفر الله، قال أحد الجالسين عجبنا لك يا إمام أكلما دخل عليك رجل يسألك حاجة تقول له استغفر الله، قال له: ألم تقرأ قوله تعالى:

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾

[سورة نوح: 10-12]

أي سؤال الإنسان إذا أردت أن تعرف ما لك عند الله فانظر ما لله عندك، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما أقامك، وإذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك، وللاستسقاء باب ومطلع هذا الباب أن للاستسقاء صلاة من غير جماعةٍ، وله استغفار، ويستحب الخروج له ثلاثة أيام مشياً في ثيابٍ خلقة غسيلة، مرقعةٍ، مبللين، متواضعين، فإذا كان الزمان لا يسمح بلباس ثياب مرقعة، وإذا كان الخروج صعباً لاتصال العمران، فالإنسان لا يمنعه أن يسجد في البيت، ويسأل الله سبحانه وتعالى السقيا، لولا شيوخ ركع، وأطفال رضع، وبهائم رتع، لصب عليكم العذاب صبا.

ما يستحب في صلاة الاستسقاء :

خاشعون لله، ناكصو رؤوسهم، مقدمو الصدقة كل يوم قبل خروجهم:

((استمطروا الرزق بالصدقة))

[الجامع الصغير عن جبير بن مطعم]

ويستحب إخراج الدواب والشيوخ والكبار والصغار والأطفال، وفي مكة وبيت المقدس يصلى في المسجد الحرام والمسجد الأقصى، أي صلاة الاستسقاء تكون في أحد هذين الحرمين في مكة وبيت المقدس، وينبغي لأهل مدينة النبي عليه الصلاة والسلام أن يفعلوا ذلك، ويقوم المصلي مستقبلاً القبلة، رافعاً يديه والناس قعود، يستقبلون

القبلة، يؤمنون على دعائه، ويقول: "اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً هنيئاً مريئاً مريعاً – كافياً – غدقاً عاجلاً مجلجلاً – عاماً – سحاً غزيراً، طبقاً أي لا يترك في السماء فرجة من اللون الأزرق وما أشبهه، أي الدعاء الأبسط: " اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين"، مرة كنت أقف في الطريق أمام شخص قال له آخر: والله بعنا السنة الماضية بيعاً لا يصدق، قال له: ما السبب؟ قال له: كان موسماً طيباً في الجزيرة، وهذا عنده معمل أقمشة ومعمل تطريز فاستغربت ما علاقة بيع هذا القماش المطرز؟ قلت: سبحان الله ورزقكم في السماء وما توعدون، وهذه الأمطار تدير العجلات كلها، و كل شيء يتحرك، و الإنسان عليه أن يتوجه إلى الله بالدعاء الصادق فلعل الله سبحانه وتعالى يغيثنا.

الحكمة من حبس المطر :

سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام كان يستسقي ربه هو وقومه، وكان كليم الله عز وجل، فقال الله عز وجل: يا موسى إن فيكم عاصياً، وهو سبب شحّ السماء، فقال موسى عليه السلام: "من كان عاصياً لله فليغادرنا" فما لبثت السماء أن أمطرت ولم يغادر أحد من جماعة موسى، فقال يا ربي لقد أمطرتنا ولم يغادرنا هذا العاصي؟ فقال الله عز وجل: لقد تاب بيني وبينه، فقال: من هو يا ربي؟ قال: عجبت لك يا موسى أأستره وهو عاص وأفضحه وهو تائب؟ مستحيل.

فلعل الله عز وجل يستجيب الدعاء، و ربنا أحياناً يحبس السماء حتى يشعر الإنسان بقيمة الماء، أي لا يوجد نبات، ولا مزروعات، ولا لحم، ولا كهرباء، كل شيء متوقف على ماء السماء، فسبحان الله الأرض دورانها ثابت، والشمس دورانها ثابت، و المذنَّب كل ست وسبعين سنة مرة، الحديد خواصه ثابتة، الماء خواصه ثابتة، و ربنا عز وجل ثبت أشياء كثيرة بل إنه ثبت معظم الأشياء فحركة الأفلاك ثابتة، وخواص المواد ثابتة، فلماذا حرك المطر ولم يجعله ثابتاً وكان بالإمكان أن يجعل انهمار المطر في كل بلد بكميات ثابتةٍ لا تزيد ولا تنقص؟ بالشام ألفا ميليمتر ولا تنقص، لكن الناس إذا جاءتهم الأمطار منتظمة استغنوا عن الله عز وجل، واستغنوا عن الاتصال به، وعن الالتجاء إليه، وعن التضرع إليه، فباستغنائهم يشقون، والله عز وجل قال:

﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾

[سورة النساء: 28]

ما وجدت مثلاً أقرب لهذه الآية من الفيوز في الجهاز الكهربائي، إنه كبير النفع، وهذا الفيوز ثمنه عشرة قروش، ولكنه يوفر عليك حرقاً لجهاز بكامله، هذا الجهاز ثمين، يوجد أجهزة كومبيوتر ثمنها ثلاثون مليوناً، ومعها

فيوزات، وتعريف الفيوز نقطة ضعف في مسير التيار الكهربائي، فلو ارتفع التيار لساح هذا الفيوز وانقطع التيار وحفظت الآلة من التلف، فلما ربنا عز وجل خلق في حياة الإنسان نقطة ضعف وهي المطر، خلق الإنسان ضعيفاً، وهذا الضعف الذي خلقه الله عز وجل لمصلحة الإنسان، والله عز وجل يحب أن يسمع تضرع العباد هذا على المستوى الجماعي، وعلى المستوى الفردي الله عز وجل يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان، فلما الإنسان يكون له حاجة عند الله عز وجل ويستيقظ من الثلث الأخير من الليل ويسجد لله عز وجل ويذكر الحديث القدسي:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ]

فليس لنا إلا باب الله عز وجل.

ومالي سوى فقري إليك وسيلةٌ فبالافتقار إليك فقري أدفــع
ومالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي باب أقــرع؟
ومن ذا الذي أدعو وأهفو باسمه إذا كان فضلك عن فقيرك يمنـع؟

***

الله عز وجل جعل المخاوف لنلجأ إليه :

ليس لنا إلا باب الله عز وجل، والإنسان يعود نفسه إذا كان له عند الله عز وجل حاجة، أو قضية مستعصية، أو مرض ليس له دواء، أو زوجة مشاكسة، أو رزق قليل، أو شريك متعب والإنسان يخافه، والحياة كلها مخاوف، والله عز وجل جعل كل هذه المخاوف كي نلجأ إليه، وكيف أن الجرو في الطريق يدفع الابن إلى أمه، وإلى التعلق بأمه، والالتجاء إليها، والاحتماء بها، والاتصال بها، وكذلك هذه المصائب وهذه المخاوف كلها دوافع إلى الله عز وجل، ولو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، وليس في الإمكان أبدع مما كان، ولو عرفتم حكمة الله عز وجل ما طلبتم تبديل الواقع، وهذا موضوع الاستسقاء، ونحن كل دعاء في خطب الجمعة، وفي درس الأحد في العفيف صباحاً نقول: "يا ربي اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين" و الحديث الوحيد للناس موضوع المطر، هذا شهر كانون والآن الخامس عشر من كانون الأول ولا يوجد مطر إطلاقاً، والأشجار عارية، والأنهار فارغة، والينابيع

جفت، والآبار أيضاً جفت، ولا ننتظر إلا رحمة الله عز وجل.

* * *

آداب الطعام والشراب :

والآن إلى متابعة موضوع من إحياء علوم الدين، وهو آداب الطعام والشراب، فأخوان كثيرون تأثروا في الدرس الماضي من هذا الموضوع الذي عالجه الإمام الغزالي، لأن الطعام والشراب سلوك يومي، و من منا لا يأكل في اليوم ثلاث مرات؟ و من منا لا يُدعى؟ ومن منا لا يدعو؟ و الطعام والشراب والدعوة وقبول الدعوة لها آداب دقيقة رائعة في الإسلام.

آداب تقديم الطعام :

1 . عدم التكلف :

تحدثنا عن آداب تقديم الطعام، فالأدب الأول عدم التكلف، وقلنا: إن التكلف سبب للقطيعة، وكيف أن أناساً دامت لقاءاتهم سبعة عشر عاماً لعدم التكلف، وعدم الغيبة، وعدم وجود النساء في مجالسهم.

2 . للزائر ألا يقترح فربما يشق على المزور إحضاره :

والأدب الثاني وهو للزائر قال: ألا يقترح فإذا طلب الضيف منديلاً ورقياً فما أدراك أنه اليوم انتهت المناديل فلا يوجد عنده أحد يرسله، وابنه صغير وزوجته في البيت، يترك البيت ويذهب إلى مكان بعيد وليست المناديل الورقية متوفرة الآن، وأحياناً فالضيف إذا طلب شيئاً بسيطاً جداً يجعل في البيت ارتباكاً شديداً جداً، ويكون اليوم انتهت القهوة ولا يوجد بن في السوق، والازدحام شديد، هناك طابور كبير في السوق على بائعي البن، فالإنسان إذا كان في بيت لا يقترح أبداً، لا يقترح منديلاً، ولا فنجاناً من القهوة، ويجب أن يكون أديباً. للزائر ألا يقترح فربما يشق على المزور إحضاره، شيء صعب إما الصعوبة لعدم وجود المال، وإما الصعوبة لعدم وجود من يأتي به من السوق، أو لعدم وجود البضاعة في السوق، وقد ضربت مثالاً بسيطاً طلب فنجان قهوة، ولا يوجد عنده قهوة، اسكت فقد يحضر لك كأس مليسة، قل له: أطيب شيء المليسة، أو كأس نعناع،

فالمؤمن أديب جداً لا يقترح شيئاً، قال: فإن خيره أخوه بين طعامين فليختر أيسرهما، يوجد عندنا الطبخة الفلانية أم تحب أن نحضر فروجاً من السوق؟ لا الطبخة، لا يناسب أن تقول: أحضر فروجاً، إذا أعطاك خياراً بين اثنين فاختر الأيسر الموجود في البيت، ولا تسمح له أن يخرج من البيت.

من خيره مضيفه بين شيئين فليختر أيسرهما :

وإذا خيرك المضيف بين شيئين فعليك أن تختار أيسرهما عليه، كذلك السنة هكذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام، ففي الخبر أنه: "ما خير النبي عليه الصلاة والسلام بين شيئين إلا اختار أيسرهما"، لقمته خفيفة وظله خفيف، و يوجد من إذا ما قمت بواجبه بالكامل تراه انزعج وكشر ويقول: ما عرفوا قيمتي، ولا عرفوا قدري، وأحد العارفين بالله يقرأ قرآناً إلى جوار سيدنا يحيى في الأموي، مرّ شخص فظنه من الفقراء فأعطاه فرنكاً فهل هذه إهانة؟ هو ليس متسولاً فيقولون: أخذه ووضعه في جيبه، وسيدنا عمر يمشي في المسجد ليلاً ويظهر أنه ما انتبه فداس على قدم أحدهم، فالوجوه ما تعارفت ولم تكن هذه الإضاءة، فهذا الشخص تألم وما عرف من الذي داس على قدمه فقال له: أأعمى أنت؟ قال له: لا، ثم قال:سألني فأجبته، فعظمة الإنسان بعدم التكلف، بالتواضع، وعظماء البشر الذين قادوا الأمم، والذين غيروا مجرى التاريخ كانوا في الحياة متواضعين، يروون عن قائد كبير في أوربا في الحرب العالمية الثانية، عندما احتل إمبراطور أوربا أوربا كلها، هناك جندي يقف للحراسة ويبدو أنه أخذته سنة من النوم، وهذا أخذ عنه البندقية وتوقف، و عندما استيقظ وجد الإمبراطور، والآن الرقيب أو العريف يقيم قيامته، والإنسان كلما كان عظيماً يبقى متواضعاً، دخل على سيدنا النبي ﷺ رجل فأخذته رعدة من صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه من رآه بديهةً هابه، فله هيبة، وأولياء الله عز وجل يلبسهم الله ثوب الهيبة، فالنبي على بساطته، وتواضعه، وحلمه، وحبه للفقراء والمساكين له هيبة كبيرة، و الله عز وجل يلبس ثوب الهيبة لشخص عادي وينزعها من شخص كبير، و يقول لك: دخلت إليه وما تأثرت، قلت له: ورددت بوجهه؟ وإنسان قد يكون عادياً جداً فالله عز وجل يلبسه ثوب الهيبة، ولكن يوجد عندنا قاعدة من هاب الله هابه كل شيء، ومن لم يهب الله أهابه الله من كل شيء، وإذا الإنسان قلبه أفرغ من كل حركة، ومن كل سكنة، ومن كل إنسان، ومن كل نظرة، فمعنى هذا اتكاله على الله ضعيف، والتجاؤه قليل، وشعوره بالحماية الإلهية قليل، قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾

[سورة الحج: 38]

ألا يقترح الضيف، قد يتصور الضيف أن القهوة لا صعوبة فيها و قد لا توجد، مهما حاولت أن تطلب شيئاً ليس من السنة أن تقترح على مضيفك شيئاً، وإذا خيرت بين شيئين فعليك أن تختار أيسَرهما.

قصة: روى الأعمش عن أبي وائل أنه قال: مضيت مع صاحب لي نزور سلمان فقدم إلينا خبزاً وشعيراً وملحاً جرشا، فقال صاحبي لو كان في هذا الملح سعتر - أي زعتر - كان أطيب، فخرج سلمان ورهن حاجة من حاجاته وأخذ سعتراً مكانه، فلما أكلنا قال صاحبي: الحمد لله الذي قنعنا بما رزقنا، فقال سلمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن حاجتي مرهونة.

و عندنا استثناء قال: هذا إذا توهم تعذر ذلك على أخيه أو كراهته له، فإذا علم أنه يسر باقتراحه، أي تأكل في الغرفة أو في الشرفة، لا في الشرفة هذه ليس فيها كلفة، نقل الطعام من مكان إلى مكان، تأكل على الأرض أم على الطاولة؟ على الأرض أيسر إذا أنت اقترحت شيئاً لا يكلف، لا يكون فيه عبء فلا يوجد مانع.

3 . أن يُشهَّى المزور :

الأدب الثالث: أن يُشهَّى المزور، أي أن يعرض على الزائر بعض ألوان الطعام، شخص أحياناً لا يتمكن أن يأكل لحماً نيئاً في الكبة النيئة، فأنت تصنع له صحناً وتتكلف بهذا الصحن وتضع فيه لحماً، وجوزاً، وزيتاً بلدياً، وتعتني بهذا الصحن ثم يقول لك: أنا لا آكل، اسأله ماذا تحب أن تأكل؟ إذا أنت عندك مجال الخيار. فمن آداب المضيف أن يشهي الضيف ويلتمس منه الاقتراح، إذا كان النبي الكريم نهى الضيف عن أن يقترح فقد أمر المضيف أن يطلب من ضيفه الاقتراح، قال عليه الصلاة والسلام:

((من صادف من أخيه شهوة غفر له))

[البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء]

فإذا كان لك أخ يحب طعاماً معيناً وعملت لها هذه لك عند الله ثواب، أحياناًً يكون طالب جامعي أخ لك في الله، مقيم في الشام، وليس له أهل في الشام، أكل كل يوم فولاً وحمصاً فنشفت معدته، أنت طبخت يقطيناً ادعه إلى الغذاء، هذه أكلة نادرة ويشتهيها، ويوجد طعام من الصعب أن يطبخه العازب أو غير المتزوج فلا يوجد مانع وهذا من السنة.

((من صادف من أخيه شهوة غفر له، ومن سر أخاه المؤمن فقد سره الله تعالى))

[البزار والطبراني من حديث أبي الدرداء]

إذا أنت أدخلت السرور على قلب أخيك المؤمن ولو بطعام يحبه قال عليه الصلاة والسلام:

((من لذذ أخاه بما يشتهي كتب له ألف ألف حسنة))

[ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من رواية محمد بن نعيم عن ابن الزبير عن جابر]

إذا أطعمه من طعام يحبه، أمر الضيف ألا يقترح أبداً، وأمر المضيف أن يقترح، أي يحمل الضيف على الاقتراح، فالأصل أن تنشأ علاقات متينة جداً بين المؤمنين، فالمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

4 . ألا يقول له هل أقدم لك طعاماً ؟

الأدب الرابع: ألا يقول له هل أقدم لك طعاماً؟ لا، لا يوجد حاجة لهذا السؤال خلاف السنة، نام عندك نتعشى أم ننام؟ إذا أنت تريد أن تنام خفيفاً نم وحدك، فالرجل يريد أن يتعشى، ذهبتم نزهة على حسابك ما قولك بدل أن نتغدى نتعشى مرة واحدة؟ هو لا يتحمل أن تقدم اقتراحاً أو تخيره بين شيئين، فالعوام قالوا: الشيء الجيد لا يحتاج إلى سؤال، ألا يقول له هل أقدم لك طعاماً؟ وكان أحد البخلاء يقول للضيف: هل أكلت؟ إذا قال له: لا، يقول: لو أنك قد أكلت لقدمت لك شراباً لذيذاً لكنك لم تأكل، وإن قال له: أكلت، فيقول له: لو أنك لم تأكل لقدمت إليك طعاماً لذيذاً، فعلى الحالتين لا يوجد شيء كيفما قلت لا أطعمك.

ورجل من خراسان زار صديقاً له في بغداد، أكرمه البغدادي إكراماً شديداً وطوال الإقامة في بغداد كان يقول: لو تزورني في خراسان فأكافئك على إكرامك، وهذا البغدادي بعد اثني عشر عاماً ظهرت له حاجة في خراسان ومعه عنوانه وبيته فلما وصل إليه قال: أنا فلان، قال له: والله ما عرفتك نزع القلنسوة، قال له: والله ما عرفتك، نزع العمامة، قال له: والله ما عرفتك، نزع العباءة قال له: والله ما عرفتك، ثم قال له: والله لو خرجت من جلدك ما عرفتك، هذه تقع، يكون هناك أخ في مدينة يكرمك ويأتي إلى عندك إلى الشام فلا يوجد ترحيب منك، وهناك أشخاص ما عندهم لذلك قيمة وهذه منتهى الوقاحة واللؤم، و الإنسان عندما يزوره في بيته يكون جافاً في المعاملة.

هنا ﷺ قال: "ألا أقول له أقدم لك طعاماً بل ينبغي أن يقدم من الموجود"، قال الثوري: إذا زارك أخوك فلا تقل له أتأكل أو أقدم إليك فإن أكل أكل، وإلا فارفع الطعام ولاسيما الذي ينام في بيت مضيف، فعليك أن تضع الطعام وهو حر أحب أن ينام خفيفاً أو أن يأكل، فيجب أن يوضع الطعام أمامه، إذا أحب أن ينام خفيفاً ينام، وليس من المعقول أن يقول لك: ضع لي طعاماً، وإنسان في الليل يستيقظ ليأكل تفاحة أما إذا كان ضيفاً فيستحي، فيجب أن ينام متعشياً وهذا شيء لابد منه.

وإن كان لا يريد أن يطعمهم طعاماً فلا ينبغي أن يظهرهم عليه أو أن يصفه لهم، قال الثوري: "إذا أردت ألا تطعم عيالك مما تأكله فلا تحدثهم به، ولا يرونه معك"، وقال بعض الصوفية:" إذا دخل عليكم الفقراء فقدموا إليهم طعاماً وإذا دخل الفقهاء فسلوهم عن مسألةٍ".

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ نَاسٌ قِبَلَ الصَّوْتِ فَتَلَقَّاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاجِعًا وَقَدْ سَبَقَهُمْ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ فِي عُنُقِهِ السَّيْفُ وَهُوَ يَقُولُ لَمْ تُرَاعُوا لَمْ تُرَاعُوا قَالَ وَجَدْنَاهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ قَالَ وَكَانَ فَرَسًا يُبَطَّأُ))

[البخاري عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

على الإنسان أن يتفوق في الخلق لأنها الصفة التي يتميز بها عن الحيوان :

فالإنسان فيه مجموعة صفات خلقية لابد أن يتفوق بهذه الصفات، لأن الحيوان يتفوق عليه في كل شيء، إن كان في الوزن فالفيل ستة طن، وإن كان في القوة العضلية فالبغل أقوى، وإن كان في التحليق فالنسر، وإن كان في حدة البصر فالنسر أيضاً، وإن كان في رهافة السمع فالقطط والكلاب، وقوة الشم الكلاب أي لا يوجد صفة يتميز بها الإنسان على الحيوان إلا صفة واحدة وهي الخلق، ولذلك قال تعالى:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

[سورة القلم: 4]

فالنبي ﷺ كان قمة الأخلاق، فكان أَحْسَنَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَشْجَعَ النَّاسِ، وإن هذه الأوصاف الثلاثة هي من أمهات الكمالات، لا يمكن أن يكون المؤمن جباناً، ولا يمكن أن يكون بخيلاً، لأن الإيمان يتناقض مع البخل والجبن والنبي عليه الصلاة والسلام:

((... قَالَ قُلْ إِذَا أَصْبَحْتَ وَإِذَا أَمْسَيْتَ اللَّهُمَّ: إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ قَالَ فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمِّي وَقَضَى عَنِّي دَيْنِي))

[أبي داود عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

شمائل النبي صلى الله عليه و سلم :

1 . النبي ﷺ كان أحسن الناس صورةً ومعنىً وجمالاً وكمالاً :

كان ﷺ أحسن الناس صورةً ومعنىً، جمالاً وكمالاً، وأحياناً ترى شخص ملء العين لكنه بذيء الكلام، جاهل، مشرك، متكبر، متغطرس، وهذه الصفات الخلقية الذميمة تشوه جماله المادي.

وأحياناً ترى إنساناً أخلاقه عالية ولكن شكله دون الوسط، فالأحنف بن قيس كان قصير القامة، أسمر اللون، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، ضيق المنكبين، أحنف الرجل، لم يكن شيء من قبح المنظر إلا وهو آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه إذا غضب غضب لغضبته مئة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب؟ وكان لو علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه، كان قمة في الذكاء، والسيادة، والزعامة، والمروءة، والنجدة، والكرم، والرجل لا يقدح في مكانته شكله، لكن نبينا ﷺ:

وأجمل منك لم تر قط عيني وأحسن منك لم تلد النساء

خلقت مبرأً من كل عيـب كأنك قد خلقت كما تشـاء

***

أي جمع الحسنيين، جمع جمال الصورة مع جمال الخلق، وكان إذا نظر في المرآة يقول: "اللهم كما حسنت خَلقي فحسن خُلقي"، أي إذا إنسان شاهد نفسه كاملاً مكملاً ما أجمل الدنيا والدين إذا اجتمعا، قال:

جمال الجسم مع قبح النفوس كقنديل على قبر مجوسي

***

فإذا وهب الله الإنسان شكلاً حسناً يكمله بالأخلاق الحسنة، وإذا لم يهب الله الإنسان شكلاً حسناً فيكمله بالأخلاق الحسنة يتكاملن معاً، و هذا النقص يزيده خلقاً حسناً، فيعوضه، فالأول يكمله والثاني يعوضه.

2 . أشجع الناس قلباً وأنفعهم :

وهو أشجع الناس قلباً، وهو أجود الناس، وأنفعهم، للناس مصدر خير، جئت الحياة فأعطيت ولم تأخذ، وهذا الجود الذي اتصف به ﷺ إنما هو لله تعالى، وفي الله تعالى، وابتغاء مرضاة الله تعالى، ويوجد سؤال حيرني: الإنسان قد يكون له عمل طيب لكن تُرى هل يتقبله الله منه؟ الله عز وجل أغنى الأغنياء عن الشرك، والقضية مع الله ليس فيها لعب، ولا مزاح، لأنه علام الغيوب، يعلم السر وأخفى، ولا تغيب عنه غائبة، ولا مثقال ذرة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين، ولا تظلمون نقيراً، ولا تظلمون فتيلاً، فالعلاقة مع الإنسان أهون، و الإنسان له الظاهر، ولكن ربنا عز وجل كاشفك أي لا يوجد شيء يخفى عليه.

المقياس الصحيح للإخلاص أن يتجلى الله على قلب عبده :

قد يكون لك عمل طيب يا ترى هل الله يتقبل مني هذا العمل؟ هل بهذا العمل شائبة؟ هل لي بهذا العمل نية ليست لمرضاة الله عز وجل؟ هذا السؤال حيرني دائماً، قرأت كثيراً عن هذا السؤال، وفي بعض الكتب وجدت أن من علامة الإخلاص أن يستوي عملك في السر كعملك في الجهر، وهذا مقياس لا بأس به، ومن لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبأ بالله بشي من عمله.

وجدت مقياساً آخر وهو: الإنسان لو سمع مذمته فلا يبالي إن كانت له عند الله مكانة ثابتة، والمنافقون يحرصون على سمعتهم حرصاً بالغاً لكن المؤمنين حرصهم على سمعتهم معتدل، فرجل تهجم على صحابي هجوماً شديداً بقي هادئاً وقال له: إن كنت صادقاً فيما تقول غفر الله لي، وإن كنت غير صادق فيما تقول غفر الله لك، وانتهى الأمر، هذا مقياس ثانٍ.

ولكن أحد علماء القلوب قال: المقياس الصحيح للإخلاص أنك إذا عملت عملاً ابتغاء مرضاة الله تعالى ينبغي لك أن تقبض ثمنه فوراً، فما هو الثمن؟ تجلي الله على قلبك، فالمخلص سعيد بعمله، قبض الثمن الفوري، لذلك: أخلص دينك يكفك القليل من العمل. قال تعالى:

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾

[سورة الفرقان: 23]

أهل الدنيا قد يكون لهم أعمال كبيرة جداً ولكن ليسوا بهذه الأعمال مخلصين لله عز وجل فيجعلها الله هباءً منثوراً، أو يخلط الله أعمالهم.

3 . أكرم الناس :

والنبي ﷺ – والحديث عن كرمه– كان كرمه في سبيل الله، وكثير من الناس يصنعون الولائم ويقول لك: كسرنا عينه، فليست هذه هي الدعوة، وليس هذا هو الكرم الذي تحدث النبي عنه، هذا الكرم هدفه الاستعلاء على الناس، وعرض ما عندك من لذائذ الطعام، وعرض إمكانيات زوجتك، يقول: كله صنع البيت ويشعر بنشوة، وهذا كله عندي من أعلى مستوى، وطبعاً الإنسان عندما يكون هدفه الاستعلاء فالعمل غير مقبول عند الله عز وجل، ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم ما إذا كان تقديم هذا الطعام خالصاً لوجهه أم لا،، ولكن بشكل عام من أحب إكرام أخيه المؤمن فهذا العمل خالص لوجه الله، ومن أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم ربه.

((ما سئل النبي ﷺ شيئاً إلا أعطاه))

[مسلم عن أنس رضي الله عنه]

ولولا التشهد كانت لاءه نعم، وكلمة نعم دقيقة يوجد عندنا في اللغة بلى، نعم، قال تعالى:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 172]

ألست فيها نفي، فتستخدم بلى في اللغة لنفي النفي، ونفي النفي إثبات، أي إذا قال الله عز وجل: ألست بربكم؟ قالوا: بلى، ولو أنهم قالوا: نعم لكفروا، ولو قال غير الله، لو قال فرعون لأتباعه: ألست بربكم؟ لوجب أن يقولوا: نعم، لأنهم إذا قالوا: نعم أي لست ربنا، نعم إثبات النفي، وبلى نفي النفي، انظروا القرآن ما أدقه، إذا كانوا في الصلاة وقالوا: نعم الصلاة فاسدة أي نعم لست ربنا، وإذا كان بلى فهي إجابة عن سؤال ألست، إذا كان في السؤال ليس مع الاستفهام.

التجارة الرابحة هي التجارة مع الله عز وجل :

النبي عليه الصلاة والسلام ما سئل شيئاً إلا أعطاه، فجاءه رجل وهو صفوان بن أمية فأعطاه غنماً بين جبلين فرجع إلى قومه وقال: يا قومي أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، وفي رواية من لا يخشى الفقر. وأعطى يوم حنين أناساً من الطلقاء ليتألف قلوبهم على الإسلام، أعطاهم مئة من الإبل، وكان من جملة من أعطى مالك بن عوف فامتدحه بقصيدة، وقتها الأنصار تألموا لأنهم ما أخذوا شيئاً من الغنيمة، وبعض المؤلفة

قلوبهم نالوا عطايا كثيرة، فسيدنا سعد بن عبادة جاء النبي عليه الصلاة والسلام وقال له: يا رسول الله:

((... فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ شَيْءٌ قَالَ فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا قَالَ فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ قَالَ فَجَاءَ رِجَالٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ قَدِ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الأَنْصَارِ قَالَ فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمُ اللَّهُ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ قَالُوا بَلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ قَالَ أَلا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ قَالُوا وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ قَالَ أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ وَعَائِلاً فَأَغْنَيْنَاكَ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ أَفَلا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الأَنْصَارِ وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأَنْصَارِ اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ قَالَ فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ وَقَالُوا رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

((عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ حُنَيْنٍ وَإِنَّهُ لأَبْغَضُ الْخَلْقِ إِلَيَّ فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ))

[مسلم الترمذي عن سعيد بن المسيب عن صفوان بن أمية]

فالإنسان غالٍ على الله عز وجل، وهذا يعرفه النبي فقط، أعطاه وادياً من غنم فإذا أعطاه هذا الوادي كله وآمن فلا شيء، لأن إيمانه أغلى على الله من كل هذا الوادي، فمازال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي، يوجد شخص يهتدي بالمال تكرمه، وتساعده، ويأتي معك، وإذا عرفت قيمة الله عز وجل ترى مهما بذلت من مال فلا قيمة له نظير أن يهتدي هذا الإنسان، فإذا وعدك أن يصلي ويحضر معك دروساً نظير أن تشتري له بيتاً، فالبيت ليس كثيراً عليه، إذا كان في هذا البيت يستقيم ويتدين فالمكسب معك، و هذه أكبر تجارة، و لو أن

الإنسان أعطيته ما في الدنيا وآمن فهذا العطاء لا قيمة له نظير إيمانه.

وفي مغازي الواقدي أن صفوان طاف معه ﷺ يتصفح الغنائم يوم حنين إذ مرّ بشعب مملوء إبلاً وغنماً فأعجبه فجعل ينظر إليه، فقال عليه الصلاة والسلام: أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب، قال: نعم قال: هو لك بما فيه، قال صفوان: أشهد أنك رسول الله، ما طابت لهذا نفس أحد قط إلا نفس نبي.

ولا يوجد إنسان في الأرض يعطي هذا العطاء إلا نبي.

نية المؤمن خير من عمله :

وكان من جوده ﷺ أنه ما سأله سائل مما عنده إلا أعطاه حتى لا يبقي عنده شيء، ويوجد قصة مشهورة لما وزع الشاة، وزع أول قطعة فالثانية فالخامسة وما بقي شيء، والسيدة عائشة قلقت وقالت: يا رسول الله لم يبقَ إلا كتفها، فقال: بل بقيت كلها إلا كتفها.

انظر إلى هذا الجواب النبوي بل بقيت كلها إلا كتفها، سيدنا عمر مرة أمسك تفاحة شهية كاد يأكلها فقال: أكلتها ذهبت وأطعمتها بقيت، على مبدأ بل ذهبت كلها إلا كتفها.

((أن النبي عليه الصلاة السلام حمل إليه تسعون ألف درهم وضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فما ردّ سائلاً حتى فرغ منها))

[أبو الحسن بن الضحاك في الشمائل من حديث الحسن]

ومرة قال: ليت لي مثل أحد ذهباً حتى يحل مشاكل أصحابه، فكأنه وزعه ونية المؤمن خير من عمله.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِي اللَّهم عَنْهم إِنَّ نَاسًا مِنَ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِي اللَّهم عَنْهم]

فلا يمكن أن أمنع عنكم شيئاً، ولا يمكن أن أبقي عندي شيئاً وأنتم بحاجة إليه، فهذا كرم النبي صلى الله عليه، وكان عليه الصلاة والسلام كريم النفس، يكرم السائل بنفسه، وهذه من كمال الكرم أن تعطي السائل بنفسك، ولا يأنف أن يقوم إلى السائل فيعطيه الصدقة، بل كان لا يكل صدقته إلى غير نفسه حتى يكون هو الذي يضعها

في يد السائل.

وأحياناً الإنسان يقول للصانع: أعطه، لا، فالصدقة يجب أن تعطيها بيدك أنت وهذا هو الأدب مع الله. " وروى ابن سعد عن زياد مولى عياش عن أبي ربيعة قال: خصلتان كان لا يكلهما النبي عليه الصلاة السلام لأحد، الوضوء من الليل حتى يقوم، والسائل يقوم ﷺ حتى يعطيه بنفسه ".

استدانة النبي إن لم يكن معه ما يكفي لحاجة محتاج :

وكان من كرمه ﷺ إذا لم يكن عنده ما يكفي بحاجة المحتاج أمره أن يستقرض عليه، وهذه في منتهى الكرم، فإذا كان لك أخ التهف لك وقال لك: هل معك مئة ليرة؟ وأنت لا تملك وجارك بائع له ثقة فيك قلت له: خذ على اسمي من فلان، أو اكتب له ورقة، أو اذهب أنت وأحضر له مئة الليرة، وهذا منتهى الكرم فليس معك، عليك أن تستدين وليس هذا القرض بل يوجد أناس عندهم رغبة بالخير عجيبة يقترض ويعطي، وهذا بذل ماء وجهه أمامي لا أحيجه لإنسان ثانٍ:

((حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ الْهَوْزَنِيُّ قَالَ لَقِيتُ بِلالاً مُؤَذِّنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَلَبَ فَقُلْتُ ك يَا بِلالُ حَدِّثْنِي كَيْفَ كَانَتْ نَفَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَا كَانَ لَهُ شَيْءٌ كُنْتُ أَنَا الَّذِي أَلِي ذَلِكَ مِنْهُ مُنْذُ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ وَكَانَ إِذَا أَتَاهُ الإنْسَانُ مُسْلِمًا فَرَآهُ عَارِيًا يَأْمُرُنِي فَأَنْطَلِقُ فَأَسْتَقْرِضُ فَأَشْتَرِي لَهُ الْبُرْدَةَ فَأَكْسُوهُ وَأُطْعِمُهُ))

[أبي داود عن عَبْدُ اللَّهِ الْهَوْزَنِيُّ]

" وروى الترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي عليه الصلاة السلام فسأله أن يعطيه فقال النبي: ما عندي شيء ولكن ابتع فإذا جاءني شيء قضيته، فقال عمر: يا رسول الله قد أعطيته فما كلفك الله ما لا تقدر عليه، فكره النبي عليه الصلاة والسلام قول عمر، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام وعرف في وجهه البشر بقول الأنصاري وقال: بهذا أمرت "

في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدَ النَّاسِ وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ))

[مسلم عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

النبي صلى الله عليه و سلم أجود الناس :

ومن كرمه ﷺ أنه كان يبذل المال مرةً للفقير المحتاج/ ومرةً في حدود الله والجهاد، وتارةً يتألف بها فيعطي عطاءً تعجز الملوك عنه حتى لا يبقى عنده شيء، وكان عليه الصلاة والسلام أجود الناس كلهم حقاً كما وصفه ابن عباس بقوله: "كان النبي عليه الصلاة والسلام أجود الناس".

والحقيقة الجود يحتاج إلى إيمان، فإذا آمنت أن الله عز وجل يخلف عليك كل شيء أنفقته والعمل بعشرة أضعافه انتهى الأمر، أما إذا لا يوجد إيمان فالمال غالٍ على الإنسان، وقد تعب حتى حصّله.

قال: "يا عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ قال يا ربي لم أنفق منه شيئاً على أحد مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فقال: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم، وقال لآخر أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه؟ قال: يا ربي أنفقته على كل محتاج ومسكين لثقتي بأنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين فقال: يا عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك".

فآمن أن الله هو الرزاق.

من أنفق شيئاً أخلفه الله عليه بعشرة أمثاله :

وما أنفقتم من شيء فإن الله هو يخلفه، الحسنة بعشرة أمثالها، فشخص له ولد مرض مرضاً عضالاً يحتاج إلى عملية في بريطانيا تكلف حوالي ستين أو سبعين ألفاً، وهذه القصة بالسبعينات قديمة فلجأ إلى متجر في العصرونية قال له: على حسابي قم بالمعاملة، هذا الإنسان أقسم بالله أنه في نهاية العام أرباحه تضاعفت أربع مرات، و في السبعينات إذا كان ربحه خمسين ربح مئتين، ولكن لا أحد يعرف، ولا يمكن أن تنفق نفقة في سبيل الله إلا والله عز وجل يعوض لك عشرة أمثال، ولكن تحتاج إلى قوة إيمان، يقول لك: المال غال أنا أولى، ويقول:

العباد لهم الله، صحيح أن لهم الله ولكن الله أحب أن يمتحنك، وأحب أن يمتحنك أنت بالذات، و الله قال لهم ولكن عن طريقك: الأغنياء أوصيائي، الله قال لهم عن طريقك.

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة الذاريات: 19]

الأغنياء أوصيائي والفقراء عيالي فمن منع مالي عيالي أذقته عذابي ولا أبالي، فأقل عملية في دولة أجنبية تحتاج إلى ثمانمئة ألف ليرة، فإذا سلم الله عز وجل للإنسان صحته وكان في صحة طيبة وفي بحبوحة وأنفق من ماله فما الذي خسر؟ هو يقدم الضمان الحقيقي، أخي أنا عملت تأميناً كاملاً للسيارة، إذا صار حادث ضخم وانقطع العمود الفقري وصار شلل دائم وأعطوك ثلاثمئة ألف ليرة فهل أنت الرابح؟ لا يعادل ذلك مليون، ولا مئة مليون، ولا ألف مليون، فالتأمين أنكره العلماء لأنه لا أحد يملك الأمن إلا الله، فإذا اشتريت الأمن من غير الله فكأنما تشتري بضاعة ممن لا يملكها، فإذا إنسان أمن ضد أخطار الصحة مثلاً أو أمن على السيارة تأميناً كاملاً يمكن أن يعمل حادثاً فيفقد أحد أعضائه الأساسية، فالإنسان يجب أن يؤمن عند الله عز وجل، فقد يخطر في بالي كلمة قبل أن آتي إليكم لا يوجد قاعدة، وهناك إنسان في منتهى الذكاء تأتيه مصيبة كبيرة وهو بمنتهى الغفلة فيتعب طوال حياته، والقاعدة مشيئة الله عز وجل، وعليك أن تعلن الصلح مع الله عز وجل، فإذا رجع العبد إلى الله عز وجل نادى منادٍ في السماء والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 24 : سجود التلاوة 1

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

سجود التلاوة :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في أبحاث الفقه إلى سجود التلاوة وسببه التلاوة، من إضافته إلى سببه، التلاوة على التالي والسامع في الصحيح، يجب سجود السهو على التالي أي تالي القرآن إذا مرّ بسجدة أو السامع على الصحيح، وهو واجب على التراخي إن لم تكن في الصلاة، مادمت تقرأ القرآن خارج الصلاة واجب على التراخي، يوجد ظروف لا يناسب أن تسجد كأن تقرأ القرآن في سيارة عامة وأنت مسافر مرّ معك سجدة، فصعب عليك أثناء وجودك في السيارة العامة أن تسجد أمام الناس، وجوب هذه السجدة على التراخي في غير الصلاة، وكره تأخيرها تنزيهاً، تأخير السجود مكروه تنزيهاً لا تحريماً، والكراهة نوعان كراهة تنزيهية و كراهة تحريمية، ويجب على من تلا آية فيها سجدة أن يسجد للسهو، فلو تلوت آية السجدة وحدها عليك أن تسجد للسهو، وبعضهم قال: مع كلمة قبلها وكلمة بعدها أي كلمة السجدة، ولله يسجد، إن تلوت كلمة قبلها وكلمةً بعدها وجبت عليك سجدة التلاوة، وآياتها أربع عشرة آية في الأعراف، و الرعد، والنحل، والإسراء، ومريم، والحج، والفرقان، والنمل، والسجدة، وصاد، وحم السجدة، والنجم، وإذا السماء انشقت، والعلق، هذه هي السور التي فيها مواضع لسجود التلاوة، ويجب السجود على من سمع وإن لم يقصد السمع، أخوك في البيت يقرأ القرآن وأنت تعمل عملاً يجب على من استمع آية السجدة وإن لم يقصد سماع القرآن الكريم إلا الحائض والنفساء فليس عليها سجود التلاوة.

ولهذا السجود أحكام نأخذها في درس قادم لأنها طويلة وكثيرة، ونفسح المجال للفصل المختار من إحياء علوم الدين الذي يتعلق بآداب الطعام والشراب، وبعدها تأتي آداب أخرى مذكورة في هذا الكتاب.

* * *

آداب الضيافة :

أنهينا في الدرس الماضي آداب تقديم الطعام وها نحن أولاء اليوم ننتقل إلى آداب الضيافة، وآداب الضيافة ستة آداب، الدعوة أولاً، والإجابة ثانياً، والحضور ثالثاً، يوجد فرق بين الإجابة والحضور فالإجابة قبول الدعوة، أما الحضور فتنفيذها، ثم تقديم الطعام، ثم الأكل ثم الانصراف، قال ﷺ:

((لا تكلفوا للضيف فتبغضوه، ومن أبغض الضيف فقد أبغض الله سبحانه وتعالى ومن أبغض الله أبغضه الله))

[أخرجه أبو بكر ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث سلمان]

إذا تكلفت للضيف يصبح وجود هذا الضيف عليك ثقيلاً، إن كرهت الضيف كما جاء في الحديث الشريف أبغضت الله عز وجل، ومن أبغض الله أبغضه الله، وقال ﷺ:

((لا خير فيمن لا يضيف))

[أحمد عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ]

الكرم والشجاعة من صفات المؤمن الثابتة :

من صفات المؤمن الثابتة الكرم والشجاعة، وأظن أن البخل والجبن لا يجتمعان بمؤمن، والنبي عليه الصلاة والسلام تعوذ بالله من البخل والجبن، والهم والحزن، وغلبة الدين وقهر الرجال.

وكان إبراهيم الخليل صلوات الله عليه إذا أراد أن يأكل خرج ميلاً أو ميلين يلتمس من يتغذى معه، وكان يسمى أبا الضيفان، ولو دققت في الأمر ترى أن الإنسان الكريم سبحانه وتعالى يغدق عليه من خيراته، فإذا أكرمت الضيف على حساب الله سبحانه وتعالى لا على حسابك أحياناً تكون أنت مندوب شركة ويأتي مدير الشركة أحياناً وتدعوه إلى طعام نفيس، وتطلب وتعرف الدفع كله على حساب الشركة وأنت مندوبها، فتكرم كرماً منقطع النظير، والحقيقة هذا مثل ينطبق على المؤمن لأن عنده يقيناً أن هذا المال الذي ينفقه على الضيف هو مال الله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى متكفل أن يعوضه عليه فكأنما يضيف أخوانه المؤمنين على حساب الله سبحانه وتعالى.

قصة قلتها لكم كثيراً، يوجد بيت عربي قديم فيه ليمونة تحمل خمسمئة ليمونة في الموسم، أهل الحي كلهم تعودوا على هذه الليمونة عندهم صحن سلطة نقصهم ليمون يقرعون الباب لو سمحتم ليمونة، يعطونهم من عشرين إلى ثلاثين سنة وهذه الليمونة تحمل ما يحتاجه أهل الحي كلهم، هذه المرأة الكبيرة توفيت وعندها كنة شابة حمقاء

بخيلة فلما طرق الباب من أجل ليمونة نهرتهم وطردتهم فما كان من هذه الليمونة إلا أن يبست في العام التالي.

من أكرم الناس فعلى حساب الله عز وجل :

يجب أن تعتقد أنك إذا أكرمت الناس فعلى حساب الله، أنفق بلالاً ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً، عبدي أَنفق أُنفق عليك، سيدنا عبد الرحمن بن عوف قال له بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: نخشى أن يؤخرك كثرة مالك عن اللحاق برسول الله، فقال رضي الله عنه: والله لأدخلن الجنة خبباً – أي هرولةً – وماذا أفعل إذا كنت أنفق مئة في الصباح فيأتيني الله ألفاً في المساء، والله ما حرمت مالي محتاجاً ولا مسكيناً، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة: 103]

وهناك أخ له محل في بعض أسواق دمشق، و في أحد الأيام قالت له أخته: أريد ألفي ليرة منك، وأخته غير متزوجة ساكنة عنده، وطعامها وشرابها وكسوتها وكل حاجاتها عليه، ما قنع صار معه صراع أيعطيها أم يقول لها لا أملك هذا المبلغ؟ تغلب حبه للخير ولم يرد أن يردها فأعطاها الألفين، قال لي: منذ سنة ذهبت إلى السوق الساعة العاشرة فجاءه رجل من قطر عربي يود أن يشتري حاجة ليست عنده قال له: دلني على معملها فأخذه بيده إلى معملها، وهذا الرجل التاجر اشترى كمية كبيرة بسبعين ألف ليرة تقريباً ظهراً فجاء صاحب المعمل في طريق ذهابه إلى الغداء وأعطاه ألفي ليرة مكافأةً له على أنه دلّ الزبون لعنده، قال لي: في اليوم نفسه دفعتها صباحاً فأخذتها الظهر، طبعاً مثل هذه القصة يوجد آلاف القصص، لكن ربنا أحياناً يعلمك أن تكون كريماً، طبعاً الله كريم، ولكن إذا أنفقت يمكن أن يعطيك التعويض سريعاً، فالرجل ضعيف الإيمان يأتيه التعويض سريعاً حتى يوقن أن هذه النفقة قد عوضها الله له أضعافاً كثيرة.

تعريف الإيمان :

وسئل عليه الصلاة والسلام ما الإيمان؟ قال: إطعام الطعام، وقال ﷺ في الكفارات: إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام، وسئل عن الحج المبرور قال:

((حَجٌّ مَبْرُورٌ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إلا الْجَنَّةَ قَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا الْحَجُّ الْمَبْرُورُ قَالَ إِطْعَامُ الطَّعَامِ وَإِفْشَاءُ السلامِ))

[أحمد عَنْ جَابِرٍ]

وقال أنس رضي الله عنه: كل بيت لا يدخله ضيف لا تدخله الملائكة، وهذه الأحاديث والآثار كلها في الحث على بذل الطعام للضيف.

آداب الدعوة :

1 . ينبغي للداعي أن يعمد بدعوته إلى الأتقياء دون الفساق :

أما الدعوة فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته إلى الأتقياء دون الفساق وهذا أول أدب، و أكثر الولائم يدعى إليها وجهاء المجتمع بيت فلان، بيت فلان الأغنياء المترفون الذين لا يصلون، وهذه الولائم لا يراد بها وجه الله تعالى، و ليست داخلةً في هذا الموضوع إطلاقاً، بل إن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ يُدْعَى لَهَا الأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ وَمَنْ تَرَكَ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه]

وبلغني أن بعض الأمراء أحياناً يقيمون بعض الولائم، الوليمة لأمير ثانٍ يقدم له مثلاً جمل صغير هذا غالي الثمن وله مذاق طيب لا يجرؤ أحد أن يأكل بعد الأمير لقمة، قال: لأن هذا إهانة للأمير، بل يأخذ هذا الطعام النفيس الذي يكفي ألف إنسان ويلقى في القمامة، وهكذا العرف عندهم، أي عرف هذا؟ أن يصنع طعام يكفي ألف إنسان ليأكله إنسان واحد وعلى الضفة الأخرى من البحر أناس يموتون جوعاً، أي عرف هذا؟ وأي تقليد؟ وأي سنة؟ هذه الولائم التي تقام من أجل المباهاة ما أنزل الله بها من سلطان، وليست داخلةً في كل هذا الكلام.
يجب أن يعمد الداعي إلى الأتقياء دون الفساق، قال ﷺ لرجل ضاف عنده:

((عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَجَاءَ بِخُبْزٍ وَزَيْتٍ فَأَكَلَ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلائِكَةُ))

[أحمد عَنْ أَنَسٍ]

وسام كبير أن يأكل طعامك الأبرار، أما إذا أكل طعامك الفساق الفجار الكفار المعرضون فهذا وصمة عار في حقك، وفي دعائه ﷺ: "لا تأكل إلا طعام تَقيٍ ولا يأكل طعامك إلا تَقيٌ"، وشر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء دون الفقراء.

2 . عدم إهمال الأقارب في الضيافة :

وهنا يوجد أدب من الآداب يجب ألا يهمل أقاربه في ضيافته، فإنسان دعا أصدقاءه وله صهر، وهذا الصهر قد يعتب عليه، فالأقربون أولى بالدعوة، وهناك أناس يلوذون بك هؤلاء يجب أن تدعوهم، ولذلك ينبغي ألا يهمل أقاربه في ضيافته، فإن إهمالهم قطع رحم، وكذلك يراعى الترتيب في أصدقائه ومعارفه الأكبر فالأكبر، الأقدم فالأقدم، ولابد من قاعدة لكي لا يعتب عليك الباقون، ومن دون قاعدة مشكلة، دعوت أخواتك البنات جميعاً، دعوت أخوانك بحسب قاعدة معينة، أخوانك في الحرفة، جيرانك في الحي، أولاد العم جميعاً، الأخوة لابد من قاعدة تراعي فيها هؤلاء.

3 . ألا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب أخوانه :

ينبغي ألا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر بل استمالة قلوب أخوانه، والتسنن بسنة رسول الله ﷺ في إطعام الطعام، وإدخال السرور على قلوب المؤمنين.

4 . ألا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة :

ويجب ألا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة، إذ يوجد ظروف قاهرة، فإنسان يجوز أن يكون محله بعيداً جداً، فإذا دعوته و أراد تلبية الدعوة يتكلف أن يأخذ سيارة خاصة بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً فقد لا يملك هذا المبلغ، وإذا إنسان في دعوته مشقة كبيرة ينبغي ألا تدعوه.

5 . عدم دعوة من يتأذى الحاضرون من كلامه :

وإذا حضر أو أن لك ابن عم أو أخ ملحد ودعوت أخوانك المؤمنين فإذا دعوته – له عندي عزيمة ادعه بالجملة– تؤذي الحاضرين، فهذا إنسان منكر، وإذا قال أحدهم كلمة بالدين يرد عليهم، وإن سكت يكهرب الجو كله، وإن كان أخاك، و إذا إنسان دعوته إلى وليمة يتأذى الحاضرون من كلامه، ومن تعليقاته أحياناً، ومن عدم مبالاته، من قواعد الدين أن تدعو الإخوان المؤمنين، دعوت أخاك النسبي فيجب ألا يدعى هذا معهم.

6 . ينبغي ألا تدعو إلا من تحب إجابته :

قال سفيان: "من دعا أحداً إلى طعام..."، فالآن يوجد أدب أخير وينبغي ألا يدعو إلا من يحب إجابته، أحياناً إنسان يدعو شخصاً ويقول: إن شاء الله لا يأتي، إما أن تدعوه أو لا تدعه، أن تدعوه وأنت تتمنى ألا يحضر فهذا مخالف للسنة، قال سفيان: "من دعا أحداً إلى طعام وهو يكره منه الإجابة فعليه خطيئة، فإن أجاب المدعو فعليه خطيئتان"، إذاً لا يوجد نفاق، ولا مواقف معلنة ومواقف حقيقية، ولا يوجد مجاملات، ولا يوجد ازدواجية في المواقف، إما أن تحبه فتدعوه، وإن كنت لا تحبه لا تدعه، أما أن تدعوه وتتمنى ألا يحضر فإذا حضر خيب ظنك.

وإطعام التقي إعانةً له على الطاعة، وإطعام الفاسق تقويةً له على الفسق، قال رجل خياط لابن المبارك: أنا أخيط ثياب الأمراء فهل أخاف أن أكون من أعوانهم؟ قال: لا أنت منهم لا من أعوانهم، أما الذي يبيعك الخيط والإبرة فهو من أعوانهم.

فإذا دعوت الفاسق أعنته على فسقه وفجوره.

إجابة الطعام سنة مؤكدة :

أما إجابة الطعام فهي سنة مؤكدة، وقد قيل بوجوبها في بعض المواقع، فبعضهم يقول: الإجابة واجب كالفرض، وبعضهم يقول: إنها سنة، قال ﷺ:

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فليس لك عليه شيء، قدم لك ذراعاً فيه قليل من اللحم، فتقول: شكراً له وهذه من آداب النبي عليه الصلاة والسلام، أما أن تحتقر ما يقدم لك فهذا إثم كبير، وهذا كبر، وهذا استعلاء شيطاني.

وأحياناً رجل يقدم لك برتقالة صغيرة لا يوجد عنده غيرها، تقول له: شكراً، بارك الله فيك، ألم يستحِ أن يقدمها لك؟ لا لم يستحِ أحب أن يكرمك، فإن الحرمان أقل منه، برتقالة واحدة، لا يوجد عنده غيرها هذه كلها مصطلحات جاهلية.

آداب إجابة الدعوة إلى الطعام :

1 . ألا يميز الغني بالإجابة عن الفقير :

الآن آداب إجابة الدعوة إلى الطعام، الأول: ألا يميز الغني بالإجابة عن الفقير فذلك هو التكبر المنهي عنه، تدعى أحياناً إلى كتاب،مستوى راقٍ جداً، وتعرف أن القطعة غالية وسوف يقدمونها لك من فوق المئة ليرة، الطعام الذي سوف يقدمونه لك ثمين، تركض فوراً وتلغي جميع مواعيدك، أما دعيت إلى كتاب فقط فيه وملبس والله تعذرني عندي مواعيد، فهذا هو التكبر بعينه، فإذا كنت مؤمناً تلبي جميع الدعوات، أتختار الغني وتقول للفقير اعذرني مشغول لا يوجد عندي وقت!! أتمنى أن آتي ولكن عندي موعد مهم جداً، والله يعرف إذا كان عندك موعد مهم جداً أم لا، وقد تكون نيتك انسحاباً من الدعوة أو كبراً فهذا ليس من أخلاق المؤمن في شيء.

النبي ﷺ كان يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين :

وكان ﷺ يجيب دعوة العبد، ودعوة المسكين، فامرأة ضعيفة مسنة استوقفته في الطريق فوقف طويلاً يكلمها في حاجتها، قال عدي بن حاتم: والله ما هذا بأمر ملك، ما هذا التواضع؟ أنت مدير دائرة يوجد عندك مستخدم، قال لك: يا سيدي هل تشرفنا إلى البيت؟ تقول له: نعم، تجبر خاطره، ويمكن أن تهديه إلى الله، ومن أنت؟ قد يكون هذا عند الله أفضل منك، لا تعرف قد يكون له عمل طاهر مستقيم، أنت مدير عام وهو مستخدم، قال تعالى:

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾

[سورة الواقعة: 1-3]

ويمكن في الآخرة أن تكون مستخدماً وهو مدير عام، لا تعرف، فعلى الإنسان ألا يتكبر، وكان ﷺ يجيب دعوة العبد ودعوة المسكين.

ومرّ الحسن بن علي بقوم من المساكين الذين يسألون الناس على قارعة الطريق وقد نشروا كسراً على الأرض – خبزاً يابساً – في الرمل وهم يأكلون، فمر عليهم الحسن وسلم عليهم فقالوا له: هلم إلى الغداء يا بن بنت رسول الله؟ قال: نعم إن الله لا يحب المستكبرين فنزل وقعد معهم على الأرض وأكل، ثم سلم عليهم وركب فقال: قد أجبتكم فأجيبوني، قالوا: نعم ودعاهم فوعدهم بوقت معلوم فحضروا وقدم لهم فاخر الطعام.
أحد العلماء الكبار في الشام قبل أربعين سنة كان يدعو الأمراء كبراء البلد الوجهاء، من لهم الحول والطول،

ويضع لهم كشكة، وأولاده يخجلون ما هذا الطعام؟ يقول لهم: هذا الطعام يحبونه لا يأكلونه أبداً، والفقراء يدعوهم ويضع لهم لحماً، إذا دعا الكبراء يضع لهم طعاماً متواضعاً جداً حتى يذوقوا طعام الفقراء، إذاً دعا الأغنياء ليؤدبهم ويعلمهم أن هذا طعام الفقراء.

والله ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن من بات شبعان وجاره إلى جانبه جائع وهو يعلم، فكان هذا العالم إذا دعا الكبراء والأمراء من أجل أن يؤدبهم وأن يذيقهم طعام الفقراء، وإذا دعا الفقراء أذاقهم أطيب الطعام وكان يقول: هؤلاء يحبون هذا الطعام لأنهم لا يأكلونه، وهؤلاء يحبون هذا الطعام لأنهم لا يأكلونه، فإذا دعوت شخصاً إلى طعام يأكله كثيراً ما فعلت شيئاً.

من دعاه إنسان فاجر فاسق فلا يجبه :

أما قول القائل إنما وضعت يدي في قصعته فقد ذلت له رقبتي، هذا القول محمول على أن إنساناً متكبراً دعاك، فإذا دعاك إنسان متكبر فاسق فاجر تعلل ولا تجبه، لأنك إذا وضعت يدك في قصعته ذلت له رقبتك وأنت عزيز النفس، أنت للمؤمن ذليل أذل من شاتك أما للكافر فعزيز عليه، أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

والنبي عليه الصلاة والسلام كان يحضر طعام من دعاه إن كان هذا في علمه أنه يدخل على قلبه السرور.

من ظنّ أن الداعي يستثقل الإطعام وفعل ذلك مباهاةً فليس من السنة إجابته :

بالمناسبة إذا إنسان دعاك إلى الطعام ولم يفرح بهذه الدعوة فإياك أن تجيبه، وقبل قليل نهي عن أن إنساناً يدعو إنساناً ويتمنى ألا يحضر، أما إذا دعيت إلى طعام وتعلم أن الداعي قد دعاك متحرجاً أي أنت من مستوى فلان وفلان، وفلان دعاك لكي لا تعتب عليه وهو يتمنى ألا تحضر فإياك أن تحضر، ومن ظن أن الداعي يستثقل الإطعام وإنما يفعل ذلك مباهاة أو تكلفاً فليس من السنة إجابته، بل الأولى التعلل أي الاعتذار، وقد قال بعض الصوفية: لا تجب إلى دعوة من يرى أنك أكلت رزقك، وأنه سلم إليك وديعةً كانت عنده، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه، إذا إنسان يرى في إجابتك الدعوة فضلاً عليه، ويرى أن هذا الطعام وديعة مودعة أمانة عنده، ويرى أنك إذا أكلت من طعامه فقد أكلت رزقك، قال: هذا يجاب وما سوى ذلك لا يجاب، وقال بعضهم: آه على لقمة ليس على الله فيها تبعة ولا لمخلوق فيها منة، فأحياناً تأكل طعاماً حراماً فهناك تبعة

ومسؤولية، فإذا إنسان بيده أموال أيتام وأكل وذهب ليسافر حتى يتاجر لهم وأكل أفخر الطعام ما ترك شيئاً ما أكله ويقول: هذا مصروف على الشركة، فأي مصروف هذا؟ هكذا المصروف في هذا البذخ؟ فلو كان من مالك فهل تأكل هذا الطعام؟ هذا الطعام فيه تبعة ومسؤولية كبيرة، فقال هذا الرجل: آه على لقمة ليس على الله فيها تبعة ولا لمخلوق فيها منة.

فعلمت أنه عقوبة، الترفع عن طعام المحب، وأحياناً شخص يغيب ويحضر لك عشاء، ويكون قد كلف نفسه فتقول له: ما بنفسي، كل هذا التعب أفلا تأكل؟ فهذا سوء أدب، إذا إنسان محب قدم لك طعاماً وامتنعت فأنت آثم.

2 . لا ينبغي أن يمتنع المدعو عن الإجابة لبعد المسافة أو لفقر الداعي :

الآن يوجد أدب آخر قال: لا ينبغي أن يمتنع المدعو عن الإجابة لبعد المسافة، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه، أي ليس له جاه عظيم فهو من عامة الناس، بل كل مسافة يمكن احتمالها بالعادة لا ينبغي أن يمتنع المدعو عن الإجابة إليها، قيل في بعض الكتب: سر ميلاً وعد مريضاً، وسر ميلين وشيع جنازة، وسر ثلاثة أميال وأجب دعوة فقير، وسر أربعة أميال وزر أخاً في الله، والحديث الشريف:

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى كُرَاعٍ لأَجَبْتُ وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الغميم من أطراف المدينة مكان بعيد جداً، لو دعي إلى كراع بالغميم قال: لأجبت.

3 . ألا يمتنع عن تلبية الدعوة لكونه صائماً بل يحضر :

والآن الأدب الثالث ألا يمتنع عن تلبية الدعوة لكونه صائماً بل يحضر فإن كان يسر أخاه بإفطاره فليفطر، وهل يوجد أبلغ من ذلك؟ أنت صائم صيام نفل، ودعاك أخوك إلى الغداء والمكان بعيد، فعليك أن تلبي الدعوة، وأن تفطر في ذلك اليوم إكراماً له، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم، وأفضل الأجر الذي يكتب بإفطاره عند أخيه ليسره أعظم من الأجر الذي يكتب له بصيامه، وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن امتنع بعذر الصوم: تكلف لك أخوك وتقول: إني صائم؟ وقالها مغضباً.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: "من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار"، فالإفطار عبادة بهذه النية، صائم صيام النفل وهناك أخوان طيبون دعوك إلى طعام يسرون أن تأكل معهم، قال: الإفطار بهذه النية عبادة، وأن تقطع صومك فهذا عبادة وحسن خلق فثوابه فوق ثواب الصوم.

4 . أن يمتنع من الإجابة لو كان الطعام طعام شبهةٍ أو كان الداعي ظالماً :

الأدب الرابع: أن يمتنع من الإجابة لو كان الطعام طعام شبهةٍ، أو البساط المفروش من غير حلال، أو كان يقام في موضع منكر من فرش ديباج، أو إناء فضة، أو تصوير حيوان على سقف أو حائط، أو سماع شيء من المزامير والملاهي، أو التشاغل بنوع من اللهو، والعزف، والهزل، واللعب، واستماع الغيبة، والنميمة، والزور، والبهتان، والكذب، وشبه ذلك، أي كل دعوة فيها كذب، وبهتان، وزور، ونميمة، وغيبة، ولعب، وهزل، وعزف، وملاهٍ...

فتلبية الدعوة ليست مباحةً، و الأولى أن ترفض هذه الدعوة، وكذلك إذا كان الداعي ظالماً، أو مبتدعاً، أو فاسقاً، أو شريراً، أو متكلفاً طلباً للمباهاة والفخر، وهذا أيضاً من آداب إجابة الدعوة.

5 . ألا يقصد المجيب للدعوة بالإجابة قضاء شهوة البطن :

الأدب الخامس: ألا يقصد المجيب للدعوة بالإجابة قضاء شهوة البطن، فإذا رجل قال: إنه أخ محب وطعامه طيب فلأذهب وآكل عنده فهذه لا تجوز، فهنا عامل من أبواب الدنيا، بل بحسن نيته، صار إجابة هذه الدعوة أحد عوامل الدخول في أبواب الدنيا، والدخول في أبواب الدنيا مكروه، فما النية؟ إكرام أخيه بإجابة الدعوة، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَطِيَّةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَبِيعَةَ الْجُرَشِيَّ يَقُولُ أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَهُ: لِتَنَمْ عَيْنُكَ وَلْتَسْمَعْ أُذُنُكَ وَلْيَعْقِلْ قَلْبُكَ قَالَ فَنَامَتْ عَيْنَايَ وَسَمِعَتْ أُذُنَايَ وَعَقَلَ قَلْبِي قَالَ فَقِيلَ لِي سَيِّدٌ بَنَى دَارًا فَصَنَعَ مَأْدُبَةً وَأَرْسَلَ دَاعِيًا فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَأْدُبَةِ وَرَضِيَ عَنْهُ السَّيِّدُ وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَطْعَمْ مِنَ الْمَأْدُبَةِ وَسَخِطَ عَلَيْهِ السَّيِّدُ قَالَ فَاللَّهُ السَّيِّدُ وَمُحَمَّدٌ الدَّاعِي وَالدَّارُ الإسلامُ وَالْمَأْدُبَةُ الْجَنَّةُ))

[الدارمي عَنْ عَطِيَّةَ]

ومن أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم الله سبحانه وتعالى، ومن سرّ مؤمناً فقد سره الله.

((عن مُعَاذٌ فَقَالَ عُبَادَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: حَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي عَلَى الْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالصِّدِّيقُونَ))

[أحمد عن مُعَاذٌ]

6 . الإنسان المؤمن ينوي بإجابته الدعوة صيانة نفسه عن أن يساء به الظن :

فالآن أحياناً تدعى إلى وليمة إذا امتنعت يفسر هذا بالبخل، فالإنسان المؤمن ينوي بإجابته الدعوة صيانة نفسه عن أن يساء به الظن، وأغلب الظن أن البخيل لا يجيب الدعوة، أي وقع تحت عبء الرد، فإذا لم يجب الدعوة فلا شيء عليه لكن مثل هذا العمل قد يساء به الظن، فيظن أن هذا الذي رفض الدعوة بخيل لا يحب أن يدعو الناس إلى طعامه، وقد يطلق اللسان فيه، وفي عرضه، فهذه ست نيات تلحق إجابة الولائم فكيف إذا اجتمعت كلها في المؤمن، فهذه الآداب الست يجب أن تجتمع في المؤمن حتى يكون عمله كله لله سبحانه وتعالى. كان بعض السلف يقول: أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية حتى في الطعام والشراب، اقتداءً برسول الله وفي مثل هذا قال عليه الصلاة والسلام:

((عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهم عَنْهم عَلَى الْمِنْبَرِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[مسلم عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ]

لكن النية الطيبة لا تعد نيةً طيبة إلا في المباحات، أما في المعاصي فالنية لا قيمة لها أبداً، وينوي أن يسرهم بشرب الخمر وهذه مرفوضة، فالنية الطيبة في المباحات فقط، أما إذا في معصية فهذه النية لا قيمة لها إطلاقاً.

* * *

شمائل النبي عليه الصلاة والسلام :

1 . صبره على أذى المشركين و تحمله للشدائد :

والآن إلى بعض شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، كان صابراً على أذى المشركين، ومتحملاً للشدائد في سبيل الله:

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلالٍ قَالَ أبو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَمَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ حِينَ خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَارِبًا مِنْ مَكَّةَ وَمَعَهُ بِلالٌ إِنَّمَا كَانَ مَعَ بِلالٍ مِنَ الطَّعَامِ مَا يَحْمِلُهُ تَحْتَ إِبْطِهِ))

[ابن ماجة عَنْ أَنَسٍ]

أي ما أوذي أحد مثلما أوذي عليه الصلاة والسلام، وأحياناً يقول إنسان لآخر: لا أريد لك أن تذهب إلى هذا المكان أنصحك، فيترك الجامع نهائياً، فالذي قالها لك إنسان ليس موحداً لله عز وجل، ولا يعرف أن الأمر كله بيد الله، من كلمة واحدة حرم نفسه مجالس العلم، والنبي الكريم خاف بالله أليس لك به أسوة حسنة؟

((...لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ ...))

[ابن ماجة عَنْ أَنَسٍ]

وحينما دعا قومه للإسلام قال أحدهم: أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قط، أو أنت رسول، وقال آخر: والله لا أكلمك بعد في مجلسك هذا كلمة واحدة لأن كنت رسولاً، لأنت أعظم شرفاً من أن أكلمك، استهزاءً أيضاً، وقال آخر: أيعجز الله أن يرسل غيرك، هذا ما ردّ به كفار قريش عليه، ولذلك في الطائف قال: "اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، و هواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين وأنت رب المستضعفين، إلى من تكلني؟ إلى عدو بعيد يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري؟ إن لم تكن غضباناً، أو إن لم تكن ساخطاً، أو إن لم يكن بك سخط، أو إن لم يكن بك غضب – هذه كل الروايات – علي فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تنزل بي غضبك، أو أن يحل بي سخطك، ولك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله".

هذا سيد الأنبياء، وسيد العالمين كان مستضعفاً، فإذا الإنسان كان مستضعفاً فله برسول الله أسوة حسنة وما بيده شيء.

2 . عدله :

أما عدله فكان ﷺ أعدل خلق الله تعالى في حقوق الله تعالى، وفي حقوق عباد الله تعالى، قواماً بالقسط، منتصراً للحق مع القوي أو الضعيف، والغني أو الفقير، والكبير أو الصغير، والرجل أو المرأة، ومع الحر أو العبد.

((عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ فَفَزِعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ قَالَ عُرْوَةُ: فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ قَالَ أُسَامَةُ: اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ خَطِيبًا فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ وقَالَتْ عَائِشَةُ: فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[مسلم عن عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ]

فالسيدة عائشة كانت وسيطة بين الرسول عليه الصلاة والسلام وبين النساء، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهم أَنَّ رَجُلاً أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً ثُمَّ قَالَ أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ فَقَالَ: أَعْطُوهُ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

كان عادلاً، إذا كان هناك رجل مظلوم فدعه يتكلم فإن لصاحب الحق مقالاً وقال عليه الصلاة والسلام:

((....إِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

وقال عليه الصلاة والسلام: والله إني لأمين في السماء وأمين في الأرض، ومرة أعرابي فظ قال له:

((عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ قَالَ: بَيْنَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْمًا أَتَاهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: اعْدِلْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهم عَنْه يَا رَسُولَ اللَّهِ ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْقِدْحُ ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَوُجِدَ فَأُتِيَ بِهِ حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي نَعَتَ))

[البخاري عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ]

3 . رحمته بالأهل والعيال :

وسوف ننتقل في درس قادم إن شاء الله إلى رحمته بالعيال، ورحمته بالصبيان، ورحمته بالمؤمنين، ومن رحمته بالأهل والعيال ما رواه أحمد:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَرْحَمَ بِالْعِيَالِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ قَالَ عَمْرٌو فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ))

[أبو داود عَنْ عَائِشَةَ]

ليس منا من وسع الله عليه ثم قتر على عياله، ولذلك مرة سيدنا عمر عين والياً لولاية وكان في حضنه ابنه يقبله فأنكر هذا الوالي عليه هذا التقبيل، فقال له: أعطني هذا الكتاب كتاب التعيين ومزقه وقال: إن لم ترحم أهلك هل ترحم الناس؟ يعني كان ﷺ يُعلّم أصحابه الرحمة، وقال: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء"، كان يصغي الإناء للهرة، كان يقول:

((عَنْ عبد الله بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[مسلم عَنْ عبد الله بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهما]

والنبي الكريم وصف رجلاً كان عطشاً عطشاً شديداً نزل بئراً فشرب فلما خرج:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي فَمَلأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أطعمت حيواناً، سقيت هرة، أنقذت فراشة، أنقذت نملة، أنقذت عصفوراً من يد طفل عابث، اشتريته منه وأطلقته، هذا لك أجر كبير لا يعلمه إلا الله.

((... قَالَ كَانَ إِبْرَاهِيمُ مُسْتَرْضِعًا لَهُ فِي عَوَالِي الْمَدِينَةِ فَكَانَ يَنْطَلِقُ وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَدْخُلُ الْبَيْتَ وَإِنَّهُ لَيُدَّخَنُ وَكَانَ ظِئْرُهُ قَيْنًا فَيَأْخُذُهُ فَيُقَبِّلُهُ ثُمَّ يَرْجِعُ قَالَ عَمْرٌو فَلَمَّا تُوُفِّيَ إِبْرَاهِيمُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ ابْنِي وَإِنَّهُ مَاتَ فِي الثَّدْيِ وَإِنَّ لَهُ لَظِئْرَيْنِ تُكَمِّلانِ رَضَاعَهُ فِي الْجَنَّةِ))

[أحمد عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

فرجل له ابن في حي الميدان ويسكن في المهاجرين، ولا يوجد سيارات مشى مع أصدقائه من الميدان إلى المهاجرين قبّله ورجع، ماذا بقلبه من الرحمة؟ لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي ...))

[أبو داود عَنْ عَائِشَةَ]

من لم يكن عنده رحمة متناهية فليس مؤمناً :

إن لم يكن عندك رحمة متناهية لأولادك، ولأهلك، ولوالدتك، ولأخيك، ولأختك فلست مؤمناً، وإن صليت وصمت وزعمت أنك مسلم، و هذا الإسلام الصوم والصلاة والحج والزكاة مظاهر ولكن الحقيقة هذا الكمال الإنساني الذي يصل إليه الإنسان عن طريق الصلاة، فصلاة من دون رحمة هذه ليست صلاة، ولكن الصلاة طريق الرحمة، و الصلاة الصحيحة طريق الرحمة، والنبي الكريم كان يقول: "أكرموا النساء فوالله ما أكرمهن إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم ويغلبهم لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً من أن أكون لئيماً غالباً"، ومرة غضبت السيدة عائشة فقال ﷺ: " غَضِبَتْ أمُّكم غَضِبَتْ أمُّكم".

انظر الكمال النبوي، أي إذا أحدكم زوجته غضبت فلا يغضب معها إذ يجن الاثنان معاً، إذا هو غضب فهي تسكت، وإذا غضبت يسكت هو، فإبريق بلور و إسفنجة تصادما لا يحصل شيء، أما إبريقا بلور تصادما فلن يبقى شيء، وأفضل شيء إسفنجة وإسفنجة، لكن إذا غضب مرة الزوج تسكت الزوجة، وإذا غضبت هي يسكت الزوج، هكذا علمنا صلى الله عليه اترك وامش، بعد ساعة هرب الشيطان فلا يوجد شيء.

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي ...))

[أبو داود عَنْ عَائِشَةَ]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 25 : سجود التلاوة 2

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

سجود الصلاة الطبيعي يغني عن سجود التلاوة بشرط ألا ينقطع فور التلاوة :

أيها الأخوة المؤمنون، كنا نتحدث في الأسبوع الماضي في موضوع الفقه عن سجود التلاوة، وسجود التلاوة يؤدى بركوع أو سجود في الصلاة، غير سجود وركوع الصلاة، فللصلاة ركوع وسجود طبيعي اعتيادي حكمي، وسجود التلاوة يؤدى بركوع أو بسجود غير ركوع الصلاة الأساسي وسجوده، ويجزئ عن هذا السجود، معنى يجزئ أي يغني، ركوع الصلاة الطبيعي، إن نواها، إذا نوى سجود التلاوة في ركوع الصلاة الطبيعي فركوع الصلاة الطبيعي يجزِئ أي يغني عن سجود التلاوة، وإن لم ينوها يجزِئ عنه السجود الطبيعي، فالركوع يجزئ بشرط النيّة، والسجود يجزئ من دون نيّة، فسجود الصلاة الطبيعي يغني عن سجود التلاوة بشرط ألا ينقطع فور التلاوة أي ينقطع استمرار التلاوة، فمثلاً قرأت آية السجدة فرفعت وسجدت فسجودك الطبيعي هو في الوقت نفسه سجود للتلاوة، ولك أن تقرأ آية بعدها ولا ينقطع الاستمرار، و لك أن تقرأ آيتين ولا ينقطع الاستمرار، أما إذا قرأت فوق آيتين فينقطع الاستمرار ويجب عليك عندئذٍ أن تسجد للتلاوة سجوداً مستقلاً.

متى يغني سجود الصلاة الطبيعي عن سجود التلاوة ؟

متى يغني سجود الصلاة الطبيعي عن سجود التلاوة؟ إذا كنت تقرأ الآيات فجاءت آية السجدة فقلت: الله أكبر، وركعت ركوع الصلاة، وسجدت سجود الصلاة، فهذا السجود يغني عن سجود التلاوة، أما إذا قرأت آيات كثيرة بعد آية السجدة فلا بد من أن تسجد للتلاوة سجوداً مستقلاً عن سجود الصلاة.

والآن: لو أن مسلماً قرأ آية السجدة، وقرأ آيتين أو ثلاث بعدها، فخرّ ساجداً سجود التلاوة لا سجود الصلاة، ثم وقف فلا ينبغي له أن يركع ويسجد، ينبغي له أن يتم قراءته، إذ كُرِهَ أن يركع ويسجد بعد سجود التلاوة لأنه بنى سجوداً على ركوع، وهذا في الصلاة غير وارد.

تقرأ الآية فتسجد للتلاوة تقف تتابع الآيات، أما إذا أنهيت القراءة عند آية السجدة فركوع الصلاة وسجودها يجزئان ويغنيان عن سجود التلاوة، والركوع يغني بنيّة، والسجود يغني من دون نيّة، فهل هذا واضح؟

الآن: لو سمع رجل من إمام لم يأتَّم به آية سجدة، أو ائتم به في ركعة أخرى فسمع آية السجدة من إمام يصلي وهو لم يأتَّم به، في الركعة الثانية ائتم به يجب أن يسجد خارج الصلاة، فالمستمع يسجد خارج الصلاة، والذي ائتم بهذا الإمام بعد أن ينهي الإمام صلاته يسجد هو سجدة التلاوة خارج الصلاة، وإن ائتم به قبل سجود إمامه لها سجد معه، فلو فرضنا قرأ آية السجدة، وقال: الله أكبر للسجود وائتم به في هذه الأثناء يأتَّم به ساجداً مباشرة. وإن اقتدى به بعد سجودها في ركعتها فهذه حالة دقيقة: دخل رجل المسجد يوم الجمعة في الفجر فالإمام قرأ السجدة وسجد ثم وقف وتابع السورة فلما انتهى من السورة ركع فجاء هذا الرجل وائتم بالإمام في آخر تسبيحة من الركوع، هل عليه سجود التلاوة؟ الجواب لا! لأنه أدرك ركعة مع الإمام وإدراك جزءِ كإدراك الكل، وكأنه وقف واستمع إلى السورة، وسجد للتلاوة ووقف وركع.

قراءة القرآن خارج الصلاة لها سجود تلاوة وقراءة القرآن داخل الصلاة لها سجود تلاوة:

والآن: لو قرأت القرآن خارج الصلاة ومرّت بك آية سجدة وسجدت ثم قمت فصلَّيت وقرأت سورة فيها سجدة يجب أن تسجد مرة ثانية، فقراءة القرآن خارج الصلاة لها سجود تلاوة، وقراءة القرآن داخل الصلاة لها سجود تلاوة، ولو قرأ القرآن أولاً وفي قراءته سجدة ولم يسجد قام فصلّى وفي قراءته سجدة تغنيه السجدة الثانية عن الأولى، أما لو قرأت مجموعة آيات فيها سجدات في مجلس واحد تسجد سجدة واحدة.

المجلس لا يتبدل إذا غيّرت الغرفة :

أما إذا تبدل المجلس مثلاً غيّرت مكانك وغيرت الغرفة، إذا تبدل المجلس فعليك أن تسجد للتلاوة إذا قرأت آية التلاوة مرة أخرى.

قيل: إن المجلس لا يتبدل إذا غيّرت الغرفة، فإذا بدلت مكانك من زاوية لأخرى لا يتبدل المجلس، ولو بدلت مكانك من زاوية مسجد مهما كان فسيحاً فالأمر كله مجلس واحد ولو غيرت مكانك من شرقه إلى غربه فهذا مجلس واحد، وأنت في السفينة فتحركت معها فمجلس واحد، اتكأت وجلست وقمت وركبت ونزلت فهذا كله مجلس واحد.

تَبَدُّل مجلس السامع يلزمه بتكرار السجود :

أما السامع إذا كان قارئاً يقرأ القرآن وكان فيها آية سجدة فعليه أن يسجد، خرج من مكانه فالسامع والقارئ مجلسه واحد ورجع وقرأ آية أخرى فيها سجدة فعليه أن يسجد مرة ثانية تَبَدُّل مجلس السامع يلزمه بتكرار السجود، أما ثبات مجلس السامع فلا يلزمه بتكرار السجود.

قال: كُرِهَ أن يقرأ سورةٍ ويدع آية السجدة فمكروه! ونُدِبَ ضم آية أو أكثر إليها، ونُدِبَ إخفاؤها! مثلاً: أنت كإمام لك إيقاع صوتي خاص بالتكبيرات، وإذا قلت: الله أكبر لسجود التلاوة فينبغي لك أن تغير هذا الإيقاع كي ينتبه الغافل، وهذا يحدث أكثر ما يحدث في صلاة الوتر جماعة في رمضان، إذ يكون المصلي غير منتبه، فيقول الإمام: الله أكبر فيركع نصف المصلين! هو قال: الله أكبر لدعاء القنوت، والأصول أن يكبّر هذه التكبيرة بصوت مختلف عن تكبيراته الاعتيادية، في صلاة العيد أيضاً هناك ثلاث تكبيرات قبل الركوع، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، إذا قلت الرابعة مثل المرات الثلاثة يبقى المصلون واقفين، فعليك أن تقول الرابعة بإيقاع صوتي مختلف عن الثلاث كي يركعوا معك وهذه حكمة من الإمام.

من يقرأ القرآن و هو جالس فعليه أن يقف ثم يسجد إن مرت معه سجدة :

إذا إنسان جالس يقرأ قرآناً، فالسنّة ألا يسجد مباشرة بل أن يكون واقفاً ثم يسجد! لو فرضنا قارئاً يقرأ القرآن وحوله عشرة مستمعين ومرت آية سجدة لا يرفع السامع رأسه من سجود التلاوة حتى يرفع التالي الذي هو الإمام، ولو عشرة يجلسون في المجلس وتالي القرآن سجد للتلاوة، فالتالي إذا قال: الله أكبر يرفع الحاضرون كأنه إمامهم، لكن إذا كان التالي يقرأ القرآن جالساً في مجلس، والناس تجلس جلسات مختلفة، فلا ينبغي للتالي أن يتقدمهم، ولا ينبغي للمستمعين أن يصطَّفوا، لأن هذا السجود ليس صلاة! وكل مصلٍّ على وضعه كما هو طبعاً باتجاه القبلة، ولكن لا داعي للاصطفاف على التأخير.

وشُرِط لصحتها شرائط الصلاة من ستر للعورة، واستقبال القبلة، والطهارة من الحدث، وشروط الصلاة نفسها هي شروط سجود التلاوة، إلا التحريم وكيفيتها أن يسجد سجدة واحدة بين تكبيرتين هما سنتان بلا رفع يد ولا تشهد ولا تسليم.

* * *

آداب الطعام والشراب :

والآن إلى الفصل المختار من إحياء علوم الدين، ولا زلنا في آداب الطعام والشراب، والطعام والشراب سلوك يومي، مادام في الإنسان قلب ينبض فلا بد من أن يأكل، و هذا السلوك اليومي النبي عليه الصلاة والسلام شرّع له آداباً كثيرة، ما رأيت كتاباً يجمع بين دفتيه آداباً متناهية في الدقة كهذا الكتاب، والآن في بعض الدول الأجنبية يدرسون بعض السفراء مواد عن آداب الاستقبال، وعن آداب التوديع، وآداب الحديث مع الضيف، وآداب الطعام، وكيف تمسك الشوكة باليسار وكيف باليمين أو بالعكس لا أعرف، هذه أشياء دقيقة جداً، فهذه هي المعلومات التي يحتاجها المسلم، هذا بروفيسور إسلامي.

آداب الحضور في منزل الداعي والجلوس فيه :

1 . أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن :

اليوم درسنا: آداب الحضور في منزل الداعي والجلوس فيه، أما الحضور فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن، مثلاً: الدعوة الساعة الثانية، جاء أخ الساعة الثانية جلس في صدر المنزل، لعل هذا المضيف داعٍ أشخاصاً أوزن من هذا الذي جاء فترك الصدر لبعض أشخاص من علية القوم، فأنت كضيف ليس لك الحق أن تجلس في أبهى مكان، ولك أن تجلس في مكان ما، فإذا رأى المضيف أن مكانك لا يليق بك فيغير لك المكان الذي انتقيته فهو يدعوك إلى الجلوس في مكان غيره، وهذا أول أدب.

2 . ألا يتأخر في الحضور :

الأدب الثاني: ألا يتأخر في الحضور، تصور أنك داعٍ عشرة أشخاص ومن تأخر منهم يجب أن يكون موجوداً والساعة أصبحت الثالثة ولم يصل بعد، والطعام سيبرد، والحضور انزعجوا، فكم تشعر بضيق وانزعاج من هذا التأخر؟

3 . ألا يأتي قبل الوقت المحدد :

و من آداب حضور المأدبة أو الوليمة أن تأتي في الوقت المحدد.

ومن آداب الحضور أيضاً: ألا تأتي قبل الوقت المحدد! مثلاً: أنت دعوت فلاناً من أقربائك وزوجته فجاء منذ الساعة التاسعة مع ست أولاد! فأنت لم تستطع أن تقوم بأي عمل في البيت، و بعض الناس لا تنتبه لهذه النواحي، هذا رتّب البيت، ونظفه، ومسّحه، ويريد أن يلتفت لتحضير الطعام، والحاجات، والأدوات، فجاء هذا الضيف وأولاده قبل الموعد بخمس ساعات هذا أصبح عبئاً، فالحضور في وقت غير مناسب ليس من السنّة، والتأخر ليس من السنّة، والجلوس في مكان أنت اخترته ليس من السنّة، دع صاحب البيت يجلسك في المكان الذي يرتئيه لك.

4 . إن أشار له صاحب البيت بمكان لا ينبغي له أن يخالفه فيه :

قال: إن أشار لك صاحب البيت بمكان لا ينبغي لك أن تخالفه فيه، قال لك: تفضل إلى هنا، لا لا هنا أنا مرتاح جداً، هنا مواجه الباب، إذا فتح الباب زوجته تناوله الطعام، فالمضيف أمير بيته، قال لك: تفضل إلى هنا، قل له: حاضر، لا، لا مرتاح هنا، أريح لي، تقع مشاحنات عند بعض الناس، قال: فإن أشار صاحب البيت بموضع فلا ينبغي لك أن تخالفه أبداً، قال ﷺ:

((إن من التواضع لله الرضا بالدون من شرف المجالس))

[الطبراني عن طلحة]

5 . الجلوس حيث ينتهي به المجلس :

أنت لك مكانة كبيرة فجلست بطرف الباب فهذا من التواضع لله، ولذلك فالإنسان لا يأخذ على خاطره أنه جلس على كرسي خيزران، والجميع يجلسون على كنبات، ألا يعرفون قيمته؟ لا هذا من السنّة، اجلس حيث ينتهي بك المجلس، يقولون: إن هارون الرشيد كان في الحج فطلب من بعض مرافقيه أحد كبار العلماء وأعتقد أنه مالك، وقديماً قالوا: لا يستوي مالك وعالم آخر في المدينة، فقيل لهذا العالم: لو ذهبت إلى أمير المؤمنين فتعظه، فقال مالك: قولوا له: يا هارون العلم يؤتى ولا يأتي، فقال: هارون الرشيد هذا الذي قاله حق، فلما جاءه قال: قولوا له لا أسمح له بتخطي رقاب الناس، قال: صدقت، فلما جلس أعطوه كرسياً يجلس عليه، طبعاً إذا إنسان جلس على كرسي في مسجد لغرض فهذا لا تثريب عليه إنه مضطر و معه ألم بظهره، أو ألم في مفاصله، و هذا مباح له، و لكن من دون سبب لا ينبغي أن يجلس الرجل في بيت الله على شيء متميز بداعي الكبر، فلما جلس على كرسيه قال له هذا الإمام –مالك-: من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه، قال: خذوا عني هذا الكرسي وجلس في الأرض، و هذا من آداب المجلس حتى أن أعرابياً دخل على النبي ﷺ وقال: أيكم محمد؟ لم أعرفه من هو؟ هذا دليل ماذا؟ أنه كان يجلس بين أصحابه كواحد منهم، ولم يكن له مكان فخم يجذب النظر.

شيء آخر: سيدنا عمر رضي الله عنه قال: أريد أن أعيِّن والياً إن كان مع أصحابه أميراً عليهم بدا وكأنه واحد منهم، وإن كان مع أصحابه واحداً منهم بدا وكأنه أمير عليهم، مقياس دقيق جداً فالإنسان إذا دخل لبيت المضيف يجب أن يجلس حيث ينتهي به المجلس وهذا من التواضع.

6 . لا ينبغي له أن يجلس مواجه باب الحجرة الخاصة بالنساء :

قال: ولا ينبغي له أن يجلس مواجه باب الحجرة الخاصة بالنساء وسترهم.

7 . لا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام :

ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، وضعوا الطاولة حملوا أبناء صاحب البيت مثلاً طبقاً كبيراً، أحضروا الثاني نظر إليه، قال: هذا ليس من السنّة، تأكيد النظر بالطعام، وأن تتابعه بنظرك، وكيف وضعوه، وماذا طبخت لنا اليوم، وماذا فعلت، وهل الطعام دسِم أم أنه خفيف، هذا ليس من السنّة.

8 . عدم حدّ النظر في الطعام :

وأن تحدّ النظر في الطعام ليس من السنّة، قال: فإنه دليل الشرع.

9 . أن يخص بالتحية والسؤال من يقوم منهم إذا جلس :

ويخص بالتحية والسؤال من يقوم منهم إذا جلس، وأحياناً تدعو أربعة أو خمسة و كأنهم يجلسون في مأتم فجميعهم صامتون وهذا كبر، ليس من السنّة، فمن يجلس أمامك لا تعرفه تسأله: الاسم الكريم؟ عملكم؟ إن شاء الله أنت مرتاح؟ كيف صحتك؟ كم ولد عندك؟ هذا من المؤانسة، دعوته لتكون هناك مؤانسة أما إذا كان الجميع صامتين فهذا سكوت الكبر.

10 . أن يعرِّف صاحب البيت الضيف عن جهة القبلة :

أما إذا كان دخل ضيف إلى البيت ليبيت فيه، فيجب أن يعرِّف صاحب البيت الضيف عن جهة القبلة، فالوقت ليل ولم يعرف من أين القبلة فضّل أن يصلي قيام الليل أو العِشاء، فمن السنّة القبلة من هذه الجهة، وأن يعرفه بيت الخلاء، وموضع الماء، دخلت لبيت صاحبه كريم، خصص جناحاً مستقلاً للضيوف، غرفة جلوس، وغرفة نوم، ومرافق عامة كاملة، وأبواب مستقلة، فالضيف يأخذ راحته تماماً، فهنا تنام، وهذا هو الحمام، وهذا بيت الخلاء، وهنا الوضوء و القبلة في هذه الجهة، فهذا من السنّة.

11 . أن يغسل صاحب البيت يديه قبل الطعام أمام ضيوفه :

قال: من السنّة أيضاً أن تغسل يديك قبل الطعام أمام ضيوفك لكي يقتدوا بك وهذه من سنّة رسول الله، وبركة الطعام الوضوء قبله والوضوء بعده، ومن السنّة أيضا أن تكون آخر من يغسل يديه من الطعام.

12 . إذا دخل الضيف ورأى منكراً فعليه أن يغيره بلسانه أو بيده :

قال: أما إذا دخل الضيف ورأى منكراً فعليه أن يغيره بلسانه أو بيده، فالمنكر فرش الديباج في استعمال أواني الفضة والذهب، والتصاوير على الجدران، و سماع الملاهي والمزامير، وحضور النسوة المتكشفات الوجوه، فالوجه

فتنة، أم فلان أعطنا الطعام، أَحْضَرَت اخرج من البيت فوراً!

هذا الإنسان ليس أهلاً أن تلبّى دعوته، أو يطلب ابنته ليعرِّفه عليها، إنها في الصف الرابع الجامعي، ما هذا؟ مثل هذا الإنسان ليس أهلاً أن تجاب دعوته.

* * *

آداب إحضار الطعام :

1 . تعجيل إحضار الطعام :

الآن آداب إحضار الطعام: أول أدب تعجيل إحضار الطعام، دعوه الساعة الثالثة حتى الساعة الخامسة لم يجهز الطعام بعد، يردد قول: أهلاً وسهلاً بكم، كفاك تأهيلاً ضع الطعام! أيضاً هذا من سوء الأدب، المدعو قام بترتيب أنه سيتناول الطعام الساعة الثالثة، تناول فطوره منذ الساعة السادسة والنصف ثم ذهب لمدرسته أو لعمله، عليه القدوم في الثالثة حتى الخامسة يأكل هذا خلاف السنّة، قال: تعجيل الطعام فذلك من إكرام الضيف وقد قال ﷺ:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

حق الحاضرين في التعجيل أولى من حق من تأخر :

قال: مهما حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان وتأخروا عن الوقت الموعود فحق الحاضرين في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير، إذا كنت قد دعوت أربعة من أصهرتك، ودعوت أولاد عمومتك، وأقرباؤك، مجموعهم خمسة عشر، بقي اثنان لم يأتيا، الدعوة الساعة الثالثة حتى الثالثة والنصف لم يأتوا، السنّة أن تضع الطعام ويباشر الجميع بالأكل! فإذا تأخر تقول له: نحن دعوناك الساعة الثالثة، هناك أشخاص يؤخرون الناس كلهم من أجل واحد، يصبح هناك نقمة وانزعاج، قال: حق الحاضرين في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير إلا في حالة واحدة إذا كان المتأخر فقيراً فيصبح هناك كسر خاطر، ليس له قيمة أبداً؟ هو لا يفسرها تفسيراً نبوياً بل تفسيراً اجتماعياً، لا قيمة له، تناولوا الطعام وتركوه، إذا كان قد استأذنهم في أخ لم يأتِ حتى الآن خاطره غالٍ

علينا، قال: إلا إذا كان المتأخر فقيراً ينكسر قلبه بذلك! فتؤخر الطعام مع الاستئذان من الضيوف فلا بأس في التأخير، قال تعالى:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

[سورة الذاريات : 24]

كيف أكرمهم سيدنا إبراهيم؟ قال تعالى:

﴿ قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

[سورة هود: 69]

لم يتأخر، إشارة من الله سبحانه وتعالى إلى تعجيل إطعام الضيف، قال تعالى:

﴿ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾

[سورة الذاريات : 26]

الروغان الذهاب بسرعة، وهناك معنى آخر قال: الذهاب خُفية، تعال يا بني أحضر لنا فروجاً أمام الضيف، يمكن أن يقول لك: لا والله لا تحضر شيئاً، إذا كنت كريماً أخبر ابنك خارج الغرفة، أما أن تبلغ أوامرك لابنك عن الطعام أمام الضيف، الضيف يخجل ويقول لك: لا والله لست جائعاً، أو يخبرك بأي عذر، قال: راغ إلى أهله من معانيها أسرع خفية من دون أن يشعر الضيف، قال حاتم الأصم: العجلة من الشيطان إلا في خمسة فإنها من سنّة رسول الله، إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتزويج البكر، وقضاء الدين، لماذا أنت مستعجل على الدينات؟ العجلة من الشيطان، لا، أداء الدين يجب فيه التعجيل، والتوبة من الذنب، في هذه الأمور الخمس يجب التعجيل على التأخير. قال: الوليمة في اليوم الأول سنّة، وفي الثاني معروف، وفي الثالث رياء.

2 . ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت من غير إحراج ثم اللحم فالثريد :

الأدب الثاني في تقديم الطعام: ترتيب الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً إن كانت من غير إحراج، يقول الضيف للمضيف: أنا أرغب أن أمشي على السنّة، قدم لنا الفاكهة أولاً، لا يوجد عنده فواكه، قدمت له الوليمة وكأساً من الشاي.... فإن وجدت الفواكه فضعها أمامه، إذا سمحت أعطنا الفاكهة أولاً لا مانع، لأنه وضعها لتأكلها أنت، لقوله تعالى:

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾

[سورة الواقعة: 20-21]

ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد قال عليه الصلاة والسلام:

((فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى الطَّعَامِ))

[أحمد عَنْ عَائِشَةَ]

بعد ذلك قال: إن جمع إليه حلاوة بعده فقد جمع الطيبات كلها، أي أكمل شيء، الفاكهة فالطعام فالحلوى، و بالنسبة لموضوع اللحم، إذا ارتفع سعر لحم البشر ينقص سعر لحم الغنم دائماً، أما إن انخفض سعر لحم البشر أي أصبحت النساء كاسيات عاريات ارتفع سعر لحم الغنم دائماً، فهناك علاقة عكسية بين لحم البشر ولحم الغنم، إذا كانت النساء مبذولة في الطرقات، ولا يوجد شيء قد سُتِر، فعندئذٍ تصبح أسعار لحم الضأن غير معقولة، فوق طاقة الإنسان، أما إذا ارتفع سعر لحم البشر فهبطت لحوم الغنم، ورجل سأل الإمام الشافعي وهو أبو العلاء المعري قال له:

يدٌ بخمس مئينٍ عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار؟

***

سؤال عجيب، أي أن هذه اليد لو قطعت خطأً ديتها خمسمئة دينار ذهباً، وخمسمئة دينار أي خمسمئة ليرة ذهبية تقريباً، والليرة ثمنها ألف ليرة تقريباً، لأن هذه اليد أداة أولى في الحياة، ما بالها قطعت في ربع دينار؟ إذا سرقت هذه اليد نفسها ربع دينار تقطع عقاباً، فأجابه الإمام الشافعي:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

ربع دينار قطعوها له، جاء مندوب شركة أجنبية إلى قطر عربي مسلم يطبق الشريعة الإسلامية في السرقة، فرأى منظراً كاد يصعق، رأى سيارة شحن وقد حملت بصندوقها المكشوف أكثر من عشرين كيساً كل كيس فيه مليونا أو ثلاثة ملايين ريال، هذه السيارة متجهة من مكة إلى أبها، الطريق سبعمئة كيلو متر، والسائق وحده مكلف بنقل رواتب هذه المحافظة في بداية الشهر! في سيارة مكشوفة ريالات بأكياس من دون حراسة:

عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيانة فافهم حكمة الباري

***

لما كانت أمينة كانت ثمينة، فلما خانت هانت.

تقديم الماء البارد من إكرام الضيف :

وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد وصب الماء الفاتر، وعندما يقول لك الضيف: أريد كأساً من الماء فلا تفتح الصنبور على أي فتحة فتملأ له كأساً ساخنة، فمن إكرام الضيف تقديم الماء البارد.

و رجل قدم ضيافة لحكماء، قال بعضهم: "لم نكن نحتاج لكل هذا إذا كان خبزك جيداً وماؤك بارداً وخلك حامضاً"، –وهذا هو القوام– وقال بعضهم: "الحلاوة بعد الطعام خيرٌ من كثرة الألوان"، والإنسان يشعر بحاجة بعد الطعام أن يأكل شيئاً مذاقه حلو، فأنت قد وضعت ثمانية ألوان من دون حلوى، فالغِ له لونين وأضف الحلوى، مما يؤدي لكمال الضيافة فالحلاوة بعد الطعام خيرٌ من كثرة الألوان.

3 . تقديم ألطف الألوان قبل الطعام :

و أن يقدِّم من الألوان ألطفها حتى يستوفي منها من يرد ولا يكثر الأكل بعده، وأحياناً تقدم للإنسان طعاماً وهو جائع يأكل منه كثيراً فإذا شارف على الشبع قدمت له الأطباق اللذيذة، لقد أحرجته، إذا أراد أن يكمل منها أكل خلاف السنة، وإذا لم يأكل منها أحرقت قلبه، فهذه مشكلة، فمن السنة أن تقدم ألطف الألوان قبل الطعام، حتى يأكل الإنسان حاجته من ألطف الأطباق، كأن يأخذوا إنساناً إلى بستان فيطعموه تيناً، ويوجد بين المضيف وابنه حركات سرية، يشير له: هل قشَّرَ؟ فيقول له: نعم، فيقول له: الآن اعزمه على الطعام، لقد انتهى من الطعام.

و يحكى عن بعض أصحاب المروءات أنه كان يكتب ما يستحضره من ألوان ويعرضه على الضيفان، هذا طعامنا، عرف الضيف فينتقي الطعام الذي فيه خضار مثلاً، لا يحب أكلات الرز لأنه متعب وهذا مبالغة بالإكرام.

قال بعض المشايخ: قدَّم لي بعض المشايخ لوناً في الشام من الطعام فقلت: عندنا في العراق يقدم هذا اللون مع آخر، قال: وكذا عندنا في الشام، ولم يكن عنده لون آخر فاستحيا مني.

التعليق على الطعام حرجٌ جداً، والله هذه الأكلة يناسبها أكلة ثانية، الثانية غير ميسرة فخجل، واحمرّ وجهه. لا تُحَمِّرُوا الوُجُوهَ، هذا هو الكمال، أخي أنا مسلم! مسلم صحيح، ظن نفسه مسلماً بترك الكبائر، والمسلم مطالب بهذه الدقائق ليكون ظله خفيفاً جداً، أي تعليق على الطعام يحرج صاحب البيت.

قال: كنا في ضيافة فقُدِّم إلينا ألوان من الرؤوس المشوية طبيخاً وقديداً، فكنا لا نأكل ننتظر بعدها لوناً أو حَمَلاً، فجاءنا صاحب البيت بوعاء التغسيل، ولم يقدم غيرها، فنظر بعضنا إلى بعض وكان بعض الشيوخ مزّاحاً فقال: إن الله سبحانه وتعالى يقدر أن يخلق رؤوساً بلا أبدان، قال: وبتنا تلك الليلة جياعاً.

قصة واقعية، حدثني شخص قال: كنت مسافراً ودعيت لغداءٍ نفيسٍ جداً، فوضعوا نوعاً من أنواع الأوزي لكن حجمها مثل خف الجمل كبير، وضعوا لكل شخص قطعتين، و هناك رجل تناولها بسرعة، فجاء صاحب المنزل وأكد عليه بتناول قطعة ثالثة، وتشديده شيء فوق التصور، وخاف صاحب البيت أن تتكرر هذه القصة، فقال أحدهم: أنا أنهي القطعة الأولى وأبتعد عن الطعام، ويحلف عليّ المضيف أن أتناول الثانية، وأكون بذلك قمت بحل وسط، وقال لي: إنه كان جائعاً جوعاً شديداً ومنذ عدة أيام لم يأكل، تناول القطعة الأولى وابتعد عن المائدة، قال له صاحب الطعام خير؟ قال: والله اكتفيت، فقال له: يا أهلاً وسهلاً! قال: ما ندمت على شيء كندمي على ترك الطعام قبل أن أشبع بهذه الطريقة.

4 . ألا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكن الضيفان من الاكتفاء :

الأدب الرابع: ألا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكن الضيفان من الاكتفاء، مثلاً يرفع الطبق ولم يأكل منه كل الحاضرين حتى يرفعوا الأيدي عنها، فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضره ثانياً، أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل، فيتنغص عليه بالمبادرة.

5 . ألا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم :

ومن هذا الأدب أيضاً: ألا يرفع صاحب المائدة يده قبل القوم فإنهم يستحيون بل يجب عليه أن يكون آخرهم أكلاً، بل كان بعض الكرام يخبر القوم بجميع الألوان ويتركهم يستوفون، فإذا قاربوا من الفراغ جثا على ركبتيه ومدّ يده إلى الطعام وأكل وقال: بسم الله ساعدوني بارك الله فيكم وعليكم، وكان السلف يستحسنون هذا.

6 . أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة :

قال: أن يقدم من الطعام قدر الكفاية فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة، والزيادة عليه تصنع ومراءاة، وفي الحالتين خلاف السنّة.

7 . يجب عليه أولاً أن يعجل نصيب أهل البيت :

والأدب الذي بعده: قال: يجب عليه أولاً أن يعجل نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه فلعله لا يرجع، وهذا أهم شرط، فعندك زوجة وعندك أولاد ووالدتك بالبيت والقادمون عشرة أو اثنا عشر والطعام لذيذ، والجماعة جياع، أول عملية تنزع حصة الأهل جانباً، فما الذي يحدث؟ إذا لم يأكل الأهل فأنت تتمزق، وإذا كان الضيوف جياعاً وأنت كريم وهم يأكلون وليس عندهم علم بشيء أو ما القصة، أن اعزل نصيب الأهل قبل كل شيء، فهذا من السنّة، قال: فتغوص صدورهم، وتنطلق في الضيفان ألسنتهم، وتسأل زوجتك ألم ينتهوا بعد من الطعام؟ فمعها حق لأنها تريد أن تأكل أيضاً صنعت طعاماً نفيساً لكثير من الناس ولم يبق منه شيء، ويكون قد أطعم الضيفان ما يشبعه كراهية القوم، فيجب أن تحدد طعام أهلك وحده أولاً، قال: وهذا خيانة في حق الضيفان، فالضيفان ليس عندهم علم، يأكلون طعامَ كريمٍ وهم جائعون، فطعام الكريم شفاء، وتناولوا كل الطعام.

8 . ما بقي من الأطعمة ليس للضيفان أخذه إلا بإذن صاحب البيت :

قال: وما بقي من الأطعمة ليس للضيفان أخذه، إلا إذا صرّح صاحب الطعام بالإذن فيه عن قلب راضٍ، وأحياناً هناك حالات نادرة، يكون المضيف قد دعا أخاً له وأهله قد يشتهون هذا الطعام، وأنت ليس عندك أحد في البيت، فأنت أكلت واكتفيت وفي اليوم الثاني مثلاً أنت مسافر، فإذا أعطيته الطعام المتبقي وقلت له هذا للأهل، لا مانع إذا كان لا يوجد جرح لمشاعره، فإذا كان هناك جرح لمشاعره أو إذا طلب ماذا سنأخذ معنا أيضاً؟ هذا لم يعد ضيفاً، فهذه بعض آداب تقديم الطعام، وبقي علينا إن شاء الله تعالى آداب الانصراف، ثم بعض المتفرقات، وتنتهي آداب الطعام، وننتقل منها إلى آداب الزواج، وبعدها ننتقل إلى آداب الكسب والمعاش، ثلاثة نشاطات أساسية، الطعام والزواج وكسب الرزق، فهذه الآداب الدقيقة، إذا صار للإنسان صلة بالله عز وجل يعرفها من دون أن يقرأها بالتأكيد، حسّه، إحساسه، وشعوره الرقيق، ورهافة حسّه، وذوقه العالي، وكماله المتصل يحجزه عن هذه السخافات، لكن إذا كان الإنسان تعلمها وطبقها ثم أصبح في مستواها نفسياً فهذا أكمل وجه.

* * *

عظيم شجاعته ﷺ :

والآن إلى بعض شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، وسوف نختار شميلة واحدة، قال سيدنا علي رضي الله عنه في وصف النبي: كان رسول الله ﷺ أجود الناس صدراً، وأشجعهم قلباً، وأصدقهم لهجة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عِشرة، وقد تقدم هذا الحديث، عنوان الشمائل اليوم: عظيم شجاعته ﷺ.

كان ﷺ إذا اعترك أصحابه المخاوف أسرع بنفسه إلى كشفها وإزالتها.

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ وَأَجْوَدَ النَّاسِ وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَانْطَلَقَ النَّاسُ قِبَلَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ سَبَقَ النَّاسَ إِلَى الصَّوْتِ وَهُوَ يَقُولُ: لَنْ تُرَاعُوا لَنْ تُرَاعُوا وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ مَا عَلَيْهِ سَرْجٌ، فِي عُنُقِهِ سَيْفٌ فَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُهُ بَحْرًا أَوْ إِنَّهُ لَبَحْرٌ))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ]

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: "ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله"، قال: "وكان أصحابه الكرام إذا ألمَّت بهم المُلِمَّات، وأحاطت بهم المخاوف لاذوا بجنابه الرفيع، واحتموا بحماه المنيع صلى الله عليه وسلم"، وكان علي رضي الله عنه يقول: "كنا إذا حمي البأس، واشتد الوطيس، واحمرت الحدق، اتقينا برسول الله، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه".

وقد رأيت يوم بدر و نحن نلوذ بالنبي عليه الصلاة والسلام وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً على الأعداء، وعن البراء بن عازب كان يقول:

((قَالَ الْبَرَاءُ: كُنَّا وَاللَّهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[سلم عن الْبَرَاءُ]

كان النبي صلى الله عليه و سلم أقرب إلى العدو ، وقد ثبت يوم حنين وثبتّ قلوب الصحابة! فهذه قصة شهيرة، المسمون بعد فتح مكة أصبحوا قوة لا يستهان بها، ولم يجتمع في الجزيرة تجمعاً كهذا التجمع، عشرة آلاف مقاتل، قالوا فيما بين أنفسهم وهذه الغلطة: لن نغلب اليوم من قلة نحن أقوياء:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴾

هؤلاء أصحاب شجعان أصبحت قلوبهم كفؤاد أم موسى معلقة في جناحي طائر تفرقوا وبقي النبي وحده ﷺ، فقال بكل جرأة وثبات: أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِبْ أَنَا ابْنُ عبد المطلب، وقال أيضاً:

((.... لَقَدْ رَأَى ابْنُ الأَكْوَعِ فَزَعًا، فَلَمَّا غَشُوا رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَزَلَ عَنِ الْبَغْلَةِ ثُمَّ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنَ الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ، فَقَالَ: شَاهَتِ الْوُجُوهُ فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلا مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَسَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَنَائِمَهُمْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ))

[مسلم عن إياس بن سلمة]

قصة النبي الكريم مع أُبي بن خلف :

روى البيهقي في الدلائل عن عروة بن الزبير أن أُبَي بن خلف المشرك قال يوم أحد: أين محمد ما نجوت إن نجا؟ أثناء المعركة، هذه الكلمة لها ما قبلها، فقد قال للنبي صلى الله عليه و سلم حين افتدى يوم بدر عندي فرس أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها، فقال له عليه الصلاة والسلام: أنا أقتلك إن شاء الله، قال: فلما رآه هذا المشرك أُبي بن خلف، أي رأى أُبي النبي يوم أحد شدّ أُبَي على فرسه واتجه نحو رسول الله ليقتله فاعترضه المسلمون، فقال عليه الصلاة والسلام: تنحوا ولا تحولوا بيني وبينه، وتناول النبي عليه الصلاة والسلام حربة من الصحابي الحارث بن سلمة فانتفض النبي بها انتفاضة، تناولها وقفز، أي قام بالحربة قومة سريعة، تطايروا أي أُبي بن خلف ومن معه من الكفار تفرقوا فارين بسرعة كالطيور ثم استقبل النبي أُبي بن خلف بالحربة فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ، أي سقط منها عن فرسه، وقيل: بل كسر ضلع من أضلاعه، فرجع أبي بن خلف إلى قريش وهو يقول: قتلني محمد، فقالوا له: لا بأس بك، قال لهم: لو كان ما بي من الألم والشدة بجميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: أنا أقتلك؟ والله لو بصق علي لقتلني! موقف، لم يترك الصحابة يدافعون عنه لو تركهم لكان هذا جبناً، قال: دعوني تنحوا عني لا تحولوا بيني وبينه، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدّ الجد فهو الليث عادياً.

رجل وصف صديقاً له قال: "لي صاحب كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، كان خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وَجَد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة فلا يتكلم فيما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان أكثر دهره صامتاً، فإذا تكلم بذّ القائلين، وكان

يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدّ الجد فهو الليث عادياً".

فقال هذا المشرك: والله لو بصق علي لقتلني، حتى أن رسول الله لم يقتله وكان بإمكانه أن يقتله نهائياً لكن أرقى شيء بالإسلام أن الحرب هدفها هداية العدو لا قتله، وكزه فقط، قال: قتلني من شدة الخوف، إذاً كانت له هيبة كبيرة جداً.

ومن صفاته ﷺ أنه من رآه بديهة هابه ومن عامله أحبه، بديهة له هيبة كبيرة، فهذا وكزه وكزة فكان يعوي كالكلاب، ويقول: لقد قتلني، قالوا له: ليس بك شيء، قال: بي من الألم والشدة ما لو كان بالناس جميعاً لقتلهم، والله لو بصق عليّ لقتلني قال: ثم مات أُبي بن خلف في طريق العودة إلى مكة أي فيما رجع الكفار إلى مكة، وهذه نبذة عن شجاعته ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ رَجُلاً مُشْرِكًا قَدْ حَلَّ دَمُهُ))

[أحمد عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ الْجُشَمِيِّ]

من قتل حية فيه شجاعة، لم يصرخ ويهرب، كما حصل برجل أمام أولاده فصغر شأنه، فالله عز وجل يحب الشجاعة ولو على قتل حية.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 26 : سجدة الشكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

سجدة الشكر :

أيها الأخوة المؤمنون، موضوعنا في الفقه اليوم قصير جداً، وهو سجدة الشكر، هذه السجدة تكون حينما يصيب الإنسان خيراً، مثلاً إنسان تزوج امرأةً جمعت بين جمال الخَلق والخُلق فلما رآها أول ما رآها يسجد شكراً لله، فقد كان بعض السلف الصالح يسجد لله سجود الشكر على نعمة الزوجة الصالحة، ولو أن امرأته حامل وأنجبت مولوداً سليماً من كل عيب، حسن الصورة له أو عليه، فالأولى له أن يسجد لله سجود الشكر، أو عقد صفقةً بسعر جيد، ونوعيةٍ ممتازة فعليه أن يسجد بعد عقد الصفقة، أو باع هذه الصفقة بربح معقول فعليه أن يسجد لله بعد بيع الصفقة، أو كان يسكن بيتاً بالإيجار فأكرمه الله عز وجل بمنزل اشتراه، وصار ملكاً له، فإذا دخل البيت أول مرة فعليه أن يسجد لله سجود الشكر.

كان يعمل موظفاً في محل تجاري أو صانعاً في محل فأكرمه الله عز وجل واشترى محلاً تجارياً، فإذا دخله فعليه أن يسجد سجود الشكر، كان في مرتبة على أساس الشهادة الثانوية، فلما نال الشهادة العليا صدر مرسوم بترفيعه إلى مستوى هذه الدرجة فعليه أن يسجد سجود الشكر، اشترى مركبة، أو مكّنه الله من أداء الحج أو العمرة، أو أكرمه الله ببر والديه، فالنعم التي أنعم الله بها علينا لا تعد ولا تحصى، فجميل جداً بالإنسان أن يكون حساساً للنعمة.

حالة المؤمن حالة شكر دائم :

والنبي عليه الصلاة والسلام كانت تعظم عنده النعمة مهما دقت، فإذا شربت كأس ماء عذب فرات باردٍ صاف بكأس نظيف، فلك أن تقول الحمد لله:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا دَخَلَ الْخَلَاءَ قَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الْخُبُثِ وَالْخَبَائِثِ))

[البخاري عن أنسٍ]

الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني، وأخرج ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ قال: "إن نوحاً لم يقم عن خلاء قط إلا قال: الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى فيّ منفعته، وأخرج عني أذاه" .

إذا ارتدى ثوباً جديداً، وإذا دخل بيته يقول: الحمد لله الذي آواني وكم ممن لا مأوى له، وإذا وقعت عينه على أولاده وهم في صحةٍ جيدة الحمد لله على نعمة الولد الصالح، إذا وقعت عينه على امرأته وكانت مطواعةً له فالحمد لله على نعمة الزوجة الصالحة، فكم لك يا رب من نعمة قلَّ لها شكري، حالة المؤمن حالة شكر دائم، أنعم الله عليه بقوة يخدم بها نفسه، فهذه نعمة لا تعد ولا تحصى، أنعم الله عليه بنعمة السمع، والبصر، والفؤاد، والعقل، وأنعم عليه بكمال الخلق، كان إذا نظر إلى المرآة قال:

((اللهم كما حسنت خَلقي حسن خُلقي))

[أحمد في كتاب الزهد عن عائشة]

وإذا ارتدى ثوباً جديداً، إذا تناول طعام شهياً، إذا كانت له سمعة طيبة، إذا أحبه الناس:

ينادى له في الكون أنا نحبه فيسمع من في الكون أمر محبنا

***

المؤمن بين صبر على معالجة الله وبين شكر على نعم الله :

والذي أعرفه أن حالة المؤمن نصفها شكر ونصفها صبر، فلو أردت أن تقسم الإيمان قسمين لاحتل الصبر نصفه، ولاحتل الشكر نصفه الآخر، فهو بين صبر على معالجة الله، وبين شكر على نعم الله، ولا تخلو حياة الإنسان من حالة يفرح بها، أو حالة يحزن لها، فإن أصابته حالة يفرح لها فعليه بالشكر، وإن أصابته حالة تحزنه

فعليه بالصبر، وهاتان الحالتان– الصبر والشكر – من علامات الإيمان، ففي الرخاء شكور، وفي البلاء صبور، في الفاقة متعفف متجمل، في اليسر سخيّ كريم، فمن لوازم المؤمن أنه كلما أصابته نعمة يبادر إلى السجود لله عز وجل سجود الشكر.

الإنسان ليس مكلفاً أن يؤدي سجود الشكر في مكان عام :

ولكن لا ينبغي لك أن تسجد في مكان لا يعرف الناس فيه هذا الحكم، فحينما ضعف الدين في النفوس، وصار الناس غافلين بعيدين جاهلين، قد يستهزئون بالدين، فلست مكلفاً ولا ملزماً أن تؤدي هاتين السجدتين في مكان عام.

طالب عند الامتحان نجح، أول عملية عليه أن يقوم بها إذا نجح أن يبادر إلى سجود الشكر، اسجد لله، ومرغ جبهتك في أعتابه، وقل: يا رب لك الحمد الذي أنعمت:

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُ رَجُلٌ خَدَمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَمَانِ سِنِينَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا قُرِّبَ لَهُ طَعَامٌ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ فَإِذَا فَرَغَ مِنْ طَعَامِهِ قَالَ اللَّهُمَّ أَطْعَمْتَ وَأَسْقَيْتَ وَأَغْنَيْتَ وَأَقْنَيْتَ وَهَدَيْتَ وَاجْتَبَيْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَعْطَيْتَ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرٍ]

قال الإمام أبو يوسف والإمام محمد وهما من كبار تلامذة الإمام أبي حنيفة: " هي قربة يثاب عليها ".

سجدة الشكر هيئتها كسجدة التلاوة :

وسجدة الشكر وهيئتها مثل سجدة التلاوة، والإنسان لا تخلو حياته من بعض المسرات، فلو فرضنا أنّ إنسانًا يوم التقى بزوجته أول مرة سجد لله سجود الشكر، وأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يوفق بينهما، فإذا ظن أنه قد حصل هذا الزواج بجهده وبذكائه وبماله فأغلب الظن أن شقاقاً وتعاسة تنشأ بينهما، وأعرف إنسانًا ليس مستقيماً، ولكنه غني، تزوج فتاةً وهو يظن أنه سيسعد بها، فلم يمضِ على هذا الزواج أسابيع حتى كان الفراق بينهما، كانت معه في سيارته خارج دمشق، من كلمة إلى كلمة، وضعها في الطريق ونزل إلى الشام، فلو أن زواجًا بني على الإيمان، وعلى الشكر، وعلى تقوى الله، وعلى محبته فأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يوفق بينهما، بارك الله لكما وعليكما وجمع بينكما على خير، وأخرج منكم الكثير الطيب الصالح، ووفقكما إلى ما يحب ويرضى،

فهذا من الدعاء المستحب في عقد النكاح.

من عرف أن النعم من الله عز وجل فهذا نوع من أنواع الشكر :

يا رب كيف شكرك ابن آدم؟ قال: علم أنه مني، فكان ذلك شكره، أي علم أن هذه النعمة من الله، أو علم أن الشكر نعمة أخرى تضاف إلى النعم فكان ذلك شكره، وإذا عرفت أن هذه النعم من الله عز وجل فهذا نوع من أنواع الشكر، أحيانا امرأة تُخطب لزوج ميسور الحال، يسكنها في بيت مؤسس بكل الأثاث الجيد، والطعام متوافر، والشراب متوافر، والدفء، والجو البارد في الصيف متوافر، وهذه المرأة بحمقها تظن أن هذه النعم وصلتها بذكائها، بينما الله سبحانه وتعالى لولا هذه المسحة من الجمال التي وهبها إياها لما نظر إليها زوجها، ولما خطبها في الأساس، ولما أسكنها في هذا البيت، فلو علمت المرأة أن الله سبحانه وتعالى متفضل عليها بنعمة الجمال والكمال لذابت لله شكراً وتواضعاً، فالمتكبر دائماً لا يرى نعمة الله عليه، وقد يحصل الإنسان على شهادة عليا فيعين في منصب رفيع، فيظن نفسه أنه بذكائه نال هذا المنصب، فلو أن قطرة دم تجمدت في دماغه في بعض شرايين المخ لفقَدَ ذاكرته، ولو أنه تجمدت في مكان آخر لفقد بصره، ولو أنها تجمدت في مكان ثالث لفقد حركته.

هناك رجل ذهب إلى فرنسا، وعاد بدكتوراه وبزوجة فرنسية، وعين في أعلى المناصب الحكومية، ورقصت له الدنيا كما يقولون، واللهُ عز وجل لحكمة بالغة سلبه نعمة البصر، فبقي شهراً في مكتبه يوقع المعاملات على وصف المساعد له، إلى أن انتقل إلى البيت، وفي شهر آخر كانت تأتيه المعاملات إلى البيت ليوقعها على وصف من يقرؤها له، ثم سرح من وظيفته، دخل عليه صديق لي وله فقال له: أتمنى أن أجلس على الرصيف أتكفف الناس، ولا أملك من الدنيا إلا معطفي هذا، وأن يرد الله إليّ بصري.

وقد التقيت بإنسان قال لي: أنا مصروفي في السنة ثلاثمئة ألف، ولا يكفيني أقل من هذا، أصيب بمرض شديد، حينما زرته قال لي: الإنسان تكفيه ألف ليرة في الشهر ليصرفها، فهل تعلمون ماذا يقصد بهذا الكلام؟ لو أنه معافى في جسمه يكفيه ألف ليرة، ألا يكفيه أن يأكل خبزاً وزيتوناً طوال الشهر في ثلاث وجبات؟ تكفيه، هذه النعم التي وهبنا الله إياها تستحق الامتنان من الله عز وجل، وأن تشكره من أعماقك، والحمد على النعمة، ونعوذ بك من زوالها، كيفما تحركت تملك نعمة، أو اثنتين، أو ثلاث، اللسان، والفكر، والشعر، واليد، والمعدة سليمة لا يوجد فيها قرحة، والاثنا عشر لا يوجد فيها قرحة، والأمعاء لا يوجد فيها التهابات مزمنة، والكبد لا يوجد فيه

التهاب أو تشمع، والبنكرياس لا يفرز مادة سكرية زائدة، فلا يوجد معه سكر، والصفراء ليست ملتهبة، و لم تستأصل، والكظر يعمل بانتظام، والكليتان تعملان بانتظام، والعضلات لا تؤلمه، والشرايين ليست متوترة ولا ضيقة ولا متصلبة، والقلب يعمل بانتظام، والتخطيط جيد، والحركة ممتازة، والنشاط متوافر، يأكل كل ما لذّ وطاب، فليس هناك طعام محروم منه، ويمشي على قدميه، فهذه نعم لا تعد ولا تحصى.

نعمة الإيمان أعلى نعمة على الإطلاق :

مرة لفت نظري إعلان في صحيفة كويتية اسمها القبس، الإعلان مرسوم به فيلا ضخمة جداً، والإعلان قديم، أكثر من عشر سنوات، رسم لفيلا ضخمة جداً ورسم لشخص كويتي، والإعلان صفحة، إنني أنا مواطن كويتي أعمل في الدائرة الفلانية، لا أملك من هذه الدنيا إلا هذه الفيلا وقدر سعرها، أنا قدرت سعرها بالسوري ثلاثة ملايين ليرة، والآن تعادل أربعين مليونًا، فيلا كاملة، قال: هذه أقدمها هدية متواضعةً رمزيةً لمن يعطيني إحدى كليتيه، فإذا هذه الفيلا ثمنها ثلاثون مليونًا الآن تقابل الكلية، والكلية الثانية ثلاثون، مجموعهما ستون، والعين كذلك، والعين الثانية، والأذن، واللسان، والنطق، والرئتان، والشرايين، والأوردة، أنا قدرت الإنسان، فإذا كل عضو له يريد أن يعطيه لإنسان بثلاثة ملايين على السعر القديم للدولار، والآن بثلاثين مليونًا، معنى ذلك أنّ الإنسان يساوي ألف مليون.

((عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ]

التقيت بمحاسب في كلية التربية سألته فقال لي: الحمد لله على نعمة الصحة، تذوقت هذه الكلمة تذوقًا، ورأيته شاكرًا لله عز وجل، وأنا متأكد أن المعاش لا يكفيه، ولكن الحمد لله على نعمة العافية، هذه نعمة لا تقدر بثمن، أما إذا تعمقت فتجد أن نعمة الإيمان أعلى من هذه النعمة بكثير، فلو كان في العافية خلل استمر الإيمان معك إلى الأبد، فمن يمُت على الإيمان فقد حقق كل نجاح وتفوق.

الإنسان العاقل يفكر في نعم الله عز وجل و يشكره على ذلك :

ملخص هذا البحث الصغير أن الإنسان غارق في نعم الله، أَجْرِ إحصاء لها فلا تحصى، قال الله:

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾

[سورة إبراهيم: 34]

إذاً يوجد في جسمك أكثر من مليون، أو مليونين، أو خمسة ملايين مكان، لو اختل أحدها لنغص عليك كل حياتك، ويكفي أن القناة الدمعية تنسد، وتحتاج إلى منديل دائماً، ثم يرسم خطاً أحمر، لأن هذا الدمع قلوي، وهذه القناة الدمعية أرفع قناة في الجسم البشري مثل الشعرة مفرغة من الداخل، فالدمع الفائض ينزل منها إلى الأنف فيرطبه، وأحياناً تنسد، فثمّة نعم لا أحد يعرفها، تناول طعام العشاء، وذهب لينام، فما الذي حدث؟ إذا حرم الله عز وجل الإنسان من النوم فإنه يدفع كل ماله حتى ينام، حدثني أخ منح بعثة إلى بعض البلاد الأجنبية، وحينما وصل إلى هناك غاب عنه النوم، فذهب إلى الطبيب، قال له: لا يوجد بك شيء؟ ذهب إلى المستشفى، فقالوا له: لا يوجد بك شيء؟ أحياناً حالات نفسية، كالقلق، ما ذاق طعم النوم واحدًا وعشرين يوماً، حتى حمله هذا المرض إلى أن يعود لبلده.

هناك نعمة ثانية؛ الإنسان ينام ورئتاه تعملان بانتظام، لو أنّ ربنا عز وجل أوكل إلينا أمر التنفس فلن نستطيع أن ننام أبداً، تحتاج دائماً أن تضع ماء باردًا وتفتح النوافذ، فمركز التنبيه النوبي بالبصلة السيسائية يتعطل، والآن اخترعوا دواء غاليًا جداً يجب أن تأخذه كل ساعة، تربط أربعة منبهات على الساعة التاسعة وتأخذ حبة وعلى العاشرة حبة، والحادية عشرة حبة، والثانية عشرة حبة... إذا أحدنا وصف لابنه دواء التهاب كل ست ساعات حبة يشعر بهمّ لاستيقاظه الساعة الواحدة مساءً من أجل حبة واحدة، وهذا الدواء نعمة كبرى، أنقذ حياة أولئك المصابين بهذا المرض، فلو أن الله سبحانه وتعالى أوكل إليك نعمة التنفس فإما أن تنام فتموت، أو أن تحرم النوم كي تبقى حياً، فملخص هذا البحث أن الإنسان العاقل يفكر في هذه النعم.

وأنا أقول لكم: واللهِ الذي لا إله إلا هو من جرى تفكيره في هذه النعم، وعرف أنها من الله، حاشا لله أن يسلبه إياها، وأن يحرمه إياها، وبالشكر تدوم النعم، يا عائشة أكرمي مجاورة نعم الله فإن النعمة إذا نفرت قلّما تعود.

***

آداب الانصراف :

1 . أن يخرج الإنسان مع الضيف إلى باب الدار و أن يكون طليق الوجه :

والآن إلى الفصل الأخير من إحياء علوم الدين، وعن آداب الطعام والشراب، وننتقل بعدها إلى آداب الزواج، آخر أدب من آداب الضيافة، آداب الانصراف، للانصراف ثلاثة آداب؛ الأول أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار، فمن اللياقة والأدب والكمال أن تخرج مع الضيف إلى باب الدار، وإذا كان الضيف غاليًا جداً فإلى مدخل البناء، وإذا كان أغلى من ذلك فإلى أول وسيلة نقل يركبها، وهو سنة، وذلك من إكرام الضيف الذي أمرنا بإكرامه:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((إِنَّ مِنَ السُّنَّةِ أَنْ يَخْرُجَ الرَّجُلُ مَعَ ضَيْفِهِ إِلَى بَابِ الدَّارِ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

قال أبو قتادة: قدم وفد النجاشي على النبي عليه الصلاة والسلام – استمعوا إلى هذا الخلق الرفيع – فكان يخدمهم بنفسه، فقال له أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله؟ فقال عليه الصلاة والسلام: كلا إنهم كانوا لأصحابي مكرمين وأنا أحب أن أكافئهم.

وتمام إكرام الضيف طلاقة الوجه، وأن يضع له طعامًا فخمًا ويجلس، لا باللغة الدارجة – التقي بي ولا تطعمني– يجب أن يكون هذا الوجه طليقاً، وفي الحديث:

((تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ))

[الترمذي عن أبي ذر]

أن تبش في وجه أخيك صدقة، والترحيب الزائد، أهلاً وسهلاً، لقد جبرت خاطرنا بهذه الزيارة، طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج، مثلاً دعوته إلى الغذاء، ما هذه الأسعار؟! يا أخي شيء يجنن، هذه لا تقال، هذا ليس من طيب الحديث، فأنت تمننه بهذا الغذاء، إنْ كان اللحم غاليًا عليك فلا تدعُه، لي ابن سيئ أحتار ماذا أفعل بأمره، سوف تكربه بهمومك، أنت دعوته من أجل أن تسره، ستقول له همومك، وتعكر صفوه،

هكذا قال النبي الكريم؛ طلاقة الوجه، وطيب الحديث عند الدخول والخروج، ويجب أن تختار أجمل الحديث بما يطيب خاطره، ويؤنسه، وما يجعله يرتاح لحديثك، طلاقة الوجه، وطيب الحديث، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إنكم لا تسعون– وفي رواية– إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق))

[البزار في مسنده عن أبي هريرة]

فقال: طلاقة الوجه وطيب الحديث عند الدخول وعند الخروج وعلى المائدة، قيل للإمام الأوزاعي رضي الله عنه ما كرامة الضيف؟ قال: طلاقة الوجه وطيب الحديث.

وقال يزيد بن أبي زياد: "ما دخلت على عبد الرحمن بن أبي ليلى إلا حدثنا حديثاً حسناً، وأطعمنا طعاماً حسناً"، هذا أول أدب؛ أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار، وهي سنة، وأن يكون طليق الوجه، طيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

2 . أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير :

وأما الأدب الثاني فأن ينصرف الضيف طيب النفس، وإن جرى في حقه تقصير، كما علّم النبي الكريم المضيف أن يكرم ضيفه، علّم الضيف أن يتجاوز عن التقصير، فأحياناً تجلس ولم يُقدَّم لك شيء إطلاقاً، هممت بالذهاب، وقلت له: أستأذنك أريد أن أذهب، قال لك: والله لا تؤاخذنا ما ضيفناك شيئًا، أنتم أهل مرفوعة الكلفة، وأنت تعلم أن في البيت لا يوجد أحد، ولا يوجد عنده قهوة، لا يوجد عنده شيء إطلاقاً، لا سكرة، ولا شكولاته،، والشاي يحتاج إلى وقت حتى يجهز، ولا يوجد عنده غاز، والسخان معطل، فالإنسان لا ينتقد، فإذا كان رسول الله أمر المضيف أن يكرم ضيفه، أمر الضيف أن يتجاوز عن التقصيرات، فمن التمام أن ينصرف الضيف طيب النفس، وإن جرى في حقه تقصير:

((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))

[أبو داود عَنْ عَائِشَةَ]

وقد يقدم لك كأسًا من الشاي لونه فاتح، اعتقدت أنت أن هذه زهورات، فكانت شايًا قد يكون عنده قليل من الشاي وضعه، ولا يوجد عنده غيره، فماذا تقول له؟ أنا أحب الشاي فاتحاً.

يروون أن أحد القضاة المشاهير؛ وهو الشيخ عطا الكسم دخلت امرأة صحتها جيدة، وفي أثناء صعودها إلى درج المحكمة صدر منها صوت مخزٍ، ومعها صديقتها، قالت لها: سمعنا القاضي، قالت كلامًا كادت أن تتشقق من الخجل، وصلت إلى القاضي فقال لها: ما اسمك يا أختي؟ فقالت له اسمها، فقال لها: ما سمعت، قالت له اسمها، فقال لها: ما سمعت، قالت: إنه ما سمعنا.

كلما ارتفع مستوى الإنسان أصبح عنده كمال أكثر :

كلما ارتفع مستوى الإنسان أصبح عنده كمال، لماذا الشاي فاتحاَ؟ لا أريد أن أشرب، فأن ينصرف الضيف طيب النفس، وإن جرى في حقه تقصير، فذلك من حسن الخلق والتواضع، وهذه قصة قد يكون مبالغ بها، ولكن سوف نستمع إليها لأنها طرفة.

دعا بعض السلف رجلاً عن طريق رسول فلم يصادفه، فلما بلغه الخبر حضر، وكان القوم قد تفرقوا وفرغوا من الطعام وخرجوا، فخرج إليه صاحب المنزل وقال: تأخرت قد خرج القوم، قال: هل بقي بقية من طعام؟ قال: لا، قال: أكسرة من خبز؟ قال: لا، قال: فالقدر أمسحه، قال: قد غسلته، قال: فانصرف بحمد الله تعالى، فلما قيل له في ذلك قال: قد أحسن الرجل، ودعانا بنية طيبة، وردّنا بنية طيبة، وهذا من التواضع.

فإذا دخل الإنسان إلى الدعوة وكانوا قد بدؤوا في الطعام، يضع العقدة ولا يتكلم معه، أو إذا لم يجد مكانًا على الطاولة، والضيف يتشقق من خجله، فأنت تأخرت، ولا يوجد عنده كرسي فارغ.

وإذا الإنسان الموحّد رأى في إكرام الناس له إكرامًا فمن الله عز وجل، وفي تقصيرهم في حقه لفت نظر من الله عز وجل، يكون قد قاس نفسه بمَن يدخل دائرة ويكون المدير العام صاحبه، فلا ينظر إليه، ولا يقول له: اجلس، فالموحد يراها من الله عز وجل، وإذا كان غير موحد أقام النكير على هذا المدير، فالموحد يقول: لعلي أنا اعتمدت عليه، وما التجأت إلى الله، وأشركت مع الله، واللهُ أحبَّ أن يؤدبني، فأين الصحبة؟ سهرت وجلست معه، ويوجد خبز وملح، ودخلت مكتبه، وبقي يوقع معاملات، ولم يقل لك: تفضل واجلس، ويعاملك كإنسان عادي،

فالموحد يرتاح ويرى هذا تأديباً من الله عز وجل، فأنت أشركت.

فلا ينتصر بما يجري من العباد من تقصير، ولا يستبشر بما يجري منهم من الإكرام، ويرى الكل من الواحد القهار، ولذلك قال بعضهم: أنا لا أجيب الدعوة إلا لأني أتذكر بها طعام الجنة.

3 . ألاّ يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه :

الآن الأدب الثالث؛ ألاّ يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، فهذا الإنسان دعاك إلى طعام، وأحب أن يستأنس بك، ومع آخر لقمة " يا الله يسّر لنا الطريق"، إلى أين أنت ذاهب؟ هل الطعام هو الهدف؟ أكل وغسل واسمح لنا بالذهاب، هذه في حق المؤمن فيها تقصير شديد، هو دعاك ليستأنس بكلامك، ودعاك ليلتقي معك، في أثناء الطعام كان مشغولاً بالأكل، وقبل الطعام بإعداده، وبعده تفرغ لك، وأنت تريد أن تنصرف وقد أكلت فماذا تريد غير هذا؟ هذا أيضاً من سوء الأدب.

ألاّ يخرج إلا برضى صاحب المنزل وإذنه، ويراعي قلبه في قدر الإقامة، فإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام، فربما يتبرم صاحب الدار، ويحتاج إلى إخراجه:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ وَالضِّيَافَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ فَمَا بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ حَتَّى يُحْرِجَهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْكَعْبِيِّ]

إلا إذا ألحَّ رب البيت عن خلوص قلب ومحبة، فله المقام أكثر من ذلك، فقد يزور الرجل ابنته المتزوجة في بلد عربي، والبنت غالية، والأب غالٍ، والصهر محب، ويوجد بينهما مودة بالغة، وإكرام منقطع النظير، فليس من المعقول أن يقتصر على ثلاثة أيام فقط، يستضيفه أسبوعًا، أو أسبوعين، فلا مانع، يأتي إليك فتكرمه ويكرمك، وتأخذه إلى النزهات، فالضيافة ثلاثة أيام إذا لم يكن ثمة تعامل بين الناس.

يستحب للرجل أن يكون عنده فراش للضيف النازل :

ويستحب للرجل أن يكون عنده فراش للضيف النازل، وهذا في القرى والأرياف، فلا تجد فراشًا واحدًا بل في المضافة تجد عشرات مع اللحف والوسادات، وإذا كان للإنسان بيت فليجعل مكانًا للضيف، فلا بد من مكان؛ إما فراش متحرك أو سرير احتياط، فقد يضطر الإنسان فيأتيه ضيف وينام عنده، فمن السنة أن يكون عنده فراش

للنازل:

((فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ وَفِرَاشٌ لأهْلِهِ وَالثَّالِثُ لِلضَّيْفِ وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ))

[مسلم عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

هذه غرفة نوم، وتحتاج إلى فراش للضيف، هكذا قال عليه الصلاة والسلام، يأتي صهرك مسافرًا، يأتي أخوك، تأتي أختك من السفر، فيجب أن تقول لها: نامي عندنا.

آداب متفرقة للأكل والشرب :

الآن مع آداب متفرقة للأكل والشرب نجملها ببعض الأقوال، حكي عن إبراهيم النخعي أنه قال: "الأكل في السوق دناءة "، وكنتم تعلمون مني سابقاً أنه: "من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته".

هناك أشياء تسقط العدالة؛ أن تظلم الناس، أو أن تخلفهم الوعد، أو أن تخونهم الأمانة، فإذا فعلت هذا فقد سقطت عدالتك، والعدالة في الإسلام الحقوق المدنية بالتعبير الحديث، أي تصبح غير مقبول الشهادة، والعلماء فرقوا بين أشياء تسقط العدالة، وأشياء تجرحها، أحيانا الكأس يتحطم وأحيانا يُشعر، إبريق بلور تكسره بالمطرقة، وأحياناً يشعر شعرًا خفيفًا، ولكن هذا الشعر عابر، زبدية صينية ثمنها ثمانية آلاف، ومشعورة، ثمنها مئتا ليرة، لكن لا بأس بها كمنظر، أما كبيع وشراء فلا، وسجادة ثمنها ثمانية وثمانون ألفًا، يوجد أشياء تسقط المروءة، وأشياء تجرحها، فمما يجرح المروءة الأكل في الطريق، والمشي حافياً، والبول في الطريق، والتنزه في الطريق، والجلوس في الطريق، وارتفاع الصوت في البيت حتى يسمعه مَن في الطريق، والحديث عن النساء، والتطفيف بتمرة في الميزان، وأكل لقمة من الحرام، واللعب بالنرد، واللعب بالشطرنج يجرح المروءة، ومما يجرحها أيضاً من أطلق لفرسه العنان، أو السرعة في قيادة السيارات الآن، ومما يجرح المروءة من قاد برذوناً أو حيوانًا مخيفًا أو كلبًا يمشي أمامه مساء، والأطفال يخافون منه، فهذا مما يجرح المروءة، وأن تصحب الأراذل، وأن تتحدث عن النساء.

هذا كله يجرح مروءة المسلم، فتصبح شهادته غير مقبولة، يقولون: إن رجلاً رآه صديقه يأكل في الطريق، فقال: ويحك أتأكل في السوق؟ قال: أجوع في السوق وآكل، قال له: إن جعت في السوق فكل في البيت، فلما قيل له: ادخل المسجد وكل فيه، قال: والله إني أستحي أن أدخل بيته لأكل فيه، قد يدخل الإنسان إلى المسجد من أجل أن يقضي حاجة ويخرج، وقد يجعل المسجد طريقًا، يدخل من أول باب ويخرج من ثانيه، فهذه وصمة عار في

حقه، يدخل بيت الله ليجعله طريقاً؟ أو يدخل بيت الله ليقضي حاجةً فيه فقط؟ أو لينام فيه في رمضان؟ كما تجد في الجامع الأموي كثرةَ النائمين .

لا يجوز أن يدخل ليأكل فقط، أما في رمضان فمثل بعض الأقطار العربية يفطرون في المساجد على تمرات، أشخاص يحضرون الطعام، قد يكون في المسجد رجل غريب، أو بيته بعيد فيأكل، أما إذا كان الهدف في المسجد الأكل، فالعلماء قالوا: يأكل في المسجد مرقًا فيقع على السجاد، فهذا شيء خفيف، فثمة أكل مكروه أن يكون في المسجد، قال علي رضي الله عنه: "من ابتدأ غذاءه بالملح أذهب الله عنه سبعين نوعاً من البلاء، ومن أكل كل يوم سبع تمرات قتلت كل دابة في بطنه".

هناك بعض الأقوال عن بعض الأطعمة بعضها غير ثابت، نحو: "لحم البقر داء ولبنها شفاء"، وربنا عز وجل قال:

﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

[سورة هود : 69]

إذا ربنا عز وجل جعل إكرام الضيف لحم العجل، فهذا الكلام غير مقبول؛ أن يقول إنسان: لحم البقر داء، ولبنه شفاء، هذا الشيء غير مقبول.

نصائح طبية :

يوجد بعض النصائح الطبية؛ قيل لبعض الأطباء: هات لي طعامًا آكله؟ قال : لا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه، ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكل طعامًا إلا أجدت مضغه، وكُلْ ما أحببت من الطعام، ولا تشرب عليه، فإن شربت فلا تأكل عليه شيئاً، ولا تحبس الغائط والبول، وإذا أكلت في النهار فنم، وإذا أكلت في الليل فامشِ قبل أن تنام.

وهناك بعض القواعد التي سوف نتم شرحها إن شاء الله تعالى في درس قادم.

* * *

شمائل النبي صلى الله عليه و سلم :

رحمته صلى الله عليه بالصبيان :

هناك بعض الأفكار في هذا الفصل تحتاج إلى تحقيق وإلى تقييم، وسوف ننهي الدرس بحديث سريع عن بعض شمائل النبي عليه الصلاة والسلام.

رحمته صلى الله عليه بالصبيان، فمن رحمته صلى الله عليه بالصبيان أنه كان يمسح رؤوسهم ويقبلهم، فقد قبَّل عليه الصلاة والسلام الحسن و الحسين:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: أَبْصَرَ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُقَبِّلُ الْحَسَنَ، قَالَ ابْنُ أَبِي عُمَرَ: الْحُسَيْنَ أَوِ الْحَسَنَ فَقَالَ: إِنَّ لِي مِنَ الْوَلَدِ عَشَرَةً مَا قَبَّلْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَانَ فَمَا نُقَبِّلُهُمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَأَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

((عن الْبَرَاءَ بْنَ عَازِبٍ يَقُولُ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاضِعًا الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ عَلَى عَاتِقِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ))

[متفق عليه عن الْبَرَاءِ بْنَ عَازِبٍ]

((عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ أَهْلِ بَيْتِكَ أَحَبُّ إِلَيْكَ قَالَ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَكَانَ يَقُولُ لِفَاطِمَةَ ادْعِي لِيَ ابْنَيَّ فَيَشُمُّهُمَا وَيَضُمُّهُمَا إِلَيْهِ))

[الترمذي عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ]

وكان إذا أوتي بأول ما يدرك من الفاكهة يعطيه لمن يكون في المجلس من الصبيان:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أُتِيَ بِالْبَاكُورَةِ بِأَوَّلِ الثَّمَرَةِ قَالَ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي مَدِينَتِنَا وَفِي ثَمَرَتِنَا وَفِي مُدِّنَا وَفِي صَاعِنَا بَرَكَةً مَعَ بَرَكَةٍ ثُمَّ يُعْطِيهِ أَصْغَرَ مَنْ يَحْضُرُهُ مِنْ الْوِلْدَانِ))

[الدارمي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهم قَالَ: دَخَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَبِي سَيْفٍ الْقَيْنِ وَكَانَ ظِئْرًا لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلام فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِبْرَاهِيمَ فَقَبَّلَهُ وَشَمَّهُ ثُمَّ دَخَلْنَا عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَإِبْرَاهِيمُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَجَعَلَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَذْرِفَانِ فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهم: وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: يَا ابْنَ عَوْفٍ إِنَّهَا رَحْمَةٌ ثُمَّ أَتْبَعَهَا بِأُخْرَى فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلا نَقُولُ إِلا مَا يَرْضَى رَبُّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ))

[متفق عليه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

هناك إنسان توفيت عمته، وتركت له مليوني ليرة، وهو موظف فقير لا يملك شيئًا من الدنيا، طبعاً أطال لحيته، ولبس كرافة، تصنَّع الحزنَ اليوم والأول والثاني والثالث، والكل يقول له: عظَّم الله أجركم، إلا واحدًا قال له: تهانينا، لقد كان واقعيًا.

رفع الصوت بالبكاء وتمزيق الثياب وضرب الوجه نهى عنه النبي الكريم :

الإنسان عندما يبكي على ابنه فهذا شيء طبيعي، وإذا بكى يتهم بعدم الصبر، لا، ليس لها علاقة، فالبكاء رحمة، ولكن رفع الصوت بالبكاء وتمزيق الثياب وضرب الوجه هذا الذي نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، أما أن تمنع أمًّا أن تبكي على ابنها الذي مات فهو أمر مستحيل.

((عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَرْسَلَتِ ابْنَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِ إِنَّ ابْنًا لِي قُبِضَ فَأْتِنَا فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلامَ وَيَقُولُ إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تُقْسِمُ عَلَيْهِ لَيَأْتِيَنَّهَا فَقَامَ وَمَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمَعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَرِجَالٌ فَرُفِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّبِيُّ وَنَفْسُهُ تَتَقَعْقَعُ قَالَ: حَسِبْتُهُ أَنَّهُ قَالَ كَأَنَّهَا شَنٌّ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟ فَقَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ))

[متفق عليه عن أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ]

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمْ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ فَوَجَدَهُ فِي غَاشِيَةِ أَهْلِهِ فَقَالَ قَدْ قَضَى قَالُوا لا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَبَكَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَوْا فَقَالَ: أَلا تَسْمَعُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ وَلا بِحُزْنِ الْقَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ أَوْ يَرْحَمُ وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ وَكَانَ عُمَرُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ يَضْرِبُ

فِيهِ بِالْعَصَا وَيَرْمِي بِالْحِجَارَةِ وَيَحْثِي بِالتُّرَابِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا]

ذهب جسر البيت، ما هذا الكلام؟ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، رجل توفي أخوه، وترك عشرة أولاد، فجعل يبكي، فلما وصل هذا الخبر إلى شيخه استدعاه وقال له: ما لك تبكي؟ قال له: ترك لي شيئًا يكفي لمدة سنة، فقال له: جيد حتى تمضي السنة وتبقى على قيد الحياة، فكان موت هذا الأخ بعد ستة أشهر.

فالإنسان يبكي في الوقت المناسب، أما هؤلاء فليس لهم أحد، فمن يطعمهم؟ هذا كله كلام يعذب الإنسان، أما البكاء فلا شيء عليه.

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُ، وَقَالَ وَكِيعٌ: قَالَتْ: قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ وَهُوَ مَيِّتٌ قَالَتْ فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ عَلَى خَدَّيْهِ يَعْنِي عُثْمَانَ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: وَعَيْنَاهُ تُهْرَاقَانِ أَوْ قَالَ: وَهُوَ يَبْكِي))

[أحمد عَنْ عَائِشَةَ]

ولما مات عثمان بن مظعون كف النبي ﷺ الثوب عن وجهه – كشف عنه – وقبّل ما بين عينيه ثم بكى طويلاً، فلما رفع على السرير قال: طوبى لك يا عثمان لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها– كان فقيراً جداً–:

((إِنْ كَانَتِ الأمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ))

[أحمد عَنْ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ]

الإنسان كلما كان في البيت متواضعًا كلما ارتقى و علا شأنه :

أحياناً الإنسان ابنته الصغيرة في البيت تريد أن تأكل قطعة شوكولا من غرفة الضيوف، تأخذه من يده، وتشير له أنها تريد أن تأكل من هذه، ترى إنسانًا له قيمته، وفي البلد له شأن كبير، وشهادة عليا جرَّته هذه البنت الصغيرة، وعمرها سنة ونصف، والإنسان كلما كان في البيت متواضعًا كلما ارتقى، كان عليه الصلاة والسلام إذا دخل البيت كأنه واحد من أهل البيت.

آخر شيء:

((عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ الذِّكْرَ وَيُقِلُّ اللَّغْوَ وَيُطِيلُ الصَّلاةَ وَيُقَصِّرُ الْخُطْبَةَ وَلا يَأْنَفُ أَنْ يَمْشِيَ مَعَ الأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ فَيَقْضِيَ لَهُ الْحَاجَةَ))

[النسائي عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى]

((عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَطَبَ فَقَالَ: إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا وَيَغْزُو مَعَنَا وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ وَإِنَّ نَاسًا يُعْلِمُونِي بِهِ عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَآهُ قَطُّ))

[أحمد عَنْ عُثْمَانَ]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 27 : صلاة الجمعة 1

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

صلاة الجمعة :

أيها الأخوة المؤمنون، موضوع الفقه اليوم صلاة الجمعة، صلاة الجمعة فرض عين، وكما تعلمون الفروض على نوعين؛ فرض عين وفرض كفاية، فصلاة الجمعة فرض عين لا تسقط عن الفرد في كل الأحوال، أما صلاة الجنازة فهي فرض كفاية، إذا قام بها البعض تسقط عن الكل، وطلب العلم بإجماع العلماء فرض عين، وطلب العلم حتم واجب على كل مسلم، فمعنى الفرض الشيء الذي لا تقوم حياتك من دونه، فالطعام فرض لبقاء الجسم، وأكل بعض أنواع الفاكهة ليس فرضاً، أما تناول الخبز والإدام كل يوم فهو فرض لبقاء الجسم، فالفرض فرض عين وجب على كل إنسان أن يفعله، وصلاة الجمعة فرض عين بالكتاب والسنة والإجماع.

أدلة من الكتاب و السنة على أن صلاة الجمعة فرض عين :

أمّا الكتاب فقال تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الجمعة: 9]

لو كان هناك عقد بيت ثمنه ثلاثة عشر مليونًا تمّ توقيعه في أثناء آذان الظهر، ورفع العقد إلى القاضي فالعقد باطل، أي عقد يوقع مع آذان ظهر يوم الجمعة فالعقد باطل، لقوله تعالى:

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الجمعة: 9]

هذا في الكتاب، أما في سنة النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تَمُوتُوا وَبَادِرُوا بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ قَبْلَ أَنْ تُشْغَلُوا وَصِلُوا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ رَبِّكُمْ بِكَثْرَةِ ذِكْرِكُمْ لَهُ وَكَثْرَةِ الصَّدَقَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلانِيَةِ تُرْزَقُوا وَتُنْصَرُوا وَتُجْبَرُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْكُمُ الْجُمُعَةَ فِي مَقَامِي هَذَا فِي يَوْمِي هَذَا فِي شَهْرِي هَذَا مِنْ عَامِي هَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَمَنْ تَرَكَهَا فِي حَيَاتِي أَوْ بَعْدِي وَلَهُ إِمَامٌ عَادِلٌ أَوْ جَائِرٌ اسْتِخْفَافًا بِهَا أَوْ جُحُودًا لَهَا فَلا جَمَعَ اللَّهُ لَهُ شَمْلَهُ وَلا بَارَكَ لَهُ فِي أَمْرِهِ أَلا وَلا صَلاةَ لَهُ وَلا زَكَاةَ لَهُ وَلا حَجَّ لَهُ وَلا صَوْمَ لَهُ وَلا بِرَّ لَهُ حَتَّى يَتُوبَ فَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَلا لا تَؤُمَّنَّ امْرَأَةٌ رَجُلاً وَلا يَؤُمَّ أَعْرَابِيٌّ مُهَاجِرًا وَلا يَؤُمَّ فَاجِرٌ مُؤْمِنًا إِلا أَنْ يَقْهَرَهُ بِسُلْطَانٍ يَخَافُ سَيْفَهُ وَسَوْطَهُ))

[ابن ماجة عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

لا شيء يؤذي العين كأن ترى رجلاً يعد العدة لقضاء نزهةٍ في أثناء صلاة الجمعة، وقال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَرَكَ ثَلاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ))

[الترمذي أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ]

ومن يطبع الله على قلبه يجعله في أسفل درك جهنم، ثلاث جمع من غير عذر، وفي رواية أخرى: "نكتت نكتة سوداء في قلبه"، ثلاث جمع لا تحضرها تصبح قيمك مثل قيم الناس، تشعر بالضيق والملل والسأم، وتحدثك نفسك بأكل المال الحرام، وتحدثك نفسك بالعدوان على أعراض الناس، وتشعر بمشاعر أهل الدنيا، ويصيبك ما يصيبهم هذا هو الران.

شروط صلاة الجمعة :

1 . الذكورة :

وقد قال العلماء: الجمعة فرض مؤكد أكثر من الظهر، أي فرضية الجمعة أشد قدسيةً من الظهر، وهي مؤكدة أكثر منه على كل من اجتمع به سبعة شرائط، فتجب عليه حينئذ صلاة الجمعة، وهي الذكورة، وقد خرج بهذا

الشرط النساء فلا صلاة جمعة عليهن.

2 . الحرية :

الحرية: وخرج بهذا الشرط الأرقاء.

3 . الإقامة بمصر :

الإقامة: وخرج بهذا الشرط المسافر، والإقامة بمصر، وخرج به المقيم بقرية لا يوجد فيها مسجد ولا إمام، ولا خطيب، فتسقط عنه صلاة الجمعة إلا إذا كانت الشمس تؤويه إلى قريته، هكذا قال رسول الله، معنى ذلك إذا كانت المسافة بين قريته التي لا مسجد فيها ولا إمام فيها وبين مكان فيه صلاة جمعة إن ذهب إليه وصلى الجمعة هناك، وعاد إلى قريته مع المغيب وجبت عليه صلاة الجمعة، تصور من الظهر إلى المغرب سيرًا على الأقدام، فإذا سمحت لك الشمس من بعد صلاة الجمعة إلى غياب الشمس أن تذهب إلى هذه البلدة وتصلي فيها وتعود وجبت عليك صلاة الجمعة، وبحسب المواصلات الحالية اليوم من حمص إلى الشام مسيرة ساعتين، إذا انتهينا من صلاة الظهر مثلاً الساعة الثانية، وركبنا سيارة إلى مركز الانطلاق وصلنا الساعة الثالثة، و يتحمل الطريق ساعتين إلى حمص نصل الساعة الخامسة، فإذا كان الرجل يسكن في حمص مثلاً، ولا يوجد هناك صلاة جمعة، وفي الشام يوجد صلاة جمعة، وما دامت الشمس تؤويه إلى قريته، وإذا تصورنا قرية تبعد عن دمشق كبعد حمص عن دمشق، فسكان هذه القرية عليهم أن يأتوا إلى دمشق ليصلوا الجمعة، لأن الوقت كاف أن يؤويهم إلى قريتهم قبل مغيب الشمس.

أنا موجود في قرية لا يوجد فيها مسجد، فيجب أن تذهب مشياً، وأن تعود مشياً إلى قريتك، ولا تضيع عليك صلاة الجمعة، وشرط الإقامة بمصر:

((عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْجُمُعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي جَمَاعَةٍ إِلا أَرْبَعَةً عَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَوِ امْرَأَةٌ أَوْ صَبِيٌّ أَوْ مَرِيضٌ))

[أبو داود عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ]

ولقوله عليه الصلاة والسلام:

((لا جمعة ولا تشريق ولا صلاة فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة))

[رواه ابن أبي شيبة عن علي]

فهذا الكلام بالنسبة لنا محلول، نحن في الشام وما أكثر مساجدها، إذاً الذكورة والحرية والإقامة بمصر أو فيما هو داخل في حدّ الإقامة فيها كرجل ساكن مثلاً في داريا، هي تعد من الشام، أو يسكن في بيت مثلاً بين دمشق ودوما، عمّر بيتًا في طريق عام، ولكن لا يوجد حوله بيوت، هذا في حكم الإقامة في الشام، لأنه إذا خرج منه يقصر في الصلاة، وإذا عاد إليه يتم، إذاً هذا في حكم الإقامة بالمدينة.

4 . الصحة :

والشرط الآخر في صلاة الجمعة الصحة، فخرج به المريض بما روي عن رسول الله ﷺ، والشيخ الكبير ملحق بالمريض، كشيخ كبير لا تحمله قدماه، أو بصره ضعيف يحتاج إلى قائد، أو يحتاج إلى عكاز، والطريق وعر، وربما وقع فتنكسر بعض أضلاعه.

5 . الأمن من ظالم :

والخامس الأمن من ظالم، فلو أن هذا المصلي إذا خرج من بيته أصابه ظلم ظالم سقطت عنه صلاة الجمعة، فلا تجب على من اختفى من ظالم، ويلحق به المفلس الخائف من الحبس، وعليه ديون والدائنون يلاحقونه، فلو عثروا عليه في الطريق لألقوا القبض عليه، وساقوه إلى السجن، والشرع ما كلف هذا المفلس بصلاة الجمعة. لكن إذا قتل رجل مؤمنًا خطأ بسيارة واختفى، فلو ظهر للعيان لألقي القبض عليه، وهل إلقاء القبض عليه ظلم؟ لا، هو عدل، إذاً فعليه صلاة الجمعة.

6 . سلامة العينين :

السادس: سلامة العينين، فلا تجب على أعمى عند أبي حنيفة، إلا إذا وجد قائداً يقوده إلى المسجد فتجب عليه صلاة الجمعة.

7 . سلامة الرجلين :

السابع: سلامة الرجلين، فلا تجب عن المقعد لعجزه عن السعي اتفاقاً، ومن العذر أيضاً المطر العظيم، والسيول، والانهدامات في الطريق، فهذه أيضاً تسقط عن الرجل صلاة الجمعة.

يشترط أيضاً لصلاة الجمعة عدة أشياء :

1 . المصر أو فناؤه :

ويشترط أيضاً لصلاة الجمعة ستة أشياء ؛ الأول: المصر أو فناؤه، أي أن تكون في بلد فيه مساجد، أو محيط في هذا البلد، تصح إقامة صلاة الجمعة في مواقع كثيرة بالمصر، فالشام فيها ثلاثمئة مسجد، وهذه المساجد كلها تصح فيها صلاة الجمعة عند أبي حنيفة، وعند الشافعي الصلاة لمن سبق، وقد يحب الإنسان أن يصلي بعد الجمعة أربع ركعات، كصلاة ظهر، هذا مرفوض عند الأحناف، وضعيف عند الشافعية، لأن صلاة الجمعة تجزئ عن صلاة الظهر، فإذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض.

2 . أن يصلي بهم الأمير إماماً :

و من شروط الصحة أن يصلي بهم الأمير إماماً، والمفروض أن يصلي الأمير بالناس إماماً، وهذه لها معنى، لأنّ هذا الأمير اختير لصلاحه وتقواه، وهو يستطيع أن يخطب بالناس، ويصلي بهم، وإن لم يكن فنائبه، وقد ينيب الأمير عنه القاضي أو الخطيب، والآن الخطباء نواب الأمير في أداء الصلاة.

3 . أن يدخل وقت الظهر :

والشرط الثالث أن يدخل وقت الظهر، فلا تصح الجمعة قبل دخول وقت الظهر:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي الْجُمُعَةَ إِذَا مَالَتِ الشَّمْسُ))

[البخاري عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ]

وتبطل صلاة الجمعة لخروج وقت الظهر، أي من دخول وقت الظهر إلى خروج وقته، فإذا خرج وقت الظهر بطلت صلاة الجمعة.

4 . الخطبة :

والشيء الذي لا بد منه وهو الخطبة، وهذه عبادة فيها توجيه، فأي شيء قاله الخطيب ولو كان آية أو حديثًا، ذكر الناس بأمر دينهم، وبكتابهم، وبسنة نبيهم، وحذرهم وزهدهم في الدنيا، ورغبهم في الآخرة، فهذه الخطبة تساوي شحن هذه البطارية، وكل أسبوع تشحن، وتخرج متحمسًا راغبًا في أن تصلي قيام الليل، وتعمل الصالحات، وتغض بصرك، فقد يأتي يوم الثلاثاء والأربعاء تشعر أنّ حماسك فتر، فالبطارية فرغت، فتأتي يوم الجمعة وتشحنها مرة أخرى، أما إذا كان الشحن مستمرًا، وهؤلاء عوام الناس يشحنون في الأسبوع مرة، أما المؤمن الصادق فيشحن كل يوم يصلي صلاة متقنة، ويلتقي مع أهل الحق يومياً، ويستمع إلى الحق، ويدعو إلى الله، فهذا مشحون دائماً وهذا شحن أتوماتيكي، فدائماً عنده بطارية من مستوى عالٍ، ولكن عوام الناس كلما ابتعدت المسافة الزمنية بين الخطبة وبين الوقت الذي هو فيه ضعفتْ همتهم.

والخطبة تكون قبل صلاة الجمعة، فهكذا السنة، وهكذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام، وأن تكون الخطبة مقصودةً لذاتها، فإذا أصاب الخطيب عطاس فعطس، وقال: الحمد لله رب العالمين، فليست هذه خطبة، وليس لها علاقة بالخطبة، هذا حمد بعد العطاس، فيجب أن تكون الخطبة مقصودةً لذاتها، ويجب أن يحضرها واحد، وليس لها معنى ألاّ يكون أحد في المسجد، هذه أشياء بديهية، ولو كان أصمَّاً أو نائماً أو بعيداً، فلا تنعقد الجمعة إلا بخطبة ومستمع، ولو كان أصمَّاً أو نائماً أو بعيداً، وقد قال الله عز وجل:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

[سورة محمد: 16]

إنّ الله عز وجل وبّخ المنافقين لأنهم إذا حضروا مجلس النبي عليه الصلاة والسلام ثم خرجوا من عنده لا يعرفون ماذا قال لهم، فهم شاردون غارقون في مشكلاتهم، غارقون في همومهم، غارقون في الدنيا.

5 . ألاّ يفصل بين الخطبة والصلاة بأكل أو عمل :

ألاّ يفصل بين الخطبة والصلاة بأكل أو عمل، وسوف نتابع هذا الموضوع في درس قادم، لأنه طويل لا ينتهي في مجلس واحد.

* * *

نصائح الطبيب في موضوع الطعام والشراب :

1 . لا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه ولا تشرب دواء إلا من علة :

والآن إلى آخر فصل من فصول آداب الطعام والشراب عند الإمام الغزالي رضي الله عنه، وبعدها ننتقل إلى آداب أخرى.

نصائح الطبيب في موضوع الطعام والشراب قال: لا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه، ولا تشرب دواء إلا من علة، فهناك أشخاص مغرمون بالحبوب والفيتامينات، كل شيء كيميائي ضار بالإنسان، فالإنسان يتناول الدواء عند الضرورة، ولو لاحظت الطبيب نفسه لوجدت أنه أبعد الناس عن الدواء، لأن هذا الجسم نباتي، وإكثار المواد الكيميائية فيه يضعفه، وما من دواء كما قال لي بعض الأطباء إلا وله فائدة من ناحية، وضار من ناحية أخرى، وطبيب حدثني قال لي: مثلاً الكورتيزون، الكورتيزون يبيض وجه الطبيب، فيكون في المريض آلام مبرحة؛ آلام في المفاصل، آلام حساسية فيعطيه إبرة كورتيزون، فترى المريض ارتاح، ويثني على الطبيب، لكن هذا الكورتيزون له مضاعفات كبيرة، فلو أخذه الأطفال كثيراً لتوقف نموهم، ولو أخذه الكبار لالتهبت أكبادهم، فهناك مضاعفات خطيرة جداً من استعمال الكورتيزون، ولكن بعض الأطباء الذي يبتغون سمعةً عاجلةً سريعةً يعطون الكورتيزون، حدثني أخ قال لي: يوجد طبيب في بعض الأقبية، عليه ازدحام منقطع النظير، إذْ يكون ثمة آلام مبرحة، بإبرتي كورتيزون تذهب الآلام، فهذا المريض يلهج بالثناء على هذا الطبيب، لكن لا يعلم أنه دمر كليتيه، دمر كبده، ودمر صحته، الكورتيزون خطير، فالإنسان يقلل من استعمال الدواء قدر الاستطاعة، ويجعل الدواء في الغذاء، وفي الحمية، والحمية رأس الدواء، والمعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء.

تعلق سلامة القلب وحسن عمله وانتظامه بحجم الطعام في المعدة :

وأغرب شيء قرأته في بعض كتب أمراض القلب، أن سلامة القلب وحسن عمله وانتظامه متعلق بحجم الطعام في المعدة، ونوعية الطعام فيها، فما علاقة القلب بالمعدة؟ لأن هذا الطعام الذي في المعدة مصيره إلى الدم، فإن كان فيه مواد دهنية تزيد عن الحد المطلوب ترسبت في الشرايين، فأصيب صاحبها بما يسمى بتصلب الشرايين، وإذا تصلبت الشرايين تعب القلب، وتضخم تضخماً مرضياً، وانتهت الحياة بمآسٍ كثيرة، ولذلك قال بعض الأطباء كما يزعمون: عمر الإنسان من عمر شرايينه، والشرايين تبقى مرنة ما دام الغذاء صحيحاً وصحياً.

وسلامة القلب وحسن عمله وانتظام دقاته منوط بحجم الطعام في المعدة، وبنوعية هذا الطعام، ولذلك فإنّ تناول الأدوية بشكل غير صحيح أو بشكل متسرع هذا مما يتعب الجسم، ولا تشرب دواءً إلا من علة.

2 . لا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها :

ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، هكذا قال الله عز وجل:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[سورة الأنعام : 141]

3 . لا تأكل طعاماً إلا إذا أجدت مضغه :

ولا تأكل طعاماً إلا إذا أجدت مضغه، لذلك فالمضغ الجيد من السنة، والحديث على المائدة من السنة، وأن تجلس مع إنسان تحبه من السنة، لأنك إذا جلست مع إنسان تحبه، تحدثه ويحدثك، وتؤنسه ويؤنسك، تأكل قليلاً، أما قول العوام: كُل أكل الجمال، وقم قبل الرجال، فهذا كلام جهل، فكُل أكل العصافير، وليس أكل الجمال.

4 . كُلْ ما أحببت من الطعام :

ولا تأكل طعاماً إلا إذا أجدت مضغه، وكُل ما أحببت من الطعام، والعلماء أجروا تجارب مثيرة جداً، فأتوا بعشرة أطفال ووضعوهم في مكان، ووضعوا أمامهم كل أنواع الطعام، وسمحوا لهم أن يأكلوا ما يشاؤون، وما يحبون، ثم جاؤوا بعشرة أطفال آخرين، ووضعوهم في مكان، وقدموا لهم طعاماً تحت إشراف التغذية، أن يكون الطعام مملوءً بالفيتامينات والمعادن، وحسب الحريرات والجهد والطاقة والمواد الدسمة والبروتينية والسكريات والمعادن، حسابات دقيقة، فوجدوا في المحصلة أن الأولاد الذين أكلوا ما يشاؤون وعلى رغبتهم كان نموهم أسرع وأنشط، وأما الذين أكلوا أكلاً وفق تعليمات علماء التغذية فلم يكن نموهم كنمو هؤلاء، فاستنبطوا أن شهوة الإنسان إلى الطعام متعلقةٌ بحاجته، فالإنسان أحياناً يشتهي أن يأكل خيارة، أو خسة، فيكون عنده عطش خلوي، أحيانا يشتهي أن يأكل موالح لنقص الملح عنده، حتى إن علماء أمراض النساء أشاروا إلى أن المرأة الحامل قد تشتهي بعض المواد، فتشتهي أحيانا رأس كرنب– يسمونه الوحم – ومن يدري أن هذا الوحم له علاقة بحاجة الجنين في بطن الأم، إذْ

ينقص الجنين قليل من البوتاس، وحاجة الجنين إلى البوتاس تنتقل في شهوة أمه إلى هذه الخضار، فإذا طلبت الحامل من زوجها نوعًا من الطعام فلا ينبغي له أن يستخف بها، ولا أن يستهزئ منها، فهذه حاجة الجنين الذي في بطنها، وإذا أحب أن يتجاهل طلباتها فالجنين يعاني ويستهلك من أمه، فإذا لم يسقِ الزوجُ زوجته الحليب الكافي والمواد الكلسية اللازمة رأيت أسنانها تنتخر في أثناء الحمل، والجنين يحتاج إلى كمية ثابتة من الكلس، فإما أن تعطي الأم حليباً ومادةً كلسية ليأخذها الجنين، وإما أن يستهلك الجنين كلس أمه، ولذلك فبعض أمراض العظام تصيب المرأة الحامل، وكذلك تسوس الأسنان يصيب المرأة الحامل إذا قصر عليها في الحليب والمواد الكلسية، فالوحم إذاً له علاقة بحالة الجنين الذي في بطن الأم.

والعلماء استنبطوا أن الإنسان يشتهي ما هو بحاجة إليه، مثلاً الناس في الشتاء يميلون إلى الحلو، لأنهم يحتاجون إلى طاقة، والطاقة من السكريات، وفي الصيف يميلون إلى أشياء فيها ماء، كالبطيخ، والخيار، والخس، وهذه أمثال واضحة، أما أحياناً فالإنسان يحب المواد الحامضية فيكون كيمياء دمه حامضي، ويحضر إلى البيت برتقالاً، فترى أن البنت أكلت برتقالة حامضة، والشاب لم يأكلها، لكل إنسان كيمياء في دمه.

5 . لا تشرب فوق الأكل :

كُل من الطعام ما أحببت، ولا تشرب عليه، لأن الشرب ماذا يفعل؟ يمدد العصارات الهاضمة في حوالي لتر واحد تفرزها المعدة أثر كل طعام، فإذا شرب الإنسان خمسة كؤوس من المياه تكون هذه المادة الهاضمة قد تمددت. والنبي الكريم نهى عن ذلك، حتى إن رجلاً دخل المسجد، وهو جاهل وما كان المسجد يومئذ بهذه الفخامة، أرضه حصى، وبال فيه، فلما قام له الصحابة ليزجروه منعهم النبي:

((عَنْ أَنَسٍ أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَقَامَ إِلَيْهِ بَعْضُ الْقَوْمِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهُ وَلا تُزْرِمُوهُ قَالَ فَلَمَّا فَرَغَ دَعَا بِدَلْوٍ مِنْ مَاءٍ فَصَبَّهُ عَلَيْهِ))

[متفق عليه عَنْ أَنَسٍ]

فهناك أشخاص جهلة يقول لك أحدهم: أنا قبل أن أنقض وضوئي سوف أصلي العصر، أي صلاة هذه؟! يُكره أن تصلي وأنت حاقن، أساسها لا رأي لحاقن أو حاقد، رأيه في إفراغ المثانة، هذا هو رأيه، فتكره الصلاة إن كان الإنسان حاقناً أو حاقداً.

6 . إذا أكلت في النهار فنم :

وإذا أكلت في النهار فنم، أي أن ينام الإنسان ساعة بعد الطعام:

((قيلوا فإن الشياطين لا تقيل))

[الطبراني في الأوسط عن أنس]

ومن نام في النهار أعانه هذا على قيام الليل.

استعينوا على الصيام بالسحور وعلى القيام بالقيلولة.

7 . إذا أكلت في الليل فامشِ قبل أن تنام :

وإذا أكلت في الليل فامشِ قبل أن تنام، وهذه ملاحظة، فالإنسان يأكل وينام، ولا يوجد حركة، فهذا الطعام إذا لم يستهلكه انقلب إلى مواد دهنية عالقة في الدم، إذا نام الإنسان نوماً طويلاً وقاس نبضه وهو نائم فإنه يكون سبعين أو خمسًا وستين، أو ستين، لأنه لا يوجد حركة، فالدم يسير بطيئًا، وسير الدم البطيء في الشرايين يجعل المواد الدهنية تترسب في جدرانها، فالعلماء قالوا: الذي ينام نومًا متقطعًا من الساعة الحادية عشرة ويستيقظ الساعة الرابعة والنصف على صلاة الفجر وقيام الليل، وينام ويستيقظ الساعة الثامنة صباحاً، فهذا النوم مفيد جداً، أما إذا نام الساعة الحادية عشر حتى الساعة التاسعة ثاني يوم، فالنوم المديد يسبب ترسبات المواد الدهنية في جدران الشرايين، وهذا يسبب أمراض القلب، فالقيام لصلاة الصبح في وقته صحة جسمية قبل أن يكون صحة نفسية.

8 . لا تخرج من بيتك صباحاً إلا بعد أن تأخذ شيئاً تأكله :

ويوجد عندنا خطأ كبير في الطعام، فمعظم الناس ينطلق من البيت من دون طعام، مع أن وجبة الفطور أهم وجبة في حياة الإنسان، قال بعض الحكماء لابنه يا بني: لا تخرج من منزلك حتى تأخذ حلمك –أي تتغذى– إذاً به يبقى الحلم ويزول الطيش، فإذا خرج الساعة السابعة وما تناول طعام الفطور، ففي الساعة الحادية عشرة يشعر بجوع شديد، ويصير عصبيًا، فالنصيحة الطبية ألاّ تخرج من بيتك صباحاً إلا بعد أن تأخذ شيئاً تأكله، وطعام الفطور أهم بكثير من طعام العشاء، لأن بعده بذل طاقة، أما إذا لم يأكل صباحاً فيأكل الظهر عنه وعن

أهله جميعاً، وهذا لا يناسب، تناول ثلاث وجبات معتدلة أفضل من اثنتين ثقيلتين، وخمس وجبات معتدلات أفضل من ثلاث ثقيلة.

العلماء قالوا: من أكل قبل أن يخرج من بيته هو أقل لشهوته مما يرى في السوق، وكلما لمح بائع – شاورما – اشتهي أن يأكل، فإذا أكل صباحاً انتهى الأمر، أما إذا لم يأكل اشتهى، وإذا أكل في الطريق فهو دناءة، وإذا لم يأكل بقي جائعًا وهو في كل نهاره منزعج، فكُلْ صباحاً وانتهى الأمر، وهذه من نصائح الحكماء.

9 . احمل الطعام إلى أهل الميت :

أيضاً من النصائح أن يحمل الطعام إلى أهل الميت، ومن السنة إذا مات ميت هؤلاء مشغولون بميتهم، حزينون، فعَنْ جَعْفَرِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ:

((لَمَّا جَاءَ نَعْيُ جَعْفَرٍ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اصْنَعُوا لأَهْلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ))

[رواه أبو داود عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ]

أما ما يجري الآن فعكس السنة، أهل الميت مهتمون بميتهم، والقبر، والنعوة، وقراءة القرآن، والحاجات الأخرى، ويجب أن يصنعوا طعامًا للذين خرجوا في الجنازة، وهذا خلاف السنة.

10 . لا ينبغي لك أن تحضر طعام ظالم :

وأيضاً لا ينبغي لك أن تحضر طعام ظالم، فأنت تعرف أن هذا الإنسان مغتصب للمال الحرام، أو لمال أخوته، فوالده ترك ثروة، فاغتصب أموال أخوته ودعاك إلى بيته الفخم، فلا يجوز لك أن تجيب هذه الدعوة .

فإن أكره على أن يأكل من طعام الظالم فليقلل الأكل، ولا يقصد الطعام الأطيب، وبعضهم اعتذر وقال: كنت مكرهاً، فقال له أحدهم: رأيتك تختار الأطيب وتكبر اللقمة أي إكراه هذا؟ ولو كنت مكرهاً لأكلت طعاماً قليلاً و بشكل رمزي.

بعض ما قاله الإمام الشافعي :

والإمام الشافعي قال: الأكل على أربعة أنحاء؛، الأكل بأصبع واحدة من المقت، وبأصبعين من الكبر، وبثلاث أصابع من السنة، وبأربع أصابع من الشره – يمسك الخبزة ويهبطها على الطعام مثل المظلة – فهذه من الشره،

أربعة تقوي البصر؛ الجلوس تجاه القبلة، والكحل عند النوم، والنظر إلى الخضرة، وتنظيف الملبس، وأربعة توهن البصر؛ منها النظر إلى القذر، والنوم على أربعة أنحاء؛ نوم على القفا، فهذا نوم الأنبياء، دائماً يتفكرون في خلق السموات والأرض، ونوم على اليمين، وهذا نوم العلماء والعباد، ونوم على الشمال، وهذا نوم الملوك والأغنياء، من كثرة أكلهم للطعام، ونوم على الوجه، وهذا نوم الشياطين، وأربعة من العبادة؛ لا يخطو خطوةً إلا على وضوء، خرجت من البيت فتوضأ، فإذا أذن المغرب دخلت لتصلي، وكثرة السجود، ولزوم المساجد، وكثرة قراءة القرآن، فهذه بعض النصائح التي نختم بها فصل آداب الأكل من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الكبير أبي حامد الغزالي رضي الله عنه، وسوف ننتقل بعدها إلى آداب النكاح، وهناك آداب الكسب والمعاش لا أدري بأيهما نبدأ؟

* * *

رحمته ﷺ باليتيم :

تحدثنا في الدرس الماضي عن رحمته ﷺ بالصبيان ورحمته بأصحابه، وبالمساكين والضعفاء، أما اليوم فمع رحمته ﷺ باليتيم، قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾

[سورة الضحى : 9]

وكان ﷺ يحسن إلى اليتامى، ويبرهم، ويوصي بكفالتهم، و الإحسان إليهم، ويبين الفضائل المترتبة على ذلك، فقد روى البخاري عن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا وَقَالَ بِإِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى))

[البخاري عن سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ]

وقد روى ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إِلَيْهِ وَشَرُّ بَيْتٍ فِي الْمُسْلِمِينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُسَاءُ إِلَيْهِ))

[ابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أحيانا يكون الزوج غافلاً وجاهلاً خرج من البيت الساعة الثامنة صباحاً، وعاد الساعة الحادية عشرة مساءً، ويوجد في البيت يتيم؛ ابن أخيه، فهل يا ترى زوجته أكرمته؟ أكل أم لم يأكل؟ أين نام؟ الزوج لا يعفى من المسؤولية، بل يجب أن يتفقد الطفل أين نام؟ هل أكل الظهر وماذا أكل؟ هل غاب عن البيت وأين ذهب؟ أما إذا

أهمل وترك الأمر لزوجته فالزوجة أحياناً تكون قاسية جداً، ومن عجيب أمر النساء يرحمن أولادهن رحمةً لا مثيل لها، وقد تقسو إحداهن على ابن غيرها قسوة لا مثيل لها، فالزوج مسؤول، وجاء في الأثر ذكرُ فضل امرأة مات زوجها فحبست نفسها على تربية أولادها ولم تتزوج:

((أول من يمسك حلق الجنة أنا فإذا امرأة تنازعني وتريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فأبت أن تتزوج من أجلهن))

[مجمع الزوائد : عن أبي هريرة]

طبعاً هذه صورة أدبية بلاغية، فإذا سمعت امرأة هذا الأثر ذابت شوقاً إلى تطبيقه، و عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوْمَأَ يَزِيدُ بِالْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ امْرَأَةٌ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى يَتَامَاهَا حَتَّى بَانُوا أَوْ مَاتُوا))

[رواه أبو داود عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ]

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلاً شَكَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَسْوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ لَهُ: إِنْ أَرَدْتَ تَلْيِينَ قَلْبِكَ فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: السَّاعِي عَلَى الأرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَحْسِبُهُ قَالَ يَشُكُّ الْقَعْنَبِيُّ كَالْقَائِمِ لا يَفْتُرُ وَكَالصَّائِمِ لا يُفْطِرُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

رحمته ﷺ بالحيوان :

أما رحمته ﷺ بالحيوان:

((... خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَاجَةٍ فَمَرَّ بِبَعِيرٍ مُنَاخٍ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ ثُمَّ مَرَّ بِهِ آخِرَ النَّهَارِ وَهُوَ عَلَى حَالِهِ فَقَالَ: أَيْنَ صَاحِبُ هَذَا الْبَعِيرِ فَابْتُغِيَ فَلَمْ يُوجَدْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ ثُمَّ ارْكَبُوهَا صِحَاحًا وَارْكَبُوهَا سِمَانًا كَالْمُتَسَخِّطِ آنِفًا إِنَّهُ مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا يُغْنِيهِ قَالَ مَا يُغَدِّيهِ أَوْ يُعَشِّيهِ))

[أبو داود عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ]

((وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ قَالَ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَفَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

[رواه أبو داود وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ]

((وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وُقُوفٌ عَلَى دَوَابَّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ فَقَالَ لَهُمُ: ارْكَبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً وَلا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالأَسْوَاقِ فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ))

[أحمد وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ]

و قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله يوصيكم بهذه البهائم العجم، فإذا سرتم عليها فأنزلوها منازلها))

[ذكره ابن حجر العسقلاني في الإصابة في ترجمة عبد الرحمن بن عمرو السلمي]

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ قَالَ: ذَكَرَ طَبِيبٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَوَاءً وَذَكَرَ الضُّفْدَعَ يُجْعَلُ فِيهِ فَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَتْلِ الضُّفْدَعِ))

[أحمد عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُثْمَانَ]

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

[متفق عليه وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا]

تسليط الحيوانات بعضها على بعض بالأذى، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ التَّحْرِيشِ بَيْنَ الْبَهَائِمِ))

[الترمذي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ]

ولما رأى رجلاً يذبح شاةً على مرأى من أختها غضب النبي عليه الصلاة والسلام وقال: هلا حجبتها عن أختها تريد أن تذبحها مرتين؟

((عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[مسلم عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ]

وإذا قتلت عقرباً فاقتله بضربة واحدة، أما أن تعذبه أو تحرقه فهذا مما نهى عنه النبي ﷺ.

وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا فَجَاءَتِ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا ؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ ؟ قُلْنَا نَحْنُ قَالَ: إِنَّهُ لا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلا رَبُّ النَّارِ))

[أحمد وعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ]

الحمرة طائر صغير:

((عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّرِيدَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ قَتَلَ عُصْفُورًا عَبَثًا عَجَّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ يَا رَبِّ إِنَّ فُلانًا قَتَلَنِي عَبَثًا وَلَمْ يَقْتُلْنِي لِمَنْفَعَةٍ))

[النسائي عَنْ عَمْرِو بْنِ الشَّرِيدِ]

الصيد حلال ولكن له شروط :

لا تظن أن مطلق الصيد حلال، الصيد حلال ولكن له شروط، أما للتسلية فتفجع البهائم كهواية ليس المطلق حلالاً بل المقيد حلالاً.

((وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا مِنْ إِنْسَانٍ قَتَلَ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: يَذْبَحُهَا فَيَأْكُلُهَا وَلا يَقْطَعُ رَأْسَهَا يَرْمِي بِهَا))

[النسائي وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

يجب أن تصيد لتأكل، وهذا الحيوان قدم لك لحمه غذاءً لك، فتقرب إلى الله بهذا اللحم، أما إذا قتلته ولم تأكله ماذا فعلت؟ ولقد حذر النبي ﷺ من اتخاذ الحيوان وكل ذي روح غرضاً أي هدفاً لغني.

((عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِنَفَرٍ قَدْ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَتَرَامَوْنَهَا فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا عَنْهَا فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَعَنَ مَنْ فَعَلَ هَذَا))

[البخاري عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ]

الشيء المعروف الآن أن الإنسان إذا قتل حيوانًا فالقانون لا يحاسب عليه، كأنْ يسير في طريق سفر فقتل كلبًا، أو هرة، ولكن لو علمت أن هذا الحيوان الذي دهسته سوف يحاسبك عند الله عز وجل لكنت دقيقاً جداً في قيادة السيارة، طبعاً إذا دهست إنسانًا فهناك مسؤولية جزائية، ومحاكمة، أمّا إذا قتل غنمة فأهل الغنمة يوقفونه؟ أما هناك حيوانات لا يحاسب على قتلها القانون، فمن يحاسب على قتلها؟ الله سبحانه وتعالى، فليكن خوفك من الله أشد من خوفك من قوانين الأرض.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهم عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ الرَّجُلُ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَا خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّه وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لأَجْرًا فَقَالَ فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 28 : صلاة الجمعة 2

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

سنن خطبة الجمعة :

أيها الأخوة الأكارم، وصلنا في موضوع الفقه إلى: صلاة الجمعة، وسوف نتحدث عن سنن الخطبة، وسنن الخطبة ثمانية عشر شيئاً، أولها الطهارة، بمعنى الوضوء، والخطبة ليست صلاةً، فليس من شروطها الوضوء، ولكن من سننها الوضوء، وستر العورة، والأكمل للخطيب أن يلبس ثياباً فضفاضة كهذا الثوب الذي يلبس، وهذه الجبة أو العباءة، لأن هذه الثياب تستر حجم العورة، وهذه هي الثياب الكاملة.

والجلوس على المنبر قبل الشروع بالخطبة، والأذان بين يديه كالإقامة، ثم قيامه واقفاً، والسيف بيساره متكئاً عليه في كل بلدة فتحت عنوةً، العلماء فسروا هذه السنة لأن الخطيب يري أهل هذه البلدة أنها فتحت بالسيف، فإذا رجعتم عن الإسلام فالسيف موجود، فذلك باق بأيدي المسلمين.

واستقبال القوم بالوجه، وبدء الخطبة بحمد الله سبحانه وتعالى، والثناء عليه بما هو أهله، والشهادتان، والصلاة على النبي ﷺ، والموعظة، والتذكير، وقراءة آية من القرآن، وأن تكون الخطبة خطبتين، والجلوس بينهما بمقدار ثلاث آيات، وإعادة الحمد والثناء، والصلاة على النبي ﷺ في ابتداء الخطبة الثانية، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات بالاستغفار لهم، وأن يسمع القوم الخطبة، وأن تخفف الخطبتان بقدر سورةٍ من طوال المفصل، من السور التي بين الطويلة والقصيرة، ويكره التطويل في الخطبة، وترك شيء من السنن، ويجب السعي للجمعة، ولذلك في بعض البلاد الإسلامية يؤذن قبل أذان الظهر بساعة تذكيراً للناس كي يستعدوا ويسعوا إلى صلاة الجمعة، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة الجمعة: 9]

وفي بلاد الحجاز فيما أعلم في كل مساجد البلاد يؤذن قبل الفجر بساعة لقيام الليل، وبعدها أذان الفجر، وقبل أذان الظهر يوم الجمعة بساعة يؤذن للتذكير، وعندنا في الشام والحمد لله قبل الصلاة بفترة طويلة يذكر المؤذن، وقبل الفجر يسبح ويترحم، والتراحيم والتسابيح هذه كلها من باب التذكير، ولا أنسى مرة سمعت تذكير مؤذن فخشع قلبي: وهو المعطي لا يسأل، وهو الحليم لا يعجل، وهو الكريم لا يبخل.

و لما يتعلق الإنسان بالله عز وجل، و بأسمائه الحسنى، إذا كانت له حاجة عند الله عز وجل، أو يخاف شيئاً، أو يخشى مرضاً فيطلب حاجته، أو يسأل تيسير العسير، وليس للإنسان إلا الله عز وجل، فكلمة إلهي ليس لي إلا أنت، هذه الكلمة يجب ألاّ تغادر الإنسان، إلهي رضاك قصدي، أنت مقصودي، ورضاك مطلوبي، فهذه الكلمات يجب أن يكون الإنسان في مستواها.

ويجب السعي للجمعة، وترك البيع عند الأذان الأول، فهذا هو الأذان الأول الذي قبل أذان الجمعة بساعة، وإذا صعد الخطيب المنبر فلا صلاة ولا كلام حتى يفرغ من صلاته، وكره لحاضر الخطبة الأكل والشرب والعبث ولو بمسبحته ولو بتقليب الحصى، ولو أن يقول لصاحبه: اسكت:

((إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ أَنْصِتْ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ فَقَدْ لَغَوْت))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

والالتفات يمنةً ويسرة، فهذا مكروه في صلاة الجمعة، وكُرِه أيضاً أن ترد سلاماً، فإذا دخل إنسان جاهل وقال: السلام عليكم فليس لك أن ترد عليه السلام، ولا تشميت العاطس، فلو أن إنسانًا عطس لم يشمت، لأن في تشميت العاطس تشويشاً على المستمعين، وكره الخروج من المسجد بعد النداء ما لم يصلِّ، إذا سمعت المؤذن يؤذن فقد كُرِه لك السفر قبل أن تؤدي صلاة الجمعة، ومن لا جمعة عليه إن أداها جاز، كرجل مسافر وصل إلى مدينة فليس عليه صلاة الجمعة، ولو كان المسجد قريبًا، وسمع المؤذن يؤذن، سعى وصلى الجمعة، جاز له أن يصلي الجمعة مكان الظهر، وَمن لا عذر له في التخلف عن الجمعة لو صلى الظهر قبلها حرم عليه ذلك، وكره للمعذور والمجنون أداء الظهر في جماعة يوم الجمعة، ويكره أن تصلي صلاة الظهر جماعة، لأنّ فيها فتنة، فأناس يصلون الجمعة وآخرون يصلون الظهر جماعة، فكأنهم انشقوا عن الجماعة، ولا يصلى المعذورُ الظهر

مكان الجمعة إلا فرادى، وكره أن يصلى الظهر جماعة يوم الجمعة لمن كانوا معذورين كالمساجين مثلاً، فيجب أن يصلوا الظهر فرادى.

ومن أدرك صلاة الجمعة في التشهد الأخير، أو في سجود السهو أتمّ جمعته، والله أعلم، لكن بركة صلاة الجمعة في خطبتها، ولما يأتي الإنسان إلى الجمعة في وقت مبكر فكأنما قدم بدنة –جمل– وإذا جاء في وقت بعده فكأنما قدم بقرة، ومن جاء في وقت بعده فكأنما قدم شاة، ومن جاء في وقت بعده فكأنما قدم دجاجةً، ومن جاء في وقت قريب من الأذان فكأنما قدم بيضة فإذا صعد الخطيب المنبر طويت الصحف وجلس الملائكة يستمعون الخطبة، وأغلقت الدفاتر، فلا تسجيل بعدها، فقد صحّ من حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتْ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ))

[متفق عليه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فالتسجيل يكون قبل أن يصعد الخطيب المنبر، فإذا جئت في وقت مبكر يسجل لك أجر إنفاق بدنة؛ جمل ثمنه اثنا عشر ألف ليرة، وبعدها بوقت الساعة الثانية بقرة، وفي الثالثة شاة، وفي الرابعة دجاجة، وفي الخامسة بيضة، والمقصود بالساعات هنا الوقت، هناك عد تنازلي، فإذا صعد الخطيب المنبر طويت الصحف وجلست الملائكة تستمع الخطبة.

***

آداب الكسب و المعاش :

والآن إلى فصل جديد من فصول إحياء الدين، ويتعلق بالكسب والمعاش، وكيف أن الإنسان له نشاط يومي، وأول هذا النشاط الطعام والشراب، وقد تحدثنا عنه في شهور عدة، فآداب تناول الطعام، وآداب الدعوة، وآداب استجابة الدعوة، وآداب حضور الطعام، وآداب الخروج، و آداب الضيف، وآداب المضيف تحدثنا عنها طويلاً والحمد لله.

و الشيء الثاني هو آداب النكاح، و لكن آداب النكاح لسنا بعيدي عهد بها، ففي كتاب فقه السنة تحدثنا في آداب النكاح، و في أحكام الزواج أكثر من سنة، و لأن الموضوعات متشابهة آثرت أن أنتقل إلى موضوع ثالث؛ و هو آداب الكسب و المعاش، و هذا فصل مهم جداً، لأنه ما من واحد منا إلا ويكسب قوت يومه، و هناك معلومات و آداب دقيقة ينبغي لنا أن نعرفها حتى يكون كسبنا حلالاً وشرعياً.

فضل الكسب والحث عليه :

من آداب الكسب والمعاش موضوعان أساسيان؛ الأول فضل الكسب والحث عليه، وربنا عز وجل يقول:

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾

[سورة النبأ: 11]

إن لله عملاً في النهار لا يقبله بالليل، النهار للعمل، والليل للصلاة، وللجلوس مع الأهل، وللتفكر، والتهجد، والتذكر، والشكر لله، فعمل في الليل لا يقبله في النهار أي لله علينا عمل في الليل لا يقبله في النهار، وله علينا عمل في النهار لا يقبله في الليل.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

[سورة الأعراف: 10]

الإنسان اجتماعي بطبعه لا تقوم حياته إلا بالجماعة :

من حكمة الله عز وجل أن الإنسان لو أحب أن يحصي الأعمال التي هو بحاجة إليها لن ينتهي، فهو مثلاً بحاجة إلى طبيب عيون، وطبيب داخلي، وطبيب جلدي، وطبيب أعصاب، وطبيب نفسي، وطبيب نسائي، وبحاجة إلى من يقدم له الخبز، والمزارع، وصانع المحراث، والذي يبذر، والذي يحصد، والذي يجمع القمح، والذي يبذر القمح، والذي يصول القمح، والذي يطحن القمح، والذي يقدم الطحين للمخابز، فهو بحاجة إلى لحم، تربية الأغنام، وذبحها، وسلخها، وجرمها، وتقديمها، وعلفها، وبحاجة إلى فواكه وخضار، وإلى لباس، فلو جمعنا حاجات الإنسان لكانت بالملايين، بحاجة إلى قماش ينشف به وجهه بعد الوضوء، بحاجة إلى من يقص له شعره، وإلى من يصلح له مركبته، وإلى من يقيم له بيته، وإلى من يقدم له أثاث البيت ولوازمه.

فأحدنا بحاجة إلى مليون شيء، ولكن يتقن شيئًا واحدًا، يتقن شيئاً و يحتاج إلى ألوف الأشياء، فمن هنا كانت الجماعة، ومن هنا قال العلماء: الإنسان اجتماعي، فلا تقوم حياته في المجتمع إلا مع الجماعة، وإذا أردتَ تعليم ابنك فهناك مَن هو مختص بذلك، ولن تستطيع أن تقلع ضرس ابنك الذي يؤلمه إلا إذا كان هناك من هو مختص بذلك، فربنا عز وجل قال:

﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾

[سورة النبأ: 11]

أنا مرة فكرت كم من إنسان يعيش بسبب ارتفاع الحر؟ تصور ذلك، وكم معملاً في العالم للمكيفات؟ وكم معملاً للمراوح؟ وكم معملاً للمشروبات الغازية؟ وكم معملاً للبوظة بسبب الحر؟ وكم معملاً يقدم ألبسة فضفاضة مريحة حريرية للصيف؟ وكم من إنسان يعيش من وراء البرد؟ المدافئ، والتدفئة المركزية، والألبسة الصوفية، والدثر الصوفية، كم من إنسان يعيش من طول شعر الإنسان؟ ولو فرضنا أنّ حشرة تؤذي النبات فكم من إنسان يعيش بفضل هذه الحشرة؟ و كم مهندس زراعي؟ وكم آلة رش؟ وكم من وسائل النقل والشحن والبيع والشراء والقرطاسية من أجل مكافحة هذه الحشرة؟ فربنا عز وجل جعل الحياة عملاً، فأنت بحاجة إلى الثياب، وكذلك إلى زارع القطن، والمحالج، والمغازل، والأصبغة، وصناعة الخيوط، وطبع القماش، منه المطبوع على الطاولة، والمطبوع بشكل أسطواني، ونسيج، وتطريز... من أجل أن تلبس هذا الشيء، ويوجد خياطون وأزرار، فالأمر ليس له نهاية من أجل هذا اللباس:

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

[سورة الأعراف: 10]

أساليب وأنواع أخرى للعمل :

الشيء الآخر ربنا عز وجل قال:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

[سورة البقرة: 198]

فمباح لك أن تعمل، وسيدنا عمر يقول: "إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغِلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية".

﴿ وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآَخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

[سورة المزمل: 20]

الإنسان عندما يسافر إلى مدينة أخرى ويحمل معه بضاعته، أو عينات من بضاعته، ويعرضها في السوق، فيبيع ويشتري، ويسجل ويشحن، ويستقبل بضاعة، ويسلمها ويحوِّل ثمنها، فهذه أيضاً أساليب وأنواع للعمل قال تعالى:

﴿ وَآَخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾

[سورة المزمل: 20]

وهذا هو السفر في طلب الرزق.

من حكمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الحرام سهلاً و الحلال صعباً :

وقال تعالى:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[سورة الجمعة: 10]

وبعضهم حمل هذه الآية محملاً آخر، فإذا صليت واستمعت إلى الخطبة فانطلق لتحقيق هذا الذي سمعته، وانطلق إلى العمل الصالح، وإلى التزود بهذا الزاد الذي أمرك الله به، وقد جاء في الأثر: "إنّ من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة"، حدثني أخ ترك وظيفته، وسعى في التجارة، واشترى صفقة بحوالي مئة وثمانين ألفًا، ووضعها في مستودع عند شخص، وهذا الشخص قليل الأمانة، فباع البضاعة، وأخذ ثمنها، وسافر خارج القطر، والمال ليس له، أخذ مالاً من الناس، وتاجر به، واشترى صفقة جيدة، وليس عنده مستودع، فوضعها عند شخص، ثم جاء ليتفقد بضاعته، فإذا بابن صاحب هذا المستودع قد باع البضاعة كلها، وخرج من القطر، فقال لي: صباحاً أستيقظ بالهم، وأنام بالهم، وأقول: يا رب، وعاهدت الله أن أردّ لأصحاب الأموال أموالهم، وقال لهم: هذا الذي حصل، فالتجارة ربح وخسارة، وما كان غارماً، ولكن آثر أن يرد لأصحاب الأموال

أموالهم، وأخذ الله بيده، وفتح الله عليه باب الرزق من أوسع أبوابه، وردّ الأموال لأصحابها، وربح واشترى محلاً تجارياً يقتات منه اليوم.

إذًا: من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة، ومن حكمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الحرام سهلاً، تحرك القلم حركة تأخذ مئة ألف، تعالَ إلى التجارة وحصلها، تحتاج إلى سنة واثنتين وثلاث حتى تحصل عليها، بمتاعب ومخاطر وخوف وعدم بيع وكساد البضاعة وقبض ثمنها، فمن حكمة الله سبحانه وتعالى أنه جعل الحرام سهلاً والحلال صعباً، حتى يميز الخبث من الطيب.

الحكمة من جعل الله سبحانه وتعالى الكعبة في وادٍ غير ذي زرع :

لماذا جعل الله سبحانه وتعالى الكعبة البيت الحرام في وادٍ غير ذي زرع؟ وهناك أماكن في أوربا كالجنان، جبال خضراء، بحيرات، أجواء مريحة رطبة، نسيم عليل، فلماذا جعل مكة المكرمة حارةً جافةً لا غصن ولا شجرة ولا نسمة بل طبيعة قاسية؟ لماذا؟ الذي خلق الجبال الخضراء لم خلقها في هذه البلاد؟ ليميز السائح من الحاج، فلو أنها بلاد جميلة لاختلط الأمر على الناس، فلا تدري لماذا يذهب إلى هناك سياحةً أم حجاً؟ أما لأنها كذلك فلا يقصدها إلا الحاج؟ ولا يقصدها إلا المحب لله والرسول؟ ويتحمل مشاق السفر رضاءً لله ورسوله، وكذلك الحلال صعب لماذا؟ لأنه لا يحل الحلال إلا المؤمن، ويتحمل كل متاعب الحياة، ولا يأكل المال الحرام، تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، تموت جوعاً ولا تأكل بثدييها، فالأدباء غير العلماء، في صف الشهادة الثانوية هناك قصة شعرية، أن امرأة فقيرة لها بنت مرضت، فباعت شرفها من أجل تأمين ثمن الدواء، أعطاها هذا المجرم ريالاً مزيفاً، فلما ذهبت إلى الصيدلي لتشتري الدواء ألقى الريال في وجهها، وقال: هذا مزيف، لقد فقدت ابنتها وفقدت عفتها، وهذه القصة لا ينبغي أن تدرس، فكأن الشاعر يعطي لهذا الانحراف قبولاً من المرأة في سبيل إنقاذ ابنتها بأن تضحي بعفتها، لا، إن الله موجود، وبيده كل شيء، والأمر ضامن، والذي أمر بالاستقامة والعفة يضمن، وهذه حالة غير صحيحة، هذه قصة مشوهة وغير واقعية، فلو أن هذه المرأة عفت عن الحرام هل يعقل أن تموت ابنتها مرضاً؟ مستحيل، هذه فرضية شيطانية، ليس كل قصة يجب سماعها، هناك قصص لها مؤدى سيئ، وكأننا نرضى من الفتاة من أجل تأمين دواء ابنتها أن تضحي بشرفها، أما العرب فيقولون: تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها، مجمع الأمثال للميداني، بل ربما تموت جوعاً. من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة.

صفات التاجر الأمين :

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

ما كنت فيما مضى أفهم بعد هذا الحديث، تاجر باع واشترى، وجلس في مكتب فهو مع الصديقين والشهداء! ماذا فعل؟ ما الذي فعله حتى يكون في صفوف هؤلاء الصديقين؟ ولكن حينما علمت أن أكبر قطر إسلامي في العالم إندونيسيا وماليزيا، هؤلاء يزيدون عن مئتين وخمسين مليونًا، هؤلاء كلهم أسلموا عن طريق التجار، إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا اؤتمنوا لم يخونوا، وإذا باعوا لم يطروا – لا يمدح بضاعته كأنما ينزلها من السماء – وإذا اشتروا لم يذموا – يرخص بقيمة البضاعة المشتراة حتى يجعل صاحبها يبيعها برأسمالها – وإذا كان عليهم لم يماطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا، فهؤلاء وهؤلاء الآن أندر من الكبريت الأحمر، فلو أن رسول الله قال: إن أطيب الكسب كسب التجار وسكت، فأيّما تاجر له الحق أن يقول: أنا منهم، ولكنه ذكر سبع صفات إذا توافرت في التاجر جميعها كان منهم.

((من طلب الدنيا حلالاً، استعفافًا من المسألة، وسعيًا على أهله، وتعطفاً على جاره، بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر، ومن طلبها حلالاً مكاثرًا بها مفاخرًا لقى الله وهو عليه غضبان))

[أبو نعيم في الحلية عن أبي هريرة]

هل هناك من تشجيع على العمل أعظم مِن هذا الحديث؟

موضوعية النبي صلى الله عليه و سلم :

وقد رُوي أنه عليه الصلاة والسلام كان جالسًا مع أصحابه ذات يوم، فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة، مفتول العضلات، عريض المنكبين، ضخم الجثة، نشيط، قد بكر وسعى– انطلق من بيته باكراً –، فقالوا: ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله، فقال عليه الصلاة والسلام: لا تقولوا هذا فإنه لو كان يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة ويغنيها عن الناس فهو في سبيل الله، يريد أن يشتري بيتًا ليتزوج، ويستقر، ويريد أن يؤسس أسرة، فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى على أبوين ضعيفين، له أب مقعد وأم متقدمة في السن ليس لهما أحد غيره، أحياناً أنا أرى شخصًا شابًا في أول حياته ترك المدرسة، وعمل في مصلحة، عنده أم وأب عاجزان، وعنده أخوات، واللهِ أقدّسه، فهذا الذي يسعى على أبوين ضعيفين، و ذرية ضعاف، عنده ثماني بنات يريدون أن يأكلوا

كل يوم، ليغنيهم ويكفيهم فهو في سبيل الله، وإن كان يسعى تفاخراً وتكاثراً فهو في سبيل الشيطان. انظروا النبي صلى الله عليه كم هو موضوعي، الصحابة تسرعوا لو كان جلد هذا الفتى في سبيل الله؟ فقال: لا تقولوا هذا....

التأجيل وعدم الإتقان ليس لهما أجر الأجر لمن نصح :

وفي الأثر: "إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغني بها عن الناس، ويبغض العبد يتعلم العلم ليتخذه مهنةً"، العلم عمل إضافي، يجب أن تكون لك مهنة تقتات منها، وتكون يدك بها عليا لا سفلى، تسير في الناس رافع الرأس، عزيز النفس، إني أرى الرجل لا عمل له فيسقط من عيني، فقيمة الرجل ما يحسنه، فتعلم كل شيء عن شيء، أن يكون لك اختصاص، وشيء عن كل شيء، وفي الخبر أن الله يحب المؤمن المحترف الذي له مصلحة.

((يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْكَسْبِ أَطْيَبُ قَالَ عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ))

[أحمد عَنْ رَافِعِ بْنِ خَدِيجٍ]

وفي خبر آخر: "أحل ما أكل العبد كسب يد الصانع إذا نصح"، صنع لك إنسان طاولة متقنة، أو بابًا، أو بذلة خياطة متقنة، أو قميصًا، أو ثوبًا للشتاء قياسه مناسب، وألوانه مناسبة ومريح، وخيوطه من درجة جيدة، فالله عز وجل يحب هذا الإنسان إذا نصح، أما إذا غش فثمّة مشكلة، وأحياناً الخياطون يوفرون في بذلة ما خمس ليرات، ويضعون لها أقمشة رخيصة، ترسلها إلى الكي فتعود تالفة، ماذا استفدت؟ تَلعن هذا الذي خاط لك الثياب طوال ما تراه.

مرة أحد الشعراء خاط له خياط قباء، لا هو طويل، ولا هو قصير، فانزعج منه، فقال للخياط: والله لأهجونَّك ببيت شعر لا تدري أمدحٌ هو أم ذم، وهذا الخياط كان أعور، والشاعر هو بشار بن برد، وما أدراك ما بشار، فقال:

خاط لي زيد قباء   ليت عينيه سواء

***

فهو أعور العين، يا ترى تمنى له أن تكون العينان مبصرتين أم أن تكون العينان عمياوين؟ فأحياناً إذا كان للإنسان مصلحة يجب أن يكون مضبوطاً، متقِنًا، فإنما أهلك الصنعة قولُ: غد، وبعد غدٍ، فالتأجيل، وعدم الإتقان هذا ليس لهما أجر، فالأجر لمن؟ للذي نصح.

على الإنسان ألا يكون عالة على أحد :

تسعة أعشار الرزق في التجارة، والعشر في المواشي، وروي أن عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال: ما تصنع؟ قال: أتعبد، فقال: من يعولك؟ قال: أخي، قال: أخوك أعبد منك، لا تكن عالة على أحد، النبي الكريم عليه الصلاة والسلام يقول:

((أيها الناس إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وانه ليس من شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي، أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته))

[أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عبد الله بن مسعود]

أنا أعتبر هذا الحديث أساسًا في الرزق، يوجد شجرة تفاح في سرغايا، التفاحة الرابعة من تحت، هذه لفلان في الشام، منذ خلق هذه التفاحة عليها اسم آكلها، بقي آكلها إذا كانت أخلاقه عالية جداً أنْ يشتريها، أو يأكلها ضيافةً، أو تهدى إليه، وإذا كان غير مؤمن فيسرقها، أو يأخذها تسولاً، أو يقطفها، فطريقة انتقال هذه التفاحة إليك باختيارك، أما هي فلك، وطريقة انتقالها لك باختيارك، قال تعالى:

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾

[سورة الذاريات : 223]

اللهُ عز وجل كريم جبار :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

[سورة الروم: 40]

لم يستعمل الله سبحانه وتعالى الفعل المضارع " ثم يرزقكم "، لا،

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ﴾

وانتهى الأمر، ولا يوجد مثل أجمل من سيدنا عبد الرحمن بن عوف، لما هاجر إلى المدينة المنورة قال له أحد الصحابة الأنصار: هذا نصف مالي فخذه، فقال له: بارك الله لك في مالك، ولكن دُلَّني على السوق، لا يوجد أجمل من عرض الخير على المؤمن، والأجمل منه التعفف عنه، ولذلك جاء في المثَل العربي:

((الأَسْوَاقُ مَوَائِدُ الله فِي أَرْضِهِ))

[مجمع الأمثال للميداني]

قل: يا رب واذهب إلى السوق، ولقد سمعت آلاف القصص، اشترى بضاعة، وقال: يا رب فبيعت، قال لي أخ: من يومين اشترى بضاعة، و لم تباع لمدة أسبوعين و لا لشهرين، اشتراها بمال شخص، فلما شاهد هذا الشخص أن هذه البضاعة ما بيعت، قال له: أرجعها، قال له: إنه من العيب أن نعيدها، والله عز وجل كريم، وهو واقف جاءه مشترٍ فاشتراها كلها، ومنها تعلَّم درسًا لا ينساه، فإن الله جبار.

وأحيانا الإنسان يشتري بعين الجبر، والله عز وجل يكرمه أنه يبيع البضاعة بعين الجبر أيضاً، وهناك أناس يبيعون البضاعة وعينهم فيها، وثمة تاجر يبيع البضاعة وتخرج من عينه، والذي يشتريها يربح منها، فعلى الإنسان ألاّ تكون عينه في البضاعة، والمثل العربي يقول: "الأَسْوَاقُ مَوَائِدُ الله فِي أَرْضِهِ ، فابتغوا الرزق عند تزاحم الأقدام".

كل الأعمال شريفة ولكن العار أن يكسب الإنسان رزقاً حراماً :

وعن سالم مولى زيد بن صوحان قال: كنت مع مولاي زيد بن صوحان في السوق فمر علينا سلمان الفارسي وقد اشترى وسقا من طعام، فقال له زيد: يا أبا عبد الله تفعل هذا وأنت صاحب رسول الله ﷺ؟ فقال:

((إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت وتفرغت للعبادة وأيس منها الوسواس))

[رواه الطبراني في المعجم الكبير]

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضاً:

((لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

فلأَنْ تجمع حطبًا، وتبيعه بخمس ليرات خير لك من أن تقف على باب غني فيذهب ماء وجهك، ويذهب ثلثا دينك، وكل الأعمال شريفة، ولكن العار أن تكسب رزقاً حراماً، والعار أن تفعل العار، وأن تعصي الله عز وجل، مثلاً أمام باب الجابية ترى أناساً جالسين معهم أدوات تعزيل المجاري، هل يجوز أن تقول: ما هذه المهنة؟ واللهِ الذي لا إله إلا لهو أشرف مليون مرة من السرقة، ومن كسب المال الحرام، ومن الخداع، ومن الأساليب المعروفة في كسب المال، وهذا العمل الذي لا يطاق أشرف ألف مرة من عمل آخر مظهره فخم، ولكنه مبني على الغش، والدجل، والكذب، والربا، ومبني على أخذ المال بسيف الحياء، ولكن بعض الحرف نهى النبي عليه الصلاة والسلام المسلمَ أن يحترفها، ألم يقل لكم قبل قليل: واستجملوا مهنكم، وأجملوا في الطلب، أي استجملوا مهنكم:

((... أيها الناس إنه ليس من شيء يقربكم من الجنة ويبعدكم من النار إلا قد أمرتكم به، وإنه ليس شيء يقربكم من النار ويبعدكم من الجنة إلا قد نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين نفث في روعي، أنه ليس من نفس تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعاصي الله، فإنه لا ينال ما عند الله إلا بطاعته))

[أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه عن عبد الله بن مسعود]

وقد قلت كلامًا قبل قليل: لو أن هناك خيارًا بين هذا العمل وعمل حرام، فهذا العمل خير بلا ريب، ولو خيرت أن تعمل في هذا العمل الشاق الذي يحتقره الناس وبين أن تأخذ رشوةً، أو مالاً حرامًا، أو أن تخدع، أو أن تدلس، واللهِ إنّ هذا العمل أشرف بألف مرة، فاستجملوا مهنكم، وفي الأثر:

((من فتح على نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر))

وفي الآثار أن لقمان الحكيم قال لابنه:

((يا بني استغنِ بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال، رقة في دينه....))

إذا كان الإنسان فقيرًا لم يهتم كثيرًا بالحلال والحرام، يريد مالاً حلالاً، أو حرامًا، أو شبهة، يجوز أو لا يجوز، فالفقر يسبب رقة بالدين.

من علامات المؤمن التجمُّلُ في الفاقة والشكر في النعمة :

واللهِ ثمّة موقف لا أنساه حتى الموت؛ كنت أخطب الجمعة، ولما انتهت الخطبة توقف رجل ملء السمع والبصر، فصيح اللسان، متكلم، يرتدي زياً إسلامياً، وتحدث للناس عن سيدنا عمر، وعن الإسلام، وعن الصلاة، وبعد أن أنهى حديثه طلب من الناس المعونة، فلو كان عاجزًا لجاز له ذلك، ولكنه يمكن أن يشتري خضاراً ويبيعها، لكن كل هذا الحديث الجميل من أجل أن تطلب من الناس؟ فهذا الدين عظيم، فليس لك أنْ تهينه، ولا أنْ تستخدم الآيات والأحاديث والسيرة من أجل أن تطلب من الناس المال، ولا تشكو مرضًا ولا علة، قال تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة : 273]

تظنه غنيًا، يلبس لباساً أنيقاً، ومن علامات المؤمن التجمُّلُ في الفاقة، والشكر في النعمة، أناس أحضروا قراء قرآن لميتهم، وقدّموا لهم موزًا، فوضعها أحد القرّاء إلى جانبه، وعندما ذهب نسيها، فتذكر ورجع وقرع الباب؛ أعطوني الموزة، هذا القرآن يحتاج غير هذا المستوى.

استغنِ بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال، رقة في دينه، يضعف دينه، يشتهي أن يأكل.

إتقان العمل جزء من الدين :

لذلك أحد أمراض المسلمين الكسل، ترى أرضًا قاحلة فيها مضافة؛ قهوة وشاي، قمْ و ازرعها، سوّرها واحفر بئرًا، وتحرك:

((مَنْ أَحْيَى أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ))

[الترمذي عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ]

في هذا الحديث قانونٌ للإصلاح الزراعي، تذهب زوجته تعمل وهو قاعد، ترعى وتحصد، وتطعم البقر والدواب، وتحلب البقر، وتطبخ وهو جالس، الكسل سمة فادحة، هذا الإنسان فيه رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهابٌ لمروءته، وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به، فإذا كان له عمل كانت له مكانة، فلان مختص، أحيانا تقف عند ميكانيكي سيارات، فتراه مثل الطبيب يعتز بنفسه، ومعه الحق، وتحتاج إليه لأنه خبير، تترجاه، وتعامله

بأدب لأنه خبير، من أين جاءت مكانته؟ من خبرته، وأحيانا تقف أمام نجار بكل أدب، تريد باباً متقناً، من أين جاء النجار بمكانته؟ من إتقان عمله، وله مصلحة، فأنا أحضكم على العمل، وعلى الإتقان، والشيء المؤسف أن الأجانب أتقنوا عملهم فربحوا أرباحاً طائلة، يقول لك: الين الياباني أسعاره ترتفع، وكذا المارك الألماني، لماذا؟ لأن عندهم بضاعة متقنة جداً، وعليها طلب شديد، يقول لك: لا تستطيع أن تبيع إلاّ بعد شهرين، لأنّ البضاعة محجوزة، وإنتاج المعمل محجوز لسنتين، وهذا من كثرة الإتقان، وهذه أخلاق المسلمين، وإتقان العمل جزء من الدين، فترى الصناعة الأجنبية ثمنها عشرة أضعاف، الثياب مستقيمة، والأزرار في مكانها، والعروة جيدة، والخيط متين، بإتقان بسيط رفع السعر عشرة أضعاف، فإتقان العمل جزء من الدين.

"يا بني استغنِ بالكسب الحلال عن الفقر، فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال؛ رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم هذه الثلاث استخفاف الناس به".

الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة :

لكن بالمقابل لا نريد من الإنسان أن ينغمس في التجارة، وينسى دينه، ينسى الصلاة، وأداء واجباته، وينسى حضور مجالس العلم، ويكسب مالاً حرامًا، ويتعامل بالربا ويقول لك: أنا مضطر، لا يوجد اضطرار هنا، وبالمقابل إذا كان النبي الكريم نهى عن الكسل لم يأمر بالانغماس في الدنيا، قال تعالى:

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾

[سورة الملك : 15]

الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة، فإذا كانت التجارة فيها مواد مشبوهة، أو بضاعة محرمة، أو كذب، ونفاق، ومعاملات ربوية، فوالله لأنْ تضغط مصروفك فيكون قليلاً خيرٌ لك ألف مرة من هذا الكسب الحرام العريض.

أقوال في طلب الرزق :

سيدنا عمر يقول: "لا يقعدن أحد عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة".

رجل قال في الشيخ محي الدين– وكان زاهدًا لا يريد أن يعمل–: أما رزقي فعلى الله، جلس في طرف المسجد، وزعوا خبزًا، وهو ما قال ولا كلمة، فما أعطوه، بقي بلا خبز، في الظهر وزعوا طعاماً وما طلب فما أعطوه، في المساء دخلوا فتنحنح، يريد أنْ يقول: إنني موجود هنا، حتى جاء نصيبه من الأكل، فأنت تحتاج إلى حركة، ومن دون حركة لن يصلك شيءٌ.

إن الله كتب عليكم السعي فاسعوا، وكان زيد بن مسلمة يغرس في أرضه فقال له عمر رضي الله عنه: أصبت استغن عن الناس يكن أسلم لدينك، وأكرم لك عليهم.

وسيدنا ابن مسعود يقول: "إني لأكره أن أرى الرجل فارغًا لا في أمر دنياه، ولا في أمر آخرته "، ليس عنده شيء، وسئل إبراهيم عن التاجر الصدوق أهو أحب إليك أم المتفرغ للعبادة؟ فقال: التاجر الصدوق أحبّ إليّ لأنه في جهاد يأتيه الشيطان عن طريق المكيال والميزان ومن قبل الأخذ والعطاء فيجاهده.

سيدنا عمر يقول: "ما من موضع يأتيني الموت فيه أحبّ إليّ من موطن أتسوق فيه لأهلي، أبيع وأشتري "، هذا عمل شريف، قال: "ربما يبلغني عن الرجل يقع فيّ، يتكلم عليّ ويذمني، فأذكر استغنائي عنه فيهون عليّ ذلك "، إنسان تكلم عليك وأنت لست بحاجته، أما إذا كنت في حاجة إليه وتكلم عليك فهذه هي النار، واللهِ واللهِ – مرتين – لحفرُ بئرين بإبرتين، وكنسُ أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين، ونقلُ بحرين زاخرين بمنخلين، وغسلُ عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهونُ عليَّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين.

هذه كلها من المستحيلات، تنقل بحرين بمنخلين، تكنس أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين، وتحفر بئرين بإبرتين، وتغسل عبدين أسودين حتى يصيران أبيضين !! هذا كله من المستحيلات، ومع ذلك فهي أهون عليَّ من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين.

احتجْ إلى الرجل تكن أسيرَه، واستغنِ عنه تكن أميرَه، قد لا تملك شيئاً، ولكن استغناؤك عن الناس يجعلك غنياً، وسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه التقى برجل أثنى عليه النبي عليه الصلاة والسلام ولم يره، قال له: ألك حاجة؟ قال له: معي درهمان متى تراني أصرفهما.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ]

قال لي رجل: أنا مصروفي ثلاثمئة ألف في السنة، ولا تكفيني، فأصابه مرض عضال فقال: الإنسان تكفيه ألف ليرة في الشهر، من ثلاثمئة ألف في السنة إلى اثني عشر ألفًا، فما كان يعرف قيمة الصحة، والذي عنده صحة طيبة فليشكر الله عز وجل إلى أكثر الحدود.

جاءت ريح عاصفة في البحر، فقال أهل السفينة لإبراهيم بن أدهم – رحمه الله –وهذا العالم الجليل مدفون بمدينة جَبْلَة، في مسجد على البحر تماماً، وكان معهم فيها: أما ترى هذه الشدة؛ رياح عاتية، وأمواج كالجبال، والسفينة على وشك الغرق، فقال إبراهيم بن الأدهم: "ما هذه الشدة، قالوا: وما الشدة إذاً؟! قال: الشدة أن تحتاج إلى الناس، فهذه هي الشدة ".

وقال أيوب: قال لي أبو قلابة: "الزم السوق فإن الغنى من العافية ".

الاستغناء عن الناس يسبب صحة نفسية و توازناً :

إذا افتقر الإنسان أصبحت عنده حساسية كبيرة، ما زارني فلان، احتقرني، فيبني قصورًا من الوهم، وكلها أمراض نفسية، أسبابها التولي الاجتماعي، فإذا كنت متخلفًا عن أقرانك، ومعك أمراض نفسية خاصة، وحساسية مفرطة، فإنك تعاتبهم لأتفه الأسباب، وتعتقد أنهم يحتقرونك، وهم لا ينتبهون إليك إطلاقاً، فلما يستغني الإنسان تنشأ عنده صحة نفسية، ويتوازن، فإذا زاروك فإنه يزورونك وأنت مستغنٍ عنهم.
وقد سئل إنسانٌ سؤالاً: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مجلسه وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي))

[أحمد عن ابن عمر]

الله مسبب الأسباب و الإنسان بحاجة إلى سعي و طلب :

وقال عليه الصلاة والسلام حينما ذكر الطير:

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[الترمذي عن عمر]

ولكن لا أحد ينتبه إلى هذا الكلام، دققوا: تَغْدُو وَتَرُوحُ، فهناك سعي، والطير متوكل على الله.

وعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[الترمذي عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ]

السر في هذا الحديث أنها تغدو وتروح، فثمّة حركة وسعي، أحد أخواننا ذهب إلى الحجاز في أيام الحج، قال لي: شاهدت نخلة، فأردت أن أهزها كما فعلت السيدة مريم، فما اهتزّت معي ولا سنتمترًا ولا ميليمترًا، فما هذه الآية؟

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً ﴾

[سورة مريم:25]

قالوا: هذه كناية عن السعي، وليس بهزها ينزل التمر، فإنها لا تُهزّ، ولكنها كناية عن السعي، تحرك، فكّر بشيء، اشترِ بضاعة وبعها، اسأل، واخرج من بيتك وادخل إلى السوق، فإنّ الله عز وجل يرزقك بالحركة، وكل شيء بقوانين دقيقة في الأرض، والله مسبب الأسباب، وأنت تحتاج إلى طلب.

وللحديث بقية، والفصل طويل، ولكن نحن بحاجة ماسة إليه، لأن العمل شيء أساسي.

حاجة الإنسان إلى الطعام و إلى كسب ثمنه :

انتهينا من الطعام، وانتقلنا إلى كسب الطعام، وأجمل شيء في القرآن الكريم لما ربنا عز وجل وصف الأنبياء فقال:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾

[سورة الفرقان:20]

فيأكل الطعام ليبقى حياً، ويمشي في السوق ليشتري الطعام، فأنت بحاجة إلى الطعام، وبحاجة إلى كسب ثمنه.

***

النبي عليه الصلاة والسلام أعظم الناس حياءً لأنه أعظمهم إيماناً :

وسننهي هذا الدرس بفصل عن سيدنا رسول الله ﷺ، كان عليه الصلاة والسلام أعظم الناس حياءً لأنه أعظمهم إيماناً .

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَجُلٍ وَهُوَ يُعَاتِبُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ يَقُولُ إِنَّكَ لَتَسْتَحْيِي حَتَّى كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ أَضَرَّ بِكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ الْإِيمَانِ))

[متفق عليه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

والحياء والإيمان قُرِنا جميعاً، فإذا رُفع أحدهما رُفع الآخر، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم:

((أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

العذراء العزبة المصونة التي ربيت تربية صالحة، فلو ذكرت أمامها كلمة تخدش الحياء لأصبح وجهها كالتوت، والنبي الكريم كان:

((أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنْ الْمَحِيضِ فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ قَالَ خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا قَالَتْ كَيْفَ أَتَطَهَّرُ قَالَ تَطَهَّرِي بِهَا قَالَتْ كَيْفَ قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ تَطَهَّرِي فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ فَقُلْتُ تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[متفق عليه عَنْ عَائِشَةَ]

إنه الكلام اللطيف الواضح، كان " أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا "، وهذا الوقح الذي يمزح مزاحاً خبيثاً فاحشاً، ويسمي العورات بأسمائها يخجل الناس منها فليس فيه إيمان إطلاقاً، ومن علامات الإيمان الحياء:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَإِذَا كَرِهَ شَيْئًا عُرِفَ فِي وَجْهِهِ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ]

والله تعالى أيضاً حيِيٌّ، عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ))

[أبو داود عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ]

أراك لا تستحيي من ربك خذ إجارتك لا حاجة لنا بك، عن ابن جريج قال: بلغني أن النبي ﷺ خرج فإذا هو بأجير له يغتسل في البر قال:

((أراك لا تستحيي من ربك خذ إجارتك لا حاجة لنا بك))

[كنز العمال عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيّ]

وقال البخاري في صحيحه: بَاب مَنِ اغْتَسَلَ عُرْيَانًا وَحْدَهُ فِي الْخَلْوَةِ، وَمَنْ تَسَتَّرَ فَالتَّسَتُّرُ أَفْضَلُ وَذكر حديث بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ))

[البخاري عن بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

وعن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((الْحَيَاءُ لا يَأْتِي إِلا بِخَيْرٍ، فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ: إِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ أَنَّ مِنْهُ وَقَارًا وَمِنْهُ سَكِينَةً، فَقَالَ عِمْرَانُ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صُحُفِكَ))

[البخاري عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ]

وبلغ من حيائه ﷺ أنه لم يواجه أحدًا بما يكره بل يعرض بذلك، أو يأمر بعض أصحابه أن يصارحه بذلك، وكان النبي ﷺ لا يواجه أحدًا في وجهه بشيء يكرهه.

دخل عليه رجل يومًا وعليه أثر صفرة فلما قام قال لأصحابه: لو أمرتم هذا أن يغفل هذه الصفرة، أما أن يواجه إنساناً بخطئه وجهاً لوجه ما كان ليفعله، وهذا لشدة حيائه وحبه للناس.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 29 : صلاة الجنازة 1 ....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلاة الجنازة :

موضوع الفقه اليوم صلاة الجنازة، وهي فرض كفاية، ومعنى أنه فرض كفاية أي إذا قام به البعض سقط عن الكل، ويُقابل فرض الكفاية فرض العين، الذي إذا لم يقم به المسلم لم يسقط عنه.

فروض صلاة الجنازة :

1 . إسلام الميت :

وأركان صلاة الجنازة التكبيرات والقيام، وفروضها ستة:

أولاً: إسلام الميت " أن يكون مسلماً "، أي إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام نُهي عن الصلاة على المنافقين، قال تعالى:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

[سورة التوبة: 84]

شُرِعت صلاة الجنازة وزيارة القبور من هذه الآية:

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾

[سورة التوبة: 84]

والنبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يُصلي على من عليه دَين، فإذا توفي بعض أصحابه الكِرام يسأل هذا السؤال التقليدي: " أعليه دينٌ؟ "، فإن قالوا: نعم يقول: " صلّوا على صاحبكم "، إلى أن يقول أحدهم: يا رسول الله عليَّ دينه؟ فقد روى البخاري في صحيحه:

((عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَقَالَ هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ قَالُوا لَا فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى فَقَالَ هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ قَالُوا نَعَمْ قَالَ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ قَالَ أَبُو قَتَادَةَ عَلَيَّ دَيْنُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَصَلَّى عَلَيْهِ))

[البخاري عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فأركانها التكبيرات، والقيام، وفروضُها ستة؛ إسلام الميت وقد ذكرناه أولاً.

2 . طهارته :

وطهارته، لا يُصلّى على الميت إلا بعد أن يكون قد غُسِّلَ التغسيل الشرعي.

3 . تقدمه أمام القوم :

تقدّمه أمام القوم: يجب أن يوضع النعش الذي فيه الميت أمام القوم الذين يصلون عليه.

4 . حضوره :

حضوره؛ أن يكون الميت في هذا النعش، أو حضور أكثر بدنه، أي نصفه مع رأسه، فنصف المتوفى مع رأسه يدخل في باب حضوره.

5 . أن يكون المصلي غير راكبٍ :

ويجب أن يكون المصلي غير راكبٍ.

6 . أن يكون الميت على الأرض :

وأن يكون الميت على الأرض، فلا يجوز أن يُصلي المصلي على ميتٍ وهو راكب، ولا أن يكون الميت محمولاً ويُصلّى عليه، فيجب أن يكون على الأرض، فإن كان على دابةٍ أو على أيدي الناس لم تجُزْ عليه الصلاة، إلا إذا كان هناك عُذر قاهر.

سنن صلاة الجنازة :

1 . قيام الإمام بِحذاء صدر الميت :

وسُنن هذه الصلاة أربعٌ: قيام الإمام بِحذاء صدر الميت.. فيجب أن يقف أمام صدره، أي أمام قلبه.. ذكراً كان أو أنثى.

2 . الثناء بعد التكبيرة الأولى :

الثناء بعد التكبيرة الأولى: "سبحانك اللهم وبحمدِكَ، وتبارك اسمُكَ، وتعالَى جدُكَ، ولا إله غيرُك، والصلاة على النبي بعد التكبيرة الثانية: "اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آلِ سيدنا محمد"، بعض الفقهاء ينصُّ أنهُ قد أُثِرَ عن النبي ﷺ قراءة الفاتحة والصلاة على رسول الله ".. فإن صليت على النبي أجزأكَ هذا، وإن قرأت الفاتحة أجزأكَ ذلك.

3 . الدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة :

وأمّا بعد التكبيرة الثالثة فتدعو للميت بما شِئت، وبأي صيغة شِئت، وبأي دُعاءٍ شِئت، لكنَّ النبي عليه الصلاة والسلام وقد أوتي جوامع الكلم كان يدعو بهذا الدعاء:

((عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَنَازَةٍ فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّهِ مِنْ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنْ الدَّنَسِ وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ قَالَ: حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذَلِكَ الْمَيِّتَ))

[مسلم عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ]

ثم يُكبّر التكبيرة الرابعة وبعدها يُسلّم، وبعض الفقهاء يقولون: " يدعو لنفسِهِ بعد الرابعة ثم يُسلّم "، فإذا سلّمتَ بعد الرابعة أجزأكَ ذلك، وإن دعوت لنفسِكَ بعد الرابعة أجزأكَ ذلك:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَنَازَةٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِحَيِّنَا وَمَيِّتِنَا وَصَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا وَذَكَرِنَا وَأُنْثَانَا وَشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ وَلَا تُضِلَّنَا بَعْدَهُ))

[أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

4 . عدم رفع اليدين في غير التكبيرة الأولى :

لا يرفع يديه في غير التكبيرةِ الأولى، فقط في التكبيرةِ الأولى، أمّا الثانية والثالثة والرابعة فلا يرفع المُصلي يديه، ولو كبّرَ الإمام خمساً لم يُتبع.

ومن الأدعية المأثورة: " اللهم اجعله لنا خلفاً واجعله لنا أجراً وذخراً واجعله شافعاً مُشفّعاً "، هذا الذي جاء في مراقي الفلاح عن صلاة الجنازة:

كل ابن أنثى و إن طالت سلامت ه يوماً على آلة حدباء محمول

فإذا حملت إلى القبور جنـازةً فاعلم بأنكَ بعدها محـمولُ

***

من استحضر مشاهد الموت صغُرت الدنيا في عينيه وانتقلت من قلبِه إلى يده :

ولا بُد من أن ندخل المسجد ليُصلّى علينا، فهنيئاً لمن دخله طوالَ حياتِهِ ليُصلي، فإذا أُدخِلَ المسجد ليصلّى عليه يقال: قد كان من قبلُ يُصلي، أما إن كان لا يُصلّي وأُدخِلَ إلى المسجد ليُصلّى عليه فلن يسمع المصلون على الميت الآلام التي تعتلج في صدره، وهو يقول: ليتني كنت أصلي، قال عز وجل:

﴿ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴾

[سورة القلم: 43]

أنا وأعوذ بالله من كلمة أنا، أرى أنَّ مشاهد الموت يجب ألاّ تغيب عن أذهاننا، إن الموت شيء لا بُدَّ من أن يقع، وأنت متشائم، لا علاقة لهذا الكلام بالتشاؤم ولا بالتفاؤل، الموت لا بُدَّ من أن ينزل بنا جميعاً، فإذا حضر الإنسان حضرَ مشاهد الموت، وحالة النِزاع، أين سيتم تغسيله، وأين سيتم دفنه، ومن سيخرج في جنازته، وماذا سيكتب على نعوتهِ، أولاده، أخوته، أصهارُهُ، انظر ماذا سيُكتب: عميد أسرتهم، أو الشاب، أو المحامي، أو الطبيب، أو المربي فلان، فلا بُدَّ من أن يُكتب شيء، فقُم باستحضار مشاهد الموت، فإذا استحضرتها صغُرت

الدنيا في عينيك، وانتقلت من قلبِكَ إلى يدِك، ولقد صدَق مَن قال:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول

***

من زحزح عن النار و أدخل الجنة فقد فاز فوزاً عظيماً :

تصوّر ما بعد الموت؟ وماذا سيحصل؟ وماذا سيفعل أولادك بالسيارة؟ هل تنتصر أمهم عليهم فيبيعونها أم ينتصرون عليها فيبقونها؟ ماذا سيفعلون؟ ماذا سيفعلون في هذه الخزانة التي فيها محتوياتُكَ الثمينة؟ ومن سيفتح هذه الخِزانة؟ كيف ستوزّع هذه المحتويات؟ هذه مشاهد تهزُّ النفس، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن النور إذا دخل الصدر انفسح قيل هل لذلك من علم يعرف به؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله))

[كنز العمال عن ابن مسعود]

والبطولة كما قُلنا: ليس من يقطع طرقاً بطلاً، هناك جرائد لمن يحرز أرقامًا قياسية في الجري، أو في السباحة، أو في القفز العالي، أو في هذه اللعبة، أو في تلك... وهؤلاء يُسمّونَ في مصطلح الدفتر أبطالَ العالم، فهذا حاز الميدالية الذهبية، وذاك البرونزية، والثالث على الفضية:

ليس من يقطع طرقاً بطلاً إنما من يتقِي الله البـطلُ

***

فإذا جاءه مَلَكُ الموت، وزُحزِحَ عن النارِ، وأُدخل الجنة فقد فاز، قال تعالى:

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾

[سورة الحديد: 20]

أحفظُ حديثاً يقصم الظهر، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَن عدَّ غدًا من أجله فقد أساء صحبة الموت))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

أسطوانة الغاز فرغت، فقلت في نفسك: غداً سوف أبدلها، ولم تقل: إن شاء الله، طبعاً غداً سأعيش، عندي خمسون أو ستون موعدًا...

((مَن عدَّ غدًا من أجله فقد أساء صحبة الموت))

[البيهقي في شعب الإيمان عن أنس]

من نام ليلةً واحدةً من غير وصية وكان في ذمتهِ حقٌ لم يُصرّح بِهِ فقد نام آثماً :

حدثني أخ قصة عن رجل اشترى بيتًا، ونصف ثمن البيت من زوجته، وأهمل إفراغ هذا البيت باسمه وباسم زوجتهِ إلى أن أدركته المنية، وزوجته بعد أن توفي زوجها لم يعترف لها أهلهُ بأنها دفعت نصف ثمن هذا البيت، فتألمت ألماً شديداً وأخذت في اجتماعاتٍ مطوّلة بين إخوته وأقربائه، وقدّمت لهم الأدلة على أنها دفعت نصف ثمن البيت، باعت هذا المحل التجاري، وأعطت الثمن لزوجِها، وبعد اجتماعاتٍ دامت أكثر من سنة ونصف اتفقَ أقرباء زوجها على أن يعطوها عشرة أسهم من أربعة وعشرين سهماً فوافقت، والآن التقى الجميع بمالك البيت، هذا البيت تمَّ شراؤه قبل خمس سنوات، والآن ثمنه مليون، هل تفرغ لنا البيت؟ قال: نعم حباً وكرامة، هذا من حقِكم، فأُعطي الأمر إلى بعض الناس لإجراء معاملة الفراغ، وانتهت المعاملة، وبقي أن تنزل إلى دوائر التسجيل العقاري، وينتقل هذا البيت إليها، والموعد يوم السبت، فتوفيت يوم الخميس.. هذا هو الموت.. سنة ونصف من الاجتماعات.. باعت دكانها... ثم ماتت:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامت ه يوماً على آلة حدباء محمول

***

البطولة أن تُكثر من هذه اللذّات، مفرّق الأحباب مُشتت الجماعات.

عِش ما شِئت فإنك ميت وأحبب من شِئت فإنك مفارقه، واعمل ما شِئت فإنك مجزيٌ به.

بالمناسبة: الفقهاء قالوا: " لا بُدَّ من وصيةٍ واجبة، الوصية أنواع، وأحد أنواع الوصايا الوصية الواجبة "، لمن كان في ذمتهِ حقٌ لم يُصرّح بِهِ، فهذا إذا نام ليلةً واحدةً من غير وصية فقد نام آثماً، لماذا؟ لأنَّ هذا الحق متعلّقٌ بِهِ، وقد لا يعترف الورثة بهذا الحق.

* * *

من وقف موقف مذلةٍ في طلب الحلال وجبت له الجنة :

والآن إلى فصلٍ مُختار من إحياء علوم الدين عن الكسبِ والمعاش، يُروى أن الأوزاعي لقي إبراهيم بن الأدهم رحمهما الله وعلى عُنُقِهِ حزمة حطبٍ فقال له:" يا أبا اسحق إلى متى هذا؟ أخوانُكَ يكفونك؟ فقال: دعني عن هذا يا أبا عمر، إنه بلغني أنّ من وقف موقف مذلّةٍ في طلب الحلال وجبت له الجنة ".

قد يحمل الإنسان بضاعته، ويدخل إلى محل تجاري، فدخولك لهذا المحل التجاري لعرض هذه البضاعة، وبيان ميزاتها وأسعارها، وصاحب المحل يجلس وراء مكتبه، وقد يعجبه وربما لا يُعجبه، وقد يقول لك: لست بحاجة لهذه البضاعة، وقد يطلب منك أن تبيعه إياها بسعرٍ منخفضٍ جداً.... فمجرّد الدخول على صاحب هذا المحل فيه بعض المهانة، ولكن هذه مهانةٌ يُحبُها الله عزّ وجل، لأنها في طلبِ الحلال، تبيع بضاعةً مشروعة بسعرٍ جيد معقول، وتطلب الربح المشروع كي تستر به عيالك.

فقال هذا الرجل للأوزاعي: "إنه من وقف موقف مذلةٍ في طلب الحلال وجبت له الجنة ".. في طلب الحلال.. وقال أبو سليمان الداراني: ليست العبادة عندنا أن تكفَّ قدميك وغيرُكَ يُطعِمُكَ.. ليست هذه عبادة.. ولكن ابدأ برغيفيكَ فأحرزهُما ثمَّ تعبّد.

الإحسان في المعاملة :

الآن: مع أحكام مرّت معنا بالتفصيل في فقه السُنّة؛ البيع والمضاربة والقرض وأنواع الشركة... منذ حوالي أشهر أو ستة أشهر كُنا في الحديث عنها بالتفصيل، ننتقل إلى موضوعات لم يسبق لنا أن عالجناها في فقه السُنّة. العنوان: الإحسان في المعاملة، قد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً.. فالإنسان يقرأ القرآن الكريم ولا ينتبه إلى هذه الأوامر.. أمر إلهي أنت مأمورٌ بالإحسان كما أنكَ مأمورُ بالعدل سواءً بسواء:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[سورة البقرة: 267]

أطعم وكُلْ، الناس ينسون أمر أطعم، ويتذكرون أمر كُلْ.. لا..

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة النحل: 90]

والعدلُ سببب النجاة، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال، والإحسانُ سببُ الفوزِ ونيل السعادة، فإذا أخذ الإنسانُ رأسَمالِهِ من بعض الشركات الاستثمارية ونفذ، يكون قد أحرزَ مالُهُ، فإذا أخذ رأسَ المال مع الرِبح فقد فاز.

العدل رأسُ المال والإحسانُ هو الربح :

أما إذا ذهب رأسُمالِهِ... فكيف الأمر؟! ولا يُعدُّ من العقلاء في الدنيا من قَنِعَ في معاملات الدنيا برأسِمالِهِ، هل يُعدُّ التاجرُ عاقلاً إذا باع بضاعتهُ برأسِمالِهِ!؟ لا بُدَّ من الربح، فالعدل رأسُ المال، والإحسانُ هو الربح، فمن عَدَلَ نجا، ومن أحسَنَ فاز، فلا ينبغي للمتديّنِ أن يقتصر على العدلِ واجتناب الدنيا، ويدع أبواب الإحسانِ، وقد قالَ الله تعالى:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾

[سورة القصص: 77]

وقال عزّ وجل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

[سورة النحل: 90]

وقال سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 56]

إذاً حتى في البيع وأنت في محل تجاري أنت مأمور أن تعدل، وأن تُحسن، فإذا عدلتَ نجوت، وإذا أحسنتَ فقد تفوّقت، العدلُ رأسُمالُك، والإحسانُ ربحُك.

رُتبة الإحسان في البيع والشِراء تُنال بواحدٍ من ستة أمور :

1 . في المغابنة :

تُنال رُتبة الإحسان بواحدٍ من ستة أمور:.. الإحسان في البيع والشِراء..

في المغابنة: فينبغي ألا يغبِنَ صاحِبَهُ، والغبن هُنا الربح الفاحش، والربح الفاحش ليس إحساناً في البيع والشراء، فأما أصلُ المغابنة فمأذونٌ بِهِ، ولا بُدَّ أن تبيعهُ بسعرٍ أعلى من سعر الشراء، وإلا من أين تأكل، هذه المغابنة، أي الزيادة عن رأس المال مشروعةٌ في أصلِها، ولكنها إذا ارتفعت كثيراً صارَ هذا إساءة في البيع والشراء. فإذا بذل المشتري زيادةً على الربح المعتاد، إمّا لشدّةِ رغبتِهِ، أو لشدّةِ حاجتِهِ في الحال إليه، فينبغي له أن يمتنع من قبولِهِ.. فانظر للإحسان في البيع والشراء.. إذا دُفِعَ لكَ في هذهِ السلعة سعرٌ فاحشٌ، وقد رضيَ المشتري أن يشتريّها وقَبِلتَ بهذا البيع، فأنت قد طبقّت العدل، أمّا إذا رفضت أن تأخُذَ ربحاً فاحشاً، فأنتَ قد طبقّت الإحسان، وإذا امتنعت من قبول الربح الفاحش في بيع البضاعة فأنتَ محسنٌ في البيع والشراء، وإذا لم يقع التلبيسُ لم يكن أخذ الزيادةِ ظُلماً.

ولو فرضنا لم تُلبِّس وقلت: هذه البضاعة هذه مواصفاتها، ولم تكذب، ولم تُدلّس، ولم تُغيّر، ولم تُبدّل، ولم توهم، وذكرت صفات البضاعة بدقة، ورضي المشتري أن يأخذها منكَ بسعرٍ عالٍ فهذا عدلٌ، أما إن لم ترضَ أنتَ بهذا الربح الفاحش فهذا إحسان، أما إذا كان هناك تدليس أو غش أو تغيير حقائق أو كتمان عيب فهذا ظلم، ولو أنكَ لم تُدلّس، ولم تكتم عيب البضاعة، ولم تكذب إطلاقاً، ورضيَ أن يشتريها المشتري بسعرٍ فاحش، وأنت رفضت ذلك، فهذا من الإحسان، فإذا قبلتَ ذلك فهذا من العدل، وموضوعنا اليوم " الإحسان في البيع والشراء وليس العدل ".

الغبنَ بما يزيدُ عن الثُلُثِ يوجِبُ الخِيار :

وقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ الغبنَ بما يزيدُ عن الثُلُثِ يوجِبُ الخِيار ، ومعنى الخِيار أنَّ المشتري إذا رَفَعَ أمره للقاضي مدعيَّاً الغبن، وتبيّن للقاضي أنَّ هذه السلعة بيعت بربحٍ يزيد عن ثُلُثِ ثمنِها، فللقاضي أن يرَدَّ البيع، وأن يفسخَ عقد البيع، وأن يُعيدَ الشيءَ إلى صاحِبِهِ.

يُروى أنهُ كانَ عِندَ يونس بن عُبيد حِلل، أي ثياب مختلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حلّةٍ منها أربعمئة.. نوع..، وضربٌ كل حلةٍ قيمتها مئتان، فمرَّ إلى الصلاة، وكلّفَ ابن أخيه في الدكان، فجاء أعرابي وطلبَ حُلةً بأربعمئة فعَرَضَ عليه من حُلَلِ المئتين فاستحسنها، ورضيها فاشتراها، فمضى بها وهي على يديه فاستقبله يونس فَعَرَفَ حُلتَهُ، فقال يا أعرابي: بكم اشتريتها؟ قال: بأربعمئة، قال: إنها لا تُساوي أكثر من مئتين، فارجع حتى ترُدّها، قال: هذه تُساوي في بلدِنا خمسمئة، وأنا أردتها، قال له يونس: انصرف فإنَّ النُصحَ في الدين خيرٌ من الدُنيا وما فيها، ثمَّ ردّه إلى الدُكان، وردَّ عليه مئتي درهم، وخاصمَ ابن أخيه في ذلك وقال: أما استحييت؟ أما اتقيت الله؟ تربحُ مِثلَ الثمنِ وتترُكُ النُصحَ للمسلمين؟ فقال: واللهِ ما أخذها إلا وهو راضٍ بِها، فقال: هلاّ رضيت له بما ترضاه لنفسِك؟ وهل رضيت بذلك؟ وهذا إن كان فيه إخفاءُ سعرٍ، وتلبيس فهو من باب الضُر، لكن شاهدها ليس هناك كذب، ولا تدليس، ولا إخفاء عيب، وارتضى أن يدفع ثمنها أربعمئة، طبعاً فيها إنصاف، ولكن ليس فيها إحسان، فهذا البائع ورع فردَّ فرقَ ثمن البضاعة.

قال عليه الصلاة والسلام:

((غبنُ المسترسلِ رِبا، غبن المسترسلِ حرام))

[الجامع الصغير عن جابر وعلي]

المسترسل أي الغشيم، فأحياناً تشعر المشتري أنه لا يعرف السعر، فتُريه بثلاثين، فهذا مثلاً قماش وطني سعر المتر سبع ليرات، وهذا قماش أجنبي سعر المتر خمس عشرة.. يقول لكَ: أي القماش بسعر سبع ليرات؟ وهو لا يعرف أن يُميّز.

غبنُ المسترسلِ رِبا :

حدثني أشخاص يبيعون، مثلاً يعرِض ثوب قماش فيقال له: عندك أفضل؟ فيجيبه: طبعاً ولكن بسعر أعلى، فيوافق، فيذهب ويُحضر القماش وهو القماش نفسه، والخام نفسه، والمعمل نفسه، فيمدّهُ بأصول، فيُريه أنَّ هذا غير ذاك، ويأخذ زيادة.

حدثني شخص: الثوب طرفه على الطاولة، والثوب في الأرض، فسأله المشتري هل عندك أفضل؟ فيقول: نعم.. فمدَّ الثوب نفسه لكن من الجهة الأخرى، فمدّه على الأرض، وأعطاه الطرف الآخر، وقال له: هذا نوع آخر، قال عليه الصلاة والسلام:

((غبنُ المسترسلِ ربا، غبن المسترسلِ حرام))

[الجامع الصغير عن جابر وعلي]

والسريّ الثقفي اشترى حاجةً بستين ديناراً، وكتَبَ في دفترِهِ " رِبحُها ثلاثةُ دنانير "، وكأنهُ رأى أن يربح على العشرةِ نِصفَ دينار، فصارت هذه السلعة بتسعين، فأتاه الدلال، وطَلَبَ الحاجة، فقال: خُذها، قال: بكم؟ قال: بثلاثٍ وستين، فقال الدلال وكان من الصالحين: إنَّ هذهِ الحاجة ثمنُها تسعون!؟ فقال السِرّي: قد عقدتُ عقداً لا أُحلُّهُ، ولستُ أبيعُها إلا بثلاثةٍ وستين، فقال الدلال: وأنا عقدتُ بيني وبينَ اللهِ ألا أغُشَّ مسلماً، ولستُ آخذُ منكَ إلا بتسعين، فقالَ: وأنا لا أقبلُ إلا ثلاثة وستين... فتشاجرا... وهذا محضُ الإحسانِ من الجانبين.. هكذا كان السلف الصالح.

وأحد الأشخاص أرسل ابنه ليشتري حاجةً، فقال له: يا ولدي، هذا الذي باعكَ إيّاها لا يعرف السعر، عُدْ وقُلْ له: يقول لكَ والدي: هذه في السوق أصبح ثمنها كذا، فذهب الابن للبائع، وقال له: والدي لم يقبل، قال البائع: لماذا!؟ سعرها معقول، فأجاب الابن: لا، ليس لذلك بل لأنَّ ثمنها مرتفع اليوم، فأرادَ أن يُعطيك فرق الثمن، فسأله البائع: والِدُكَ أمركَ بذلك!؟ فأجابه الولد: نعم، فقال له البائع: باركَ الله بكَ وبهذا الأب، أنا بِعتُكَ بهذا السِعر ولن أرجع.

فعندما يطمع الإنسان في أموال الناس يخسر.

من قَنِعَ بربحٍ قليل كثُرت معاملاتُهُ :

الآن إذا لم يعرف الإنسانُ السعرَ فسوف يُفلّس، وتجد أنَّ الناس قد تهافتت عليه، واشتروا ما عنده، ولم يبقَ شيءٌ، وقاموا بتخزين ما اشتروه، ثم باعوه، ولذلك في الأزمات الشديدة هناك تُجّار مسلمون لا يبيعون إلاّ للمستهلك.

تُروى قصص قد تكون رمزية: شخص ترك ثروة طائلة لابنه، وقال له: خذ بمشورة عمك، فاستشار عمه فأشار عليه بأخذ القمح، فاشترى أطنانًا من القمح وحصلت مجاعة، اشترى بعشر ليرات، وقد دفعوا له إحدى عشرة، فأشار عمه بأن لا يبيع، باثنتي عشرة، و لا بثلاث عشرة، و لا بخمس عشرة، و لا بعشرين، لا تبع، فصار هناك ربح مُغرٍ، حيث إنَّ الربح بالمئة مئة، وبعد ارتفاع السعر إلى أقصى حد قال له: كم السعر الآن؟ فقال عشر، فقال: الآن تبيع بإحدى عشرة، وكيلو كيلو،... فهذه قصة رمزية... ليس من المعقول أن يكون عمه

نصوحًا لهذه الدرجة!؟ حيثُ دُفِعَ خمسٌ وعشرون فقال له: بِعْ بإحدى عشرة، وكيلو كيلو، لكي تحُل مشاكل الناس، فأراد ألا يُخالف نصيحة عمه، وباع الكيلو بإحدى عشرة – هذه القصة رمزية – فأحصى النقود مثلاً باع طنين بسعر الكيلو إحدى عشرة ليرة فالسعر معروف، لكن النقود كانت مضاعفة، فعدها مرة ثانية فوجدها ثلاثة أضعاف، والرابعة أربعة أضعاف... فقال له: في كل مرة عددت النقود تزيد، لأنك نويت في هذا البيع قضاء حاجة المسلمين... أين هؤلاء الأشخاص !؟

إن أطيب الكسب كسب التجار، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا، السلف الصالح كان أحدهم في عمله التجاري في مُتعة بالغة، متعة الإحسان، حيث إنه يجلس في المحل التجاري لخدمة المسلمين، الجالب مرزوق، والمُحتكر ملعون، والآن لا يربح إلاّ إذا احتكر الصنف، حصره في نفسه، وأخفاهُ لفترة، وارتفع الثمن، فباعه بسعرٍ باهظ، حيث إنه يشعر بنشوة إذا اختلس من الناس أموالهم بهذا السعر....وقد كانوا قديماً يشعرون بالنشوة إذا يسّروا للناسِ مصالِحهُم.

هناك حديث لا أتصوره:

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدٍ]

لأنَّ كُل حياتنا لها علاقة مع التُجار، من السمن إلى الرز، وكذا التعامل مع النجار ومع الحداد... فإذا كان هناك إنصاف دون غش وكذب، وكان السعر معقولاً ورحمة، سوف تُحل مشاكل الناس، أمّا الآن فقد أصبح البيع معركة.

ومن قَنِعَ بربحٍ قليل كثُرت معاملاتُهُ، واستفاد من تكرارِها رِبحاً كثيراً، وهذه تُسمى في اللغة التجارية رأس المال، قَلَبَ مرتين ثلاثًا، وبه تظهر البركة، وكان عليٌ رضي الله عنه يدور في سوق الكوفة بالدُرّةِ ويقول: معاشر التجار خذوا الحقَّ تسلموا لا تردّوا قليل الربح فتُحرموا كثيره.

وقيل لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: ما سببُ وثارِكَ – أي غِناك –، قال هن ثلاث: ما رددتُ رِبحاً قط، ولا بِعتُ بنسيئةٍ، ويُقال: إنه باع ألف ناقةٍ فما رَبِحَ إلا عِقالَها، أي الزِمام، فباع كُلَّ عِقال بِدرهم، فَرَبِحَ ألف دِرهم، أي ما بِعتُ ديناً ولا استقللتُ رِبحاً.

2 . احتمال الغبن :

الشيء الثاني في الإحسان في البيع والشراء احتمال الغبن: تتحمّل أن تكون مغبونًا، لكن مع فقير، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيفٍ، أو شيئاً من فقيرٍ فلا بأسَ أن يحتملَ الغبنَ، ويتساهل وبهذا يكون مُحسناً، مثلاً شاهدت طفلاً يبيعك أمشاطًا.. طفل يتيم.. قال لك: هذا المشط بليرتين، وهو بربع الليرة! فإذا أعطيته الليرتين، وأخذت المشط ولو كان في ذلك غبن، فليس شراؤك من باب البيع، بل من باب الإحسان، حيث إنَّ هذا الطفل نفسه كريمة، لم يرضَ أن يمد يده للناس، فأراد أن يبيع أمشاطًا في الطريق، فإذا كان الغبن من فقير وضعيف فلا بأسَ أن تحتملَه، وبهذا تكون محسناً، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

فأما إذا اشترى من غنيٍ تاجر يطلب الربحَ زيادةً عن حاجتِهِ فاحتمال الغبنِ ليسَ محموداً، بل هو تضييعٌ للمالِ من غير عذرٍ ولا حمدٍ، فإذا اشتريت حاجةً من تاجرٍ غني، ورَفَعَ عليك الثمن، وبقيت ساكتاً، فأنت لستَ مأجورًا، ولستَ محمودًا، فقد وردَ في حديثٍ من طريق أهل البيت:

((المغبون لا محمود ولا مأجور))

[أخرجه الطبراني عن الحسن]

وكان إياس بن معاوية، وهو من عقلاء التابعين يقول: " لستُ بخبٍ والخبُ لا يغبِنُني ". والكمالُ ألا تغبِنَ ولا تُغبَنْ، كما وصفَ بعضُهم عمر رضي الله عنه فقال: "كان أكرمَ من أن يَخدع وأعقل من أن يُخدع".

وكان خيارُ السلفِ يستقصون في الشراء، أي يفاصلون، ثم يَهَبُونَ مع ذلك الجزيل، موقف الشراء من فقير فيه رأيٌ آخر، قال لك: ثمن كيلو العنب بثماني عشرة ليرة وهو باثنتي عشرة، فقلت: لا باثنتي عشرة، طلبت منه أربعة كيلو غرام، ثمنهم ثمان و أربعون ليرة، فأعطيته فوقهم خمساً و عشرين له، وهذا أفضل، لأنَّ السعر قُمتَ بتثبيتِهِ، ولأنكَ إذا أعطيته الثمن للأربعة مثلاً ثمانون ليرة استمرأ الغبن، والسلف الصالح هكذا يرى، فأنتَ حاسب البائع، وإذا كنت كريماً فهبْ له الزيادة هِبةً، ولا تُعطِه الزيادة ثمناً، لأنك إن أعطيته إياها ثمناً استمرأ ذلك، ورَفَعَ السعر على الفقراء أيضاً.

من حاسب الناس من غير تدقيق كان سبب إفسادهم :

وقد جاء في الأثر: "حاككوا البيع"، أي إذا قال لك شخص: هذا الحِساب، فطلبت منه أن تراه، قد يكون أضاف صفرًا في العشرات، فزاد الحساب مئة ليرة، عندما يرى البائع أنكَ حدّقت في الحساب، وبدأت بالجمع والطرح والتقسيم اجتنب أن يتلاعب، أما إذا قلت له: ما الحساب؟ فأجابك: مئتان و خمسون، قلت له: تفضل، وإذا ضاقت بالبائع الدنيا فقد يضيف خمسين ويقول: إنك لا تُدقق.

قال لي تاجر يملك معمل موبيليا، يتصلون به فرضاً أنْ أرسل لنا مئة متر من الخام، فيرسل ويضعها في المستودع... أرسل كذا.... والذين يُحضرون البضاعة شعروا أنَّ الذي يستلم لا يقوم بعملية العدّ، فأصبح يأخذ نصف البضاعة إلى بيته، ويُسلّمه على أنَّ البضاعة كاملة، فعدّ البضاعة من الدين، يعدّ البضاعة ويحرر إيصالاً.. هذه من الدين.. هذا الذي أرشد الصانع على أن يسحب نصف البضاعة خلال شهرين، والتاجر أجرى جرداً ووجد هناك تراجعاً حيث يدفع ثمن البضاعة أربعة أضعاف، وهي الربع بالتقريب، فأصبح هناك تراجع في بيعه وشرائه، وكشف الحادثة بعد عام، وبعد أن سرقوا منه مبالغ طائلة، ومن الناحية الشرعية فإنّ التاجر مُحاسب عنهم، حيث إنه أغراهم بهذا العمل.. قُم بعدّ المبلغ، واستلم بالعدد، ووقّع وحرر إيصالاً وسلّم... فهذا هو الشرع، أما من ناحية المباهاة ، ضع " استلمنا فقط " ما هذه!؟ وأيضاً إذا حاسبت الناس من غير تدقيق أمكنهم ذلك أن يتلاعبوا فتكون أنت سبب إفسادهم، وحملِهم على الفساد.

بطولة الإنسان في العطاء :

قيل لبعضهم: تستقصي في شرائِك على الوثير ثم تهب الكثير، ما هذا التناقض!؟ " ولا تُبالي!!؟ فقال: إنَّ الواهب يُعطي فضله، وأمّا المغبون فيغبن عقله، فإذا قام شخص بغبنك، أي إنه استغفلك، فالمغبون يغبن عقله أمّا الواهب فيُعطي فضله.

تُروى قصة على سبيل المثال أنَّ فقيرًا جاء النبي عليه الصلاة والسلام، فبعث به إلى أحد الصحابة الميسورين، وذهب إليه فإذا به يأخذ حبَّ البُرّ من أرضِهِ، فلم يدعُهُ، وفكر في نفسه أنَّ هذا الإنسان ليس من المعقول أن يُعطي، لأنه يأخذ حبَّ القمح من الأرض... فهذا إنسان بخيل.. فلما عاد إلى النبي قال له: رأيته يفعل كذا وكذا، قال له اذهب فاسأله، فذهب إليه فوجده ليس في وضع الذي يُعطي، لأنه حريص على المال حِرصًا بالغًا فلم يسأله، وفي المرة الثالثة قال له: بعثني رسول الله لكي تعطيني مما أعطاك الله شيئاً، فأخذه إلى مكان الإبل، وقال

له: انتقِ أحد هذه الإبل وخذها، فانتقى أكبرها، فلما أخذها تبِعَها عشر أخر، فقال خذها كلها، قال: عجبت لأمرك تجمع البُرّ وتُعطي هذا العطاء!؟ فقال له: نجمع هكذا لِننفق هكذا... وإذا كان الإنسان حريصًا في مصروفه فهذا ليس بُخلاً، ولكن البطولة في العطاء، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((من أدى زكاة ماله فقد وقي شح نفسه))

[كنز العمال عن علي بن أبي طالب]

بقي علينا استيفاء الثمن، وتوفية الدين، وأن يقبل الإقالة من العقد.. وهي ستة آداب تتعلق بالإحسان في البيع والشراء، وقد تحدثنا عن نوعين من هذه الآداب.

* * *

من شمائل النبي عليه الصلاة والسلام مهابته العظيمة وفخامته الكريمة :

والآن إلى بعض شمائل النبي عليه الصلاة والسلام: مهابته العظيمة وفخامته الكريمة: كان رسول الله ﷺ عظيم المهابة، وقد توّجه الله تعالى تاج العِزة والكرامة، وكفاه حلّة الفخامة، روى الترمذي وغيره عن أبي هالة يصف النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عن الحسن بن علي قال: سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي وكان وصافا عن صفة رسول الله ﷺ وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئا أتعلق به فقال: كان رسول الله ﷺ فخما مفخما يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر وأطول من المربوع وأقصر من المشذب.....))

[رواه الطبراني عن الحسن بن علي]

وقال سيدنا علي رضي الله عنه في وصفه للنبي: "من رآه بديهةً هابه ومن خالفه معرفةً أحبه".

من أول نظرة تهابه، وعلى التعامل تُحب، وهذه صفة النبي عليه الصلاة والسلام، ويجب أن يكون في أتباع النبي شيءٌ من هاتين الصفتين، له هيبته وله محبته.. له هيبته إذا رأيته، وله محبته إذا عاملته، ومن هابَ الله هابَهُ كُلُ شيء، من خاف الله خوّفَ منه كُلَّ شيء، ومن لم يَخف الله خوّفهُ الله من كُلِّ شيء. وكان الصحابة رضي الله عنهم لا يستطيعون إمعان النظرِ إليه لقوة مهابتهِ، ومديد وقاره، ومن ثمَّ لم يصفه إلا صغارهُ، فلم يفتهم شكله وعيناه وأذناه ورقبته وخداه.. إلا صغاره.. أما كبار الصحابة لشدة هيبته فكانوا إذا جلسوا في مجلسه كأنَّ على رؤوسهم الطير:

يُغضي حياءً ويُغضَى من مهابتِهِ فلا يُكلّم إلا حين يبتســم

****

وقد قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: "صحبتُ رسول الله ﷺ صحبةً طويلة، وسمعتُ منه أحاديثَ كثيرة، وحَفِظتُ عنه ألفَ مثل، ومع ذلك ما ملأتُ منه عيني قط حياءً منه وتعظيماً له ولو قيلَ لي صِفهُ لما قدرت".

قوة مهابتهِ ومديد وقاره :

ومن عظيم مهابتِهِ وكمال قدرِهِ أنه من جلس إليه ﷺ هابَهُ، وربما أخذته رِعدةٌ شديدة من قوة الهيبة المحمدية، لذلك كان عليه الصلاة والسلام يُباسِطهم ويُلاطفهم ليُسكّنَ روعهم.

((عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ]

تجد شخصًا أحاط نفسه بكل مظاهر العظمة، ومع ذلك تدخل عليه فلا ترتعد منه، هذه المهابة من الله عزّ وجل، فلمّا هوّن عليه نَطَقَ هذا الرجل بحاجتهِ فقام النبي ﷺ وقال: يا أيها الناس إني أُوحي إليّ أن تواضعوا ألا فتواضعوا حتى لا يبغِ أحدٌ على أحد ولا يسخر أحدٌ على أحد وكونوا عباد الله إخواناً.

((عن قيلة بنت مخرمة قالت:... فلما رأيت رسول الله ﷺ المتخشع في الجلسة أرعدت من الفرق فقال له جليسه يا رسول الله أرعدت المسكينة فقال رسول الله ﷺ ولم ينظر إليّ وأنا عند ظهره: يا مسكينة عليك السكينة، فلما قالها رسول الله ﷺ أذهب الله عني ما كان دخل في قلبي من الرعب...))

[رواه الطبراني عن قيلة بنت مخرمة في المعجم الكبير، وهو حديث طويل]

((عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ قَالَ: كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ قَالَ فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا هُوَ يَقُولُ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ قَالَ فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي فَقَالَ اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ قَالَ فَقُلْتُ لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[مسلم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ]

وفي رواية أخرى:

((قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ، فَقَالَ أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ))

[مسلم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ]

((عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ وَكَانَتْ زَيْنَبُ تُنْفِقُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَيْتَامٍ فِي حَجْرِهَا قَالَ فَقَالَتْ لِعَبْدِ اللَّهِ سَلْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَيْكَ وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حَجْرِي مِنْ الصَّدَقَةِ فَقَالَ سَلِي أَنْتِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدْتُ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ عَلَى الْبَابِ حَاجَتُهَا مِثْلُ حَاجَتِي فَمَرَّ عَلَيْنَا بِلَالٌ فَقُلْنَا سَلْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيَجْزِي عَنِّي أَنْ أُنْفِقَ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامٍ لِي فِي حَجْرِي وَقُلْنَا لَا تُخْبِرْ بِنَا فَدَخَلَ فَسَأَلَهُ فَقَالَ مَنْ هُمَا قَالَ زَيْنَبُ قَالَ أَيُّ الزَّيَانِبِ قَالَ امْرَأَةُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ نَعَمْ لَهَا أَجْرَانِ أَجْرُ الْقَرَابَةِ وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ))

[البخاري عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

فيجوز أن تدفع المرأة صدقتها لزوجها إن كان فقيرًا، وهي زوجة ميسورة وزوجها دخله محدود، وزكاة مالِها خمسة أو ستة آلاف، فإذا دفعت هذا المبلغ لزوجِها فلها أجرانِ، لأنَّ أقرب الناس لها زوجها، وعنده كِساء الأولاد في فصل الشتاء، ولا يوجد معه، فقالت له: هذه خمسة آلاف... فإذا قدّمت المرأة لزوجها قسطًا من دخلِها أو شيئًا من مالها جاز ذلك، وأحياناً ترِث مالاً من والِدها، فتضعه عند أخيها، وزوجها في أشد الحاجة، ويمكن للأخ أن يقول لها: لم نربح شيئًا، أمّا الزوج بهذا المال فأولى.

فهذا الحديث دقيق جداً: فإذا ورثت امرأة شيئًا وزوجها في حالة عُسر شديد، ورأته كأنه غريب فما هذا الزواج!؟ وما هذه العلاقة الزوجية المتفككة!؟ من أنتِ ومن زوجكِ.. سيان.. فأحياناً الأب لا يرضى أن يذهب المال للصهر؛ زوج البنت.. لقد ذهب لابنتكَ، أي إذا كان الصهر يسكن في بيت بأجرة، وأحرزت الزوجة مالاً فوضعته مع مال زوجها فأصبحا يمتلكان بيتًا فمن هو هذا الصهر؟ أليس زوج ابنتك!؟، أليس من الأفضل أن يسكنا في منزل ملك لهم!؟ هناك أناس أُفُقهم ضيّق، فهذا النبي عليه الصلاة والسلام قال: "لها أجران أجرُ القرابة وأجرُ الصدقة".

لا يجوز للإنسان أن يُعطي الزكاة لمن تجبُ عليه نفقته :

هناك نقطة أخيرة، لا يجوز للإنسان أن يُعطي الزكاة لمن تجبُ عليه نفقته، أي أن يدفع زكاة ماله لابنه في حجره، فهذا لا يجوز.. عليه زكاة مبلغ خمسة آلاف، وابنه ينقصه ثياب للعيد، فدفعها ثمن ثياب لابنه وجميع أولاده، أصبحت الحالة داخلية، والفقهاء قالوا: " لا يجوز إلا في حالةٍ واحدة إذا الابن حصل على وظيفة وتزوّج وصار مستقلاً عن الأب "، أي لم يبقَ على الأب نفقته، والابن اشترى بيتًا فدفع نصف ثمنه، فهل يجوز أن يُعطي الأبُ زكاة مالِهِ لابنه!؟ نقول: يجوز مع التأكيد، لأنَّ هذا الابن مستقلٌ في النفقةِ عن أبيه، وفي الأصل لا يجوز إلاّ إذا استقل في الإنفاق عن أبيه، فيصبح عندئذٍ جائزًا.

والآن حالة مُعاكسة: يجوز أن تُدفع الزكاة للأخت قولاً واحداً، إلا في حالة واحدة؛ إذا كانت الأخت تسكن مع أخيها ويُنفق عليها، فأصبح دفع الزكاة للأخت من توفير النفقات.

والشرع دقيق جداً: الأخت يجوز أن تُعطيها إلا إذا كانت في حِجرِكَ وتُنفِقُ عليها فلا يجوز، والابن لا يجوز أن تُعطيه الزكاة، فإذا كان مستقلاً عنك جاز.

تروي السيرة أنَّ بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام دفع زكاة مالِهِ لأخٍ له ليدفعها عنه، فأتى هذا الصحابي الموكّل بدفع الزكاة ودفع جزءاً من زكاةِ هذا المال لابن هذا الصحابي الذي أعطاه المال، فلمّا بلغه الأمرُ غَضِبَ غضباً شديداً، وتوجّه إلى النبي ﷺ ليشكو أخاه، كيف يُعطي زكاة مالِهِ لابنهِ المستقل عنه، فلما سَمِعَ النبيُ ما حدث أجازَ الصحابي " لأنه مستقل "، وهنا القصة أصبحت دقيقة: إذا كان ابنك متزوجًا ومستقلاً عنك في النفقة، وليس لك علاقة به فدفعت جزءًا من زكاة مالك له فأتمَّ به ثمن البيت، أو دفع المهر فهذا يجوز، وأباح الفقهاء أن تدفع الزكاة لأختِكَ إلاّ إنْ كانت تقطن في بيتك فلا يجوز، لأنَّ هذا من باب توفير النفقات.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 30 : صلاة الجنازة 2

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أحقُّ الناس بالصلاة على الميت :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع صلاة الجنازة إلى فصل " مَن أحقُّ بالصلاة على الميت؟ " فالسلطان أحق بالصلاة على الميت، ثم نائبه، ثم القاضي، ثم إمام الحي، ثم ولي الميت، هذا هو التسلسل، ولمن له حق التقدم أن يأذن لغيره، ومن له حق التقدم في صلاة الجنازة إماماً أن يأذن لغيره، فإن صلى غيرُه من دون إذنه فلصاحب الحق في التقدم إماماً أن يعيد الصلاة، فلو أن ميتاً أوصى أن يصلي عليه فلان، و بحسب الشرع، السلطان، ثم نائبه، ثم القاضي، ثم إمام الحي، ثم الولي، تقدم قواعد الشرع على وصية الميت في صلاة الجنازة، ولو أن ميتاً دفن من غير صلاة جاز أن تصلى صلاة الجنازة على قبره وهو مدفون، أمّا إذا اجتمعت الجنائز فالإفراد بالصلاة لكل منها، أي الأَولى أن يصلى على كل جنازة على حدة، و أما في الترتيب الزمني فيقدم الأفضل فالأفضل، وإن اجتمعت جاز أن يصلى عليها جميعاً مرة واحدة، بشرط أن تُصَفَّ النعوش على شكل رتل أحادي باتجاه المحراب، أي الرؤوس مع الرؤوس، الأول فالثاني فالثالث وهكذا، وجُعلت صفاً طويلاً مما يلي القبلة، حيث يكون صدر كلٍ قدام الإمام، ويقف الإمام تجاه صدر الأول، ووراء الأول صدر الثاني، و هكذا، و يراعى الترتيب؛ فيجعل الرجال مما يلي الإمام، ثم الصبيان، ثم النساء، ولو دفنوا في قبر واحد لحاجة ماسة عُكِس الترتيب، فيُبدأ بالنساء، فالصبيان، فالرجال باتجاه القبلة، أي الرجل مما يلي القبلة، ثم الصبي، ثم المرأة، أما في المسجد فمما يلي الإمام بعكس القبلة، وهذا هو الترتيب، ولو فرضنا أنّ رجلاً دخل مسجدًا يُصلى فيه على ميت فلا يجوز أن يقتدي بين تكبيرتين، بل ينتظر حتى يكبر الإمام فيدخل معه في أثناء التكبيرة، وبعد أن يصلي يتابع الذي يصلي متأخراً خلف الإمام، أما من كبَّر مع التكبيرة الرابعة التي بعدها سلام فقد فاتته صلاة

الجنازة، أي إذا دخل مع التكبيرة الرابعة فقد فاتته صلاة الجنازة، ومن استهل سُمَّيَ و ُغسل و صلي عليه، فأيّ طفل ولد حديثاً، وبمجرد أن ولد مات، فإذا استهل أي إذا رفع صوته بالبكاء سمِّي وغسل وصلي عليه وورث، فصوت البكاء هذا خلال ثانية غيَّر نظام الإرث كله، يروون حسب القواعد أن السلطان ثم نائبه ثم القاضي ثم إمام الحي ثم الولي هم أحق الناس على الترتيب بصلاة الجنازة إماماً، ويروى أن أحد القضاة وكان سيئاً جداً من حيث الأخلاق، تولى منصب القضاء، وبحكم هذه الأحكام فهو الذي يجب أن يصلي على الجنازة، فكان يسير خلفها في أثناء التشييع، ثم أعطى أمراً أن توضع على الأرض فوضعت، وأعطى أمراً أن يفتح النعش ففتح، فتقدم إلى أُذُن الميت وهمس في أذنه بعض الكلمات، ولشدة قسوته وجبروته وظلمه لم يجرؤ أحد أن يسأله، يا سيدي القاضي ماذا قلت للميت؟ قيل: بعد أيام وكان في انبساط سأله أحد المقربين إليه: يا سيدي ماذا قلت لهذا الميت؟ قال له: قلت له: لو أنك سئلت في الآخرة عن أحوال أهل الدنيا فقل لهم كلمة واحدة، قل لهم: إن فلاناً قد صار قاضياً وانتهى الأمر، أي هذه كلمة موجزة تنبئك عن شيء كثير، إن قيل لك: كيف أحوال أهل الدنيا؟ فقل لهم: إنّ فلاناً قد صار قاضياً، ذكرني هذا أن التسلسل السلطان، ثم نائبه، ثم القاضي، ثم إمام الحي، ثم ولي الميت.

أما إذا ولد ميتاً غسل في رأي أكثر الأئمة وأدرج في خرقة ودفن من دون أن يصلى عليه، ولا يصلى على باغ، أي على إنسان تجاوز الحدود، ولا على قاطع طريق قُتِل حال المحاربة، أي قتل في أثناء قطع الطريق، ولا على قاتل غيلة، ولا على مقتول عصبية، هؤلاء جميعاً لا يصلى عليهم، لأنهم خرجوا عن قواعد الدين، وفي درس آخر إن شاء الله تعالى نتابع موضوع الجنازة.

* * *

الإحسان في البيع والشراء :

والآن إلى بعض الفصول المختارة من إحياء علوم الدين، وما زلنا في موضوع الإحسان في البيع والشراء، وصلنا في الدرس الماضي إلى استيفاء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه مرةً بالمسامحة وحق بعضهم، ومرةً بالإمهال والتأخير، ومرةً بالتساهل في طلب جودة النقد:

((رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى))

[البخاري عَنْ جَابِرٍ]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ لَهُ أَظَلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ))

[مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت]

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِصَاحِبِ الْحَقِّ خُذْ حَقَّكَ فِي عَفَافٍ وَافٍ أَوْ غَيْرِ وَافٍ))

[ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

هذا ذكرناه في الدرس الماضي.

البند الرابع في الإحسان في البيع والشراء أن نمشي إلى صاحب الحق :

الآن البند الرابع في الإحسان في البيع والشراء، وفي توفية الدين؛ ومن الإحسان فيه حسن القضاء وذلك بأن نمشي إلى صاحب الحق ولا نكلفه أن يمشي إلينا، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة : 178]

ومن معانيها انتهاء الغائب، فيجب أن يؤدى الدين إلى بيت صاحب الدين، أو إلى محله التجاري، أو إلى المكان الذي أخذ منه، أما أن يقول من عليه الدين: تعال خذ، فهذا ليس من السنة، فإذا كان مسافراً فبعت بيعة لمدينة وأخبرته فقال لك: تعال وخذ بعض الثمن، وأنت حينما اشتريت البضاعة خرجت من مدينتك وسافرت إلى هذه المدينة، أما إذا جاء وقت وقال: دفع الثمن تعال وخذ فهذا ليس من السنة، وأداء إليه، فالأجرة تؤدى إلى صاحب الدين، وإذا استعرت حاجةً، كأنْ يقول رجل لجاره: أعرنا السلم، فقال له جاره: والله ظهري يؤلمني، قال له: ما علاقة ظهرك بالسلم؟ فقال له: من أجل أن أعيده، قال: أنا الذي سوف أعيده، وأداء إليه بإحسان، ودخل في هذا الإعارة، فإذا استعرت شيئاً فأرْجِعْه إلى مكان أخْذِه بإحسان، فالكتاب يجلد، والسلم إذا كان فيه كسر يصلح، وكل شيء استعرته إن كنت مؤمناً حقاً، أو كنت مسلماً تعيده بحالة أجود مما أخذته، وهذا هو الأداء الحسن. إذاً وذلك أن نمشي إلى صاحب الحق، ولا نكلفه أن يمشي إلينا:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعُوهُ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا ثُمَّ قَالَ أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِلَّا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ فَقَالَ أَعْطُوهُ فَإِنَّ مِنْ خَيْرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ قَضَاءً))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

ومهما قدر على قضاء الدين فالمبادر إليه ولو قبل وقته، وليسلم أفضل مما شرط عليه وأحسن فإن عجز فلينوِ قضاءه مهما قدر، لأنّ هذا الدين إحسان، وعليك أن ترد الإحسان بإحسان مثله، وهذا هو خلق المسلم، ولذلك لم يكن النبي الكريم يصلي على من عليه دَيْن:

((عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهَا فَقَالَ هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ قَالُوا لَا فَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ أُتِيَ بِجَنَازَةٍ أُخْرَى فَقَالَ هَلْ عَلَيْهِ مِنْ دَيْنٍ قَالُوا نَعَمْ قَالَ صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ عَلَيَّ دَيْنُهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَصَلَّى عَلَيْهِ))

[البخاري عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وفي الحديث:

((من أدان دينا ينوي قضاءه كان معه عون من الله تعالى على ذلك))

[كنز العمال عن ميمونة]

الإعانة للمشتري لأن البائع راغب عن السلعة والمشتري محتاج إليها :

لذلك:

((من تزوج امرأة على صداق وهو ينوي ألا يؤديه إليها جاء يوم القيامة زانياً، ومن أخذ مالاً من أخيه وهو ينوي ألا يؤديه إليه جاء يوم القيامة سارقاً))

[كنز العمال عن صهيب]

ومهما كلمه صاحب الحق بكلام خشن فليحتمله، هكذا الأدب؛ دعه فإنّ لصاحب الحق مقالاً، وليقابله باللطف اقتداءً برسول الله ﷺ، ومهما دار الكلام بين المستقرض والمقرض فالإحسان أن يكون الميل الأكثر إلى من عليه الدين، فإن المقرض يقرض عن غنىً، والمستقرض يستقرض عن حاجة، وكذلك ينبغي أن تكون الإعانة للمشتري أكثر، لأن البائع راغب عن السلعة، ويبتغي ترويجها، والمشتري محتاج إليها، فعندنا المستقرض والمقرض، والمشتري والبائع، المشتري أضعف، والمستقرض أضعف، فينبغي أن يميل الوسطاء مع الأضعف، إلا أن يتعدى

من عليه الدين حدَّه، أو حصل عدوان؛ بأن ماطل أو أنكر وجحد، فعندئذ ينبغي أن تعين صاحب الحق على أخذ حقه.

((عَنْ أَنَسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَفَرَأَيْتَ إِذَا كَانَ ظَالِمًا كَيْفَ أَنْصُرُهُ قَالَ تَحْجُزُهُ أَوْ تَمْنَعُهُ مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ))

[البخاري عَنْ أَنَسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْه]

لو فرضنا إنسانًا عليه دين مستحق وماطل، فمضت سنة وسنتان وثلاث، وبلغك أن فلاناً الذي أخذ منك المال منذ سنوات له ذمة عند فلان، فإذا ذهبت إلى فلان ورجوته أن تمهل في أداء ما عليه لفلان لعله يحننه عليك، هذا الذي عليه أن يعطي إذا تريث له أجر، لأنه أعان على إيصال الحق إلى صاحبه.

الأدب الخامس أن يقيل من يستقيله :

والأدب الخامس أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستنصر بالبيع، كأنْ يشتري إنسان حاجة وندم عليها، فقال لك: هل يمكن أن تلغي لي الصفقة؟ فإذا لم تُلغِها فهذا هو العدل، وإذا ألغيتها فهذا إحسان، وأنت مأمور بالعدل والإحسان معاً.

سمعت من رجل عنده محل يبيع مفروشات أنّ امرأة جاءته واشترت طقمًا دفعت ثمنه، ولكن لفت نظره الدفع خمسات وعشرات، بعد ساعتين أو ثلاث جاءته باكيةً ترجوه أن يرجع الطقم إلى محله، لماذا؟ لأن ثمن هذا الطقم كانت قد وفرته من مصروف البيت، وكان زوجها سكيراً، فلما علم أن معها هذا المبلغ قال: أحضريه وإلا طلّقتكِ، فذهبت إلى الذي باعها الطقم ورجته أن يقيلها – أي أن يرجع لها الطقم – قال لي هذا الذي باعها الطقم: أرسلت سيارةً على حسابي وأحضرت الطقم إلى محلي، وأعدت لها المبلغ بشكل أجود وقال: والله الذي لا إله إلا هو وهو على الرصيف بعته وبزيادة ولم يدخل المحل.

((مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا أَقَالَهُ اللَّهُ عَثْرَتَه))

[أبو داود وابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

أحيانًا يريد الإنسان أن يقبض بالعقد عربونًا، والعربون غير شرعي، فلزم هذا البيع، ولا يوجد حالة ثانية، فإما أن ينفذ هذا البيع، وإما أن يقيلك من دون عربون، أما إذا قلت له: العربون عشرة آلاف، وفي العقد بيت بخمسمئة ألف، عربونه عشرة آلاف، إذا نكث أحد الفريقين ضيَّع عليه العربون، ولو فرضنا صاحب البيت جاءه زبون بستمئة ألف، والعربون حسب العقد، وأنا قلبت، وبحسب نص العقد أنا ليس لي مصلحة أن أبيعك، أخذ تسعين عوضًا عنها، لا، أكتب دفعة أولى من ثمن البيت، فالبيع لا يوجد له حل وسط، هو بيع شرعي لوجود إيجاب وقبول، فأنت مع أحد حالين؛ إما أن تقيله، وإما أن ينفذ البيع، أما أنْ نضع لكل عقد عربونًا، فإذا قبِل الشاري خسر العربون، فهذا المبلغ ثمن ماذا؟ لا ثمن له، ولا مقابل، فهذا المبلغ حرام، ففي عقود البيع اكتبوا دفعةً أولى، فالبائع بالخيار، إما أن يلزم المشتري باستلام المبيع وقبض الثمن، وهذا من حقه، وإذا امتنع رفع الأمر للقاضي لإنفاذ البيع، وإما أن يقيله وله عند الله أجٌر كبيرٌ، وليس كل الربح مالاً، فقد تربح أجراً عند الله تعالى، وقد تربح رضا الله عز وجل، وهو أكثر ربحًا من المال، وأثمن من المال بكثير، ولا ينبغي له أن يرضى لنفسه أن يكون سبباً في ضرر أخيه:

((مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا أَقَالَهُ اللَّهُ عَثْرَتَه))

[أبو داود وابن ماجة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

الأدب السادس أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة :

والأدب السادس: أن يقصد في معاملته جماعةً من الفقراء بالنسيئة، وهذا الأدب رائع جداً، فالبائع المسلم لو شعر أن هذا المشتري فقير، وأن هذا المبلغ لا يكفيه، فإذا أمهله في قبض الثمن إن كان المشتري مؤمنًا وصادقًا موثوقًا فيه، وماله لا يكفيه، ويلزمه براد، ويملك خمسمئة، وثمن البراد ألف وخمسمئة، قال له: هاتها وأحضر لي كل شهر مئتين، فبالعقلية التجارية هذه خسارة، فلو قبض ثمنه نقدًا كان أفضل، لكن بعقلية المؤمن هذا ربح كبير، إنك عملت معه عملاً صالحاً لا يعلم غير الله كم يثيبك عليه، ولذلك من الإحسان في البيع والشراء أن يقصد إلى جماعة من الفقراء المؤمنين فيبيعهم بالنسيئة؛ أي إلى أجل بالتقسيط، ولكن بالتقسيط الشرعي الذي لا يوجد فيه زيادة عن الثمن النقدي، وهو في هذا الحال عازم على ألا يطالبهم إلا أن تظهر ميسرتهم.

طرق تجارات السلف مع الله عز وجل :

فقد كان أحد الصالحين من السلف له دفتران للحساب، يأتي إليه أخ طيب، صادق، مخلص، رقيق الحال، فيشتري منه حاجة، ومعه ربع ثمنها، من أجل مكانته يوجد عنده دفتر خاص للإحسان في البيع والشراء، فيسجل عليه الذمة أمامه، ويقول له: حينما يتيسر لك دفعها ادفعها لي، وهو تركها من باله، ولكن أمام الزبون قيَّدها عليه، إن جاءه أو لم يأتِ حُسبت له عند الله صدقةً أو زكاةً، أو ما شابه ذلك.

فكان صالحو السلف لهم دفتران للحساب، أحدهما فيه أسماء من لا يعرفه من الضعفاء والفقراء، والدفتر الثاني لإنسان اضطر أن يستدين دينًا شرعيًا فيطالبه في وقته المناسب، أما الفقير فيسجله عليه ولا يطالبه، وإذا لم يدفعه فهذا محسوب من الزكاة أو من الصدقة، وهو ما أراد أن يعطيه على شكل عطاء لئلا يتحرج هذا الفقير، بل على شكل دين، وحينما يتيسر له المبلغ يدفعه له، فما دام فقيرًا ولم يتيسّر المبلغ لم يطالبه به، فكانوا يتفننون بإرضاء الله عز وجل بخدمة الناس.

كان الطبيب إن رأى المريض رقيق الحال يوقِّع توقيعًا خاصًّاً على الوصفة الطبية، ويقول له: خذ هذه الوصفة من الصيدلية الفلانية، وهو على اتفاق مع هذا الصيدلي، إن وجدت هذا التوقيع الفلاني تعطيه دواء من دون ثمن، وأنا أدفع ثمنه، كيف يرضي الله عز وجل؟ يحتاج إلى عمل صالح، أما الآن فيكاد المريض يموت ادفع أوّلاً إلى الموظف، ثم ادخل عليّ، هذا إذا لم يكلِّفه بتحليل ليس له لزوم، متفقًّاً مع المحلل، فهذا عمل آخر، أو إذا لم يكلِّفه بعملية ليس لها لزوم، إذْ معه سرطان ليس له حل، يفتح البطن وينتزع كتلة لحمية ويقول له: كلَّفتك ثمانية آلاف، وهو يعرف أنه لا يوجد أمل، هكذا صار الأمر ونعوذ بالله، إنه طبيب يقترح على مريض إجراء عملية لا لزوم لها ليقبض الثمن، أو طبيب يعطي مريضًا إبرة ماء مقطر ثمنها عشرة قروش، ويقول له: هذه فيتامينات، فيقول المريض: والله انتعشتُ يا أخي بعد أن أخذتها شعرت بنشاط، ولقد كان الطبيب رحيمًا وحكيمًا وناصحًا.

يقول له الطبيب الصالح المؤمن: خذ ما تريد، فإن تيسر لك فاقضِ، وإلا فأنت في حل منه، فاطمأن، فهذه طرق تجارات السلف، وقد اندثرت اليوم، ولم يعد لها مثيل، والقائم بها قليل، وبالجملة التجارة محك الرجال، وبها يمتحن دين الرجل وورعه، وقد قيل: "لا يغرنك من المرءِ قميص فيه رقعة، أو إزار فوق كعب الساق منه رفعه، أو جبين لاح فيه أثر قد قلعه، ولدى الدرهم فانظر غيه أو ورعه".

من أثنى عليه جيرانه و أصحابه و معاملوه فعلى الإنسان ألا يشك في صلاحه :

قيل " إذا أثنى على الرجل جيرانُه في الحضر، وأصحابه في السفر، ومعاملوه في السوق فلا تشكُّوا في صلاحه"، إذا هؤلاء جميعاً أثنوا عليه فلا تشكّوا في صلاحه.

وشهد عند عمر رضي الله عنه شاهد فقال: "ائتني بمن يعرفك، فأتاه برجل فأثنى عليه خيراً، فقال له عمر: أنت جاره الأدنى الذي تعرف مدخله ومخرجه؟ قال: لا، قال: كنت رفيقه في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا، قال: فعاملته بالدرهم والدينار حتى يستبين ورعه؟ قال: لا، قال: أظنك رأيته في المسجد يصلي ويقرأ القرآن، قال: نعم، قال: أنت لا تعرفه، يا رجل ائتني بمن يعرفك، هذا لا يعرفك، لا جاورك، ولا سافر معك، ولا عاملك بالدرهم والدينار، ولكن لعله رآك في المسجد تصلي وتقرأ القرآن".

وإنسان أحبّ أن يذهب إلى الحج، ومعه مبلغ من المال، وهو خائف عليه، فدخل إلى المسجد وتفرس في المصلين، فوجد رجلاً وجهه خاشع، وأعجبته صلاته، وبعد أن انتهى قال له: أنا أحببت صلاتك، ومعي مبلغ من المال أريد أن أضعه عندك وديعة حتى أعود من الحج، فقال له: أنا أيضاً صائم، فقال له: صيامك ما أعجبني، وفي رواية أخرى قال له: فإنك لا تعرفني؟ يا هذا لا يضرك أنه لا يعرفك، وقد تكون صالحًا، فانظر إلى الدقة.

شفقة التاجر على دينه :

والآن مع فصل جديد في شفقة التاجر على دينه فيما يخصه، فيكون عمره ضائعاً، وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح بالآخرة لا يفي به ما ينال من الدنيا، البارحة قلنا في درس السبت بعد العشاء: إنه إذا كان عند إنسان فندق خمس نجوم، بثمانين طابقًا، وكل طابق فيه خمسون غرفة، وكل غرفة ثمن حجزها ثمانمئة فرنك فرنسي، أو مارك ألماني، أو دولار، وهو محجوز سنتين بكامله، قال عليه الصلاة والسلام:

((القرآن غنىً لا فقر بعده ولا غنىً دونه))

[الطبراني في الكبير عن أنس]

فالذي فهم القرآن أغنى من هذا، وقال عليه الصلاة والسلام:

((من أعطاه الله كتابه فظن أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد غلط، وفي رواية صغر أعظم النعم))

[فيض القدير]

لأنه باقٍ، والدنيا زائلة.

لا تركنن إلى القصور الفاخرة و انظر عظامك حين تمسي ناخرة

وإذا رأيت زخارف الدنيا فقل يا رب إن العيش عيـش الآخرة

***

الإنسان مهما حصّل من ربح الدنيا وفاته ربح الآخرة فهو خاسر :

مهما حصّل الإنسان من ربح الدنيا، وفاته ربح الآخرة فهو خاسر، فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل يجب على العاقل أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه بحفظ رأسماله، وحفظ رأسماله دينه، وقال بعض السلف: "أولى الأشياء بالعاقل أحوجه إليها في العاجل، وأحوج شيء إليه في العاجل أحمده عاقبةً في الآجل"، لأنّ أحوج ما تحتاجه في الدنيا إيمانٌ، أما الآن فأهم شيء البيت والزوجة والمحل، والآخرة عليها السلام، أما أحوج شيء إليك فإيمان بالله تسعد به في الآخرة، واليوم ذكرت لأخ معنى قوله تعالى:

﴿ ولاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾

قلت له: ربنا عز وجل قال في قصة قارون:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

[سورة القصص : 77]

فهذا سمع الآية، وهو رجل منعم، قلت له: معنى الآية كأن يذهب طالب في بعثة حكومية إلى بلدةٍ أجنبية؛ إلى باريس مثلاً، حيث فيها الملاهي، والأحياء الساقطة، والمتاحف، والمسارح، والمتنزهات، والأشياء الجميلة الفاتنة، ودور سينما، والسهرات مع الأصدقاء، وفيها جامعة السوربون، فهذا الطالب الذي أوفد في بعثة رسمية ماذا يعنيه من باريس بالذات؟ الدراسة وهذه الجامعة، نقول لهذا الطالب: ولا تنسَ نصيبك في هذه البعثة، فأنت جئت إلى هنا للدراسة، فإذا درست تعود إلى بلدك معززاً، مكرماً، تحتل منصباً مرموقاً، وتنال دخلاً كبيراً، و تسكن بيتاً فخماً، وكل نعيم الدنيا ينتظرك في بلدك، فإذا حصلت الشهادة العليا في هذا البلد فنصيبك من هذه المدينة أن تحصّل الدكتوراه، فإذا حصلتها سعدت بها في بلدك فربنا عز وجل قال:

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

[سورة القصص : 77]

على الإنسان أن يبتغي الدار الآخرة بما آتاه الله عز وجل :

رجل آتاه الله المال يجب أن يبتغي به الدار الآخرة، ورجل آتاه الله العلم فيجب أن يبتغي به الدار الآخرة، ورجل آتاه الله جاهًا، ورجل آتاه الله قوة، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

[سورة القصص : 77]

فإياك أن تأتي إلى الدنيا، وترحل عنها، وتنسى المهمة التي جئت من أجلها:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾

[سورة الذاريات:56]

خلقت لمعرفته، وخَلقتُ لك ما في السموات والأرض، وخلقتك من أجلي، وخلقتُ لك ما في السموات والأرض فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقي عليك ألاّ تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك.

نصيب الإنسان من الآخرة يناله من نصيبه في الدنيا :

قال لي أخ كريم: أنا أفهم الآية التالية غير هذا، قلت له: كيف؟ قال: أنْ يتمتع بالحياة، ويأخذ حظه، ويأكل ويشرب ويلبس ويذهب للنزهات، فأنت فهمتها بشكل آخر، وأنت قلبت المعنى، قلت له: السياق العام يقصد هذا المعنى

﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾

قال عز وجل:

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

[سورة القصص : 77]

فحدثتْ مناقشة بيني وبينه، فأنا أصر على أن النصيب هو معرفة الله سبحانه و تعالى، أي أنت في الدنيا علاقتك أن تعرف الله، والباقي كله زائف، فإذا عرفته سعدت بقربه، أنت في باريس أيها الطالب لك مهمة واحدة؛ أن تحرز هذه الشهادة، وما سوى ذلك لا قيمة له، وتسعد بهذه الشهادة في بلدك، وأنا أصر، وهو يصر:

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَاَ ﴾

[سورة القصص : 77]

ثم قلت له: وأنا أوجه هذه الآية، فالنصيب هو الحظ، وقلت له: صحيح أنّ ما عند الله في الآخرة من سعادة لا يدرك إلا في الدنيا، وما عند الله في الآخرة من عطاء كبير وسعادة أبدية لا تدرك إلا في الدنيا، فكأن الله سبحانه وتعالى وصف المهمة التي هي سبيل سعادتك بما سيكون، والعرب تقول كذلك؛ تقول: رعينا الغيث، أي رعينا كلأً سببه الغيث، فإذا كان الحظ هو العطاء والنصيب، فنصيبك من السعادة في الآخرة لا يتحقق إلا في الدنيا، لقد أمضيتُ وقتاً طويلاً في صبيحة هذا اليوم وأنا أناقش هذا الأخ الكريم في معنى هذه الآية، واليوم قبل أن آتي إليكم؛ سبحان الله عثرت عند الإمام الغزالي على توجيه مشابه تماماً لهذا التوجيه، فأنا تفاجأت، يقول الإمام الغزالي: وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه في وصيته: إنه لا بد لك من نصيبك في الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فابدأ بنصيبك من الآخرة فخذه، فإنك ستمر على نصيبك من الدنيا فتأخذه، أي نصيبك من الآخرة تناله من نصيبك في الدنيا، فما عند الله في الآخرة تأخذه من نصيبك في الدنيا، ونصيبك في الدنيا الاختيار، فإذا كنت مختاراً، و عرفت الله مختاراً، وعبدته مختاراً، واستقمت على أمره مختاراً، وعملت الصالحات لأجله مختاراً، فأنت قد حققت الهدف قال تعالى:

﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنْ الدُّنْيَا ﴾

أي لا تنس في الدنيا نصيبك منها للآخرة– وهذا شرح الإمام الغزالي بالضبط– فإنها مزرعة الآخرة، وفيها تكتسب الحسنات.

شفقة التاجر على دينه تتم بمراعاة سبعة أمور :

وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة سبعة أمور، هذا شيء مهم جداً، لأنّ معظم الناس عملهم في التجارة، ومعظم الموظفين عملهم في التجارة، فقد قرأت مرة كتاباً لأديب مصري اسمه المويلحي، يقول في هذا الكتاب: "يا ليت آباءنا التفتوا إلى تعليمنا في المدارس فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة، وذل البيع و الشراء، و ترويج السلعة بالأقسام والأيمان، فما العيش إلا عيش الموظفين"، أي قبل خمسين عامًا كانت الوظيفة هي أرقى شيء في الحياة، والموظف مستغنٍ، ودخله يزيد عن مصروفه عشرة أمثال، وهو عزيز، ودارت الأيام فصار التاجر دخله يغطي الحاجات، لكن دخل الموظف قد لا يغطي حاجاته، فلذلك هذه أشياء سبع مهمة جداً، أرجو أن تكون في أذهانكم وفي قلوبكم، قال: لا تتم شفقة التاجر على دينه إلا بمراعاة سبعة أمور:

أولها: حسن النية في ابتداء التجارة، أي تكون نيته منها طيبة، فينوي بها الاستعفاف عن السؤال، هذه أول نية، و كف الطمع عن الناس استغناءً بالحلال عنهم، فإذا كان للرجل دخل كاف لا يشتهي من أحد شيئًا، ولا يشتهي أن يقدم له أحد شيئًا، ولا يشتهي مال الآخرين، و لا عطاءهم، ولا هداياهم، فقد كفاه الله، فأول نية الاستعفاف بها عن السؤال، و النية الثانية الكف عن الطمع بما في أيدي الناس بالحلال، واستعانته بما يكسبه على الدين، هذه الثالثة، فيستطيع أن يحضر مجلس علم، ويستطيع أن يعين الفقراء، ويساهم في بناء مسجد، ويتمكن أن يدعوَ أخًا إلى بيته، وإذا كان مسافرًا يضيفه، فأول هدف الاستعفاف عن السؤال، والهدف الثاني الكف عما في أيدي الناس، والثالث الاستعانة بالتجارة على الدين، والرابع قيامه بكفاية العيال، أي رجل عنده زوجة، وأولاد، وله والدة، وأب، وأخ، وأخت ليست متزوجة، ينفق عليهم طعامًا وشرابًا ولباسًا، وهذا هدف كبير، ليكون من جملة المجاهدين به، فهذه النيات؛ الاستعفاف عن السؤال، والكف عما في أيدي الناس، والاستعانة بالمال على الدين، وإغناء العيال عما في أيدي الناس، هذه الأهداف لخصها سيدنا أبو ذر الغفاري فقال: "حبذا المال أصون به عرضي و أتقرب به إلى ربي"، و لينوي اتباع طريق العدل و الإحسان في معاملته، و لينوي الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فإذا أضمر هذه النيات كان عاملاً في طريق الآخرة، فإذا استفاد مالاً فهو مزيد، و إن خسر في الدنيا ربح في الآخرة، والاستعفاف عن السؤال، والكف عما في أيدي الناس، والاستعانة بالمال على الدين، وإغناء العيال، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في السوق، واتباع طريق العدل والإحسان، وإذا أضمر هذه النيات و لم يربح شيئاً فقد ربح الآخرة، و إذا ربح شيئاً فوقها فقد ربح الدنيا و الآخرة، فهذا التاجر الصدوق مع النبيين و الصديقين يوم القيامة.

اختلاف المصالح رحمة :

الآن سنختار الصنعة – المصلحة – البضاعة، أيْ أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعات و التجارات لو تركت لهلك أكثر الخلق، فانتظام أمر الكل بتعاون الكل، و تكفل كل فريق بعمله، و لو أقبل كلهم على صنعة واحدة لتعطلت باقي الصناعات، و هلكوا، وعلى هذا حمل بعض الناس قوله ﷺ:

((اختلاف أمتي رحمة))

[البيهقي عن ابن عباس]

أي لها فهم عميق جداً، وليس اختلافها في الفكر أو في العقائد، كلاّ، أي هذا يحب أن يعمل في القماش، وهذا بالألبسة الجاهزة، وهذا بالمنجور، وهذا بالحديد، وهذا بتصليح السيارات، وذاك بالكهرباء، والآخر بالألمنيوم، وإنسان بالسجاد، أو بالتنظيف، أو بالكي، أو بالتدريس، وهذا بالتطبيب، وهذا بالمحاماة، فـ:

((اختلاف أمتي رحمة))

[البيهقي عن ابن عباس]

لو عملوا جميعهم في مصلحة واحدة ستموت من الجوع، ومن الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغنى عنها، لرجوعها إلى طلب التنعم والتزين، فثمة مصالح مهمة جداً كتأمين أقوات الناس، وتأمين ملبسهم، وتأمين مسكنهم، وحاجاتهم الأساسية، وهناك مصالح إذا جاع الناس استغنوا عنها، عنده عصفور سعره ثلاثة وعشرون ألف ليرة، جميل جداً، والله إذا لم يجد رجل طعاماً فلا حاجة له بهذا العصفور، وهناك مصالح أساسية، وأخرى ثانوية، فإذا أكرم الله رجلاً بمصلحة أساسية بأن يكون عمله حلالاً فنعمَّا هي.

ذكر لبعض المصالح من باب الحسن و الأحسن :

والمشكلة الآن أريد أن أقرأ نصوصاً لا أريد أن يتحرج أحدٌ، لأن فيها ذكرًا لمصالح عديدة، فهنا حسن، وهناك أحسن، وليس من باب الحرام، هذا الكلام من باب الحسن والأحسن، مثلاً يشتغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها كافياً للمسلمين في حاجاتهم، فصناعة النقش وتزيين السقف بالجبس مصلحة رابحة، ولكنها ليست أساسية، وكذا الصياغة و جميع ما تزخرف به الدنيا، أي إذا كان عمله بالزخرفة، فكل ذلك كرهه أهل العلم، أما إذا عمل في الملاهي والآلات فهذا حرام، أو يبيع أشرطة تسجيل فيديو، هذه قضية محرمة لأن فيها إفسادًا للأخلاق،

وهناك أشياء كل شيء فيها التعامل به محرم، فأما عمل الملاهي و الآلات التي يحرم استعمالها فاجتناب ذلك من قبيل ترك الظلم، ومثلاً صياغة الصائغ لخواتيم الذهب للرجال فهذه محرمة لأن استعمال الذهب للرجال حرام، والأجرة المأخوذة عليه حرام، ولذلك فكل إنسان يتعامل بحلي الرجال فعليه زكاة على الذهب، أما حلي المرأة فهناك اختلاف، وأرجح الأقوال أنه ليس على حلي المرأة زكاة، وبيع الأكفان مكروه، والآن الناس ارتاحوا منه، فهناك دائرة حكومية لبيع الأكفان، لأن الرجل يسترزق بموت الناس، فإذا خف الموت تضايق، لا أحد يموت، وهذه مكروهة أيضاً، لأنه يجب انتظار موت الناس، وهناك بعض الأعمال متعلقة بإزالة النجاسات، وهذه أيضاً مكروهة، لأنه أصبح جميع عمله مع النجاسات، قال ابن سيرين يكره كسب الدلال، فالدلال كسبه حلال وحرام بآن واحد، لماذا؟، وكره قتادة أجر الدلال، ولعل السبب فيه قلة استغناء الدلال فيه عن الكذب، أي يلزمه أن يكذب كثيراً حتى يسير عمله، دخل دلالٌ بيتًا شماليًا، ويظهر أن المشتري مستعجل، وأعجبه البيت، فقال له: إن شاء الله قبلي؟ قال له: طبعاً، وأحضر سجادة صلاة ليصلي، فصلى باتجاه الشمال، وباع البيت فيلزمه أن يكذب طبعاً، والإفراط في الثناء على السلعة بترويجها، مثلاً دلال أقمشة يقول: هذا قماش لا يوجد منه، و لن يأتي منه إطلاقاً، ويكون هو دون الوسط، وإذا كان الدلال صادقًا فأجره حلال.

القضية في بعض المصالح ليست قضية تحريم وإنما قضية توجيه من وضع إلى وضع:

أيها الأخوة؛ لا أحد يتوسوس من نفسه، أما إذا بدأ يكذب، ويُلبِس لفة هذا لهذا، و لفة هذا لهذا فلا، مرة قال لي شخص يريد أن يبيع سيارته – والقصة قديمة– قال له: هذه ثلاثون ألفًا، وغاب اليوم الثاني، فقال له: أريد سيارة بهذه الماركة، قال له: هذه سعرها ثمانون ألفًا، يريد أن يبيعها بثلاثين، ويريد أن يشتريها بثمانين، فعندما يكذب الإنسان يصير دخله حراماً، وإن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، و إذا ائتمنوا لم يخونوا، و إذا باعوا لم يطروا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، و إذا كان لهم لم يعسروا، فهذا شيء دقيق، و لعل السبب في ذلك قلةُ استغناء الدلال عن الكذب، والإفراطُ في الثناء على السلعة بترويجها، ولأن العمل فيه لا يقدر بقدر معين، باع بيتًا بمليونين، وله خمسة وثلاثون ألفًا أخذهم في ساعتين، يقول لك: و الله كثير، مثلاً هذه النسبة عندما كان سعر البيت عشرة آلاف، أو خمسة عشر، فبالمئة اثنان هذا معقول، أما الآن فقد أصبح البيت بمليونين تظل بالمئة اثنان، وقد يكثروا ولا ينظر في مقدار الأجرة إلى عمله بل إلى قدر قيمة الثوب، حتى دلال الأقمشة يقول لك: عندك على البيعة ثمانمئة بالمئة، فتجد أحياناً أن الأجرة تندفع بشعور بالضيق، وكلها

عملية ساعتين أو ثلاث، أعطى هذه المسطرة لفلان، وأحضر لك إياها، واتفقتم، يقول لك: اسمح لنا بالأجرة، ليس على قدر الجهد، وإنما على ثمن الصفقة، ومن هنا جاءت كراهية الأجر، فينبغي أن ينظر إلى قدر التعب، وهنا يوجد توجيه دقيق، إذا أمكنك أن تقيِّم قيمة الدلال بقدر التعب فأجره حلال، ونحن لا نحرم ما أحله الله، الدلال إذا لم يكذب، وإذا أخذ أجره على قدر تعبه فهذا حلال، فمثل هذا البيت حتى باعه الدلال أوصل له أكثر من مئة زبون، وقد تعب كثيراً، ثم بيع، فإذا أعطيته أجرة على قدر المحاولات غير الناجحة في بيع البيت صار الأجر حلالاً مئة بالمئة، فالقضية ليست قضية تحريم، وإنما قضية توجيه من وضع إلى وضع، وكرهوا الصرف، الذي هو حديث الناس اليوم، لأن الاحتراز فيه عن دقائق الربا عسير، وقلّما يتم للصيرفي ربح إلا باعتماد جهالة معاملته بدقائق النقد، وفي هذا الموضوع يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: "ورد عن النبي ﷺ نهي عن الصياغة، وأنا أكره الكسر "، الكسر يعني به الصرف، واستحبوا تجارة البز أي الأقمشة قال سعيد بن المسيب: "ما من تجارة أحب إلي من البز ما لم يكن فيها أيمان كاذبة"، و قد روي:

((خير تجارتكم البز))

[ذكره العجلوني في كشف الخفاء عن علي]

و في حديث آخر:

((لو أذن الله تعالى في التجارة لأهل الجنة لاتجروا في البز والعطر))

[رواه الطبراني عن ابن عمر]

الناس في مصالح بعضها :

هذا زرع المزرعة قدم لك خياراً أكلته، وذاك نجر لك الباب فحجب عنك البرد، وآخر عمل لك نافذة من الألمنيوم فوقاك من الرياح، وغيره حاك لك هذا الثوب، وهذا خاطه، فالناس في مصالح بعضها، أما هذا الذي يجلس من أجل البيع و الشراء بالعملات الأجنبية حتى رفع السعر لدرجة عالية، ووقع قلقٌ شديدٌ، هذا ماذا قدم للناس؟ لم يقدم شيئاً، الذي زرع الأرض قدم الطعام و الشراب، والذي صنع صناعة فقد أغنانا بها عن الاستيراد إذْ قدم شيئاً ثميناً، والذي قدم لك خدمة فطببك، أو عالجك، أو درسك، أو دافع عنك أمام القضاء، فكل هذه الأعمال طيبة وتقدم خدمات، أما مَن جلس لبيع و شراء حتى ربح أرباحاً طائلة، فلم يقدم شيئًا للمسلمين إطلاقاً، وإنما بهذه المضاربات حدث هناك أزمات، وهذا شيء قديم وليس حديثًا، و السلف الصالح كان يكره هذه المصلحة، سأل الإمام أحمد بن حنبل رجلاً: ما صنعتك؟ قال: الوراقة، فقال: كسب جيد.

المصالح التي فيها مخالطة للنساء مصالح مكروهة :

كذلك المصالح التي فيها مخالطة النساء فمكروهة، لأنها مظنة فساد وفتنة، عندك صانعون؛ ثلاثة شباب غير متزوجين، والزبائن يدخلون ويخرجون، أشكال و ألوان مائلات مميلات، تلعنهن لأنهن ملعونات، فكل شيء متعلق بالنساء وأغلب الظن أنّ الزبائن رجال فهو مكروه، أمّا أنْ تدخل امرأة فهذا وضع طبيعي، إذا كان العمل قائمًا على النساء مئة في المئة.

كراهية أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات :

و كره السلف الصالح أخذ الأجرة على كل ما هو من قبيل العبادات وفروض الكفايات؛ كغسل الموتى، و دفنهم، والأذان، والصلاة، وتعليم القرآن، وتعليم الفقه فإن هذه الأعمال حقها أن يتجر فيها صاحبها للآخرة، وأخذ الأجرة عليها في الدنيا استبدال الدنيا بالآخرة، وهذا لا يستحب، وسوف نتابع هذا الموضوع في درس قادم إن شاء الله، نحن قلنا: إنّ ثمّة سبعة أشياء مهمة جداً في شفقة التاجر على دينه، والكتاب ألّف في عصر قديم، فأنا لا أريد أن يكون هناك حرج على الحاضرين، لكن مثل مخالطة النساء ثابتة، والاشتغال بأمور تزيينية فيها رفاهية شديدة للناس، فهذه أيضاً إذا استطاع الرجل أن يدخل في أشياء أساسية لمصالح الناس فهذا أولى، والأشياء المتعلقة أيضاً بالنجاسات يجب على المسلم أن يترفع عنها، و الصرف كما قلنا لم يقدم للمجتمع شيئاً، وأيُّ إنسان قد يقدم شيئاً، أمّا هذا فما قدم شيئاً، إنما ساهم في تعسير الأمور على الناس بهذه المضاربات.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 31 : القصر في الصلاة للمسافر1

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا بما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

القصر في الصلاة للمسافر :

أيها الأخوة الكرام، تنفيذاً للوعد الذي وعدتكم به من أن مجموعة الأسئلة التي وردتني، والتي وجدناها في صندوق الأسئلة والفتاوى، سوف نجيب عن بعضها في دروس الأحد تباعاً، وقد وعدتكم في الدرس الماضي أن يكون موضوع هذا الدرس صلاة القصر، أو القصر في الصلاة للمسافر، وهذ ا الموضوع يحتاجه كل مسلم لأن طبيعة هذا العصر تقتضي كثرة الأسفار فما حكم الصلاة للمسافر؟

القصر جائزٌ في القرآن، و السنة، والإجماع، فالقصر هو اختصار الصلاة من أربع ركعات إلى ركعتين، في صلاة الظهر، والعصر، والعشاء، فالصلاة الرباعية تغدو ثنائية، فالقصر جائز في القرآن، والسنة، والإجماع، أما بالقرآن فلقول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

[سورة النساء: 101]

والحقيقة أن القصر جائز حتى في حالة الأمن، والآية تشير إلى أن الإنسان إذا خاف أن يفتن، أو خاف من عدوٍ قصر الصلاة، ولكن النبي عليه الصلاة والسلام قصر الصلاة في الحج، والعمرة، والسفر، وفي الغزو، فسنة النبي عليه الصلاة والسلام مفسرة للقرآن الكريم، قال عز وجل:

﴿ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

[سورة الحشر: 7]

فالنبي عليه الصلاة والسلام أقواله تشريع، وأفعاله تشريع، وقد قصر الصلاة في السفر، و في الحج، و في العمرة، و في الغزو، فإذا قيّدت الآية بالخوف من فتنة العدو، فالنبي بسنته العملية أطلقها، وجعل مجرد السفر يجوز فيه قصر الصلاة.

الأسفار في عهد النبي أسفار غزو :

لعلماء التفسير أدلة على أن النبي عليه الصلاة والسلام فهِم من هذه الآية بأن أكثر السفر في عهد النبي عليه الصلاة والسلام سفر غزوٍ، فهذا ليس قيداً، بل هو وصفٌ، وليس قيد احتراز، بل هو قيد صفة ثابتة، فقوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾

[سورة النساء: 101]

هذا قيد وصفي، لأن أكثر الأسفار في عهد النبي أسفار غزو، ومن شأن الغازي أن يخاف من عدوه.

وأحد أصحاب النبي عليهم رضوان الله سأل سيدنا عمر عن هذا، فعَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ: قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ:

((لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمِ الَّذِينَ كَفَرُوا "، فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتَ مِنْهُ فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ))

[مسلم عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ]

فالقصر جائز في حالة الخوف والأمن، وفي سفر الغزو والحرب والجهاد في سبيل الله، وفي سفر الحج والعمرة، وفي السفر المباح، أو لأي سفر آخر، ولو لزيارة الأصدقاء أو الأخوة، أو للسياحة.

أنواع من السفر يجوز فيها قصر الصلاة :

أما جواز القصر من السنة فقد تواترت الأخبار عن النبي ﷺ:

((عن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب قال: كُنْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ فِي سَفَرٍ فَصَلَّى الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى طِنْفِسَةٍ لَهُ فَرَأَى قَوْمًا يُسَبِّحُونَ قَالَ: مَا يَصْنَعُ هَؤُلَاءِ ؟ قُلْتُ: يُسَبِّحُونَ، قَالَ: لَوْ كُنْتُ مُصَلِّيًا

قَبْلَهَا أَوْ بَعْدَهَا لَأَتْمَمْتُهَا، صَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ لا يَزِيدُ فِي السَّفَرِ عَلَى الرَّكْعَتَيْنِ وَأَبَا بَكْرٍ حَتَّى قُبِضَ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمْ كَذَلِكَ))

[النسائي عن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب]

وأجمع أهل العلم على أن من سافر سفراً تقصر في مثله الصلاة سواء كان السفر واجباً، كسفر الحج إلى المسجد الحرام، والجهاد، والهجرة، والعمرة، أو مستحباً كالسفر لزيارة الأخوة، وعيادة المرضى، وزيارة أحد المسجدين؛ مسجد المدينة والمسجد الأقصى إن شاء الله تعالى، وزيارة الوالدين أو أحدهما، أو مباحاً كسفر النزهة، أو الفرجة، أو التجارة، أو مُكرهاً على السفر كأسيرٍ اقتيد من مكان لآخر، أو مكروهاً كسفر المفرد بنفسه، فإذا سافر الإنسان بمفرده فسفره مكروه من دون جماعة، ففي كل هذه الأنواع من السفر يجوز قصر الصلاة، فهذا إجماع أهل العلم بالقرآن والسنة والإجماع .

تعريف القصر :

أمّا تعريف القصر فهو اختصار الصلاة الرباعية إلى ركعتين، الذي يقصر إجماعاً الصلاة الرباعية من ظهرٍ وعصرٍ وعشاء، أما الفجر فلا يقصر، والمغرب لا يقصر أيضاً، فلدينا أحكام متعلقة بالسفر، وهذه الأحكام أساسية وسوف نأخذها إن شاء الله تعالى، فالجمع: جمع الظهر مع العصر تقديماً، أو جمع العصر مع الظهر تأخيرًا، والقصر، والمسح على الخف ثلاثة أيام، وإباحة الإفطار في رمضان، وهذه الأربعة تختص بالسفر الطويل، وحرمة خروج المرأة بغير محرمٍ، وسقوط الجمعة والعيدين، والأضحية، وإباحة أكل الميتة للمضطر، والصلاة على الراحلة، والتيمم، وإسقاط الفرض به، وهذه متعلقة بالسفر القصير، فهذه كلها أحكام السفر، واليوم نأخذ فقط حكم القصر في الصلاة.

آراء المذاهب في القصر :

1 . رأي الأحناف :

وهناك سؤال كبير يتردد بين المسلمين هل القصر رخصةٌ أم عزيمة واجبٍ؟ أيجب أن نقصر أم القصر رخصة نأخذ بها أم لا نأخذ؟ فعلى اختلاف المذاهب نعرض الآراء الثلاث؛ إما أنه فرض، وإما أنه سنة، وإما أنه رخصة يخير فيها المسافر، فالأحناف قالوا: القصر واجب، وهو عزيمة عليك فعلها، وفرض المسافر في كل صلاة

رباعية ركعتان، لا تجوز الزيادة عليهما عمداً، ويجب سجود السهو إن سها وصلاها أربع ركعات، فإن صلّى أربع ركعات وقعد بينهما إلى التشهد عدت الركعتان الأولى والثانية فرضًا، والثالثة والرابعة نافلة ويكون مسيئاً، وإن لم يقعد في الثانية مقدار التشهد بطلت صلاته لاختلاط النافلة بها قبل إكمالها، هذا رأي الأحناف، وأدلتهم أحاديث ثابتة، منها حديثٌ عن السيدة عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ:

((فَرَضَ اللَّهُ الصَّلاةَ حِينَ فَرَضَهَا رَكْعَتَيْنِ رَكْعَتَيْنِ فِي الْحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَأُقِرَّتْ صَلاةُ السَّفَرِ، وَزِيدَ فِي صَلاةِ الْحَضَرِ))

[البخاري عن عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ]

والدليل الثاني حديث ابن عباس قَالَ:

((فَرَضَ اللَّهُ الصَّلاةَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَضَرِ أَرْبَعًا وَفِي السَّفَرِ رَكْعَتَيْنِ وَفِي الْخَوْفِ رَكْعَةً))

[مسلم عن ابن عباس]

فالقصر واجب عند الأحناف، فلو ذهبت إلى بيت الله الحرام وأنت مقيمٌ في الحج ولا عمل لك إلا العبادة، فالأحناف يقصرون الصلاة في الحج والعمرة وسفر التجارة والسياحة والغزو والجهاد وأي سفر، بل في مطلق السفر.

2 . رأي المالكية :

والمالكية يرون أن القصر سنة مؤكدة وليس واجباً لفعل النبي ﷺ، فما دام الفعل فعله فهو سنة مؤكدة، فإنه لم يصح عنه في أسفاره أنه أتمّ صلاته قط، فعند الأحناف القصر واجب، والواجب يقترب من الفرض، وعند المالكية قصر الصلاة سنة مؤكدة، كما في الحديث المتقدم.

3 . رأي الشافعية و الحنابلة :

وأما الشافعية والحنابلة فقالوا: القصر رخصة على سبيل التخيير، فللمسافر أن يتم أو أن يقصر، والقصر أفضل من الإتمام، حتى عند الشافعية مطلقاً، لأنه ﷺ داوم عليه وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده، وهو عند الشافعية على المشهور أفضل من الإتمام إذا وجد في نفسه كراهة القصر، فالقصر أولى من الإتمام.

فما دام العلماء قد اجتمعوا على القصر فهناك حكم معروف عندكم اسمه الخروج من الخلاف، فإذا قصرت الصلاة في السفر فقد خرجت من الخلاف كلياً.

أما أدلة السادة الشافعية فمنها قوله تعالى:

﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ ﴾

[سورة النساء: 101]

وهذا يدل على أن القصر رخصة مخير على فعله وتركه كسائر الرخص.

والحديث السابق عن عمر:

((صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ))

[مسلم عن عمر]

وقوله عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُ أَنْ تُؤْتَى رُخَصُه كَمَا يُحِبُ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُه))

[البيهقي عن ابن عمر]

وثبت في صحيح مسلم وغيره أن الصحابة كانوا يسافرون مع رسول الله ﷺ منهم القاصر، ومنهم المتم، منهم الصائم، ومنهم المفطر، لا يعيب بعضهم على بعض، هذه أدلة الشافعية.

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا اعْتَمَرَتْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى مَكَّةَ حَتَّى إِذَا قَدِمَتْ مَكَّةَ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي قَصَرْتَ وَأَتْمَمْتُ، وَأَفْطَرْتَ وَصُمْتُ، قَالَ: أَحْسَنْتِ يَا عَائِشَةُ وَمَا عَابَ عَلَيَّ))

[النسائي عَنْ عَائِشَةَ]

فالشافعية معهم أدلتهم، والأحناف معهم أدلتهم، والقصر يتردد بين الواجب عند الأحناف، وبين السنة عند المالكية، وبين الإباحة على أنه رخصة يؤخذ بها أو لا يؤخذ عند الشافعية والحنابلة، واختلاف أمتي رحمة.

الأحكام المتعلقة بالقصر :

الأحكام المتعلقة بالقصر دقيقة جداً، فالحكم الأول: المسافة التي تقصر فيها الصلاة، والثاني: نوع السفر الذي يقصر فيه الصلاة، والثالث: الموضع الذي نبدأ فيه القصر في الصلاة، والرابع: الزمان الذي يقصر فيه الصلاة إذا أقام المسافر، هذه الموضوعات هي المتعلقة بقصر الصلاة.

1 . المسافة التي تقصر فيها الصلاة :

المسافة باختصار شديد ومن دون الدخول في تفاصيل أحكامها: ثمانية وثمانون كيلو متراً، أي مسيرة ثلاثة أيام ولياليها من أقصر أيام السنة في البلاد المعتدلة، تعلمون أن في القطب منطقةً يستمر فيها النهار ستة أشهر، ومنطقة أخرى يستمر فيها الليل ستة أشهر، فإذا نزلنا قليلاً فقد تغيب الشمس في الساعة الواحدة ليلاً، وتشرق في الساعة الواحدة والنصف، أما المنطقة المعتدلة كمنطقتنا فالنهار والليل يتقاربان، وفي وقتين في العام يتساويان، وفي الصيف والشتاء يختلفان، وأطول أيام الصيف سبع عشرة ساعة، والليل سبع ساعات، وأقصر الأيام في الشتاء كما تعلمون، على كلٍّ مسيرة أيام ثلاث بلياليها من أقصر أيام السنة في البلاد المعتدلة بسير الإبل، أو سير الأقدام، وهذه قدرت بثمانية وثمانين كيلو مترًا، وعند بعض المذاهب لا يضر أن تنقص أو تزيد، تقريباً أن تتجاوز ثمانين كيلو متراً فلك أن تقصر الصلاة.

فلو ركبت سيارة وقطعت المسافة إلى النبك بساعة واحدة تقصر الصلاة، إذْ ليس المقصود بسفر ثلاثة أيام أن تمضي في هذه المسافة ثلاثة أيام، بل المقصود أن تقطع مسافة كانت تمضى أو تقطع في ثلاثة أيام، فلو قطعت بسيارة في ساعة واحدة فلك أن تقصر إذا وصلت إلى النبك، أما الزبداني فلا داعي للقصر. فلو أنّ الإنسان طاف الدنيا هائماً على وجهه لم يجُز أن يقصر من الصلاة، فالسفر المقصود تريد حلب أو حمص أو عمّان، فإذا أردت مكاناً معيناً وقصدته فأنت مسافر، أما إنسان خرج على وجهه هائماً دون أن يقصد مكاناً فهذا لا يجوز له أن يقصر،على كلٍّ هذه حالات نادرة جداً.

والمسافة في البحر أو الجبل أو الجو أو السهل كالمسافة في البر، والمهم أن تقطع ثمانين كيلو أو أكثر، يجوز حينئذٍ أن تقصر الصلاة، ولا يضر أن تقل هذه المسافة قليلاً أو تزيد، ويقولون أحياناً في بعض الصفقات: زائد ناقص عشرة بالمئة، فلا مشكلة.

والسادة المالكية استثنوا أهل مكة من هذه المسافة، فإذا ذهبوا من مكة إلى منى أو غيرها من المناطق قصروا الصلاة.

2 . نوع السفر الذي يقصر فيه الصلاة :

أما الأحناف فلهم رأي خاص، ولبقية المذاهب رأي آخر في نوع السفر الذي تقصر فيه الصلاة، فالأحناف أيُّ سفر تقصر فيه الصلاة ولو كان سفراً مكروهاً، أو سفرًا فيه معصية، هذا رأيهم، فقاطع الطريق الذي ذهب ليزني عليه قصر الصلاة! أيّة صلاة هذه! والأئمة الثلاث يقولون: لا بد من أن يكون السفر مباحاً أو سفر طاعةٍ، فأنتم تبسمتم عندما أخبرتكم برأي السادة الأحناف لكن لهم تخريج دقيق، فإذا سافر الإنسان هل سفره حرامٌ لعينه؟ لا، فمثلاً: لحم الخنزير حرامٌ بذاته، فإذا دخلت المطعم وتناولت لحمَ ضأنٍ مذبوح على الشريعة الإسلامية ولم تدفع الثمن هل هذا حرام أم حلال؟ حرام، لا لأنه تناول لحم الضأن، بل لأنه لم يدفع الثمن، فأصبح بذلك حرامًا، نقول: أكل هذا الطعام حرامًا، لكن لا لذاته بل لغيره، فلو أن السفر محرم بذاته، حيث يمكن أن تعصي الله فيه أو تطيعه، فما دام السفر ينفك عن المعصية، وما دامت المعصية تنفك عن السفر إذاً ما نقوله: إن على المسافر أن يقصر من الصلاة، ولا علاقة لنا بحال المسافر، وقد يكون مقيمًا يعصي الله، أرادوا أنه لا ينبغي لنا أن نربط المعاصي بالعبادات، فكل عبادة لها أحكامها، والله أعلم، ولكن رأي الجمهور أنه لا يجوز أن تقصر الصلاة إلا في السفر المباح ، كالحج والعمرة والهجرة – من فرّ بدينه– فكم مِن سفر مباح اليوم؟ هناك أسفار كثيرة، هؤلاء الذين غادروا بلادهم فراراً بدينهم هذا سفرهم مباح، أو طلباً للعلم، أو قصداً للرزق، أو لزيارة الأهل؛ كأن تزور ابنتك التي هي في بلد بعيد، فهذا سفر مباح، أو لزيارة أخٍ في الله، أو صديق، لكن سفر المعصية كالإباق كعبد أبق من مولاه؛ أي هرب، وقطع الطريق، والتجارة في الخمر والمحرمات، فهذا السفر معصية، وهناك من يقصد السفر ليرتكب بعض الموبقات في بلد آخر، على كلٍّ عند الأئمة الثلاث لا يصح قصر الصلاة إلا في السفر المباح، لقول الله عز و جل:

﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾

[سورة البقرة: 173]

فرخصة أكل لحم الخنزير بشرط ألا يكون باغيًا ولا عاديًا، فحينئذٍ لا إثم عليه، فإذا كان باغياً فعليه إثمٌ كبير، والعلماء قاسوا على هذه الآية.

3 . الموضع الذي نبدأ فيه القصر في الصلاة :

أما الموضع الذي يبدأ فيه القصر فنمثِّل له بإنسان يتوهم نفسه أنه اليوم مسافر، وسفره الساعة الواحدة، والظهر أذَّن الساعة الحادية عشرة والنصف، فصلى الظهر وقصر الصلاة، هذا حرام، إذْ لا يجوز القصر في الصلاة إلا بعد مباشرة السفر، لا بعد نيّة السفر، فالنيّة لا يعتد بها أبداً، فلا تستطيع قصر الصلاة إلا إذا خرجت من المدينة وتجاوزت ظاهرها، ونحن نرى أنه حول المدينة مرافق كالمقابر والبساتين، وكل بلد له ترتيبه، والمهم أن تتجاوز أبنية المدينة حتى يبدأ حكم القصر في الصلاة، ولا يجوز أن تتم الصلاة إلا إذا دخلت المدينة، فبخروجك منها يبدأ القصر وبدخولك إليها ينتهي القصر، فهذا الموضع الذي يبدأ فيه القصر.

4 . الزمان الذي يقصر فيه الصلاة إذا أقام المسافر :

أما مقدار الزمن الذي يقصر فيه إذا أقام المسافر، فعند الأحناف إذا سافر الإنسان ونوى الإقامة أكثر من خمسة عشر يوماً فعليه أن يقصر الصلاة، سافر ليقيم تسعة أيام أو سبعة أو أربعة عشر يوماً، فإذا نوى الإقامة خمسة عشر يوماً فما فوق وجب أن يتم الصلاة، ولو بقي سنوات وسنوات دون أن ينوي الإقامة فعليه أن يقصر الصلاة، فأصحاب رسول الله ﷺ حينما فتحوا بلاد أذربيجان قصروا الصلاة ستة أشهر متتابعة، فأنت تقصر الصلاة ما لم تنوِ الإقامة، فإذا نويت الإقامة خمسة عشر يوماً فأكثر عند الأحناف فعليك أن تتم الصلاة، أما المالكية والشافعية فإذا نوى المسافر إقامة أربعة أيام بموضع أتم الصلاة، والمالكية قالوا: عشرون صلاة فإذا نقصت قصر الصلاة.

فعند المالكية والشافعية والحنابلة إذا نوى أكثر من أربعة أيام أو أكثر من عشرين صلاة أتمّ الصلاة، أمّا عند الأحناف فخمسة عشر يوماً فما فوق، فإذا نويت الإقامة أتممت الصلاة، ويحسب يوم الدخول والخروج من المدة.

شروط القصر في الصلاة :

1 . أن يكون السفر طويلاً :

شروط القصر في الصلاة: أن يكون السفر طويلاً، ويبلغ مسافة ثمانين كيلو مترًا فما فوق، ويقولون: يأتي يوم على الناس –هذه كلمة قرأتها –يطوف الإنسان حول العالم في ثلاث ساعات وليس هذا ببعيد!

الآن يقطع الإنسان المحيط الأطلسي كله بطائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت بمدة يسيرة جداً، فيدور العالم في ثلاث ساعات، الأولى من بيته إلى المطار، والثانية حول العالم، والثالثة من المطار إلى البيت، واليوم الإنسان يذهب بساعتين من دمشق إلى جدة وينتظر في المطار أربع ساعات، فهذا يقصر، فأن يكون السفر طويلاً بمقدار مرحلتين كما تكلمنا من قبل، أي: ثمانون كيلو مترًا وما فوق هذا الشرط الأول.

2 . أن يكون السفر مباحاً غير محرم أو محظور :

الشرط الثاني أن يكون السفر مباحاً غير محرم أو محظور، فقد أمسكوا برجل يسرق في بيت الله الحرام، فلما حقق معه قالوا له: أنت في الحج؟ فقال: لا، فأنا عندما أحرمت أحرمت سارقاً، فمن المتوقع أن نشاهد حالات نشل وسرقة كثيرة في الحج.

وإذا سافر إنسان لقطع الطريق، أو ليسرق، أو ليزني، أو ليرتكب إثماً فهل ينعقد قصره لو قصر؟ يجب أن تقولوا: لا تنعقد صلاته أصلاً، لأن الإنسان عندما يرتكب ذنباً يضع حجاباً بينه وبين الله، والمعاصي تقطع وتحجب، فالشرط الأول أن يكون السفر طويلاً، والشرط الثاني أن يكون السفر مباحاً.

3 . تجاوز العمران من موضع الإقامة :

والشرط الثالث أن تجاوز العمران من موضع الإقامة كما بيَّنا.

4 . أن يقصد مكاناً معيناً في السفر :

والشرط الرابع أن تقصد مكاناً معيناً في السفر، أما أن تقول: دعوها على التيسير، فهذا هائم على وجهه، والعلماء عدُّوا تحديد الهدف شرطاً، أو البلد الذي تريد الذهاب إليه، فلا قصر ولا فطر لهائم، وهو من خرج على وجهه لا يدري أين يتوجه.

5 . الاستقلال بالرأي :

والشرط الخامس الاستقلال بالرأي، فالجندي تابع لقائده، والخادم تابع لسيده، والطالب تابع لأستاذه، والزوجة تابعة لزوجها، فلو أن الزوج ما تكلم لها أن تقصر الصلاة لم يجز لها القصر، إذْ لا قصر للصلاة إلا إذا كنت مستقلاً

بالرأي في السفر، فأنت صاحب القرار، أمّا التابع فإذا بلغه قائده: نحن نتجه للنبك، فيا أيها الجنود اقصروا الصلاة فيقصرون، أما جندي يتحرك مع قائده ولا يدري المناورة بعد خمسة كيلو مترات بالتل أم بالنبك وبما أنه تابع فلا يحق له قصر الصلاة، فالتابعون ليسوا أصحاب قرار في السفر

6 . ألا يقتدي المسافر بمتم أو مسافر يقيم الصلاة :

وشرط المسافر ألا يقتدي بمتم أو مسافر يقيم الصلاة، فرجل شافعي المذهب أراد أن يصلي الظهر أربع ركعات، فالحنفي المسافر لا يحل له أن يقتدي به إلا أن يتم معه، أما أن ينفصل عنه بعد صلاة ركعتين ثم يسلم فليس له ذلك، إذْ يشترط متابعة المقتدي للإمام في الصلاة.

فكل أخواننا الحجاج حتى العلماء لو صلوا في الحرم الظهر يصلون أربعًا، لأنه يقتدي بمقيم، إذا اقتديت بمقيم فعليك إتمام الصلاة، وإذا اقتديت بمسافر يتم صلاته وجب أن تتم الصلاة معه، لتحقيق شرط المتابعة في الصلاة، ولا يجوز أن تقتدي بمشكوك السفر.

دخلت المسجد فوجدت الإمام يصلي صليت خلفه، هل تعرف حاله؟ أغلب الظن هو مسافر مثلي، لكني غير متأكد، فهذا مشكوك السفر، إن اقتدى بمقيم أو مسافر يتم الصلاة أو بمشكوك الصلاة في السفر، فيجب على المسافر أن يتم الصلاة ليحقق متابعة الإمام، فهو شرط في الاقتداء.

لكن الأحناف ما أجازوا أن تصلي خلف الإمام إلا صلاة الوقت، أي عندما يؤذن الظهر تقام الصلاة، وهذه الصلاة التي تُصلى بعد أذان الظهر والإقامة اسمها صلاة الوقت، فالمسافر يجوز أن يقتدي بمقيم في صلاة الوقت فقط، فإذا صلى الإمام صلاة الوقت أصبح المسافر في ذمته ركعتان فقط، عندئذٍ لا ينبغي له أن يقتدي بإمام ثانٍ، دخلت المسجد فوجدت فيه إمامًا يصلي صلاة الظهر، لكن بعد أن صلى الإمام الراتب صلاة الظهر في وقتها أنت لا ينبغي لك أن تصلي خلفه، بل ينبغي أن تصلي وحدك صلاة المسافر قصراً، حتى لو أدركت الإمام وهو في القعود الأخير في الركعة الرابعة يجب أن تصلي الظهر أربعًا، لأنك لو صليتها ركعتين وقعت في مخالفة الاتباع، حتى لو أدركت الإمام في التشهد الأخير يجب أن تتم الصلاة أربع ركعات، لأنك اقتديت بإمام مقيم، أو إمام يتم الصلاة في السفر، أو بمشكوك السفر.

فموضوع النية دقيق جداً، ويرى بعضهم أن على المصلي الذي يقصر الصلاة في السفر أن ينوي القصر عند الإحرام بالصلاة، فالأصل أن تتمها، فما دام هناك استثناء فلابد من النية معه، وبعضهم قال: لا يكفي أن تنوي

القصر في أول صلاة السفر، والصلوات كلها بعد ذلك تتابعها كذلك.

الأحناف قالوا: إنّ نية السفر وحدها تجزئ عن نية قصر الصلاة في السفر، والشرط الثاني البلوغ، وهو شرط عند الحنفية، فالصبي لا يقصر الصلاة لأنه لم يفقه القصر، فلابد من البلوغ لإيقاع هذا الحكم، وهذا ملخص لآراء العلماء في شروط السفر.

من خاف ألا يفهم الناس عليه ما معنى قصر الصلاة فينبغي أن يصلِّي الصلاة تامة :

عند الأحناف يقصر الصلاة من نوى السفر، وقصد موضعاً معيناً، ومتى جاوز بيوت محل لإقامته، وكان المكان محدداً جاز أن يقصر الصلاة، أما في هذه الحالة، لو أن أحدكم سافر إلى بلد ما، ودخل المسجد، ونوى أن يصلِّي صلاة السفر قصراً، وفجأة رأى خلفه ثلاثين شخصاً! فهناك مساجد أساسية في البلدة، وفي مركز المدينة يدخلها الناس دائماً، فدخل أحدهم ووجد إمامًا يصلِّي أول ركعة، وخلفه ثلاثون أو أربعون، وأكثرهم قد يكونون أميّين يجهلون أحكام السفر، فعليه أنة يصلّى ركعتين ثم يقول بعد سلامه: أتموا صلاتكم فإني مسافر! قد أضعتهم بهذا، وجدت حكماً شرعياً، إنك إذا خفت ألا يفهم الناس عليك ما معنى قصر الصلاة فينبغي أن تصلِّي الصلاة تامة دفعاً للفتنة ولتشويش المصلين، فإذا صلى أحدكم في مسجد قصراً، ثم شعر أن وراءه أشخاصًا عديدين اقتدوا به، وغلب على ظنه أنه لو سلم على رأس الركعة الثانية وقال: أتموا صلاتكم فإني مسافر، وخاف ألاّ يفهموا عليه فيقع في الاضطراب، فالأَوْلى أن يتم الصلاة، أما إذا جاء ليصلي في البيت وصاحب البيت معه قال: أنا مسافر سأصلي ركعتين، الأولى أن يبلّغه قبل البدء في الصلاة، فإذا صلى ركعتين، وتشهد، وقعد القعود الأخير، وسلم يقول: أتم صلاتك فإني مسافر، وإذا قالها الإنسان قبل الصلاة أجزأه ذلك.

ما يلغي السفر :

فما الذي يلغي القصر؟ أن تزيد مدة إقامتك عن خمسة عشر يوماً عند الأحناف، أو عن أربعة أيام عند الحنابلة والمالكية والشافعية.

وما الذي يلغي القصر أيضاً؟ أن تدخل بلدتك، فكثيراً من الأخوان أخبروني وهم يجهلون هذه الحقيقة أنه مسافر منهَك القوى دخل بيته، وأكمل قصر الصلاة، فهذا لا يجوز أبداً، صلّ في النبك العشاء قصرًا فلا مانع، أما إذا وصلت إلى المدينة ودخلت بيتك فأتمَّ، ولكن لو أن صلاة فاتتك وأنت مسافر قضيتَها قصراً، ولو فاتتك الصلاة

وأنت مقيم وأنت الآن مسافر قضيتها تامة.

وفي حالات نادرةٍ لو أن إنسانًا بلدُ إقامته دمشقُ، فذهب إلى حمص، وعُيِّن مدرسًا ونقل معه زوجته وأولاده، فأين يقصر في دمشق أم في حمص؟ ما دام عمله وزوجته في حمص، ومكان إقامته الدائم في حمص، فهذا لو جاء إلى بلدته بنية الزيارة يومين أو ثلاثة فإنه يقصر في دمشق.

ولو أنّ شخصًا عنده زوجتان؛ الأولى في حمص، والثانية في الشام، فهل يقصر كلما سافر من زوجة لأخرى؟ لا، بل عليه تحديد البلد المقيم فيه مع الزوجة الأولى مثلاً، والزوجة الثانية بلد السفر، وإذا كان للإنسان أكثر من بلد؛ كبلد ولد فيه، وبلد يعمل فيه، وبلد له فيه زوجة، فأصبح التداخل واضحاً، ولا بد من بلد أَصْليٍّ باختياره.

اختلاف العلماء في موضوع صلاة السنن في السفر :

اختلف العلماء في موضوع صلاة السنن في السفر، النوافل الراتبة تركها ابن عمر وآخرون، واستحبها الشافعي وأصحابه، ودليلهم الصلاة التي تقصر في السفر الظهر والعصر، فالسنن أيضاً تلغى لكن هذا الموضوع فيه خلاف.

وإن شاء الله سوف نذكره بشكل مفصل في درس قادم، وننتقل فيه إنْ شاء الله إلى موضوع الجمع بين الصلاتين، فلدينا صلاة الظهر مع العصر جمع تقديم أو جمع تأخير، وهذا موضوع خلافي بين المذاهب، فالأحناف لا يجيزون جمع التقديم أو التأخير إلا في مزدلفة وعرفات، لكن بقية المذاهب يجيزون الجمع بين الظهر والعصر جمع تقديم أو تأخير، وبين المغرب والعشاء جمع تقديم وجمع تأخير، وإلى درس قادم إن شاء الله تعالى.

خاتمة :

أيها الأخوة، في الدرس الماضي أجبنا عن بعض الأسئلة، والحقيقة شعرت أن أخواننا تفاعلوا كثيراً مع هذا النوع من الدروس، سنستمر فيه إن شاء الله تعالى، فالأحد الأول من كل شهر نفتح هذا الصندوق، ونقرأ الأسئلة، ولكن الأفضل أن تكون الأسئلة كلها مكتوبة، فالسؤال المكتوب تكون الإجابة عنه متأنية ودقيقة وواضحة، ولا أرغب في السؤال الارتجالي غير المعد في الدرس، فنحن إن شاء الله تعالى نتابع الإجابة عن الأسئلة في الدروس القادمة، وربما كانت الدروس كلها بين درسي المناقشة إجابة عن أسئلة دقيقة وردت إلى الصندوق، لأن السؤال مهم جداً، كصلاة السفر، فكل الناس تسافر، فيختلف بهذا الحكم المصلون، يجوز أم لا؟ هل هو مباح؟ نصلِّي أم

لا؟ فهذا كله ينبغي توضيحه في أذهان الأخوة الأكارم، وحينما تنتهي هذه الموضوعات نعود للموضوعات الأساسية، فدرس الأحد مخصص للسنة النبوية، إما شرح أحاديث، أو أحكام، ودرس الجمعة لكتاب الله عز وجل، ودرس الاثنين للإسلام مطبق، هذه دروس عامة، أما الدروس الخاصة كدرس يوم السبت فدرس دعاء، وعلوم قرآن، وأصول فقه... وتاريخ التشريع والأديان، وعلم الأصول والفرائض، واللغة العربية، والخطابة، و أخواننا الحمد لله يتعلمون في هذه الدورات ويعينون خطباء، ولهم دعوة طيبة، فالدروس العامة شيء، والخاصة شيء آخر، الخاصة لتعدك أن تكون خطيباً وداعيةً، والدروس العامة تعدك لتكون مؤمناً متفوقاً.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 32 : القصر في الصلاة للمسافر 2

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا بما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

قضاء الصلاة الفائتة في السفر :

أيها الأخوة الكرام، بدأنا في الدرس الماضي موضوع فقه القصر في الصلاة، وبقي لنا في هذا البحث بضعة أحكام نوجزها فيما يلي.

قضاء الصلاة الفائتة في السفر، فلو أن المسلم فاتته صلاةٌ في أثناء سفره، فعند الأحناف والمالكية من فاتته صلاة في السفر قضاها في الحضر ركعتين، ومن فاتته صلاة في الحضر قضاها في السفر أربع ركعات، أما إذا فاتته في السفر وقضاها في السفر فحكم واضحٌ أنْ يصليها ركعتين، وإن فاتته في الحضر وقضاها في الحضر فالحكم أربع ركعات، أما إذا فاتته في السفر وأراد أن يقضيها في الحضر فيقضيها ركعتين، وإذا فاتته في الحضر وأراد أن يقضيها في السفر يقضيها أربع ركعات، هذا عند السادة الأحناف والمالكية، أما عند الشافعية والحنابلة فمن فاتته الصلاة في الحضر ُتقضى أربعًا، سواء في السفر أو الحضر، وعندنا شيء في الفقه اسمه الجمع بين المذاهب، وأوضح ذلك ممثِّلاً له؛ عند الأحناف إذا مست يد الرجل يد زوجته لم ينقض وضوءه، وعند الشافعية ينقض وضوءه، فهناك حكمان متناقضان في المذهبين المختلفين، فالاتجاه الدقيق هو الجمع بين المذهبين مع التفصيل، فلو أن الإنسان مست يده يد زوجته وما شعر بشيء، بل ما شعر إلا كما يشعر لو مست يده أي قطعة أثاث، فهذا لا شيء عليه، ولا وضوء عليه، ولو كان شافعياً، ولو مست يده يد امرأته وشعر بشيء فعليه الوضوء، ولو كان حنفياً، وهذا هو الجمع بين المذهبين مع التفاصيل، فلو تتبعنا العلة التي حملت الإمام أبي حنيفة أن يقول: لا وضوء عليه، ثم تتبعنا العلة التي حملت الإمام الشافعي على أن يقول عليه الوضوء، ولو أردنا التفصيل والتبيين لأمكن أن نبحث عن علة إضافية.

صلاة السنن في السفر :

بقي موضوع صلاة السنن في السفر، فللإمام الشافعي قول شهير يجعل الإنسان أحياناً في حيرة من أمره، ولكن الواقع أحياناً يؤكد قول الإمام الشافعي، حيث يقول: " من لم يعهد منه سفرٌ لم يعهد منه علمٌ "، فالسفر أنواع؛ سفر لطلب العلم، وسفر لطلب الرزق، وسفر فرار بالدين، وأرقى أنواع السفر ما كان في طلب العلم، ويأتي بعده السفر فراراً بالدين، ثم السفر في طلب الرزق، لكن الإمام الشافعي يقول: " من لم يعهد منه سفرٌ لم يعهد منه علمٌ"، شيء من الخبرات التي يكتسبها الإنسان في السفر أنه كلما توسعت دائرة اتصالاته عرف حجمه وموقعه الحقيقي.

فما من سبيل إلى أن ينتصر المسلم على الطرف الآخر إلا إذا عرف الطرف الآخر، وعرف حجمه وإمكاناته، وطريقة تفكيره، والمبادئ التي يرتكز عليها، وبهذه الطريقة يمكن تمهيد السبيل إلى نشر هذا الدين في الآفاق، وهناك قول دقيق استنبطه الإمام الشافعي من تجربته فقال: " من لم يعهد منه سفرٌ لم يعهد منه علمٌ ".

الإنسان عاجز وضعيف وجاهل :

ذكرت لكم في دروس مضت أن الإنسان عاجز وضعيف وجاهل، والدليل قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: 66]

﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[سورة الإسراء : 85]

﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾

[سورة البقرة: 255]

فالإنسان في الأصل ضعيف وعاجز وجاهل، لكن الإنسان بالله قوي، وبالله عالم، ماذا قال عليه الصلاة والسلام؟.

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

المؤمن الصادق يشعر أنه بالأصل ضعيف والله هو القوي :

إذا كان أمامكم طموحات ترونها بعيدة المنال ومستحيلة فلا ينبغي لكم أن تيئسوا، ولا أن تشعروا أن الله سبحانه وتعالى لن يعطيكم هذا الهدف، وهذا الشيء في نص القرآن الكريم والسنة المطهرة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((... وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ ....))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فعلى الإنسان أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح، فالقرار الذي يتخذه في نفسه بشأن مصيره قلّما تنقضه الأيام إذا كان صادراً حقاً عن إرادة وإيمان، والحديث الآخر المتمم لهذا الحديث:

((عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أبو داوود عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ]

أحياناً تصادف الإنسان مشكلات أو عقبات أو طموحات، فيتمنى أن يكون في هذا المستوى والمكانة والعلم، ويتمنى أن يحقق الله على يديه هذه الأعمال الجليلة، فحينما تشعر أنك أقل من أن يجري الله على يديك هذه الأعمال فهذا من ضعف إيمانك، أما المؤمن الصادق يشعر أنه بالأصل ضعيف، والله القوي، لكن الله لم يطلب إلا أن تسأله بصدق وإخلاص، فإذا سألته بصدق وإخلاص أنَالك مرادك، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((...إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ ...))

[أبو داوود عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ]

ففي العجز تستسلم، كأن تقول: إني ضعيف وخصمي قوي، ولن تقوم للمسلمين قائمةٌ، وهذا الكلام عين العجز. فعندما تسمع خبرًا سيئًا يترك في نفسك تأثيرًا سلبيًا عادة، ويسيطر عليك، أما المؤمن القوي فمتفائل، ويعتقد أن الله هو القوي، وهو على كل شيء قدير، وأن قدرته تتعلق بكل ممكن، وما عليك إلا أن تسأل الله بصدق، ولذلك ورد في بعض الأحاديث:

((لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ وَلَأَخَّرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ))

[أحمد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

محصلة الإيمان أن تكون بين الإنسان وبين الله علاقة متينة :

يمكننا القول بدقة: إنّ محصلة الإيمان أن تكون بينك وبين الله علاقة متينة، وأن تكون ربانياً، وأن تكثر من سؤاله، وتستغفره، وتطمح في نواله، وتطمح بعطائه، وأن تشعر أن الله قادر على إعطائك أي شيء، فما عليك إلا أن تطلبه صادقاً مخلصاً، لأنهما ثمن أي إنجاز تظنه كبيرًا، ولذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال: "وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ "، أي تحرك، واسأل، واطلب، وادعُ ، وفكر، وتأمل، وخذ رأي الآخرين، فعندما تتحرك الله معك إذا تحركت:

((عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي تَجْرَاةَ قَالَتْ دَخَلْنَا دَارَ أَبِي حُسَيْنٍ فِي نِسْوَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَطُوفُ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ قَالَتْ وَهُوَ يَسْعَى يَدُورُ بِهِ إِزَارُهُ مِنْ شِدَّةِ السَّعْيِ وَهُوَ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ اسْعَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمْ السَّعْيَ))

[أحمد عَنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي تَجْرَاةَ]

فعلى الإنسان أن يسعى، وليس عليه إدراك النجاح، وأخبركم بهذه الخواطر، لأنني عاينتها، فالإنسان عندما يرى الطرف الآخر قويَّاً، وفي أعلى درجات العلم يشعر أن المسلمين بينهم وبين هذا المستوى مراحل فسيحة، وما عليهم إلا أن يتعاونوا ويتعلموا حتى يحقق الله على أيديهم النصر، ويردوا على قوة عدوهم، وأن يتفقوا ليتفوقوا على عدوهم، وعندئذٍ ربما كان الله سبحانه وتعالى مستجيباً لدعائهم.

الله عز وجل يلوم على العجز و الاستسلام :

الله عز وجل يلوم على العجز وعلى الاستسلام وعلى الاستخذاء، وعلى أن تقول: أنا لا أستطيع أن أفعل، ولكن عليكم بالكيس، فكلمة لا حول ولا قوة إلا بالله متى تقولها؟ عندما يغلبك الأمر، فإذا غلبك أمر فقل: (حسبي الله ونعم الوكيل)، فأمامنا طالب لم يدرس، فالنتيجة الحتمية أنه لن ينجح، فلما فوجئ بهذه النتيجة قال: حسبي الله ونعم الوكيل، فهذه كلمة حق أريد بها باطل، فخطأ أن تقول هذه العبارة وأنت مقصر وكسول، فأصابه سيئات

أعماله، أما هذا الطالب لو درس الدراسة التي يستطيعها ثم أصيب بمرض منعه من أداء الامتحان، فعندها يقول: حسبي الله ونعم الوكيل، وأحياناً تاجر يجتهد اجتهادًا جيدًا، فيصدر قرار يمنعه من استيراد البضاعة، فيقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فلكي لا ينهار الإسلام منهج كامل، فأنت تسعى وتعمل وتفكر وتتأمل، وبعدها تتوكل على الله، فإذا غلبك أمر فوق طاقتك، ولئلا تصاب بالإحباط تقولها، فهذا الذكر هو صمام أمان، وهذا الحديث من الأحاديث الأساسية في حياة المؤمن.

سبب تخلف المسلمين أنهم يتوكلون في غير وقت التوكل :

يمكننا القول: إن سبب تخلف المسلمين أنهم يتوكلون في غير وقت التوكل، ويفهمون القضاء والقدر فهماً سقيماً ما أراده الله عز وجل، وربما يكون سبب تخلف المؤمنين كما قلت لكم أن الطرف الثاني قوي جداً، والمسلمون لا يستطيعون أن يردوا على هذه القوة إلا بتعاونهم ووحدتهم...قال تعالى:

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

[سورة المائدة : 2]

والمسلمون إذا استعانوا بالله عز وجل صادقين فهم أقوياء، فنحن لاشيء، واللهُ كل شيء، فأنا لا أقول هذا الكلام لشيء دون آخر، أو حقل دون آخر، أقولها لكل الأهداف؛ للطالب والتاجر ولطالب العلم الشرعي. ودائماً إذا رأيت الأهداف التي تسعى إليها بعيدة عنك، وأنك لست في مستواها، إذا رأيت هذه الأهداف التي تطمح إليها لن تجري على يديك فهذا من ضعف إيمانك، فاستعن بالله ولا تعجز، أما إذا غلبك أمر قاهر في أيّ حقل من حقول الحياة فعندئذٍ قل: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، وهذه كلمة حق تقال في مكانها الصحيح، أما إذا كنت مقصراً وأصابك جزاء عملك وقلت: (حسبي الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله) فهي كلمة حق أريد بها باطل.

المؤمن يعبر عن ذاته بحركة نحو خدمة الخلق :

شيء آخر: الله سبحانه وتعالى إلهنا وربنا وخالقنا الذي نصر أصحاب رسول الله وقد فتحوا أطراف الدنيا، فعقبة بن نافع قطع مسافات بعيدة جداً إلى أن وصل إلى المحيط الأطلسي، قطع القارة الإفريقية، ووصل إلى الطرف الآخر، وقال قولته الشهيرة: (لولا هذا البحر يا رب لتابعت الجهاد في سبيلك)، فمن هم هؤلاء القلة القليلة التي

كانت في مكة والمدينة وعرفوا الله عز وجل وانطلقوا يفتحون البلاد وينشرون هذا الدين القوي؟ من هي الدولة العظمى؟ إندونيسيا التي تعد مئة وخمسين مليونًا فتحت من خلال التجار المسلمين، ففي اللحظة التي يستقر فيها الإسلام في قلبك لابد أن يعبر عن ذاته بحركة نحو خدمة الخلق، ونحو الدعوة للحق، فأيُّ مؤمن ساكن لا وجود له، مؤمن سكوني يؤثر الراحة، ويميل للانسحاب من الحياة، يملك فقط قناعات إسلامية فهذا المؤمن على إيمانه أكبر إشارة استفهام، والأصح أنه ليس مؤمناً، فالمؤمن يعبر عن ذاته بالحركة، الآية الكريمة:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾

[سورة النور: 55]

استخلاف في الأرض وتمكين.

عبادة الله عز وجل سبب انتصارنا و قوتنا :

ثم يقول الله عز وجل:

﴿ يَعْبُدُونَنِي ﴾

[سورة النور: 55]

لا شيء أمامنا كي ننتصر ونقوى إلا أن نعبد الله، وكلما بحثنا عن نصر بعيد عن طاعة الله، وعن نصر بعيد عن تطبيق منهج الله، وعن نصر بعيد عن الصلح مع الله، فهذا نصر كالسراب، ولن تصل إليه، فهذا ملخص الملخص، إذا أردنا الانتصار ولو على أضيق مستوى، ولو على مستوى خاص بنا فلا بد من أن نعود إلى الله، ونصطلح معه، ونستقيم على أمره حتى يعطينا سؤلنا، فبعض الأفكار التي تتسرب إلى المؤمن تلقي عليه بعض ظلال اليأس، وهذه المسافة الكبيرة جداً بين قوتنا وقوة خصومنا، قال تعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾

[سورة الأنفال: 60]

إذا بذلنا القوة المتاحة بين أيدينا فإنّ ربنا سبحانه وتعالى يتولى الباقي، ويغير موازين القوى، فلا بد من الصلح والتوبة والعودة إلى الله حتى نستحق أن تعاد سيرة المسلمين الأولى، حينما نصرهم الله عز وجل، ورزقهم عزاً وكرامةً ونصراً، فيمكن أن تفهم أي حديث فهمًا سهلاً، فمثلاً تقول: ألف مليون هذه سهلة، لكن أن تملكه فليس

بالشيء السهل.

لن نقطف ثمار الإسلام إلا إذا عشنا هذا الدين العظيم :

لذلك لا نستطيع قطف ثمار الإسلام إلا إذا عشنا هذا الدين العظيم؛ عشناه في بيوتنا وأعمالنا...فإذا فعلنا ذلك أذاقنا الله عز وجل من ثمار الإيمان اليانعة، وكلمة أذاقنا أقصدها بالذات، لقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا))

[مسلم عن الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ]

قال الإمام الشافعي: من لم يعهد منه سفر لم يعهد منه علم "، وكلما اتسعت دائرة اتصالاتك، وأنت يمكن أن تخاطب المؤمنين بقواسم مشتركة كبيرة جداً، فإذا خاطبت أي مؤمن تقول له: قال الله سبحانه وتعالى، أو قال الرسول في الحديث الذي رواه مسلم.... تقول له: سمعاً وطاعةً، فهي قضية سهلة، وقال سيدنا سعد بن أبي وقاص: "ما سمعت حديثاً من رسول الله إلا علمت أنه حق من الله تعالى".

مخاطبة المؤمن قضية سهلة العبرة بمخاطبة الطرف الآخر :

مخاطبة المؤمنين قضية سهلة، ولكن إذا أردت أن تنشر هذا الدين في الآفاق وجب عليك أن تخاطب الطرف الآخر، ومحتمل أن الطرف الآخر لا يقتنع بالقرآن الكريم، والسنة المطهرة، فيحتاج إلى أدلة عقلية، ومعطيات علمية وموضوعية دقيقة، وفكر واقعي، ولذلك الإنسان حينما يحتك مع عقول الطرف الآخر يعرف طبيعته، ويعرف طبيعة تفكيره باللغة التي يفهمها، فقضاء الصلاة الفائتة في السفر تقضى ركعتين في الحضر، وتقضى أربع ركعات في السفر إذا فاتتك في الحضر، هذا عند الأحناف والمالكية، والشافعية لهم مذهب آخر.

استحباب النوافل المطلقة في السفر :

بقي موضوع ثانٍ هو صلاة السنن في السفر فقد اتفق الفقهاء على استحباب النوافل المطلقة في السفر، واختلفوا في استحباب النوافل الراتبة، قبل الظهر ركعتان أو أربع ركعات، وبعد المغرب ركعتان، هذه السنن التي صلاها النبي عليه الصلاة والسلام مع الفرائض، اسمها سنن الرواتب، واتفق الفقهاء على استحباب النوافل المطلقة في

السفر واختلفوا في استحباب النوافل الراتبة، فقد تركها ابن عمر وآخرون، واستحبها الشافعي وأصحابه، وجمعُ المذهبين مع التفاصيل أنْ يأتي المسافر بالسنن الرواتب إن كان في حال أمن وقرار، أي مستقراً، وإلا إن كان في حالة سفر وارتحال يصلي الفرائض من دون سنن الرواتب، وهذا التوجيه يجمع بين المذهبين مع التفاصيل، ففي السفر يكون أحياناً اضطرابات وحاجات لم تؤمن، والمواعيد دقيقة، المواصلات صعبة، ففي أيام السفر يمكن أن تستقل بالفرائض التي قصرتها أو جمعتها، ولكن حينما تستقر في السفر ولو لم تنوِ الإقامة فيمكن أن تصليها كما أمر النبي عليه الصلاة والسلام.

الجمع بين الصلاتين يجوز في كل المذاهب إلا الحنفية :

والجمع بين الصلاتين يجوز في كل المذاهب إلا الحنفية، فلم يسمحوا بالجمع إلا في عرفات ومزدلفة، جمع الظهر مع العصر جمع تقديم، والمغرب والعشاء جمع تأخير، فالصلوات التي تجمع الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، في وقت إحداهما، والأفضل عدم الجمع خروجاً من الخلاف، فإذا وجد مذهب يمنع الجمع كالأحناف، ومذاهب يجيز الجمع، ووُجِد الخلاف، فكيف أخرج من هذا الخلاف؟ بعدم الجمع، أخذت الأحوط، والقاعدة الفقهية نحن دائماً نستخدم الأحوط عند اليسر، والأسهل عند العسر، فنأخذ بالأحوط ونحن في حالة اليسر، ونأخذ بالأسهل ونحن في حالة العسر، والله عز وجل قال:

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾

[سورة الحج: 78]

والقاعدة الفقهية تقول: الأمر إذا ضاق اتسع، وكل إنسان يأخذ بالأشد الأصعب في أوقات الشدة والعسر، فهذا ليس فقيهاً في الدين، لأن الله عز وجل ما أراد منا المشقة التي لا جدوى منها، بل أراد منا إقبالنا عليه، وإخلاصنا له، فإذا توافر هذا فلا بد من اليسر، فالذين أجازوا جمع الصلوات؛ صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم أو تأخير، وصلاتي المغرب والعشاء جمع تقديم أو جمع تأخير، فهؤلاء الذين أجازوا الجمع وهم المذاهب الثلاث؛ الشافعية، والمالكية، والحنابلة، لهم شروط؛ منها: قالوا: اتفق المجيزون للجمع تقديماً أو تأخيراً على جوازه في أحوال ثلاث: هي السفر، والمطر، ونحوه من ثلج وبرد، والجمع بعرفة ومزدلفة، عرفة ومزدلفة بند، والأحوال الجوية بند، والسفر بند.

الحكم الشرعي و العلة :

أحياناً يتداخل عند الإنسان حكمة الحكم الشرعي وعلته، والحكمة غير العلة، فعلة الإفطار في السفر هو السفر فقط، وهذه هي العلة الفقهية التي تجيز الإفطار، السفر فقط، ولكن الحكمة من الإفطار في السفر هي المشقة، ولو جعلناها هي العلة، وقلنا: إن المشقة هي سبب الإفطار في السفر، وكان السفرُ مريحاً، فلربما كان في هذا السفر مشقة على الإنسان الكبير في السن، ولربما إنسان آخر قوي البنية لا يأبه بالسفر الشاق، لأن الحكمة لا يمكن ضَبْطُهَا، فيدخل المسلم في متاهة واضطراب وأخذ ورد، فالفقهاء بحثوا عن العلل، واستأنسوا بالحكم، فعلة الإفطار في السفر السفر فقط، أي سفر كان؟ ولكن الله عز وجل قال:

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: 184]

فأنت بعد أن جعلت علة الإفطار في السفر هو السفر فقط فهو علة ثابتة، والآن تستأنس بالحكمة التي هي دفعُ المشقة، فلو كان السفر مريحًا وأنت قوي البنية، فلا ينبغي لك الإفطار:

﴿ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ﴾

وفي كل حكم شرعي اسأل عن العلة، واسأل عن الحكمة، فالعلة قابلة للضغط، والحكمة ليست قابلة للضغط، فالأفضل أن نأخذ بالعلة ونستأنس بالحكمة، وتنفيذاً لهذه القاعدة فالجمع بين الصلاتين أحياناً لا داعي له، والحكمة دفع المشقة، كما قال أحد العلماء الكبار: " الشريعة رحمة كلها، عدل كلها، مصلحة كلها، فكل قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة، ومن العدل إلى الجور، ومن المصلحة إلى المفسدة، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل ".

فموضوع الشريعة مبنية على المصلحة والرحمة والعدل، فالإنسان يدخل في الدين قضايا ليست من صلبه، و ما أضر الدينَ إلا إدخالُ أشياء غريبة عنه، وحذفُ أشياء من صلبه، و هذا ممَّا شوَّه الدين حقيقة؟ فنحن لا نخشى على الدين من أعدائه، بل من أدعيائه، فماذا يفعل أدعياؤه؟ يضيفون إليه ما ليس منه، و يحذفون منه ما هو من صلبه، فإذا أضفتَ إليه ما ليس منه فقد أخرجته عن مساره الصحيح، و شوهت صورته النقية، و عطلت حكمه البالغة، و جعلته أداة للارتزاق، أما إذا عطلت فيه ما هو من صلبه، فقد قطعت ثماره اليانعة التي كان من الممكن أن تُقطَف.

الدين لا يحتمل أن تضيف إليه شيئاً أو أن تحذف منه شيئاَ :

لذلك أيها الأخوة الكرام دائماً وأبداً أذكِّركم بالآية الكريمة:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾

[سورة المائدة: 3]

فالإتمام عددي، والإكمال نوعي، وهذا الدين لا يحتمل أن تضيف إليه شيئاً لا في العقائد، ولا في العبادات، إلا أن الله سبحانه وتعالى تكريماً للإنسان سمح للعلماء أن يجتهدوا، لأن الله جلّ جلاله جعل بعض نصوص القرآن الكريم احتمالية الدلالة، حتى تتسع هذه المعاني المتعددة لمصالح الخلق جميعاً، فالخلق جميعاً لهم ظروف وبيئات وأطوار متباينة، فمن أجل تحقيق هذه المصالح أنزل ربُّنا سبحانه وتعالى بعضَ النصوص ذات الدلالة الظنية، حيث إن المجتهدين في أمور الفقه فقط، وكما تعلمون لا اجتهاد في مورد النص، فأن تضيف على الدين ما ليس منه أخطر ما يصيبه، وكذا أن تحذف منه ما هو من صلبه، أما من أجل استمراره كما بدأ، وأن ترى ديننا الحنيف اليوم كما جاء به النبي ﷺ، من أجل ذلك لا بد أن نحافظ على أصوله؛ الكتاب والسنة والسيرة النبوية، فالكتاب خطاب السماء للأرض، والسنة بينت وفصلت، والسيرة جسدت ووضحت، هذه الأصول، فأي كلام آخر جاءنا موافقاً للكتاب والسنة فعلى العين والرأس، أما إذا كان مخالفاً فهو رد:

((مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]

كما ورد في الحديث الصحيح، وهذا الحديث يوحي للمتوهمين أن كل شيء تحدثه في الدين سنة حسنة، فلك أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة.

((مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

[أحمد عن الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِيهِ]

لكن هذا الحديث:

((مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ))

يصطدم مع حديث مخيف:

((فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ ثُمَّ يَقُولُ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ وَعَلَا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ نَذِيرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ مَسَّاكُمْ ثُمَّ قَالَ مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ أَوْ عَلَيَّ وَأَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ))

[النسائي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ]

فكيف نوفق بين الحديثين؟ القضية سهلة، العلماء قالوا: هناك البدعة اللغوية، وهناك البدعة في الدين، فالبدعة اللغوية: كل شيء مستحدث، في اللغة: فلان ابتدع تدفئة مركزية للمسجد، فهذه بدعة لم تكن في عهد النبي، لكنها بدعة لغوية، لا علاقة لها بالدين أبداً، فكل إنسان أحدث شيئًا في الحياة لم يكن من قبل، وهذا الشيء متوافق مع مصالح الدين الكبرى فلا مانع منه:

((مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ))

ومرة حضرت عقد قران أحد إخواننا، ففاجئنا أنه لم يوزع أي نوع من الهدايا إطلاقاً، على غير العادة، وخطيب الحفل قال: إننا جمعنا المبالغ التي كان من الممكن أن تنفق كهدايا للإخوة الحضور فبلغت مبلغًا كبيرًا، وأودع عند الجهة الفلانية ليتزوج بها الشباب المؤمنون، وهذا شيء جميل، فالجميع توجد عندهم من هذه الهدايا لدرجة أنه لا مكان لها، فبهذا المبلغ الكبير زوجنا خمسة شباب، هذا الرجل دعا ثمانمئة شخص للحفل، وكل مدعو ثمن هديته سبعمئة أو ثمانمئة، فجمعها، وإذا بها مبلغ كبير، فقرر تقديمها إلى جهة أمينة وحريصة لتزويج الشباب، وهذه سنة حسنة، وأنا واللهِ أرحب بهذا، فلو أصرّ أحدكم على تقديم أي شيء فقدم كتابًا يا أخي في الحديث أو

الفقه أو السيرة، فهو شيء يتأثر به، وهذه الكتب ثمينة جداً، وهي سنّة حسنة:

((مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ))

من أضاف إلى الإسلام عقيدة ليست من صلبه أو حذف منه فهذه هي البدعة الضالة:

أما كل محدثة بدعة؛ فإذا أضفت إلى الإسلام عقيدة ليست من صلبه، أو حذفت منه فهذه هي البدعة الضالة:

((وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ))

فيجب أن نفهم السنة الحسنة اللغوية كاستحداث شيء، والتعليق الدقيق أن هذا الشيء المستحدث يقيَّم بشرع الله عز وجل، فإن وافقه كان سنة حسنة، وإن لم يوافقه كان سنة سيئة.

والتصوير في عرس النساء على أفلام الفيديو لا أعتقد وجود معصية أشد منها، الإنسان يستخدم شريطًا ليرى النساء، وهنّ بأبهى زينة! وهذه زوجة فلان، وهذه زوجة فلان، وهو جالس في غرفته ليشاهد الفيلم فهذه سنّة سيئة:

((وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ))

فأنت كمسلم لا يحق لك إرسال زوجتك إلى أي حفل فيه تصوير فيديو، أو تصوير عادي، فهي عرضك يراها الناس جميعاً في بيوتهم بأبهى زينة، وأنت مسلم.

قياس المستحدثات بالشرع :

أحياناً يظن بعضهم أن ربنا عز وجل كأنه تخلى عنه، ابحث عن السبب فإنّ الله عز وجل قال:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي ﴾

[سورة النور: 55]

فإذا أَخَلَّ الطرف الثاني بما عليه فإنّ الله في حلٍّ من وعوده الثلاث، قال العلماء: هذه السنة اللغوية، أو الشيء المستحدث اللغوي إذا وافق مقاصد الشريعة فعلى العين والرأس، وكثير من الأشياء أصبحت في المسجد لطيفة، فالمسجد هو بيت الله، تجد الماء الساخن، و لم يكن هذا من قبل، وهذه سنّة حسنة، وماء بارد للشرب وهذه سنّة حسنة، أو عزل تحت السجاد ليقي من البرد، وهذه سنّة حسنة، وتكبير الصوت، والإضاءة، ووجود مكتبة في المسجد، وبعض المرافق، هذه كلها جديدة لم تكن من قبل، وهي سنّة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سنّ سنّة سيئة، اليوم يدخل الشاب إلى عرس النساء ليجلس إلى جانب زوجته، وأمامه جمع غفير من النساء الأجنبيات اللاتي لا يحللن له، فهل هذه مِن عاداتنا؟ لا، هذا كلام فارغ بل هي سنّة سيئة، فالمستحدثات نقيسها بالشرع، فإن وافقت فعلى العين والرأس، وإن خالفت فهي مرفوضة، إلا شيئًا فيه مستحدثات موقوفة على نوع استعمالها، كأن تسمع بالمسجلة القرآن الكريم، أو دروس العلم، فهذه سنّة حسنة، أما أنْ تسمع الغناء فسنّة سيئة، فهذه الآلة تجوز أولا تجوز؟ الحكم فيها موقوف على نوع استخدامها، فهناك شيء حرام مطلقاً كالتصوير، وشيء حلال مطلقاً، وشيء موقوف على استعماله، هذا كل شيء مستحدث، لكن الدين في عقيدته وعباداته لا يحتمل أن تضيف إليه شيئاً، لأن مجرد الإضافة أو الحذف اتهام له بالنقص، فلا نستطيع التقدم والتفوق إلا إذا اعتقدنا أن هذا الدين تام كامل، أي عدد القضايا التي عالجها الدين تام، وطريقة المعالجة كاملة، وعندئذٍ حرية الحركة تكون بالأحكام الفقهية الشرعية المستنبطة من أحكام كلية.

اختلاف العلماء رحمة واسعة واتفاقهم حجة قاطعة :

مرة أخيرة أقول لكم: الله عز وجل جعل بعض الآيات ذات أحكام احتمالية، أي ذات دلالات ظنية، أراد الله جل جلاله كل المعاني المحتملة من هذا النص رحمة بالخلق، إلى أن قال أحدهم: اختلاف العلماء رحمة واسعة، واتفاقهم حجة قاطعة، ولتتجسد الفكرة أمامكم إليكم هذا المثل: موضوع المرأة في الحج إذا جاءتها الدورة الشهرية، فعند السادة الأحناف عليها أن تقدم جملاً، وثمن الجمل اليوم مئة وأربعون ألفًا، ومذهب آخر تصبح أميرة ركبها، فينتظرونها إلى أن تطهر وهذا مذهب الشافعية، فالموضوع الجمع بين المذاهب، والتفصيل، والبحث عن علة كل اتجاه في المذاهب، فلو أن هذه المرأة لها ابن في جدة، وجاءتها الدورة قبل أن تطوف طواف الإفاضة، وزوجها تاجر ولم يكونوا على عجلة من أمرهم، فذهبت إلى بيت ابنها في جدة، وانتظرت سبعة أيام حتى طهرت، فإنها قلدت المذهب الشافعي، هذا شيء جميل، فلو أنها في فوج، وهذا الفوج لا ينتظرها، ولا تملك ثمن جمل تنحره

جزاء أمرها فماذا تفعل؟ عند المالكية تطوف البيت ولا شيء عليها، لأن هذا عارض سماوي، فلو فرضنا أنها امرأة ثرية، وذبحت هذا الجمل، وأطعمته الفقراء فلا مانع، فأحياناً تجد أن الأحناف حكمهم أمثل حكم، وأحياناً الشافعية، وأحياناً المالكية، فاختلاف أمتي رحمة، وفي حالات الإعسار نبحث عن الأسهل، وفي حالات اليسر نبحث عن الأحوط، ولا زلنا في الجمع بين الصلاتين في السفر أو في الحضر لأحد الأسباب، كالمطر ونحوه من ثلج وبرد، أي الظروف الجوية السيئة جداً، وهذه قد تدعو إلى الجمع في صلاة الجماعة، والجمع بعرفة ومزدلفة، وفيما سوى ذلك فموطن خلاف بين العلماء، وإن شاء الله في درس قادم ننتقل إلى بقية الأسئلة التي طرحت قبل أسبوعين، لأننا اتفقنا أنّ كل أول شهر نفتح الصندوق، ونأخذ الأسئلة ونجيب عن المهم منها في درس عام، وعن بعضها بشكل مباشر.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 33 : ظاهرتي الكسوف والخسوف : ظاهرة علمية – أحكام صلاة الكسوف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

مشروعية صلاة الكسوف في الإسلام :


المسلمون يؤدون صلاة الكسوف عند حدوثه

أيها الأخوة الكرام، وعدتكم في درس سابق أن يكون هذا الدرس عن الكسوف وصلاة الكسوف، لأنه بحسب الحسابات الفلكية سوف نشهد كسوفاً في هذا البلد يوم الأربعاء الحادي عشر من شهر آب، بعد الظهر بقليل، ولأن صلاة الكسوف مشروعة في الإسلام، وهي سنة مؤكدة، وعند الأحناف واجبة، فلا بد من الحديث عن الكسوف أولاً، ثم عن صلاة الكسوف، وكيف تؤدى، وعن شروطها، وما إلى ذلك.


مجرة درب التبانة على شكل مغزل

أيها الأخوة، الكون مصطلح معاصر، بينما مصطلح القرآن الكريم السموات والأرض، والسموات والأرض من خلق الله عز وجل، وتوجد إحصاءات أخيرة أن في الكون ما يقترب من مئة ألف مليون مجرة، ونحن في مجرة معتدلة، هي درب التبانة، شكلها على شكل مغزل، لو صورناها على شكل مغزل طوله أربعون سنتمتر تقريباً، وعليه نقطة لا تزيد عن ربع ميليمتر،

وهذه النقطة هي المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية هي الشمس تدور حولها نجوم، والأرض أحد الكواكب التي تدور حول الشمس.

القرآن الكريم معجزة مستمرة :

الشمس أيها الأخوة لو وازناها مع الأرض لزاد حجمها عن حجم الأرض بمليون وثلاثمئة مرة، أي إن جوف الشمس يتسع لمليون وثلاثمئة ألف أرض، والشمس حرارتها في جوفها عشرون مليون درجة، وعلى سطحها ستة آلاف، فلو ألقيت الأرض في الشمس لتبخرت في ثانية واحدة في جوفها الداخل، وبين الشمس والأرض مئة و ستة و خمسون مليون كيلومترًا، يقطعها الضوء في ثماني دقائق، والأرض تدور حول الشمس بسرعة ثلاثين كيلومترًا في الثانية، وقد مضى عن بدء الدرس الآن خمس دقائق، دارت الأرض خلالها ألفًا وثلاثمئة كيلو متراً، وفي خمس دقائق تقريباً عشرة آلاف كيلو مترًا، فمنذ أن قلت: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حتى الآن الأرض قطعت عشرة آلاف كيلو مترًا في دورتها حول الشمس، وتقطع هذه المسافة في ثلاثمئة وخمس وستين يومًا وربعًا، وهي السنة الشمسية، والقمر يدور حول الأرض دورة كل شهر، فلو أخذنا مركز الأرض ومركز القمر – فالأرض يدور حولها القمر – ووصلنا بينهما بخط، وهذا الخط هو نصف قطر الدائرة التي هي مسار القمر حول الأرض، و بحساب بسيط نصف القطر ضرب اثنين ضرب بي (3.14) نحصل على محيط الدائرة، أي بالأمتار، إذا عرفنا نصف قطر دائرة مسار القمر حول الأرض عرفنا محيط هذه الدائرة، و نعرف كم كيلومترًا يقطع القمر في رحلته حول الأرض، فلو ضربناها باثني عشر لعرفنا كم كيلو يقطع في السنة، ولو ضربناه بألف لعرفنا كم كيلو يقطع في ألف عام، قال تعالى:

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

[سورة الحج: 47]

لو أخذنا الرقم الذي حصلنا عليه هذا الرقم الكبير لو قسمناه على ثواني اليوم، ستون ضرب ستين ضرب أربع و عشرين لكانت سرعة الضوء الدقيقة (مئتان و تسعة و تسعون ألفاً و سبعمئة و اثنتان و خمسون) هذه الآية مضمون نظرية اينشتاين، التي تاه الغرب بها، وقال: كشفنا سرعة الضوء، وبني على هذه السرعة النظرية النسبية، وقال علماء هذه النظرية: إن الشيء إذا سار بسرعة الضوء أصبح ضوءاً، فأصبحت كتلته صفراً، وحجمه لا نهائياً، وهذا هو الضوء.

وهذه الآية:

﴿ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴾

[سورة الحج: 47]

أي ما يقطعه القمر في رحلته في ألف عام حول الأرض، يقطعه الضوء في يوم واحد، هذا معنى الآية بالضبط، ما يقطعه القمر في رحلته حول الأرض في ألف عام، يقطعه الضوء في يوم واحد، طبعاً قسمنا المسافة على الزمن فكانت السرعة، وقد لا يخطر في بال الإنسان أن هذه الآية تلخص النظرية النسبية، لأن الله عز وجل جعل هذا القرآن معجزة مستمرة.

الحكمة من إحجام النبي عن طرح الآيات الكونية :

النبي عليه الصلاة والسلام أحجم عن طرح الآيات الكونية لحكمة بالغةٍ بالغة، أو لأن الله أمره بذلك، فلو شرحها شرحاً مبسطاً يفهمه أصحابه لأنكرنا عليه، ولو شرحها شرحاً مفصلاً نفهمها نحن لأُنكِر عليه، بل تركت هذه الآيات لتكون إعجازاً مستمراً لكتاب الله على مدى الأعوام، وإلى نهاية الدوران.



فالمجموعة الشمسية، الزهرة، وعطارد، والمريخ، والأرض، والمشتري، و نبتون، وبلوتو، هذه الكواكب كلها ممثلة على مجرة درب التبانة بدقة، وقال العلماء: قطر المجموعة الشمسية ثلاث عشرة ساعة، أما طول درب التبانة فمئة و خمسون ألف سنة ضوئية، فالآن القمر يدور حول الأرض، والأرض تدور حول الشمس، وأحياناً وبحسابات فلكية دقيقة جداً، يمكن أن يأتي القمر بين الأرض والشمس، فيحجب عنا أشعة الشمس، وهذا هو الكسوف، أن يقع القمر بيننا وبين الشمس، لا على كل الأرض، بل على بقعة منها.

الكسوف التام و الكسوف الجزئي :



لذلك البعثات الآن جاءت من أمريكا، ومن أوربا، ومن فرنسا، ومن بريطانيا إلى منطقة عين ديوار في شمال شرق سوريا، والكسوف هناك سيكون تاماً، مدته دقيقتان، وخلال دقيقتين تصبح الأرض ليلاً تماماً، وعندئذٍ يرى سكان هذه المناطق النجوم ظهراً حقيقة هذه المرة، وليس أنْ يقول مزاحاً: واللهِ لأُرِيَنّك نجوم الظهر، هؤلاء سوف يرون نجوم الظهر تماماً، ويرون المشتري، والزهرة، وعطارد، ونبتون، وبلوتو، حتى العلماء ذكروا أسماء النجوم التي ترى ظهراً بعد أيام، إلا أن في منطقة عين ديوار والحسكة إلى الموصل هذه المنطقة المحدودة كسوفها تام، يمكن أن ترى ألسنة اللهب حول دائرة الشمس، وقد يزيد طول هذا اللسان عن مليون كيلومترًا، وقد يقول قائل: هل مِن المعقول أنّ القمر بحجمه الصغير يحجب عنا أشعة الشمس؟ الجواب إن قرص الشمس أكبر من قرص القمر بأربعمئة مرة، ولكن بُعد القمر عن الأرض إذا قسناه إلى بعد الشمس عن الأرض.



فبُعد الشمس عن الأرض يزيد عن بُعد القمر عن الأرض بأربعمئة مرة، فلو جئت بليرة سورية معدنية ووضعتها أمام عينك لحجبت عنك جبل قاسيون بأكمله، لأنّ بُعدها عن عينك خمسة سنتيمتر، أما بُعد العين عن جبل قاسيون فخمسة كيلو متر، فإذا اختلفت المسافة فإنّ الشيء الصغير يحجب الكبير، فالكسوف يكون القمر بين الأرض والشمس، أما عندنا في الشام فيبدو الكسوف جزئياً كوقت المغرب، طبعاً ليس هناك شمس، وليس هناك ظلام دامس، وهذا اسمه كسوف جزئي.

نعم الله عز وجل على الإنسان :

وذكرت هذا في درس اليوم في الطاووسية أن شبكية العين فيها مئة وثلاثون مليون مخروط وعصية، وهذه مستقبلات للضوء، وهذه الشبكية مؤلفة من عشر طبقات، و هي حساسة جداً، وأخطر ما في العين، و الذي كشف العدد نال جائزة نوبل عام ألف و تسعمئة و سبعة و ستين، مئة و ثلاثون مليون مستقبل ضوئي، من أجل أن تأتي الصورة ناعمة تماماً، والذي عاصر الصحف في البدايات، يذكر أنّ الصور كانت نقطًا خشنة، وهي مجموعة نقاط، والآن في الكمبيوتر، بالطابعة، يقول لك مثلاً تسعمئة نقطة في الميليمتر، أو ستمئة، أو ثلاثمئة، وكلما كثرت النقاط تصبح الصورة طلسًا، و جميلة جداً، فالله وضع لك في الشبكية مئة و ثلاثين مليونًا من أجل أن ترى الصور بدقة بالغة، فلو صورنا الأخوان بآلة تصوير الآن، وحمضناها نفاجأ بأن ألوان الوجوه كلها واحدة تقريباً، ما عدا واحدًا أبيض ناصعًا، وآخر أسود داكنًا، أما الأغلبية فلون واحد، فالأفلام التي يصنعها الإنسان ليس فيها قدرة على أن تظهر تفاوت الألوان، بينما العين البشرية لو درجت اللون الأخضر ثمانمئة ألف درجة، فإنّ العين البشرية تفرّق بين درجتين، السليمة منها طبعاً، فهذه مئة و ثلاثون مليون عصية ومخروط لاستقبال الألوان الأبيض والأسود، ومن نعم الله علينا وفضله أننا نرى الصور ملونة، بينما القطط والكلاب لا يرونها ملونة، بل أبيض وأسود، أمّا نحن فنراها ملونة، وهذا من فضل الله علينا، وهذه الشبكية ليس فيها مستقبلات للألم، إذْ عندنا أعصاب حس، وأعصاب ألم، وأعصاب حركة، والله عز وجل ما وضع في الشعرة أعصاب حس، وإلاّ لزمك تخدير لقص أظافرك، ولكن لحكمة بالغةٍ بالغة ما جعل في الأظافر أعصاب إحساس، ولا في الشعر، ولحكمة بالغة أيضاً ما جعل في الجهاز الهضمي أعصاب حس، فلو فتحت حنجرة إنسان، ووضعت فيها ماءً يغلي لم يشعر بشيء أبداً، لأنّ أعصاب الحس في اللسان، ولذلك قال تعالى:

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾

[سورة محمد: 15]

ما قال: فأحرقهم قال:

﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾

[سورة محمد: 15]

كلام القرآن دقيق.

احتراق شبكية العين عند النظر إلى الشمس أثناء الكسوف :

والآن إذا كانت عندنا بحرة فيها صنبور، وفيها مصرف، والصنبور إنش، والمصرف إنش، وهي ممتلئة لن تفيض، فمتى تفيض؟ إذا صار الصنبور إنشين، والمصرف إنشًا، أو بالعكس، فقد ضيّقنا المصرف، وأبقينا الصنبور إنشًا، قال الله عز وجل:

﴿ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾

[سورة المائدة: 83]



عندنا صنبور مفتوح على قرنية العين، وعندنا قناة للدمع هي المصرف، وثمّة تناسب بين صنبور الدمع والمصرف، والإنسان حينما يبكي يزيد الصنبور على المصرف، فيحدث فيضان للدمع، وكلام القرآن كلام خالق الأكوان قال:

﴿ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾

[سورة المائدة: 83]

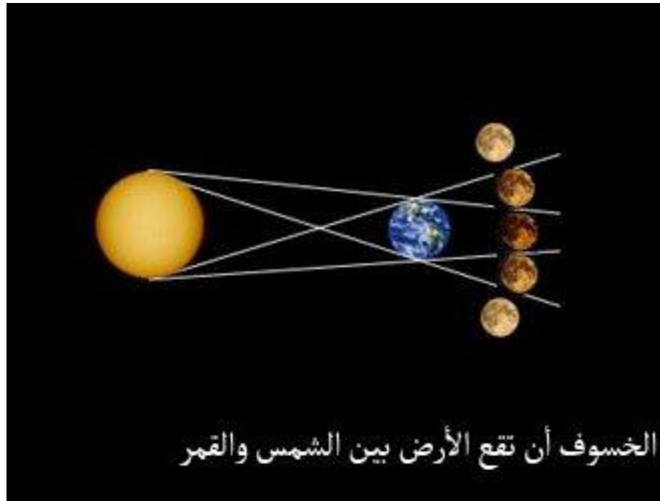
فالله عز وجل ما جعل في شبكية العين مستقبلة للألم، ولو أن الإنسان الآن من دون كسوف حدق في أشعة الشمس ملياً لاحترقت شبكية عينه دون أن يشعر، ولعان من ضعف في البصر، لذلك يُمنع أن تنظر إلى قرص الشمس.

الحكمة من الصلاة وقت كسوف الشمس :


لبس واقيات عين عند الكسوف بالأخص للأطفال

ولكن كسوف الشمس مناسبة مغرية جداً، كي تحدق في قرصها، و حينما تحدق في قرص الشمس يمكن أن تصاب الشبكية بأذى خطير، والأذى الذي قاله الأطباء لا يصحح، ولا يرمم، بل تحترق طبقة من طبقات الشبكية، إذا حدقت في قرص الشمس في أثناء الكسوف تحترق الشبكية، والعلماء قالوا: إذا كان هذا الخطر قائماً على الكبار فهو على الصغار أشد ، لأن شبكية العين عند الصغار حساسة جداً، وضعيفة المقاومة، فلو سمحنا لأطفالنا أن يحدقوا في قرص الشمس في أثناء الكسوف لأصاب شبكيتهم خلل خطير قد لا يرمم، ولعل النبي عليه الصلاة والسلام لحكمة بالغةٍ بالغة أمرنا أن نصلي وقت الكسوف، وأن نطيل الركوع والعين نحو الأرض، وأن نطيل السجود والعين على سطح الأرض، وأن نطيل الركوع والسجود كي لا نرى قرص الشمس في أثناء الكسوف.

أيها الأخوة، مات ابن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهو سيدنا إبراهيم، ورافق هذا الموت كسوفٌ للشمس، فتوهم الصحابة الكرام لعظم قدر النبي عندهم أن الشمس كسفت لموت إبراهيم، فقام النبي عليه الصلاة والسلام خطيباً وقال:


الخسوف أن تقع الأرض بين الشمس والقمر

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

[البخاري عن المغيرة بن شعبة]

والنبي أمرنا أن نصلي صلاة الكسوف، فهذه مقدمة عن الكسوف، وعن أصله، أما الخسوف فتقع الأرض بين الشمس والقمر، وأما الكسوف فيقع القمر بين الشمس والأرض.

تعريف الكسوف :

تعريف الكسوف: ذهاب ضوءِ أحد النيرين ؛ الشمس والقمر أو بعضه، ذهابًا كليًّاً فنقول عنه: إنه كسوف كلي، أو ذهابًا جزئيًا فنقول: إنه كسوف جزئي، و تغيره إلى سواد، يقال: كسفت الشمس، وكذا خسفت، كما يقال: كسف القمر أو خسف، كلاهما جائز، كسوف أو خسوف للشمس والقمر، ولكن المصطلح أن الكسوف للشمس، والخسوف للقمر.

وقت صلاة الكسوف و شرعيتها :

صلاة الكسوف: صلاة تؤدى بكيفية مخصوصة، عند ظُلمة أحد النيرين أو بعضها، وهذا هو الحكم التكليفي، والصلاة لكسوف الشمس سنة مؤكدة عند جميع الفقهاء، و في قولٍ للحنفية إنها واجبة، أما الصلاة لخسوف القمر فهي سنة مؤكدة عند الشافعية والحنابلة، وهي حسنة عند الأحناف، ومندوبة عند المالكية، والأصل في ذلك الإخبار عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

((فعن زِيَادُ بْنُ عِلاقَةَ قَالَ سَمِعْتُ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ يَقُولُ انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ فَقَالَ النَّاسُ: انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

[متفق عليه عن زِيَادُ بْنُ عِلاقَةَ]

ولأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى لكسوف الشمس كما رواه الشيخان، ولخسوف القمر كما رواه ابن حبان في كتابه الثقات.

((عن الحسن عن ابن عباس أنَّ القمر كَسَفَ وابنُ عباس بالبصرة فخرج ابن عباس فصلى بنا ركعتين في كل ركعة ركعتان ثم ركب فَخَطَبَنا فقال: إنما صليتُ كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي وقال: إنما الشمسُ والقمرُ آيتان من آيات الله لا يُخْسَفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، فإذا رَأَيتُمْ شيئاً منها كاسفاً فليكُن فَزَعُكم إلى ذكر الله عز وجل))

[مسند الإمام الشافعي وعن الحسن عن ابن عباس]

وهي صلاة ذات ركوع وسجود، لا أذان لها ولا إقامة، أما وقت هذه الصلاة فمِن ظهور الكسوف إلى حين زواله، لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((....فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

فصار وقتها من بدء الخسوف أو الكسوف إلى انجلاء الكسوف أو الخسوف، فجعل الانجلاء غاية الصلاة، ولأنها شرعت رغبة إلى الله في ردّ نعمة الضوء.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾

[سورة القصص: 71]

الحكمة من صلاة الكسوف :

الحكمة من صلاة الكسوف، أن نعرف نعمة الضوء، وقد كان يقول عليه الصلاة والسلام:

((يَا سُبْحَانَ اللَّهِ أَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ))

[أحمد عن سعيد بن أبي راشد في حديثه الطويل]


في الغرب يستخدمون أشعة الشمس للإضاءة من السقف

تكون مستوحشًا خائفًا من أشباح، شاعرًا بخوف، وقلق، فتشرق الشمس، ومع إشراق الشمس يمتلئ القلب شعوراً بالأمن، والطمأنينة، فنعمة الضوء نعمة كبيرة جداً، وقد أعجبني في بعض البلاد الأجنبية أنه ما من بيت إلا ويستخدم أشعة الشمس في الإضاءة، عن طريق فتحات في السقف، وهذا شيء مطبق في معظم البيوت، فتحات في السقف يستخدمون أشعة الشمس في الإضاءة، لأنها أشعة ربنا، فلا ثمن للكهرباء آخر الشهر، والآية الكريمة:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ﴾

[سورة القصص: 71]

في هذه الآية قال:

﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾

[سورة القصص: 71]

أما الآية الثانية فقال تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[سورة القصص: 72]

والعلماء قالوا: في النهار الحاسة الأولى هي البصر، أما في الليل فالسمع، سمعنا صوتًا، لكن لم نرَ شيئًا، سمعنا صوتاً فقط، يقلق في الليل الحاسة الأولى هي السمع، في النهار الحاسة الأولى هي البصر، إذاً لعلها شرعت لتقدير نعمة الضوء في حياة الإنسان، وربنا عز وجل حرك أشياء وثبت أشياء، فثبت أشعة الشمس، إنها في شروق دائم.

حكم صلاة الكسوف في الأوقات التي تكره فيها الصلاة :

صلاة الكسوف في الأوقات التي تكره فيها الصلاة: اختلف الفقهاء في ذلك، فذهب الأحناف إلى أنها لا تصلى في هذه الأوقات التي ورد فيها النهي عن الصلاة، من شروق الشمس حتى ترتفع، ومن كون الشمس في كبد السماء حتى تزول، ومن اصفرار الشمس حتى تغيب، فهذه ثلاث أوقات تكره فيها الصلاة، فلو كان الكسوف في هذه الأوقات كُرِهت عند الأحناف، لأنها أوقات مكروهات، أما عند السادة الشافعية فصلاة ذات السبب تصلى في وقت الكراهة، أما أن تصلي نفلاً مطلقاً فمكروه، فإذا وُجد سبب للصلاة صلِّيتْ في وقت الكراهة، فإذا كنت مع المذهب الحنفي، وكان الكسوف في وقت مكروه فتجعل مكانها تسبيحًا و تهليلاً و استغفارًا، و تفوت صلاة كسوف الشمس لأحد أمرين؛ الآن إذا أراد شخصٌ أن يصلي الجنازة، و قد انتهت الصلاة عليها فقد فاتته ولا يصليها، و متى تفوت صلاة الكسوف؟ تفوت لأحد أمرين؛ انجلاء جميعها، انتهى الكسوف، و انتهت معه الصلاة، فإن انجلى البعض فلك أن تصلي صلاة الكسوف، فإن انجلى البعض فله الشروع للصلاة للباقي. والشيء الثاني أن صلاة الكسوف تنتهي بغروب الشمس، ولو كانت مكسوفةً، ولو قبل الغروب بربع ساعة، كسفت، ثم غابت، فغياب الشمس إنهاء لصلاة الكسوف، والمعنى الذي أراده النبي أن تكون في أثناء الكسوف مصلِّيًا، وتطيل الركوع والسجود.

سنن صلاة الكسوف :

أما السنن؛ فيسن لمن يريد صلاة الكسوف أن يغتسل، لأنها صلاة شرع لها الاجتماع، وأن تصلى حيث تصلى الجمعة، لأن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاها في المسجد، إذاً أول سنة – الاغتسال – وثانيها أن تصلى في المسجد، في مكان صلاة الجمعة، وأن يدعى لها: " الصلاة جامعة "، و ليس لها أذانٌ، ولا إقامة، اتفاقاً، ومن السنة أن يكثر ذكر الله فيها، والاستغفار، والتكبير، والصدقة، والتقرب إلى الله تعالى بما استطاع من القرب، لقول النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((....فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

فعليك بالإكثار من الصدقة، والأعمال الصالحة، و القرب من الله، والدعاء، والاستغفار، والتكبير، وأن تصلى جماعة، لأن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاها في جماعة.

و قال أبو حنيفة والإمام مالك: يصلى لخسوف القمر وحداناً فرادى، تصلى ركعتين ركعتين، ولا تصلى جماعة لخسوف القمر، لأن الصلاة جماعة لخسوف القمر لم تنقل عن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع أن خسوفه كان أكثر من كسوف الشمس، ولأن الأصل أن غير المكتوبة لا تؤدى في جماعة إلا بالدليل. إذاً خسوف القمر تصلى صلاته فرادى، و كسوف الشمس تصلى صلاتها جماعةً.

وأبو حنيفة رحمه الله تعالى قال: لا خطبة لصلاة الكسوف، وذلك لقول النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((....فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

أمرهم عليه الصلاة والسلام بالصلاة، والدعاء، والتكبير، والصدقة، ولم يأمرهم بخطبة، ولو كانت الخطبة مشروعة فيهم لأمرهم بها، و لأنها صلاة قد يفعلها الفرد في بيته فلم تُشرع له خطبة.

وقال الشافعية: يسن أن يَخطب لها الإمام بعد الصلاة خطبتين كخطبتي العيد والجمعة، لما روت السيدة عائشة عن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه لما فرغ من الصلاة قام وخطب في الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

[البخاري عن عائشة]

تشرع صلاة الكسوف للمنفرد والمسافر والنساء :

أيها الأخوة، تشرع صلاة الكسوف للمنفرد، والمسافر، والنساء، المسافر يصليها، والمنفرد يصليها، والنساء يصلينها، لأن عائشة وأسماء رَضِي اللَّه عَنْهما صلتا مع النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويستحب للنساء غير ذوات الهيئات أن يصلين مع الإمام، أما مَن تخشى الفتنة منهن فيصلين في البيوت، لأن الفتنة ينبغي أن تُبعَد عن الصلاة.

والحقيقة عند الأحناف صلاة الكسوف ركعتان كأي صلاة، ركعتان و ركوعان و أربع سجدات، لكل ركعة قيام، وقراءة، وركوع، وسجدتان، كأية صلاة.

كيفية صلاة الكسوف :

أيها الأخوة، بقي علينا كيفية صلاة الكسوف، لا خلاف بين الفقهاء في أن صلاة الكسوف ركعتان، و اختلفوا في كيفية الصلاة بها، فذهب الأئمة الإمام مالك والشافعي وأحمد إلى أنها ركعتان، وفي كل ركعة قيامان، وقراءتان، وركوعان، وسجودان، واستدلوا لما رواه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ قَالَ:

((انْخَسَفَتْ الشَّمْسُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا نَحْوًا مِنْ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ قَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ ثُمَّ رَفَعَ فَقَامَ قِيَامًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ ثُمَّ رَكَعَ رُكُوعًا طَوِيلًا وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ ثُمَّ سَجَدَ ثُمَّ انْصَرَفَ وَقَدْ تَجَلَّتْ الشَّمْسُ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ رَأَيْنَاكَ تَنَاوَلْتَ شَيْئًا فِي مَقَامِكَ ثُمَّ رَأَيْنَاكَ كَعْكَعْتَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنِّي رَأَيْتُ الْجَنَّةَ فَتَنَاوَلْتُ عُنْقُودًا وَلَوْ أَصَبْتُهُ لَأَكَلْتُمْ مِنْهُ مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا وَأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ قَالُوا بِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ بِكُفْرِهِنَّ قِيلَ يَكْفُرْنَ بِاللَّهِ قَالَ يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ))

[متفق عليه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ]

وقالوا: وإن كانت هناك روايات أخرى إلا أن هذه الرواية هي أشهر الروايات في الباب، و الخلاف بين الأئمة في الكمال لا في الإجزاء والصحة، فيجزئ في أصل السنة ركعتان كسائر النوافل عند الجميع، فيجزئك أن تصلي ركعتين فقط كأية صلاة عادية، وهذا الحد الأدنى، وأدنى الكمال عند الأئمة الثلاث أن يحرم بنية صلاة الكسوف، نويت أن أصلي صلاة الكسوف، و يقرأ فاتحة الكتاب، ثم يركع، ثم يرفع رأسه ويطمئن، ثم يركع ركوعاً ثانياً، ثم يرفع رأسه ويطمئن، ثم يسجد سجدتين، فهذه ركعة، ومقبول منك ركعتان كأية صلاة، قيام، وقراءة، و ركوع، و سجدتان، أي ركعتان، فالحد الأدنى من الكمال كما ذكر قبل قليل أنْ تقف، وتقرأ، وتركع، ثم تقف، وتطمئن وتركع، ثم تقف وتطمئن، وتسجد سجدتين، وتعيدها كالركعة الثانية.

إذاً هي ركعتان، وفي كل ركعة قيامان، وركوعان، وسجودان، و باقي الصلاة من قراءة، وتشهد، وطمأنينة كغيرها من الصلوات أعلى الكمال، الآن المدارس درجات؛ مقبول، وناجح، و شرف، فأدنى النجاح مقبول كما قلت قبل قليل، وأعلى الكمال أن يحرم، و يستفتح، و يستعيذ، ويقرأ الفاتحة، ثم سورة البقرة، أو قدرها في الطول، ثم يركع ركوعاً طويلاً، و يسبح قدر مئة آية، ثم يرفع من ركوعه فيسبح ويحمد الله عز وجل في اعتداله، ثم يقرأ الفاتحة، و سورة دون القراءة الأولى آل عمران، أو قدرها، ثم يركع فيطيل الركوع، وهو دون الركوع الأول، ثم يرفع من الركوع فيسبح و يحمد، ولا يطيل الاعتدال ثم يسجد سجدتين طويلتين، ولا يطيل السجود بين السجدتين، ثم يقوم إلى الركعة الثانية فيفعل مثلما فعل في الأولى، لكن يكون دون الأول في الطول في كل ما يفعل، ثم يتشهد ويسلم، فعندك حد مقبول ومتوسط، وعالٍ.

المقبول: ركعتان كأية صلاة.

المتوسط: ركعتان كل ركعة بقيامين وركوعين وسجودين.

العالي: تقرأ البقرة، وتسبح مقدار مئة آية، وتقف مرة ثانية وتقرأ آل عمران، و تسبح مقدار مئة آية، أو أقل بقليل، ثم تقف وتطمئن، ثم تسجد، وتسجد، و تعيد في الثانية ما فعلته في الأولى.

عدم ورود الخطبة في صلاة الكسوف :

والآن يجهر بالقراءة في خسوف القمر، لأنها صلاة ليلية، والصلوات الليلية جهرية، والنهارية سرية، و لخبر عائشة أن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جهر في صلاة الخسوف، ولا يجهر في صلاة كسوف الشمس، والنبي ما

صلاها جماعة الخسوف، بل صلاها فرداً في بيته، فمَن الحجة في ذلك؟ السيدة عائشة، صلاها بقراءة جهرية، لأنها صلاة ليلية.

إن النبي صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى صلاة الكسوف فلم نسمع له صوتاً، لأنها صلاة نهارية، وإلى هذا ذهب الحنفية والمالكية والشافعية.

أما الخطبة فليست واردة كما قلت في صلاة الكسوف، إلا أن بعض الأئمة قالوا: لأن النبي قام وقال:

((إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلا لِحَيَاتِهِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا حَتَّى يَنْجَلِيَ))

[البخاري عن المغيرة بن شعبة]

وهذه الصلاة أيها الأخوة سنة مؤكدة عند جميع الأئمة، وهي واجبة عند الأحناف، ونحن إن شاء الله تعالى نصليها يوم الأربعاء، فإذا لم أسافر سأكون معكم إن شاء الله، وعلى كلٍّ فأبو محمد الله جزاه الله خيرًا يصلي بنا إماماً الحد المتوسط، حتى لا ننفر الأخوان، إن شاء الله نصليها يوم الأربعاء في أثناء الكسوف، إذا لم أسافر سأصليها معكم، فإذا سافرت فاعذروني، أصليها منفرداً.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 1 : على من تجب الزكاة . – بعض الأحكام في أداء الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، و أَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتباعه، و أرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

الزكاة :

أيها الأخوة الكرام، من الموضوعات التي تُناسب هذا الشهر الكريم موضوع الزكاة، وهذا الموضوع بِشَكل تفصيلي سوف نبْحثُه إن شاء الله تعالى بعد العيد، وقد أنْهَينا موضوع الصَّلاة، وموضوع الصّيام، ونبدأ بعد عيد الفِطر إن شاء الله تعالى موضوع الزكاة، ولكن لا بأس في هذا اللِّقاء بِبَعض القضايا الهامة في الزكاة، لأنَّ دَفع الزَّكاة في رمضان شيء مستحبّ كما سنَّه النبي عليه الصلاة والسلام.

((ثلاثة أُقْسِم عليهنّ، وأُحدِّثكم حديثًا فاحْفظوه: عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ فَأَمَّا الثَّلَاثُ الَّذِي أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ فَإِنَّهُ مَا نَقَّصَ مَالَ عَبْدٍ صَدَقَةٌ وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ فَيَصْبِرُ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عِزًّا وَلَا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ بَابَ فَقْرٍ وَأَمَّا الَّذِي أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ فَإِنَّهُ قَالَ إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ حَقَّهُ قَالَ فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ قَالَ وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا قَالَ فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ عَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ قَالَ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ قَالَ وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقَّهُ فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ قَالَ وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ قَالَ هِيَ نِيَّتُهُ فَوِزْرُهُمَا فِيهِ سَوَاءٌ))

[الترمذي عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه]

ثلاثة أنا فيهنّ رجل وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس: ما سَمِعتُ حديثًا عن رسول الله ﷺ إلا علِمتُ أنَّه حقٌّ من الله تعالى، فإذا سَمِعنا حديثًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فينبغي أن نعلمَ عِلْم يقين أنَّه حق.

((عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ الصَّدَقَاتِ وَيَأْخُذُهَا بِيَمِينِهِ فَيُرَبِّيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى إِنَّ اللُّقْمَةَ لَتَصِيرُ مِثْلَ أُحُدٍ وَقَالَ وَكِيعٌ فِي حَدِيثِهِ وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ (وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) وَ (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)))

[أحمد والترمذي عن أبي هريرة]

ألا تُحِبّ أنَّ شيئًا مِن مالِكَ يأخذهُ الله بيَمينه؟ اِدْفَع زكاة مالِكَ.

خصال خمسة إذا أصابت المسلمين كانت بلاء عليهم :

و:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

أي أعوذ بالله أن تَصِلوا إلى زمانٍ فيه هذه الخِصال الخمسة، فالفاحشة الزنا وملحقاتها من الشُّذوذ الجنسي، فهي إن مارسوها سِرًّاً ففي المجتمع بعض الخير، فإذا أعْلَنوا بها حدَّثني رجل كان بِفرنسا قال لي: تُقْطع برامج التلفزيون لِتَظْهر إعلانات لِبَعض دور البِغاء، وحينما يفتخر الإنسان بِبَعض المعاصي والفواحش، ويقول: فعلتُ كذا وكذا، فهذه تحت كلمة حتَّى يُعلنوا بها، فاسْتَمِعوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال قبل ألف وأربعمئة عام؟ إلا فشا فيهم أوجاع من لم يكن في غيرهم، أليس مرض الإيدز أحد هذه الأوجاع الوبيلة التي لم تكن في أسلافهم؟ هذا الشَّبح وصل إلى أوربا، وأصبَح المجرم إذا لاحَقَتْهُ الشُّرطة يقول: إيدز فتهرب منه!! لِخَوْفِهم من

العَدوى.

ثمَّ إنقاص الميزان يوجب القَحط، منذ أربعين عامًا لم تشْهد دِمشق أمطارًا بهذه النِّسبة، ثمانون مليمتراً، ما يهطل في ليلة واحدة نزل في عامٍ بِكامِله، نحن على مشارف الصَّيف والأنهار في الحضيض، وشِدَّة المؤونة، وهي غلاء الحاجات، وجَوْر السُّلطان.

ومنْعُ الزكاة يوجب منْع القطر من السماء، فلولا شُيوخٌ رُكَّع وأطفال رُضَّع وبهائم رُتَّع صُبَّ العذاب عليكم من فوقكم صبّاً.

ونقض عهد الله ورسوله يوجب تسليط العدوّ علينا، فالعدوّ ليس من المسلمين كاليهود.

وعدم حكم الأئمة بِكِتاب الله، إلا جعل الله البأس بيننا، فالبأس بينهم، وليس على عدوّهم، فهذا الحديث تعنينَا منه فقْرة واحدة؛ ولم يَمْنعوا زكاة أموالهم إلا مُنِعوا القَطر من السماء، يرْخص لَحْمُ البشَر، ويرتفِعُ سِعر لحم الضَّأن، نِساءٌ كاسِيات عاريات في رمضان، ومائلات مُمِيلات، بِهنّ يرتفع سِعر لحم الضَّأن.

على من تجب الزكاة ؟

كما قلتُ قبل قليل لن أدْخُل في تفصيلات الزكاة إلا بالقَدر الذي يَعنينا في رمضان ولنا عَودة بعض رمضان إن شاء الله لهذا البحث.

على من تَجِبُ الزكاة؟ تجِبُ الزكاة على المسلم الحُرّ، فالعبد لا تجب عليه الزكاة، المالِكِ للنِّصاب، فَعِشرون مثقالاً من الذَّهب، أو عشرون ديناراً من الذَّهَب، أو مئتا دِرهمٍ من الفضَّة، تقييم هذا النِّصاب يتراوح من ثمانية آلاف إلى عشرة، فَمَن ملَكَ هذا المَبلَغ، وحال عليه الحَوْل، وَجَب عليه دَفْعُ الزَّكاة، ويُشْترط في النِّصاب أن يكون فاضِلاً على الحاجات الضروريّة التي لا غِنَى للمرء عنها كالطعام والشراب، فإذا كان بيتك فيه مؤونة تَكفيك للأكل فهذا الطعام ليس عليه زكاة، والمَلْبس، والمَسكن، ولو كان ثمنه غاليًا لأنّه مستهلك، وكذا المركب، أما إن كانت لك مركبة أخرى تنوي بيعها فهذه عليها زكاة، وآلة الحِرفة، فهذه ليس عليها زكاة لأنَّها أموال غير نامِيَة ولكنها مستهلكة، ومعنى نامِيَة أيْ بإمكانك أن تبيعها فتأخذ الرِّبْح لكِنَّ إن كنت تسكُن بيتًا هل بإمكانك أن تبيعهُ؟ لا تستطيع.

الشرط الثاني: أن يحول على النِّصاب الحَول الهِجْريّ، فسَنة الزَّكاة ليْسَت شمْسِيَّة ولكن قَمَريّة، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يدْفعُ زكاة ماله برَمضان، لذا انْتَقَيْتُ لكم هذا الموضوع في هذه الأيام الفضيلة، وقد يقول أحدكم: أنا لم أقُم بِالجَرد الآن؟ أنا أقول له: اِدْفع دفعةً على الحِساب، موضوع الزكاة موضوع دقيق، ولا أحبّ أن تُلقي المال جُزافًا، ليس لك أجر، ولكن ممكن أن تبدأ من واحد شوال، بِدَفْع زكاة العام القادِم، فَمِن واحد شوال تفتح من حِساباتك حِساب الزكاة، فإذا مضى شوال وما دفعتَ شيئًا، بعد شوال بلغَك أنّ إنسانًا له ابن معه مرض عُضال، ومضطرّ لإجراء عَمَلِيَّة، فأعْطَيْتَهُ خمسة آلاف، أيَّدْت هذا المبلغ على نِيَّة الزكاة، وبعد شَهرين بلغك أنّ امرأة أرملة مقطوعة؛ دَفَعْت لها ألفاً، وسجَّلت ما دَفَعت، فأنت تَدفع طوال العام، فإذا جاء رمضان وجردْت مالك وكان مثلاً عشرة آلاف ترى أنت ما دفَعتهُ خِلال السنة، تنقص مثلاً ما دفعت وتدفع الذي بقي، فلو كان زكاة مالك عشرة آلاف، ودفعت أنت خلال السنة ستّة آلاف لم يبق عليك إلا أربعة آلاف، فالزكاة لا يجوز تأخيرها، ولكن يجوز دَفعُها مُقدَّمًا، فإذا حال الحَول الهِجريّ على المال يجب دَفعُ زكاة المال على الفَور عند معظم العلماء، و الأقربون أولى بالمعروف، لذا أنا أقول لك: اِدْفع زكاة مالك على مدار العام الهجري وبرمضان اِطرح المدفوع من الباقي، هذا ويُعتبر ابتِداؤهُ من يوم مُلْك النِّصاب، ولابدّ من كماله في الحول كلّه، وهناك عدّة آراء سنختار أوْجهها إن شاء الله.

هناك رأي، أنَّ عشرة آلاف ليرة سورية يجب أن تكون معك في رمضان إلى رمضان القادم، ويجب أن تبقى عشرة آلاف دائمًا، فلو نقصَت مئة ليرة سقطت الزكاة عن المبلغ فبعض الآراء فيها صعوبة أو فيها عُسْر.

هناك رأيٌ ثان وهو أنَّه يُشْترط في المال الذي تجِبُ الزكاة في عَيْنِهِ ويُعتبر فيه الحَول كالذَّهَب والفِضَّة وُجود النِّصاب في جميع الحَول، وهذا الرأي نفسه، فإن نقص النِّصاب في لحظة من الحول انقطع الحول، فإن كمُلَ بعد ذلك اسْتُأنِف الحول من حين يَكْمُل النِّصاب، فلو كانت معي عشرة آلاف في واحِد رمضان، ومضى الشهر والشهرين، وفي الشهر السادس اضْطررتُ أن أدفع ألف ليرة، سقَطَت الزكاة حينها، وهذا الرأي يُتيح التهرّب من الزكاة.

هناك رأيٌ أوْجه منه، قال أبو حنيفة رحمه الله: المُعْتبَرُ وُجود النِّصاب في أوَّل الحَول وآخرِه، ولا يضرّ النقص بينهما، فلو كان معي برَمضان عشرة آلاف، وبرمضان الثاني عشرة آلاف، هنا تستحقّ عليّ الزكاة، أما ضِمن السَّنة زادوا نقصوا لا يهمّ، والأَرْيَح من ذلك إقامة الجَرْد كلّ سنة، معك في هذا اليوم عشرة آلاف، إذًا عليك زكاة، فالأمور باليُسْر أسْهل، فهذا رأي الإمام أبي حنيفة رحمه الله، وهذا أوْجه الآراء.

وهناك رأي آخر يُعدّ حلاً وسَطًا، قاله العبدري: أموال الزكاة نوعان أحدهما ما هو نَمَاءٌ في نفسِهِ كالزَّرع، نحن عندنا موسم تفاح واحد، وموسِم شعير واحد، وموسِم عدس واحد، فلا توجد سَّنوات، فالحبوب والثمار تجب الزكاة فيها لِوُجودها فقط، والنوع الثاني ما يُرْصَد للنَّماء كالدراهم والدنانير، وعروض التِّجارة، والماشية، فهذا يُعْتبر فيه الحَول فلا زكاة في نِصابِهِ حتَّى يحول عليه الحَول.

الزكاة في مال الصبيّ والمجنون :

يجب على ولي الصبيّ والمجنون أن يؤدّي الزكاة عنهما في مالهما إذا بلغ نِصابًا، سألني أحدهم سؤالاً فقال: لي شريك في أوروبا، وله مزرعة، فشَريكُه دينُهُ ضعيف، فما أعطاهُ تَوجيهًا في دَفْع الزَّكاة، الشريك المُقيم في سوريا يُديرُ له مزرعة، سألني: أأَدْفَعُ زكاة المال من دون علم شريكي؟ فقلتُ له: اِدْفَعْها، وهي حقّ، وهي دَينٌ في ذمَّته، إن كان هو لا يعلم، أو كان جاهلاً، وحُكمهُ كحُكْم المجنون!! كيف؟ النبي عليه الصلاة والسلام رأى في الطريق مجنونًا، فأراد أن يُعطِيَ أصحابَهُ درسًا بليغًا، قال: من هذا؟ قالوا: هذا مجنون! فقال: لا، هذا مُبْتَلى، ومُصاب ولكنّ المجنون من عصى الله، فالذي يقول لك: لا أدْفعُ زكاة مالي، هذا حُكمهُ حُكمُ المَجنون! لذلك أفْتيْتُهُ بهذه الفتيا.

((عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ فَقَالَ أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَّجِرْ فِيهِ وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ))

[الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

هذه نَظَرِيَّة اقْتِصادِيَّة مهمّة جدًّاً، فأنت إذا أردت خبئ مالَكَ، فإذا كان أفراد الأُمّة معهم أموال طائلة، وكلّ شيء مخبأ بالصناديق، والأمّة فقيرة لو أخذنا مئة ألف لِمَشروع، أيًّاً كان المشروع، الذي يرخص الأسعار قانون ثابت هو توافر البِضاعة، علِمْتُ من سَنَوات أنَّ سِعر البيض هبط عن التَّسْعيرة القانونيَّة، وأصبح سِعر الكرتونة تِسع ليرات، وهذا كلّه لِوَفْرة الإنتاج، فَوَفْرة الإنتاج هي العامل الوحيد في تنزيل أسعار السِّلَع، فَمِن عامٍ نشأتْ أزمة علَف فَسُمِح للناس جميعًا أن يستوردوا العَلف من دون قيد أو شرط، ففاجأني إعلان في الصحيفة أنّ المزرعة الفلانيّة تبيع العلَف بِكُلفتِهِ فقط، ما الذي أرخص الأسعار؟ توافر البضاعة، لذا إن كان مع شخص مليون ليرة عليه أن يدْفع عليها في كلّ سنة زكاتها، فالزكاة وحدها تكفل أن تأكلها كلّها بعد أربعين عامًا، فأحد بواعث اسْتِثمار المال أنّ المال إذا بقيَ مُجمَّدًا تأكله الزكاة ويتلاشى، ولا بدّ من اسْتِثماره فإذا اسْتَثْمرتَهُ في أيّ مَشْروع ساهَمْتَ في وَفْرة الإنتاج، فإذا ساهَمْت في وَفرة الإنتاج هبطَت الأسعار، وحينها يعيش الناس في بحبوحة، لذلك

قال المفسِّرون في تفسير قوله تعالى:

﴿ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾

[سورة هود : 48]

قال المفسِّرون: أيْ وَفْرة المواد، ورخص الأسعار، لماذا يُطالبك النَّجار بِمَبلغ باهظ لِغُرفة النوم؟ لأنّ المصروف غال، فلو هبط المصروف لقَنِعَ بِرِبْحٍ أقلّ، فهذه سلسلة متكاملة، لو أنّك طرحْت كمِّيَة بِضاعة، ساهم هذا الطَّرْح بِخَفض السِّعر، حينها تُساهم هذه البضاعة بِتَخفيض أسعار المواد الغذائيّة، التي تُساهم بِتَخفيض أسعار الخشب، فلمَّا نزل مستوى المعيشة قنع النَّجار بِدَخل أقلّ، فهذه العمليَّة صعود مستمرّ أو نزول مستمرّ وقد قال عليه الصلاة والسلام أيها الأخوة الكرام:

((... أَلَا مَنْ وَلِيَ يَتِيمًا لَهُ مَالٌ فَلْيَتَّجِرْ فِيهِ وَلَا يَتْرُكْهُ حَتَّى تَأْكُلَهُ الصَّدَقَةُ))

[الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

لكنّ النبي عليه الصلاة و السلام كأنَّه يعيش معنا في الأسواق، وتاجر عريق، فهو ﷺ نبيّ مُرْسَل، ولكن لا ينطق عن الهوى، قال: ولا تجعل ماله دون مالك! أُنظر إلى هذا المعنى الدقيق، فلو كنتَ تاجِرًا ووَصِيًّا على أيتام ومعك مئة ألف لِيتيم، وأنت معك خمسمئة ألف رأسمال شَخصي، وعرضوا عليك بِضاعة جديدة لا تعرف هل تُباع أم لا؟! تقول: سوف أضَع مال هذا اليتيم في هذه البضاعة! جرَّبْت فإذا بالبِضاعة لم تُبَع! فتقول: ليس لكم قِسمة، أما مالك فتضَعُهُ بالبِضاعة الرائِجَة وربْحها مضمون، ورأسمالك وضَعته هنا، أما هذا اليتيم المسكين فتمْتَحن البِضاعة بِماله، قال عليه الصلاة والسلام: "ولا تجعل ماله دون مالك" فلا تجعَل ماله كالدريئة تتَّقي به الأخطار! ليس هذا إنصافًا، وليس هذا إخلاصًا، وليس هذا وفاءً، فإذا كان معك مال اليتيم كان عليك أن تنْتقي البِضاعة الرائِجَة، والمعروف بيعُها، والذي يُعَدُّ بيعُها حقيقة ثابتة.

وكانت عائشة رضي الله عنها تُخرِجُ زكاة أيْتام كانوا في حِجْرها، أيْ مُلخَّص الموضوع إذا كان تحت إدارتك مال، اِدْفع عنه الزكاة، طبعًا دفع الزكاة للمؤمن أولى وللأقارب أولى وأولى، وإذا كان لا يعرف أو جاهل أو مجنون أو صبيّ فادْفع عنه الزكاة فإنّه حق عليه لا يسقط بالتقادم.

حكم المالك المدين :

المالك المدين: لو أنّ شخصاً يملك اثني عشر ألف ليرة، ولكن عليه دفع بعد شَهر ستَّة آلاف، أو خمسة آلاف، من كان في يده مالٌ تَجِب فيه الزكاة، وهو مَدينٌ، أخْرَجَ منه ما يفي بِدَيْنِهِ، وزكَّى بالباقي، معه ثمانية عشر ألفاً، وعليه ثمانية آلاف دَين، ويبقى عشرة آلاف فيَدْفع زكاة ماله من العشرة الباقية هذه، وهذا يُسمُّونه تقاص، تطرح ما عليك مِمَّا لك فالتفاضل تدفَعُ عنه الزكاة، فعلى مستوى محلّ تِجاري تجْرُد البضاعة، فمثلاً عندك بِضاعة بِثَمانية آلاف مثلاً، ولك بالصُّندوق ثلاثة آلاف، ولك دُيون مسْتحقَّة ثابتة؛ سِتَّة آلاف، وعليك ضريبة، وذِمم لِمُوَرِّدين فما عليك إلا أن تعمل تقاص؛ مِن وإلى، وهذه اللغة المُحاسبيَّة الموجودات والمطلوبات، فالزكاة على التفاضل والتقاص لا على كلّ المال، والذي يملك اثني عشر ألف ليرة بالصندوق، وعليه عشرة آلاف فلا شيء عليه لأنَّهم دون النِّصاب، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَا صَدَقَةَ إِلَّا عَنْ ظَهْرِ غِنًى))

[البخاري عَنْ أبي هريرة]

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّه عَنْهما أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِي اللَّه عَنْهم إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ))

[البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّه عَنْهمَا]

دَين الله أحقّ بالقضاء :

ودَين الله أحقّ بالقضاء كما قال عليه الصلاة والسلام، ومن مات وعليه زكاة فإنَّها تَجِبُ في ماله، وتُقدَّم على الغرماء، والوصيّة، والورثة.

نحن عندنا قاعدة؛ إذا ماتَ الميّت أوَّل شيء يُجَهَّز ويُدْفن، فلا بدّ من دَفْع نفَقات الجنازة والدَّفن لكن باعتِدال، ليس أن تقيم غذاءً يُكلّفك عشرين ألف ليرة، هذا لا يجوز، فالنَّفَقات الضروريّة هذه تُحْسم أوَّلاً من المُتَوَفَّى، وبعد ذلك الدَّين الممتاز وهم الغرماء، ومنه مَهر الزَّوجة، وزكاة المال التي لم تُدْفع، ثمّ الدائنون وبعد ذلك تَنفيذ الوَصِيَّة، وبعد ذلك يأخذ الورَثة مِمَّا بقي، فمكان الزَّكاة مع الدَّين الممتاز، الذي يؤْخذ قبل كلّ شيء بعد تَجهيز

الميّت:

((عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رجلاً جاء النبي صلى الله عليه وسلّم فقال: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهم عَنْهما قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ أَفَأَقْضِيهِ عَنْهَا قَالَ نَعَمْ قَالَ فَدَيْنُ اللَّهِ أَحَقُّ أَنْ يُقْضَى))

[البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّه عَنْهمَا]

نحن نأخذ الفقْرة الأخيرة؛ دَين الله أحق أن يُقْضى، هذه تُسحب على الزكاة.

النية من شروط الزكاة :

يشترط للزكاة النيّة، وذلك لكي يقصد المزكّي عند أدائِها وجْه الله تعالى ويطلب بها ثوابه، ويجْزم بِقلبِه أنَّها الزَّكاة المفروضة عليه، واشْترط الإمام الشافعي النيّة عند الأداء، وعند أبي حنيفة أنَّ النيّة تجب عند الأداء أو عند عزل الواجب، ما هو عزل الواجب؟ لو كان لِشَخص مال بالصندوق، فحسَبهم ومسك مبلغ الزكاة ووضَعهم بِجانب، ونوى به الزكاة فهذا عزل مال الزكاة وهو ينتظر المال المناسب.

وجوَّز الإمام أحمد تَقديم النيَّة على الأداء زمنًا يسيرًا، فقبل الأداء، وممكن عند الأداء، وممكن عند العزل، فيجب إخراج الزكاة فَوْرًا عند وُجوبها ويحْرُم تأخير أدائِها عن وقت الوجوب إلا إذا لم يتمكَّن من أدائها فيَجوز له التأخير حتَّى يتمكَّن، كأن يكون مسافراً هذه حالة، ولكنَّني أنصحكم قبل كلّ شيء اِدفعوا سلفًا، وافْتح حساب الزكاة من واحد شوال، حينها يصبح الدفع سهلاً عليك، وقد روى أحمد والبخاري عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه قال:

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ رَضِي اللَّه عَنْهم قَالَ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَصْرَ فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ سَرِيعًا دَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ ثُمَّ خَرَجَ وَرَأَى مَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ مِنْ تَعَجُّبِهِمْ لِسُرْعَتِهِ فَقَالَ ذَكَرْتُ وَأَنَا فِي الصَّلَاةِ تِبْرًا عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يُمْسِيَ أَوْ يَبِيتَ عِنْدَنَا فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ))

[البخاري عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ رَضِي اللَّه عَنْهم]

أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يُعلّمهم درسًا عمليًّا، فهو عليه الصلاة والسلام كرِهَ أن يبيتَ عنده، وروى الشافعيّ والبخاري عن عائشة أنَّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال:

((ما خالطت الصَّدقة مالاً قطّ إلا أهلكتهُ))

[الشافعيّ والبخاري عن عائشة]

حديث مُخيف، فهذا المال مالك، وفي بِضع منه زكاة، أنت ما دفعتها، فهناك خطر أن يتلف المال كلّه، لذا اِعزِل هذا المال، وابحث عن مصْرفٍ له بِأسْرع وقتٍ ممكن قبل أن يأتي التأديب الإلهي، والحُبَيبي شرح هذا الحديث فقال: "يكون قد وجب عليك في مالك صدقة، فلا تُخرجها، فيُهْلك الحرام الحلال"

جواز تعجيل الزكاة :

يجوز تعجيل الزكاة وأداؤُها قبل الحَول ولو بِعامَين، فلك بَحبوحة، وادْفَع بِمَهلك فهناك نفقات مَوْسِمِيَّة، وأخرى في فتح رمضان، وأخرى عند فتح المدارس، وبعاشوراء، وأخرى طارئة كالعِلاج والمُداواة، فأنت اِدفَع بِمَهلك، لأنَّه قد يصْعب على الإنسان أن يدْفعَ مبلغًا كبيرًا دون اجتهاد، لأنّه يتضايق.

سئِل الإمام الحسن عن رجل أخْرج ثلاث سِنين دفعةً واحدة أَيُجزيه ذلك؟ فقال: يُجزيه دفْعُ مال مسبَّقًا، وهناك رأي آخر أنّه لا يجزئ حتَّى يحول الحَول، وهذا الخِلاف سببه أنَّ هذه الزكاة هل هي عبادة أم حق؟ واجب للمساكين، فمن قال إنّها عبادة وشبَّهها بالصلاة لم يَجُز إخراجها قبل الوقت، ومن شبَّهها بالحقوق الواجبة أجاز إخراجها قبل الأجل على جهة التطوّع، وقد احْتجّ الشافعي لِرَأْيِهِ بحَديث علي رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلّم اسْتلف صدقة العباس قبل حُلولها، فلو أن واحدًا دفَعَ زكاة ماله، وله جار فقير مريض، سمع صوته، فطرقَ بابه فوَجَدَه في مرض، أخذه إلى المستشفى، وهذا الجار فقير، وطالبوه بِقيمة ثلاثة آلاف، وأنت بِبَحبوحة، قال عليه الصلاة والسلام:

((في المال حق سوى الزكاة))

[الطبري عن فاطمة بنت قيس]

فأنت حرّ إما أن تعدّ هذا المال صدقة وتطوّعاً، وإما أن تحْسِبَها من زكاة المال القادِم، لأنَّه يجوز دَفعُ الزكاة مُقدَّمًا، والأمر سهلٌ جدًّاً.

الدعاء للمُزَكّي عند أخْذ الزكاة منه :

اِسْمعوا هذا الدعاء، يُسْتحبّ الدعاء للمُزَكّي عند أخْذ الزكاة منه، لِقَول الله عز وجل:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 103]

صلّ على هؤلاء المزكّين:

((عن عبد الله بن أبي أوفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنَّه كان إذا أُتِي بِصَدَقة قال: عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ اللَّهُمّ صَلِّ عَلَيْهِمْ فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى))

[البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى]

هل هذه قليلة؟ وأنَّ أُبي أتاه بِصَدقة فقال:

((عَنْ عَمْرٍو هُوَ ابْنُ مُرَّةَ سَمِعْتُ ابْنَ أَبِي أَوْفَى رَضِي اللَّه عَنْهما كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَاهُ رَجُلٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ فَأَتَاهُ أَبِي فَقَالَ اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى))

[البخاري عن عبد الله بن أبي أوفى]

وقال عليه الصلاة والسلام في رجل بعث بِنَاقة حسنة للزكاة:

((عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَاعِيًا فَأَتَى رَجُلًا فَآتَاهُ فَصِيلًا مَخْلُولًا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثْنَا مُصَدِّقَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنَّ فُلَانًا أَعْطَاهُ فَصِيلًا مَخْلُولًا اللَّهُمَّ لَا تُبَارِكْ فِيهِ وَلَا فِي إِبِلِهِ فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فَجَاءَ بِنَاقَةٍ حَسْنَاءَ فَقَالَ أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ وَفِي إِبِلِهِ))

[النسائي عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ]

الزكاة تدفع الأخطار عن الإنسان :

الإنسان عندما يدفع من ماله الحلال يجنّب أخطار السنّة، وقد دعوت لهم فكل جمعة تأتيني لجنة فيأخذوا الكثير، ففي الجمعة الأولى جاءت لجنة فأخذت سبعة عشر ألفًا، وفي الخطبة الثانية جاءت لجنتان، فكان المبلغ ثلاثين ألفًا، وفي الثالثة أربع لِجان فكان المبلغ اثنين وثلاثين ألفًا، والله يشهد أنّي دعوت لهم من أعماق قلبي، لذا الإنسان كما قلت يدفع الأخطار التي تأتيه خلال السنة، فلو أنّ ابنك سقط عليه إبريق شاي كيف النتيجة؟ تحرق داخليًا، ألا تعلم كم يقيك الله تعالى من الصدمات من خلال هذه الصدقة؟ وهل تعلم كم من مليون مرض يُصيب

الإنسان؟ وكم مليون مرض يُصيب الزوجة؟ وكم مليون مرض يُصيب الأولاد؟ وكم من خطر على المال؟ وكم مليون مفاجأة بالحياة؟ فالإنسان جالس بِمَجموعة مفاجآت فلمّا الإنسان يدْفع زكاة ماله كأنّ الله سبحانه وتعالى يقبض هذه الزكاة بيَمينه، أقْسم لي بالله أخ قال لي: قبل أن أعرف الله، كان لي دوام رسمي، أنا وزوجتي وأولادي، وكأن التجار لهم معي حِساب دائِم إلى أن بدأ يزكّي؛ أقْسَم بالله أنَّه مضى عليه أكثر من اثني عشر عامًا ما عرف طبيبًا ولا صيْدليًا، ثمّ إنَّك إن أخطأْت مع الله تعالى في الحساب أثناء أداء الزكاة فالمربَح معك! لأنَّه يُضاعف لك في مالك، وما دام النبي عليه الصلاة والسلام أقْسم، وقال: ثلاثة أقسم عليهنّ، ما نقص مال من صدقة، وثلاث آيات تؤكّد أنَّ الله سبحانه وتعالى يُخلف المبلغ الذي تنفقهُ في سبيله قال تعالى:

﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾

[سورة محمد: 38]

فإذا الواحد باع بيته، فلا دخل له بعدها في بيته فهذا الكلام كلام الله تعالى، مُصافحة العالم بيْعة لله تعالى، فموضوع زكاة المال بحث، وموضوع زكاة الوقت بحث، لفَتَ نظري بالحاجبيّة أننا نحن ننتهي الساعة العاشرة، وأنا أتعجّب لِمن لا يحضر مجالس العلم، ولا ينتظر ولا خمس دقائق، ومن أجل البنّ يبقى ثلاث ساعات، فهذا كلّه مُحاسب عليه الإنسان، فَمِثْل هذا الإنسان يُتْلفُ وقتُهُ إتلافًا رخيصًا، والله عز وجل يضيّع له وقته، فأنت لو دفَعْت زكاة وقتك يُبارك لك الله تعالى في وقتك ومالك.

وإن شاء الله تعالى في الدرس القادم نُتابع هذا الموضوع.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 2 : من لا يجوز دفع الزكاة إليهم ...مصارف الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأَرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه ، وأَدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

تحرم الزكاة على :

1 . الكفار و الملاحدة :

أيها الأخوة الكرام، الحديث عن مصارف الزكاة هو الذي وعدتكم به في الأسبوع الماضي، ولكِنَّني آثرتُ إضافة إلى هذا الموضوع أنْ أبدأ بِمَن تحرُم عليهم الزكاة.

أوّلاً: تحرمُ الزكاة على الكافرة والملاحدة، أيْ إنسان لا يُحَرِّم ولا يُحَلِّل، ولا يصلِّي، ومتفلِّت من الدِّين، وهمُّه شَهوتُهُ، وإن أعْطَيْتُهُ من مالك فسوف يستعين به على معْصِيَة الله تعالى، أو على محاربة الله تعالى ورسوله، فلا ينبغي أن تُعطى الزكاة له إطلاقًا، ولا الصَّدقة، وفي الحديث الشريف:

((بَعَثَ مُعَاذًا رَضِي اللَّه عَنْهم إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ))

[البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا]

لو قال النبي عليه الصلاة والسلام: وتردّ على الفقراء، فهذه مطلقة، أما ضمير هم يؤكّد من المقصود بالخطاب، وهم المسلمون، فالفقير الملحد أو الكافر أو الفاجر لا يجوز أن ندفع له زكاة أموالنا، ولا صدقاتنا، ولا زكاة فطرنا.

استثناء من الذين تحجر عليهم الزكاة :

لكن هناك استِثناء طفيفاً، إنسانٌ ليس مستقيمًا، ولكنَّه لا يناصبك العِداء لو أعْطَيتَهُ زكاة مالِكَ ربّما مال إليك، وربَّما حمله هذا الميل على التوبة وأن يُسْلِمَ، ويحسن إسلامه، فإن كان الأمر كذلك، وأنت وحدَكَ تُقدِّر ذلك فافْعَل، فهذا استثناء من الذين تحجر عليهم الزكاة، لأنَّه ينضوي تحت والمؤلَّفة قلوبهم، لذلك رجَّح بعض الفقهاء أنَّ هؤلاء إن كانت قلوبهم مؤلَّفة وإن كانوا بإعطاء الزكاة تجْلبهم إلى الإسلام لك أن تُعطيهم من زكاة التطوّع لا من زكاة الفرض، لأنّ زكاة الفرض نصَّ عليها النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم؛ تؤخذ من أغنيائهم وترَدُّ إلى فقرائهم، وهناك الكثير من الأخوة المؤمنين لهم في حساباتهم الجارية باب الزكاة، وباب الصدقة أي باب زكاة التطوّع، ويجوز أن يُعْطَوا من صدقة التطوّع، هؤلاء غير المستقيمين إن غلب على ظنِّك أنَّك بإعطائهم تستجْلبهم للإيمان يجوز أن تعطيهم من زكاة التطوّع لا من زكاة الفرض لأنّ زكاة الفرض تؤخذ من الأغنياء وتردّ على الفقراء، من أين أخذنا ذلك؟ قال تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

[سورة الإنسان: 8]

الأسير مشرك يُطْعم من الزكاة، ولكنَّها زكاة تطوّع.

2 . بنو هاشم :

لكن البحث مُدْهش وهو أنَّ الكفَرة والملاحدة لا تحلّ لهم الزكاة، وبنو هاشم، فكيف جمع المؤلّف بين هذين الصِّنْفين؟! لأنّ بني هاشم من آل بيت النبي، ولا تجوز الصَّدقة لا على النبي صلى الله عليه وسلّم، ولا على آل بيته، لذلك لمَّا كان يُقدَّم للنبي طبق تمْرٍ صدقةً، لا يأكل منها أبدًا، وهذه كرامة من الله للنبي ولآله، ولذلك هناك أشخاص منسوبون إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فيجب ألا تُقدَّم إليهم الصَّدقة ولكن الهديَّة، والمراد بِبني هاشم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، وآل حارث، ويقول عليه الصلاة والسلام قَالَ:

((إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ))

[مسلم عن الزهري]

أخذ الحسَنُ تمرةً من تمْرة الصَّدَقة فقال النبي عليه الصلاة والسلام: أما شَعَرت أنَّا لا نأكل الصَّدَقة! وقال له: كَخْ وهي كلمة نبَويّة، فلا يحِلّ للنبي صلى الله عليه وسلّم، ولا لأهل بيته الطيّبين الطاهرين.

3 . الأصول و الفروع :

لا تجوز الصّدقة عامّة، والزكاة خاصّة، وبالأصحّ لا تجوز صدقة الفرض للآباء مهما علَوا، وللأبناء مهما نزلوا، أي الأصول والفروع، فالذي ينفق على هؤلاء كأنّه تهرَّب من دَفع الزكاة، لأنّ هذه النفقَة واجبة على ذِمَّته في حقِّه، ولكن هناك موضوعاً مهمّاً جدًّا، وهي أنَّه أحيانًا يكون الابن مستقلاًّ عن الأب، الابن متزوّج، وله بيت، وعليه دَين، والأب معه نِصاب الزكاة، فلو دفعهم لابنه لجاز، لأنَّ المقصود بالابن من كان في حِجره، ومن كان في كفالته، ونفقته على الأب، أما إن كان الابن مستقلاً في نفقته، ففي مثل هذه الحالة يجوز أن تُدفع الزكاة إلى الابن، وهناك حالة ثانية، قلنا إنّ الذين تحرم عليهم الزكاة الأصول والفروع، أما الأخَوات فلم ينصّ الفقهاء على ذلك، فَمن كان في بيته أُختٌ له ينفق عليها لا يجوز أن يدفع لها الزكاة، ولو دفع لها الزكاة لكان دفعُهُ تهرُّبًا من دفع الزكاة، فالأُخت له أن يُعْطِيَها الزكاة إن كانت مستقلَّة عنه، أما إن كانت في حجره وهو ينفق عليها فدَفعُ الزكاة لها تهرّب من دفع الزكاة، فهاتان حالتان استثنائيَّتان.

يروى أنّ النبي الكريم صلى الله عليه وسلّم رُفِعَت إليه شَكوى في أنَّ صحابيًّاً دفَعَ زكاة ماله لِصحابيٍّ آخر لِيُنفقَها بمعرفته، فما كان من هذا الصحابي المُوَكَّل إلا أن جزأً من زكاة مال الصحابي الأول إلى ابن الأوّل! فاحْتجَّ الصحابي كيف تُعطي ابني من مال الزكاة؟! فرفع أمرهما إلى النبي فأقرَّ فعلهما، قال: لك ما أعْطيتَ، وله ما أخذ! فيبْدو أنّ ابن هذا الصحابي ليس في حِجره، وهو مستقلّ عنه، وهو بِحاجة.

4 . الزوجة :

الزوجة أيضًا لا يحلّ لك أن تُعْطِيَها شيئًا من زكاة مالك، فلو طلبتْ منك أونصة ذهبًا وكان معك عشرة آلاف ونصابها مثلاً ألفًا، فأعطيتها لِزَوجتك كي تشتري هذه الأونصة فهذا لا يجوز، وهو احتِيال، لا يجوز أن تُدْفع الزكاة للزوجة.

الآن عندنا حالة أخرى، لو كان هناك زوج فقير ودَخله مَحدود، وزوْجة ورِثَت عن أبيها مبلغًا طائلاً، واستحقّ أداء المبلغ زكاة، فهل يجوز أن تعطي الزوجة زوجها؟ نقول لها: يجبُ أن تعطي زكاة مالك إلى زوجك لأنَّه أقرب الناس إليك، والعكس غير صحيح.

نهي النبي أن يشْتري الإنسان زكاة ماله :

نهى النبي عليه الصلاة والسلام أن يشْتري أحدٌ زكاة ماله، كأن يعطي أحدهم فقيرًا خبزًا، ويضعُ فيه زكاة ماله، ثمّ يقول للفقير: أتَبيعُني هذا الخبز بعشر ليرات؟! فالفقير يبيعه لأنّ ليس معه مال، ولا يعرف ماذا يوجد بِداخله، هذا احْتِيال سخيف جدًّاً، كما أنّ النبي صلى الله عليه وسلّم نهى المهاجرين عن العودة إلى مكّة، معنى ذلك أنَّ الإنسان إذا فعَل الخير فلا يتراجَع، والعائد في هِبَتِهِ كالعائِد في قيْئِهِ، استحباب إعطاء الزكاة للزوج والأقارب، كما قلنا قبل قليل.

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِي اللَّهم عَنْهم خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَضْحًى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ فَوَعَظَ النَّاسَ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَةِ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ تَصَدَّقُوا فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقُلْنَ وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ جَاءَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ زَيْنَبُ فَقَالَ أَيُّ الزَّيَانِبِ فَقِيلَ امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ نَعَمْ ائْذَنُوا لَهَا فَأُذِنَ لَهَا قَالَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ وَكَانَ عِنْدِي حُلِيٌّ لِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ وَوَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهِمْ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

إعطاء طلبة العلم من الزكاة دون العُبَّاد :

استحباب إعطاء طلبة العلم من الزكاة دون العُبَّاد، فالذي يطلب العلم يستحقّ الزكاة قبل العابد، لأنّ هذا خيرهُ محدود، يعبد الله، أما طالب فسوف ينشر علمه، ولا بدّ من طلب العلم إلى التفرّغ، والإمام أبو حنيفة يقول: والله لو كُلِّفْتُ شِراء بصلة ما تعلَّمتُ مسألة! فالعِلم يحتاج إلى تفرّغ، وهذا الذي يطلب العلم لِيَنشرَهُ هو أولى من أن يأخذ من زكاة الأموال، أما من أقْبل على نوافل العبادات، والكَسْبُ يمنَعُهُ منها، أو استغراق الوقت بها، فلا تحلّ له الزكاة بالاتّفاق، فالذي يترك أهله يتكفّفون، ويذهب إلى العبادة، تمنع عنه الزكاة، واليد العليا خير من اليد السفلى، ولا تسأل الناس شيئًا، لكنّ المشتغل بالعلم يجوز أن يأخذ من أموال الزكاة.

نقل الزكاة :

هناك رأي دقيق في موضوع نَقل الزكاة، فالمال الذي جُمِعَ في دمشق ينبغي مبدئيًّا أن يُعطى لِفُقراء دمشق، لأنّ هذه المكاسب التِّجاريَّة تحقَّقَت في دمشق، ففُقراء دمشق أولى بها من غيرهم، ونقل الزكاة مكروه ولكن سألني أخ سؤالاً دقيقًا، فلو كان للواحد أقارب في تركيا فقراء جدًّاً، ولا أحد يقدِّم لهم المعونة، قلتُ له: اِدْفعها لهم، ولا إشكال في ذلك، فهذه حالات اسْتِثنائيَّة، لأنّ لا أحد يعرفهم، ولا يعينهم، وأنت أدرى بهم، ولكن بِشَكلٍ عام نَقلُ الزكاة من بلد إلى آخر ليْس مستحبًّا لأنَّ بعض الخلفاء نهى عن ذلك استِنباطًا لأنَّ هذا البلد أغنياؤه يجب أن تردّ أموالهم إلى فقرائهم.

ولكن هناك رأي دقيق، لا تجوز أن تُنْقل أموال زكاة بلد إلى بلد آخر إلا إذا اكتفى فقراء البلد الأوّل، فإذا اكتفوا يجوز نَقل الزكاة إلى البلد الثاني و إلا فلا.

مصارف الزكاة التي شرعها النبي عليه الصلاة والسلام :

1 . للفقراء و المساكين :

أولاً: قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة : 60]

بعضهم قال: الفقراء والمساكين إن اجتمعا تفرَّقا، وإن تفرَّقا اجتمعا، فإذا قال تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 273]

أي الفقراء والمساكين، وإذا قال المساكين أيْ الفقراء والمساكين، أما إن قال للفقراء والمساكين فمعناه الفقراء شيء، والمساكين شيء آخر، والنبي عليه الصلاة والسلام فيما يُرْوى عنه يقول:

((ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذي يتعفف))

[البخاري عن أبي هريرة]

الحاجة هي المسكن، والمتْجر، وأدوات العمل، ودابة للتَّقل، فمن قلَّت عنه هذه الحاجات تجوز فيه الزكاة، فلو أنّ واحدًا يملِكُ بيتًا، ولكن عنده أولاداً، ودَخْلهُ قليل، فالشيء الذي أنت بِحاجة إليه هو ثمن مستهلك، ولا قيمة له، فبعض الجماعات يتشدَّدون، وهو أنّ الذي يملك بيتًا لا تجوز فيه الزكاة هل يبيعُ بيته؟

((ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذي يتعفف))

أحيانًا يكون ابنه مريضًا، وأحيانًا نفقات استثنائيّة، لذلك للفقراء والمسكين، والفقير أو المسكين الذي أمرنا الله بإعطائه يحْسبُه الجاهل غنيَّاً من التَّعفّف، قال تعالى:

﴿ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 273]

هناك نوع دقيق يقول سيّدنا عمر: إذا أعْطَيتُم فأغنوا! أيْ في الصَّدقة، إذا وزَّعتَ لحمًا مثلاً، فلابدّ أن تكثر من إعطاء، إذا أطْعمْت فأشْبِع، ورحم الله عمراً، ما رأيتُ أزْهد منه إذا أطْعم أشْبع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوْجع، وإذا مشى أسْرع، هكذا قالت السيّدة عائشة فهل يُعقل أن تعطي من يريد إكساء أولاده في العيد خمسين ليرة؟! فالعَطاء لا بدّ أن يكون معقولاً، وكافيًا.

العمل مهما كان قليلاً فهو عند الله شريف :

النبي عليه الصلاة والسلام بالمقابل يقول:

((يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لاَ تَحِلُّ إِلاَّ لأَحَدِ ثَلاَثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً))

[مسلم عن قبيصة]

لو فرضنا خطأ دهس إنساناً فحكموا عليه بِخمسين ألف ديّة! ولم يكن معه، وهذا فوق طاقته، فهذا الإنسان يحقّ له أن يسأل الناس:

((..... فحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ

حريق أذهب له كلّ ماله:

((....فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ – أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ – وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ))

فلا بدّ أن يشهد أناسٌ أنَّه فقير، لأنّ هناك كثيراً من الناس عندهم دجل، وخبرة في الكذب، فقد جاءني أحدهم يطلب ستَّة آلاف لإجراء عمليّة في عَيْنِهِ، فجمعنا له المال، وإذا بأخٍ يهمس أُذني أنَّ هذا دجَّالاً، وكلّ يوم يذهب إلى مسجِد، فقلتُ له: ابْحَث عن مشفى لإجراء هذه العمليّة ونحن ندفع للطبيب، فقال: العمليّة في بلد أجنبي، فقلتُ له: هناك أطِبَّاء جيّدون هنا، فأبى!! الشحاتة أصبحت عند بعضهم عادة، قال لي شخص: هل ترى هذا المحل؟ فقلتُ: نعم، فقال لي: هذا لا يرضى خمسمئة ليرة باليوم! كلّ واحد يأخذ منه ليرة ليرة! نسأل الله أن يُغنينا عن السؤال، قال عليه الصلاة والسلام:

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

[البخاري عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِي الله عَنْهم]

فالعمل مهما كان قليلاً فهو عند الله شريف، سيّدنا الصدِّيق كان راكبًا ناقة، فوقع منه زِمام الناقة، وحوله الصحابة الكرام، فنزل ليأخذ زِمام ناقته، فلما انتبَه الصحابة انْزعَجوا فقالوا: يا خليفة رسول الله نَكفيك ذلك؟ فقال: أمرني حبيبي ألا أسأل الناس شيئًا! فما دام هناك قوّة فما عليك إلا أن تشتغل وتتعب ثمّ تنفق مالك وإياك وسؤال الناس، لأنَّك إن فعلت فتح الله عليك باب الفقر، فالإنسان عندما يفكِّر بطلب الناس تتعقَّد الأمور.

قال عليه الصلاة والسلام:

((إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها فأجْملوا في الطلب))

[ابن ماجه وأبو نعيم والحاكم وابن حبان وأخرجه الطبراني عن أبي أمامة الباهلي]

نحن نتكلّم عن الصدقة والإنفاق ولكن كلّما ترفَّع الإنسان كان إيمانه أقوى، فيُمكن أن تأخذ كيس باذنجان وتضعهُ على الرصيف وتبيعُهُ، وتشتري ما يمكن شراؤه، وأنت مرفوع الرأس وملِك، ولا تتذلّل الناس، قال:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود]

ملك الملوك إذا وهب   قم فاسألنّ عن السبب

الله يعطي من يشاء   فقِف على حدّ الأدب

***

كان النبي عليه الصلاة والسلام يوزّع الزكاة فشاهد رجلين شابّين قويّين كأنهما يطلبان منه العَطاء، قال: فرفع فينا بصره وخفضه، فرآنا جَلْدَين فقال: إن شئتما أعْطيْتكما ولا حظّ فيهما لِغنيّ، ولا لِقَويّ مُكْتَسِب، فلو أنّ الإنسان حمل أغراض الناس أشرف مليون مرّة من أن يمدّ يده.

2 . العاملون عليها :

العاملون على الزكاة، هؤلاء الذين يجمعون الزكاة وينفقونها لهم أن يأخذوا منها، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا أَوْ لِغَارِمٍ أَوْ لِرَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ أَوْ لِرَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتُصُدِّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ فَأَهْدَاهَا الْمِسْكِينُ لِلْغَنِيِّ))

[أبو داود عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ]

فالعاملون عليها، عمله جمْع الأموال وتوزيعها، ولم يشتغل شيئًا، فهناك جمعيات تعاونيّة خيريّة توكِّل إنساناً متفرّغاً ليلاً نهاراً، فهذا له الحق في أخذ الزكاة لأنّه عامل عليها.

3 . المؤلفة قلوبهم :

المؤلّفة قلوبهم إما أنَّهم مسلمون أو غير مسلمين، فإن كانوا مسلمين قال: قوم من سواد المسلمين لهم نظراء من الكفار إذا أُعطوا رجي الإسلام من ورائهم، فأنت إن أعْطيته نظيره يغار فيُسْلِم، فهذا يمكن أن تعطيه، أو الضعفاء من المسلمين يُعْطَوا لِتَثبيت إيمانهم، أما الكفار إن كان يُرْجى إيمانهم فيُعْطون من الزكاة، تأليفًا لِقلوبهم، وإن كان بهذا المال يُتّقى شرّهم يُعْطَون من هذا المال اتِّقاءً لِشَرّهم، فنحن عندنا أربعة أصناف من المسلمين وصنفان من

الكفار، فهؤلاء يُعْطَون الزكاة إما تثبيتًا لهم، أو جَلبًا لهم، أو جلبًا لنظرائهم، أو رِعايةً لأعمالهم الشاقة، أو جَلباً للخير، أو اتِّقاءً للشرّ وهذه أهداف.

4 . في الرقاب :

في الرِّقاب، وهو من يشتري العبد المؤمن ويُعْتِقَهُ في سبيل الله، وهذا الآن منتف.

5 . الغارمون :

الغارمون من كانت عليهم دُيون تعذَّرَت عليهم أداؤُها، فهذا يُعْطى من الزكاة، قال لي أحدهم: باع شخص بيعةً، وهذا الشخص ضعف، وله محلّ تِجاري، وأصبح المحل يبيع ولا يشتري، وأنت لك معه ألفين أو ثلاثة، والوضع مؤلِم، وهو على فراش الموت والمحل أفْلس، فيُمكن هذا الدَّيْن الثابت لك عنده تُسامحُهُ فيه، وتحسبُهُ من الزكاة، لأنَّه غارِم له ديون ولا يستطيعُ أداءها.

6 . في سبيل الله :

في سبيل الله وهذه أوْسع، فبعضهم قال: الطريق الموصِل إلى مرضاته من العلم والعمل، كلّ ما يتعلّق بالعلم؛ من طلبة العلم، وبإنشاء مدرسة، وبإنشاء مَيْتم، وبعضهم الغزو في سبيل الله، وبعضهم قال: توفير طريق الحج، فهذا الحاج في سبيل الله تعالى يحتاج إلى رعاية، وبعضهم قال وهو رأي نادِر: إنَّه إن كان هناك قرية ليس فيها مسجد، ولا يجد أهلها مكانًا يُصَلُّون فيه، في هذه الحالة النادرة يجوز أن يُنْفقَ من أموال الزكاة لِبِناء المسجد، لأنَّ المسجد مركز إشعاع.

7 . ابن السبيل :

ابن السبيل هو المسافر المنقطع عن بلده يُعطى من الصَّدقة ما يستعين به على تحقيق مقصده.

هناك سؤال دقيق، لو أنّ أحدًا زكاة ماله تقدر بخمسة وعشرين ألف ليرة مثلاً هل يُعطي زكاته على هؤلاء الأصناف؟ نقول له: اِفْعل هذا، وإن أعطيتها لِصِنف واحد.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 3 : زكاة الدين – الحلي – صداق المرأة – إجرة البيت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، و أَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتّباعه، و أرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

تلخيص لما سبق :

أيها الأخوة المؤمنون، لازلنا في موضوع الزكاة، و قد بيَّنا في رمضان على من تجب الزكاة. تجب الزكاة على المؤمن الحُرِّ المالك للنصاب، من أيّ نوع من أنواع المال، و بيَّنا أيضاً أنَّ في مال الصبيّ و المجنون زكاةً يخرجها وليُّه، و بيّنا أن المالك المدين يطرح دينَه من أصل ماله، و الفضل بينهما تجب فيه الزكاة، و بيَّنا أنه من مات و عليه زكاة فعلى الوارث أن يؤدّيَ حقَّ الله عز وجل، لأن حق الله عز وجل يجب أن يُؤدّى، و بيَّنا أيضًا أن النية شرطٌ أساسيٌّ في الزكاة، و أن وقت وجوبها حلول الحول، و أنه يُفضّل تعجيلُ إخراج الزكاة، و تُقبَل الزكاة مقدَّمًا ولو بِثَلاث سنين دُفْعَةً واحِدَة سلفًا، وكيف أنَّ المُزكِّي يجب أن يُدْعى له، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ وَفِي إِبِلِهِ))

[النسائي عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ]

الأموال التي تجب فيها الزكاة :

1 . زكاة النَّقدين الذهب والفضَّة :

أما اليوم فالحديث عن الأموال، ففي آخر رمضان تحدَّثنا عن هذا الموضوع المهمّ في الزكاة، واليوم: الأموال التي تجب فيها الزكاة.

أوّلاً: زكاة النَّقدين الذهب والفضَّة، وقد بيَّنا هذا أيضًا، وسوف نصل إلى أنّ بعض العلماء يجعل في هذه الأيام بِحِساب دقيق لِمِئتي درهم فِضَّة أي بِعِشرين مثقال من الذَّهب؛ هذا المبلغ يُعادِل من اثني عشر ألفاً إلى أربعة عشر ألفاً، والاحتياط على عشرة آلاف أفضل فعشرة آلاف فما فوق هذا هو الحدّ الأدنى؛ ذهبًا كان أو فِضَّة أو نقْدًا ورقِيًّاً، أو مجموع الذَّهب والفضَّة والنقد الورقي، فلو معه نقد ثلاثة آلاف، وثلاثة آلاف ذهباً، وأربعة آلاف فِضّة لوجَبَتْ فيها الزكاة؛ هذا كلّه تحدّثنا عنه في رمضان بزكاة الدَّين.

زكاة الدّين :

أما زكاة الدَّيْن فالعلماء قالوا: للدَّيْن حالتان؛ الحالة الأولى أن يكون الدَّيْن على مُعْترفٍ به، أيْ حقُّك ثابت، وللعلماء في ذلك عِدَّة آراء؛ هذا الدَّين الذي يعترف لك المدين فيه وينوي أن يُعْطِيَك إيَّاه، هذا الدَّين له حُكم. الرَّأي الأوّل أنّ على صاحبه زكاته، إلا أنَّه لا يُلْزمُ بِإخراجها حتَّى يقبض دَيْنهُ، فلو كان لأحدهم مئة ألف وديَّنهم لِوَجه الله تعالى قرضًا حسنًا، نقول له: هذا المبلغ تجب فيه الزكاة لأنَّه مال، وثابت، وسوف يُؤدَّى لك، ولكن متى؟ متى قبضْتَ المال تُخْرِجُ الزكاة، أما على الرأي الأوّل فلا يلْزم بإخراجها حتى يقبض هذا المال، وعليه أن يؤدّي الزكاة لما مضى فلو بَقِيَ سنتين مع المَدين تدفع حينما تقبض المبلغ سنتين، وهذا مذهب عليّ بن أبي طالب، والثوري والأحناف والحنابلة، والإنسان قد يرى في هذا الرأي تشدُّدًا! لكنّ هذا الرأي له حالة، فلو أنّ هذا الإنسان يملك مليوني ليرة أو أكثر وديَّن مئة ألف، نقول له: إذا قبضْت المبلغ اِدْفع زكاة هذا المال عن السَّنَوات السابقة لأنَّك في بَحْبوحة، وهناك رأي آخر وهو أنَّه يلْزمُهُ إخراج الزكاة في الحال، وإن لم يقْبضهُ، وهذا الرأي أشدّ، دفع مئتي ألف وما قبضها، ولكن معه مئات الآلاف الأخرى، فما دام هناك أموال طائلة يملكها فضْلاً عن هذا الدَّين الذي دفَعَهُ، فهناك رأي آخر وهو أنَّه يلْزمُهُ إخراج الزكاة في الحال، وإن لم يقْبِضهُ لأنَّه قادر على أخذه والتصرف فيه، فيَلْزَمُه إخراج الزكاة فيه كالوديعة، وهذا مذهب عثمان وابن عمر والثوري وطاوس والشافعي. الرأي الثالث أنَّه لا زكاة فيه، لو أنّ واحدًا يملك ثلاثين ألفاً ولا يملك سِواهم، قدَّم هذا المبلغ لإنسانٍ فقير، هذا الإنسان لو وضَع هذا المال في مشروع تِجاري مع تاجر، وكان الربح قليلاً، وخسرت التجارة، فهل نحمّله أن يدفع من زكاة هذا المال؟ فالرأي الثالث أنّ هذا المال لا زكاة فيه ما دُمْت أقْرضْتَهُ لِوَجه الله تعالى قرضًا حسنًا، ولم تسْتفِد منه فلا زكاة فيه.

الرأي الرابع أنَّه يُزَكِّي عن هذا المال لِسَنةٍ واحدة حين يقْبضُه، فهذه أربعة آراء والحقيقة تبدو هذه الآراء متناقضة، أو تبْدو متبايِنة، ولكنّ المفتي هو الذي يعرف حال كلّ سائل، فلو أخذنا إنساناً يملك مليوني ليرة، مبلغ نقدي في صندوقه الحديدي، وديَّن مئة ألف، وهذا الإنسان في بَحبوحة، والمبلغ المالي الذي أقرضهُ هو جزء يسير من أمواله الطائلة، نقول له: اِدْفَع زكاة هذا المبلغ أقبضْتهُ أم لم تقْبضْهُ! لأنَّه دَين ثابت، وسيُؤدَّى لك وأنت في بَحبوحة، وفي أموالهم حق معلوم هكذا الإفتاء، وهذا أشدّ الآراء.

والرأي الأقلّ أنَّ هذا المبلغ، حينما تسْتعيدُهُ، لما رجع بعد أربع سنوات كان عليك دفْع زكاة أربع سنوات، قد يُقال: إنَّ هذا المبلغ قد قلَّت قيمته، أنت تقرضُ الله قرضًا حسنًا، والله عز وجل يضْمن لك فرْق السّعر، فأهل الآخرة هكذا يفكِّرون، أما أهل الدنيا فيفكِّرون في زيادة العملة أو نقصها، والله يُضاعف لك أضعافًا كثيرة. الرأي الثالث؛ أنَّك إذا أقرضْت هذا المبلغ ورُجِّعَ إليك عليك أن تدفع زكاة سنة واحدة حين القبض. والرأي الرابع لا زكاة فيه إطلاقًا، فلو أنَّ واحدًا يملك عشرةِ آلاف وقدَّمها لِشَخص فقير لِيستعين بها على شؤونه، وبعد أربع سنوات قال له: تفضَّل! نقول لهذا الإنسان الذي أقرض هذا المال لله عز وجل ولا يملك سواه لا زكاة فيه، فالاختلاف في هذه الأمور رحمة، ومعنى الاختلاف التَّبَايُن في الآراء، وهذا من رحمة الله عز وجل، أربع حالات تسَع كلّ حالات الدَّيْن، فلو كان له مبلغ كبير، وتملّك سواه نقول له: ادفَعْ زكاة هذا المبلغ قبل أن تقبضه و تدفع مبلغاً كبيراً ولا تملك سواه"، نقول لك: حينما يُرَدُّ إليك تدفع زكاته عن الأعوام السابقة، وآخر له مبلغ مُعْتَدِل رُدّ إليه؛ هذا يدفع زكاته حينما يُردُّ إليه عن عامٍ واحد، ومبلغٌ صغير أقْرضْته؛ هذا لا تدفع زكاته إطلاقًا، فكلّ إنسان يَزِن حالته بِبَعض هذه الحالات، والرأي المعتدل أنّ كلّ حالة تُعرض على المفتي، والمفتي يجد لها حكمًا يُقابلها.

الدَّين على مُعسِرٍ أو جاحِدٍ أو مُماطِل :

قال: أما إذا كان الدَّيْنُ على مُعْسِر، أي جاحد أو مُماطِل، قال لي أحدهم: لي مبلغ مع فلان، لا أحسِن أن أُطالبهُ، والمُماطِل يُحِلّ عِرْضَهُ، فإذا ذَكَرْت أنَّ فلانًا لا يدْفع ما عليه هذا مباح، من أجل تحذير الناس منه قال: فقيل إنَّ هذا المبلغ الذي أقرضته لِمُعسِرٍ أو مماطِلٍ أو جاحِدٍ لا تجِبُ فيه الزكاة، ورأيٌ آخر أنَّه يُزَكِّي عنه إذا قبضَهُ، فما دام في حَوْزَة المُعْسِر أو المُماطِل أو الجاحد فلا زكاة فيه فإذا قبضْتَهُ وَجَبَتْ فيه الزكاة لما مضى أو لِعامٍ واحد، وهذا بحَسب الحال، إنسان مُنْدفِعٌ في الدِّين اندِفاعًا شديدًا، واسْتَفتاك، قُل له: اِدْفَع زكاة ما مضى،

وآخر دينه رقيق وضعيف واستفتاك فقلْ له: لك أن تدفع زكاة عامٍ واحد، فالخلاصة أنَّ هذا الدَّيْن على نوعين؛ دَيْنٌ مُعْترفٌ به مَبْذولٍ وفيه أربعة آراء فالرَّأي الأوَّل: دَفعُ الزكاة قبل القبض عن كلّ عام، والرأي الثاني: دفع الزكاة حين القبض عن عامٍ، والرأي الثالث: دَفع الزكاة حين القبض عن كل الأعوام، والرأي الأخير: دفع الزكاة حين القبض عن عام وهذا لا زكاة فيه، وأما الدَّين الذي على مُعسِرٍ أو جاحِدٍ أو مُماطِل فلا تجِبُ فيه الزكاة مادام في حَوزَة المدين، فإذا أصبح في حوزة الدائن وجب دَفْعُ الزكاة عما مضى، أو عن عامٍ واحدٍ. الآن عندنا شيء مُسْتحدَث؛ تاجر معه سَنَدات، باعَ بِضاعته في بعض المصالح، طبيعة بيعها أي هذه المصلحة يتعاملُ أصحابها بالدَّين، يأخذ القماش، ويُوَقِّع فيه سَنَدات لِسِتَّة أشهر، أو جمعيَّة، كلّ جمعة مبلغ، وعلى كذا شهر مبلغ كذا، مثل هذه المصالح تجد في صندوق التاجر سنَدات، أي وثيقة في الدَّين، ومعتمدة في القضاء، طبعًا العلماء قالوا: أوراق السَّنَدات، أو الشِّيكات، هذه تُعامَلُ معاملة الدُّيون التي اعْتُرِفَ بها لأشخاصٍ باذلين إياها كالدَّيْن تمامًا، أثناء الجَرْد تُحْسبُ هذه الأوراق الماليّة أو السَّنَدات كَدُيون مستحقّة.

2 . زكاة الحليّ :

أما زكاة الحليّ، الذَّهب غال كثيرًا، اتَّفَقَ العلماء على أنَّه لا زكاة في الماس، والدرّ، والياقوت، واللؤلؤ، والمرجان، والزَّبرجد، ونحو ذلك من الأحجار الكريمة، إلا إذا اتُّخِذَتْ للتِّجارة ففيها زكاة، فالتِّجارة في هذه الأحجار تجب فيها الزكاة لأنَّه مال نام، يُجْرَدُ ويُقيَّمُ وتُؤَدَّى زكاتُهُ، أما اتِّخاذها للزِّينة فلا زكاة فيها، واختلف العلماء في حِلِيّ المرأة من الذَّهَب والفضَّة، فالأحجار الكريمة اتَّفقوا على أنَّه لا زكاة فيها، أما حليّ المرأة فللعلماء مذاهب، ولكن قبل أن نقرأ المذاهب، لو فرضنا امرأة متزوِّجة معها من الذَّهب ما يقدر باثني عشر ألف ليرة، هل يُعْقَل من الشَّرع الحنيف أن يأمرها أن تبيع إحدى هذه الأساوِر من أجل أن تُؤَدِّيَ زكاتها؟ مستحيل فالشَّرْع رحيم، فالذَّهَب في عالم المرأة شيء ثمين، والتفريط فيه يُزْعِجُها جدَّاً، لذلك العلماء اختلفوا في زكاة الحليّ، فأبو حنيفة رحمه الله ذهب إلى وُجوب الزكاة في الحليّ، وكذلك ابن حزم، إذا بلغَتْ نِصابًا، واستدلوا من حديث لِرَسول الله عليه الصلاة والسلام:

((فقد روى عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدِّه قال: أتَتْ النبي عليه الصلاة والسلام امرأتان في أيديهما أساوِر من ذهب فقال لهما: أتُحِبَّان أن يُسَوِّركما الله يوم القيامة أساوِر من نار؟ قَالَتَا: لَا، قَالَ: فَأَدِّيَا حَقَّ هَذَا الَّذِي فِي أَيْدِيكُمَا))

[أحمد عن عمرو بن شُعيب عن أبيه عن جدِّه]

هذا الحديث اعتمد عليه الإمام أبو حنيفة، وجعل زكاة الحلي كَزَكاة نِصاب الذهب والفضة.

وذهب الأئمة الثلاث إلى أنه لا زكاة في حليّ المرأة بلَغَتْ ما بلغَت وتجدر الإشارة إلى أنّ الذي يبحث عن الرّخص في المذاهب هذا لا يجوز! روى البيهقي أنّ جابر بن عبد الله سُئِل عن الحلي أفيه زكاة؟ فقال: لا، فقيل: وإن كان يبلغ ألف دينار، فقال: أكثر من ذلك؛ لا، فالحليّ عند ثلاثة علماء أفذاذ من المذاهب لا زكاة فيه، وهذا الكلام مُجمل، ولكن في كتب الفروع هناك كلام أوسَع، لو فرضنا شخصًا عنده أساوِر مُكَسَّرة وتركها وقال: هذا ذهَب؛ هو حينما تركها جعلها مالاً الآن، مادام إسْوارة صالحة للزِّينة فهي إسْوارة أما حينما انكسَرت وتُرِكَت صارَت ذهبًا، فكَسْر هذه الأساوِر فيه زكاة، وهناك ناحِيَة ثانيَة، وهو أنَّنا لو فرضنا امرأة عندها بالخِزانة ذهبًا بِمِئة ألف ليرة، نِيَّتُها اسْتِخدامها للزِّينة فقط، فليس شرطًا أن تضَعها في يدها، فما دامت الحِليّ مستخدمة للزِّينة فقط فلا زكاة فيها، وهذا رأي في ثلاثة مذاهب، ولكن أحيانًا ينتفي عن هذه المرأة نيَّة الزينة، كأن يأتيها الذهب وراثةً، فهي نيَّتها من هذا الشيء تَطوير المال فهذه ليس في نيَّتها الزينة إطلاقًا، فما دامت نيَّتها تَطوير المال ووضعه في مكان يُحافظ على سِعره فهذه نيَّة التثمير، فالقضيَّة قضِيَّة نيّة:

((إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

فإذا اتُّخِذَت هذه الأساوِر تطورًا للمال وحِسابًا عليه ففيها زكاة، فالحليّ المكسور فيه زكاة، لأنَّك تُحافظ عليه كأنّهُ مال فقط، لأنّ هذه الإسوارة المكسورة ليسَتْ صالحة للزِّينة وإنما هي صالحة لوقت ارتِفاع الذَّهب، ومرّة ثانية:

((اختلاف أُمَّتي رحمة))

[البيهقي عن ابن عباس]

الآن، لو أنّ رجلاً اتَّخَذ حِلْيةً من الذَّهَب، هذا تجِبُ فيه الزكاة، فالرجل ليس مباحًا له أنْ يتَّخذ الذَّهب للتَّزيُّن، فلو كان له سيف من ذهب مُخبَّأ فهذا السيف يَجِبُ أن يدفع زكاة ماله، لأنَّه محرّم على الرجل استخدام الذهب واستخدامه، وليس محرَّمًا عليه اقْتِناء الذَّهب، فإذا كان للمرء أشياء فيها ذهب فهذا الذَّهب عليه زكاة، أما المرأة فمُباح لها التَّزيُّن بالذَّهب.

3 . صداق المرأة :

مهر المرأة يُعَدُّ في الشَّرعِ دَينًا ممتازًا، وعليه زكاة، فإذا كان الزوج ينوي أن يُعطي زوجته صداقها، فهذا دَين مِن مُعترفٍ به باذلٍ له، فإن كان لا ينوي كأن يكون جاحِدًا أو مُعْسرًا فلا زكاة فيه، لذلك مهر المرأة يُعدُّ كَحُكم الدَّين والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه]

أحيانًا هناك من يفكِّر أن يكتب هذا على ورق، فقط! لا إذا كتبت المؤخّر مئة ألف يعني مئة ألف، هذا دَيْنٌ ممتاز، وما دام دَينًا ممتازًا تَجبُ فيه الزكاة، فلو كانت المرأة بِبَحبوحة وتأخذ كلّ شهر ألف ورقة من زوجها مثلاً، وزوجها مَيْسور الحال، ومهرها ثابت في ذِمَّته، فهذه المرأة عليها أن تؤدِّي زكاة مهرها، لأنَّ مهْرها دَيْنٌ ممتاز، أما إن كان زوجها لا ينوي أن يؤدِّيه لها؛ جاحِد أو مُعْسِر أو مماطل، فهنا لا تجب عليها الزكاة، أما إن دفعه لها وكان فوق النّصاب، فتجبُ فيه الزكاة، فأحكام زكاة الدَّين تُطَبَّق على صداق المرأة لأنَّه دَينٌ ممتاز، هناك نساء غَنِيَّات ومعهن أموال، نقول لها: أدِّ عن هذا المهر زكاته، فأحكام الصَّداق تنطبق على أحكام الدَّين لأنَّه دَينٌ ممتاز.

4 . زكاة البيوت المؤجّرة :

هنا عندنا حكم آخر، وهو زكاة البيوت المؤجَّرة، فالمعلوم أنّ البيوت لا زكاة فيها، فالبيت المسكون لا زكاة فيه، إلا أنَّني سَمِعتُ مرّة قصّةً لا أنساها، طبعًا ليس هذا فرضًا ولكن تطوّعًا، يجمع كلّ شيء في بيته سواء كان مستهلكًا أو غير مستهلك، آلات حرفة، سيارة، أثاث، يجْمع أملاكه حصرًا، ويدفَعُ عنها الزكاة، فهذا أحد الأخوة كان له مصنع بِلُبنان وقريب من منطقة الاشتِباكات، المهمّ المعمل شكله مربَّع، ومقسَّم إلى نصفين، لكلّ نصف رئيس يرأسُهُ، يقول هذا الأخ: بعد أن انتهَت الاشتباكات ذهَبت أرى مصنعي، الذي رآه شيء لا يُصَدَّق، وجد النصف الذي أصحابه يؤدّون الزكاة لم يمسّهم أيّ شيء، والنّصف الآخر هُدِمَت جُدرانه! وهذا على قول بعض العارفين: عندنا أم عنكم؟ لما سئل عن مقدار الزكاة، فقال: أما عندكم فاثنان ونصف أما عندنا فالعبد وماله لِسَيِّده.

البيت المؤجّر نأخذ الزكاة عن الأجرةِ كلّ سنة، وبعضهم قال غير ذلك بِمُجرّد توقيع العَقد تستحقّ الزكاة عن الأُجرة، قال: نعم، والآخر قال: لا، فالموضوع خِلافي، بل إلى أن يَمْضي عامٌ على تأجير هذا المنزل فالأولون يرَون أنّ استحقاق الزكاة يكون وقت توقيع العقد، وبعضهم الآخر يرى بعد مُضِيّ المدَّة، على كُلٍّ: البيت المؤجَّر زكاته زكاة أُجْرتِهِ إذا كانت فوق النِّصاب، أما هناك بيوت أجرتها مئة ورقة، وضريبتها مئتان وسبعون ليرة! وسوف نستعرض زكاة التِّجارة في درس قادِمٍ إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 4 : زكاة التجارة .... الأخوة في الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأَرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

زكاة الزروع والثمار :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في موضوع الزكاة إلى موضوع الزكاة والثمار، فقد أوْجبَ الله سبحانه وتعالى زكاة الزروع والثمار فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[سورة البقرة:267]

هذه عروض التِّجارة، أيْ مِن كسْبِكم الحلال، وكلمة مِن طيّبات لا تعني أنّ الطعام طيِّب، وإنما طريقة تَحْصيلِهِ طيِّبَة، وبِطريق مَشروع، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

هذه آية دقيقة فلولا هذه الآية لو أكلْتَ تُفاحةً واحدة يجب أن تُسَجِّلها، وفي نِهاية المحْصول لابدّ مِن حِساب مُجْمل المحصول من أجل أن تُؤدِّيَ زكاة مالك، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى بالناس لرؤوف رحيم، كُلْ وأطْعِم وضيِّف، أما حين حصاد هذه الثِّمار فأُحْسُب الكميَّة وأدِّ زكاتها عند الحصاد لا عند القطف أو النُّضْج، قال تعالى:

﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

قال ابن عباس: حَقُّه الزكاة المفروضة، وقال: العُشْر ونصف العُشْر.

زكاة المال تحفظ الإنسان و ماله :

سَمِعتُ قِصَّة؛ فقبل أربعين أو خمسين عامًا جاءت إلى الشام جائحة من الجراد والجراد اسمٌ على مُسمًّى، لا يُبْقي ولا يذر، فهذه القصَّة تروي أنَّ أوراق الشَّجر أُكِلتْ، وقشور الجذور أُكلت، ولحاء الشَّجر أُكِل، حتَّى أنَّ الحكومة العثمانيّة ألْزَمَتْ كلّ فلاحٍ أن يجْمع عدداً من الجراد تحت طائلة الغرامة!! وفي أثناء تفْتيش المزارع والبساتين لَمَحَ أحد المسؤولين عن تنفيذ هذا الإجراء؛ لمَحَ بستانًا كالجنّة، أشجاره باسقة، وأوراقه نضرة، وثمارهُ يانعة، وكأنّ هذا البستان لا علاقة له بالشام، وكأنّ لا شأن له بالجراد، فالبساتين كلّها جرداء، لا يرق، ولا لِحاء، ولا نبات أخضر ولا يابس! أما هذا البستان فأخضر نضِر، فلما دخل هذا المسؤول إلى البستان والتقى بِصَاحبِه قال له: ما سرّ هذا البستان؟! فقال صاحبهُ: أستَعْمِلُ دواءً مُعيَّنًا فيبْدو أنّ هذا المسؤول غضب، ورأى في صاحب البستان أنانِيَّةً، تستعمل دواءً مُعيَّنًا ولا تُخْبرُ عنه الحكومة، فقال صاحب البستان: الدواء الذي أسْتعملُهُ أنا لا يستعملُه أحدٌ من الناس ولا يرْضون استعماله! فقال: وما هو؟ فقال: أنا أُؤدي زكاة مالي!!

لذا أيها الأخوة الأكارم، أصحاب البساتين، وأصحاب الزروع، إذا أدَّيْتَ زكاة مالك ذهَب عنك شرُّ مالك، فالذي أسمعُهُ من قبل أنَّ الحليب يوم الجمعة يُوزَّعُ على الفقراء، وكذا بيضُ الدجاج، وما كُنَّا نسمعُ بهذه الأمراض الوبيلة؛ يقول لك: مرض أصاب الدجاج فماتَتْ مئة دجاجة في ساعة!! هذه الأمراض التي تُصيب الدجاج والبقر؛ هي كلُّها من منْعِ الزكاة، لي صديق كانت له مزرعة، وكان أبوه شديداً جدًّا، وليس ديّنًا، ففي أحد السَّنوات مرض الأب، وعجزَ عن إدارة هذه المزرعة، فجاء الابن ونوى في قلبِهِ أن يدْفَعَ زكاة ثمار هذه المزرعة، فحينما نوى ضمَّنها هذا الابن ضِعف ما كان أبوه يُضَمِّنها في السنوات الماضية، والقصص التي تؤكِّد وجود تَأدِيَة الزكاة في الزروع والثِّمار لا تعَدُّ ولا تُحْصى، وهذه القصص لا على سبيل الحصْر، بل على سبيل المِثال.

الأصناف التي تؤخذ منها الزكاة و التي لا تؤخذ منها :

وقد كانت الزكاة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلّم تُؤْخَذُ من الحِنطة والشعير والتمر والزبيب، فهل هذه الأصناف على سبيل الحصر أم أنَّها على سبيل المثال؟! هذا موضوع خِلافي، فعن أبي بردة عن أبي موسى ومعاذ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ بعثهما إلى اليمن يُعلِّمان الناس أمر دينهم، فأمرهم ألا يأخذوا الصّدَقة إلا من هذه الأربعة، الحِنطة والشعير والتمر والزبيب، وأجمع العلماء على أنَّ الصدَقة واجبة في الحنطة والشعير والتمر والزبيب.

أما الأصناف التي لم تكن تؤخذ منها الزكاة، فلم تكن تؤخذ الزكاة من العنب والرُّطَب، فعن عطاء بن السائب أنَّ عبد الله بن المغيرة أراد أن يأخذ صدقة من أرض موسى ابن طلحة...: ليس في ذلك صدقة " صار عندنا معنيان: القمح والشعير والزبيب والحنطة؛ هذه أصناف تُخزَّن، وهي أصناف أساسيَّة وقِوام الحياة، أما الذي يزرع الفريز، فهذه فيها خلاف، بعض العلماء قال: الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾

[سورة البقرة:267]

هذه الآية مطلقة، والمطلق على إطلاقه، فأيّ شيء ينبتُ يجب أن تؤدّي زكاة ماله إن كانت الأرض مَرْوِيَّةً، فعليها نصف العُشْر، وإن كانت بَعلاً فعليها العُشر، مَرْوِيَّةً أيْ فيها نفقات، ويحْملُ هذا على العسل والحليب والبيض، كل الإنتاج الحيَواني، فالنبي عليه الصلاة والسلام حدَّدَ القمح والشعير والتمر والزبيب وبعضهم اعْتَمَدَ على حديث يقول:

((ليس في الخضراوات صدقة))

[الدار قطني عن علي بن أبي طالب]

آراء أخرى حول زكاة الزروع :

سوف نرى بعض الآراء الأخرى.

جاء في الأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنَّه قال:

"في خمسة أشياء الشعير والقمح والحنطة والزبيب والتمر، وما سوى ذلك مِمَّا أخرجت الأرض فلا عُشْر فيه"
وبعض العلماء يقول: إنَّ الزكاة تتعلَّق بالمُقتات دون القوت، فالمُقْتات هو الغذاء المخزَّن، والذي يُعَدُّ أساسيَّاً في حياة الإنسان، وهذا الغذاء المخزّن عليه الزكاة.

الحسن البصري، والشَّعبي قال: "لا زكاة إلا في المَنصوص عليه، وهي الحنطة والشعير والذرة والتمر والزبيب"، لأنَّ ما عداه لا نصَّ فيه، وأبو حنيفة يقول: "إنَّ الزكاة واجبة في كلّ ما أنْبَتَت الأرض، ولا فرق بين الخضراوات وغيرها، واشْترط أن يُقْصَدَ بِزراعته استغلال الأرض ونماءَها عادةً"، وأما أبو يوسف فقال: "الزكاة واجبة في الخارج من الأرض بِشَرط أن يبقى سنة من غير عِلاج كثير، سواء أكان مكيلاً كالحبوب أو موزونًا كالقطن والسكّر"، فأصبح عندنا ثلاثة آراء، فرأْيُ أبي حنيفة رضي الله عنه أنَّ الزكاة واجبة في كلّ شيء، فأيّ شيءٍ أنْبَتَتْهُ الأرض فالزكاة فيه واجبة، ورأي الحسن البصري والشعبي أنَّه لا زكاة إلا في المَنْصوص عليه، ورأي أبي يوسف أنَّ الزكاة واجبة في كلّ قوتٍ يمكن أن يُخَزَّن سنةً من دون عِلاجٍ كثير.

الإمام مالك يقول: "يُشترط فيما يخرج من الأرض أن يكون مِمَّا يبقى وييْبَس ويسْتنبِتُه بنو آدم، سواء أكان مُقْتاتًا كالقمح والشَّعير، أو غير مُقتاتٍ كالسُّمْسم، ولا زكاة عنده في الخضراوات والفواكه كالتين والرمان والتُّفاح". أما الإمام الشافعي فيذهب إلى وجوب الزكاة فيما تُخْرِجُهُ الأرض بشَرط أن يكون مِمَّا يُقتات ويُدّخر، ولا تنسَوا يا أخوة الإيمان أنَّ اختِلاف العلماء رحمة، وأنَّ الشَّرع الحنيف يسَعُ الناس كلَّهم، ويسَعُ الحالات كلَّها، ويسَعُ اختلاف الحالات، واختلاف الأحوال، شَخصٌ مُتشَدِّد يقول: أنا لا أدفع إلا في الشعير والقمح والزبيب والتمر كما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام، نقول له: هناك مذهب يؤكِّد هذا القولَ، إنسان مندفع إلى العمل الصالح اندفاعاً عجيباً أيُّ شيء أنبتته الأرض يقول: سأدفع زكاته، فالشرع يسَعُ الناس كلَّهم على اختلاف حالاتهم وأحوالهم، والناس أصناف متهيِّب ومنْدفِع ومقصِّر.

وعند الإمام أحمد تَجِبُ أيضًا في جميع الأصناف التي تُخزَّن من العام إلى العام فالعنب يصبح زبيبًا، وأيّ شيءٍ يُخَزَّن أو يُجفَّف يصبح محصولاً أساسيَّاً.

أسباب الخلاف بين العلماء :

يا ترى ما هي أسباب الخِلاف؟ الحقيقة أنّ الخِلاف سببه بسيط ذلك أنَّ من قصَر الزكاة على الأصناف المُجْمَعِ عليها وبين عدَّها من المُدَّخَرات، اختِلافهم في تعلّق الزكاة لهذه الأصناف أَهُوَ تَعَلُّقٌ لِعَينها أو لِعِلَّةٍ فيها؟! فكلّ

هذه الأقوال المختلف عليها، وفي هذا الخِلاف رحمة سبَبُهُ أنَّ هذه الأصناف التي ذَكَرها النبي عليه الصلاة والسلام هي واجبةٌ فيها الزكاة لِعَينها أو لِعِلَّة فيها! فإن كان لِعَينها لا تجِبُ الزكاة في الخضراوات وما سِوى هذه الأصناف، وإن كان لِعِلّة فيها، كأن تكون محصولاً أساسياً في البلد، إذا ذهبنا إلى بلاد شرقي آسيا وجدنا أنَّ الشاي المحصول الأساسي للبلد، فهل نقول: هذا الشاي لا تجب فيه الزكاة؟! وإذا ذهبنا إلى البرازيل وجدنا قِيام المحصول هو البنّ، إذا ذهبنا إلى العراق فقيام المحصول هو التمر، فكلّ بلد لها محصول أساسي، فَخِلاف الفقهاء رحمة، فليس الوجوب في ذات هذه الأشياء بل لِعِلّة فيها، فَمَحصول رئيس يعتمد عليه الناس في تحصيل قوتهم، فقال: سبب الخلاف هو أنَّ هذه الأصناف التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام إما أنَّه أوْجَبَ الزكاة فيها لِعَينها أو أوْجَبَ الزكاة فيها لِعلَّة فيها، فمن قال لِعَينها قصر الوجوب على القمح والشعير والزبيب والتمر، ومن قال لِعِلَّة فيها أدْخَل جميع الأصناف الأساسيَّة، فإذا كان الواحد عنده مزرعة عنَب كلفتها خمسة آلاف ليرة! فهل نقول: هذه ليس عليها زكاة! وما ضمَّنها في الحديث! فإذا رأيْت الزكاة في عَين هذا الصِّنف فأنت مُعْفى، أما إن رأيْت الزكاة في عِلَّة فيه فإذا كان لك مزرعة عِنب فهذه عليها زكاة، وإذا كان لك مزرعة فريز هذه عليها زكاة، وإذا كان لك مزرعة تفاح فهذه عليها زكاة، فالزكاة اختلافهم فيها رحمة، واختلافهم يسَعُ حالات المسلمين وأحوالهم.

مقدار الزكاة :

أما مِقدار الزكاة، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((فيما سقَتْ السماء العُشْر، وفيما سُقِي بالنّضح نصف العُشر))

[السنن الكبرى عن أبي هريرة]

الآن مثلاً يُشْترى الماء، ففي أزمات الماء، يقول لك الواحد: كلَّفني الماء عشرة آلاف! فهذا نقول له: نصف العُشْر، وأخٌ سألني عن العسل: فإذا كان كويرات طبيعيّة في الأشجار أو من الطِّين فهذا العُشْر، وإذا أتَيْتَ بِمَناحِل اصطناعِيَّة وكلَّفتْك نفقات طائلة نقول لك: نصف العُشر كما قال النبي عليه الصلاة والسلام. لكن نصيحةٌ لِوَجه الله تعالى، أثناء حِساب الزكاة، إذا احْتَرْت، ولم تعرف الوَجه الصحيح، أو لم تَجِد جوابًا شافيًا في الأنصبة والنِّسَب فالتوجيه أنّك إن غلطْتَ لِصالح الزكاة فلا مانِع، أما لِصالحك ففيه مانع لأنَّه نقص في العبادة.

في بلاد الزيتون مثلاً، هذا النوع قد يكون المحصول الأوّل في بعض المناطق، إذًا نحن يجبُ أن نحمِلَ الزكاة على عِلَّة الأشياء التي ورَدَت عن النبي عليه الصلاة والسلام.

الإنسان الذي يزرع خضراً وفواكه في مزرعة داره، هذه لا زكاة عليها، والعلماء قالوا: خمسة أوْسُق وهي تُساوي ألف وستمئة رطل عراقي، والرِّطل العراقي يُساوي مئة وثلاثين درهمًا تقريبًا، أي هناك حدّ وهو المُعبَّر عنه بالكميَّة التِّجاريّة، لأنّ هناك كميَّة اسْتِهلاكيَّة، فلو أنّ إنسانًا له شيءٌ يسْتهلِكُهُ، وله دجاجة تبيض له بيضة واحدة في اليوم! فهل نُلْزم هذا بالزكاة؟!

الزكاة واجبة و من ينسى حق الله فلله جنود تعمل في الخفاء :

لما المزارع يعلم أنّ عليه زكاة واجبة، فلا بدّ عليه من تأدِيَة الزكاة، مرَّة كنتُ بِمَنطقة فيها صفة التَّدَيُّن الزائد، كنت أمشي بالطريق في قطر عربي قال لي: تفضّل، وضيَّفني ثلاثة كيلو درّاق! فقلتُ له: واحدة! قال: لا وكانت هذه عادة هذا القطر، فقلت: ما أعظم هذه العادة التي تدلّ على الإسلام، لذا إن كنت تملكُ مزرعةً، عليك أن تضيّف الناس، لأنّه قد يشتهي أحد المارة ما يراه في بستانك، ولا يستطيع أن يشتريه، وقد قال لي أحدهم: أُضَمِّن مزرعتي بالسنة بمئتي ألف، وخلال أربع أو خمس دقائق في أوقات الليل، هناك برد شديد، كما قال تعالى:

﴿ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾

[سورة القلم : 19]

الذي حدث جاءه الصقيع، وصار كلّ التفاح أسوَد! فالذي يبْخل، الله تعالى عنده جنود في الخفاء، تجده يجمع ويطرح، وفي الأخير ينسى حقّ الله تعالى، فهذه حشرت جاءت في أحد الأعوام أكلت أجنحة النحل، فصار العسل غاليًا! سبحان الله، الله يبارك في الذي يُزَكّي ماله، قال تعالى:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾

[سورة القلم : 17]

وسوف نتابع هذا الموضوع إن شاء الله في درسٍ آخر.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 5 : زكاة الزروع والثمار

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

زكاة التجارة :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى زكاة التجارة، وكُنّا قد تحدَّثنا عن زكاة النّقدَين الذَّهب والفضّة، وعن زكاة الدَّيْن، وزكاة الحليّ، وزكاة صَداَق المرأة، وزكاة أُجور الدور المؤجَّرة، واليوم إلى زكاة التِّجارة. فقد ذَهَب جماهير العلماء من الصَّحابة، والتابعين، ومن بعدهم من الفقهاء إلى وُجوب الزكاة في عروض التِّجارة، أي البِضاعة، وهذا في أيّة بِضاعةٍ كانت، مواد معْدَنِيَّة، أو خشَب، أو ملبوسات وأقمشة، أو مواد غِذائيَّة، فأيّة تجارة لا بدّ لها من بِضاعة، هذه البِضاعة عليها زكاة لما رواه أبو داود والبيهقي عن سمرة بن الجندب أنَّه قال أنَّ:

((النبي عليه الصلاة والسلام كان يأمرنا أن نُخْرِج الصَّدقة من الذي نُعِدُّه للبيع...))

[رواه أبو داود والبيهقي عن سمرة بن الجندب]

فالبِضاعة التي تُعِدُّها للبيع يجب أن تُخرج عليها الزكاة، وكما قلتُ قبل قليل؛ أيَّةُ مادَّة مُعَدَّة للبيع، كالمواد الغذائية، أو ملبوسات جاهزة، أو مواد تزيينيَّة؛ حديد أو إسمنت:

((في الإبل صدقتها، وفي الغنم صَدَقتها، وفي البقر صدقتها، وفي البزّ صَدَقَتُهُ...))

[البيهقي عن أبي ذر]

البزّ بعضهم قال: القِماش، وبعضهم قال: متاع البيت، وعن أبي عمرو عن أبيه أنَّه قال: "كنتُ أبيعُ الأُدُم و الجِعاب فمرَّ بي عمر بن الخطاب فقال: أدِّ صدقة مالك، فقلتُ: يا أمير المؤمنين إنما هو الأُدم؟ فقال رضي الله عنه: قَوِّمْهُ ثمّ أخْرِج صدقته" الإدام هو الجلد، والجِعاب الجِفان والأواني المستخدمة في الطبخ، وفي المنار أنَّ

جمهور العلماء يقولون بِوُجوب زكاة عروض التِّجارة، وليس فيها نصّ قَطعي من الكتاب أو السنَّة، وإنَّما وردَ فيها روايات يُقَوِّي بعضها بعضًا، فَعُروض التِّجارة المتداولة للاستغلال نُقود، ألم يمرّ معنا في قصَّة سيّدنا يوسف، قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

[سورة يوسف: 62]

بِضاعتهم أي نقودهم فالبِضاعة نَقْد، لماذا هي نقد؟ لأنّه يُمكن تَحويلها إلى نقْد تبيعها فتأخذ ثمنها نقْدًا، ولا فرق بينها وبين الدنانير التي هي أثمانها، فإذا كان للواحد مئة متر خشَب والمتر ثمنه يقدر بسبعة وعشرين ألفاً، فهذا يستطيع أن يبيع هذا الخشب، ويأخذ محلّه نقداً، ولو كانت عنده مواد غِذائيَّة مخزَّنة في البراد ممكن أن يبيعها ويقْبض ثمنها، فلا فرق عند جمهور العلماء بين البِضاعة وبين النَّقد إلا في كَون النِّصاب يتقلَّب ويتردَّد بين الثَّمَن وهو النَّقْد، وبين المُثَمَّن وهو البِضاعة، فلو كان لشَخص عشرة آلاف ليرة، فإما أن تكون مواد أوَّليَّة كالخشب أو النحاس أو الحديد أو الخيوط أو قماش، وإما أن تكون دراهم، وعمليَّات التِّجارة هي عمليات تحويل الدراهم إلى بضاعة، والبضاعة إلى دراهم، فلو لاحظْت نشاط التاجر، تجد له بِضاعة قبض ثمنها، واشترى أخرى، فنشاط التاجر تَحويل الأثمان إلى عروض، والعروض إلى أثمان، فالعروض والأثمان في النِّهاية في تَقويم إمكانات التاجر هي شيء واحد، فَحَجم الإنسان المالي لا فرْق بين أن يكون ماله بِضاعةً، وبين أن يكون نقْدًا، ففي الزكاة علينا أن نأخذ حجْم الإنسان المالي، وكلهم من زاوية واحدة، ولكن لو كان للإنسان مثلاً قماشاً انتهى رواجُهُ، فإذا أراد تَقويم هذا القماش عليه أن يُقوِّمه بالسِّعر الذي يستهلّه فإذا اشتراه بِثلاثين، ولم يُحصِّل فيه أثناء بيعه إلا عشرين، عليه أن يُقوِّمه بالعشرين، فالتَّقويم لا بشِرائِهِ، ولكن بِثَمن بيْعِهِ الحالي، فما دام التقويم صحيحًا فقلْبُهُ إلى المال سَهلٌ، فلو أنَّني اشتريْتُ هذه القِطعة بِثلاثمئة وثمنها الآن مئة، ولي منها عشر قِطع، عشر ضرْب مئة، فَعَمليَّة التقويم لا بدّ أن تكون حقيقيّة وليْسَت مُفْتعلة.

الزكاة في أموال الأغنياء لِمُواساة الفقراء :

هناك نقطة دقيقة، قال: لو لم تَجِب الزكاة في التِّجارة لأمْكَنَ لجَميع الأغنياء أن يتَّجِروا بِنُقودِهم، ويتَحَرَّوا ألا يحولَ عليها الحَوْل، وهي نَقدٌ، فلو أنَّ تاجِر خيوط مثلاً، دائمًا عملته خيوط، ولا يملك النَّقد، فهل نقول: لا زكاة عليه؟! فلو أنَّه قيل: لا تَجِبُ في العروض الزكاة لأسقطنا الزكاة! ومن علامات نجاح التجار تَجِدُ صندوقه فارغاً،

ومستودعُه مملوءاً لأنّه إذا الصندوق مملوء، والمستودع فارغ، هذا لا يُنمِّي مال التاجر، فدائمًا التاجر له مصلحة أن يكون حجمه المالي بِضاعة، لأنَّ البِضاعة مطلوبة، وقد يرتفعُ ثمنها، إذًا لو قلنا: لا زكاة في عُروض التِّجارة لأسقطنا فرْض الزكاة، لأنَّه من السَّهل جدًّاً أن يُحَوِّل الإنسان ماله إلى بضاعة، والمسألة أنّ الله تعالى فرَضَ في أموال الأغنياء صدَقةً لِمُواساة الفقراء، ومن في معناهم، لإقامة المصالح العامة، وأنّ الفائدة في ذلك للأغنياء، تَطهير أنفسهم من رذيلة البُخل، وتَزْكيتها بِفَضائل الرحمة للفقراء، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

[سورة الحشر : 7]

أعداء الإسلام يقولون: إنَّ الإسلام بِفرْض الزكاة رسَّخ الفقْر في المجتمع! وهذا كلام شيطاني، فلا بدّ أن يكون في المجتمعات طبقات فقيرة، وهذا واقِع، ولكنّ الفقير ليس مأمورًا أن يبقى فقيرًا، فَتَحْسين المعيشة فرْض على المسلم، فقد قال عمر بن الخطاب لأُناسٍ فقراء: من أنتم؟ فقالوا: نحن مُتَوَكِّلون! فقال: كذَبْتُم، المُتَوَكِّل من ألقى حَبلاً في الأرض ثمَّ توكَّل على الله تعالى، أما الذي يتجاوَز سِنّ العمل، وليس له ولد، وضَعُف جِسمهُ، وأُصيبَ بِمَرضٍ عُضال، تأتي الزكاة لِتَحُلّ له المشكلة، أما أن نسْمحَ للفقير الشاب النشيط أن يبقى فقيرًا هذا ما قال به أحد.

متى تصير العروض للتِّجارة ؟

الآن، متى تصير العروض للتِّجارة، فلو وجد إنسانٌ سجادًا مُناسبًا جدًّاً، وهو تاجِر سجَّاد، فوضَع هذه السجاد الفخمة في غرفة الضُّيوف، وكان ثمنها غالٍ جدًّا، أفعَليها زكاة؟ قال العلماء: تصير العروض للتِّجارة لما: أوّلاً: أن يمْلك المسلم هذا المال، فقبل أن يملِكَهُ لا زكاة فيه، يملكُه بالبيع أو الشراء وفي النِّكاح مُلْك، فقد تملك المرأة مهرها بالنِّكاح، وفي الخلع يملك بعض ما أعطاه الرجل للمرأة، والهِبة، والوصيَّة، والغنيمة، والتجارة، والصناعة، والزراعة، فإذا تملَّكْت المال وَجَبت فيه الزكاة.

الشرط الثاني: أن يَنْوي عند تَمَلُّكِه أنَّه للتِّجارة، فلو أنّ تاجِر سجَّاد اشترى سجادًا بنِيَّة بيْعِهِ بِثَمن أغلى، هذه عليها زكاة، ولكن لو اشتراها لغُرفة الضيوف عنده كي يُزيّن بها بيته فهذه لا زكاة عليها.

من ملكَ قدْر نِصابٍ حال عليه الحَول فزكاته نهاية الحول :

ومن ملكَ مِن عُروض التِّجارةِ قدْر نِصابٍ حال عليه الحَول قوَّمَهُ آخر الحَول، نحن اتَّفقنا كرَقم تقريبي عشرة آلاف، فالذي عنده بِضاعة بِعَشرة آلاف، كأن يكون عنده قماش، هذه عليها زكاة، يُقوّمها آخر الحَول ويُخرج زكاته، وهو رُبْعُ عُشر قيمته، أي اثنان ونصف بالمئة، وهكذا يفعل التاجر في تِجارته كلّ حَول، وقد أصبح للتاجر أساليب معيَّنة، فأوّلاً يُقيمُ جردًا لِبِضاعته، وثانياً يُقوّمها بِسِعر السوق، بالسِّعر الحالي، فقد يكون السِّعر الحالي أغلى من ثمن شِرائِها، أي هناك شيء اسمُه القيمة، وشيء اسمُهُ الثَّمَن، فأحيانًا تبيع هذا الكأس بِليرة، نقول اللَّيرة ثمنها، أما قيمتها فخمس ليرات، فالقيمة ما تُقوَّم به البِضاعة، أما الثَّمَن كأن تبيعها لإنسان ولم تُرِد أخذ ثمنها، فحلَف يمينًا مُعظَّمًا فقلتُ ليرة، فالقيمة ما تُقوَّم به البِضاعة، أما الثَّمَن فالمبلغ الذي دُفِع عِوضًا عنها، فالإنسان يعمل جردًا دقيقًا، وإن لم يُدقّق فإنّه مُؤاخَذ، إلا أن يكون اشترى بِضاعة بِمئة ألف وثمنها الآن مئتا ألف، وقد تكون هذه القيمة أعلى من ثمن الشراء أو أقلّ منها، ويُضيف إلى ثمن البضاعة موجوداته النَّقديَّة الموجودة في الصندوق، ويُضيف إليها أوراقه الماليّة من الشيكات والسندات وديونه الدَّفتريَّة، وثَمَن البِضاعة التي لا تزال في الطريق ونبحث فيما علينا، وفي النهاية يكون هناك رقم نضربه باثنين ونصف بالمئة، وهذا هو مِقدار الزكاة.

جواز دفع الزكاة قبل وقتها :

قلتُ لكم في رمضان أنَّ الإنسان الأولى له أن يدفعَ من أوَّل شوَّال دفعات على حِساب الزكاة، كأن يسمع عن امرأة أرملة فَيُساعدها، أو طالب مسافر، أو طالب لا يستطيع أن يُتابِع دراسته الجامعيَّة، فكلَّما يسمع بِجِهةٍ يدفع، وفي آخر السَّنة يَجمع المدفوعات على حِساب الزكاة مقدَّمًا، ويُجري الجردِ والرقم النهائي يضربه باثنين ونصف بالمئة، فلو فرضنا أنَّ المبيع ثمانية وعشرون ألفًا، وهو دَفَع خِلال السنَّة خمسة وعشرين ألفًا، باقي للدَّفع ثلاثة آلاف، لذا الفقهاء أوْجَبوا دفعَ الزكاة في وقتها، لكنَّهم سَمَحوا أن تُدْفَعَ الزكاة قبل وقتها فهذه خِطَّة مُحْكمة يُطبّقها أُناسٌ كثيرون مِمَّن هداهم الله إلى طريق الحق.

وفي درسٍ قادم إن شاء نتحدَّث عن زكاة الزروع والثمار، وبعدها عن زكاة الحيوانات، وبعدها نتحدَّث عن زكاة الرِّكاز أي الثَّروات الباطنيَّة في الأرض، وهذه زكاتها عشرون بالمئة، فآبار البترول في العالم الإسلامي هذه بِحَسب الشَّرع هي مِن حقِّ المسلمين جميعًا، فالمسلمون يستحِقُّون عشرين بالمئة من أثمان البترول في حقول البترول في البلاد الإسلاميَّة فالمساعدات التي تأتي هي من الحقوق وليس من الصَّدَقات، وهذا موضوع متعلِّق بِزَكاة الرِّكاز.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 6 : زكاة الزروع والثمار والحيوانات ...

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الأكل من الزرع :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في الدرس الماضي إلى زكاة الزروع والثمار والآن إلى موضوع فرعي عنوانه الأكل من الزَّرْع...

يجوز لِصاحب الزَّرع أن يأكل من زرعِهِ قبل حِساب الزكاة، وقبل جني المَحصول، وقبل حساب حق الفقير، يجوز لِصاحب الزَّرع أن يأكل من زرعِهِ، ولا يُحْسبُ عليه ما أكل منه قبل حصاده، لأنَّ العادة جارِيَةٌ به وما يؤكَلُ منه في نظر الفقهاء شيءٌ يسير، فمهما أكل صاحب البستان ومهما أكل أولادهُ أو ضيوفه بالقياس إلى مجموع المحصول شيء يسير، لذلك ربُّنا سبحانه وتعالى تَجاوَزَ لنا عن هذا اليسير، فإذا حُصِد الزَّرع وصُفِّيَ الزَّرْع أخرجَ صاحب الأرض زكاة الموجود وقْت الحصاد لِقوله تعالى:

﴿ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

سُئِلَ أحمد عمَّا يأكل أرباب الزُّروع من الفريك، فقال: لا بأس أن يأكل منه صاحبه ما يحتاج إليه، وكذلك قال الشافعي.

فالذي عنده بستان أو حقل قمح، إذا أخذ جزءاً من القمح وجعلهُ فريكًا لِحاجته الشَّخصيَّة، هذا مَعْفُوٌّ عنه قبل حِساب نصيب الفقير وقت الحصاد.

تجبُ الزكاة في الزروع والثِّمار إذا اشْتدّ الحبّ وصار فريكًا، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى أَنْ تُبَاعَ الثَّمَرَةُ حَتَّى تَزْهُوَ وَعَنِ الْعِنَبِ حَتَّى يَسْوَدَّ وَعَنِ الْحَبِّ حَتَّى يَشْتَدَّ))

[أحمد عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

النهي عن بيع السنين :

ونهى عن بيع السِّنين، تضمن بستانًا لِخمس سنوات، فقد تأتي جائحة في السَّنة الثانية فلا تُبقي منه شيئًا، ونهى عن بيع الثِّمار حتَّى يَبْدُوَ صلاحها، وهذا الكلام موجَّه لِمَن يعمل في ضمان الثِّمار، فأحيانًا يقع صاحب البستان في الغَبن الشديد، يقول لك: أنا أضمنُ لك هذا البستان بِثَلاثين ألفاً، لم تبدُ بعد صلاح الثِّمار، فلو بدا صلاحها لا تبيعه أكثر من سبعين ألفاً فالنبي عليه الصلاة والسلام لكي لا تكون المنازعة بيننا ونحن عندنا قاعدة فقهية تقول: الجهالة تُفضي إلى المنازعة، وَطِّن نفْسَكَ في كلّ علاقاتك أن تكون واضحًا، فأيّ نقطة غامضة في الصّفقة، وفي عقد شراكة، قد تؤدّي إلى المنازعة، والمنازعة فيها فساد ذات البَيْن، وفساد ذات البَيْن هي الحالقة، لا أقول حالقة تحلق الرؤوس، ولكن حالقة الدِّين، لذا مِن نجاح الإنسان في الحياة لا يعْقِدُ عقدًا، ولا يُبْرِمُ صفْقة، إلا بعد أن تتَّضِح كلّ الأمور، وعادةً الطَّرَف الأضعف لا يُحِبّ أن يُفَكِّر في الأشياء والطَّرف الأقوى يسكُت لِيَستغلّ السُّكوت، والجهالة في جرِّ الرِّبْح إلى طرفِهِ، فالأقوى يسْكتُ، والأقوى يخاف أن يتكلَّم، وهذا الخوف من الأضعف، والسُّكوت من الأقوى يُسَبِّبُ منازعةً، والمنازعة تؤدّي إلى فساد ذات البَيْن، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِيَّاكُمْ وَسُوءَ ذَاتِ الْبَيْنِ فَإِنَّهَا الْحَالِقَةُ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

توضيح كل شيء لأن الجهالة تُفضي إلى المنازعة :

رُفِعَتْ لي قضِيَّة أنَّ إنسانًا له جار يبيعُ غُرفَ نوم، فرأى غرفةً أعْجَبتْه قال له كم ثمنها يا جاري؟ فقال: كما تريد! فقال له: اِبْعَث لي إياها، أوَّل أسبوع أعطاه ألفي ليرة، وثاني أسبوع ألفين، إلى السابع من الأسابيع فوجد هذا الشَّخص أنَّ هذا هو ثمنها، ذاك الجار سكتَ أسبوعَين ثمّ قال للمشتري: لم تعُد تدفعُ لي يا جار؟ فقال له المشتري: أعطيتك ما يكفي لها، فقال له جاره: هذه ثمنها ثمانية وعشرون ألف ليرة!! فوقَعت منازعة بينهما، لذا الجهالة تُفضي إلى المنازعة، فأحيانًا حتَّى الابن عند أبيه لا يعرف نفسَهُ أَهُوَ شريك أم أجير أم صانِع أم مُوظَّف؟! فالبيان يطرد الشَّيطان، وضِّح له، ولا تستأجِر أجيرًا حتى تُعْلِمَهُ بأُجرته، فالذي يريد أن يعقِدَ شراكات أو يُبْرِم عقودًا عليه أن يُوضِّح كلّ شيء كي تنتهي الأمور بالحسنى، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((كفى بها نعمة أن يتجاور المتجاوران أو يتخالطا أو يصطحبا فيفترقا وكل واحد منهما يقول لصاحبه : جزاك الله خيرا))

[كنز العمال عن عائشة]

فأنت إن اسْتَطَعتَ أن تُعامِل، وتنتهي المعاملة جَزاك الله عَنِّي كلّ خير، إن اسْتَطَعت أن تُسافر مع إنسان وينتهي السفر بِجَزاك الله عني كلّ خير، حتَّى قال بعض الفقهاء إذا طلَّقْت الزَّوجة يجِبُ أن يكون الطلاق بالإحسان، ويَجِبُ أن تقول لك: جزاك الله عَنِّي كلّ خير، معنى ذلك أنَّها طُلِّقَت لِسَبب قاهِر، ولأنَّها ظالمة، وحتى أنَّ بعض المُحسنين يُمسِكُ زوجته جَبرًا لِخاطِرها، وقد قيل لِبعض الذين عندهم زوجة سيّئة طلِّقْها، فقال: والله لا أُطلِّقها فأَغُشَّ بها المسلمين! على كلٍّ الذي أُريدهُ من هذا أنَّ الإنسان عليه أن يُوضِّح كلّ شيء، فَكُلّ المنازعات التي في التِّجارة مِن الجَهالة، فلا تقل لِمَن قال لك: متى أسْتلِم البِضاعة؟ لن تطول، هذه الكلمة لها عِدّة مدلولات! وبعد ذلك تنشأ المشاكل، والأفضل أن تعمل عقدًا، فهذا الذي تقوله بِلِسانك يجِبُ أن يُثبَّت بالورق، لأنّه إن ثُبِّت أصبح هناك ضَبط، ومنَعْت بِذَلك الشيطان أن يدخل على خَصْمك، ومنَعتَ الشيطان أن يدخل عليك، وحديث النبي لصاحبيه...هذه صفية " من القائل؟ رسول الله عليه الصلاة والسلام!

متى تجب الزكاة في الزروع والثِّمار ؟

تَجِبُ الزكاة في الزروع إذا اشْتدّ الحبّ وصار فريكًا، وتَجِبُ الثِّمار إذا بدا صلاحها، ويُعْرف هذا باحْمِرار البلَح، وجرَيان الحلاوة في العِنب سبحان الله! يقول تعالى:

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

[سورة النحل: 16]

العلامات من آيات الله الدالة، فالتِّين ترى في أسفلِهِ نُقطة عسَل، والعِنب البلدي يصْفرّ والحلواني يحمرّ، والباذنجان يسْودّ، والكوسا تصفرّ، والتفاح يصفرّ بعد اخضراره، فما من فاكهة أو خضار إلا ولها علامات يبدو بها صلاحها فالله تعالى قال:

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾

[سورة النحل: 16]

وإذا باع الزارعُ زرْعه بعد اشتداد الحبّ، وبُدوّ صلاح الثمر، فزكاة زرعه وثمره على البائع، فزكاة الزرع والثمر عليه دون المشتري لأنّ سبب الوجود العقد وهو في مُلكه.

إخراج الطيّب في الزكاة :

أمرَ الله سبحانه وتعالى المُزَكِّي بإخراج الطيّب من ماله، ونهاه عن التَّصدّق بالرديء، فقال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[سورة البقرة: 267]

متى يأكل الإنسان أكلةً لا يُحبّها؟ عندما يكون جائعًا جَوعًا شديدًا وفي الحالات القاهرة، وفي حالات الفقر المدقع، حينها يأكل طعامًا لا يروق له، ولكن كما قال تعالى:

﴿ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[سورة البقرة: 267]

العمل الصالح هَدِيَّة إلى الله عز وجل، فلْيَنظُر أحدكم ما يقدِّم من هديَّة إلى الله عز وجل.

بعض الناس كانوا يتيمَّمون شِرار ثِمارهم فَيُخرجونها في الصدقة! فالمشمش مثلاً قد يسقط على الأرض، وكذا التِّين، أو تفاح مضروب فهذا الذي يفعله أنّه يُوزِّع هذه البقايا، هذا لا يجوز، لا يجوز أن تُقدِّم عملاً لله تعالى فيه خلل، يمكن أن تبيعه ولكن أن تُقدِّم هذا لله تالفًا أو فيه عيبٌ كبير هذا لا يجوز، قال تعالى:

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[سورة البقرة: 267]

زكاة العسل :

هذا موضوع خِلافي، فبعضهم قال: ليس في زكاة العسل شيء يصِحّ فليس في الآثار الدِّينيَّة شيءٌ يؤكِّد الزكاة في العسل، ولكنّ المذهب الحنفي يقول إنَّ في العسل زكاة لأنَّه ولو لم يصحّ في إيجاده حديث إلا أنَّه جاءت فيه آثار يُقَوِّي بعضها بعضًا، ولأنَّه يتولَّد مِن نَور الشَّجر، أي زهرها، فهو أساسه إنتاج حيواني مَبْعثُهُ النبات، وشيء آخر يُكال، وشيء آخر يدَّخَر وله قيمة كُبرى، فالإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وإن لم يَجِد في الأحاديث ما

يوجِبُ زكاة العسل إلا أنَّ العسَل حملهُ على قرائن كثيرة، ذلك لأنَّ منشأهُ نباتي، ويُدَّخر، ويُكال، فقال: في العسَل زكاة كالحبّ والثَّمر، ولأنَّ الكُلفة فيه دون الكلفة في الزروع والثِّمار، واشْترطَ أبو حنيفة في إيجاب الزكاة في العسل أن يكون في أرضٍ عُشْريَّة أي أرضًا بَعْليَّة، أما الأرض التي تُسقى بالماء فهذه عليها نصف العُشر، فإذا كانت المناحل في أرضٍ عُشريَّة فزكاة العسل عُشْر الإنتاج، ولم يشترط الإمام أبو حنيفة نِصابًا له فَيُؤخَذُ العُشر من قليله وكثيره، وبعض الأئمَّة اشترطوا أن يبلغَ نصابًا وهو عَشرةُ أفراقٍ والفَرَقُ سِتَّةَ عشرة رِطلاً عِراقيًّا.

زكاة الحيوان :

زكاة الحيوان موضوع دقيق، وقد لا يعني مُعظم الحاضرين، كزكاة الإبل كلّ ستة وثلاثين رأسًا من الإبل لها بنت لبون، وفي السِتّ والأربعين حقَّة، وفي الإحدى والستُّين جذْعة، وفي الستّ والسبعين جذعًا لبونًا، هذه مصطلحات مُتَعَلِّقة بالإبل بِحَسب سِنّها، وإمكانيَّتها، وبحسب العدد، ولكن هناك شيئاً يعنينا في الغنم، فزكاة الغنم لا زكاة فيها حتَّى تبلغ أربعين، فزكاة المال اثنا عشر ألفاً، فالغنمة الواحدة ثمنها ألف ليرة، فالأربعون ثمنها أربعون ألفًا، ولكن جاء لا زكاة في الغنم حتى تباع أربعين، فإذا بلغَتْ أربعين سائمة وحال عليها الحَوْل، ففيها شاةٌ إلى مئة وعشرين، فإذا بلغَتْ مئةً وعِشرين ففيها شاتان، إلى مئتين، فإذا بلغَت مئتين ففيها ثلاثة شِياه، فإذا زادَت على الثلاثمئة ففي كلّ مئةٍ شاة.

زكاة الخارج من البحر :

أمرٌ آخر يتعلّق بالزكاة وهو زكاة الخارج من البحر، فقال الجمهور: لا تَجِبُ الزكاة على كلّ ما يخرج من البحر من لؤلؤٍ ومرجانٍ وزبرجد وعنبر وسمك إلا في إحدى الرِّوايتين عن أحمد إذا بلغَ ما يخرج من ذلك نِصابًا ففيه زكاة، وليس في العنبر زكاة إنما هو غنيمة لِمَن أخذَهُ، فهذه الأشياء المُستخرجة من البحر، والتي يُقْصَد بها الانتفاع الشَّخصي ليس فيها زكاة إلا أن يكون مالاً يُتاجَر به، فحينئذٍ تدخل في حكم عروض التِّجارة، فبعض الأحجار الكريمة إذا دخلت في المال المتَّجر به تدخل في عروض التِّجارة وتُقيَّم أثمانها، وتُحسب الزكاة.

من أكبر الكبائر الفرار من الزكاة :

مَن مضى عليه سِنون، ولم يؤدِّ ما عليه من زكاة، لَزِمَهُ إخراج الزكاة عن جميعها سواءً علِمَ وُجوب الزكاة أو لم يعلم، وسواءٌ أكان في دار الإسلام أم دار الحرب، لأنَّ هذا حقّ الله تعالى، فالذي تاب إلى الله تعالى توبةً نصوحة، وعلِمَ أنَّ سنواتٍ عِدَّة ما أدَّى الزكاة، كَوْنُهُ تاب الآن لا يُعفيه مِن أداء الزكاة عن السَّنوات السابقة. شيءٌ آخر في الزكاة وهو أنَّه يوجد من يَفِرُّ من الزَّكاة، وهذا من الكبائر، كأن يعمل حِيلةً شرْعيَّة، فقد سَمِعتُ أنَّه كان هناك من يضَعُ زكاة ماله في رغيف خُبز و يعطيه لإنسانٍ فقير، ثمَّ يعود إلى الفقير في نفس اللَّحظة ويطلب منه أن يشتريه منه بِمبلغ أكثر من الخبز!! فهذه الحِيَل لا يفعلها إنسان فيه ذرَّة من عَقل. إذا كان المال مشتركًا بين شريكين أو أكثر، لا تَجِبُ الزكاة على واحدٍ منهم حتَّى يكون لكلّ واحِدٍ منهم نِصابٌ كامِل، فلو كان لاثنين عشرةِ آلاف ليرة فليس عليهما زكاة، مع أنَّ المبلغ في حُدود الزكاة، ولكن لأنَّ نصيبَ كُلِّ منهما خمسة آلاف، والخمسة آلاف دون النِّصاب المُقرَّر فلا تجِبُ فيهما الزكاة، أما لو جَمعْت مال الشّريكين، وبلغ نِصاب الزكاة، وكان نصيب كلّ منهما لا يرقى إلى مستوى نِصاب الزكاة فليس عليهما زكاة.

من ضاع منه مبلغ الزكاة لا يُعفى منها لأنَّها في ذِمَّته :

لو عدَّ الإنسان ماله فوَجَد مثلاً زكاة ماله عشرة آلاف، وهذه الحالة وقَعَت فأحدهم كانت له زكاة عشرة آلاف فضاعَتْ منه في الطريق، فقال العلماء: لو عزل الزكاة لِيَدْفعَها لِمُستحقِّيها فضاعتْ كلّها أو بعضها فعليه إعادتها، فلو كان على إنسان ما دَفْعُ سَنَدٍ، وتوجَّه إلى محلّ تِجاري، وبالطريق سُرِقَ منه هذا المبلغ فهل يُعفيه صاحبُ المبلغ من دفعِهِ؟! أما لو ضاع في يد الدافع فالمبلغ يجب أن يُعاد دَفْعُهُ مرَّةً ثانيَة، فهو لا يُعفى منها لأنَّها في ذِمَّته حتى يوصلها إلى من أمره الله بإيصالها إليه.

هلاك المال بعد وُجوب الزكاة وقبل الأداء :

فلو أنَّ لإنسان ما محلاً، جرد بِضاعته، وحَسِب رأس ماله، وعليه ألف وخمسمئة زكاةً، فاحْترَقَ المحلّ، إذا استقرّ وجود الزكاة بِأن حال عليه الحَول، أو حان حصادُهُ، وتلِفَ المال قبل أداء زكاته أو تلِفَ بعضهُ فالزكاة كلُّها واجبة في ذِمَّة صاحب المال سواءٌ أكان التَّلَف بِتَفريطٍ منه أو بِغَير تفريط، ومعنى هذا أنَّ الزكاة واجِبةٌ في الذِمّة،

وهو رأي ابن حزم والإمام أحمد، ويرى أبو حنيفة أنَّه إذا تلف المال كلّه من دون تعدٍّ من صاحبه سقطَت الزكاة وإن سقط بعضهُ سَقَطت حِصّتُهُ بناءً على تعلّق الزكاة بِعَين المال، وإن حصل بِتَعَدٍّ منه فالزكاة لا تسقط، فإذا كان احتراق المحلّ ناتِجٌ عن الإهمال فالزكاة لا تسقط، أما إن كان الحريق عن قضاء وقدر فالزكاة تسقط، وهذا موضوع دقيق، وهو يُعيننا بِمَوضوعات كثيرة، فلو أنَّ واحدًا أعطاكَ أمانةً، وأنت وضعتها في صندوقك الحديديّ مع مالك، سمَّاهُ الفقهاء في حِرْز مثله، وجاء لِصٌّ وسرق الصندوق بِكامِلِه أنت لسْتَ ضامِنًا، فإذا وضَعْتَ هذا المال على الطاولة ومالك في الصندوق الحديدي، وجاء لصّ فسرق ما في الدُّرج يَجِبُ أن تردّ هذه الأمانة، وهي دَينٌ عليك، وهذا ينطبق على الاستثمار، فمثلاً لو أنَّ شَخصًا دفَعَ لك مبلغ استِثمار، فحصلَ خسارة، فإن كانت هذه الخسارة بِعُدوانٍ أو تقصير فأنت ضامِن، أما إن لم تكن بِعُدوانٍ أو تقصير فلسْتَ بِضامِن، وأحيانًا يكون مع الاستثمار شَرط، فهذا الموضوع مهمّ جدًّا إن كان في الأمانة أو العارية أو الاستثمار أو المضاربة، إذا كان هناك تقصير أو عُدوان فالمُقصِّر والمعتدي يضْمن، وإن لم يكن هناك تقصير فلا ضمان في ذلك.

الآن عندنا رأي دقيق جدًّاً، قال: إذا تلِفَ المال بعد أن تسْتحِقَّ الزكاة وقبل أدائِها فالزكاة تسقط بِتلف المال، وهو رأي آخر، وهذا إذا لم يُفرَّط في الأداء، ومعنى التفريط في الأداء التأخير في الدَّفع، أنت عَزَلتَ مبلغًا للزكاة، وتماهلْتَ بِدَفعِهِ إلى أن تلِفَ المال، ولكنَّك لو دفعْتهُ في الوقت المناسب لما اضطررْت إلى دفعِهِ مرَّة ثانية، فإذا كان هناك تقصير أو تفريط في نقل الزكاة إلى مُستحِقِّيها يَجِبُ عليك أن تَدفَعَ الزكاة مرَّةً ثانيَة وهناك موضوعات أخرى سوف نُعالجها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 7 : متفرقات في الزكاة ....

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأَدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

الزكاة ليْسَت في عَيْن المال بل في الذِمَّة :

أيها الأخوة الأكارم، وصلنا في موضوع الزكاة إلى مجموعة من الموضوعات التي تُكَمِّلُ هذا الموضوع؛ من هذه الموضوعات وُجوب الزكاة في الذِمَّة لا في عين المال! مثلاً؛ لو أنَّ إنسانًا يملِكُ مالاً يَعْدِلُ النِّصاب، ولم يدفع زكاة ماله لِسَنتين، ثمَّ أراد أن يدْفع الزكاة، فلو دَفَع زكاة عامٍ واحِدٍ لقلَّ المال عن النِّصاب، وبهذا لا يَجِبُ عليه أن يدْفع زكاة العام الذي قبل الماضي، فما الحلّ؟ الحلّ عند العلماء أنَّ الزكاة ليْسَت في عَيْن المال بل في الذِمَّة، أي تَجِب الزكاة في ذِمَّة الرجل لا في عَين ماله، فلو أنَّه لم يدْفعَ زكاة عامَين، وكان مالهُ قدْر النِّصاب تمامًا لوَجَب أن يَدْفع الزكاة عن عامَين سابِقَين، ولو قلَّ النِّصاب.
الشيء الآخر أنَّه لو كان لإنسان عشرة آلاف ليرة، لا تَجِبُ الزكاة في هذه العشرة آلاف بالذات، هذه العشرة آلاف عليها زكاة تقدر بألفين وخمسمئة، فالمبلغ لو دفعهُ من مكان آخر لصحَّ، فلو أنَّ واحدًا جاءَهُ مبلغٌ هِبَةً، فَدَفَعَ من الهِبة زكاة هذا النِّصاب لصحّ، لأنَّ الزكاة ليْسَت في عَين المال بل في ذِمَّة الرَّجل، ولو أبقاها كما هي ودفع المال من مال آخر لَصَحَّ ذلك، فالموضوع أنَّ الزكاة ليْسَت في عَين المال بل في ذِمَّة الرَّجل.

تأخير الزكاة لا يُسْقِطها :

شيءٌ آخر هو أنَّ تأخير الزكاة لا يُسْقِطها، من مضى عليه سنون ولم يُؤَدِّ زكاة ماله لَزِمهُ إخراج الزكاة عن جميع السَّنوات السابقة سواءٌ عَلِمَ وجوب الزكاة أو لم يعلم، وسواءٌ كان في دار الإسلام أو دار الحرْب، فَحَقُّ الله تعالى أَحَقُّ أن يُقضى، ومن كان عليه زكاة عن أعوامٍ سابقة يجِبُ أن تؤدَّى بالعَدل والتَّمام.

لو أنّ أحدهم كانت له أربعون شاةً، وزكاة هذه الأربعين شاةٌ واحدة، الأولى أن يدْفعَ أحد هذه الشِّياه زكاة ماله، فإذا تعذَّر كأن حال الحول عليها، وقد بعثها إلى البادية، فَدَفع ثمن هذه الشاه لَجَازَ ذلك، فالأولى أن تُدْفع الزكاة مِن عين البضاعة، ومن عَين المال، فإن تعذَّر ذلك يجزئه أن يَدْفَعَ قيمة هذا الشيء، قال عليه الصلاة والسلام: عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ وَقَالَ لَهُ:

((خُذِ الْحَبَّ مِنَ الْحَبِّ وَالشَّاةَ مِنَ الْغَنَمِ وَالْبَعِيرَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرَةَ مِنَ الْبَقَرِ))

[ابن ماجه عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ]

الزكاة واجِبةٌ في العَيْن ولا يُعْدَلُ عنها إلى القيمة إلا في العُذْر :

وقال الشَّوكاني: الحقّ أنَّ الزكاة واجِبةٌ في العَيْن، أيْ عَينُ البِضاعة ولا يُعْدَلُ عنها إلى القيمة إلا في العُذْر، هذا في الأرياف، فالقمح لو أعطيتهُ إلى فلاَّح لكنت قد أعطَيتَهُ شيئًا ثمينًا، فإذا أديت زكاة مالك من القمح قمحًا لكان هذا عَوْنًا للفقير، ولو أعْطَيْتَ الفلاَّح مئة ليرة وألف ليرة قد تكون الأمور صعبة في الريف، لذا الأولى أن تُدْفَعَ الزكاة مِن عَين المال فإن تَعَذَّر ذلك يُعْدل عن المال إلى قيمته، وهذا موضوع آخر، غير موضوع الذّمة والعَين، فلو أنّ واحدًا معه عشرة آلاف ليرة، ووضَعها في صندوق حديدي، واسْتَحَقَّت الزكاة، جاءَهُ مبلغ آخر، وقد أقرضَهُ لإنسانٍ فردَّ له القرْض فدَفَع زكاة العشرة آلاف من القرض لَصَحَّ ذلك، لأنَّ الزكاة لا تجِبُ في عَين المال بل في الذمة، أما موضوعنا هنا فبالنِّسبة للمحاصيل والثِّمار والشِّياه، فهذا الأولى أن يُدْفَعَ من عَين المال، فإن تعذَّر تُدْفَعُ قيمة الشيء ويصِحُّ هذا من المسلم.

روى البخاري أنَّ معاذًا قال لأهل اليمن:

((قَالَ مُعَاذٌ رَضِي اللَّه عَنْه لِأَهْلِ الْيَمَنِ ائْتُونِي بِعَرْضٍ ثِيَابٍ خَمِيصٍ أَوْ لَبِيسٍ فِي الصَّدَقَةِ مَكَانَ الشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ وَخَيْرٌ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا خَالِدٌ فَقَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ فَلَمْ يَسْتَثْنِ صَدَقَةَ الْفَرْضِ مِنْ غَيْرِهَا فَجَعَلَتِ الْمَرْأَةُ تُلْقِي خُرْصَهَا وَسِخَابَهَا وَلَمْ يَخُصَّ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ مِنَ الْعُرُوضِ))

[البخاري عَنْ ابن عمر]

الفِرار من الزكاة هو الاحتيال بالهروب منها :

هناك أشخاص يَفِرُّون من الزكاة، فإذا الواحد كان معه نِصاب الزكاة، وقبل حُلول رمضان اشترى حاجةً، كان يشتري ثُريًّا، فهذه الثريًّا حينما اشْتراها نقصَ المال عن النِّصاب فهربَ من الزَّكاة، وأنا لا أنسى قِصَّةً سَمِعتها، وهي أنَّ شابًّا توهَّم أنَّه إذا قلعَ أسنانه كلَّها يُعْفى من الخِدمة الإلزامِيَّة، فذهب لأوَّل طبيب فأبى، وإلى الثاني، إلا أن وجدَ طبيبًا نزَعَ له كل أسنانه!! فلما ذهب لِيُقدِّم أوراقه علموا تهرُّبَهُ من الخِدمة فَعُوقِبَ بِمُضاعفة الخدمة العسكريَّة فخسِر أسنانه، وضوعفَت له الخدمة!! وقد رأيْتُهُ بأُمِّ عيني، فإذا الواحِد فرَّ من الزكاة فالله تعالى يُعاقبُهُ عِقابًا شديدًا لأنّ هذا احْتِيالٌ على الله تعالى، لذا أبو حنيفة والشافعي رضي الله عنهما قالا: تسقط عنه الزكاة، ولكنَّ هذا يُعدُّ إساءةً ومعصِيَةً يستحِقُّ عِقاب الله من جهة أخرى، فأنت نفَذت من هنا، وعلِقْت من طرفٍ ثان، فالإنسان مع الله عز وجل مشكلته صَعبة، فأنت إن نفذْت من الزكاة فوجِئْت بِصِحَّتك، وقفت الكلية، ضاقت شرايين القلب، تلف المال، فالزكاة مع الله أن تُطيعَهُ لا أن تحتال على شرْعِهِ، والاحتِيال على شرعه أشدّ أنواع الغباء، فالفِرار من الزكاة هو الاحتيال بالهروب منها بإنقاص المبلغ عن الحدّ الأدنى للنِّصاب، وربُّنا عز وجل قال:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾

[سورة القلم]

هذه القصَّة رائعة جدًّاً، فأصحاب البساتين عندهم محاصيل وأشجار مُثْمِرة مِمَّا لذَّ وطاب، فهم صمَّموا ألا يدْفعوا زكاة هذه المحاصيل، فطاف عليها طائف من ربِّك وهم نائمون! جاءها صقيع في الليل فأصْبحت كالصريم! فأنت بَخِلْتَ باثنين ونصف بالمئة من مالك فإذا بالمال يذهب كليًّاً، وهذه هي الخسارة الكبرى، وعلى كلٍّ للفقهاء آراء دقيقة في هذا الموضوع، فلو أنَّ إنسانًا أراد أن يَحْرم زوجته من الميراث ففي مرض الموت طلَّقها، فالطلاق هنا لا يقع، فالزَّواج يثبت وتأخذ المرأة نصيبها من الميراث، وهذا طلاق الفارّ، فهو يريدُ أن يفِرَّ من ميراث زوجته، ومن قتل مُورّثه اسْتِعجالاً بالإرث عاقبَهُ الشَّرْع بِحِرمانه من الإرث، فالقاتل لا ميراث له.

مصارف الزكاة :

ننتقل الآن إلى موضوع هامّ جدّاً، ولا يوجد واحدٌ من الحاضرين لا يَعنيه ألا وهو مصارف الزكاة، كيف يدْفعُ زكاة ماله؟ مصارف الزكاة ثمانية أصناف حصرها الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة : 60]

إنّما تُفيد الحصْر، عن زيادة بن الحارث قال: أتَيْتُ النبي عليه الصلاة والسلام فبايَعْتُهُ فأتى رجل فقال: أعطِني من الصَّدقة، فقال عليه الصلاة والسلام: إنَّ الله عز وجل لم يرْض بِحُكم نبيّ ولا غيره في الصَّدقات حتَّى حكم فيها هو بِنفسه، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتُك..." ثمانية مصارف للزكاة، إذا انْطبقَت أحد هذه المصارف على رجل اسْتَحَقَّ الزكاة أما إن لم تنطبق فلم يستحقها.

1 . للفقراء و المساكين :

أوّلاً: للفقراء والمساكين، وهم المحتاجون والمساكين الذين لا يجدون كِفايتهم فعلى هذا المبدأ الذي له بيت ثمنه يقدر بمليوني ليرة، ولكن لا يجد ما يكفيه للقوت هو من المساكين، لأنَّ بيته هذا مستهلك، وقد اشتراه في الستّينات، فالزكاة لا تقصر على المُتسَوّلين، وتدَع المؤمنين الذين هم قِمَّة في العِفَّة في صَون ماءِ وُجوههم؛ هذا ليس من الحِكمة في شيء، وقد تقدَّم أنَّ القَدْر الذي يصير به الإنسان غَنِيًّا قَدْرُ النِّصاب، متى لا يجوز أن يدفعَ رجلٌ زكاة ماله آخر؟ إذا ملَكَ النِّصاب، ما هو النِّصاب؟ تحدَّثنا عنه وهو مئتا درهم من الفضَّة، أو ثلاثة وثمانون غراماً من الذهب، مجموعهم تقريبًا عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألفاً على قدر سِعر الذَّهب، فإذا الواحد فوق مسكنه ومطعمه ومشربه ومركبه وحرفته وآلات حرفته كان يملك فائضًا عشرة آلاف ليرة عليه أن يدفع الزكاة، لذا من لم يكن له فائض على هذه الأشياء هذا لا تجب عليه الزكاة، فهذا معاذ روى عن النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِي اللَّه عَنْه إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ

مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ))

[البخاري عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي الله عَنْه]

فالذي تُؤخَذ منه هو الغني، والذي تُردّ إليه هو الفقير، الذي لا يملكُ القدْر الذي يملكه الغني، فَتَعريف الفقير هو الذي لا يملكُ قدْر النِّصاب، وليس هناك فرق بين الفقراء والمساكين، طبعًا هناك توجيه قرآني وهي أنَّ الله تعالى ذكر مرَّةً الفقراء والمساكين، وذكر مرَّةً الفقراء، وذكر مرَّةً المساكين، فكيف نجْمع بينهم؟ إذا تفرَّقا اجتمعا، وإذا اجتمعا اختلفا، فإذا الله تعالى قال: الفقراء والمساكين فالفقراء نوع والمساكين نوع، وإذا تفرَّقا اجتمعا، والنبي عليه الصلاة والسلام عرَّف بِدِقَّة من هم الفقراء والمساكين فقال عليه الصلاة والسلام:

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَا اللُّقْمَةُ وَلَا اللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ يَعْنِي قَوْلَهُ (لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)))

[البخاري عَنِ أبي هريرة رَضِي الله عَنْه]

فالمُتسوِّل في الطريق هذا ليس مِسكينًا، اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة : 273]

فالمسكين هو المتعفِّف، والذي لا يملك إلا قوت يومه، فإن جاءتْهُ عمليّة جراحيّة لم يكن قد وضع حسابها! قال لي شخص: أدخل إنسان زوجته إلى المستشفى، واتَّفق مع الطبيب على اثني عشر ألف ليرة، فطالَتْ العمليَّة ثلاث ساعات فقال له: ثمانية وعشرون ألفًا!! فهذا له عِزَّة وكرامة، ولا يسأل الناس، وله بيت، ومركبة، ولكن لا يتوفَّر له هذا المبلغ! لذلك بعض العلماء أَفْتَوا أنَّه يَجِبُ أن تقول لِمن يأخذ زكاة مالك: هذه زكاة مالي، لكنَّ الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه قال: يجوز أن تُدْفَعَ الزكاة على شَكل هَدِيَّة، فلو كان لك قريب رقيق الحال، ومبلغ الزكاة ثمانمئة ليرة، فإذا ذهب إلى هذا القريب وأعطاه المبلغ قد يرفضُهُ، ولكن لو ذهَب بالعيد وأعطى كلّ واحِدٍ من أولاده مئة مئة على أنَّها هدِيَّة، فلا أحدَ يشعر بشيء!! وكذا لو كان على وشك زواج، لذا ليس من الأدب الإسلامي أن تقول له: هذه زكاة مالي، خُذها!! فالإنسان يجِبُ أن يدفعَ زكاة المال مُتلطِّفاً، أقْسم لي رجل أنّ واحدًا دَفع زكاة ماله لأحدٍ وقال له: هذه زكاة مالي فرفض ذاك الشَّخص أن يُكلِّمَهُ عامين!! فالعلماء قالوا: إذا رضي الفقير أن يأخذ منك فله فضْل عليك.

مِقدار ما يُعطى الفقير من الزكاة :

الآن عندنا نقطة دقيقة، وهي مِقدار ما يُعطى الفقير من الزكاة، لو أنَّ واحدًا زكاة ماله ألف ليرة، يُقسِّمهم خمسينات، ويعطيهم لِعِدَّد من الناس!! ماذا تفعل هذه؟ اللحم سعرهُ سبعون ليرة! فالعلماء يقولون: يَجِبُ أن تُعْطِيَ عطاءً يكفي، فإما أن تُعْطِيَ مبلغًا مقبولاً أو لا تعطي.

مِن مقاصِد الفقير كفاية الفقير، وسدّ حاجته، فَيُعطى من الصَّدقة بالقَدر الذي يُخرجِهُ من الفقر إلى الغنى، قال عمر رضي الله عنه: "إذا أعْطَيتُم فأغنوا"، والإمام مالك لم يجعل للمِقدار الذي يُدفع للفقير حدَّاً، قال: يُعطى من له المسكن والخادم والدابة الذي لا غِنى له عنه، فالذي له مسكن أو دابة يستعين بهما على متاعب الحياة هذا لا يُعَدُّ غَنِيَّاً، فالفقهاء قالوا: يُعطى من له خادم ومسكن ودابَّة!!

هل يَحِلّ للفقير أن يسأل ؟

الآن السؤال: هل يَحِلّ للفقير أن يسأل؟ هناك فَتوى، وهناك تقوى!

((عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ قَالَ تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا فَقَالَ أَقِمْ يَا قَبِيصَةُ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ قَالَ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَاجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكَ وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَشْهَدَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ قَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ فَمَا سِوَى هَذَا مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا))

[النسائي عن قبيصة بن مخارق الهلالي]

الحمالة أن ينشب خلاف أو قضيّة قتل أحيانًا فأهل القرى كانوا يدفعون دِيَّة، فإذا الواحد دخل في قضيَّة لِيَحُلّ الخلاف، وكلَّفه ثمنًا باهظًا، فقُبيْصَة رضي الله عنه قال: تحمَّلتُ حمالة، فالذي يدخل في صلح بين الناس، ويكلّفه أن يدفع بعدها له أن يسأل الناس، والجائحة مصيبة تُتْلف المال كأن يحترق المحلّ، فهذا كذلك له أن يسأل الناس حتى ينتهي من مشكلته، ورجل أصابته فاقة يحلّ له السؤال حتى يصيب قِوامًا من عَيش، ففي مثل هذه الحالات الثلاثة يجوز لك بِنَصّ الحديث الشريف أن تسأل الناس فإن سألت وأخذْت ما تحتاج كان عليك أن تكفّ عن السؤال، وعليك أن تتجنَّب السؤال إلا للضرورة، لذا المحتالون هم مسؤولون عن تهرّب الناس من العمل

الصالح، أذكر مرَّة إنساناً سألني مبلغاً لعمليّة جراحيّة للعين، فرقَّ قلبي له، وجمَّعنا له مالاً لا بأس به، فهمسَ أحدهم في أُذُني أنَّه محتال! فقلتُ له لما جاءني: أين تُريد أن تُجري العمليَّة؟ فقال: خارج القطر! فقلتُ له: نحن جاهزون لِدَفع تكلفة العمليَّة فقط داخل القطر، حينها ولَّى هاربًا!! فالجمعيات الخيريّة الآن لها خبرات واسعة في مجال احتِيال هؤلاء، والإنسان المُحتال هو الذي يمنع الماعون.

أحدهم كان يركبُ فرسًا فرأى رجلاً ينْتَعِلُ رمال الصحراء المحرقة في أشهر الصيف الحارة، فرقَّ له وقال: ارْكب ورائي، وما إن ركب وراءهُ حتَّى دفعهُ نحو الأرض، فقال له صاحب الفرس و هو يهرب بالخيل عن بُعْد: لقد وَهَبْتُ لك هذا الفرس ولن أسأل عنها بعد اليوم، ولكن إيَّاك أن يشيع هذا الخبر في الصحراء، فإذا شاع تذهب المروءة، وبِذاهب المروءة يذهب أجمل ما في الصحراء، فَكُلّ الذين يسيئون لأصحاب المعروف هؤلاء يمنعون الماعون.

((عن عُبيد الله بن عديّ قال أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي عليه الصلاة والسلام في حجَّة الوداع وهو يقسم الصَّدقة فسألاه منها فرفع فينا البصر وخفَّضَهُ، فرآنا جَلْدَين، وقال: عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيٍّ قَالَ أَخْبَرَنِي رَجُلَانِ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ يَسْأَلَانِهِ الصَّدَقَةَ قَالَ فَرَفَعَ فِيهِمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَصَرَ وَخَفَضَهُ فَرَآهُمَا رَجُلَيْنِ جَلْدَيْنِ فَقَالَ إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا مِنْهَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ))

[أحمد عن قبيصة بن مخارق الهلالي]

لذا سئل الإمام الغزالي عن القويّ من أهل البيوتات الذين لم تجر عادتهم بالتَّكَسُّب بالبَدَن هل له أخذ الزكاة من سَهم الفقراء؟ فقال: نعم! فالذي من عائلة غنيّة يصعب عليه اقتناء عمل دون مستواه، وإن شاء الله في درس قادم نتابع الحديث.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 8 : مصارف الزكاة 1 ....

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتّباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

مصارف الزكاة :

1 . للفقراء و المساكين :

أيها الأخوة الأكارم، وصلنا في موضوع الزكاة إلى باب من أبواب الزكاة وهو مصارف الزكاة، وتحدَّثنا في الدرس الماضي عن أنَّ مِن مصارف الزكاة الفقراء والمساكين، ثمّ قلنا إنَّ الغزالي سئل عن القويّ من أهل البيوتات الذين لم تَجر عادتهم بالتَّكَسُّب بالبَدَن هل له أخذ الزكاة من سَهم الفقراء؟ فقال: نعم، وهذا صحيح جار على أنَّ المُعتبَر حِرْفةٌ تليق به لِقَوله عليه الصلاة والسلام:

((ارْحَموا عزيز قَومٍ ذلّ، وغنيّ افْتقر، وعالم ضاع بين الجهال...))

[ذكر هذه القصة ابن هشام في سيرته، والطبري في تاريخه]

فلا نُكلِّف هذا الذي كان غَنِيّاً فافتقر أن نُجْبِرَهُ على عملٍ لا يليق به.

من يملك النصاب يصِحُّ أن يأخذ من مال الزكاةَ:

شيءٌ آخر، وهذه نقطة دقيقة جدًّاً في الزكاة، قد يكون في بيتك مبلغٌ من المال قد يزيدُ عن النِّصاب، كأن يكون لك أربعون ألف ليرة، وأنت مُقْدِمٌ على زواج، وعليك أن تشتري بيتًا ثمنه مئتا ألف ليرة مثلاً، نقول لك: هذا المبلغ عليه زكاة، ولكنَّك بِحُكم مواجهتك مصاريف كبيرة جدًّاً من شِراء بيتٍ، هذا الذي يملكُ نِصابًا وعليه تَبِعات خطيرة يجوز أن يأخُذ من مال الزكاة، نأمرُهُ أن يؤدّي زكاة المال الذي بحَوْزتِهِ ثمَّ نُعطيه من مال الزكاة بِقَدر حاجته، ولكن إذا كتبَ عقْدَ شِراء بيت، ومعه مئتا ألف ليرةِ في البيت، وفي العقد عليه أن يدفع أربعمئة ألف بعد شهر،

فهذا المبلغ الذي بِحَوزته في البيت ليس عليه زكاة، أما قبل كتابة العقد فالمبلغ هذا تَجِبُ فيه الزكاة، وإن كان هذا الإنسان مالك النِّصاب يصِحُّ أن يأخذ من مال الزكاة إن كانت عليه تَبِعاتٌ لا قِبَل له بِتَحَمُّلها. قال النووي رحمه الله تعالى: "ومن كان له عقار أي بيت، ينقصُ دَخلُهُ عن كِفايَتِهِ فهو فقير يُعطى من الزكاة تمام كفايته، ولا يُكلَّفُ بيعه، فهذا الإنسان على الرَّغم من أنَّ له بيتًا غاليَ الثَّمَن يسكنه يجوز له أن يأخذ من مال الزكاة، ماذا نقول له: بِعِ البيت!!

أشرنا في الدرس الماضي أنّ إعطاء الزكاة يكون بِلُطف، وأنّ عبارة خُذْ فهذه زكاة مالي!! هذه لا يقبلها إنسان عنده كرامة، ولكن المُتَسَوِّلون يقبلونها، أما المؤمنون فلا يرضونها إلا إذا جاءتْ على شَكل مَقبول.

2 . العاملون على الزكاة :

البند الثالث من مصارف الزكاة، وهم العاملون على الزكاة، وهم الذين يُوَلِّيهم الإمام أو نائبُهُ العملَ على جمعها من الأغنياء وهم الجباة، ويدخل فيهم الحفظة لها، والكَتَبَة لِدَواوينها، ويجب أن يكونوا من المسلمين لكي لا يكونوا مِمَّن تحرم عليهم الصّدقة، فإن كانوا من غير المسلمين لا يستحِقُّون هذا المبلغ، وإن كانوا مِمّن تحرم عليهم الصَّدَقة لا يجوز أن يُعْطَوا مِن مال الزكاة، من هم الذين تحرم عليهم الصَّدَقة؟ آل النبي عليه الصلاة والسلام، وهم بنو عبد المطَّلب.

((فعن المطَّلب بن ربيعة والفضل ابن العباس انطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم، قال: ثمَّ تكلَّم أحدنا فقال: عن عَبْدَ الْمُطَّلِبِ بْنَ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ حَدَّثَهُ قَالَ: اجْتَمَعَ رَبِيعَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَالْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَا وَاللَّهِ لَوْ بَعَثْنَا هَذَيْنِ الْغُلَامَيْنِ قَالَا لِي وَلِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَاهُ فَأَمَّرَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصَّدَقَاتِ فَأَدَّيَا مَا يُؤَدِّي النَّاسُ وَأَصَابَا مِمَّا يُصِيبُ النَّاسُ))

[مسلم عن عَبْدَ الْمُطَّلِبِ بْنَ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ]

من علامات نبوَّته أنَّه ﷺ كان يقبل الهَدِيّة، ولا يقبل الصَّدَقة، إلا أنَّ النبي صلى الله عليه وسلّم قال:

((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا أَوْ لِغَارِمٍ أَوْ لِرَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ أَوْ لِرَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتُصُدِّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ فَأَهْدَاهَا الْمِسْكِينُ لِلْغَنِيِّ))

[أبو داود عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ]

فهؤلاء هم العاملون عليها وهم الموظّفون، يؤدِّي عملاً يأخذ نصيبهُ مُقابل عمله، أو رجل اشتراها بِماله، فلو أنَّ الزكاة هي شاته، يجوز أن يأخذ هذه الشاة، فهو أخذها شراءً، ولم يأخذها هِبةً، أو غارماً، فقد يملك الإنسان أملاكًا غير منقولة ولكن عليه ديوناً، والدَّيان ألحَّ عليه فهذا الغارِم، ولو كان بِحُكم الشّرع غنِيًّا يملكُ أموال غير منقولة، كالأراضي والبيوت، إلا أنَّ عليه دَينًا نَقْدِيًّاً يجوز لِهذا الغارم أن يأخذ من مال الزكاة، أو غازٍ في سبيل الله، أو مِسكينٍ تصدّق عليه منها فأهدى منها لِغنيّ، فهذا الغني الذي قُدِّمَت له هديَّةٌ بعضٌ من الزكاة، وهذا لا غاز في سبيل الله، وهذا الغارم المديون، وهذا الذي اشتراها بِماله، والعامل عليها، هؤلاء الأغنياء الخمس يجوز لهم أن يأكلوا من الزكاة.

عن عبد الله أنَّه قَدِم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الشام فقال: أَلَمْ أُخْبَرُ أَنَّك تعمل على عمل من أعمال المسلمين فَتُعطَى عليه عمالةً فلا تقبلها، فقال: أجل، إنَّ لي أفراسًا، وأَعْبدًا، وأنا بِخَير، وأُريد أن يكون عملي صدقةً على المسلمين، فقال عمر: إنِّي أرَدْتُ الذي أرَدْتَ، وكان النبي ﷺ يُعطيني المال فأقول: يا رسول، أعْطِهِ من هو أفقر إليه مِنِّي، وإنَّه أعطاني مرَّةً مالاً فقلتُ: أعْطِهِ من هو أحوج إليه مِنِّي، فقال عليه الصلاة والسلام: ما آتاك الله عز وجل من هذا المال من غير مسألةٍ ولا إشرافٍ فَخُذْهُ أو تموَّلْهُ أو تصدَّق به، فإذا عَمل الواحد على أموال الزكاة، هذا الرجل عبد الله بن السَّعدي حينما عُرِض عليه نصيبُهُ من الزكاة لأنَّه عمل عليها رفض أن يأخذ شيئًا، فإذا ألحَّ عليك إنسان أن تأخذ حاجةً وأنت لسْتَ بِحاجة، فإن علمتَ أقرباءً لك بِحاجته فَخُذْه لهم فالخِيار لك؛ إما أن تكون بِحاجة فتموَّل هذا المال، وإن لم تكن بِحاجة فأعْطِهِ من هو أحْوجُ منك، ولا بدّ أن يعلم المؤمن أنَّ التمنُّع فوق الحدّ المقبول ليس من أخلاق المؤمن، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((مَنْ وَلِيَ لَنَا عَمَلًا وَلَيْسَ لَهُ مَنْزِلٌ فَلْيَتَّخِذْ مَنْزِلًا أَوْ لَيْسَتْ لَهُ زَوْجَةٌ فَلْيَتَزَوَّجْ أَوْ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَلْيَتَّخِذْ خَادِمًا أَوْ لَيْسَتْ لَهُ دَابَّةٌ فَلْيَتَّخِذْ دَابَّةً وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ غَالٌّ))

[أحمد عن الْمُسْتَوْرِدَ بْنَ شَدَّادٍ]

الآن تغيَّر الزمان والحديث هذا له وضْع خاص! ولا يُنْكر تبدُّل الأحكام بِتَغَيُّر الأزمان، وكما قلتُ قبل قليل إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام إنَّما أباح اكتِساب الخادم والمسكن من عمالته التي هي أجر مثله، فمجموع ثمن هذه يجب ألا يزيد على أجْر مثله، وليس له أن يرتفق بِشَيءٍ سِواهما.

3 . المؤلفة قلوبهم :

البند الرابع من مصارف الزكاة هم المؤلَّفة قلوبهم، هذا البند دقيق جدًّاً وهم الجماعة الذين يُرادُ تأليف قلوبهم، وجمعها على الإسلام، أو تثبيتها عليه، فإما لِضَعف إسلامهم، أو كفّ شرّهم عن المسلمين، أو جلب نفعٍ في الدِّفاع عنهم، والعلماء قسَّموا المؤلفة قلوبهم إلى قسمين: مسلمون وكفار.

المؤلفة قلوبهم قسمان :

1 . المسلمون :

أما المسلمون فقَوْم من سادة المسلمين وزعمائهم، لهم نظراء من الكفار إذا أُعْطُوا رُجِيَ إسلام نظرائهم، فلعلَّ هذا الكافر الذي هو نظير المسلم يطمعُ إذا أسْلم أن يأخذ كما أخذ المسلم، فهذا مباح في رأي الفقهاء، كما أعطى أبو بكر رضي الله عنه عديّ بن أبي حاتم مع حُسْن إسلامه لِمَكانته من قومه، وهذا تأليفًا لِقَلبه، وتشجيعًا لِمَن هم نُظراؤُهُ أن يُسلموا مثله.

وضُعفاء الإيمان من المسلمين، مُطاعون في أقوامهم، كأن يكون زعيم قبيلة وكلمته نافذة، وله سيطرة، لكنَّه ضعيف الإيمان، فإذا أعْطيتَهُ شيئًا من مال الزكاة لعلَّه يثبتُ في إيمانه، ويزداد قربًا من الدِّين، فَيُرْجى من إعطائهم تثبيتهم، وقوَّة إيمانهم، ومناصحتهم في الجهاد وغيره كالذين أعطاهم النبي ﷺ العطايا الوافرة من غنائم هوازن، فإما أن يكون زعيمًا مسلمًا، وإما أن يكون ضعيف الإيمان له مكانة في قومه من أجل ثبات إيمانه.

وقوم من المسلمين في الثُّغور، وحدود البلاد، يُعطَون لما يُرجى مِن دِفاعهم عمَّا وراءهم من المسلمين إذا هاجمهم العدوّ، هذا تعويض جبهة فهذا الصِّنف له أن يأخذ شيئًا إضافيًّا من مال الزكاة تثبيتًا له وتشجيعًا له ومكافأةً له على يقظتِهِ.

الفقهاء المعاصرون قالوا: على حدودِ الدُّوَل الإسلاميَّة، إذا كان هناك جاليات أو فئات من الناس قد تميل إلى الكفار، وقد تنضمّ إليهم، فينبغي أن نُعْطِيَهم العطايا من أجل أن نزيد ارتباطهم بالمسلمين، فهذه المساعدات يجب أن تُعطى للدُّول الضَّعيفة التي على الحدود كي لا تنضمّ إلى دُوَل كافرة، أو لكي لا تدخل تحت حِمايتها.

البند الرابع الآن هم قَومٌ من المسلمين يُحتاج إليهم لِجِباية الزكاة، وأخذها مِمَّن لا يُعطيها بِنُفوذهم وتأثيرهم، هؤلاء إذا استخدمناهم، وجبَيْنا عن طريقهم الزكاة كُفينا مؤونة الحرب، فلو لم نستخدِمهم لَوَجَب أن نُحارب هؤلاء الذين

منعوا الزكاة، فهؤلاء الذين يتوسَّطون لِجَبي الزكاة مِمَّن لهم نفوذ على من عليه دفعها هؤلاء يستحِقُّون شيئًا من مال الزكاة، فأشياء قد تكون صالحة لهذا الزمان، وأخرى قد لا تكون صالحة.

2 . الكفار :

أما الكفار فهم قِسْمان، من يُرْجى إيمانهُ بِتأليفه، كافرٌ تُعطيه مالاً وترجو بهذا المال أن يؤمن، كصَفْوان بن أُميَّة الذي وهب له النبي عليه الصلاة والسلام الأمان يوم فتح مكَّة، وأمهله أربعة أشهر لِيَنظر في أمره، ويختار في نفسه، وكان غائبًا، فحضر، وشَهِد مع المسلمين غزوة حُنين قبل إسلامه، وأعطاه النبي عليه الصلاة والسلام من هذه الغزوة.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد استعار سِلاحه يوم خرج إلى حنين وقد أعطاه النبي إبِلاً كثيرة مُحَمّلة، كانت في وادٍ، فقال: يا محمّد، هذا عطاءُ من لا يخشى الفقر، وقال: والله لقد أعطاني النبي صلى الله عليه وسلَّم وإنَّه لأبغضُ الناس إليّ! فما زال يُعطيني حتَّى إنَّه لأحبُّ الناس إليّ، فالإنسان بالعَطاء يمكن أن يميل قلبه، أعرفُ شخصًا يُعادي الدِّين عِداءً شديدًا، وفي أيِّ مجلسٍ يجلسه يتهجَّم على الدِّين وينتقص منه، ويُبيِّن عيوب المؤمنين، إلى أن أُصيب بِمَرضٍ عُضال لا يملكُ ثمن الشِّفاء والعمليَّة، فدخل إلى بعض المساجد، وجمَّعوا له مالاً يستطيع به أن يُقيم العمليَّة في دولةٍ أجنبيَّة، وعاد لِيُلازِمَ هذا المسجد، ويدافِع عن الدِّين!! فالإنسان يميل قلبه بالإحسان، وبه تتغيَّر قناعاته، وتتبدّل عقائده، والإنسان عبد الإحسان، عَجِبتُ لِمَن يشتري العبيد لِيُعتقَهُم بِماله، كيف لا يشتري الأحرار بإحسانه؟! لذلك أربعة أخماس الدَّعوة إلى الله إحسانٌ للخَلْق، إذا أحْسَنْتَ إليه مال قلبهُ إليك، وتعلَّق بك وبِمَبدئِكَ، وتعلَّق بِعقيدتك، وبِقِيَمِكَ، وتعلَّق بدينك، لذلك الكلام ليس وراءه إلا الكلام، ولكنَّ الأعمال الطيّبة هي التي تبثّ المواقع في النفوس.

النبي عليه الصلاة والسلام قال: "بُعِثْتُ بِمُداراة الناس"، فأعظم شيءٍ بعد الإيمان بالله التودُّد إلى الناس، والعربُ فتَحوا القلوب بإحسانهم قبل أن يفتحوا البلاد بِسُيوفهم، وهذا الدَّرس لنا، قال تعالى:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 159]

إذا أردْت أن تهدي زوجتك لا تَكُن قاسيًا معها، فقَسْوَتُك معها تزيدها منك نفورًا، وكذا مع أولادك، يا داود ذَكِّر عبادي بإنعامي عليهم فإنَّ النفوس جُبِلَت على حبّ مَن أحْسنَ إليها، وبغض من أساء إليها، وأنت لن تستميل هذه القلوب إلا بالمودَّة، والإحسان، والعَطْف، والحِلم، والصَّبر، وعلِّموا ولا تُعنِّفوا فإنَّ المعلِّم خير من المعنِّف، قال لي أخ: كنتُ طفلاً صغيرًا فدَخَلتُ إلى بعض المساجد لأُصلِّي، فخرج من الصلاة فلم يجِد حِذاءهُ! تألَّم وصار يبكي، فكان هناك رجل يصلي، له دكان أمام الجامع رقَّ لي وأخذني إلى دُكانه، واشترى لي حذاءً جديدًا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو منذ ذلك الوقت ما تركتُ الصَّلاة، ثَمَنُ هذا الحِذاء فعَلَ في قلبهِ فِعْل السِّحْر. البند الآخر في الكفار هو مَن يُخْشى شرّه فَيُرْجى بإعطائِهِ كفَّ شرِّه، النبي عليه الصلاة والسلام قال: من يقطع لسان فلان؟ فهناك من فهم القطع الحقيقي! أما صحابي آخر فكان فهمه أرقى، فذهب إلى ذاك الأخ وأحْسن إليه، فكان إحسانه لهذا الرجل البذيء والمتهجِّم قطْعٌ لِلِسانِهِ، قال لي شخص: لي جارٌ سيّئ، يعلو عليّ بالصِّياح، ويرمي عليّ الأوساخ، ويتهجّم على أولاده، فأرْسَلَ له هدِيَّة، وثاني أسبوع هديّة ثانية، وكذا في الثالث، فأصبح هذا الجار كالملائكة!! فطريق الإحسان أسْرع وأجْدى وأكثر فعاليَّة من طريق العُدوان، فأنت بإحسانك للشرير تكفّ شرّه عنك.

قال ابن عباس: "إنَّ قومًا كانوا يأتون النبي عليه الصلاة والسلام فإن أعطاهم مدحوا الإسلام، وقالوا: هذا دينٌ حسن، وإن منعَهم ذَمُّوا وعابوا! فكان يقطعُ ألسنتهم بالإحسان إليهم، فأصبح الحاصل أنّ الكفار نوعان نوعٌ يُرْتجى إيمانهم كصَفوان بن أُميَّة، ونوعٌ يُتَّقى بالعطاء شرُّهم، كهؤلاء الذين إن أُعْطوا رَضُوا، وإن منِعُوا سَخِطوا!

انتهاء نصيب المؤلَّفة قلوبهم لأنَّ الله عز وجل أعزَّ دينه :

الأحناف وحدهم ذهبوا إلى أنَّ فهْم المؤلَّفة قلوبهم قد سقط وانتهى بِإعزاز الله لِدينه، فقد جاء عُيَيْنة بن حُصَين والأقرع بن الحارث وعباس بن مرداس وطلبوا من أبي بكر نصيبهم فكتب لهم به، ونصحهم أن يذْهبوا إلى عمر لِيأخذوا موافقته، فقد كان وزيره، فجاؤوا عمر فأبى أن يُعْطِيَهم ومزَّق الرُّقْعة! وقال: هذا شيءٌ كان النبي صلى الله عليه وسلّم يُعطيكم إيَّاهُ تأليفًا لكم على الإسلام، وقد أعزَّه الله الآن، وأغناه عنكم، فإن ثبتُّم على الإسلام فلكم، و إلا فبيننا وبينكم السَّيف، فرجعوا إلى أبي بكر وقالوا: الخليفة أنت أم عمر؟! بذلْت لنا الخط فمزَّقَهُ عمر، وأرادوا أن يوقعوا بينهما، فقال رضي الله عنه: هو إذا شاء، فوافق أبو بكر عمر، ولم ينكر أحد من الصحابة، كما أنَّه وافق عثمان وعلي رضي الله عنهما، فهناك من قال: هذا اجتهاد من عمر بن الخطاب، ورأى أنَّه ليس من

المصلحة إعطاء هؤلاء بعد أن ثبَّت الله الإسلام، ولا ضرر من ارتِدادهم فهذا جبلة بن الأيْهم جاءَ مسلمًا فرحَّب به عمر بن الخطاب، وفرِحَ بإسلامه، وأثناء الطواف بدوِي داس طرف ثوبِهِ فانخلَعَ إزاره عن كتفه فالتَفت جبلة إلى هذا البدَوي وضربهُ ضربةً هشَّمَتْ أنفه، فاشتكى هذا البدَوي إلى عمر، فاستدعى عمر بن الخطاب جبلة وقال: أصحيح ما اشتكى هذا الفزاري الجريح؟ فقال جبلة: لسْتُ مِمَّن يُنكِر شيَّا أنا أدَّبتُ الفتى أدْركتُ حقِّي بيَدَيّ، فقال عمر: أرْضِ الفتى، لابدّ مِن إرضائه، ما زال ظفرك عالقًا بِدِمائه أو يُهْشمنَّ الآن أنفُك وتنال ما فعلتْهُ كفُّك، فقال: كيف ذاك يا أمير هو سوقةٌ وأنا عرش وتاج؟ كيف ترضى أن يَخِرَّ النَّجم أرضًا، فقال عمر: نزَوات الجاهليَّة، ورياح العنجهيّة قد دفنَّاها، أقمنا فوقها صرْحًا جديدًا، وتساوى الناس لدينا أحرارًا وعبيدًا، فقال جبلة: كان وهمًا ما جرى في خَلَدي، عالم نبنيه كلّ صدع فيه بشبا السيف يُداوى، وأعزّ الناس بالعبد بالصُّعلوك تساوى، فالأحناف ذهبوا إلى أنّ نصيب المؤلَّفة قلوبهم قد انتهى لأنَّ الله عز وجل أعزَّ دينه.

جواز إعادة سهم التَّأليف عند الحاجة إليه :

لكن هناك مناقشة لطيفة جدًّاً، قال: ولكن هذا اجتهاد من عمر، أنَّه رأى ليس من المصلحة إعطاء هؤلاء بعد أن ثبَّت الله الإسلام، وأنَّه لا ضر يُخشى من ارتِدادهم، وكون علي وعثمان لم يعطِيا أحدًا من هذا الصِّنف لا يدلّ على ما ذهبوا إليه من سقوط سهم المؤلَّفة قلوبهم، فقد يكون ذلك لِعَدم وجود الحاجة إلى أحدٍ من الكفار، وهذا لا يُنافي ثبوته لِمَن احتاج إليه من الأئمَّة على أنّ العمدة في الاستدلال هو الكتاب والسنة، وقد روى أحمد ومسلم عن أنس أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن يُسأل شيئًا على الإسلام إلا أعطاه:

((عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لمْ يَكُنْ يُسْأَلُ شَيْئًا عَلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا أَعْطَاهُ قَالَ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ فَأَمَرَ لَهُ بِشَاءٍ كَثِيرٍ بَيْنَ جَبَلَيْنِ مِنْ شَاءِ الصَّدَقَةِ قَالَ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي عَطَاءً مَا يَخْشَى الْفَاقَةَ))

[أحمد عَنْ أَنَسٍ]

إذًا لو صار الإسلام ضعيفًا وأصبحت الحاجة ماسّة إلى رجل يُدْفعُ شرُّه، أو يجلبُ خيره، أو يُرجى إيمانه، أو يُستعانُ به رجَعَ الحكم كما كان من قبل فهذه مناقشة لطيفة.

الشافعي له رأي وسط، فقال: لا يجوز أن تتألَّف كافرًا، أما الفاسق فَيعطى من سَهم التأليف رجاء أن يستقيم. والظاهر أنّه يجوز أن يبقى هذا السَّهم عند الحاجة إليه، وهو أدقّ رأي فإذا كان في زمن الإمام قومٌ لا يُطيعونه إلا للدنيا، ولا يقدِرُ على إدخالهم تحت طاعته إلى بالقسر والغلب فله أن يتألَّفهم، ولا يكون لانتشار الإسلام تأثيرٌ لأنَّه لم ينتفع في خصوص هذه الواقعة، فالحلّ الوسط انَّه يجوز أن يُعاد سهم التَّأليف عند الحاجة إليه، ورأي الشافعي أنَّ الكافر لا يُتَألَّف قلبه أما أبو حنيفة فرأيهُ أنَّ التأليف سقط بإعزاز الله للإسلام.

4 . في الرقاب :

البند الآخر، وفي الرِّقاب، فهؤلاء الذين هم في حيّز العبوديَّة، يجوز أن نُعْطِيَهم من مال الزكاة شيئًا يشترون بها حُريَّتهم، فعن البراء قال: جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ فَقَالَ لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَلَيْسَتَا بِوَاحِدَةٍ قَالَ لَا إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا وَفَكَّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفُ وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ وَاسْقِ الظَّمْآنَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إِلَّا مِنَ الْخَيْرِ))

[أحمد عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ]

و:

((ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَوْنُهُمُ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ الْعَفَافَ قَالَ أَبمو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

أيُّها الشباب، الناكح المتعفِّف الذي يرجو بالنِّكاح العفاف حقٌّ على الله عَونُهُ، لذا النبي عليه الصلاة والسلام ما شكا إليه رجلٌ ضيقَ ذات يدِه إلا قال له: اِذْهب فتزوَّج!!

5 . الغارمون :

والغارمون هم الذي تحمَّلوا الدُّيون، وتعذَّر عليهم أداؤُها، وهم أقسامٌ فَمِنهم من تحمَّل حمَّالةً، أو ضَمِن دَينًا فَلَزِمَهُ، فهؤلاء يجوز أخذهم من مال الزكاة، أو المستدين لِحاجة ماسَّة، أو في معصِيَةٍ تاب منها، فهؤلاء جميعًا يأخذون من مال الزكاة ما يفي ديونهم فقط، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثٍ ذِي دَمٍ مُوجِعٍ أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ))

[أحمد عَنْ أَنَسٍ]

الأوّل التصق بالتراب، والثاني عليه دَين كبير، والثالث عليه أداء الديَّة.

وروى مسلم عن أبي سعيد:

((أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِغُرَمَائِهِ خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلَّا ذَلِكَ))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

اشترى ثمارًا بمئة ألف، فإذا هي كاسدة، فصار عليه أن يدفع الثمن لِصاحب البستان، ولم يدفع ثمن هذه البضاعة، هذا يجوز له أن يأخذ من مال الزكاة، وقد ساقني هذا الموضوع إلى موضوع التأمين، فقد سألني اليوم شخص، فقلتُ له: التَّأمين حرامٌ قَولاً واحدًا لأنَّ الأمن لا يُباع ولا يُشْترى، والأمْنُ بيَدِ الله، ومن باعك الأمْن فقد باعك شيئًا لا يملِكُهُ أما التأمين الإجباري فهذا سقط اختيارُكَ فيه، ولكنَّ الإسلام أباح التأمين التعاوني، لو فرضنا أنَّ بأحد أسواق المدينة مصلحة من المصالح إذا اتَّفق تجار مؤمنون وقرَّروا أن يدفعوا واحداً بالمئة من ثمن بضائعهم باستمرار ويضعونها في صندوق، فإذا تلف مال أحدٍ منهم، أو احترق دكانه، أو فلَّس، يأخذ هذا الإنسان من هذا الصُّندوق، وهذا جائز في الإسلام، وهو عمل طيب فالتأمين محرّم لأنَّهم يأخذون الشيء من دون عِوَض.

ذكر لي أحدهم أن بعض التجار متَّفِقون فيما بينهم أن إذا أُصيب أحدهم بِنَكبة يقدِّمون له المساعدة الكافية، هكذا الأصول، وهذا هو الإسلام، إلا إذا كان الشيء احتيالياً، كما يجري الآن، وفي درس قادم إن شاء الله نتابع مصارف الزكاة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 9 : مصارف الزكاة2 ....

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتباعه، وأَرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أَحْسنه، وأَدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

مصارف الزكاة :

1 . ابن السبيل :

أيها الأخوة الأكارم، لازلنا في مصارف الزكاة، أي الوجوه التي حدَّدها ربنا سبحانه وتعالى في صرْف الزكاة، وصلنا إلى المصرف السابع وهو في سبيل الله.

الحقيقة، هذا المصرف واسِعٌ جدًّاً في سبيل الله أي الطريق الموصل إليه، ومعنى إلى الله تعالى أيْ إلى مرضاته من العلم والعمل، فهو سبحانه لا يرضى عنك إلا إذا كنتَ عالمًا، ولا يرضى إلا إذا عملتَ بما تعمل، وما اتَّخذ الله وليَّاً جاهلاً، ولو اتَّخَذهُ لعلَّمَهُ، ولو تعمَّقتَ في أسرار الحياة لوَجَدت أنّاً أثمنَ شيءٍ في الكون أن تنال مرضاة الله عز وجل، فقد تُرضي إنسانًا له شأنٌ في الدنيا، وقد يرضى عنك إنسان له منصِبُهُ فلا يسعُكَ عقلك، فكيف لو أنَّ الله سبحانه وتعالى رضِيَ عنك؟ وكيف أنّ الذي خلق السموات والأرض رضي عنك؟ وكيف لو أنَّ الذي لا شيء قبله ولا شيء بعده رضي عنك؟ قال تعالى:

﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

[سورة الحديد: 3]

لا حدود لقدرته، ولا حدود لغِناه، ولا حدود لرحمته ورأفته، هذه الذات الكاملة ما أعظمها وما أصغرك، إنَّكَ تنال رضا الله عز وجل.

العلم والعمل الصالح يقربان الإنسان من الله عز وجل :

لذلك قد أقرأ في الكتب: فلان يحمل الشهادة الفلانيّة دكتوراه، وبورد، وقد أقرأ اسم صحابيّ كُتبَ بِجانبه رضي الله عنه، لو تعمَّقْت لوَجَدْت أنَّ أعلى رتبة ينالها الإنسان على وجه الأرض أن يرضى الله عنك، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام وهو في أشدّ مِحنةٍ واجهها، لما ذهب إلى الطائف، وحينما ردَّهُ أهلها وسَخِروا منه، وأبَوا أن يستجيبوا له، وبالغوا في إيذائه الْتَفَتَ إلى الله تعالى وقال: إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أُبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكنَّ عافيتك أوسع لي، فليس لك سبيل إلى أن تصل إليه، ولكن سبيلك إلى أن تصِلَ إلى مرضاته مِن العلم والعمل، لذلك قال عليه الصلاة والسلام: "لا بوركَ لي في يوم لم أزْدد فيه من الله علماً"، العلم والعمل الصالح يُقرِّبانك، قال تعالى:

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

[سورة الأحقاف: 19]

وقال تعالى:

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾

[سورة الإسراء: 79]

ما منَّا واحد إلا وله مقامٌ معلوم، هذه المرتبة تُحصِّلها بِعِلمك وعملك، ولا تنس أيها الأخ الكريم أنَّ رتبة العِلْم أعلى الرُّتَب، والله الذي لا إله إلا هو شَعَرتُ قبل يومين أنَّ ليس في الأرض شيئاً؛ لا مالها، ولا جاهها، ولا سلطانها، ولا زينتها، ولا قصورها، ولا ما فيها من مباهج يعْدِلُ أن تكون عالمًا بالله تعالى، فرُتْبة العلم بالله تعالى أعلى الرُّتَب، فسبيل الله هو الطريق الموصِلُ إلى مرضاته من العلم والعمل، وجمهور العلماء قالوا على أنَّ المراد به هنا الغزو في سبيل الله، فلماذا تجدون مسلمين في بقاع الأرض مستضعفين؟! لأنَّ هذه الفريضة تركوها، ولمَّا تركوها قَوِيَ أعداؤُهم، وحملوهم على الكفر، وترك دينهم، وشرَّدوهم، فأخبار المسلمين في بعض الدول شيء يتفطَّر له القلب، بِسبب أنَّ هذا المصرف من مصارف الزكاة قد عُطِّل، وأنَّ سهم سبيل الله يعطى للمتطوِّعين من الغزاة الذين ليس لهم مرتَّب من الدَّولة، فهذا يُغطِّي نفقات الدَّعوة إلى الله تعالى، فالدَّعوة إلى الله تعالى قد تأخذ شكلاً بيانيَّاً، فطبعُ الكتب الثمينة وتوزيعها، وإنشاء الجامعات الإسلاميّة، وإرسال دعاة إلى هذه البلاد الجاهلة التي سيْطَر عليها الاستعمار، وإنشاء المراكز الإسلاميّة؛ هذا كلّه في سبيل الله تعالى، ويوم كان النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته الكرام يفتحون البلاد عن طريق الجيوش أيضًا في سبيل الله، فالقصْد أن توصِلَ الحق

لأهله، وأن تنشر الدِّين.

هؤلاء لهم سهم من الزكاة يُعْطَونَهُ، سواءٌ كانوا من الأغنياء أو الفقراء فهذا الذي ينشر الإسلام له أجره، وهذا الأجر يستحقّه، سواءٌ أكان غنيًّا أم فقيرًا، وقد تقدَّم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا أَوْ لِغَارِمٍ أَوْ لِرَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ أَوْ لِرَجُلٍ كَانَ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتُصُدِّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ فَأَهْدَاهَا الْمِسْكِينُ لِلْغَنِيِّ))

[أبو داود عن عطاء بن يسار]

منهم الغازي في سبيل الله.

عدم جواز صرف أموال الزكاة ليحج بها بعض المسلمين :

ولكنَّ الحجّ بهذه المناسبة ليس في سبيل الله فإياكم أن تسيئوا فهم هذه العبارة، أي لا يجوز صرف أموال الزكاة لِيَحُجَّ بها بعض المسلمين، لأنَّ الحجّ فريضة على المستطيع، وغير المستطيع لا حجّ عليه، فلو دُفِعَ لهذا الفقير مبلغ من المال لِيَحُجَّ به فهذا ليس في سبيل الله تعالى.

حدَّثني أخٌ أنَّ رجلاً ميسورًا أقسَمَ لي أنَّه ما ذهب إليه أحد طالبًا مبلغًا من المال، أي لأسرة فقيرة، أو عمليَّة جراحيّة، أو ترميم مسجد، أو تفقّد أسرةٍ على وشك الانهيار، إلا وقال لي: خُذْ المبلغ الذي تريده، ولكن قلْ لي: أَأُسَجِّله من الزكاة أم من الصَّدَقة؟! فَبِناء المسجد مثلاً يكون بأموال الصَّدقات، ولكن قال العلماء: يجوز أن يُبنى المسجد بأموال الزكاة في حالات نادرة؛ ما هي هذه الحالات؟ لو أنَّ بلدةً ليس فيها مسجدٌ والصلاة معطَّلة، وصلاة الجمعة معطَّلة في هذه البلدة لا بدَّ من أن يُنشأ فيها مسجدٌ ولو كانت نفقاته من أموال الزكاة، فأحيانًا تُلقى خطبة فيهْتزُّ لها السامعون فلعلَّ بعضهم يتوب، ويُقْلع عن هذا الذَّنب، ويندفع إلى العمل الصالح، فلا بدّ من عمل صالح.

قلتُ لأحدهم قبل يومين: الإنسان كالبطاريَّة، تحتاج من حينٍ لآخر إلى شَحن فإذا كان الشَّحن منظَّماً في كلّ أسبوع، هذا يكون دائمًا بِحالة جيّدة، أما إذا كان الشَّحن متقّطعاً أو غير منتظم أو منعدماً يكون الإنسان بحاجة ماسّة إلى شحنات، فإذا ترك الإنسان الجمعة ثلاث مرات من غير عذر نكَتَتْ نكتة سوداء في قلبه، ثمّ يكون الران، فالمؤمن متميّز، قال أحدهم: كثير من المشايخ لا يرضون الناس، وهذا الشخص طبيب ومعه بورد، فقلتُ له: كم سنة درسْت حتى أخذت هذه الشهادة؟ فقال: سنوات وسنوات، ومظهرك لباس أبيض وواضِع نظارات، فلو

جاء أُمِّيٌ وتشبَّه بك، هل يصبحُ طبيبًا؟! الطبّ عِلْم، وكذا المَشْيَخة ليست زيّاً ولكن عِلم وعمل، فالشيخ لا بدّ أن يكون له قلب يسَع الناس، ويحتمل الأذى، ويعطف عليهم، وقلب لا يسأل لنفسه أبدًا، فالدعوة إلى الله علم وقلب، فالعلم وحده لا يكفي، فقد يغترّ الإنسان بعلمه، ويستغني عن الله تعالى والحديث الشريف يقول: "خفت عليكم ما هو أكبر من الذنب العجب" لذا أحد العارفين يقول: "ربّ معصيّة أوْرثت ذلاً وافتقارًا خير من طاعة أورثت عِزًّاً واستكبارًا"، ففي سبيل الله إذًا أيْ في سبيل الوصول إلى الله عز وجل.

أهم ما ينفق في سبيل الله :

في بعض التفاسير: يزيد الصرف من هذا السَّهم على تأمين طرق الحجّ لا يجوز أن تُدْفعَ الزكاة لِفقير يحجّ بهذا المال، ولكن تأمين طرق الحجّ واستراحات على الطريق، وحِراسة على الحجاج، وتأمين المياه على الطريق، وأسباب الأمن للحجاج، فإنشاء المستوصفات على طرق الحج هو في سبيل الله، وإرسال بعثة تُرافق الحجاج، وتقوم بِخِدمات حقيقيَّة من معالجة وإسعاف هو في سبيل الله، وأماكن الاستراحة هذه كلّها في سبيل الله، ويجوز أخذها من مال الزكاة.

وفي سبيل الله تعني كلّ المصالح الشرعيَّة العامة التي تتعلق بأمر الدين، فلو فرضنا أنشأنا مرصداً لِرَصد القمر فرضًا، هذا في سبيل الله، من أجل ضبط التوقيت، فأيّ شيء يُعينُ على إقامة الشعائر من صلاة وصيام وحج وزكاة هو من باب سبيل الله.

وأولاها الاستعداد للحرب لِنَشر الإسلام، ونشر الحق في الآفاق، وتعميم الفضيلة، وتنوير العقول، وتحرير الأذهان من الوثنيّة والشِّرك، هذا كلّه في سبيل الله، وأعدى أعداء الإنسان الجهل، فشَعب الهند يعبدون البقر، ويضعون في غرف البيوت روث البقر تبرّكًا به، والشعب في فقْر مدقع، حدَّثني رجلٌ زار الهند فقال لي: يضعون فواكه لإلههم بوذا كمِّيات منقطعة النظير، ويظنون أنّه يأكلها ليلاً، ولكنّ الكهنة هم الذين يأكلونها! لذا الحمد لله على دين الإسلام، ومن لا عقل له لا دين له، ومن لا دين له لا عقل له، قال لي أحدهم شاهد عيان دخل إلى مطعم بآسيا الشرقيّة فإذا بهم يأكلون القرْد!! وبعض الشعوب تأكل لحم الكلاب! وهناك نقطة دقيقة جدًّاً وهي أنَّ الإسلام منَعَ العقل من إحداث تغيير أو تبديل أو إضافة في شأني العقيدة والعبادات، ولكن أمرهُ أن يبْحث عن سرّ العبادات، أما أن تبحث عمَّا يروق لك فهذا ليس من الدِّين، ولو حكَّمنا العقل في الدِّين لأُلْغِيَت الزكاة، والصلاة، فالعقل ليس مسموحًا له أن يضيف أو يبدّل في العقيدة والعبادات، فالأصول لا مجال للعقل أن يحدث فيها، وهو

ما قاله علماء الأصول.

ومن أهمّ ما يُنفقُ في سبيل الله إعداد الدُّعاة إلى الإسلام، وإرسالهم إلى بلاد الكفار مِن قِبَل جمعيَّات منظَّمة تُمِدُّهم بالمال الكافي، كما يفعل الكفار في نشر دينهم، ويدخل في هذه النفقة المدارس، وتعليم العلوم الشرعيّة وغيرها ممَّا تقوم به مصلحة المسلمين، ويُعْطَى مُعَلِّمو هذه المدارس الذين ينقطعون عن الكسب من أجل التدريس، ولا يعطى العالم الغني، فالتعليم في سبيل الله تعالى.

المسافر المنقطع عن بلده يُعطى من الصَّدق:

ابنُ السَّبيل هو الباب الثامن من أبواب الزكاة، اتَّفق العلماء على أنَّ المسافر المنقطع عن بلده يُعطى من مال الصدقة، فأحيانًا يكون المسافر غنيّاً، وله شأن، وله قيمته، ولكنَّه فقدَ محفظة نقوده، حدَّثني أخ أنَّه في مطار لندن يستعمل بعضهم طرقاً خبيثة لاغتصاب أموال الناس، فَحُسن الظنّ بالغرب أحد أنواع الغباء، فلا شكّ أنَّ هناك اختلافاً بيننا وبينهم ولكن لا ينبغي أن تنزِّههم كُليّاً عن السرقة والجريمة، ففي أمريكا تُرْتَكَبُ في كلّ ثلاثين ثانية جريمة سرقة أو قتل أو اغْتِصاب، فابن السبيل هو المسافر المنقطع عن بلده يُعطى من الصَّدقة ما يستعين به على تحقيق مقصده، فإن كانت لك نيَّة في دفع ثمن التذكرة لطالب فَخُذْه وادْفع عنه التذكرة هذا إن كان صادقاً، أما إن كان كاذبًا فقد يرفض الذهاب معك.

اشترط بعض العلماء أن يكون هذا السفر في طاعة، أو في غير معْصيَة ففي بعض بلاد النَّفط تعوّد أهلها أن يقضوا آخر الأسبوع في لندن في سهرات ساخطة، هذا إن سُرِقَ ماله هناك، فلا حقّ لإعطاء أمثال هؤلاء من مال الزكاة، لأنّ هذه السَّفرة في سبيل الشيطان، وأما في السفر المباح فقد اختلفوا، وابن السبيل عند الشافعيّة قسمان: من يُنشىءُ سفرًا من بلدٍ مقيم به، ولو كان وطنه، فلو أنّ واحدًا جاءتهُ برقيَّة أنَّ ابنه في مستشفى، ولا تسمح حالته بالذهاب، حُمِلت هذه الحالة على أنَّها من حالات ابن السبيل، فلو كنتَ مقيمًا في دمشق، واضْطررتَ أن تذهب إلى بلد لِتَرعى ابنك المصاب بِحادِث، ولا تملك ثمن التذكرة، يمكن أن يكون هذا السفر الذي أُنشأ من بلد الإقامة تحت عنوان ابن السبيل.

أو غريبٍ مسافر يجتاز بلاد المسلمين، هذا كذلك ابن السبيل، وكلاهما له الحق في الأخذ من الزكاة، ولو وجدَ من يقرضُه كِفايتَهُ، له الحق أن يأخذ من مال الزكاة ما يوصلهُ إلى بلده.

أما عند الإمام مالك والإمام أحمد رحمهما الله تعالى ابن السبيل هو المستحقّ للزكاة ويختصّ بالمجتاز دون المنشئ، أما الذي ينطلق من بلده فهذا الفقير، وله باب آخر، ولا يُعْطى من الزكاة من إذا وَجَد مقرضًا يقرضُهُ، وكان له من المال ببلَدِهِ ما يفي بِقَرْضِهِ، فهذا رأي الإمام مالك وأحمد على عدم جواز من وجد من يقرضه أن يأخذ من مال الزكاة.

اختلاف الفقهاء في توزيع الصدقة على المستحقّين :

سؤال دقيق الآن: توزيع الزكاة على المستحقّين كلّهم أم بعضهم؟ الأصناف الثماني المستحِقُّون في الزكاة المذكورون في الآية:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة : 60]

وقد اختلف الفقهاء في توزيع الصدقة عليهم، فقال الشافعي وأصحابه: إن كان مُفَرّق الزكاة هو المالك أو وكيلهُ سقطَ نصيب العامل، ووجب صرفها إلى الأصناف السبع الباقين إن وُجدوا، و إلا فللموجود منهم، ولا يجوز ترْك صِنفٍ منهم.

لكنَّ أحد العلماء قيَّد هذا الرأي بأن يكون المال كثيرًا، يحتمِل الأجزاء كلَّها فلو فرضنا أنّ الدولة جمعت الزكاة، ومعها حوالي ثلاثمئة مليون، ممكن أن توزّع هذه الأموال على كل الأصناف لأنَّه يسعهم، أما إن كان قليلاً فجاز أن يودَعَ في صِنفٍ واحدٍ، كان تُدفع الزكاة للتعليم الشرعي، والإنفاق على طلبة العلم، فالإنفاق عليهم في سبيل الله، وقال الإمام مالك: تفريقها أولى ويجتهد ويتحرَّى موضع الحاجة منهم، ويُقدَّم الأولى فالأولى.
وقال الأحناف: الإنسان مخيَّر أن يضعها في أيّ صنفٍ شاء، وهذا مرويّ عن حذيفة بن اليمان وابن عباس وعطاء، لو كان أحدهم معه عشرة آلاف، وله قريب ينام أولاده وبناته في غرفةٍ واحدة، وفي سنّ الشباب، فهذا شيءٌ مزعِج ومخالف للشَّرع، فدَفَعَ زكاة ماله لإنشاء غرفة إضافِيَّة لِيُفرّق بها بينهم، فهذا العمل أولى، وهي لِشَخصٍ واحدٍ.

وسوف نأخذ في درسٍ قادم إن شاء الله تعالى من تحرم عليهم الصدقة وهم الكفرة والملاحدة، وبنو هاشم، لماذا بنو هاشم؟ لأنَّ الصَّدَقة لا تحلّ لا إلى النبي عليه الصلاة والسلام ولا لأهل بيته، كما أنَّها لا تحل للآباء والأبناء، ولا للزوجة، لأنَّ هذا احتيال على الشرع وسوف نفصِّل هذا في درسٍ قادم.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 10 : من هم أولى بالزكاة ....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتباعه وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

استحباب إعطاء الزكاة للصالحين :

أيها الأخوة المؤمنون، لازلنا في موضوع الزكاة، وربما ينتهي معنا في هذا الدرس استِحباب إعطاء الصَّدَقة أي الزكاة للصالحين.

حينما يُعطى غير الصالح المال ينفق هذا المال في غير الوجه الذي أمر الله به، أيْ إذا كان الفقير مُحتاجًا إلى هذا المال مرَّة، فالفقير المؤمن مُحتاج إلى هذا المال مئة مرَّة! فالفقير المؤمن مستقيم، وعنده حياء وعِزّة وكرامة، هذا ينفق المال في القربة من الله تعالى ، ينفق المال على عياله، فأن تبحث على الفقير فقط هذا ليس من الصَّلاح في شيء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِ وَمَثَلُ الْإِيمَانِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي آخِيَّتِهِ، يَجُولُ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى آخِيَّتِهِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَسْهُو ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى الْإِيمَانِ، فَأَطْعِمُوا طَعَامَكُمُ الْأَتْقِيَاءَ، وَأَوْلُوا مَعْرُوفَكُمُ الْمُؤْمِنِينَ))

[أحمد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

وإذا أحبَّ الله عبدًا جعل صنائعه في أهل الحِفاظ، فأحيانًا تلتقي مع إنسان تشعر أنَّه متألّم ألمًا لا حدود له، والسَّبب أنَّه قدّم خِدمة كبيرة لإنسان وكان هذا الإنسان لا يستحقّها، وكفر بها، وجحد هذا الفضْل، وتنكَّر له، فإذا أحبَّ الله عبدًا جعل صنائعه في أهل الحِفاظ، فهؤلاء الذين لا ينْسَون المعروف، وعلامة المؤمن أنَّه إذا فعل معروفًا لا يذكرُهُ أبدًا، وكلَّما ارتقى إيمانهُ لا يذكرُ ولا مرَّةً واحدة هذا المعروف، وعلامة المؤمن أيضًا أنَّه إذا فُعِل معه معروف لا ينساه أبدًا ما كان على قيْد الحياة، فإذا قال لك أحدهم: لك فضل عليّ، ولا أنساه لك، فهذه علامة إيمانه، وإذا أراد أن يُنكرَ هذا الفضْل فهذه علامة الفِسْق والفجور، لذلك الإنسان إذا كان عمله الطيّب وضعه عند المؤمنين فأغلب الظنّ أنَّ هؤلاء المؤمنين تزداد محبَّتهم له، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص،

والمؤمنون بعضهم لبعض نصَحَةٌ مُتَوادُّون، ولو ابتَعَدَت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غَشَشَة متحاسدون، ولو اقتربَتْ منازلهم، أما أن يُلقي الإنسان ماله جزافًا هكذا، وانتهى الأمر، كهذا الحاج الذي يذبحُ الهَديَ ويُلقيه في الطريق، أهكذا أمر الله عز وجل؟! خالق السموات والأرض، وخالق هذه النِّعَم أهكذا أمرَك؟ قال تعالى:

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[سورة الحج: 36]

أمر إلهي واضِح كالشمس.

ما من حكم إلا و له حكمة :

الإنسان عليه أن يبحث عن حِكمة الأحكام، فالأصوليُّون قالوا: ما مِن حكمٍ فقهي إلا ووراءهُ حكمة، فإذا تعطَّلَت الحِكمة تعطَّل الحكم! فالنبي عليه الصلاة والسلام أوقفَ حدَّ قطع اليد في غَزْو، والله عز وجل يقول في القرآن الكريم:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة المائدة: 38]

أمر صريح وواضح، ويأتي النبي عليه الصلاة والسلام فيُعَطِّل هذا الأمر في الغَزْو ما حِكمة ذلك؟! لأنَّ هذا الذي يسرق في الحرب لو أردتَ أن تقطَعَ يدهُ ينضمّ إلى صفّ الأعداء فَوْرًا حتَّى ينْجُو من قطْع اليد فإذا انضمّ إلى صفِّهم نقل أخبار الطَّرف الثاني، فكان قَطْعُ اليد في الحرب وبالاً على المسلمين، فالنبي عليه الصلاة والسلام لِما أراه الله من حِكمة قَطع اليد رأى أنَّ هذا الحدّ لا يُطبق أثناء الحرب، فهو في السِّلم حياة قال تعالى:

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[سورة البقرة: 179]

لكنّ قطع اليد في أثناء الغزو يعود على المسلمين بالضَّرر، فما من حكم إلا وله حكمة، هكذا تشتري الهَدي بأربعة آلاف ليرة، وتذبحها في الطريق، ثمّ ترميها كي تملأ الجوّ بريحها النَّتِن! أهذا هو الدِّين؟! قال تعالى:

﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾

[سورة الحج: 36]

على المزكي أن يجتهد قبل أن يعطي زكاته :

عنوان فصلنا استِحباب إعطاء الصَّدَقة أي الزكاة للصالحين، فحينما لا يبقى صالح محتاج أعْطِ غير الصالحين، أما إنسان مؤمن ومستقيم، ويُقيم الشَّرع في بيته، وهو محتاج إلى مبلغ من المال، تتركه وتعطي المال لآخر يمضي سهراته وراء أجهزة اللَّهو، و لا ينضبط بالشّرع، فهذا الذي قاله العلماء: الزكاة تعطى للمسلم إذا كان من أهل السِّهام، وذوي الاستحقاق إلا إذا عُلِم أنّ سيَسْتعين بها على ارتِكاب ما حرَّم الله تعالى: فإنَّه يُمْنعُ منها سدًّا للذَّريعة، فإذا عُلِم أنَّه سينْتَفِعُ بها فإنَّه يُعطى منها، وإن لم تعرف المحسنين فاسأل الذين يعرفون، فاجْتهِد قبل أن تعطيّ هذا المال أن يكون لِمَن يسْتَحِقَّه، ولك الأجر الكامل، أما لم تجتهد فليس لك شيء!

على المزكي أن يخصّ بزكاته أهل الصلاح و العلم :

وينبغي أن يخصّ المزكِّي بِزَكاته أهل الصَّلاح، والعلم، وأرباب المروءة، قال ابن تيميَّة: فمن لم يُصَلِّ من أهل الحاجات لم يُعْط شيئًا حتى يتوب ويلْتزِمَ أداء الصَّلاة! بين الرجل والكفر ترك الصلاة، من تركها فقد كفر جهارًا، كحال الذي يُدَخِّن، ويُدَخِّن ماركة مشهورة، تعطيه مالك الذي حصَّلْتَهُ بِكَدِّك وعرقِ جَبينك لِيَشْتري الدُّخان!! ولِيَشتري ما يؤذيه ويؤذي غيره!! هذا رأي ابن تَيْمِيَّة رحمه الله تعالى، وهذا حقّ، فإنَّ ترك الصَّلاة إثم كبير، ولا يصحّ أن يُعانى مُقْترفها حتى يُحْدِث لله تعالى توبةً، ويُلْحقُ بتارِك الصلاة العابِثُون والمستهترون الذي لا يتورَّعون عن منكر ولا ينتهون عن الغيبة، والذين فسَدَت ضمائرهم، وانطمست فطرهم، وتعطَّلت حاسَّة الخير فيهم، فهؤلاء حالهم الاستهزاء بالدِّين، وعدم المبالاة به، ومفرِّط، هذا الصِّنف لا يُعْطَون من الزكاة إلا إذا كان العطاء قِياسًا على المؤلَّفة قلوبهم، أو أنَّ هذا العطاء يُوَجِّهُهم الوِجهة الصالحة، ويُعينهم على صلاح أنفسهم بإيقاظ باعث الخير، إلا إن غلَبَ على ظنّك أنَّ هذا المقصِّر في الدِّين إذا أعْطَيتَهُ جلبْتَهُ، وألَّفْت قلبه، وحملتَهُ على التَّوبة فإذا غلب على ظنّك ذلك فأعطِه، فإنَّ إعطاءك إيّاه ينضوي تحت المؤلَّفة قلوبهم.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه عطَّل هذا السَّهم، حينما رأى أنَّ هؤلاء المؤلَّفة قلوبهم انتهى دوْرهم، كانوا عندما كان الإسلام ضعيفًا، فلما استغنى الإسلام وأصبح دولة قويَّة استغنى عن هؤلاء، فإذا ضعف الإسلام وأصبح أعداء الدِّين هم الأغنياء، وصار بإمكانهم أن يجلبوا الناس بالمال كأنّ سهم المؤلّفة قلوبهم في مثل هذه الحالة ينبغي أن يعود اسْتِجلابًا لقلبه.

جواز دفع الزوجة زكاة مالها لزوجها إن كان فقيراً :

إذا كان للزّوجة مال تَجِبُ فيه الزكاة فلها أن تُعطيَ زوجها المستحقّ للمال من زكاتها لأنَّه لا يجبُ عليها الإنفاق عليه، وثوابها في إعطائه أفضل من ثوابها إذا أعطت الأجنبي لأنَّه أقرب الناس إليها، فلو ورِثَت الزوجة من أبيها ثلاثمئة ألف ليرة، فهذا عليه زكاة، وزوجها موظّف ودخله محدود، فأعْطَت هذا المبلغ لِزَوجها، هذه أجرها مُضاعف.

((عن أبي سعيد الخدري رَضِي اللَّه عَنْه خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَضْحًى أَوْ فِطْرٍ إِلَى الْمُصَلَّى ثُمَّ انْصَرَفَ فَوَعَظَ النَّاسَ وَأَمَرَهُمْ بِالصَّدَقَةِ فَقَالَ أَيُّهَا النَّاسُ تَصَدَّقُوا فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي رَأَيْتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ فَقُلْنَ وَبِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ ثُمَّ انْصَرَفَ فَلَمَّا صَارَ إِلَى مَنْزِلِهِ: جَاءَتْ زَيْنَبُ امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ تَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ زَيْنَبُ فَقَالَ أَيُّ الزَّيَانِبِ فَقِيلَ امْرَأَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ نَعَمْ ائْذَنُوا لَهَا فَأُذِنَ لَهَا قَالَتْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّكَ أَمَرْتَ الْيَوْمَ بِالصَّدَقَةِ وَكَانَ عِنْدِي حُلِيٌّ لِي فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَصَدَّقَ بِهِ فَزَعَمَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَنَّهُ وَوَلَدَهُ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتُ بِهِ عَلَيْهِمْ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ ابْنُ مَسْعُودٍ زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ بِهِ عَلَيْهِمْ))

[البخاري عن أبي سعيد الخدري رَضِي اللَّه عَنْه]

هناك بعض النِّساء من معهنّ مال، وعليه زكاة، وترى رأي العَين زوجها في المِقلاة، ولا تُبالي، فهذه الزَّوجة ليْسَتْ وَفيَّة، والإمام مالك له رأي بهذا الموضوع فإذا كان الزَّوج يستعين بما أخذهُ منها على نفقتها فلا يجوز، فلو استحقّت سواراً من ذهب، فلم يستطع أن يشتريها لها، فدَفَعَتْ له زكاة مالها كي يشتري لها هذا السوار فهذا احْتِيال على الشّرع، أما إذا أنفقهُ على أولاده، ولِتأمين غرفة إضافيّة للأولاد، ولِفَصْل الذُّكور على الإناث فعندها يجوز.

أبو حنيفة رحمه الله له رأي ثان، أنها لا يجوز لها أن تدفع له من زكاتها وإنّ حديث زينب وردَ في صدقة التطوّع، لذا اختلاف أمَّتي رحمة.

جواز دفع الزكاة للأقارب :

أما سائر الأقارب كالأخوة والأخوات والأعمام والأخوال والخالات فإنَّه يجوز دَفعُ الزكاة إليهم إن كانوا مُسْتحقِّين في قول أكثر أهل العلم، لِقَول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ))

[النسائي عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ]

قبل أن تُعطي مالك للآخرين انظر في أقاربك من الأخوال والأعمام وأبناء الأخ أو الأعمام، فقبل أن تُعطي الغريب أعْطِ القريب، فهذا الذي يخجل أن يسأل وتعرف أنت حاله فالذي يتفقَّد أقاربه وأحوالهم ومعيشتهم وأمراضهم وأفراحهم؛ صلة الرَّحِم أمر إلهي، وسنَّة نبَوِيَّة.

إعطاء زكاة العلم لطلبة العلم دون العبّاد :

قال الإمام النَّووي رحمه الله: لو قَدَر إعطاء طلبة العلم من الزكاة دون العُبَّاد، العابد المعتكف في المسجد للعبادة والصلاة، فهذا لا ينبغي أن يُعطى من الزكاة، ورضي الله عن إمامنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان جريئًا، فقد رأى رجلاً يقرأ القرآن في النهار فقال رضي الله عنه: إنَّما أُنزل هذا القرآن لِيُعْمَلَ به أفاتَّخَذْتَ قراءته عملاً؟! إنّ لله عملاً بالليل لا يقبلهُ بالنَّهار، وإنَّ لله عملاً بالنَّهار لا يقبله إلا بالليل، أنت شاب ولك زوجة وأولاد وهم جِياع، ماذا تعمل في المسجد؟ أنت عابد والعابد لا يستحقّ من أموال الزكاة! ولكنَّ طالب العلم يُحصِّل العلم من أجل تعليمه، فهذا إنسانٌ مُنْتِج، فكَلِمَةٌ من العالم تنقذ أمَّة، ومن أحياها فكأنَّما أحيا الناس جميعًا، لذلك يُعطَى طالب العلم من أموال الزكاة دون العُبّاد! فطلبة المدارس الشرعيَّة، وكليَّات الشريعة في الجامعة، الذين جاؤوا من بلاد أخرى، يتعلَّمون الشريعة الإسلاميَّة لِيَعودوا إلى أقوامهم مُبلِّغين ومنذرين، هؤلاء يستحقُّون من أموال الزكاة، وهو حقُّهم، وكذا الذي يتفرَّغ لِطَلَب العلم من دون مدرسة شرعيّة، فهذا جلس لِيَعرف الله عز وجل، ويُرْوى أنَّ الإمام أبا حنيفة قال: "سَمِعتُ حديثًا عن النبي عليه الصلاة والسلام وأنا في الحج، وهذا الحديث يقول: من طلب العلم تكفَّل الله له برِزْقه!" أنا أفهم هذا الحديث فهمًا خاصًا، فليس المعنى أن يدرس الإنسان الشريعة، أو يلازم مجالس العلم، ثمّ ينتظر الباب كي تأتيه النقود، ليس هذا هو المعنى، ولكنّ المعنى أنَّه من طلب العلم يسّر الله له عملاً، فَتَجِد أنَّ وقته قليل، ودخله كثير، لأنّه ابْتغوا الحوائج بِعِزَّة الأنفس، فإنَّ الأمور تجري بالمقادير، ولا ينبغي للمؤمن أن يذِلّ نفسه، فليس معنى الحديث أن يجلس الإنسان بِبَيْتِه، وينتظر كي تأتيه الأموال، ولكنّ

الحديث أن تقوم وتعمل، فالإمام أبو حنيفة تاجر، فالعمل شرف في الإنسان، ولكن هناك أعمالاً مرهِقة، وتستغرق وقتًا طويلاً.

قال الإمام النووي: لو قدر طالب العلم على كسبٍ يليق بِحاله لفعل، إلا أنَّه مشتغل بِبَعض العلوم الشرعيّة، بِحيث لو أقبل على الكسب لانْقطَع عن التَّحصيل، حلَّت له الزكاة، ولأنّ تحصيل العلم فرض كفاية، أليس من العار أنْ يكون الكفار الأجانب بِمُعظم الجامعات طالب العلم يُعطونه عملاً بسيطًا في الجامعة وله أجر كبير؟ إذاً نحن أولى من الأجانب والكفار.

حكم دفع المعسر دينه كزكاة :

الإمام النووي يقول: لو كان على رجلٍ معسِر دينًا فأراد أن يجعله على زكاته وقال: جعلتهُ عن زكاتي فوجهان؛ أصحُّهما أنَّه لا يجزئه، وهو مذهب أحمد وأبي حنيفة، لأنَّ الزكاة في ذِمَّته، والثاني يجزئه، وهذا مذهب الحسن البصري، حدَّثني شخصٌ قال: لنا مع شخص مبلغ بعناه بضاعةً وهذا الشَّخص تُوُفِّي، ترك طفلين صغيرين في السنة العاشرة، ولا يقوَيان على كسب القوت، فسامحناهما بهذا المبلغ، وأسقطناهما من الزكاة وهذا يجوز على رأي بعض الأئمة، فإذا كان هناك دينٌ ثابت، وأنت حينما وضَعتَ هذا الدَّين عن المدين، وكان هذا المدين مستحِقًّاً فلك أن تُسْقط هذا المبلغ من حساب الزكاة، والله سبحانه وتعالى يقبل ذلك إن شاء الله على رأي بعض الأئمة.

هنا نقطة أخرى، إنسان له مع الثاني خمسة آلاف ليرة، ولم يعْطِها له، ومعه مئتا ألف زكاتها خمسة آلاف، فأعطاه خمسة آلاف زكاة، وقال له هذا دَيني، فهذه حيلة شرعيّة، دفع الزكاة بِشَرط أن يردّها إليه عن دينه فلا يصحّ الدَّفع ولا تسقط الزكاة بالاتِّفاق، تبقى الزكاة في ذِمَّته، ولا يُقبل هذا العمل منه.

نقل الزكاة من بلد لآخر :

الأصل أنَّ هذه الزكاة التي جُمِعَت من مال نما في الشام، يجبُ أن تُعْطَى لِفُقراء الشام، فأسواق دمشق نمَّت أموال الناس، زكاة هذه الأموال يجبُ أن ترَدّ إلى فقراء دمشق، لأنّ الذين اشْتروا وباعوا اسْتَهلكوا أسواق دمشق، وجهود أبنائها، فَفُقَراء دمشق أولى من غيرهم، لذا قال العلماء رحمهم الله: أجمع الفقهاء على جواز نقل الزكاة إلى من يستحقّها من بلد إلى آخر بِشَرط أن يستغني أهل البلد المزكَّى عنها، فلو لم يبق في الشام ولا فقير عندئذٍ

يجوز نقل الزكاة إلى فقراء حمص مثلاً، أما أبناؤكم فأولى بِزَكاة أموالكم من الفقراء.

أما إن لم يستغن قوم المزكّي عنها فقد جاءت الأحاديث مصرِّحةً لأنَّ زكاة كلّ بلدٍ تُصرفُ على فقراء أهله، ولا تُنقلُ إلى بلد آخر، لأنَّ المقصود من الزكاة إغناء الفقراء من كلّ بلد، فإذا أُبيحَ نقلها إلى بلد مع وُجود فقراء بها أفضى إلى إبقاء فقراء ذلك البلد محتاجين، ففي حديث معاذ المتقدّم أنَّ عليهم صدقَةً تؤخذ من أغنيائهم وتُردّ على فقرائهم.

وسوف نتابع هذا الموضوع وننْهيه في درس قادم، وقد تمنَّيتُ أن ينتهي ولكنَّه لم ينته.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 11 : الخطأ في مصرف الزكاة ....

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتباعه، وأَرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

الخطأ في مصرف الزكاة :

أيها الأخوة المؤمنون، وصلنا في الفقه وفي موضوع الزكاة إلى الفقرتين الأخيرتين، وهما الخطأ في مصرف الزكاة، وإظهار الصّدَقة.

أولاً: الخطأ في مصرف الزكاة، ملخَّص الموضوع لو أنَّ المسلم أعطى زكاة ماله لِمَن لا يستحقُّها، هل سقطَتْ عنه أم عليه أن يدفعها مرَّةً ثانية؟! هذا الموضوع خلافيّ، أيْ أنَّ للسادة العلماء الأجِلاَّء آراء متداولة فقد تقدَّم الكلام على من تَحِلُّ لهم الصَّدَقة، ومن تحرُمُ عليهم، ثمَّ إنَّه لو أخطأ المُزَكِّي، وأعطى من تحرمُ عليه، وتركَ من تَحِلُّ له دون عِلْمِهِ، ثمَّ تبيَّن له خطؤُهُ، فهل يجزئه ذلك؟! أم أنّ الزكاة لا تزال دَينًا في ذِمَّتِهِ حتى يضعها موضعها؟ سؤال مهمّ جدَّاً، فلو أخطأت ودفعْتَ الزكاة إلى من لا يستحقّها، فهل سقطَتْ عنك أم تبقى ذِمَّة في رقبتك؟ وهل يجزئك ذلك أم أنّها تبقى واجبة عليك؟ هذا هو السؤال!

اختلفت أنظار الفقهاء في هذه المسألة، فقال أبو حنيفة ومحمد والحسن وأبو عبيدة: يجزئه ما دفعهُ، ولا يُطالب بِدَفع زكاةٍ مرَّة أخرى، فاختلاف أئمةّ المسلمين رحمة واسعة، فلو أنّ أحدهم دفع الزكاة بِشِقّ الأنفس، لو طالبتهُ أن يدفعها مرَّةً ثانية، لأنَّه أخطأ في مصرفها لرفض، وربما ارتدّ، نقول له: الإمام أبو حنيفة يقول: إن أخطأتَ في دَفْع الزكاة إلى من لا يستحقّها سقطَت عنك، وللعلماء عبارة مشهورة: سقط الوُجوب وإن لم يحصل المطلوب.

((عن معن بن يزيد قال: كان أبي أخرج دنانير يتصدّق بها، فوضَعها عند رجل في المسجد، فجئتُ فأخذتها وأتيْتُهُ بها، فقال: والله ما إيَّاك أردتُ فخاصمتُهُ إلى النبي صلى الله عليه وسلّم، فقال: عَن مَعْنَ بْنَ يَزِيدَ رَضِي اللَّه عَنْه حَدَّثَهُ قَالَ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَا وَأَبِي وَجَدِّي وَخَطَبَ عَلَيَّ فَأَنْكَحَنِي وَخَاصَمْتُ إِلَيْهِ

وَكَانَ أَبِي يَزِيدُ أَخْرَجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الْمَسْجِدِ فَجِئْتُ فَأَخَذْتُهَا فَأَتَيْتُهُ بِهَا فَقَالَ وَاللَّهِ مَا إِيَّاكَ أَرَدْتُ فَخَاصَمْتُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَقَالَ لَكَ مَا نَوَيْتَ يَا يَزِيدُ وَلَكَ مَا أَخَذْتَ يَا مَعْنُ))

[البخاري عن معن بن يزيد]

وبعض العلماء وجَّه هذا الحديث على أنّ الاحتمال في أن تكون هذه الصَّدَقة نفلاً، إلا أنَّ لفظ ما في قوله: لك ما أخذْت، ولك ما نوَيْت، قال علماء الأصول: يفيد العموم.

كلّ شيءٍ وقعَ على وجه الأرض أرادهُ الله :

هناك قِصَّة رُوِيت عن أبي هريرة أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام روى قصَّة عن رجل من بني إسرائيل قال رجل من بني إسرائيل لأتصدَّقنّ الليلة بصدقة فخرج بِصَدقته فوضعها في يد سارق فأصبح الناس يتحدَّثون:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ قَالَ: رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ زَانِيَةٍ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدَيْ غَنِيٍّ فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ فَقَالَ اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ وَعَلَى زَانِيَةٍ وَعَلَى غَنِيٍّ فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا أَنْ تَسْتَعِفَّ عَنْ زِنَاهَا، وَأَمَّا الْغَنِيُّ فَلَعَلَّهُ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

تعليقي على هذه القصَّة، أنَّ الخطأ الذي يرتكبهُ الإنسان، عند الإنسان خطأ، ولكن عند الله ليس بِخَطأ، إنّما يوظِّف الخطأ لِحِكمة بالغة، وأنا لا أنسى قِصَّة في هذا الموضوع؛ لي قريبة ليْسَت ملتزمة بالدِّين أخَذَت شهادة وأرادَت أن تتوظَّف بِمُوجبِها، فَطُلِبَ منها شهادة صِحِيَّة، فذَهَبت إلى المستشفى، وصوَّرَت صدرها، وبعد أيَّام جاءَت النتيجة أنَّ هناك مرضًا ساريًا في صدرها، علم أهلها بذلك فابتَعَدوا عنها، وجعلوا لها أدواتٍ خاصَّة، هذه العُزْلة في البيت، وهذا الخوف من الاقتِراب منها، سبَّب لها أزمة نفْسِيَّة، فجعَلَتْ تبكي بكاءً مرًّا، واعْتَزَلت الناس إلى أن صلَّت، ثمَّ تحجَّبَت، ثمّ ظهر أنَّ هناك خطأٌ في النتيجة!! فهي ليْسَت لها، وهي سليمة مُعافاة وليس بها أيّ شيء، فهذا الخطأ الذي ارْتكبهُ الموظَّف لا شكّ أنّه خطأ، ولكنَّ الله سبحانه وتعالى وظَّفهُ لِتَوبتها، ولكي تتوب، فإذا أخطأ الإنسان فالله تعالى لا يخطئ، والذي وقعَ أرداهُ الله قولاً واحدًا، فكلّ شيءٍ وقعَ على وجه الأرض أرادهُ الله، ولا يُعفي هذا أن يُحاسَبَ المخطئ على خطئِه، إياكم أن تخلطوا بين التوحيد وبين الشُّعور بالمسؤوليَّة!

إذا أخطأ إنسان وتسبَّب بِمَوت إنسان آخر يُحاسَب، ويدفع الديّة، هذا موضوع، ولكن بالنِّهاية أنَّ الشيء الذي وقع أراده الله سبحانه وتعالى.

رجلٌ آخر كان بِجَولة سِياحِيَّة وصَل بها إلى أمريكا، شَعَر بآلام بِعَموده الفقري اتّصل بِكِبار الأطباء هناك، فأنبؤوهُ مباشرةً أنَّ بِعَموده الفقري سرطانًا!! خارَتْ قِواه، ولم تقو رِجلاهُ على حَملِهِ، وقَطَع رِحلتَهُ السِّياحِيّة الممتِعة، وعاد إلى بلده لِيُصَلِّي ويصوم ويحضر مجالس العلم، وبعد شَهرين أو ثلاثة أكَّد له الأطباء أنَّ هذا الكلام لا أصل له، وأنَّ هذه الآلام طارئة وقد زالت، لكنّ هذا الكلام الذي أنبؤوه به سبَّبَ توبتهُ، فالذي وقَعَ أراده الله عز وجل قال تعالى:

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾

[سورة الحديد : 22]

فلو لا توجد بالدِّين، وهي تفتحُ عمَلَ الشّيْطان، ولكن قُلْ: قدَّر الله وما شاء فعل فإنَّ كلمة لو تفتحُ عمَلَ الشَّيطان.

الحكمة من التشدد في الخطأ في مصرف الزكاة :

الآن رأيٌ ثان، فالرأي الأوّل هو رأي أبو حنيفة، هل يجوز أن أقول: رأيُ أبو حنيفة أم رأيُ أبي حنيفة؟! هناك من يُجيز ذلك، فأنت لك أن تقول: سورة المؤمنون على الحكاية من دون جرّها، أما الإمام مالك والشافعي وأبو يوسف والثوري وابن المنذر فيذهب هؤلاء جميعًا إلى أنَّه لا يجزئه دفْعُ الزكاة إلى من لا يستحقُّها، أي لا تسقط عنه إلا إذا دُفِعَت إلى من يستحقُّها، فقد يقول لك أحدهم: عليَّ ضريبة، ولكن هذه الضريبة في نهايتها للمدارس أو الطرقات، ويحسِبُ الضريبة من الزكاة، نقول له: لا، هذا لا يجزئ، فالإمام مالك والشافعي وأبو يوسف والثوري وابن المنذر يذهب هؤلاء جميعًا إلى أنَّه لا يجزئه دفْعُ الزكاة إلى من لا يستحقُّها أما إذا تبيَّن له خطؤُهُ، وأنَّ عليه أن يدفعها مرَّةً أخرى إلى أهلها لماذا هذا التَّشدُّد؟ الإمام مالك والشافعي قالوا: لا تسقط عنه إلا إذا دُفِعَت إلى من يستحقّها، فهم اتَّجهوا هذا الاتّجاه من أجل أن يُفكِّر المسلم ألف مرَّة إلى من يدفعُ الزكاة، من أجل أن تذهب إلى من يستحقّها، وشُعور المسلم حينما يدفع الزكاة إلى من يستحقّها شعور لا يعادله شعور، فهو يحسّ بنَشوة وسعادة لا حدود لها، أسرة مستورة مؤمنة مستقيمة تعيش أزمة فجاء هذا المبلغ فحلَّ هذه المشكلة، كأن تُبنى غرفة لِفَصل الذُّكور عن الإناث، وكإجراء عمليَّة جِراحِيَّة، ودُفِعَ قِسط المدرسة من دون إرهاق الأب، فأحيانًا تأتي الصَّدَقة في مكانها الصحيح، لذلك حينما تشدَّد الإمام الشافعي رحمه الله والإمام مالك رحمه الله من أجل أن

نجْتَهِد اجْتِهادًا دقيقًا في دَفْعِ الزكاة إلى من يستحقُّها، ولكنَّك إذا وثَّقت بإنسانٍ، نُقِلَتْ المسؤوليَّة منك إليه، كأن تقول لِمَن تثق فيه: خُذْ هذا المبلغ، وادْفَعْهُ إلى من يستحقّه فأنت بهذا لك براءة ذِمَّة، وأصبح هو مسؤولاً عن الاجتهاد في دفع هذا المبلغ.

الزكاة دين الله :

الإمام الشافعي قاس على موضوع الدَّيْن، فالزكاة دَين الله، فلو أنَّ لك مع إنسان ألف ليرة، ذهبتَ أنت إلى بيته مثلاً، فدققت الباب، خرج إنسان وقلت له: خذْ ألف ليرة و أعطها لفلان؟ هل يمكن هذا؟ لا بدّ أن تتأكّد فقد يكون هذا مستأجر، ويذهب في اليوم نفسه، فقضاءً وقانونًا هل يسقط عنك هذا الدَّين؟ أين توقيعي؟ وأين السَّنَد؟ وأين الشُّهود؟ كيف أنَّ دَين البشر لا يسقط عنك إلا إذا أدَّيتَهُ إلى صاحبه تمامًا، فكذلك دَين الله! فالأصل أن تسأل الدائن: إذا جئتُ ولم أجدك، ماذا أفعل؟! إذا قال لك: أعْطِ المبلغ لِزوجتي، انتهى الأمر، أما إن أكَّد عليك عدم إعطاء المبلغ إلا في يدي فعندها اتَّضَح الأمر.

رأي الإمام أحمد في الخطأ في مصرف الزكاة :

عندنا مذهب وسط، فالإمام أبي حنيفة له رأي، والإمام مالك والشافعي لهما رأي، بقي الإمام أحمد، هذا الإمام يقول: إذا أعطى الزكاة من يظنُّه فقيرًا فبان غنِيًّاً، ففيه روايتان رِوايةٌ بالإجزاء، ورِوايةٌ بعدَمِهِ، فأما إن بان الآخذُ عبدًا، أو كافرًا، أو هاشِمِيًّا، أو ذا قرابةٍ للمعطي مِمَّن لا يجوز الدَّفعُ إليه لم يُجزِئْهُ الدفع إليه، هذا موقف آخر، فيمكن أن يكون الغنى مخفيّاً، وأذكرُ أنَّني دفعت لأحدهم مبلغًا فقيل لي: هذا دخله ثمانية آلاف ليرة، منظرهُ يوحي أنَّه لا يجد ما يأكلهُ، فموضوع الغِنى والفقر لا يعلمهُ إلا الله تعالى، فهناك أشخاص لهم مهارة بالغة في إظهار الفقر، أما المؤمن فَيُظْهِر التَّعَفُّف، ومن علامة الإيمان أنَّك تحْسَبُهُ غنيًّاً، قال تعالى:

﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 273]

من جلس إلى غنيّ فَتَضَعْضَع له ذَهَب ثلثا دينه، ففي موضوع الغنى أو الفقر قال تُجزئهُ، أما في موضوع أنَّه كافر أو عبدٌ أو هاشِمِيّ أو ذا قرابة فقال: لا تجزئهُ، وهذا هو الحلّ الوسط.

إظهار الصدقة :

الموضوع الأخير في الزكاة هو: إظهار الصَّدَقة، يجوز للمُتَصَدِّق أن يُظهر صدقته، سواءٌ أكانت الصَّدقة صدَقَةَ فرضٍ أم نافلةٍ دون أن يُرائي بِصَدقته وإخفاؤُها أفضل، وهذا كلامٌ واضِحٌ كالشَّمس، ولكن لو سألتني: متى ينبغي أن نُخفيَها؟ ومتى ينبغي أن نُظْهرها؟ إذا كانت هذه الصَّدَقة اسْتقرَّتْ بِيَد إنسان وأظهرتها فضَحْتَهُ، أما إذا كانت الصَّدَقة لِمَشروعٍ عام كَبِناءِ مسجدٍ، و أحدهم فكّر بِدفع خمسين، فإذا بالذي أمامه دفع خمسمئة، فَخَجِل ودفع مئتين، ففي هذه الحالات إذا أظهرت الصَّدَقة كنتَ قُدوةً حسنة، وحمَّسْت الآخرين، وشجَّعتهم، أما إن تعلَّقَت الصَّدَقة بإنسان، وذَكَرتها، فقد أبْطَلت أجركَ، فهذه نصيحة لِوَجه الله إنْسَ كلّ عملٍ طيّب فعلتهُ مع الآخرين، وتذكَّر إلى الأبد كلّ عملٍ طيّبٍ عمله الناس معك، أما اللَّئيم فلا يذْكرُ إلا عمله الطَّيّب، ولا يزال يمْتنُّ به على من أعطاهُ إلى أن يكفرُ هذا المُعْطى بالمال، وبهذه النِّعمة، أما أعمال الناس الطَّيّبة إليه فيَنْساها، وكأنَّها لم تكن، قال تعالى:

﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[سورة البقرة: 271]

روى الشيخان – البخاري ومسلم– عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَدْلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه]

هؤلاء السَّبعة يُظِلُّهم الله تحت ظِلِّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه، فهل هناك صِفةٌ من هذه الصفات تنطبق عليك؟ نرجو الله سبحانه وتعالى أن تنطبق علينا ولو صفة أو صفتان أو ثلاث، وإذا كنَّا طموحين فنرجو أن تنطبق علينا هذه الصِّفات السَّبعة.

إلى هنا ينتهي موضوع الزكاة، وقد شُرِح من خلال كتاب فقه السنَّة، وهذا الكتاب فيه ميِّزة، وهي أنَّ فيه الحُكم وتعْليلهُ ومستندُهُ النَّصي، والميّزة الثانية أنَّ فيه وجهات نظر متبايِنة مع ترجيح بعضها على بعض، وأُسلوبهُ واضِحٌ يسير.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 12: الزكاة ...تمهيد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

اقتران الزكاة بالصلاة في مواضع كثيرة بالقرآن الكريم :

أيها الأخوة المؤمنون، قبيل رمضان بأسبوعين تحدثنا عن باب الصوم في كتاب اللباب، ولأن الزكاة كما هي السنة النبوية يجري دفعها في رمضان لذلك اخترت لكم كتاب الزكاة أيضاً من كتاب اللباب، فالزكاة قرنها الله بالصلاة في مواضع كثيرة، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

[سورة الحج : 41]

العلاقة بين دفع المال و تزكية النفس :

ربما اتجه بعض المفسرين إلى توسيع معناها بحيث أن الزكاة أن تكون زكي النفس، أن تتصل بالله، ومن لوازم الاتصال بالله تزكية النفس، ولأن المعنى اللغوي حيث قال الله عز وجل:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة: 103]

فهناك علاقة بين دفع المال وبين تزكية النفس، الذي يدفع المال تزكو نفسه، لماذا؟ لأن دفع المال برهان عملي على صحة الإيمان، الإيمان قبول الحقائق، إذا قبلت أن الشمس أكبر من الأرض ماذا فعلت أنت؟ الآن إذا فكرت في هذه المسلمة في هذه الحقيقة وقلت: صحيح الشمس أكبر من الأرض وفي الحقيقة الشمس أكبر من

الأرض، الإيمان قبول، تصديق إذا صدقت أن لهذا الكون إلهاً عظيماً وهو كذلك، إذا صدقت أن هذا الكون فيه إبداع لا حدود له وهو كذلك، إذا صدقت أن الموت حق وهو كذلك، إذا آمنت ولم تفعل شيئاً ماذا فعلت؟ لم تفعل شيئاً لذلك قال تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[سورة الأنفال : 72]

الإنسان لا يكبر في عين الله إلا إذا أردف القول بالعمل، إلا إذا كانت له مواقف، إلا إذا كان مطبقاً، إلا إذا كان ملتزماً، إلا إذا كان عند عقيدته، عند مبادئه، أما أن يقبل الحقائق وهي حقائق فماذا فعلت إذا قبلت أن الشمس كما قلت قبل قليل أكبر من الأرض وهي كذلك؟

الدين كله اتصال بالخالق وإحسان إلى المخلوق :

قرأت في بعض الأحاديث: "ماذا صنعت من أجلي هل واليت فيّ ولياً؟ هل عاديت في عدواً؟" ألك موقف؟ ألك بذل؟ ألك تضحية؟ لذلك لو أن إنساناً سئل لماذا قرن الله الصلاة مع الزكاة في أكثر من مئتي آية أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة؟ أي كأن دفع المال برهان على صحة الصلاة، إذا كان اتصالك بالله صحيحاً فلابد من أن تبذل، كأن تزكية النفس دليل عملي على صحة الإيمان، المؤمن صادق، المؤمن طاهر، المؤمن مستقيم، المؤمن أمين، المؤمن متواضع، المؤمن دقيق، المؤمن عفو، المؤمن منصف، فإذا كانت لك نفس زكية فهذا دليل أن لك بالله صلة عالية، لذلك فسر بعضهم قوله تعالى:

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

[سورة مريم : 31]

قال: في هذه الآية جمع الدين كله، اتصال بالخالق وإحسان إلى المخلوق هذا هو الدين كله، اتصال بالخالق لا نعلمه نحن هذا بينك وبين الله دليله الإحسان إلى المخلوق، فلو أسأل إلى المخلوق فالاتصال غير صحيح، الاتصال مزعوم، الاتصال مزور، الاتصال شكلي، أجوف، إذا كان هناك إساءة للخلق فهذا هو المقياس.

الإنفاق دليل قطعي على صحة الإيمان :

لذلك عندما قال تعالى:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 133]

المتقون لهم آلاف الصفات، ربنا سبحانه وتعالى اختار من كل هذه الصفات الذين ينفقون في السراء والضراء، الإنفاق دليل قطعي على صحة الإيمان، الإنفاق بذل، الإنفاق يتعارض مع متطلبات الجسد، يمكن الإنسان يشتهي أن يتزوج الزواج سنة، أنت إذا أقدمت على الزواج فعلاً سنة وطاعة، ولكن هذه الطاعة توافقت مع حاجات الجسد، أخي العمرة طبعاً إذا سافرت في الطائرة ولك أناس استقبلوك ورحبوا بك وأكرموك وكنت في بحبوحة وابتعدت عن هموم البلد طبعاً العمرة واجب، قال تعالى:

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ ﴾

[سورة البقرة: 196]

لكن توافقت مع حاجات الجسد، أما الزكاة فدفع المال يتعارض مع رغباتك، الخمسمئة هذه تحل معك مشكلة، دفعتها في سبيل الله، أنت عاكست رغباتك، لذلك الزكاة قرنها الله مع الصلاة، مئتان وعشرون مرة قرنها الله مع الصلاة، أي علامة صحة الصلاة، إذا أردت أن تأخذ معناها الواسع تزكية النفس، في المعنى اللغوي زكاة النفس أي طهارتها، ومعناها الشرعي دفعها للمخصوص.

على كلّ القضية ليست خلافية دفع المال يسبب إقبالك على الله عز وجل، فإذا أقبلت عليه ذكرته، القضية محلولة، إذا بذلت أقبلت، وإذا أقبلت زكوت، إذاً علامة إقامة الصلاة دفع الزكاة، لذلك جاء ترتيبها في كتاب: "اللباب بعد الصلاة" اقتداءً بكلام الله عز وجل:

﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ ﴾

[سورة الحج: 41]

قرنها المؤلف بالصلاة اقتداءً بالقرآن الكريم والأحاديث الشريفة الواردة عن النبي ﷺ.

الزكاة لغةً و شرعاً :

الزكاة لغةً الطهارة والنماء، زكى الزرع أي نمى، زكى الإنسان أي طهره، صار زكي النفس، طبعاً إذا قلت: فلان ذكي العقل بالذال فهذه صفة عقلية ومنها الذكاء، أما إذا قلت: زكي النفس بالزاي تعني الطهارة، فنحن درسنا عن الزكاة، أما الذكاء أي الفطنة هذا موضوع آخر يتصل بالعلم.

الزكاة لغةً الطهارة والنماء، وشرعاً تمليك جزء مخصوص من مال مخصوص لشخص مخصوص لله تعالى، ليس كل مال تؤخذ منه الزكاة، وليس كل مال تدفع عنه الزكاة، وليس كل شخص يستحق الزكاة، جزء مخصوص معين من مال مخصوص لشخص مخصوص لله تعالى، من هنا استنبط بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى إذا قال:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾

[سورة المعارج:24]

الحق المعلوم أي حق محسوب، إذا إنسان عنده محل تجاري يقول لك: أنا لا يوجد عندي وقت لأجرد المحل، هذا المحل فيه بمئتي ألف لا بل بثلاثمئة، إذا إنسان معلوماته الفقهية محدودة يقول له: جزاك الله خيراً هل زكاته مقبولة؟ لا ليس مقبولة يجب أن يجرد، ما الجواب؟ الجواب أن بالألف تاجر إذا وجد تاجر قدر زيادة سيكون هناك تجار يقدرون أقل، لا يوجد مئة ألف ويكون نصف مليون لذلك قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾

[سورة المعارج:24]

أي مجرود، محسوب بدقة، البضاعة، الصندوق، السندات، ديون مستحقة، ديون ميتة، من إلى ذمم، يكون المبلغ ضرب اثنين ونصف بالمئة، ربنا عز وجل قال:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾

[سورة المعارج:24]

يوجد آيات أخرى قال تعالى:

﴿ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة المعارج:24]

ولم يقل معلوم أي إذا إنسان دفع زكاة ماله كاملةً وله جار مؤمن أصيب بحادث فاضطر إلى عملية جراحية طرق باب أخيه فقال له: أنا دافع، هذا كلام مرفوض، قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ أَنَّهَا سَمِعَتْهُ تَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْسَ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ))

[الترمذي عن عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ]

يجب أن تدفع من باب الصدقة معونةً لهذا الأخ الكريم المصاب، فأنت مؤمن والأوسع من ذلك كما قال بعض العارفين قال له: يا سيدي كم الزكاة؟ قال له: عندنا أم عندكم؟ قال: ما عندنا وما عندكم؟ قال له: عندكم واحد بالأربعين، أما عندنا فالعبد وماله لسيده، هؤلاء:

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾

[سورة الواقعة : 10-11]

لا يوجد عنده ساعة له وساعة لربه؟ هذا له، كل ماله وكله، وكل طاقته، وكل وقته ونشاطه لله عز وجل:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

[سورة التوبة: 111]

إنسان باع بيته وقبض ثمنه كاملاً، أخي هذه الغرفة ماذا ستفعل بها؟ انتهيت، طالما بعت بعت، فالمؤمن باع نفسه لله تعالى، وربنا عز وجل طمأننا قال:

﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

[سورة التوبة: 111]

لا تندموا على البيعة ربحتم علينا، فالزكاة لغةً الطهارة والنماء وشرعاً تمليك جزء مخصوص من مال مخصوص لشخص مخصوص لله تعالى.

على من تجب الزكاة ؟

أحياناً إنسان يكلفونه بضريبة فيقول: حسبناها من الزكاة، ما دخل الزكاة بالضريبة؟ هذه مقابل خدمات تؤدى للطرقات، والمستشفيات، والمدارس، أما هنا فحق الله، أما تلك فحق الأمير، أما الزكاة فحق الله وهي واجبة وجوباً قطعياً، ليست قضية الزكاة قضية خلافية بل قضية قطعية الثبوت وهي واجبة والمراد بالوجوب الفرض. أي هي فرض فلا شبهة فيه، على الحر فلا تجب على العبد لأن العبد ماله لسيده ليس له مال يستقل به، على الحر المسلم، لا تجب على أهل الذمة تجب عليهم الجزية، البالغ لا تجب على الصغير، العاقل لا تجب على المجنون، إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب، إذا ملك نصاباً، فارغاً عن دين له، لو تخيلنا النصاب ثلاثين ألفاً معه في البيت ثلاثين ألفاً وعليه دين يقدر بستين ألفاً، هذا النصاب ليس فارغاً بل مشغول بالدين، كثير من الأخوان يسألوني: يوجد معه مال واشترى بيتاً، طالما وقع عقد شراء بيت، والبيت محدد ما انتهى، ولكن محدد في الطابق السادس في الجهة الشمالية أو الجنوبية بسعر كذا، مدفوع من قيمته كذا، وعليه مئتا ألف، وفي البيت مئة ألف، يا ترى هذا المبلغ هل عليه زكاة؟ لا، لأن هذا المبلغ مشغول بالدين فارغاً عن دين له مطالبٌ فيه وعن حاجته الأصلية، الإنسان له حاجة أصلية يحتاج إلى مأوى، فالمأوى لا زكاة عليه يحتاج إلى أثاث في البيت، سجاد وكراسي، وأسرة، وثريات وما شاكل ذلك، ومحله التجاري أيضاً ليس عليه زكاة، وأدوات الصناعة ليس عليها زكاة، ومركبته ليس عليها زكاة، إلا إذا اشترى محلاً ثانياً لينتفع به، هذا صار مال نام، عندك سيارة واشتريت سيارة ثانية لتنتفع منها هذه عليها زكاة، لأنه أصبح مال نام، أي المستهلكات ليس عليها زكاة، البيت مستهلك، الأثاث مستهلك، الدكان، المعمل، الآلات، المركبة، جميع المستهلكات ليس عليها زكاة، المال النامي أو أي مستهلك يقصد به النماء، اشتريت بيتاً على الهيكل وأنت عندك بيت النية فقط أن تنتفع بربحه هذا عليه زكاة، أي شيء أقتنيه بقصد النماء فهو مال وعليه زكاة، أما أي شيء أقتنيه بقصد الاستهلاك فهو حاجة أساسية ليس عليها زكاة.

فارغاً عن دين له مطالب فيه وعن حاجته الأصلية ملكاً تاماً، وحال عليه الحول موضوع أنه نام، أخذت بيتاً بثمانية عشر ألفاً في الستينات، والآن ثمنه ثلاثة ملايين، هذا مال نما، ولو أنه نام لكنه مستهلك، هل لك بيت ثان؟ لو صار ثمنه خمسين مليوناً ساكن به، فلذلك ليس عليه زكاة، إذاً ليس على الصبي ولا المجنون زكاة لأنهما غير مخاطبين بأداء العبادة كالصلاة والصوم، ولا المكاتب – العبد – عليه زكاة لعدم الملك التام، ومن كان عليه دين يحيط بماله أو يبقى منه دون النصاب فلا زكاة عليه، الذي عليه دين يستغرق ماله كله، أو

يستغرق جزءاً من ماله والباقي دون النصاب فلا زكاة عليه، قال: لأنه مشغول بحاجته الأصلية وهي وفاء الدين، فاعتبر معدوماً كالماء الذي لا يوجب الوضوء الذي أعدّ للشرب، إنسان مسافر معه ماء للشرب نقول له: تيمم ويوجد ماء للشرب، هذا الماء للشرب بحكم المعدم.

وإذا كان ماله أكثر من الدين زكى عن الفضل – مثلاً عليه خمسون ألفاً ومعه تسعون ألفاً طرحنا الخمسين من التسعين بقي أربعون، الأربعون عليها زكاة، يعمل تفاضلاً، إذا بلغ نصاباً لفراغه عن الحاجة وليس في دور السكنى، وثياب البدن، وأثاث المنزل، ودواب الركوب، وعبيد الخدمة، وسلاح الاستعمال زكاة لأنها مشغولة بالحاجة الأصلية وليست بنامية أصلاً، وعلى هذا كتب العلم المكتبة لو سعرها مئة ألف لأهلها أما لغير أهلها فعليها زكاة، هذا الكتاب مفقود خذ عشر نسخ وبعها بالضعف، لا علاقة لك بالعلم، رأيته يرتفع ثمنه اقتنيت عشر نسخ أما كتاب معد للقراءة فليس عليه زكاة، وآلات المحترفين، أدوات الصناعة، أدوات النجار، الحداد، كل مصلحة لها أدوات، هذه الأدوات أعدت للاستهلاك ليس عليها زكاة.

عدم أداء الزكاة إلا بنية مقارنة للأداء :

لا يجوز أداء الزكاة إلا بنية مقارنة للأداء، رجل مثلاً طرق بابه إنسان شكا له حالته، فدفع له مبلغاً من المال بعد يومين قال: هذا المال دفعته سوف أحسبه للزكاة، لا يجوز أنت حينما دفعت هذا المال دفعته صدقةً، بعد أسبوع تريد أن تحوله زكاة هذا لا يجوز، الزكاة لا تصح إلا إذا قارنتها نية، أما كل شيء دفعته سابقاً حولته إلى زكاة، الزكاة فقدت شرطاً أساسياً من شروطها وهي النية، ولا يجوز أداء الزكاة إلا بنية قارنة للأداء ولو حكماً، إلا في حالة واحدة إذا دفع بلا نية، فلما أصبح المال بيد الفقير نوى أن تكون زكاةً، إذا دفع بنية الصدقة لا يجوز أن يغير، ولكن دفع ولم يفكر بشيء وبعد أن أعطاها للفقير قال: هذه من الزكاة يجوز ذلك، أو نوى عند الدفع للوكيل، عنده وكيل أعمال قال له: هذا المبلغ زكاة ممكن أن يدفع بعد سنة أو بعد شهرين هو نوى الزكاة حينما دفع المال للوكيل، أو أن تكون النية قابلة للعزل، أي عنده صندوق فيه مال، جمع المال وحسبه قال: الزكاة خمسة آلاف ووضعهم في الصندوق هذه نية العزل نية، إما أن تدفع المال للفقير أو للوكيل أو عند العزل فتصح النية في هذه الأحوال الثلاث، لأن الزكاة عبادة وكان من شرطها النية، والأصل فيها الاقتران، إلا أن الدفع قد يتفرق، وضعت خمسة آلاف زكاة دفعتهم مئتين، ثم خمسمئة ثم ألفاً، على مدى شهرين أو ثلاثة، حينما نويت الزكاة حينما عزلت المال أصبحت مقبولة وعبادة صحيحة، أي يكفي أن تنوي عند العزل، أما الدفع فمتتال،

متفرق، متباعد إلا في حالة واحدة قال: من تصدق بجميع ماله ولا ينوي به الزكاة سقط فرضها عنه، طبعاً دفع كل ماله صدقةً سقط عليه فرض الزكاة استحساناً لأن الواجب جزء منه، الواجب الذي عليه جزء من هذا المال فكان متعيناً فيه فلا حاجةً للتعيين، انتهى الأمر ودفع كل ماله.

طبعاً يوجد عندنا زكاة الإبل، والبقر، والخيل، والغنم، والبغال سنأخذ زكاة الفضة والذهب والورق، والأصح لأن التعامل بالذهب غير متيسر الأصح هو زكاة الورق، أي المال النقدي المتداول هذا شيء معروف، ممكن موضوع زكاة الذهب والورق والعروض التجارية نبحثه في التفصيل في الدرس القادم.

* * *

قصة التابعي الجليل أبو مسلم الخولاني :

سوف نبحث الآن عن قصة من قصص التابعين، هذا التابعي الجليل أبو مسلم الخولاني.

طارت الأخبار من جزيرة العرب أن رسول الله ﷺ قد ثقل عليه المرض بعد عودته من حجة الوداع، فسول الشيطان للأسود العنسي أن يعود للكفر بعد الإيمان، وأن يفتري على الله الكذب، فيزعم لقومه في اليمن أنه نبي مرسل من عند الله، وكان الأسود العنسي رجلاً شديد المرّة أي القوة، قوي البنية، أسود النفس، اسم على مسمى، مستطير الشر – سريع الشر – لقد أتقن الكهانة في الجاهلية، وحذق الشعوذة على الناس، وكان إلى ذلك فصيح اللسان، رائع البيان، ذكي العقل، قادراً على اللعب بعقول العامة بأباطيله، وكسب ولاء الخاصة بهباته وعطاياه، العامة يدجل عليهم والخاصة يغرقهم بالهدايا.

وقد انتشرت دعوة الأسود العنسي باليمن انتشار النار في الهشيم، وقد ساعده على ذلك اتباع قبيلته له، وكانت يومئذٍ من أكثر القبائل اليمن عدداً، وأوسعها نفوذاً، وأشدها بأساً، كما ساعدته على ذلك قدرته على اختراع الكذب وتلفيقه، واستعانته بالأذكياء من أتباعه على ذلك.

فقد زعم الأسود العنسي أن ملكاً من السماء ينزل عليه بالوحي ويخبره بالمغيبات، وسلك في إقناع الناس وبصحة هذا الزعم مسالك شتى فكان يبث عيونه – يوجد عنده أتباع يرسلهم إلى أطراف البلاد – يستقصون له الأخبار ليقفوا على كل شأن من شؤون الناس وشجونهم، ويكشف له عن أسرارهم وأخبارهم، وينفذ إلى ما يعتلج بخبايا نفوسهم من الآمال والآلام، وكانوا في الوقت نفسه يغرون هؤلاء الناس بأطراف البلاد باللجوء إليه، وطلب العون منه، فكانوا إذا جاؤوه واجه كل ذي حاجة بحاجته، وبدأ كل صاحب مشكلة مشكلته.

طبعاً تصرف ذكي يرسل عيونه- أتباعه- إلى أطراف البلاد يتقصون له الأخبار، ويغرون الناس أن يأتوا إليه، ويأتي الناس إليه يحدثهم عن أخبارهم، عن مشكلاتهم، عن حوادثهم، عن آلامهم، عن آمالهم، يصدقون أنه يعلم الغيب، وأتى أمامهم من العجائب والغرائب ما يذهل عقولهم، ويحير ألبابهم، الآن من يذكر أن هذا الأسود العنسي رسول الله؟ لقد طواه الزمان.

ما بين حضرموت وما بين الطائف، وما بين البحرين وما بين عدن، ولما استتب الأمر للأسود العنسي، ودانت له البلاد والعباد، نشط في تتبع معارضيه ممن آتاهم الله إيماناً راسخاً بدينه القويم، ويقيناً ثابتاً بنبيه الكريم، وجهراً بالحق متصدياً للباطل، فجعل يبطش بهم في قسوة قاسية، وينزل بهم أشد النكال، وكان في طليعة هؤلاء عبد الله بن ثوب المكنى بأبي مسلم الخولاني موضوع هذه القصة.

كان أبو مسلم الخولاني رجلاً صلباً في دينه، قوياً في إيمانه، عنيداً في الجهر بالحق، قد أخلص نفسه لله، وأعرض عن الدنيا وزينتها، وزهد في زخرف العيش ومتاعه، ونذر حياته لطاعة الله، والدعوة إليه، وباع الفانية بالباقية بيع السماح فأحله الناس من نفوسهم منزلةً رفيعة، ورأوا فيه رجلاً طاهر النفس والنفس، مستجاب الدعوة عند الله، وقد أراد الأسود العنسي أن يبطش بأبي مسلم الخولاني بطشةً جبارة، تبث الهلع والجزع في نفوس معارضي دعوته في السر والعلن، وتقمعهم قمعاً، فأمر بالحطب بأن يكدس في ساحة من ساحات صنعاء، وأن تضرم فيه النار، ودعا الناس أن يشهدوا استتابة فقيه اليمن وعابدها أبي مسلم الخولاني، وإقراره بنبوته، وفي الوقت المحدد أقبل الأسود العنسي على الساحة التي اكتظت بالناس اكتظاظاً، وكان يحف به طواغيته، وكبار أتباعه، ويحوطه حرسه، وقادة جنده، فجلس على كرسيه العظيم الذي نصب له قبالة النار، وقيد إليه أبو مسلم الخولاني على مرأى من الناس جميعهم ومسمع، فلما صار بين يديه نظر إليه الطاغية الكذاب في خيلاء ثم نظر إلى النار التي تتأجج أمامه في ضراوة ثم التفت إليه وقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم أشهد إنه عبد الله ورسوله، وأنه سيد المرسلين، وأنه خاتم النبيين أيضاً، فقطب الأسود العنسي وجهه وزم حاجبيه وقال: وتشهد أني رسول الله؟ فقال: إن في أذني صمماً فلا أسمع ما تقول، طبعاً موقف عصيب النار وسيلقى بالنار، فقال الأسود: إذاً أقذفك في هذه النار، فقال أبو مسلم: إن فعلت اتقيت بهذه النار التي وقودها الحطب نار يوم القيامة التي وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، فقال الأسود العنسي: لن أعجل عليك وسأتيح لك الفرصة لتراجع عقلك، ثم أعاد عليه السؤال فقال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم أشهد إنه عبد الله ورسوله، وأنه سيد المرسلين، وأنه ختم برسالته الرسالات، فازداد الأسود حنقاً وقال:

أتشهد أني رسول الله؟ فقال أبو مسلم: أما أخبرتك أن في أذني صمماً فلا أسمع مقالتك هذه، فاستشاط الأسود العنسي غيظاً من صرامة إجابته، وهدوء نفسه، وسكينة جواره، وهمّ بأن يأمر به فيلقى في النار، عندئذ تقدم منه أحد أتباعه وهمس في أذنه قال هذا الرجل المقرب من هذا المدعي النبوة: إن الرجل – أبو مسلم الخولاني – طاهر النفس، مستجاب الدعوة، وإن الله لن يخذل مؤمناً، وإنك إن ألقيته في النار ونجاه الله منها هدمت كل ما بنيته في لحظة واحدة – هذه مغامرة كبيرة إذا ألقيته في النار والله نجاه منها هدمت كل ما بنيته في لحظة واحدة – ودفعت الناس إلى الكفر بك وبنبوتك دفعاً، وإن أحرقته فرضاً ازداد الناس به إعجاباً، وله إكباراً، ورفعوه إلى مصافي الشهداء، فمن عليه بإطلاق سراحه وانفه من البلاد وأرح نفسك منه واسترح.

قدم له نصيحة كبيرة فقال: أخذ الأسود بمشورة طاغوته، وأمره بمغادرة البلاد بساعتها، أي الله عز وجل حفظه، ألقى في قلب هذا الرجل هذه النصيحة فنصحه بها فحفظه، بعض المصادر تشير إلى أنه قذفه في النار ونجاه الله منها، هكذا لكن يبدو أن المؤلف رجح هذه الرواية لأنها أقرب إلى الواقع، تلك معجزة بحق سيدنا إبراهيم، بعض كتاب السيرة علقوا على ما حدث لسيدنا إبراهيم تعليقاً لطيفاً فقال: الله عز وجل كان بإمكانه أن يجعله يتوارى عن الأنظار، وألا يُمكن النمرود من القبض على إبراهيم، أليس كذلك؟ وكان من الممكن أن يرسل سحابةً تمطر فوق النار فتطفئها كان من الممكن، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد إظهار قدرته فمكن خصومه من أن يقبضوا عليه، ومكنهم من أن يضرموا النار، وأشعلوها وألقوه فيها، قال تعالى:

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾

[سورة الأنبياء : 69]

لو لم يقل سلاماً لمات من البرد، برداً وسلاماً على إبراهيم:

﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾

[سورة الأنبياء : 70]

الله موجود في كل عصر، الإنسان يكون مع الله دائماً الله ينجيه، لا أنسى هذه القصة قصة سيدنا يونس عندما كان في بطن الحوت، في البحر، وفي الليل، في ظلمات ثلاث قال تعالى:

﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة المؤمنين : 87-88]

مبدأ عام، أحياناً الإنسان يكون راكباً سيارة الله ينجيه من حادث بمنتهى اللطف، أحياناً ينجيه من ورطة، من عدوه، من إفلاس، من صفقة خاسرة، ربنا عز وجل هو اللطيف.

يمم أبو مسلم الخولاني وجهه شطر المدينة، وكان يمني نفسه بلقاء رسول الله، كان النبي على قيد الحياة، فهو قد آمن به قبل أن تكتحل عيناه برؤيته، وتفرح نفسه بصحبته قبل أن يراه، عرض نفسه للموت قبل أن يراه، لكنه ما كاد يبلغ حواشي يثرب حتى بلغه نعي النبي صلوات الله عليه، ما متع عينه برؤية النبي وقيام أبو بكر الصديق على خلافة المسلمين من بعده فحزن على وفاة النبي حزناً خالط سويداء قلبه.

بلغ أبو مسلم المدينة، وقصد المسجد النبوي الشريف، فلما أقبل على المسجد عقل ناقته قريباً من بابه، ودخل إلى الحرم النبوي الشريف، وسلم على النبي صلوات الله عليه قال: أنا حي طري في قبري، إذا ذهبت الآن إلى المدينة تحس بوجوده وكأنه حي لا كالأموات، ثم وقف إلى سارية من سواري المسجد وجعل يصلي فلما فرغ من صلاته توجه نحو عمر بن الخطاب حتى صار أمامه وقال له: ممن الرجل؟ فقال: من اليمن، فقال: ما فعل الله بصاحبنا الذي سجر له عدو الله النار فأنجاه الله منا؟، طار سيطه إلى المدينة، فقال: هو بخير من الله ونعمة، قال: ناشدتك الله ألست أنت؟ قال: بلى، فقبّل عمر ما بين عينيه، وقال: أتدري ما فعل الله بعدو الله وعدوك؟ قال: والله لا أدري لقد انقطعت عن أخباره منذ غادرت اليمن، قال: قتله الله على أيدي البقية الباقية من المؤمنين الصادقين، وأزال دولته، وردّ أتباعه إلى دين الله، فقال: الحمد لله الذي لم يخرجني من الدنيا حتى قرت عيني بمصرعه، وعودة المخدوعين من أهل اليمن إلى أكناف الإسلام، فقال له عمر: وأنا أحمد الله الذي أراني في أمة محمد من فعل به كما فعل بخليل الرحمن سيدنا إبراهيم، ثم أخذه من يده ومضى به إلى أبي بكر رضي الله عنه، فلما دخل عليه سلم عليه بالخلافة وبايعه، فأجلسه الصديق بينه وبين عمر وطفق الشيخان يستعيدان مع أبي مسلم خبره مع الأسود العنسي.

أقام أبو مسلم الخولاني زمناً في المدينة المنورة لزم خلاله مسجد رسول الله ﷺ، وصلى ما شاء الله أن يصلي في روضته المطهرة، وأخذ ما وسعه الأخذ عن جلة الصحابة من أمثال أبو عبيدة بن الجراح، و أبو ذر الغفاري، و عبادة بن الصامت، و معاذ بن جبل، وعوف بن مالك الأشجعي ثم بدا لأبي مسلم أن يرحل إلى بلاد الشام، وأن يتخذها له مقاماً، وكانت غايته من ذلك أن يكون قريباً من الثغور الشامية ليشارك المسلمين في غزو الروم، ويفوز بأجر المرابطة في سبيل الله، ولنا في الدرس القادم إن شاء الله بعض من مواقفه مع معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين في الشام.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 13: مصارف الزكاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

باب من يجوز الدفع إليه ومن لا يجوز :

أيها الأخوة المؤمنون، لازلنا في موضوع الزكاة وننتقل اليوم إلى باب من يجوز الدفع إليه ومن لا يجوز، أي إلى موضوع مصارف الزكاة، الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة : 60]

في هذه الآية توضيح وتفصيل لمصارف الزكاة، أي للجهات التي تستحق الزكاة، فهذه الأصناف التي احتوتها الآية الكريمة ثمانية أصناف، وقد سقط منها صنف وهم المؤلفة قلوبهم.

المؤلفة قلوبهم ثلاثة أصناف :

المؤلفة قلوبهم ثلاثة أصناف، صنف كان النبي ﷺ يدفع لهم المال ليسلموا، وإذا أسلموا أسلم قومهم معهم، وصنف أسلموا ولكن على ضعف فكان النبي ﷺ يريد بإعطائهم المال أن يزيد إيمانهم وأن يقوي ضعفهم، وصنف ثالث كان النبي عليه الصلاة والسلام يدفع لهم المال ليدفع شرهم، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ))

[مالك عَنْ عَائِشَةَ]

هذه الأصناف الثلاث المؤلفة قلوبهم، منهم من يدفع له المال ليسلم، فإذا أسلمَ أسلم معه قومه، قال أحد زعماء هذه القبائل للنبي عليه الصلاة والسلام: لمن هذا الوادي – وهو واد من غنم – قال: هو لك؟ قال: أتهزأ بي؟ قال: هو لك، فقال: أشهد أنك تعطي عطاء من لا يخشى الفقر، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، وأسلمَ وأسلم معه قومه، فهذا من الذين إذا أسلموا أسلم قومهم معهم.

الصنف الثاني يدفع المال إليهم ليزداد إيمانهم أو ليقوى ضعفهم، والصنف الثالث يدفع المال إليهم ليدفع شرهم كما قلت قبل قليل:

((إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ))

[مالك عَنْ عَائِشَةَ]

هذه الأصناف الثلاث تنطوي تحت باب من أبواب مصارف الزكاة ألا وهو المؤلفة قلوبهم، وجمهور العلماء أجمعوا على أن الإسلام بعد أن انتصر على أعدائه وبعد أن أعزه الله فقد سقط هذا السهم، وبعض العلماء يرى أنه إذا ضعف الإسلام وكثر أعداؤه أمكن أن يدفع شر الأعداء، هذا اجتهاد.

على كلّ جمهور العلماء أجمعوا على أن هذا السهم من أسهم مصارف الزكاة قد سقط، والمسلمون الآن ولله الحمد في غنية عن ذلك لأن الله تعالى أعز الإسلام، وأغنى عنهم، وعلى هذا انعقد إجماع الأمة بسقوط هذا السهم من أبواب مصارف الزكاة.

مصارف الزكاة :

1 . الفقراء :

قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

والفقير من له شيء ولكن دون النصاب، الشيء الذي له لا يكفيه، أي الفقير ليس الذي ترده اللقمة واللقمتان إنما الفقير الذي لا يجد حاجته، أي دخله دون حاجته الأساسية بكثير، أما الحاجات غير الأساسية فلا حدود لها، الإنسان يحتاج إلى مكيف لأن الحر شديد، ثمنه ثمانية آلاف، هذه حاجة ثانوية جداً، الفقير هو الذي دخله دون حاجاته الأساسية طعام وشراب ومأوى وسكن ولباس دخله دون ذلك، فهذا في نظر الفقراء فقير، قد يسكن بيتاً

والبيت ملكه، البيت مستهلك كان البيت ثمنه عشرة آلاف الآن ثمنه مليون هو يستهلكه، نقول له: بع هذا البيت واسكن في الطريق؟ مستحيل.

2 . المساكين :

الفقير هو الذي لا يجد حاجته أي دون النصاب، والمسكين أدنى حالاً من الفقير هو الذي لا يملك شيئاً، قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

يوجد قاعدة لهذه الآية أن الفقراء والمساكين إذا اجتمعا في آية واحدة تفرقا، صار الفقير له تعريف والمسكين له تعريف، فإذا افترقا اجتمعا، إذا ذكرنا أن الصدقة للفقراء أي للفقراء أو للمساكين، أما إذا قلنا: إنما الصدقات للمساكين أي للفقراء والمساكين، إذا اجتمعا تفرقا وإذا افترقا تجمعا، والمسكين هو الذي لا شيء له، وهذا مروي عن أبي حنيفة رضي الله عنه، طبعاً في بعض الأقوال أنه العكس، الفقير هو الذي لا يملك شيئاً والمسكين هو الذي يملك بعض الشيء دون حاجته، على كلّ هناك صنف من الناس لا يملك شيئاً سمه ما شئت، وهناك صنف من الناس دخله دون حاجته سمه ما شئت، الصنفان يستحقان الزكاة.

3 . العاملون عليها :

قال تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

والعامل يدفع بقدر عمله لا بقدر حاجته – لو أن هذا العمل يستحق ألف ليرة في الشهر وهو يحتاج إلى خمسة آلاف نعطي العامل على الزكاة بقدر جهده لا بقدر حاجته – أي ما يسعه وأعوانه بالوسط، لأن استحقاقه بطريق الكفاية ولهذا يأخذ وإن كان غنياً، مثلاً موظف والموظف الذي وقف وقته كله على تحقيق هذه الآية، جبيّ أموال الزكاة ثم صرفها إلى من يستحقها، هذا موظف يأخذ بقدر جهده وبقدر عمله، وإن كان غنياً، إلا أن فيه شبهة، الصدقة إذا كان غنياً صار في دخله شبهة، ولا ينبغي أن يأخذها العامل الهاشمي الذي ينتمي إلى بني هاشم تنزيهاً لقرابة النبي ﷺ.

4 . في الرقاب :

﴿ وفي الرقاب ﴾

أي المكاتبون الأرقاء الذين يسعون لنيل حريتهم عن طريق بذل مالهم، هؤلاء المكاتبون يعانون من أموال الزكاة.

5 . الغارمون :

والغارم من لزمه دين، أصحاب الديون هذا اشترى بيتاً، حاجة أساسية فالذي عليه دين لشيء أساسي هذا أيضاً يستحق من أموال الزكاة.

6 . في سبيل الله :

وفي سبيل الله منقطع الغزاة، أي هذا في سبيل نشر دعوة الله سبحانه وتعالى، أي للجهاد، الأموال التي تنفق في سبيل رفع كلمة الدين، في سبيل جعل كلمة الله هي العليا، هذا أيضاً في سبيل الله، وعند الإمام محمد منقطع الحاج، إما منقطع الغزاة أو منقطع الحاج، كلاهما يدخل تحت قوله تعالى:

﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

وقيل: في سبيل الله طلبة العلم، وفسره في البدائع أي بدائع الصنائع أي بجميع القرب التي تقرب من الله سبحانه وتعالى.

7 . ابن السبيل :

وابن السبيل من كان له مال في وطنه وهو في مكان لا شيء له فيه، وإنما يأخذ ما يكفيه إلى وطنه لا غير، حتى ولو كان معه ما يُوَصله إلى بلده من زاد وحمولة، إذا كان معه ما يوصله إلى بلده من زاد وحمولة لم يجز له أن يأخذ من أموال الزكاة، ابن السبيل له مال في بلده لكن هو في الطريق منقطع، إذا كان منقطعاً ولم يملك المال الكافي لكي يصل به إلى بلده يأخذ من أموال الزكاة، هذه الجهات قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة : 60]

كل القربات إلى الله سبحانه وتعالى، أو القربات التعليمية، أو القربات الجهادية، أو منقطع الحال، هذه كلها في المذهب الحنفي جائزة، منقطع الغزاة، منقطع الحجاج، القربات إلى الله، طلبة العلم، هذه تحت قوله تعالى:

﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

وابن السبيل المنقطع في السفر.

وللمسلم أن يدفع إلى كل واحد من هؤلاء، أو أن يقتصر على صنف واحد، له أن يدفع زكاة ماله للغارمين، وله أن يدفع زكاة ماله في سبيل الله، وله أن يدفع زكاة ماله للفقراء والمساكين، وله أن يقسم هذا المال فيدفعه لكل هؤلاء الأصناف.

من تحرم عليهم الزكاة :

لا يجوز أن تدفع الزكاة إلى ذمي لأمر الشارع لردها في فقراء المسلمين، تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم، فلا يجوز أن تدفع الزكاة إلى ذمي، ولكن يجوز أن تدفع له الصدقة لقوله تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

[سورة الإنسان:8]

الأسير قد يكون مشركاً، أو ذمياً، من غير المسلمين، فالصدقة تدفع للذمي أما الزكاة فينبغي أن تدفع إلى المسلمين حصراً، ولا يبنى بها مسجد، ولا يكفن بها ميت، لأن الزكاة من أركانها التمليك، فالمسجد ليس فيه تمليك لأحد هو بيت الله، ولا يكفن بها ميت، الميت لا يملك وكفنه على ورثته، فبذلك لا يبنى بها مسجد، ولا يكفن بها ميت لعدم التمليك، ولا يشترى بها رقبة تعتق لأنها إسقاط، أي لا يجوز أن تشترى رقبة فتعتق، أما يعان المكاتب على تحرير نفسه من العبودية، ولا تدفع الزكاة لغني يملك قدر النصاب من أي مال كان فارغاً عن حاجته، ولا يدفع المزكي زكاته إلى أبيه ولا إلى جده، الأصل مهما علا ولا إلى ولده وولد ولده وإن نزل، الأصول والفروع هؤلاء لا يجوز لهم أن تدفع لهم الزكاة، والسبب بسيط لأنك إذا دفعت الزكاة إلى ابنك وفرت بالمصروف وكأنك ما دفعت شيئاً، إذا دفعت إلى أبيك كأنك ما دفعت شيئاً، لأن نفقة الأب على ابنه، ونفقة الولد على أبيه، فلذلك لا تجوز الزكاة للأصول ولا للفروع مهما علوا ومهما نزلوا، هنا في مذهب من المذاهب إذا الابن مستقل عن أبيه، الطفل الفقير الصغير غني بمال أبيه، أما الكبير فقد يكون أبوه غنياً وهو فقير استقل عنه، سكن بمفرده وهو فقير، وهذه فيها استثناء، الآن الأخت يجوز لها دفع الزكاة أما إذا كانت الأخت ساكنة عند أخيها وعلى

أخيها نفقتها فلا يجوز، يوجد عندنا قاعدة الذي تنفق عليه لا يجوز أن تدفع له الزكاة، فإذا كانت الأخت التي يجوز دفع الزكاة لها في الأصل لو أنها في بيت أخيها وهو ينفق عليها عندئذٍ لا يجوز أن تدفع لها الزكاة، أما الابن ففي الأساس لا يجوز أن يدفع له الزكاة لأنه فرع، أما لو كان كبيراً متزوجاً ومستقلاً عن الأب في بيت قد يكون في حاجة ماسة بعض الفقهاء أجاز ذلك، ولا تدفع الزكاة إلى المرأة – أي إلى زوجته – لأن نفقتها على الزوج في الاشتراك في المنافع عادةً، ولا تدفع المرأة إلى زوجها عند أبي حنيفة، قال: تدفع إليه أي هناك مذهب لا يجيز ومذاهب أخرى يجيز أن تدفع زكاة مال الزوجة إلى الزوج الفقير طبعاً لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَتْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُجْزِئُ عَنِّي مِنَ الصَّدَقَةِ النَّفَقَةُ عَلَى زَوْجِي وَأَيْتَامٍ فِي حِجْرِي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهَا أَجْرَانِ أَجْرُ الصَّدَقَةِ وَأَجْرُ الْقَرَابَةِ))

[متفق عليه عَنْ زَيْنَبَ]

امرأة غنية وزوجها فقير زكاة مالها لها أن تعطيه لزوجها فلها عندئذ أجران، أجر الصدقة وأجر الصلة، قال النبي ذلك لامرأة ابن مسعود، وقد سألته التصدق عليه، طبعاً الذي منع أن تعطي المرأة زكاة مالها لزوجها قال هذا القول – قول النبي عليه الصلاة والسلام –محمول على النافلة لا على الزكاة، أي إذا حملنا هذا القول على النافلة لا يجوز أن تعطي المرأة زكاة مالها لزوجها، فإذا حمل هذا القول على الزكاة الواجبة إذاً هذا دليل على دفع مال الزكاة إلى الزوج، ولا يدفع المزكي زكاته إلى مكاتبه – إلى عبده – لأن مال العبد لسيده أيضاً يوجد منفعة مشتركة، ولا إلى مملوكه بمقدار التمليك، المملوك أيضاً ماله لسيده، ولا إلى ولد غني هنا نقطة دقيقة لا يجوز أن تدفع الزكاة إلى ولد غني إذا كان صغيراً لأنه يعد غنياً بمال أبيه، بخلاف إذا ما كان كبيراً فقيراً لأنه لا يعد غنياً بيسار أبيه، الشاب الفقير لو أن له أباً غنياً، أحياناً بعض الجمعيات تقع في إشكال إن هذا واله غني، إذا كان الشخص كبيراً في السن ومستقلاً في البيت وله مصروف خاص وله أب غنيٌ شحيح وهو يستحق الزكاة.

ولا يعد الكبير الفقير غنياً بيسار أبيه وإن كانت نفقته عليه، قد يكون الأب شحيحاً، ولا تدفع الزكاة إلى بني هاشم لأن الله تعالى حرم عليهم أن يأخذوا من الناس شيئاً على سبيل الصدقات، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يقبل الهدية ولا يأكل من الصدقة، الصدقة ليست له، بنو هاشم هم آل علي رضي الله عنه، وآل عباس، وآل جعفر، وآل عقيل، وآل الحارث بن عبد المطلب، هؤلاء بنو هاشم.

اختلاف الأئمة رحمة واسعة :

الآن يوجد عندنا حالات دقيقة قال أبو حنيفة ومحمد: إذا دفعت الزكاة إلى رجل تظنه فقيراً فبان أنه غني، أو إلى هاشمي تظنه من غير بني هاشم إذا هو هاشمي، أو تظنه مسلماً فإذا هو كافر، أو دفع في ظلمة إلى فقير ثم بان أنه أبوه، أو ابنه، أو امرأته، لا إعادة عليه لو دفعت الزكاة إلى غني وظننته فقيراً، أو إلى إنسان من بني هاشم، أو إلى إنسان كافر على سبيل الخطأ، فأبو حنيفة رضي الله عنه يقول: لا إعادة عليه لأن الوقوف على هذه الأشياء بالاجتهاد والخطأ فيبنى الأمر فيهما على ما يقع عنده، وقال أبو يوسف: عليه الإعادة لظهور خطئه بيقين مع إمكان الوقوف على ذلك، أي أبو حنيفة وتلميذه الإمام محمد يقول: ليس عليه إعادة، والإمام أبو يوسف يقول: عليه أن يعيد دفع الزكاة مرةً ثانية، أنت اختر أحدهما، أي اختلاف أمتي رحمة، اختلاف هذه الأئمة رحمة واسعة واتفاقهم حجة قاطعة.

عدم دفع الزكاة إلى من يملك نصاباً من أي مال كان :

ولا يجوز دفع الزكاة إلى من يملك نصاباً من أي مال كان، ما هو النصاب؟ مال زائد عن حاجته الأساسية، أي آكل وشارب وساكن ونائم، يلبس، ومعه ثلاثون أو أربعون ألفاً زيادة، هذا الإنسان لا يجوز أن تدفع له الزكاة، هذا غني مالك للنصاب، لأن الغنى الشرعي مقدر به، والشرط أن يملك نصاباً فاضلاً عن حاجته الأساسية، ويجوز دفعها إلى من يملك أقل من ذلك وإن كان صحيحاً مكتسباً، رجل يملك أقل من النصاب وهو صحيح ومكتسب يجوز أن تدفع له الزكاة لأنه فقير، والفقراء هم المصارف، ولأن حقيقة الحاجة لا يوقف عليه فأدير الحكم على دليلها وهو فقد النصاب، ونحن لا يوجد عندنا إمكانية أن نعرف الحقيقة مئة بالمئة، كل إنسان لا يملك النصاب فهو في الإسلام فقير، والفقير يحتاج إلى مساعدة.

كراهة نقل الزكاة من بلد إلى آخر :

يكره نقل الزكاة من بلد إلى بلد آخر، يجب أن تدفع الزكاة في بلد كسب المال، هذه نقطة دقيقة جداً، أنت مقيم في دمشق، ولك تجارةٌ رابحة، وبعت واشتريت وربحت أموالاً، من الذي أربحك؟ هذا البلد وأهله والذين اشتروا منك، ففقراء هذا البلد أحق بزكاة مالك، فزكاة المال تدفع في بلد الكسب إذاً يكره ولا أقول لا يجوز، يكره نقل

الزكاة من بلد إلى بلد آخر وإنما تفرق صدقة كل قوم فيهم تأخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم هم، ولما فيه من رعاية حق الجوار إلا أن ينقلها الإنسان إلى قرابته، لو فرضنا رجلاً من بلد أخرى مقيم في دمشق نقل زكاة ماله إلى قرابته الفقراء جداً هذا يجوز لما فيه من الصلة، وهناك قاعدة فقهية: لا تقبل صدقة الرجل وفي قرابته محاويج حتى يبدأ بهم فيسد حاجتهم، رجل له أخ، ابن عم، ابن خالة، له قريبة، عمة، خالة فقيرة جداً على أبواب الفقر، تدفع الزكاة إلى جهة أخرى، لا تقبل صدقة الرجل و في قرابته محاويج، هذا نظام التكافل الاجتماعي، كل أسرة يجب أن تتكفل بأعضائها حتى يبدأ بهم فيسد حاجتهم، ويجوز أن تنقل الزكاة إلى قوم هم أحوج من أهل بلده، لو كنت ببلد فيه بحبوحة، فيه غنى، تجارة، وأنت لست من هذا البلد لك أهل في بلد آخر أشد فقراً من هؤلاء يجوز لما فيه زيادة دفع الحاجة ولو نقلها إلى غيرهم أجزاه وإن كان مكروهاً لأن المصرف مطلق والمطلق على إطلاقه.

ملخص لما سبق :

أي ملخص هذا الموضوع أن الزكاة للفقراء الذين لا يملكون حاجتهم الأساسية، والمساكين الذين لا يملكون شيئاً، والمؤلفة قلوبهم وهم أصناف ثلاث سقط سهمهم بإجماع العلماء بعد أن أعزّ الله الإسلام بالنصر، والعاملين عليها – الموظفون المكلفون بجبي أموال الزكاة وتوزيعها على الفقراء– والمؤلفة قلوبهم، وفي الرقاب المكاتبين من الأرقاء، والغارمين أصحاب الديون، وفي سبيل الله، أوسع معاني من معانيها كل القربات إلى الله في سبيل الله، أو منقطع الحجاج، أو منقطع الجهاد، أو طلبة العلم، وابن السبيل من كان له مال في وطنه وهو منقطع في طريق السفر ، ولا يجوز دفع الزكاة إلى ذمي، ولا إلى كاتب، ولا إلى هاشمي، ولا إلى الأصول مهما علت، ولا إلى الفروع مهما نزلت، ولا إلى غني يملك نصاب المال، ويكره نقل الزكاة من بلد إلى بلد إلا لحالات اضطرارية، كأن يكون البلد المنقول إليه أفقر من البلد المجبى فيه زكاة المال، أو لقرابة، أو لعلة أخرى، وإذا دفعت الزكاة خطأً لخلاف هذه المصارف فعند أبي حنيفة والإمام محمد ليس عليه الإعادة، وعند الإمام أبي يوسف عليه الإعادة.

طبعاً بقي موضوع في الزكاة متعلق في أنصبة الزكاة في أموال الذهب والفضة وعروض التجارة إن شاء الله تعالى نتم هذا البحث في الدرس القادم.

* * *

مكانة المرأة في الإسلام و حرمة آل بيت رسول الله :

ننتقل إلى قصة من قصص التابعين رضوان الله عليهم، موضوع اليوم التابعي الجليل سالم بن عبد الله بن عمر، كان هذا التابعي الجليل من التابعين الأجلاء الذين تربوا على يد أصحاب رسول الله ﷺ، وتخلقوا بأخلاق الصحابة الكرام، وقد حدث أن عبد الرحمن بن الضحاك والي المدينة في خلافة يزيد بن عبد المطلب، وكانت فاطمة بنت الحسين رضي الله عنه ونضّر الله في الجنة روحها قد ترملت وانقطعت إلى أولادها، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أول من يهز حلق الجنة أنا فإذا امرأة تنازعني تريد أن تدخل الجنة قبلي فقلت من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها وترك لها أولاداً فكرهت أن تتزوج من أجلهن))

[مجمع الزوائد عن أبي هريرة]

أي هذه التي ترعى أولادها وتضحي بحظها من الحياة هذه لها عند الله مقام كبير، ففاطمة بنت الحسين رضي الله عنه ونضر الله في الجنة روحها قد ترملت وانقطعت إلى أولادها، فتقدم إليها ابن الضحاك والي المدينة وخطبها لنفسه فقالت: والله لا أبغي الزواج ولقد قعدت على بني ووقفت نفسي عليهم، فجعل يلح عليها وهي تحتال في الاعتذار إليه من غير مخاشنة خوفاً من شره، يبدو أنه كان شريراً فلما وجدها تأباه قال لها: والله لأن لم ترضيني لكِ زوجاً لآخذن أكبر بنيكِ ولأجلدنه بتهمة شرب الخمر، فاستشارت سالم بن عبد الله في أمرها، فأشار عليها أن تكتب للخليفة كتاباً تشكو فيه الوالي، وتذكر قرابتها من رسول الله ﷺ، ورحمها في آل البيت، فكتبت الكتاب وأنفذته مع رسول لها إلى دمشق، وما كاد الرسول يمضي بالكتاب حتى جاء أمر الخليفة إلى ابن هرمز عامله على ديوان المال في المدينة، يوجد عندنا الوالي، ومدير المالية عامله على ديوان المال، بأن يقدم عليه ليرفع الحساب إليه.

فقام ابن هرمز يودع أصحاب الحقوق عليه فاستأذن على فاطمة بنت الحسين مودعاً وقال: إني ماض إلى دمشق فهل لك من حاجة؟ قالت: نعم، تخبر أمير المؤمنين بما ألقى من ابن الضحاك، وما يتعرض به إليها، وإنه لا يرعى حرمةً لعلماء المدينة وخاصة سالم بن عبد الله بن عمر، قال: هذا ابن هرمز لام نفسه على زيارتها إذ ما كان يريد أن يحمل شكواها على ابن الضحاك إلى الخليفة، موقف حرج، وصل ابن هرمز إلى دمشق في نفس اليوم الذي وصل فيه الرسول الذي يحمل كتاب فاطمة بنت الحسين فلما دخل على الخليفة استخبره عن

أحوال المدينة، وسأله عن سالم بن عبد الله وصحبه من الفقهاء، وقال له: هل هناك أمر ذو شأن جدير بأن يعلم أو خبر ذو خطر حري بأن يذكر؟ فلم يذكر له شيئاً من قصة فاطمة بنت الحسين خوفاً من ابن الضحاك ولم يشر بشيء إلى موقف الوالي من سالم ابن عبد الله.

وفيما هو جالس عنده يرفع له حسابه إذ دخل الحاجب وقال: أصلح الله الأمير إن بالباب رسول فاطمة بنت الحسين فتغير وجه ابن هرمز وقال: أطال الله بقاء الأمير إن فاطمة بنت الحسين حملتني رسالة إليك وأخبره الخبر، فما إن سمع مقالته حتى نزل عن سريره وقال: لا أم لك، ألم أسألك عن شؤون المدينة وأخبارها أيكون لديك مثل هذا الخبر وتكتمه عني؟ فاعتذر إليه بالنسيان، ثم أذن للرسول فأدخل عليه، وأخذ الكتاب منه وفضه، وجعل يقرأه والشرر يتطاير من عينيه، وأخذ يضرب الأرض بخيزران كان في يده، وهو يقول: لقد اجترأ ابن الضحاك على آل رسول الله ولم يصغِ لنصح سالم بن عبد الله فيه، هل من رجل يسمعني صوته يعذب في المدينة وأنا على فراشي هنا في دمشق؟ فقيل له: نعم يا أمير المؤمنين ليس في المدينة إلا عبد الواحد بن بشر النضري، فوله إياه وهو مقيم الآن في الطائف، فقال: نعم والله نعم إنه لها، ثم دعا بقرطاس وكتب بيده من أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك إلى عبد الواحد بن بشر النضري السلام عليك أما بعد فإني قد وليتك المدينة فإذا جاءك كتابي هذا فتوجه إليها، واعزل عنها ابن الضحاك، وافرض عليه غرامةً مقدارها أربعون ألف دينار، وعذبه حتى أسمع صوته من المدينة لأنه اجترأ على آل رسول الله.

أخذ صاحب البريد الكتاب ومضى يحث الخطا نحو الطائف عن طريق المدينة، فلما بلغ المدينة لم يدخل على واليها ابن الضحاك ولم يسلم عليه، لأن معه قرار عزله فأوجس الوالي خيفةً في نفسه، وأرسل إليه، ودعاه إلى بيته، وسأله عن سبب قدومه فلم يبح له بشيء فرفع طرف فراشه وقال: انظر فنظر فإذا كيس قد ملأ بالدنانير فقال: هذه لك، ولك علي عهد إن أنت أخبرتني عن وجهتك وما في يديك لأدفعنها إليك، ولأكتمن عليك ذلك، فأخبره فدفع إليه المال وقال له: تريث هنا ثلاث ليال حتى أصل إلى دمشق ثم امض أنت إلى ما أمرت له. ذم ابن الضحاك ركائبه وغادر المدينة لتوه، ومضى يحث المطايا نحو دمشق فلما بلغها دخل على أخي الخليفة مسلمةَ بن عبد الملك، وكان سيداً أريحياً صاحب نجدة فلما صار بين يديه قال له: أنا في جوارك أيها الأمير، فقال: أبشر بخير وما شأنك؟ فقال: إن أمير المؤمنين ناقم علي لهنة بدرت مني، فغدا مسلمة على يزيد وقال: إن لي لدى أمير المؤمنين حاجة فقال يزيد: كل حاجةٍ لك مقضية ما لم تكن في ابن الضحاك، فقال: والله ما جئتك إلا من أجله، فقال: والله لا أعفيه أبداً، فقال: وما ذنبه؟ قال: قد تعرض لفاطمة بنت الحسين وهددها وتوعدها

وأرهقها، ولم يصغِ لنصح سالم بن عبد الله في أمره، فهب شعراء المدينة يهجونه وطفق صلحاءها وعلماءها يعيبونه، فقال مسلمة: أنت وشأنك معه يا أمير المسلمين؟ فقال يزيد: أمره أن يعود إلى المدينة لينفذ واليها الجديد أمري فيه، ويجعله عبرةً لغيره من الولاة، ففرح أهل المدينة أعظم الفرح بواليهم الجديد، وسرهم حزمه في تنفيذ أمر الخليفة بابن الضحاك، وزادوا تعلقاً به حينما وجدوه يذهب مذاهب الخير ولا يقطع أمراً من أمورهم إلا إذا استشار فيه القاسم بن محمد بن أبي بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر.

هذه قصة تعلمنا أشياء كثيرة، تعلمنا أن للمرأة مكانتها في الإسلام، المرأة لها مكانة أي كتاب أرسلته إلى الخليفة لأن أحد الولاة قد تجاوز الحدود معها وأرهقها وهددها أن يعذب ابنها بتهمة ملفقة فما كان من الخليفة إلا أن عزله وأنزل به عقاباً أليماً جزاء تهجمه وتطاوله، ومنها موعظة أخرى هي أن لآل بيت رسول الله ﷺ حرمةٌ، لذلك أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه، وأحبوني بحب الله وأحبوا آل بيتي بحبي.

والحمد لله رب العالمين

الزكاة – الدرس 14: أنصبة الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهمّ لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علّمتنا وزدنا علماً، وأرِنا الحقّ حقاً وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أنصبة الزكاة :

أيّها الأخوة المؤمنون، مازلنا في موضوع الزكاة، وقد وعدتُّكم في هذا الدرس أن نتحدث عن أنصبة الزكاة، وأنصبة الزكاة متعددة، وأكثر الأنصبة شيوعاً النقد المتداول –العملة الورقية – هذه المتداولة، وهذه الأكثر شيوعاً والأكثر اطمئناناً في تداولها، لذلك نصاب زكاة الأوراق النقدية يقاس على نصاب الفضة، وزكاة الفضة ليس فيما دون مئتي درهم زكاة، مئتا درهم فضة تساوي عشرة آلاف ليرة، فنصاب زكاة الأوراق النقدية يحسب على زكاة الفضة أو على زكاة الذهب أيُّهما أقرب إلى مصلحة الفقير، فزكاة الفضة ليس مادون مئتي درهم صدقة، أما زكاة الذهب فليس دون عشرين مثقالاً من الذهب صدقة، خبراء المال لهذا العام قدَّروا أنَّ مئتي درهم فضة تساوي عشرة آلاف ليرة، وقدَّروا أن العشرين مثقالاً من الذهب تساوي أربعين ألف ليرة، وفي رأي الفقهاء أنَّ زكاة الورق تتجه إلى زكاة الفضة أو إلى زكاة الذهب أيهما أفضل لصالح الفقير، لصالح الفقير يجب أن تقاس الأوراق النقدية لزكاة الفضة، وزكاة الفضة ثمن مئتي درهم فضة تساوي إلى عشرة آلاف ليرة سورية، على وجه التقريب أي مع زيادة قليلة أو نقصان قليل، لو فرضنا أن زكاة الذهب كانت أقل من عشرة آلاف تحسب زكاة الأوراق النقدية على زكاة الذهب، فالأوراق النقدية تتجه إلى قيمة الفضة أو إلى قيمة الذهب أيُّهما أَقَّلُ وأيُّهما أقرب و أصلح لمصلحة الفقير، فلذلك برأي الفقهاء زكاة الأوراق النقدية هي عشرة آلاف ليرة، إذاً نصاب زكاة الأوراق النقدية عشرة آلاف ليرة محسوبة على سعر مئتي درهم من الفضة ولا يؤخذ بسعر عشرين مثقالاً من الذهب، لأن هناك تفاوتاً كبيراً بين سعر الذهب وسعر الفضة.

ربّما كان سعر الذهب أعلى بكثير لمنع التداول به أولاً، ولأن هناك طلباً على الذهب يفوق الطلب الحقيقي، إذاً تتجه زكاة الأوراق النقدية إلى قيمة تساوي قيمة مئتي درهم من الفضة أي إلى ما يساوي عشرة آلاف ليرة سورية، إذاً اتضحت في هذه المقدمة أنصبة الأوراق النقدية، و أنصبة الفضة، و أنصبة الذهب.

زكاة العروض :

لكن الشيء الواقعي بقي زكاة العروض، العروض هي الأموال النامية، فهذا التاجر عنده إسمنت، وهذا التاجر عنده حديد، وهذا التاجر عنه إسفنج، وهذا التاجر عنده أقمشة، المال النامي رأس المال المتحرك الذي تبيعه، رأس المال الثابت؛ الدكان، البيت، المركبة، عدة الصناعة، أثاث البيت، هذه كله مستهلكات ليس عليها زكاة، لكن المال المعد للتجارة، أيّ نوع من أنواع البضاعة، صاحب معمل الحلويات عنده سكر وعنده سمن، هذا مال يصنَّع و يباع، يقيَّم المال بسعر السوق، بسعر السوق لا بسعر شرائه، قد تكون قد اشتريت هذه البضاعة بعشرة قروش والآن سعرها مئة قرش، إذاً من أجل ألا تأكل شيئاً من حق الله يجب أن تقيَّم البضاعة التي تملكها أيّاً كان نوعها بسعر السوق – سعرها الراهن – يمكن أن تحسم من قيمتها ما عليك من ديون أو من التزامات، شيء طبيعي عندك في المحل بضاعة بمئة ألف، عليك دين ثابت بخمسين ألفاً فالزكاة زكاة المال الفاضل، وهو الخمسون.

إذاً تحسب الأموال المعدَّة للتجارة، الزكاة –كما تعلمون– ليس على دور السكن، وليس على الأراضي المعدة للزراعة، ولكن دور السكن التي اشتراها أصحابها من أجل أن يتاجروا بها فائضة عن حاجاتهم، عن سكنهم، هذا يعدُّ مالاً وعليه زكاة، فمن كان يملك مالاً سائلاً فعليه أن يدفع زكاة البيت، ومن كان لا يملك فله أن يدفع زكاته بعد البيع، بعد البيع حين يبيع هذا البيت يدفع زكاة المال، إذاً البيوت إذا كانت غير مستهلكة وليست معدة للسكنى، المحلات التجارية، يوجد عنده محل يستخدمه للبيع و الشراء واشترى محلاً و أغلقه وفي نيته أن يبيعه بسعر أعلى فينتفع بالربح،هذا المحل من أموال الزكاة وتجب فيه الزكاة، إذاً البيت والمحل و الأرض الزراعية، عنده سيارة واستطاع أن يقتني سيارة أخرى ليبيعها و يربح بها فالسيارة الثانية عليها زكاة – على ثمنها زكاة – إذاً زكاة الأوراق النقدية واحد في الأربعين أو اثنان ونصف في المئة، وكذلك زكاة الفضة لأن زكاة الفضة محسوبة على زكاة الورق، وكذلك زكاة الذهب، وكذلك عروض التجارة، إذاً كل إنسان يدير مؤسسة تجارية أو منشأة صناعية أو أرض زراعية اشتراها ليبيعها أو دار زائدة عن حاجته أو محل تجاري لا يستخدمه للبيع و الشراء

وإنّما يستخدمه للتجارة، هذه كلها أموال تجب الزكاة فيها.

وجوب الزكاة في أصل المال و في رأس المال :

بعض الأخوة الأكارم يتوهمون أن الزكاة تجب في الأرباح! لا تجب الزكاة في أصل المال و في رأس المال، والربح إذا بلغ النصاب القانوني تجب فيه الزكاة، فإن لم يبلغ، مثلاً إنسان ربح ثمانية آلاف دون النصاب لا تجب فيه الزكاة، ربح إحدى عشرة ألف فالربح يضاف إلى رأس المال وتحصَّل الزكاة على رأس المال وعلى الربح بوقت واحد، يا ترى هل يجوز أن ندفع الزكاة من عين البضاعة؟ العلماء قالوا: مصلحة الفقير هي الأساس، فلو أنَّ إنساناً وزع قماشاً – الفقير ليس بحاجة لقماش – بل بحاجة إلى طعام عنده ثياب تكفيه، عنده ثياب قديمة يستعملها، هو بحاجة إلى طعام، إذاً دائماً يُنظر إلى حاجة الفقير، لو فرضنا كان عندنا قمح فرضاً، والمكان قرية، وهذا الفقير عنده طاحونة يدوية و عنده تنور، فتقديم القمح له كزكاة عينية أفضل ألف مرة من أن تقدَّم له قيمة القمح.

دائماً في دفع الزكاة ننظر إلى مصلحة الفقير هل أنفع له أن نعطيه طعاماً أو أن نعطيه قماشاً أو أن نعطيه أدوات أو حاجات أو قطن أو فول أم الأنفع له أن نعطيه مالاً؟ الأئمة رحمهم الله تعالى تنوعت مذاهبهم بين إجازة دفع زكاة المال عيناً أو دفع زكاة المال نقداً، ولكن الشيء المرجَّح في هذا الموضوع أن نتجه إلى مصلحة الفقير، فأيّهما كان الدفع في مصلحته كان الأولى أن نعطيه في هذا الاتجاه، والأصح من ذلك أنّ من كان يملك ذهباً أقلَّ من النصاب وفضة أقلَّ من النصاب وورقاً نقدياً أقلَّ من النصاب، فهل عليه زكاة؟ نقول له: نعم لو ضمَّ الأوراق النقدية إلى الفضة إلى الذهب تصبح المبالغ الثلاث فوق النصاب، لذلك يجب ضمُّ الأموال إلى بعضها، وزكاة الأموال تجب في حالة أن يحول عليها الحَول، وهناك في مذاهب الفقه تعنّت شديد أحياناً أنَّ المال يجب أن يحول عليه الحوَل بشكل مستمر، فلو نقص في بعض الأيام صار هناك مشكلة، ولكنَّ جمهور العلماء على أنَّ المال الذي يبلغ النصاب في طرفي العام تجب فيه الزكاة.

معك عشرون ألفاً في واحد رمضان صاروا خمسة عشر، صاروا اثني عشر صاروا ثلاثة، صاروا ألفاً، رجعوا ثمانية آلاف، ما يهمّنا نحن في واحد رمضان أن يكونوا عشرين، وفي واحد رمضان الثاني عشرين، إذاً يجب عليك زكاة العشرين ألفاً، أمَّا تبدُّل المبلغ وارتفاعه و انخفاضه في أثناء عام الصدقة فهذا لا عبرة به إطلاقاً.

المال المعد للاستهلاك لا زكاة عليه :

إذاً لو أنَّ الإنسان يملك أنصبة، لو يملك أموالاً دون الأنصبة متعددة يجب أن يضُّمها بعضها إلى بعض فإذا اجتمعت و شكلَّت نصاباً وجبت فيها الزكاة، وأمَّا شرط أن يحول عليها الحَول فيكفي أن يكون المال فوق النصاب في طرفيّ العام حتى تجب فيه الزكاة، مثلمّا اتفقنا على أنَّه عندما تتجه النفس على أنَّ هذا البيت اشتراه صاحبه ليتاجر به ففيه الزكاة، أمَّا إذا اتجهت نفسه إلى شراء هذا البيت ليكون دار سكنى لابنه الأعزب، هذا البيت المعدّ للاستهلاك ليس فيه زكاة، كلُّ شيء معدٌّ للاستهلاك ليس فيه زكاة، وهذا من تيسير الشرع على الناس، ومن إثبات أنَّ الله تعالى رفع عن عباده الحرج، فهذا المال الذي يعدّ للاستهلاك لا تجب فيه الزكاة والعبرة هي النيَّة.

الأعمال بالنيات :

من أجل توضيح موضوع النية، مثلاً كان هناك شخص ماراً في الطريق فوجد ظرف فيه خمسة آلاف ليرة، فانحنى و التقط هذا المبلغ، هذا العمل حلال أم حرام؟ الذي يحدِّد ما إذا كان هذا العمل حلالاً أو حراماً هو النيّة، فإذا انحنى و التقط هذا المبلغ ليعلم من حول هذا المبنى – محلاّت تجاريّة – أنني عثرت على مبلغ ما فمن كان قد ضيَّع هذا المبلغ فليتصل بيّ على الهاتف الفلاني، إذاً انحنيت لتأخذ هذا المبلغ وفي نيّتِك أن تعيده إلى أصحابه، فهذا عمل طيب، أمَّا إذا انحنيت لالتقاط هذا المبلغ وفي نيّتك أن تأخذه وحدك فهذا حرام، هذه لقطة، لها حكم فقهي آخر، فالقضيّة الأعمال بالنيّات، لو أنَّ امرأةً قالت: إنني لا أرغب أن أتاجر في هذا المال، الناس يخشى شرّهم ويخشى أن يأخذوا المال، والله سأشتري به سواراً من الذهب، فإنَّ أسعار الذهب في ارتفاع مستمر، ما نيّتِها؟ نيَّتها أن تستثمر هذا المال عن طريق شراء الذهب، هذه السوار عليه زكاة لأنَّه مال، أمَّا إذا أرادت المرأة أن تشتري سواراً من الذهب من أجل أن تستخدمه للزينة – ليس هناك شيء يزيّنني، عندما أذهب إلى مكان ما أستحي بحالي سأشتري سواراً و أضعه بيدي – إذا كانت هكذا النيِّة، فهذا السوار ليس عليه زكاة، إنّما الأعمال في النيَّات، التقاط المبلغ عمل مشروع وغير مشروع حسب النيّة، وشراء هذا السوار تجب فيه الزكاة أو لا تجب بحسب النيِّة، فإذا كانت نيّة المرأة عند شراء الذهب أن يزداد مالها، وشراء الذهب أفضل طريقة للاحتفاظ بالمال، فهذه السوار يجب فيه الزكاة، أمَّا إذا كانت نيَّة الشراء أن تتخذ هذه الحلية للزينة فقط فهذا السوار ليس عليه زكاة في أصحّ الأقوال، بعض العلماء استدركوا استدراكاً لطيفاً، أنَّ المرأة التي تتزيَّن بالذهب

بشكل غير مشروع، هذا الذهب مال، واستخدامه ليس مشروعاً، إذاً تجب فيه الزكاة، أي لو أنَّ امرأةً سافرة وضعت في يدها أساور من ذهب وحلق وعقد، وكانت سافرة للناس، تبدّي زينتها للناس، فهذا الاستعمال للحلي استعمال غير مشروع، لا يعفى الحليّ من الزكاة إلاَّ في حالتين: أن يقتنى للزينة للاستهلاك فقط، وأن يستخدم في الطريق المباح المشروع، هذه بعض أحكام الزكاة، زكاة العروض وزكاة الذهب وزكاة الفضّة.

زكاة البقر :

زكاة البقر: ليس في أقلِّ من ثلاثين من البقر زكاة، ثلاثون من البقر عليهم زكاة، وزكاة الثلاثين بقرة تبيع، والتبيع هو عجل عمره سنة، سميّ تبيعاً لأنه يتبع أمَّه فزكاة الثلاثين بقرةً تبيع واحد أو تبيعة، أي بقرة أو جاموس صغير، وزكاة أربعين بقرةً مسِنة أو مثيل، أي عجل عمره سنتان أو بقرة عمرها سنتان، زكاة الأربعين بقرة.

وليس في أقلَّ من أربعين شاةً زكاة، فلو كانت أربعون شاةً سائمة وحال عليها الحَول ففيها شاة واحدة، كل أربعين شاة.

وليس في البغال و الحمير زكاة – أيّ نصف مصيبة – ليس في البغال و الحمير زكاة، من الممكن أن تحمّله طوال العمر وليس عليه زكاة، إلاَّ أنَّ تكون للتجارة، الذي يشتري البغال ليتاجر فيها، أو الحمير،عندئذ تصبح هذه من عروض التجارة.

زكاة الزروع و الثمار :

أمَّا زكاة الزروع و الثمار فالمراد بها هنا هو العشب، طبعاً زكاة الأوراق الفضيّة – الأوراق النقدِية والفضَّة والذهب – واحد بالأربعين، أو اثنان و نصف في المئة، أمَّا زكاة البقر فالثلاثون تبيعاً والأربعون مُسناً، والأربعون شاة شاةً، وهكذا...لكن في زكاة الزروع والثمار أرجح الأقوال بأصحُّ الأقوال أنَّ كل ما أخرجته الأرض عليه العشر إذا كان بعلاً ونصف العشر إذا كان ساقياً، الآن يحمل على ذلك العسل، إذا كان مشروع عسل، إذاً مشروع العسل في الكهوف، في الأشجار، من دون ثمن خلايا، من دون مبيدات، عليه العشر أمَّا إذا كان العسل مناحل لها أثمان فيها نفقات صيانة و عناية وانتقال فعليها نصف العشر، أيّ يلحق الإنتاج الحيواني بالإنتاج الزراعي، فإذا كانت هناك نفقات كثيرة، كأن تكون الزراعة مسقية ففيه نصف العشر، وإذا كان نفقاته قليلة كأن تكون الزراعة بعلاً ففيه العشر، ويحمل الإنتاج الحيواني على الإنتاج النباتي في أصحِ الأقوال، وربُّنا عزَّ وجّل

قال:

﴿ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

إذا إنساناً ما كان يملك بستان تفاح، كل تفاحهِ أُستهلِك وأُكِل من على الشجر قبل جنيّ التفاح، ليس فيه زكاة، لكن يوم الحصاد مثلاً قطف أربعين صندوقاً، لو فرضنا جاره كان إنساناً فقيراً وبحاجة إلى مساعدة، هل من المعقول مثلاً أن نعطيه خمسة صناديق تفاح أيضاً ننظر إلى مصلحة الفقير، ممكن أن أعطيه ثمن نصف العشر من هذا الإنتاج نقداً، أيّ إذا كان دفع الزكاة عيناً نقداً أفضل.

فإذا كان عندي إنتاج قمح ، وهذا فقير وعنده مطحنة وعنده تنور، فكيس القمح يكفيه سنة تقريباً، والله أعطيه من زكاة القمح عيناً.

أمَّا إذا كان عندي كرز، وجنيت مئة صندوق كرز مثلاً، فالعُشْر عَشْرُ صناديق فإذا أعطيت جاري عَشْرَ صناديق، كل صندوق وزنه يقدر بعشرين كيلو، ماذا يستفيد هذا الفقير من كل هذه الصناديق؟ هذا ليس من المعقول، إذاً أعطيه ثمن الخمس صناديق أو ثمن العشر صناديق، إذاً دائماً دفع الزكاة في الفواكه و الثمار و الزروع والمحاصيل والبستنة، أيُّهما أنسب للفقير؟ أن أعطيه من هذا الإنتاج أم أعطيه مالاً؟ ممكن أن يكون ساكن إلى جانبي وفقير، أعطيه سحَّارة أم صندوق فاكهة؟ صندوق تفاح والباقي أعطيه مالاً.

هناك سؤال سألني به أ حد الأخوة، شخص ما جنى ألف صندوق تفاح، فهل الزكاة على الألف؟ يقول: دفعت خمساً وثمانين ألف ليرة مصاريف، كل ليتر مبيد ثمنه ألفا ليرة، وقد عملت أول رشّة و الثانية و الثالثة، مبيد فطري و حشري، واشترى محرّكاً، وهناك أجور عمال، فالنفقات التي أنفقت على هذه المزرعة حتى آخر هذا الإنتاج تحسم من ثمن الإنتاج، ليس من المعقول أن نقول له: على الألف صندوق زكاة وما دفعه؟ دفع خمساً وثمانين ألفاً كنفقات، أجور عمال، و أجور جني، وأثمان صناديق، وأثمان مبيدات ورش، لذلك نفقة الزراعة، النفقة تحسم من ثمن الإنتاج، فالتفاضل، إذا كان الإنتاج بعلاً من دون عناية، من دون مصاريف يكون عشراً، وإذا كان سقيّاً فنصف العشر.

وجوب الزكاة في كل محصول ثابت أساسي عليه استهلاك شديد :

طبعاً، أنا موضوعاتي كلَّها موضوعات خلافية، النبيّ عليه الصلاة و السلام ذكر أنَّ الزكاة في القمح و الشعير والزبيب و التمر، أمَّا العلماء فاختلفوا، هل تجب الزكاة في هذه الأشياء لذاتها أم لعلة فيها؟ إذا كانت لذاتها إذاً لا تجب الزكاة سوى في هذه الأربعة محاصيل، إذا كان فقط في القمح، مثلاً إذا كان شخص يوجد عنده مشروع تفاح إنتاجه السنوي خمسمئة ألف ليرة، توجد مزارع ضخمة، وآخر عنده مشروع كرز، وآخر عنده مشروع فريز، و رابه عنده مشروع عسل ضخم، مشروع أبقار، مشروع دواجن، هذه ليس عليها زكاة، فقط القمح و الشعير والزبيب و التمر؟ لا، العلماء قالوا: تجب الزكاة لا في ذواتها بل لعلَّة فيها، أي المحاصيل الأساسية لها أسعار ثابتة وعليها طلب كبير، قد يكون هناك إنسان قد زرع توتة واحدة فقط ويستهلكها استهلاكاً هذا بحث آخر. أمَّا كل محصول ثابت أساسي عليه استهلاك شديد، فهذا المحصول تجب فيه الزكاة، مشروع فريز يُباع فيه الكيلو الواحد بسبعين ليرة، فهذا المشروع ناجح جداً، هناك مشروع مثلاً فطر، هل عليه زكاة؟ الفطر ثمنه غالٍ جداً!! كل مشروع إنتاجي زراعي أو حيواني؛ أبقار، أغنام، دواجن، عسلاً مثلاً، هذا كله عليه زكاة، ومقداره العشر إذا كان بعلاً، ونصف العشر إذا كان سقياً، الإنتاج الحيواني يقاس على ذلك، المناحل في كهوف الجبال، مثلاً عنده بستان، هذا العسل مادام في كهف فعليه زكاة العشر، ولكن عندما تكون قد دفعت ثمن مناحل، وثمن أجهزة، وأدوات وشمع، إذاً عندئذ نصف العشر.

هذه بعض المعلومات، نحن لم ندخل بالتفصيلات ولا في الخلافيات، هذه معلومات دقيقة، نصاب الزكاة عشرة آلاف ليرة سوري، فضة، ذهب، ورق، مثل بعضها، لو كان عندك ثلاثة آلاف، وقليل من الفضة بألفين، و ذهب بألف، يصبح المجموع عشرة آلاف، يجب أن تضمٌ الأموال إلى بعضها، أمَّا موضوع أن يحول عليه الحَول فإذا وجد معك النصاب في طرفيّ العام تجب فيه الزكاة، لكن إنساناً منشئاً خطأً بياناً، عشرة آلاف نقصوا ليرتين في شهر الكانون الثاني، إذاً ليس عليهم زكاة!!! زادوا خمس ليرات، نقصوا ألف ليرة، هذا أمر مستحيل، طبعاً هناك كتب تدخل في تفصيلات مزعجة، نحن نريد أن نقول: المال إذا وجد في طرفيّ العام فوق النصاب عليه زكاة، انتهى الأمر.

واحد رمضان ماذا يوجد معك من المال؟ إذا كان معك مال فوق النصاب ادفع زكاة، واحد رمضان الثاني معك مال فوق النصاب ادفع زكاتهم، وانتهى الأمر، هذا المال كالورق و الفضة والذهب وعروض التجارة وزكاة الإنتاج الزراعي والبقر والغنم والماعز وما شاكل ذلك.

زكاة الحلي :

ردَّاً على جواب من أحد الحضور حول هذا الموضوع: معي جنزير واحد، زوجان من الحلق هذا هو الحليّ، أمَّا أملك ثلاثين جنزيراً ثمنهم مليون ليرة مثلاً فهذه ليست حليّ، لأن هناك عرفاً، هذه الزينة يمكن أن توضع في يد المرأة وفي آذانها وفي رقبتها، ممكن أن نضعهم كلَّهم فوق بعضهم فأغلب الظن الكمية المعقولة، أمَّا إذا كان الإنسان يدّخر أمواله بشكل حليّ، هذا ليس بحليّ، حتى العلماء قالوا: لو أنَّ سواراً انكسر فوضعناه في الدرج، هذا أصبح الآن مالاً، مادام هذا السوار لا يُستَهلك أصبح مالاً انقلب من سوار إلى ذهب له ثمن. امرأة موسرة معها أموال فائضة، أموال مقضيّة كثيرة، وأرادت أن تتقرب إلى الله تعالى، بدفع زكاة هذه الأساور، فهذا من باب الإحسان، لكننا نحن نريد الفرض:

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة الذاريات: 19]

الحليّ بالعدد المعقول، بالحجم المعقول، لكن جنزيراً ثمنه مئة ألف ليرة، هذا لم يعد حليّاً، هذا أصبح أموالاً مدّخَرة.

تلخيص لما سبق :

على كلٍّ موضوع زكاة المال، زكاة الزراعة، شخص عنده إنتاج تفاح، لو فرضنا استقرض أجور العمال، استقرض ثمن المبيدات، استقرض مثلاً أجور فلاحة الأرض، أجور الجني، هذه كلها قروض، فلو كان الإنتاج مئتي ألف، وعليه قروض بخمسين ألفاً، فحسمه المصاريف من ثمن الإنتاج الكلي بقي التفاضل، فهذه المئة والخمسون ألفاً، لو كان البستان سقي، وبمحركات، المحرّك له صيانة ومازوت و... فالزكاة هنا نصف العشر، أي واحد من عشرين تقريباً، فهذه المئة والخمسون لهم مقدار، ويمكن دفع الزكاة من المحصول، فلو كانت الزكاة عشرين صندوق تفاح، وأنت تعرف عشرين أسرة فقيرة، فتوزع عليهم هذه الصناديق، لكنك لا تعرف عشرين أسرة فقيرة، فتعطي لأسرة فقيرة صندوقين، وتوزع الباقي نقداً.

***

سالم بن عبد الله بن عمر :

بقي أن نتحدّث في درس اليوم عن التابعيّ الجليل سالم بن عبد الله بن عمر، التابعيّ الذي تحدّثنا عنه في الدرس الماضي له قصّة أخرى، سالم بن عبد الله بن عمر لم يُقبِل على الدنيا كما أقبل عليها غيره، ولم يحفَل بعرَضها الفاني، كما حفل بها سواه، وإنما زهد بما في أيدي الناس رغبةً بما عند الله، وأعرض عن العاجلة رجاء الفوز بالآجلة، جرّب خلفاء بني أميّة أن يغدقوا عليه الخير، كما أغدقوا على غيره، فوجدوه زاهداً بما في أيديهم، مُستَصغراً للدنيا وما فيها.

ففي ذات سنَةٍ، قدِم سليمان بن عبد الملك حاجّاً، فلما أخذ يطوف طواف القدوم أبصر سالماً بن عبد الله بن عمر، يجلس قبالة الكعبة في خضوعٍ، ويحرّك لسانه بالقرآن الكريم في تبتّلٍ وخشوع، وعَبرَاته تنهمر على خدّيه، حتى كأنّ وراء عينيه بحراً من الدموع، فلما فرَغ الخليفة من طوافه، وصلّى ركعتين سنَّة الطواف، توجّه إلى حيث يجلس سالم بن عبد الله فأفسح الناس له الطريق حتى أخذ مكانه بجانبه، وكاد يمَسُّ بركبتيه ركبته، فلم يتنبّه له سالم، لم ينتبه ولم يلتفت إليه لأنّه كان مستغرقاً بما هو فيه، مشغولاً بذكر الله عن كل شيء، وطفق الخليفة يرقب سالماً بطَرفٍ خفي، ويتلمّس فرصةً يتوقّف فيها عن القراءة، ويكفّ عن النحيب حتى يكلّمه، فلما واتته الفرصة، مال عليه وقال: السلام عليك يا أبا عمر ورحمة الله، فقال: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، فقال الخليفة بصوتٍ خفيف: سلني حاجةً أقضيها لك يا أبا عُمَر؟ فلم يجبْه سالمٌ بشيْء، فظنّ الخليفة أنّه لم يسمعه، فمال عليه أكثر من ذي قبلٍ وقال: رغبت أن تسألني حاجةً لأقضيها لك؟ فقال سالم: والله إني لأستحيي أن أكون في بيت الله عز وجل ثم أسأل أحداً غيره، فخجل الخليفة وسكت، لكنه ظلّ جالساً في مكانه، فلما قضيَت الصلاة نهض سالمٌ يريد المضيّ إلى رحْله، وحوله جموع الناس، هذا يسأله عن حديثٍ من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وهذا يستفتيه في أمرٍ من أمور الدين، وثالثٌ يستوضحه في شأنٍ من شؤون الدنيا، ورابعٌ يطلب منه الدعاء، وكان في جملة مَن لحق به خليفة المسلمين سليمان بن عبد الملك، فلما رآه الناس وسّعوا له حتى حاز منكبه منكب سالم بن عبد الله، فمال عليه وهمس في أذنه قائلاً: ها نحن قد غدَونا خارج المسجد، فسَلني حاجةً أقضيها لك؟ - هل لك عذر؟ في الداخل تستحي أن تسأل غير الله وأنت في بيت الله، هنا هل لك عذر؟ - فقال سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ أي تريد أن تقضي لي حاجةً من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ فارتبك الخليفة وقال: بل من حوائج الدنيا، ليس عندي شيء من الآخرة، سَلني من حوائج الدنيا، فقال له سالم: إني لم أطلب حوائج الدنيا ممن يملكها- وهو الله سبحانه وتعالى- فكيف أطلبها ممن لا يملكها؟ ظن الخليفة أنه

قد يملك أحد حوائج الآخرة، قال: بل من حاجات الآخرة، فقال له: أسألك أن تنقذني من النار، قال: هذه لا أملكها، قال إذاً ليس لي عندك حاجة، فانصرف الخليفة، وقد خجل واستحيا، وقال: ما أعزّكم يا آل الخطّاب! ما أعزّكم! فقد أعزّكم الله بالزهد والتُقى، وما أغناكم يا آل الخطاب، بارك الله عليكم من آل بيته، ما هذه العزة والتعفّف والتجمّل؟! وهذا من صفات المؤمن، شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس.

قيل: وفي السنَة التي قبلها حجّ الوليد بن عبد الملك، فلما أفاض الناس من عرفات لقي الخليفة سالمَ بن عبد الله في مزدلفة، وهو مُحرِم، فحيّاه وبيّاه– بياه: دعا له برفع المقام– حياه وبيّاه، ثم نظر إلى جسده المكشوف، فوجده تامّ البنية، بادي القوّة، كأنه بناءٌ مبنيّ، فقال له: إنك لَحَسَن الجسم يا أبا عمر، فما أكثر طعامك، ماذا تأكل؟ فقال: الخبز والزيت، وإذا وجدت اللحم أحياناً أكلته، فقال: الخبز والزيت! قال: نعم، قال: أَوَ تشتهيه – هل يؤكل معك؟ – قال: إن لم أشتهِه أتركه حتى أشتهيه – إذا كان عندك طعام لا تشتهيه اتركه فتشتهيه فيما بعد – أتركه حتى أشتهيه.

الشبه بين سالم و جده الفاروق في الجهر بكلمة الحق :

كما أشبَه سالمٌ جدّه الفاروق في الإعراض عن الدنيا، والزهد في عرَضها الفاني، فقد أشبهَه أيضاً في الجهَر بكلمة الحقّ مهما كانت ثقيلة الوطأة.

قيل: هذا التابعيّ دخل مرّة على الحجّاج في حاجةٍ من حوائج المسلمين، لا يشرَع للمؤمن والتقي أن يدخل على الأمير إلا من أجل أن يقضي حاجةً من حوائج المسلمين، لا للتزلّف بل لقضاء الحاجات، وفيما هو كذلك إذ أتيَ الحجاج بطائفةٍ من الرجال، شُعْثِ الشعور، غُبْر الأجسام، صُفر الوجوه، مقرّنين بالأصفاد – مكبَّلين – فالتفت الحجاج إلى سالم وقال: هؤلاء بُغاةٌ مُفسدون في الأرض، مُستبيحون لما حرّم الله من الدماء، ثم أعطاه سيفه وأشار إلى أولهم وقال: عليك بهذا – اقتل هذا – فالحجاج أراد أن يغطي عمله، بأن يقوم هذا التابعي الجليل حفيد سيدنا عمر بقتلهم، فيكون هذا العمل مشروعاً، أعطاه سيفه، وفي هذا إحراجٌ كبير، وقال: عليك بهذا الأول، اقتله، فقم إليه واضرب عنقه، فأخذ سالم السيف من يدي الحجاج ومضى نحو الرجل، وقد شخصت أبصار القوم نحوه تنظر ماذا يفعل، أيفعلها؟ فلما وقف على الرجل قال له: أمسلمٌ أنت؟ قال: نعم، ولكن ما أنت وهذا السؤال؟ قال: امض لإنفاذ ما أُمرت به، قال له سالم: وهل صلّيت الصبح؟ قال الرجل: قلت لك إني مسلم وتسألني إن كنت صليت الصبح؟ طبعاً صليت الصبح، وهل تظنّ أنّ هناك مسلماً لا يصلي؟ فقال سالم: أسألك أجبني،

أصليت الصبح هذا اليوم؟ هذا اليوم بالذات، فقال الرجل: هداك الله، قلت لك: نعم، وسألتك أن تنفذ ما أمرك به هذا الأمير، وإلا عرّضت نفسك لسخطه، أي نفّذ الأمر وإلا يسخط عليك، هكذا يقول له الرجل، وإلا يسخط عليك، فرجع سالم إلى الحجاج، ورمى السيف بين يديه وقال: هذا الرجل يقول: إنه مسلم، وقد صلّى الصبح هذا اليوم، وقد بلغني أن الرسول ﷺ قال:

((مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَانْظُرْ يَا بْنَ آدَمَ لا يَطْلُبَنَّكَ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ))

[أحمد عَنْ جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ]

وإني لا أقتل رجلاً دخل في ذمّة الله عز وجل، فقال له الحجّاج مُغضَباً: إننا لا نقتله على ترك فعل الخير، وإنما نقتله لأنه أعان مَن أعان على قتل الخليفة عثمان بن عفان، فقال له سالم: إن في الناس مَن هو أَولى مني ومنك بدم عثمان، فسكت الحجاج ولم يجب بأي جواب، ثم إن أحد شهود المجلس قدم على المدينة وأخبر عبد الله بن عمر – والده – فيما طلبه الحجاج من ابنه سالم، فلم يتريّث حتى يسمع بقية الخبر، وإنما بادر محدّثه قائلاً: "وما صنع سالمٌ بأمر الحجاج؟ فقيل له: صنع كذا وكذا، فسُرّي عنه وقال: كيّسٌ كيّس، أي عاقلٌ عاقل".

رسالة سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز :

ولما آلت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز، كتب إلى سالم بن عبد الله: يا سالم بن عبد الله، يقول له، أما بعد: "فإن الله عز وجل ابتلاني بما ابتلاني به من ولاية أمر المسلمين، عن غير مشورة منيّ ولا طلب، فأسأل الله الذي ابتلاني بهذا الأمر أن يعينني عليه، فإذا جاءك كتابي هذا فابعث لي بكتب عمر بن الخطاب و أقضيته وسيرته، فإنيّ عازم على أن أتّبع سيرته، وأسير على نهجه، إن أعانني الله على ذلك والسلام". فكتب سالم إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز، أمَّا بعد: " فقد وصلني كتابك الذي فيه أن الله عز وجل ابتلاك بإمرة المسلمين، من غير طلبٍ منك ولا مشورة، وإنك تريد أن تسير بسيرة عمر، فلا يفُتك أنك في زمانٍ غير زمان عمر، هذه أول ملاحظة، وأنه ليس في رجالك مَن يماثل رجال عمر.

يحكى أن أحدهم تطاول على سيدنا علي، قال: أجبني أيها الأمير لماذا انصاع الناس لأبي بكرٍ وعمر أي أطاعوهم ولم ينصاعوا إليك؟ – فيه استفزاز – وكان سيدنا علي فطناً فقال له: لأن أصحابهم كانوا أمثالي، وأما أصحابي فهم أمثالك، قال له: ليس في رجالك من يماثل رجال عمر، ولكن اعلم أنك إن أردت الحق ونويته أعانك الله عليه – هذه أول ملاحظة، إن أردت الحق ونويته – وأتاح لك عمالاً يقومون لك به، وأتاك بهم من حيث لا تحتسب، فإن عَون الله للعبد على قدر نيته، فمن تمّت نيته في الخير تمّ عون الله له، ومن قصّرت نيّته

نقص من عون الله له بقدر نقص نيته، وإذا نازعتك نفسك إلى شيء مما لا يرضي الله عز وجل فاذكر من كان قبلك من ذوي السلطان الذين سبقوك إلى الرحيل عن هذه الدنيا، يقال: إن عمر بن عبد العزيز ما دخل إلى مجلس الخلافة إلا تلا هذه الآية:

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾

[سورة الشعراء: 205-207]

وإذا نازعتك نفسك إلى شيء مما لا يرضي الله عز وجل، فاذكر من كان قبلك من ذوي السلطان الذين سبقوك إلى الرحيل عن هذه الدنيا، واسأل نفسك كيف تفقأت عيونهم التي كانوا يشهدون بها اللذات المحرّمة، وكيف تمزّقت بطونهم التي كانوا لا يشبعون بها من الشهوات، وكيف كانوا زيةً لو تركت إلى جانب مفاتننا ولم توار التراب لضججنا من ريحها، ولمسّنا الضرّ من نتنها، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته".

يروى أنّ سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عمّر عمراً مديداً حافلاً بالتقى، والصلاح، وبالهدى، وقد أعرض عن زينة الدنيا وزخرفها، وأقبل بابتلائه على ما يرضي الله تعالى، فأكل من الطعام ما غلُب، ولبس من الثياب ما خشُن، وغزا الروم مع جيوش المسلمين جندياً، وقضى حوائج المسلمين وحنا عليهم حنوّ الأمهات، فلمّا أتاه اليقين ارتجّت المدينة حزناً عليه، وترك نعيه في كل قلبٍ لوعة، وعلى كل خدٍّ دمعة، و هبّ الناس، كل الناس يشيعون جنازته، ويشهدون دفنه، وكان هشام بن عبد الملك يومئذٍ موجوداً في المدينة، فخرج للصلاة عليه وتشييعه، فلما رأى تزاحم الناس وتدفقهم، هالته كثرتهم، وأثارت في صدره شيئاً من الحسد، فسأل نفسه: ترى كم يخرج من هؤلاء الناس لو أن خليفة المسلمين مات في بلدهم؟ ثم قال لإبراهيم بن هشام المخزومي واليه على المدينة: افرض على أهل المدينة أن يبعثوا أربعة آلاف رجلٍ إلى الثغور ليحاربوا، فسمي هذا العام بالأربعة آلاف، هكذا كان سالم بن عبد الله بن عمر ، رحمه الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 15: أحكام الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الإحسان في المعاملة للمسلمين و غير المسلمين :

أيها الأخوة المؤمنون:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[البخاري عن عبد الله بن عَمْرو]

ألسنة المؤمنين، قد يتوهم بعض المؤمنين أن المسلم عليه أن يحسن معاملته للمسلمين فحسب بينما لو قصر مع غير المسلمين فلا شيء عليه لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ))

والحقيقة هي أن هذا الحديث له معنى دقيق جداً قد لا يخطر ببال أحد وهو أن مجموع المسلمين، سمعة المسلمين، شخصية المسلمين المعنوية يجب أن تسلم من هذا المسلم، أي أنت لو عاملت مجوسياً أو عابد صنم، وأسأت إليه وعرف أنك مسلم لا يتهمك أنت بل يتهم إسلامك، بل يتهم الإسلام كله، بل يتهم الدين كله. فأنت لا كما يظن بعض الناس من أنك يجب أن تحسن المعاملة للمسلمين فقط يجب أن تحسن المعاملة لكل المخلوقات، فلو أنك كنت دقيقاً في معاملتك مع المسلمين وجب أن تكون أكثر دقة بآلاف المرات فيما لو تعاملت مع غير المسلمين، لأنك إذا عاملت مسلماً وقصرت معه يتهمك بشخصك أنت، هو مسلم وأنت مسلم، فإذا أسأت إليه يقول: فلان الفلاني أساء إلي، لكنك إذا عاملت غير مسلم وأسأت إليه مباشرةً يطول دينك يقول: أهكذا الإسلام؟ أإسلامكم يأمركم بهذا؟ أهكذا ينبغي أن يفعله المسلم أهذا هو الدين؟ أهذا هو دين الله عز وجل؟ شيء دقيق جداً إذا عاملت غير المسلم فعد للمئات، إذا ظن أنك قد أخذت ماله بغير حق لغط في عرض المسلمين،

إذا كذبت عليه لغط في عرض المسلمين، فلا يكون المسلم مسلماً حقاً حتى ينجو المسلمون جميعاً في سمعتهم من لسانه ويده، هذا الحديث الشريف لو طبقه المسلمون لدخل الناس في دين الله أفواجاً، ولكن قد يفهمه بعضهم على أنك يجب أن تكون دقيقاً مع المسلمين فقط، أما مع غير المسلمين فهؤلاء كفار خذ من أموالهم ما شئت، هذا كلام فارغ لا يرضي الله عز وجل، ولا ينطبق مع نص هذا الحديث، المسلمون لهم شخصية معنوية، المسلمون لهم سمعةٌ طيبة، كل من تعامل مع غير المسلمين وأساء لهم فإن هذه السمعة قد تخدش، وإن هذا الريح الطيب قد تسوء، وإن هذه السمعة الطيبة قد تصاب بالخلل والعطب.

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[البخاري عن عبد الله بن عَمْرو]

وكأن النبي عليه الصلاة والسلام يجعل العمل عملين، عمل اللسان وعمل البنان، فاللسان له عمل، فالغيبة من معاصي اللسان، والنميمة، والوشاية، والسخرية، والاستهزاء، والاستعلاء، هذه كلها من أعمال اللسان، الإنسان وإن لم يفعل شيئاً مادياً يكفي أن يستهزئ بإنسان، يكفي أن يطوله بكلمات نابية، يكفي أن ينم بين شخصين، بين مؤمنين يكفي أن يفرق بلسانه.

فشتان أن تفهم هذا الحديث على أن المسلم عليه أن يكون محسناً للمسلمين فقط وبين أن تفهم الحديث على أن المسلم يجب أن يبالغ في دقة معاملته لغير المسلمين، لئلا يساء إلى سمعة المسلمين، وبهذا يضعف المسلمون أمام خصومهم من طريقة إساءة معاملة الآخرين.

باب الهجرة مفتوح على مصراعيه من المعصية إلى الطاعة :

والقسم الآخر من الحديث:

((... وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[البخاري عن عبد الله بن عَمْرو]

الحقيقة باب الهجرة من مكة إلى المدينة قد أغلق بعد الفتح، ولكن باب الهجرة مفتوح على مصراعيه بين كل مدينتين إلى آخر الزمان يشبهان مكة والمدينة، أو باب الهجرة مفتوح على مصراعيه من المعصية إلى الطاعة، من الكفر إلى الإيمان، من المحرمات إلى المباحات.

((... وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[البخاري عن عبد الله بن عَمْرو]

والحديث متفق عليه، وقد قال عليه الصلاة و السلام:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

[مسلم عن معقل بن يسار]

أي أنت إذا كنت في زمن صعب، في الطريق نساء كاسيات عاريات، المال مشبوه، أي معظم المعاصي تجدها في كل مكان، وأنت حفظت أمر دينك فهذا عمل عظيم، والله سبحانه وتعالى رشحك لمقام رفيع، لأنك إذا طبقت أمر الله في زمن الفتن وفي زمن الفساد فهذا له أجر عظيم لذلك:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ))

[الترمذي عن أنس]

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّهم عَنْهمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

[البخاري عن عبد الله بن عَمْرو]

* * *

صدقة الفطر :

والآن ننتقل إلى أبحاث الزكاة بعد أن انتهت بفضل الله ورحمته أبحاث الصيام، الموضوع الملح هو صدقة الفطر.

أولاً: المسلم في رمضان لعله لغا، تكلم كلمةً لا معنى لها، لعله تكلم كلمةً أساء بها عن غير قصد، فربنا سبحانه وتعالى جعل صدقة الفطر طهرةً للصائم من كل لغو ورفث، أي غلط غلطة، تكلم كلمة، نظر نظرة، طبعاً بما هو مباح، انشغل بشيء ما كان موقفه كاملاً، فهذا ما بدر منه في رمضان من تقصيرات، من لغو في الحديث، من نظرة غير صحيحة تأتي هذه الصدقة لتكون كفارةً لهذه الهفوات، فقال عليه لصلاة والسلام:

((فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ))

[أبو داود عَنِ ابْنِ عَبَّاس]

أي يوم العيد هذا يوم تعم فيه الفرحة المسلمين، فلا ينبغي أن يفرح إنسان دون إنسان بغض البصر عن دخله وعن مستواه الاقتصادي، يجب أن يفرح كل المسلمين، لذلك فرضت هذه الزكاة وهي زكاة الفطر لتكون طعمةً للمساكين وطهرةً للصائمين.

وجوب زكاة الفطر على الفقراء و الأغنياء :

الشيء الآخر من غرائب الأمور أن هذه الزكاة تكاد تفرض على كل مسلم، أي من يملك قوت يومه، من يملك ما يأكله مساءً قوت ليلته تجب عليه زكاة الفطر، قال بعضهم: هذا تدريب على دفع المال حتى في أشد ساعات العسرة، الفقير المعسر عليه أن يدفع هذا المال، أي الله عز وجل جعل هذا الفقير يأخذ المال في كل أيام العام لكن عليه أن يدفع زكاة الفطر ولو كان معسراً، ولو كان فقيراً، ولا يعفى من زكاة الفطر إلا من لا يجد طعام يومه، طعام يوم لا يجد، لكن من كان عنده طعام يوم فعليه زكاة الفطر، إن الله سبحانه وتعالى فرضها على المسلم الفقير تدريباً له على دفع المال، تدريباً له على أن يذوق طعم العطاء، طعم البذل، للبذل والعطاء طعم لا يعرفه إلا من ذاقه، حتى أنه في اللغة العربية هناك كلمة الأريحي، من هو الأريحي؟ هو إنسان فوق الكريم، يوجد عندنا كريم ويوجد سخي، الكريم معروف والسخي الذي يكثر البذل، لكن الأريحي يرتاح للعطاء، أي هناك لذة في الأخذ وهناك لذة في العطاء، هذه اللذة لا يعرفها إلا من ذاقها، فكأن الله سبحانه وتعالى أراد حينما فرض زكاة الفطر على كل مسلم غني أو فقير، صحيح أو مريض، ذكر أو أنثى، كأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يذيق طعم العطاء لهؤلاء الفقراء، إذاً تجب على الفقراء كما تجب على الأغنياء.

حكم صدقة الفطر :

حكم صدقة الفطر: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر من رمضان صاعاً من تمرٍ أو صاعاً من شعيرٍ على العبد والحر والذكر والأنثى والصغير والكبير من المسلمين:

((فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلاةِ))

[البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا]

وفي بعض الأحاديث الأخرى:

((فَرَضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَةَ الْفِطْرِ أَوْ قَالَ رَمَضَانَ عَلَى الذَّكَرِ وَالأُنْثَى وَالْحُرِّ وَالْمَمْلُوكِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ فَعَدَلَ النَّاسُ بِهِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهما يُعْطِي التَّمْرَ فَأَعْوَزَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ مِنَ التَّمْرِ فَأَعْطَى شَعِيرًا فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُعْطِي عَنِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ حَتَّى إِنْ كَانَ لِيُعْطِي عَنْ بَنِيَّ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الْفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ))

[البخاري عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِي اللَّه عَنْهمَا]

أي ما يعادل اثنين كيلو ونصف تقريباً، قدر هذا العام حدّ زكاة الفطر الأدنى بخمس وعشرين ليرة، وحدّه الأعلى "وما تنفقوا من خير يوفى إليكم"، الإنسان إذا كان في بحبوحة ودفع خمسين لا يوجد مانع، دفع مئة لا يوجد مانع، دفع ألفاً لا يوجد مانع، وهذا في حسابه، إذا دفعت مبلغ إيداع باسمك مهما كبر هذا المبلغ في النهاية لك هذا المبلغ، حدها الأدنى خمس وعشرون ليرة عن كل فرد أو عن كل رجل تمونه أو تلي عليه، أي تنفق عليه أو لك عليه حق الولاية، تطعمه أو ترعاه، طبعاً هذا الأمر يقتدي الوجوب، زكاة الفطر واجبةٌ على كل مسلم مالك للنصاب ولو غير نامٍ، وفي النهاية بإجماع العلماء من ملك زاد يومه، أي طعام يومه.

يخرجها الرجل عن نفسه، وعمن يمونه ويلي عليه كأولاده الصغار الفقراء ولو كانوا أغنياء له أن يخرجها من مالهم، لو رجل عنده أولاد أغنياء يخرج زكاة الفطر من مالهم هم، وعلى الجد أن يخرج زكاة الفطر عن أولاد ابنه إذا كانوا فقراء عند فقد أبيهم، أما أولاد ابنته فغير مكلف أن يخرج عنهم زكاة الفطر، ولا يكلف الرجل أن يخرج عن أولاده الكبار البالغين، ولا عن أبيه وأمه ولو كانوا في عياله، ولا عن زوجته سواء أكانوا جميعاً فقراء أم أغنياء، وإن كان الأفضل أن يخرج عنهم إن كانوا فقراء، أي زوجته ليس لها دخل، يوجد عندنا العدل والإحسان دائماً، هنا حكم زكاة الفطر فيها نوعان، يجوز إذا سأل رجل معسر سؤالا دقيقاً: أنا لي حق أن أدفع عن أولاد ابنتي؟ نقول له: لست مكلفاً، ولكن الأولى أن تدفع عن كل شخص تمونه أي تطعمه، أو تلي عليه بحق الرعاية، حتى أن بعضهم يخرج زكاة الفطر عن الجنين الذي في بطن أمه، لكن الأئمة الثلاث ذهبوا إلى أن الزوج ملزم

شرعاً بإخراج صدقة الفطر عن زوجته لكونه ملزماً بالإنفاق عليها، وكذلك عن أبويه، وهذا ما انفرد به المذهب الحنفي، لكن المذاهب الثلاث تلزم الرجل أن ينفق عن زوجته، وعن والديه، لأنه في الأصل ملزم بالإنفاق عليهم، نحن يوجد عندنا قاعدة رائعة جداً هذه القاعدة تقول: قبل أن تفعل اسلك الأحوط، وبعد أن فعلت مرغماً ابحث عن الأسهل، يوجد عندنا أربع مذاهب قبل أن تنفق المال ابحث عن الأحوط، الأحوط أن تخرج عن زوجتك وعن أبويك وعن كل فرد تمونه أو تلي عليه هذا هو الأحوط، فإذا دفعت أقل مما يجب عليك واستفتيت عندئذٍ يفتى لك بالأيسر، نقول: عند المذهب الحنفي لست ملزماً أن تخرج عن زوجتك، ولكن قبل أن تدفع ابحث عن الأحوط، بعد أن تقع ابحث عن الأسهل.

وقت صدقة الفطر :

تجب صدقة الفطر ولا تقبل بعد طلوع شمس يوم العيد، تقبل قبل طلوع شمس العيد، هناك من يقول: تجب مع غروب شمس آخر يوم من أيام رمضان، وهناك من يقول: تجب مع فجر يوم العيد إلى صلاة العيد، وأما إذا دفعت بعد الصلاة فإنها صدقة، وهناك من يقول: تجب بدخول رمضان، وأنا أفضل أن تدفع زكاة الفطر في رمضان لأنه عندما يطلع الفجر صعب أن يستفيد الإنسان من هذا المال أما في رمضان فيحتاج إلى كساء لأولاده، يحتاج إلى معونة، يحتاج إلى طعام، إلى شراب، فالعلماء سمحوا أن تدفع زكاة الفطر من أول رمضان، ولكن إذا دفعت بعد صلاة العيد فإنها غير مقبولة طبعاً ولا تسقط من الذمة، تصبح صدقةً ولا تسقط من الذمة.

مقدار صدقة الفطر :

مقدار صدقة الفطر عن كل شخصٍ نصف صاع من التمر أو الحنطة أو من الدقيق أي ما يقارب اثنين كيلو، أي ثلاثة آلاف غرام تقريباً، أي حسبت خمساً وعشرين ليرة، على الشعير ثلاث وثلاثون ليرة، على التمر ستون ليرة، نحن نأخذ بالأسهل، الحد الأدنى خمس وعشرون ليرة، تعطى هذه الصدقة للأرحام والأقارب ماعدا الأصول والفروع والزوجة، فلا يعطى المكلف فطرته لأمه أو أبيه ولا لأجداده ولا جداته ولا لابنه ولا أبناء ابنه ولا بناته ولا أولادها ولا يعطى للزوجة ولا الزوجة لزوجها، أي تداول الصدقة بين هؤلاء ممنوع، لأن هذه أحد أنواع المنفعة الباطنة، أي يجوز ابنك يريد منك ثياباً على العيد، دفعت له صدقة الفطر فاشترى بهم ثياباً، وأنت وفرت على نفسك ثمن الثياب، هذه غير مقبولة، الفروع مهما نزلوا والأصول مهما علوا والزوجة، وهذه الصدقة حكمها كحكم

الزكاة العادية.

صدقة الفطر واجبة لا تسقط بهلاك المال بعد وجوبها :

صدقة الفطر لا تسقط بهلاك المال بعد وجوبها، أي إذا المال هلك ربما سقطت عنه الزكاة بخلاف صدقة الفطر، لا تسقط بهلاك المال بعد وجوبها، من أفطر في رمضان بعذر لا تسقط عنه الفطرة فيجب إخراجها والنية بها عند الدفع للفقير، أو عند عزلها عن ماله، حتى من أفطر رمضان بلا عذر لا تسقط عنه صدقة الفطر، والولد الصغير أو المجنون صدقتهما من مالهما، إذا كان هناك يتيم يوجد عليه زكاة الفطر تدفع من ماله يدفعها عنه وليه وكذلك المجنون.

المرأة الغنية لا تكلف بزكاة الفطر عن أولادها ولو كان زوجها فقيراً، الرجل لا يكلف بصدقة الفطر عن أولاد زوجته الذين من غيره، الأرملة لا تكلف بالفطرة عن أولادها وإن كان لهم مالٌ أخرجت عنهم من مالهم لأنها مثلهم فقيرة.

زكاة الفطر تدفع في بلد إقامة المزكي :

يوجد شيء مهم في زكاة الفطر المعتبر في زكاة الفطر البلد الذي فيه صاحب المال بخلاف الزكاة، أي أنت لك معمل في الشام ومقيم في حمص، هذا المعمل الذي في الشام ربح ألف ليرة، عشرة آلاف، مئة ألف، هذا الربح كان من الشام فيجب أن تؤدى زكاة هذا المال في الشام، لو أنك مقيم في حمص يجب أن تدفع زكاة المال في مكان المال، أما زكاة الفطر فلها حكم آخر، تدفع زكاة الفطر في بلد إقامة المزكي، وليس في بلد المال، هذا حكم تنفرد به زكاة الفطر، المعتبر في زكاة الفطر البلد الذي فيه صاحب المال بخلاف الزكاة إذ المعتبر فيها البلد الذي فيه المال.

جواز تفريق صدقة الفطر أو جمعها :

يجوز إعطاء عدة صدقات فطر لفقير واحد، كما يجوز تفريق صدقة واحدة على عدة فقراء، لو أحب رجل ميسور أن يدفع ألف ليرة عن كل نفر ألف، عنده سبعة يدفع سبعة آلاف ممكن أن يدفع سبعة آلاف لسبعة أشخاص، ممكن دفع عدة صدقات فطر لرجل واحد، وممكن صدقة فطر واحدة إلى عدة فقراء، أي الشيء الذي يلفت النظر

أنه حتى الفقير يجب أن يعود على البذل، حتى الفقير يجب أن يذوق طعم العطاء، العطاء فيه طعم لا يعرفه إلا من ذاقه.

شيء ثالث عيد الفطر يجب أن تعم الفرحة كل المسلمين فقيرهم وغنيهم، فربنا عز وجل جعل هذه الزكاة، لا يرفع الصيام إلا بدفع زكاة الفطر، والإنسان ينتبه يجوز دفعها في رمضان، يجوز دفعها في أول رمضان، الإنسان يرتب أموره وحاجاته، ملابس أولاده، و مؤونة رمضان والعيد، أما أن تدفعها بعد صلاة العيد فهي غير مقبولة قطعاً.

الآن موضوع الزكاة موضوع مهم جداً ولست مضطراً أن أنهيه في رمضان نبدأ به من الآن لكن يجب أن يكون واضحاً لدى الجميع، هناك أحكام دقيقة في الزكاة فإن شاء الله نبدأ به من الآن ولكن ليس المقصود أن ينتهي في رمضان نأتي به على شكل تفصيلي.

شروط صحة أداء الزكاة :

من موضوعات الزكاة شروط صحة أداء الزكاة، أولاً: النية المقارنة للأداء إلى الفقير، يجب أن تنوي لكن النية عند الفقهاء الثلاث عدا أبي حنيفة يجب أن تسبق العمل، لكن عند أبي حنيفة هناك نية حكمية يمكن أن ترافق العمل، لو أعطيت الفقير مبلغاً من المال بعد أن أعطيته هذا المال وقبل أن ينفقه نويت أن يكون من مال الزكاة فهو يصح في المذهب الحنفي ولكن لابد من النية، النية المقارنة للأداء إلى الفقير، أو وكيل المزكي. بالمناسبة يمكن أن يدفع الزكاة عنك وكيلك، يمكن أن توكل إنساناً لدفع الزكاة، يوجد مجموعة عبادات يصح فيها التوكيل، فإذا نوى الوكيل دفع زكاة المال عن الأصيل فهذه النية مقبولة حقيقةً أو حكماً، حقيقةً كأن ينوي عند الدفع للفقير، أما حكماً كأن يدفع المال لفقير بدون نية ثم ينوي بعد الدفع والمال لم يتصرف فيه الفقير بعد، شيء مهم جداً لا يشترط يا أخوان – أحياناً يكون المسلم جاهلاً في أحكام دينه ويرتكب حماقات– لا يشترط علم الفقير أنها زكاة، أي لك فقير مستور، لك فقير له شأن لكنه فقير، له كرامته ومكانته الاجتماعية أي دخله أقل من مصروفه، يجب أن تعطيه المال على أنه زكاة، هنا يقول العلماء: لا يشترط علم الفقير أنها زكاة حتى ولو قال للفقير هذه هبة أو هذه قرض، يوجد إنسان كرامته غالية عليه يقبل أن يأخذ قرضاً، أعطه زكاة مالك قرضاً، ثم انوِ بقلبك أنها زكاةً تقع عن الزكاة لأن العبرة عن النية، لو دفع هذه الزكاة إلى صبيان أقاربه بمناسبة عيد جاز، قدمت إلى أولاد قريب لك هدايا في العيد، مثلاً يريدون أقلاماً ودفاتر، كتباً معينة، ألبسة، أنت قدمت لأولاد

أخيك، لصديقك، لقريبك هدايا في العيد، هذه الهدايا للصبيان بمناسبة العيد تعد من الزكاة، أو دفع هبةً بمناسبة عرس، لك صديق تزوج و الزواج فوق طاقته قدمت له براد هدية، هذا ممكن أن يكون من الزكاة وهو لم يدرأنها زكاة، شعر أنها هدية زواج، يهمني أن تحفظ للمؤمن كرامته، لا تشعره أنه فقير يستحق الزكاة، هناك من يجهل ذلك ويقول: هذه زكاة المال تملكها، هذه زكاة مالي تملكها من أجل أن تصح، لا، قدمها على شكل هدية بمناسبة العيد، بمناسبة زواج، بمناسبة فرح مثلاً، تقدم على شكل هبة، تقدم على شكل قرض، العبرة أن يصل هذا المال إلى المستحق من دون أن تجرحه، من دون أن تخدشه، من دون أن تحرجه، من دون أن تصغره، أحياناً الإنسان حسب زكاة ماله بواحد رمضان، كان المبلغ كذا من المال لا يملك الآن مصارف للزكاة جاهزة، فيوجد عندنا حالة اسمها العزل، أي المبلغ عشرة آلاف وضعهم في ظرف وكتب عليهم زكاة المال، فكلما شاهد حالة تستحق المساعدة، دفع ألفاً أو ألفين باستمرار، فحينما عزل هذا المال عن أصل المال، فهذه النية تعد نيةً صالحةً للزكاة، النية عند الدفع أو عند العزل، في هذه الحالة لا تلزمه النية عند الدفع لأنه وضع عشرة آلاف بظرف ودفعهم ألفاً أو ألفين، خمسمئة عندئذٍ هو معفى نية الدفعات الجزئية لأنه نوى عزل الزكاة.

الزكاة لا تسقط بالعزل بل بالأداء للفقير :

إذا سرق الصندوق الذي فيه مال الزكاة هل سقطت عنه الزكاة؟ الجواب لا، لا تسقط، وشبهوها تشبيهاً لطيفاً أخ له عليك دين، له عليك عشرة آلاف، فأنت وضعتهم في جيبك وسرقوا منك، وأنت نويت أن تعطيه العشرة آلاف الآن في الطريق سرقوا يا ترى الدين سقط عنك؟ لا يسقط لأنه يقول لك: أنا ما قبضت شيئاً، أنت مفرط، فلا تسقط الزكاة بالعزل بل بالأداء للفقير.

يوجد عندنا حكم غريب إذا إنسان تصدق بكل ماله وهو لا ينوي بذلك الزكاة سقطت عنه الزكاة استحساناً، لا يوجد معه شيء بعدئذٍ تبين أنه ما دفع زكاة ماله فهذا المال الذي دفع يعد حكماً من مال الزكاة. أي أدق حكم في الزكاة موضوع حولان الحول، يوجد أناس يتلاعبون ويحتالون على الله عز وجل، أنت بواحد رمضان ولكن الزكاة هجرية وليست ميلادية أي السنة الميلادية أكثر إذا أردت الدقة يجب أن تدفع زكاة مالك على الحساب الهجري، إذا أحد مضطر بدفع الميزانية يدفع زيادة، الفرق العشرة أيام بين السنتين، أما الزكاة على العام الهجري، أي يا ترى هذا المال حال عليه الحول أم لم يحل عليه الحول؟ المبلغ هبط أو ارتفع أثناء السنة يا ترى كيف أحسب؟ الحساب على الليرة في اليوم عملية صعبة جداً، عندك بواحد رمضان أو بواحد واحد كم هو

مالك تدفع عنه الزكاة، بواحد رمضان الثاني كم هو مالك تدفع عنه الزكاة، والذي معك الآن تدفع، هو الذي حال عليه الحول، أما قضية أن تدخل في متاهات الحسابات يا ترى هذه المئة ألف نقصت في واحد من الشهر السادس يا ترى عليهم زكاة؟ أنت أجري حساب جرد سنوي على السنة القمرية أصح أو على السنة الميلادية وادفع عن المال الذي بحوزتك.

زكاة الأموال من الذهب والفضة وعروض التجارة :

زكاة الأموال من الذهب والفضة وعروض التجارة هذا شيء دقيق جداً، أحياناً الإنسان يشتري محلاً تجارياً، والنية أن ينتفع فيه، وهو له محل تجاري، أخذه الثاني ليبيعه، هذا المحل صار من عروض التجارة، يسكن في بيت ومرتاح به، وعنده بيت ثان اشتراه لينتفع به بهذه النية، هذا البيت صار عليه زكاة، أما ساكنه فلا يوجد عليه زكاة، اشتراه ليؤجره الزكاة على الأجرة وليست على الثمن، إذا اشترى هذا البيت ليؤجره فالزكاة على ريع البيت لا على البيت، إذا اشتراه ليسكنه لا زكاة عليه، إذا اشتراه لينتفع بتجارته صار عليه زكاة، أي تاجر العمار أمواله كلها بيوت، البيت في الأساس لا يوجد عليه زكاة، البيت المستهلك، والمحل المستهلك، والعدة المستهلكة، والآلات المستهلكة، والدابة المستهلكة، والمركبة والفرش المستهلك، هذا كله لا يوجد عليها زكاة، ولكن أحياناً يوجد عندك في البيت سجاد كامل ورأيت سجاداً، قال لك رجل: هذا السجاد مثل الذهب، كل سنة يتضاعف سعره، أخذت أربع سجادات بمئتي ألف ليرة، أخي هذا أثاث، لا ليس أثاثاً، ما دام الشراء لأن تبيعها صار تجارة والله رب النوايا، امرأة يوجد عندها جنزير ذهب هذا حلي، يوجد مذهب لا يوجد عليها زكاة، أما عندها ثلاثون جنزيراً هذا ليس حلياً وهذه ثروة، تضع أموالها بشكل ذهب، أحياناً يكون تداول الذهب ممنوعاً ومسموحاً تداوله كحلي، فاشترى حلياً، المظهر أنه حلي، وهو اشترى كيلو أساور، ما هذه الأساور؟ هذا كيلو ذهب، يوجد أناس يشترون الذهب ويحتالون به على الله، يوجد أناس يحتالون على الله وكأنه طفل صغير، هل هذا معقول؟ أنت اشتريت كيلو أساور من الذهب وتقول لا يوجد عليها زكاة!! هكذا المذهب الفقهي؟ لا يوجد عليها زكاة، سوار أو اثنان لزوجتك هذا معقول.

زكاة الأموال من الذهب الفضة وعروض التجارة والسوائم تدفع مرةً واحدة في العام، وليس لها وقت محدد، أي أنت لك الخيار أن تدفعها بأول العام، بآخر العام، ولكن التعجيل أولى، أما المكلف بالخيار فيدفع زكاته من أول العام أو أوسطه أو آخره، ولا يجوز تأخيرها للعام القادم، فإن لم تؤدَ حتى مضى عام قادم يجب أن تدفع عن

العامين، يوجد عليك زكاة عشرة آلاف السنة الماضية ما دفعتها هذه لا تسقط، دين الله أحق أن يؤدى، أما زكاة الزروع والثمار فتدفع من غلاتها، إذا عندك أرض تزرعها ثلاث مرات في السنة على كل مرة يوجد زكاة، لا يوجد هنا حولان الحول في الزروع على الإنتاج الزراعي من دون النظر إلى أي شيء آخر ، وإن شاء الله في درس قادم نتابع هذا الموضوع.

* * *

عمر بن عبد العزيز :

كلمة صغيرة عن سيدنا عمر بن عبد العزيز ننهي بها حياته التي سعدنا بها في هذه الدروس، كان له كلمة هذا الخليفة العظيم يقول: "ربي هذه رايتك لن أسلمها – الراية تشير إلى الحفاظ على البلاد، راية الجهاد لا أسلمها لأحد – ربي هذه رايتك لن أسلمها، وهذه وديعتك لم أخنها"، أي إذا الإنسان عاش عمراً مديداً وما خان الأمانة، وما سلم للعدو، ولا قصر مع الخلق، فهذه شهادة كبرى.

ويقول هذا الخليفة العظيم: "إن لله شرائع وسنن إن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها، و إن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص"، أي الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، هذا الخليفة العظيم بقربه من الله عز وجل و بسعادته بالله عز وجل مشتاق إلى الله عز وجل، أي لا زوجة، و لا ولد، و لا صديق، و لا حميم يثنيه عن طلب اللقيا مع الله عز وجل، و كان له دعاء يدعوه قبل موته يقول: "اللهم اقبضني إليك غير مضيع و لا مفرط".

أشار عليه أحدهم أن يذهب إلى المدينة فإذا مات هناك دفن مع رسول الله صلى الله عليه و سلم و صاحبيه فقال: "و الله لأن يعذبني الله بكل عذاب إلا النار فإني لا صبر لي عليه أحب إلي من أن أرى نفسي بهذا المقام أهلاً"، كان متواضعاً، هو يدفن مع صاحبي رسول الله؟! هو من هو؟ كلما تواضعت يكون مقامك كبيراً، و كلما صعدت يكون مقامك صغيراً، يرى نفسه ليس أهلاً لأن يدفن مع صاحبي رسول الله، دخل عليه ابن عمه مسلمة بن عبد الملك و قال له: يا أمير المؤمنين ألا توصي لأولادك فإنهم كثيرون وقد أفقرتهم ولم تترك لهم شيئاً؟ ويجيبهم عمر: "وهل أملك شيئاً أوصي بهم لهم، أم تأمرني أن أعطيهم من مال المسلمين، والله لا أعطيهم حق أحد وهم بين حالين إما أن يكونوا صالحين والله يتولاهم وإما غير صالحين فلا أدع لهم ما يستعينون به على

معصية الله"، لأنه ربنا عز وجل قال آية:

﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾

[سورة الأعراف: 196]

آية دقيقة جداً إذا كنت صالحاً الله يتولاك، يتولى أمرك، أمر زواجك، أمر سكناك، أمر بيتك، الله نفسه يتولاك، فإن كانوا صالحين الله يتولاهم، وإن كانوا غير صالحين لا أدع لهم مالاً يستعينون به على معصية الله. قبيل وفاته جلس أبناؤه وأقرباؤه حوله، وأحاطوا به، وعانقوه بنظرة حانية آسية، فقال لهم: "يا بني إن أباكم قد خيّر بين أمرين، أن تستغنوا ويدخل النار، أو أن تفتقروا فيدخل الجنة، فاختار الجنة وآثر أن يترككم لله عز وجل الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين".

إما أن تقتنوا من مال حرام ويدخل أبوكم النار، أو تفتقروا ويدخل الجنة، وأنتم إن كنتم صالحين فالله سبحانه وتعالى يتولكم، وآخر آية ذكرها قبل أن تفيض روحه إلى السماء قال، قال تعالى:

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة القصص: 83]

أي هنيئاً لمن أمضى عمره في طاعة الله، هنيئاً لمن فعل للآخرة، أي هل يوجد أجمل من إنسان أمضى حياته كلها، ماله، طاقاته، وفكره، وإمكاناته كلها في طاعة الله وجاءه ملك الموت وكان راضياً عن عمله وكان مستعداً للقاء الله عز و جل؟ هذا معنى قوله تعالى:

﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي* وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴾

[سورة الفجر: 27-30]

أي المؤمن عندما يعرف مقامه في الجنة يقول: لم أرَ شراً قط، كل المتاعب والأحزان والمصائب والهموم والمخاوف التي ساقها الله له في الدنيا يراها لا شيء تتلاشى أما إذا أمضى حياته في معصية الله وكان في نعيم مقيم، وفي بحبوحة من طعام وشراب ومال وأولاد وعرف مكانه في النار فيقول: لم أرَ خيراً قط، وهذه البطولة.

ليس من يقطع طرقاً بطلا ً إنما من يتق الله البطل

***

كل منا يأكل ويشرب ولكن من ينظر لهذه الساعة التي لابد منها، كل متوقع آت وكل آت قريب.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 16: الزكاة وما يتعلق بها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا لا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علَّمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقًّا و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، و اجعلنا ممن يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

معاني الزكاة :

أيها الأخوة الأكارم، الموضوع الأكثر أهمية في رمضان هو موضوع الزكاة، لأن الزكاة فرضٌ من فروض الإسلام، و كلكم يعلم أن معنى الزكاة هو الطهارة و النماء، فالزكاة تطهِّر الغنيَّ من الشُّح، و الفقير من الحقد، و المال من تعلُّق حق الغير به، وتنمو بالزكاة نفسُ الغني، و يشعر بعطائه و آثار عمله في المجتمع، و تنمو في الزكاة نفس الفقير فيشعر أن المجتمع قد كفله، و ينمو في الزكاة المالُ نفسُه ففي الزكاة ستُّة معاني؛ تطهيرُ نفس الغني و الفقير و المال، و تنمية نفس الغني و الفقير و المال، هذه هو المعنى اللغوي لكن المعنى الشرعي بالذات التعريف الدقيق للزكاة: تمليكُ جزءِ مالٍ عيَّنه الشارعُ لمسلم فقير غير هاشميٍّ لله تعالى مع قطع المنفعة عن المملِّك من كل وجه، هذه التعريف يحتاج إلى تفسير، قال: التمليك شيء و الإباحة شيء آخر، لو صنعت طعاماً و جاءك فقيرٌ أبحت له أن يأكل هذا إباحة، أما التمليك فأن تعطيه ما لا يتملَّكه و يصبح له حقُّ التصرُّف فيه، فلئلا يُفهم من الزكاة معنى الإباحة، أبَحت لإنسان أن يسكن هذا البيت، الزكاة تمليك مال، أي هذا المال يجب أن يُملك للفقير، تمليك مال، أو تمليك جزء مال، جزء من مال الغني، لذلك لا تُعد المنفعة مالاً، البيت يُملك، تملك رقبته أما أن تُملك منفعته فالمنفعة ليست مالاً يمكن التصرف فيه، لكن المنفعة لا بد أن تُستهلك، لا يمكن التصرف فيها، إذًا تمليك جزء مال عيَّنه الشارع، وهو الذي سوف نصل إليه، كلُّ مال له نصاب وكل نصاب له نسبة تُعطى فيها الزكاة لمسلم فقير.

من لا تحل له الزكاة :

لا تصحُّ الزكاةُ لا لكافر و لا لغني و لا لبني هاشم، هؤلاء لا تُرد الزكاة عليهم، لأن النبي عليه الصلاة و السلام قال:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَام وَالْعَبَّاسَ أَتَيَا أَبَا بَكْرٍ يَلْتَمِسَانِ مِيرَاثَهُمَا أَرْضَهُ مِنْ فَدَكٍ وَسَهْمَهُ مِنْ خَيْبَرَ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ فِي هَذَا الْمَالِ وَاللَّهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

هذه الزكاة لا تصح لبني هاشم، لكن بعض الفقهاء قال: إن بديل الزكاة هو خمس الخمس، فلو لم يُعطَ بنو هاشم بديل الزكاة صحَّت عليهم الزكاة، هذا رأي من آراء الفقهاء، لكن دعونا من بني هاشم مؤقَّتاً، لا تصح الزكاةُ لغني و لا لغير مسلم، يجب أن يكون مسلماً فقيراً، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

الزكاة باطلة إن جاءت منفعة منها :

لكن قطع المنفعة هذا الشيء مهم جداً، أي أنا حينما أعطي زكاة مالي و أوفِّر النفقة، أي لو أعطيت ابني زكاة مالي أنا عليَّ أن أنفق عليه، فإذا أدَّيت زكاة مالي لابني وفَّرت في النفقة، جاءتني منفعة من هذه الزكاة، فحيثما جاءت المنفعة من الزكاة فالزكاة باطلة، يجب أن تُقطع المنفعةُ كلَّياً عن المزكِّي، لذلك لا تجوز الزكاة لا للأصول و لا للفروع و لا للزوجة، لكن الزوجة في إعطاء زكاة مالها لزوجها قضية خلافية، بعضهم يرى أنه ليس عليها أن تنفق عليه لذلك يجوز أن تعطي الزوجةُ زكاة مالها لزوجها الفقير، و بعضهم قال: إن أعطته زكاة مالها عاد عليها بالنفع، فاشترى طعاماً و شراباً و كساء فعادت عليها هذه المنفعة، على كلٍّ الضابط لهذا الموضوع أنك إذا دفعت زكاة مالك لإنسان فوفَّرت في هذه الزكاة من نفقاتك، هذه الزكاة باطلة، لو فرضنا إنساناً يجوز أن يعطي زكاة ماله لأخيه أو أخته الفقيرة أو الفقير لو أن أخته في رعايته و هذه في البيت وهو مكلَّف أن ينفق عليها فإذا أدَّى إليها زكاة ماله فقد وفَّر في نفقته، إذًا عادت المنفعة إليه، فالضابط في هذا الموضوع أن تنقطع منفعتُك من هذا المال، مادام هذا المال له منفعة فالزكاة فيها شبهة، قطع المنفعة عن المملِّك، لذلك لا

تجوز الزكاةُ لا للأصول مهما علوا و لا للفروع مهما دنوا و لا للزوجة، و لا للأقارب الذين أنت مكلَّف بالإنفاق عليهم، فإذا دفعت الزكاة إليهم فقد وفَرت إنفاقك عليهم.

الزكاة لله تعالى :

و لله تعالى، أي الزكاة يجب أن تكون خالصةً لله عز وجل، أما أنها فرض فشيء ثابت بالكتاب و السنة، قال تعالى:

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾

[سورة البقرة: 43]

وقال عليه الصلاة و السلام:

((بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[البخاري عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

و الزكاة فُرِضت في السنة الثانية للهجرة قبل فرض رمضان، قد قُرنت الصلاة و الزكاة في اثنتين و ثمانين موضعاً في كتاب الله عز وجل، و هي ركنٌ من أركان الإسلام و من أنكرها فقد كفر، و من منعها يقاتَل هذا الحكم الشرعي.

من مات و لم يدفع زكاة ماله تؤخذ من الوصية :

من مات و عليه زكاة ماله لا ينبغي أن تُؤخذ هذه الزكاة من تركته، لأن هذه التركة أصبحت ملكاً للورثة، و لكن إذا وصَّى يمكن أن تؤخذ من وصيته لا من تركته، أما إذا تبرع الورثة ليمكِّنوا المتوفَّى من أداء زكاة ماله التي هي دين لله عز وجل فهذا يجوز، أحكام دقيقة، لو الورثة تبرَّعوا، لو أن أباهم توفي و لم يؤدِّ زكاة ماله و اجتمع الورثة و قالوا: يجب أن ندفع الزكاة من مال أبينا إحقاقا لهذا الدَّين المستحق عليه لله تعالى، إذا أجاز الورثة جاز أن يدفع زكاة مال هذا المتوفَّى من ماله أما إذا لم يجيزوا فلا تُدفع إلا من الوصية.

شروط وجوب الزكاة :

في الحقيقة من شروط وجوب الزكاة الإسلام، فلا تجب الزكاة على غير المسلم، لا الكافر و لا المرتد، و من شروط وجوب الزكاة العقل، فالمجنون غير مكلَّف بأداء الزكاة، و من شروط وجوب الزكاة البلوغ فلا تجب الزكاة على مال الصبي، و هذا موضوع خلافي، بعضهم قال: إذا كنا نتَّجر بهذا المال، و لهذا المال ريعٌ تجب فيه الزكاة و بعضهم قال: إذا كان هذا المال مجمَّداً لا تجب فيه الزكاة، و بعضهم قال: إن كل النفقات و الغرامات تُدفع من مال اليتيم الصغير لتعلُّق حق الغير بهذا المال، أما أن تجب عليه زكاة ماله فهو ليس مكلفاً، و الزكاة موجَّهة إلى المكلفين المسلمين، و لم تُوجَّه إلى أصحاب الأموال من غير البالغين.

و الحريةُ أيضا شرط من شروط وجوب الزكاة، فلا تجب الزكاة على العبد، إذًا الإسلام و العقل و البلوغ و الحرية، مسلم بالغ عاقل حر، الآن يجب أن يكون مالكاً للنصاب.

نصاب الزكاة :

نصاب الزكاة الحدُّ الأدنى الذي تجب فيه الزكاة، و كل عام تُجرى حسابات دقيقة في موضوع الفضة و الذهب من حيث الثمن، الفضة و الذهب بالعملة النقدية الورقية المتداولة، تقريبا في الزكاة سبعة آلاف ليرة تجب فيها الزكاة على أساس الفضة، و في الذهب تجب الزكاة فيما فوق الأربعين ألف ليرة سورية، أما السعر بدقة أبلِّغكم إياه في درس قادم إن شاء الله تعالى بحسب أسعار الذهب والفضة الرائجة في أيام رمضان. على كلٍّ تجب الزكاة في النصاب الأقل رعاية لصالح الفقير، أي كلُّ ما زاد على حاجاتك الأساسية فهو نصاب تجب فيه الزكاة، حدُّه الأدنى سبعة آلاف، و هناك رأي، و هذا الرأي يعجب الإنسان هو أنه كل ما زاد من حاجاتك الأساسية ادفع عنه زكاة مالك، في الأربعين واحد صار خمس النصاب يُدفع عنه وحدة من وحدات هذا النصاب.

هذه الشروط متعلِّقة بالمزكِّي، الإسلام و العقل و البلوغ و الحرية و ملك النصاب، النصاب الآن النصاب الغالب العملة الورقية، لو معك ذهب له نصاب، لو معك فضة لها نصاب، لو معك عملة هي بديلة الذهب و الفضة، إذًا نحدِّد قيمة الذهب و الفضة و نحوِّلها إلى العملة الورقية، تقريباً كما قلت قبل قليل: الفضة سبعة آلاف و الذهب فوق الأربعين ألفاً، في دفع الزكاة للفقراء لا ينبغي أن تعطي الفقير أكثر من نصاب، العلماء رجَّحوا نصاب الذهب، حتى الأربعين ألفاً، أما في وجوب الزكاة فالأولى أن تجب الزكاة لا على نصاب الذهب بل على

نصاب الفضة، و الأكمل ما زاد عن حاجاتك الأساسية ادفع عنه عن كل أربعين واحداً.

الشروط المتعلقة بالمال نفسه :

الآن الشروط المتعلقة بالمال نفسه، قال: يجب أن يكون الملكُ تامًّاً، عندنا ملك ناقص، لك مع إنسان دين، و هذا الدين ليس في يدك، فهذا الدين ليس ملكاً تاماً، ملكاً ناقصاً، فالعلماء قالوا: لا تجب الزكاة لا في المال المفقود، و لا في المال المغصوب، و لا في المال المدفون الذي لا يُعرف مكانه، و لا في المال المُستملك من قِبَل الدولة، مال مستملَك، مصادر، مغصوب، مفقود، مدفون في مكان ليس معروفاً فيه، هذا المال ملكيته ليست تامة فالمال المستملك ربما أعيدت هذه الأرض إلى صاحبها، أو أُعيد هذا المالُ المستملك إلى صاحبه، عندما يعاد تجب فيه الزكاة، فالمفقود و المغصوب و المدفون و المستملَك ملكية هذا المال ليست ملكية تامة، إذًا لا تجب فيها الزكاة، لحديث علي: "لا زكاة في مال الضمار".

مال الضمار المال المخبأ أو المدفون أو المغصوب أو المفقود أو المغصوب كما قلت قبل قليل.

أحكام الدّين :

الدَّين له أحكام خاصة، هناك دين ضعيف، و هناك دين متوسّط، و هناك دين قوي، الدين الضعيف الذي جحده المدينُ، ليس لك عندي شيء، أنت أعطيتني مئة ألف و ليس معك وثيقة، لا إيصال، و لا سند، و هذا المدين جحد هذا الدين، فهذا دينٌ ضعيف لا تجب فيه الزكاة في رأي الفقهاء، و لكن الدين المتوسط، الدين معترفٌ به، لكن تحصيله صعب، فصاحب الدين حينما يقبض الدين يدفع زكاة هذا الدين عن السنوات السابقة، أو حينما يقبض خمس النصاب من هذا الدين مثلاً الزكاة أربعون ألفاً، أعطاه دفعة ثمانية آلاف، ثمانية آلاف خمس النصاب، عليها، الأربعون كم خمسها؟ خمسة في ثمانية، أربعون خمس النصاب عليه مئتا ليرة تقريباً، فحينما تستردُّ خمس النصاب تدفع زكاة المال، و هكذا، لكن الدّين القوي كقرض ثابت محقَّق الدفع هذا تجب فيه الزكاة قولاً واحداً، فإذا كان معك مالٌ من جنس هذا الدين يجب أن تؤدِّي زكاة مالك و لو لم يُؤَدَّ الدينُ بعد، فعندنا دين قوي، و دين متوسّط، و دين ضعيف، الضعيف لا زكاة فيه، و المتوسط حين قبضه، و القوي تدفعه زكاة هذا الدين من مال آخر متوافر بين يديك.

الآن لو أن معك مالاً، و عندك دين، عندك في المحل التجاري بضاعة قيمتها مئة ألف ليرة، لكن عليك بعض ثمنها للتجار، عليك أربعون ألف ليرة دين لتجار أصحاب هذه البضاعة، فبشكل طبيعي جداً يمكن أن تطرح هذا الديّن من قيمة البضاعة و تؤدِّي زكاة مال التفاضل بين الموجود و بين المبلغ المدين.
الدين المانع للزكاة له شروط، الدين الذي يمنع الزكاة أو الذي يخصم من الزكاة له شروط، الدين الذي له مطالب، أي إنسان يطالبك بهذا الدين، بل إن الزكاة ما دام الإمام يطالب المسلم بزكاة ماله فالزكاة تُعدُّ ديناً يسقط جزءًا من قيمة النصاب، إذًا الدين الذي له مطالب من قِبَل الله عز وجل عن طريق الإمام أو من قِبل العباد، هذا الدين يُطرَح من أصل المال، يؤدي عن المتبقِّي، إنسان مثلا عمل جردًا، و عليه زكاة عشرون ألف لم يؤدِّها في العام القادم عمل جرداً من حقِّهِ أن يطرح زكاة ماله التي لم تُدفع من أصل المال المجرود لأن زكاة المال دينٌ هناك من يطالبك به، وهو الإمام، أما الديون الأخرى من قِبل العباد فهذه قطعاً تُسقَط من حساب جرد الأموال.

الزكاة في الأموال النامية أما الأموال المستهلكة فلا زكاة لها :

النصاب في الأصل يجب أن يكون زائدا عن حوائجك الأصلية، مثلا سبعة آلاف لو أنت بحاجة إلى طعام، أو شراب، الحاجة الأساسية الطعام و الشراب و الكساء و المأوى و أثاث البيت و محل العمل و أدوات الحرفة و المركوب، هذه الحاجات الأساسية؛ طعام و شراب و لباس ومأوى و مكان عمل و آلات حرفة و أداة نقل، هذه كلها الحاجات الأساسية، المال الذي يفيض عن هذه الحاجات الأساسية إذا بلغ سبعة آلاف فهو نصاب على أساس الفضة، إذا بلغ أربعين ألفاً فهو نصاب على أساس الذهب، لكن دائماً هناك نقطة و أتمنى على الله عز وجل أن تكون واضحةً، أي الخطأ مع الله صواب، لو أنك دفعتَ أكثر مما عليك، لو أن دفعت زكاة مالك على أساس الفضة لا على أساس الذهب فأنت الرابحُ، إذا أخطأت في الدفع مع الله عز وجل فأنت الرابح دائماً في الزكاة، أنا قلت لكم قصةً سمعتها من ثلاث جهات، و هذا السماع من جهات متعدِّدة يكسبها درجة التواتر، القصة أن أحد أهل الصناعة في هذه البلدة افتتحوا مصنعاً لهم في لبنان، و في منطقة تفجَّرت فيها الحروبُ الأهلية، لكن هؤلاء أَلِفوا طريقة في دفع الزكاة، فوق الطريقة التي نظمها الشرع، أي الشرع أعفاك من دفع زكاة البيت المسكون، أعفاك من دفع زكاة الأرض المزروعة، أعفاك من دفع زكاة الأثاث الذي في البيت، أعفاك من دفع ثمن أدوات الحرفة، أعفاك من دفع زكاة ثمن المركبة التي تركبها، لكن هؤلاء – و أنا أعرفهم، أحد أبنائهم كان من تلامذتي – و حدَّثني عنهم أشخاصٌ موثقون، كل عام يجمعون كلَّ ممتلكاتهم المنقولة و غير المنقولة

بما فيها أثاث البيوت، بما فيها الثريات و السجاد، ثمن السيارات و ثمن الأراضي ، ثمن المعمل و يؤدُّون زكاة عن كل ذلك، طبعاً هذا تبرُّع، و قلت لكم قبل قليل: الشارع الحكيم أعفى الإنسان من المستهلَكات، أي أنت تسكن بيتاً أخذته بأربعين ألفاً و قيمته الآن أربعة ملايين، فلا زكاة عليه مادام مستهلكاً تسكنه، هذا مال غير نامٍ، بدقة المال النامي هو المال الذي يمكن أن تربح منه، مثلاً هذه الناقة ولدت، وهذه الفرس ولدت، وهذه الماشية خلال العام ولدت أي عدد كبير، و أوضح نموٍّ نموُّ الماشية عندك قطيع غنم ألف رأس، أصبحوا ألفاً و ثلاثمئة، هذا هو النمو، فكل شيء ينمو، و عروض التجارة تنمو، يقال لك: و الله كان الكيلو بثمانين فصار بمئة و ثلاثين، كان الكيلو بكذا ألف فصار بخمسة آلاف، أنا أسمع دائماً أن أسعار المواد تنمو، فعروض التجارة تنمو بشكل طبيعي، كلما كثر الطلب عليها ارتفع سعرُها، فقد تشتري حاجةً تضعها في المستودع، و بعد عام ترى أنه قد تضاعف سعرُها، فعروض التجارة أموال نامية، و أيُّ شيء ينمو يجب أن تدفع زكاته، لكن الشيء الذي لا ينمو المستهلكات، هذا النمو نموٌّ خُلَّبي، أخي و الله أخذت البيت بأربعين فصار بثمانية ملايين، هذا النمو نموٌّ خلَّبي، هل بإمكانك أن تسكن في الطريق؟ هل بإمكانك أن تبيع هذا البيت و أن تسكن في الطريق؟ فحكمة الشارع الحكيم أنه أوجب الزكاة في الأموال النامية أما الأموال المستهلكة فهذه لم يوجب فيها الزكاة، كما قلت قبل قليل: البيت و الأثاث و مكان العمل و أدوات الحرفة و الأرض المستهلكة في الزراعة و المركبة، هناك أناس اشتروا سيارة من الدولة بمئة ألف الآن قيمتها مليون ونصف، هل بإمكانه أن يتخلَّى عنها؟ ليس بإمكانه، جزء من عمله، إذًا المال غير النامي المستهلك المستعمل هذا المال لا تجب فيه الزكاة، و هؤلاء الذين أعرفهم مع أن هذه الأموال التي يحسبونها كل عام معفاةٌ من وجوب الزكاة، كانوا يؤدُّون زكاة ثمنها، الذي حصل أنه في الحرب الأهلية التي جرت في لبنان في العشر سنوات الماضية، هذا المعمل يحتل نصف البناء بالذات، و في القسم الآخر معمل آخر لأناس من دمشق، أصحاب المعملين من دمشق، المعمل الأول تُؤدَّى زكاة الأموال كلها حتى التي أعفى الشرعُ منها، المعمل الثاني أصحابه من عامة الناس، انتهت الحربُ الأهلية في لبنان و المعمل الآخر لم يبق فيه شيء، و القصة لغرابتها تكاد لا تُصدَّق، لم يبق فيه شيء، لا آلات و لا مغاسل و لا حنفيات و لا مفاتيح كهرباء، عاج البناءُ على العظم، و بين المعملين جدار واحد، و المعمل الثاني و الشهود عيان، و أقسموا بالله أن صاحب المعمل فتح باب معمله بعد انتهاء الحرب الأهلية فإذا المعمل كما تركه، بآلاته و الخيوط في أماكنها، كل شيء كما هو عليه لهذا قال عليه الصلاة و السلام:

((حصنوا أموالكم بالزكاة))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

((ما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة))

[الطبراني عن أبي هريرة]

التدقيق مع الله عز وجل دليل عدم معرفة العبد بربه :

أنا أردت من هذه القصة أن إذا أخطأت في الحساب مع الله عز وجل فأنت الرابح، لا تدقِّق كثيراً، تتعامل مع خالق الكون و بيده كل شيء، فإذا كانت الزكاة عليّ ثمانية آلاف و سبعمئة و اثنين و ستين ليرة، معك ثماني ليرات؟ شدة، هذا التدقيق مع الله عز وجل دليل عدم معرفة العبد بربه عز وجل.

أقول لكم كثيراً: لما سألوا رجلاً عارفاً بالله كم الزكاة؟ قال: عندنا العبد وماله لسيده، و يمكن أن أسوق على هذا الموضوع عشرات القصص التي أعرفها و أعرف أصحابها، و كيف حفظ الله لهم مالهم، و نجَّاه من الغريق أو الحرق أو التدمير بفضل ما يؤدُّونه من زكاة أموالهم.

إذًا أن يكون النصابُ زائداً عن الحوائج الأصلية للإنسان، فكل زيادة تجب فيها الزكاة، و يجب أن يكون النصاب في الأموال التي نصَّ الشارعُ على وجوب الزكاة فيها، هناك أموال لا تجب الزكاة فيها.

الزكاة في علة المحاصيل لا في عينها :

سأسوق الآن نقطة دقيقة جداً و قد عالجها الفقهاءُ معالجة دقيقة وهي:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا نُعْطِيهَا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ مُعَاوِيَةُ وَجَاءَتْ السَّمْرَاءُ قَالَ أُرَى مُدًّا مِنْ هَذَا يَعْدِلُ مُدَّيْنِ))

[البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

قيل: لا تجب الزكاةُ فيما سوى هذه المحاصيل، انظر ميزة العقل هناك نقل و هناك عقل، لماذا أوجب النبي الزكاة في هذه المحاصيل؟ لأنها محاصيل رئيسة، و أساسية، و فيها قوت الشعب، و بيئة النبي عليه الصلاة و السلام هذه المحاصيل الأساسية فيها، لكن نحن الآن عندنا محصول أساسي أيضاً قد يكون مثلا الذرة، و قد يكون العدس، و قد يكون السمسم كما يقولون، شيء أساسي، و الفاكهة أساسية في الحياة، التفاح أساسي، و الحمضيات أساسية، و العسل أساسي، فلذلك العلماء قالوا: هذه المواد الأربع تجب الزكاة لا في عينها بل في علَّتها، ما علَّتها؟ محصول أساسي، إذًا أي محصول أساسي في المستقبل، مثلا مشروع مزرعة كرز، مزرعة

أجاص و تفاح بخمسمئة ألف أحياناً، بثمانمئة ألف، بمليون يضمنها، نقول له: أنت معفى من الزكاة؟ لأن كلمة الفريز في الحديث ليست واردة، ليس معقولاً، العلماء قالوا: تجب هذه الزكاة في علتها لا في عينها، إذًا المال معنى مال أي شيء يُنتفع به، شيء يملَّك، أيُّ شيء يملك و يُنتفع به هو مالٌ، إذاً أن يكون النصاب من الأموال التي نصَّ الشارع على وجوب الزكاة فيها.

مرور عام كامل على المال ليكون عليه زكاة :

الآن حولانُ الحول على جميع أنواع الأموال، و الحقيقة الآن نعالج موضوعاً دقيقاً، أنا أملك خمسين ألفاً بواحد من الشهر الأول، بواحد شوال كانوا معي، بواحد من الشهر الثاني أنفقتُ منهم عشرة آلاف، إذا الزكاة من واحد من الشهر الأول إلى واحد من الشهر الثاني كانت خمسين، ومن واحد من الشهر الثاني إلى واحد من الشهر الثالث نقصوا عشرة، أصبح المبلغ أربعين، من واحد من الشهر الثالث جاءني ثمانون ألفاً، ثمانون فوق الأربعين أصبحوا مئة و عشرين، في واحد من الشهر الخامس دفعت ثمانية آلاف، نقص، هذه غير معقول، أي حسابات تكاد تكون مستحيلة، أفضل طريقة لحساب الزكاة، الزكاة في رمضان، في رمضان اعمل جرداً لكل أموالك، و ادفع عنها الزكاة، رمضان الثاني اعمل جرداً آخر، فيكفي أن تجري حساباً كل عام للممتلكات التي تجب فيها الزكاة، أما أن كل مبلغ يجب أن يمضي على هذا المبلغ عام بكامله، و لكن اندفع منه عشرة آلاف قبل يومين، أضيف له خمسة آلاف، قضية مستحيلة، فالرأي الفقهي المعتمد و السائد و المريح و الأبسط و الأسهل أن تجري جرداً لأموالك في كل عام، و أن تدفع عن هذا الجرد زكاة مالك، و هناك إجراء أقوله لكم دائماً: الإجراء الثاني أخواننا التجار ممن يدفعون زكاة أموالهم أيضا قد تجد صعوبة بالغة في دفع الزكاة لمستحقها في وقت قصير، إلا أن توكِّل بها، لكن أنت بحسب مضي الأيام و الأسابيع و الشهور و الفصول أنت إنسان تعيش في أسرة لك أقرباء، و لك جيران، و لك معارف، و لك أناس يعرفونك، و لك أناس يلجؤون إليك، فإذا فتحت حساب زكاة في دفاترك و كلما جاءك كلُّ من هو مستحق لهذه الزكاة دفعتها له و سجَّلتها في الحساب سلفاً، من حساب زكاة العام القادم، في العام القادم جاء رمضان الآخر و أجريت جرداً لممتلكاتك، عليك زكاة ثمانية عشر ألفاً دفعت ستة عشر على مدار السنة، فعلى مدار السنة قد تدفع الزكاة إلى مستحقها الحقيقي و بكل مناسب و بشكل دقيق، إذًا أولاً و هذه خلاصة التجارب أجرِ جرداً لممتلكاتك كل عام بصرف النظر عن بقائها حولاً أو نقصها عن نصابها أو زيادتها، أجرِ في كل عام و الأولى في رمضان لأن الحول هو الحول الهجري لا

الميلادي، أجر في كل عام حسابا لممتلكاتك في رمضان و ادفع عنها الزكاة، و ابدأ بعد رمضان حساباً جديداً من حساب العام القادم، فكلما جاءتك حالةٌ نحتاج إلى مساعدة منها إجراء عملية جراحية، منها مساعدة ليتيم، لأرملة، لمسكين لعاجز، إذا دفعت هذا المال يمكن أن يكون محسوباً من زكاة مالك في العام القادم على شكل دفع مقدَّمة تُحسب من أصل زكاة العام القادم هذا الذي عليه المدار حولان الحول.

الزكاة في القيم و ليس في الأموال :

أن يكون المالُ نامياً، المال غير النامي ما هو؟ المال المستهلك، المستهلك غير نام، أما المال النامي فهو الذي يزيد، إما يزيد سعرُه أو يزيد حجمه، مثل الماشية يزداد عددها، لكن هناك سؤال دقيق هل العملة الورقية ليست نامية؟ الذهب لا ينمو، طبعاً الذهب حينما أصبح قيمة ثابتة ويقابل على سعر العملة الورقية صار ينمو، أما لو كان الذهب في الأصل للتداول، لا ينمو، نحن عندنا سلعة و عندنا قيمة، المال قيمة، أنت مثلا تشغِّل إنساناً بنقل تراب من مكان لمكان تعطيه مئة ليرة، أنت أعطيته ورقة، و لكن هذه الورقة قيمة تعبه يذهب إلى إنسان آخر يشتري بها طعاماً، هذا الطعام قيمة جمعه و تحصيله و تقديمه للمستهلك، فالأوراق النقدية في الأساس هي رموز لقيم، لقيم ثابتة، فنحن عندنا سلعة و عندنا قيمة، المال لا ينمو فلماذا أوجب فيه الشارعُ الزكاة؟ هذا سؤال، الماشية تنمو، و عروض التجارة تنمو، البيت المعدُّ للتجارة ينمو سعرُه، الأرض المعدَّة للتجارة ينمو سعرُها، المركبة، أنت عندك مركبة تستعملها، و حينما صدر قرار بالاكتتاب على مركبات سجِّلت على مركبة ووُزِّعت هذه المركبة عليك، و في نيتك أن تبيعها بثمن أعلى، نية تجارة، إذًا ينمو سعر هذه المركبة، المركبة تنمو و الأرض تنمو و البيت ينمو و البضاعة تنمو لكن العملة الورقية لا تنمو، فلماذا فرض الشارعُ فيها الزكاةَ؟ من أجل أن تستثمرها، من أجل ألا تخزنها، من أجل ألا تكنزها، من أجل ألا تضع في بيتك مئات الألوف و الشباب يتلوَّون على عمل يعملونه، لذلك أفضل شركة هي شركة المضاربة، المال من إنسان، وهذا المال فائض عن حاجته، أو هو كبير في السن لا يقوى على العمل، أو امرأة أرملة لا تقوى على أن تعمل، أو مال ليتيم ليس في إمكانه أن يستثمر مالَه، انظر كم حالة، إنسان شاب يعمل، و لكن هذا له عمل، طبيب أحياناً له دخل أكبر من مصروفه، عنده مال فائض، أو إنسان كبير في السن ليس بإمكانه أن يعمل، أو امرأة قابعة في بيتها ورثت عن أبيها مالاً و لها زوج و أولاد و هي متفرغة للبيت، أو يتيم له أموال، وهذه الأموال إن أطعمناه منها استهلكناها، كم حالة هناك؟ إنسان عنده مال فائض عن حاجته، أو امرأة، أو عاجز، أو كبير في السن، أو صغير، أو يتيم،

يأتي إنسانٌ آخر شاب يملك الخبرة، و النشاط، و الوقت، و الفراغ، و لا يملك المالَ، فإذا اجتمع مالُ هذا مع جهد هذا أنتجا شركة سماها الشرع شركة مضاربة، إنسان بجهده و إنسان بماله، و كان عليه الصلاة و السلام أول شريك مضارب في الإسلام، اتَّجر في مال خديجة رضي الله عنها.

إذًا النقطة الدقيقة في الدرس لماذا أوجب الله الزكاة في القيم و ليس في الأموال؟ طبعا كلمة مال ما يُنتفع به مباشرة، أما الورق و النقد فهذا لا يُؤكل، مثلا كرسي أجلس عليه، سجَّادة أمدُّها في غرفتي، طعام آكله، ثياب ألبسها، مركبة أستعملها، بيت أسكنه، كل ما يُنتفع به مباشرة هذا مالٌ، لكن الأوراق النقدية هل بإمكاني أن أنتفع بها مباشرة؟ تُؤكل، لا تؤكل، هي وسيط، لماذا أوجب الله الزكاة في هذا النقد الذي هو وسيط وهو لا ينمو؟ كما قال الأخ عبد الحكيم: دفعاً لاستثماره و ليعود النفع على الأطراف كلهم في الحياة.

شروط صحة أداء الزكاة :

1 . النية :

بقي علينا شيء واحد، شروط صحة أداء الزكاة، أول شيء: النية، العلماء أجازوا حينما تنوي دفع الزكاة – طبعا النية في القلب، محلها القلب – نويت أن أعطي هذا الإنسان جزءاً من زكاة مالي، لكن أحياناً لا تجد مستحقاً في وقت معيَّن، فإذا وضعت زكاة مالك في ظرف و ختمت هذه الظرف و قلت: أموال زكاة، ووضعتها في مكان معيَّن في بيتك، هذه العملية اسمها العزل، حينما تعزل الزكاة عن مالك إذا نويت دفع هذه الزكاة لمستحقها و عزلتها عن مالك، فهذا الوقت مناسب للنية، لكن بالمناسبة لو أن هذه الزكاة التي عزلتها احترقت أو تلفت هل سقطت عنك الزكاة؟ لم تسقط، لأن الزكاة ما ركناها؟ تمليك فقير مسلم، فالمال جاهز، لكن لا بد كي تسقط عني من أن يتملَّكها فقيرٌ مسلم، كما لو أن عليك ديناً لإنسان ووضعت الدين في ظرف معيَّن و عزلته عن مالك، و لم تلتق بهذا الإنسان و هذا المال احترق، هل يُعفيك الدائنُ من هذا الدين؟ لا يعفيك، إذًا النية، الزكاة عبادة لكن أحياناً الإنسان يدفع شيئاً بعدما يدفعه بشهرين أو ثلاثة، و الله هذا أحسبه زكاة، هذا لا يجوز عند الأحناف يجب أن تسبق النية العمل، أو أن ترافقه في الحدِّ المعقول، أما أن تأتي متخلِّفة عنه، أنا واللهِ أريد أن أصلي سنة الظهر أربع ركعات، و أنا أصلي و اللهِ صار العصرُ قريباً، يا الله فرض عين هذه لا تصير، النية يجب أن تسبق العمل أو أن ترافقه في أقلِّ تقدير، فأنت قبل أن تدفع الزكاة لفلان قلت: هذه زكاة، أما أنت دفعت هذا المال مثلاً صدقة، و بعدما دفعت صدقة، رأيت الصدقات كثرت، حوِّلها لزكاة، لا.

2 . الإسلام :

الإسلام طبعاً من شروط صحة الزكاة، النية و الإسلام و يرجِّح الأحناف أن يكون الأداءُ على الفور، أي مكروه كراهةً تحريمية أن تؤخِّر الزكاة في الدفع، نحن قلنا قبل قليل: لك أن تدفعها سلفاً، أليس كذلك؟ أما التأخير فغير مستحب، و مكروه كراهة تحريمية أنه لعل هذا الإنسان مات و لم يؤدِّ زكاة ماله، فأصبحت ذمَّته مشغولةً بزكاة هذا المال.

3 . أن يكون فقيراً مستحقاً ورد ذكرُه في آية مصارف الزكاة :

الزكاة يجب أن تُدفع لفقير مستحق ورد ذكرُه في آية مصارف الزكاة قال تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة : 60]

إن شاء الله مصارف الزكاة تحتاج إلى شرح لا بأس به، أنا أردت أن يكون درسُ الأحد في رمضان فقط متعلّقاً بموضوع الزكاة، لأنه شيء مهمٌّ جداً، وهي الفريضة الخامسة، أعتقد سبعة آلاف عليها زكاة، و الرأي الراجح ما فاض عن حاجاتك فأدِّ عنه زكاة مالك، و كما قلت قبل قليل الخطأ في دفع الزكاة عينُ الصواب، و الخطأ مع الله هو الصواب.

التمليك :

بقي موضوع التمليك موضوعٌ دقيق، موضوع خلافي، أحياناً لا أحب أن أقول لكم هذه النقطة الدقيقة، الواحد عليه دين أو لك مع فلان دين، أنا يكفي أن أشطبه من دفتري و أضعه في الزكاة، هذا موضوع خلافي، هناك علماء يرفضون هذا، ما هو السبب؟ و هناك علماء يجيزونه، هناك حالتان يجوز، لو فرضنا جاءك الذي عليه الدين و قال لك: و الله أنا ليس معي أن أعطيك هذا الدين، فإذا دفعت لي زكاة مالك أعطيك الدين، فأنت دفعت له زكاة مالك، فأمسك هذا المال و أعطاك ما لك عنده، يصح، إذا كانت المبادرة من الفقير إذا عرض عليك الفقير أن تعطيه زكاة مالك على أن تستردَّ دينك منه يجوز، لكن من دون أن يعلم ومن دون أن يرضى و من دون أن تملِّكه شيئاً أنت وحدك حسمت هذا المال من الزكاة و أسقطت عنه الدين عند بعض العلماء هذا لا يجوز،

الحكمة الفقير أحياناً يكون استدان ثمن ألبسة و انتظر رمضان لتأتيه زكاة المال ليشتري طعاماً و شراباً، بينما هذا الذي دينه حسب ثمن هذا اللباس من الزكاة و أعفاه من هذا الدين بقي جائع هو و أولاده، فالفقير مخيَّر، أنا لك بذمتي هذا المبلغ لكن أمهلني، أنظرني أنا معسِر، لكن أعطني شيئاً آكله، فالذين منعوا إسقاط الدين من حساب الزكاة التفتوا لهذه الناحية، قد يكون هذا الفقير في أمسِّ الحاجة إلى طعام يأكله، أو إلى شراب يشربه، أو إلى لباس يستر أولاده، وهناك رأي آخر أن هذا الإنسان مادام الدين ثابت و عليه و أنت سامحته فيه، يمكن أن يُعدَّ من الزكاة، على كلٍّ هذه قضية خلافية بين المذاهب، لكن التمليك أولى من أن تعطيه هذا المال و يتملَّكه.

أحكام سريعة :

بعض الأحكام السريعة؛ يجب أن تُوزَّع الزكاة على فقراء البلدة التي جُبِيت منها الأموال، أن هذا الغني لماذا أصبح غنياً؟ لأن كل هؤلاء الفقراء اشتروا من عنده طعاماً أو شراباً أو لباساً أو حاجات، فهم ساهموا في تنمية ثروته، ما داموا هم ساهموا في تنمية ثروته هم من باب أولى يجب أن تعود عليهم زكاة ماله، لهذا الشارع الحكيم توجَّه إلى أن تبقى الزكاة في البلدة التي جُبِيت فيها، أو نمت فيها الأموالُ، لكن أحياناً أنت تكون في بلد أجنبي و مستوى المعيشة مرتفع جداً، أكبر دخل في بلد نام لو قيس في بلاد غنية يعدُّ صاحبُه فقيراً يستحق المساعدة، أخي دخلي في السنة خمسمئة ألف في بلد آخر يقاس بعملتها المحلية تبدو فقيراً عندهم أنت مثلاً، ففي مثل هذه الحالات يجوز نقل الزكاة من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين، طبعاً هناك مسلمون كذلك، لكن إذا كان مسلمو البلد الأصلي أفقر بكثير من مسلمي البلاد الغنية فنقلُ الزكاة يجوز.

لو فرضنا الزكاة زكاة مواش يأتي عاملُ الزكاة يختار أكبر غنمة، أكبر بقرة، أحسن بقرة، إنتاجها أربعون كيلو، وهناك بقرة مهزولة، و بقرة وسط، فالنبي عليه الصلاة و السلام قال:

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ قَالَ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ))

[البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

الشيء الذي يراه في نظره كبيراً اتركه له، إياك و كرائم أموالهم، عبَّر عنها العلماء أن تكون الزكاة من المال الوسط، لا أضعف بقرة و لا أكبر بقرة، لا غنمة مهزولة جداً و لا أسمن غنمة، الوسط، أن تُؤخذ الزكاة من زكاة الأعيان، أي العين المشتركة، و أن تؤخذ الزكاة من المال الحلال، فلا تجوز الزكاة من المال الحرام، لأن الله طيِّب لا يقبل إلا طيباً، و لا يُشترط لصحة الأداء حولان الحول، لذا يصح تعجيل الزكاة لسنة أو سنتين أو سنوات، يجوز دفع الزكاة لسنة قادمة أو لسنوات قادمة، ليس الشرط حولان الحول، طبعاً إذا حال الحولُ تجب الزكاةُ، و لكن هناك شرط وجوب و شرط أداء، فرقٌ كبير بين شرط الوجوب و شرط الأداء.

إن شاء الله في درس قادم نتحدَّث عن مصارف الزكاة، موضوع دقيق جداً، و بقيت نقطة واحدة أنه يمكن أن تُدفع الزكاة نقداً أو عيناً، لكن أحياناً نلاحظ أن الواحد عنده ألبسة فرضًا ألبسة جاهزة " كنزات " نسائية فرضاً غالية جداً و لم تُبَع معه، هذه المسلمة الفقيرة جداً التي عندها ثمانية أيتام تعطيها كنزة قطع، موديل حديث فرضاً، ما حاجتها بها؟ يذهب يرى ما عنده من الكنزات لم تُبَع معه يضعها بسعر التكلفة، هذه حجة على الله عز وجل، هذه غير مقبولة، أما إذا عنده سكر ممكن، سكر مادة أساسية، السكر مادة أساسية، عندك رزّ ادفع زكاة، عندك سمن، أي مواد أساسية غذائية مقبول أن تدفع زكاة مالك منها، و مقبول أن تدفع قيمتها، لكن إذا كان عندك حاجات، مثلا حذاء رياضة و أتى رمضان، عنده أنواع مختلفة الأرقام، و ليست دقيقة مع بعضها، كل حذاء برقم يعطيها زكاة، يدفعها زكاة ماله، هذا لا يجوز، و هذا احتيال، موديلات كلها من النوع الثاني مضى وقتها لا تساوي ربع قيمتها كلها جمعها زكاة ماله، الجمعيات مملوءة بالألبسة، و لكن هذه الألبسة ليست زكاة، بعضها صدقة، عنده ألبسة زائدة أعطاها لجمعية، لا مانع، أما أن تحسبها من زكاة مالك، أي زكاة مالك يجب أن تشعر أن هذا الفقير تملَّك مبلغاً من المال فاشترى به حاجاته الأساسية، اشترى لحماً و اشترى سمناً، و اشترى سكراً، ألبس ابنه ثياباً في العيد، اشترى أحذية، يجب ألا تكون الحاجات بعيدة جداً عن حاجات الإنسان.

آخر نقطة، أنه إذا كان الشخص يستحق الزكاة لكن هو متلاف للمال الأولى أن تعطيه الزكاة عيناً، حاجات، و إذا كان الشخصُ حكيماً جداً فالأولى أن تعطيه نقداً، ألف ليرة يدبِّر أموره، و يدفع ديونه القليلة و يشتري حاجات هو بحاجة إليها، لكن لو دفعت له أنت الزكاة عيناً و قد يكون ليس بحاجة إلى هذا الشيء، فإذا كان الإنسان متلافاً للمال فالأولى أن تدفع له الزكاة عيناً و إذا كان حكيماً في إنفاقه فالأولى أن تدفع له الزكاة نقداً.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 17: زكاة الزروع والثمار

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا لا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علَّمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقًّاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، و اجعلنا ممن يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

وجوب الزكاة في كل ما تنبته الأرضُ :

أيها الأخوة المؤمنون، من أفضل الموضوعات الفقهية التي تُعالَج في رمضان موضوع الزكاة، و قد بدأنا في الدرس الماضي الحديث عن تعريف الزكاة، و تحدَّثنا أيضاً عن دليل فرضيتها، و عن شروط وجوبها، وعن شروط صحتها، وتحدَّثنا أيضاً عن حقيقة النماء في المال، و كيف أن الزكاة تجب في المال النامي، إلى ما هنالك من موضوعات وعدناكم في الدرس القادم أن نتحدَّث عن بقية موضوعات الزكاة.

الحقيقة نظراً لشيوع المزارع و لأسئلة كثيرة جداً تُطرح حول زكاة الزروع فلابدَّ من حديث دقيق حول هذا الموضوع، طبعاً نحن حينما نتحدَّث الأولى أن نكون في المذهب الحنفي، ففي هذا المذهب تجب الزكاةُ في كل ما تنتجه الأرض بقصد الاستغلال و الاستنبات سواء أكان صالحاً للبقاء كالمحاصيل التي تُخزَّن سنوات طويلة كالحبوب، أم غير صالح للبقاء كالثمار و الخضار من خوخة ومشمش و باذنجان، و إلى ما هنالك، إذًا تجب الزكاة في كل ما تنبته الأرضُ من محاصيل و من خضار و فواكه، الدليل: نحن مع تشريع خالق الكون، و لا يستطيع إنسان أن يقول لك هذا هو الحكم بلا دليل، الدليل قوله تعالى:

﴿ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

حكمة الله عز وجل من كلمة يوم حصاده :

و من حكمة الله عز وجل أن الفلاح أو المزارع لولا كلمة يوم حصاده لوقع في عنت شديد، أي لو أن ضيفاً زار بستانه و أكل بضع حبات من المشمش، أو بعض حبات من الذرة، لوجب أن تُحسب هذه الحبات من الزكاة، و لكنّ ربنا سبحانه و تعالى ما جعل علينا في الدين من حرج، قال:

﴿ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

أي ما تأكله أنت و أقرباؤك و ضيوفك قبل أن تجهِّز المحصول و تقدِّمه للسوق هذا معفوٌّ عنه، لكن بعد أن توضِّب هذا المحصول و تدفعه إلى السوق أصبح المحصولُ الآن تجب فيه الزكاة، هذا معنى قوله تعالى:

﴿ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

أي قبل الحصاد هناك عفوٌ من الله عز وجل عن كلِّ ما أكلته أنت و أولادك و أهلك و جيرانك و ضيوفك، أما حينما تضع هذه المحاصيل في العبوات المناسبة، تضعها على ظهر السيارة و تنطلق السيارة إلى سوق الخضار، فالآن تجب الزكاة، الدليل الآخر، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾

[سورة البقرة: 267]

الأرض الخراجية :

يجب أن تكون الأرض غير خراجية، وقفة طفيفة عند الأرض الخراجية.

البلاد التي يفتحها المسلمون يتملَّكونها، و تُوزَّع على المقاتلين، لكن للصالح العام سيدنا عمر أبقاها في أيدي أصحابها، و فرض عليهم ضريبة خراجية، فالأرض التي تنجب فيها زكاة المزروعات يجب أن تكون غير خراجية لئلا تُدفع الضريبة مرتين، فالأرض الخراجية الرسم الذي يُفرض على صاحبها للدولة هذه ضريبة، فلذلك يجب أن تكون الأرضُ غير خراجية لكي لا يجتمع عشرٌ و خراج العشر زكاة النباتات، لقول النبي ﷺ: " لا يجتمع على المسلم خراج و عشر "

وأن تكون المنتجات بقصد الاستغلال و الاستثمار، أي إنسان زرع في حديقته البقدونس، و كم بصلة، إن لم تكن هذه النباتات بقصد الاستغلال و الاستثمار لا تجب فيها الزكاة، بعد ذلك هناك منتجات ليست ذات قيمة، حشيش، قصب، صمغ، أشياء لا قيمة لها، أيضاً هذه الأشياء لا زكاة فيها، و أن تكون الأرض مسقيةً بماء المطر أو ماء الأنهر حتى يجب فيها العشر، فإن سُقيت بوسائل قديمة أو حديثة لها نفقات عندئذ نصف العشر، أي واحد من عشرين، لذلك ليس في المزروعات مصاريف، ربُّنا عز وجل وضع عنك نصف الزكاة مقابل المصاريف، فهذا سؤال يرِد كثيراً .

أحكام متعلقة بزكاة الزروع :

أشياء دقيقة تتميَّز بها زكاة الزروع، من هذه الأشياء أنه لا يُشترط حولان الحول، هناك أراض أعرفها في شمال سورية فيها عشرة محاصيل على مدار العام، أرض فيها محصولان، و أرض فيها ثلاثة محاصيل، يقال: عروة خريفية، و عروة شتوية، محصول صيفي، محصول شتوي، تجب الزكاة لا في حولان الحول، و لكن تجب الزكاة في كل ما تنتجه الأرضُ في كل موسم.

لا يُشترط بلوغُ النصاب، أيْ أيُّ كمية من المزروعات فيها عشرها زكاة، و نصف عشرها إن كانت أرضاً مروية بطريق الآبار، أو الآن المحركات التي لها نفقات باهظة و ما شاكل ذلك، لا يُشترط في زكاة الزروع البلوغ و لا العقل، تجب الأرض؛ طبعاً هنا حكمة من الشارع كبيرة جداً؛ هي أن هذا الطعام من حقِّ الفقراء، لذلك لو كان مالكُ الأرض صبيَّاً غير مميّز و غير مكلَّف تجب الزكاة في محصوله، و لو كان مالك الأرض مجنوناً تجب الزكاة في محصوله.

شيء آخر؛ لا تشترط ملكية الأرض، فتجب الزكاة عند المستأجرين، تجب الزكاة على المستأجر، و ليس المالك، مادام المستأجر بيده هذه الأرض وهو ينبتها و يأخذ محصولها و ريعها.

إذا باع صاحب الأرض المحصول قبل أن ينضج تجب الزكاة في الذي اشترى المحصول، أما إذا باعه بعد أن نضج فتجب الزكاة في صاحب الأرض، طبعا من السنة ألا نبيع الحَبَّ حتى يشتد، و ألا نبيع العنب حتى يسودَّ، و ألا نبيع المزروعات حتى يبدو صلاحُها، فإذا بيعت قبل أن يبدو صلاحها فزكاتها على من اشتراها، و إذا بيعت بعد أن بدا صلاحها فزكاتها على من باعها، هذا رأي السادة الأحناف.

لا يُشترط في زكاة المزروعات خلوُّ المكلَّف من الدين، لو كان عليه دين عليه زكاة المزروعات لأن هذه المزروعات فيها طعام البشر، ولها أحكام خاصة و دقيقة، و أيضاً لا يُشترط في المستنبت البقاء، بل تجب الزكاة في الخضر و الفواكه، و لو فريز، و لو مشمش، و لو مادة سريعة العطب، بطيخ مثلاً، هناك فواكه كما يقول الفلاحون روحها ضيّقة، سريعة التلف، كل هذه الخضروات و الفواكه و المحاصيل تجب فيها الزكاة، إذًا تجب في الخضر و الفواكه و لا يشترط خلوُّ المكلف من الدين، و لا تشترط ملكية الأرض، و لا يشترط البلوغ و العقل، و لا يشترط بلوغ النصاب، و لا يشترط حولان الحول، كل هذه الأحكام متعلقة بزكاة الزروع.

زكاة العسل :

و السؤال الذي ورد كثيراً زكاة العسل، يجب في العسل زكاة، و ذلك تبعاً للزروع و الثمار، لأن النحل يتغذّى من الثمار و الأزهار، و الثمار فيها العشر، لذلك زكاة العسل العشر، الآن الكيلو ثمنه خمسمئة ليرة، يقال لك: ما هذا العشر؟ هناك قُرّاد النحل جاهز، قبل عامين أو ثلاثة جاءت حشرةٌ أو مرض وبائي أصاب العسل كله فأصبحت هذه المناحل كلها خالية من العسل، مرض خطير اسمه قراد النحل، فإما أن تدفعوا زكاة العسل و إما أن قراد النحل بالمرصاد جاهز، قال له:

((عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ؟ قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[أحمد عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ]

قال: أريد أخف من ذلك، قال: إذًا فاستعدَّ للبلاء " إذا كانت الاستقامة تثقل عليك فاستعد للبلاء، لهذا ما تلف مال في بر أو بحر إلا بمنع الزكاة، أحياناً تجد إنساناً زار مدجنة حمل في حذائه مرضاً، هذا المرض جعل هذه المدجنة في أيام ميتة كلها، ممكن، عند الله وسائل إذا الإنسان بخل بمال الله عز وجل لم ينفقه فهناك أمراض، تجد البقرة ثمنها سبعون ألفاً، يأتيها مرض فتجدها ماتت، أحيانا حمى مالطية في البقرة، هذه الحمى المالطية و الموت المفاجئ للبقر و الوباء المفاجئ للدجاج و قراد النحل و الصقيع، أحيانا تجد الثمار يانعة و الأزهار يانعة متفتحة طاف عليها طائف من ربك وهو نائمون، فلما يبخل الإنسان فإن الله عنده آفات كثيرة، فالبطولة أن تكتشف أن هذه الآفة أصابت هذا المحصول بسبب منع الزكاة، لهذا قال عليه الصلاة و السلام:

((حصنوا أموالكم بالزكاة ...))

[الطبراني عن عبد الله بن مسعود]

لهذا قال عليه الصلاة و السلام:

((ما تلف مال في بر ولا بحر إلا بحبس الزكاة))

[الطبراني عن أبي هريرة]

زكاة النقد :

زكاة النقد؛ زكاة النقد طبعاً أصل النقد الذهب و الفضة، فكل عشرين مثقالاً أو كل دينار شرعي، المثقال أو الدينار الشرعي يساوي أربعة غرامات و مئتين و ستة و خمسين بالألف، فعشرون ضرب أربعة و مئتين و ستة و خمسين بالألف ينتج خمسة و ثمانون و اثنا عشر بالمئة، فكل خمسة و ثمانين غرام ذهب و اثنا عشر بالمئة هذه نصاب الذهب، اضربها بخمسة، أو أربعة و نصف أو خمسة و ربع لا أعرف، كل يوم للذهب سعر، و أي ذهب هذا؟ الذهب الخالص، أي الذهب عيار أربعة و عشرين، أما العيارات الأخرى فلها حساب خاص، فنصاب الذهب تقريباً أربعون أو خمسة و أربعون ألفاً، الذي معه هذا المبلغ تجب فيه الزكاة، لكن في عهد النبي عليه الصلاة و السلام كما علمت كان ثمن الذهب مساوياً لثمن الفضة، لكن الآن اختلف الأمر، الآن الفضة كل مئتي درهم شرعي تجب فيها الزكاة، و المئتي درهم شرعي، الدرهم يساوي ثلاثة و نصف غرام بالضبط، مئتا درهم سبعمئة غرام، الغرام بعشر ليرات سبعة آلاف، فما دام نصاب الفضة الآن سبعة آلاف، نصاب الذهب حوالي أربعون أو خمسة و أربعون ألفاً، العلماء وجَّهوا إلى أنه الأولى و الأفضل و الأكمل و الأورع أن تدفع الزكاة في النصاب الأقل لصالح الفقير، طبعاً عندنا قاعدة فقهية أخرى أنه لا يجوز أن تدفع الزكاة لإنسان فوق النصاب، في الدفع النصاب هو الذهب، و في الوجوب النصاب هو الفضة لصالح الفقير.

قلت لكم مرة: الأشياء غير النامية، بيت تستهلكه، أثاث بيت تستهلكه، سجاد، حاجات، براد، غسالة، محل تجاري يؤويك تبيع وتشتري به، آلات الصناعة تستعملها للمنتجات، مركبتك، أرض تزرعها، هذا كله لا تجب فيه الزكاة، لأنه مالٌ غير نامٍ.

أما عروض التجارة، عندك بضائع، و عندك أقمشة، عندك ثياب جاهزة، وعندك مواد أولية، و عندك دهان، أي أنواع البضائع تجب فيها الزكاة، لأن البضائع و السلع و الأموال أموال متقوَّمة، و هذه الأموال يزيد سعرها مع مرور الزمن، و يضاف إلى عروض التجارة زكاة النقدين، الذهب و الفضة، سبعة آلاف فضة و أربعون أو

خمسة و أربعون ذهباً.

الكنز هو أيُّ مال لا تُؤدى زكاته :

كما تعلمون أيُّ مال لا تُؤدى زكاته فهو كنز، و أي مال تؤدى زكاته فليس بكنز فسبعة آلاف لم تؤدَّ زكاتها تعد عند الله كنزاً، و ينطبق على صاحبها قوله تعالى:

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

[سورة التوبة : 35]

رأس المال مهما بلغ إن كانت زكاته تؤدى فليس بكنز لأنه خلا من تعلق حق الفقير به.

مصارف الزكاة :

الآن درسنا اليوم مصارف الزكاة، و الآية معروفة عندكم جميعاً هي قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة : 60]

المذاهب فيما بينها اختلاف في وجوب أن تدفع لكل هؤلاء أو لصنف واحد منهم، عند السادة الشافعية الأولى أن تعطي من كل صنف ثلاثة، و عند السادة الأحناف يكفي أن تدفع للفقراء مثلاً، أو للمساكين، أو للمؤلفة قلوبهم، أو لابن السبيل، أو للغارمين، على كل هذا المبلغ يجب أن ينصرف إلى أحد هذه الأبواب، إلا أن المؤلفة قلوبهم هذا موضوع خلافي، العلماء بين من يعمل هذا الباب و بين من يغلقه، لأنه بعد انتشار الإسلام أُلغي نصيبُ المؤلفة قلوبهم، و قيل – و أنا أرجِّح الرأي الثاني – أنه حينما يضعف الإسلام، و حينما تنتظر من أقوياء، من أناس بيدهم كل شيء، بإمكانك أن تتألَّف قلوبهم بالزكاة، إذًا رجع هذا البابُ إلى مكانه الطبيعي.

1 . الفقير :

أولاً: الفقير، من هو الفقير الذي تجوز له الزكاة؟ قال: الفقير هو الذي يملك شيئاً قليلاً لا يكفيه، الفقير دخله أقل من مصروفه، و لكن أيُّ مصروف هذا؟ مصروفه الأساسي، الأساسي معروف، تريد أن تأكل و أن تشرب و أن

تلبس ثياباً و أن تسكن في بيت مدفَّأ في الشتاء لا أقول مكيفاً في الصيف، لا، مدفَّأ في الشتاء، الدفء أساسي، فالفقير الذي دخله لا يستطيع أن يغطِّي نفقاته الأساسية، هذا في الشرع فقير، و تجوز له الزكاة، قد يملك الفقير نصاباً، أخي هذا له بيت ثمنه ثمانية ملايين، اشتراه بثلاثين ألفاً في زمانه، و يسكن فيه، وله ثمانية أولاد، و إذا عنده بيت ثمنه ثمانية ملايين، هذا اسمه نماء خلَّبي، أو نماء إسفنجي، لا قيمة له إطلاقاً، نماء رغوي، انظر قبة الصابون بنفخة تطير، هذا البيت يستهلكه و يسكنه، إذًا لو الفقير وجد، لو كان عنده نصاب الغني لكنه مستهلك و مستغرق في حاجاته، فهو عند الله فقير، و قد لا يملك النصاب، الفقير لا يملك أو يملك و لكن النصاب غير نام، و ما هو النصاب غير النامي؟ عنده سجادتان أخذهما قديماً، الآن ثمن كل واحدة يقدر بثمانين ألفاً، السجادة يستعملها، فالفقير هو الذي لا يملك النصاب أو يملك نصاباً غير نامٍ، مستغرقاً حوائجه، دار، أثاث، دكان، آلات الصناعة مثلاً، مركبة يركبها قال: و لو كان صحيحاً مكتسِباً، لا يملك نصاباً، أو يملك نصاباً غير نام، مستغرق في حاجاته الأساسية، قال: إذا كان يملك نصاباً أو يملك نصاباً نامياً، أو يملك نصاباً غير نام يزيد عن حاجاته الأساسية، عنده بيت ثانٍ مغلَق، هذا يملك نصاباً غير نام، لكنه يزيد عن حاجاته الأساسية عندئذ لا يجوز دفع الزكاة لهذا الفقير.

قال: هذا الإنسان لا يجب عليه دفع الزكاة و لا يجوز أن تُدفع له الزكاة، بل تجب عليه صدقة الفطر، لا يملك نصاباً نامياً أو يملك نصاباً غير نام فائضاً عن حاجاته الأساسية، أما إذا كان مالك نصاب غير نام استغرقت حاجاته الأساسية فهذا يجوز أن تُدفع له الزكاة، هذه واحدة.

2 . المسكين :

أما المسكين فهو الذي لا يستطيع كسبَ رزقه إطلاقاً، أي سكن عن الحركة، و بعضهم قال: الفقير هو الذي لا يسأل، و المسكين هو الذي يسأل، على كلّ القاعدة الأساسية إذا اجتمعا تفرَّقا، وإذا افترقا، إذا قال الله: فقراء و مساكين، أي الفقراء صنف و المساكين صنف، و إذا قال الله فقراء، أي الفقراء و المساكين، و إذا قال: مساكين أي الفقراء و المساكين.

3 . العاملون عليها :

العاملون عليها، الموظَّفون الذين يجبون الزكاة، هؤلاء من أجل تحصيل مبالغ الزكاة لهم نصيب منها، لكن هنا لا يشترط في العامل على الزكاة أن يكون فقيراً، قد يكون غنياً، لكن هذه وظيفة تُؤدَّى، نحن بحاجة إلى طاقة بشرية تجمع هذه الزكاة، فالعاملون عليها صنف ممن تجب لهم الزكاة، لا يشترط فيه الفقرُ، و لا الضعف.

4 . في الرقاب :

و في الرقاب، هؤلاء العبيد الذين يكاتبون أسيادهم أو سادتهم كي يعتقوا أنفسهم، هؤلاء في حكم الغارمين، فإذا استحقوا الزكاة فمن أجل أن يتملَّكوا حريتهم.

5 . الغارمون :

الغريم هو المديون، و الغارمون هم أصحاب الديون، الذي لا يملك لدينه وفاءً لكن أحياناً يكون عليه دين و يكون له شيء زائد عن حاجته ممكن أن يبيعه و يوفي الدين، هذا لا يجوز أن يأخذ زكاة المال.

6 . في سبيل الله :

و في سبيل الله، هؤلاء المنقطعون من الغزاة و المحاربين في سبيل الله، أي الذين عجزوا عن اللحاق بجيش الإسلام لفقرهم، لهلاك النفقة أو الدابة، العلماء المعاصرون وسَّعوا هذا الباب، أي إحداث مراكز إسلامية في بلاد الكفر، نشر الإسلام، مصاريف الدعاة في بلاد الكفر، و كيف أن الأديان الأخرى تنشط في تأسيس مستشفيات مثلاً، جامعات، مدارس، بعثات تبشيرية، من أجل إقناع الناس ببعض الديانات، بعض الفقهاء المعاصرين وسَّعوا هذا البند فجعلوه يشمل المصاريف التي تحتاجها الدعوةُ إلى الله عز وجل في بلاد الكفر، البلاد التي بحاجة ماسة إلى دعوة نشطة.

7 . ابن السبيل :

و ابن السبيل، هو الرجل الغني لكنه منقطع في الطريق، أي فقد ماله، سُرق ماله، فصار ابن الطريق، هذا أيضاً يجوز أن يأخذ من أموال الزكاة ما يكفيه ليصل إلى بلده.

من لا يجوز دفع الزكاة لهم :

الآن من هم الذين لا يجوز أن ندفع لهم الزكاة؟ نحن عندنا قاعدة هذه القاعدة تقول: " الأقربون أولى بالمعروف " بعض العلماء فسَّر هذه القاعدة على النحو التالي الأقربون إلى الفقر، أو الأقربون نسباً، أو الأقربون إلى الإيمان، عندك ثلاثة مرجِّحات، لك قريبان تساويا في الفقر، و تفاوتا في الإيمان، المؤمن أولى، لك قريبان تساويا في الإيمان و تفاوتا في الفقر، الأفقر أولى، لك قريبان تساويا في الفقر و الإيمان، الأقرب لك نسباً أولى، فالأقرب إلى الفقر، أو الأقرب إلى الإيمان، أو الأقرب نسبا، فكلما تساوى عنصرٌ في شخصين يُرجَّح الشخصان بعنصر ثان، فإذا تساويا في عنصرين يرجح أحدها بالعامل الثالث، الأقربون أولى بالمعروف، لا يجوز دفع الزكاة لبني هاشم و مواليهم، لقول النبي عليه الصلاة و السلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ الْهَاشِمِيِّ أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ بْنَ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ أَخْبَرَهُ أَنَّ أَبَاهُ رَبِيعَةَ بْنَ الْحَارِثِ قَالَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ وَالْفَضْلِ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ائْتِيَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُولَا لَهُ اسْتَعْمِلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى الصَّدَقَاتِ فَأَتَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَنَحْنُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ فَقَالَ لَهُمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَسْتَعْمِلُ مِنْكُمْ أَحَدًا عَلَى الصَّدَقَةِ قَالَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَالْفَضْلُ حَتَّى أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَنَا إِنَّ هَذِهِ الصَّدَقَةَ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَإِنَّهَا لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[النسائي ، الطبراني في الكبير عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ نَوْفَلٍ الْهَاشِمِيِّ]

فهذه الصدقات لا تجوز لبني هاشم، لماذا؟ لأن القرآن الكريم أعطاهم خمس الخمس، قال بعض العلماء المعاصرين: لو أن هذا خمس الخمس لم يأخذوه عادوا إلى صحة أخذ زكاة الأموال، على كلّ هذه القضية محدودة جداً، المنسوب للرسول صلى الله عليه و سلم له حكم خاص، أما الأغنياء فلا تجوز لهم أن تُدفع لهم الزكاة، لما روي:

((لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ))

[الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو]

و في رواية قوي، لا غني و لا قوي، لأن القوي لما نعطيه زكاة المال أصبح كسولاً و قعد في بيته، و حينما يقعد المرء في بيته يضعف المجتمع، و المجتمع قوي بقوة أفراده، فالغني لا تجوز له الزكاة، و الفقير القوي الذي بإمكانه أن يكتسب لا تجوز له الزكاة لكن عندنا استثناء طفيفاً:

((ارحموا عزيز قوم ذلّ، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين جهّال))

[ذكر هذه القصة ابن هشام في سيرته، والطبري في تاريخه]

إنسان كان من أهل النعم، من أهل اليسار، هذا إذا افتقر فجأة نقول له: اشتغل عتالاً؟ أكرموا عزيز قوم ذلّ، و غنياً افتقر، و عالماً ضاع بين الجهال، الغني المفتقر و لو كان صحيح الجسم حفظاً لماء وجهه، و لئلا ينكسر، و لئلا تُجرح كرامته، يمكن استثناء و لأمد يسير أن نعطيه شيئاً من زكاة المال حتى يستطيع أن يتابع عمله التجاري.

عندنا ملاحظات دقيقة: لا تحل الزكاة لولد الغني الصغير دون البلوغ، و لا إلى ابنه الكبير المقعَد، لأن ابنه الصغير نفقته عليه، و ابن الغني غنيٌّ بغنى أبيه، و لا لابنه الغني المقعد لأن الابن الغني المقعد غني بغنى أبيه، أما أحياناً تجد غنياً شحيحاً و ابنه انفصل عنه و تزوج، و هو موظف، و دخله محدود، و عليه ديون، تجوز الزكاة لابن الغني في هذه الحالة، لأن المماليك الذين هم عند الأغنياء أغنياء بغنى أسيادهم أيضاً.

الغنى في الشرع ثلاث مراتب :

الآن الغنى في الشرع ثلاث مراتب، دققوا في هذه المراتب الثلاثة قال: غني يحرم عليه السؤال، إذا سأل فقد وقع في معصية كبيرة، إذا الإنسان جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه، من هو الغني الذي يحرم عليه السؤال لكنه يحل له أخذ الزكاة؟ هو الذي يملك قوت يومه و ستر عورته، أو كان صحيحاً مكتسِباً، جسمه قوي و شاب، هذا صحيح مكتسب يحرم عليه السؤال، لكن إلى أن يكتسب ممكن أن نعطيه، و يجوز أن يأخذ مادام لا يملك قوت يومه، فإذا ملك قوت يومه حُلَّ الأمر، لهذا النبي عليه الصلاة و السلام قال:

((حَدَّثَنَا سَهْلُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ قَالَ قَدِمَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَسَأَلَاهُ فَأَمَرَ لَهُمَا بِمَا سَأَلَا وَأَمَرَ مُعَاوِيَةَ فَكَتَبَ لَهُمَا بِمَا سَأَلَا فَأَمَّا الْأَقْرَعُ فَأَخَذَ كِتَابَهُ فَلَفَّهُ فِي عِمَامَتِهِ وَانْطَلَقَ وَأَمَّا عُيَيْنَةُ فَأَخَذَ كِتَابَهُ وَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَانَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَتُرَانِي حَامِلًا إِلَى قَوْمِي كِتَابًا لَا أَدْرِي مَا فِيهِ كَصَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ فَأَخْبَرَ مُعَاوِيَةُ بِقَوْلِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ النَّارِ))

[أبو داود عن سَهْلُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ]

الآن عندنا غني يحرم عليه السؤال و الأخذ معاً، أول بند الذي عنده قوت يومه وهو مكتسب صحيح يحرم عليه السؤال، لكن إذا أخذ وهو بحاجة لا مانع، أما الغني فيحرم عليه السؤال و الأخذ معاً، يملك نصاباً غير نام زائداً عن حوائجه الأصلية.

الآن غني يحرم عليه السؤال و الأخذ و تجب عليه الزكاة هو الذي يملك نصاباً كاملاً نامياً، يحرم عليه السؤال و الأخذ و تجب عليه الزكاة، الذي يملك نصاباً غير نام يزيد على حاجاته يحرم عليه السؤال و الأخذ و تجب عليه زكاة الفطر فقط، أما الذي لا يملك نصاباً، يملك نصاباً غير نام و ليس عنده قوت يومه هذا يحرم عليه السؤال و يجوز أن يأخذ؟

غير المسلمين، لقول النبي عليه الصلاة و السلام لما بعث معاذاً إلى اليمن:

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ قَالَ إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ فَإِذَا فَعَلُوا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ))

[البخاري عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

فالزكاة لا تُدفع إلا للمسلمين.

إعطاء غير المسلمين من الصدقات لا من الزكاة :

أما غير المسلمين فهل عندنا ما يؤكِّد أنه يجوز أن تدفع لغير المسلمين بعض المال؟ لكن لا من الزكاة، وهناك آية أوضح، قال تعالى:

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

[سورة الإنسان: 8]

فالأسير مشرك و ليس مسلماً، و لكن هذا من باب الصدقة، أي لك جار غير مسلم افتقر ووقع في أزمة كبيرة، و عنده عملية جراحية خطيرة، أنت أنجدته و أغثته أعطيته من مالك ولكن ليس من مال الزكاة، من مال الصدقة، هذا يجوز و يتفضَّل و يستحسن، لماذا؟ لأنه بهذا يميل قلبه إلى الإسلام، أنا سمعت عن إنسان ينكر وجود الله عز وجل، منحرف انحرافاً كبيراً، غارقاً في شهواته، أصابه مرض عضال، طرق الأبواب كلها، كلها مسدودة، قال له أحدهم: ائت إلى هذا المسجد – و القصة قديمة– كان مسموحاً أن نجمع للناس، و الآن ممنوع طبعاً، قيل له: اذهب إلى هذا المسجد و قل لخطيبه أن يجمع لك ثمن هذه العملية التي تحتاج إلى مبالغ طائلة في بلاد بعيدة، فتحدَّث هذا الخطيب جزاه الله خيراً قال: يا إخوان هناك رجل يحتاج إلى عملية في البلاد الفلانية تحتاج إلى رقم كبير، فالناس دفعوا، هو بحاجة إلى ستين فجمعوا ثمانين، و القصة من ثماني عشرة سنة، و القصة قديمة جداً، فهذا الإنسان ذهب إلى البلد و أجرى عملية و نجحت، و عاد هذا الإنسان ليلازم هذا المسجد، و يصبح من رواده الأوائل، بالبر يستعبَد الحرُّ.

سيد معتز، بارك الله بك، هذا دليل آخر، يجوز أن تعطي لغير المسلمين من الصدقات، لكن نيتك عالية جداً، أنت عندما تحسن له تملك قلبه، أي يجوز أن يكون قد طرق الأبواب كلها و لم يستفد، ولما طرق باب المؤمن لبَّاه، الإيمان شيء عظيم، هناك إنسان هو رئيس الحزب الشيوعي في فرنسا مشهور جداً، من كبار المفكِّرين، في الحرب العالمية الثانية وقع أسيراً، فجاء أمر بقتله، الأمر وُجِّه إلى جندي مغربي، هذا الجندي قال: أنا على مسمع منه لا أنفِّذ هذا الأمر، أنا مسلم، و المسلم لا يجوز له أن يقتل الأسير، قال هذا المفكر الشيوعي: المسلم لا يقتل الأسير، بقيت هذه الكلمة في قلبه ثلاثين عاماً و انتهت به إلى الإسلام و أسلم و له مؤلفات في الإسلام، و هو من أعلام المسلمين في فرنسا الآن، من كلمة جندي مغربي، إنسان يكون غير مسلم و يقع بأزمة، بضائقة، بمشكلة، بمرض عضال، يأتي المسلم و يمدُّ له يد العون، يكون أنقذه من كفره، أنقذه من حقده، أنقذه من رؤيته الضبابية، أنقذه من عداوته، الحقيقة الإحسان يفتح القلب،أي كما قلت: عجبت لمن يشتري العبيد

بماله ليعتقهم كيف لا يشتري الأحرار بإحسانه، أبحث عن سوق العبيد لأشتري عبداً و أعتقه، أنت اذهب و اشترِ إنساناً حرًّاً، بإمكانك أن تشتري حرًّاً بإحسانك، و بالمناسبة ما كل الإحسان ما لا ممكن أن تحسن له بمساعدته، أنت متفوِّق في الرياضيات، و أنت طالب مدرسة متفوق في الرياضيات، عندك طالب آخر في الشعبة نفسها لا دين له أبداً، و عنده شكوك في الدين و ضعيف في الرياضيات، أنت إذا أعنته فصارت علامته جيدة، مال قلبُه إليك، عندئذ ألقِ عليه بعض المواعظ، وضِّح له بعض الأمور، ممكن أن تعينه أنت بخبرتك، بعلمك، بمالك، و بعضلاتك أحياناً، أحياناً أنت تتقن شراء هذه الحاجة و لك صديق دينه رقيق و بحاجة إلى شراء هذه الحاجة فجاء إليك، اذهب معه و امضِ وقتاً طويلاً في خدمته، قد تفتح قلبه، فلذلك الإحسان لغير المسلمين وارد، بالعكس، أنا أقول لكم: الإنسان عندما يسيء وهو مسلم، يسيء إلى مسلم: فلان الفلاني أساء إلي، أما إذا أساء المسلم لغير المسلم فيقول هذا غير المسلم: الإسلام لا ينفع، لا يذكر اسم من أساء إليه، يلغي اسمه، ويقول لك: الإسلام ليس بجيد، لهذا قال عليه الصلاة و السلام: "أنت على ثغرة من ثغر الإسلام، فلا يُؤتين من قبلك...." كسفير الدولة تجدهم يختارونه ذكياً، يمكن سابقاً يختارونه ذكياً جداً، و يختارونه مثقفاً، و يتقن اللغات الأجنبية كثيراً، و يختارونه بشكل حسن، وسامة، يختارونه من طبقة رفيعة، لأنه يمثل أمة، هذا يمثل أمة بأكملها، المسلم يجب أن يعتقد أنه يمثل دينَ الله في مظهره، في بيته، في دكانه، في حساباته، لا توجد فوضى في الحسابات، شيء يُسجل و شيء لا يُسجل، يضع في جيبه، و الله نسيت لا تؤاخذنا، أنت مسلم:

﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

[سورة الكهف : 28]

حساباته دقيقة، علاقاته واضحة، أموره منتظمة، قال تعالى:

﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾

[سورة الكهف : 28]

فلذلك الإنسان إحسانه لغير المسلمين سبب في هدايتهم، هناك حديث قدسي آخر يقول الله عز وجل:

((إن هذا الدين ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه))

[شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله]

عدم جواز الزكاة لفروع المزكي :

لا تجوز الزكاة لفروع المزكِّي، ابنه، ابنته، ابن ابنه، و ابن بنته، الفروع مهما نزلت لا تجوز، الأصول مهما علت لا تجوز، الزوجة لا تجوز، انتهى الأمر، الأخوات يجوز، أخوة ذكور، أخوات إناث، عمات، و خالات، كله يجوز، ماعدا الأصول مهما نزلوا و الفروع مهما علوا، و الزوجة، لأن الزوجة عليه نفقتها، سرّ التشريع أن كل إنسان تجب عليك نفقته، فإذا دفعت الزكاة إليه فقد احتلت على الله عز وجل.

يُستثنى من هذه القاعدة أنه لو أن لك ابناً متزوِّجاً مستقلاً عنك في النفقة، له وظيفة، و له دخل، و له زوجة، و له أولاد، وافتقر، الابن الذي استقل عن أبيه في النفقة يمكن أن يأخذ من زكاة أبيه، عندنا حالة عكسية، أخت يجوز أن تعطيها الزكاة بالأصل، لو أن لك أختاً عانساً تنفق عليها وهي في بيتك لا يجوز أن تعطيها من زكاة مالك، لأن نفقتها عليك، نأتي بحالة في الأصل يجوز أن تأخذ الزكاة، حينما تنضم إلى بيتك و تنفق عليها أنت أصبح إعطاء الزكاة لها احتيالاً في المصروف، الابن في الأساس لا يجوز أن يأخذ الزكاة إذا استقل عنك في النفقة يجوز أن يأخذها.

أحياناً الإنسان هناك حالات و لكن نادرة يجد ابنته في حاجة ماسة إلى مساعدة وزوجها فقير، عندنا حالة شرعية نعطيها للبنت؟ تفضل، لا يأخذ الصهر، لا يرضى و يعمل لها مشكلة، ممكن أن نوكِّل البنت بدفع الزكاة، أن نوكل الابن بدفع الزكاة، البنت تعطي زوجها خذ هذه لك، أخذتهم من أهلي لك، إذا كان الصهر فقيراً جداً، هو أقرب الناس لك، فبهذه الطريقة بعض العلماء أجازوها، أنت دفعت الزكاة إلى صهرك، أما البنت فهي واسطة، الزكاة ليس إليها، و لكنها دفعتها لزوجها، القصد أن الأقربين أولى بالمعروف، و القاعدة المعروفة: لا تُقبل الزكاة من مؤمن وفي أقربائه محاويج، هذا صار تكافلاً اجتماعياً، كل إنسان يعرف عماته و خالاته و إخوته، يعرف كل أسرته، فالأولى للإنسان، لأنك إذا دفعت زكاة مالك لأقربائك الفقراء فهذه زكاة زائد صلة.

هناك أشخاص سبحان الله عندهم أن ينفعوا الناس جميعاً إلا أقربائهم، هناك شخص كان يعمل في عمل حكومي، له قريب معيّن في محافظة بعيدة، ترجوه أن فلاناً فقيراً يسكن في محل بعيد، و يدفع نفقات انتقال، و أجور سكن في درعا، وهذا قريبك، يقول: أبداً لا آتي به، فهناك إنسان ذكي قال له: هذا قريبك مرتاح جداً في درعا، الله يوفقك اتركه هناك قال: لا سآتي به، هناك شخص لا يريد أن ينفع أهله أبداً، يحب أن يقسو عليهم، تجده للناس في منتهى اللطف و الكرم، أما على أقربائه فالسنة خلاف ذلك، الأقرباء أولى بالمعروف، أقرباؤك و بناتك، أصهارك، ومن حولك، أنت أعلم الناس بهم، و أنت حينما تعطيهم تزكّي عن مالك أولاً و تجعل هذه

الزكاة صلة ثانياً، فهي زكاة و صلة في وقت واحد.

الخلاف حول إعطاء الزوجة زكاة مالها لزوجها :

بقي عندنا موضوع هل يجوز للزوجة أن تعطي زكاتها لزوجها الفقير؟ طبعاً الموضوع خلافي، الأولى أنه يجوز، الذين قالوا: إنه لا يجوز ما حجَّتهم؟ تفضل، جعلها منفقة، شيء جميل، هناك توجيه آخر، السيد منير، خذ مانطو، خذ الزكاة و اشتر لي مانطو أحتاجه للشتاء، كأن النفع عاد عليها، فهم لم يجيزوا ذلك، إذاً عندنا حلٌّ وسط الذين لم يجيزوا أن تدفع الزوجة زكاتها لزوجها رأوا موضوع القوامة موضوع أنه عاد النفعُ إليها، و الذين أجازوا أن تُدفع الزكاة لزوجها رأوا أنه أقرب الناس إليها، كيف نوفِّق بينهما تفضل؟ لا هناك حل آخر، أي إذا كان فقيراً فقراً لا يستطيع تأمين الحاجات الأساسية من طعام و شراب الأولى أن تعطيها لزوجها، أما هو يحتاج بعض الحاجات و الأشياء الثانوية، إذًا هنا الحكمة تقتضي أن ننظر في حال الزوج، إذًا ملخَّص الموضوع لا الأصول مهما علوا، ولا الفروع مهما نزلوا، و لا الزوجة، يجوز أن ندفع لهم زكاة أموالنا. عندنا استثناءان، ابنك إذا انفصل عنك، وكان بحاجة يجوز أن يأخذ زكاة مالك، و أختك التي هي في الأصل أو عمتك أو خالتك التي هي في الأصل يجوز أن تعطيها الزكاة، أما إذا كانت في رعايتك و تحت إنفاقك فلا يجوز أن تعطيها لأن في هذا توفيراً في مصروفك، و كأنك تنفق زكاة مالك، و الزوجة في الأعم لأرجح يجوز أن تعطي زكاتها لزوجها.

على الإنسان التحقق قبل أن يلقي ماله جزافاً :

عندنا سؤال؛ إذا دفع المكلَّف زكاة ماله لرجل ظنَّه مستوفياً للشروط ثم تبيَّن له خلاف ذلك، تبين أنه غني، قال لي إنسان: الله عز وجل يلهمنا البصيرة، دخلت امرأة إلى مكتب تجاري في الحريقة، عليها ثياب رثَّة جداً، و تمسكنت و ترجَّت، فهذا صاحب المتجر أعطاها ثلاثة آلاف أما أحد أخواننا قال لي: لم أرتح لها و لا لكلامها و لا لطريقة أخذها، كان مرة في مصرف له معاملة هناك، وجدها موجودة هناك فسأل فقيل له: معها سبعمئة ألف، أنا سمعت قصصاً شيء لا يُصدَّق، ملايين، تجد مظهره كئيباً، رجله مكسورة كسراً خلَّبياً، و يمد المحرمة، و هناك معها مئات الألوف، فهذا المال مال الله، فلما يأتي في محله يضاف أجرك، في محله، هناك إنسان مؤمن يستحي أن يسأل، لا يسأل إلحافاً، كرامته غالية عليه، نفسه عزيزة، مستقيم على أمر الله، لكن هؤلاء المتسوِّلين،

هؤلاء يجب أن يُعالجوا، و أن يُلاحقوا، و يوضعوا في مأوى، قال لي إنسان: قبضنا على متوسل، يلبس ثوباً وزنه أكثر من عشرين كيلو، كلها ليرات ذهب مخيطة في البطانة، هناك أشخاص معهم مبالغ خيالية من التسوُّل، فالإنسان قبل أن يلقي بماله جزافاً يجب أن يتحقَّق.

قيمة الإنسان بعمله الصالح :

لكن عندنا قاعدة لو سرق السائل هلك المسؤول، فإذا أنت لا تعرف أعط مبلغاً لا تندم عليه، مبلغ أنك أنت لم تردَّه، لكن الأولى أن تتحقَّق لأن هذا المال فيه قوام الحياة، أحياناً الإنسان ينقذ أسرة، أحياناً ينقذ مريضاً من مرض عضال، أحياناً يحقِّق عملاً كبيراً، و الله أنا دخلت إلى أسرة مع الأب مرض في قلبه خطير، و العملية لا بد منها، تكلف تقريبا مئتين و خمسين ألفاً، و الطرق كلها مسدودة، بلَّغني أحد الإخوان أن هذا الإنسان جاءته مكالمة هاتفية من امرأة لم تذكر اسمها، قال له: غداً اتَّصل بالطبيب الفلاني، طبيب جراح قلب، من حضرتك؟ قالت له: فقط أعطه اسمك، فاتصل فقال له: نعم، أنا جاهز لأجراء عملية مجاناً، دفعت له سلفاً، أنا زرته بعد نجاح العملية، و الله يا أخوان شعرت بسعادة أن البيت صار كله في فرح، هذه المرأة التي أنفقت هذا المبلغ امرأة موسرة أنفقت هذا المبلغ، و مسحت الدموع عن أطفاله الصغار، عن زوجته، أدخلت إلى قلبه السعادة، و اللهِ زرته شعرت أن البيت كله يرقص، أولاده فرحون، و هو مستبشر، أليس أحسن من أن نضع عرساً بخمسة ملايين في فندق منحطٍّ توزَّع فيه الخمور و النساء كاسيات عاريات؟ الكافر يا أخوان ينفق ماله في المحرمات، ينفقه ترفاً و إسرافاً و بذخاً، أما المؤمن فيعلم علم اليقين أين يضع المال، أنت يمكن أن تنقذ أسرة بأكملها من مرض عضال، الآن هناك أمراض كثيرة، لا بد لها من ثلاثمئة ألف، و الله هناك أخ من أخواننا الكرام طبيب لا أنساها له و اللهِ يقول: كلما وجدت إنساناً يريد عملية أنا جاهز، بعثنا له أخاً أجراها كاملة، و الثاني و الثالث و الرابع هذا مثله مثل طبيب جشع مثلاً؟ هل يستويان؟ و اللهِ لا يستويان، فالإنسان إذا لم يكن له عمل لله لا قيمة له عند الله الإطلاق، ساقط من عين الله:

﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾

[سورة الكهف : 105]

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

[سورة الأنعام: 124]

شخص أناني يحوم حول مصالحه، بالعكس، من ينصحك بإجراء عملية و أنت لست بحاجة إليها، هناك شخص ينصحك بعملية قيصرية إجبارية، و هي لا يلزمها قيصرية لأنه بين ثلاثة آلاف و ستة عشر ألفاً، هؤلاء ليسوا أطباء، هؤلاء سفَّاحون.

الإنسان أيها الأخوة قيمته بعمله الصالح، فلو فرضنا إنساناً غلط و ذهب دفع زكاة ماله لشخص مظهره قميء جداً ثم تبيَّن له أنه غني، فما قولكم؟ هل تجب عليه الزكاة مرة ثانية أم لا تجب؟ تفضل، أنت لك نيتك، بارك الله بك، هذا الدليل أساساً، أنت لك نيتك، و لكن نهمس في أذنك مرة ثانية لا تتسرَّع، هذه المرة مررناها لك، مقبولة، و لكن مرة ثانية لا تتسرع، لأنه يجوز أنه شخص غني، أنا سمعت و الله قصة آلمتني كثيراً قصَّتها عليَّ إحدى الجمعيات، اشتروا بيتاً لإنسان فحوله لبيت دعارة و اللهِ، و اللهِ سمعتها بأذني، فالإنسان قبل أن يدفع لا يُؤخذ بالعواطف، أخوانك المؤمنون الطيبون الطاهرون المستقيمون الأعفة الورعون هؤلاء أولى بزكاة مالك، إنسان ملتزم مستقيم، أما إنسان لا تعرفه، و الآن موضوع الاستجداء صار حرفة متقنة تماماً، هناك أساليب، إذا الإنسان كان بسيطاً أو ساذجاً، ماذا قال سيدنا عمر: "لست بالخِبْ ولا الخِبُ يخدعني".

والحمد لله رب العالمين

الدرس 18: الزكاة بمفهومها العام والخاص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على سيّدنا محمَّد الصادق الوعد الأمين، اللهمَّ لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علَّمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الإنفاق في السراء و الضراء :

أيها الأخوة الكرام، الموضوع المناسب جدّاً في هذا الشهر الكريم موضوع الزَّكاة ربَّنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 133]

المتَّقون لهم آلاف الصفات، وربَّنا سبحانه و تعالى اصطفى من بين كل هذه الصفات قال:

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 134]

لأنَّ الحقيقة الصَدَقَة اشتقاقها من الصِدْق، لا تعبِّر عن صدق إيمانك إلا بالإنفاق، القبض يتوافق مع الطبع، فإذا أنت قبضت حقك كاملاً تقول: أنا أعطي كل ذي حق حقه، قبضت المبلغ كاملاً و الحمد لله، هذا يتوافق مع الطبع، القبض يتوافق مع الطبع، هناك أوامر كثيرة في الدِّين تتوافق مع الطبع، هذه لا تعبِّر عن صِدق إيمانك، لكنْ حينما أودع الله في قلب الإنسان حبَّ المال إذن الميل الفطري للقبض –للأخذ–، فإذا أمره أن ينفق و أنفق فقد عبَّر عن صدق إيمانه بهذا الإنفاق، فلما وصف ربنا عز وجل المتقين –ولهم آلاف الصفات– اصطفى من بين كل هذه الصفات صفة الإنفاق، قال تعالى:

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾

[سورة آل عمران الآية: 134]

ويبدو أنَّ الإنفاق في السَّراء سهل، فإذا كان الإنسان في بحبوحة – ماله وفير يفوق حاجاته بكثير – وأنفق فهذا شيء طيّب جداً و مفيد، لكنْ يبدو أن الأجر العظيم يكون للذين ينفقون في الضرَّاء. قال تعالى:

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

[سورة آل عمران:133– 134]

الحقيقة موضوع الزكاة موضوع معاد كثيراً، تحدَّثنا منذ عشرين سنة عن فضائل الزكاة، و عن الترغيب في أداء الزكاة، وعن التحذير من منع الزكاة، لكنْ أريد في هذا الدرس أن أقف عند بعض الأحكام التي نحتاجها جميعاً في الزكاة.

الزكاة عبادة ماليّة صرفة :

أخواننا الكرام، بادئ ذي بدء.. الزكاة عبادة مالية – عبادة مالية – والعبادات كما تعلمون منوَّعة منها عبادات شعائريّة؛ فالصلاة عبادة شعائرية، الصوم شعائرية، الحج شعائرية، الحجّ شعائريّة و بدنيّة وماليّة إلا أنَّ الزكاة عبادة ماليّة صرفة، أي أنْ تُنفِق المال فقط هذه هي الزكاة. لكن ربنا عز وجل قال:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

[سورة التوبة: 103]

لأنَّ المال قوام الحياة فما أُمِر المؤمنون بدفع الزكاة، الزكاة تؤخذ منهم و لا تعطى، لأن الأمر خطير جداً وهو أمر تقف عليه سلامة المجتمع، و لذلك الله عز وجل وجَّه الأمر إلى النبي الكريم لا على أنه نبيّ بل على أنه حاكم قال:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

[سورة التوبة: 103]

أدقّ ما في الآية أنَّ هذه الصدقة تطهّرهم و تزكّيهم، تطهِّر الغنيّ من الشحّ، والفقير من الحقد، والمال من تعلُّق حقّ الغير به، تزكّيهم: تنمّي مال الغني، و تنمّي نفس الغني، و تنمّي نفس الفقير.

أحياناً يعبّر العامَّة عن المعنى بالشكل التالي يقولون: معنويَّاته عالية جداً، فعندما يقدّم الإنسان زكاة ماله يشعر بقيمته في المجتمع، يشعر أنَّه حلَّ مشكلات كثيرة، مسح الدموع عن فقراء كثيرين، كان في قلوب العشرات،

فالغني عندما يدفع زكاة ماله تتنامى معنوياته و يشعر بقيمته الاجتماعيّة، لأنه أحد أركان المجتمع، هو في الحقيقة يعمل في التجارة و يربح لكنَّه سدَّ حاجة ثلاثين أسرة..سدَّ حاجة مئة أسرة..زوَّجَ عدداً من الشباب..فتحَ أعمالاً لعدد من الناس.. حلَّ مشكلات آلاف الأُسَر..فهكذا ترتفع معنويات الغني.

الفقير: الفقر يجعله مستكيناً، يشعر بضآلته في المجتمع، لا أحد يقيم له وزناً، وعندما تعطى له زكاة المال بأدب و احترام يحسُّ أنه عضو في أسرة وأنه غال على هذه الأسرة، فيقول: إن المجتمع يهمُّه أمري.. يهمُّه سلامتي.. يهمُّه مصروفي.. يهمُّه أولادي..

فالغني ترتفع معنوياته، و الفقير ترتفع معنوياته، والمال ينمو، فهناك ستة معان.

وجوب الزكاة في أموال المسلمين :

خذْ: الزكاة تُؤخذ ولا تُعطى ومن تفيد التبعيض، خُذْ بعض أموالهم فليس هناك زكاة تأخذ كلّ المال، لا توجد في الإسلام مصادرات تامة، و أموالهم جمع أي من جميع أنواع الأموال، فلو كان أحدهم عنده مزرعة أفوكادو عليه زكاة.. فريز عليه زكاة.. عسل عليه زكاة..كل أنواع الأموال الزراعية والتجارية و الصناعية والعقارية إن كانت عروض تجارة، فلو أنَّ أحدهم اشترى أرضاً يريد أن ينتفع منها أي يريد أن يبيعها بسعر أغلى عليه زكاة، اشترى بيتاً ليبيعه و ينتفع به فعليه زكاة، هذه هي معنى أموالهم، جميع أنواع الأموال؛ بيت، دكان.. إلا إذا كان هذا البيت معدَّاً للسكن، أو معدَّاً لإسكان الابن، أو معداً لإسكان البنت، فالبيت إذا كان معدّاً للسكن لا زكاة فيه، وإذا كان معداً للإيجار زكاته في أجرته، و إذا كان معداً للاستثمار زكاته في قيمته، البيت و الأرض وكل أنواع الزراعة.. طبعاً يوجد خلاف بين العلماء و أنا أعطيكم أوجَه الآراء، ما أخرجته الأرض من خضراوات، فواكه، محاصيل، قوت يُخزَّن، يُيَّبس، يُعلَّب، يُستهلَك فوراً، كل أنواع المحاصيل الزراعية تجب فيها الزكاة والمصاريف محسوبة فإذا كانت زراعتك بعليّة فعليك عِشْر الإنتاج، وإذا زراعتك مرويّة فمصاريف الإرواء عليك إذاً نصف العشر أي خمسة بالمئة، فعروض التجارة: البضائع، إنتاج المعامل، العقارات المعدّة للاستثمار، الأراضي، الحوانيت، الأموال النقديّة، السندات الديون – هذا معنى من أموالهم أي من جميع أموالهم – وأموالهم فيها جمع وفيها ضمير جمع أموال، جمع مال، أموالِ هِم وهُم جمع معناها كل المسلمين تجب في أموالهم الزكاة دون استثناء، دون استثناء لمسلم.

الصدقة :

صدقةً: سمّاها الله صدقةً لأنها تؤكِّد صِدق الإيمان. إذا الإنسان سافر وقصَر الصلاة..قَصْر الصلاة يؤكِّد صدق إيمانه، لا يؤكد استمتاعه بهذه الرخصة. الزواج من السنّة فإذا الإنسان تزوّج هل يؤكد الزواج صدق إيمانه؟ لا، لأنّ الزواج شيء محبّب للإنسان. إذا زار الإنسان أقرباءه، وأقرباءه يحبّهم حبّاً جمّاً، وجلس معهم و استمتع بهم هل يؤكد هذا صدق إيمانه رغم أنه نفذ أمراً إلهياً؟ لا، لكنْ لا يؤكد صدْق إيمانك إلا الإنفاق، هذا الذي فسّره العلماء بماذا وصف الله الأتقياء؟ بأنَّهم ينفقون في السرّاء و الضرّاء.

مَن أنكر وجوب الزكاة خرج من الإسلام :

أيّها الأخوة، لا نريد أن نقف عند الحقائق التي طرحت من قبْل في مجالس كثيرة لكنْ مَن أنكر وجوب الزكاة يخرج من الإسلام. فلو قال أحدهم لماذا هذه الضريبة؟ فإنه كافر.. كافر.. من أَنكر فرضيّة الزكاة يكفر لأنه أنكر شيئاً عُلِمَ من الدين بالضرورة، ومن لم ينكر وجوبها لكنه امتنع عن أدائها يفسَّق..يفسَّق ويأثَم. وتجب الزكاة على المسلم و لا تجب على غير المسلم، تجب على المسلم الحرّ، ولا تجب على العبْد، وتجب على المسلم الحرّ المالك للنصاب من أيّ نوع من أنواع المال الذي نصَّت عليه الشريعة إلا إذا كان عنده خنازير فهذه ليس عليها زكاة لأنها محرّمة، المحرم الخمر و الخنزير والميتة و الدم... الأشياء المحرمة هذه ليست مالاً، ليست مالاً في الأصل.

معنى النصاب :

طبعاً معنى النصاب أي معه مال يزيد عن مسكنه ومطعمه و ملبسه ومشربه و مركبه و آلات حرفته، أنت تحتاج لسكن، و أثاث، تحتاج غرفة نوم و سجادة ومدفأة و مروحة وبرّاد، المسكن والأثاث والدكان و الأدوات والمركب – الدابّة وهي السيارة الآن – والمسكن و الأثاث والدكان و الأدوات كأدوات الحرفة والمركب والمطعم و المشرب والملبس هذه هي الحاجات الأساسية، فما فاض عن حاجتك هو النصاب.

إلا أنه الآن لدينا إشكال فالإنسان أحياناً يملك النصاب وهو فقير، قد يكون دخلُه كله لا يفي بمصروفه، فلذلك يوجد لدينا حالات الآن سأتحدّث عنها بعد قليل بحيث يمكن للإنسان أن يدفع زكاة ماله ومن حقه أن يقبض زكاة

من الآخرين، و أن يحول عليه الحول الهجري، أي أن يكون مسلماً حراً مالكاً للنصاب، فاضلاً عن حاجاته الضرورية والأساسية كالمطعم و المسكن و الملبس و المركب و آلات الحرفة، و أنْ يحول عليه الحَول الهجري، و الحَول يبدأ من امتلاك النصاب. مثلاً: جاءك مئة ألف بعد أن تملَّكت هذا المبلغ ومضى عليه حول وجبت فيه الزكاة، ولكن يا أخواني الكرام هناك آراء رائعة جداً و جامعة مانعة، فلو عملت جرداً في أوّل رمضان لمجموع ممتلكاتك، معك مبلغ نقدي ولك ديون بسندات، وعندك بضاعة، مجموع هذه المبالغ أي الكتل الثلاثة: الديون و النقديات و البضائع مئة ألف، ادفع زكاتها في واحد رمضان وأرح نفسك، في رمضان التالي اعمل إحصاء مرة أخرى، أما أن تحسب كل مبلغ كم بقي عندك في البيت، وأيام بقائه، ونقُص عشرة آلاف فنزل عن نصاب الزكاة وعطّل الزكاة شهرين أمر لانهاية له، فأوجَه رأي في موضوع الزكاة أن تحسب مالك في واحد رمضان، و تؤدّي الزكاة على هذا المال، و انتهى الأمر.

وجوب الزكاة في المال النامي :

الحقيقة هناك نقطة هامّة جداً في هذا الدرس وهي أن الأموال، الزروع تنمو مثلاً لو عندك شجرة أعطتك محصولاً هذا المال اسمه نام، مثلاً عندك غنمة ولدت،عندك بقرة ولدت، عندك ناقة ولدت، فهذا هو المال النامي، أمّا المال النقدي فليس نامياً، لكنْ لأنه يُتَوصل به إلى المال النامي وجبت فيه الزكاة، وحكمة الشارع العظيمة من وجوب الزكاة في النقد، في النقد الورقي أو الذهب و الفضّة مع أنه غير نام، كلمة مال نام: مثلاً لو عندك مئة رأس غنم أنجبوا خمسين رأساً، أصبح العدد مئة و خمسين. لو عندك أرض زرعتها وبدرتَ مئة شوال أخذتهم سبعمئة شوال، أخذتهم ألف شوال قمح، هذا هو المال النامي، لكن المال النقدي في أصله ليس نامياً، لكن لئلا يدَّخر، لئلا يحرم منه أصحاب الفعاليات، الطاقات الشابة، فأنت إذا كنزت المال أكلته الزكاة. فالذي عنده مئة ألف خلال أربعين سنة سينفذون نهائياً، سيتلاشى المال خلال مدة أقل من هذه المدة بالزكاة، فإن لم تستثمر هذا المال، إن لم تعاون أخاك الشاب، فهناك أشخاص لتقدّمهم في السنّ، أو لأنهم نساء وليسوا رجالاً، أو لأنهم أطفال صغار لا يستطيعون استثمار أموالهم بأنفسهم، فهذا المال إذا خبأناه تأكله الزكاة، لذلك وجبت الزكاة في المال الذهبي و الفضة والعملة الورقية لأنك إن لم تستثمرها أكلتها الزكاة، فكأن إيجاب الزكاة في المال غير النامي دافع لك كي تعاون أخاك في هذا المال.

مالك المال – مالك المال غير مكلَّف إن كان صبياً – ومنهم من أوجبها في عين المال وهناك رأي معتدل أنّ هذا المال مال الصبي إذا وُظِّف في مشروع تجب فيه الزكاة لأنه أصبح مالاً نامياً، فإن لم يُوَظف في مشروع وهو ليس قادراً على استثماره، هذا معفو من الزكاة وهذا رأي معتدل، لكن هناك رأياً تجب الزكاة في مال الصبي مطلقاً، و رأي آخر لا تجب فيه مطلقاً، ورأي وسط أن هذا المال إذا استثمر تجب فيه الزكاة، وإن لم يستثمر لا تجب فيه الزكاة.

هذا الموضوع مهمّ جداً.

تقديم الدَّين على كل الالتزامات :

الآن لو توفّي إنسان ما، وكان مقصِّراً في دفع الزكاة، مرتَبة الزكاة أين مكانها في التزامات المتوفى؟ عليه ديون، وكما تعلمون فإن الدَّين مقدَّم على كل الالتزامات، لقوله تعالى:

﴿ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا ﴾

[سورة النساء: 11]

الدين أولاً، الوصية ثانياً، تجهيز الميت ثالثاً، ثم الميراث.

قال: ما عليه من زكاةٍ لم تُدفَع مقدَم على الدّين الممتاز، فإذا توفّي إنسان، وعلم أولاده أنه لم يدفع زكاة ماله، عليهم أن يؤدّوها عن كل السنوات التي لم يدفعها قبل أن تؤدى ديونه الشخصية، لأن حقّ الله أحقّ أن يؤدّى وهذه هي الحقيقة.

توجد نقطة مهمّة: من له دين وعليه دين فالزكاة في التفاضل، له مئتا ألف وعليه مئة ألف، فالزكاة في المئة ألف الباقية، من له دين وعليه دين ودخل رمضان، يجمع ديونه التي له والتي عليه ويجري تقاص بينهما، فالتفاضل هو المال التي تجب فيه الزكاة.

النية عند أداء الزكاة :

طبعاً الزكاةُ من شروطها النية، النية عند أداء الزكاة، إما عند أداء الزكاة أو عند عزل المال الواجب، أحياناً لا يجد الإنسان مصارف للزكاة جاهزة، وأجرى حساباته فكانت زكاته اثني عشر ألفاً، وضعها في ظرف، وكتب زكاة المال، ونبّه أهله وأولاده أن هذا الظرف فيه زكاة المال، هذه العمليّة تسمى العزل. فالإنسان إذا عزل زكاة ماله

عندئذ ينوي أداء هذا المال كزكاةٍ لماله، وهناك علماء أفاضل أجازوا أن تُدفَع الزكاة مقدَّماً، و أنا أفضِل هذا بشكل دقيق، أنا أنصح أخواننا الكرام، أخواننا التجار، أصحاب المعامل، أصحاب الحرف، كل إنسان تجب في ماله الزكاة أن يفتح حساباً للزكاة من أول شوال كلما وجد مصرفاً للزكاة جيداً، أي: إنسان فقير، عفيف، مؤمن..

بالمناسبة لا تظنّوا أيها الأخوة أن الإنسان إذا مسك المال ورماه أينما كانْ نجا؟ لا، هذا المال هو قيام الحياة قد تعطيه لمتسول معه خمسمئة ألف، عشرات القصص مثلاً متسوّلة نظنها فقيرة نجد حسابها في البنك سبعمئة ألف، فالإنسان ليس كلما شاهد متسولاً أن يعطيه بسذاجة مبلغاً ضخماً، قد يكون هذا الإنسان مريضاً، مريض بجمع المال، ويرتدي ثياباً تؤكّد فقره مع أنه غني، اسأل القرآن الكريم من هو الذي يستحق الزكاة؟ قال تعالى:

﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾

[سورة البقرة: 273]

مادام الجاهل يحسبهم أغنياء من التعفف، ولا يسألون الناس إلحافاً، إذاً كيف تعرفه أنت؟ بالعين تعرفه؟ لا، بهذه العين لا تعرفه ولكن بالتقصّي والسؤال.

من واجب المسلمين أن يتقصّوا أحوال بعضهم :

الآن واجب المسلمين أن يتقصّوا أحوال بعضهم، مثلاً شخص يرتدي قميصاً أنيقاً وقريبك، اسأله عن أحواله؟ عن وضعه المادي؟ هل عليه ديون؟ اسأله؟ أنا ضدّ إعطاء الزكاة للمتسولين – ضدَّه – أنا عندي كل أخ، كل شاب مؤمن عفيف، عزيز النفس، كريم بحاجة لمبلغ من المال يحلّ مشكلاته الضرورية الأساسية، من تأمين تدفئة، من تأمين ملبس، من تأمين دواء، من تأمين طعام، من تأمين عمليّة جراحيّة، وهذا الإنسان لا يسأل و لا يطلب فأنت مكلَّف أن تتقصّى أحواله، فهو لن يسألك لأنه كريم النفس، ولن يطلب لأنه عفيف، إنه غال على الله عزَّ وجل، فإذا وفّق الله أحداً ما إلى دفع زكاة ماله لأشخاص من هذا القبيل فهذا أروع ما في الزكاة، وأنا أشعر أنَّ هناك أشخاصاً لا يهمهم إلا قضاءها يدفعها كيفما كان من دون تحقيق، من دون سؤال، من دون تقصّي حقائق، من دون تأمّل، من دون حكمة، من دون أن يستشير، فقط يريد أن يدفع الخمسة آلاف مثلاً ويقول: لقد دفعتهم و انتهيت.. إنه لم ينته ذلك لأن المال هو قوام الحياة – قوام للحياة – وربُّنا عزَّ وجل قال: إنَّ هؤلاء الذين يستحقون الزكاة لا يسألون الناس إلحافاً – لا يسألك، و تجده مرتدياً ثوباً أنيقاً و مرتّباً، و تحسبه أغنى منك – يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً، هؤلاء الذين إذا وفّقت بدفع الزكاة لهم، تكون قد قمت بهذا الواجب قياماً صحيحاً.

إذاً يمكن أن نقدَّم دفع الزكاة عن وجوبها، فلو أنَّ إخواننا فتحوا حساباتهم في واحد شوال بعد أن دفعوا زكاة الماضي، فتحوا صفحة جديدة – حساب الزكاة – فعلى التراخي أي على مدار سنة، قد يوجد إنسان يحتاج لعمليّة جراحيّة، أو إنسان ابنه بحاجة لعملية، أو إنسان بحاجة لحاجة أساسية في البيت، إنسان تزوّج يحتاج لشيء من الأثاث، فإذا كان أمامك عام بكامله وتدفع سلفاً فأنت في بحبوحة، أما أن يهمل الدفع طوال السنة، و عندما يأتي رمضان يجد أن عليه دفع مبلغ من المال يجب أن يدفعه خلال يومين أو ثلاثة، يلقيه جُزافاً من دون حكمة عندئذ لا تفِ الزكاة بأهدافها.

ومن باب المشابهة يخطر في بالي الآن موضوع الحجّ، عندما كان ذبح الهدي في الحج، كان يُذبَح من دون مبالغة مئات ألوف رؤوس الغنم في مِنى دون أن تستهلك، حتى أصبح لمِنى رائحة تفسّخ اللحوم تستمر أربعة أشهر، شيء لا يحتمل، هذا هو الدّين! هذا هو الهَدي ألم يقل أحد العلماء: الشريعة رحمةٌ كلها، عدالةٌ كلها، مصالحٌ كلها، فإذا خرجت من المصلحة إلى المفسدة، من العدالة إلى الظلم، من الرحمة إلى القسوة، فليست من الشريعة..

فمن كم سنة الحمد لله الذي هداهم فهذا معقول، برّادات حديثة، مسالخ حديثة، تذبح الدابة، تنظّف، تسلخ، ترسل فوراً بالطائرة في أثناء موسم الحج، إلى هذه البلاد الطويلة العريضة الفقيرة، للصومال، للسودان، للباكستان، لبنغلاديش، هذا هو الهَدي، فعندما يأكل إنسان في الصومال لحم غنم قدمها حاجّ فهذا شيء جميل، أما أن أذبح و أرمي في الطريق فهذا دين، الشريعة مصلحة وهذا العمل ليس فيه مصلحة ، الشيء نفسه في الزكاة، فليست القضية أن تلقي المال كيفما اتفق بل القضية أن أضعه في الإنسان المؤمن العفيف، الذي لا يسأل، الذي لا يطلب.

جواز دفع الزكاة قبل وجوبها بعامين :

قال العلماء: يجوز أن تدفع الزكاة قبل وجوبها بعامين، نحن قلنا: عام واحد، افتح حساب الزكاة من واحد شوّال، أما يجوز دفعها قبل عامين.. عندما قال ربنا عز وجل:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 103]

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا أوتي بصدقة قال: " اللهم صلّ عليهم" وهذا أمر كبير جداً، إذا الإنسان دفع زكاة ماله كان عليه الصلاة و السلام يقول:" اللهم صلِّ عليهم" أما أنَّ الله أمره: وصلِّ عليهم إنَّ صلاتك سكنٌ لهم، ومرّة قال النبي: "اللهم بارك فيه و في إبله"، أي بارك اللَّه لك في مالك، إذا الإنسان دفع زكاة ماله من الواجب أن نسمعه كلاماً طيباً، أنا أقول له: إن شاء الله أن يكون لك قصر في الجنة، بارك الله لك في مالك، وفي أهلك، وفي أولادك، والنبي كان يقول له: "اللهم صلِّ عليهم"، هذه هي كلها من السنّة، وكان الإمام الشافعي يقول:" آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت"

آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت، الذي أعطيته لك فيه الأجر، والذي أبقيته لك فيه البركة.

وجوب زكاة الفطر حتى على الفقير :

ولعلّ أكثر شيء لفت نظري أنَّ الإنسان لا يملك من الدنيا إلا قوت يومه فالشخص ماذا يتغذى؟ عنده صحن طعام ورغيف خبز وكأس شاي، هذا قوت اليوم، إذا الإنسان لا يملك إلاّ قوت يومه تجب عليه زكاة الفطر، لا يملك شيئاً في البيت إلا صحن طعام هذا الإنسان تجب عليه زكاة الفطر.

إذاً اللَّه عزَّ وجل يذيق الفقيرَ في السنة مرة واحدة طعم الإنفاق، فالإنفاق له طعم، ومن ذاق عرف، والأريَحي في اللغة هو الذي يرتاح للعطاء، توجد قاعدة وهي: إذا أردت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة فانظر ما الذي يريحك؟ أن تعطي أم أن تأخذ؟ أهل الدنيا يسعدُهم أن يأخذوا – يعدَّهم و يرتِّبهم على الصور تماماً ويضع لهم مطاطتين ويضعهم في الصندوق – فهو سعيد جداً – يسعدُّهم أن يأخذوا، لكن أهل الآخرة يسعدهم أن يعطوا، فإذا كان الذي يسعدك أن تأخذ فأنت من أهل الدنيا، وإذا كان الذي يسعدك أن تعطي فأنت من أهل الآخرة.

الزكاة في الذهب و الفضة و الأوراق النقدية :

طبعاً تجب الزكاة في الذهب و الفضة و الأوراق النقدية، أي خمس و ثمانون غراماً ذهباً حاصل ضربهم بالثمن حوالي أربعين ألف ليرة، الفضة: مئتا غرام فضة حاصل ضربهم بالثمن حوالي سبعة آلاف ليرة تقريباً، سبعة آلاف ليرة فضة و أربعون ألف ليرة ذهب، والورق بما يقابل الذهب أو الفضة، فكلّ إنسان معه سبعة آلاف ليرة سورية عليه زكاة هذا المبلغ على نصاب الفضة، وكل إنسان يملك أربعين ألفاً تجب زكاة هذا المبلغ على نصاب

الذهب ، والعلماء يستحسنون أن تدفع الزكاة على حساب الفضة لا على حساب الذهب رحمةً بالفقير ، فأنا أنصح أخواننا الكرام سبعة آلاف فما فوق ادفع زكاتهم ولا تلتفت لزكاة الذهب، لأنه أجمل عمل تفعله أن تقع في خطأ في الحساب مع الله – أجمل عمل تفعله – فأحدهم يقول: أنا دفعت ليرتين زيادة بالزكاة – بارك الله فيك – ادفع ألف زيادة، ادفع مئة ألف زيادة، لأنَّ العبد و ماله لسيّده، فأنا أنصح أخواننا الكرام أن يحسبوا زكاتهم لا على الذهب بل على الفضة، أي سبعة آلاف فما فوق تجب فيها الزكاة، وما تَلِف مال في برٍ أو بحرٍ إلا بحبس الزكاة.

الدَّين :

أخواننا الكرام، موضوع الدَّين هو موضوع دقيق، من له دين في رأيي أنه تجب في الدَّين الزكاة عن كل عام، هذا الحكم لإنسان معه خمسة ملايين مدِّين مئتي ألف لإنسان موثوق معه، هذه المئتي ألف دَين ادفع زكاتهم كل سنة، يوجد رأي آخر لا تدفع زكاة الدَّين إلا حين قبض الدَّين، وحين قبض الدَّين تدفع الزكاة عن السنوات السابقة، وهناك رأي ثالث تُدفَع زكاة الدَّين عند قبض الدَّين على السنة الأخيرة فقط، وهناك رأي رابع لا زكاة في الدَّين، لأنك أقرضته ولم ينمُ، والزكاة تجب في المال النامي، فهناك رأيْ لا زكاة فيه، ورأيْ تجب الزكاة فيه حين قبضه عن عام واحد، ورأيْ ثالث تجب فيه الزكاة حين قبضه عن الأعوام السابقة، والرأي الرابع تجب فيه الزكاة قبل أن تقبضه عن كل عام، فكل إنسان له واقع، له وضع خاص فممكن أن يطبّقه على نفسه.
الذي معه سندات قد باع بضاعته بسندات، هذه السندات أوراق مالية تجب فيها الزكاة طبعاً إذا بلغت النصاب.

حلي المرأة :

حليّ المرأة، المرأة الغنية الأَولى أن تدفع زكاة حلِيها، والمرأة التي لا تملك إلا هذه الحلي فلا نقول لها: بيعي من أجل أن تدفعي زكاة هذه الحلي، هكذا نكون قد حمّلناها فوق ما تطيق، إذاً توجد بحبوحة في زكاة الحلي، لكن القاعدة المشروعة أن امرأة مثلاً زوجها من أصحاب الدخل المحدود، وعندها سوار من الذهب وحلق و مطيف و خاتم، أما التي تملك عشرين جنزير ذهب فهذا ليس بحلي بل هذه ثروة مخزّنة بشكل حلي، فمئة ألف من الحلي لهذه المرأة لا تجب فيها الزكاة، فالحلي ممكن أن تدفع زكاتها وهذا عمل طيب ويمكن أن تعطى صاحبة الحلي من زكاة هذه الحلي بشرط أن تكون الحلي معدّة للاستعمال، أما إذا كان السوار مكسوراً ولا يصلح للاستعمال

انقلب إلى مال، فكسر الأساور مال تجب فيه الزكاة، أما إذا كانت مهيّأة للاستعمال ولو لم تستعملها، بعضهم قال: لا تجب وعندهم أدلّة، وبعضهم قال تجب و عندهم أدلة، فالقضية فيها بحبوحة، والحل الوسط أن المرأة التي لا تملك إلا الحلي، الأغلب و الأنسب أنها معفاة من زكاة هذه الحلي، والمرأة الغنية الموسرة التي تملك مالاً وفيراً غير الحلي الأولى أن تدفع زكاة حليها رحمةً بالفقير.

كما قلت قبل قليل: الدار المعدّة للسكن ليس عليها زكاة، والدار المعدّة للتأجير زكاتها في أجرتها، والدار المعدّة للبيع زكاتها في ثمنها.

دائماً قضية النيّة مهمّة، فمثلاً أنا اشتريت بيتاً لأنتفع به، أخذته غير مكسو وبعدما انتهى ارتفع ثمنه فقرّرت بيعه، وباعتبار أن النية في هذا البيت شراؤه لبيعه، إذاً هو عروض تجارية فالزكاة بقيمته، أما إذا اشتريت بيتاً ليكون مورداً ثابتاً لأختي الأرملة مثلاً فالزكاة في أجرته، أو اشتريت بيتاً لابني لأسترَه به، فهذا البيت معفو عنه، فلدينا إذاً ثلاث حالات.

الزكاة في علة أي محصول لا في عينه :

طبعاً عندما تحدّث النبي الكريم حول الزروع، قال: تجب الزكاة في القمح و الشعير و التمر و الزبيب، يقصد أو كما قال العلماء: "تجب الزكاة في علتها لا في عينها"

فأي محصول زراعي آخر ذو قيمة يؤدّي للمجتمع نفعاً هذا تجب فيه الزكاة، وهو الرأي المعتدل و الراجح – نعم – الموضوع فيه خلاف كثير بين العلماء، طبعاً يجوز لصاحب الزرع أن يأكل من محصوله إلى أن يبيع المحصول كله لقوله تعالى:

﴿ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

فإذا أكل وضيّف و هدى فليس عليه شيء، وفي اليوم الذي يحمِّل البضاعة إلى سوق الهال بهذه الكمية تجب فيها الزكاة.

وعندنا موضوع مهمّ جداً أنَّ الزكاة تجب في الذمّة أم في العين؟ قد لا تعرفون الجواب! مثلاً شخص معه مئة ألف ليرة وضعهم في الصندوق، مضى أول سنة وثاني سنة وكان غير منتبه، أو كان لا يعلم ثمَّ علم أنه لابد من دفع زكاة هذا المال، فوجوب الزكاة في ذمّته أم في عين هذا المال؟ فإذا قلنا: في عين هذا المال، إذاً عليه فقط

عن سنة واحدة، و إذا قلنا في ذمته فعن سنتين، إذا قلنا في عين المال أي يدفع ألفين و خمسمئة فقط، إذا قلنا في ذمته فعليه خمسة آلاف، العلماء يرجّحون أنَّ الزكاة تجب في ذمّة المزَّكي لا في عين المال.

هلاك الزكاة قبل دفعها لا يسقطها :

إذا هلك المال كلّه قبل أن تؤدّى زكاتُه، وهذا موضوع خلافي، بعضهم قال: تجب فيه الزكاة، وبعضهم قال: لا تجب فيه الزكاة، لكن إذا ضيَّع الإنسان الزكاة بعد أن عَزَلها، هذه لابد من أن تؤدَّى، إنسان جمع زكاة ماله عشرة آلاف وقال لابنه: أوصلها إلى فلان، و في الطريق أضاع الظرف – الحمد لله ماذا أعمل قضاء وقدر أنا دفعتها – لا، العلماء قاسوها على الدَّين، فإذا عليك دَين عشرة آلاف لشخص ما وأرسلتهم مع موظَّف عندك و أضاعهم في الطريق هل تبرأ ذمتك من هذا الدَّين؟ الجواب: لا، فإذا المال هلك فيه خلاف، أما إذا الزكاة وحدها هلكت فلابدّ من أن تؤدّى ثانية، لا تسقط.

تأخير الزكاة لا يُسقِطها :

شيء آخر: تأخير الزكاة لا يُسقِطها، فالذي يريد أن يتوب لله عزَّ وجل يجب أن يحسب زكاة ماله عن السنوات السابقة كلها، تأخير الزكاة لا يُسقِطها أبداً، فالإنسان أولى أن يدفعها كل عام، لكن يجوز أن تدفع مكان العين نقداً، مثلاً عليك غنم من أربعين، الغنمة ثمنها خمسة آلاف، ممكن أن تدفع الغنمة نفسها زكاة، وممكن أن تدفع ثمنها زكاة، وكلاهما جائز، لو فرضنا شركة، مثلاً شركة متواضعة جداً نصابها عشرة آلاف، هل تجب فيها الزكاة؟ الجواب: لا تجب، لا تجب الزكاة إلا إذا كان كل شريك من هؤلاء الشركاء يملك النصاب، لو جمعنا مال الشركة صار نصاباً، لا تجب الزكاة لشخص اعتباري، كل شريك على حدة، ما لم يملك النصاب لا تجب عليه الزكاة، سأعطي مثالاً تعليمياً: شخص يملك ثلاثة آلاف، و شخص آخر يملك ألفين، وشخص يملك ألفين، أصبح المجموع سبعة آلاف، نصاب زكاة، لا تجب الزكاة على هذه الشركة، لأن الثلاثة لا تجب عليها الزكاة، والاثنين و الاثنين لا تجب عليها الزكاة، أما مجموع المال فصار نصاباً لكن نحن لا نلتفت لمجموع المال، ليس هناك زكاة في المال المشترك.

ولعلّ من أشدِّ الآثام أن تفّر من دفع الزكاة، فرجل معه مئة ألف قبل يومين أو ثلاثة من رمضان مثلاً أعطاهم لأحد أو اشترى بهم حاجة، بعد رمضان باع الحاجة فاستردَّ المال – فيقول لك نجوت – لا لم تنجُ، هذا هو

الفرار من الزكاة، أن تشتري بالمال الذي تجب فيه الزكاة حاجة قبل حلول الحول، وبعد حلول الحول تبيع هذه الحاجة، فتتملّك المال مرة ثانية هذا الذي يفعل هذا لا يعرف الله أبداً.

إن شاء الله تعالى في درس قادم نتحدث عن مصارف الزكاة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 19: مصارف الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصّلاة والسلام على سيّدنا محمّد الصادق الوعد الأمين اللهمَّ لا علم لنا إلاَّ ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم ، اللهمَّ علِّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علَّمتنا وزْدنا علماً ، وأرنا الحقَّ حقاً وارزقنا اتِّباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممَّن يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الزكاة :

أيها الأخوة الكرام ، تحدّثنا من قبل عن موضوع الزكاة ، وقد وعدْتكم اليوم أن أتحدَّث عن مصارف الزكاة وقبل أن أدخل في التفاصيل لا بدّ من كلمة عامة .

منذ أول رمضان أكثر الأسئلة تنصب حول موضوع واحد كيف يؤتي الإنسان زكاة ماله لأقرب الناس إليه ؟ وأحد الأسئلة الغريبة أنّ شخصاً معه مليون ليرة يستثمرها في عمل تجاري ، ودخلُه خمسة عشر ألفاً ، وهي لا تكفيه ، هل أعطيه زكاة مالي؟

الملاحظة الأولى ، الشيء العجيب أنَّ دافع الزكاة يريد أن تتجه الزكاة إلى أقرب الناس إليه ، ولو كان غنياً ، ولو كان له دخْل يمنع أن يأخذ الزكاة .

مصارف الزكاة :

أما الحكم الشرعي المُستَنبط من قوله تعالى وهي آية مصارف الزكاة .

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾

[سورة التوبة : 60]

بيّن الاستنباط أن الزكاة يجب أن تتجه إلى كل هذه المصادر ، فإذا كان معك مئة ألف زكاة فيجب أن توزعها بين كل هذه المصارف ، إذا كان هناك مصرف معطل – إن لم يكن هناك مؤلفة قلوبهم – لا مانع من ذلك ، أما أن توجَّه الزكاة كلها لمصرف واحد ، فهذا مما نهى عنه الفقهاء ، ولو تصورنا أن كل هذه المصارف موجودة، فالأَولى أن توزَّع الزكاة إلى كل هذه المصارف مجتمعةً ، فإذا كان بعضها غير متوافر فالباقي .
لنأخذ احد هذه المصارف: للفقراء –جمع – لِمَ لمْ يقل الله عز وجل للفقير و قال للفقراء ؟

أيضاً استنبط العلماء من الجمع أن تتجه الزكاة إلى أحد هذه المصارف لأكثر من اثنين ، للجمع لثلاثة ، فالأكمل أن تُنفَق الزكاة لكل هذه المصارف ، ولثلاثة أشخاص للمصرف الواحد ، هذا هو الأصل ، وهذا هو الأكمل .

ملاحظات متعلِّقة بمصارف الزكاة :

على كلٍّ هناك ثلاث ملاحظات متعلِّقة بمصارف الزكاة : حيثما كانت الزكاة توفيراً لك في الإنفاق فهي ليست زكاة ، فمثلاً ابنك في البيت ، وطبعاً الأصل أنَّ الأصول مهما علَت ، والفروع مهما دنَت ، والزوجة ، لا تجوز على هؤلاء الزكاة لأنك مكلَّف بالإنفاق عليهم شئت أم أبَيت ، فإذا أدَّيت لهؤلاء زكاة مالك فقد وفَّرت في مصروفك ، فإذا كان من المفروض أن تصرِف على أولادك خمسة آلاف ، و دفعت عليهم زكاة مالك ، فهذا معناه أنك لم تَدفع الزكاة إطلاقاً ، إذاً الأصل أن الزكاة إذا دُفِعَت إلى من تلزمك نفقته ، فأنت قطعاً لم تدفع الزكاة ، لأنك وفرت في مصروفك .
لكن هناك حالات نادرة ، وأنا لا أحب أن أفتي بها دائماً ، فمثلاً: أحياناً ابن مستقل عن أبيه في النفقة ، أي متزِّوج ، وله بيت ، وله أولاد ، والأب وضعه المادّي وسَط، لكن معه نصاب الزكاة ، وهذا الابن غارم عليه دين، وهو بحاجة ماسَّةٍ للمال ، فهناك حالات نادرة جداً يمكن أن تعطى فيها الزكاة إلى من يستَقلّ عنك في النفقة .
وهناك حالة معاكسة ، مثلاً أختك في بيتك ، مُلزمٌ أن تُنفِق عليها ، فإذا أعطيتها الزكاة تكون قد وفَّرت في النفقة، رغم أنَّ الأُصول مهما علَت ، والفروع مهما دنَت ، والزوجة ، لا تجوز لهم الزكاة ، إلا أن هناك حالات نادرة ، لو أنَّ أختك ، وطبعاً الأخت المستقلّة في النفقة لا خلاف فيها ، لك أن تعطيها من الزكاة ، أمَّا ابنتك

المتزوِّجة ، فالزكاة هنا ليست لابنتك بل لزوجها ، إذاً المقصود ألاَّ تكون الزكاة توفيراً في الإنفاق ، فإن كانت توفيراً في الإنفاق ، أي إنفاقاً من الإنفاق ، فهي ليست زكاة .

وهناك قاعدة ثانية أتمنَّى أن تأخذوا بها وهي : " الأقرَبون أَولى بالمعروف" ، أمَّا كَلمة الأقربون فهي قاعدة وليست حديثاً شريفاً ، إنَّما هي قاعدة فقهيّة ، الأقربون أي الأقربون من ثلاث زوايا ، الأقربون إلى الفقْر ، و الأقربون إلى الإيمان ، و الأقربون نسباً ، إذاً أمامك ثلاثة عوامل ، فبإمكانك لو تساوى عاملان أنْ تجعل الثاني مُرجِّحاً ، ولو تساوى أربعة عوامل تجعل الثالث مُرجِّحاً وهكذا . .

شخصان تساويا في الفقر ، نُرجِّح الأكثر إيماناً ، وقد سمعتُ قصَّة منذ مدة أنَّه عندما دُفعَت زكاة المال لإنسان اشترى بها قبل كلّ شيء فيديو ، فهل يصحّ أنه بمالِك الذي جنيتَه بتعبك وأنت مؤمن مستقيم أن تعطيه لشخص ليشتري به جهازاً له فيه فساد كبير !!

وهناك إحدى الجمعيّات لا أذكُر اسمها ، ومن دون أن تعلم قد اشترت بيتاً لإنسان فكان هذا البيت وكر دعارة في النهاية ، وهذه قصّة أعرفها تماماً .

الاجتهاد في وضع المال في مكانه الصحيح لا يقل عن دفع الزكاة :

أخواننا الكرام . .إذا ظننتَ أنه بمجرّد أن تلقي بهذا المال لجهة ما وانتهيت – لا لم تنته – فاجتهادك في وضع المال في مكانه الصحيح لا يقل عن دفع ، يوجد كثير من الناس يريد أن يدفع هذا المبلغ كيفما كان – قصص أعرفها تماماً – فقبل أن تدفع الزكاة لإنسان ، اسأل ربنا عزَّ وجل الذي قال :

﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾

[سورة البقرة : 273]

وهذا لأنّهم مؤمنون ، لأنّهم أعزّة ، فالشخص الأخلاقي المؤمن الدَّيِّن الذي يمتلك الحياء ، الذي عنده خجل ، الذي عنده كرامة ، الذي عنده عزّة ، الذي لا يسأل ، الذي لا يلحّ، الذي لا يُلحِف ، أعطه هذا الزكاة ، إذاً يحتاج الأمر لاجتهاد ، لا تعرف اسأل ؟ أمّا أن يُلقي الإنسان بهذا المال جُزافاً فهذا أمر غير صحيح .

الأقربون إلى الفقر ، تساوَيا في الفقر ، الأقربون إلى الإيمان ، تساوَيا في الفقر و الإيمان ، فمن الممكن إذا تساوى معك عاملان أن تستخدم العنصر الثاني مرجّحاً بينهما ، فإذا تساوى الأول والثاني تستخدم الثالث مُرجّحاً بينهما ، إذاً الأَكمل أن تُدفَع الزكاة إلى كلّ مصارفها إن وُجدَت ، فإن لم توجد فللمصارف الموجودة ، والأَولى أن

تُدفع لكل مصرف ثلاثة أشخاص ، لأنّ الصيغة صيغة جمع ، وهذا الأكمل .

عن زياد بن الحارث قال: أتيت النبي ﷺ فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطني من الصدقة ؟ قال : وزّع الصدقة ثمانية أجزاء ، وقال له: إن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك ، وهذا يعني أنّ النبي أراد أن تكون الصدقة موزّعة إلى كلّ مصارفها ، فهذا دليل .

قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم هو فيها))

[أبو داود عن عبد الرحمن بن زياد]

فهو لم يقل اِدفعوا الصدقات لمن ترونه مناسباً ، معنى ذلك أنّ الله فوّض الأمر للنبي ، ولكن في هذا الموضوع لم يفوّض الله الأمر لأحد ، إن الله تعالى لم يرضَ بحكم نبيٍّ ولا غيره في الصدقات حتّى حكم هو فيها ، أو حتّى حكم فيها هو ، فجزّأها ثمانية أجزاء ، وقال له : إن كنت من تلك الأجزاء أعطيتُك .

انتقاء ألطف العبارات عند إعطاء أخيك الزكاة :

أريد قبل أن أدخل في التفاصيل أن أوضّح بعض المبادئ العامّة وهي مهمّة جداً فالنقطة الثانية كما قال النبيّ عليه الصّلاة والسّلام:

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلا اللُّقْمَةُ وَلا اللُّقْمَتَانِ ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ . وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ يَعْنِي قَوْلَهُ: لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا))

[البخاري عن أبو هريرة]

تجد أحدهم مرتدياً ثياباً أنيقةً ، ومرتّباً ، وبيته مرتّب ، لكن دخلُه أقلّ بكثير من مصروفه ، فلمَ لا نتركه بعزّته وكرامته وشأنه بين الناس وذلك بأسلوب لطيف جداً وبتواضع ؟ فأنا أحياناً أقول للأخ : إذا قبلت فقد فَضّلت عليّ، وجَبرت خاطري ، وأنا إن شاء الله مكنني واحتجت فسأسألك ، فيشعر أنه مثلك تماماً ، لست أعلى منه بأيّ درجة ، وأنه فضّل عليك عندما أخذ منك ، وجبر خاطِرك ، فيقول : الحياة دَين ووفاء .

فواجبك أن تنتقي ألطف عبارة ، وأجمل أسلوب ، لتُشعر أخوك بأنك غال علينا وأننا أسرة واحدة ، وأنّ حاجتك هي حاجتنا .

مكافحة التسول و وضع الزكاة في مكانها الصحيح :

ونحن كما تحدّثنا في الدرس السابق يوجد كثير من المتسوّلين ، والتسوّل يجب أن يُكافَح ، في بعض البلاد والمدن وفي بلدنا لا يوجد فيها أي متسوّل ، والتسوّل ظاهرة غير حضاريّة ، فإنسان فقير له مأوى يأكل فيه ويشرب ، أمّا أن يتّخذ من التسوّل مهنة ، وقد سألوا صحابياً يبدو حالتك الماديّة جيّدة جداً ، فقال : إنّها قضيّة مبدأ ، فهو أربح من أيّ شيء، قد لا تصدّق أنّ أحدهم يمدّ يده فيقبض في يومه حوالي ثمانمئة ليرة ، ألف ، ألف وخمسمئة، ثمّ يغيّر ملابسه و يتّجه إلى بائع الحلويات ويطلب خمسة كيلو تواصي ، وقد كان قبل قليل متسوّلاً ثمّ غيّر كل ملابسه ، ويطلب الفواكه ، ومن دون حساب يعطيه خمسمئة ليرة ولا يطلب الباقي فهو لم يتعب في الحصول عليها ، فقط يمدّ يده ، ونحن نريد أناساً كرماء ، أناساً أعزّة ، لا تسأل ، تتعفّف ، وأقولها مرّة أُخرى : لو أنفقت أو دفعت زكاة مالك عشوائيّاً ، من دون اجتهاد ، من دون دراسة ، من دون سؤال ، فإنّ المشكلة لا تُحلّ ، لأنّ أجرك في اجتهادك في المكان المناسب لا يقلّ عن أجر دفع الزكاة أصلاً ، ونحن نحلّ مشكلة بالزكاة ، وقد قلت لكم مرّة : هذا الذي ذهب إلى الحجّ واشترى هدياً وذبحه وتركه في مِنى ، فتخيّل حوالي خمسمئة ألف غنمة مذبوحة ، و الحرارة ستّ وخمسون درجة ، وبعد فترة من الزمن أصبحت رائحة التفسّخ تسدّ الأنوف ، هل هذا هو الإسلام ؟ لا هذا ليس بالإسلام ، هذا الهدي أو هذه الدابّة يجب أن تصل إلى أفواه جائعة، هذا هو الدِّين ، ومثله الزكاة ، يجب أن يصل هذا المال إلى مُستحقّ ، فهناك أشخاص بحاجة لعمليّات جراحيّة ، وأشخاص بحاجة لأساسيّات البيت ، إلى طعام ، إلى شراب ، وقد سمعت قصّة يُعتَصر لها القلب ، فتاة في المدرسة صفراء –لونها أصفر – تشعر بدوار دائماً ، وعندما سألوها قالت : نحن نأكل بالدّور ، الوجبة الصباحيّة يأكل فيها اثنان من أربعة ، واليوم لم يكن دوري بالطعام ، لا يوجد طعام يكفي كلّ الأولاد ، فهكذا أسرة تعيش بلا طعام ، بلا شراب ، ونحن نلقي المال جُزافاً .

إذاً أوّل فكرة يجب أن تجتهد في إعطاء المال لمن يستحقّ ، والشيء الثاني يجب أن تنوّع مصارف الزكاة ، والشيء الثالث المصرف الواحد ثلاثة أشخاص حدّ أدنى .

مقدار الزكاة :

أمّا المقدار ، فهذه نقطة دقيقة جدّاً ، قيل من مقاصد الزكاة كفاية الفقير وسدُّ حاجته فيُعطى من الصّدقة القدْر الذي يُخرجه من الفقر إلى الغنى ، ومن الحاجة إلى الكفاية على الدوام وذلك يختلف باختلاف الأحوال

والأشخاص ، أمّا أن حاجته ثلاثة عشر ألفاً وتقول له : خذ هذه الخمسمئة ، ماذا فعلتَ له إذاً ؟ أبقيتَه شحّاذاً ، البطولة أن تحوّل هذا الفقير من قابض زكاة إلى دافع زكاة ، أي إن استطعت أن تؤمّن له عملاً كآلة صغيرة ليعمل عليها ، أو درّاجة ناريّة ليوزّع عليها بضاعة مثلاً ، أو أن تُؤمّن له ماكينة صغيرة ليعمل تريكو ، أنا أرى هذا أكمل أنواع الزكاة ، أن تحوّله من قابض إلى دافع ، أن تفجّر هذه الطاقة المخبئة فيه، لا تبقه متسوّلاً ، لمرّة واحدة ، ممكن أن تساعِده لمرّة واحدة ، أمّا أن تُبقيه دائماً على بابك ، يأخذ خمسمئة ثمّ خمسمئة ثمّ مئتين ، ماذا سيفعل له هذا ؟ لن تحلّ له المشكلة ، أمّا إن أمنت له ثمن بسْطة ، أو عربة ليبيع عليها خضاراً ، فهذا جيّد ، بحيث مهما كان دخْله قليلاً فسيكفيه .

فمن مقاصد الزكاة كفاية الفقير وسدّ حاجته سواءً كان من الصدقة القدْر الذي يُخرجه من الفقر إلى الغنى ، ومن الحاجة إلى الكفاية على الدوام ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص ، وسيّدنا عمر يقول:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا أَعْطَيْتُمُ الزَّكَاةَ فَلا تَنْسَوْا ثَوَابَهَا أَنْ تَقُولُوا : اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مَغْنَمًا وَلا تَجْعَلْهَا مَغْرَمًا))

[ابن ماجة عن أبي هريرة]

أصحاب المذاهب اختلفوا فأَغنوا .

وقت الزكاة :

أيّ وقت مقصود بها ؟ الشافعي قال : على الدوام ، أعطِه عطاء يصبح بكفاية دائمة ، الحنفي قال : لِسنة يجب أن تعطِيه عطاءً يكفيهِ لسنة ، وهذا في أصعب المذاهب ، في أشدّ المذاهب – الحنفي –والشافعي على الدوام . لكن سبحان الله في عصر الازدهار كان سيّدنا عمر بن عبد العزيز عندما يجمع الزكاة ، لا يجد إنساناً ليأخذها، هذه مشكلة ، كلّ الناس في كفاية ، أحياناً يكون التسعون في كفاية ، والعشرة في حاجة ، وهذه قضيّة سهلة ، الثمانون في كفاية والعشرون في حاجة ، أيضاً سهلة ، سبعون وثلاثون ، أيضاً سهلة ، ستّون وأربعون ، خمسون وخمسون ، إذاً يوجد صعوبات وأزمة صعبة ، العشرة في كفاية والتّسعون في حاجة ، عندها لن تستطيع أن تكفي الشخص على الدوام طوال حياته ، فوق طاقة الإنسان ، لا يكفي ، يحتاج بيتاً ، أو دكّاناً ، وهذا يحتاج ملايين ، لقد أصبح الوضع صعباً جداً الآن ، وعلى كلّ حال الزكاة تخفّف من بعض المتاعب ، والعمل شرفُ الإنسان أيّها الأخوة .

من أكل أموال الناس أغلق عليه باب الرزق :

بالمناسبة ، هناك موضوع ليس له علاقة ، لكن عندما ينطلق الإنسان أساساً من أكل أموال الناس يُغلَق عليه باب الرّزق .

((إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ثَلاثٌ: وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ كُنْتُ لَحَالِفًا عَلَيْهِنَّ لا يَنْقُصُ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا وَلا يَعْفُو عَبْدٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلا رَفَعَهُ اللَّهُ بِهَا ، و قَالَ أَبُو سَعِيدٍ مَوْلَى بَنِي هَاشِمٍ: إِلا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلا يَفْتَحُ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ))

[أحمد عن عبد الرحمن بن عوف]

لأنّ الإنسان إذا قال: يا ربي أسألك من فضلك ، يا ربّ ، فإنّ الله لا يخيّبه ، لا يخيّبه أبداً .

((عن قُبَيسة بن مُخارق الهلاليّ قال : تحمّلتُ حمّالةً ، أي دَينا لإصلاح ذات البَين – تحمّل مبلغاً فوق طاقته – فأتيتُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أسأله فيها ، فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثمّ قال يا قبَيسة : إنّ المسألة لا تحلّ إلّا لأحد ثلاثة . . . .))

[مسلم عن قُبَيسة بن مُخارق الهلاليّ]

وهنا نقطة ثانية : العطاء لا يحلّ لغني ، ولا لذو مِرّةٍ قوي ، فإنسان شاب مفتول العضلات بإمكانه أن يسعى لا تحلّ له الصدقة ، أي إنسان غني عنده كفايته ، فلا يحلّ لغني ولا لذو مِرَّة قوي ، إلاّ أنه أنت أيها الدافع لا يجوز أن تُعطي إلا وفق شروط .

لا يحق للإنسان أن يسأل إلا في ثلاث حالات :

لكن هناك موضوعاً آخر ، أنّ الإنسان لا يحقّ له أن يسأل إلا في ثلاث حالات؛ الشخص يسأل و ليس له حقّ أن يسأل ، يسأل فيريق ماء وجهه ، يسأل من دون حقّ :

((. . . .قال لا تحلّ المسألة إلا لأحد ثلاثة ، فرجلٌ تحمّل حمّالة ، فحلّت له المسألة حتّى يُصيبها ثمّ يمسك ، ورجلٌ أصابته جائحة – أي أتلفت ماله ، اجتاحت ماله – فحلّت له المسألة حتّى يُصيبِ قوامٌ من عيش – سددٌ من عيش – ورجلٌ أصابته فاقة ، حتّى يقول ثلاثةٌ من غير حِجا – العقول ، ونستنبط من هذا القول – حتى يقول ثلاثة من غير حجا من قومه لقد أصابت فلانٌ فاقة ، فحلّت له المسألة))

[مسلم عن قُبَيسة بن مُخارق الهلاليّ]

ورداً على سؤال من الأخوة حول هذا الموضوع ، لابدّ من السؤال عنه ، فقد يكون كاذباً ، نقول له : أعطني عنوانك ، واسأل عنه ، وهذه أيضاً لها مضاعفات ، فقد حكى لي أحد الأخوة : امرأة فقيرة جدّاً طلَبت ، فقالوا لها: نريد عنوانك ، فأعطتهم إيّاه ، وعندما ذهبوا رأوا مشهداً مستحيلاً ، غرفة على الطينة ، غاز طراز قديم عليه سطل ، وبساط من قصاصات القماش ، وأولاد تجلس على الأرض ، وكانت هذه اللجنة مؤلّفة من أربعة أو خمسة أشخاص ، أحدهم راوده الشكّ في هذا المنظر ، فذهب اليوم التالي إلى البيت فلم يجد أحداً ، طرق كثيراً فردّ عليه الجيران ، وعندما سألهم عن أصحاب البيت ، قالوا : هذا ليس بيتهم إنّما هو ذلك البيت ، فإذا به برّاد وتلفاز وغسّالة ، فهذه الجماعة اتّخذوا من ذلك البيت مصيدة – البساط والغاز القديم والسّطل – إذاً هذه مشكلة أيضاً ، فالنفوس ضعُفَت ، النفوس مرضت ، وماء الوجه ذهَب .

((فعن عُبَيد الله بن عديّ ، قال أخبرني رجلان أنّهما أتيا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حجَّة الوداع ، وهو يقسم الصدقة ، فسألاهُ منها ، فرفع فيهما البصر وقتّبه ، فرآنا جَلدَين أي رجلَين قويَّين ، قال لو شئتما أعطيتكما ولا حظّ فيها لغنيٍّ ولا لقويٍّ مُكتسِب . . .))

[أحمد عن عُبَيد الله بن عديّ]

الزكاة لا تحْلّ لقوي و لا لغني :

– ولا حظَّ فيها لغنيّ ولا لقويّ مكتسب – كالسؤال الذي طُرح عليّ ، معه مليون يستثمرها ، ودخلُه خمسة عشر ألفاً في الشهر ، لكنّها لا تكفيه ، هل نعطيه زكاة ؟ كالمثل الشعبي – المزاريب للداخل يريدها – لا شيء للخارج، كلها للداخل يريدها . وهناك حديث آخر صريح ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيّ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيّ))

[ابن ماجة عن أبي هريرة]

أي صحيح البدن الذي يقوى على الاكتساب ، وهنا لدينا حالة يجب ألا تَنسَوها أحياناً تجد إنساناً شاباً ، قوياً ، مفتول العضلات ، ليس لديه عمل – بلا عمل – أحياناً هناك ظاهرة خطيرة هي البطالة ، هذا الربا يؤدي إلى البطالة ، فإذا المال ولَد المال ، والمفروض أنّ العمل يلد المال ، فإذا فتحت دكاناً ، حانوتاً صغيراً ، تجد أنّك شغّلت ألف شخص وأنت لا تشعر ، فمثلاً تحتاج فواتير ، إذاً شغّلت مطبعة ، المطبعة تحتاج إلى حبر ، اشتريت حبراً نقل الحبر يحتاج إلى سيارة ، إذاً يمكن أن تُشغّل عشرة آلاف شخص وأنت لديك محل صغير وأنت

لا تدري ، لأنّ الحياة متشابكة ، أمّا إذا وضع الإنسان أمواله في المصرف ، يوجد فائدة ، إذاً المال ولد المال ، لا وساطة بالعمل ، العمل إذا ولد المال يلغي البطالة ، أمّا إذا المال ولد المال تنتشر البطالة ، والآن أكبر مشكلة في العالم الغربي ، عالم البنوك الربويّة البِطالة ، فهناك سبعة ملايين إنسان بلا عمل ، ثمانية ملايين ، عشرة ملايين ، ستة ملايين وكلّما كان هناك تضخّم بالأموال ، واستخدمنا الأسلوب غير الشرعي في كسب المال، تقلّ فرص العمل ، حتى الآن يوجد نقطة لم ينتبه لها أحد ، أننا نجلب أجهزة و نحن مسرورون بها ، لكن من دون الجهاز كنّا نحتاج مئة عامل ، الآن الجهاز ألغى المئة عامل ، كنّا نحتاج على كل نول عاملاً ، لدينا ألف نول إذاً نريد ألف عامل ، الآن كل مئة نول كاميرا تلفزيونية وعامل واحد على الشاشة ، فإذا انقطع خيط ، رقم ثلاثة عشر ، عامل آخر يصلحه ، فكلّما تطوّرت الأجهزة ، هذا مريح ، لكن فرص العمل قلّت ، وانتشرت البطالة ، ورافق البطالة جريمة ، وسرقة ، ومخدّرات ، وتهريب .

ألم يقل سيدنا عمر: ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهبٍ ؟ قال : أقطع يده قال: إذاً إن جاءني من رعيّتك من هو جائع أو عاطل ، فسأقطع يدك ، يا هذا إنّ الله قد استخلفَنا على خَلقه لنسدّ جوعتهم ، ونستر عورتهم ، ونوفّر لهم حرفتهم ، فإن وفّينا لهم ذلك ، تقاضَيناهم شكرها ، إنّ هذه الأيدي خُلقَت لتعمل ، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً ، التمست في المعصية أعمالاً ، فاشغلها بالطاعة ، قبل أن تشغلك بالمعصية .

ممكن بزمن الرخاء أن تجد بالشهر سارقاً واحداً ، لكن في أيام الشِدّة تجد باليوم ألف سارق ، ألف جريمة سرقة باليوم الواحد في المدن الكبرى ، طبعاً في المدن الكبرى ملايين السرقات ، ستة عشر مليون جريمة سرقة سنَة خمس وستين في أمريكا ، الآن الإحصاء بالثواني ، في كل عشر ثواني الآن –كان كل ثلاثين ثانية – تُرتَكب جريمة سرقة ، أو قتل ، أو اغتصاب ، فعندما يكون كسب المال غير مشروع ، وكميّة المال غير مشروعة ، أي المال يولد المال ، إذاً لدينا بطالة ، لكن لَو أن المال يولد عن طريق العمل ، إذاً لدينا فرص عمل كبيرة جدّاً ، وهذا يخفّف من البطالة ، ربّما دخْل قليل ، لكن حسبما أوجّهه .

النصاب :

نقطة مهمّة جدّاً ، فمن ملك نِصاباً ، والنصاب سبعة آلاف ، من أي نوع من أنواع المال ، وراتبه لا يقوم بكِفايته، لكثرة عياله ، أو لغلاء السعر ، فهو غني ، لأنه مَلَك النصاب ، من حيث أنه يملك نصاباً ، فتجب الزكاة في ماله ، و فقير ، لأن راتبه لا يكفيه ، فيُعطى من مال الزكاة .

أحدهم قال لي: إن شخصاً دخْله ألف وخمسمئة ليرة ، وعنده تسعة أولاد ، وزكاة الفطر خمسون ليرة ، إذاً خمسمئة ليرة نقصت منه ، ثلث معاشه ، وبقي ألف ، فالله سبحانه وتعالى يرصد له زكاة فطره – مقبول – تدفع وتأخذ ، فالحكم دقيق جداً ، الآن لأسباب استثنائية ، من ملك النصاب ليس غنياً ، لكن بحكم نفس الشرع تجب عليه الزكاة ، يدفع الزكاة ، وله حق أن يأخذ الزكاة .

((عن عبْد الله بن السّعدي ، أنه قدِم على عُمَر بن الخطّاب رضي الله عنه بمصْر فتُعطى عليه عمالةً ، فلا تقبلُها ، قال: أجل ، إنّ لي أفراساً وأعبُداً ، وأنا بخير ، وأريد أن يكون عملي صدقةً على المسلمين ، فقال عُمَر: إني أردتُ الذي أردتْ ، فكان النبي عليه الصلاة والسلام يعطيني المال ، فأقول له: أعطِ المال لمن هو أفقر إليه منّي ، وإنه أعطاني مرةِ أعطاني مالاً ، فقلت له: أعطِه من هو أحَوج إليه مني ، فقال: ما أعطاك الله عزّ وجلّ من هذا المال ، من غير مسألةٍ ولا إشرافٍ ، فخُذْه ، فتناولْهُ ، أو تصدَّق به ، وما لَم ولا تُطِعه نفسك))

[النسائي عن عبْد الله بن السّعدي]

فأحياناً أخوك اجتَهد ، وأحبّ أن يعطيك مبلغاً ، وأنتَ معك ، تقول له : أنا معي ، أعطِه من هو أفقر مني – شيء جميل – إذاً خُذْه وأعطِه مَن هو أفقر منك ، فالحل سهل ولطيف ، هو أحبّ أن يُكرمَك ، وأن يُودّك ، وأنت معك ، ويوجد أفقر منك ، لا تقل له أعطِه لمن هو أفقر مني ، بل قُل له: جزاك الله خيراً ، وأنت أعطِه لمن هو أفقر منك ، لأنك أخذته حلالاً ، فهُنا – ما أعطاكَ الله عز وجل من هذا المال ، من غير مسألةٍ ، ولا إشرافٍ – أي لم تتمناهُ ، ولم تُلمّح ، ولم تُصرّح ، ولم تسأل ، ولم تتوقّع ، فخُذْه ، فتناولْه ، أو تصدّق به ، إذاً هكذا السنّة أن نفعل .

على من تحرم الصدقة ؟

تحرُم الصدقة على الكفَرَة والملاحِدة ، المقصود بالصدقة : الزكاة ، الزكاة تُؤخَذ من أغنيائهم وتُرَدُّ إلى فُقرائهم ، إذا الإنسان غير مسلم ، ألا يوجَد مجال لمساعدته إطلاقاً ؟ ساعده من مال الزكاة ، من مال الصدقة ، ولدينا دليل قرآني .

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

[سورة الإنسان: 8]

الأسير غير مسلم ، إذاً أنت رقيق المشاعر ، وهذا إنسان ، هذا عبْد لله عز وجل، وهو عبْد الإحسان ، فإذا

أحسنت له ، لعلّه يميل إليك وإلى دينِك ، فيُسلم ، لكن لدينا باب الصدقة ، إذا أردت أن تُكرم إنساناً غير مسلم ، فينبغي أن يكون هذا من مال الصدقةِ ، لا من مال الزكاة ، لكن هناك استثناء وحيداً وهو المؤلّفة قلوبهم ، إذا إنسان قوي جدّاً ، وبإمكانه أن يلحق أشدّ الأذى بالمسلمين ، فإذا دفعتَ له شيئاً من المال استرضاءً له ، وحدّاً لأذاه ، من مال الزكاة ، فهو من مصارف الزكاة – والمؤلّفة قلوبهم – هذه الآن غير موجودة ، إنما في ظروف أوّل الإسلام تقريباً ، الآن الحمد لله ، الناس كلّهم مسلمون ، فلا مشكلة ، إذاً هذه حالة استثنائيّة ، تُدفَع الزكاة على أساس مصرف المؤلّفة قلوبهم من الزكاة .

بنو هاشم ، والمراد بهم آل عَديّ ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل العدّاس ، وآل الحارث ، هؤلاء أهل بيت النبيّ ، لقَول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ الصَّدَقَةَ لا تَنْبَغِي لِمُحَمَّدٍ وَلا لآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

ثم الآباء كما قلت قبل قليل ، و الزوجة ، و لا يجوز أن تُدفع الزكاة قُربةً إلى الله لغير الفقراء ، لجامع ، الجامع من مال الصدقات ، الآن الجوامع لها الحمد لله إيرادات جيّدة ، وعلى الملأ ، وعلى المنبر ، ومنظّمة ، وجمعيات، وإيصالات ، لا مشكلة ، فلا يجوز أن تصل الزكاة إلى بناء المساجد ، لأنّ أساس الصدقة أن تذهب إلى كبدٍ جائعة ، لإنسان محتاج، فالمساجد تُبنى من أموال الصدقات ، لا من أموال الزكاة . قال: لا يجوز أن يُكفَّن الموتى بمال الزكاة ، نفقات تكفين الموتى ، ولا أن تُسَدَّد ديون الميّت من الزكاة ، فالحيّ أَولى من الميّت .

استحباب إعطاء الزكاة للصالحين :

استحباب إعطاء الصدقة أي الزكاة للصالحين ، وهذا شيء مهم جدّاً ، إنسان يصلي ، صائم ، مستقيم ، ليس في بيته حَرام إطلاقاً ، وفقير ، فهذا أَولى إنسان أن يُعطى الزكاة ، لأنك حفظتَ له ماء وجهه ، وأكرمته ، أمّا الإنسان الفاسق فهناك اِحتمال كبير أن يصرِف الزكاة في المعصية .

النهي عن شراء الزكاة أو نقلها من بلد لآخر :

هنا نَهى الشارع الحكيم المُزكِّي أن يشتري صدقتهُ ، فأنت أوعى بحيَل ما أنزل الله بها من سلطان ، يضع الزكاة في رغيف خبز ، ويقدّمه للفقير ، على أنه صدقة ، ثمّ يقول أتبيعني هذا الرغيف بألف ليرة ؟ يجيب طبعاً أتمنى، فاشتراه بألف ليرة وهذه حيلة شرعيّة ما أنزَل الله بها من سلطان .

الزكاة في الأصل لا ينبغي أن تُنقَل من بلد إلى بلد ، ويوجد تفسير اقتصادي رائع جداً ، أنتَ جمعتَ المال من البلدة ، فتحت محلاً تجارياً تبيع الناس ، مَن ربَّحك ؟ هؤلاء الناس ، ففقراء هؤلاء الناس أَولى بالمال الذي أخذتَه من أغنيائهم . أمّا في حالات نادرة ، أن يكون الإنسان مُقيماً في بلد أجنبي ، وكلّهم كفّار ، وهناك بحبوحة كبيرة جدّاً ، ممكن أن يدفع زكاة ماله في بلده ، تُنقَل الزكاة ، ولكن هناك حالات خاصّة ، الأصل ألاّ تُنقَل ، الأصل أن يأخذ فقراء البلدة مال الزكاة الذي حُصِّل من هذه البلدة بالذّات .

اتجاه الزكاة لطالب العلم لا للعابد :

وهناك توجّه – أمر إرشادي – أنّ طلبة العلم دون العُبّاد أَولى بالزكاة ، لَدَيك عابد وطالب علم ، العابد إنسان لا يعمل ، يعبد الله ، أمّا طالب العلم فيطلب العلم لغيره ، وسوف يكون منارة للأمّة ، أمّا العابد فلنفسه ، فالأَولى أن نقول للعابد: اِذهب واعمل قال – مَن يُطعمك ؟ قال : أخي ، قال : فأخوك أعبَد منك ، أنتم من يُطعمكم ؟ قالوا: نحن ، قال فكلّكم أفضل منه – فالنبي عندما شكا له شخص على شريكه طالب العلم ، قال له النبي: فلعلّك تُرزَق به ، فلمّا رأى رجلاً يعبد الله ولا يعمل ، قال : مَن يُطعمُك ، قال : أخي ، قال: فأخوك أعبَد منك ، فَفُهِمَ من ذلك أنّ الزكاة يجب أن تتجه لطالب العلم لا للعابِد .

نقاط هامة حول الزكاة :

الآن نقطة دقيقة بالزكاة ، أنّ لك مع شخص خمسة آلاف ، لا يدفعهم ، تقول له : حسبناهم من الزكاة ، مُسامَح، هذه فيها فَتوى ضعيفة جدّاً ، أمّا أكثر العلماء فعلى أنّه لا يجوز إلاّ أن تُعطيَه إياها ، وتأخذ دَينك منه ، فقال بعض العلماء : ليس إلاّ أن تُدخلَه إلى غرفة ، وتُقفل عليه ، ومعك قضيب ، وتُعطيه المبلغ ، فإمّا أن تُعيده ، أو أمامك الضرب . . لابدّ من أن يتملّك هذا المال ثمّ بعد ذلك لِتأخُذ منه دَينك .

يجوز و يُستحبّ أن تُعطي المرأة زكاة مالها لزوجها الفقير – لزوجها – والعكس غير صحيح .

ويُستَحب أن تخصّ الأقارب بالزكاة ، لكن لم نقل الأقارب الأغنياء ، بل الفقراء ولذلك في بعض الأقوال : لا تُقبل زكاة المرءِ ، وفي أقربائه محاويج .

لكَ عمّة ، لك خالة ، لك ابن عمّ ، فقير في طرف المدينة ، قبل أن تُعطي الغريب أعطِ القريب .

لك أن تُظهِر الزكاة ، ولك أن تُخفيَها ، إنْ أظهرتها فينبغي أن يكون هذا لعلّةٍ تريدها ، لحكمةٍ تريدها ، وإن أخفيتها فهو أطْهر لقلبك ، وأرْوح لنفسك ، وبهذا نكون قد أنهينا مصارف الزكاة .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 20: تعريف الزكاة – أهميتها – شرعيتها – مقدار الزكاة – لمن تجب الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الزكاة تؤخذ و لا تعطى :

أيها الأخوة الكرام ، من أقرب الموضوعات إلى رمضان موضوع الزكاة ، وقد مضى الحديث عن الزكاة مرات عديدة في حكمتها ، وفي فضائلها ، وفي التحذير من منعها، وأريد أن أدخل مباشرةً في موضوع تفاصيل الزكاة لأننا في أمس الحاجة إلى هذا الموضوع، ولاسيما ونحن في رمضان ، ولكن لا مانع أن نبدأ الدرس بآية كريمة هي قوله تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 103]

الحقيقة هذه الآية موجهة للنبي عليه الصلاة والسلام لا على أنه نبي ورسول ، بل على أنه ولي أمر المسلمين ، فالزكاة تؤخذ ولا تعطى ، لو ترك أداؤها للمسلم يؤديها أو لا يؤديها ، وقد علقت مصالح المسلمين على أدائها ، لذلك جاء التوجيه الإلهي يخاطب النبي على أنه ولي أمر المسلمين فقال له:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 103]

أما من أموالهم فتشير إلى أن كل أنواع المال ، جاءت الكلمة جمعاً كل أنواع الزكاة تجب فيها الزكاة ، ما قال : خذ من مالهم ، الزروع ، العسل ، عروض التجارة ، الثروات الطبيعية ، الركاز ، الحلي ، في بعض الحالات أما كلمة أموالهم ، هم هذه تفيد ضمير الجمع ، إذاً لا يستثنى واحد من المسلمين من دفع الزكاة ، من مَلَك النصاب،

لا يسمح لإنسان أن تطوى عنه هذه الفريضة لسبب أو لآخر ، خذ من أموالهم ، أما كلمة صدقةً فتشير إلى أن الإنسان قد يفعل أفعالاً كثيرة تتوافق مع الشرع لكنها تعود إلى صالحه بالنهاية وهذه الأفعال لا يرقى بها مع أنها متوافقة مع الشرع ، أما حينما يفعل فعلاً يتناقض مع طبعه لا مع فطرته ، فالطبع يميل إلى قبض المال والأمر بالزكاة أمر بدفع المال لذلك الإنسان يتأكد صدقه في إيمانه من دفع ماله ، يوجد أشياء كلام ، وأشياء حركات ، الأقوال لا تكلف شيئاً ، أما حينما يدفع الإنسان من ماله الذي كسبه بكده وعرق جبينه ، دفع هذا المال يؤكد صدق إيمانه فلذلك الله عز وجل في هذه الآية عدل عن كلمة الزكاة إلى كلمة الصدقة ، خذ يا محمد لا تنتظر أن يدفعوا لك ، يجب أن تأخذ منهم لأن الزكاة تتعلق بها مصالح المسلمين ، خذ من أموالهم ، من تعني التبعيض ، لا تعني خذ كل أموالهم ، خذ بعض أموالهم ، وبنسب معقولة جداً ، أموالهم كل أنواع المال ، وهم تعني كل المسلمين ، خذ من أموالهم صدقةً تؤكد صدقهم تطهرهم وتزكيهم بها ، نفس الفقير تطهر من الحقد ، نفس الغني تطهر من الشح ، المال يطهر من تعلق حق الغير به ، وتزكيهم : نفس الفقير تنمو ، الزكاة تنمو بإحساسه العميق بأن مجتمعه لم ينسه ، مجتمعه مهتم به ، تنمو نفسه ، يشعر بثقة بنفسه ، والغني حينما يرى أن ماله أصبح حاجات انتفع به الناس وشكروا له عطاءه وأحبوه تنمو نفسه ، والمال نفسه ينمو بأداء الزكاة بطريقتين ، طريقة وفق قوانين الله عز وجل، وطريقة مبهمة وفق العناية الإلهية المباشرة . هذه الآية تجمع قال تعالى:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 103]

وجوب الزكاة على المسلم الحر المالك للنصاب :

أيها الأخوة ، تجب الزكاة على المسلم الحر المالك للنصاب ، من أي نوع من أنواع المال الذي تجب فيه الزكاة ، نصاب الذهب والفضة هو أقرب شيءٍ إلينا ، الفضة تقريباً نصابها سبعة آلاف ، والزكاة تقريباً نصابها يقدر بخمسين ألفاً ، فمن ملك سبعة آلاف ليرة فائضةٍ عن حاجته الأساسية في المسكن والمأكل والمشرب والآلة والدابة فهذا المبلغ على نصاب الفضة تجب فيه الزكاة ، أو من ملك خمسةً وأربعين ألفاً فائضاً عن حاجاته الأساسية تجب فيه الزكاة على اعتبار أن هذا النصاب نصاب الزكاة ، إلا أنه الأولى والأكمل والأتقى و الأورع أن تدفع زكاة مالك على أساس الفضة لا على أساس الذهب وهذا لصالح الفقراء .

شيء آخر طبعاً هذا المال النصاب أن يكون فائضاً عن حاجته الضرورية التي لا غنى للمرء عنها ، كالمطعم ، والمشرب ، والملبس ، والمسكن ، والمركب ، وآلات الحرفة ، سبعة آلاف زيادة عن هذه الأساسيات ، أو خمسة وأربعون ألفاً فما فوق زيادة عن هذه الأساسيات ، هذا هو النصاب الذي تجب فيه الزكاة ، ويجب أن يحول عليه الحول الهجري أي يمضي عام على وجود هذا المال ، ويعتبر هذا الحول بدءاً من امتلاك النصاب واستمراراً لسنة هجرية بالتمام والكمال ، لكن أخواننا الكرام هذا الموضوع فيه آراء فقهية متعددة ، أي أكمل ، وأدق ، وأصح رأي أن تضع تاريخاً معيناً مثلاً واحد رمضان ، أو الخامس عشر من رمضان ، أو الخامس عشر من شوال ، والأولى في رمضان ، والأولى في أول رمضان كما يرى الإمام الشافعي ، في هذا الوقت كم معك من مال تدفع عليه الزكاة ، أما أن تدخل في متاهات الحسابات ، هذه المئة ألف بقيت تسعة أشهر وعشرة أيام إذاً لم يحل الحول عليها ، وهذه العشرة آلاف بقيت سنة وشهرين ، هذا العمل ليس له نهاية ، عملية معقدة جداً وتدخل الإنسان في شبهات لا تنتهي .

أما أبو حنيفة فقال: " المعتبر وجود النصاب في أول الحول وآخره " ، واحد شوال مجموع ما تملك تدفع عليه الزكاة ، أما بعد شهر المبلغ قلّ أو تضاعف ثلاثة أضعاف ، ليس لك علاقة ، لواحد شوال الثاني كم تملك من المال تدفع عليها الزكاة ، هذا أكمل حساب ، وأدق حساب ، وأجمل حساب ، وأبسط حساب ، أما الحسابات الأخرى فعمليات معقدة تدخل في متاهات لا تنتهي .

لو ترك النصاب كله في أثناء الحول وعاد النصاب مرتين لأول الحول الثاني تجب الزكاة في المال المضاعف مرتين ، فأنت لا تهتم إطلاقاً بما يجري أثناء العام عليك أن تهتم بواقع ما تملك في واحد من شوال من كل عام.

اختلاف الفقهاء حول الزكاة في مال الصبي والمجنون :

الزكاة في مال الصبي والمجنون مختلف عليها ، بعض العلماء يرى أنها تجب في المال لا في صاحب المال ، إذا قلنا : في صاحب المال ، صاحب المال ليس مكلفاً ، لا الصبي مكلف ، ولا المجنون مكلف ، أما إذا قلنا : تجب الزكاة في المال إذاً يجب أن يدفع ولي الصبي وولي المجنون زكاة مال الصبي والمجنون ، بعضهم قال: لا هذا الإنسان غير مكلف لكن الرأي الوجيه الذي ورد في كتاب القرضاوي حول موضوع الزكاة أن مال الصبي الصغير أو مال المجنون إذا كان مستثمراً تجب فيه الزكاة قولاً واحداً أما إذا كان غير مستثمر فلا تجب فيه الزكاة ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ))

[موطأ مالك عَنْ مَالِك]

أمر نبوي أن يتجر المسلم في مال اليتيم كي لا تأكله الزكاة ، ولا يوجد أروع من الزكاة كرادع لأكل المال إن لم يستثمر ، هناك أشخاص كثيرون يضعون أموالهم في بيوتهم في حرز حريز وانتهى الأمر ، هذا المال أولاً تنقص قيمته كل سنة سبعة عشر بالمئة ، هذا رقم التضخم ، في الدول النامية التضخم فيها عال جداً ، أي سبعة عشر بالمئة من قيمة المال تنزل ، أي القيمة الشرائية ضعيفة ، في عام ألف و تسعمئة و أربعة و ستين كان ثمن الملحق بالمهاجرين ستة آلاف ليرة أو القبو ، أفخر بيت مئة وخمسون متراً، أربع غرف وصالون بالمهاجرين بعشرين ألفاً ، والذي يملك عشرين ألفاً قبل عشرين سنة ، الآن لا يشترون لك بيتاً، ولا أربعمئة ألف ، ولا أربعة ملايين ، معنى هذا أنه يوجد تضخم ، وهذا التضخم كل سنة تقل قيمة المال سبعة عشر بالمئة ، فإذا الإنسان كنز ماله ولم يؤدِ زكاته أولاً التضخم يأكله ، وثانياً الزكاة تأكله ، يؤكل مرتين ، يؤكل من التضخم ويؤكل من الزكاة ، ففريضة الزكاة أكبر حافز لصاحب المال على استثماره ، و إلا يأكله التضخم والزكاة ، قال عليه الصلاة والسلام:

((اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ))

[موطأ مالك عَنْ مَالِك]

فريضة الزكاة أكبر باعث لاستثمار المال :

الحقيقة يوجد سؤال دقيق هو أن الزكاة لا تجب إلا في المال النامي الذي يزداد ، قطيع الغنم ينمو بالولادة ، مد القمح ينمو بالزراعة ، فالبذور تنمو بالزراعة ، والمواشي تنمو بالولادة ، لكن المال لا ينمو ، لو أنك وضعت المال في صندوق ، وضعت مئة ألف لن تجد هذا المال مئتي ألف بعد عام فكيف أمر الشارع الحكيم دفع الزكاة للمال النقدي أي الذهب والفضة والورق؟ قال : هذا الأمر فيه حكمة بالغة ، وهذه الحكمة هي أن هذا المال إن لم يوضع في التداول ، إن لم يستخدم مشاريع ، إن لم تحل به مشكلات المسلمين ، فسوف يصبح هذا المال معدوماً أو متناقصاً مع مرور الأيام ، فأكبر باعث يبعث الإنسان لاستثمار ماله ونفع المسلمين به ووضعه في مشروعات نافعة هو فريضة الزكاة .

يوجد عندنا نقطة مهمة إذا إنسان معه مئة ألف عداً ونقداً ، عليه دين بستين ألفاً وعليه أن يدفعها بعد أسبوع ، لا تجب الزكاة إلا في الأربعين ، الدين الثابت الذي يجب أن تدفعه يطرح مما تملك من المال ، الباقي تجب فيه الزكاة .

وجوب الزكاة على مبالغ السلف :

لكن الآن أخواننا يطرحون سؤالاً دقيقاً أحياناً رجل سجل على سيارة فرضاً ودفع سلفة خمسين ألفاً ، يوجد على المبلغ زكاة؟ نقول له : نعم ، كل مبالغ السلف يوجد عليها زكاة إلى أن يتحدد البيت ، هذا هو البيت ، الطابق الثالث ، ثمنه ثمانمئة ألف ، دافع منهم أربعمئة وعليك أربعمئة ، إذا البيت تحدد مكاناً وجهةً وسعراً وتقييماً وعليك دين الآن هذا الدين الثابت يطرح مما تملك في البيت ، أما دافع سلفة مئة ألف لشيء غير محدد ، لا نوعاً ، ولا ثمناً ، ولا قيمةً ، ولا عدداً ، فكل مبالغ السلف عليها زكاة ، هذه نقطة يجب أن تكون واضحةً عندكم.

من مات و عليه زكاة يدفع ورثته زكاته :

الإنسان إذا مات وعليه زكاة عليه أن يدفعها ، على ورثته أن يدفعوها عنه لأن دين الله أحق أن يؤدى ، بل إن بعض العلماء يرى أن زكاة المال التي لم تدفع تؤخذ قبل كل شيء من مال المتوفى ، قبل ديونه ، قبل تنفيذ وصيته ، قبل توزيع ميراثه ، قبل الوصية وقبل الديون ، حق الله أحق أن يؤدى ، إذا عليك دين يطرح من مال الزكاة فإذا كنت تملك مالاً ولم تؤد زكاته فلابد من أداء زكاته تحت طائلة المحاسبة الشديدة .

من شروط الزكاة النية :

النية شرط أساسي في أداء الزكاة لقوله تعالى:

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾

[سورة البينة: 5]

و :

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ))

[متفق عليه عن عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ]

الإمام الشافعي والإمام مالك اشترطا أن تكون النية عند الأداء ، أبو حنيفة رحمه الله تعالى يرى النية تجب عند الأداء أو عند عزل المبلغ ، أنت أجريت حساباتك وعليك ثمانية آلاف وليس أمامك من تعطيه هذه الزكاة ، تضع الزكاة في ظرف وتكتب عليه : زكاة المال ، تعزله في مكان في الصندوق ، وحينما عزلت هذا المال انوِ أن تقدمه للفقراء المستحقين فعند أبي حنيفة النية تكون عند الأداء أو عند عزل المال ، أما عند الإمام الشافعي فالنية تكون عند الأداء .

دفع الزكاة فور وجوبها و تحريم تأخيرها :

ومن أحكام الزكاة الضرورية أن الزكاة يجب أن تدفع فور وجوبها ويحرم تأخيرها عن وقت الوجوب إلا إذا لم يتمكن من أدائها فيجوز التأخير حتى يتمكن ، الأصل أن تدفع عند الوجوب ، الإمام أحمد والبخاري رويا عن عقبة بن الحارث:

((عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَصْرَ فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ سَرِيعًا دَخَلَ عَلَى بَعْضِ نِسَائِهِ ثُمَّ خَرَجَ وَرَأَى مَا فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ مِنْ تَعَجُّبِهِمْ لِسُرْعَتِهِ ، فَقَالَ: ذَكَرْتُ وَأَنَا فِي الصَّلاةِ تِبْرًا عِنْدَنَا فَكَرِهْتُ أَنْ يُمْسِيَ أَوْ يَبِيتَ عِنْدَنَا فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ))

[البخاري عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

أي يجب أن تدفع الزكاة فور وجوبها ، أما إذا تأخرت في دفعها فلعذر يقبله الشرع .

هناك حديث والله مخيف أيها الأخوة ، روى البخاري والشافعي عن عائشة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ما خالطت الصدقة مالاً قط إلا أهلكته))

[البخاري عن عائشة]

أي هذا المال مال زكاة موضوع في الصندوق مع مالك وتساهلت في دفعه للفقراء ، أي هذا المال خالط مالك ، الحرام المجمد دون أن يعطى للفقراء يهلك الحلال كما ورد في هذا الحديث ، أما أروع ما في الموضوع أنه يجوز

أن تؤديها سلفاً ولو قبل عامين ، إذا فعلت هذا نجوت من خطر تأخيره ، وهذه أكمل طريقةٍ في أداء الزكاة ، أديت زكاة مالك في رمضان وانتهى الأمر ، جاء أول شوال تفتح صفحةً في حساباتك حول مال الزكاة ، أنت الآن بهدوء ، بتأن ، ببحث ، بتدقيق ، بمعالجة هادئة ، كلما رأيت مصرفاً للزكاة صحيحاً مفيداً هذا المال يأتي في مكانه الصحيح ادفعه سلفاً ، سجل ثلاثة آلاف ، أربعة آلاف ، خمسمئة إلى أن ينقضي العام ، جاء رمضان أجريت الجرد بحسابات دقيقة ، رأيت أن عليك أن تدفع عشرة آلاف ليرة وأنت دافع ثمانية على التراخي طوال العام بهدوء ، بتأن ، بقي عليك ألفان ، يدفع هذا المبلغ للمستحق بلا مشقة ، فأكمل طريق للزكاة أن تبدأ بدفعها في أول العام سلفاً بهدوء ، وبتأن ، بالمكان الصحيح ، يوجد عملية جراحية ، طالب علم ، أسرة تحتاج إلى مساعدة على موسم الشتاء ، هؤلاء يحتاجون وقوداً ، على موسم المدارس ألبسة للأولاد ، ثمن كتب ، في الوقت المناسب من حولك من أقربائك ، هذا أكمل شيء في أداء الزكاة أن تفتح صفحة لحسابات الزكاة بدءاً من أول العام ، أول العام الهجري تدفع على مهلك.

كما أنه يحظر على من تجب عليه الزكاة أن يؤخرها ، سمح لك أن تدفعها سلفاً وفي هذا تتلافى خطورة تأخيرها، وتكسب أجر دفعها سلفاً ، والآن الضرائب إذا دفعتها سلفاً يوجد خصم في الواحد ستة تدفعها بقدرها ومن ثم يصبح هناك غرامات .

وجوب الدعاء للمزكي عند أخذ الزكاة :

قال: يجب أن تدعو للمزكي عند أخذ الزكاة لقول الله عز وجل:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 103]

((عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ الشَّجَرَةِ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَةٍ قَالَ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْهِمْ فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى))

[مسلم عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ]

وروى النسائي:

((عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَاعِيًا فَأَتَى رَجُلاً فَآتَاهُ فَصِيلاً مَخْلُولاً فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَعَثْنَا مُصَدِّقَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنَّ فُلانًا أَعْطَاهُ فَصِيلاً مَخْلُولاً اللَّهُمَّ لا تُبَارِكْ فِيهِ وَلا فِي إِبِلِهِ فَبَلَغَ ذَلِكَ الرَّجُلَ فَجَاءَ بِنَاقَةٍ حَسْنَاءَ فَقَالَ أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ وَفِي إِبِلِهِ))

[النسائي عَنْ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ]

دعاء مأثور ، رجل قال لك : سأدفع لك زكاة مالي ، قل له : اللهم بارك لك وفي مالك ، والإمام الشافعي يقول: إذا دفعت له زكاة المال أجرك الله فيما أعطيت وبارك الله لك فيما أبقيت .

الأشياء المستهلكة معفاة من الزكاة :

أي إذا الإنسان قدم زكاة ماله من السّنة أن تدعو له ، إذاً تجب الزكاة في النقدين الذهب والفضة ، الذهب خمسة وأربعون ألفاً فما فوق ، والفضة سبعة آلاف فما فوق ، لكن أخواننا التجار إذا أجروا الجرد في رمضان ، لكن البيت وأثاثه ، والمركبة وحاجاتها ، والأرض والمعمل والدكان وآلات الحرفة هذه كلها معفاة من الزكاة إلا إذا اشتريت بقصد الاتجار بها ، إنسان اشترى أرضاً ليبيعها بعد حين فيربح بها بعد حين ، اشترى محلاً تجارياً ليبيعه وينتفع بتفاضل السعرين هذه صارت تجارة ، إذا اتجرت بالبيوت والأراضي والدكاكين وآلات الحرف ، اشترى مكنة جوارب ليبيعها بسعر مرتفع ، أما إذا اشتريت محلاً تجارياً كي تستهلكه ، البيت مستهلك ، عندك بيت ساكن به ، اشتريت بيتاً آخر ، تريد أن تضع المال في شيء يربح فاشتريت البيت صار على البيت زكاة ، وآلات الحرفة ، والسيارة ، اشتريت سيارة وخزنتها على ثمنها زكاة .

الأشياء المعفاة إن كانت موضوعةً للاستهلاك معفاة أما إذا وضعت للتجارة فأصبح عليها زكاة .

متى يصير المال عروضاً تجارية تجب فيها الزكاة ؟

قال: متى يصير المال عروضاً تجارية تجب فيها الزكاة ؟ قال: بشرطين ، أن يملكه والثاني أن ينوي عند تملكه للتجارة ، رجل اشترى بيتاً لابنه وابنه سافر وأقام ببلد أجنبي ولن يعود ، فغير نيته وقال : أبيعه وأنتفع ببيعه ، فلما نوى أن يبيعه دخل في الزكاة ، أن ينوي عند تملكه أنه للتجارة ، أما إذا نوى أنه للاستهلاك فلا زكاة عليه .

طبعاً أخواننا التجار البضاعة تقيّم بسعر السوق أو الكلفة أيهما أقل ، أخواننا التجار يغفلون عن حالة مهمة جداً، شاري وجبة ألبسة بمئة ألف موديلها انتهى عرضها للسوق فكانت تساوي ثلاثين ألفاً ، يؤيدها على ربه بمئة ألف، لا يصير هذا ، إذا أردت أن تدفع الزكاة عيناً ينبغي أن تقومها بسعر السوق الحالي أو بكلفتها أيهما أقل ، هذا نظام الزكاة إن أردت أن تدفع هذه الحاجات زكاة مالك .

تملك سندات ، أوراق مالية تجوز فيها الزكاة ، لك ديون ثابتة تجب فيها الزكاة ، عليك ديون تطرح من الزكاة ، في الصندوق يوجد مال نقدي يجوز فيه الزكاة .

الزكاة في علة المحاصيل لا في عينها :

كما تعلمون أن زكاة الزراعة في أوجه الآراء وأصوبها تجب فيها الزكاة ، لأن العلماء حينما ذكروا حديث رسول الله ﷺ :" تجب الزكاة في القمح ، والشعير ، والتمر ، والزبيب " ، هذه المحاصيل التي كانت على عهد رسول الله، فمن السذاجة وضعف التفكير ، والغباء ، أن تحصر الزكاة فيها ، العلماء قالوا : تجب الزكاة في علتها لا في عينها ، علة هذه المحاصيل أنها محاصيل ذات قيمة تجب فيها وفي مثيلاتها ، الزكاة ، مزرعة تفاح ، كرز، كيوي ، بطيخ ، أي إنتاج زراعي مما أنتجته الأرض العشر إذا كانت الزراعة بعلية ، ونصف العشر إذا كانت الزراعة مروية ، يوجد مصاريف ولا يجوز حسم المصاريف من ثمن الإنتاج .

الله عز وجل عن طريق النبي عليه الصلاة والسلام من خلال السنة حسب لك نصف الزكاة مصاريف فلا ينبغي أن تدفع الزكاة على ثمن المحصول دون اعتبارٍ للمصاريف لأنه في الأساس مادام هناك مصاريف يوجد ماء مستخرج بمحرك ، ثمن نفقات ، وقود ، صيانة ، ماء مشترى شراءً ، زكاة هذه المحاصيل نصف العشر ، وكذلك العسل إما أن تدفع العشر إذا كان العسل طبيعياً ، خلايا طبيعية في الكهوف ، أما إذا كان خلايا مشتراة من أماكن ولها ثمن وتكاليف فنصف العشر .

يوجد مرض يصيب خلايا العسل من يحفظ اسمه ؟ قراض النحل ، وهذا مرض خطير ، من سبع سنوات جاء القراض فأكل معظم خلايا النحل ، فمرة قال لي أحدهم : يوجد على العسل زكاة ؟ فقلت له: طبعاً ، قال: أكيد ؟ قلت له: نعم فإذا لم تدفع الزكاة يوجد قراض وهو جاهز .

لا أحب أن أدخل في تفاصيل خلاف العلماء ، أعطيكم الرأي الوجيه من كل المذاهب في هذا الموضوع .

وجوب زكاة الإنتاج الزراعي عند الحصاد :

زكاة الإنتاج الزراعي لا يشترط فيها حولان الحول ، بل تجب عند الحصاد قال تعالى:

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

[سورة الأنعام: 141]

إذاً تجب الزكاة في المواسم الزراعية مع كل موسم .

وجوب تأدية الزكاة من الفاكهة الجيدة :

لكن أيضاً في موضوع المحاصيل يوجد فاكهة من الدرجة الخامسة ، يوجد شيء يسقط من الشجر ، وشيء مضروب، يوجد أناس يأخذون هذه الفاكهة غير الجيدة ويدفعونها زكاة مالهم ، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾

[سورة البقرة: 267]

يجب أن تؤدى الزكاة من الفاكهة من الدرجة الأولى .

وجوب الزكاة في الذمة لا في العين :

وننتقل إلى موضوع دقيق وهو أن الزكاة تجب في الذمة لا في العين ، وفرق كبير جداً بين أن تجب الزكاة في الذمة وبين أن تجب في العين ، مئة ألف ليرة موضوعة في الصندوق صاحبها لم يدفع عنها الزكاة لعامين الآن تَذكّر أن يدفع الزكاة ، هذه ألفان وخمسمائة ، لا ، لو أن الزكاة تجب في العين يكتفى أن تدفع مرة واحدة ، مادامت الزكاة تجب في الذمة إذاً عليك أن تدفع عليها الزكاة مرتين ، عن كل عام مرة ، أي كل عام تجب الزكاة في ذمتك مرة ، فهذه نقطة مهمة جداً وهي أن الزكاة تجب في الذمة لا في العين .

ملاحظات هامة حول الزكاة :

قال : إذا تلف المال كله بدون تعدّ من صاحبه سقطت الزكاة ، وإن هلك بعضه سقطت حصته ، بناءً على تعلق الزكاة بعين المال ، أما إذا هلك بسبب تعدّ منه فإن الزكاة لا تسقط ، معه مئة ألف سرقت ، هلك المال قال : تسقط معها الزكاة ، لكن إذا كان هناك تقصير أو تعدّ حتى تلف هذا المال فالزكاة تبقى ثابتة ، طبعاً إذا الإنسان حدث معه ذلك قضاء وقدراً الله سبحانه وتعالى رحيم ، أما إذا كان هناك تعدّ فالزكاة تبقى ثابتة . الآن عزلت الزكاة فضاعت قبل أن تؤديها ، الزكاة ثابتة لا تسقط مادام أصل المال موجوداً ، وزكاته هذا الظرف فيه خمسة آلاف ضاع منك ، أو ذهب إنسان ليعطي الزكاة في الطريق سرق منه هذا الظرف ، الزكاة ثابتة لا تسقط ، تلف أصل المال من دون تعدّ سقطت الزكاة عن المال ، أما إذا تلفت الزكاة المعزولة فالزكاة تبقى ثابتة، ويجب أن تؤدى مرةً ثانية ، وتأخير الزكاة لا يسقطها عشر سنوات يجب أن تدفع ثمن عشر سنوات . إذا كان هناك مال مشترك بين شريكين ، بإمكان كل شريك أن يدفع الزكاة عن نصيبه ، هذا المال مقوم بأربعة ملايين تدفع عن حصتك ، والطرف الثاني هو حر ، لا تعلق أهمية على الدفع المشترك ، لك مشروع ، لك منه مئة ألف هذا المبلغ يمكن أن تدفع عنه الزكاة وحدك ، وأكثر الناس الذي يضعون أموالهم عند أشخاص كاستثمار ، المستثمر عنده المال ليس مكلفاً بدفع الزكاة إلا إذا فوضته بدفع الزكاة يدفعها عنك وهو ليس مكلفاً لأن المال مالك ، وتجب الزكاة على صاحب المال ، وأنا أقول لأخواني الذين يضعون أموالهم عند أناس مطمئنين لهم ، إما أن تدفع الزكاة من مالك الأصلي عن هذا المال المودع عند فلان ، أو أن تأخذ منه دفعة توازي زكاة مالك عندها تدفعها لأقاربك ، أو أن توكله بدفع الزكاة ، وإما أن تدفعها من جيبك لهذا المال الذي عند فلان ، فهذا أيضاً خيار في الزكاة .

الكنز :

طبعاً هذا الذي يفر من دفع الزكاة قبل حولان الحول بيوم أو يومين يهب ماله لفلان ، بعد أسبوع يقول له : أوهبني إياه مرة ثانية ، هذه كلها حيل لا تنطلي على الله عز وجل وصاحبها جاهل جهلاً مطبقاً ، ومقصر ، وبالمناسبة أي مال لن تؤدى زكاة ماله فهو كنز ، سبعة آلاف كنز والمليار إذا أوديت زكاة ماله ليس بكنز ، فقوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

[سورة التوبة: 34]

هذه الآية العلماء أكدوا أن تعريف الكنز هو المال الذي لن تؤدى زكاة ماله ولو كان قليلاً ، وإن تعريف المال الذي بارك الله به هو المال الذي تؤدى زكاته مهما كان كثيراً.

لذلك النبي الكريم ينهى عن أن نصف أحداً بالشح إذا أدى زكاة ماله ، برأ من الشح من أدى زكاة ماله.

الزكاة تدفع عيناً أو نقداً :

يمكن أن تدفع الزكاة نقداً أو عيناً ، لكن أخواننا الكرام دفع الزكاة عيناً يجب أن تكون هذه المواد مما ينتفع بها الفقير انتفاعاً شديداً ، عصفر ، لا يريد أن يأكل عصفراً ، هل من المعقول أن توزع أوقية أوقية على الماشي ، العصفر ليس مادة أساسية ، نكاشات أسنان لا يأكل شيئاً حتى ينكش أسنانه !! ألبسة نوفوتيه هكذا يسمونها ، شيء نادر ، والمسرفون يلبسونها كقميص وزنه عشرة غرامات مشكوك لم يبع معه ، يريد أن يقدمها زكاة ، أحياناً كفوف جلد ولا يوجد برد ، يجب أن تعطي الفقير شيئاً أساسياً ، ممكن أن تعطيه حراماً ، رزاً لحماً ، جوخاً ، شيء يستفاد منه في الدرجة الأولى ، أما أشياء للمترفين فلا ينبغي أن تؤدى زكاةً للفقراء ، حياة الفقير معروفة يحتاج إلى مواد أولية ، غذائية ، ألبسة ، تدفئة ، إلى آخره، يجوز أن تدفع عيناً أو نقداً لكن نحن بحاجة إلى حكمة ، والحكمة تقتضي إذا هذا الإنسان إنسان فقير يمكن مبلغ من المال يحل به كل مشاكله ، أعطه ألفين على العيد ، يريد أن يؤمن لأولاده ثياباً وطعاماً ، وكل إنسان متلاف للمال ، قريب ولكن لا يوجد فيه دين ، يدخن مثلاً أو يشرب وأولاده جائعون لمثل هذه الحالة الأولى أن تعطيه الزكاة عيناً ، وأنا والله أعلم أخوان في هذا الجامع أنا أجلهم جداً يهيئون مؤونة شهر لأسرة من خمسة أشخاص ، سمنة ورز وسكر في علبة من الكرتون ، مؤونة شهر لخمسة أشخاص ، والفقير خففت عنه عبء الشراء ، وأنت تأخذ كمية كبيرة تأخذها بسعر أقل وتأخذها نوعية جيدة ، يوجد أناس يجولون بمركباتهم بعد صلاة الفجر ويوزعون مواد عينية على الفقراء ، وأبواب الخير لا يعلمها إلى الله .

أحياناً من الصعب أن تعطي إنساناً في دمشق كيساً من القمح وتقول له : هذه زكاة مالي ، أين يطحنه ؟ وأين يخبزه ؟ يعمر تنوراً في البيت مساحة البيت سبعين متراً !! ليس معقولاً ، ليس كل شيء يدفع عيناً ، أما أعطي كيس قمح لرجل في الريف فهذا شيء ثمين جداً ، الطاحونة جاهزة والتنور موجود ، والأهل جاهزون ، تحتاج إلى حكمة .

على الإنسان أن يبحث عن المصرف الصحيح أثناء تأدية الزكاة :

لي ملاحظة على بعض أخواننا ، يهمه فقط أن يدفع زكاة ماله ، هذه عبادة ، وأنت بارك الله لك ، دفعت زكاة مالك ولكن ينبغي أن تبحث عن المصرف الصحيح ، ثلاثة أشخاص ، اثنان مؤمنان أيهما أفقر ، اثنان فقراء أيهما أقرب إلى الإيمان ، اثنان فقراء ومؤمنان أيهما أقرب نسباً ، اثنان أقرباء أيهما أشد إيماناً ، وكلما وجدت مساواة بشرط حرك الثاني ، تساويا في الشرطين حرك الثالث ، اجعل الشرط الثاني هو المرجح ، تساويا بشرطين اجعل الثالث مرجحاً ، طبعاً الأقربون أولى بالمعروف هذه قاعدة ، وليست حديثاً شريفاً ولا آية ، هذه قاعدة ، قالوا: الأقربون نسباً وفقراً وإيماناً ، اثنان فقراء أيهما أقرب إلى الإيمان ، اثنان مؤمنان أيهما أقرب إلى الفقر ، اثنان قريبان أيهما أفقر ، أبداً كلما أخذت اثنين حرك الثاني اجعل الشرط الثاني هو الحكم والمرجح .

لزكاة الدّين أربعة أحكام :

أما زكاة الدين ففيها أربعة أحكام ، أولاً : الدين نوعان ، دين ثابت واحتمال أن يعود إليك قائم ، و دين ليس ثابتاً، شرطان ، أحياناً يوجد خلاف على موضوع الدين ، دينك ليس ثابتاً وهو عدّه أجرة ، أنا لي معه ، دفعت له دفعة وكلفته بعمل وهو عدّ المبلغ كله أجرته ، وأنا لي معه عشرة آلاف هذا الدين ليس ثابتاً ، الدين فيه عنصران الثبات والأداء ، إذا كان الدين ثابتاً وأداؤه محققاً فحكم زكاته أربعة أحكام ، أولاً : تجب عليه الزكاة ولو لم تقبضه ، رجل ميسور أدان مئة ألف ومعه مليون ، يدفع على المئة ألف زكاته .

الحالة الثانية دين ثابت وأداؤه ثابت يمكن أن تدفع زكاته حينما تقبضه ، أما إذا قبضته فتدفع الزكاة عن الأعوام السابقة هذا الحكم الثاني .

الحالة الثالثة : حينما تقبض المال تدفع زكاته عن العام الحالي فقط ، الحكم الرابع: لا زكاة على الدين لأنك لم تنتفع به ، انتفع به المدين ، فالقضية متعلقة بحالة الإنسان إذا كانت حالته المادية جيدة جداً ، وأقرض إنساناً مبلغاً ثابتاً وأداءه ثابتاً ، ادفع عنه زكاة وتقرب إلى الله ، ورجل معه مئة ألف لا يملك غيرها قدمها دين لآخر ، حينما يستردها يدفع عنها الزكاة إما عن الأعوام السابقة ليرقى بها عند الله ، أو عن عامها الأخير ، وإذا قال : أنا لم أنتفع بهذا المال بقي معه خمس سنوات ، أنا لا يوجد عليّ زكاة ، نقول له : يوجد مذهب يغطي حالتك ، أربعة مذاهب في موضوع الدين الثابت ، أما الدين غير الثابت وغير المتوقع الأداء فهذا الدين لا تجب فيه الزكاة إلا إن دفع ، عندما تقبضه تدفع زكاته .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون قد ألممنا إلمامة سريعة في أحكام الزكاة التفصيلية ، وإن شاء الله في درس سابق نتابع مصارف الزكاة وهذا درس هام جداً .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 21: مصارف الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً ، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه ، و أرنا الباطل باطلاً و ارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

تولي الله تعالى بنفسه تحديد مصارف الزكاة لأهمية هذا الموضوع :

أيها الأخوة الكرام ، درس اليوم مصارف الزكاة وأريد قبل أن أدخل في تفاصيل هذا الموضوع أن أقدم له بهذه المقدمة .

أحياناً يتوهم المسلم أنه لمجرد أن اتخذ قراراً بدفع زكاة ماله ، وعزل هذا المبلغ ودفعه إلى جهة ما فقد قام بهذه العبادة المالية ، الحقيقة أن مهمة المزكي لا تنتهي باتخاذ قرار دفع الزكاة ودفع هذا المال لجهة ما ، لكن قرار المزكي يستمر إلى أن يجتهد اجتهاداً دقيقاً في وضع هذه الزكاة في مكانها الصحيح ، فالإنسان إذا ألقى بمال الزكاة جزافاً ، لمجرد أنه دفعها برأت ذمته ؟ لا هناك جهد آخر وهو أن تجتهد في وضع الزكاة في مكانها الصحيح ، ويوجد حديث دقيق جداً ، ودقيق للغاية ، يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادٍ أَنَّهُ سَمِعَ زِيَادَ بْنَ نُعَيْمٍ الْحَضْرَمِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ زِيَادَ بْنَ الْحَارِثِ الصُّدَائِيَّ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْتُهُ فَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلاً قَالَ: فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ أَعْطِنِي مِنَ الصَّدَقَةِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا هُوَ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ))

[أبو داود عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زِيَادٍ]

رواه أبو داود وقال : حديث حسن ، إن الله ﷻ لم يرضَ بحكم نبي في توزيع الزكاة فجزأها بنفسه حينما قال:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 60]

إذاً لأن الموضوع دقيق وخطير خطير فالله سبحانه وتعالى وزع هذه المصارف بآية قرآنية ، والمعهود أن القرآن الكريم للكليات ، وأن الحديث الشريف للتفصيلات ، القرآن يقرر والنبي يبين ، القرآن يأمر والنبي يفصل ، إلا أنه في هذا الموضوع القرآن فصل ، القرآن حدد مصارف الزكاة .

إذاً لولا أن هذا الموضوع دقيق وخطير لما تولى الله بنفسه تحديد مصارف الزكاة هذه أول نقطة ، آية الزكاة المعتمدة في هذا الموضوع هي قوله تعالى:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة التوبة: 60]

وكلمة إنما معروفة عندكم بشكل جلي إنها تفيد الحصر ، أي لا يجوز أن تدفع الزكاة إلا لهؤلاء حصراً دون زيادة ولا نقصان .

مصارف الزكاة :

1 . الفقير و المسكين :

من هم الفقراء والمساكين ؟ الفقراء والمساكين كلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا ، وإذا تفرقتا اجتمعتا ، أي إذا قلنا فقراء نعني الفقراء والمساكين ، وإذا قلنا : مساكين نعني الفقراء والمساكين ، أما إذا قلنا : الفقراء والمساكين ، الفقراء شيء والمساكين شيء آخر ، بشكل عام طبعاً الفقراء والمساكين يجمعهم تعريف جامع شامل هم المحتاجون الذين لا يجدون كفايتهم ، أي المتسول شيء والفقير شيء آخر ، المتسول اتخذها حرفةً ، وفنان في إظهار ضعفه وفقره ، يستأجر بيتاً خاصاً للجان التي تدخل إلى البيت وتبكي، هذا البيت مصيدة وله بيت آخر ، فالشحاذ المتسول اتخذها حرفةً ، وهو فنان في إظهار ضعفه أو مرضه ، يجبر يده وهي سليمة ، يستأجر ولداً ،

يوجد شركات الآن توزعهم في أماكن حساسة ، امرأة معها ولد مربوطة يده ، وهي تلبس ملاية لا لون لها من كثرة الاستعمال ، هذه خبرة ، وتمر سيارة مساءً تلم الغلة وتحسبها وتعطيهم من الجمل أذنه ، عقد اجتماع قبل شهر أنا حضرته لاتحاد الجمعيات الخيرية وسمعت من الحقائق المدهشة ما لا يصدق عن نشاط التسول في بلدنا ، فنحن إذا تحدثنا عن الفقراء والمساكين ليسوا هؤلاء المتسولين ، هؤلاء اتخذوا التسول حرفة . أساساً سألوا رجلاً متسولاً أنك أنت غني ؟ وأنا أقسم لي أخ في الله كان في محل تجاري دخلت امرأة بوضع لا يحتمل من زراية ثيابها ، وطلبت مساعدة ، فأعطاها التاجر من زكاة ماله مبلغاً من المال ، فقال لي لمحتها في أحد المصارف فسألت أحد الموظفين ما شأن هذه هنا ؟ فقال لي: لها حساب ضخم عندنا ، لها سبعمئة ألف . مرة متسول مات في الطريق وزن ثوبه أربعة أضعاف وزنه ، كله ليرات ذهب مخيطة في داخله ، يوجد مرض يصيب المجتمع وهو التسول ، ونحن ليس لنا علاقة بالتسول إطلاقاً ، وهذا له جمعية مكافحة التسول ، والآن المتسول تحجز حريته شهراً ثم شهرين ثم ستة أشهر بحكم عرفي ، وأغلب المتسولين يتسولون كمهنة وليس عن حاجة ، والحقيقة من أعلى الدخول دخول المتّسولين ، تقول أنت أنا أعطيه فقط خمس ليرات ، يمر في هذا المكان ألف رجل في اليوم وأنت لا تعادل هذا الدخل وأنت معك دكتوراه ، فلذلك موضوع التسول خارج موضوعنا، والله عز وجل بين في كتابه فقال:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

[سورة البقرة: 273]

يلبس ويسكن في بيت ولكن مصروفه ضعف دخله ، هذا فقير ، ليس مكلفاً أن يبيع البيت ، أخي عنده بيت ، هو ليس مكلفاً أن يبيع البيت ، ويوجد عنده محل لا يوجد عمل، فالفقير في عرف الشرع من لا يجد حاجته ، طبعاً حاجته الأساسية وليس الثانوية ، الطعام ، والشراب ، واللباس ، والمأوى ، هذه الحاجة الأساسية .

نصاب الزكاة :

العلماء قالوا: القدر الذي يغدو به الإنسان غنياً هو نصاب الزكاة ، مثلاً : إنسان ساكن في بيت يأكل ، يشرب ، و يلبس هو وزوجته وأولاده ومن يعول ، زاد عن حاجاته مبلغ من المال و ليكن خمسين ألف ليرة ، هذا اصطلاحاً نسميه غنياً ، أي عنده نصابٌ يزيد عن حاجته الأساسية ، طبعاً الحاجة الأساسية طعام وشرب وملبس ومسكن ، ودابة وآلة حرفة ونحو ذلك مما لا غنى للإنسان عنه ، فكل من عدم هذا القدر يستحق الزكاة ،

ومن حديث سيدنا معاذ تأخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم .

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلا اللُّقْمَةُ وَلا اللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ يَعْنِي قَوْلَهُ (لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)))

[البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَتَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ قَالُوا فَمَا الْمِسْكِينُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ وَلا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلا يَسْأَلُ النَّاسَ شَيْئًا))

[البخاري عن أبي هُرَيْرَةَ]

طبعاً هنا موضوع خلافي بعضهم قال : الفقير الذي لا يجد حاجته مع أنه يعمل، والمسكين الذي لا يستطيع أن يعمل ، بعضهم قال هذا ، وفي تفسير آخر المسكين الذي لا يجد حاجته كلها ، على كلٍّ الفقير والمسكين يجتمعان في أن دخلهم أقل من مصروفاتهم الأساسية وأنا ألح على كلمة أساسية ، الأساسي أن تأكل ، امرأة حامل تحتاج إلى حليب ، إلى مواد بروتينية ، تحتاج إلى معطف تلبسه في الطريق ، مدفأة ، وقود ، الأساسي .

القدر الذي ينبغي أن يعطى للفقير :

الشيء الذي يلفت النظر أن الأئمة رحمهم الله تعالى اختلفوا في القدر الذي ينبغي أن يعطى للفقير ، لكن أقلهم يقول : يجب أن تغنيه لعام بأكمله ، تجد أحياناً خمسمئة امرأة تقف على الجمعية الخيرية وكل واحدة معها هويتها، لتأخذ مئتي ليرة فقط ، يجب أن تعطي الفقير ما يغنيه طوال العام هذا قول الإمام أبي حنيفة ، أما الإمام الشافعي فيجب أن تغنيه طوال حياته ، أي أن تأخذ له آلة تشغله بها ، آلة صوف ، آلة تريكو ، تعمل له مورداً ثابتاً ، لذلك أفضل زكاة تدفع للفقير هي الزكاة التي تجعله في العام القادم دافع زكاة ، تدفع له زكاة هذه السنة ، وفي العام القادم يدفع هو الزكاة ، نقلته من مستهلك إلى منتج ، نقلته من يد سفلى إلى عليا ، نقلته من آخذ إلى معطي ، أما يوجد عطاء لا يفعل شيئاً ، خذ هذه الخمسمئة ليرة ، طول عمره يطلب منك ، طول عمره عبء عليك ، لذلك الزكاة أحد أركان النظام الاقتصادي في الإسلام ، لو تصورنا زكاة الدخل القومي لبلد ما الرقم فلكي، أنا قال لي أحد أخواننا التجار: صدق أو لا تصدق لا يدفع الزكاة من التجار إلا قلة قليلة جداً جداً ، يقول لك : معمل واحد كلف ألف مليون ، تسمع أرقام معامل الصابون ، معامل المنظفات ، قال: أربعون مليون خسارة حريق ، معمل سبعمئة مليون ، ألف ومئتا مليون ، ثلاثة آلاف مليون ثمن معمل إنتاجه اليومي بالملايين، لو دفعت الزكاة كما أراد الله عز وجل وصرفت الزكاة في توفير الأعمال للفقراء لما وجدت فقيراً .

أنا أعتقد أن سيدنا عمر بن عبد العزيز في عهده الميمون كان دافع الزكاة يطوف طول البلاد وعرضها ليرى رجلاً يقبل منه أن يأخذ زكاة ماله فلا يجد ، عندئذٍ كان هذا الخليفة الراشد يضطر إلى دفع الزكاة للغارمين ، من عليه دين فليتقدم ليأخذ الدين ، معنى هذا أن الزكاة مدروسة ، خالق ، تعليمات الصانع ، ومع ذلك هناك ظروف ضعف الإيمان والقبض وعدم الدفع وأحياناً تحل مشكلات كبيرة بماله .

إذاً بين أن نغنيه عاماً وبين أن نغنيه طوال حياته ، وأفضل زكاة تدفع إلى فقير تلك الزكاة التي تجعله غنياً في العام القادم ويصبح دافع زكاة .

و هذا التفكير الساذج عند الناس يجب أن تعطي شحاذاً ، يجب أن تعطي شحاذاً لحوحاً يلبس ثياباً بالية ، لا ، أحياناً يكون الإنسان معه درجة علمية عالية وعنده زوجة وأولاد وأنيق لكن لا يكفي دخله وهو اختار العلم ، ودخل العلم أقل بكثير من دخل أي عمل آخر.

أيضاً يجب أن يكون أسلوب دفع الزكاة في منتهى الرقة ، منتهى الأدب ، في منتهى التواضع ، هذا الذي يقبل أن يأخذ منك له فضل عليك ، إذا قبل أن يأخذ منك ، لأنه كان سبباً في هذا العمل الطيب الذي أكرمك الله ، لو رفض لا تدري ماذا تفعل .

جواز الصدقة لثلاثة أنماط من الناس :

دقوا في هذا الحديث أيها الأخوة:

((عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ قَالَ : تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً . . .))

[مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ]

الحمالة أي إنسان رأى اثنين متخاصمين والخصومة تفجرت وكادت تصبح قتالاً تدخل واقترض مبلغاً من المال ودفعه كدية ، أو لحل هذه المشكلة ، فهذا إنسان اقترض ليصلح ذات البين ، هذا تحمل حمالةً .

((عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ قَالَ: تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْأَلُهُ فِيهَا ، فَقَالَ: أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا قَالَ ثُمَّ ، قَالَ: يَا قَبِيصَةُ إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إِلا لأَحَدِ ثَلاثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ . . .))

[مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ]

اقترضت مبلغاً من المال وحللت به مشكلة جزاك الله خيراً وأنت أخذت هذا المبلغ من أهل الخير وانتهى الأمر .

((. . . وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ . . . .))

[مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ]

احترق محله التجاري ، جاء صقيع وأتلف له مزروعاته .

((. . وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ لَقَدْ أَصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا))

[مسلم عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلالِيِّ]

السحت أكل المال الحرام .

تجوز الصدقة لإنسان تحمل حمالةً وحلّ بها مشكلة اجتماعية ، أو إنسان أصابته جائحة ، أو إنسان فقير يشهد ثلاثة من أهل الحجة أنه فقير ، وما سوى ذلك سحت يحاسب عليه الإنسان .

من معاني أكل السحت :

تعليق جانبي من معاني أكل السحت هو العدوان على الكسب أو كسب الكسب ، أي مثل مبسط : إنسان نقل مركبة رمل بألف ليرة للطابق الرابع – فاعل – حمل هذه الأكياس على ظهره ، ونقل هذه السيارة من الرمل إلى الطابق الرابع وأخذ نظير عمله خمسمئة ليرة ، هذا اسمه كسب حلال ، لأنه كان مقابل جهد بذله ، الكسب الحلال مقابل عمل مشروع ، زراعة ، صناعة ، تجارة ، خدمات ، زرعت الأرض فأنبتت فبعت هذا الثمر ، أو اشتريت بضاعة من منابعها وبعتها في مكان إقامتك ، وقدمت خدمةً للناس هذه تجارة ، والصناعة صنعت شيئاً يحتاجه المسلمون ، أو عملت موظفاً هذا معلم ، هذا مدرس ، مهندس ، أستاذ جامعة ، طبيب في مستوصف ، هذا الكسب المشروع ، أو إنسان ورث عن والده ، أو إنسان وهب له شيء ، على كلّ بالفقه يوجد أبواب للكسب المشروع كلها مشروعة ، أما أحياناً أنت بحكم عملك تملك قدرة على إيقاع الأذى بالآخرين ، تلوح لهم أنني أستطيع أن أفعل كذا وكذا فيخاف فيعطيك جزءاً من كسبه إذا أخذت كسب الناس بقوتك أو بحيلتك أو بذكائك أو بتدليسك فهذا عدوان على الكسب ، كسب الكسب سحتٌ ، كسب الكسب حرام ، لك أن تكسب أما أن تأخذ كسب

الآخرين ، وما أكثر الأساليب التي تأخذ بها أموال الآخرين بشكل لا يرضي الله عز وجل .

إتقان العمل أحد أسباب زيادة الرزق :

الآن يوجد عندنا حكم دقيق جداً هو أن النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلانِ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ وَهُوَ يُقَسِّمُ الصَّدَقَةَ فَسَأَلاهُ مِنْهَا فَرَفَعَ فِينَا الْبَصَرَ وَخَفَضَهُ فَرَآنَا جَلْدَيْنِ . . .))

[أبو داود عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ]

أنا عندي عبارتان مثل الحصان إذا كان مؤمناً ، وإذا كان بلا دين مثل البغل .

((. . . فَرَفَعَ فِينَا الْبَصَرَ وَخَفَضَهُ فَرَآنَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ: إِنَّ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَلا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ))

[أبو داود عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ ابْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ]

إنسان مثل الحصان ومعه مصلحة بيده ، ويوجد عمل في السوق ، لكن كسول ، قوي وخبير بكسب المال ويوجد عمل ، حتى نكون دقيقين ، أحياناً تكون قوياً ومعك مصلحة ولا يوجد عمل ، هذا موضوع ثان ، أنا أقول ثلاثة شروط ، قوي ، صحة تامة ، وتملك حرفة ، وهناك من يطلب منك أن تعمل عنده ، إذا توافرت هذه الشروط الثلاثة لا يجوز أن تأخذ من مال الصدقة ، أما قوي لكن لا يملك حرفة ، يملك حرفة لكنه مريض ، يملك حرفة ومريض ولا يوجد عمل ، واضح تمام .

النبي ﷺ كلامه دقيق إن قال لقوي مشكلة ، قوي مكتسب ، يوجد عنده مصلحة ويوجد سوق ، لكن بالمناسبة وهذا تعليق جانبي لو فرضنا يوجد عندنا ألف إنسان يتقن مصلحة الكهرباء ، يوجد هبات أحياناً يكون هناك سوق ساخن بالتعبير التجاري ، الألف يعملون ، أنا إذا فتر السوق يعمل المتقن ، الأقل إتقان ليس له عمل ، دائماً وأبداً صاحب الصنعة المتقنة لا يقف عن العمل ، لو كانوا ألف رجل ، السوق إذا فتر يريدون ثلاثين أو خمسين ومن الخمسين هو ، أنا أعجب من شخص يقول لك : لا يوجد عندي عمل ، لشهرين لا يوجد عمل ، وإنسان مواعيده حتى شهرين ليفرغ من عمله ، ما هو السبب ؟ يكون ليس متقناً ، لذلك أحد أسباب زيادة الرزق إتقان العمل ، وإتقان العمل جزء من الدين .

((لا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ))

[ابن ماجة عن أبي هريرة]

إكرام عزيز قوم ذلّ :

إلا أن الشرع الحكيم يوجد لفتة لطيفة جداً ، إنسان كان من أغنياء البلد وافتقر فجأةً والله على كل شيء قدير ، أحياناً يقول لك : يوجد عندي أموال لا تأكلها النيران ، الله قادر أن يجعلك تتمنى رغيف خبز ، قال لي رجل مرة زرته في محله : رأيته ينام على طاولة التفصيل ويأكل من علبة السردين مباشرةً لا يوجد عنده صحن ، أقسم لي بالله أن بيته مع حديقته ألف متر وما دخل عليه الحلويات إلا بالصواني ، والفواكه إلا بالصناديق ، وعنده ثلاثة سيارات ، سيارة للسفر ، وأخرى للبلد ، وثالثة للمعمل ، ووصف لي وصفاً لا يصدق ، القصة معقدة وطويلة ، أما بقدرة قادر بدأ ينقب بالقمامة ليأكل ، الله سبحانه وتعالى قادر أن يجعل الذي يملك ألف مليون شحاذاً ، بقدرة قادر ، كما أنه إذا أعطى أدهش أيضاً إذا أخذ أدهش ، يدهش في عطائه وفي أخذه .

إذا إنسان كان غنياً وافتقر بحسب نص الحديث هو قوي ، نقول له اعمل عتالاً ؟ لا ، الشرع لم يكلفه فوق طاقته، الإمام النووي روى نصاً للإمام الغزالي قال: سئل الغزالي عن القوي من أهل البيوتات الذين لم تجرِ عادتهم التكسب بالبدن ، هذه الأسرة أسرة عريقة ولها شأن بالمجتمع ، ومكانة علية ، ومن أهل الخير ، وما جرت العادة أن يتكسب هؤلاء بعضلاتهم إلا بتجارتهم ، هؤلاء إذا افتقروا يجوز أن يعطوا من سهم الزكاة حفاظاً على ماء وجههم ومكانتهم السابقة ، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: " أكرموا عزيز قوم ذلّ وغني افتقر وعالم ضاع بين الجهال " .

الجواز لمالك النصاب أن يأخذ من الزكاة :

الآن يوجد توسعة على المسلمين ، ويوجد عندنا حالة نادرة لا تكون إلا في عهود تضخم النقد ، إنسان معه مئتا ألف يستثمرها في عمل تجاري عند شخص ، دخل المبلغ لا يكفي مصروفه ، تنظر إليه تجد أنه يملك مئتي ألف، لكن دخل هذا المبلغ لا يكفي لطعامه وشرابه وملبسه ، فهذا من جهة غني لأنه يملك نصاب الزكاة ، ومن جهة فقير لا يجد ما يكفيه ، لذلك العلماء قالوا : يجوز لمالك النصاب أن يأخذ من الزكاة ، يدفع ويأخذ ، يؤدي

زكاة ماله خمسة آلاف ويمكن أن يعطى من زكاة المال ، شيء دقيق جداً ، من ملك نصاباً من أي نوع من أنواع المال وهو لا يقوم بكفايته لكثرة عياله ، أو لغلاء السعر ، فهو غنيٌ من حيث أنه يملك نصاباً فتجب الزكاة في ماله ، وفقير من حيث أن ما يملكه لا يقوم بكفايته فيعطى من الزكاة كالفقير ، إذاً يجوز دفع الزكاة وأخذ الزكاة ، والذي أريد أن أنوه إليه لما ربنا عز وجل فرض زكاة الفطر على كل إنسان غنياً كان أم فقيراً ، عبداً كان أم حراً، ذكراً أو أنثى ، صغيراً أو كبيراً بشرط أن يملك قوت يومه ، الذي عنده في البيت نصف كيلو حمص مع رغيف خبز هذا تجب عليه زكاة الفطر ، معنى هذا أن زكاة الفطر على كل إنسان من أجل ماذا ؟ من أجل أن يذيق الله هذا الفقير طعم الإنفاق ، الذي يعطي الناس هذه نعمة لا تقدر بثمن ، بالمناسبة في المذهب الشافعي لو رجل اشترى بيتاً بثلاثين ألفاً بالمهاجرين أربعة وصالون ، مساحته مئة وستون متراً ، والآن ثمنه اثنا عشر مليوناً وهو يعمل موظفاً مثلاً ، أخي هذا بيته ثمنه يقدر باثني عشر مليون لا نعطيه زكاة ، اذهب وبع بيتك الذي في المهاجرين واسكن في الدويلعة ، نقول له : لا ابق في بيتك ولك أن تأخذ من مال الزكاة ، لم يجز الفقهاء ولاسيما السادة الشافعية أن يبيع الإنسان بيته ليأكل ، هذا بيت مستهلك ، أخواننا الكرام هذه ثروة وهمية ، أخذته بثلاثين ألفاً والآن ثمنه اثنا عشر مليوناً ، لا الاثنا عشر مليوناً انتفعت بهم ولا الثلاثون خسروك ، هذا بيت مستهلك ، والمركبة مستهلكة ، والمحل مستهلك، يهم العائد المتحرك ، الآن كل واحد إذا حسب مليونيراً وكلنا فقراء لله ، بيت اشتريناه بثلاثين ألفاً والآن ثمنه خمسة ملايين ، يسكن في بيت لا يكفيه وأولاده ، لكن ثمنه خمسة ملايين ، هذا الرقم الكبير ، هذا رقم تضخم .

رجل نام فرأى في المنام أن معاشه مليون ليرة وهو موظف فطار عقله ، اختل توازنه في المنام ، قرع الباب فتح فوجد أن فاتورة الهاتف سبعمئة وخمسين ألفاً ، لم يستفد شيئاً ، هذا كله وهم ، وأرقام بيوتنا كلها وهم ، البيت ، والمركبة ، والأرض ، هذه كلها مستهلكات ، يهمك العائد المتحرك السائل ، العائد المتحرك لا يكفيك إذاً أنت فقير ، السادة الشافعية لم يجيزوا للفقير أن يبيع بيته الذي يسكنه لأنه فقير ، يبقى فقيراً وبيته ثمنه عشرة ملايين، جيرانه وأولاده بالمدارس وأَلِفَ حيه لا تستطيع أن تقتلعه من جذوره وتضعه في آخر الدنيا ، أخي أنت تملك . حتى هناك اجتهاد آخر وكنا في مجلس علم مع بعض العلماء ، حتى أنت لست مكلفاً أن تبيع سيارته ، إذا كان يملك سيارة مستور بها ، وأولاده ينقلهم بها ، أخي بعها ، حتى هذه ليس مكلف بها ، وإن كان ترونها صدمة ، ولكن هذا رأي الإمام الشافعي ، يجب أن تغنيه .

الزكاة عمل عظيم :

لكن من سوء تصرف المسلمين أحياناً فهم أن الزكاة معاونة ، لا ، الزكاة عمل عظيم ، الآخذ له فضل مثل المعطي ، والمجتمع الذي فيه تعاون مجتمع راق جداً ، أحياناً شخص يؤلمك لا يأخذ منك ، أنا أتألم منه أحياناً ، نحن أسرة واحدة ، نحن واحد ، الذي يأخذ له فضل وأجر أي سمح لك أن ترقى عند الله عز وجل ويوجد حديث دقيق في هذا المعنى .

((عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّعْدِيِّ أَنَّهُ قَدِمَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّهم عَنْهم مِنَ الشَّامِ فَقَالَ: أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَعْمَلُ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ فَتُعْطَى عَلَيْهِ عُمَالَةً فَلا تَقْبَلُهَا قَالَ: أَجَلْ إِنَّ لِي أَفْرَاسًا وَأَعْبُدًا وَأَنَا بِخَيْرٍ وَأُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَمَلِي صَدَقَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِي اللَّهم عَنْهم: إِنِّي أَرَدْتُ الَّذِي أَرَدْتَ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي الْمَالَ . . . .))

[النسائي عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّعْدِيِّ]

كان سيدنا رسول الله يعطي سيدنا عمر ، وهذه لها معنى كبير ، أي إذا رجل اضطر أن يأخذ له أسوة بسيدنا عمر ، عملاق الإسلام خليفة المسلمين أخذ ، لا يوجد بها معرة أبداً ، إذا كان الإنسان بحاجة ماسة لأن ابنه مريض ومضطر إلى دواء لا يأخذ ، خذ ولا يوجد مانع .

((. . . . فَقَالَ عُمَرُ رَضِي اللَّهم عَنْهم: إِنِّي أَرَدْتُ الَّذِي أَرَدْتَ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي الْمَالَ فَأَقُولُ أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي وَإِنَّهُ أَعْطَانِي مَرَّةً مَالاً فَقُلْتُ لَهُ أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنِّي فَقَالَ مَا آتَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا إِشْرَافٍ فَخُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ وَمَا لا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ مِنْ أَعْمَالِ الْمُسْلِمِينَ فَتُعْطَى عَلَيْهِ عُمَالَةً فَلا تَقْبَلُهَا قَالَ: أَجَلْ إِنَّ لِي أَفْرَاسًا وَأَعْبُدًا وَأَنَا بِخَيْرٍ وَأُرِيدُ أَنْ يَكُونَ عَمَلِي صَدَقَةً عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ عُمَرُ رَضِي اللَّهم عَنْهم: إِنِّي أَرَدْتُ الَّذِي أَرَدْتَ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي الْمَالَ))

[النسائي عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّعْدِيِّ]

كان سيدنا رسول الله يعطي سيدنا عمر ، وهذه لها معنى كبير ، يعني إذا رجل اضطر أن يأخذ له أسوة بسيدنا عمر ، عملاق الإسلام خليفة المسلمين أخذ ، لا يوجد بها معرة أبداً إذا إنسان محتاج ، أن يكون بحاجة ماسة ابنه مريض ومضطر إلى دواء لا يأخذ ، خذ ولا يوجد مانع .

((. . . . فَقَالَ عُمَرُ رَضِي اللَّهم عَنْهم: إِنِّي أَرَدْتُ الَّذِي أَرَدْتَ وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِينِي الْمَالَ فَأَقُولُ أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي وَإِنَّهُ أَعْطَانِي مَرَّةً مَالاً فَقُلْتُ لَهُ أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنِّي فَقَالَ مَا آتَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذَا الْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلا إِشْرَافٍ فَخُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ أَوْ تَصَدَّقْ بِهِ وَمَا لا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ))

[النسائي عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ السَّعْدِيِّ]

أي أنت لم تسأل ، ولا طلبت ، ولا تمنيت ، ولا تشوقت ، ولا تطلعت إلا أن إنساناً أراد أن يكرمك ، فإذا أنت بحاجة أنفق هذا المال على حاجتك ، وإذا لم تكن بحاجة أعطه من يلوذ بك ممن هو محتاج ، أيضاً شيء لطيف جداً أنت لست محتاجاً أعطه من هو محتاج لمن يلوذ بك ، شرع كامل ، لكن العجيب بالصحابة الكرام المنفق بأعلى درجات الأدب ، والآخذ بأعلى درجات العفة ، لما سيدنا سعد بن الربيع عرض نصف ماله على سيدنا عبد الرحمن بن عوف قال له سيدنا ابن عوف : بارك الله لك في مالك ولكن دلني على السوق ، جميل جداً في المؤمن أن يتفقد أخوانه ، والأجمل بالمؤمنين الطرف الآخر يتعففوا إذا كانوا ليسوا بحاجة ، ولكن الحكم الشرعي إذا إنسان عرض عليك مبلغاً وأنت ما طلبت ، ولا سألت ، ولا طمعت ، وعرضه عليك فرددته فكأنما رددت على الله ، خذه انتفع به إن كنت ذا حاجة أو تصدق به إن لم تكن ذا حاجة .

2 . المؤلفة قلوبهم :

المؤلفة قلوبهم موضوع طويل جداً ، ويحتاج إلى مناقشة ، وهم نوعان مسلمون وغير مسلمين ، وحكم دفع المال للمؤلفة قلوبهم هذا حكم يقتضي ، وهو حكم خلافي بعضهم سمح ، وبعضهم لم يسمح ، لكن سأروي لكم هذه القصة: جاء عيينة بن حصن والأقرع بن الحارث وعباس بن مرداس وطلبوا من أبي بكر نصيبهم فكتب لهم به – هؤلاء من المؤلفة قلوبهم – أي أناس ضعاف الإيمان يرجى بدفع المال لهم أن يقوى إيمانهم ، أو أناس غير مسلمين يمكن أن يؤذوا المسلمين بدفع المال يكف آذاهم هذا مختصر الموضوع ، فجاؤوا إلى عمر وأعطوه الوثيقة السابقة فأبى و مزقه وقال : هذا كان في عهد النبي تأخذونه تأليفاً لكم على الإسلام أما والآن فقد أعز الله الإسلام وأغنى عنكم فليس لكم عندي شيء ، فرجعوا إلى أبي بكر وقالوا له الخليفة أنت أم عمر ؟ معنا كتاب من الخليفة أبي بكر بذلنا له الخط فمزقه عمر ، فقال: هو إذا شاء ، لا يوجد فرق بيننا ، فسيدنا عمر اجتهد أن

نصيب المؤلفة قلوبهم ينتهي بعد أن أعزّ الله الإسلام في النصر .

3 . في الرقاب :

الرقاب ، الآن لا يوجد رقاب والحمد لله .

4 . الغارمون :

أما الغارمون المدينون قال هؤلاء الثلاثة كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَجُلاً مِنَ الأنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَكَا إِلَيْهِ الْحَاجَةَ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا عِنْدَكَ شَيْءٌ فَأَتَاهُ بِحِلْسٍ وَقَدَحٍ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَا ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ ، قَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ فَسَكَتَ الْقَوْمُ فَقَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ قَالَ: هُمَا لَكَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إِلا لأحَدِ ثَلاثٍ ذِي دَمٍ مُوجِعٍ أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ فَقْرٍ مُدْقِعٍ))

[أحمد عَنْ أَنَسٍ]

وفي عهد النبي ﷺ روى الإمام مسلم:

((أُصِيبَ رَجُلٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ثِمَارٍ ابْتَاعَهَا فَكَثُرَ دَيْنُهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَصَدَّقُوا عَلَيْهِ فَتَصَدَّقَ النَّاسُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَبْلُغْ ذَلِكَ وَفَاءَ دَيْنِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِغُرَمَائِهِ: خُذُوا مَا وَجَدْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ إِلا ذَلِكَ))

[مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ]

هذا حكم التفليس ، إذا إنسان فلس الموجود عنده يوزع على الغرماء بنسب ديونه.

5 . في سبيل الله :

وفي سبيل الله ، وهذا موضوع يحتاج إلى تفصيل نعالجه إن شاء الله في وقت آخر .

والحمد لله رب العالمين

- الدرس 22 : زكاة عروض التجارة : تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

كلمة جماهير في كتب الفقه :

أيها الأخوة الكرام ، أخ كريم سألني عن زكاة عروض التجارة ، هذا الموضوع بحثته مرات عديدة من قبل ، ولأنه سأل وتمنى عليّ أن يكون هذا الدرس والذي بعده في هذا الموضوع ، هأنذا أنقل لكم ما في بعض كتب الفقه المعتمدة .

يقول العلماء : ذهب جماهير العلماء ، كلمة جماهير في كتب الفقه لا تعني جماهير الناس ، جماهير الناس ليسوا على حق في الأعم الأغلب لقوله تعالى :

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

[سورة الأنعام : 116]

فالأكثرية في المجتمعات أي معصية راجت تشيع فوراً ، أية صرعة أزياء صدرت من بلاد الغرب وقد يكون المصمم يهودياً تسري في بلاد المسلمين ، فجماهير الناس شيء وجماهير العلماء شيء آخر ، من هو الإمعة ؟ هو الذي يتبع سواد الناس ، دهماء الناس، سوقة الناس ، هؤلاء تأخذهم الدنيا ، هؤلاء تأخذهم فتنها ، تأخذهم شهواتها ، أما عندما تقرأ في كتاب الفقه جماهير العلماء أي العلماء ، نخبة الأمة ، أو هكذا ينبغي أن يكونوا، إن لم يكونوا كذلك ينبغي أن يكونوا نخبة الأمة لأنهم عرفوا الحقيقة العظمى ، عرفوا حقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، وحقيقة الإنسان ، وعرفوا سر وجود الإنسان ، وغاية وجوده ، وعرفوا منهج الله عز وجل ، وعرفوا طريق السعادة والشقاء ، فالجماهير شيء وجماهير العلماء شيء آخر ، لذلك تجد في الأرض ملايين مملينة ممن يعبدون البقر، أو يعبدون الشمس والقمر ، أو يعبدون أصناماً ، أو يعبدون أشخاصاً ، أو يعبدون شهواتهم ، قال تعالى :

﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾

[سورة الفرقان : 43]

وقلة قليلة تعبد الله .

ذهب جماهير العلماء من الصحابة فكيف إذا كان هؤلاء من الصحابة ! حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء . هكذا وصفهم النبي قبل وفاته ، نظر إليهم فقرت عينه بهم فابتسم حتى بدت نواجذه وقال : " حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء " ، النبي ربى أبطالاً ، ربى الواحد كألف وقد تجد ألفاً من المسلمين في آخر الزمان كأف ، ألف كأف لأن شهواتهم استحوذت عليهم وساقتهم إلى طريق شقائهم .

ذهب جماهير العلماء من الصحابة . والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : " إن الله اختارني واختار لي أصحابي " أصحاب النبي نخبة المجتمعات .

ذهب الصحابة والتابعون ومن بعدهم من الفقهاء إلى وجوب الزكاة في عروض التجارة . النبي عليه الصلاة والسلام قال :

((خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ . . .))

[متفق عليه عن عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]

فشهد النبي عليه الصلاة والسلام بالخيرية للقرون الثلاثة الأولى ، خير القرون قرني أي قرن الصحابة ، ثم الذين يلونهم أي التابعون ، ثم الذين يلونهم تابعو التابعين .

تعريف العروض و الأثمان :

العروض جمع عرض والعرض غير الثمن ، نحن في حياتنا يوجد شيئان ، يوجد بضاعة ويوجد ثمن ، البضاعة مع الثمن اسمها مال ، إنسان عنده ألف طن من الخيط ، معامل النسيج ، معامل القماش ، معامل . . . معامل لا تعد ولا تحصى ، مادتها الأولى الخيط ، فلان يوجد عنده مئة طن ألمنيوم ، كل معمل يحتاج إلى هذه المادة الأولية ، فلان يوجد عنده ألف طن حديد ، فلان يوجد عنده من خيوط إلى حديد إلى نحاس إلى زنك إلى معادن، كل شيء ينتفع به هو مال ، لأن النفس تميل إليه ، ولأن النفس تقتنيه ، ولأن النفس تدخره ، ولأن النفس تحتاجه ، وهذا من أدق تعاريف المال .

يوجد عندنا عرض جمعها عروض وعندنا ثمن ، العروض والأثمان مجموعة بكلمة المال ، ومن أوجه تعريف المال ما تميل النفس إليه ، إنسان عنده بناء مؤلف من عشرين طابقاً في أرقى أحياء دمشق فرضاً ، كل بيت ثمنه أربعة ملايين أو خمسة ملايين ، هذا مال لأنه بأي لحظة ينقلب إلى مال ، فلان يوجد عنده ألف طن من الخيط ، ألف طن من الحديد ، ألف طن من النحاس ، هذه كلها أموال لأنها في أي لحظة تنقلب إلى أموال ، ما هي التجارة ؟ تعريف جامع مانع للتجارة تقليب الأعراض إلى أموال والأموال إلى أعراض . معك مليون اشتريت فيهم خيطاً ، بعت الخيط رجعوا مليون ومئتين ، اشتريت صفقة ثانية خيطاً انقلب المال إلى خيط ، ثم الخيط إلى مال ، ثم المال إلى خيط ، كل إنسان صاحب تجارة كل حياته التجارية يقلب البضاعة إلى مال ، والمال إلى بضاعة ، يشتري بضاعة ويبيعها ثم يشتري بضاعة مرة ثانية ويبيعها .

فتقلب الأعراض إلى أموال والأموال إلى أعراض هو تعريف التجارة ، فكل شيء تميل النفس إليه ويدخر ويقتنى ويحتاج إليه هو مال ، ويوجد تعريف طريف : مالهُ أي ليس له ، عندما يأتيه ملك الموت يدعوه إلى القبر ، فأنت إذا فهمت ما هو المال شيء ينتفع به ، إنسان عنده ألف غسالة أوتوماتيك هذا أليس مالاً ؟ ألف براد ، خمسة آلاف مروحة ، تاجر سيارات عنده خمسمئة سيارة بالمرفأ جاهزة ، كل شيء ينتفع به ويباع ويقصد به الربح هو مال وثمن هذا الشيء هو مال ، أيضاً العملة الورقية مال ، والذهب مال ، والفضة مال ، والدولار واليورو أيضاً مال ، صار المال هو المثمن والثمن ، ماذا قال الله عز وجل؟

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

[سورة التوبة : 103]

وجوب الزكاة في عروض التجارة :

هل تجب الزكاة في عروض التجارة ؟ تجب باتفاق جمهور العلماء من الصحابة تجب الزكاة في عروض التجارة، الدليل ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، ونحن ديننا دين أدلة ، يوجد وحي ويوجد سنة ، وحي السماء هو القرآن والسنة هي وحي غير متلو لشرح الوحي المتلو .

((عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُنَا أَنْ نُخْرِجَ الصَّدَقَةَ مِنْ الَّذِي نُعِدُّ لِلْبَيْعِ))

[أبو داود عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ]

الذي عنده مليون طن من الخيط المعد لماذا ؟ للاستهلاك ، الذي عنده ألف سيارة في الميناء ، لاستهلاكه الشخصي ؟ يستحيل ، الذي عنده ألف طن ألمنيوم هل لاستهلاكه الشخصي ؟ ألف طن حديد . . . هذه كلها بضائع معدة للبيع والبيع قصده الربح ، القصد هو نمو المال ، أنت كيف تنمي مالك ؟ عن طريق شراء البضاعة وبيعها هذه التجارة ، عن طريق شراء البضاعة وبيعها تنمي المال .

((عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَأْمُرُنَا أَنْ نُخْرِجَ الصَّدَقَةَ مِنْ الَّذِي نُعِدُّ لِلْبَيْعِ))

[أبو داود عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ]

وروى البيقهي أيضاً :

((عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : في الإبل صدقتها وفي الغنم صدقتها وفي البقر صدقتها وفي البز صدقته . . .))

[البيقهي عن أبي ذر رضي الله عنه]

ما هو البز ؟ قال : متاع البيت ، الآن متاع البيت ما هو؟ مراوح ، ثريات ، برادات ، مواقد غاز ، أدوات مطبخ، أثاث ، غرف نوم ، غرف استقبال ، متاع البيت، كل ما يحتاجه البيت متاع ، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: "وفي البز صدقة" .

في الإبل صدقتها ، وفي الغنم صدقتها ، وفي البقر صدقتها ، وفي البز صدقته .

وعن أبي عمرو عن أبيه قال : "كنت أبيع الأدم والجعاب – الأدم الجلد والجعاب الجفان أي القدور – فمر بي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : أدِّ صدقة مالك ، أدِّ أمر"

يقول عليه الصلاة والسلام :

((عليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفَاءِ الراشِدينَ المهديّينَ، تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجِذِ....))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن العرباض بن سارية]

سيدنا عمر من الخلفاء الراشدين طبعاً ليس مشرعاً لكنه نقل عن رسول الله ﷺ .

فمر بي عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : " أدِّ صدقة مالك ؟ فقلت يا أمير المؤمنين إنما هو الأدم ، قال : قوّمه ثم أخرج صدقته "

العروض المتخذة للتجارة مال مقصود به التنمية :

قال بعض العلماء في كتاب المغني وهذه قصة يشتهر مثلها ولم تنكر فكانت إجماعاً ، لا يخفى عليكم أن مصادر التشريع عند جمهور العلماء الكتاب والسنة والقياس والإجماع ، فقال العلماء : وكانت هذه القصة إجماعاً ، أما القياس الذي اعتمده الجمهور في زكاة العروض فهو أن العروض المتخذة للتجارة مال مقصود به التنمية ، ما ورد في القرآن الكريم أن المخدرات محرمة هل هي مباحة ؟ تلتقي مع الخمر بأنها تسكر ، أي يغيب صاحبها عن الوعي ، فلان مخدر أو فلان مخمور تلتقيان بعلة واحدة .

والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((ما أسكر كثيره فقليله حرام))

[أبو داود عن جابر بن عبد الله]

العلة هي السكر سمها ما شئت ، الآن اسمها مشروبات روحية وليس اسمها خمر يقول لك : مشروبات روحية ؟ هي محرمة و لو لم يكن اسمها خمراً لكن لأنها تلتقي مع الخمر في علة الإسكار فهي محرمة قطعاً ، أما القياس الذي اعتمده الجمهور فهو أن العروض المتخذة للتجارة مال مقصود به التنمية ، فأشبه الأجناس الثلاثة ، التي فيها زكاة باتفاق أعني الحرث الزروع ، الماشية الأنعام ، والذهب والفضة .

وفي المنار جمهور علماء الأمة يقولون بوجوب زكاة عروض التجارة .

عروض التجارة المتداولة للاستغلال نقود :

وقد ورد في زكاة عروض التجارة أحاديث يقوي بعضها بعضاً أي أن الأحاديث المتعددة ولو كانت أقل من الصحة لكن لأنها تعددت في موضوع واحد فهذا مصطلح عند علماء الحديث إنها ولو كانت أقل من الصحة لكن يقوي بعضها بعضاً ذلك أن العلماء يقولون: إن عروض التجارة المتداولة للاستغلال نقود .

حدثني أحد أصحاب المعامل قال لي : أنا عندي معمل ، نسيجي مادته الأولى الخيوط ، وأنا حينما أقرض تاجراً مثلاً مليون ليرة لسنة أنا لا أريد أن آخذ فائدة عليه إطلاقاً أبيعه بالسعر لكن إذا قيمة الخيط تضاعفت معنى هذا أنني خسرت خسارة كبيرة ، أنا أشترط عليه : هذا الدين أريده بقيمة الخيط . المليون كم طن خيط تساوي ؟ أريد أن ترد لي مالاً يساوي أطنان الخيوط التي تساويه اليوم حتى لا أتأثر ، بالمناسبة مع تبدل العملة السريع لو إنسان اشترط على مقترض أنا هذه المليون كم تساوي من الذهب أو من العملات الثابتة القوية فإذا أردت أن ترد هذا المبلغ لي ينبغي أن ترده بهذه العملة أو بهذه الطريقة الذهبية لا شيء عليه مادام شيء مشترط ، اعتمد عملة أخرى ، يوجد عملات تضخمها النقدي كبير جداً ويوجد عملات أسعارها ثابتة ، فالذي يشترط بالدين أن يقرض مبلغاً يساوي رقماً معيناً من عملة أخرى أو من ذهب أو فضة لا شيء عليه ، المسلمون عند شروطهم ، لأن الخيط مال والخيط مادة أساسية جداً في آلاف المعامل . قال له : أنا أقرضك هذا المليون على أن ماذا يساوي الآن من الخيط ، أربعة أطنان يجب أن ترد لي بعد عام أربعة أطنان من الخيط غلى أو رخص . أنا إذا ارتفع السعر للضعف مهما ربحت منك فأنا خاسر ، الحفاظ على قيمة رأس المال ممكن . العلماء يقولون : إن عروض التجارة المتداولة للاستغلال نقود ولا فرق بينها وبين الدراهم والدنانير التي هي أثمانها إلا في كون النصاب .

تقلب نصاب الزكاة بين الثمن و البضاعة :

نصاب الزكاة يتقلب ويتردد بين الثمن وهو النقد وبين البضاعة وهي العروض .

إنسان يوجد في صندوقه مليون ليرة عليهم خمسة و عشرون ألفاً زكاة برمضان ، و آخر يوجد بمستودعه خيط بمليون ليرة عليه خمسة و عشرون ألفاً ، فنصاب الزكاة يتقلب من مثمن إلى ثمن ، من بضاعة إلى مال ، فلو لم تجب الزكاة في التجارة لأمكن لجميع الأغنياء أو أكثرهم أن يتجروا بنقودهم ، و يتحروا ألا يحول على نصاب النقدين الحول أبداً و بذلك تبطل الزكاة فيهما عندهم ، يوجد تاجر عنده بضائع بمئتي مليون ، بعشرة ملايين ، بألف مليون ، إذا كان لا يوجد على العروض زكاة التغت الزكاة ، لا يوجد مؤسسة مالية ، لا يوجد مصنع كبير، لا يوجد تاجر كبير يوجد بصندوقه مبلغ كبير ، جميع أمواله بضائع ، بضائع و ديون ، جميع التجار هكذا بل إن معظم الثروة في أيدي الصناعيين و التجار فإذا ألغينا زكاة العروض و زكاة البضائع كأننا ألغينا الزكاة أصلاً، و يوجد أناس – سامحهم الله – في بلاد أخرى على الذهب و الفضة فقط ، العملة الورقية لا تعد عندهم

مالاً ، شخص عنده مئتا مليون دولار هذا ليس مالاً لأنه ورق .

فلذلك لا فرق بين الدراهم و الدنانير التي هي أثمان العروض إلا في كون النصاب يتقلب و يتردد بين الثمن و بيد النقد ، بين الثمن و هو النقد و بين المثمن و هو العروض ، فلو لم تجب الزكاة في التجارة لأمكن لجميع الأغنياء أو أكثرهم أن يتجروا بنقودهم ، شخص مثلاً معه مئة مليون في الخامس عشر من شعبان يشتري بهم بضاعة ليس عليه زكاة ، كان على كل مليون يوجد كم ألف ؟ على كل مليون خمسة و عشرون ألفاً زكاة ، الذي عنده مئة مليون عليه اثنان و نصف مليون ، إذا اشترى بهم بضاعة في الخامس عشر من شعبان لا يوجد عليه زكاة إطلاقاً ، في اثنين شوال أعادهم مالاً ، باعهم فرجعوا مالاً ، هو يعيد هذا كل عام ، هذه سهلة جداً ، مهما كان معه أموال نقدية يشتري بها بضائع قبل حلول رمضان بعد شوال يقلبها إلى نقد و هكذا ، قال : لو لم تجب الزكاة في التجارة لأمكن لجميع الأغنياء أو أكثرهم أن يتجروا بنقودهم و يتحروا ألا يحول على نصابهم من النقدين الحول أبداً ، و بذلك تبطل الزكاة فيها عندهم ، و إذا أضفنا إلى هؤلاء من لا يوجب الزكاة إلا في الذهب و الفضة خرجنا من الزكاة كلية ، و مات الفقراء و انتهت هذه الفريضة الكبيرة .

تفسير كلمة أموال :

الآية واضحة دعك من كل هذه التفاصيل ، دعك من كل هذه الأحاديث :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

[سورة التوبة : 103]

ماذا تفهم أنت من كلمة أموال ؟ الذي عنده بناء بالمالكي ثمانية طوابق و كل طابق بثمانين مليوناً ، مكسو على المفتاح للبيع ، هذا فقير لا يوجد معه مال أبداً ، ثمانية بيوت ، و كل بيت أربع شقق ، كل بلاطة أربع شقق ، و كل بيت بثمانين مليوناً يوجد هكذا أسعار ، هذا أليس مالاً معداً للتجارة ؟ الذي عنده أراض ، الذي عنده محلات بشارع الحمراء مثلاً للبيع ، الذي عنده منطقة صناعية ، الذي عنده ألف طن من الخيط ، الذي عنده ألف طن من الحديد ، الذي عنده ألف طن من الخشب ، الذي عنده خشب الزان الغالي جداً المعد لصناعة الأثاث ، الذي عنده أنواع من البضائع لا تعد و لا تحصى ، الذي عنده ألف سيارة بالميناء معدة للبيع ، أليست هذه أموالاً بالبداهة من دون تعقيدات ، من دون تفصيلات ، من دون دخول في التعريفات ، أليس هذا مالاً ؟ ألا ينقلب إلى مال ؟ لو عقد صفقة موحدة و باع ألف سيارة ، كل سيارة بمليون ألف مليون ، مليار أعطوه شيكاً ، مال هذا ، التجارة كلها تحويل العروض إلى مال ، و المال إلى عروض ، دورة و كلما كان التاجر بمستوى أعلى تكون

دورته قصيرة ، و كلما كان التجارة متعبة الدورة طويلة ، يوجد دورات سنوية ، يعبر عنها التجار البضاعة قلبت بسنة ، يوجد تجارة تقلب بشهرين ، يوجد تجارة بخمس سنوات ، يقول بعض العلماء : و رأس الاعتبار في المسألة أن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء صدقة لمواساة الفقراء و من في معناهم ، و إقامة المصالح العامة، و أن الفائدة في ذلك للأغنياء ، ما الفائدة ؟ قال : تطهير أنفسهم من رذيلة البخل ، و تزكيتها بفضائل الرحمة بالفقراء ، و مساعدة الأمة على إقامة المصالح العامة ، أي يوجد شيء دقيق جداً اسمه مقاصد الشريعة لا يمكن أن نغفل عنه أبداً ، أوضح مثل ذكرته لكم فيما أذكر أنه على الحاج المتمتع أو القارن أن يقدم هدياً و كان يوجد جهل ، و كان يوجد تقصير ، فكان الحاج يمسك هذه الدابة و يذبحها في منى ، و يلقيها في الطريق، انتهى الأمر هو ذبحها أي تقريباً مليون غنمة تذبح في منى في يومين ، و تبقى هذه الأغنام المذبوحة متفسخة و ذات رائحة فظيعة لمدة أربعة أشهر ، أقسم لي أحد الأخوة الذي يسكن قرب منى في أحد ضواحي مكة قال لي : و الله رائحة الذبائح المتفسخة تكاد تزكم أنوفنا أربعة أشهر ، هل أنت تصدق أن شريعة الله تأمرك أيها الحاج أن تأتي بهذه الغنمة و هو طعام ثمين جداً بل هو سيد الطعام و الناس جميعاً يحتاجون إليه أن تذبح هذه الغنمة ، و أن تبقيها في الحر الشديد كي تتفسخ !! هذا هو الشرع ؟ الشريعة مصلحة كلها ، الشريعة حكمة كلها ، الشريعة عدل كلها ، الشريعة رحمة كلها ، أية قضية خرجت من الرحمة إلى القسوة ، و من الحكمة إلى خلافها، و من العدل إلى الجور، فليست من الشريعة و لو أُدخلت عليها بألف تأويل و تأويل .

حكمة التشريع الإلهي من الصدقة :

الأغنياء في الصدقة يطهرون من البخل و الشح ، و الفقراء يطهرون أيضاً من الحقد ، لا يوجد حقد ، فقير طرق بابه ، جاء الطعام و الشراب و الحلوى و الكساء و القماش و المال ، معنى ذلك أنا مهم في المجتمع ، مجتمعي رحيم ، مجتمعي حكيم ، مجتمعي متضامن ، و الله أيها الأخوة أكاد أقول إن تسعين بالمئة مما تعاني منه المجتمعات في العالم يعود إلى الفقر الشديد و الغنى الفاحش في وقت واحد ، لو أن الناس جميعاً فقراء المشكلة أخف ، أما إنسان يملك مليون و مليون لا يملكون شيئاً ، إنسان يتفنن في طعامه و شرابه و إنسان لا يملك غرفة يسكنها ، أو بيتاً يؤويه ، لا يملك غرفة يسكنها أو بيتاً يؤويه ، ألم يقل الله عز وجل :

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾

[سورة الحشر : 7]

لعل حكمة التشريع الاقتصادي في الإسلام ألا تبقى هذه الكتلة النقدية محصورة في أيدٍ قليلة ، أي هذه حالة مرضية قليلة جداً أن ترى كل شيء في الأسواق لكن لا يوجد مع الناس ثمن لها ، حينما لم يكن في الأسواق شيء و لا يوجد مع الناس شيء أقل مما أن ترى كل شيء في المحلات التجارية ، أجمل الألبسة ، أجمل الأجهزة ، الأدوات ، صرعة الإعلان، أي الإعلان يخلق في نفس الإنسان رغبة لهذه الحاجة ، تجد مكيفاً موضوعاً و شخصاً نائماً مرتاحاً مع جبل ثلج ، و هو ساكن ببيت طابق رابع ، البلوك عشرة سنتمتر ، أشعة الشمس كالفرن في المنزل ، ووجد مكيفاً موضوع بلوحة كبيرة و هو لا يوجد معه ثمنه، يشاهد مركبة أنيقة جداً لا يوجد معه ثمنها ، الإعلان له مشكلة كبيرة أيها الأخوة ، الإعلان ذكي جداً ، وجدت إعلاناً على الطابعة تخرج صورة فريز لشدة الإتقان ظنه أحدهم فريزاً حقيقياً ، فمد أصبعه ليأخذ واحدة ، فالإعلان مغر جداً ، الإعلان يخلق الحاجة عند الإنسان ، فإذا كان لا يملك ثمنها كم حل عنده ؟ عنده أربعة حلول : أول حل أن يمد يده للحرام سقط من عين الله ، ارتشى ، أكل مالاً حراماً ، سرق يريد أن يشتري ، عند الست غسالة قديمة يدوية تجد غسالة أوتوماتيك تضع الغسيل و تذهب تنام و الله أحسن طبعاً ، ثمنها ستة و عشرون ألفاً إذا كان معاشه خمسة آلاف أو ستة ، الوظيفة بسيطة كل يوم ترى هذه الغسالة تريدها بالنهاية إذا كان ضعيف الإيمان سيأكل مالاً حراماً ليشتريها مثلاً أقول أي حاجة أنا ، أو عليه أن يعمل عملاً إضافياً بوقت فراغه فإذا ألغى وقت فراغه انتهت إنسانيته ، يقول لك أخرج من البيت بعدما يستيقظوا و أعود بعد أن يناموا ، فقدت أنت أبوتك ، فقدت تربيتك لأولادك ، فقدت كل شيء ، فالذي ليس عنده وقت فراغ ليطلب العلم ليس إنساناً ، ما حقق وجوده في الحياة ، أنصح أخوتي الكرام أي عمل مهما كان دخله كبيراً إذا ألغى لك وقت فراغك أنت أكبر خاسر ، خسرت زوجتك و أولادك و خسرت كل شيء ، هذا الحل الثاني ، الحل الثالث إما أن يعمل عملاً إضافياً يلغي وقت فراغه و إما أن يمد يده للحرام ، و إما أن يشعر بالحرمان الدائم هذا بفضل الإعلانات ، هل كل إنسان قادر أن يشتري ما في الإعلان؟ ما كل إنسان قادر ، فإذا اجتمعت الأموال بأيدي قلة قليلة و حرمت منها الكثرة الكثيرة هذا خلاف منهج الله ، أنا أقول : الصحة الاجتماعية المالية أن تكون الكتلة النقدية متداولة بين جميع الناس ، أي كل إنسان ساكن بمنزل و يأكل ، و يشرب ، و له بيت مدفأ ، و يعالج أولاده صحياً ، و يأتي لأولاده بألبسة جيدة ، يطعمهم طعاماً مغذياً مفيداً هذه الحالة الصحية.

تداول المال بين الناس :

أي بشكل أو بآخر أنا أتمنى أن كل إنسان يساهم بشكل أو بآخر بتقليل القوة الشرائية بأيدي الموظفين هذا يقوم بعمل خطير جداً ، شخص درس و أخذ أعلى شهادة و تعين بمبلغ يكفيه في الأصل ، أما مع التضخم النقدي لم يعد يكفيه ، فإنسان نخبة المجتمع مثقف لا يكفيه معاشه عشرة أيام ماذا سيفعل ؟ سيخلق لكل مواطن مشكلة حتى يأخذ الفرق، هذا الذي يحصل خلق مشكلة لأنه هو مشكلة ، أما حينما تعطيه حاجته فأنا أقول دائماً أعطِ الإنسان حاجته و كرامته و خذ منه كل شيء ، فالآية الكريمة :

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾

[سورة الحشر : 7]

هذا المال ينبغي أن يكون متداولاً بين كل الناس ، أي شيء ثابت أن معظم الثروات في أيدي التجار و الصناعيين ، إن أعفيناهم من زكاة العروض ماذا بقي من الزكاة ؟ أنا لا أبالغ خمسة و تسعون بالمئة من الزكاة تلغى إذا أعفينا التجار من زكاة العروض ، إذاً هذا يتناقض مع مقاصد الشريعة ، يتناقض مع قوله تعالى :

﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾

[سورة الحشر : 7]

يتناقض مع قوله تعالى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة : 103]

وجوب الزكاة في العروض و في النقد :

أعيد و أكرر : فلان غني ، ما معنى غني ؟ عنده ثلاثة عشر بيتاً على المفتاح يريد أن يبيعهم أليس هذا مالاً ؟ فلان عنده مئة طن من الحديد في المنطقة الحرة يريد أن يبيعهم أليس هذا مالاً ؟ فلان عنده ألف طن من الخيط، أو النحاس ، أو الزنك ، أو الفضة ، هذه كلها أموال ، فالعروض مثمنات و أثمانها نقد و كلاهما اسمه مال ، و المال ما تميل إليه النفس و يقتنى و يحتاج إليه ، فخذ من أموالهم لو بقينا في الكتاب ، في القرآن :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

[سورة التوبة : 103]

أي تجب الزكاة في العروض و في الأثمان " النقد " .

شروط زكاة العروض :

أيها الأخوة ، أتمنى في درس قادم أن نتحدث عن شروط زكاة العروض ، ذلك الإنسان عنده حالتان حالة اقتناء و حالة متاجرة ، أنت أحياناً تكون ببلد تجد فازاً جميلاً جداً و رخيصاً ، و عندك بيت واسع ، و أنت ميسور الحال أي أعجبك جداً تشتريه ، أنت لماذا اشتريته ؟ اشتريته لتقتنيه ، حتى تضعه في غرفة الضيوف مثلاً ، هذا لا يوجد عليه زكاة لأن علة شرائه القنية ، إنسان يشتري أحياناً منظراً طبيعياً ، أحياناً يشتري حاجة ، يشتري ساعة معينة ، كل شيء يشترى كي يقتنى و يحتفظ به هذا ليس عروض تجارة ، أحدهم اشترى مركبة ليركبها هذا مستهلكة ، و لكن شخصاً تاجر سيارات مُرْ ، و يوجد تسجيل على سيارات بيعت بمئة و خمسة آلاف ، سعرها مستعملة مليون و نصف بعد عشرين سنة ، ثمنها مستعملة منطلقة مئة ألف مليون و نصف ، لكن شخصاً تاجر سيارات مر يأخذ خمس سيارات بشحمهم يضعهم في مستودع يربح بهم بالعشر سنوات بالمئة ألف أليس كذلك ؟ فإذا أنت أخذت مركبة بنية أن تنتفع بها و أن تبيعها عليها زكاة ، اشتريت منزلاً و ساكناً بمنزل و مُسكن كل ابن بمنزل ، وجدت بيتاً غير مكسو و هو لقطة أي صاحبه باعه مضطراً أنا أشتريه و أكسوه و أربح به بالمئة مئة ، هذه سابقاً ليست الآن ، الآن يخسر به بالمئة مئة ، أنت إذا اشتريت بيتاً كي تبيعه هذا معد للتجارة ، وجدت أرضاً و وجدت عليها تنظيماً و قال لك شخص مقرب : تشتريها بثمن بخس تنظم فتصبح بمئة ضعف ، فهذه الأرض معدة للتجارة ، كل شيء تشتريه للاقتناء لا يوجد عليه زكاة ، أو تشتريه للتجارة هذا هو الحكم ، فلذلك ليس كل شيء ببيتك تنتفع به ، عندك براد ، عندك غسالة ، عندك مروحة ، هذه كلها اشتريتها كي تقتنيها ، إذاً هذه ليست من عروض التجارة ، أما تاجر مراوح عنده مئتا مروحة، تاجر برادات ، تاجر غسالات ، هذه كلها عروض تجارة اشتراها كي يقلبها إلى مال مع الربح ، ثم اشتراها مرة ثانية ليقلبها إلى مال ، تقليب السلع و الأموال فيما بينهم هذه تجارة ، لكن أنا أعتقد أنه يوجد من إخواننا عدد كبير من التجار فلابد من تفاصيل كيف أثمن هذه القيم ؟ و كيف أدفع زكاتها ؟ و متى أدفع زكاتها ؟ و كم هو نصاب زكاتها ؟ إن شاء الله في دروس قادمة نحن في موضوع عروض التجارة ، و فرضية زكاتها ، و أدلة فرضية زكاتها ، و نصابها ، و طريقة تقييمها ، و طريقة توزيع زكاتها قيمة أو عيناً إن شاء الله في درس قادم.

الزكاة على الميزانية :

ورد سؤال لا بأس من أن أجيب عنه ، هل الزكاة تدفع عن الربح أم عن رأس المال و الربح معاً ؟ شيء دقيق ، أنت عندك محل تجاري فيه بضاعة بمليون ، و يوجد بالصندوق مئتا ألف ، و لك ديون بمليونين، و عليك ديون بمليون ، كيف تحسب الزكاة ؟ يوجد بضاعة بمليون ، و يوجد نقد مئتي ألف ، و لك ديون بمليونين ، أصبحوا ثلاثة ملايين و مئتين ، عليك دين مليون أصبح المبلغ مليونين و مئتين هذه الزكاة أي ميزانية ، الزكاة على الميزانية، الميزانية البضاعة زائد الصندوق زائد ما لك مطروح ما عليك الرصيد بالمئة اثنان و نصف، طبعاً يوجد تفاصيل ، و لكن أنا و الله أؤيد أن الإنسان يُقيم ماله برمضان ، أما كل مبلغ بحاله تريد فئة من المحاسبة ، تريد عشرة محاسبين ، جاءك ألفي ليرة مثلاً أو عشرة آلاف، هذا نقص مئتين اختلف الحول الذي له ، هذه لانهاية لها ، أنت تدفع الزكاة برمضان ما عندك في رمضان تدفع عنه الزكاة و انتهى الأمر ، لا يهم هذا المبلغ في أثناء الحول قلّ أو كثر ، بطرفي الحول من رمضان إلى رمضان ، يوجد ألف أدفع عن ألف ، ألفين عن ألفين ، أما تبدل المبالغ في أثناء الحول فعند السادة الأحناف لا يؤثر على نصاب الزكاة .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 23 : زكاة عروض التجارة : كل ما يعد للبيع والشراء بقصد الربح تجب فيه الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا مما يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

زكاة عروض التجارة :

أيها الأخوة الكرام ، لا زلنا في موضوع فقهي تشتد الحاجة إليه ألا وهو زكاة عروض التجارة .

كلكم يعلم أيها الأخوة أن الله سبحانه وتعالى أباح للمسلمين أن يشتغلوا بالتجارة ، وقد قال الله عز وجل :

﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾

[سورة النور : 37]

أي أن التجارة مباحة ، بل إنها أحد أساليب كسب الرزق ، فقد أباح الله للمسلمين العمل بالتجارة وأن يكسبوا أموالهم من خلالها ، قال : بشرط ألا يتجروا بمحرم ، أية سلعة محرمة حرام المتاجرة بها ، وبشرط أنهم إذا تاجروا بسلعة محللة ألا يسلكوا طرقاً محرمة، لذلك العلماء فرقوا بين ما هو حرام لذاته ، وبين ما هو حرام لغيره ، فحينما يأكل الإنسان لحم خنزير هذا محرم لذاته ، أما حينما يدخل إلى مطعم ويأكل لحماً شرعياً مباحاً حلالاً ولا يدفع الثمن فهذا محرم لغيره ، هذا مصطلح فقهي ، شيء محرم لذاته وشيء محرم لغيره ، فالمسلمون حينما أبيحت لهم التجارة بشرط ألا يتجروا بمحرم ، وإنهم وإن تاجروا بشيء حلال مباح شرعي ألا يسلكوا في تجارتهم أساليب محرمة ، كالكذب والتدليس والاحتكار والإيهام والغش ، هذه أساليب محرمة وقد تتبع في تجارة مباحة ، كلا الحالتين حرام ، وقال بشرط أن يعتمد في التجارة العنصر الأخلاقي من صدق وأمانة ووفاء للعهد .

التجارة تكون بأسلوب حلال و بشيء حلال و بتقوى من الله :

قال : التاجر كلمة مؤلفة من أربعة حروف فالتاء تعني تقي ، والألف تعني أمين، والجيم تعني جسور ، والراء تعني رحيم .

بشرط أن يعتمدوا في تجارتهم القيم الخلقية من صدق وأمانة واستقامة ووفاء للعهد وما إلى ذلك ، قال : وبشرط ألا تليهم عن ذكر الله ، لقول الله عز وجل :

﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ﴾

[سورة النور : 37]

أن تتجر بشيء حلال ، وبأسلوب حلال ، وبتقوى من الله عز وجل ، وألا تلهيك هذه التجارة عن ذكر الله ، كتعليق جانبي ورد في بعض الأحاديث : " الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة " .

أي تجارة كبيرة جداً ولا تملك من رأسمالها إلا القليل وأنت مديون لجهات لا تعد ولا تحصى ، هناك برود بالأسواق ، والبيع صعب ، والدفع قليل ، والالتزامات كثيرة ، هذه الهموم قد لا تحتملها ، فلو عشت بمصروف محدود وأنت مرتاح أفضل ألف مرة من أن تعيش بدخل كبير وأنت معذب ، فالاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة ، تجارة أساسها مخالفة القوانين لا تنام الليل ، تجارة أساسها صفقات كبيرة لا تملك من رأسمالها شيء، أي مشكلة ، أي حرب مثلاً ، أي قلق توقف البيع ، وعليك دفع انكشفت ، كان السلف الصالح يتاجر بثلث ماله ، ثلث يدينه للناس ، وثلث بضاعة ، وثلث محفوظ كاحتياط ، والفضل لله عز وجل ، حتى تجار بلاد المسلمين أقل تجار العالم إفلاساً لأن عندهم أساليب شرعية فهم في حفظ الله عز وجل ، وكلكم يعلم أيضاً وأنا أذكركم بشيء بديهي تعلمون جميعاً وكلكم يعلم أيضاً أن الله فرض في الأموال زكاة في النقدين الذهب والفضة ، وما في معنى النقدين ، الورق ، العملة الورقية ، حكمة الشارع الحكيم من فضل الزكاة في العمولات الذهبية والفضية والورقية لئلا تكدس ، لئلا تخزن ، لئلا تكنز ، لئلا يمنع الناس من الانتفاع بها .

المضاربة أعظم سبيل لاستثمار المال :

مرة خطر ببالي مثل ، وإن كان غريباً جداً ، ممكن أن نعمل شيئاً جمالياً بساحة عامة من ورق نقدي ، حجمه كبير ، حوالي ثلاثين متراً ارتفاعه ، شكل هندسي ، كله من عملة ورقية ، أي نلصق مئة مليار مع بعضهم ، هذا العمل واضح أنه عمل سيئ جداً ، جمدت هذه الأموال بمنظر ، لو أنك وزعتها بين الناس أنشئت معامل ،

أنشئت متاجر ، أقيمت مشاريع زراعية ، مشاريع خدمية ، وفرت فرص عمل كثيرة جداً ، اشتغل الناس في هذه المشاريع ، جاءهم دخل تزوجوا ، فتجميد مئة مليار بشكل جمالي بساحة عامة هذا عمل نفس الكنز الذي يكنز ماله ، هناك من ينتفع من هذا المال ويربح منه ، صاحب المال يربح ، لذلك أعظم سبيل لاستثمار المال المضاربة ، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان أول مضارب في الإسلام اتجر بمال خديجة ، أي شيء أكبر من رائع أن إنساناً معه مال ولا يحسن استثماره وإنسان يحسن استثمار المال و ليس معه مال ، فإذا تعاون هذان هذا بماله وهذا بجهده ، الاثنان ربحوا والاثنان عاشوا ، والله عز وجل أمرنا بالتعاون .

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

[سورة المائدة : 2]

لذلك الشارع الحكيم حينما فرض الزكاة في الأموال النقدية في الأثمان في الذهب والفضة والعملة الورقية من أجل ألا تكنز ، من أجل ألا ينتفع الناس بها ، من أجل أن يتعاون الناس فيما بينهم ، ومن أجل ألا تأكلها الزكاة ، وهذا بنص حديث رسول الله ، يقول عليه الصلاة والسلام :

((اتَّجِرُوا فِي أَمْوَالِ الْيَتَامَى لا تَأْكُلُهَا الزَّكَاةُ))

[موطأ مالك عَنْ مَالِك]

الإسلام دين الحياة :

الذي يكنز الذهب والفضة ولا يستثمرها لا بعمل تجاري ، ولا صناعي ، ولا زراعي ، هذا المال يجب أن تؤدى زكاته كل عام ، فبعد أربعين عاماً يتلاشى تقريباً ، هناك حسابات دقيقة حينما يكون معك مال يتيم ينبغي أن تتجر به لئلا تأكله الزكاة ، وينبغي أن تطعم اليتيم لا من أصل ماله بل من ريع المال ، من ربحه ، هذا التعاون، الإسلام دين الحياة، لذلك الحاجة للاستثمار حاجة أساسية في كل مجتمع ، فهؤلاء الذين يستثمرون أموال الناس ولا يتقون الله هؤلاء يساهمون في تقوية مركز المؤسسات الربوية ، هؤلاء يزهدون الناس بالقناة النظيفة المشروعة ، ويقوون مركز المؤسسات الربوية ، وهذا الذي حصل .

زكاة النقود :

أيها الأخوة الكرام ، لذلك ثروات الأمة ولا أبالغ معظمها في التجارة ، معظمها طبعاً في الدول الصناعية ، معظمها في الصناعة ، أي كل بلد له طابع عام ، هناك بلد صناعي ، وهناك بلد زراعي ، وهناك بلد تجاري ، وهناك بلد فيه صناعة وزراعة وتجارة ، لكن هذه الكتلة من المال توظف عادة في الزراعة والصناعة والتجارة ، لكن علماء الاقتصاد يرون أن معظم الأموال تقريباً موظفة في التجارة ، والتجارة كما هو معروف مصدر هائل وكبير لكسب المال ، لذلك شيء بديهي وطبيعي كما ذكرت في الدرس الماضي أن هذه الأموال الطائلة التي وظفت في التجارة انقلبت إلى بضائع ، وأن هذه الأموال الطائلة التي نتجت من بيع هذه البضائع هي تجارة تقليب البضاعة إلى مال والمال إلى بضاعة ، عملية تدوير ، المال يصبح بضاعة ثم البضاعة تباع فتصبح مالاً، ثم يشترى بهذا المال بضاعة فيصبح بضاعة ثم تباع البضاعة فتنقلب إلى مال ، فالتجارة تقليب الثمن والمثمن ، تقليب البضاعة والمال ، وكلما قصرت هذه الدورة كانت التجارة أروج وأربح ، لذلك ليس من العجيب أن يفرض الإسلام في هذه الثروات التجارية ، أو في هذه الأموال الموظفة في التجارة ، أو المستغلة في التجارة والمكتسبة منها زكاة سنوية كزكاة النقود ، لأن هذه البضاعة كالنقود تماماً ، أي ماذا تفهم أنت على البديهة من دون تعقيدات ، ماذا تفهم من كلمة أموال ؟ أي عنده بيوت ، عنده أراض ، عنده مركبات ، عنده أطنان من الحديد ، أطنان من النحاس ، أطنان من الحبوب ، عنده شيء مهم في حياة الناس ملكه كالمال تماماً ، يقلب مالاً متى شاء ، لذلك لا عجب أن يفرض الإسلام زكاة سنوية على هذه الأموال التي سماها الفقهاء عروض التجارة ، العروض جمع عرض أما العِرض فشيء آخر ، العرض جمعه عروض ، أي كل متاع ما سوى النقدين ، ما سوى الذهب والفضة والورق عروض ، الخشب عروض ، الحديد عروض ، القمح عروض ، القمح المعد للبيع في الصوامع ، القطن عروض ، المركبات عروض ، الآلات عروض ، حاجات المنزل بكميات كبيرة جداً عروض ، فالعروض ما سوى النقدين الذهب والفضة وما في معنى الذهب والفضة أي الورق ، أي العملة الورقية .

عروض التجارة :

أيها الأخوة الكرام ، عرف بعضهم عروض التجارة تعريفاً دقيقاً فقال : هي ما يعد للبيع والشراء بقصد الربح . لذلك العلماء فرقوا بين ما يقتنى وبين ما يتاجر به ، أنت قد تمشي في طريق في شارع تجد قطعة جمالية جميلة جداً ورخيصة سعرها معقول ، وأنت عندك بيت واسع ، وتحتاج أن تضع هذه القطعة في هذا البيت ، في غرفة الاستقبال ، تشتريها ، هذه اسمها قنية، أنت اشتريتها لتقتنيها ، كل شيء تشتريه لأحد سببين إما لتقتنيه أو لتتاجر فيه ، أنت حينما تشتري حاجات كي تقتنيها أو كي تستعملها أو كي تنتفع بها هذه لا علاقة لها بالدرس إطلاقاً ، درسنا مُنصب على بضاعة اشتريتها لتبيعها ، اشتريتها بقصد التجارة ، ولو كانت مركبة ، المركبة التي تركبها هذه ليست للتجارة للاستعمال الشخصي ، البيت الذي تشتريه لتسكنه هذا ليس للتجارة أما أنت ساكن في بيت وكل أولادك يسكنون ببيوت لكن وجدت هذا البيت سعره رخيصاً فإذا كسوته تربح به أضعافاً مضاعفة ، فهذا البيت من عروض التجارة ، وعندك مركبة تركبها لكن وجدت مركبة سعرها معقول جداً بعد حين ينتهي الاكتتاب ترتفع الأسعار تبيعها فتربح ، هذه المركبة لو أنك اشتريتها كي تقتنيها لا زكاة فيها ، لكن لأنك اشتريتها كي تتاجر بها أصبحت من عروض التجارة ، أرض اشتريتها بسعر قليل ولا يدري أحد من أهل المنطقة أن هذه الأرض سوف يخترقها شارع ، أنت علمت وكون الشيء حلال أو حرام هذا موضوع ثان ، أما أنت اشتريت أرضاً لا لتزرعها ولا لتبني عليها بيتاً كي تبيعها كما اشتريتها بعد حين فهذه من عروض التجارة ، أي شيء تشتريه كي تبيعه فتربح به أو لا تربح، قد لا تربح به ، أي شيء تشتريه بنية أن تبيعه فتربح به هذا من عروض التجارة ففي الإسلام تجب فيه الزكاة .

لذلك عرف بعضهم عروض التجارة تعريفاً دقيقاً جامعاً مانعاً فقال : هو كل ما يعد للبيع والشراء بقصد الربح ، فمن ملك شيئاً للتجارة وحال عليه الحول وبلغ قيمته نصاب النقود في آخر الحول وجب عليه إخراج زكاته وهو ربع العشر من قيمته أي كزكاة المال تماماً ، اثنان و نصف بالمئة .

وجوب الزكاة في كل مال يكتسبه الإنسان :

أيها الأخوة الكرام ، الدين وحي من السماء ، ولولا الدليل لقال من شاء ما شاء ، ولا يستطيع كائن من كان مهما علا شأنه أن يقول في الدين برأيه ، هذا دين الله ، لا يستطيع كائن من كان مهما علا شأنه أن يقول في الدين برأيه ، أما إن كنت ناقلاً فالصحة مدعياً فالدليل ، الأدلة من القرآن الكريم قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ﴾

[سورة البقرة : 267]

قال الإمام البخاري رحمه الله تعالى في كتاب الزكاة في صحيحه باب صدقة الكسب والتجارة لقوله تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ " أي ما كسبتم من التجارة ، وقال الإمام الطبري في تفسير الآية : لذلك جل ثناؤه زكوا من طيبي ما كسبتم بتصرفكم إما بتجارة أو بصناعة من الذهب والفضة ، وروي من عدة طرق عن مجاهد في قوله " مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ " قال من التجارة " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِن " من للتبعيض " طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ " والكسب هنا من التجارة عند الإمام البخاري و عند الإمام الطبري ، وقال الإمام الجصاص في أحكام القرآن : قد روي عن جماعة من السلف في قوله تعالى : " أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ " أي من التجارات ، منهم الإمام حسن ومجاهد ، وعموم هذه الآية يوجب الصدقة في سائل الأموال لأن قوله تعالى " مَا كَسَبْتُمْ " ينتظمها جميعاً ، أي مال تكسبه فيه زكاة ، كسبته من تجارة فيه زكاة ، كسبته من صناعة فيه زكاة ، كسبته من زراعة فيه زكاة ، وقال الإمام أبو بكر بن العربي في قوله تعالى : " مَا كَسَبْتُمْ " أي التجارة " وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ " أي الزراعة ، الحركة على وجه الأرض تجارة ، نمو النبات في باطن الأرض إلى ظهرها زراعة " مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ " ، " مِمَّا أَخْرَجْنَا " من الفاعل ؟ هو الله عز وجل ، تحقيق ذلك أن الأكساب جمع كسب على قسمين منها ما يكون من بطن الأرض وهو النبات ، ومنها ما يكون من المحاولة على وجه الأرض وهي التجارة .

قال الإمام الرازي رحمه الله تعالى : ظاهر الآية يدل على وجوب الزكاة في كل مال يكتسبه الإنسان ، فيدخل فيه زكاة التجارة ، وزكاة الذهب والفضة ، وزكاة النعم أي الأنعام ، لأن ذلك مما يوصف بأنه مكتسب ، مما يؤكد ذلك قول الله تعالى في أبي لهب :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ*مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾

[سورة المسد : 1-2]

قال علماء التفسير : " مَالُهُ " الذي ورث عن والده " وَمَا كَسَبَ " الذي جمعه من التجارة ، آيات أخرى تؤكد هذه الحقيقة .

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة الذاريات : 19]

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة المعارج : 24 . 25]

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

[سورة التوبة : 103]

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً دليل قوي على وجوب الزكاة في عروض التجارة :

الأموال كل شيء يقتنى ، كل شيء تميل النفس إليه ، كل شيء يدخر ، كل شيء تنتفع به ، هو مال ، قال : ولم يأتِ دليل من كتاب ولا سنة يعفي أموال تجار المسلمين من هذا الحق المعلوم ، بل إن بعض العلماء يقولون: " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً " عام في كل مال، وهذا الذي قلته في الدرس الماضي ، أقوى دليل على وجوب الزكاة في عروض التجارة هذه الآية " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ " عرف ما المال ، الآن كل مشكلتنا تعريف الإرهاب ، عرف الإرهاب تنحل كل مشاكلنا ، الآن عرف المال ينتهي كل شيء ، ما هو المال ؟ ما تميل النفس إليه ، الذي عنده بناية من عشرين طابقاً بالمالكي ، كل طابق أربع شقق ، وكل طابق يباع بخمسين مليوناً ، هذا معه مال أما ما معه مال ، معه مال وفير "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا " قال : كلمة مال عام في كل مال على اختلاف أصنافه وتباين أسمائه واختلاف أغراضه ، فمن أراد أن يخصه بشيء فعليه الدليل ، أعطني دليلاً قطعياً ثابتاً يقول لي : المال يعني الذهب والفضة فقط وأنا معك ، أعطني دليلاً قطعياً ثابتاً يؤكد أن المال يعني حصراً الفضة والذهب .

بل ذهب بعض العرب وهي قبيلة دوس – قبيلة أبي هريرة – إلى أن المال الثياب والمتاع والعروض ولا تسمى العين المنقولة مالاً ، بالعكس المال إذا أطلق ينصرف إلى العروض ، لا إلى النقدين ، هذا دليل جديد ، فقد جاء هذا المعنى في السنة الثابتة من رواية مالك بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : دققوا في هذا الشاهد . خرجنا مع رسول الله ﷺ عام خيبر فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً – الورق هو الفضة – إلا الأموال ، ماذا اغتنمنا ؟ الأموال ، غير الذهب والفضة ، في هذا الشاهد انصرفت الأموال إلى العروض ، المتاع ما ينتفع به لا إلى الأموال ، هذا من كتاب الله عز وجل ، أما من سنة النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو داود بإسناده عن ابن جندب قال :

((كان رسول الله ﷺ يأمرنا أن نخرج الصدقة مما نعد للبيع))

[أبو داوود عن ابن جندب]

والأمر يدل على الوجوب ، لأن المفهوم من قوله ﷺ يأمرنا أنه ألقى إليهم ذلك بصيغة من صيغ الأمر وهي تدل على الوجوب ، كما أن المتبادل من كلمة صدقة أي الزكاة " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً " هذه الآية أصل في الزكاة ، فالزكاة لها اسمان لها اسم الصدقة ولها اسم الزكاة ، وكلا المعنيين رائع جداً ، فسميت الزكاة صدقة لأنها تؤكد صدق إيمانك بالله ، وتؤكد صدق طاعتك له ، وتسمى الصدقة زكاة لأن النفس تزكو بها ، فالزكاة تزكو به النفس، والصدقة تؤكد صدق الإنسان ، قال فإذا عرفت الصدقة بأل ، هذه أل العهد ، انصرفت إلى الزكاة ، تقول: جاء أمير ، من ؟ لا أعرف ، إذا قلت : جاء الأمير ، أمير البلد ، الأمير معرف بأل هذه أل العهد ، المعروف بيننا ، حينما تعرّف النكرة تنقلب إلى معرفة .

((عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : في الإبل صدقتها وفي الغنم صدقتها وفي البقر صدقتها وفي البز صدقتها . . .))

[البيهقي عن أبي ذر رضي الله عنه]

الثياب والمتاع حاجات المنزل الأجهزة الأثاث السجاد الثريات ، في الإبل صدقتها وفي الغنم صدقتها ، وفي البز صدقته ، والبز كما في القاموس الثياب أو متاع البيت من الثياب ونحوها ، فهو يشمل الأقمشة والمفروشات والأواني ونحو ذلك ، لكن الصدقة لا تجب في عين هذه الأشياء إلا إذا كانت للتجارة ، أما إذا كانت للاستمتاع والانتفاع الشخصي فعندئذٍ تخرج عن موضوع درسنا أصبحت قنية ، وهناك أحاديث عامة واضحة جداً . يقول عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي في أول كتاب الزكاة والحديث حسن صحيح :

((أدوا زكاة أموالكم من غير فصل بين مال ومال))

[الترمذي]

والمطلق في النصوص القطعية على إطلاقه ، قال بعض العلماء : على أن مال التجارة أعمّ الأموال لأنه يشمل كل مال يتجر فيه من حيوان ، وحبوب ، وثمار ، وسلاح، ومتاع وغير ذلك ، فكان أولى بالدخول في عموم هذه النصوص كما قال بعض العلماء ، تحدثنا عن الكتاب وعن السنة .

إجماع الصحابة على وجوب الزكاة في عروض التجارة :

الآن عن إجماع الصحابة ؛ ومن هدي الصحابة رضي الله عنهم ما رواه أبو عبيد بسنده عن عبد القاري قال : كنت على بيت المال زمن عمر بن الخطاب فكان إذا خرج للعطاء جمع أموال التجار ثم حسب شاهدها وغائبها،

ثم أخذ الزكاة من شاهد المال على الشاهد والغائب .

وعن أبي عمرو عن أبيه قال : مرّ بي عمر فقال : أدِّ زكاة مالك ؟ فقلت : ما لي مال إلا جعاب وأُدم ، فقال : قومها قيمة ثم أدّ زكاتها ، والجعاب جمع جعبة وهي ما يوضع فيها السهام ونحوها ، والأُدم جمع أديم وهو الجلد.

قال في المغني تعقيباً على هذا الأمر وهذه قصة يشتهر مثلها ولم تنكر ؛ أي لم ينكر هذا الحكم أحد من الصحابة ، فكانت إجماعاً ، سيدنا عمر هكذا أمر وما أنكر أحد من أصحاب النبي هذا الكلام إذاً أصبحت إجماعاً .

روى أبو عبيد عن ابن عمر : ما كان من رقيق أو بز يراد به التجار ففيه الزكاة.

وروى البيهقي وابن حزم عنه فقال : ليس في العروض زكاة إلا أن تكون لتجارة .

ليس في العروض – أي البضائع – زكاة إلا أن تكون لتجارة ، قال ابن حزم وهذا خبر صحيح .

وروى أبو عبيد : وجوب الزكاة ، زكاة التجارة عن ابن عباس أيضاً ، ولم ينقل عن واحد من الصحابة ما يخالف قول عمر وابنه وابن عباس رضي الله عنهم ، بل استمر العمل والفتوى على ذلك في عهد التابعين ، وقد نقل ما صح عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى أحد عماله : انظر من مر بك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم مما يديرون من التجارات في كل أربعين ديناراً ديناراً وما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشرين ديناراً، وكذلك أتفق فقهاء التابعين من بعدهم على القول بوجوب الزكاة في أموال التجارة .

قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن في العروض التي يراد بها التجارة الزكاة إذا حال عليها الحول ، روى ذلك عن عمر وابنه وابن عباس ، وبه قال الفقهاء السبعة والحسن وجابر بن زيد وميمون وطاووس والنخعي والثوري والأوزاعي والشافعي وأبو عبيد وإسحاق وأصحاب الرأي .

أيها الأخوة الكرام ، كل هذا يؤكد لكم أن الزكاة واجبة في عروض التجارة ، وقد أجمع المسلمون على أن الزكاة فرض واجب فيها ومع أنه ذكر قولاً آخر لم ينسبه لقائل فقد قال : وأما القول الآخر كالرأي الآخر أي ليس في عروض التجارة زكاة ، وأما القول الآخر فليس من مذاهب أهل العلم عندنا .

تلخيص لما سبق :

لا بد من أن نلخص هذا الذي قلته قال : وأما الزكاة فواجبة في العروض من أربعة أدلة ، تلخيص الآن ، الأول قول الله عز وجل : " خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً " وهذا عام في كل مال ، هذا أقوى دليل ، والثاني أن عمر بن عبد

العزيز كتب في أخذ الزكاة في العروض والملأ الملأ الوقت الوقت ، بيد أنه استشار واستخار ، أي حوله مؤمنون كبار ملأ من قوم كبار حوله ما أنكروا عليه ، والوقت قريب من عهد النبوة ، الملأ الملأ الوقت الوقت ، بيد أنه ستشار واستخار وحكم بذلك على الأمة وقضى به فارتفع الخلاف بحكمه ، هذا الدليل الثاني، والدليل الثالث أن عمر بن الخطاب رحمه الله تعالى قد أخذها قبله في صحيح من رواية أنس والقول الرابع أن أبا داود ذكر عن سمرة بن جندب أن النبي ﷺ كان يأمرنا أن نخرج الزكاة مما نعد للبيع ولم يصح به خلاف عن السلف ، وقال الخطابي وزعم بعض المتأخرين من أهل الظاهر أنه لا زكاة فيها وهو مسبوق بالإجماع .

العروض المتخذة للتجارة مال بالقياس :

تحدثنا عن أدلة الكتاب وعن أدلة السنة وعن أدلة الإجماع بقي القياس ، أما القياس فإن العروض المتخذة للتجارة مال بالقياس ، مقصود به التنمية ، مال مقصود به التنمية فأشبه الأجناس الثلاث التي فيها الزكاة باتفاق، أعني الحرث والماشية والذهب والفضة، وأما من جهة النظر والاعتبار المستند إلى قواعد الإسلام وروحه فإن عروض التجارة المتداولة للاستغلال نقود معنىً ، لا فرق بينها وبين الدراهم والدنانير التي هي أثمانها إلا في كون النصاب يتقلب ويتغير بين الثمن وهو النقد والمثمن وهو العروض ، هذا النصاب إما أن يكون نقداً أو بضاعة ، النصاب يتقلب بين النقد والبضاعة ، فلو لم تجب الزكاة في التجارة لأمكن لجميع الأغنياء أو أكثرهم أن يتجروا بنقودهم ويتحروا ألا يحول الحول على نصاب في النقدين ، لذلك تعطل الزكاة ، أي أكبر مؤسسة تجارية وأكبر مؤسسة صناعية لا يلتقي في الصندوق مئة ألف ، كلها بضائع وديون أليس كذلك ؟ فلو صرفت النظر عن زكاة العروض لألغيت الزكاة كلياً .

الغرض من الزكاة :

إن التجار كما يقول بعض المؤلفين : إن التجار في عصرنا على أساس التاء تقي والألف أمين ؟ لا ، بل على أساس ثان ، قال : إن التجار في عصرنا دون قصد منهم يسعون إلى الفرار من الزكاة ، يريد أن يحل كل مشاكل أهله وأولاده بالزكاة ، ويدفع الضريبة من الزكاة ، وإذا عليه غرامة من الزكاة ، يتمنى أن يحل كل مشكلاته ، و عنده مليون دين ميت من الزكاة ، يقلبها إلى زكاة ، من دون – كما يقول العوام – قصد منهم يسعون إلى الفرار من الزكاة ، قلّما توجد لديهم نقود عينة يحول عليها الحول ، فمعظم التعامل التجاري الآن يتم

بغير تقابض ، ورأس الاعتبار في المسألة كما قال بعض العلماء : إن الله تعالى فرض في أموال الأغنياء صدقة لمواساة الفقراء ومن في معناهم ، وإقامة مصالح المسلمين ، وإن الفائدة في ذلك للأغنياء تطهير أنفسهم من رذيلة البخل وتربيتهم بفضائل الرحمة للفقراء و سائل الأصحاب المستحقين ، ومساعدة الأمة على إقامة المصالح العامة والفائدة للفقراء وغيرهم إعانتهم على نوائب الدهر مع ما في ذلك من سد ذريعة المفاسد ، ماذا قال الشافعي؟ يقول بعضهم الزكاة عبادة ، الإمام الشافعي يقول : العبادات متعلقة بمصالح الخلق ، ماذا قال بعض كبار العلماء ؟ الشريعة مصلحة كلها ، رحمة كلها ، حكمة كلها ، عدل كلها ، فأية قضية خرجت من العدل إلى القسوة ، من العدل إلى الجور ، من الرحمة إلى القسوة ، ومن المصلحة إلى المفسدة ، فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل .

يقول لك : إن هذه البضاعة قد بعتها ، لكن المال بعد يومين اشتريت فيه بضاعة ثانية هناك كلام مقبول ، هذه البضاعة ملكك بعتها ، إذاً ماذا يفعل التاجر ؟ هل من الممكن تاجر يدع بصندوقه الحديد ثمن بضاعة لمدة سنة، ولا يومين ولا ساعة ، باع يشتري ، دائماً عنده بضاعة ، وصندوقه خاوي ، وعلامة نجاحه بالتجارة صندوقه لا يوجد به مال ، أما متى تجب الزكاة في ثمن البضاعة إذا باعها ؟ إذا حال عليه الحول ، هل هناك تاجر في الأرض يبيع بضاعة ويضع ثمنها في الصندوق سنة بأكملها حتى يحول عليه الحول ؟ مستحيل هذا مستحيل ، أي إذا تصورنا أنه الزكاة ليست في العروض أنا لا أبالغ تهبط من ألف لواحد ، من مليون لواحد ، ثم إن أحوج الناس إلى تطهير أنفسهم وأموالهم وتزكيتها هم التجار ، فإن طرائق كسبهم لا تسلم من شوائب وشبهات، ولا يسلم من غوائبها إلا الورع الصدوق الأمين، ولاسيما في العصور المتأخرة ، وقد جاء في بعض الأحاديث :

((إن التجار يبعثون يوم القيامة فجاراً إلا من اتقى الله وبر وصدق))

[الترمذي عن إسماعيل بن عبيد بن رفاعة عن أبيه عن جده]

وفي حديث آخر :

((إن التجار هم الفجار ، قالوا يا رسول الله أليس قد أحل الله البيع ؟ قال : بلى ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويحدثون فيكذبون))

[أحمد والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن شبل]

هذا الوجه الآخر ، أما التاجر الصدوق فمع من ؟ مع النبيين والصديقين يوم القيامة ، أي التعميم من العمى ، من العمى أن تعمم ، والله هناك تجار تشتهي أن تكون مثلهم بورعهم ، وتواضعهم ، وسخائهم ، وإنفاقهم ، وتوظيف أموالهم في الحق ، وهناك تجار والله لا تشتهي أن تكون منهم ولو عضضت على أصبعك من الجوع لا تشتهي أن تكون مثلهم ، لؤم، خسة ، مادية ، تطلع إلى ما عند الآخرين ، حسد ، إلخ . . . . .

لذلك قيل إن نفس التاجر وماله أحوج من أي شيء آخر إلى التزكية والتطهير ، وفي هذا روى أبو داود بسنده عن قيس بن أبي غرزة قال : مر بنا النبي عليه الصلاة والسلام فقال :

((يا معشر التجار إن البيع يحضره اللغو والحلف فشوبوه بالصدقة))

[أبو داود عن قيس بن أبي غرزة]

أيها الأخوة الكرام ، هذا بعض ما في الكتب المعتمدة عن زكاة عروض التجارة أتيتكم بأدلة من القرآن ومن السنة ومن إجماع الصحابة ومن القياس ، وقد يرد بعض الأحاديث أقل من الصحة لكن ضعاف الأحاديث تقوي بعضها بعضاً كما يقول علماء الأحاديث .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 24: كيفية إخراج الزكاة عن العروض التجارية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الحكمة من تحريك الله قضية الرزق و قضية الصحة :

أيها الأخوة المؤمنون ، شاءت حكمة الله أن يثبت ملايين الأشياء على حالها في الحياة الدنيا – هذا ذكرته لكم كثيراً – كدورة الأفلاك ثابتة ، خصائص المواد ثابتة ، خصائص البذور ثابتة ، قوانين الفيزياء والكيمياء والرياضيات والفلك كلها ثابتة ، لكن شاءت حكمة الله أن يحرك قضية الرزق وقضية الصحة ، كان من الممكن أن يكون الرزق ثابتاً ووفيراً ، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ ﴾

[سورة الشورى: 27]

حكمة الله أن يربينا ، أن يلفتنا إليه ، أن يسوقنا إلى بابه ، أن يحملنا على التوبة ، فكانت قضية الأرزاق المتفاوتة وقضية المرض أيضاً ، الإنسان حريص حرصاً لا حدود له على سلامته ، وعلى رزقه ، فسلامته ليست مضمونةً ، هناك أمراض لا تعد ولا تحصى وأي مرض يجعل حياة الإنسان جحيماً لا يطاق ، ونحن ننعم بنعم في صحتنا لا تعد ولا تحصى يكفي أنك تمشي ، تسمع ، تبصر ، تنطق ، يكفي أن عقلاً في رأسك ولولا هذا ، والله مرة كنا في حفل في غوطة دمشق حفل مولد ، حشر لهذا الحفل إمكانيات كبيرة جداً في أضخم ساحة ودعي جميع علماء دمشق والورود والزهور والمقدمون وعرفاء الحفل ، شخص مجنون أفسد على الناس هذا الحفل ، كلمات بذيئة جداً ، صوت عالٍ جداً ، وقوة عضلية والعياذ بالله ، بعد أن انتهى الحفل كأنني سألت نفسي يا رب لماذا هذا؟ شعرت أنه لولا بعض هؤلاء لما عرفنا نعمة العقل ، العاقل متوازن ، كلامه مضبوط ، حركاته مضبوطة ، يسكت في الوقت المناسب ، يتكلم في الوقت المناسب ، يعتذر أحياناً يدخل يخرج ، أما إذا

لم يكن له عقل في رأسه فالعياذ بالله .

فهناك أشياء ثابتة لا تعد ولا تحصى ، ولكن شاءت حكمة الله أن تكون الصحة متبدلة وأن يكون الرزق متبدلاً ، لكن هناك ملمحاً قد لا ننتبه إليه إطلاقاً التفاوت في الأرزاق يخلق مجالات للعمل الصالح لا تعد ولا تحصى ، تصور مجتمعاً كله أغنياء ، أحياناً تعيش في بلد غربي ترى الترف عام ، الغنى عام ، تقاطع اجتماعي لا يحتمل، استعلاء لا يحتمل، لا يوجد أي عمل صالح بين هؤلاء ، فقير مؤمن أنت تعطيه فترقى إلى الله هو يأخذ فيشكر .

أحياناً موضوع آخر تفاوت الأرزاق يعمل فرصاً للأعمال الصالحة لا تعد ولا تحصى ، غني له قريب فقير زاره وأكرمه وأعطاه زكاة ماله ، جاءه بهدايا ، ترى الغني عشرة أيام وهو غارق بسعادة ، والفقير يشكر الله عز وجل ، إذاً شاءت حكمة الله طبعاً هذا اجتهاد شخصي ، تفاوت الأرزاق يخلق فرصاً للعمل الصالح لا تعد ولا تحصى ، أيضاً تفاوت الصحة تخلق فرصاً للعمل الصالح ، من حوله يرعاه يخدمه يأتيه بالدواء أيضاً شيء رائع جداً .

نظام الزكاة حلّ تفاوت الأرزاق :

تفاوت الأرزاق وتفاوت الصحة له حكمة بالغة لكن تفاوت الأرزاق كيف حل في الإسلام ؟ الحل كما يسمى الاقتصادي حل عن طريق الزكاة ، وهناك في بعض أحاديث رسول الله ﷺ يشير إلى ذلك ، قال: " وما جاع فقير إلا بتقصير الغني " ، وقال:

((تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم))

[البخاري عن ابن عباس]

وما افتقر فقير إلا بتقصير الغني ، نحن نعيش مع أهل الإيمان ، وأهل الإيمان كلهم يدفعون أموال زكاتهم ، ولكن معي معلومات دقيقة أن الذين يدفعون زكاة أموالهم من بين الأغنياء عامةً خمسة بالمئة فقط بينما لو دفع كل الأغنياء زكاة أموالهم وأنفقت على مشاريع وفرت فرص عمل لما وجدت فقيراً ، هناك مقولة رائعة أن الإسلام أغنى الفقراء ، هل تصدقون في عهد عمر بن عبد العزيز كان الرجل يحمل زكاة ماله ويمشي أياماً يبحث عمن يتفضل بأخذها عليه لا يجد ، هل هذا قليل أن إنساناً يطوف أياماً يبحث عن فقير يعطيه زكاة ماله فلا يجد !! الحل الإلهي ، النظام الاقتصادي في تغطية حاجة الفقراء من أموال الأغنياء نظام الزكاة .

صور تجارة العروض :

في درس سابق تحدثت عن عروض التجارة ، وبينت الأدلة القرآنية والنبوية والقياسية والإجماعية على وجوب الزكاة في عروض التجارة ، الدرس الثاني هذا حول طريقة تزكية التاجر ثروته التجارية كيف ؟ قيل : الثروة التي يستغلها التاجر في تجارته لا تخلو عن أن تتخذ صوراً أو أكثر من هذه الصور ، إما أن تكون ثروته التجارية بضاعةً اشتراها ولم يبعها بعد وجاء رمضان ، هذه أول حالة ، هذا عنده ثلاثة آلاف قماش ، فلان عنده خمسة طن حديد ، فلان عنده مثلاً مئة متر مكعب خشب زان ، كل تاجر بحسب بضاعته ، قد يأتي رمضان يأتي موسم دفع الزكاة ويوجد بضاعة اشتراها ولم يبعها بعد ، هذه أول صورة .

الصورة الثانية أن يفتح صندوقه الحديدي ، في هذا الصندوق مال سائل عملة قديماً ذهب وفضة وحديثاً ورق عملة سورية وغير سورية ، يوجد معه مال سائل ، هذا البند الثاني ، هذه الصورة الثانية من صور ثروته .

البند الثالث له عند عملائه وزبائنه وتجاره الذين يتعاملون معه ديون ، لا يوجد تاجر ليس له في السوق ديون كثيرة جداً ، لكن بالمناسب هذه اسمها ديون تجارية ويوجد ديون أخرى ، الدين التجاري يدخل في عروض التجارة.

بضاعة اشتريتها ولم تبعها ودخل موسم الزكاة ونقد سائل في الصندوق وديون لك عند بعض الناس ، هذه الديون التي عند بعض الناس على نوعين ؛ نوع مرجو التحصيل، ونوع ميئوس منه ، أي ميئوس أن تحصّل هذا الدين منه ، وقد قال بعضهم: الدين هالك إلا ما رده الله .

يوجد بند رابع أن هذا التاجر قد يكون عليه دين لشركات أخرى ، فصار بضاعة ومالاً ، دين لي ، ودين عليّ ، هذه صور تجارة العروض ، كلمة يستخدمها الأخوة التجار ميزانية ، هذه الميزانية تقييم بضاعتك مع المال السائل الذي في حوزتك مضافاً إليه مالك عند الناس من ديون مطروح من هذا المجموع ما عليك للناس من ديون ، هذا الرقم هو رقم الميزانية ودخل في الميزانية رأس المال مع الربح ضمناً ، أنت عندك بضاعة وعندك مال ولك ديون هذا يشكل رأسمالك زائد الربح .

طريقة تزكية التاجر ثروته التجارية :

فكيف يخرج المسلم زكاة عروضه التجارية أو زكاة تجارته ؟ أحد التابعين الأجلاء ميمون بن مهران يقول : إذا حلت عليك الزكاة فانظر ما كان عندك من نقد أو عرض فقومه قيمة النقد . فلان يملك عشرين متراً من الخشب

الزان ، صمن المتر أربعون ألفاً ضرب عشرين ، ثمانمئة ألف ، يقيّم البضاعة بقيمتها يضيف إليها المال السائل يضيف إليها ماله عند الزبائن يطرح منها ما عليه لبعض الناس ، الرقم هذا اسمه الميزانية داخل في رأس المال والربح بآن واحد . فقال: إذا حلت عليك الزكاة فانظر ما كان عندك من نقد أو عرض فقومه قيمة النقد ، وما كان من دين في ملأ فاحسبه– ملأ أي غني باذل – ثم اطرح منه ما كان عليك من الدين ثم زكي الباقي زكاةً تشبه زكاة النقدين ، اثنان ونصف بالمئة بشرط أن يحول الحول ، وأن تخلو الذمة من الحاجات الأساسية التي تستخدمها .

وقال الحسن البصري : إذا حضر الشهر الذي وقت الرجل أن يؤدي فيه زكاته أدى عن كل مال له ، أي من النقد ، وكل ما ابتاع من التجارة ، وكل دين إلا ما كان منه ضماراً لا يرجى . كلام الحسن البصري هذا سيد التابعين ، أي تجمع ما عندك من مال وما عندك من بضاعة ومالك من دين إلا الدين الذي لا ترجو أن تأخذه هذا لا تحسبه .

وقال بعض العلماء : يقيّم الرجل متاعه إذا كان بالتجارة إذا حلت عليه الزكاة فيزكيه مع ماله ، يقيّم متاعه ، ويقيّم بضاعته ، يقيّم عروض التجارة . ومن أقوال هؤلاء الأئمة يتضح أن على التاجر المسلم إذا حلّ موعد الزكاة أن يضم ماله بعضه إلى بعض رأس المال والأرباح والمدخرات والديون المرجوة فيقوم بجرد تجارته . أخ سألني سؤالاً قال لي : يا أستاذ أنا والله لا يوجد عندي وقت لأعمل جرداً للبضاعة ، عندي بضاعة جردها يحتاج إلى أشهر ، أنا من فضل الله لا أضيع حق الفقير أقدرها تقديراً وأقدرها مرة ونصف عن قيمتها الحقيقية وهو بهذا يظن أنه نجح قلت له : لا يجوز ، قال: كيف ؟ إذا أنت تقوّم بضاعتك تقييماً كيفياً من دون عد بما يساوي مرة ونصف عن قيمتها الحقيقية لو سمحنا بهذه الطريقة ترى تسعين تاجراً ثانياً يقيمها بربع قيمتها الحقيقية والله لا يوجد عندي شيء ، قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾

[سورة المعارج: 24]

معلوم أي لابد من جرد حقيقي ، أما الصدقة فقال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ* لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة المعارج: 24-25]

الله ما قال معلوم ، حينما قال معلوم ينبغي أن تجرد لأنه لو وجد إنسان يقيم البضاعة تقييماً كيفياً مرة ونصف زيادة سوف يوجد إنسان أو سوف يوجد مئات الأشخاص الذين يقيّمون البضاعة تقييماً كيفياً بنصف قيمتها الحقيقي ، أنت بشكل لا شعوري ادخل إلى نجار يبيع غرف نوم ، يوجد غرفة جميلة جداً ثمنها مئة ألف مثلاً ، قلت له : هذه سريران أنا أريد سريراً واحداً ، يقول لك : أخصم لك ثلاثة آلاف تقريباً ، ادخل إلى تاجر آخر عنده غرفة نوم بسرير واحد قل له أريد اثنين يقول لك: أريد عشرين ألفاً زيادة ، لماذا بالخصم ثلاثة آلاف وبالإضافة عشرين ألفاً ؟ الإنسان دون أن يشعر إذا شيء له يكبر الرقم . اذهب إلى سوق السيارات اعرض سيارة تجد رقماً غير معقول اطلب مثلها رقم غير معقول لماذا بالعرض الرقم غير معقول وبالشراء الرقم غير معقول ؟ لا يوجد إنصاف إذا سمحنا أن نقيم البضاعة تقييماً عشوائياً كيفياً من دون عد ترى معظم الناس قيموا بضاعتهم أقل من النصف بكثير لذلك قال تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴾

[سورة المعارج: 24]

الفرق بين المضاربة و الربا :

الآن هذا الذي يفعله معظم التجار وهم من رواد المساجد ولهم شيوخ يقبلون أموال استثمار بربح ثابت ، أنا لا يوجد عندي حسابات وأحب أن أكون مرتاحاً أعطيك على المئة ألف ألفين في الشهر مثلاً ، هذا ربا شئت أم أبيت ، هذا ربا صريح ، فرق الاستثمار الحر الشرعي المضاربة عن الربا أن الاستثمار فيه ربح وفيه خسارة من هنا حلية الربح أنه يوجد مقابله خسارة ، يوجد مغامرة ، أما المرابي فلا يطلب طبعاً ربحه ثابت ، لذلك سبحان الله ترى التاجر يقول : يا جبار ، المزارع يقول : يا رب أغثنا ، أما الذي له أموال في البنوك فلا يسأل ، لا يوجد عنده مشكلة ، أرباحه ثابتة بالمئة ثمانية بشكل آلي ، أما الأعمال الحرة ففيها شيء من التوكل ، شيء من الدعاء .

الدّين المماطل فيه ليس عليه زكاة حتى يعود :

لك دين ميت عند إنسان لا يملك رد الدين أو مماطل أو يريد أن يأكل هذا المال باطلاً ، هذا الدين ليس عليه زكاة ، لكن لو جاءك هذا الدين لو تاب صاحبه وحالات كثيرة جداً إنسان ناكر دين تاب إلى الله تجده يؤدي هذا

الدين ، لي قريب توفي رحمه الله عنده محل يبيع حلويات قال لي : دخل رجل إلى عندي ألقى ظرفاً ورجع فتحت الظرف منذ ثلاث وعشرين سنة أكل قطعة كاتو و لم يدفع ثمنها لما استيقظ ، لما تاب إلى الله ، لما اصطلح مع الله ، شعر أن عليه ديناً ولكن كان ثمنها عشرة قروش لما أكلها الآن ثمنها عشر ليرات ما سألته كم دفع له ؟ أخ عنده معمل قال لي : أفتقد بضاعة ، أفتقد مالاً ، أضع بجيبي مالاً أفتقده ، ليس لي هم إلا أن أكشف من هو اللص قال لي : استعنت بأشخاص متفرغين لمراقبة المعمل ما كشفناه ، قال لي: مرة مال ، مرة بضاعة ، وبعد عشرين سنة زارني إنسان له مظهر ديني قال له : أنا كنت أشتغل عندك ، وكنت آخذ من مالك ، ومن بضاعتك ، وتبت إلى الله فهل تأذن لي أن أدفع لك كل ما أخذته منك ، وثمن البضاعة التي أخذتها ظلماً وعدواناً ، قال له: والله أنا أسامحك من كل أعماقي مقابل هذه التوبة ، وإن شئت فأنا جاهز أن تكون عندي في المعمل مرة ثانية .

إذا إنسان اصطلح مع الله ، لماذا الحياة نعمة ؟ تحل بها كل المشكلات يمكن أن ترد كل شيء إلى صاحبه .

المقتنيات لا زكاة فيها :

السؤال الآن بأي سعر تقيّم سلع التجارة عند إخراج الزكاة ؟ طبعاً يوجد في المحل رفوف ، يوجد أوان ، يوجد قدور ، يوجد صحون ، هذا الشيء التي تعرض به البضاعة من أثاث المحل لا يقيم ، كل محل له وسائل لعرض البضاعة فلا تقوم الأواني التي توضع فيها سلع التجارة ، ولا الأقفاص ، ولا الموازين ولا الآلات ، المنوال، المنشار ، القدوم ، المحراث ، الدولاب ، هذه كلها وسائل ، فالمحل التجاري والعدة وآلات الحرفة والخزن والرفوف وما إلى ذلك هذه تعد من المستهلكات أو من الثوابت التي لا تقيّم فيها الزكاة .

قال: المعتبر في رأسمال التجارة الذي يجب تزكيته هو المال السائل أو رأس المال المتداول ، أما المباني والأثاث الثابت للمحلات التجارية ونحوه مما لا يباع ولا يحرك فلا يحتسب عند التقويم ولا تخرج عنه الزكاة . فقد ذكر الفقهاء أن المراد في عرض التجارة هو ما يعد للبيع والشراء لأجل الربح ، عروض التجارة ما يعد للبيع والشراء من أجل الربح بدليل حديث سمرة:

((كان عليه الصلاة والسلام يأمرنا أن نخرج الصدقة مما نعده للبيع))

[أبو داود عن سمرة بن جندب]

إذاً لا تقيّم الأواني التي توضع فيها سلع التجارة ولا الأقفاص ولا الموازين ولا الآلات وما إلى ذلك ويوجد تفصيل لطيف ، قال: في الأواني التي توضع فيها عروض التجارة كقوارير العطارين والأكياس الذي يستعملها تجار الحبوب والسروجي والجم التي يستعملها تجار الخيل إن أريد بيعها مع هذه الأشياء فهي مال للتجارة ، أنت عندك فرضاً بضاعة غير معبأة ، وعندك علب لها ، ولكن هذه العلب توضع فيها البضاعة وتسلم للشاري، الأواني الثابتة في المحل هذه ليس لها علاقة بالزكاة ، أما العلب المعدة لتعليب هذه البضاعة فهذه يزكى عنها ، لأنها من لوازم عروض التجارة .

هذه الأواني إن أريد بيعها مع هذه الأشياء فهي من عروض التجارة ، وإن لم يرد بيعها لا تعد من عروض التجارة ، بالمناسبة دائماً العلماء فرقوا بين شيء تقتنيه وشيء تتاجر به ، المقتنيات لا زكاة فيها .

تُقيّم التجارة عند إخراج الزكاة بالسعر الحالي :

قال: بأي سعر تقيّم سلع التجارة عند إخراج الزكاة ؟ المشهور أنها تقوم بالسعر الحالي التي تباع به السلعة في السوق عند وجوب الزكاة ، وقد جاء عن جابر بن زيد من التابعين في عرض يراد به التجارة قال : قيمه بنحو من ثمنه يوم حلت به الزكاة ثم أخرج زكاته . وهذا قول معظم الفقهاء ، يقيّم بالسعر الذي يباع فيه وقت أداء الزكاة ، أي سعر السوق ، لكن العلماء دققوا بسعر الجملة والمفرق ، أنت تاجر جملة تبيع بالجملة فلذلك الحكم الشرعي أن تقيمها بسعر المبيع جملةً ، يوجد رأي آخر لابن عباس رحمه الله تعالى ورضي عنه قال : لابأس بالتربص حتى تباع وعندئذٍ تزكى ، إذا بضاعة تباع خلال يومين أو ثلاثة أو أسبوع نبيعها ونزكي عنها أما إذا كان كاسياً بيتاً فتقدر .

وقال بعض العلماء: إن بعض الفقهاء قالوا : يزكي الثمن الذي اشترى به السلعة لا قيمتها ، لكن المشكلة إذا زكيت بثمن الشراء أحياناً تهبط الأسعار ، حدثني أخ كريم قال لي والله عندي بضاعة أرقامها فلكية ، اشترى الكيلو بمئتين لا يوجد من يدفع عشر ليرات في الكيلو في هذه الحالة إذا ألزمناك بثمن الشراء يوجد مشكلة كبيرة جداً ، وإذا قلنا : سعر الكلفة أيضاً يوجد مشكلة ، لذلك رأي العلماء البضاعة تقيّم بسعر بيعها قد يرتفع ثمنها فإذا ارتفع ثمنها هذا لصالح الفقراء ، وقد يقل ثمنها بكم ؟ بسعر السوق يكون عدلاً ، يوجد رأي وجدته في بعض الموسوعات الفقهية هو السعر التبادلي ، أي أنت تبيع هذه البضاعة لو أردت أن تشتري من مصدرها ما يساويها كم تدفع ؟ سعر أن تعيد البضاعة إلى مكانها ، أي سعر الشراء ، على كلّ القضية فيها خلاف الأقوى أن تقيّم

بسعر المبيع .

دفع الزكاة عيناً أو نقداً لصالح الفقير :

يوجد عندنا سؤال آخر التاجر هل يخرج زكاته من عين السلعة أم من قيمتها ؟ مقبول التاجر أن يقدم زكاته من بضاعته أم من المال ؟ قال : بعد تقييم السلع التجارية كما ذكرنا بقي أن نعرف مم يخرج التاجر زكاته ؟ هل يجوز أن يخرجها جزءاً من البضاعة التي عنده أم يخرجها نقوداً بقيمة الواجب ؟ هناك عدة أقوال ؛ القول الأول : يرى أبو حنيفة والشافعي في أحد أقواله أن التاجر مخير بين إخراج الزكاة من قيمة السلعة وبين إخراجها من عينها ، لكن أنا أقول لكم كلمة دقيقة فيما أرى أنه لا يجوز أن تؤدي زكاة مالك من بضاعتك إلا إذا كانت بضاعتك نافعةً للفقراء ، إذا إنسان عنده معمل نكاشات أسنان مثلاً ممكن أن يؤدي زكاة ماله هذه النكاشات ؟ الفقير ما أكل لحمة حتى ينكش أسنانه لا يوجد شيء ، يوجد بضائع ثانوية ، إنسان قال لي : سأدفع زكاة مالي نيونات ما هذا الكلام ؟ هل يوجد بيت لا يوجد به نيون ؟ على العيد خذ هذه العشر نيونات زكاة مالي ، شيء مضحك ، لا يجوز أن تقدم زكاة المال من بضاعتك إلا إذا كانت بضاعتك أساسية في حياة الفقير ، قد يقدم ثياباً في الشتاء جوخ جيد ، قد يقدم مواداً غذائية جيدة .

يرى أبو حنيفة والشافعي رحمهم الله تعالى أن التاجر مخير بين إخراج الزكاة من قيمة السلعة أو إخراجها من عينها ، فإذا كان التاجر تاجر ثياب يجوز أن يخرج من الثياب نفسها لكن يوجد ثياب سابغة ، يوجد ثياب تلبس في مناسبات نادرة جداً ، إنسانة فقيرة تريد أن ترتدي ثياباً طوال الشتاء تعطيها بذلة عرس فرضاً أيضاً مستحيلة ، يوجد حكمة ، صدقوني ولا أبالغ أن بعضهم سامحه الله قدم زكاة ماله أحذية كل نمرة شكل ، أربعة وأربعون واثنان و أربعون ، هل تستطيع أن تؤدي هذا لإنسان ؟ قضية رفع عتب وقضية سقط الوجوب وإن لم يحصل المطلوب .

أول رأي : يجوز أن تخرجها عيناً ويجوز أن تخرجها نقداً ، يوجد رأي آخر قال: يجب إخراج الزكاة من قيم السلعة لا من عينها ، الحقيقة المال أيسر ، قد تأتيك زكاة لست بحاجة إليها ، أحياناً دعك من الزكاة تقدم لك قطعة قماش هدية والله جيدة لكن الخياطة تأخذ خمسة آلاف ليرة ، أو لا يوجد خياطة ، الآن تأخذ ثوباً جاهزاً بألفين ، يوجد أشياء يجب أن تنتبه ، ليس قضية دفع وإسقاط حساب ، القضية أعمق من ذلك ، هذا الفقير ينبغي أن ينتفع بهذه السلعة .

الرأي المعتمد أن تدفع الزكاة عيناً أو نقداً لصالح الفقير ، الفقير يريد أن يشتري في العيد ألبسة لأولاده جيد ، لو ذهب إلى السوق ليشتري هذه الألبسة سيدفع ثمن كلفتها مع ربح الجملة وربح المفرق ، أنت إذا كنت تاجر جملة قدمت الزكاة للفقير بسعر الجملة معنى ذلك أنك أعطيته شيئاً لا يستطيع شراءه من السوق إلا بسعر أعلى هو يأخذ منك هذا المال ليشتري به ألبسة ، يجب أن تراعي مصلحة الفقير ، إذا كان المال الذي تدفعه لهذا الفقير سيشتري به ألبسة وأنت تاجر ألبسة الأولى أن تعطيه من عين بضاعتك ، أما إذا أردت أن تعطيه زكاة مالك وهو ليس بحاجة إليها مضطر ليبيعها كي يشتري بثمنها البخس حاجاته لا ، أعطه المال أولى ، هذا الإنسان يجب أن ينتفع منك لا أن تلقي له شيئاً لا يحتاجه ، أحياناً يحتاج إلى السلعة لا إلى المال ، وأحياناً يحتاج إلى المال لا إلى السلعة ، فالأولى أن تراعي مصلحة الفقير .

الرأي يمكن للتاجر الذي يخرج الزكاة بنفسه ، ويعلم أن الفقير في حاجة إلى عين السلعة فقط تحققت منفعة الفقير ، هذا هو المقياس .

يوجد رأي رائع جداً يقول : أداء الزكاة عيناً يجوز مطلقاً ولا يجوز مطلقاً ، ويجوز في بعض الصور للحاجة أو المصلحة الراجحة هذا القول من أعدل الأقوال ، فإن كان آخذ الزكاة يريد أن يشتري بها كسوةً فاشترى له رب المال كسوةً فهو أولى ، وقد أحسن إليه أما إذا قيّم هو الثياب التي عنده وأعطاها فقد يقيّمها بأكثر من السعر وقد يأخذ الثياب من لا يحتاج إليها ، بل يبيعها فيبيعها بثمن بخس ، فيتضرر ، أي الرأي المعتدل ابحث عن مصلحة الفقير ، قدم له شيئاً ثميناً ، إن كانت بضاعتك تنفعه وتنفع أولاده قدمها له ، وإن كان مالك ينفعه وينفع أولاده قدم له المال ، وإذا الفقير مقصر يدخن يشرب أحياناً وهو يلوذ بك فإذا قدمت له زكاة مالك طعاماً يأكله أولاده أيضاً مقبول ، الأمر في بحبوحة وفي سعة .

كل إنسان يطبق فقرة من منهج الله يؤدبه الله على تقصيره في الباقي :

أيها الأخوة ، الزكاة أحد أركان الإسلام الخمس ، والزكاة تعد النظام الأمثل للتفاوت في الأرزاق بين بني البشر ، والزكاة كما قال عليه الصلاة والسلام تحصن المال ، وقد ورد عنه أيضاً أنه : "ما تلف مال في بر أو بحر إلا بحبس الزكاة "، أنت تحصن المال ، لكن هناك ملاحظة أجدني مضطراً أن أذكرها ، يأتي تاجر يدفع زكاة ماله لا يوجد عنده مشكلة أحياناً يتلف ماله ، يقول لك : عجيب أنا أديت الزكاة ، يوجد مشكلات تأتي أنا ليس لي إلا جواب واحد لطيف على شكل مثل طالب جاء إلى المدرسة معه باقة ورد ، فالأستاذ أخذها منه ، وشكره عليها ،

ورحب به ، افتح وظيفتك لم يكتبها ، أي إذا أنت قدمت هذه الباقة تريد أن تمنعي من أن أربيك ، دقيق كلامي ، إذا هذا الإنسان أدى زكاة ماله وله أعمال لا ترضي الله في البيت وخارج البيت وسهرات واختلاط ولكن هو مؤد زكاة ماله أي بهذين القرشين اللذين دفعتهم تريد الله عز وجل ألا يربيك أبداً ، أنا أؤكد لكم إذا الإنسان فقط دفع زكاة ماله وما كان منضبطاً بالشؤون الأخرى لا تمنعه زكاة ماله من أن يؤدبه الله عز وجل ، يوجد أشخاص ينتبهون انتباهاً آخر يقول لك: أنا راض لوالدتي ، أعرف رجلاً يرضي والدته بشكل غير معقول ، لو طلبت شيئاً نادراً الساعة الثانية ليلاً يأتيها به ، وهو عند أقدامها لكن إذا سافر إلى بلد له أعمال لا ترضي الله أبداً ، فأصيب بمشكلة تعجب ، إذا أنت ترضي والدتك الله لا يربيك !!

أنا أطمئنكم كما قال عليه الصلاة والسلام: " وأنا نبي مرسل لا أدري ما يفعل بي"

أدِّ زكاة مالك ، و ارجُ من الله أن يحفظ لك بقية مالك ، وكن باراً بوالديك ، وارجُ الله أن يحفظك من كل سوء ، أما أنت تبر والديك ، وتدفع زكاة مالك ، وتطالب الله كأن لك ديناً أن يحفظك ، الله عز وجل طليق الإرادة ولا يحكمه مخلوق في الكون ، أدِّ زكاة مالك وكن باراً بوالديك لكن ما لم تؤدِ جميع بنود المنهج فهناك تأديب ينتظر الإنسان ، هذا كلام دقيق ، يوجد شخص لا يعرف من الدين إلا تأدية زكاة ماله ، شخص آخر لا يعرف من الدين إلا الحج والعمرة ، شخص ثالث يا رضا الله ورضا الوالدين ، لا يوجد عنده إلا رضا الوالدين ، يوجد أعمال لا ترضي الله ، يوجد علاقات مالية غير منضبطة ، فكل إنسان يطبق فقرة من المنهج لعل الله عز وجل يؤدبه على تقصيرهِ في بقية مواد المنهج ، وهذا المثل تذكروه جاء طالب بباقة ورد وما كتب وظيفته الأستاذ يضطر أن يعاقبه أستاذه هذه لوحدها وهذه لوحدها .

الشكر من أرقى ما يفعله الإنسان :

عجيب ﷺ لما كان يأخذ الزكاة من المحسنين الأغنياء كان يصلي عليهم لأن الله عز وجل يقول:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة: 103]

الدعاء لطيف جداً ، الشكر من أرقى ما يفعله الإنسان .

أسئلة و أجوبة :

هل السيارة الخاصة أم العامة تدخل في المال الذي يدفع عنه الزكاة ؟

السيارة مستهلكة من المقتنيات ، معفاة من الزكاة ، لكن سيارة الأجرة إذا فاض من أجرتها عن مصروفك فعليها زكاة .

تجارة المضاربة هل لها علاقة برأس المال أم فقط بالربح والخسارة؟

المضاربة إنسان منه المال وإنسان منه الجهد فصاحب المال عليه أن يؤدي زكاته عن المال وعن الربح معاً .

هل تجوز جمعية المال بين الأقارب؟

لا شيء عليها كل إنسان دفع بالشهر ألف ليرة وهم عشرة أعطوها لواحد إما بالقرعة أو بالدور أو بحسب الحاجة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 25: زكاة عروض التجارة: الترغيب بالزكاة والترهيب من منعها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الترغيب بالزكاة والترهيب من منعها :

أيها الأخوة الكرام ، هذا الدرس الخامس والأخير إن شاء الله تعالى في موضوع الزكاة ونحن في هذه الدروس الأربعة السابقة لم نتحدث إلا عن زكاة عروض التجارة ، هذا الدرس الأخير متعلق في الترغيب بالزكاة والترهيب من منعها ، والحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يؤيد تشريعه بمؤيدات ترغيبية وترهيبية ، لذلك أحد كبار علماء الحديث ألّف كتاباً كبيراً في الحديث الشريف : سماه الترغيب والترهيب ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما وصف أنبياءه الكرام وصفهم بأنهم يعبدونه رغباً ورهباً ، وحينما ورد في بعض الآثار القدسية أن يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال : أحبّ عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحد بسوء ، أحبني وأحبّ من أحبني وحببني إلى خلقي ، فقال هذا النبي الكريم : اللهم إنك تعلم أنني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال : ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي .

أي يستنبط من هذا النص أن العبد لابد من أن يمتلئ قلبه محبةً لله عز وجل من خلال النعم التي أسبغها علينا، ولابد من أن يمتلئ قلب المؤمن من الخوف من الله من خلال النقم التي نراها من حولنا ، ولابد من أن يمتلئ قلب المؤمن تعظيماً من الآيات الدالة على عظمة الله ، فينبغي أن يكون في قلب كل مؤمن تعظيم وخوف ومحبة ، ولابد من توازن هذه المشاعر ، محبة بلا خوف مشكلة ، وخوف بلا محبة مشكلة ، تعظيم بلا محبة ولا خوف مشكلة ، لابد من أن يمتلئ قلب المؤمن بالحب بسبب النعم التي أسبغها الله عليه ، وبالخوف من جراء النقم والمصائب التي تحل بمن حوله ، والتعظيم لله من خلال الآيات الدالةً على عظمة الله ﷻ ، لذلك لابد من الترغيب في دفع الزكاة والترهيب من منعها .

الله عز وجل حينما يأمر يعلل :

بالمناسبة قلّما يحتاج القوي إلى أن يعلل أوامره لمن يأمره بها ، افعل كذا لكن حينما يأتي القوي ويعلل افعل كذا من أجل كذا ، افعل كذا لأن هذا ينفعك ، فهذا كمال كبير جداً في الآمر ، خالق الأكوان رب العباد من بيده ملكوت كل شيء إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن فيكون حينما يأمر يعلل ، يعطيك العلة:

﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾

[سورة العنكبوت: 45]

شيء جميل:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة: 103]

تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ، اسم الزكاة مريح من تزكية النفس ، النفس تزكو عن الإنفاق ، النفس تطهر ، والنفس تسمو إلى الله ، بخلاف كلمة ضريبة من أي فعل اشتقت الضريبة ؟ من الضرب أما الزكاة فمن التزكية ، واضعو الأنظمة الأرضية يعجبون ، الإنسان يحتال احتيالاً لا حدود له ليتهرب من دفع هذه التي تفرض عليه، لكن يقبل المؤمنون على دفع الزكاة طواعيةً من دون مطالبة ، من دون قهر ، من دون جبر ، لأن أمر الله عز وجل مقدس عند المؤمن .

الإسلام منهج كامل :

أخواننا الكرام ، هناك من يعتقد أن في الإسلام أولويات ، وأنا مع هؤلاء لكن إياك أن تقول : إن في الإسلام جوهراً وقشوراً ، لا ، هذا كلام فيه سوء أدب ، الإسلام منهج كامل حتى الأشياء التي تبدو لك صغيرة هي لها قيمة كبيرة جداً ، أي تبسمك في وجه أخيك صدقة ، أن تميط الأذى عن الطريق هو لك صدقة ، أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر هو لك صدقة .

حدثني أخ وقال لي : أنا سبب توبتي وإقبالي على الله واصطلاحي مع الله سائق تكسي ، كنت أحمل حاجات من بين هذه الحاجات شراب محرم خمر ، فلما لمح السائق هذه الحاجة أوقف المركبة وطردني ولم أستطع أن أركب لنصف ساعة تقريباً ، فشعرت بالذل فكان هذا الموقف من هذا السائق سبب توبتي .

أنت أمامك أشياء كثيرة ، لا أدري إن كان المثل واضحاً ؟؟ يمكن أن تضرب إنساناً ضرباً مبرحاً حتى تكسر عظامه ثم تقول له : ادفع لي أجرتي لقد أتعبتني ، والأجرة ألف ضعف ، ثم تقول له : اشكرني ، ينبغي أن تشكرني ، أي هل هناك قهر كهذا القهر ؟ تضربه ضرباً مبرحاً وتهينه ويدفع لك أجرتك على هذا الضرب ثم يشكرك . هذا حال المسلمين اليوم ، هذا الحال لا يرضي أحداً ، فهناك إحباط عام لكن هذا الإحباط العام يحتاج إلى إيمان قوي بالله عز وجل ، يحتاج إلى ثقة أن الله لن يتخلى عن المؤمنين ، وأن هذا امتحان صعب ، ونرجو الله أن ننجح فيه ، أن ننجح بثقتنا بحكمة الله ، وثقتنا برحمته ، وثقتنا بأنه سينصرنا .

لا يوجد في الإسلام جوهر ، لب وقشر ، لكن هناك أولويات ، أوضح مثل مستحيل أن تدخل إلى بيت تجد فيه صورة معلقة على الحائط وأنت تعلم علم اليقين أن أهل هذا البيت لا يصلون إطلاقاً ، وليسوا منضبطين إطلاقاً ، ونساءهم سافرات ، وبناتهم فاجرات، مثلاً ، فأن تقول له : هذه الصورة مكروهة أو محرمة كلام ليس له معنى ، أكبر دليل على أن في الإسلام أولويات هذا الحديث الشريف الصحيح :

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

العقيدة كلها مجموعة في هاتين الكلمتين لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله ، لا فاعل إلا الله ، لا رافع إلا الله، لا خافض إلا الله ، لا معز إلا الله ، لا ناصر إلا الله ، لا معز إلا الله ، لا مذل إلا الله ، لا معطي إلا الله ، لا مانع إلا الله ، هو المسير المتصرف ، يد الله تعمل في الخفاء ، يد الله فوق أيديهم ، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، هذه كلمة التوحيد وما تعلمت العبيد أفضل من كلمة التوحيد والدين كله توحيد ، بل إن شرائع السماء كلها توحيد والدليل:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾

[سورة الأنبياء: 25]

أن تعرفه إلهاً موجوداً ، واحداً كاملاً ، وأن تبادر إلى طاعته هذه واحدة ، فاعبدوه ، الإسلام عقيدة وعمل ، العقيدة التوحيد والعمل العبادة ، لا إله إلا أنا فاعبدون .

((. . . فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

الله تعالى لا يقبل أن يترك عباده من دون توجيه :

لكن هذا الإله العظيم لا يقبل ولا يعقل أن يترك ويدع عباده من دون توجيه ، يوجد أب في الأرض يرى ابنه يقترب من المدفأة وسوف تحرقه المدفأة ويبقى ساكتاً ؟ لا يبقى جالساً ، بل يندفع إليه ليمنعه ، هذه رحمة الأب ، لذلك أن يدع الله عباده من دون توجيه، من دون رسائل ، من دون كتب سماوية ، من دون أنبياء مستحيل ، قال تعالى:

﴿ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾

[سورة الدخان: 5]

((. . . فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّه))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

هذا الدين كله ، إله موجود واحد كامل رحيم ، بعث رسلاً وكتباً ، ونحن نبينا رسول الله قال:

((. . . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ . . .))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

بعد أن نطق بالشهادتين بادر إلى الصلاة :

((. . . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ . . .))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

فكأن هذا التقدير الحكيم أن أموال الزكاة في مجتمع المسلمين تكفي فقراء المسلمين ، فإذا قال لي أحدهم : أين النظام المالي في الإسلام ؟ أقول له : الزكاة نظام تكافلي ، نظام تعاوني ، نظام عبادي ، هي الزكاة لأنها تؤخذ من أغنيائهم وترد إلى فقرائهم.

ليس في الإسلام لبّ ولا قشور ولكن في الإسلام أولويات :

بالمناسبة من أعطى زكاة ماله لمن لا يصلي جاحداً بحقها لا تسقط عنه الزكاة ، انتبه من أعطى زكاة ماله لمن لا يصلي جاحداً بحقها لا تسقط عنه الزكاة ، وكأنه ما دفع الزكاة ، لأن الزكاة تؤخذ من أغنيائهم أي من أغنياء المسلمين وترد إلى فقرائهم أي إلى فقراء المسلمين واضح .

((. . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ . . .))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

عنده أربعون بقرة ومن هذه الأبقار بقرة غالية عليه كثيراً ، أي هذه أرقى بقرة عنده فيأتي عامل الزكاة ويأخذها منه ؟! قال:

((. . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ . . .))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

دعه يختار هو لك البقرة التي يريد ، هذه رحمة .

((. . . وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

إذاً ليس في الإسلام لب ولا قشور ولكن في الإسلام أولويات ، من تطبيقات هذه القاعدة أن أخاً كريماً يدخل في حوار مع إنسان ملحد يذكر له الجن ، يقول له : أين الجن؟ أثبت لي وجود الجن ، لا يوجد دليل علمي يوجد دليل إخباري لأنك آمنت بالله إيماناً علمياً من خلال هذا الكون ، ولأنك آمنت بالقرآن إيماناً علمياً من خلال إعجازه ، ولأنك آمنت بمن جاء بهذا القرآن إيماناً علمياً من خلال الكتاب الذي معه انتهى دور العقل جاء دور النقل ، أخبرك الله أن هناك مخلوقات من الجن فأنت إيمانك بالجن إيمان تصديقي لا إيمان تحقيقي ، إيمان إخباري أو إيمان سمعي ، هذه كلها مصطلحات لمعنى واحد ، إيمان سمعي ، إيمان إخباري ، إيمان تصديقي ، لأن الجن ليس لهم أثر نراه بأعيننا حتى نحكم على المؤثر لا يوجد شيء ، خبر فقط ، فأي أخ يدخل في حوار مع إنسان ينكر وجود الله ويأتي على ذكر الجنة مثلاً يقول أين الجنة والنار والجن والملائكة ؟ هذا طريق مسدود، هذه كلها موضوعات إخبارية يؤمن بها من آمن بالله أولاً .

الإيمان باليوم الآخر عقلي أم نقلي ؟

لكن من لطيف ما قرأت الإيمان باليوم الآخر عقلي أم نقلي ؟ عقلي أم إخباري ، تحقيقي أم تصديقي ؟ من يجيبني ؟ تصديقي عند كل علماء العقيدة ، الإيمان باليوم الآخر إيمان تصديقي لأن الله أخبرنا ، أنا أرى جبلاً ، أرى سهلاً ، أرى بحراً ، أرى مطراً ، أرى ثلجاً ، لكن لا أرى اليوم الآخر ، ولا يوجد دليل ، طبعاً لو أن مركبةً سارت في طريق ترابي أقول : سارت مركبة هنا من آثار عجلاتها ، البعرة تدل على البعير ، الماء يدل على

الغدير، الأقدام تدل على المسير لكن لا يوجد أثر للجنة والنار في الدنيا ، إلا أن ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى وهو من كبار العلماء ينفرد من بين العلماء بأن الإيمان باليوم الآخر إيمان عقلي تحقيقي كيف ؟ يقول لك: لا يمكن ولا يقبل ولا يعقل ومستحيل وألف ألف مستحيل أن تجد غنياً وفقيراً ، إنسان لا يوجد طعام إلا وأكله، ويسكن في أجمل بيت ، وراكب أجمل مركبة ، ويرتدي أجمل الثياب ، وكل يوم باحتفال ، وكل يوم بسفر، وكل يوم بلقاءات ، ومستمتع بالحياة الدنيا إلى قمة رأسه ، وإنسان لا يجد ما يأكله ثم تنتهي الحياة هكذا ؟! الآن أقوياء يقتلون الناس بمئات الألوف هكذا برآء وقد انتصروا وتنتهي الحياة ؟ شعوب بأكملها دمرت قصفت أذلت نهبت ثرواتها وشعوب . .

هل تصدقون المواطن العادي في بلدنا العادي أو المواطن الذي فوق الوسط أو القريب من الجيد ليس بإمكانه أن يزرع أسناناً زراعةً ، كل سن بخمسين ألفاً ، يحتاج إلى مليونين ، بينما هناك يزرعون الأسنان لكلابهم ، يجرون عملية قلب لكلب ، توسيع شريان ، يجرون زرع مفصل لكلب ، اختصاص طب نفس للكلاب ، كلب معه كآبة ، له طبيب نفسي ، الغنى الذي يتمتعون به لا يصدق كله ثروات الشعوب وقهر الشعوب ونهب ثروات الشعوب ، واستغلال الشعوب وتنتهي الحياة هكذا ، شعوب بأكملها تموت من الجوع في العراء و في البرد بلا طعام ، تقصف و تهدم بيوتها ، وإنسان قوي معه أسلحة فتاكة بغفلة من الزمن صار قوياً ويملي إرادته على كل البشر وتنتهي الحياة هكذا لا يوجد شيء بعد هذا . . .

شهد الله لا يوجد عبارة أملكها لأعبر عن دهشتي لمن يقبل بهذا الخبر مستحيل قال تعالى:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

[سورة الحجر: 92-93]

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ﴾

[سورة فصلت: 40]

تهديد .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾

[سورة إبراهيم: 42]

طريق الفقر وسام شرف إن كان طريق الغنى أساسه معصية :

قصص لا تعد ولا تحصى كلها تؤكد أن في السماء إلهاً عظيماً عادلاً ، نحن في دار امتحان ، بربكم لو خيرتم اختياراً صعباً إما أن تكون مظلوماً وإما أن تكون ظالماً أيهما أهون ؟ أن تكون مظلوماً أهون ، إما أن تكون فقيراً إلى الجنة وإما أن تكون غنياً إلى النار ، أما غني إلى الجنة فأفضل طبعاً . المؤمن يسعى لفردوس الآخرة فإذا جاء مع فردوس الآخرة فردوس الدنيا أنعم به وأكرم ، لا يوجد مشكلة قال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾

[سورة الأعراف: 32]

أما لو الموازنة بين أن تكون غنياً مع النار ، وفقيراً مع الجنة ، لا فقير ، أن تكون صحيحاً وينتهي الأمر إلى النار أم أن تكون مريضاً لا سمح الله ولا قدر وينتهي الأمر إلى الجنة ؟ لا المرض .

لذلك يوجد نقطة دقيقة جداً أن النبي عليه الصلاة والسلام أثنى على أن تكون مسكيناً ، قال: "اللهم اجعلني مسكيناً واحشرني مع المساكين" ، كلام جيد يوجد أحاديث أخرى قال:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

عجيب كيف نجمع بين الحديثين ؟ سهلة إذا كان طريق القوة سالكاً وفق منهج الله ينبغي أن تكون قوياً ، لأنك إذا كنت قوياً قوة مال أو قوة منصب أو قوة علم خياراتك في العمل الصالح كبيرة جداً ، خياراتك في العمل الصالح واسعة جداً ، أما إذا كان طريق القوة أن تكون منافقاً ، أو أن تكون كاذباً ، أو أن تكون عاصياً لله ، أو أن تبيع دينك من أجل هذه الرفعة في الدنيا ، فلا عندئذ يكون الضعف وسام شرف لك .

خذها قاعدة : إذا كان طريق الغنى أو طريق القوة أو طريق العلو في الأرض أساسه معصية ونفاق وبيع الدين لا أن تكون فقيراً ضعيفاً وسام شرف كبير بحقك .

لذلك من أسباب قوة شخصية المؤمن عنده لاءات كثيرة ، لا أقبل بهذا ، ولا أفعل هذا ورب الكعبة ، ولا يليق بي أن أكون كذلك ، عنده موانع ، عنده منظومة قيم ، عنده انضباط .

((. . . ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[متفق عليه عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ]

الفقر ناتج من سوء التوزيع لا من حجم الرزق :

يوجد حديث آخر في الحقيقة أنا أعده من أصول الأحاديث في باب الزكاة يقول الإمام علي رضي الله عنه فيما يرويه ﷺ عن ربه:

((إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بالقدر الذي يسع فقراءهم))

[الطبراني في الأوسط والصغير عن علي]

أتمنى أن آتي بمثل أوضح ، حقيقة خطيرة جداً أب عنده خمسة أولاد ، جاءهم بخمسين كيلو برتقال ، أحد أولاده أكل والثاني لم يأكل ، شيء كثير ، خير كثير ، أكل أربع برتقالات بجلسة واحدة ، هذا لم يأكل ، بهذه الكمية الكبيرة ما عرفنا نفسية الأولاد ، مثلاً الأولاد خمسة ، وجاء الأب بعشر برتقالات ، إذا أحد الأولاد أكل ثلاثة حرم أخاه واحدة إذا أكل أربع ترك أخاه بلا برتقال ، العدد مدروس حتى يكشف حقيقة الأولاد الخمسة لذلك هناك حكمة بالغة ، الأرزاق مقننة تقنيناً حكيماً ، لا يوجد أمة تغتني إلا على حساب أمة تفتقر ، لا يوجد إنسان يبطر إلا على حساب فقير جائع ، هذه النقطة دقيقة جداً وخطيرة جداً ، كميات الأرزاق مدروسة – إن صح التعبير– أو موزعة بحكمة بالغة جداً ، بحيث لو أن إنساناً أخذ ما ليس له ظهر أثر طمعه في إنسان آخر ، لو إنسان أخذ ما ليس له ظهر أثر ذلك في إنسان آخر .

أي لو فرضنا مولدة تولد كذا كيلو واط ساعي ويجب أن نأخذ ثمن هذا التوليد مليون ليرة مثلاً ، فإذا إنسان أخذ الكهرباء ولم يدفع الثمن ، حملنا إنساناً سعراً أعلى مما ينبغي أن يدفعه ، مشكلة ، يوجد دقة بالغة في كل شيء، أي انحراف في أخذ ما ليس لك ينعكس على إنسان آخر ، كأن الله سبحانه وتعالى يريك عملك ، عدوانك انتهى إلى هذه الحالة لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بالقدر الذي يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياءهم))

[الطبراني في الأوسط والصغير عن علي]

الله أعلم ، كل الأرزاق تكفي كل العباد ، لكن لسوء توزيع هذا الكم عن طريق الظلم والعدوان هناك فقر ، الفقر ناتج لا من حجم الرزق ، لا ، ناتج من سوء التوزيع ، فرضاً حفلة بخمسة وثمانين مليوناً ، حفلة عرس يقابلها كم شاب لا يملك أن يتزوج ؟؟ إذا كان صنبور ماء في بيت ثمنه بثمن بيت ، يوجد صنابير مذهبة ثمنها بثمن بيت، إذا كان هناك بذخ وإسراف في جهة يقابل هذا البذخ والإسراف فقر مدقع ، يوجد توازن عجيب هذا كله مأخوذ من هذا الحديث:

((. . . ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا أو عروا إلا بما يصنع أغنياءهم))

[الطبراني في الأوسط والصغير عن علي]

أوضح مثل البرتقال ، خمسة أولاد جاء الأب بعشر برتقالات إذا أكل أحد أولاده ثلاث حرم أخاه واحدة ، إذا أكل أربع حرم أخاه كلياً ، إذا أكل ثماني برتقالات لوحده حرم أخويه ، إذا أكلهم كلهم ما ترك شيئاً لذلك قالوا: تسعون بالمئة من ثروات الأرض بيد عشرة بالمئة ، أحد الناس يستغرب ، الزنا زنا والقتل قتل ، لكن أقرضنا قرضاً وانتفعنا أين الحرام ؟ لأن قضية الربا تدمر مجتمعاً بأكمله ، بشكل مختصر الربا يجعل الثروة بأيدي قلة من الناس، أي الوضع الصحي السليم الذي يبعث على نمو المجتمع أن تكون الكتلة النقدية متداولةً بين كل الناس ، كل الناس عندهم بيوت صحية ، ويأكلون طعاماً صحياً ، ويرتدون ثياباً سابغة وجيدة ، وينتقلون بمركبات ، وبإمكانهم أن يعالجوا أولادهم معالجة طبية ، وأن يشتروا لهم اللعب والألبسة الجميلة ، لو أن الكتلة النقدية موزعة توزيعاً وفق هدى الله عز وجل ، أما إذا دخل الربا تجمعت الثروات بأيدٍ قليلة وحرمت منها الكثرة الكثيرة . يرون أن أحد الفلاسفة البريطانيين كان كث اللحية له لحية كثة ممتلئة بالشعر ، وكان رأسه لا شعر فيه ، فسأله آخر ما هذا ؟ قال له: غزارة في الإنتاج وسوء في التوزيع . هذا الفيلسوف البريطاني مرة سئل عن الحرب العالمية الثالثة التي نعيشها الآن نحن نعيش حرباً عالمية ثالثة معلنة ضد الإسلام في كل مكان ، سئل عن الحرب العالمية الثالثة قال : لا أعلم عنها شيئاً ولكن الحرب العالمية الرابعة بالحجارة . أي الحرب العالمية الثالثة لا تبقي ولا تذر ، حرب نووية واحدة ، سألته مرة مذيعة يبدو أنها على جانب من الجمال قالت لهذا الفيلسوف : لو تزوجتني جاءنا طفل يجمع بين ذكائك وجمالي وكان ذكياً جداً قال : وإذا كان العكس ؟ أي يجمع بين غبائك

وذمامتي .

الترغيب في أداء الزكاة :

أيها الأخوة ، الترغيب في أداء الزكاة أقوى آية:

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

[سورة التوبة: 103]

لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا أخذ الزكاة من غني صلى عليه يقول: " اللهم صلِّ عليه " ، لأن الله عز وجل قال :

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾

[سورة التوبة: 103]

قد يقول أحدهم : كيف أصلي عليه أهو ميت حتى أصلي عليه ؟ نقول له : قل له جزاك الله خيراً ، إن شاء الله لك قصر في الجنة ، جعل هذا العمل الطيب في ميزان حسناتك، حفظ الله لك مالك وأهلك وصحتك وأولادك وبناتك وأصهارك ، الدعاء للمزكي شيء لطيف جداً .

التألق و النجاح يبنيان على جهود كبيرة :

لو دخلت إلى إنسان ناجح في الحياة ، نجاحه مطلق وجدت له دخلاً كبيراً ، إنسان ساذج قد يحسده لكن هذا الإنسان حصّل شهادات عليا ، وأمضى أربعاً وثلاثين سنة في الدراسة المتعبة حتى وصل إلى هذه المرتبة ، النتائج الباهرة لها مقدمات صعبة جداً ، دققوا النتائج الباهرة لها مقدمات صعبة جداً ، إنسان يتألق وهذا التألق مبني على جهود بذلها لا يعلمها إلا الله ، هذه الآية:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾

[سورة الذاريات: 15-16]

شيء عظيم إله يكرم عباده ، ما هو السبب ؟ قال تعالى:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة الذاريات: 16-19]

أحياناً إنسان يعمل طوال النهار بثلاثمئة ليرة لا يملك شيئاً ، يملك جهده العضلي يحمل رملاً ، يحمل أحجاراً ، يوجد إنسان يسأل سؤالاً فالجواب بمئة ألف ، خبير ، خبراء لهم دخل فلكي ، حدثني أخ من أخواننا الكرام قال لي: معمل نسيج أسس ، وقوام هذا المعمل أربعون آلة نسيج مستوردة جديدة صبت لها قواعد إسمنتية وثبتت عليها ، بدأ المعمل الخيط يقطع أحضروا خبيراً اثنين ثلاثة أربعة ، النسيج لا يستمر ، جاؤوا بهذا الأخ الكريم طلب مبلغاً ضخماً – القصة قبل عشرين سنة – قريباً من نصف ثمن بيت ماذا فعل جاء بخشب السنديان عمله قواعد ، خشب السنديان يستعمله الحدادون أليافه متينة جداً و هو مرن فحينما يتحرك المكوك في آلة النسيج إذا القاعدة إسمنتية يوجد رد فعل عنيف ، أما إذا كان هناك قاعدة مرنة فهذه القاعدة المرنة تسهل عمل هذه الآلة ، يوجد أشياء دقيقة جداً تحتاج إلى خبير، قال تعالى:

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

[سورة فاطر: 14]

بطولة الإنسان أن يكون في أحسن حال مع الله ومع خلقه :

و قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آَخِذِينَ مَا آَتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

[سورة الذاريات: 15-19]

﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ ﴾

[سورة الحج: 41]

أي إنسان في الأرض وظيفته الأولى أن يقيم الصلاة للناس ، أن يسمح ببناء مساجد ، أن تفتح بيوت الله عز وجل ، أن يدرس الدين

﴿ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ ﴾

أحياناً أنا أشعر أن الدين ملخص بكلمتين كله قالهما سيدنا عيسى:

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾

[سورة مريم: 31]

الصلاة اتصال بالخالق ، والزكاة إحسان إلى المخلوق ، لذلك العبد الفقير حينما أكتب رسالة أدعو لمن أرسلت له الرسالة أقول له : أرجو أن تكون في أحسن حال مع الله ومع خلقه . هناك إنسان حاله مع الخلق جيد جداً ، ذكي جداً ، لكن مع الله حاله سيئ جداً ، يوجد إنسان حاله مع الله جيد لكن مع الناس محدوداً جداً أي عنده مشكلات كبيرة جداً ، فالبطولة أن تكون في أحسن حال مع الله ومع خلقه في وقت واحد .

أثر الصدقة في حياة المؤمن :

وفي حديث آخر:

((عَنْ سَعِيدٍ الطَّائِيِّ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ أَنَّهُ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو كَبْشَةَ الْأَنَّمَارِيُّ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقر))

[الترمذي عَنْ سَعِيدٍ الطَّائِيِّ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ]

ما نقص مال من صدقة ؛ هذا كله من المرغبات في أداء الزكاة ، ألا يكفيك أن الله يأخذ الزكاة بيمينه ؟ قال: إن الصدقة تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير ، ألا يكفيك أن الله يسترضى بالصدقة ، قال:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الصَّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ السُّوءِ))

[الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ]

الأقوياء لا يسترضون ، لا يوجد طريق لهم أساساً ، لكن الله يسترضى بالصدقة:

((باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها))

[الطبراني عن علي بن أبي طالب]

و الله أيها الأخوة هذا خير كبير ، ما من مشكلة ، ما من أزمة ، ما من عدو متربص ، ما من خطأ ، ما من شبح مصيبة يلوح إذا بادرت بصدقة لوجه الله عز وجل ، فلعل الله عز وجل يرفع هذا البلاء عن هذا الإنسان ، لي قريب أجرى عملية تفتيت البروستات ، هذه العملية لها احتمالان أحدهما أن يفتح البطن و أن تجرف هذه الغدة ، يوجد الآن تفتيت عن طريق القسطرة ، لكن ما كل إنسان معه التهاب بروستات يمكن أن تجرف عن طريق القسطرة ، قال له الطبيب: أنا أتمنى عليك و هو من كبار الأطباء أن تدعو الله عز وجل ، و أن تتصدق

كي نجري هذه العملية عن طريق القسطرة ، هذا الأخ وزع عشرة خراف و دعا الله ، العملية جرت كما يتمنى ، لكن قال له الطبيب : و الله لي في هذه العمليات عشر سنوات لم أجرِ عملية أسهل من هذه العملية ، أنا أقول دائماً : المؤمن إذا أجرى عملية يد الطبيب بيد الله ، فالله يسترضى بالصدقة و يطفأ غضبه بالصدقة و تقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير ، لذلك يقول عليه الصلاة و السلام:

((عن أبي هُرَيْرَةَ يَقُولُ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا إِلَّا الطَّيِّبَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَيُرَبِّيهَا لِعَبْدِهِ الْمُسْلِمِ اللُّقْمَةَ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى يُوَافَى بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلَ أُحُدٍ))

[متفق عليه عن أبي هُرَيْرَةَ]

وهناك آية واضحة جداً :

﴿ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾

[سورة التوبة: 104]

و :

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ثَلَاثٌ أَحْلِفُ عَلَيْهِنَّ لَا يَجْعَلُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَنْ لَهُ سَهْمٌ فِي الْإِسْلَامِ كَمَنْ لَا سَهْمَ لَهُ فَأَسْهُمُ الْإِسْلَامِ ثَلَاثَةٌ الصَّلَاةُ وَالصَّوْمُ وَالزَّكَاةُ وَلَا يَتَوَلَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا فَيُوَلِّيهِ غَيْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُحِبُّ رَجُلٌ قَوْمًا إِلَّا جَعَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُمْ وَالرَّابِعَةُ لَوْ حَلَفْتُ عَلَيْهَا رَجَوْتُ أَنْ لَا آثَمَ لَا يَسْتُرُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أحمد عَنْ عَائِشَةَ]

شخص سأل النبي الكريم قال: يا رسول الله أرأيت إن أدى رجل زكاة ماله ، فقال عليه الصلاة و السلام:

((من أدى زكاة ماله ذهب عنه شره))

[الطبراني عن جابر]

الكنز :

الآن استعدوا للقسم الثاني من الدرس: الترهيب:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

[سورة التوبة : 34-35]

العلماء أجمعوا على أن أي مبلغ من المال مهما كبر إذا أديت زكاته فليس بكنز ، و أن المال مهما قلّ إذا كان فوق النصاب ، أي سبعة آلاف على نصاب الفضة إن لم تؤد زكاته فهو كنز ، ما هو الكنز ؟ المال الذي بلغ النصاب و لم تؤد زكاته ، ما هو المال المبارك ؟ أكبر مبلغ إن أديت زكاته فليس بكنز :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

[سورة آل عمران: 180]

الحديث التالي من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة و السلام :

الآن سأتلو عليكم هذا الحديث: و الله أيها الأخوة ، لا أمل من تلاوته ، كأن النبي معنا من هذا الحديث قال:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ : أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا . . .))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

دولة عظمى أرسلت سفيراً إلى بلد في أوربا من عادة هذه الدولة أن السفير قبل أن يغادر بلده يقام له حفل بحضور وزير الخارجية ، و الحفل مختلط في بلاد الغرب دائماً، المرأة تكون مع الرجل في مناسباته أي الإيجابية، سفير بلد كبير تسلم أوراق اعتماده من وزير الخارجية و إلى جانبه زوجته أي رجل زوجته لأنه شاذ ، إلى جانبه رجل هذا شريكه الجنسي ، و سيسافر معه ، و له تعويضات ، و الوضع طبيعي جداً ، الآن بألمانيا و هولندا و بريطانيا و أعتقد إيطاليا أصبح الزواج المثلي له إجراء معترف به ، الآن بكندا يستحق الجنسية الكندية من تزوج فتاة كندية ، و يستحقها أيضاً من له شريك جنسي كندي أي مثلي ، هذه الجريمة عقابها في

الإسلام القتل ، لذلك:

((يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

كم إنسان مصاب بالإيدز الآن ؟ عندي خطبة إذاعية ألقيتها في عام ألف و تسعمئة و ثلاثة و ثمانين ، و آخذ رقماً دقيقاً جداً من منظمة الصحة العالمية ، أي عدة ملايين ، الآن سبعة و خمسون مليون إنسان في العالم مصابون بالإيدز ، و يوجد سبعة و خمسون مليوناً يحملون هذا المرض ، إلا فشت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم ، أليس النبي معنا ؟ هذا الحديث أيها الأخوة من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة و السلام .

((. . .وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ . . .))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

نقص المكيال و الميزان أي الغش ، أقسم رجل بالله أنه ذهب إلى معصرة زيتون و دفع لصاحب معصرة الزيتون و الزيتون عصر أمامه ، ووضع في عبواته ، و انطلق به و هو متأكد مئة في المئة أنه أخذ عصير زيتونه، ثم فوجئ أن نصف هذا الزيت مغشوش بزيت نباتي ، أمامه يضعون مستودعاً على السقيفة ، و هذا المستودع موصول بأنابيب إلى قعر حوض الزيت ، أنت أمامك يكون العصر جمع لك ، و عصر نصف زيتونك دون أن تشعر و أعطيت كمية تقابل زيتونك ، طبعاً كلمة و لم ينقصوا المكيال و الميزان إلا أخذوا بالسنين و شدة المؤونة و جور السلطان .

((. . . . .وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا . . .))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

ذكرت من قبل أنا كنت أسمع كل عام بالخمسينات أو بالستينات يموت سبعة أشخاص أو ثمانية غرقاً ، هل سمعتم الآن أن أحداً غرق بنهر بردى ؟ و لا شخص ، و لا قطة لأنه لا يوجد ماء أبداً ، و لم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، الأمطار الجيدة التي أكرمنا الله بها أنا لي كلمة دقيقة جداً هذا عطاء تفضلي لا استحقاقي .

الآن اسمعوا الرابعة:

((. . . . وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ . . .))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

يوجد بلد من البلدان الغنية الإسلامية عجزها المالي ألف و خمسمئة مليار:

((. . . وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا ، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

[ابن ماجه عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ]

و هذه أكبر مصيبة تصيب المسلمين ، أن بأسهم بينهم ، ممزقون .

الزكاة ضرورة من ضروريات الدين :

أخواننا الكرام : أجمعت الأمة و اشتهرت شهرة جعلتها من ضروريات الدين، أي الزكاة اشتهرت شهرة جعلتها من ضروريات الدين التي ينبغي أن تعلم بالضرورة ، شيء بديهي ، بحيث لو أنكر أحد وجوبها خرج من الإسلام ، أما من امتنع عن أدائها مع اعتقاده بوجوبها يأثم و يعصي و يفسق لكن لا يكفر ، من يكفر ؟ إذا أنكر أحد وجودها ، أما إذا أقرّ بوجودها لكنه مقصر هذا عاص ، و إن شاء الله تحدثت ما فيه الكفاية عن الترغيب و الترهيب ، و كانت هذه الدروس بفضل الله عز وجل متعلقة بأكثر شيء متداول في المدن طبعاً لو كنا في الريف أهم موضوع زكاة المواشي و الأنعام ، أو زكاة الزروع ، أما من يعيش في المدينة فأكبر حجم للزكاة زكاة التجارة فحدثتكم في خمسة دروس بفضل الله عز وجل عن زكاة عروض التجارة ، و إلى موضوع آخر إن شاء الله .

جنة الدنيا هي جنة القرب من الله :

أخ سأل سؤالاً قال : ذكرتم في إحدى خطبكم أن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، ما هي هذه الجنة ؟

جنة القرب من الله ، و الدليل عليها:

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾

[سورة محمد: 6]

و يدخلهم الجنة في الآخرة عرفها لهم في الدنيا .

والحمد لله رب العالمين

الفصل الخامس : الحج

الدرس 01 : حكم الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا ، وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين .

الإسلام عقيدة و شريعة :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ بعض الأخوة الأكارم رَغِبَ أن يكون موضوع هذا الدرس عن حِكَمِ فريضة الحج التي فرضها الله علينا ، وكنت قد ذكرت في الخطبة يوم الجمعة بعضاً من هذه الحِكَم ، وأنا أستجيب لهذه الرغبة ، فأجعل جُلَّ هذا الدرس أو بعضه بحسب التيسير في موضوع الحج .

بادئ ذي بدء أقول : الإسلام عقيدةٌ وشريعة ، لخَّصها الله سبحانه وتعالى في آيةٍ واحدة فقال :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

[سورة الكهف : 110]

هذه العقيدة " لا إله إلا الله " فلو ضغطتها كلها ضغطاً كثيفاً كثيفاً ، لانتهت بقوله تعالى :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

[سورة محمد : 19]

لذلك قال العلماء : نهاية العلم لا إله إلا الله ، هي كلمةٌ خفيفةٌ على اللسان ، ثقيلةٌ في الميزان .

وهنا نقطة دقيقة أتمنى على الله عزَّ وجل أن يوفقني إلى توضيحها ، وهي أنّ فهم الآية شيء وأن تكون في مستواها شيءٌ آخر ، بل شتانَ بين فهم الآية وبين أن تكون في مستواها ، فقد تفهم قوله تعالى :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾

[سورة محمد : 19]

ولكن إذا كنتَ في مستواها فإن إيمانك بهذه الكلمة ، أو بأنه لا إله إلا الله يحملك قطعاً وحتماً على طاعة الله ، فمن كان في سلوكه خَلَل ففي عقيدته خلل ومن كان في سلوكه معصية فإيمانه بأنه لا إله إلا الله لم يُسْتَكْمَل بعد، فنحن إذا قسَمنا الإسلام إلى عقيدة ، فهذه العقيدة تنتهي بقول لا إله إلا الله ، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((لا إِلَهَ إلا اللَّهُ لا يَسْبِقُهَا عَمَلٌ وَلا تَتْرُكُ ذَنْبًا))

[ابن ماجة عَن أُمِّ هَانِئٍ]

وإذا تركنا العقيدة جانباً ، فهناك جانب العبادات التي تتمثَّل بقوله تعالى :

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾

[سورة الكهف : 110]

في الإسلام جانب نظري ، وجانب اعتقادي ، وجانب فكري ، وجانب عقلي هذه كلها مرادفات ، وفي الإسلام جانب سلوكي ، وجانب عملي تطبيقي ، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال يؤكِّد ذلك :

((تعلموا ما شئتم فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم))

[رواه ابن عدي في الكامل ، والخطيب البغدادي في كتاب اقتصاد العلم للعمل عن معاذ ابن جبل]

وقال أيضاً : كل علمٍ وبالٌ على صاحبه ما لم يعمل به ، فجانب العمل قَسَمَهُ العلماء قسمين ، عباداتٌ ومعاملات ، علاقتك مع الله تنظِّمُهَا العبادات ، وعلاقتك مع الناس تنظمها المعاملات ، لذلك أحكام البيع والشراء ، والزواج والطلاق ، والإيجار والشرِكات ، والمُضاربة المُزارعة والمساقاة ، وأحكام الوديعة واللقطة والأيْمَان ، كل هذه الأحكام مهما اتسعت وتعددت وتشعَّبت فإنها تنضوي كلها تحتها تحت عنوان المعاملات ، وهي علاقتك بالخلق .

أما علاقتك بالحق فهذه تنظمها العبادات ، وفي مقدمتها الصلاة ، والصلاة في كل مكان وزمان ، في الصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وفي الحَضَر والسفر ، فلا يمكن أن ينقطع الإنسان عن الصلاة إلا في حالتين ؛ الإغماء والجنون ، ولو كان في مرضٍ شديد فله أن يصلّي بالإيماء ، أو بجفنه ، أو بعينه .

قلت لكم قبل قليل : الله سبحانه وتعالى أمرنا بأوامر بعضها عبادات وبعضها مُعاملات ، والمعاملات جاءت أحكامها الكُلِّيَةَ في كتاب الله وسُنَّةِ رسول الله ، وجاء العلماء المجتهدون فاستنبطوا الأحكام التفصيلية من هذه النصوص الكلية فكان الفقه ، فالفقه هو أحكامٌ مستنبطةٌ من الكتاب والسُنَّة ، والفقه أحكام اجتهادية ، وأما العبادات فأحكام الله التي أَلْزَمَ عباده بها ، فالصلاة مثلاً " الصلاة عماد الدين من أقام فقد أقام الدين " ، فهدف الصلاة أن تصل بها إلى الله ، والصيام لعلكم تتقون ، وهو أن تصل به إلى الله ، والصلاة عبادة بدنية ، والصيام عبادة بدنية ، أما الزكاة فعبادةٌ مالية ، وأما الحَج فهو عبادةٌ بدنيةٌ ، وماليةٌ ، وروحيةٌ ، مكانيةٌ وزمانيةٌ في وقتٍ واحد ، ويبدو أن الحج من أعلى العبادات مستوىً ، لأسبابٍ كثيرة . .

العبادات طريق لمعرفة الله عز وجل :

بادئ ذي بدء ، الله سبحانه وتعالى خلق الكون لنستدلَّ به على ذاته ، وعلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، فالكون تجسيدٌ لأسمائه الحسنى ولصفاته الفضلى ، ومن أسمائه العليم ، فهو العليم الحكيم ، وهو الرؤوف الرحيم، وهو القدير الغني ، وهو السميع البصير ، فكل هذه الأسماء الحسنى لا بدَّ أن تعرفها من خلال الكون ، فالكون دالّ على عظمته، والشيء الثاني أن العبادات لو تأمَّلت فيها تأمُّلاً صحيحاً لكان هذا التأمُّل طريقاً إلى معرفة الله سبحانه وتعالى .

فالحج بشكلٍ مختصر أن الله سبحانه وتعالى يقول لك : أن يا عبدي تعالَ إليّ أمَّا الصلاة فصلِّ وأنت في بيتك، وأنت في بلدتك ، وأنت بين أهلك ، وأنت في مجتمعك ، وأنت بين قومِك ، والزكاة ادفع من مالك ، والصوم دعِ الطعام والشراب ، لكن الحجَّ تعالَ إليّ ، كما قال الله عزَّ وجل على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

[سورة الصافات : 99]

إنّ الإنسان يسافر بدافع التجارة ، وقد يُسافر بدافع التعلم ، وقد يسافر بدافع الاستجمام والسياحة ، فالحج بشكلٍ أو بآخر رحلةٌ إلى الله عزَّ وجل ، تعالَ إليّ واترك همومك، دع عنك هذه الشهوات التي أثقلت ظهرك وتعال إليَّ ، دع هموم المعاش في بلدك وتعالَ إليّ ، دع هموم العمل في بلدك وتعالَ إليّ ، دع هموم صحَّتك في بلدك وتعالَ إلي ، وأكثرُ الذين حجوا بيت الله الحرام يؤكِّدون هذه الحقيقة ، وهذه حكمة الله البالغة ؛ أن الهموم التي

يحملها الإنسان في بلده سواءٌ أكانت هموم المعاش ، أو هموم العمل ، أو هموم الأُسرة ، أو هموم الصحة، يجَمِّدُها الله سبحانه وتعالى كلها ، ويريحك منها ما دمت في ضيافته في بيت الله الحرام ، فهذه فرصة للإنسان لكي ينسلخ عن هموم الدنيا ، خلِّ عنك وتعالَ ، دع عنك الهموم كلها ، تعالَ إليّ يا عبدي ، فهو أمر إلهي ، وخالق الكون يقول لك :

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾

[سورة آل عمران : 97]

تترك أهلك وولدك ، وتتحمل مشاق السفر ، وتنفق من مالك عشرات الألوف من أجل أن تلبِّي هذه الدعوة ، ثم ترجع كما ذهبت ؟ هذا مستحيلٌ في حق الله عزَّ وجل ، ولا تصدِّق أن إنساناً يترك بيته وأهله وبلده وعمله ، ويدفع عشرات الألوف ، ويتحمَّل المخاطر والازدحام والحَرَّ من أجل أن يتواجد جسمياً في عرفات ، أو من أجل أن يطوف حول الكعبة طوافاً مادياً ، أو من أجل أن يسعى بين الصفا والمروة سعياً مادياً ، فالله سبحانه وتعالى جلَّ وعلا أن يكون أمره كذلك . قال لك : تعالَ إليّ لأذيقك طعم القرب ، تعال إليّ لتعرف طعم المحبَّة ، تعال إلي لترى أن الله عزَّ وجل هو كل شيء . . وأن كل شيء سوى الله باطل ، وأن كل نعيمٍ لا محالة زائل . .

ألا كل شيءٍ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

***

فالحج فرصةٌ واحدة في العمر ، وقد تكررها مراتٍ كثيرة بحسب الذي حَصَّلْتَهُ في هذه المرة .

حكم الحج :

1 . الإقبال على الله يعينك على أن تقبل عليه و تنعم بقربه :

إذاً يجب أن نستنبط عظمة الله عزَّ وجل لا في خلقه فحسب بل في تشريعه ، وليس في تشريعه فحسب بل في عباداته ، ولا في الصلاة والصيام والزكاة فحسب بل في الحج، فلو أن إنساناً كان بعيداً بُعداً كبيراً عن الدين ، ورأى الحجاج يطوفون ويسعون ويرجمون ، ولم يعرف الأحوال النفسية التي ترافق هذه المناسك لظنَّ بالحج الظنون .

إذاً أول شيء كما أن الكون خلقه – هذه الكلمة دققوا بها – ومن خلال الكون تتبدَّى عظمته ، كذلك هذه العبادة أمره ، ومن خلال هذه العبادة يجب أن تتبدَّى عظمة الله عزَّ وجل سواءاً بسواء ، فالله عزَّ وجل حينما قال لك : تعال إليّ قطع عنك الهموم ، وحينما أمرك أن تنفق من مالك الحلال من أجل أن تصل إلى بيته الحرام ، جعلك تنفق من أجله حتَّى تُحِسَّ أن لك عنده حظوة ، فإذا دعوت إنسانًا وتكلَّفتَ في الدعوة تشعر أنك قدَّمت له شيئًا ، والله عزَّ وجل غني عنك . .

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ ﴾

[سورة الحج : 37]

فقد أمرك أن تبتعد عن مكان الهموم ، وعن هموم المعاش وهموم العمل والأسرة والصحة ، وقال لك : تعالَ ، وأنفق أجرة الطريق ، ورسم الدخول ، وأجرة الإقامة ، وثمن الطعام والشراب ، وثمن الهدي ، وبهذا الإنفاق تشعر أنك قدَّمت شيئاً ، كأن الله عزَّ وجل يعينك على أن تُقبل عليه ، فيقدِّم لك المبرر والمسوِّغ كي تُقبِل عليه ، إذاً حكمة هذه العبادة أنْ تغادر بيتك، وبلدتك ، ومكان إقامتك ، وأهلك ، وزوجتك ، وأولادك ، وعملك ، وعزك ، وشأنك ، وجاهك ، وهذه الأشياء التي تَسْعَد بها دعها كلها وتعالَ إليّ ، هذا أول معنى ، تركتها وتجشَّمت مشاق السفر ، فشعرت أن لك عند الله حظوة ، وكأن الطريق إلى الله عزَّ وجل صار سالكاً وأبواب السماء قد فُتِحَت لك، حتّى أصبح الإقبال على الله ميسراً لك ، وكأن أنوار الله عزَّ وجل أصبحت قريباً منك ، وأصبحت المناجاة في مقدورك وكأنك تصنعها ، وكأن القرب والإقبال أصبحا قريبي المنال ، هذا هو المعنى الأول . فقد حملك على أن تقبل عليه ، فحملك على أن تَنْعُمَ بقربه ، فحملك على أن تسعد بالاتصال به ، فهذا هو المعنى الأول .

2 . الحج يحجم الإنسان و يريه حقيقته :

أما حينما أمرك أن تُحْرِم هناك ، وأن تدخل بيته الحرام من المواقيت مُحرماً ، وتخلع عنك الثياب المخيطة ، فلو أن الحج سُمِحَ فيه بالثياب ، لجاء هذا بالزي الفلاني ، وهذا بالثوب الفلاني ، وهذا الثوب غالي الثمن ، وهذا ألوانه زاهية ، وهذا خيط خياطةً راقية ، لعادَ التفاوتُ بين الناس ، ويعود النظر إلى ما عند الناس ، فأمَرَك أن ترتدي ثوبين أبيضين بسيطين غير مخيطين من أجل شيءٍ واحد ؛ من أجل أن يكون الناس كلهم سواسيةً في نظر الله عزَّ وجل وهم كذلك ، لذلك لا فرق بين الكبير والصغير ، ولا الغني والفقير ، ولا الذي له سيطٌ ولا خامل الذِكْر ، الكل عند الله سواء ، كأن الله يشعرك أن يا عبدي هناك رحلة أخيرة تُنزَع منك كل هذه الأقنعة المُزَيِّفة ، فالمال تتركه والجاه والأهل تتركهم ، وكذا الزوجة والأولاد ، وكل الميزات التي تنعم بها في بلدك لا بدَّ من التخلِّي

عنها ، إذاً كأن الحج رحلة قبل الأخيرة .

في الرحلة الأخيرة تدع كل شيء بلا عودة ، إنها مغادرةٌ بلا عودة ، لكن الرحلة قبل الأخيرة مغادرةٌ موقوتةٌ مع العودة ، من أجل التدرُّب على الرحلة الأخيرة التي لا عودة فيها ، فدع عنك الدنيا قبل أن تدعك ، دعها عنك قبل أن تدعك هي ، وتخلَّ عنها قبل أن تتخلى عنك ، اعرِفْ حقيقتها قبل أن تصطدم بها ، هذا هو حجمك ، عبدٌ ضعيفٌ فقيرٌ ، أشعث أغبر ذو طمرين ، يقف على أرض الله الواسعة في الموقف في عرفات ، أو حول البيت الحرام ، أو بين الصفا والمروة ، عبد حجمك صغيرٌ ، وشأنُك حقير ، فهذا الحج إن صح التعبير يُحَجِّمُ الإنسان يريه حقيقته كما قال الله عزَّ وجل :

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

[سورة الأنعام : 94]

لقد تركت هموم المعاش ، وتجشَّمت مشاق السفر ، وخلعت عنك كل الزينة ، هذه كلها تمهيدات لإحكام الصلة ، لأن الإنسان قد يصلي في بلده ، قد يصلي صلاةً شكلية ، ويعيقه عن هذه الصلاة همومه ، ومشكلاته ، أو دنياه ، وقد يُعيقه ماله ، أو شأنه ، فالله عزَّ وجل أعانك على نفسك في الحج ، وقال لك : تعالَ إليّ لأحُطَّ عنك ذنوباً أثقلت ظهرك ، لذلك " إذا رجع العبد إلى الله عزَّ وجل نادى منادٍ في السموات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله " . . فبشكل أو بآخر الحج صُلْحٌ مع الله ، بالتعريف الدقيق هو صلحٌ مع الله . فإذا صالحت إنسانًا له شأن لم تَنَمْ من فرحك ، وأحياناً يصالحُ إنسانٌ زوجتَه فيقول لك : الحمد لله كابوسٌ زال عني ، أو إذا هي صالحته ، يقول لك : يا أخي الحمد لله الأمور رجعت إلى مجاريها ، فكيف إذا صالحت رب السموات والأرض ؟! كيف إذا صالحت من بيده ملكوت كل شيء ، من بيده أمر حياتك وموتك ، إذا صالحته فهنيئاً لك ، فالحج مشروع صلح مع الله .

3 . الإحساس بمغفرة الله عزَّ وجل :

لكن أيها الأخوة الأكارم ؛ والله الذي لا إله إلا هو كما ذكرت لكم في درس العقائد قديماً أن في الكون شيئًا واجب الوجود ، وممكن الوجود ، ومستحيل الوجود ، فالله سبحانه وتعالى واجب الوجود ، ونحن من باب ممكن الوجود، أما المستحيل فأن يكون مع الله إلهٌ آخر وهذا مستحيل ، بل من هذه المُستحيلات أن تذهب إليه ولا يكرمك : " إن بيوتي في الأرض المساجد ، وإن زوارها هم عمارها ، فطوبى لعبدٍ تطهَّر في بيته ثم زارني ، وحُق على المزور أن يكرم الزائر " فالإنسان ذاهبٌ إلى بيت الله ، لا يبتغي إلا الحج ، لا يبتغي شيئاً آخر من حطام الدنيا ،

فإذا ذهبت كذلك فمن المستحيل على الله عزَّ وجل أن ترجع بِخُفَّي حُنَيْن ، بل لا بد أن ترجع إلى بلدك وقد جبرك الله عزَّ وجل ، جبر كسرك ، وحقق رغبتك ، وأعانك على أمر دينك ودنياك . هناك تشبيهٌ رأيته مناسباً لهذا المقام ، وكأنك إذا ذهبت إلى هناك . .

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ]

كأنك فتحت مع الله صفحةً جديدة بيضاء ، وانتهى الحساب ، ودخلتَ في مسامحة وعلى كلٍّ انتهى الحساب القديم ، وفُتِحت صفحةٌ بيضاء ، وهل من شعورٍ أعظم عند المؤمن من أن تفتح لك مع الله صفحةٌ جديدة ؟ إذاً أنت الآن عُدْتَ من ذنوبك كيوم ولدتك أمك ، وهذا الشعور لا يعرفه إلا من ذاقه ، إنه الإحساس بمغفرة الله عزَّ وجل لك ، ومغفرة الله عزَّ وجل لا يعرفها إلا من ذاقها .

4 . في الحج يحس الإنسان أنه ضيف الرحمن :

شيء آخر قد بدا هو أن الحج بشكل يغلبُ عليه أنه دعاء كله ، ففي طواف القدوم دعاء ، وفي السعي بين الصفا والمروة دعاء ، وفي الإقامة بمنى دعاء ، وفي الوقوف بعرفة دعاء ، وفي الوقوف بمزدلفة دعاء ، وفي أثناء رمي جمرة العقبة دعاء ، وفي طواف الإفاضة دُعاء ، وفي الإقامة بمنى في أيام النحر وأيام التشريق ورجم الجمرة الأولى والثانية والكُبرى دعاء، وفي طواف الوداع دعاء ، وكما قال عليه الصلاة والسلام :

((الدُّعاءُ مُخُّ العبادةِ))

[الترمذي عن أنس بن مالك]

إنّ مخ العبادة الدعاء ، فإذا دعوته لا بدَّ أن يستجيب لك ، فإذا كان الدعاء مستجابًا وأنت في بلدك فكيف بالدعاء وأنت في بيته ؟ فإذا طلبت من إنسان وأنت في ضيافته حاجة ، أعتقد اعتقاداً جازماً أن إمكان تلبيتها مئةٌ في المئة ، فأنت في بيته ، وفي إكرامه وضيافته لذلك فالإحساس بأنك ضيف الله عزَّ وجل ، ضيف الرحمن ، هذا الإحساس صارخ ، وتستطيع أن تحسَّ به وأنت هناك في بيت الله الحرام .

5 . تشريف الإنسان بزيارةِ بيت الله الحرام :

وثمّة شيء آخر ، أنك إذا ذهبت إلى هناك لا ينبغي أن تشعر أنك قد حججت البيت ، لا ، ينبغي أن تشعر أن الله عزَّ وجل جلَّ وعلا سمح لك أن تزور بيته ، وشرَّفك وتفضَّل عليك بأن أعانك على زيارة بيته ، وهذا الشعور

يجب أن يكون واضحاً عند الحاج ، لأنك إذا قلت : يا رب لقد شرَّفتني بزيارة بيتك الحرام ، وهذا كرم منك ، فقد أكرمك الله بزيارته وبتجلِّيه على قلبه .

فلذلك هذه الأحوال التي يعانيها الحاج لا أقول لكم إن قلةً قليلةً يعانيها ، لا والله بل تشمل كل حاج ، لأنّ رحمة الله وفضله يسع كل عباده ، بشرط واحد أن يكون الانطلاق إلى الحج بإخلاص ، لا تبتغي لا سمعةً ولا رياءً ، ولا زينةً ولا وجاهةً ، ولا تجارةً ولا عملاً ، ولا إقامةً ولا ولا ، فإذا كان الهدف خالصاً لوجه الله عزَّ وجل ، فهو سبحانه وتعالى يتكفَّلُ أن يُكرمك إكراماً لا تنساه مدى الحياة .

الإكثار من الدعاء في الحج لأن الدعاء مستجاب :

أنت إذا طُفْتَ حول الكعبة ، تدعو الله عزَّ وجل : " ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار" ماذا بقي ؟ في الدنيا حسنةً وفي الآخرة حسنةً ، هذا الدُعاء الذي أؤثر عن النبي عليه الصلاة والسلام ادعُ به :

((اللهم إنك عفوٌ كريم تحب العفو فاعفُ عني يا كريم))

[الترمذي عن عائشة]

و يحب أن يعفو عنك ، وها أنت ذا تطلب منه العفو ، إذاً لا بدَّ أن تشعر بالعفو وكما قلنا قبل قليل : فتحت لك مع الله صفحةٌ جديدة ، فإذا قلت :

((اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي إليها مردي))

[الترمذي عن عائشة]

وإذا قلت : واجعل الحياة زاداً لي من كل خير ، فما دامت الحياة فيها زيادةٌ لي من الخير فأحيني يا رب . . واجعل الموت راحةً لي من كل شر ، تشعر أن حياتك خير ، وأن انتهاء الحياة خير ، فهذه الأدعية في بيت الله الحرام أو عند النبي العدنان تحس أن لها وَهْجًا ، لأنك لو دعوت بها آلاف المَّرات وأنت في بلدك لا تذوق طعمها ، إلا إذا دعوت بها وأنت في بيته ، وأنت في ضيافته ، وأنت متعرضٌ لكرمه في الطواف دعاء ، فإذا وصلت إلى الحجر الأسود ، والنبي عليه الصلاة والسلام قَبَّلَ الحجر الأسود وبكى كثيراً ، فعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ :

((اسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَجَرَ ثُمَّ وَضَعَ شَفَتَيْهِ عَلَيْهِ يَبْكِي طَوِيلا ثُمَّ الْتَفَتَ فَإِذَا هُوَ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَبْكِي فَقَالَ : يَا عُمَرُ هَاهُنَا تُسْكَبُ الْعَبَرَاتُ))

[ابن ماجة عن ابن عمر]

لذلك أجمع أهل العلم على أن الحجر الأسود يمينُ الله في أرضه ، لذلك عند تقبيله تدعو وتقول :

((بسم الله الله أكبر ، اللهم إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، واتباعاً لسنة نبيك ﷺ ، ووفاءً بعهدك ، وعهداً على طاعتك))

[ابن ماجة عن ابن عمر]

لكن أيها الأخوة الأكارم ؛ أتمنى أن كل من أتيح له أن يقبّل الحجر الأسود ألا ينسى هذا التقبيل طوال حياته ، كلما شعر بالتقصير تذكَّر أنّه قبَّل الحجر الأسود ، وعاهد الله عزَّ وجل على طاعته ، فهل أنت في مستوى هذه الطاعة ؟ وهل أنت ذاكرٌ لهذا العهد ؟ "عهداً على طاعتك" ، فكلما قطعتَ شوطاً وقفتَ أمام الحجر الأسود ، وسرتَ أمامه عَرْضَاً ، وقلت : " بسم الله ، الله أكبر ، اللهم إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، واتباعاً لسنة نبيك محمدٍ ﷺ ووفاءً بعهدك ، وعهداً على طاعتك " ، وبعد هذا الطواف الذي هو سبعة أشواط ، تتوجَّهُ إلى المسعى ، وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام : " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ نبدأ بما بدأ الله به " . . تتلو قوله تعالى :

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾

[سورة البقرة : 158]

وأيضاً في الطواف دعاء ، فالله عزَّ وجل أعطاك أمكنة وحركات يجب أن يرافقها الدعاء ، فهل أنت في مستوى الدعاء ؟ لذلك إذا أزمع الإنسانُ الحجَّ فأنا أنصح له أن يكثر من حفظ الأدعية ، لأنك لو فتحت الكتاب هكذا فإنّ رونق الدعاء يتلاشى ، وروحانية الإقبال تذهب، وهناك أشخاص يفتحون الكتاب ويرفعون أصواتهم بالدعاء إلى درجة أنهم يشوّشون على كل من يسعى ويطوف ، وهناك من يرفع صوته ليرُدَّ النساء خلفه ، وصوت المرأة عورة لذلك تفقهوا قبل أن تحُجّوا ، فيجب أن تدعو من ذاكرتك ، فإذا أعدَّ الإنسانُ نفسَه قبل الحج بشهرين أو ثلاثة ، وجمع الأدعية كلها ، وحفظها إلى درجة أنه أصبح يدعو بها من ذاكرته وقلبه فعندئذٍ يستطيع أن يلتفت إلى الله ، أما إذا فتح الكتاب وفُتِحت ورقة معه بالخطأ فغيَّر ، فإنّ هذا الحال الطيب الذي يظن أنه سيصل إليه قد يتفلّت منه .

ثم إن الدعاء إذا تعلمته أو أمسكت بهذا المفتاح السحري ، فإنّه أكبر سلاح ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : " الدعاء سلاح المؤمن " . لأنك بالدعاء تنتصر على أقوى إنسان، لأن الله معك ، قال له : "يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ " ما قولك ؟ وما ظنك بإنسان الله سبحانه وتعالى معه ؟ فإذا دعوت الله في الحج ينبغي أن يصبح الدعاء رفيقاً لك في بلدك ، كلما واجهتك مشكلة ، أو ألمَّت بك مُلِمَّة أوشعرت بالضيق ، أو لاح لك شبحُ مصيبة ، أو أخافك إنسان ، أو أوقعك القلقُ في شعورٍ وحزن ، في هذه الحالات ادعُ الله عزَّ وجل . .

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾

[سورة غافر : 60]

لا تسألن بُنَيَّ آدم حاجــــةً وسل الذي أبوابه لا تُحجَــبُ

الله يغضب إن تركتَ سؤاله وبُنَيَّ آدم حين يُسألُ يغضب

***

إنَّ العبدَ إنْ سألته يغضب ، أما الله عزَّ وجل فيغضب إن تركت سؤاله . فالطواف إلى صلاة ركعتين في مقام سيدنا إبراهيم ، وأكثر الحجَّاج يصرون على أن يصلُّوا خلف المقام ، وفي أيام الطواف الشديد يصبح هذا المصلي عقبةً كؤودًا أمام الطائفين ، مع أن العلماء أجمعوا على أن أي مكانٍ في الحرم المكي الشريف صالحٌ لصلاة ركعتين بعد الطواف ، فهناك أشخاص يضعون حواجز من أجل أن يصلي بعضهم في هذا المقام في ازدحام وتعسر ، فهذا الذي يذهب إلى هناك من دون فقه يؤذي المسلمين كثيراً . فأنا اصبحت أُلِحّ كثيراً على أن الإنسان ينبغي أن يفحَص قبل أن يذهب إلى الحج هل تعرف مناسك الحج وواجباته وأركانه والسنن المُستحبات ؟ فمن أجل أن يفعل سنة يرتكب معصية كبيرة ، أهكذا الحج ؟ من أجل أن تُقَبِّل الحجر تؤذي عشرات المسلمين ، أبهذا أمرك النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فلذلك : " تفقهوا قبل أن تحجوا" .

حاجة الحج إلى إعدادين فقهي و نفسي :

قلت في نفسي : إن الحج يحتاج إلى إعدادين ؛ إعداد فقهي ، وإعداد نفسي، فالإعداد الفقهي يجب أن تدرُسَ أحكام الحج الكُبْرَى والفرعية ، إلى أن تصل إلى دقائق الأعمال لأنك هناك قد تواجه مشكلة ، ما حكمها ؟ أعليها دم ؟ أهي سنةٌ أم هي واجبٌ ؟ هل عليَّ شيءٌ أم لا شيء عليَّ ؟ هذا الأمرُ ينبغي أن يكون واضحاً عند كل أخ، فلا بدَّ من أن يتلقَّى دروساً مكثفةً في أحكام الحج ، وأركانه ، وواجباته ، وسننه ، ومستحبَّاته ، وآدابه ، وحكمته،

من أجل أن تكون هذه المعلومات زاداً للأخ الذي يحجُّ البيت ، أما الإعداد النفسي فأنْ تكون قد أَنَبْتَ إلى الله إنابةً صحيحة ، وتبتَ إليه من كل الذنوب ، فتوبتك واستقامتك ، وعملك الطيِّب وتحرِّيك المالَ الحلالَ هو الإعدادُ النفسي للحج ، لذلك قال الله عزَّ وجل في الحديث القدسي :

((إذا أصححت لعبدي جسمه ، ووسعت عليه في المعيشة ، فأتت عليه خمسة أعوام لم يَفِد إليَّ لمحروم))

[البيهقي في السنن الكبرى ومسند أبي يعلى والترغيب والترهيب للمنذري]

إضافة الله عز وجل إلى ذاته النبي و البيت الحرام و الكعبة :

الإمام البوصيري رضي الله عنه قال واصفًا النبي عليه الصلاة والسلام :

خفضت كل مقامٍ بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المُفْرَدِ العلم

***

في هذا البيت حقيقتان ؛ أولاً : في القرآن آيةٌ واحدة أضاف الله عزَّ وجل النبي عليه الصلاة والسلام إلى ذاته ، قال تعالى :

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾

[سورة الجن : 19]

من هو عبد الله ؟ إنه النبي عليه الصلاة والسلام ، أضافه اللهُ إلى ذاته ، لذلك قال البصيري :

خفضت كل مقامٍ بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المُفْرَدِ العلم

***

وقد خاطب الله عزَّ وجل الأنبياءَ بأسمائهم صراحةً ، فناداهم بأسمائهم . .

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى ﴾

[سورة مريم : 7]

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

[سورة المائدة : 116]

لكن الله عزَّ وجل لم يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام إلا باسمين ؛ يا أيها النبي، ويا أيها الرسول ، ولم يقل له : يا محمد ، ولقد ذكر اسمَه في معرض الإخبار ، لا في معرض النداء ، فقال تعالى :

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾

[سورة الفتح : 29]

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾

[سورة الأحزاب : 40]

أما إنّه لم يقل له : يا محمد . .

خفضت كل مقامٍ بالإضافة إذ نوديت بالرفع مثل المُفْرَدِ العلم

***

وقياساً على هذه الحقيقة ، فقد أضاف الله عزَّ وجل البيت الحرام إلى ذاته فقال :

﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

[سورة البقرة : 125]

إذاً الكعبة المُشَرَّفة أضيفت إلى الله عزَّ وجل ، فهي أقدس مكانٍ على وجه الأرض.

الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة :

ثم إن الصلاة في المسجد الحرام بمئة ألف صلاة ، وهذا الشيءُ – سبحان الله – ملموسٌ لأنّ الإنسان أحياناً حتى تنعقد الصلة يحتاج إلى بذل جهد كبير ، وهناك في بيت الله الحرام بجهدٍ بسيط تنعقد هذه الصلة ، فكأن الله عزَّ وجل أزال الحُجُب ، وكما يقول الله عزَّ وجل في الحديث القدسي عن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

[مسلم عن أبي هريرة]

وفي حديث آخر :

((يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

وكأن الله سبحانه وتعالى هنا نزل إلى السماء الدنيا ، وخاطب عباده فغفر لهم ورحمهم ، وقذف في قلبهم النور ، وتجلَّى عليهم ، فسَعِدوا وأسْعَدوا . فلا أريد أن أطيل عليكم ، فمن ذاق عرف ، ومن سار على الدرب وصل ، ومن توجَّه إلى بيت الله الحرام فلا بدَّ أن يعود وقد امتلأ قلبه محبةً لله عزَّ وجل .

يوم عرفات أشرف يوم في السنة :

هناك شيء آخر أنّ الله عزَّ وجل في عرفات يُباهي الملائكَةَ ، فيقول : "انظروا عبادي ، جاؤوني شعثاً غبراً ، فاشهدوا أني قد غفرت لهم " ، فلا يستطيع الإنسان بعرفات أن يكون في حالة غفلةٍ ، لأن هذا اليوم أشرف يومٍ في السنة ، فأشرف الشهور رمضان ، وأشرف أيام السنة يوم الموقف . . عرفات . . وأعظم أيام الأسبوع يوم الجمعة ، فالجمعة أشرف أيام الأسبوع ، ورمضان أشرف أشهر السنة ، والموقف في عرفات أشرف أيام السنة قاطبة ، فلذلك حينما يأتي الإنسانُ وكأن عرفات موعد اللقاء الأكبر مع الله عزَّ وجل . .

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ﴾

[سورة البقرة : 198]

كما هداكم إليه ، فهذه المناسك المتنوعة ؛ من طوافٍ ، إلى سعيٍ ، إلى صلاةٍ ، إلى وقوفٍ في عرفة ، إلى وقوفٍ في مزدلفة ، إلى رمي الجمار ، هذه المواقف المتعددة جعلها الله عزَّ وجل مناسبةً كي تقبل عليه منها ، فإذا وصل الإنسان إلى رمي الجمرات ، وقد سألني أخ كريم فقال لي : والله أنا لما حججت لم يستقِم الرميُ معي، بعض الحصيات وصلت ، وبعضها لم يصل ، بعضُها كبير ، وبعضُها صغير ، يا ترى يصح رجمي ؟ سبحان الله ، خطر ببالي هذا الخاطر فقلت له : لو اخترت حصيات من وزنٍ واحد ، وكان الوزن مناسباً ، ووقفت أمام مكان الرمي ، ورميت وفق الأصول الشرعية مئةً في المئة ، وأصبت المرمى إصابةً صحيحة ، وعدتَ إلى بلدك، وعصيت الله عزَّ وجل ، فإن الشيطان هو المنتصر ، فمهما أتقنت رمي الجمرات وعصيت الله عزَّ وجل فالشيطان هو المنتصر ، فإذا أطعتَ الله عزَّ وجل بعد الحج ، فأنت المنتصر ، لذلك قال الإمام الغزالي : " لا يحصل إرغام أنف الشيطان إلا بطاعة الله " .

فأنت مِن الآن إذا أردت أن ترغم أنفه من دون أن ترجمه فأطع الله عزَّ وجل وأنت في بلدك ، وانتهى الأمر ، طاعتك لله عزَّ وجل وأنت في بلدك إرغامٌ لأنف الشيطان ، عليه لعنة الله .

شيءٌ آخر ، أن الإنسان حينما يرجم الشيطان يشعر أن هذه المعرفة التي حَصَلَت له تقتضي معاداة الشيطان ، وهذه المعرفة التي حصلت له من لوازمها الحقيقية أن تعاديَ الشيطان ، وأن تبعدهُ عنك ، وعن خواطرك ، وسلوكك ، وعاداتك ، وعن كل أعمالك اليومية ولا أملك إلا أن أقول لكم : من ذهب إلى بيت الله الحرام مخلصاً بهذا الذهاب ، ومن أحرم من الميقات ، وضبط نفسه . .

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾

[سورة البقرة : 197]

ومن سعى وطاف وصلى ووقف ورمى ، وأقام بمنى ، فهذه المشاعر لا بدَّ أن تكون بالنسبة إليه معالم الهُدَى التي ينتظرها من الله عزَّ وجل ، وبعد الحج إذا توجَّهَ إلى الحرم النبوي الشريف ، فالمشاعر هناك من نوعٍ آخر ، أي إن هذا الهدى كان على يد النبي عليه الصلاة والسلام .

من وقع في ضيق فوقف أمام قبر الرسول أكرمه الله :

قلت لكم يوم الجمعة في الخطبة أن العتبي وهو أحد التابعين كان في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام أمام حجرته الشريفة ، فجاء أعرابي وسلم على النبي عليه الصلاة والسلام وقال : أشهد أنك بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وكشفت الغمة ، وجاهدت في الله حق الجهاد ، وبعدها قال : يا رسول الله سمعت الله يقول :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾

[سورة النساء : 64]

وهأنذا يا رسول الله قد جئت إليك فاستغفر لي الله عزَّ وجل ، يروى أن هذا التابعي الجليل العُتبي أدركته سنةٌ من النوم ، فنام ، فرأى النبي عليه الصلاة والسلام يقول له : يا عُتبي الْحَقْ الأعرابيَّ وبشِّره أن الله قد غفر له ، يقول العالم ابن كثير رحمه الله في تفسيره هذه الآية:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾

[سورة النساء : 64]

هذه الآية تَصِحُّ بعد وفاة رسول الله ، فتصحُّ في حياته ، وتصح بعد مماته ، فكل إنسانٍ ضاقت به الدنيا ، وضعفت حيلته ، أو أخافه شيء ، أو أقلقه شيء ، إذا ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام وتلا هذه الآية :

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾

[سورة النساء : 64]

هذا الأعرابي قال بيتين من الشعر :

يا خير من دفنت في القاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكمُ

نفسي الفداءُ لقبرٍ أنـــــت ساكنــه فيـه العفاف وفيه الجود والكرمُ

***

وقد سمعت من أناس كثيرين واللهِ وهم صادقون أنَّ أشياء كثيرة أقلقتهم ، فلما وقفوا أمام قبر النبي عليه الصلاة والسلام ، وتلوا هذه الآية ، واستشفعوا به ، فَرَّجَ الله سبحانه وتعالى عنهم كربهم ، وما هم فيه .

وتعليل هذه القصة أن الأب أحياناً يريد أن يقيم علاقةً طيبةً بين ابنه وأمه ، فإذا سأل الابن أباه شيئاً فإنَّه يُمَكِّن الأمَّ من تلبية هذه الرغبة ، وبهذا تنمو العلاقة الطيِّبة بين الأم وابنها ، فالله سبحانه وتعالى إذا وقع الإنسان في ضيق ، فوقف أمام هذا القبر العظيم ، أمام مقام رسول الله عليه أتم الصلاة و التسليم ، فإنّ الله يكرمه إكراماً لهذا النبي ، لذلك أنا حيٌ طري في قبري وقال : حياتي خيرٌ لكم ومماتي خيرٌ لكم .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 02 : أحكام وشروط الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا، وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلما، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة المؤمنون ؛ بمناسبة قرب موسم الحجِّ سنبدأ الحديثَ عن بعض أحكام الحجِّ، وسأخصِّص درسًا للإخوة الأكارم الذين يزمعون أداء فريضة الحج هذا العام، وفي آخر الدرس سأحدِّد هذا الدرس.

تعريف الحج:

الحج – بفتح الحاء وبكسرها – فلك أن تقول حَج وحِج، الأول اسمٌ والثاني مصدر حَجَّ يحُجُّ حِجًّا، وهو القصد إلى معظَّمٍ، أي أن تتَّجه إلى مكان عظيم، أو إلى شيء عظيم، هذا معنى الحجِّ في اللُّغة، وأما تعريف الحج شرعًا، فهو زيارة بقاع مخصوصة، في زمن مخصوص، بفعلٍ مخصوص، والمرادُ بالزيارة الطَّوافُ حول البيت العتيق، الكعبة المشرَّفة، و الوقوف بعرفة، و أما البقاع المخصوصة فهي الكعبة و عرفة و أما الزمن المخصوص ففي الطَّواف من طلوع فجر يوم النحر إلى آخر العمر، و في الوقوف بعرفة من زوال شمس يوم عرفة إلى طلوع فجر يوم النحر، إذًا هو زيارة بقاع مخصوصة، في زمن مخصوص، بفعل مخصوص.

مكانة الحج في الإسلام:

الحجُّ أيها الإخوة ركنٌ كبيرٌ من أركان الإسلام، فرضه اللهُ تعالى على المستطيع فإذا كان الإنسانُ فقيرًا و بحث عن مبلغ يستقرضه، نقول له: لا، لا حجَّ عليك، الحجُّ على المستطيع، الحجُّ أحد أركان الإسلام الخمسة، و لكنَّ اللهَ سبحانه تعالى فرضَه على المستطيع أي إنَّ أغلبَ الظنِّ أنَّ المستطيع مشغولٌ بماله، وكأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقول له: تعالَ إليَّ ودعْ بيتَك الفخمَ، وتجارتَك العريضةَ، ومكانتك المرموقة وتعالَ إليَّ، فيقول الحاجُّ: لبَّيك اللهمَّ لبَّيك.

قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾

[سورة آل عمران]

((وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ ؛ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ؛ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[رواه البخاري]

فأركان الإسلام ؛ شهادةُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحجُّ البيت، أمَّا إذا قلنا: بنِيَ الإسلامُ على خمسٍ، شهادةِ – بالكسر – فهي بدل مِن خمسٍ، أن لا إله إلا الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصومِ رمضان وحجِّ البيت.

الحجُّ فرضُ عينٍ، وكلُّكم يعلم أنَّ هناك فروضُ كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الكلِّ، كصلاة الجنازة، ولكنَّ الحجَّ فرضُ عين على المستطيع، يُكَفَّرُ جاحدُه، ويُفسَّق تاركُه وهو فرضٌ في العمُر مرَّةً واحدةً، لحديث الأقرع بن حابس،

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ خَطَبَنَا يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ، كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْحَجُّ، قَالَ فَقَامَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَقَالَ: فِي كُلِّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ لَوْ قُلْتُهَا لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ لَمْ تَعْمَلُوا بِهَا، أَوْ لَمْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْمَلُوا بِهَا، فَمَنْ زَادَ فَهُوَ تَطَوُّعٌ))

[رواه أحمد]

وقد انعقد إجماعُ المسلمين أنه واجبٌ على الفور، من حين الاستطاعة، و الدليل قول النبيِ عليه الصلاة و السلام عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ، يَعْنِي الْفَرِيضَةَ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ))

[رواه أحمد]

وقد ثبتتْ فرضيةُ الحجِّ بالكتاب الكريم، قال تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (96) ﴾

[سورة آل عمران]

ولقول الله عزوجل:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) ﴾

[سورة الحج]

فلا يعرف معانيَ هذه الآيات إلا من ذاق و أدَّى هذه الفريضة بإخلاص و بصدق.

والآية الثالثة التي تؤكِّد فرضية الحجِّ قولُه تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

[سورة البقرة]

إذًا الحجُّ ثبت بنص القرآن الكريم، ونصُّ القرآن الكريم كما تعلمون قطعيُّ الثبوتِ وهذه الآيات قطعية الدِّلالة، وبالسُّنة المطهَّرة، لقول النبيّ عليه الصلاة و السلام فيما رواه أَبُو هُرَيْرَةَ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسلَّمَ فقال:

((أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ))

[رواه مسلم]

لَوَجَبَتْ – أي في كلِّ عام – إذًا هو في العمر مرة واحدة، ودائمًا الذي سكت عنه الشَّرعُ فيه حكمةٌ بالغةٌ، قال عليه الصلاة و السلام: إن الله أمركم بأشياء، ونهاكم عن أشياء وسكت عن أشياء" فسكوتُ الشارع الحكيم عن بعض الأمور توسعةٌ على المسلمين، و الذي أمر به الشرعُ لا يقلُّ حكمةً عن الذي سكت عنه، والشرعُ حكيم فيما أمر به، وفيما نهى عنه، وفيما سكت عنه، فإن الله كتب عليكم الحج، ولم يحدِّد النبيُّ ، بل أطلقه، وسكت النبيُ الكريم، قال: كل عام مرة، ثانية، بقي ساكتًا، ثم قال أفي كل عام ؟ فقال عليه الصلاة و السلام: لو قلتُ نعم لوجبت – أي في كلِّ عام – و لما استطعتم، لأنّ هذا فوق طاقتكم، و في رواية أخرى لهذا الحديث حينما قال:

أفي كل عام فقال عليه الصلاة و السلام: لو قلتها لوجبت، و لو وجبتْ – أي في كل عام – لم تعملوا بها و لن تستطيعوا أن تعملوا بها " الحج مرة، فمن زاد فهو تطوُّع.

هناك حديثٌ آخر عامٌّ يبيِّن أنَّ المؤمنَ لا ينبغي له أن يكثر من السؤال إذا سكت النبيُّ عليه الصلاة والسلام عن بعض الأشياء

((فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ فَرَضَ عَلَيْكُمْ الْحَجَّ، فَقَالَ رَجُلٌ: فِي كُلِّ عَامٍ، فَسَكَتَ عَنْهُ حَتَّى أَعَادَهُ ثَلَاثًا، فَقَالَ: لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَوْ وَجَبَتْ مَا قُمْتُمْ بِهَا، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالشَّيْءِ فَخُذُوا بِهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ))

[رواه النسائي]

أي دعوني ما دمتُ قد سكتُّ عن شيء، فلا تسألوني عنه، ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ... وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، انظُرْ فإنَّ الاستقامة مطلقةٌ، والأعمالُ الصالحة فبمقتضى الاستطاعة، أمَّا المنهياتُ فيجب أن تُترَك كلِّيًّا، وإلا وقع الحجابُ بين العبد وبين الله عزوجلّ أمَّا المأموراتُ المندوباتُ فنأخذ منها بقدر ما نستطيع، وقد أجمعت الأمَّةُ الإسلامية على فرضية الحجِ على المستطيع، كما أجمعت على فرضية الصلاة و الصوم والزكاة، إذًا فرضيةُ الحجِ ثبتت بالكتاب والسُّنة و الإجماع، و الكتابُ والسُّنةُ أصلانِ كبيران من أصول التشريع والإجماعُ والقياسُ أصلانِ فرعيانِ منه.

تحدَّثتُ يوم الجمعة في الخطبة عن فوائد الحجِ، وكيف أن الحجَّ رحلة إلى الله عزوجل، وتفريغٌ لهذه النفس من مشاغل الدنيا، وتسريعٌ في إقبال العبد على الله عزوجل ورحلة تدريب على الرحلة الأخيرة إلى الدار الآخرة، رحلةٌ قبل الأخيرة، فهي رحلةٌ إلى الله عزوجل، بل انسلاخٌ من الأقنعة الكاذبة التي نتوهَّمها كقناعِ المال، هذا القناعُ يخلَع عنك في الحجِ، وقناعُ المكانة الاجتماعية، وقناعُ المُتَع التي تمارسها و أنت في بلدك، هذه الأقنعة كلُّها ستسقط عن صاحبها في الحجِ، كأنَّ الحجَّ يعيدك إلى حجمك الحقيقي، وكأنَّك هناك تتفرَّغ إلى الإقبال على الله عزوجل، من أجل أن تذوق طعمَ قربه، وعلى كلٍّ ؛ كان الحديث يوم الجمعة طويلًا عن فوائد الحجُّ، وقد غلبَ على هذا الدرس الطابعُ الفقهي، لذلك ننتقل إلى شروط وجوبه.

الحجُّ فرض عين على المسلم، فمن شروط وجوبه الإسلام، فلا يجب الحجُّ على غير المسلم، فلو أنّ إنسانًا كافرًا كان مستطيعا ماليًا أو أنّ إنسانًا كافرًا غنيًّا أسلم ثم افتقر فرَضًا هل عليه الحجُّ ؟ لا، لأنه لمَّا كان كافرا مستطيعًا لم يكن محلَّ الخطاب، فهذه نقطةٌ مهمَّةٌ، لأنّ من شروط الحجِّ الإسلام، فلا يجب على غير المسلم، لعدم خطاب الكافر بالفروع، و من شروطه العقلُ، فلا يجب على المجنون لأنه ليس أهلا للتَّكليف، لفقده أداةَ فهم الخطاب ومعرفة الأحكام، وإذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب، والبلوغ فلا يجب على الصغير لأن التكليفَ يبدأ بالبلوغ، لكنَّك ترى في الحجِّ أطفالاً صغارا يرتدون ثياب الإحرام و يحُجُّون مع آباءهم ، فهذا من قبيل التدريب والتَّبرُّك، ولكنَّ الصغير ليس عليه الحجُّ، والحرِّيةُ، فلا يجب الحجُّ على العبد ويقاس على العبودية مَن فَقَدَ حرِّيته، كَمَن كان مسجونا، فليس عليه الحجُّ، فلا يجب على العبد لأن الحجّ فريضةٌ بدنيَّة مالية، والعبدُ وما ملكتْ يده لسيِّده.

فلو حجَّ الصبيُّ، أو حجَّ العبدُ مع سيِّده وقع حجُّهما نفلاً، لا فريضةً، بمعنى أن الصبيَّ إذا كبُر عليه حجَّة الإسلام، و أن العبد إذا أعتِق عليه حجَّة الإسلام، ويُشترط العلمُ بفرضية الحجِّ لمن أسلم بدار الحرب، أي إن الإنسان إذا أسلم حديثًا في دار الحرب – نحن عندنا ثلاثُ دور، دارُ الإسلام، فرجل نشأ في بيئة مسلمة، نشأ في الشام، و يقول: واللهِ أنا لا علمَ لي بالحجِّ، هذا كلامٌ مرفوض، أو إنسان نشأ في بلاد إسلامية وليس عنده علم بأن الحجَّ قد فُرِض عليه، هذا كلام مرفوض أيضًا، هذه دار الإسلام فلا جهل فيها، وعندنا دار الحرب، و عندنا دار الكفر، و ثمَّة احتمال أن يسلم الإنسانُ في أثناء الحرب، في أثناء الفتوح، أسلم وقد ودخل في أشهر الحج، هذا ليس علمه بفرضية الحج قائمًا، ومن شروط الحج العلمُ بفرضية الحج لمن أسلم بدار الحرب، أما مَن أسلم بدار الإسلام فلا يُشترَط العلمُ، بل يُعدُّ وجودُه في دار الإسلام علمًا، وما دمتَ في دار الإسلام فأنت قطعًا تعلم أن الحج فرضٌ.

وتأسيسا على هذه الأفكار أقول: يجب الحجُّ على العبد بعد العتق، وعلى الصبيّ بعد البلوغ، و على المجنون بعد أن يعود إلى عقله، دخل المِصحَّ فصحا وجب الحجُّ عليه، وقد كان ساقطًا عنه حينما كان عبدا أوصبيًّا أو مجنونا، والنقطة الدقيقة أنَّ الفقيرَ إذا حجَّ يقع حجُّه عن الفريضة، فإذا كان الإنسان متشوِّقًا كثيرا، وكان فقيرا وجمَّع قرشين وأعانه الناسُ ذهب إلى الحجِّ، هل نقول له: هذه حجَّةٌ نافلةٌ ؟ لا، فإذا حجَّ الفقيرُ يقع حجُّه عن الفريضة، أي لا تلزَمه حَجَّةٌ أخرى، و لو أصبح فيما بعدُ غنيًّا، هكذا الحكمُ الشرعي.

ومن شروط الحجِ أن يُؤدَّى في الوقت المناسب، ووقتُ الحجِّ هو أشهر الحجِّ، فمن ملك مالًا و صرفه في غير أشهر الحجِّ، كَمَن كانت لديه خمسون ألف ليرة، واشترى بها دكّانا في غير أشهر الحجِّ، فلا حجَّ عليه، ومن ملك مالاً وصرفه قبل حلول أشهر الحجِّ فلا شيء عليه و أشهرُ الحجِّ هي ؛ شوَّال وذو القعدة والعشرُ الأولُ من ذي الحِجَّة، هذه أشهر الحجِّ قال تعالى:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾

[سورة البقرة]

ويجب أن يُؤدَّى في الوقت المناسب ويجب العلمُ به وبفرضيته والحريَّة والعقلُ والبلوغُ والإسلام هذه شروط الوجوب.

وبقيت الاستطاعة، ومعناها القدرةُ، ولها وجوهٌ كثيرةٌ لا بدَّ من تحقُّقها، لأنها تكون بالمال وبالنفس وبالطريق، فأما الاستطاعة بالمال فتكون بمُلك الزاد، أي أن تملك نفقات الطَّعام والشراب طيلةَ أيام الحجِّ، و يجب أن تعلم كم يكلِّف طعامُ الحاجِّ، وأن تملك قيمة الزاد وأن تملك الراحلةَ أو أجرتَها، والآن ثمن ركوب الطائرة، ذهابًا وإيابًا، وبعضُ العلماء قالوا: من كان غيرَ مستطيعٍ أن يركب الباخرة و لم يملك ثمن ركوب الطائرة فليس مستطيعاً، فيجب أن يملك الزاد و الراحلةَ ذهابا وإيابًا، ويجب أن يملك نفقاتِ السكنى أيضًا، كلُّ هذه النفقات يجب أن تكون زائدة عن نفقات سكنه، وأثاث بيته وثيابه ونفقات عياله الملتزِم بالإنفاق عليهم إلى حين عودته، ومصروف البيت وأجرته، والطعام و الشرابُ، ونفقات الكهرباء والماء، فكما كان هذا البيتُ في وجوده يجب أن يستمر بعد سفره للحج، وهذه النفقات بالحدِّ الوسط، وليس بالحدِّ الأعلى، من غير إسراف و لا تقتير، فهذه هي الاستطاعة التي تشترط لوجوب الحجِّ، فمن لم يملك هذا المال الذي يمكّنه من الحجِّ فلا يجب عليه الحجُّ. أما الاستطاعة بالنفس فهي أن يكون المكلَّف صحيح البدن و الأعضاء، فلا يجب الأداءُ مع العجز الدائم كالمُقعَد، ومقطوع اليد و الرِّجل، ولا على الشيخ الكبير الذي لا يثبت على الراحلة بنفسه، ولا على الأعمى ولو وجد قائدًا، و لا على المريض الذي لا يُرجَى بُرْؤُه كلُّ هؤلاء لا يستطيعون الحجَّ، لا لعلَّة المال، بل لعلَّة الصحَّة. وأما الاستطاعة بالطريق، فيجب أن يكون الطريق آمنًا بغلبة السلام، فإن خاف على نفسه القتل أو خاف على ماله السرقة فلا يجب عليه الأداء، فوجب عليه الحجُّ و سقط عنه الأداءُ، وهناك أحكامٌ أخرى سوف نراها بعد قليل.

قال العلماءُ: والذين يشعرون بدُنُوِّ أجلهم قبل أن يؤدُّوا حجَّ الفريضة بسبب عدم أمن الطريق، أو بسبب عدم صحَّة البدن لعجزهم، كالمُقعد الذي لا يستطيع المشيَ، أو الشيخ الهرِم أو الأعمى، وغيرهم ممَّن لا يتمكَّنون من أداء الحجِّ بأنفسهم، فيجب عليهم الإيصاءُ بالحجِّ عنهم بعد الوفاة، فما دمتَ تملك المالَ فقد وجب عليك الحجُّ، فعندنا شروط الوجوب، وعندنا شروط الأداء، وما دمتَ غيرَ مستطيع لصحَّتك سقط عليك الأداءُ بذاته، ووجب عليك أن تجهِّز حاجًّا آخر، أو أن توصي بأن يُحجَّ عنك.

شروط أداء الحجِّ:

أمَّا الآن فمع شروط الأداء، أوَّلاً: سلامة البدن من الآفات المانعة من القيام بما لا بدَّ منه في السفر، فلا يجب الأداءُ على المُقعَد و الأعمى وإن وجد قائدًا، والشيخُ الكبير الذي لا يثبُت على الراحلة.

ومن شروط أداء الحجِّ زوالُ المانع الحسِّي من الذهاب إلى الحجِّ، كالحبس، والمنع من السفر، أو الخوف، أو عدم وجود وسيلة للسفر، ومن شروط الأداء أمنُ الطريق، ومن شروط الأداء عدمُ قيام العِدَّة للمرأة، من طلاق بائن، فالمرأةُ المطلّقةُ وهي في العِدَّة ليس عليها حجٌّ، ولكن ليس عليها أداؤه في هذا العام، هذا فرق بين شروط الوجوب و شروط الأداء، أو أنها مطلَّقةٌ طلاقًا رجعيًّا و هي في العِدَّة، أو أنها معتدَّةٌ من وفاة زوجها، فجميع أنواع العِدَّة تُسقِط أداءَ الحجِّ لا فرضِيتَه، لأن الله تعالى نهى المعتدَّاتِ عن الخروج من بيوتهن لقوله تعالى:

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1) ﴾

[سورة الطلاق]

أما بالنسبة إلى المرأة فلا بدَّ من أن تخرج – اِنتبِهوا جيّدًا – فلا بدَّ أن تخرج مع زوجٍ أو مَحرَمٍ تأبيدًا، وليس محرما مؤقَّتًا، بل على التأبيد، فهناك أشخاصٌ كزوجِ أختك لا يجوز أن يتزوجها، ولكنْ إذا ماتت أختُها يحقُّ لها الزواجُ به، فهذا مَحرمٌ مؤقَّتٌ، فلا يجوز أن تخرج المرأةُ إلى الحجِّ إلا مع زوج أو مَحرم على التأبيدِ

((لحديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ))

[رواه البخاري]

هذا ليس للحجِ فقط، بل لأيّ سفرٍ، وهناك قصصٌ كثيرة تثبت حكمة الشرع في هذا النهي، فإذا سافرت المرأةُ وحدها كان الطمعُ فيها كبيرًا.

فإذا وجدت المرأة محرمًا ؛ وليكن أخاها ؛ لم يكن للزوج أن يمنعها لحجِّ الفرض وله أن يمنعها لحجّ النفل، فالزوجُ لا يحِقّ له أن يمنع امرأتَه من أن تحُجَّ حجَّ الفرض إذا وجدتْ مَحرمًا.

تعريف المَحرَم:

وتعريف المَحرم بالضبطِ ؛ من لا تجوز مُناكحتَه على التأبيد، لنسب أو رضاعٍ أو مصاهرة، وقد منع العلماءُ أن تسافر المرأةُ مع أخيها من الرضاعة لغلبة الفساد، ويؤكِّد الفقهاءُ أنه لا يجوز للأخ أن يخلُوَ بأخته من الرضاع لغلبة الفساد.

وهناك شروط ثالثة، شروط الوجوب تحدَّثنا عنها، وشروط الأداء تحدَّثنا عنها وبقيَ شروطُ صحَّة الأداء، وهي ؛ الإسلام و العقل و الإحرامُ بالحجِ، فالإحرامُ من شروط الحجّ في المذهب الحنفي، و الفرقُ بين الشرط والركنأنّ، الشرط ليس داخلا في صُلب الفريضة، بل يجب أن يُؤدَّى قبل الشروع في الفريضة، والمرادُ بالإحرام النيةُ مع التلبيةِ، فهو بالنسبة للحجّ كالنية للصلاة، والوقت المخصوص أشهرُ الحجِ، و المكان المخصوص الميقاتُ المكاني، أيْ الأماكنُ التي حدَّدها الشارعُ الحكيم لأداء فريضة الحجِ.

بعضُ الملاحظاتِ المتعلِقة بفرضية الحجِّ:

إذا حجَّ الكافرُ هو كافر ؛ و لماذا كفر؟ إمَّا أنه نطق بكلمة الكفر، فلو قال إنسانٌ: لا أرى الصلاةَ واجبةً، وهذه الأشياءُ قديمةٌ ولا تناسب هذا العصرَ فقد كفر، وإذا أنكر الإنسانُ أحدَ الفروض فقد كفر، وإذا أنكرها قولاً أو عملاً فقد كفر، فإذا حجَّ الكافرُ ثم أسلم فلا يُغنِي حجُّه ذاك عن حَجَّة الإسلام، وهي غيرُ مقبولة، وأحيانا الإنسان بحكم عمله التعاقدي في السعودية مع أصدقاءَ ويتحرجِ فيحُجَّ معهم، أما هو الحجُّ عنده فغير راضٍ به إطلاقًا، بل شعائره أشياء لا قيمة لها، غيبيات وخرافات، فحجَّ معهم وهذا اعتقادُه في الحجِ فهو كافر، فإذا أسلم فلا تُغني حجَّتُه هذه عن حَجَّة الإسلام.

وإذا حجَّ الصغيرُ ثم بلغ لا يُغني حجُّه في صِغره عن حَجَّة الإسلام أيضًا، وإذا ارتدَّ المسلمُ سقطتْ أعمالُه الصالحةُ كلُّها بارتداده، و منها الحجُّ، فإذا عاد و أسلم وجب عليه حجُّة الفريضة، لأن وقتَ الحج هو العمُر، وهو باطل، و الارتدادُ هو الخروج عن الإسلام، و يكون بالاعتقاد، كاعتقاد شريك لله تعالى، أو إنكار اليوم الآخر، أو إنكار ما هو معلوم من الدين بالضرورة، كالصلاة والصيام والزكاة و الحجِ أو نحو ذلك، أو أن ينطق بكلمة الكفر، فإذا كان ثمَّة تشدُّد، وسبَّ الإنسانُ الدينَ فهذا ارتداد، ويُستتابُ، فإن لم يتُبْ تطلّق امرأتُه و تصادر أموالُه، لأن هذه كلمة الكفر.

وإذا حجَّ الفقيرُ بمالٍ أُدّيَ إليه، أو وُهِب له، أو استدانه، صحَّ حجُّه، هذه نقطةٌ مهمَة، فباعتبارك فقيرا، و لستَ مستطيعا، و حججْت فحجُّك باطل !! لا، هذا غلط، فإذا حجَّ الفقيرُ بمالٍ أُدّيَ إليه أو وُهِب له أو استدانه صحَّ حجُّه و سقط عنه حجُّ الفريضة.

من كان له بيتٌ لا يسكنه، وهو زائد عن حاجته وجب عليه أن يبيعه ليحجَّ، أمَّا لو كان له بيتٌ كبيرٌ لا يحتاج إليه كلِّه، فلا يجب عليه بيعُ بعضه، والشرعُ لم كلَّفك بذلك.

ويُكرَه الخروجُ إلى الحجِّ في حقِّ المدين، الذي عليه ديْن، إذا لم يكن له مالٌ يقضي به الديْنَ، إلا أن يأخذ إذنًا من الدائن، فيستأذنه، كأن يكون شخص له معك مبلغ ضخمٌ، وذهب إلى الحجِّ، تنهاه قبل أن يحُجَّ حتّى يؤدِّي ما عليه من دين، و قد يكون الدائن راقيا كثيرا، وأَذِن فلا مانع في ذلك، فالمدين لا يصحُّ حجُّه إلا إذا أذِن له الدائنُ.

حكم الحج من حيث الفور و التراخي:

آخرُ موضوع نعالجه ؛ هل يجب الحجُّ على الفور أم على التراخي ؟ مذهب أبي حنيفة و أبي يوسف ؛ تلميذه الأول و الإمام مالك و المُزَني من الشافعية تلميذ الشافعي ر حمهم الله تعالى أنَّ الحج يجب علىالفور، و هو الإتيان به في أول أوقات الإمكان و في أول سنة من سنين الاستطاعة، فإن أخَّره بلا عذر سنين يُفسَّق ويأثم، وتُردُ شهادتُه إلا إذا أدَّى ولو في آخر عمره فإن الإثم يرتفع، أما إن كان تأخيرُه لعذر فشيء آخر.

وما الدليلُ ؟ ما دليل وجوب الفور ؟ هو الاحتياطُ، لأن الحجَّ لا يجوز إلا في وقت معيَّن واحد من السَّنة، و الموتُ يقع في شكل غير نادر في السنة، واحتمال موت الإنسان قبل أن يحُجَّ واقعٌ، إذًا الدليل هو الاحتياط، فتأخيره بعد التمكُّن تعريضٌ له على الفوات، فيكون التأخيرُ مكروها كراهة تحريمية، لحديث ابن عباس رضي الله عنهما ؛ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ يَعْنِي الْفَرِيضَةَ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ))

[رواه أحمد]

هذا مذهب الإمام أبي حنيفة وأبي يوسف ومالك والمزني، أما الإمام الشافعي ومحمد بن يوسف التلميذ الثاني لأبي حنيفة رحمهم اللهُ تعالى أنه يجب على التراخي لا على الفور، لأن الحج يُؤَدَّى في العمر، و العمر كلُّه وقتٌ للحج، كالوقت في الصلاة يصح تأخيرُها عن أوَّل الوقت، إلا أنه إذا أخَّر بعد التمكُّن حتى مات ولم يحُجَّ فقد أَثِم، وفي كل الأحوال يُفضَّل التعجيلُ للحج، وسوف نأخذ في درس قادم إن شاء اللهُ تعالى بعض فروض الحج وبعض سننه وواجباته.

و الأن إلى قصة التابعي الأحنف بن قيس، نحن في أوائل خلافة الفاروق نضَّر اللهُ وجهه، وها هم هؤلاء الأنجاد الأمجاد رهطُ الأحنف بن قيس من بني تميم يمتطون صهوات الخيول الصافنات، و يتقلَّدون الرِقاق المُرهفَات، و يرحلون عن منازلهم في الأحساء ونجد ميمِّنين وجوههم شطرَ البصرة، يريدون الانضمام إلى جموع المسلمين المحتشدين هناك تحت قيادة عتبة بن غزوان لقتال الفرس جهادا في سبيل اللهِ، و طلبًا لما عند الله من حسن الثواب، و كان معهم فتاهم الأحنف بن قيس، وذات يوم تلقَّى عتبةُ بن غزوان كتابًا – قائد الجيش – من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللهُ عنه يأمره أن يرسل إليه عشرةً من صُلَحاء عسكره وأحسنهم بلاءً في القتال، ليقف منهم على أحوال الجيش، و ليتملَّى مما عندهم من غير مشورة، فصدع عتبةُ بالأمر و جهَّز عشرة من صفوة عسكره، وجعل بينهم الأحنف بن قيس ووجَّههم إلى المدينة، و لمل مثُل رجالُ الوفد بين يدي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رحَّب بهم و أدنى مجالسهم، ثم سألهم عن حوائجهم و حوائج عامَّة الناس، فنهضوا إليه تِباعًا وقالوا: أمَّا عامَّةُ الناس فأنت وليُّهم، لا علاقة لنا بهم، وصاحبُ شؤونهم، أما نحن فنتكلَّم عن خاصَّة أنفسنا، ثم طلب كلٌّ منهم حاجته التي تعنيه، وكان الأحنفُ بن قيس آخر الرجال كلامًا، لأنه كان أصغرَهم سنًّا، فلما جاء دورُه في الكلام حمِد اللهَ وأثنى عليه ثم قال: يا أمير المؤمنين إن جند المسلمين الذين حلُّوا في مصرَ قد

نزلوا في الخُضرة والنُّضرة، والخصب من منازل الفراعنة، وإن الذين حلُّوا في ديار الشام قد نزلوا في الرغد والثمار والرياض من منازل القياصرة، وإن الذين حلُّوا في ديار الفرس قد نزلوا على ضفاف النهر العذبة، والجنان الوارفة من منازل الأكاسرة، لكنّ قومنا الذين حلّوا في البصرة قد نزلوا في أرض هشاشةٍ نشاشةٍ –الهشاشة الأرض اللينة المُسترخِية، والنشاشة المالحة– لايجِفُّ ترابُها ولايَنبُت مرعاها، أحدُ طرفيها بحرُ قُجاجٌ وطرَفُها الآخرُ فَلاةٌ قفرٌ – وصفٌ دقيق جدًّا – فأَزِل يا أمير المؤمنين ضرَّهم، وأنعِش حياتهم ومُرْ والِيَك على البصرة أن يحفر لهم نهرًا يستعذبون منه الماءَ، ويسقون الأنعامَ والزَّرعَ وتحسُن حالُهم، ويصلُح عِيالُهم، وترخُص أسعارُهم، ويستعينون بذلك على الجهاد في سبيل اللهِ فنظر عمرُ إليه في إعجاب و قال: هلاَّ فعلتم مثل ما فعل هذا، الجماعة قالوا: أما عامة الناس فأنت وليُّهم، فقال سِّدنا عمرُ: إنه واللهِ لسيِّدٌ، هذا سيِّد، لأن سيِّد القوم خادمُهم، إنه و اللهِ لسيّد إذا كان الإنسانُ في مرتبة عُليا في مجتمعه، فعليه تبِعاتٌ كثيرةٌ، عليه أن يخدم الناس جميعا ليكون حقًّا سيّدَهم، ثم قدَّم إليهم جوائزَهم، وقدَّم للأحنف جائزته فقال: واللهِ يا أمير المؤمنين ما قطعنا إليك الفَلَواتِ و لا ضربْنا إليك أكبادَ الإبل في البُكور والعَشِياتِ لنيل الجوائز، وما ليَ من حاجة لديَّ إلا حاجةَ قومي التي ذكرتُ، فإن تقضِها لهم تكنْ قد كفيتَ ووفّيتَ، فازداد عمرُ إعجابًا به و قال: هذا الغلامُ سيِّد أهل البصرة، و لما انفضَّ المجلسُ وهمَّ رجالُ الوفد بالانصراف إلى رواحلهم ليبيتوا عندها أجال عمرُ بصرَه في حقائبهم فرأى طرَف ثوب خارجًا من إحداهم فقام فلمسه بيده و قال: لمَن هذا ؟ فقال الأحنفُ: ليَ يا أمير المؤمنين، و قد أدرك أنه استغلاه فقال له عمرُ: بِكَمْ اشتريته ؟ فقال: بثمانية دراهم، فقال: هلاَّ اكتفيتَ بواحد ووضعتَ فضلَ مالك في موضعٍ تعين به مسلما، أي اشترِ ثوبا بدرهم ووضعتَ فضلَ مالك في موضعٍ تعين به مسلما، ثم قال رضي اللهُ عنه:خذوا من أموالكم ما يصلِح شأنكم، وضعوا الفضولَ في مواضعها تُريحوا أنفسكم و تربحوا.

سيّدنا عمر أذِن للرجال بالعودة إلى البصرة، غير أنه لم يسمح للأحنف أن يعود إليها، واستبقاه عنده حولاً كاملاً، ولقد أدرك عمرُ بثاقب نظره ما توافر لهذا الفتى التميمي من حِدَّة الذكاء، ونصاعة البيان، وسمُوّ النفس، وعُلُوِّ الهمَّة، وغِنى المواهب، فأراد أن يُبقيَه قريبا منه ليصنعه على عينه، وليلقى كبارَ الصحابة فيهتدي بهديهم، ويتفقَّه في دين الله على أيديهم ثم إنه كان يريد أن يختبره عن كثَب، وأن ينفُذ إلى دخيلة نفسه قبل أن يولّيه بعضَ شؤون المسلمين ذلك أن عمر كان يخشى الأذكياءَ الفصحاء أشدَّ الخشية، لأنهم إذا صلحوا ملؤوا الدنيا خيرًا وإذا فسدوا كان ذكاءهم وبَالاً على الخلق، فالأذكياءُ يُخوِّفون، يا أحنف إني قد ابتليْتُك واختبرتُك فلم أرَ إلا خيرًا، وقد رأيتُ علانيتَك حسنةً، وإني لأرجو أن تكون سريرتُك حسنةً أيضًا مثلَ علانيتك، ثم وجَّهه لحرب الفرس و كتب لقائده

أبي موسى الأشعري: أمَّا بعدُ فأذنِ الأحنفَ بن قيس و شاورْه واسمعْ منه، فانضوى الأحنف تحت ألوية المسلمين المشرِّقة في بلاد فارس، و أبْلى من ضُروب البطولات ما جعل سهمَه يعلو، ونجمَه يتألّق، وأبلى هو وقومه بنو تميم في قتال العدوِّ أكرمَ البلاء، وبذلوا أسخى البذل، حتى فتح اللهُ على أيديهم مدينةَ تُوسْتَرْ، دُرّةَ التاج الكِسرَوِي، وأوقع في أسرهم الهُرمزان.

كان الهرمزان من أشدِّ قواد الفرس بأسًا، وأقوى أمرائهم شكيمةً، و أمضاهم عزيمةً وأوسعهم مكيدةً في الحرب، وقد ألجأتْه انتصاراتُ المسلمين إلى مصالحتهم أكثر من مرة، غير أنه كان يغدر بهم كلما سمحتْ له الفرصةُ، وظنَّ أنه قادرٌ على النصر، فلمل أطبقوا عليه تحصَّن منهم في بُرْجٍ من أبراج الحصن و قال: إن معي مائة سهم وواللهِ ما تصلون إليَّ ما دام في يدي شيءٌ منه، و أنتم تعلمون أني رامٍ لا تخطِأ له رمية، فما جدوى أسركم إيايَ بعد أن أقتل منكم مائة ؟ فقالوا و ماذا تريد ؟ فقال: أريد أن أنزل على حكم خليفتكم عمر، ولْيفعلْ بي ما يشاء، فقالوا: لك ذلك، فرمى قوسه على الأرض، ونزل إليهم مستسلمًا، فشدُّوا وثاقه وأُرسِل إلى المدينة مع وفد من أبطال الفتح، و كان على رأسهم أنسُ بن مالك خادم رسولِ الله صلى الل عليه و سلم و الأحنفُ بن قيس تلميذُ المدرسة العُمرية، ومضى الوفدُ يحُثُّ الخُطى بالهرمزان نحو المدينة ليبشِّر سيِّدَنا عمر بالفتح، ويحمل إلى بيت مال المسلمين خمس الغنائم، وليسلّم ناقض العهود، خوَّانَ الذمم إلى الخليفة ليحكم فيه بحكمه، وسيدنا صلاح الدين لما انتصر على الفرنجة عفا عن كلِّ ملوك فرنجة إلا ملكًا واحدًا كان كلَّ عامٍ يغدِر بالمسلمين، ويقتل حجَّاجهم هذا لم يعفُ عنه، بل قتله بيده، لأنه كان غدَّارا، فهذا كان ناقضًا للعهود، خوَّانا للذِّمم، أُرسِل إلى المدينة ليحكم فيه سيدنا عمر بحكمه، و لما بلغوا حواشيَ المدينة أعدُّوا الهرمزان ليعرضوه على المسلمين على هيئته هناك، فألبسوه ثيابَه المنسوجة من ثمين الديباج، و المُوشَّاة بخيوط الذَّهب، ووضعوا على رأسه تاجَه المرَصَّعَ بالدُّرِّ و الجوهر و قلَّدوه صوْلجانَه المصنوعَ من الإبريز المُكلَّل باليواقيت و اللآلئ، وأدخلوه إلى المدينة بهيئته العظيمة يوم كان قائدًا كبيرا في بلاد فارس، فما أن وطِأتْ أقدامُهم أرضَ يثربَ حتى تجمَّع الناسُ عليهم شِيبًا وشبَّانًا، إنه منظرٌ غريبٌ، و جعلوا ينظرون إلى أسيرهم، ويعجبون من هيئته وزيِّه أشدَّ العجَب، توجّه الوفدُ بالهرمزان إلى دار عمر فلم يجدوه، فسألوا عنه، فقيل هو في المسجد يستقبل وفدًا قدِم عليه فانطلقوا إلى المسجد فلم يجدوه، و كانوا كلما طال بهم البحثُ عن الخليفة تكاثر الناسُ عليهم و اشتدَّ الزحامُ، فصار الأمرُ فُرجة، وفيما هم في حيرتهم رآهم صبيةٌ صغارٌ يلعبون فقالوا: ما شأنكم ؟ نراكم ذاهبين آيبين لعلَّكم تريدون أميرَ المؤمنين، قالوا: نعم نريده، قالوا: فإنه نائمٌ في ميمنة المسجد متوسِّدٌ بُرنسَه، و كان عمرُ رضي اللهُ عنه قد خرج

للقاء وفدٍ من أهل الكوفة، فلما انصرف الوفدُ خلع البُرنس ووضعه تحت رأسه وأسلم جفنيه للتراب، فانطلق الوفدُ بالهرمزان إلى ميمنة المسجد فلما رأوا الخليفةَ نائما جلسوا دونه، وأجلسوا أسيرَهم معهم، و لم يكن للهرمزان يفقه العربيةَ، وما كان يخطر بباله أن هذا النائمَ في ناحية المسجد هو أمير المؤمنين عمر، حقًّا لقد كان قد سمع عن تقشُّفه، وزهده في زخرُف الدنيا وزينتها، لكنه ما كان يتخيَّل أن ينام قاهرُ الروم و الفرس في طرف المسجد من غير غطاء، و لا وِكاء و لا حرَّاسٍ و لا حُجَّابٍ و لما رأى القومَ يجلسون صامتين، ظنهم الهرمزانُ يتأهَّبون للصلاة، ويترقَّبون قُدوم الخليفة لكنَّ الأحنفَ بن قيس جعل يشير إلى الناس أن يسكتوا، ويكفُّوا عن الجلبة لكي لا يوقظوا الخليفة فقد كان يعلم علم اليقين من صحبته السابقة أنه قلَّما يُغمَض له جفنٌ في الليل، فهو إمَّا قائمٌ في محرابه يعبد اللهَ، وإمَّا متخفِّفٌ من ثيابه يجوب أحياءَ المدينة ليعرف أحوالَ الرعية، أو عاسٌّ يحرس بيوت المسلمين من الطُّراق، فأثارتْ إشاراتُ الأحنف إلى الناس انتباهَ الهرمزان، فالتفت إلى المغيرة بن شعبة و كان يعرف الفارسية و قال: مَن هذا النائمُ ؟ فقال له المغيرةُ: إنه عمر فثغَرَ الهرمزانُ فمه دهشةً و قال: عمر! أين حرسُه و حجَّابُه ؟ فقال له المغيرةُ: ليس له حارسٌ و لا حاجبٌ، فقال الهرمزان: ينبغي أن يكون نبيًّا، فقال المغيرة: لا، بل يفعل فعلَ الأنبياء إذ لا نبيَّ بعد رسول اللهِ، ثم كثُر الناسُ، و ارتفعتْ الجلَبةُ فاستيقظ عمرُ، واستوى جالسًا، ونظر إلى الناس في دهشةٍ، فرأى الأميرَ الفارسي وعلى رأسه تاجُه المتَوهِّج تحت أشعَّة الشَّمس، وفي يده صولجَانُه الذي يخطف بريقُه الأبصارَ، فحدَّق وقال: مَن هذا ؟ فقالوا: هو الهرمزانُ، فقال: الهرمزانُ فقال الأحنفُ:: نعم يا أمير المؤمنين، فتأمَّل عمرُ ما عليه من الذهب واللآلئ واليواقيت، و الجواهر والحرير، ثم أشاح بوجهه و قال: أعوذ بالله من النار، و أستعين به على الدنيا، الحمد لله الذي أذلَّ هذا و أشياعَه للإسلام، و قال: يا معشر المسلمين تمسّكوا بهذا الدين ؛ كلمة عميقة ؛ يا معشر المسلمين تمسّكوا بهذا الدين، واهتدوا بهدي نبيّكم الكريم ولاتُبطِركم الدنيا فإنها غرَّارةٌ، فلما فرغ من كلامه بشَّره الأحنفُ بن قيس بالفتح و أخبره بما أفاء اللهُ على المسلمين من الغنائم، وقال: يا أمير المؤمنين إن الهرمزان قد استأسَر لنا – أي استسلم – وطلب أن ينزل على حكمك فيه، فكلِّمه إذًا، قال: لا أكلِّمه حتى تخلعوا عنه هذه المظاهر فخلعوا عنه حِليته وتاجه، وأخذوا منه صولجانه، وألسوه ثوباً يستره، عند ذلك التفت عمر إليه، وقال: يا هرمزان – طبعا هناك مترجِم – كيف وجدتَ وبالَ الغدر، وعاقبة أمر الله ؟ فأطرق الهرمزان في ذِلَّة، ثم قال: يا عمر لقد كنا في الجاهلية نحن و إياكم و لم يكن الله معنا و لا معكم، فغلبناكم، فلما أسلمتم صار اللهُ معكم فغلبتمونا، فقال له عمر: لقد غلبتمونا لهذا الذي ذكرتَ، ولأمر آخر هو اجتماعكم وتفرُّقنا، ثم نظر إليه بشدة و قال: ما عذرُك في انتقاضك المرة تِلْوَ المرة عهود

المسلمين يا هرمزان، هل لك عذرٌ في الغدر ؟ فقال الهرمزانُ: أخاف ؟ أن تقتلني، فقال عمر: لا بأس عليك حتى تخبرني – أي أنت في أمان إلى أن تخبرني، فلما سمع الهرمزان ذلك من عمر هدأ رَوْعُه بعض الشيء، وقال: إني عطشان، فأمر له عمر أن يسقوه، فأُتِيَ له بماء في قدحٍ غليظ، فتأمله – طبعا هذا ملِك – قال: و اللهِ لو متُّ عطشا ما شربتُ من هذا الإناء، فأمر عمرُ فأُتيَ له بماء في إناءٍ يرضاه ؛ فلما أخذه من يده جعلت يدُه ترتجف، فقال له عمرُ: ما بكَ ؟ فقال إني أخاف أن أُقتَل وأنا أشرب هذه الجرعة من الماء فقال له عمر: لا بأس عليك حتى تشربها، فما كان من الهرمزان إلا أن كفَأَ الإناءَ، وسفح الماءَ فقال عمر: أحضروا له ماء غيرَه، ولا تجمعوا عليه القتل والعطشَ، فقال الهرمزان: لا حاجة لي بالماء أبدا، وإنما أردتُّ أن أستأمِن به على نفسي من القتل، فقال له عمر: إني قاتلُك، فقال الهرمزان: لقد أمَّنتني، فقال عمر: لقد كذبتَ، فقال أنسُ بن مالك: صدق يا أمير المؤمنين لقد أمَّنتَه، فقال عمر: ويحك يا أنس أَؤُأمِّن قاتلَ أخي، هيهات، فقال أنسُ: لقد قلتَ له: لا بأسَ عليك حتى تخبرني، وقلتَ له: لا بأس عليك حتى تشرب الماء، وأيَّد الأحنف قول أنس، وأقرَّ الحاضرون بأن سيّدنا عمر قد أمَّن الهرمزانَ، فنظر عمر إليه، وقال: لقد خدعتَني، وإني واللهِ لا أنخدع إلا لمسلم، فأسلم الهرمزانُ، فأراد سيدنا عمر أراد أن يقسُوَ عليه كي يحمله على الإسلام، و أحيانا تحدث تمثيلية بين الأب والأم على الطفل، وسيدنا عمر كان يقلق بالَه كثرةُ نقض الفرس لعهودهم وانقلابهم.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 03 : فروض الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علّمنا ما ينْفعنا، وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

فروض الحج :

1 . الإحرام :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ لا زلنا في موضوع الحج، و قد تحدَّثتُ إليكم في الدرس الماضي عن فرضية الحج، وعن فوائد الحج و شروط وجوب أدائه، وعن شروط صحة الأداءِ، وعمَا إذا كان الحجُّ واجبًا على الفور أو على التَّراخي، واليوم ننتقل إلى ثلاثة موضوعات: الموضوع الأول : فروض الحج، و الموضوع الثاني : واجبات الحج، و الموضوع الثالث : سنن الحج.

فمن فروض الحج الإحرام، والإحرام عند الأئمة الثلاثة ركن، عند الإمام أبي حنيفة شرطٌ، ومعنى الشرط أنه يجب أن يستمر طوال أداء الفريضة، كأن تكون متوضِّئا للصلاة، واستقبال القبلة شرط للصلاة، فالشرطُ يستمر طوال العبادة، بينما الركن ينقضي بانقضاء أفعاله.

وعلى كلٍّ فالإحرامُ في حقيقته نيّةٌ بالقلب، وتلبيةٌ باللسان، من غير فاصلٍ أجنبيٍّ بين النية والتلبية، فإذا نوى الإنسانُ الحجَّ والتقى مع إنسان و تحدَّثوا في موضوع تجاري، ثم عاد فقال: لبيك اللهم لبيك، هذا غلطٌ، نيَّةٌ بالقلب وتلبية باللسان من دون أن يكون بينهما فاصل أجنبيٌّ، والتلبية كما وردت عن النبي عليه الصلاة و السلام: " لبَّيك اللهم لبَّيك، لبَّيك لا شريك لك لبيك، إن الحمدَ والنعمةَ لك والملك، لا شريك لك."

أمَّا النية فيستحب أن يلفظها الإنسانُ بلسانه، و إن كانت النية من عمل القلب، فيقول الحاجُّ مثلا: لبَّيك بحجّ و عمرة، اللهمَّ تقبَّلهما مني و يسّرهما لي، أو لبيك بحج، اللهم تقبَّله مني و يسّره لي، هذا إذا كان مُفرِداً، أمّا إذا كان متمتِّعاً أو قارناً يقول: لبيك بعمرة و حج، يبدأ بالعمرة، و إذا كان مفرداً يقول: لبيك بحج، فالنية التي يلفظها الإنسانُ بلسانه مع التلبية هذا هو الإحرامُ .

2 . الوقوف بعرفة في وقته :

الفرضُ الثاني، الوقوف بعرفة في وقته لِما رواه الترمذي :

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَعْمَرَ أَنَّ نَاسًا مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ أَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِعَرَفَةَ فَسَأَلُوهُ فَأَمَرَ مُنَادِيًا فَنَادَى الْحَجُّ عَرَفَةُ مَنْ جَاءَ لَيْلَةَ جَمْعٍ قَبْلَ طُلُوعِ الْفَجْرِ فَقَدْ أَدْرَكَ الْحَجَّ أَيَّامُ مِنًى ثَلَاثَةٌ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْه))

[الترمذي عن عبد الرحمن بن يعمر]

ووقته من زوال يوم عرفة من بعد الظهر ؛ إلى قبيل طلوع الفجر من يوم النحر، هذا الفرض الثاني، فالإحرام هو الفرض الأول، و الوقوفُ بعرفة هو الفرض الثاني.

3 . طواف الزيارة :

الفرض الثالث ؛ طواف الزيارة، فالطواف سبعة أشواط، أربعة منها فرضٌ، و طواف الزيارة هو طواف الركن، بعدَ أن يأتيَ الحاجُّ من عرفات إلى مزدلفة إلى رمي الجِمار، يتوجَّه إلى الكعبة ليطوف طواف الركن، هذا الطواف أحدُ أركان الحج، أيضًا الطوافُ في وقته حول الكعبة، قال تعالى:

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (29)﴾

[سورة الحج: 29]

الترتيب بين الفرائض :

ويلحق بهذه الفرائض الترتيبُ بين الفرائض، فهل يُعقَل أن الإنسانَ يقف في عرفات قبل أن يحرِم؟ هذا مستحيل، إذًا لا بد الترتيب بين الفرائض، فالإحرامُ أولاً، والوقوف بعرفة ثانياً، والطواف حول الكعبة ثالثاً، بهذا الترتيب،

والترتيب جزءٌ أساسيٌ من أركان الحج.

الآن مما يكفي في أركان الحج أن يُؤَدَّى كلُّ فرض في وقته و مكانه، كلُّ فرض من فرائض الحج له وقتٌ مخصوص و مكان مخصوص، لذلك قالوا في تعريف الحج: هو عبادة بدنية مالية مكانية زمانية روحية، فالوقوف بعرفة وقتُه كما ذكرنا من زوال يوم عرفة إلى قبيل فجر يوم النحر، و المكانُ أرضُ عرفات، و وقتُ الطواف بعد فجر يوم النحر وإلى آخر العمر، و لو أخَّره لكان طوافُ الركن مقبولاً، ومكانه المسجدُ الحرامُ، و حول الكعبةِ.

فهذه الفرائض لا يصِحُّ الحجُّ إلا بوجودها جميعاً، فلو ترك الحاجُّ واحدًا منها لم يصحُّ حجُّه، سواء أكان هذا التركُ عن عمْدٍ أو عن سهوٍ أو عن خطأٍ أو عن جهلٍ، فالأمرُ سِيَانِ، ولو ترك أحدَ هذه الفرائض عامدًا أو ساهيًا أو مخطِئًا أو جاهلاً، في كلِّ هذه الأحوال بطُل حجُّه، و هنا سؤال: إذا ترك هذه الأركان، شتَّان أن يتركها عامدًا أو ساهيا أو مخطئاً أو جاهلاً؟ نجيبه : إن الإنسانَ يكسب الإثمَ بحسب نوع هذا الترك، فإثم الذي يتركها عمدًا كبيرٌ، و الذي يتركها ساهياً أو مخطئاً فهي أقلُّ، لكن بأيَّة حال إن كان هذا التركُ عمداً فالحج باطل، أما الإثم فيتفاوت بحسب هذه الأسباب. ويضيف الإمام الشافعي رضي اللهُ عنه ركنا آخر للحج وهو السعيُ بين الصفا و المروة، وهو عند الأحناف واجب، وعند الشافعية ركن من أركان الحج، فعند الشافعية ؛ الإحرام، والوقوف بعرفة، وطوافُ الركن، والسعيُ بين الصفا والمروة، وعند الأحناف ؛ الإحرام، و الوقوف بعرفة، والطواف ؛ أيْ طواف الركن.

فهذه الواجبات إذا ترك الحاجُّ أحدَها لا تُجبَر بدمٍ، فإنْ ترك طوافَ الزيارة، هل يذبح الهديَ ؟ لا، ذلك غير مقبول منه، فلا بد أن يقف بعرفة، ولا بدَّ أن يطوف طواف الركن فإن لم يفعل فحجُّه باطلٌ.

واجبات الحج :

1 . إنشاءُ الإحرام من الميقات المكاني :

لكنَّ الواجبات إذا تركها الحاجُّ في الحجِّ تُجبَر بالدم، و من هذه الواجبات مثلاً ؛ إنشاءُ الإحرام من الميقات المكاني، ولو أن حاجًّا حديثَ عهدٍ بالحج، يحجُّ لأول مرة، وضع المناشف البيضاءَ في المحفظة، و صارت هذه المحفظة مع متاع الركاب إلى أسفل الطائرة، فلما ركب الطائرةَ وأعلن المُضيفُ مثلا أن الميقاتَ المكاني قد آنَ

أوانُه، فطلب المحفظةَ ليأخذ منها المناسف، أين المحفظة الآن؟ فتجاوز الميقات المكاني من دون أن يحرم هذا واجب الإحرام، لذلك عليه دمٌ، أو أن يرجع إلى الميقات المكاني بعد وصوله إلى جدّة فيحرم برًّا ممكن، فإما أن يرجع إلى الميقات المكاني، وإما ان يجبر هذا الخطأ بدمٍ.

ويمكن لك أن تحرم قبل الميقات من بيتك، و لكن هناك أخطاراً كبيرة، ربما أُلغِيت رحلةُ الطائرة فوقعتَ في بعض محظورات الإحرام، لذلك أنصح الأخوةَ الحجَّاج أن يحرموا من الطائرة، و أنصحهم مرةً ثانية أنه إذا انتظر الرُّكابُ أن يُعلَن عن الميقات المكاني، ربما سَهَا المكلَّف بالإعلان عن الميقات، فإذا تجاوزته بأمتار وقعتَ في مشكلة كبيرة، فبعد أن تُقلِع الطائرة بنصف ساعة أَحرِمْ، هذا أصحُّ شيءٍ، فلا تحرِم من البيت، ولا تحرم حتى تنتظر أن يُعلَن عن الإحرام، أَحرِم بعد إقلاع الطائرة بنصف ساعة.

2 . تركُ لُبس المَخيط من الثيات للرجل :

ومن واجبات الحج أيضًا تركُ لُبس المَخيط من الثيات للرجل، فلا ثياب مخيطة، بل هناك رداءٌ وإزارٌ، الإزارُ يضعه على وسطه، وهنا ملاحظة، إذا نزل الإزارُ عن سرَّته وقع في مشكلةٍ، لأن ما بين السُّرَّة و الركبة عورةٌ، فيجب أن يرتفع الإزارُ إلى ما فوق السُّرة، و أما الرداءُ فيُلقَى على الكتفين، والاضطباعُ فقط في أثناء الطواف، ويمكنُ أن تضع الرداءَ الثاني على كتفيك هكذا، و كشفُ الرأس للرجل، أي أن يضع الواحدُ قبَّعةً أو لفَّةً، لا يوجَد شيءٌ من هذا، يجب أن يكون الحاجُّ مكشوفَ الرأس، أما المرأةُ فعند مقابلتها للرجال تُسدِل على وجهها منديلاً، و تجافيه عن وجهها لئلاَّ يلتصق بوجهها، و في عهد النبيّ عليه الصلاة و السلام لم يكن هناك اختلاطٌ بين النساء والرجال، فهنا كشفُ الوجه للمرأة مقبول، لكن إذا قابلت الرجالَ يجب أن تُسدِل المرأةُ منديلاً على وجهها، وتجافيه عن وجهها، وأن تبعدَه عنه، لذلك الأخوات المؤمناتُ يضعن على جبينهن قطعة من الورق المُقوَّى و بعدها يأتي المنديلُ بعيداً عن الوجه.

3 . السعي بين الصفا و المروة :

ومن واجبات الحج السعيُ بين الصفا و المروة في أشهر الحج، ويكون بعد الطواف، فإن سعى بين الصفا والمروة بعد طواف القدوم أجزأَه ذلك، فإن لم يسعَ بعد طواف القدوم يمكنه أن يسعى بعد طواف الركن، لا بدَّ من السعيِ بين الصفا و المروة في أشهر الحج، و لا بدَّ من المشي فيه لمَن لا عذرَ له يمنعه، فلو ترك الحاجُّ المشيَ بلا

عذرٍ أعاده، فإن لم يُعِده فعليه دمٌ، تجد أناسًا راكبين عرباتٍ، و يقولون: و اللهِ هذا أكثر راحةً لنا، إنما الراحةُ للمعذور، أما الإنسان الصحيح فيركب عربةً ليسعى بين الصفا والمروة فهذا غيرُ مقبول منه، فإن فعله فعليه دمٌ، هذا عند السادة الأحناف، أما عند السادة الشافعية فقالوا: يجوز الركوبُ مع القدرة على المشي، لكنْ هذا خلافُ الأولى، والأولى أن يمشيَ، أما عند الأحناف فعليه دمٌ، أي كما ترون تنوُّعُ الأحكام فيه رحمةٌ للمسلمين، واختلاف أمتي رحمة، واتِّفاقُ الأئمة حُجَّةٌ قاطعة، و اختلافُهم رحمةٌ واسعةٌ.

4 . الوقوف بعرفة من زوال شمس اليوم التاسع من ذي الحِجة إلى ما بعد الغروب :

و من واجبات الحج الوقوف بعرفة من زوال شمس اليوم التاسع من ذي الحِجة إلى ما بعد الغروب، حيث يدرك الحاجُّ جزءًا من الليل، و النزول من عرفة مع الإمام أو نائبه، أي لا يخرج من عرفة إلا بعد شروع الإمام في الإفاضة.

ومن واجبات الحج أيضاً الوقوف بمزدلفة.

صورة المناسك و حقيقتها :

أيها الأخوة الأكارم ؛ هذه المناسك لها صورةٌ و لها حقيقة، صورتها أن تقف في عرفة ولكنَّ حقيقتها أن تصحَّ المناجاةُ، وصورةُ الوقوف في مزدلفة أن تقف في المكان والزمان المناسبين، ولكنَّ حقيقتها أن تكون قريباً من الله في مزدلفة، إنها اسمٌ على مسمًّى، وأن ترميَ الجِمارَ، وصورتُها أن ترميَ هذا المكان بالحصَيَاتِ، لكنَّ حقيقتها أن ترميَ الشيطانَ، وأن تحاربه إلى الأبد، وأن تعاديَه عداءً لا رجعة فيه، فكلُّ منسك من مناسك الحج له صورة يؤدِّيها الحاجُّ، ولا بدَّ من حقيقة في داخله يشعر بها، فإذا توافقت الصورة مع الحقيقة صحَّ الحجُّ، أما من أدَّى هذه المناسكَ وهو ليس في مستواها فهذا الحجُّ يحتاج إلى إعادةٍ، لأن الله سبحانه و تعالى ما أمرك أن تأتيَ إليه من بلادك البعيدة، و أن تترك أهلك وأولادَك وعملك، وتنفق النفقات الطائلة لتكون كالسَّائح، لا، بل أرادك أن تأتيَه طائعاً، و أن تأتيَه مُخبِتًا، ومنيباً، ومحبًّا، و مناجيًا، فلذلك هذه المناسك لا يعرف طعمَها إلا من ذاقها، و ذاق الأحوالَ التي يجب أن ترافق الحاجَّ في أثناء أدائها.

5 . الوقوف بمزدلفة :

والوقوفُ بمزدلفة ولو لحظةً بعد فجر يوم النحر، و قبل طلوع الشمس و المبيتُ ليلا سُنَّة عند الحنفية.

6 . تأخير المغرب والعشاء إلى مزدلفة :

ومن واجبات الحج تأخيرُ المغرب والعشاء إلى مزدلفة، ولو أذَّن المغربُ في عرفات لا ينبغي أن تصلّيَ المغربَ، فالمغربُ و العشاءُ يُصلَّيان في مزدلفة على شكل جمعٍ، تصلي المغربَ أولاً، ثم العشاءَ ثانياً، والجمعُ بمزدلفة بين المغرب والعشاء جمعُ تأخيرٍ، بينما جمعُ صلاة الظهر والعصر جمعُ تقديم، لذلك جمعُ التقديم يحتاج إلى أذانٍ و إقامتين، بينما جمعُ التأخير يحتاج إلى أذان وإقامة واحدة، وعند السادة الأحناف من صلى المغربَ في الطريق أو بعرفة فعليه أن يعيد صلاةَ المغربِ مع العشاء جمعَ تأخيرٍ بمزدلفة.

7 . رمي الجمار مرتباً في أيامها :

ورميُ الجمار مرتَّبًا في أيامها، فرميُ الجمار أيضا من واجبات الحج، لئلا يؤخِّر رميَ كلٍّ منها إلى ثانيه من الأيام الثلاثة، أي إذا أخِّر رميَ الجمار إلى وقت آخر غير وقتها فقد ترك واجباً من واجبات الحج.

8 . الحلق أو التقصير :

الحلقُ أو التقصيرُ لشعر الرأس كلِّه أو رُبعِه، والحلقُ أولى للرجال، و التقصير أولى للنساء، والشرعُ الحنيفُ رحِم النساءَ حيث لم يأمْرهنَّ أن يحلقن رؤوسهنّ، فهذه رحمة من الله عز وجل، الحلق للرجال أولى، و التقصيرُ للنساء أولى.

هذه ملاحظة، أحيانا يفقد الإنسانُ شعرَ رأسه، وتبقى مكانتُه هي هي، ولكن لم يُرَ في النساء امرأةً فقدتْ كلَّ شعر رأسها، هذه مِن رحمةِ الله بها، فهناك إلهٌ حكيمٌ، لأنَّ شعر المرأة جزءٌ من رأس مالها، فإذا فقدتْه كلَّه وقعتْ في أزمةٍ شديدة.

والحلقُ أو التقصيرُ لشعر الرأس كلِّه أو ربعه، و يجب أن يكون في أرض الحرم أو داخل حدوده.

بالمناسبة نحن عندنا المواقيتُ المكانية، ميقاتُ أهل الشام، ميقاتُ أهل العراق، و ميقاتُ أهل اليمن، و الميقاتُ من طرف جدَّة، لو وصلْنا خطوطًا بين هذه المواقيت المكانية نحصلُ على شكلٍ، و هذا الشكلُ يُسمَّى الحِلُّ، و الآن البيتُ الحرام له مواقيتُ خاصة به؛ التنعيم من جهة المدينة، و الجعرانة من جهة أخرى، و هناك مكانٌ من جهة الطائف، فهذه الحدودُ التي حول الحرم لو وصلنا بينها خطوطًا يصيرُ عندنا شكلان، شكلٌ يعبِّر عن المواقيت المكانية للبلاد المقدسة، و شكل آخر يعبِّر عن حدود الحرم، بين الحرم و بين المواقيت المكانية منطقة تُسمَّى الحِلُّ، ومَن يقتنِي كُتَيِّبًا عن الحج يرَ هذا الشكلَ، وهو الحِلُّ، وكلٌّ منطقة لها ميقاتٌ، و الشكلُ الثاني للكعبة فيه مواقيتُ أيضًا، فهذه المنطقة التي حول الكعبة كلُّها حرَمٌ، و إذا قلنا يجب أن يحلق في الحرم، ليس معنى هذا في الكعبة ، أي في الحدود التي حول الكعبة، التنعيم باتِّجاه المدينة المنوَّرة، و الحُديبة باتِّجاه جدَّة، و الجعرانة باتِّجاه الطائف، هذه الأماكن حول الحرم، لذلك الحلقُ لشعر الرأس كلِّه أو ربعه يجب أن يكون في أرض الحرم، أو داخلَ حدوده، وفي أيام النحر بالذَّات، أوَّلُ يوم من أيام عيد الأضحى يُقال له: أوَّلُ أيام النحر، وثاني يوم: ثاني أيام النحر، وثالث يوم: ثالثُ أيام النحر، ثلاثة أيام للنحر بعد يوم عرفة، وهو ثاني يوم من أيام العيد أوّلُ أيام التشريق، وثالث يوم ثاني أيام التشريق، ورابعُ يوم ثالثُ أيام التشريق، فصار أولُ يومٍ يومَ النحر فقط، وآخرُ يوم يومُ التشريق فقط، واليومُ الثاني والثالث مشتركٌ بين النحر والتشريق، فالحلقُ يجب أن يكون في أرض الحرم أو داخل حدوده، و في أيام النحر،

ويكون الحلقُ بعد رمي جمرة العقبة لمَن أفردَ الحج، وبعد الذَّبح للقارن والمتمتِّع، وبعد السعيِ في العمرة، فالحلقُ له ثلاثُ حالات ؛ بعد الرميِ للمُفرِد، وبعد الذَّبح للقارن والمتمتِّع، وبعد السعي في العمرة.

9 . ذبحُ شاةٍ للقارن أو المتمتِّع :

ومن واجبات الحج ذبحُ شاةٍ للقارن أو المتمتّع، فالقارن الذي ذهب إلى البلاد المقدسة وأحرم بعمرة وحجٍّ، وتابع بينهما مُحرِماً، أي وصل قبل عشرة أيام فأحرم بعمرة و بقي محرما إلى أن جاءتْ أيامُ الحج، فهذا قارن، فعليه هديُ شكرٍ، أمَّا المتمتِّعُ فذهب إلى مكة وأنشأ عمرةً ثم تحلَّل من ثياب الإحرام وبقي إلى أن جاء ميقاتُ الحج،

فأحرم من مكة و تابع الحجَّ، فهذا متمتِّع، يجب عليه هديُ جبرٍ، والقارنُ عليه هديُ شكرٍ، بينما المفرِدِ لا هديَ عليه، إذًا ذبحُ شاةٍ للقارن و المتمتِّع لقوله تعالى:

﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

[سورة البقرة: 196]

أما المفرِد فلا يجب عليه الذَّبحُ بل يُسنُّ، ومن سنن الحج أن يذبح المفرِدُ، أما لو ترك الذَّبحَ فلا شيءَ عليه، أما الذَّبحُ للمتمتِّع فواجبٌ، و لو تركه وقع في مخالفة كبيرة، و يجب أن يكون الذبح قبلَ الحلق، وأن يكون الذبح في أيام النحر حصرًا، لأنه دم شكرٍ على توفيقه على أداء نسُكَيْ الحج و العمرة، فلا يجوز تقديمه على يوم النحر.

10 . الترتيبُ بين الرمي و الذبح و الحلق :

ومن واجبات الحج أيضا الترتيبُ بين الرمي و الذبح و الحلق، فيرتِّب القارنُ والمتمتِّعُ بينهما، بأن يفعل الرميً أوّلاً، ثم يذبح، ثم يحلق، أما المفرِد فلا يجب عليه الذبح فيرتِّب بين الرمي و الحلق فقط.

11 . طواف الوداع :

و من واجبات الحج طواف الصدرِ، أو طوافُ الوداع مشيًا إلا من عذرٍ للآفاقي، و معنى الآفاقي الذي يقدُم للحج من بلاد بعيدة ، أما الذي مكانُه في الحلِّ ضمنَ المواقيت فلا عليه أن يطوف طواف الوداع، هو في البيت دائمًا، وطواف الوداع واجبٌ على الآفاقي، ويسقط على المرأة الحائض و النفساء، أما المرأةُ غيرُ الحائض فعليها طوافُ الوداع، لكنْ يُسنُّ للمرأة إذا أدركها الحيضُ و لم تطُفْ طوافَ الوداع، يُسنُّ لها أن تقف على باب الحرم و تدعو من الخارج.

12 . إيقاع طواف الإفاضة في يوم من أيام النحر الأول أو الثاني أو الثالث :

ومن واجبات الحج إيقاعُ طواف الإفاضةِ ؛ أي طواف الركن ؛ في يوم من أيام النحر الأول أو الثاني أو الثالث.

13 . أن يكون الطوافُ مشيًا إلا بعذرٍ :

ومن واجبات الحج أن يكون الطوافُ مشيًا إلا بعذرٍ، الكعبةُ أمامها يوجد قوسٌ مبنيٌّ، و ضمنَ القوس يُعدُّ داخل الكعبة، فلو طاف الإنسانُ بين الكعبة وهذا القوس فطوافُه باطلٌ، فيجب أن يطوف خلفه .

14 . الطهارةُ في طواف الإفاضة من الحدث الأكبر و الأصغر :

ومن واجبات الحج الطهارةُ في طواف الإفاضة من الحدث الأكبر و الأصغر، فلو طاف طواف الإفاضة جُنبًا أو حائضًا أو نفساء أثِم وعليه هديٌ، لأن الطوافَ صلاةٌ، والصلاة تحتاج إلى طهارة، لذلك فالمرأة أميرةُ الرجال في حالةٍ واحدة، حينما يأتيها حيضُها ولم تطُفْ طوافَ الركن، يجب أن ينتظرها أهلُها إلى أن تطهرَ، فهي أميرةٌ عليهم، افْعلي كلَّ شيءٍ إلاَّ أن تطوفي بالبيت، وإذا طاف الإنسانُ وهو غيرُ متوضِّئٍ فعليه شاةٌ، فالإنسانُ يختارُ، أيرجع ليتوضَّأ أم يذبح شاةً؟ على حسب الأسعار. أما طهارة الثوب والبدن والمكان فأكثرُ العلماء قالوا: إنها سُنةٌ، ومنهم من أوجبها.

15 . ستر العورة :

وسترُ العورة فيه واجب أيضًا، أي إذا أراد الإنسان أن يحُجَّ وارتدى ثياب الإحرام، فلا يليق بالحاج أن يتساهل في جلسته وقعدته، لأنه لو أن عورتَه كشفت لكان هذا قبيحًا به، فثياب الإحرام تحتاج إلى انتباهٍ شديد جدًّا، والإنسانُ حينما يرتدي ثيابًا مَخيطةً قد لا ينتبِه إلى أوضاعه في الجلوس والقعود، لكنَّ ثيابَ الإحرام تحتاج إلى انتباهٍ شديد.

16 . ترك المحظور في كل طواف :

ومن واجباتِ الحج تركُ المحظور في كلِّ طواف، والمحظورُ لُبسُ المخيط، وتغطية الرأس، والرَّفثُ، والفسوقُ، والجدالُ، وقتلُ الصيدِ، والإشارةُ إليه، والدلالةُ عليه كما سيمرُّ معنا في بحث الجنايات.

17 . المبيت في منى ليالي الرمي :

ومن واجبات الحج عند السادة الشافعية المبيتُ في مِنى ليالي الرمي، أما عند الأحناف فالمبيتُ في منى سنَّةٌ وليس واجبًا، و أن تطوف بدءًا من الحجر الأسود بعد أن تستلمَه، و أن يكون الطوافُ وراء حجر إسماعيل، و أن يكون مشيًا إلا من عذرٍ، وأن يتمَّ سبعةَ أشواط.

إنّ حكمَ الواجبِ حكمُ الفرض، فإن تركتَ الفرضَ بطُل الحجُّ، أما حكمُ الواجب لو تركتَه للزمَ الجزاءُ، وهو ذبحُ شاةٍ أو سُبْع بدنةٍ، ، سبعة أشخاص يشتركون في ذبحِ جملٍ، أو سُبع بقرة، ولا يبطل الحجُّ بتركه سواء أكان سهوًا أو عمدًا أو خطأً أو نسيانًا، عالمًا بالوجوب أو جاهلاً، لكن العامدَ له إثمٌ كبير، أما النتائجُ فواحدةٌ، وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتحدَّث عن سنن الحج.

* * *

حكم دخول الحائض إلى المسجد :

والآن إلى سؤالٍ كان قد وردني من أسابيع ثلاثة حول حكم دخول الحائض إلى المسجد و في الحقيقة أن رأيَ العلماء الأربعة السادةُ الأحناف و الشافعية و الحنابلة و المالكية لهم رأيٌ موحَّدٌ، و لهم تفصيلاتٌ بحسب مذاهبهم، فيحرم على الجنبِ، لماذا الجنبُ؟ لأن حكمَ الجنب و حكم الحائض و حكم النفساء واحدٌ، فيحرم على الجنب أن يباشر عملاً من الأعمال الشرعية الموقوفة على الوضوء، و كلُّ عمل موقوف على الوضوء يحرم على الجنب أن يفعله، من باب أولى إذا كان المحدِث حدثًا أصغر لا ينبغي له أن يفعله، فالمحدِث حدثًا أكبر من باب أولى أن يغتسل، فلا يحلُّ للجنب أن يصليَ نفلاً ولا فرضًا، إلا إذا فقد الماءَ أو عجز عن استعماله لمرضٍ، مما سيأتي في أبحاث التَّيمُّم طبعًا، أما الرجل فله أن يصوم فرضاً أو نفلاً وهو جنُب ثم يغتسل بعد الفجر، وصيامه يصحُّ، لكن المرأةَ لا ينعقد صيامُها حائضًا أو نفساء. ومن الأعمال الدينية التي لا يحلُّ للجنب فعلُها قراءةُ القرآن، على المذاهب الأربعة فيحرم عليه قراءة القرآن وهو جنُبٌ، كما يحرم عليه مسُّ المصحف من بابٍ أولى، فإذا كانت قراءته لا تجوز، فمسُّ المصحف من باب أولى، لأن مسَّ المصحف لا يحلُّ بغير وضوءٍ، و لو لم يكن الشخصُ جُنُبًا، فإذا كان جنُبا من باب أولى، و قد تحدَّثتُ عن هذا طويلاً في دروس سابقة، فلا يحلُّ مسُّه للجنُب من بابٍ أولى.

أمّا موضوعُ سؤالنا، وهو دخولُ المسجد، فيحرم على الجنب أن يدخل المسجد، على أن الشرعَ الحنيفَ قد رخَّص للجنُب في تلاوة القرآن الشيءَ اليسير، وفي دخول المسجد بشروط مفصَّلة على المذاهب، و نحن سنأخذ رأيَ المذهب الحنفي في موضوع قراءة القرآن و دخول المسجد للجنُب.

رأي المذهب الحنفي في موضوع قراءة القرآن و دخول المسجد للجنُب :

السادةُ الأحنافُ قالوا: يحرُم على الجنُب تلاوةُ القرآن، قليلاً كان أو كثيرًا، إلا في حالتين؛ إحداهما: أن يفتتِح أمرًا من الأمور الهامة، كأن يقول: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.

((فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلُّ كَلَامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ أَبْتَرُ أَوْ قَالَ أَقْطَعُ))

[أحمد عن أبي هريرة]

فالبسملةُ مباحةٌ للجنُب، أن يُبسْمِل. ثانيها: أن يقرأ آيةً قصيرة ليدعوَ بها لأحدٍ، أو لِيُثْنِي بها على أحدٍ، كأن يقول:

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾

[سورة نوح : 28]

أو كأن يقول:

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

[سورة الفتح: 29]

فيجوز له أن يقرأ بعضَ هذه الآيات، ويحرم على الجنب دخولُ المسجد إلا للضرورة، و ما هي الضرورة؟ منها ألا يجد ماءً يغتسل به إلا في المسجد، فلو أنّ ماءَ الغُسل موجودٌ حصرًا في المسجد وهو جنُبٌ فلا بدَّ له من دخول المسجد، أو أن يمُرَّ بالمسجد مرورًا إلى مكان ما ليغتسل، و مع هذا يجب عليه أن يتيمَّم قبل أن يمُرَّ بالمسجد.

وهناك حالةٌ ثانيةٌ ؛ إذا كان العدوُّ يتبعه وكان جنُباً، فإذا دخل المسجدَ اتَّقى شرَّ العدوِّ رحمةً به، فيجوز للجنُب أو الحائض أو النفساء أن يدخلوا المسجد خوفاً من ضرر يلحقهم، فهذا رأي الأحناف في موضوع قراءة القرآن، ودخول المسجد للجنُب والحائض و النفساء.

رأي المذهب الشافعي في موضوع قراءة القرآن و دخول المسجد للجنُب :

أما رأيُ السادةُ الشافعية فيحرم على الجنُب قراءة القرآن و لو حرفًا واحداً، إن كان قاصداً تلاوتَه، أما إذا قصد الذِّكر أو جرى على لسانه من غير قصدٍ فلا يحرم، فلو أكل فقال: بسم الله، وهي آية، أو ركب دابَّته فقال:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾

[سورة الزخرف: 13]

هذا ذكر. ويجوز لفاقد الطُّهورين أن يقرأ القرآن في صلاته التي أُبيحتْ له، فإن كان الإنسانٌ مسافرا وأدركتْه الجنابةُ في السفر، و لم يجد ماءٌ ليغتسل، أو ليتوضَّأ، فتيمَّم ودخل المسجدَ وصلى وقرأ القرآن، فيجوز ذلك، لأنّ هذا فاقد الطهورين، وله حكمٌ خاصٌّ، قال تعالى:

﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً ﴾

[سورة النساء: 43]

ففاقدُ الطهورين له حكمٌ خاصٌّ، وكذلك الحائض والنفساءُ، أما المرورُ بالمسجد فإنه يجوز للجنُب و الحائض و النفساء من غير مُكثٍ فيه و لا تردُّدٍ، بشرط أن يأْمَن من عدم تلوُّث المسجد، أي إذا لم توجد ثقةٌ أنه ربما يصيبٌ المسجدَ دمٌ، حتى هذا المرورُ لا يجوز، فالمرورُ مسموحٌ وبشرط أن يأمن تلويثَ المسجد، فلو دخل من بابٍ و خرج من بابٍ جاز عند الشافعية، أما إذا دخل و خرج من بابٍ واحدٍ لم يجُز، لأنه صار تردُّدًا، ويجوز للمحدِث حدثًا أكبرَ أن يمكث في المسجد للضرورة، كالأحناف تمامًا، كما إذا نام في المسجد فاحتلم وتعذَّر خروجُه، والبابُ مغلقٌ، وليس هناك حالة ثانية، أو خاف على نفسه أو ماله، لكنْ يجب عليه التيمُّمُ فورًا، بغير تراب المسجد إن لم يجد ماءً أصلاً، هذا رأيُ السادة الشافعية.

رأي المذهب الحنبلي في موضوع قراءة القرآن و دخول المسجد للجنُب :

أما الحنابلة فأسهلُ، قالوا: يُباح للمحدِث حدثًا أكبرَ بلا عذر أن يقرأ ما دون الآية القصيرة، فقد أجازوا أن تقرأ آيةً قصيرة وأنت جنبٌ، أو حائض، أو نفساء، أو قدْرها من سورة طويلة، كالعصر، و المعوذتين، ومن البقرة أوَّلَ آية، ويحرم عليه قراءةُ ما زاد على ذلك، وله أن يأتيَ بذكرٍ يوافق القرآن، كالبسملة عند الأكل، وعند الركوب:

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾

[سورة الزخرف: 13]

أما المرور بالمسجد والتَّردُّد فيه دون مُكثٍ فإنه يجوز، والمرور و التردد عند السادة الشافعية لا يجوز، وكذلك الأحنافُ، أما الحنابلة فأجازوا المرور والتردد، فإنه يجوز للجنب والحائض والنفساء حالَ نزول الدم إن أمِن تلويثَ المسجد أن تمرَّ به، وأن تتردَّد فيه، و يجوز للجنب أن يمكث في المسجد بوضوء، ولو من غير ضرورة، أما الحائض والنفساء فإنه لا يجوز لها المكثُ بالوضوء إلا إذا انقطع الدمُ، فإذا انقطع الدمُ يجوز لها أن تمكث في المسجد بوضوء هذا رأيُ السادة الحنابلة.

رأي المذهب المالكي في موضوع قراءة القرآن و دخول المسجد للجنُب :

بقيَ علينا رأيُ الماكلية. قال المالكية: لا يجوز للجنب أن يقرأ القرآنَ إلا بشرطين؛ أحدهما: أن يقرأ ما تيسَّر من القرآن كآية و نحوها في حالتين؛ الحالة الأولى: أن يقصد التحصُّنَ من عدوٍّ، واجهَ عدواً، ربِّ اغفر لي ربِّ وارحمني، ذكَرَ آيةً قرآنية كقوله تعالى:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾

[سورة الفلق: 1-2]

مثلاً إذا واجهَ عدواً، وذكرَ آيةً بنية التحصُّن بها من هذا العدوِّ جاز له ذلك عند الماكية. والحالة الثانية: أن يستدلَّ بها على حكمٍ شرعيٍّ في أثناءَ المناقشة، فذُكِر حكمٌ شرعيٌّ و قال له: هذا الحكمُ أساسُه هذه الآية، هذا ممكنٌ للجنب، أو الحائض، أو النفساء، وفيما عدا ذلك فإنه لا يحلُّ له أن يقرأ شيئًا من القرآن ؛ كثيرًا كان أو قليلاً، أما دخول المسجد فإنه يحرمُ على الجنب أن يدخله ليمكُث فيه، أو ليتَّخذه طريقاً يمرُّ منه، و لكن يُباح له دخول المسجد في صورتين؛ الصورة الأولى: ألا يجد ماءً يغتسل منه إلا في المسجد، كالأحناف و الشافعية، و ليس له طرقٌ إلا المسجد، فحينئذٍ يجوز له أن يمرَّ بالمسجد ليغتسل، و الصورة الثانية: أن يخاف من أذًى يلحقه

و لم يجدْ له مأوى سوى المسجد، فإن له في هذه الحالة أن يتيمَّم و يدخل و يبيتُ فيه حتى يزول عنه ما يخاف. أما إذا كان مسافرًا أو كان مريضاً وكان جنبًا ولم يتيسَّر له استعمالُ الماء فله أن يتيمَّم و أن يدخل المسجدَ ويصلي فيه بالتيمُّم، و لكن لا يمكث فيه إلا للضرورة، وإذا احتلم في المسجد فإنه يجب أن يخرج سريعًا، وإذا أمكنه التَّيمُّمُ تيمَّم.

وكما ترون الأحكامُ كلها متشابهة، أي لا يجوز أن تقرأ من القرآن إلا في حالة الذكر البسملةُ والتعوذُّ، والاستدلالُ على حكم شرعي، لا يجوز أن تمكث في المسجد إلا في حالة الضرورة، هذا رأي الأئمة الأربعة في شأن قراءة القرآن ودخول المسجد للحائض و الجنب و النفساء.

و على كلٍّ تعقيبًا على أحكام الشرع في شأن دخول المسجد، هذه الأحكام الشرعية المفصَّلة على المذاهب من كتاب الفقه على المذاهب الأربعة، صفحة (120) فمن أراد أن يستزيدَ فلْيرجعْ إلى هذا الكتاب، و إلى هذه الصفحاتِ.

* * *

أبو حنيفة النعمان :

والآن إلى قصة من قصص التابعين، وقصَّةُ اليوم عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان.

الإمامُ أبو حنيفة رحمه الله تعالى، كان حسَن الوجه، وسيمَ الطَّلعة، عذبَ المنطق، حُلوَ الحديث، ليس بالطويل البائِن، ولا بالقصير الذي تنبو عنه العيونُ، وهو إلى ذلك لبَّاسٌ، أصلحوا رحالكم وحسِّنوا لباسَكم حتى تكونوا شامةً بين الناس، والنبيُّ الكريم كان يُعرَف بطيب المسك، و كان له ثيابٌ لا يلبسها إلا في المواسم، و عند حضور الوفود، فالأناقة في اللباس والنظافةُ مطلوبةٌ للمؤمن، وهو مع ذلك لبَّاسٌ، أنيقُ الثياب، بهِيُّ الطلعة، كثيرُ التَّعطُّر، ولكن ليس عطر المشايخ الثقيل، بل خفيف، إذا طلع على الناس عرفوه من طيبه قبل أن يروْه، ذلكم هو النعمانُ بنُ ثابتٍ، المُكنَّى بأبي حنيفةَ، أوَّلُ من فتقَ أكمامَ الفقه، و استخرج أروعَ ما فيه من طيوبٍ. أدرك أبو حنيفة طرفًا من آخر عصر بني أمية، و آخَرَ من أول عصر بني العبَّاس فكان مخضْرماً، فأدرك الأمويّين و العبَّاسيين، و عاش في زمنٍ أغدق فيه الخلفاءُ و الولاةُ على أصحاب المواهب إغداقًا حتى صار رزقُهم يأتيهم رغدًا من كلِّ مكان، وهم لا يشعرون، ومن علامات تقدُّم الأمم أن العباقرةَ والموهوبين يعيشون في

كرامة عالية، و من علامات تخلُّف الأمم أن الأذكياءَ و العباقرة دخلُهم أقلُّ دخلٍ في المجتمع، فعاش أبو حنيفة في زمن أغدق فيه الخلفاءُ و الولاةُ على أصحاب المواهب إغداقًا حتى صار رزقُهم يأتيهم رغداً من كلّ مكان و هم لا يشعرون، قال الشاعرُ:

و لو كانت الأرزاقُ تجري مع الحِجا هلكْن إذًا من جهلهنَّ البهائمُ

***

الحِجا: العقول.

بَيْدَ أن أبا حنيفة أكرم علمَه و نفسَه عن ذلك، أكرم علمَه و نفسَه عن أن يأخذ من الأموال العامة، وحَزَم أمرَه على أن يأكل من كسب يمينه، وأن تكون يدُه هي العليا دائمًا، دعاه المنصورُ ذاتَ يوم إلى زيارته فلما صار عنده بالغ في إعظامه و إكرامه و التَّرحيب به، و أدنى مجلسَه منه، وجعل يُسائلُه عن كثيرٍ من شؤون الدين و الدنيا، فلما أراد الانصرافَ دفع إليه كيسًا فيه ثلاثون ألف درهم، على ما كان معروفًا من إمساك المنصور، ومع ذلك أعطاه ثلاثين ألف درهم، فقال له أبو حنيفة: يا أميرَ المؤمنين إني غريبٌ في بغداد و ليس لهذا المال موضعٌ عندي، و إني لأخشى عليه، فاحفظْه لي في بيت المال، حتى إذا احتجتُه طلبتُه منك،، فأجابه المنصورُ إلى رغبته، غيرَ أن الحياة لم تطُل بعدئذٍ بأبي حنيفة، فلما وافاه الأجلُ وُجِدتْ في بيته ودائعُ للناس تزيد على أضعاف هذا المبلغ، فلما سمع المنصورُ بذلك قال: يرحمُ اللهُ أبا حنيفة لقد خدعنا، و أبَى أن يأخذ منا شيئًا، بهذه الطريقة اعتذر.

ومرةً قال له: يا أبا حنيفة لو تغشَّيْتَنا، أي لو تزورنا و تتردّد علينا، فقال: و لِمَ أتغشَّاكم و ليس لي عندكم شيءٌ أخافكم عليه؟ وهل يتغشَّاكم إلا من خافكم على شيء؟ وكان أبو حنيفة رضي اللهُ عنه سريعَ البديهة، مرةً كان عند المنصور وكان أحدُ القضاة عدوًّا له لَدُودًا وأراد هذا القاضي أن يُحرِجَه، و أن يضعه في مأزِق، فقال: يا أبا حنيفة إذا أمرني الخليفةُ بقتل امرئٍ أأَقتله أم أتريَّث ؟والخليفةُ جالسٌ، فقال له أبو حنيفة: الخليفةُ على الحق أم على الباطل؟ قال له: على الحق، قال: كُنْ مع الحق، فلما خرج قال: أراد أن يقيِّدَني فربطتُه، فكان سريعَ البديهة.

جود أبي حنيفة و بره بالناس :

وكان أبو حنيفة يوقنُ أنه ما أكل امرؤٌ لقمةً أزكى ولا أعزَّ من لقمةٍ ينالها من كسب يده، لذلك نجده يخصِّص شطرًا من وقته للتجارة، فقد جعل يتَّجِر بالخزِّ، و هناك قولٌ: و لو اتَّجر المؤمنون في الجنة لاتَّجروا بالخزِّ أي بالقماش، و لو اتَّجر الكفارُ في جهنم لاتَّجروا بالصَّرف أي صرفُ العملة، لقد جعل يتَّجر في الخزِّ وأثوابه، و كانت تجارتُه ذاهبةً آيبةً بين مدنِ العراق، لكنَّ الصرف له أحكام خاصة، و ليس مطلقًا، وأحياناً يضطرُّ الإنسان ليذهب إلى بلدٍ آخر أن يشتري العملةَ التي تروجُ هناك، فلا بدَّ من أناسٍ يقومون بهذا العمل، وهذا الموضوع ليس معناه أن هذا القول حكمٌ شرعيٌّ، الموضوع له حكمٌ مفصَّلٌ، و في وقتٍ آخر قد نبحثه إن شاء اللهُ، أما هذا فليس حكمًا شرعيًّا، كان له متجرٌ معروفٌ يقصِده الناسُ، و في هذا المتجر الصدقُ في المعاملة، والأمانةُ في الأخذ والعطاء، ولا ريبَ في أنهم كانوا أيضًا يجدون فيه الذَّوقَ الرفيعَ، وفيه الأقمشةُ الحديثةُ، واختيارُها جيِّدٌ، و لقد كانت تجارتُه تدُرُّ عليه خيرًا وفيرًا وتحْبوه من فضل اللهِ مالاً كثيرًا، فكان يأخذ المالَ من حِلِّه ويضعه في محلِّه، هذه عبارةٌ لطيفةٌ جدًّا، يأخذه من حِلِّه، أي في الحلال، ويضعه في محلِّه، فلقد عُرِف عنه أنه كلما حالَ عليه الحوْلُ أحصى أرباحَه من تجارته، واستبْقى منها ما يكفيه لنفقته ثم يشتري بالباقي حوائجَ القرَّاءِ و المحدِّثين، والفقهاء و طلاَّب العلم، وأقواتهم وكسوتهم، فحبَّذا المالُ أصونُ به عِرضي و أتقرَّب به إلى ربي، ويخصِّص لكلٍّ منهم مبلغًا من النقد العيني، ويدفع ذلك كلَّه لهم، ويقول: هذه أرباحُ بضائعكم أجراها اللهُ لكم على يدي، أي إنه اعتبر هذه الأموالَ أموالَ الفقراءِ، قال: هذه أرباحُ بضائعكم أجراها اللهُ على يدي، وهو أيضا لطيفٌ في إعطاء المال، وليس خذْ، خذْ هذا كسرتَ قلبَه، قال: هذه أرباحُ بضائعكم أجراها اللهُ على يدي، و اللهِ ما أعطيكم من مالي شيئًا، إنما هو فضلُ اللهِ عليَّ فيكم، هذه أموالُكم، فما في رزق اللهِ حولٌ لأحدٍ غيرِ اللهِ، قال: ولقد شرَّقتْ أخبارُ جودِ أبي حنيفة و سماحته وغرَّبتْ، وخاصَّةً مع جلسائه و أصحابه، من ذلك أن أحد جلسائه جاءه إلى متجره يومًا وقال: إنني بحاجةٍ إلى ثوب خزٍّ يا أبا حنيفة، فقال له أبو حنيفة: ما لونُه؟ فقال: كذا و كذا، قال: اصبِرْ حتى يقع لي فآخُذه لك، فما إن دارتْ الجمعةُ حتى وقع له الثوبُ المطلوبُ فمرَّ به صاحبُه فقال له أبو حنيفة: قد وقعتْ ليَ حاجتُك، و أخرج إليه الثوبَ فأعجبه و قال: كم أدفع لغلامك ثمنَه؟ قال: درهمًا، قال في استغرابٍ: درهمًا واحدا! قال: نعم، قال: أتهزأ بي؟ قال: لا و اللهِ ما هزِئْتُ بأحدٍ قبلك ولا بعدك، و لا أهزأُ بأحدٍ وإنما اشتريتُ هذا الثوبَ و آخر معه بواحدٍ وعشرين، بعتُ الثوبَ الآخرَ بعشرين هذا الثوبُ أصبح ثمنُه عليك درهمًا واحدًا، و بقي عليَّ بدرهمٍ واحدٍ، وما كنتُ لأربحَ على جليسي، من مروءة الإنسانُ أن يراعيَ إخوانَه، فيشعر

الأخُ أن له كرامةً عنده، و لو حقَّضتَ له خمسين بالمئة من الربح، يشعر أن له مكانة عندك، هذا من المروءة، جليسك، أخوك، قريبك، صاحبك،جاء لدكّانك، فله سعرٌ خاصٌ، هكذا فعل أبو حنيفة، جاءتْه امرأةٌ عجوزٌ تطلبُ ثوبَ خزٍّ فأخرج لها الثوبَ المطلوب فقالت له: إنني امرأةٌ عجوزٌ و لا علم لي بالأثمان- بالأسعار - والنبيُّ الكريم قال: غبنُ المسترسِل ربًا، غبنُ المسترسِل حرامٌ " إذا كان الزبونُ غشيمًا، البائعُ المؤمن يخاف من الله، و يعطيه السَّعرَ الأدنى، والبائع الفاجر يجده مكسبًا كبيرا، فتكون عنده بضاعةٌ سيئة بسعر غالٍ، فيبيعها في فرح، فقالت: إنني امرأةٌ عجوزٌ و لا علمَ لي بالأثمان، و إنها أمانةٌ، فبِعْني الثوبَ بما قام عليك رأسَ ماله، وضِفْ إليه قليلاً من الربح- هامشًا قليلاً- فإنني ضعيفةٌ، فقال لها: إنني اشتريتُ الثوبَين الاثنين في صفقةٍ واحدة، بِعتُ أحدَهما برأس المال إلا أربعةَ دراهم، فَخُذِيه بهذه الدراهم الأربعة، و أعطاها أيضا الحدَّ الأدنى. وذاتَ يومٍ رأى ثيابًا رثَّة على أحدِ جلسائه من إخوانه، فلما انصرف الناسُ ولم يبق في المجلس إلا هو والرجل على انفرادٍ، قال له: ارفعْ هذا المُصلَّى، وخذْ ما تحته، فرفع الرجلُ المصلَّى فإذا تحته ألفُ درهم، قال: خُذها وأصلِح من شأنك، وغيِّر لباسَك، فقال الرجل: إنني موسِرٌ- أنا غنيٌّ- و قد أنعم اللهُ عليَّ، ولا حاجة لي بها، فقال له أبو حنيفة: إذا كان اللهُ قد أنعم عليك فأين أثرُ نعمته؟ هكذا، أنت موسِرٌ وغنيٌّ وتلبس ثيابًا رثَّةً، إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، قال له: أمابلغك أن النبيَّ عليه الصلاة و السلام يقول: " إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده " فينبغي عليك أن تصلح من شأنك حتى لا تُذِمَّ صديقَك.

وبلغ من جود أبي حنيفة و بِرِّهِ بالناس أنه كان إذا أنفق على عِيالِه نفقةً تصدَّق بمثلها على غيرهم من المحتاجين، أي إذا أتى لزوجته بثوب و كان ثمَّةَ أناس فقراء ينفق عليهم ما ينفق على أهله، وإذا اكتسى ثوبًا جديداً كسا المساكينَ بقدْر ثمنه، و كان إذا وُضِع الطَّعامُ بين يديه غَرَف منه ضعفَ ما يأكل منه عادةً، وأعطى الفقراءِ ثُلُثا الطبخة.

و ممَّا يُروى أنه قطع على نفسه العهدَ ألاَّ يحلفَ باللّهِ في أثناء كلامه أبدًا وإذا حلف تصدَّق بدرهم فضَّةٍ، هكذا عاهد نفسَه، ثم تدرَّج في الأمرِ فجعل على نفسه عهدًا إن حلف بالله صادقًا لَيَتَصدَّقَنَّ بدينارٍ من ذهبٍ، حتى يعوِّد نفسَه ألا يحلفَ أبدًا، فكان إذا حلف صادقاً تصدَّق بدينارٍ.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 04 : سنن الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا، وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأَرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

سنن الحج :

1 . الاغتسال عند الإحرام :

أيها الأخوةُ المؤمنون ؛ لا زلنا مع دروس الحجِّ، و قد تحدَّثتُ بفضل الله و توفيقه في الدروس السابقة عن أركان الحج وواجباته، و بقيَ علينا السُّنن. نن الحج:

فالسُّننُ كثيرةٌ، منها الاغتسالُ عند الإحرام، ولو لحائضٍ أو نفساء، مع آداب الاغتسال، ومن آداب الاغتسال تقليم الأظافر، وتقليمُ شعر الشارب، ونتفُ الإبط، وحلقُ العانة، وما شاكل ذلك، وإن لم يغتسل المُحرِمُ فعليه أن يتوضَّأ إذا أراد الإحرامَ، و على الرَّجُل أن يلبس الإزارَ و الرَّداءَ، و يُندَب أن يكونا جديدين أبيضين، أوغسيليْن، فإن لم يكونا جديدين أبيضين فينبغي أن يكونا غسيلين أبيضين، أي مغسولين غسيلاً جيِّدًا، و يُندَب التَّطيُّبُ قبله، باستعمال الطِّيب، و يُسنُّ للرجل و المرأة صلاة ركعتين بعد الإحرام، و الإكثارُ من التَّلبيةِ، لبَّيك اللهمَّ لبَّيك بعد الإحرام.

2 . طواف القدوم :

ومن سنن الحجِّ طوافُ القدوم، فطوافُ القدوم سنَّة، و طوافُ الإفاضة فرضٌ، وطواف الوداع واجبٌ، على كلِّ الحجَّاج أم على الآفاقيين؟ على الآفاقيين، والإكثارُ من الصلاة على النبيِّ صلى اللهُ عليه و سلم.

3 . استلام الحجر الأسود :

ومن سنن الحجِّ استلامُ الحجر الأسود، الاستلامُ إمَّا أن تقبّله، وإمَّا أن تستلمه بيديك، ثلاثُ حالات؛ إما أن تقبِّله، وإما أن تستلمه بيديك وتقبّل يديك، وإما أن تشير إليه.

4 . الاضطباع في جميع الأشواط للرجل فقط :

ومن سنن الحج الاِضْطِباعُ في جميع الأشواط للرجل فقط في كلِّ طوافٍ بعده سعيٌ، كلُّ طواف بعده سعيٌ لا بدَّ من أن تضطبِعَ، أي أن تكشف كتِفَك الأيمنَ، و تضع الرداءَ تحت الإبط الأيمنِ، وتلقيه على الكتف الأيسر، هذا هو الاضطباعُ في الطَّواف الذي بعده سعيٌ.

5 . الرّمل :

ويُسنُّ أيضًا الرَّمَلُ، أي الهَرْوَلةُ في الأشواط الثلاث الأولى، أو من طواف الفرض أي طواف الرُّكن يُسنُّ أن تهرْوِل و لو لم يكن بعد هذا الطواف سعيٌ.

6 . الهرولةُ بين المِيليْن الأخضرين للرجل فيما بين الصَّفا و المروة :

ويُسن أيضاً الهرولةُ بين المِيليْن الأخضرين للرجل فيما بين الصَّفا و المروة، في كلِّ شوط من أشواط السعي، و يسنُّ أن يمشيَ الساعي في باقي الأشواط.

7 . الإكثار من الطواف للآفاقي :

و يسن الإكثارُ من الطَّواف للآفاقي، أي إنَّ بيتَ اللهِ الحرام تحيَّتُه الطواف، بينما أيُّ مسجد آخر تحيَّته صلاة ركعتين.

8 . الخروجُ من مكةَ إلى منى بعد طلوع شمس اليوم الثّامن من ذي الحجة :

و يسنُّ أيضاً الخروجُ من مكةَ إلى منى بعد طلوع شمس اليوم الثّامن من ذي الحجة، لأن المبيتَ بمنى يوم الثامن من ذي الحجة لليوم التّاسع هذه سنَّة، لذلك حجَّاجٌ كثيرون يتوجَّهون من مكةَ إلى عرفاتٍ مباشرة، ولا شيءَ عليهم، لكنَّ السُّنة أن يبيت الحاجُّ في منى، و أن يصلّيَ فيها خمسَ صلواتٍ ؛ الظهر و العصر و المغرب و العشاء من اليوم الثامن، والفجر في اليوم التَّاسع، وبعدها يتوجَّه إلى عرفات، و من السُّنة أيضا المبيتُ بمنى في أيام الرجْم، فعند السَّادة الأحناف المبيتُ بمنى سنَّةٌ، فمن تركها فلا شيءَ عليه، لكنَّه عند السادة الشافعية المبيت بمنى واجب، فمن ترك المبيتَ بمنى فعليه دمٌ.

9 . الخروج من منى بعد طلوع شمس اليوم التاسع إلى عرفات و الدعوة بالأذكار :

ومن السنة أيضا الخروج من منى بعد طلوع شمس اليوم التاسع إلى عرفات، و الأذكارُ في مواضعها، فيُسنّ أن تدعوَ بالأذكارِ التي أُثِرت عن النبي عليه الصلاة و السلام في مواضعها.

10 . دخول الكعبة :

و من السُّنة أن تدخل الكعبة، وهذا ليس مُتاحا الآن، لكنَّ العلماءَ قالوا: أن تصليَ ركعتين في حِجْر إسماعيل، فهذه تُجزئ عن دخول الكعبة، لأن ما بين الكعبة والحِجر هو مِن الكعبة، لذلك لا يجوز الطوافُ فيما بين الكعبة و بين حِجر إسماعيل، الطوافُ يُعدُّ باطلاً، لأن ما بين الكعبة و الحجر من الكعبة نفسها، فمن صلّى في هذا المكان ركعتين فكأنما صلَّى في الكعبة و دخلها.

11 . المحافظة على الطهارة في كلِّ مناسك الحج :

ومن السنة أيضا المحافظة على الطهارة في كلِّ مناسك الحج، و المحافظة على صون اللسان من المباح، أي الحديث عن الدنيا، وعن أسعار العملات، وعن أسعار الحاجيات، وأن هذه المسجِّلة لا يوجد منها في الشام، و ما أجملها، هذا الحديث عن الحاجات و البضائع و الانهماك فيها ليس من السنة.

12 . صون اللسان عن المكروه :

ومن السنة أن تصون لسانَك عن المكروه، أما صونُ اللسان عن المكروه تحريمًا فواجبٌ، أي إذا تحدَّث الإنسانُ عن النساء، أو تحدَّث عن مقدِّمات الجماع فعليه دمٌ، لأن الحديث عن هذا الموضوع خرقٌ لمحظورات الإحرام، أما تنزيه اللسان عن المكروه تحريماً فواجبٌ، و إنما تنزيه اللسان عن المكروه تنزيهاً سنَّةٌ.

13 . المبيتُ بمزدلفة ليلة النحر :

المبيتُ بمزدلفة ليلة النحر وهذا من السنة أيضاً، ولكنَّ النبيَّ عليه الصلاة و السلام أجاز للنساء والضَّعفة أن ينطلقوا إلى رمي الجمرة الكبرى بعد منتصف الليل، و أن ينطلقوا إلى طواف الركن قبل الفجر، أي إذا كان أخٌ حاجٌّ ومعه نساءٌ فالأولى أن ينطلق بهن من مزدلفة بعد منتصف الليل ليتَّقيَ بهذا الوقت الازدحامَ الشديد الذي لا يرضي اللهَ عز وجل، كأن تكون المرأةُ بين الرجال صدرًا لظهر، وكتفًا بكتف.

14 . رمي جمرة العقبة الكبرى :

و من السنة أيضا أن يكون الرميُ في اليوم الأول ما بين طلوع الشمس و زوالها من يوم النحر، إلا إذا خاف شدَّةَ الزِّحام، و فيما بين الزوال و غروب الشمس في باقي الأيام، ثلاث مرات، هناك رميُ جمرة العقبة الكبرى، هذه تُسنُّ فيما بين طلوع الشمس وبين الزَّوال من أول أيام النحر، وأما باقي أيام الرجم فتُسنُّ من بعد الزوال إلى الغروب، لكنْ من كان معه نساءٌ يجوز أن يرميَ بعد منتصف الليل.

15 . تقديم الحاجّ المفرِد هديًا :

ومن السنة أيضاً أن يقدِّم الحاجُّ المفردُ هديًا، والهديُ على المتمتِّع واجبٌ، وهو هديُ جبْر، والهديُ على القارن واجب، وهو هدي شكر، لكنَّ الهدي على المفرِد سنة، فمن تركه فلا شيء عليه، و من السنة أيضاً أن تأكل من الهدي، ولك أن تأكل أيضًا من هدي القران و التَّمتُّع أما هديُ الجنايات فلا يُؤكَل منه، فإذا ارتكب الإنسانُ جناية و لزِمه هديٌ، فلا ينبغي أن يأكل منه الحاجُّ.

16 . الشرب من ماء زمزم :

ومن السنن الشُّربُ من ماء زمزم، و المبالغة فيه، أي التَّضلُّع، وهو الارتواءُ و الامتلاء، و ليس مصَّة، بل يجب أن تشرب من هذا الماء وأن ترتويَ منه، وهذا هو التَّضلُّع.

17 . التِزامُ المُلتَزَم :

ومن السنة أيضا التِزامُ المُلتَزَم، وهو ما بين الحجر الأسود و باب الكعبة، و قد أُثِر عن النبيّ صلى اللهُ عليه و سلم أنه: " ما من مسلم يقف في هذا الملتزم فيسأل الله حاجةً من حاجات الدنيا و الآخرة إلا أعطاه اللهُ إيَّاها".

18 . التَّشَبُّث بأستار الكعبة :

ومن السنة أيضا التَّشَبُّث بأستار الكعبة، أي أن تمسك بأستار الكعبة كالمتضرّعِ المستجير، الملتجئ المستغيث بالله عز وجل.

19 . رفع الصوت بالتلبية :

ومن السنة أيضاً رفع الصوت بالتلبية، بما لا يضرُّ النفسَ، ولا يؤذي الناسَ لغير المرأة، لأن رفعَ صوتها قد يؤدِّي إلى الفتنة، و نساءٌ كثيراتٌ في الحجِّ لا ينتبهن إلى هذه الحقيقة يرفعن أصواتهن بالدُّعاء و التلبية، و أصواتهن عورة، و في هذا إيذاءٌ للحجَّاج.

20 . الاغتسال لدخول مكة المكرمة ومزدلفة :

ومن السنة أيضاً الاغتسال لدخول مكة المكرمة ومزدلفة، لمن نزل بهما من الحجَّاج.

21 . الجمع بين صلاتي الظهر و العصر جمع تقديم بعرفة مطلقاً :

و من السنة الجمع بين صلاتيْ الظهر و العصر جمع تقديم بعرفة مطلقاً، كما هو عند أبي يوسف ومحمد.

22 . الصلاة في عرفة وراء أمير الحج :

ومن السنة أن تصلِّي في عرفة وراءَ أمير الحجِّ، كما هو عند أبي حنيفة، لا أن تصلِّي مفرَدًا .

23 . الإكثارُ من الدعاء عند جبل الرحمة :

ومن السنة الإكثارُ من الدعاء عند جبل الرحمة، عند الصخَرات المفروشات، مكان وقوف النبيّ عليه الصلاة والسلام، فإن هذا اليوم يومٌ عظيمٌ، والدعاءُ فيه جديرٌ بالإجابة بفضل الله تعالى.

24 . أن يكون طوافُ الإفاضة في اليوم الأول من أيام النحر :

و من السنة أن يكون طوافُ الإفاضة في اليوم الأول من أيام النحر، تلك هي الفرائض، وبعدها الواجبات، وبعدها السُّننُ، من لم يأت بالأركان المفروضة بطُل حجُّه، عليه أن يحجَّ في العام القادم، لقول الله تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

[سورة البقرة: 196]

ومن وقع في مخالفة بعض الواجبات لزمه دمٌ، و من ترك السنة فلا شيءَ عليه، لكنه أساءَ، إلا إذا كان في تركها ترخيص من النبيّ عليه الصلاة والسلام في بعض الحالات الخاصة فيكون تركُها في هذا الموطن أولى من الأخذ بها، كَمَنْ معه نساءٌ، فإذا أخذ بالرخصة فربما كان هذا أيسر لحجِّه وحجِّهن.

أحكام المرأة المتعلِّقة بالحج :

وهنا موضوعٌ قصيرٌ متعلِّق بهذا الموضوع الكبير، وهو الأحكام الخاصَّة بالنساء، كنتُ أرى في الحجِّ في العام الماضي النساءَ يُهَرْوِلْن، هذا مخالفٌ للسنة، فالمرأة لها أحكامٌ خاصَّة، فالمرأة كالرجل في أعمال الحج و لا تخالفه إلا في أشياء قليلة، ترجع إلى تحقيق الفرق الخِلْقي، أي الطبيعي، بين الرجل و المرأة، لقوله تعالى:

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾

[سورة آل عمران: 36]

فإذا قلنا للرجل: اِلبِسْ ثيابَ الإحرام، ثوبان أو رداءان، رداءٌ و إزارٌ غير مخيطين فهذا لا ينبغي للمرأة، وإذا قلنا للرجل: هَروِل، هذا لا ينبغي للمرأة، فالمرأة لا تتطيَّب عند الإحرام، لأن تطيُّبها حين يجد الرجالُ ريحَها محظور، إذًا يُلغَى من السنن التي على الرجل الطِّيبُ للنساء، و المرأة لا ينبغي أن ترتديَ ثياب غيرَ مخيطة، لأن هذه الثيابَ قد تكشف بعض مفاتنها، لذلك لا تلبس المرأةُ ثيابًا معيَّنة للإحرام، و إنما إحرامُها أن ترتديَ ثيابًا مخيطة، وكلّما بالغت المرأةُ في ارتداء ثيابٍ فضفاضةٍ ومزدوجة، كان هذا أبلغَ في ورعها، وأقربَ إلى ربها، وهذا مما يليق بالمرأة المسلمة إذا ذهبت إلى الحج، لا أن تكون مصدرَ فتنة و إيذاءٍ للحجَّاج. قال العلماءُ: و المستحبُّ أن تُسْدِل المرأة على وجهها شيئًا، أي نِقابًا و تجافيه عنه، لذلك بعضُ الأخوات المؤمنات يضعن على رؤوسهن واقيةً، فإذا أسدلن الحجابَ على وجوههن كان بعيدًا بحيث تطبِّقْن بهذا السنةَ، و الدليلُ ما فعلته السيّدةُ عائشةُ رضي اللهُ عنها، و ما فعلته نساءُ النبيِّ عليه الصلاة

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْرِمَاتٌ فَإِذَا حَاذَوْا بِنَا سَدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا فَإِذَا جَاوَزُونَا كَشَفْنَاهُ))

[أبو داود عن عائشة]

و هو حديث صحيح، والعلماءُ قالوا: يُستحبُ للمرأة أن تسدل على وجهها شيئًا تجافيه عنه، وقد دلَّت المسألةُ وهذا الحديثُ على أن المرأة منهية على إبداء وجهها للأجانب بلا ضرورة، أي إذا قلنا: إن المرأةَ يجب أن تصلّيَ مكشوفة الوجه، ما معنى ذلك؟ معنى ذلك أنه يجب أن تصلِّي في مكان ليس فيه رجالٌ أجانب، فكشفُ الوجه في الصلاة لا يعني أن الوجه يُباح أن يظهر مطلقًا. ولا ترفع المرأةُ صوتها بالتلبية، لما في رفع صوتها من خوف الفتنة، و لذا لا يجوز للمرأة أن تؤَذِّن للصلاة كما تقدَّم، فإذا كانت المرأةُ لا يجوز أن تؤذِّن، فكيف إذا غنَّت؟! وإذا كان لا يجوز أن يستمع الرجل إلى صوت المرأة و هي تسبّح اللهَ و تكبّره، فكيف إذا استمع إليها و هي تغنّي؟! ولا تضطبع المراةُ أبدًا، ولا ترمُل في طوافها، ولو كان المطافُ خاليًا، فالرجلُ أحيانا ليس في إمكانه أن يرملَ للازدحام الشديد، ولا يستطيع أن يطوف طواف الإفاضة فمستحيل على المرأة أن ترملَ، و لو أن الحرمَ خالٍ لا يجوز للمرأة أن ترمل في طوافها، ولا في سعيها، و أكثرُ الملاحظات التي ألاحظها في السعي بين الصفا و المروة أنّ الرجل يمشي مع زوجته، فلمَّا وصلا إلى الميلين الأخضرين هرولا جميعا، أين تهروِل معك؟ هذه امرأتك يجب أن تسير على هِناتها، وأن تسبقها أنت في ما بين الميلين الأخضرين حتى تلحق بك أما أن تهرول

معك فهذا مخالفٌ للسنة، و قد قال عليه الصلاة و السلام: "تفقَّهوا قبل أن تحجوا".

ولا تقبّل المرأةُ الحجر الأسودَ إن كان ثمة زحام، وأحياناً تدخل المرأةُ بين الرجال من أجل تقبيل الحجر الأسود، فتخرج من بينهم ولا شيءَ على رأسها، أين الفقه؟ فلا ينبغي للمرأة أن تقبّل الحجرَ الأسودَ إن كان ثمةَ زحامٌ، و لا تكلِّف نفسَها استلامَه، ولا تصلّي في أثناء الزحام خلف مقام إبراهيم، بل عليها أن تصلي في أيّ مكان آخر، على أن يكون خلفها جدارٌ أو عمودٌ، أو ساريةٌ، أما أن تصلي خلف مقام إبراهيم، والزحام على أشُدِّه، فليس هذا من الفقه في شيء.

وفي الجملة اختلاطُ المرأة بالرجل حرام، ولاسيما في الحج، لأن هذا مبعثٌ للفتنة وعلى المرأة أن تتحيَّن أوقاتَ خفَّة الزحام لطوافها، تنتقي الفجر، قُبيل الفجر بساعتين، أو الساعة الثانية، أو منتصف الليل، أو الساعة الثالثة بعد الظهر، عليها أن تنتقيَ وقتًا يقلُّ فيه الزحامُ لئلَّا تؤذِي وتُؤذَى، كما كانت تفعل السيدةُ عائشة رضي اللهُ عنها.

و يُسنُّ للمرأة أن تجعل طوافها بعيداً عن الكعبة المعظَّمة، لأن القربَ من الكعبة مظنَّةُ ازدحامٍ، تحرُّزا من الازدحام مع الرجال، و لا تهرول بين الميلين الأخضرين في السعي بين الصفا والمروة، و لو كان المسعى خاليًا، ويجوز لها تركُ المبيت في مزدلفة، لأنها امرأة، و من أجل أن يُيَسَّر لها رميُ الجمار في وقتٍ غيرِ مزدحمٍ، و يجوز لها تركُ الوقوف عند المشعر الحرام لأنوثتها، فقد قدَّم النبيُّ عليه الصلاة و السلام بين يديه النساءَ و الضَّعفةَ من أهله، حيث ذهبوا إلى منى و لم يبيتوا بمزدلفةَ، هكذا الفقهُ، فإذا كانت معك زوجتُك افعلْ هكذا. و الأفضلُ في حقها تأخيرُ الرمي يوم النحر إلى ما بعد الزوال، لتنافي شدَّة الازدحام و لو في آخر النهار خوفاً عليها و سترًا لها.

والفرقُ الدقيق بين المرأة والرجل في شؤون الحج الاستطاعةُ، فلا فرقَ في وجوه الاستطاعة بين الرجل والمرأة إلا في ثلاثة أمور؛ الأول: أن يرافقها في سفرها زوجُها، أو أحدُ محارمها، و هو ممن لا يجوز له أن ينكحها أبدًا، فزوجُ أختها يجوز له أن ينكحها إذا ماتت أختُها، ويجوز له أن ينكحها إذا طُلِّقت أختُها، إذًا هذا ليس بمحرمٍ، فلا ينبغي إلا أن يكون المَحرمُ مُحَرَّمًا لها على التأبيد، ومع ذلك يجب أن يكون مأمونًا بالغاً عاقلاً غيرَ فاسق، لو أن لها أخاً فاسقاً لا يجوز أن يكون مَحرماً، قد تكون الأختُ موسِرةً و كلَّفت أخاها، و دينه رقيق، أن يذهب معها كمَحرم، هذا قد يؤذي الحُجَّاج، و قد لا يهتم بصونها، لذلك فضلاً عن أنه يجب أن يكون زوجاً أو محرماً على

التأبيد، يجب أن يكون هذا المحرمُ بالغاً عاقلاً غيرَ فاسق، و لا فرق في هذا بين العجوز و الشاب، تقول العجوز: أنا ما بقيَ لي شيءٌ يلفت النظر، من قال لكِ ذلك قد تجدين شيخًا عجوزًا تلفتين نظرَه، و لا فرق في هذا بين العجوز و الشاب، فيُكرَه تحريماً على المرأة أن تحُجَّ بغير مَحرم و إن لم تجد المرأةُ زوجًا أو مَحرمًا فهي في نظر الشرع غير مستطيعة، فاستطاعةُ الرجل بتوافر المال؛ الراحلة و الزاد و المال و الصحَّة، واستطاعة المرأة بتوافر المال و الزاد و الراحلة و الصحَّة و المَحرم، فالمرأةُ التي لا مَحرمَ لها لا حجّ عليها. ويجب أن تكون المرأةُ غيرَ معتدَّةٍ بأيَّة عِدَّةٍ كانت، من طلاق أو وفاة، فإن حجَّتْ في العدَّة كانت عاصيةً آثمةً، قال: المعتدَّة في عدَّة طلاق أو وفاة لا حجَّ عليها، ويجب أن تكون قادرةً على نفقتها ونفقة المحرم، لأنها من مُؤَنِ حجِّها، فإذا كلَّفت أخاها أن يذهب معها، و كان رقيق الحال يجب أن تنفق عليه، أما إذا كلَّفت زوجَها أن يحجَّ معها على أنه محرمٌ لها، فعليها أن تنفق عليه نفقات الحجِّ، أما نفقاتُ الطعام والشراب التي عليه في الإقامة فتبقى عليه في الحجِّ هكذا العدلُ، أمَّا أن تكلّفه أن يدفع بطاقة الطائرة، عشرة آلاف، فهذه عليها إذا أرادت أن تحُجَّ ومعها زوجُها.

إنّ حيْضُ المرأة أو نفاسُها لا يمنع شيئاً من أعمال الحج، إلا الطواف، فقد تكون حائضاً وتذهب إلى عرفات، فلا يمنع الحيض والنفاس شيئاً من أعمال الحجِّ، تُحرِم وهي حائضٌ، تُلبِّي و هي حائضٌ، إلا الطواف و دخول المسجد الحرام، فإن طافت و هي حائض أو نفساءُ صحَّ طوافُها عند الحنفية و عليها بُدْنة، حوالي أربعين إلى خمسين ألف ليرة، البدنة جملٌ، و إن أخَّرت الطوافَ حتى تطهر فلا يلزمها شيءٌ، وهذا في طواف الركن، حتى تطهر فلا يلزمها شيءٌ، أما الإمام الشافعي رضي اللهُ عنه فيقول: لا يصحُّ الطوافُ من الحائض و النفساء .

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا نَذْكُرُ إِلَّا الْحَجَّ فَلَمَّا جِئْنَا سَرِفَ طَمِثْتُ فَدَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟ قُلْتُ لَوَدِدْتُ وَاللَّهِ أَنِّي لَمْ أَحُجَّ الْعَامَ؟ قَالَ: لَعَلَّكِ نُفِسْتِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّ ذَلِكِ شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ فَافْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي))

[البخاري عن عائشة]

من أحكام المرأة أنه إذا أخذ أهلُها أو محرمُها أو زوجُها في الرَّحيلِ و هي حائضٌ أو نفساءُ سقط عنها طوافُ الوداع، و لا يلزمها شيءٌ، لكنَّ العلماءُ قالوا: يُستحبُّ لها أن تقف بباب الحرم و تدعو قبل أن تغادر هذه البلاد. ويسن لها تقصيرُ الشَّعر، فقط فقد روى ابنُ عبَّاسٍ رضي اللهُ عنه عن رسول الله صلى اللهُ عليه و سلم أنه قال: "ليس على النساء حلْقٌ إنما على النساء تقصير " وهذا رحمةً بهن.

هذه أحكام المرأة المتعلِّقة بالحج، و قد أنهينا الفروض و الواجبات و السُّنن و الأحكام المتعلِقة بالمرأة.

* * *

صفات أبي حنيفة النعمان :

والآن نشدُّ رحالنا إلى الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، لقد كان أبو حنيفةَ رحمه الله تعالى طيّبَ المعاشرة .

((وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: الْمُؤْمِنُ مُؤْلَفٌ وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ))

[أحمد عن أبي هريرة]

كان طيّب المعاشرة، حُلوَ المؤانسة، يسعد به جليسُه، و لا يشقى به من غاب عنه ولو كان عدوًّا له، حتى قال أحدُ أصحابه: سمعتُ عبدَ الله بن المبارك يقول لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله ما أبعد أبو حنيفةَ عن الغيبةِ؟ فإني ما سمعتُه يذكر عدوًّا له بسوءٍ قط، فقال له سفيانُ: يا أبا عبد الله إن أبا حنيفةَ أعقل مِن أن يسلِّط على حسناته ما يذهبُ بها.

وكان أبو حنيفة رحمه اللهُ تعالى كلِفًا، أي محِبًّا، يحبُّ أن يقتنص وُدَّ الناس، والنبيُّ عليه الصلاة و السلام هكذا يقول، فرأسُ العقل بعد الإيمان التَّودُّدُ إلى الناس، وكان حريصًا على استدامة صداقتهم، فقد عُرِف عنه أنه ربَّما مرَّ به الرجلُ من الناس فقعد في مجلسه من غير قصدٍ و لا مجالسة، فإذا قام سأل عنه، فإن كانت به فاقةٌ وصله، وإن كان به مرضٌ عادة، و إن كانت له حاجةٌ قضاها، حتى يجُرَّه إلى مواصلته جرًّا، هذه هي الأخلاق، فإذا جلس شخصٌ معك اِسألْ عنه، و عن عمله، لعلَّه يحتاج إلى مساعدة، و لعلَّه مريضٌ، و الدواء عندك، لعلَّه يحتاج إلى معونة، إلى تخفيف، إلى تصبير، فالإنسان حينما يلتقي مع الناس يصبح لهم عليه حقٌّ، فكان هذا الإمام العظيم في جلسةٍ طارئة عابرةٍ غير مقصودة إذا التقى مع شخص عرَضًا سأل عنه، ما اسمُه، و ماذا

يعمل، و أين يسكن، فإن كانت به فاقةٌ وصَله، أو فقيرًا أعطاه، و إن كان به مرضٌ عاده، و إن كانت له حاجةٌ قضاها، حتى يجرَّه إلى مواصلته جرًّا، حتى يصير من إخوانه بهذه الطريقة، و قد كان أبو حنيفة قبل ذلك كلِّه و فوق ذلك كلِّه صوَّام النهار، قوَّام الليل، خديمًا للقرآن، أي صديقًا، مستغفرًا بالأسحار، و كان من أسباب توغُّله في العبادة و اندفاعه فيها له قصة، فقد أقبل ذات يوم على جماعة من الناس فسمعهم يقولون إن هذا الرجل الذي ترونه يقوم الليل فما أنْ لمست كلمتهم هذه أسماعَه حتى قال: إني عند الناس على خلاف ما أنا عند الله، واللهِ لا يتحدث الناسُ عني شيئاً إلا بما أنا فيه، أي مدحوه، قالوا: هذا الرجل يقوم الليل، وربما كان يقوم الليل، لكنْ ليس دائماً، فآلمه أن يكون هذا الوصفُ غير مطابق للحقيقة، عندئذٍ انطلاقاً من هذا المدح تابع قيامَ الليل حتى آخر حياته، وكان إذا أرخى الظلامُ سُدولَه على الكون، وأسلمتْ الجنوبُ إلى المضاجع، والناسُ كلُّهم نائمون، قام فلبس أحسنَ ثيابه، وسرَّح لحيتَه، وتطيَّب وتزيَّن، ثم وقف في محرابه يقطع أطراف الليل في الصلاة و الركوع والقنوت والسجود، وربما قرأ السورةَ الطويلة في الركعتين و ربما قام الليل كلَّه بآية واحدة يُعيدها و يبكي، ويُروَى أنه قام الليلَ كلَّه مرةً وهو يردِّد قولَه تعالى:

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾

[سورة القمر: 46]

وكان أحياناً يصلي الفجرَ بوضوءِ العشاء، و كان إذا قرأ سورة الزلزلة اقشعرَّ جلدُه ووجِل فؤادُه، وأخذ لحيتَه بيده، وطفِق يقول: يا مَن يجزي بمثقال ذرَّة خيرٍ خيرًا، ويا من يجزي بمثقال ذرة شرٍّ شرًّا، أجِرْ عبدَك النعمانَ من النار، وباعدْ بينه وبين ما يقرِّبه منها، و أدخله في واسع رحمتك يا أرحم الراحمين.

تحلي أبي حنيفة بقوة إقناع عجيبة :

دخل أبو حنيفة النعمان على الإمام مالك و عنده ثُلَّةٌ من أصحابه، فلما خرج من عنده التفت الإمام مالك لجلسائه و قال: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا، قال: هذا النعمانُ بن ثابت، هذا الذي لو قال عن هذه السارية – العمود – إنها ذهبٌ لاحتجَّ لِما قال، ولخرجتْ كذلك، أي عنده قوّة إقناع عجيبة، لو قال لك: هذه السارية من ذهب لجاء بالدليل، وأيقنتَ أنها من ذهب.

كان في أهل الكوفة رجلٌ ضالٌّ، وكان ذا قدرٍ في عيون بعض الناس، وصاحبَ كلمة مسموعة لديهم، كان هذا الرجل الضال يزعم فيما يزعم أن عثمان بن عفان رضي اللهُ عنه كان يهودياً، يُروِّج في المدينة أن هذا الصحابي

الجليل ثالث الخلفاء الراشدين كان يهوديًا، وأنه ظلَّ على يهوديته بعد الإسلام أيضاً، فلما سمع أبو حنيفة مقالَته هذه مضى إليه، قال له: لقد جئتُك خاطبًا ابنتَك فلانةً لأحد أصحابي، فقال: أهلاً بك و مرحباً، إن مثلك يا أبا حنيفة لا تُردُّ له حاجةٌ، ولكن مَن الخاطب؟ قال: رجلٌ موصوفٌ بين قومه بالشرف و الغنى، سخيُّ اليد، مبسوط الكفِّ، حافظٌ لكتاب الله عز وجل، يقوم الليل، كثير البكاء من خوف الله، بخٍ بخٍ حسبُك يا أبا حنيفة، إن بعض ما ذكرتَ من صفات الخاطب يجعله كِفئًا لبنت أمير المؤمنين، فقال أبو حنيفة: غير أن فيه خصلة واحدة لا بدّ من أن تقف عليها، قال: وما هي؟ قال: إنه يهودي فانتفض الرجلُ و قال: يهودي؟ أتريد أن أزوّج ابنتي من يهودي يا أبا حنيفة، و اللهِ لا أزوّجها منه، ولو جمع خصال الأولين والآخرين، فقال أبو حنيفة: تأبى أن تزوّج ابنتك من يهودي وتنكر ذلك أشدَّ الإنكار، ثم تزعم للناس أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم زوَّج ابنتيه كلتيهما من يهودي، فدُهِش الرجل وأخذته رِعدةٌ، واستغفر اللهَ من قوله هذا قول السوء، و تاب إلى الله فوراً، لقد عالجه علاجاً واقعيًا.

أحد الخوارج، وهو الضحَّاك جاء إلى أبي حنيفة ذات يوم، و قال: تُبْ يا أبا حنيفة، فقال: مِمَّ أتوب؟ قال: من قولك بجواز التَّحكيم الذي جرى بين عليٍّ و معاوية، هذا التحكيم باطل، و من قبِله فهو كافر، فيجب أن تتوب منه، فقال له أبو حنيفة: ألا تقبل أن تناظرني في هذا الأمر– أتحبُ أن نتناقش –؟ قال الخارجيُّ: بلى، فقال أبو حنيفة: فإن اختلفنا في شيء مما نتناظر فيه فمن يحكم بيننا؟ فقال الخارجي: حكِّمْ مَن تشاء، فالتفت أبو حنيفة إلى الرجل من أصحاب الخارجي كان معه، و قال: أنت أيها الرجل اُحكمْ بيننا إذا اختلفنا، ثم قال للخارجي: أنا رضيتُ بصاحبك حكَماً، فهل ترضى به أنت؟ فسُرَّ الخارج و قال: نعم، فقال أبو حنيفة: ويْحك أتُجوّز التَّحكيمَ لنفسك فيما شجر بيني و بينك و تنكره على اثنين من أصحاب رسول الله ؟! فانتهت المناقشةُ، حينما رضي معه هذا الخارجي بالتحكيم، وأقام عليه الحُجة.

ويروي العلماءُ أيضًا أنه جاءه خارجيان، و الخوارج كما عُرِف عنهم أنهم يكفِّرون بالصغيرة، أي إذا ارتكب المسلمُ صغيرةً يكفِّرونه بها، فدخلا عليه و شهرا عليه السيفَ، و قالا له: ما تقول في رجل زنى و فعل كذا و كذا، هل هو مسلم أم كافر؟ فإذا قال: مسلم قطعوا رأسَه، فقال: هذا الرجل الذي تتحدَّثون عنه أهو نصراني؟ قالوا: لا، قال: أهو يهودي؟ قالوا: لا، قال: فمَن هو؟ قالوا: هو مسلم، قال: قد أجبتم عن أنفسكم، أنتم أجبتم، نصراني؟ لا، يهودي؟ كلا، إذًا هو مسلم، هذا هو الجواب، هو مسلم إذًا، و ليس كافرًا.

ومن ذلك أيضاً أن أبا حنيفة رحمه الله تعالى لقِيَ طائفةً من الملحدين الذين ينكرون وجود الخالق جلَّ وعلا، فقال لهم: ما تقولون في سفينة مشحونة بالأثقال، مملوءة بالأمتعة والحمال، قد أحاطتها لُجَّةُ البحر بأمواج متلاطمة، وعصفت بها رياحٌ عاتية، غير أنها ظلَّت تجري هادئةً في طريقها المرسومة و تمضي مطمئنة إلى غايتها المعلومة، من غير اضطراب ولا خلل ولا انحراف، وليس على ظهرها ملَّاحٌ يُحكِم سيرَها، أو موجِّهٌ ينظِّم خَطوها، أفيصحُّ هذا في الفكر؟ قالوا: لا، إن هذا شيءٌ لا يقبله العقلُ، و لا يجيزه الفهمُ أيها الشيخُ، فقال: يا سبحان الله تنكرون أن تجريَ السفينةُ في البحر جريًا مُحكمًا من غير أن يكون لها رُبَّانٌ يتعهَّدها و تقرُّون قيام هذا الكون ببحاره الزاخرة، وأفلاكه السائرة، وطينه السابح التارح، من غير صانع يُحكِم صنعته، ومدبِّر يحسن تدبيرَه؟ تبًّا لكم ولِما تأفِكون.

دفاع أبي حنيفة عن دين الله :

ويُروَى أن أبا حنيفة رحمه اللهُ تعالى بعد أن قطع رحلةَ الحياة كلَّها ينافِح عن دين اللهِ بما وهبه اللهُ من حُجَّة بالغة، و يجادل عن شرعه بما حباه الله من منطق فذٍّ، فلما أتاه اليقينُ وجدوا في وصيَّته، أنه عزم على أهله أن يدفنوه في أرض طيِّبة، وأن يجنِّبوه كلَّ مكان فيه شبهة غصبٍ، فالأرضُ المغتصبة، وفيها مقابر، يقتضي الورَعُ ألاّ يُدفَن فيها الإنسانُ، فكان أبو حنيفة رحمه اللهُ تعالى قد أوصى أهلَه و عزم عليهم، أي شدَّد ألا يدفنوه في أرض مغتصبة، فلما بلغتْ وصيَّتُه المنصورَ قال: مَن يعذُرُنا في أبي حنيفة حيًّا و ميِّتًا؟ أي مات و لم نرتاح منه، ولقد أوصى أبو حنيفة بأن يتولَّى غسله الحسنُ بنُ عمَّارة، فلما غسله قال: رحمك اللهُ يا أبا حنيفة، وغفر لك جزاءَ ما قدَّمتَ، فإنك لم تفطِرْ، أي كان صوَّامًا في النهار، قوَّامًا في الليل، وقد أتعبتَ الفقهاءَ من بعدك، لذلك يقولون: كلُّ الفقهاء عالةٌ على أبي حنيفة، و يسمُّونه الإمامَ الأعظم، و المذهبُ الحنفي من أوسع المذاهب انتشاراً و من أكثرها مرونةً و دقَّة.

* * *

النميمة :

والآن إلى إحياء علوم الدين في موضوع خطيرٍ جدًّا ابتُلِيَ به المسلمون أو معظم المسلمين، ألا وهو النميمةُ، قال تعالى يصف النمّام:

﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴾

[سورة القلم: 11-13]

قال عبد الله بن المبارك: الزنيم ولَدُ الزنا، الذي لا يكتم الحديث، وأشار به إلى أنَّ كلَّ من لم يكتم الحديث، ومشى بالنميمة دلّ على أنه شبيهٌ بولد الزنا، أي ابن حرام، هذا الذي يفسد بين الناس، و بين الأحبَّة، وبين الإخوة، والشركاء، والأزواج، والجيران، وينقل حديث فلان إلى فلان، ويوغِر صدرَ الناس، ويوقع بينهم العداوةَ و البغضاءَ، ويقيم هُوَّةً كبيرة بينهم هذا عملُه مشابهٌ لعمل ولد الزنا تماماً. و العلماءُ قالوا: الزنيم هو الدَّعِي، أي ولد الزنا، و قال تعالى :

﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ﴾

[سورة الهمزة: 1]

قيل: الهمزة النمَّام، وقال تعالى:

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾

[سورة المسد: 4]

و معنى حمالة الحطب، أي كانت نمَّامة، أي تحمل كلاماً من جهةٍ إلى جهة، فتورِث بينهما العداوة والبغضاءَ، وكأنَّها أشعلت النار بينهم.

نقل الكلام بلية كبرى :

امرأة سيدنا لوط، وامرأة سيدنا نوح، قال تعالى في حقهما:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ

ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾

[سورة التحريم: 10]

قيل: كانت امرأةُ لوط تخبر بالضِّيفانِ، فإذا جاءها ضيفانٌ لزوجها تخبر قومَها كي يأتوا ليفعلوا معهم الفاحشةَ، وامرأة نوح كانت تخبر الناس أنَّ زوجها مجنون :

((وعَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَجُلًا يَنُمُّ الْحَدِيثَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ نَمَّامٌ*، و في حديث آخر، عَنْ هَمَّامٍ قَالَ كُنَّا مَعَ حُذَيْفَةَ فَقِيلَ لَهُ إِنَّ رَجُلًا يَرْفَعُ الْحَدِيثَ إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ لَهُ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ))

[البخاري عن حذيفة]

و القتَّات هو النمام:

((عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو يُحَدِّثُنَا إِذْ قَالَ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَإِنَّهُ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا))

[البخاري عن مسروق]

نقلُ الكلام بليةٌ كبرى، والمجتمع مفتَّتٌ على مستوى الأُسَر، والأحياء، والعشائر، ودائما هناك خصومات، ومشاحنات، والبغضاء بسبب نقل الكلام، وقال عليه الصلاة و السلام:

((ألا أخبركم بشراركم ؟ قالوا بلى، قال: المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب))

[ابن ماجه عن أسماء بنت يزيد بن السكن]

و قال عليه الصلاة و السلام:

((من أشاع على مسلم كلمة ليشينه بها بغير حق شانه الله بها في النار يوم القيامة))

[الطبراني عن أبي ذر]

أشاع على مسلم إشاعة و هي باطلة ليحطِّم مكانته، ويجرح سُمعته بين الناس، قال عليه الصلاة و السلام:

((ما من رجل أشاع على رجل كلمة وهو منها بريء ليشينه بها في الدنيا كان حقا على الله أن يذيبه بها يوم القيامة في النار))

[الطبراني عن أبي الدرداء]

و قال عليه الصلاة و السلام:

((من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهلٍ فليتبوَّأ مقعده من النار))

[أحمد عن أبي هريرة]

شهد شهادة غير صحيحة، و ليس متأكِّدا، تسرَّع واتَّهمه بالانحراف، وتسرَّع واتَّهمه بالغبن.

النّمام يفتت العلاقة بين الناس :

يُقالُ: إن ثلث عذاب القبر من النميمة، وعن ابن عمر عن النبيّ عليه الصلاة و السلام أن الله تعالى لمَّا خلق الجنَّة قال لها: " تكلَّمي، فقالت الجنةُ: سعِد من دخلني، فقال اللهُ عز وجل: و عزتي و جلالي لا يسكن فيكِ نمَّامٌ و لا قاطِعُ رحمٍ" مستحيلٌ أن يدخل الجنةَ نمَّامٌ، أي إن الإنسانَ ينقل الكلام بين الناس ليفتِّت العلاقة.
و يقال: " اتَّبع رجلٌ حكيما سبعمئة فرسخٍ في سبع كلمات، فلما قدِم عليه قال: إني جئتُك للذي آتاك اللهُ من العلم، أخبِرني عن السماء و ما أثقلُ منها، و عن الأرض و ما أوسعُ منها، و عن الصَّخر و ما أقسى منه، و عن النار و ما أحرُّ منها، و عن الزَّمهرير و ما أبردُ منه، و عن البحر و ما أغنى منه، و عن اليتيم و ما أذلُّ منه، فقال الحكيمُ: البهتانُ على البريء أثقلُ من السموات و الأرض – تفتري على إنسان فِريةً باطلةً و هو منها بريء، و تُلبِسه تهمةً لا علاقة له فيها، هذا العمل أثقل من السموات و الأرض– و الحقُّ أوسعُ من الأرض، و القلبُ القانع أغنى من البحر، و الحِرصُ و الحسدُ أحرُّ من الجمر، و الحاجةُ إلى القريب إن لم تنجح أبردُ من الزمهرير، و قلبُ الكافر أقسى من الحجر، و النمَّامُ أذلُّ من اليتيم على مائدة اللئيمِ."
أراد إنسان أن يشتري عبدًا، فرأى عبداً ذكيًّا، وسعره رخيصاً، فلفت نظرَه السِّعرُ فقال البائعُ: هذا لا عيب فيه إلا النميمة، مشكلته أنه ينُمُّ، فاشتراه، فمكث الغلامُ أياماً، ثم قال لزوجة سيده: إن سيدي لا يحبُّكِ، وهو يريد أن يتسرَّى عليكِ، فخذي المُوسى واحلقي من رأسه شعرةً عند نومه، حتى أسحره عليها، فيحبُّكِ، ثم جاء للزوج و قال: إن امرأتك اتَّخذتْ خليلاً غيرَكَ، وتريد أن تقتلك، فتناوم لها حتى تعرف ذلك، فتناوم لها الزوجُ، فجاءت المرأةُ بالموسى فظن أنها تريد أن تقتله، فقام إليها فقتلها، فجاء أهلُ المرأة فقتلوا الزوجَ ووقع القتالُ بين القبيلتين بعلَّة واحدة فقط النميمة، أذهب بقبيلتين، فموضوع النميمة خطير جسيم.
وإن شاء اللهُ في درس قادم نتحدَّث عن النميمة بالتعريف الدَّقيق، وعن واجب المؤمن إذا سمع رجلاً ينِمُّ له أو عليه، كيف يقف منه موقفًا صلبًا. يُروى عن عمر بن عبد العزيز رضي اللهُ عنه أنه دخل عليه رجلٌ فذكر له عن آخرَ شيئًا– أي نمَّ– فقال له عمر: إن شئتَ نظرنا في أمرك ، فإن كنتَ كاذباً فأنت من أهل هذه الآيات، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

[سورة الحجرات: 6]

و إن كنتَ صادقاً فأنتَ من أهل هذه الآية، قال تعالى:

﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾

[سورة القلم: 11-13]

و إن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، و لا أعود إليه أبدًا، هذا موقف سيدنا عمر.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 05 : أحكام العمرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا وزِدْنا عِلما، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتّباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة المؤمنون ؛ بقي علينا من موضوع الحجِّ وهو الدرسُ الأخير من دروس الحجِّ أحكامُ العمرة، لأنَّ الحجَّ كما تعلمون على أنواع ثلاثة ؛ إمَّا أن تحجَّ مفردًا، وإما أن تحجَّ قارنًا، وإما أن تحجَّ متمتِّعًا. والحجُّ المفرِدِ أن تنوي الحجَّ فقط، أما النوعُ الثاني من الحجِّ أن تنويَ الحجّ و العمرة مقترنين، و أما التمتُّع فهو أن تعتمر، ثم تتحلَّل من ثياب الإحرام، إلى أن يأتيَ اليومُ الثامن من ذي الحجَّة، وعندئذٍ تحرم من مكة، وتتابع الحجَّ، و كما قلتُ لكم من قبلُ: إن المفرِد لا يجب عليه الهديُ، ولكنَّ الهديَ في حقِّه سنة، بينما القارن والمتمتِّع فعليهما هديٌ، أي عليهما ذبحُ شاةٍ والهديُ للمتمتِّع هديُ جبرٍ، و للقارن هديُ شكرٍ.

تعريف العمرة:

أما العمرةُ التي نحن في صددها، فمعناها في اللغة الزيارةُ أو القصدُ، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (18)﴾

[سورة التوبة]

إنما يقصد مساجد الله، و أما معناها في الشرع فهي زيارة بيت الله الحرام على وجه مخصوص.

أفعالُ العمرة:

وأفعال العمرة ؛ إحرامٌ وطواف و سعيٌ و حلقٌ أو تقصير، والعمرةُ تعتبرالحجَّ الأصغر أي هناك حجٌّ أصغر هو العمرة، وهناك الحجُّ الأكبر هو الحجُّ

((فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

[رواه الترمذي]

لأنه لا بدَّ للعمرة من نفقات، و داوني بالتي كانت هي الداء، و ما شكا إليه أحدٌ ضيقَ ذات اليد إلا قال له: اذهبْ فتزوَّج، وهو لا يتمكَّن من الإنفاق على نفسه وحده، فتأتيه النصيحةُ النبوية الشريفة: اذهب فتزوَّجْ و العمرة كما قال عليه الصلاة و السلام و الحج ينفيان الفقر و الذنوب معًا، كما ينفي الكِيرُ خبث الحديد، و ليس للحجة المبرورة ثوابٌ إلا الجنة، أي الصغير أو الكبير، الحجُّ الأصغر هو العمرة، والأكبر وهو الحجُّ.

حكمُ العمرة:

سنةٌ مؤكَّدة في العمر مرةً واحدة، وعلى موضوع السنَّة، إن شاء اللهُ هناك موضوع قصير ولطيفٌ، في تعريف الفرض والواجب و السنة المؤكدة، والسنة غير المؤكدة، والمباح والمكروه تنزيها، و المكروه تحريما، ثم الحرام، هذه أحكامٌ دقيقة جدًّا يجب أن نُلِمَّ بها فحكمُ العمرة سُنَّة مؤكَّدة في العمر مرة واحدة، لمن استطاع إليها سبيلاً، هذا في مذهب الأحناف، و عند بعض علماء الحنفية هي واجبة كصدقة الفطر و الأضحية، وصلاة الوتر، والأضحية تتراوح بين المذاهب بين أن تكون واجبا، وبين أن تكون سنة مؤكدة، بين أن تكون سنة، وبين أن تكون سنة مؤكدة.

وقت العمرة:

أمَّا وقتُ العمرة فجميع أيام السَّنة، إلا أنها تُكرَه تحريما في خمسة أيام، في يوم عرفة و في الأيام الأربعة بعدها، و يُزاد على هذه الكراهة فعلُها في أشهر الحج، هناك سؤال ؛ فما بالُ القارن يعتمر و المتمتِّع يعتمر ؟ أن تأتيَ بعمرة فقط من دون الحج في أشهر الحج، لذلك لا تمنح الجهاتُ المسؤولةُ عن الديار المقدسة تأشيرات الدخول

للعمرة في أشهر الحج لأنه يُكره أن تُؤتى العمرةُ في يوم عرفة، وفي الأيام الأربعة من بعده، و تُكره أن تُؤتى في أشهر الحج، و أشهر الحج كما تعلمون شوال و ذو القعدة وذو الحجة، و عند الشافعية لا يُكره فعلُها في وقتٍ من الأوقات من جميع أيام السَّنة، هذا عند الشافعية، لكنْ يقولون: إن العمرةَ في يوم عرفة، وفي يوم العيد، وأيام التشريق ليس فضلُها كفضلها في أيام أخرى، أي أقلُّ ثوابًا في هذه الأيام، لأن الناس جميعا في عرفات، و الناس جميعا في منى،و هم جميعا في مناسك الحج، و تأتي وحدَك أيها المسلم لتعتمر، فهذا خروجٌ عن إجماع المسلمين.

ويُندب فعلُ العمرة في رمضان، لقول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّةً))

[رواه الترمذي عَنْ أُمِّ مَعْقِلٍ]

وفي رواية أخرى

((عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَجَّتِهِ قَالَ لِأُمِّ سِنَانٍ الْأَنْصَارِيَّةِ مَا مَنَعَكِ مِنْ الْحَجِّ قَالَتْ أَبُو فُلَانٍ تَعْنِي زَوْجَهَا كَانَ لَهُ نَاضِحَانِ ؛ حَجَّ عَلَى أَحَدِهِمَا وَالْآخَرُ يَسْقِي أَرْضًا لَنَا، قَالَ فَإِنَّ عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي))

[رواه البخاري]

أي مع رسول الله صلى اللهُ عليه و سلم.

شروط التكليف بالعمرة هي شروط التكليف بالحج نفسها، لا تنقص و لا تزيد، و شرطُها الوحيد – و كما تعلمون الشرط هو الفرض الذي يسبق الأركان – طهارة الثوب، والبدن والمكان، واستقبال القبلة، ودخول الوقت، هذه من شروط الصلاة فيجب أن تستمر مع الصلاة أما الركن فينقضي، تقوم وتركع وتسجد، فالقيام والركوع والسجود من أركان الصلاة، والركن ينقضي، لكنَّ الشرط لا ينقضي، فمن شروط العمرة الإحرام، و الإحرام بالعمرة كالإحرام بالحج تماما، فإحرام العمرة هو إحرام الحج نفسه.

أما ركن العمرة فمعظمُ الطواف حول البيت، أي أربعة أشواطٍ، وأما واجبات طواف العمرة فهي نفسُها واجبات طواف الحج، كالهرولة والاضطباع، وما شاكل ذلك، سبعة أشواط لكن الاتِّصالَ بالمرأة قبل الطواف مفسِد للعمرة، ويجب عليه عمرةٌ أخرى وذبحُ شاةٍ، أي إذا لم ينتبِخ الشخصُ و كان في زيارة أقربائه وأحرم بالعمرة، وبعدئذٍ أحجم

عن العمرة، وبقي في البيت، وحصل بينهما اتِّصالٌ زوجي فعليه ذبح شاة، وأن يقضيَ هذه العمرة بدلاً عنها.

واجبات العمرة:

وأما واجباتُ العمرة فالإحرامُ من الميقاتِ لمَن كان خارجَ المواقيت، و الميقاتُ المكان والذي هو خارج المواقيت يُسمَّى الآفاقي، ومن الحِلّ، الحِلُّ الحرم المكّي له حدود تزيد عنه عشرات الكيلومترات، هذه الحدود محدَّدة من جميع الطرق المؤدِّية إلى الحرم، فمن طريق المدينة المنوَّرة هناك التنعيم أو مسجد السيدة عائشة، فمن كان آفاقيّا فميقاتُ العمرة هو ميقاتُ الحج، أهلُ الشام لهم ميقاتٌ و أهلُ نجدٍ لهم ميقاتٌ، و العراقيون لهم ميقاتٌ، و اليمنيُّون لهم ميقاتٌ، و هكذا، و من كان بيتُه بعد الميقات فميقاتُ العمرة بالنسبة إليه هو الحّلُّ، أي حدود الحرم، وليس حدود مكة.

و من واجبات العمرة، الإحرام من الميقات لمن كان خارجِ المواقيت، و من الحِلّ، و يُفضَّل التنعيم لمن كان في داخلها، و السعيُ لها بين الصفا و المروة، السعيُ للعمرة بين الصفا والمروة كسعيِ الصفا و المروة في الحج تمامًا، والحلقُ أو التقصيرُ، والحلقُ أفضلُ للرجل، و يتعيَّن التقصيرُ على المرأة كما مرَّ بنا من قبل.

سنن العمرة:

أما سنن العمرة فالإكثارُ من التلبية، و الاضطباعُ في الطواف، و الَّرمَلُ فيه والهرولة بين الميلين الأخضرين للرجل.

وأمَّا طريقةُ أدائها فهو أن يُحرِمَ لها من كان خارجَ المواقيت الآفاقية من المواقيت، و أما بالنسبة لمن وُجِد بمكة فميقاته للإحرام بها منطقة الحلِّ، و ذلك ليتحقَّق نوعٌ من السفر يركب الآن الحاجُّ في سيارة عامَّةٍ من باب الحرم تنقله إلى مسجد التنعيم، و هناك يحرم بالعمرة، و يعود إلى الحرم فيطوف، ويسعى، ويصلِّي ركعتين، و يحلق أو يقصِّر، ثم يتحلَّل، وأفضل أمكنة الحلِّ للإحرام بها التنعيم ثم الجِعْرانة.

وأحكام الإحرام بالعمرة كأحكام الإحرام بالحج، وكذا فرائضُها، وواجباتها، وسننها ومحرَّماتها، ومفسداتها، ومكروهاتها، وبحثُ الإحرام هو نفسُه بكلِّ دقائقه وتفصيلاته ينطبق على العمرة، لكنْ أحكامُ العمرة تختلف عن أحكام الحج في بعض الأمور منها:

أنها ليست بفرض، والحجُّ فرضٌ، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾

[سورة آل عمران]

فمن أنكر الحجَّ فقد كفر، أما العمرةُ فتختلف عن الحج في أمور ؛ منها أنها ليست بفرض وليس لها وقتٌ معيَّنٌ، وليس لها وقوف في عرفات، و لا بمزدلفة، و ليس فيها رميُ الجمارِ و ليس فيها جمعُ الصلوات، و ليس فيها خطبة و لا طواف قدوم، ولا طواف وداع، و لا تجب البدنةُ بإفسادها بالجماع قبل الطواف لها، أو بطوافها جنُبًا، بل تجب شاةٌ.

وميقاتها للمكِّي وغيره الحلُّ بخلاف الحج، ميقاتُ الحج للمكِّي بيتُه أو المسجد الحرام لكن ميقاتُ العمرة للمكِّيّ ولمن هو بعد المواقيت من التنعيم، من منطقة الحلِّ، والمعتمر يقطع التلبيةَ عند الشروع بطواف العمرة، لبيك اللهم لبيك منذ أنْ تُحرِم من الميقات، أو من التنعيم إلى أن تدخل البيتَ الحرامَ، وتشرع في الطواف، وعندها تقطع التلبيةَ، و لكنْ في الحج متى نقطع التلبية ؟ عند أول جمرةٍ نلقيها بعد الوقوف بمزدلفة، رميُ جمرة العقبة في يوم العيد، عندها تُقطَع التلبيةُ، ويحلُّ محلّها التكبيرُ.

وهكذا من أراد أن يعتمر عليه أن يتنظَّف و يتطهَّر بأن يغتسل إن تيسَّر و إن لم يتيسَّر يتوضَّأ، و يلبس الرجُلُ إزارًا و رداءًا، و يصلِّي ركعتين ثم يقول بعدهما: اللهم إني أريد العمرةَ فيسِّرْها لي و تقبَّلها مني. هنا سؤال يطرح نفسه ؛ لو أن مسلمًا ذهب إلى الحج مُفرِدًا، فليس عليه عمرة، لأن القارنِ عليه عمرة وحجّ متَّصلان، وعلى المتمتِّعُ عمرة وحجٌّ منفصلان، وعلى المُفرِدِ حجٌّ فقط لكنْ يُستحبُّ أن يأتيَ بالعمرة بعد أيام الحجِّ، أي بعد اليوم الرابع من أيام العيد، على المذهب الشافعي، أو بعد اليوم الثالث من أيام العيد، على المذهب الحنفي، فله أن يأتيَ بعمرة بعد الحج.

فإذا دخل مكةَ طاف بالكعبة سبعًا، ويّسنُّ الرَّمَل في الأشواط الثلاثة الأولى والاضطباعُ للرجُل، ويصلِّي ركعتين، ويسعى بعدهما بين الصفا و المروة سبعًا، ويهروِل بين الميلين الأخضرين، ثم يحلق أو يقصِّر، والقصرُ أفضلُ، وبهذا تتِمُّ عمرتُه، وتفعل المرأةُ ذلك إلا أنها تبقى بثيابها وحجابها، وتكتفي بالتقصير من دون الحلق، ولا ترمَل، ولاتضطبع، ولا تهروِل في السعيِ، ولا ترفع صوتَها بالتلبية، قال تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾

[سورة البقرة]

إذاً العمرةُ واجبةٌ.

هذا ما يتعلَّق بالعمرة، و بهذا تنتهي أحكام الحج و العمرة بشكلٍ موجزٍ، أما من أراد الحجَّ أو العمرةَ فعليه أن يُلِمَّ بتفصيلاتٍ أكثر، و قد قلتُ لكم قبل أسبوعين: إنني خصَّصتُ درسًا في السبت الماضي لمن نوى الحجَّ من الإخوة الكرام، و جلستُ معهم و تحدَّثنا في بعض التفصيلات.

الآن عندنا بحثٌ في الفقه يجب أن يُلمَّ به كلُّ مسلم، ألا وهو هذه الأحكامُ السبعة التي تدور على ألسنة المسلمين، مثلاً، الصلاة فرضٌ، الوترُ واجب، و صلاة الجنازة واجبة و صلاة العيدين واجبة، و الأضحيةُ واجبةٌ، وهناك فرقٌ بين الفرض والواجب، الآن سنراه، و هذه سُنة، و من ترك السنة فلا شيءَ عليه، و هذه مستحبٌّ، و هذا حرامٌ، وهذا مكروه تحريما وهذا مكروه تنزيها، وهذا مباح، هذه الأحكام السبعة، بين فرض وواجب و سنة و مستحب و حرام و مكروه تحريما و مكروه تنزيها و مباح، ثمانية أحكام، ما تفصيلاتها ؟ و ما تعريفاتها ؟ و ما حدودها ؟

قالوا: الفرضُ ما طلَب الشرعُ فعلَه طلبًا جازمًا، وثبت الطَّلبُ بدليل قطعي، ونحن عندنا دليل قطعي، ودليل ظنِّي، فإذا قال الله عزوجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (183) ﴾

[سورة البقرة]

وثمَّة أشياء كثيرة تثبت بالدليل الظنِّي، وسنرى بعد قليل مثلَ هذه الأمثلة، والدليل القطعي ليس له تفسير آخر، أي إذا قلتَ مثلاً:

﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (20) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (21) ﴾

[سورة الواقعة]

بعض العلماء استنبط بطريقة الظن أنَّ الأَولى أن تأكل الفاكهةَ قبل الطعام مثلا، فهذا استنباط ظنِّيٌّ، وليس استنباطًا قطعيًا، وعلماء الأصول وصفوا القرآن الكريم بأنه قطعيُّ الثُّبوت أن يكون هذا الكتابُ من عند اللهِ قطعيٌّ مائةً في المائةِ، لكنَّ مدلولات آياته بعضها قطعية الدلالة و بعضها ظنِّية الدلالة، فالفرض ما طلب الشرعُ فعلَه

طلبًا جازما، و ثبت الطَّلبُ بدليل قطعي لا شبهة فيه، ومن الأدلة القطعية القرآن الكريم، و السُّنة المتواترة، وأعلى درجة في الحديث الشريف هو الحديث المتواتر، أو الإجماع، إجماع الأمة، ويجب أن تكون الدلالة قطعيةً و هي أعلى مراتب التكليف الشرعي، كالأمر بالصلاة و الصيام، و من أنكر الفرضَ فقد كفر و خرج من الإسلام، أما من تركه من غير إنكار فقد ارتكب حراما، وعليه العقابُ من الله تعالى فالفرضُ ما طلبَ الشرعُ فعلَه طلبًا جازمًا بدليل قطعي، ومن أنكره كفر، ومن تركه يُعاقبُ عليه من قِبَل الله عزوجل.

حكمُ الفرض، لزومُ فعلِه مع الثواب و العقوبةُ على تركه.

والواجب ما طلب الشرعُ فعلَه طلبًا جازما ولكنه دون مرتبة الفرض، لأنه ثبت بدليل ظنِّي، كصلاة الوتر، فهذا واجب، ودليلها ظنِّي، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام في أحاديث تحدَّث عن صلاة الوتر، ومن أنكرالواجب لا يُعتبَر كافرًا، ومن ترك الواجبَ دون أن ينكره فهو فاسق آثمٌ.

هناك بعضُ الملاحظات حول الفروض والواجبات، فالفرض و الواجب كلاهما لازِمُ الفعل، لكنّ الفرقَ بينهما أنّ الفرضَ يكفَّر منكرُه، فمن أنكر الوقوف بعرفة، أو أنكر حجاب المرأة فقد كفر، لأنه أنكر أمرًا ثبت عن الشارع بدليل قطعي لا شبهةَ فيه، أما من أنكر السعيَ بين الصفا و المروة فإنه لا يكفر، لأن السعي من الواجبات. أما حكمُ الواجب فهو لزومُ فعله أيضًا مع الثواب، و العقاب على الترك كالفرض تماما هذا التقسيم و التفريق بين الفرض و الواجب عند السادة الأحناف، أما عند السادة الشافعية فلا فرق عندهم بين الفرض و الواجب، الفرض و الواجب في مرتبة واحدة.

وأما السُّنة، فيقال: هذه سنة، وهي دون مرتبة الفرض و الواجب، وهي ما طلبَ الشرعُ فعلَه طلبًا غيرَ لازمٍ، الفرْضُ و السُّنة، و الفرض و الواجب طلبٌ لازمٌ بدليل قطعي، و الإنكارُ معه كفرٌ، و التركُ فيه عقابٌ، أما السنة ما طلبَ الشرعُ فعلَه طلبًا غيرَ لازمٍ، و حكمُها أنه يُثابُ فاعلُها، ولا يُعاقَب تاركُها، لكنَّه يُعاتب من قِبل النبيِّ عليه الصلاة و السلام، فإذا كنتَ تحبُّ النبيَّ عليه الصلاة و السلام فإيَّاك أن يعاتبك، و من ترَك السنة لا يُعاقَب و لكنَّه يُعاتب، و الفقهاءُ قسَموا السَّنة قسمين ؛ السنن المؤكدة، وهي ما واظب عليها النبيُّ عليه الصلاة و السلام على فعلها، ونبَّه على عدم فرضيتها، أو تركها أحيانا قليلة، كصلاة ركعتين قبل الفجر مثلا، هذه سنة مؤكدة، بل إن العلماء يلزمون الإنسانَ إذا ترك هذا السنة أن يقضيها بعد شروق الشمس هذه سنة مؤكدة، والنبيُّ واظب عليها، ونبَّه إلى عدم فرضيتها، أو تركها أحيانا، و الأذان سنة مؤكدة، فإذا صلَّيتَ بغير أذان فقد أدَّيتَ

الفريضةَ، و لكنَّك تركتَ سنةً مؤكَّدة، والإقامةُ سنة مؤكدة، وصلاة الجماعة في المسجد سنة مؤكدة، من تركها يعاتبه النبيُّ عليه الصلاة و السلام.

وأما السنة غير المؤكدة، وهي التي لم يواظب عليها النبيُّ على فعلها، بل تركها في بعض الأحيان، كصلاة أربع ركعات قبل العصر، فهذه سنة غيرُ مؤكدة، وقبل العشاء سنة غير مؤكدة، فالسنة يُثاب على فعلها، ولا يُعاقب من تركها، ولكنه يُعاتب، هي نوعان ؛ مؤكدة واظب عليها النبيُّ عليه الصلاة والسلام، ولم يتركها إلا قليلا، وأما غير المؤكدة فعَلها النبيُّ أحيانا.

والمستحبُّ دون السنة المؤكدة و غير المؤكدة، يُثاب فاعله، و لا يُعاتَب تاركُه ومثاله تعجيلُ الإفطار، أذَّن المغربُ يُستحبُّ أن تعجِّل الفطورَ، أخّرت إلى العشاء تركتَ المستحبَّ وليس واجبا، تأخيرُ السُّحور إلى الساعة الثانية عشر، تركتَ المستحبَّ لكنك لا تعاتَب، و المستحبُّ يُعدُّ من نوع الاقتداء بالنبيِّ عليه الصلاة و السلام، النبيُّ الكريم عليه أتمُّ الصلاة و التَّسليم كان بعد العشاء لا يسهر أبدا إلا في موضوعٍ ديني، سهرة في غير مجلس علمٍ لا يسهر أما إذا كان فيها دعوةٌ إلى الله، أو مجلس علم، أو في حَّلِّ قضية، أو في إصلاح بين فريقين أو في إصلاح ذات البين، فهذا مُستثنى، أما سهرةٌ في كلام فارغ كلام ليس منه جدوى، إلى الساعة الثانية عشر، أو الثانية ليلاً، فهذا غيرُ مقبول، لكن إذا خشي المسلمُ أن تفوته صلاة الفجر فما أدَّى إلى ذلك فحرام، والاقتداءُ الكاملُ للنبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم من الأمور المستحسنة لأن الأخذَ بها من قبيل الأخذ بأحسن الأساليب و أصحِّ الطرق، ومن قبيل المحبَّة الكاملة و التكوين الصَّحيح، وأن هذا الإنسانَ الذي يفعل المستحبَّاتِ لا يستحقُّ العقابَ ولا الملام ولا الذَّم والعلماءُ قالوا: هذه المستحبَّاتِ والسنن بمنزلة الحرس للفرائض والواجبات، فمن ترك المستحبات و السنن أوشك أن يترك الفرائض، و من حافظ على المستحبَّات و السنن فهو على الفرائض أحفظُ، فكأنها حارسٌ.

أمّا الحرامُ فما طلبَ الشرعُ تركَه طلبًا جازما، و ثبت هذا الطلبُ بدليل قطعيٍّ لا شبهة فيه، مثالُه قتلُ النفس، قال تعالى:

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

[سورة الفرقان]

دليل قطعي، آيةٌ قرآنية، وفي شربِ الخمرِ، قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (90)﴾

[سورة المائدة]

"فاجتنبوه" فعلُ أمرٍ، أي هذا حرام، وإلحاقُ الأذى بالآخرين، قال عليه الصلاة السلام: اثنان لا تقربهما ؛ الإشراك بالله و الإضرار بالناس.

حكمُ الحرام، وجوبُ اجتنابه، والعقوبة على فعله، بخلاف الفرض، الفرض وجوبُ فعله، والعقوبة على تركه. وعندنا مرتبة اسمها المكروه كراهة تحريم، وهو ما طلب الشرع تركه طلبًا جازما ولكن ثبت طلبُ الترك بدليل ظنِّي، مثاله، لُبسُ الحرير، والتَّختُّم بالذهب بالنسبة للرجال، هذا مكروه كراهة تحريمية، لأن الدليل ظنِّي، أما الحرام فبدليل قطعي.

حكم هذا المكروه كراهة التحريم الثَّوابُ على تركه، والعقاب على فعله، أي إنه قريب من المحرَّم بعض الدرجة، والمقياس دقيق، فرَض، واجب، حرام، ومكروه كراهة تحريم ومن أنكر الحرامَ فقد كفر، و ارتدَّ عن الإسلام، أمَّا من أنكر المكروهَ تحريمًا فإنه لا يُكفَّر، بل يُفسَّق و يَأثم، و هذا التقسيم بين الحرام و المكروه تحريما انفرد به الأحنافُ، كما انفردوا في تقسيم الأفعال إلى فرض وواجب، فرض، واجب، حرام، مكروه تحريمًا، هذا التزم به الأحنافُ، أما السادةُ الشافعية وبقيَّةُ المذاهب عندهم الفرضُ كالواجب، والحرام كالمكروه تحريمًا. وعندنا المكروه كراهة تنزيه، وهو ما طلَبَ الشرعُ تركَه طلبًا غيرَ جازمٍ، و من غير إشعارٍ بالعقوبة، بل يُرجَّح جانبُ الترك على جانب الفعل من غير إلزام، وهذا المقابل للسنة والمستحبِّ، فما دلَّ على أنه سنة أو مستحبٌّ فتركُه مكروهٌ تنزيهًا، و كما تتفاوت درجاتُ السنَّة تتفاوت درجاتُ الكراهة .

وحكمُ المكروه، يُثاب تاركُه و يُلامُ فاعلُه، هذا تفسير المباح، واحد طبخ فاصولياء لا ثواب له و لا عقاب عليه، هذا طبخ فاصولياء، و هذا طبخ بطاطا، هذا جلس في غرفة القعود، و هذا نام على الفراش، هذه أشياء كلُّها مباحة، فالمباحُ ما لا يكون مطلوبًا فعلُه و لا تركُه، فلك أن تنام على سرير، أو على الأرض، ولك أن ترتديَ ثيابًا بيضاء، أو سوداء، أو ملوَّنة، ولك أن تجلس على كرسيٍّ أو على الأرض، ولك أن تأكل هذا الطعامَ، أو ذاك الطعامَ، هذه كلُّها مباحات،فليس مطلوبًا فعلُه و لا تركُه، قد يكون الإنسانُ فيه مخيَّرًا بين الفعل و الترك

كاختيار نوع من الطعام و الشراب، و قد عرَّف العلماءُ المباحَ بأنه الفعلُ الذي لا يترتَّب عليه ثوابٌ و لا عقابٌ و لا عتابٌ، إلا في حالة واحدة، إذا قصد المسلمُ بالمباح أن يتقوَّى به على طاعة الله انقلب المباحُ عبادةً، كَمَنْ نوى أن يأكلَ ليتقوَّى على طاعة الله، نوى أن يرتدِيَ هذه الثيابَ ليدفع عن نفسه انتقادَ الآخرين، لأنه يمثِّل الدينَ، إذا فعلتَ المباحَ نويت بهذا الفعلِ أن تصُدَّ عن الإسلام الانتقادات، أو أن تتقوَّى على طاعة اللهِ، فهذا المباحُ يثابُ فاعلُه.

هذه المعلومات عن الفرض و الواجب و السُّنة و المستحبِّ و الحرام والمكروه كراهة تحريمٍ و كراهة تنزيه و المباح، كلُّها أحكامٌ لا يحسُنُ أن تفعل فعلاً فِي حياتك كلِّها، إلا وأن يُوصفَ ببعض هذه الأحكام.

والآن إلى قصَّةٍ من قصص الصالحين، حدَّث رجلٌ من مشيخة بلْخٍ ممن أدرك الأشياخَ و المعمَّرين قال: كان أبي رحمه اللهُ يحبُّ الصالحين، و يعجبه شأنُهم، فكان ممَّا حدَّثنا من أحاديثه عنهم قصة رؤيا رآها في بلخٍ، قال كان في بلخٍ منذ نَيِّفٍ وثلاثين عامًا أبو محمَّد سعيد بن إبراهيم اللَّخْمي البغدادي المحدِّث الزاهد الذي كان يُلقَّب بحكيم هذه الأمة، لِما أوتيَ من الحكمة و فصل الخطاب، فلكأنه يُلقَّى علمَ النورِ، وشواهدَ الحكمة الإلهية، وطرائف الفتح اللَّدُنِّي و كان رحمه اللهُ ؛ هذا العلم الجليل ؛ قِمَّةً في إهابِ رجُل، نسيجَ وحدِه، فلا تجده إلا صائمًا قائمًا تاليًا لكتاب اللهِ عزوجل، معلِّمًا للناس بحاله و مقالِه، رُزِق همَّةً دونها همُ الشباب، فهو لا يفتر طيلةَ ليله، و سحابة نهارهِ عن الدرس والتدريس، والذكر وتلاوة القرآن، حتى كأن اللهَ عزوجل مدَّ له في نهاره، ونسأَ له في ليله، فَلَيْسَا من نهار الناس، ولا ليلهم، وهو يعمل في اليوم الواحد عملَ غيرهِ في سنة، فيه بركة، أحيانا – سبحان الله – تُنزَع البركةُ من وقت الإنسان، فلا يوجد إنجازٌ أبدًا، و يُستهلَك الوقتُ استهلاكا رخيصا، استهلاكا مُتعِبا، استهلاكا مزعجًا، و هناك إنسانٌ يبارك اللهُ له في وقته، و بعضُ الأحاديث تقول: من أخّر الصلاة عن وقتها أذهب اللهُ البركة من عمره .

قال أبي رحمه اللهُ: و كان من شأن الشيخ أن أهلَ بلخٍ كانوا مُجمِعين على جلالته وكِبرِ شأنه لِما يُشاهدونه من أحواله في خلواته وجلواته، و مع حاله مع الخلق، أما شأنُه مع الحقِّ تبارك و تعالى فكان أمرًا عجيبا، كان يتلو كتاب الله عزوجل فلا ترقأُ له دمعةٌ، و لا يجِفُّ له جفْنٌ، و لا يهدأ له شجنٌ، و كان رحمه اللهُ يقوم الليلَ فيُسمَع لصدره أزيزٌ كأزيز المِرْجل بعيدًا عمَّا يسخِط اللهَ، قريبًا ممَّا يرضيه، و كان في حياته بسيطًا بساطة الزاهدين متوضعًا تواضع العارفين، منكسِرا انكسار الوجِلين الخائفين، فما كان الشيخُ رجلا من أبناء الدنيا، بل كأنَّ اللهَ

سبحانه وتعالى أحبَّ أن يجعله حُجَّةً على عباده، فأقام شيخَنا في هذا المقام، مقام الملوك و كان الشيخ أبو محمد رحمه اللهُ تعالى ممَّن صحِب الحكماءَ، ورأى أحوالَهم، فكان لا يكاد يعجبه كثيرٌ من أحوال أبناء زمانه، و كان على جلالة قدره لا تكاد تجد عنده شيئا من نعيم الدنيا و لاغِياثها، فالدنيا كلُّها لا تساوي عنده خَرْدلةً، و لكأنه رجلٌ لم يُخلَق لزمانه، فهو بقيَّةٌ من السَّلف الصالح رضوان اللهِ عليهم، أطلَّ على أهل هذا الزمان من وراء سجاد الغيث.

قال أبي رحمه اللهُ: و في ليلةٍ قمراءَ من ليالي الصيف النَدية، تداعى القوم إلى ندِيِّهم في باحةٍ قوراءَ من دون إخوان الشيخ ومحبِّيه، فلما اكتمل الأصحابُ، وسلَّم كلٌّ على الآخر وأخذ مجلسَه من الشيخ، انطلق أحدُ إخوانهم يقول للشيخ: يا أبا محمَّد حدِّثْنا عن أوَّل أمرك كيف اهتديتَ إلى الله، و كيف صحِبتَ علماء زمانك ؟ ومن هو الشيخُ الذي تحدِّثنا عنه كثيرا في مجالسك ؟ تقول: قال شيخُنا، وقال شيخُنا، من هو شيخُك ؟ و ما إلى ذلك، وأنت قد أدركتَ بحمد اللهِ عليَّةَ العلماء و صحبتَهم، فحدِّثنا عنهم، ولقد واللهِ تتنزَّل الرحمةُ بذكرهم، و إن ذكرَ أحوالهم ليحيي القلوبَ الميِّتةَ كما تحيا الأرضُ العطشى بوابل السماء.

قال الشيخُ: – هذه القصة اخترتُها لكم لتمزِّقوا حظوظَ اليأس، و استمعوا إلى ماضي هذا الشيخ – قال الشيخُ: كنتُ في بداية أمري صافرًا، أي مخادعا، عيَّارًا، رجلَ سوءٍ، لا يكاد ينجو مني بيتٌ من بيوت بغداد، و كنتُ إلى ذلك مُدمِنا على الخمر، منقطِعًا إلى المعاصي و الموبقاتِ، غارقًا فيها، لا أكاد أفيق من سُكْرٍ حتى أرجع إليه، ولا أكاد أترك كبيرةً من الكبائر حتى أقع في أكبرَ منها، ونفذ المالُ من جيبي في يوم جمعة قائضٍ من أيام رمضان، و حدَّثتني نفسي المعصية و لكن لا سبيلَ إليها، فالشهرُ مباركٌ، وقد هلَّ هلالُه، والناسُ منصرفون إلى العبادة و الذِّكرِ و تلاوة القرآن، و حان وقتُ صلاة الجمعة، ولا مفرَّ من دخول المسجد الجامع لأداء الفريضة، فالعصاة يتوبون إلى الله في مثل هذا الشهر، و ينصرفون عمَّا هم فيه إلى طاعة الله عزوجل، و لا يبقى في الطريق وقتَ صلاة الجمعة في مثل هذا الشهر إلا ذمِّيٌّ كافرٌ أو زنديقٌ مارقٌ أو صاحبٌ عذرٍ مشروع، كسفر أو مرض شديد، و لستُ من هؤلاء و لا من هؤلاء، و ذهبتُ إلى داري فاغتسلتُ ثم دخلتُ الجامعَ، وتهيَّأتُ للصلاة، وجلستُ مُنصِتًا حتى انتهى الخطيبُ من الخطبة، فقمتُ إلى الصلاة، وأنا لا أكاد أفقه شيئًا ممَّا قال، ولما انتهت الصلاةُ و أزمعْتُ الانصرافَ لا ألوِي على شيءٍ، و أنا أفكِّر في حيلةٍ أستحوذ بها المالَ من أصحابه، فما راعني إلا ضجيجٌ يملأُ المسجدَ، فالتفتُّ فإذا جموعُ المصلِّين تتحلَّق حولَ ساريةٍ من سواري المسجد، يزحم بعضُهم بعضًا، حتى كادت الرِّقابُ تتخطَّفُ من شدَّة الزِّحام، و تكاثر القوم لهولِ الموقف، و امتدَّت الأعناقُ إلى السارية

فوقفتُ أنظرُ، وكان جانبي رجلٌ مُسِنٌّ وقورٌ، تظهر عليه سِيمَ الصلاح والتقوى، فقلت له على استحياءٍ:يا سيّدي على مَن يتحلَّق القومُ ؟ و يزحم بعضُهم بعضًا، و قبل أن يجيب الرجلُ حانتْ مني التفاتةٌ فإذا أنا بشيخٍ مجيدٍ جليلٍ تعلو مُحيَّاهُ مَسحةٌ من النور، تخطَّى القومَ بتواضع جمٍّ، و لطفٍ بالغٍ حتى وصل إلى السارية فقام فصلى ركعتين ثم استوى قائمًا أمام القوم، فلكأنه حين وقف إليها خبرٌ طلع على الناس بليل فارتفعت أصواتُ القوم بالتكبير و التَّهليل، و الشيخُ يبتسم عن ثغرٍ كأنه ثنايا اللؤلؤ، و هدأ القومُ والتفت الرجلُ الجالسُ بجنبي إليَّ، وقد امتلأتْ نفسي من الشيخ، و شُغِلتُ به، فلم يعُد فيها أثرٌ من باطلٍ، بل غسله الشيخُ بأنواره غسلاً، و أفاض عليها من بركات علمه ما حيَّرني و سمّرَني في مكاني، حتى و كأن الشيخَ كائنٌ روحاني هبط إلينا من الملإ الأعلى ليغسل نفوسنا من أدرانها و يملأها بأنوار الحقِ، بعد أن امتلأت بظلمة الباطل، و التفت الرجلُ إليَّ قائلا: يرحمك اللهُ يا أخي أمَا تعرف الشيخَ ؟ إنه إمامُ المسلمين اليوم سفيانُ الثورِي، الفقيهُ المحدّثُ الزَّاهدُ، ووقع كلامُ الرجل في قلبي موقعَ الماء البارد من الظمإ، و زادني اسمُ الشيخ له حُبًّا و تعظيماً، فلقد كنتُ أسمع في مدارس بغدادَ عن كمال معرفته و سَعة علمه و ورعه و زهده، فلمَّا رأيتُه تضاءل عندي ما سمعته عنه أمام ما ما رأيتُه عنه، و لقد كان شيخُنا سفيان الثوري قد رأى عليَّةَ العلماء و أكابرَ الفقهاء و المحدِّثين، و سالفَ الصالحين، و سمع منهم و أخذ عنهم، فقال الشيخُ أبو محمَّدٍ: و نفضَ الشيخُ القومَ بنظره، و أجال فيهم بصرَه، ثم حمِد اللهَ، وأثنى عليه، وبدأ في شرح قوله عليه الصلاة و السلام:

((الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[رواه أحمد عَنْ فَضَالَةَ بْنَ عُبَيد]

قال: هذا الحديثُ يُعدُّ من جواهر السُّنة، ودلائل النبُوَّة، فليس الجهادُ محصورًا في قتال الكفَّار، بل في محاربة الشيطان في النفس الإنسانية، فحينما يخالف المرءُ هوى نفسه لطاعة ربِّه، فيكبح جماحَها عن بعض المباح كي لا تطالبَّه ببعض المشبوه أو الحرام، يورث اللهُ له في قلبه حلاوةً ما ذاق عبدٌ أطيبَ منها في الدنيا. فإذا تركتَ المباحَ خوفًا من الله عزوجل تذوقتَ في قلبك حلاوةً لا تذوق أطيب منها في الدنيا، حيث تتصاغر أمامها كلُّ حلاوة، و تروم اتِّجاهها كلُّ لذَّةٍ، فمن ترك شيئا لله عز وجل عوَّضه اللهُ خيرًا منه، و حسبُ العبدِ حين يفعل ذلك أن يجعل اللهُ تبارك و تعالى في لسانه نورًا و فرقانًا، و في قلبه علمًا و حكمةً، يتفجَّران من قلبه على لسانه، و ترى لكلامه صولةً في النفوس، ولنظراته دولةً في القلوب، لا تكادُ تجدها لغيره من الناس ممَّن لا يزالون يتعبون أنفسهم في تنميق الكلام و ترصيفه، و ما يزيدون على أنهم يجهدون في تحويل تمثالِ من الجِصّ إلى

عروسٍ عن طريق وضع الزينة عليها، الأطراف في أذُنها، و العقدُ في صدرها و ثيابُ العرس على بدنها، فهل هذا كلُّه يصنع من هذا التمثال عروسًا تنطق و تعقِل ؟

فمهما بيَّنتَ لي التمثالَ، فإنه يبقى تمثالاً، فالكلامُ دون قلبٍ، و دون حالٍ، ومن دون إخلاص وتأثُّرٍ، والتزامٍ و إقبالٍ لا يؤثِّر، لهذا و أمثاله كان الزُّهادُ هم ملوكُ الدار الآخرة، لا تخضع ملوكُ الدنيا إلاّ لهم، و لا تسمع إلا منهم، ولا تلين إلا معهم، بل إن عظمة الملِك لتذوب أمام عظمة الزُّهاد، وإن للزهَّادِ دولةً أين منها دولة الملوك. قال الشيخُ: بلغنا أن محمد بن واثق رحمه اللهُ – وقد مرَّ معنا في سير من التابعين – دخل على بلال بن أبي بردة الأمير في يومٍ حارٍ، و بلالٌ في ظلٍّ ظليلٍ و عنده الثلجُ، الآن يدخل الرجل إلى بيته المُكيَّف، و خارج البيت تسعة وثلاثون درجة، فيجد الجوَّ ثمانية عشر مُريحًا، فقال هذا الأميرُ لهذا الشيخ الزاهد: كيف ترى بيتَنا هذا، إن شاء اللهُ سُرِرتَ ؟ فقال: إن بيتَك لطيِّبٌ، والجنةُ أطيبُ منه، وذكرُ النار يُلهِي عنه، قال: ما تقول في القدَر أيها الشيخُ ؟ فقال: جيرانك أهلُ القبور، ففكِّر فيهم، فإن فيهم شُغلاً عن القدَر، هذه الموضوعات لا تُجدي هؤلاء الذين دُفِنوا هم في شُغلٍ عن هذه الموضوعات، قال: أُدْعُ لي، قال: و ما تصنع بدعائي و على بابك ألفٌ من الخلق يقولون: إنك ظلمتَهم، فيُرفع دعاءُهم قبل دعائي، لا تظلم فتحتاج إلى دعائي، هذا موقف عالمٍ زاهدٍ. قال أبو محمد: و نظرتُ إلى الناس و قد أجهشوا بالبكاءِ، ورفعتُ عينيَّ إلى الشيخِ فإذا عيناه مُغْرَورِقتان بالدموع، يمسحهما بيده وهو يقول:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (16) ﴾

[سورة السجدة]

باب الجنة مفتوح لكلِّ الناس، ولكلِّ عاصٍ، مفتوح لكلِّ من ارتكب الكبائرَ، ولا بدَّ أن تتوب، قال تعالى:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىأَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) ﴾

[سورة الزمر]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 06 : المستحبات والمكروهات في الحج – باب الوصية بالنساء –

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد، الأمين اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا و انفعنا بما علمتنا و زدنا علماً، و أرنا الحق حقاً و ارزقنا اتباعه، و أرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، و أدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

من الإنصاف أن تذكر محاسن الإنسان قبل مساوئه:

أيها الأخوة المؤمنون ؛ في كتاب رياض الصالحين باب عنوانه: "الوصية بالنساء":

((لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

هذا الحديث الشريف أيها الأخوة سمعتموه مني سابقاً، ولكنَّ الحديث الشريف أحياناً تستنبط منه قواعد كثيرة، فهذا الزوج عليه ألاَّ يكره زوجته، فإن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر، فحينما تبني علاقتك مع زوجتك تدارس مع نفسك ما لها من ميزات، وما عليها من مآخذ، ربما غلبت ميزاتها سلبياتها، وربما رضيتَ منها أخلاقاً كثيرة وكرهت منها خلقاً واحداً، فهذا الذي يطمس المحاسن ويبرز المساوئ، هذا بعيد عن أن يكون مؤمناً، و هذا الحديث الشريف يعلّمنا الحُكم الموضوعي، فإذا أردت أن تحكم على إنسان فلا ينبغي أن تنسى حسناته، ولا فضائله، ولا مميزاته، ينبغي أن تذكرها قبل أن تذكر المساوئ، وينبغي أن تذكر المحاسن قبل المساوئ، وهذا هو الإنصاف.

والنبي عليه الصلاة والسلام لما رأى صهره أبا العاص بين الأسرى جاء ليحارب النبي، وكان مشركاً، وكان يتمنى أن يقتل المسلمين، نظر إليه عليه الصلاة والسلام وقال:" والله ما ذممناه صهراً " هذا حكم موضوعي، حكم منصف.

على الإنسان أن يكون موضوعياً في أحكامه:

أنت أحياناً تسأل عن زيد أو عبيد، أو فلان أو علان، من الظلم والإجحاف أن تطمس محاسنه وأن تبرز مساوئه، فاذكر ما له وما عليه ولو كان صديقاً، أو عدوًّاً، أو قريباً، أو بعيداً، أو زوجة، أتنسى أنها عفيفة، و أنها تحفظ لك مالك، وتحفظ نفسها في غيبتك، وتربّي أولادك ؟ بكلمةٍ قالتها، أو بخلق لا ترضاه عنها كرهتها، هذا ليس إنصافاً، ولو تعلّمنا أن نكون منصفين في أحكامنا لكنا في حال غير هذا الحال، ودائماً الإنسان يتكلم وفق مصالحه، فيقتضي المقام أحياناً أن يبرز المحاسن ويطمس السيئات، وأحياناً يبرز السيئات، وهذا ليس إنصافاً، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

أي لا يكرهها، ويروون قصة أن ابن عباد كان أميراً من أمراء الأندلس، بل كان ملكاً من ملوكها، فأحب جاريةً وتزوجها، وكان ملكاً فأكرمها أيّما إكرام، وما إن تطلب منه حاجة حتى يلبيها، فاشتاقت مرة إلى حياة الخشونة والفقر، فطلبت منه أن يصنع لها طيناً لتمشي فيه، فجاء بالمسك والعنبر وخلطهما بماء الزهر، وقال لها: امشِ في هذا، بعد مراحل من حياته فَقَدَ ملكه وصار في السجن، فكانت تعيره وتنهره دائماً، وتقول له: لم أرَ منك خيراً قط، فقال لها مرةً: ولا يوم الطين ؟

فلا يوجد إنصاف، ونحن مع زوجاتنا، مع أخوانا، مع أصدقائنا، مع من هم دوننا، من هم فوقنا، كن منصِفاً، واذكر ما له وما عليه، اذكر ميزاته ومساوئه، فالنبي عليه الصلاة والسلام علمنا طريقة الأرباح والخسائر، هذه الزوجة ميزاتها كذا وكذا، ولها هذا الطبع السيء وهذا الطبع، فهل أنت كامل ؟ لا والله، فوازن بين ميزاتها وبين مساوئها ترَ أن الصفقة رابحة، إن كره منها خلقاً رضي منها خلقاً آخر.

التقييم الصحيح والنظرة الموضوعية جزءٌ أساسي من العلم:

يبدو أن هذا الحديث توجيه نبوي لو طبقه الأزواج لسعدوا بزواجهم، وكان النبي عليه الصلاة والسلام مرة يصلي فدخل أحد أصحابه ليلحق معه الركعة الأولى، فأحدث ضجيجاً، أو دخل أحد الأعراب فأحدث جلبةً وضجيجاً:

((انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

[البخاري عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

بماذا بدأ النبي ؟ أبرز الناحية الإيجابية في هذه الضجة، لماذا ركض هذا الأعرابي وأحدث جلبة وضجيجاً وشوش على أصحاب رسول الله ؟ حباً بأن يدرك معه الركعة الأولى، إذاً هذه ميزة ما غفل عنها النبي عليه الصلاة والسلام.

((زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

[البخاري عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

لذلك يقال لكل من يعمل تحته أناس، ومن يعمل في معيته أناس: إذا أردت أن توجه نقداً لمن حولك ابدأ بمحاسنهم، فإذا بدأت بمحاسنهم فإنّ هذا يجعلهم يستمعون إليك بإصغاء بالغ، وفي تعاملك مع ابنك اذكر له محاسنه، ثم اذكر له بعض مساوئه، فإذا ذكرت له كل مساوئه وتغاضيت عن محاسنه، ولم تعترف له بما له على هذه الأسرة من خدمات، فعندئذٍ يشعر بالظلم، وأن الأب ليس منصفاً، فيجب أن تجعل من حولك يعترفون بعدلك، مع الزوجة، مع الولد، مع الجار أحياناً، مع القريب، مع البعيد، مع الصهر، يخطئ الصهر، فيغضبون عليه غضباً ما بعده غضب، وينسون أنه أكرم ابنتهم في سابق الزمن، وأحسن إليها، وكان زوجاً مثالياً، غلط غلطة، أو بالعكس زوجة الابن تغلط غلطةً مع أهل زوجها، فإذا هم يصبُّون عليها كل غضبهم، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا))

[الترمذي عن أبي هريرة رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

باعتدال، فهذا الحديث يستنبط منه أن تكون موضوعياً في أحكامك، فلو تعلمت علم الثقلين ولم تكن موضوعياً في أحكامك فلست بعالم، ولو اتبعت المنهج العلمي في تقييم الأشخاص، وفي إعطاء ما لهم وما عليهم فأنت عالم، فالتقييم الصحيح والنظرة الموضوعية جزءٌ أساسي من العلم.

من عامل الناس عليه أن يحاسب نفسه قبل محاسبة غيره:

((لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

اذكر محاسنه، وأنا اخترت هذا الحديث لا لموضوع الزواج فقط، بل وجدت من هذا الحديث استنباطات كثيرة، فإذا تعاملتَ مع شريكك اذكر إخلاصه، وأمانته، لكن دوامه قليل وهذه مشكلة، ولا تنسَ ميزاته الأخرى، لا تنس عندما كنت مسافراً قام بالعبء كله، ولم يسألك لماذا سافرت ؟ فالإنسان أحياناً في ساعة غفلة ينظر ما له فقط، وينسى ما عليه، فإذا عامل الناس ينظر إلى ما عليهم لا إلى ما لهم، فيجب أن تنظر ما لهم من حق، وما عليهم من واجب، وأن تحاسب نفسك أيضاً بما لك من حق، وما عليك من واجب.

توجيه نبوي لطيف يسع كل حالات الزوجية:

أحد أسباب الشقاء الزوجي أن الزوج يطالب زوجته بكل شيء، ولا يحاسب نفسه في واجباته تجاهها، والنبي عليه الصلاة والسلام كان يحاسب نفسه:

((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ))

[البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

وكسرهن: طلاقهن، هذا توجيه نبوي لطيف يسع كل حالات الزوجية، الحلم، والأناة، وسعة الصدر، هذا كله يجعل الحياة الزوجية جنةً، أمَّا الضيق، والتبرم، والمحاسبة الدقيقة، وأن تنسى ما عليك من واجب، وأن تطالب بما لك من حق، عندئذ تنهار العلاقة الزوجية، فحينما تكون زوجاً تطبق سنة رسول الله ﷺ في علاقتك بزوجتك، فإن هذا الزواج سوف يسعد، وسوف ينمو، وسوف تكون العلاقة متينةٍ بينك وبين زوجتك، فأنصف.

((لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

لا يكرهها، أتذكر عندمَا أعطتك كل الحليّ كي تعمل بها في التجارة، أتنسى لها هذا الموقف ؟ إنَّ طمس المحاسن ليس من صفات الكرماء، أتنسى يوم أطاعتك في كل شيء، ويوم قلقت على صحتك ؟ أتنسى يوم فعلت كذا وكذا ؟ إن كرهت منها خلقاً اليوم فلا تنسَ أخلاقها الأخرى في سابق أيامها.

يروى أن السيد المسيح مشى مع أصحابه فرأوا جيفةً، وهل في الجيفة شيء يرضي ؟ جيفة متفسخة لها رائحة لا تواجه، فقال أصحابه الحواريون: ما أنتن ريحها، أما السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قال:

بل ما أشد بياض أسنانها.

من عفا ساد ومن حلم عظم ومن تجاوز استمال إليه القلوب:

هذا درس بليغ علَّمنا البحث عن الإيجابيات، والبحث عن الميزات، مع شريكك، مع زوجتك، مع أخيك، مع قريبك، مع جارك، مع من تتعامل معه، انظر إلى ميزاته، أما إذا نظرت إلى مساوئه فإنّك تبغضه، فانظر إلى ميزات الآخرين وانظر إلى مساوئك تصبح ملكاً، ما الذي يسبب الشقاق والخصومات والبغضاء ؟ أن كل إنسان ينظر إلى فضله على الآخرين وينسى تقصيراته ومسالبه، ينظر إلى أخطاء الناس فيضَّخم محاسنه ويكبَّر مساوئ الآخرين، وبذلك سوف يكرههم، فإذا نظرت إلى التقصيرات ونظرت إلى محاسنك عندئذ لن تستطيع التعامل مع الناس بل عندئذ تبغضهم، وتكرههم، وتستعلي عليهم.

انظر إلى مساوئك وإلى محاسن الآخرين هذا توجيه كريم، وهذا التوجيه مؤداه أنْ تكون ذا نظرةٍ موضوعية، فكن منصفاً ولا تكن مجحفاً، كن معتدلاً ولا تكن متطرفاً، كن مع الواقع ولا تكن مع النوازع، كن معتدلاً ولا تكن متجنياً، والحقيقة هذه الأحاديث النبوية وهذه التوجيهات كمعلومات يسهل فهمها، أما إذا انقلبت إلى ممارسات، وإلى أخلاق، وإلى مبادئ ثابتة في تعاملك مع الناس، عندئذٍ تغدو هذه الأحاديث قواعد ومنارات في طريق الإيمان، فلا يوجد بيت ليس به مشكلة، إذا واجه المؤمن مشكلة في بيته بهذه النفسية، صار ثمّة تسامح، وحلم، وتجاوز.

يقولون: إنّ سيدنا معاوية جاءته رسالة من أحد الموطنين فقال له: " أما بعد ؛ فيا معاوية . هكذا مباشرةً باسمه الصريح، ولم يقل له: يا أمير المؤمنين . إن رجالك قد دخلوا أرضي فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن، والسلام "، عنده ابنه يزيد فأحب أن يمتحنه وقال: يا يزيد ما قولك ؟ قال: أرى أن ترسل له جيشاً أوله عنده، وآخره عندك ، يأتونك برأسه، فتبسم سيدنا معاوية وقال: غير ذلك أفضل، فأمر الكاتب، وقال له: اكتب رسالة: " أما بعد ؛ فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله، ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينة جنب رضاه، لقد نزلت له عن الأرض ومن فيها ".

فيأتيه الكتاب الثاني: " أما بعد فيا أمير المؤمنين . أطال الله بقاءك . ولا أعدمك الرأي الذي أحلك من قومك هذا المحل "، جاء بابنه يزيد وقال له تفضل، وقال له: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب.

الحديث التالي يجب أن يكون نبراساً لنا في تعاملنا مع الآخرين لأنّه يعلمنا الموضوعية:

فإذا كرهت منها خلقاً تجاوزْ إلى محاسنها، وعفافها، وإخلاصها، وحفظها لمالك، وحفظها لنفسها، وطاعتها لك، فرضيت بمنهجك في الحياة، هذه كلها ميزات تشفع لها بسيئة، أما هذا الذي يرى المساوئ فقط ويبرزها، ويقيم النكير عليها، فهذا ليس من المؤمنين.

((لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[مسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذا الحديث يجب أن يكون نبراساً لنا، وبالتعبير الحديث شعاراً لنا في تعاملنا مع الآخرين، لأنّه يعلمنا الموضوعية في الأحكام، وهذا الحديث لا يقتصر على الزوجة، بل يتوسع ليشمل الشريك، والأخ، والقريب، والصهر، والجار، ويشمل كل من تتعامل معه، والتوجيه الثاني المتمم لهذا الحديث: " التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة "، فإذا كنت موضوعياً معه، والتمست له العذر، ربما كانت العلاقة بينكما علاقةً متينة، وهذا الذي يرضي الله عز وجل قال تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ (4) ﴾

(سورة الصف)

فلو أخذنا المعنى الآخر للآية، معنى التكاتف، والتعاضد، والمؤمنون كذلك، وهناك أحاديث سابقة بينت لكم كيف أن الله سبحانه وتعالى يحب من المؤمنين أن يكونوا كالجسد الواحد:

((تَرَى الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ، وَتَوَادِّهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[البخاري عن النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الحج في مراحله العملية:

الموضوع الثاني هو موضوع الحج:

إن شاء الله فيما تبقَّى من أسابيع قُبَيْل الحج نتحدث عن مناسكه، والحقيقة أنَّ الموضوعات الأساسية ؛ تعريف الحج، وفروضه، وأركانه، وسننه، ومستحباته، هذه درسناها كثيراً، ونبدأ في مراحله العملية، أول شيء في الحج الإحرام، فالإحرام بالتعريف الدقيق هو: نية الحج مع التلبية، وفيه تُخلع الثياب المخيطة، ويُلبس إزار ورداء للرجل

وجوباً، والإزار هو الذي يستر ما بين السرة والركبة، وما يستر العورة، والرداء هو الذي يستر الجذع والكتفين. فأولاً الإحرام ؛ نية الحج مع التلبية، وخلع الثياب المخيطة، ولبس إزار ورداءٍ للرجل وجوباً، وهنا نقطة مهمة وهي أن بعض أخواننا الحجاج يقرر أن يحرم من بلدته، فيغتسل كما هي السنة، ويصلي ركعتي الإحرام، ويتوجه إلى المطار، فلسبب أو لآخر إذا ألغيت الرحلة وعاد إلى بيته، ومسَّ طيباً، أو قارب أهله، فقد وقع في خطأٍ كبير، فمادام قد أحرم فقد دخل في الحج، لذلك بالمناسبة لا تحرِم إلا وأنت في الطائرة، فلو أن الرحلة أُلغِيت، أو طرأ عارض ورجعت إلى البيت، فأنت لم تبدأ بعد بالحج، أمّا إذا أحرمت من البيت، ولم تتمكن من ركوب الطائرة، لسبب أو لآخر، فإن هذا فيه مشقةٌ كبيرةٌ عليك، لذلك خلعُ الثياب المخيطة، ولبسُ الإزار والرداء وجوباً، والإزار كما قلنا ما يستر العورة من السرةِ إلى ما تحت الركبة، وإذا لبِس الإنسانُ ثياب الإحرام يجب أنْ ينتبه حتى لا تظهر سرَّتُه، لأنها مِن العورة، فأحياناً هذه المنشفة تنزل قليلاً فتبدو سرته، وتتكشف عورته، فيجب أن يسعى ليكون الإزار الذي يستر العورةِ فوق السرة، ويسن أن يكونا أبيضين، جديدين، من غير أزرار، فلا يصح ذلك، ولا يعقد طرفيهما ببعضهما، ولا يثبتهما بإبرة، هذا كله مكروه تنزيهاً، ولو فعل من هذا شيئاً فلا حرج عليه.

ما يستحب و يكره في الحج:

ويستحب من يريد الإحرام أن يقص شاربه وأظافره، وكذا الأماكن الأخرى التي من السنة حلقُها، كما تقدم في السنن، ثم يتوضأ أو يغتسل، والغسل أفضل، وهو للنظافة فيستحب للمرأة الحائض والنفساء التي تزمع الحج أن تغتسل، ويندب للرجل أن يتطيب قبل الإحرام إن وجد ذلك ممكناً، أما المرأة فتبقى بثيابها المخيطة، وجلبابها، وجوربيها، وحذائها، وتغطي رأسها وشعرها، كحالتها قبل الإحرام، كما جاء في المذهب الحنفي، وتكشف الخمار عن وجهها إن لم تكن أمام الرجال، لأن السيدة عائشة رضي الله عنها تروي حديثاً في مسند الإمام أحمد فتقول:

((كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْرِمَاتٌ، فَإِذَا حَاذَوْا بِنَا أَسْدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا، فَإِذَا جَاوَزَنَا كَشَفْنَاهُ))

[أحمد عن عائشة رَضِي اللَّهُ عَنها]

فيمكن أن تكشف المرأة عن وجهها في الحجِّ إن لم تكن أمام الرجال، فإذا كانت أمام الرجال فتنفيذاً للسنة المطهرة الثابتة ينبغي لها أن تستر وجهها، وأن تسدل أمامهم من فوق رأسها سدلاً متجافياً عن وجهها، والسنة أن يكون هذا الستار بعيداً عن وجهها، لذلك الأخوات يصنعن قبل الذهاب إلى الحج واقيةً، ليكون الخمار متجافياً عن الوجه، وهذه هي السنة، دون أن يمس المنديل وجهها، فلو مس المنديل وجهها وجب الدم، إن استمر المس يوماً

كاملاً ؛ من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، أو ليلة كاملة ؛ من غروب الشمس إلى طلوع الفجر، وإن لم يكن يوماً كاملاً فعليها صدقة.

ويلبس الرجل النعلين حيث يكون وجه القدم مكشوفاً، أمَّا ما يستران ظاهر القدم فمكروهان، فيجب أن يكون ظاهر القدم مكشوفاً، ويصلي المحرم رجلاً كان أو امرأة ركعتين سنة الإحرام في غير وقت الكراهة، يقرأ في الأولى الفاتحة وسورة " قل يا أيها الكافرون"، وفي الثانية الفاتحة وسورة " قل هو الله أحد"، ثم يقول بعد سلامه بلسانه مطابقاً لقلبه:" اللهم إني أريد الحج فيسره لي، وتقبَّله مني"، هذا إذا نوى حجاً منفرداً، لأنّ الحج أنواع ثلاثة، إفراد، وقران، وتمتع، والحديث الآن عن حج المفرد، فيقول: "اللهم إني أريد الحج فيسره لي، وتقبله مني، نويت الحج وأحرمت به لله تعالى "، ثم يلبي ويقول: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك" ويسن أن يكررها ثلاثاً، قال العلماء: يكره تنزيهاً أن ينقص الرجل من ألفاظ هذه الصيغة شيئاً، بل يجب أن تذكرها بالتمام والكمال.

كما يكره تنزيهاً عدمُ رفع الصوت بها للرجال، فيجب أن ترفع صوتك بها، لأن الحج هو العجّ والثجّ، ويندب الزيادة بعدها مما ورد، وبعضهم يزيد على هذه الصيغة فيقول: "لبيك اللهم وسعديك، والخير كله بين يديك، والرغبة . أي المحبة . إليك، لبَّى لك عبدك وابن عبدك، هاربٌ من الذنوب والخطايا، ملتجئ إليك "، ويقوم مقام التلبية كل ذكر يقصد به تعظيم الله تعالى، ولو مشوباً بالدعاء، كالتهليل" لا إله إلا الله "، والتسبيح " سبحان الله"، والتحميد "الحمد لله "، والتكبير "الله أكبر "، أي سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أو التلبية التي سنّها النبي عليه الصلاة والسلام.

ما يشترط في التلبية:

ويشترط في التلبية أن تكون باللسان، فلو ذكرها في قلبه لم يكن ملبِّياً، ويكثِر من التلبية، ويجددها في دوام الإحرام، وخصوصاً بعد الصلاة ؛ ولو نفلاً، وعند تجدُّد الأحوال، وتغايرها زماناً ومكاناً، وعند لقاء الأصحاب، وعند كل صعود وهبوط، وعند كل ركوب ونزول، رافعاً بها صوته، ولكن المرأة تخفض من صوتها لأن صوتها عورة، فتفقهوا قبل أن تحجوا، وبين الميلين الأخضرين هرولة، وهذه ليست على النساء، لأن المرأة يُكرَه لها أن تهرول، فإذا رأيت امرأةً تهرول بين الميلين الأخضرين، فهذه امرأة لا تعرف مناسك الحج.

متى تقطع هذه التلبية ؟

إذا بدأ برمي جمرة العقبة يوم النحر، مع أول رمية حصاةٍ يوم النحر لجمرة العقبة تنتهي التلبية، وندخل في التكبير.

محظورات الإحرام:

إذا نوى الحاج الحج وأحرم فعليه أن يجتنب محظورات الإحرام، فيحرم على الرجل المحرم لبسُ الثياب المخيطة، والعمامة، والقلنسوة، والجوربين، والخفين حذاء أنيق ساتر، وستر الوجه والرأس، فهذه كلها ممنوعة على الحاج. ويحرم على الحُجَّج التطيب، كما يحرم عليهم لبس ثوبٍ مطيبٍ إلا بعد إزالة الطيب عنه، لأنّ الطيب من محظورات الإحرام.

وبعض الأخطاء تقع للحجَّاج فيركبون الطائرة ويقدم لهم الطعام، ومع الطعام منديل مبلل بمادة معطرة، فهذه ممنوعة، فانتبهوا لذلك، ويحرم دهن الشعر أو إزالته بحلقٍ، أو نتف، أو دواء يزيل الشعر، وتقصيره، وإزالة شعر البدن، أو قص الأظافر، ويحرم الرفث، أي معاشرة النساء، وذكره ودواعيه، والكلام الفاحش، والجدال، والفسوق وهو الخروج عن طاعة الله عز وجل، ويحرم على المحرِم التطيبُ في البدن والثوب، ولو بماء الورد، أيضاً الصابون المطَيَّب مشكلة، فاستعمل صابون غار، أو خذ معك صابوناً غير مطيب تلافياً للإشكال، وهناك الصابون كله مطيب، وقد أجاز بعضهم هذا الصابون، ولكنْ خذ الأحوط.

ويحرم على المحرم قتل صيد البر، والإشارة إليه في الحاضر، والدلالة عليه في الغائب، وكسر بيضه، وقطع شجر الحرم، وهذه كلها من محظورات الإحرام، ويُباح في الإحرام قتل الحية، والعقرب، والفأر، والذئب، والغراب، والحدأة، وكل صائل من السباع . إذا داهمَ الخيمة سبع مثلاً . وقتل البراغيث، والبعوض:

((خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحِلِّ وَالْحَرَمِ ؛ الْحَيَّةُ، وَالْغُرَابُ الأَبْقَعُ، وَالْفَأْرَةُ، وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ، وَالْحُدَيَّا))

[مسلم عن عائشة رَضِي اللَّهُ عَنْها]

فهذه كلها تقتل، ولو كان الحاج محرماً، ويجوز للحاج صيد البحر، وذبح الإبل، والبقر، والغنم، والدجاج، والبط، والأوز الأهلي، كما يجوز للمحرم أن يدخل الحمام، ويزيل الوسخ بالماء الحار والصابون غير المعطر، ويغتسل بقصد الطهارة من الجنابة، أو بقصد إزالة الغبار أو للتبرد.

ما يجوز في الحج:

ويجوز أن يختتن، أو أن يفتصد، أو أن يحتجم، إذا أصابه شيء، وكان علاجه الحجامة في أثناء الإحرام من دون إزالة الشعر، ويجوز أن يقلع ضرسه إذا آلمه . لكن الأسعار غالية جداً . أو أن يحك رأسه وبدنه برفق، إن خاف سقوط شعره، وإن سقطت شعرة مثلاً يتصدق بما يشاء، ويجوز له أن يستظل بالبيت والمحمل، وأن يستظل بمظلة مما لا يصيب رأسه ولا وجهه، ويجوز له لبس ساعة اليد، والتزوج والتزويج، والعقد فقط، والمراد به عقد النكاح، ويجوز له أن يشد وسطه بحزام الدراهم وغيرها، ولو كانت لغيره.

((بَاب الطِّيبِ عِنْدَ الْإِحْرَامِ وَمَا يَلْبَسُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْرِمَ وَيَتَرَجَّلَ وَيَدَّهِنَ وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا يَشَمُّ الْمُحْرِمُ الرَّيْحَانَ وَيَنْظُرُ فِي الْمِرْآةِ وَيَتَدَاوَى بِمَا يَأْكُلُ الزَّيْتِ وَالسَّمْنِ وَقَالَ عَطَاءٌ يَتَخَتَّمُ وَيَلْبَسُ الْهِمْيَانَ وَطَافَ ابْنُ عُمَرَ رَضِي اللَّهم عَنْهمَا وَهُوَ مُحْرِمٌ وَقَدْ حَزَمَ عَلَى بَطْنِهِ بِثَوْبٍ وَلَمْ تَرَ عَائِشَةُ رَضِي اللَّهم عَنْهَا بِالتُّبَّانِ بَأْسًا لِلَّذِينَ يَرْحَلُونَ هَوْدَجَهَا))

[البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

ويجوز لبسُ الخاتم، والاكتحالُ بغير طيب، والنظرُ في المرآة، والتغطي وقت النوم، فلو حج في الشتاء مثلاً بلحاف أو عباءة أو غير ذلك، بشرط ألا يغطي رأسه ولا وجهه، ولا يغطي معقب الشراك من وجه قدميه وعقبه، فهذه الأبحاث كلها متعلقة بالإحرام، وإن شاء الله تعالى في درس قادم نتابع موضوع هذه المناسك واحداً واحداً، أولاً: لمن يحج هذا العام، ولمن يزمع الحج في الأعوام القادمة.

إرسال العرب في القديم أبناءهم إلى البادية:

الآن إلى السيرة النبوية:

كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام أرضعته حليمة السعدية، وكان من عادة العرب أن يرسلوا أبناءهم إلى البادية حيث الهواءُ الطلق، والمناظر الممتدة التي تجعل الرؤية حادةً، و أبناء المدن دائماً يحتاجون إلى نظارات، والسبب أن العين تجري عمليةً بالغة التعقيد، اسمها المطابقة، ومادام الشيء المرئي قبل ستين متراً، فلابد من المطابقة، والمطابقة عمليةٌ في غاية التعقيد، وهذا الجسم البلوري يزداد احتدابه أو ينقص ليجعل خيال الشيء المرئي يقع على الشبكية، فهي عملية بالغة التعقيد، أما إذا نظرت إلى مسافةٍ تزيد عن ستين متراً فإن المطابقة تلغى، لذلك فإنّ العين تستريح في المناظر الفسيحة، وأكثر سكان البادية لا يعرفون النظارات، ولا أعتقد أحدكم

لمح بدويًّاً يضع نظارات، بسبب أن هذه المناظر الفسيحة تريح العين، وتجعل البصر حاداً.

الدلائل المبكرة على نبوة النبي ﷺ:

النبي عليه الصلاة والسلام على عادة البيئة التي نشأ فيها أرضعته حليمة السعدية في البادية، فحليمة السعدية كانت من دون نساء البادية جميعاً شديدة الرعاية لوليدها محمد ﷺ، شديدة الخوف عليه في الليل والنهار، وتخشى عليه الحر والبرد والأحداث، بل تخشى عليه كل شيء، وكانت تحبه حباً جماً، وترى في حاله أنه غلامٌ ليس كالغلمان، وترى من بركته ما يزيدها تعلقاً به، وحرصاً عليه، قال علماء السيرة: " إنَّ الأرض اخضرت حينما كان في البادية، وإن ضروع الإبل قد امتلأت باللبن "

وهذه يسميها علماء السيرة الإرهاصات ، والإرهاص هو دليل مبكر على نبوة النبي عليه الصلاة والسلام. إنَّ سيدنا المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حينما تكلم وهو رضيع محمول على يدي أمه، قال تعالى:

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) ﴾

(سورة مريم)

هل هذه معجزة ؟ الجواب لا، هذا إعجاز، هذا دليل مبكر على نبوة هذا النبي العظيم، والنبي عليه الصلاة والسلام وهو في البادية الخير الذي أصاب حليمة السعدية، حيث اخضرت الأرض من حوله، وامتلأت الضروع باللبن، فهذه من إرهاصات النبوة.

الحكمة من يتم النبي الكريم:

وقد يسأل سائل: لماذا شاءت حكمة الله عز وجل أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام يتيماً ؟ لماذا لم يكن له أب كغيره من الغلمان ؟ وكان أبوه عبد الله، وكان أبوه من أنبل أخوته، وكذا جده وأمه، فَقَدَ الأب ثم الأم ثم الجد لماذا ؟ هذا سؤال ؛ لماذا شاءت حكمة الأب أن يجعله يتيماً، وأن يجعله سيد الأيتام ؟ قال بعضهم: لو أن لأبيه مجداً عريقاً، وجاء النبي عليه الصلاة والسلام بهذه الرسالة لظن الناس أن هذه النبوة هي بدفع من أبيه، للمحافظة على مكانته ومكانة أبيه بين قومه، فهذه الرعاية التي فقدها من أبيه ومن أمه ومن جده من أجل أن تكون النبوة صافيةً لا شائبة فيها.

حرص حليمة السعدية الشديد على النبي عليه الصلاة و السلام:

على كلٍ: كانت حليمة السعدية تعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام غلام ليس كالغلمان، فحينما يدعوه الغلمان إلى اللعب كانت له هذه الكلمة المشهورة: " لم أخلق لهذا "، علامات حب الله عز وجل، علامات القلق على هداية الناس كانت باديةً عليه منذ الطفولة، وكانت تحس أن الناس جميعاً يحسدونها عليه، ويريدون أن يتخطفوه منها، لذلك كانت تلاحقه بعينيها حيثما كان، وتحيطه برعايتها وعنايتها بأكثر مما تحيط بها أولادها، فكانت حليمة السعدية أمه في الرضاع، وليس هذا القصد من هذا الدرس، إنما القصد أن النبي عليه الصلاة والسلام كان وفياً أشد الوفاء لأمه من الرضاعة، وأريد أن أصل إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام كان هذا خلُقُه، فأين نحن من هذا الخلق ؟ والإنسان أحياناً يتزوج، وطبعاً الزوجة محببة، وقد تكون أمه في سن متقدمة، وقد أصبحت عبئاً، يا ترى هل هو وفيٌّ لأمه؟ هل ينسى حقها عليه بعد أن تزوج ؟ هل يراها عبئاً عليه ؟ هل يظن أنها عقبةٌ في طريق سعادته ؟ هل نسي لما رعته طفلاً ؟ سأطلعكم بعد قليل كيف كان وفاء النبي عليه الصلاة والسلام لهذه المرضع.

خوف حليمة السعدية على رسول الله صلى الله عليه و سلم:

قال علماء السيرة: ذات يوم أفزعها أنها افتقدته فلم تجده، فخرجت تطلبه وقت الظهيرة، والناس حولها قائلون . قد خلدوا إلى الراحة بعد الظهر . والبُهم . الحيوانات . والأغنام قد أَوَتْ إلى الظل تستجير به من وهج الشمس، فوجدته مع أخته من الرضاع الشيماء مقبلاً على الحي فجعلت تلوم أخته . ابنتها . وتقول في ألم وغيظ: في هذا الحر يا شيماء ؟ فقالت أخته: لا تجزعي يا أمي، فوالله ما وجد أخي حراً، لقد وجدتُ غمامةً تظِلُّه حيثما ذهب، فإذا وقف وقفتْ، وإذا سار سارتْ، حتى انتهى إلى هذا الموضع، وهذا أيضاً من إرهاصات النبوة، فالنبي عليه الصلاة والسلام من أبرز صفاته الشريفة وفاؤه لمن كانت لهم يدٌ عليه، فنشأ النبي وشبَّ وكبر وتزوج، وجاءته الرسالة فأصبح نبياً ورسولاً، ولم يتنكر، ولم ينسَ الجميل لهذه الأم التي أرضعته يوم كان صغيراً. فقد ظل الرسول عليه الصلاة والسلام يحفظ لها الجميل.

وفاء النبي الكريم لمرضعته حليمة السعدية:

أنا أقول لكم: هل تحفظ جميل أمك ؟ هل تحفظ جميل أبيك ؟ هل تحفظ جميل من أسدى إليك معروفاً ؟ هذه هي أخلاقه فأين أنت منها ؟ ألم تؤمر أن تقتفي أثره ؟ ألم تؤمر أن تكون متخلقاً بأخلاقه ؟ قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (31) ﴾

(سورة آل عمران)

لم ينسَ النبي عليه الصلاة والسلام أنها ظئره . أي مرضعته . التي أرضعته من ثدييها، وغذته بلبنها، وأن لها عليه حقَّ الأم على ولدها، بل لم ينسَ أن يحفظ الجميل لقبيلتها سعد بن بكر بن هوازن، فظل دائماً يذكر أنه نشأ في باديتهم، وتربى بين ظهرانيهم، وكان له منهم أخوة وأخوات، وآباء وأمهات، وعشيرة وأقارب.

لقد بدأ الآن ردُّ الجميل، حضرت حليمة ذات يوم، وكان يتاجر بمال خديجة، فجاءت حليمة السعدية إلى النبي ﷺ، وشكت إليه حالها، وما تلاقيه من شدة العيش في البادية، وكان النبي عليه الصلاة والسلام فقيراً، ولكن الدالَّ على الخير كفاعله، فكلَّم لها خديجة، فمنحتها بعيراً وأربعين شاةً، وردَّها مكرمةً إلى أهلها، فهذا أول موقف، ثم جاءته حليمة، وكان عليه الصلاة والسلام زوجاً للسيدة خديجة يتاجر لها بمالها، فلما شكت إليه سوء حالها كلم لها خديجة، فمنحتها بعيراً، والبعير شيء ثمين، وأربعين شاةً، وردها مكرمةً معززةً إلى أهلها.

ومرةً جاءته السعدية وهو رسول الله، فاستأذنت فأذن لها، فلما دخلت عليه قام لها، أنا مرة أخ كريم له قضية عند شخص، وهذا الشخص يحتل منصباً رفيعاً، قلت له: والده من أخواننا، فحدثت والده فأبدى رغبة أن يذهب معي إلى ابنه، دخلنا على هذا الإنسان وغرفته غاصة بالمراجعين، وله مكانة عليَّة، فلم يشأ أن يشعِر أحداً أن هذا أبوه، فقال له: يا أبا فلان اجلس هناك، فما أشعر أحد أنه أبوه، فاستغربتُ لأنّه حط من قدره، وكأنه استحيا به، وهو له مظهر لائق جداً، وأنا والله استغربت، فلما أُنهِيتْ القضية، وخرجنا سألته: أين درس ؟ فقال: في البلد الفلاني، فقلت له: من أنفق عليه ؟ قال: أنا أنفقت عليه، أبوه أنفق عليه حتى نال هذه الشهادة العليا، واحتل هذا المنصب الرفيع، فلما دخل عليه استحيا به، وأشعرَ الحاضرين أنه ليس أباه.

انظروا ماذا فعل النبي، لقد وقف، فلما دخلت عليه قام إليها متهللاً، وقال: أمي أمي ثم بسط رداءه وأجلسها عليه، هل بعد هذا الوفاء من وفاء ؟ ثم جعل يلاطفها، ويبتسم إليها ابتسامة الابن البار بأمه الحنون، كما أشعرها أنه لم ينسَ فضلها أبداً، ثم سألها عن حاجتها وقضاها لها، ورجعت معززةً مكرمة، هذا الموقف الثاني.

موقف النبي من قبيلة حليمة بعد غزوة حنين و عدم نسيان فضلهم عليه:

النبي عليه الصلاة والسلام انتصر على المشركين في غزة حنين، وهذه غزوة دقيقة حسَّاسة، وهذه الغزوة قال عنها الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (25) ﴾

(سورة التوبة)

فهذه آية قرآنية وهي درس لنا، في اللحظة التي تعجبك نفسك يتخلى الله عنك، وفي اللحظة التي تقول: أنا، يَدَعُك ونفسك، من اتكل على نفسه أوكله الله إياها، فهل من أناس أعظم شأناً عند الله من أصحاب رسول الله، وبينهم رسول الله ؟ ومع ذلك لما قالوا: نحن لن نغلب من قلة تخلى الله عنهم.

فقبض النبي عليه الصلاة والسلام حفنةً من تراب وضرب بها القوم، وقال: شاهت الوجوه، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب . وهناك قصة طويلة ليست مقصودة في هذا الدرس ..

على كلٍ عندما انتصر النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة حنين، وغنم من أموالهم، أتى إليه وفد من قبيلة هوازن، قبيلة حليمة السعدية يرجون أن يعفو عنهم، ويرد لهم أموالهم، وكان في الوفد عمُّه من الرضاعة، فاستشفعوا به إليه، فتقدم هذا العم بين يدي رسول الله يعلن خضوع قومه وإسلامهم، وقال فيما قال: " يا رسول الله، إنما في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك، وخالاتك، وحواضنك، هؤلاء عماتك وخالاتك وحواضنك، وقد حضناك في حجورنا، وأرضعناك بأثدائنا، لقد رأيتك مرضَعاً . أي رضيعاً اسم مفعول من أرضع . فما رأيت مرضَعاً أفضل منك، ورأيتك فطيماً، فما رأيت فطيماً أفضل منك، ورأيتك شاباً، فما رأيت شاباً خيراً منك، وقد تكاملت فيك خلالُ الخير، ونحن مع ذلك أصلُك وعشيرتك، فامنن علينا منَّ الله عليك ".

والله هذا كلام بليغ، نحن أهلك وعشيرتك، وهؤلاء عماتك، وخالاتك، وحواضنك، أرضعناك بأثدائنا، وحضناك في حجورنا، فامنُنْ علينا مَنَّ الله عليك.

المشكلة أنّ هذا المال وزع بين أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وهم تأخروا كثيراً في مجيئهم، فماذا يفعل النبي وقد وزع المال ؟ قام في أصحابه خطيباً وقال: مالي ومال عبد المطلب لكم، وكان موقفه فيه حكمةٍ بالغة، ولم يشأ أن يأخذ الأموال من أصحابه قهراً، بل دعاهم إلى أن يسلكوا سلوكه، ويحذوا حذوه، فقال عليه الصلاة والسلام وخاطب هذا الوفد: " لقد استأنيت بكم حتى ظننت أنكم لا تقدمون ، وقد قسم المال، فما كان لي وما لعبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا: نستشفع برسول الله إلى المسلمين، ونستشفع بالمسلمين إلى رسول الله، فإني سأقول لكم: ما كان لي ولعبد المطلب فهو لكم، وسأطلب لكم إلى الناس"

فلما صلى النبي الظهر قام وفد هوازن فقالوا كما علمهم النبي عليه الصلاة والسلام، فرد عليهم: ما كان له ولبني طالب، وجعل يرغب الناس، ويترضاهم حتى ردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، وضرب النبي بذلك أروع الأمثال في حفظ الجميل، والوفاء بالعهد.

فدرسنا اليوم وفاء النبي عليه الصلاة والسلام، ومن خلال وفائه لأمه حليمة السعدية، كيف وقف لها، وكيف هش لها وبش، وكيف أكرمها أول مرة، والثانية والثالثة، وكيف جاءه الوفد فذكّره برضاعته وبحضانته، وكيف نزل له عن كل ماله، وكيف فعل ما فعل، فهذه أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، ومن لم يقتفِ أثر النبي فليس من أمته:

((مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا قَالَ: لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أحمد عن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 07 : ساعات الامتحان – باب الوصية بالنساء – سيرة النبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقاً :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ في رياض الصالحين، وفي باب الوصية بالنساء حديث شريف:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وقال حديث حسن صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

والحقيقة أن هذا الحديث يُعدُّ من أصول الدين، فأكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول في حديث آخر:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِمَجْلِسَيْنِ فِي مَسْجِدِهِ فَقَالَ: كِلاهُمَا عَلَى خَيْرٍ، وَأَحَدُهُمَا أَفْضَلُ مِنْ صَاحِبِهِ أَمَّا هَؤُلاءِ فَيَدْعُونَ اللَّهَ، وَيَرْغَبُونَ إِلَيْهِ فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ، وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلاءِ فَيَتَعَلَّمُونَ الْفِقْهَ أَوِ الْعِلْمَ، وَيُعَلِّمُونَ الْجَاهِلَ فَهُمْ أَفْضَلُ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا قَالَ ثُمَّ جَلَسَ فِيهِمْ))

[الدارمي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً))

[رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[مسند البزار عن أبي هريرة]

فمكارم الأخلاق تحتل أكبر مساحة من الدين، بل إن الدين كله خلق، فإذا انتفى الخلق ذهب الدين، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2) ﴾

(سورة الماعون)

((مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلا قَالَ: لا إِيمَانَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ وَلا دِينَ لِمَنْ لا عَهْدَ لَهُ))

[أحمد وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وسيدنا جعفر عندما قابل النجاشي قال عن رسول الله ﷺ وعن حقيقة الدين:

((أَمَرَنا بِصْدقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَحُسْنِ الْجِوَارِ وَالكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ))

[أحمد عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْها]

فيكاد يكون الدين كله مكارم أخلاق.

الخلق مقياس الإيمان عند الإنسان:

ومادام النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّماً))

[رواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو]

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

[مسند البزار عن أبي هريرة]

من هنا قال عليه الصلاة والسلام في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي عن أبي هريرةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فإذا أردت مقياساً لإيمانك فهو خلقك، وحينما تمثَّل أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام بالأخلاق الفاضلة رفرفت راياتهم في المشرقين، وحينما فهِم المسلمون الدين صوماً، وصلاةً، وحجاً، وزكاةً ليس غير، تراجعوا وغُزوا في عقر دارهم.

درجات الإيمان:

الشيء المهم هو أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا))

فيوجد إيمان كامل، وإيمان أكمل، ويوجد إيمان ناقص، والإيمان درجات، والدليل قول الله عز وجل:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ﴾

(سورة النساء)

يا أيها المؤمن آمن، أي استكمل إيمانك، والإيمان له درجات، وقبل الإيمان هناك الإسلام، قال تعالى:

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)﴾

(سورة الحجرات)

وبعد الإيمان التقوى.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾

(سورة الحشر)

والتقوى درجات، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (102)﴾

(سورة آل عمران)

تفاوت المؤمنين فيما بينهم بحسن خلقهم:

فمن قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

فإذا تفاوت الإيمان فإنما يتفاوت بحسن الخلق، والمؤمنون جميعاً يصلُّون، و جميعاً يحجون . طبعاً المستطيع . و جميعاً يزكون، و جميعاً يأكلون مالهم حلالاً، و جميعاً ينفقون مالهم في الوجوه الصحيحة، فهذا كله متوافر، ولكن أين يختلفون ؟ في الخلق، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أخي يصلي، ويصوم، وتجارته مشروعة، ومن بيته إلى محله، هذا لا يكفي، فكيف أخلاقه ؟ هل هو سموح ؟ حليم ؟ كريم ؟ عطوف ؟ رحيم ؟ ودود ؟ إذاً حينما قال عليه الصلاة والسلام:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

فقد جعل الأخلاق مشعِراً في التفاوت بين المؤمنين، لأن الفرائض كلها تؤدى من قِبَل جميع المسلمين والمؤمنين، فكيف يتفاوتون فيما بينهم بحسن خلقهم ؟

قد جمعت لكم بعض الأحاديث المتعلقة بحسن الخلق، فوجدت أحاديث هامةً وكثيرة، منها حديث جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ:

((قَالَ: كُنْتُ فِي مَجْلِسٍ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَأَبِي سَمُرَةُ جَالِسٌ أَمَامِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ لَيْسَا مِنَ الإِسْلامِ وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ إِسْلامًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا))

[أحمد عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

حتى في الإسلام تتفاوت مراتب المسلمين فيما بينهم بأخلاقهم، وإن أكملهم إيماناً أحسنهم خلقاً، تتفاوت مراتب الإسلام فيما بينها بحسن الخلق.

" إن من أحب العباد . أحب اسم تفضيل، أي أكثر الناس الذين يحبهم الله عز وجل . إلى الله أحسنهم، وإن من أقرب المؤمنين مجلساً من رسول الله ﷺ يوم القيامة أحسنهم خلقاً، وإن خير ما أعطي الإنسان خلق حسن "

هذا كلام النبي ﷺ هل أنت مصدقٌ له ؟

الغنى يوم القيامة غنى العمل الصالح:

وقال أحدهم:

((أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ عِنْدَهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمْ الطَّيْرُ قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَقَعَدْتُ، قَالَ: فَجَاءَتْ الْأَعْرَابُ فَسَأَلُوهُ، فَقَالُوا " يَا رَسُولَ اللَّهِ نَتَدَاوَى؟ قَالَ: نَعَمْ تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الْهَرَمُ، قَالَ: وَكَانَ أُسَامَةُ حِينَ كَبِرَ يَقُولُ هَلْ تَرَوْنَ لِي مِنْ دَوَاءٍ الْآنَ ؟ قَالَ: وَسَأَلُوهُ عَنْ أَشْيَاءَ هَلْ عَلَيْنَا حَرَجٌ فِي كَذَا وَكَذَا ؟ قَالَ: عِبَادَ اللَّهِ وَضَعَ اللَّهُ الْحَرَجَ إِلَّا امْرَأً اقْتَضَى امْرَأً مُسْلِمًا ظُلْمًا فَذَلِكَ حَرَجٌ وَهُلْكٌ، قَالُوا: مَا خَيْرُ مَا أُعْطِيَ النَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: خُلُقٌ حَسَنٌ))

[أحمد عن أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فيعطى الإنسانَ الدنيا وما فيها، وقد يعطى القوة، وقد يعطى المال، و الذكاء، والجمال، هؤلاء العلماء الكبار الذين يقبعون في مخابرهم ليصنعوا الأسلحة الكيميائية، أو الأسلحة الجرثومية، أليسوا أذكياء ؟ واللهِ قمم في الذكاء، ولكنهم يصنعون سلاحاً يجعل حياة الإنسان جحيماً، قد يعطى الإنسان ذكاءً، ومالاً، وقوةً، ووسامةً، وجمالاً، وقد يعطيه حظاً في الدنيا، لكن النبي ﷺ يبيّن أن خير ما أعطي الإنسان خلقٌ حسن، من كان له أخلاق حسنة طيبة فهو أغنى الأغنياء، لأن الغنى يوم القيامة غنى العمل الصالح:

((مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ))

[أبو داود عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ))

[أبو داود عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْها]

فصاحب الأخلاق الفاضلة في مستوى الصائم القائم، بصيام وقيام مستمرين، بل إن العبد كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ عَظِيمَ دَرَجَاتِ الآخِرَةِ وَشَرَفَ الْمَنَازِلِ وَإِنَّهُ لَضَعِيفٌ فِي الْعِبَادَةِ))

[الطبراني عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذه كلها أحاديث شريفة تبين أن الخلق الحسن هو كل شيء في الدين، بل يكاد يكون الدينُ خلقاً حسناً.

أعظم رأسمال في العمل الخلق والحسن والخلق الحسن مؤادة ان يثق الناس بك:

حينما فهِم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام الدينَ هذا الفهْم رفعهم الله وأكرمهم، فكن صادقاً، ولا تقُلْ: إن البيع والشراء يحتاجان إلى كذب، بل كن صادقاً في البيع والشراء، وتحدَّى الكاذبين، واللهُ سبحانه وتعالى يوفّقك، فلا تقل: الحياة تحتاج هذا، فإنّ الحياة تحتاج إلى استقامة تامة، ولا تضع تغطية فلسفية للانحراف، أخي إذا لم نغش لا نربح، هذا كلام فارغ، وهذا كلام الشيطان، وكلام الغافل الجاهل.

في كل عمل تجاري، وصناعي، وزراعي، ووظيفي، ومهني، في كل حقل في الحياة الخلقُ الحسنُ أعظم رأسمال في العمل، وبعد فترة تكسب شيئاً لا يقدَّر بثمن، هو ثقة الناس بك، فالخلق الحسن مؤدَّاه أن يثق الناسُ بك، فإذا وثق الناس بك فهذا أعظم رأسمال تتحرك به، قال عليه الصلاة والسلام:

((الأمانة غنىً))

[الجامع الصغير عن أنس]

الأمين غني والله يغنيه لأن الناس يثقون به، وهذه أحاديث دقيقة جداً.

((وإن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، والخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل))

[الطبراني في الكبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الموقف الأخلاقي للإنسان يكسبه سعادة لا توصف:

شيء آخر ؛ إذا وقفت موقفاً أخلاقياً، أو كنت كريماً في موطن الكرم، أو شجاعاً في موطن الشجاعة، أو سخياً في موطن السخاء، أو حليماً في موطن الحلم، أو مضحياً في موطن التضحية، أو ودوداً في موطن الود، إن موقفك الأخلاقي هذا يكسبك سعادةً لا توصف، تشعر أنك إنسان، و فيما سوى هذه الأخلاق يشعر الإنسانُ أنه حيوان، فلو تخلى الإنسانُ عن أخلاقه لشعر بحيوانيته، كبهيمة تبحث عن طعامها، وشرابها، ولذتها فقط، فتأخذ طعامها، وشرابها، ولذتها من أي سبيل، وبأي ثمن، فلا تشعر إنك إنسان، وأنك المخلوق الأول المكرم إلا بالخلق الحسن، لذلك فمواقف الحِلم أكثر إسعاداً للنفس من مواقف الانتقام، ومواقف التواضع أعظم إسعاداً للنفس من مواقف الكبر، ومواقف البذل أعظم من مواقف المنع، لذلك لو أن الإنسان عرف ما يجنيه من خلقه الحسن لكان

همُّه الأول أن يكون ذا خلق حسن.

كل إنسان مأمور بالعدل والإحسان:

نعود للحديث الشريف:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

قال تعالى:

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (63)﴾

(سورة الفرقان)

تأمل قبل أن تقول هذه الكلمة، قبل أن تقول له: أنت لا تفهم، قبل أن تغضب، وقبل أن تنتقم، وتؤذي، وتتجاهل طلبَ الآخرين، وقبل أن تقف هذا الموقف الذي لا ترضى عنه فكِّر مليّاً، بماذا يأمرك الله ؟

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (90)﴾

(سورة النحل)

كما أنك مأمور بالعدل فأنت مأمور بالإحسان.

الموقف الأخلاقي هو اهم عامل لدخول الناس في دين الله أفواجاً:

إذا أردت أن يتهافت الناس على الإسلام ويدخلوا في دين الله أفواجاً كما دخلوا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام عليك بالمواقف الأخلاقية، وإذا أردت أن تنفِّر الناس فبالغ في العبادات الشعائرية، وافعل ما تشاء مع الناس من إيذاء، وشتمٍ، فهذا الذي جاء يوم القيامة بصيام، وصلاة، وحج، وزكاة، ماذا كان مصيره ؟

((أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وعندئذٍ يبكي النبي عليه الصلاة والسلام ويقول: إن هذا لموقف عصيب.

الخلق الحسن هو عامل الترجيح بين أي إنسان وأخر:

حضر مجلس علم، وصلى أربع ركعات، ودفع زكاة ماله، وانتهى الأمر ؟ لا لم ينتهِ شيء، هذا الدين جاء ليتمم مكارم الأخلاق، لا يوجد حديث أوضح من هذا الحديث:

((بُعِثْتُ لأتَمِّمَ حُسْنَ الأَخْلاقِ))

[مالك في الموطأ]

مع زوجتك، وأولادك، وجيرانك، وزبائنك، وأصحابك، والقاصي، والداني، مع أي إنسان ومخلوق، وحيوان، كن ذا خلقٍ حسن، أطعمه، وتَرَفَّقْ به، والذي يؤكده القرآن الكريم:

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (2)﴾

(سورة الماعون)

هو نفسه، قال تعالى:

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (50)﴾

(سورة القصص)

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

ألف مؤمن صنفُهم في درجات، عامل التصنيف الخلقُ الحسنُ، كلهم يصلُّون، وعامل الترجيح في شكل أدقَّ هو الخلقُ الحسن، والنبي عليه الصلاة والسلام كان خلقه القرآن، وقال:

((أَدَبَّنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي))

[السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود]

فقد أَحَبَّه أصحابُه حُبَّاً جمّاً كما قال أبو سفيان:

((ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً))

[السيرة النبوية لابن هشام]

قال عليه الصلاة والسلام:

((وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وقال حديث حسن صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فالقول الشهير: الزواج رق فلينظر أحدكم أين يضع كريمته...:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ إِلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

القرآن الكريم كتاب موجز:

ربنا سبحانه وتعالى يقول متحدِّثاً عن سيدنا آدم وزوجته فقال:

﴿ فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117)﴾

(سورة طه)

كان ينبغي أن يقول: فتشقيا، لا يخرجنكما، اثنان، من الجنة فتشقيا، ولكن ربنا سبحانه وتعالى قال: فتشقى، بالمفرد، فاستنبط علماء التفسير من هذه الآية أنّ: شقاء الرجل هو شقاء للمرأة، فإذا شقي الرجل شقيت معه امرأته، والقرآن الكريم موجز.

دقة القرآن الكريم وإعجازه:

هناك لَفَتَاتٌ في اللغة دقيقة ؛ مثلاً يقول لك: أنا لا أكنز الذهب والفضة، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (34)﴾

(سورة التوبة)

فهذه الآية مِن القرآن الكريم نصَّتْ على الذهب والفضة حصراً، والذي يكنز العملات الورقية يا ترى هل له علاقة بهذا الموضوع ؟ بنص هذه الآية ليس له علاقة، ولكن القرآن ماذا قال ؟ الذهب والفضة ولا ينفقونها، كان من الممكن أن يقول: ولا ينفقونهما، أي الذهب والفضة فلما قال: ولا ينفقونها بالجمع، كان هذا من قبيل إعجاز القرآن، ليشمل أيَّ شيء في المستقبل، لأنّ في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان المال المتداول هو الذهب والفضة، وفي العصور اللاحقة أي شيءٍ اتُّخِذ نقداً فحكمه حكم الذهب والفضة، فربنا عز وجل أشار إلى هذا بضمير الجمع

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضةَ ولا ينفقونها ﴾

وليس: ولا ينفقونهما، فالعملات النقدية والورقية داخلةٌ مع الذهب والفضة، لذلك قال العلماء: لو أن الناس اتفقوا على أن النحاس نقداً لحرم كنزه، ولو اتخذ الناس الجلد نقداً لحرم كنزه.

فالقرآن الكريم دقيق جداً ؛ فكلمة

﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾

تعني أنَّ شقاء الرجل هو شقاءٌ للمرأة.

بالمناسبة فالمبلغ مهما كان كبيراً إذا دفعتَ زكاته فليس بكنز، والمبلغ مهما كان صغيراً إن لم تؤدَ زكاته فهو كنز، فتعريف الكنز: هو المال الذي لا تؤدَّى زكاته، وأنت ليس لك حق أن تتهم إنسانًا بالبخل إذا أدّى زكاة ماله، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((من أكثر من ذكر الله فقد برئ من النفاق))

[ابن شاهين في الترغيب في الذكر عن أبي هريرة]

((من حمل سلعته فقد برئ من الكبر))

[كنز العمال عن أبي أمامة]

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

[أخرجه الطبراني عن جابر بن عبد الله]

لفتات لغوية من القران الكريم:

وهناك لفتاتٌ لغوية أخرى، يقول الله تعالى:

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62)﴾

(سورة التوبة)

أن يرضوه، بضمير المفرد الغائب، وكان ينبغي أن يقول: والله ورسوله أحق أن يرضوهما، ولا يخرجنكم من الجنة فتشقيا، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهما في سبيل الله، هنالك قال: فتشقى، وهناك قال: ينفقونها، وهنا قال: والله ورسوله أحق أن يرضوه، ومنه استنبط النبي عليه الصلاة والسلام أن: إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، وأن إرضاء الله عز وجل هو عين إرضاء رسول الله، لذلك قال: " أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله ".

إنه تطابق كامل، والحقيقة أنّ النبي عليه الصلاة والسلام ليس له مطلبٌ شخصي أبداً، بل مطلبه أن يهتدي الخلق إلى ربهم، وليس له توجيه خاص من عنده، فهو رسول لا ينطق عن الهوى، فمحبته هي محبةٌ لله عز وجل.

الخلق الحسن والإحسان إلى الزوجة عاملان مرجحان لتفاوت المؤمنين:

إذاً:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وقال حديث حسن صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وثمَّة أحاديث كثيرة وردت في إكرام النساء، فكأن النبي عليه الصلاة والسلام جعل عامليْن مرجِّحيْن لتفاوت المؤمنين ؛ العامل المرجح الأول الخلُقُ الحسن، والعامل المرجِّح الثاني الإحسانُ إلى الزوجة، وخياركم خياركم لنسائهم، لأن الأسرة هي اللبنة الأولى في المجتمع، فإذا صلحت صلح المجتمع، وإذا فسدت فسد المجتمع، وهي الخلية الأولى، لذلك اعتنى الإسلام بها عناية كبرى، حتى كانت أحكام الطلاق تشغل حيزاً كبيراً في القرآن، ولأن أحكام الطلاق، والزواج، وغض البصر، وآداب الدخول والاستئذان، والخروج، والخلوة ، وحد الزاني، وحد القاتل، كلّها متعلقة بالأسرة، وكلها صوناً للأسرة.

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وقال حديث حسن صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الدين الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام هو عبادات ومعاملات واخلاق معاً:

هناك شيء نتج عن بعض التقسيمات التي قسمها الفقهاء، فقالوا: أوامر الله عز وجل بعضها عبادات، وبعضها معاملات، وبعضها أخلاق، عبادات، ومعاملات، وأخلاق، فالعبادات هي هذه الأوامر الشعائرية ؛ فالصلاة أن تقف، وتكبِّر تكبيرة الإحرام، وتقرأ الفاتحة وسورة، وتركع، وتسجد، والصيام أن تمتنع عن الطعام، والشراب، وسائر المفطرات، من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس بنِية، والحج كما تعلمون له مناسك، والزكاة لها نصاب، ولها مصارف، وما إلى ذلك، فهذه العبادات بعضها بدني، وبعضها مالي، وبعضها بدني ومالي، وبعضها مكاني، وبعضها زماني كالحج، فالفقهاء فصلوا الأوامر الشعائرية التعبدية فسمَوها عبادات، والأوامر الاجتماعية في قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)﴾

(سورة الحجرات)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)﴾

(سورة الحجرات)

فالنهي عن الكذب، والغيبة، والنميمة، والإفك، والكبر، والاستعلاء، والإيقاع بين الناس، والتفريق، هذه الأوامر الاجتماعية هي الأخلاق، والمعاملات من أحكام البيوع والطلاق، والزواج، والعدة، والنفقة، واللقطة، والعارية، والهبة، والإيجار، هذه كلها أحكام، فلما قسم الفقهاء الأوامر إلى عبادات، ومعاملات، وأخلاق، سبق في ظن الناس أو توهموا أن الدين هو العبادات، مع أن الدين الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام هو عبادات، ومعاملات، وأخلاق، وأن الذي يقوم ببعضها ويدع بعضها الآخر فهو كبني إسرائيل.

الإسلام بناء شامخ كبير وقواعده خمس:

قال تعالى:

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (85)﴾

(سورة البقرة)

يصلي حاضراً ويغتاب الناس ؟! فوُجِد تناقض، فالذي يصلي لا يغتاب، أما أن يصلي ويكذب في البيع والشراء:

((يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ))

[أحمد عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

فصلاة وكذب، وصلاة وخيانة، وصلاة وقسوة في المعاملة، صلاة وكبر لا تجتمع معاً، فلما ضيَّق الناسُ مفهومَ الدين إلى أربع عبادات خسروا و ضاعوا، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْحَجِّ وَصَوْمِ رَمَضَانَ))

[البخاري عَنْ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إنَّ الإسلام بناء شامخ كبير، وقواعده خمس، الشهادتان والصوم والصلاة والحج والزكاة، وهي دعائم وليست البناء، فإذا توهمنا أنها هي البناء، فنحن في وهم كبير، لهذا نصَّ عليه الصلاة والسلام في الأحاديث الذي قرأتها على أسماعكم وفي هذا الحديث الذي هو موضوع هذا الدرس على هذا الأمر:

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وقال حديث حسن صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

كيفية اكتساب الأخلاق الحسنة:

يوجد سؤال ثانٍ ؛ يا ترى هذه الأخلاق الحسنة كيف تُكتسب ؟ عندنا أخلاق حسنة تقليداً، وأخلاق حسنة أصيلة، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشر يوقه))

[الجامع الصغير للسيوطي عن أبي الدرداء]

أي اكظم غيظك، فأنت من الداخل متأجج، وتغلي غلياناً، ولكنك مؤمن، فاضبط أعصابك واسكت، وإذا غضبت فاسكت، وتوضأ، أو اغتسل، أو اخرج من البيت، فهذا صار حلماً، ولكن التحلم تصنُّع حلم قسري، والثمن أن تكون حليماً أصيلاً، وأن تكون متحلماً، فأول مرحلة بأن تتحلم، وإنما الكرم بالتكرم، أنْ تصطنع الكرم، فأنت متكرم، ولكن إذا تكرمت وعاكست هوى نفسك، ووقفت موقفاً مناهضاً لرغبتك، فهذه هي البطولة.

إنَّ المؤمن وقَّاف عند كتاب الله، وهذه الحالة الداخلية ؛ الغليان الداخلي مع الانضباط الخارجي، هذا اسمه تحلُّم، فإذا فعلت هذا شعرت أنك جاهدت في سبيل الله، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((قدمتم خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر: مجاهدة العبد هواه))

[الجامع الصغير عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

إنه عمل بطولي أن تجاهد نفسك وهواك، وهذا التحلُّم يعينك على أن تُقبِل على الله في صلاتك، يا رب أنا كظمت غيظي من أجلك، وإرضاءً لك، كظمت غيظي وأنا أستطيع أن أفعل به الأفاعيل خوفاً منك، وبإمكاني أن أدمره فكظمتُ طلباً لرضاك، و بإمكاني أن أسحقه، لكني كظمتُ من أجل أن ترضى عني، انظر إلى هذا التحلُّم، فإذا تحلَّمت ووقفت بين يدي الله عز وجل شعرت أن الله راض عنك، عندئذٍ إذا تجلى الله عليك بأنواره أصبحت ذا حلم أصيل، والمرحلة الثانية: إذا استفزك إنسان شعرتَ بهدوء داخلي، وشعرتَ أن هذا مسكين بعيد

عن الحق، هذا إنسان جاهل أرعن، هل تحبون أن تعرفون حقيقة الحلم ؟ لو كنت طبيباً وجاءك مريض مصاب بمرض جلدي خطير، هل تغتاظ منه ؟ لا، بل تشفق عليه، وترثي بحاله وتتألم له، فكلما ارتقى مستوى المسلم بدل أن يغضب من الناس يغضب على عملهم، وبدل أن يحقد عليهم يرثي حالهم، وبدل أن يغلي تشفياً منهم يبكي حزناً على جهلهم، وعلى بُعدِهم عن الله عز وجل، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: إنما الحلم بالتحلم، تتحلم، وهذا يحتاج إلى إرادة قوية، تُقبِل على الله عز وجل، فيلقِي الله في قلبك بعضاً من مكارم الأخلاق، لذلك فإنّ مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله عز وجل، فإذا أحب الله عبداً منحه خلقاً حسناً، وإنَّ الحليم موصول، والكريم موصول، والسخي موصول، والودود موصول، والرحيم موصول، وإنّ القاسي مقطوع، والغضوب مقطوع، والبخيل مقطوع، والجبان مقطوع، فمكارم الأخلاق آثار الصلة، ومساوئ الأخلاق أعراض الإعراض، والإعراض له أعراض، وأعراض الإعراض البخل، والقسوة، وحبُّ الذات، والأنانية، والاستعلاء، والتشفِّي، والحقد، فهذه كلها أعراض الإعراض، وثمار الإقبال مكارم الأخلاق.

الصبغة والفطرة:

لذلك ربنا عز وجل مرةً قال:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30)﴾

(سورة الروم)

ومرةٍ:

﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)﴾

(سورة البقرة)

هل هناك من فرق بين فطرة الله وصبغة الله ؟ طبعاً الفرق كبير، فالفطرة هي التي فطر عليها أي إنسان، والإنسان فُطِر على حب الكمال، وليس على الكمال، بل يحب الكمال، وثمَّة فرق كبير بين أن تكون كاملاً وبين أن تحب الكمال، فالسارق يحب العدالة، فإذا وزَّع الأموال المسروقة بين إخوانه وزَّعها بالعدل، فهذه بالحرام كلها، ويقول لزميله: لا تغش، وضع هذه الحاجة.

هذه فطرة، والفطرة شيء، والصبغة شيء آخر، فالإنسان إذا كانت له صلة بالله عز وجل، وألقى في قلبه أنوار الحق، عندئذٍ صار رحيماً، وهذه رحمة أصلية، فلو أن إنساناً شاهد جريحاً أمامه بحادث دهس، وأمامه جمهور من الناس، وكلهم يعرفونه من الجيران، فبدافع من الحفاظ على سمعته يبادر، ويأخذ هذا الجريح إلى المستشفى، وهذا موقف اجتماعي ذكي ليس فيه رحمة، أما المؤمن فوضعُه آخر، فلو كان الجريح وحده، فبدافعٍ من حبه، ورحمته التي تملأ قلبه يبادر لإنقاذ هذا الإنسان، والعملان من حيث الشكل متساويان، ولكن شتان بين هذا وذاك، فبينهما مسافة كبيرة، فهذا يفعل عملاً ظاهره الرحمة وباطنه السمعة، وهذا يفعل عملاً ظاهره الرحمة وباطنه الرحمة، فالعمل الأول عمل مزوَّر، أما العمل الثاني فعمل صحيح، ويمكن للقاضي أنْ يحكم بالعدل، ويطمع أن يصل هذا الحكمُ إلى جهات عليّة ، ويقدِّروا نزاهته فيرفعوه درجة، فهذا القاضي حكمه عدل، ولكنه ليس بعادل، أما حينما يكون العدل جارياً في دم القاضي، فإنه يحكم به دون أن يفكر بالثمرة، أو بالجزاء، أو بالترقية.

كل إنسان في الأرض مفطور على حب الكمال والمصبوغ في الكمال موصول بالله تعالى:

أن تحب الكمال شيء، وأن تكون كاملاً شيء آخر، أن تكون كاملاً هذا صبغة، وأن تحب الكمال فهذا فطرة، فكل إنسان في الأرض مفطور على حبّ الكمال، أما المصبوغ في الكمال فهذا الموصول بالله عز وجل، وأيُّ إنسان يحب الكمال، حتى الكافر.

((يا داود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.))

[حديث قدسي رواه البيهقي عن عمير بن وهب]

فهذا حديث دقيق.

((أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ خُلُقًا))

[الترمذي وقال حديث حسن صحيح عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

أنا أتصور إذا كانت أخلاقُ الإنسان شرسةً، وليس مستقيماً على أمر الله في كسب المال، وفي إنفاقه، وعلاقاته الاجتماعية ولاسيما مع النساء غير منضبطة، فهذا صلاته، وصيامه، وحجه، وزكاته، أعمال غير مجدية، لأنّ الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، ثمار الاستقامة، أو سبب الاستقامة، أما إذا انفصل الدين عن الخلُق كانت الطامة الكبرى، وهذا ما حدث، فألف مليون مسلم أين وعد الله عز وجل لهم بالنصر ؟ قال تعالى:

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (55)﴾

(سورة النور)

القسوة من اثار البعد عن الله والرحمة من اثار الصلة بالله:

والعبادة كما تكلمتُ عنها في الخطب الماضية تعني غايةً في الخضوع، مع غاية في الحب، وطاعة طوعية ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبية، أساسها معرفةٌ يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية، وغاية الخضوع مع غاية المحبة، هذه هي العبادة، قال تعالى:

﴿يعبدونني﴾

فإذا أخللتم فيما عليكم فأنا في حِلٍّ من وعودي الثلاث، فلذلك هذا الحديث هدفه أن يرقى الإنسان بنفسه مرتين ؛ مرة بتصنُّع الأخلاق الفاضلة بضبط نفسه، والأخلاق المصطنعة ثمن الأخلاق الأصيلة، وهذا مأخوذ من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إنما الحلم بالتحلم، و إنما الكرم بالتكرم))

عندك صانع كسر آلة غالية، يمكن أن تضربه ضرباً مبرحاً، ويمكن أن تسبَّ أجداد أجداده، في ساعة غضب، ويمكن أن تسكت أيضاً، لقد انكسرت الآلة مِن غير قصد، فإذا سكتَّ يمضي عمر بكامله وأنت متمتع بهذا الموقف الأخلاقي، يمضي على هذه الحادثة شهر وشهران، وسنة وسنتان أو أربعون سنة، وأنت تشعر بسعادة كبيرة، لأنك كنت حليماً، وما رويت غليلك منه، لذلك أحد الصالحين . اسمه عصرون باشا . وضع وقفاً فيه كل أنواع الأواني، لكل طفل، أو صانع، أو أجير، أو زوجة، كسر آنية من الأواني يأتي إلى هذا المكان ويستبدلها بواحدة جديدة.

ويقولون: إن هناك رجلاً شديداً، إلى درجة غير معقولة في علاقته مع زوجته، . وهذه القصة قديمة . يأتي الساعة الثانية عشرة، يجب أن تكون الزوجة واقفة وراء الباب معها البشكير والقبقاب، يدخل ويجري تفتيشًا، ويحضر محرمة بيضاء، ويصعد إلى الخزانة ويمسح، فإذا تغيَّر لونها أقام عليها النكير، وهكذا معاملته لها، وله كأس

شهير . كريستال . يشرب بها، فمرة وقع هذا الكأس من يد الزوجة من أول الدرج لآخره فتوقعت أنها طالق، فالله عز وجل رحمها، والكأس لم يكسر، فهذه الزوجة لشدة فرحها بنجاة هذا الكأس من الكسر شكرت ربها شكراً لا حدود له، جاء زوجها مساءً وقال لها: أريد كأساً من الماء، فوقعت من يده على السجادة فكسرت، فابتسمَت، فقال لها: لماذا ابتسمتِ ؟ تكلمي، فقال لها: أنت سهَّلتِ كسرَها إذاً !!!

هذه القسوة من آثار البُعد عن الله، والرحمة من آثار الصلة، فكان لعصرون باشا وقفٌ فيه من جميع أنواع الأواني، فأيُّ طفل، زوجة زوجها ظالم، أو صانع كسر آنية وخاف من سيِّده يعطيه قطعة من هذه الآنية، فيعطيه الآنية بكاملها، فكل إنسان أحضر له قطعة من إبريق، أو كأساً يعطيه بدلاً منه، حتى يوفِّر على الناس المشكلات.

***

مناسك الحج:

ساعات الإمتحان:

تعليق على مناسك الحج، وكما قلت قبل قليل: العبادات منها الصوم، والصلاة، والحج، والزكاة، فهذه العبادات إما أن تكون مناسبة لسعادة الإنسان فيها، وإما أن تكون عبئاً عليه، فإذا سبقها استقامة والتزام، وسبقها طاعة لله في كل الأوامر ؛ في طعامه، وشرابه، وعلاقته بزوجته، وأولاده، وكسبه للمال، وإنفاقه له، وزواجه، وطلاقه، فإذا سبق هذه العبادات استقامة تامة تصبح هذه العبادات مناسبة للاتصال بالله عز وجل، وقد خطر في بالي قبل أن آتي إلى هنا ساعات الامتحان، هذه الساعات إما أن تكون أمتع ساعات الطالب، أو أصعب ساعاته، فإذا كان الامتحانُ ثلاث ساعات في الثانوية أو الجامعة، وقد سبقها دراسة جيدة، وحفظ جيد، وعدم هدر للوقت سابقاً، وهذه الكتب قرأت سابقاً، ولُخِّصت، وحفظت، ونوقشت، وحُلَّت مسائلها، فحينما يرى أن الأسئلة كلها واضحة يشعر الطالب بسعادة لا توصف، وهو في هذه الساعات الثلاث وإذا سبق هذا الامتحانَ إهمالٌ، وتقصيرٌ، وعدم مطالعة، وانحراف أخلاقي، تصبح هذه الساعات الثلاث عبئاً على الطالب، فالصلاة من دون استقامة صعبة، بل هي عبء، وثقيلة، فربنا عز وجل وصف المنافقين، فقال تعالى:

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً (142)﴾

(سورة النساء)

بين أن تقول: أرحنا بها، أو أرحنا منها، وبين أن ترى شهر رمضان شهر الغفران، والمحبة، والعبادة، وبين أن ترى هذا الشهر عبئاً، فتريد أن تسافر خارج القطر، فتكون حسب الشرع مسافراً، وهناك أناس يربطون سفرهم برمضان، حتى يتخلصُّوا من الصيام، ويصومونه في الشتاء، حيث اليومُ قصير، فهذه العبادات ومنها الحج، و الصيام، والصلاة، إن سبقتها طاعة لله عز وجل كالامتحان تماماً، ترى نفسك طليقاً وسعيداً في وجه متألق، والعينان زئبقيتان، وعليهما بريق، وإذا لم يدرس الطالب تصفَّن، وتضايق، وضجر، ويرى الوقت ثقيلاً عليه.

العبادات لن تكون مرجوة النتائج كما اراد الله تعالى إلا إذا سبقت بطاعة الله:

هذه العبادات إذا سبقتها طاعات لله عز وجل في كل الأوامر تصبح مناسبات للإقبال على الله عز وجل، لذلك: أرحنا بها يا بلال، كان النبي عليه الصلاة والسلام كما تقول السيدة عائشة: " يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه ".

وسيدنا سعد بن معاذ يقول: " ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك فأنا واحد من الناس ؛ ما صليت صلاةً فشغلت نفسي بغيرها حتى أقضيها، ولا سمعت حديثاً من رسول الله ﷺ إلا علمت أنه حق من الله تعالى، ولا سرتُ في جنازةٍ إلا فحدثت نفسي بغير ما تقول حتى أنصرف منها ".

فالإنسان قبل أن يحج يجب أن يهيِّئ نفسه للحج ؛ بأن يستقيم على أمر الله، وقبل أن يصلي يجب أن يكون مع الله في غض بصره، وفي كسب ماله، وفي كل أعماله، لذلك لا تكون هذه العبادات مرجوة النتائج كما أراد الله عز وجل إلا في حالةٍ واحدة ؛ إذا سبقتها طاعةٌ لله، لذلك: قم فصلِّ فإنك لم تصلِّ، وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا التعب والسهر، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً، فهذه أشياء أساسية في الدين، وآن الأوان أن يطبقها الإنسان.

***

سيرة النبي ﷺ:

الحكمة من يتم النبي الكريم:

بقيت كلمة عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، واخترت لكم في هذا اليوم هذا السؤال لماذا كان عليه الصلاة والسلام يتيماً ؟ والغريب أن النبي عليه الصلاة والسلام وُلِد يتيماً، وبلغ من العمر ست سنوات، و توفيت أمه، فالحقيقة أنّ اليُتم مضاعف.

أناس كثيرون يموت آباؤهم إما قبل الولادة، أو بعدها، وتبقى الأم، والأم شيء ثمين، أما أن يولد يتيماً عليه الصلاة والسلام وأن تموت أمه بعد ست سنوات، وله جدٌّ سيدُ قريش، عبد المطلب أحبّه حباً لا حدود له، وكان هذا الجد مكان أبيه وأمه، وفي السنة الثامنة توفي جده عبد المطلب، فما هذه الحكمة ؟ جده سيد قريش، وأبوه مِن أنجب أولاد جده، وكان عبدُ الله الجوهرةَ الوسطى في العقد، وأمُّه آمنةُ من بني النجار، والعلماء يقولون: من حكمة الله عز وجل أن كان النبي عليه الصلاة والسلام يتيماً، وهو القائل:

((أَدَبَّنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي))

[السيوطي في الجامع الصغير عن ابن مسعود]

فكل عوامل التوجيه، والرعاية، والتلقين، والتعليم، والاعتناء عطلت كلُّها، فإذا نبغ في أخلاقه، وفي علمه، فهذا دليل أن الله سبحانه وتعالى وحده الذي تولَّى تربيته، لذلك مرة سمعت كلمة اقشعر لها جلدي، قال رجل لآخر: إذا لم يكن له أب فليس له رب، فالرب هو كل شيء.

الله عز وجل أفقد النبي الكريم الأب والأم والجد ولكن وفر له من يرعى امره:

نلاحظ النبيَّ عليه الصلاة و السلام مع أنه لا يعرف أباه، وفَقَد أمَّه في سن مبكرة، وفَقَد جدَّه في السنة الثامنة من عمره، ومع ذلك قال:

((أَدَبَّنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي))

ولكنَّ الله عز وجل . كما يقول العوام . يبلي ويعين.

هناك فتاةٌ حبشية اسمها "بركة"، سميت فيما بعد بأم أيمن، كانت جاريةٍ عند أبيه، هذه حضنته ورعته أحسن

الرعاية، وكأنها أمه، أم أيمن أو بركة وعبد المطلب جده أيضاً بأسباب عديدة عطف عليه عطفاً يفوق عطف الآباء على الأبناء، فلأن عبد الله والد سيدنا محمد ﷺ كان أحب الأبناء إلى عبد المطلب، لذلك أحبه حباً كثيراً، وأحب ابنه محمداً على حب أبيه، فكان هناك حبٌّ على حب، وهذه أم أيمن، بركة، الجارية عطفت عليه عطفاً كثيراً فكانت له كالأم، فربنا عز وجل أفقَدَه الأبَ والأمَّ، وأفقده الجدَّ، ولكنْ وفَّر له من يرعى أمره.

إعجاب عبد المطلب بالنبي الكريم وتعلقه الشديد به:

كان هناك عادات في الجاهلية، ومن عادة عبد المطلب بن هاشم أن يتخذ له مجلساً في الكعبة، يتحدث فيه إلى الرجال، ويتحدثون إليه، فكان يفرش له فراشاً في ظل الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليهم، فلا يجلس عليه أحد منهم إجلالاً له، ويعيِّن له مكان أبناء جده عبد المطلب، فكانوا يجلسون حول هذا الفراش، ولا يجرؤ أحد أن يجلس عليه إلا النبي عليه الصلاة والسلام، فكان يأتي وهو غلامٌ جفر . ومعنى جفر أي فيه صحة ونمو . و يجلس على فراش جده، فيأتي أعمامه ليؤخروه عنه، فكان عبد المطلب يمنعهم إذا رآهم، ويقول: دعوا ابني إنه ليؤنس ملكاً . أي يشم منه رائحة الملك . ثم يجلسه على فراشه ويمسح ظهره بيده، ويسره بما يراه منه وكان يقربه منه، ويدنيه، ويدخله عليه إذا خلا وإذا نام، ويرق له رقةً لم يرق لها والدٌ على ولده، وكان لا يأكل طعاماً إلا إذا قال أين محمد ؟ عليَّ بابني، وكان يسميه ابنه، فعبد المطلب جده كان معجباً به إعجاباً شديداً، ومتعلقًا به تعلقاً كبيراً، لِما يراه من آيات السمو، إنه طفل صغير عليه علائم النجابة، وعلائم السمو، فكان يعزف عن اللهو الباطل، وكان إذا دُعي إلى اللهو ﷺ يقول: " لم أخلق لهذا ".

نحن الكبار يا ترى هل لنا حرص على وقتنا ؟ هل تقول إذا دعيت إلى جلسة باطلة: لم أخلق لهذا، أو سهرة لا يوجد منها فائدة مع أناس متكبرين، فهل تقول من حين إلى آخر: لم أخلق لهذا، هل تعرف أنت لماذا خلقت ؟ هل الهدف من خلقك واضح أمامك، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما كان طفلاً صغيراً كان يقول إذا دعي إلى لهو الأطفال: "لم أخلق لهذا "، فكان عبد المطلب يعجب به أشد العجب، فكان يعجب من كمال أدبه، ومن سمو خلقه، ومن عزوف نفسه عن اللهو الباطل، وعن تنزهه عن التدني فيما يتدنى به الأطفال عادةً، من تهافت على الطعام والشراب، أو تطلع إلى ما يجلبه الآباء والأبناء، كل هذه الصفات المشتركة بين الأطفال كان عليه الصلاة والسلام مترفعاً عنها.

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ:

شيء آخر ؛ النبي عليه الصلاة والسلام كما قال الله عز وجل:

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (21)﴾

(سورة الأحزاب)

لقد جعله يتيماً، وهذا فخر لكل يتيم، وكما سمعت أن دار الأيتام في الميدان على مدخلها لوحة كبيرة فيها صورة لمقام النبي عليه الصلاة والسلام وكتب عليها " سيد الأيتام محمد عليه الصلاة والسلام"، فإذا فقدَ الإنسانُ أمَّه أو أباه، وما تلقى عناية كافية، فلا ينسى أن له ربَّاً يرعاه خير رعاية.

يقول الرواة: " إن حليمة قدمت مكة، والنبي عليه الصلاة والسلام ابن خمس سنين فأضلها في الناس . ضاع منها . فالتمسته فلم تجده، فأتت عبد المطلب فأخبرته، فالتمسه عبد المطلب فلم يجده، فقام عند الكعبة يدعو ويقول: لا هم أي اللهم، أدِّ راكبي محمداً، أدِّه إليّ، واصطنع عندي يده، فأنت الذي جعلته لي عضداً، وأنت الذي سميته محمداً". فكان هناك حرص بالغ عليه من قِبَل جده، ومن قِبل مربيته، ولما مات عبد المطلب أحسَّ النبيُّ عليه الصلاة والسلام بألم الفاجعة، وأدرك عِظَم المصيبة، وعرف أنه فقَد القلب الكبير، وهو في الثامنة من عمره، لذلك قالت أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يبكي خلف سرير عبد المطلب.

وسئل النبي عليه الصلاة والسلام: أتذكر يا رسول الله موت عبد المطلب ؟ قال: نعم وأنا يومئذٍ ابن ثماني سنين.

المقاصد المتوخاة من السيرة الشريفة:

هذه اللقطة من السيرة لي منها مقصدان ؛ أول مقصد؛ هل يوجد لأحدنا هدف، ولماذا أنت على وجه الأرض ؟ لماذا أنت هنا في الدنيا ؟ هل الهدف واضح تماماً، والنبي قال: " لم أخلق لهذا"، وأنت أمام المواقف المتعددة تقول: لم أخلق لهذا، أم تقول: خلقت لهذا، فيجب أن تعرف لماذا أنت هنا ؟

والشيء الثاني: إذا كان الإنسان يتيماً، فربما تلقّى عناية بشكل غير مباشر تفوق حدَّ الخيال، وقد يكون اليتيم أسعد الناس، فموضوع اليُتم، وكونه نشأ فقيراً، أو بعيداً عن والديه، أو في بيت مفكك، هذه كلها لا تقدِّم ولا تؤخِّر.

ولله درُّ مَن قال:

وَإِذَا الْعِنَايَةُ لاَحَظَتْكَ جُفُونُهَا نَـمْ فَالْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

والحمد لله رب العالمين

الدرس 08 : الإعداد للحج – باب الرجاء – سيرة النبي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الرجاء :

أيها الأخوة المؤمنون؛ لازلنا في رياض الصالحين، و "رياض" جمع روضة، ونحن اليوم في باب جديد ؛ هو باب الرجاء :

((عَنْ عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ وَهُوَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنْ الْأَنْصَارِ أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتْ الْأَمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

فهذا الصحابي الجليل عتبان بن مالك كان ممن شهد بدراً، وكان يصلي بقومه بني سالم إلا أن وادياً في أيام الشتاء يحول بين بيته وبين مصلى قومه، وكان هذا الوادي يمتلئ بالمياه فيشق عليه اجتيازه، فيقول عتبان بن مالك:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

أي ضعُف بصري، وهذه الحواس التي أكرمنا الله بها هذه لحكمةٍ بالغة قبيل انتهاء العمر تضعف، وكأنها لفتُ نظرٍ لطيفٍ أنْ يا عبدي ضعُف بصُرك، وشاب شعرُك، وانحنى ظهرُك، وضعفت قوتُك فاستحِ مني أنا أستحي منك، وهذا تنبيه لطيف من الله حيث يضعف في الإنسان بصرُه وسمعه أحياناً، ويشيب شعره، ويشعر بوهن في

قوته، وهذا من فضل الله علينا، أن يا عبدي اقترب الرحيل فماذا أعددتَ للقائي؟ فهذا الصحابي الجليل قال:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَأَنَا أُصَلِّي لِقَوْمِي فَإِذَا كَانَتِ الأمْطَارُ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ آتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَأُصَلِّيَ بِهِمْ وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

فصحابي من عامة صحابة رسول الله ضعف بصره، وكان يؤم قومه في مصلاهم فحالَ الوادي بينه وبين قومه، فجاء النبيَّ عليه الصلاة والسلام وسأله أن يزوره في البيت، وتلبية الدعوة واجبة، فمن دعاك وجب حقه عليك، ويقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((عَنْ مُعَاذٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْثُرُ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلَّذِينَ يَتَحَابُّونَ فِيَّ وَيَتَجَالَسُونَ فِيَّ وَيَتَبَاذَلُونَ فِيَّ))

[أحمد عن معاذ]

أفتشعر بحب عميق لأخيك المؤمن، وأنه جزء منك، أو تتمنَّى له الخير كما تتمنَّاه لنفسك؟ أتفرح له إذا أصابته سراء؟ أو تُسرُّ إذا حلت مشكلته؟ أيها الأخوة هذا مقياس دقيق، فالمنافقون مقياسهم كما وصفهم الله عز وجل فقال:

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾

[سورة التوبة : 50]

والمنافق كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون ولو اقتربت منازلهم، والمؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون ولو ابتعدت منازلهم))

[الترغيب والترهيب للمنذري عن أنس]

ثمار الدين لن تقطف إلا بالتخلق بأخلاق الصحابة الكرام :

لو كان لك بيت صغير، وزرتَ أخاك، ورأيت بيته واسعاً مريحاً، فعلامة إيمانك أن تفرح له، وإن كان لأخيك دخل كبير فعلامة إيمانك أن تفرح له، وكأن هذا الدخل لك، والدليل أن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾

[سورة النساء : 29]

إنَّ هذا المال الذي تأكله من أخيك هو مالك، فيجب أن تشعر أنه مالك، فلأن كنت مكلفاً من قِبَل الله عز وجل أن تحافظ عليه فلأَن تمتنع عن أكله من باب أولى، وهكذا ربَّى الإسلام المسلمين، فمال أخيك هو مالك في الحفاظ عليه، وهذه من علامة المؤمن، وعلامة المنافق أنه يحسد، قال تعالى:

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴾

[سورة التوبة : 50]

فيشعر المنافقُ بالراحة إذا ألمت بالمؤمن نازلةٌ، بل إن الله عز وجل توعَّد هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، فقال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة النور : 19]

لم يفعلوا شيئاً، وما تكلموا كلمةً، وما تحركوا، وما نطقوا ببنت شفة، وما تبسموا لكنهم في أعماقهم ارتاحوا أن تشيع هذه الفاحشة بين المؤمنين، وهؤلاء ليسوا بمؤمنين وربِّ الكعبة، وهذا الذي يتألم إذا أصاب المؤمن خير، ويفرح إذا أصابه سوء، ويحسده على ما آتاه الله، هذه علامة قطعيةٌ على أنه منافق، ونعوذ بالله من النفاق، هذا أخوك فافرح له، واطلب من الله أن يعطيك ما أعطاه، لقد رفعه الله فافرح، فإنّ عزَّه عزُّك، وشأنه شأنك، وتكريمه تكريم لك، فلذلك هذا الصحابي الجليل قال:

((وَوَدِدْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ تَأْتِينِي فَتُصَلِّيَ فِي بَيْتِي فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

مادامت الأمطار تحول بيني وبين قومي.

((فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

إنّ هذا الذي يترفع عن إخوانه الفقراء، والضعاف، والمساكين، هذا ليس مؤمناً، والنبي عليه الصلاة والسلام جاءه عدي بن حاتم فرحَّب به، ودعاه إلى بيته، وفي الطريق استوقفته امرأةٌ مسكينة فقيرةٌ تكلِّمه، فوقف معها النبي عليه الصلاة والسلام طويلاً يكلمها في حاجتها، فقال عدي بن حاتم: والله ما هذا بأمر ملِك. ومرة سيدنا عمر دخل على رسول الله فرأى أثرَ الحصير في خده الشريف فبكى، وقال: رسول الله ينام على الحصير وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير؟! فقال: يا عمر إنما هي نبوةٌ وليست ملكاً. فالنبي متواضع، جلس مع مسكين، فمر بهما رجل فقال عليه الصلاة والسلام: مسكين يجلس مع مسكين.

وسيدنا عمر كان في المسجد يمشي في الليل، ويبدو أنه مشى على أحد أعضاء رجل دون أن يشعر، وهذا الرجل عصبي المزاج، فانفعل وقال: أأعمى أنت؟ ولا يدري أنه عمر فقال: لا، فقيل له: أهكذا يقول وهكذا تجيبه؟ فقال: سألني فأجبته، وقلت له: لا لستُ أعمى، وهكذا كان أصحاب النبي، ونحن لا نقطف ثمار الدين إلا إذا تخلَّقنا بأخلاقهم، من التواضع، والبذل، والعطاء، وخدمة الخلق، وأن ترى نفسك دونهم.

((فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

وهذا تعليم لنا، فلا تذهب إلى مكان وحدك، وليكن معك رفيق.

((فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَأَفْعَلُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ عِتْبَانُ: فَغَدَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ ارْتَفَعَ النَّهَارُ، فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ ثُمَّ قَالَ: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ، قَالَ فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ فَقُمْنَا فَصَفَّنَا فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

حكمة النبي وحرصه على المودة بينه وبين أصحابه :

بيت القصيد من هذا الحديث لم يأتِ بعد، والنبي عليه الصلاة والسلام ما جاء على موعد، لِم لَمْ يأتِ على موعد؟ خشية أن يتكلف هؤلاء له، فجاءهم بلا موعد، وهم حينما قدِموا عليه عَظُم عليهم ألاّ يكرموه، فقال راوي الحديث عتبان بن مالك:

((قَالَ: وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

ويبدو أنها حلاوة سكر وطحين، أكلة سريعة، ومعنى حَبَسْنَاهُ أي رجوناه أن ينتظر حتى نقدّم له هذا الطعام، وإكرامُ الضيف من السنة النبوية، فمن أكرم أخاه فكأنما أكرم ربَّه.

((قَالَ: وَحَبَسْنَاهُ عَلَى خَزِيرَةٍ صَنَعْنَاهَا لَهُ، قَالَ: فَآبَ فِي الْبَيْتِ رِجَالٌ مِنْ أَهْلِ الدَّارِ ذَوُو عَدَدٍ فَاجْتَمَعُوا))

[البخاري عن عتبان بن مالك]

ولم يأتِ بعد بيتُ القصيد، فبيت القصيد أن من هؤلاء مَّمن يسكن في هذه المنطقة رجل اسمه مالك بن الدخيشن، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخَيْشِنِ أَوِ ابْنُ الدُّخْشُنِ.. " فأين مالك ولِمَ لَمْ يأتِ معكم؟ لقد كان أصحابه ﷺ في ذهنه واحداً واحداً، وكلما علا مقام الإنسان عند الله عظمتْ رحمته وشفقته، وعظُم حبه لإخوانه، والنبي عليه الصلاة والسلام سأل عن مالك، ويا ليته لم يسأل عنه. فَقَالَ بَعْضُهُمْ: "ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " ويبدو أنه تخلَّف به الركبُ، وسقط وبدأ ينتقض النبي عليه الصلاة والسلام، ولا يصلي، يبدو هكذا.

((.......فَقَالَ بَعْضُهُمْ: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا " ما هذا ؟ ما هو بمنافق، أو لا تقولوا ذلك، هنا سر النبوة، لو قال: ليس منافقاً وهم يسمعون منه كلام النفاق لشكوا في حكم رسول الله، ولو قال: نعم هو منافق، ووصل هذا إليه لكان هذا الكلام حجاباً بينه وبين النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي قال: لا، فلكم أن تفهموا "لا"، أي لا تقولوا ذلك أمامي، ولكم أن تفهموا "لا"، أنه ليس كذلك، فإذا نقلتَ هذه "لا" إلى مالك بين الدخيشن يفهمها أن النبي نهاهم على أن يتهموه بالنفاق، وإذا سمع أصحاب النبي كلمة لا من النبي ربما فهموها لا تقولوا كذلك، والنبي عليه الصلاة والسلام حريص على أصحابه وحريص على المودة بينه وبينهم، فأي شيء يقطع هذه المودة إنما يقطعهم عن الله عز وجل لذلك قال: لاَ تَقُلْ ذَلِكَ أَلا تَرَاهُ قَدْ قَالَ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ فَإِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ))

يبدو أنه منحرف انحرافاً خطيراً، وأنه بعيد بعداً كبيراً، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: لا، أيْ لا أريد أن أسمع هذا الكلام، أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر، فعوّد لسانك أن تثني على إخوانك، لا أن تذمهم، لأنك إذا ذممت أخاك وذاك ذمَّ أخاه، أصبح المجتمع الإسلامي مفتَّتًا، فانصح أخاك مباشرةً، وادعُ الله أن يردَّه إليه.

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ))

هذه قاعدة عامة قد تنطبق على مالك أو لا تنطبق:

((حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ))

الذي استوقفني في هذه القصة أو هذا الموضوع الموجود في باب الرجاء من كتاب رياض الصالحين والحديث رقمه أربعمئة وسبعة عشر، حكمة النبي عليه الصلاة والسلام، وحرصه على المودة بينه وبين أصحابه، وحرصه على ألاَّ ينطق الإنسان إلا بما فيه خير، وبالشيء الحسن، لكن للقصة تتمة، قبل سنتين أو ثلاث وقعت تحت يدي مجلة فيها موضوع عن تبوك قرأت الموضوع فإذا فيه حديث عن مسجد ضرار الذي أسسه المنافقون، وجاء في هذا الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل اثنين من صحابته الكرام أحدهم مالك بن الدخيشن، وهذا الموقف الأخلاقي المعتدل، وهذا الحرص البالغ على سلامة صدر هذا الصحابي، أو هذا الرجل الذي اتُّهِم بالنفاق، كلمة لا من رسول الله التي تعني أشياء كثيرة أعادت هذا الرجل إلى جادة الإيمان، وأصبح صحابياً جليلاً، وكلفه النبي عليه الصلاة والسلام بهدم مسجد ضرار.

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[البخاري عن أبي هريرة]

فقبل أن تنطق تأكَّد، فهذه الطُّرفة ربما جرحت فلاناً، وهذا التعليق ربما كسر قلب فلان، وهذه الابتسامة في هذا المكان ربما آلمت فلانًا، فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما قالت السيدة عائشة عن صفية إنها قصيرة قال:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا قَالَ غَيْرُ مُسَدَّدٍ تَعْنِي قَصِيرَةً فَقَالَ لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ قَالَتْ وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا))

[أبو داود عن عائشة]

فالإسلام لم يَعُدْ أنا لا أسرق، ولا أشرب الخمر، هذه كبائر مفروغ منها، وهذه الكبائر لا يفعلها عامة المسلمين، ولكن ماذا بقي؟ بقي هذا اللسان، فكلمة واحدة قد تفسد، وقد تقطع، هناك أخ يحضر معنا، فجلس يومًا مع عدد من الإخوة، فتحوَّل المجلس إلى غيبة فَنَفَر لماذا الغيبة؟ عندما قال الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾

[سورة الحجرات : 12]

هذا نهي إلهي يقتضي الترك:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أحمد عن أنس]

فانتقِ أجمل كلمة، وألطف عبارة، وراعِ شعور إخوانك، وشعور المؤمنين، والمسلمين، فلا تفضح، ولا تشكك، ولا تنتقد، ولا تحمر الوجوه، وهكذا فعَل النبيُّ عليه الصلاة والسلام، فبكلمة لا يفهمها ابن الدخيشن أنه ينهاهم عن هذا الكلام، والتي يفهمها أصحاب الرسول لا تقولوا ذلك، هذه الكلمة كلمةٌ نبوية.

قراءة سيرة النبي أو الاستماع إلى تفصيلاتها شيء أساسي في الدين :

يا أيها الأخوة الأكارم ؛ قراءة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، أو الاستماع إلى تفصيلاتها شيء أساسي في الدين، لأن مواقفه تشريع، وأنا لا أنسى يوم جاء سعدُ بنُ معاذٍ إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال: " يا رسول الله إن قومي وجدوا عليك في أنفسهم، فقال عليه الصلاة والسلام: ولِمَ يا سعد؟ قال: لما وزعت من هذا الفيء – أي توزيع الغنائم – قال: أين أنت منهم يا سعد؟ قال: ما أنا إلا من قومي، قال: فاجمع لي قومك، فبادر النبيُّ عليه الصلاة والسلام هو بنفسه، وبدأ باسترضائهم، مع أنه لا حق لهم في أن يجدوا عليه في أنفسهم فهو نبي مرسل ولا ينطق عن الهوى، وأفعاله كلها حكيمة، ومع ذلك قال له: اجمع لي قومك ووقف فيهم خطيباً، فقال عليه الصلاة والسلام: مقالة بلغتني عنكم، وجدةٌ وجدتموها عليَ في أنفسكم، من أجل لعاعةٍ من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أما أنكم لو شئتم وقلتم فلصدقتم ولصدقتم به، آتيتنا مكذباً فصدقناك. بماذا بدأ النبي؟ هل بدأ بفضله عليهم؟ لا، بل بدأ بفضلهم عليه تطييباً لقلوبهم، وتلييناً لمواقفهم، ورحمةً بهم، وتحبباً إليهم، وقال لهم: يا معشر الأنصار ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟ – أنسيتم فضلي عليكم – وعالةً فأغناكم الله؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟ أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا أنتم برسول الله إلى رحالكم؟ فقالوا: رضينا رضينا، وبكوا حتى أخضلوا لحاهم.

هذا موقف، فإذا كان حولك شخص تألم فصالِحْه أنت، ولو كان الحق عليه، فابدأ أنت واستجلب قلبه، ولين له مواقفه، واعتذر له، وذكِّره بفضله ومكانته، وهذا من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، فقراءة سنة النبي عليه الصلاة والسلام ليست من باب إضافة المعلومات، إنها شيء أساسي في الدين، فالقرآن مطبق في سنة النبي، والقرآن يتلى في المصحف ومطبق في أخلاق النبي، وفي سيرته وأفعاله، فلذلك ليس من نافلة القول أن نمضي وقتاً مع النبي ﷺ في سيرته.

الدروس المستفادة من الحديث التالي :

أعيد عليكم قراءة الحديث سريعاً:

((عَنِ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَحْمُودُ بْنُ الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيُّ أَنَّهُ عَقَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَقَلَ مَجَّةً مَجَّهَا فِي وَجْهِهِ مِنْ بِئْرٍ كَانَتْ فِي دَارِهِمْ فَزَعَمَ مَحْمُودٌ أَنَّهُ سَمِعَ عِتْبَانَ بْنَ مَالِكٍ الأَنْصارِيَّ رَضِي اللَّه عَنْه وَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ كُنْتُ أُصَلِّي لِقَوْمِي بِبَنِي سَالِمٍ وَكَانَ يَحُولُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ وَادٍ إِذَا جَاءَتِ الأَمْطَارُ فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ قِبَلَ مَسْجِدِهِمْ فَجِئْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَنْكَرْتُ بَصَرِي وَإِنَّ الْوَادِيَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمِي يَسِيلُ إِذَا جَاءَتِ الأَمْطَارُ فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ فَوَدِدْتُ أَنَّكَ تَأْتِي فَتُصَلِّي مِنْ بَيْتِي مَكَانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلًّى فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَأَفْعَلُ، فَغَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ رَضِي اللَّهم عَنْهم بَعْدَ مَا اشْتَدَّ النَّهَارُ فَاسْتَأْذَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَذِنْتُ لَهُ فَلَمْ يَجْلِسْ حَتَّى قَالَ: أَيْنَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيْتِكَ فَأَشَرْتُ لَهُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي أُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ فِيهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَبَّرَ وَصَفَفْنَا وَرَاءَهُ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ فَحَبَسْتُهُ عَلَى خَزِيرٍ يُصْنَعُ لَهُ فَسَمِعَ أَهْلُ الدَّارِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِي فَثَابَ رِجَالٌ مِنْهُمْ حَتَّى كَثُرَ الرِّجَالُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: مَا فَعَلَ مَالِكٌ لا أَرَاهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: ذَاكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا تَقُلْ ذَاكَ أَلا تَرَاهُ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، أَمَّا نَحْنُ فَوَاللَّهِ لا نَرَى وُدَّهُ وَلا حَدِيثَهُ إِلا إِلَى الْمُنَافِقِينَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ))

[متفق عليه عَنِ ابْنِ شِهَابٍ]

إنّ هذه القصة تعلمنا الشيء الكثير، تعلمك أن تضبط لسانك، و تحسن الظن بأخيك، وتلتمس له العذر، وتعينه على الشيطان، لا أن تعين الشيطان عليه، وتعلمنا الحلم، والنفَس الطويل، والستر، وتعلمنا الكلام الموزون المدروس، وأنّ الكلمة ربما أفسدت علاقة، وقطعت إنساناً عن الله عز وجل، فهذه قصةٌ تعلمنا أشياء كثيرة، وهي كما وردت في هذا الكتاب في حديث متفق عليه، ومعنى متفق عليه أي اتفق عليه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، والإمام مسلم، وأعلى درجة من الأحاديث الشريفة ما اتفق عليه الشيخان، وحينما نذكر أنه متفق عليه، وأنه حديث صحيح، وأنه رواه الشيخان، أو رواه البخاري ومسلم، أو الإمام أحمد في مسنده، أو رواه الإمام مالك، أو كذا وكذا، فإن هذه عناية في تخريج الحديث، وأخطر ما في النقل صحته، والحديث تُبنى عليه عقيدة، ويبنى عليه حكم شرعي، ويبنى عليه موقف، وعطاء، وأخذ، وقطيعة، و صلة، فإذا كان الحديث موضوعاً أو ضعيفاً بُنِيت على خطأ، وما بُنِي على خطأ فهو خطأ، لذلك أكثر مشكلات المسلمين في هذا العصر أساسها تفرقةٌ جاءتهم من أحاديث موضوعة، أو من أحاديث ضعيفة، لذلك الصحة الصحة في رواية الأحاديث.

هذا الكتاب الذي نأخذ منه الأحاديث ؛ رياض الصالحين للإمام النووي، كتابٌ أجمع العلماء على أن كل أحاديثه صحيحة، بل إنها في قمة الصحاح، إما رواية رواه البخاري، أو مسلم، أو رواه الشيخان كلاهما، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم))

[الحاكم في المستدرك عن أنس]

فإذا أخذتموه من حديث موضوع أو ضعيف كان الخطأ والخلل والانحراف، وهذا الذي دفعني إلى تقرير هذا الكتاب، فإذا اقتنى الإنسانُ هذا الكتاب وجعله في مكتبته فهو أفضل، لأن بيتًا إسلاميًّا من دون مكتبة بيت خرِبٌ، فكتاب في الحديث، وكتاب في السيرة، وآخر عن أصحاب رسول الله، وآخر في الفقه المبسط، فقد يخطر في بالك سؤال لم تعرف أن تجيب عليه وقد تستحي أن تطرحه على الآخرين، نواة مكتبة صغيرة، فاسأل من تثق بعلمه، فأيّ كتاب أفضل في الفقه الحنفي اقتَنِه، وأي كتاب في الحديث، وفي السيرة، فأحياناً تضطر أن تقرأ عن رسول الله في السيرة شيئاً، واللهِ إن الإنسان الصادق إذا قرأ عن النبي ﷺ شيئاً من سيرته، ربما نقلته السيرة إلى عصر النبي، فينسى أنه مولود في الشام، وفي عام كذا، إن أفعال النبي ومواقفه الرائعة تشدُّه إليك شدًّا، لذلك أمتع شيئاً تقرأه أن تقرأ عن النبي عليه الصلاة والسلام.

* * *

من أعدّ نفسه في بلده إعداداً قوياً قطف ثمار هذا الإعداد في الحج :

الحقيقة كنت اليوم في اجتماع متعلق بالحج فسمعت أحد الخطباء يقول: إن هذا الحاج يذهب إلى الديار المقدسة ويعود، فإن جلست تستمع إليه لا ترى من كلامه إلا أنه وصل في الليل وتيسر له الركوب، ونام في المكان الفلاني، وأكل الطعام الفلاني، وحدث معه ما حدث، وكل هذا الحديث متعلق بمجريات الأمور العادية، لكن قلّما تستمع من حاج ماذا شعر وهو يطوف حول الكعبة؟ ما حاله النفسي وهو يقبل الحجر الأسود إن تمكن؟ ما شعوره الروحي وهو يسعى بين الصفا والمروة؟ وكيف كانت أحواله وهو في عرفات؟ وكيف كان خشوعه في مزدلفة؟ وكيف كان قلبه وهو يرمي الجمار؟

إنَّ الحج الحقيقة إذا خلا من هذه الأحوال أصبح طقوساً، وما هي الطقوس؟ إنها أعمال لا معنى لها، وفي الديانات الوثنية طقوس، لكنْ نحن عندنا عبادات، والطقس هو حركة لا معنى لها، تمتمات وحركات وسكنات لا معنى لها، لكن العبادة التي شرعها الله عز وجل من خصائصها أنها معقولة، وأن هذا الحاج حينما يسعى يجب أن يسعى إلى الله عز وجل، وكذا حينما يطوف، وحينما يقف في عرفة ينبغي أن يعرف الله عز وجل، فالذهاب إلى الحج لا يحتاج إلا مجموعة شروط مادية، أن يكون اسمك في القرعة، وأن يكون دورك قريباً، وتدفع الرسم وتذهب إلى الحج، الأمر أخطر بكثير من ذلك، استعدادك في بلدك هو الذي يهيئ لك حجاً مقبولاً:

((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

الحجُّ المبرور أنْ تحج بيت الله الحرام، وقد قبِل الله هذه الحجة، وقد ورد في بعض الأحاديث الشريفة أنه:" من انصرف من عرفات ولم يغلب على يقينه أن الله قد غفر له فهو لم يحج".

فيجب أن يغلب على يقينك أن الله غفر لك، فلذلك كلما أعدَّ الإنسان نفسه في بلده إعداداً قوياً متيناً قطف ثمار هذا الإعداد في الحج ، فإذا كان قلبك مولهاً بالله عز وجل، ودخلت إلى الكعبة المشرفة ففاجأتك هيبتها، وشعرت عندئذٍ أن الله عز وجل يقول لك: تعال إلي يا عبدي، دع همومك وتعال، خلِّ عنك الدنيا وتعال، ودع مشكلاتك، وخصوماتك، ورغباتك، وكل ما في بلدك، وتعال إلي، فالحج رحلة إلى الله عز وجل، والحج أن تزور الله في بيته، والمسجد العادي كما قال عنه الله سبحانه وتعالى في بعض الأحاديث القدسية: "إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر".
فإذا ذهبت إلى بيت الله في بلدك فحقّ على الله أن يكرمك، فالإنسان يترك أهله في البيت ويأتي إلى المسجد

يقضي فيه ساعة أو ساعة ونصف، وقد يكون بيته في بلد بعيد، يحتاج إلى ساعتين أو ساعة ونصف، أيُعقَل أن الله سبحانه وتعالى تأتيه إلى بيته لتتفقه في الدين، ولتعرف أوامره ونواهيه، ولتعرف سيرة نبيه عليه الصلاة والسلام المطهرة ثم لا يكرمك!! فأحياناً الإنسان ينقذه اللهُ عز وجل بفضل حديث فهمه عن رسول الله، فلا يزهد في هذه المجالس، إنها مجالس مباركة، إن بيوتي في الأرض المساجد، تركتَ أهلك ساعتين، فحق على المزور أن يكرم الزائر، وتركت دكانك، ومسموح لك أن تفتح إلى الساعة التاسعة، والدرس ينتهي الساعة الثامنة، فأقفلت الدكان قبل ساعة، فهذه عند الله لها ثمن.

حدثني أخ قال لي: وأنا غائب عن محلي لا يوجد زبائن، فحينما آتي إلى محلي تأتي الزبائن إكراماً من الله عز وجل، ألا تريد أن يشعرك الله عز وجل أنه راضٍ عنك وعن عملك؟ فهذه بعض المشعرات. لذلك:" إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحق على المزور أن يكرم الزائر ".

فإذا طاف إنسان بالبيت، فليس من المعقول أن يكون ساهيًا، بل يجب أن يجمع قلبه على الله عز وجل، وأن يدعوه في قلبه، ويجب أن يغيب عن وجوده ووجود من حوله، وأن يستغرق في محبة الله، فإذا تركت أهلك وتحملتَ الأهوال الطائلة، وتحملت من مشاق السفر لتثبت وجودك المادي في عرفات، فأمر الله عز وجل أعظم وأجلّ من أن يتعبدك بركوب الطائرة إلى مكة المكرمة، وبالطواف حول البيت طوافاً أجوفَ، وأن تقف في عرفة لحظةً من نهار، ثم تعود إلى بيتك، لا، إنَّ أمر الله أجلّ وأعظم، لذلك ربنا عز وجل يقول:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴾

[سورة الحج : 28]

التفقه قبل الذهاب للحج :

اسأل الحاج ما المنافع الذي انتفعت بها في الحج؟ يقول لك: أحضرت مسجلة لا يوجد منها في الشام، ودخلت والحمد لله، هذه هي المنفعة؟ وربنا عز وجل قال:

﴿فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

[سورة آل عمران: 97]

ماذا يعني الأمن؟ إذا دخلت البيت الحرام فقد أصبحت آمناً، و دخلت في عفو الله، ورجعت من ذنوبك كيوم ولدتك أمك، هذا معنى أنك دخلت البيت الحرام، ومن دخله كان آمناً، فإن لم تعقد توبة نصوحًا في بيت الله عز وجل، وإن لم تعُد إنساناً آخر بتفكيرك، ومشاعرك، وعملك، واستقامتك، وبيعك، وشرائك، لم تحجَّ البيت، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال: " تفقهوا قبل أن تحجوا "، والحج سهل لكن الصعب فيه أن تكون فقيهاً، أن تذهب إلى الحج وأنت في مستوى الحج، لا أن تذهب وأنت بعيد عن هذا المستوى.

الحديث عن طواف القدوم، وعن الأشواط السبعة، وعن تقبيل الحجر الأسود، وعن الإشارة إليه، أو تقبيل اليد التي أشارت إليه، وعن استلام الركن اليماني، وعن الدعاء أثناء الطواف، وعن صلاة ركعتين، وعن التضلع من ماء زمزم، وعن الذهاب إلى الصفا، ثم السعي بين الصفا والمروة، وعن الهرولة بين الميلين الأخضرين في الأشواط الثلاثة الأولى، فهذه التفصيلات أصبحت معروفة، ولكن الذي نريد أن نضيف عليه هو أن تكون أيها الحاج الكريم في المستوى الذي أراده الله عز وجل، فهذه العبادة لما أمر اللهُ عز وجل بها وشرعها، أراد لها أن تكون على نحوٍ معيَّنٍ، وعلى شكل معيَّن، فهل كنتَ وِفق هذا النحو؟ فهذا الذي يعنينا في هذا الموضوع ؛ حول الطواف، وحول السعي بين الصفا والمروة، وفي الأيام التي تسبق اليوم الثامن من ذي الحجة، ويوم التروية.
وأيضاً في الحج هناك بعض المواعظ، ومنها هذه الثياب، فأحياناً يتمايز الإنسان على أخيه بالثياب، وبالعكس هناك مِهَن لها ثياب راقية، وهناك رتب عسكرية لها ثياب معينة، فكل إنسان له ثياب تتناسب مع مكانته الاجتماعية، ولمَّا أمرَنا ربُّنا عز وجل بخلع كل هذه الثياب دلَّ أنّ هذه الثياب لها مدلولات دنيوية، فهذا يعمل في هذا المنصب، وهذا يعمل في هذا السلك وهذه البدلة له، فحينما تخلع الثياب كلها فكأنما خلعت الدنيا معها، وحينما تخلع الثياب المخيطة وترتدي قماشاً غير مخيط، فهذا يذِّكرك بالرحلة الأخيرة، فالحجُّ إذاً رحلة قبل الأخيرة، يذكِّرك بالرحلة الأخيرة، فهل أعددتَ لهذه الرحلة الأخيرة عدَّتها؟ وحينما تأتي من بلدك إلى مكان لا تعرف فيه أحداً، وتخليت عن مكانتك وشأنك ومجتمعك وأقاربك ودنياك ومكتبك، إذاً هناك معنى ترك الدنيا، فالإنسان يصلي في بلده، لكن قد يكون مشغولاً في هذه الصلاة بغير الله عز وجل، لكنَّ الحج تفريغ إجباري لهذا الحاج ليبتعد عن كل دنياه، وعلى كل إنْ شاء الله في درس قادم نتحدث عن بعض التفصيلات في السعي بين

الصفا والمروة وفي بدء التوجه إلى عرفات.

* * *

موقف النبي حينما عُرض عليه أن يكون أغنى أغنياء قريش :

قد يسأل سائل: ما خطَّتُنا في هذه السيرة؟ والحقيقة أنّ الدرس الأول أخذنا فيه موقف النبي عليه الصلاة والسلام حينما عرض عليه أن يكون أغنى أغنياء قريش، أو أن يكون زوجاً لأجمل فتياتهم، أو أن يكون أميراً عليهم، وقال قولته الشهيرة:

((والله لو وضعوا الشمس في يميني، و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته))

[السيرة النبوية لابن هشام]

هذا الموقف معروف، ويمكن طلابنا الصغار قرؤوا هذه المقولة الشهيرة للنبي في المدارس، ولكن نحن ماذا استنبطنا منها؟ نحن نستنبط من السيرة ما يعنينا كمؤمنين، فأنت أيها المؤمن هل هناك في حياتك أشياء غير قابلة للمساومة؟ وغير قابلة للمفاوضة؟ وغير قابلة للبحث؟ هل عندك مبادئ ثابتة تضحِّي من أجلها بالغالي والرخيص والنفس والنفيس أم عندك مرونة بالغة تميل مع الأهواء حيث تميل أم عندك حاسة سادسة لمصالحك حيث تغطيها بفتاوى دائماً سألت وهكذا قالوا؟

هذا كان الدرس الأول في السيرة وفصّلنا فيه.

استقبال النبي مرضعته حليمة السعدية :

الدرس الثاني في السيرة كان حول استقبال النبي عليه الصلاة والسلام مرضعته حليمة السعدية وهو رسول الله، استقبلها واقفاً وقال: " مرحباً بأمي، وردَّ لها ثيابه، وأجلسها عليها، وأعطاها ناقةً وأربعين شاةً، وفك أسر أهلها، وأعطاهم غنائمهم" هل أنت وفيٌّ لأمك هذا الوفاء؟ هل أنت وفي لمن علَّمك هذا الوفاء؟ هل تنسى الفضل أم تجحده؟ هذا درس ثانٍ لنا، أحيانا زوج له زوجة رضيت به فقيراً، فلما اغتنى أعرض عنها واحتقرها، وبحث عن امرأة أخرى، أهكذا الوفاء؟ والنبي عليه الصلاة والسلام حينما ذكرت أمامه خديجة بكى، قال: " صدَّقتني حينما كذَّبني الناس، وقامت معي عندما قعد الناس عني، وأعطتني مالها ولم يبدلني الله خيراً منها". هذا وفاؤه للسيدة

خديجة، والدين كله وفاء؛ فهو وفاء لوالدتك، و لوالدك، ولمن علَّمك، ولشريك كان معك سابقاً وأنت مفتقر، فلما اغتنيت أبعدتَه عنك، وحينما كان الوضع ضعيفاً كنتَ راضياً به، فاسأل نفسك هل عندي وفاء كما كان وفاء النبي لأمه حليمةَ السعديةِ؟ هذا هو الدرس الثاني.

النبي رعى الغنم لتكون يده هي العليا :

والدرس الثالث ؛ النبي عليه الصلاة والسلام رعى الغنم، لتكون يده هي العليا، لقد كانت عنده عِزَّةٌ حيث لا يرضى أن يكون عالةً على أحد، ولا يرضى أن تكون يده هي السفلى، ولما أعطى الصحابي الجليل الأنصاري أخاه المهاجر قال: يا أخي دونك هذا البيت فخذه، ودونك هذا البستان فخذه، فقال عبد الرحمن بن عوف: بارك الله في مالك، ولكن دُلَّني على السوق، فالأنصاري كان في منتهى الكرم، والمهاجر كان في منتهى الإباء، فهذه دروس لنا، وما دمت شاباً قادراً على الكسب لتكُن يدك هي العليا، وما رضي النبي أن يكون عبئاً على عمه أبي طالب فرعى الغنم على قراريط – أي على دريهمات– من أجل أن يساعد عمه.
شيء آخر ؛ حينما يعمل فإنه يعلم قيمة المال وصعوبة وأخطار كسبه، فيعيش إذاً مع الناس من أجل أن يفهمهم، ويعالجهم، ويقف على مشكلاتهم، فهذا كان الدرس الثالث في السيرة.

الهدف من الاعتكاف و الخلوة مع النفس :

والدرس الرابع اليوم ؛ إن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقضي الليالي ذوات العدد في غار حراء، فانظر إلى الناس اليوم، كلهم في زحمة الأعمال، وفي حركة سريعة، نام واستيقظ وتناول طعام الصباح، ثم ذهب إلى مكتبه، وحلّ مشكلات عديدة، وفي الساعة الثانية عاد إلى البيت، وتناول الغداء، ونام وبعد الظهر يوجد عنده مكتب ومحاسبة، وعاد الساعة العاشرة فتناول العشاء ونام إلى اليوم الثاني، فهذا الإنسان مستهلَك استهلاكاً رخيصاً، ليس عنده وقت للتأمل، عمل بعمل، ومشاغل، ومواعيد، ولقاءات باستمرار، ثم يأتي الموت فجأةً وينهي هذه المشاغل، وقد يفاجأ الإنسان أنه لم يُعِد للموت عدَّته، فأَعدَّ لكل شيءٍ عدَّته إلا الموت.
فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يعتكف في غار حراء الليالي ذوات العدد، هذا اعتكاف مهم، فلابد للمؤمن من خلوة، ولكن أقول لكم كلامًا دقيقًا: لا بد من خلوةٍ جزئية، فإن كانت هذه الخلوة متصلة فهي خطيرة، والخلوة المتصلة انسحاب من الحياة، وهروب من الواقع، أما الخلوة الجزئية فضرورية، ففي زحمة الأعمال،

وزحمة القيل و القال، والأخذ والعطاء، وفي انهماك الناس في كسب المال، لابد من وقفةٍ متأنية، إلى أين المصير؟ ماذا بعد أن أحقق هذه الأرباح؟ ماذا بعد أن أشتري هذا البيت؟ ماذا بعد أن أنتهي من بناء هذا البيت الفخم في المصيف؟ ماذا بعد كل ذلك؟ بعد كل ذلك الموت، فماذا أعددت لهذا الموت؟ فهذه الوقفة المتأنية ضرورية، وكأنها مكابح الإنسان، فمن دون تأمل كأنه سيارة مندفعة نحو الأمام بلا وعي، ولكن حينما يتأمل ويخلو مع نفسه يتفكر في كل شيء، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يخلو بنفسه مع ربه في غار حراء ويقضي الليالي ذوات العدد، فأول هدف من الخلوة أن تتفكر في خلق السموات والأرض، لأنك الآن مع ربك، وأنت لا تفكر في مصلحة، ولا في كسب مال، ولا في تجارة، ولا في صفقة، ولا في زواج، ولا في تصليح آلة معقدة، و لا في شراء آلة، ولا في سفر، ولا في متعة، تفكر من أنت؟ لماذا أنا على وجه الأرض؟ مَن خلقني؟ ولماذا خلقني؟ وماذا يريد مني؟ وإلى أين المصير؟ وماذا بعد الموت؟ هذا هو التفكر، فلابد من خلوة وهذه الخلوة مكابح.

فهذه الخلوة مع ربك أول فائدة من فوائدها أنك تفكر في مصيرك، وفي القضايا الكبرى في عقيدتك، ومبادئك، والهدف الثاني لهذه الخلوة أنك تتقرب إلى الله بهذه الخلوة بذكر آلائه، ونعمه، وتسبيحه، وتمجيده، وتوحيده، ومناجاته، وبالدعاء له، وبتلاوة كتابه، وبالسجود له، فهذه الخلوة فيها جانب علمي، وجانب انفعالي، فالجانب العلمي أن تزداد معرفتك بالله ومعرفتك بنفسك، وأن تعرف لماذا أنت هنا، وماذا ينبغي أن تفعل هنا، وماذا بعد هنا، وأين كنت قبل هنا، هذا هو التأمل.

والشيء الثاني تلاوة كتاب الله، وذكر نعم الله عز وجل، والتهجد، والسجود، والدعاء، والبكاء، والتذلل، والرجاء، والاستعطاف، فهذا كله يجعلك تقترب من الله عز وجل، وكلما اقتربت منه تجلَّى على قلبك وسعدتَ. واللهِ الذي لا إله إلا هو مَن صحَّتْ خلوتُه صحّ عمله وصحّ نطقه، وشعر في اليوم التالي أنه إنسان آخر ممتلئ نورًا، وسعادة، وقوة، وتفكيرًا صحيحًا، وجرأة، وطمأنينة، وسكينة، فلذلك لا تعجز عن ركعتين قبل الشمس أكفِك النهار كله، هذه هي الخلوة.

موضوعا الخلوة الأساسيان أن تعرف الله، وأن تتصل به، فهذه هي الخلوة، فإن لم تكن في هذين الموضوعين انقلبت إلى خطر، وتصبح حلمًا ؛ يحلم ويحلم، وغداً أبيع هذه القدرة وهو جالس تحت قدرة العسل، أبيعها وأشتري أرضًا وأعمِّر بها بيتاً، وأشتري قطيعًا من الأغنام، وأتزوج، وأنجب أولادًا وأؤدِّبهم، فإذا أساؤوا فرفع عصاه فضرب القدرة فانكسرت ووقعت عليه، فإذا جلس إنسان في خلوة وكان بعيدًا عن موضوعي معرفة الله والتقرب منه يصبح حالمًا غير واقعي، ويصبح يخرف، فالخلوة أولاً لها خطران؛ أول خطر أن تكون مستمرة، فإذا استمرت فهي

هروب من الحياة، وبُعدٌ عن الواقع، والخطر الثاني أن تكون في غير هذين الموضوعين، فلتكُن جزئية ؛ كل يوم ربع ساعة صباحاً، أو نصف ساعة، أو بالشهر، أو برمضان اعتكاف، أو البعد عن المجتمعات الصاخبة إلى مكان هادئ تخلو بربك، فالخلوة الجزئية وفي موضوعي معرفة الله والاتصال به سُنةٌ نبويةٌ أمرنا بها عليه الصلاة والسلام وفعلها في غار حراء.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 09 : مقدمة عن عبادة الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الدين كله اتصال بالله عز وجل لأنك إذا اتصلت به سعدت بقربه:

أيها الأخوة المؤمنون ؛ كما تعرفون جميعاً الإسلام عقيدة، وعبادة، وتعامل، وآداب، فالعبادات ربع الإسلام، وقد أنهينا وخرجنا قبل أيام من عبادة الصوم، ودخلنا في عبادة الحج، والشيء الذي يلفت النظر أن العبادة في الأصل اتصال بالله عز وجل، وهناك مناسبة للاتصال بالله عز وجل يومياً، وهي الصلوات الخمس، وهناك عبادات تؤدَّى كل أسبوع، وهي صلاة الجمعة، وهناك عبادة تؤدَّى في كل عام وهي عبادة الصوم، وهناك عبادة تؤدى في العمر مرةً واحدة وهي عبادة الحج، فمن عبادة يومية، إلى أسبوعية، إلى سنوية، إلى مرةٍ في العمر.

أيها الأخوة الأكارم ؛ بادئ ذي بدء الصلاة من أجل الصلاة، والصيام من أجل الصلاة، والحج من أجل الصلاة، والزكاة من أجل الصلاة، والدين كله اتصال بالله عز وجل، لأنك إذا اتصلت به سعدت بقربه، ولكن لكل عبادة طعم، وبعضهم قال: إن الصلاة فيها معنى الصيام، ومعنى الحج، ومعنى الزكاة، لأنك حينما تقف في الصلاة لا يصوم فمك فقط، بل تصوم جوارحك عن أية حركة غريبة عن الصلاة، وحينما تتجه في الصلاة إلى بيت الله الحرام فهذا من معاني الحج في الصلاة، وحينما تنقطع عن العمل فهذا معنى الزكاة، لأن الوقت أصل له، وحينما تتجه إلى الله عز وجل فهذا جوهر الصلاة، والصيام من أجل الصلاة، ومن أجل أن تشعر أن الله سبحانه وتعالى راضٍ عنك، لقد تركت طعامك وشرابك من أجله، ولكن الحج أيها الأخوة عبادة مالية، فيها دفع للمال، وعبادة بدنية فيها جهد، وعبادة شعائرية فيها مناسك، وفيها طواف، وفيها سعي، ولكن قبل كل شيء إذا أُدِّيتْ هذه العبادات وأنت في بلدك، وأنت على رأس عملك، والصيام يؤَّدى وأنت في بلدك، وبين أهلك وأولادك، ومع زوجتك، ولكن الحج عبادة من نوع خاص، تحتاج إلى تفرغ تام، في الحج تدع عملك، وبيتك، وأهلك، وشأنك، ومكانتك، وأعمالك، وأشغالك، وتذهب إلى الله.. إني ذاهب إلى ربي. أنت في الحج ذاهب إلى الله عز وجل، وكل الدنيا تركتها وراء ظهرك، وما منا واحد إلا وله في بلده شأن، وعمل، وبيت، ووسائل راحته، وفي الحج يدع كل هذا في سبيل الله.

التعريفات الدقيقة للحج:

نقف قليلاً عند التعريفات الدقيقة ؛ وعند الحِكَم البليغة في الحج، وعندها ننطلق إلى بعض التفصيلات. الحج في اللغة هو: القصد، قال بعض العلماء: كثرة القصد إلى من تعظِّمه، فإذا ذهبت إلى محلك التجاري فلست حاجاً، فيجب أن تذهب إلى شيء تعظمه.

وفي الشرع: قصد الكعبة لأداء أفعال مخصوصة، في زمن مخصوص، وبفعل مخصوص.

اتخاذ الله سبحانه وتعالى بيتاً في الأرض وأمرنا أن نزوره في هذا البيت لنبتغي رضاه:

قد يسأل سائل وهذا السؤال وجيه ؟ أليس الله في كل مكان، أليس هو معنا أينما كنا ؟ فما معنى الحج ؟ الجواب: أن الله سبحانه وتعالى اتخذ بيتاً في الأرض، وأمرنا أن نزوره في هذا البيت، لا لأنه هناك، بل هو معنا في كل مكان، ولكن أنت حينما تدع بيتك، وعملك، وتذهب إليه، تشعر بأنه راض عنك، لأن بذل الجهد، وتحمل المشقة، وبذل المال لا تبتغي به لا دنيا، ولا سمعة، ولا تجارة، ولا شيئاً من هذا القبيل، بل تبتغي رضاء الله عز وجل، مع أن الله عز وجل في كل مكان، وهو معنا أينما كنا، ولكن اتخذ بيتاً حينما قال:

﴿ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ (125) ﴾

(سورة البقرة)

أُضِيف البيت إلى ذاته العظيمة، فاتخذ بيتاً، وأمرنا أن نزوره في هذا البيت.

فأنت حينما تأتي إلى المسجد، ألم يرد في الحديث القدسي:

((إن بيوتي في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني، وحقّ على المزور أن يكرم الزائر))

فالمسجد مكان عبادة، والحرم وما حوله كله مكان عبادة، قال تعالى:

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ (37) ﴾

(سورة إبراهيم)

هذا المكان كله، مكة، وعرفات، ومنى، والمسعى، والمطاف، وما حول الحرم، هذا كله من أجل أن يقيموا الصلاة.

﴿ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ (37) ﴾

(سورة إبراهيم)

الحج رحلة إلى الله قبل أن تغادر الدنيا مغادرة لا عودة فيها:

إذاً يجب أن نضع في أذهاننا أن الحج رحلة إلى الله، وقد جُعلت في العمر مرة لأنها الرحلة قبل الأخيرة، الرحلة الأخيرة إلى الدار الآخرة، فهذه رحلة إلى الله قبل أن تغادر الدنيا مغادرة لا عودة فيها.

إذاً هو أداء أفعال مخصوصة، في أماكن مخصوصة، في زمن مخصوص.

فالحج في أصح الأقوال فُرض في العام التاسع للهجرة، حينما أنزل الله عز وجل في القرآن الكريم:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾

(سورة آل عمران)

فما علاقة الكفر هنا في هذه الآية ؟ قال بعضهم: من أنكر فرضيته فقد كفر، ومن أهمل أداء هذا الواجب فقد فسق. ومن كفر فإن الله غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ..

العمرة زيارة طوعية والحج دعوة من الله عز وجل:

العمرة تصح في كل الأوقات، ومعنى العمرة أنك تزور بيت الله الحرام، ومعنى الحج أن الله دعاك إلى بيته، وأنت في الحج تلبي دعوة، وفي العمرة تزور مبتدراً . بمبادرة منك ..

العمرة تؤدَّى في أي وقت من أوقات السنة، إذاً هي زيارة إلى بيت الله الحرام، أما الحج فدعوة من الله عز وجل، لأنّ الله عز وجل يدعوك إليه، ولهذا فكلمات الحاج في كل مكان، وفي كل موقف، وعند كل تحول، وحينما يصعد شرفاً، أو يهبط وادياً، أو يدخل بيتاً يلبي:

((لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك))

لبيك يا رب، وها أنا قد أتيتك متذللاً، ومحباً، ومشتاقاً.

العمرة إذاً زيارة طوعية، فأنت فيها تبادر إلى زيارة بيت الله الحرام، ولكن الحج في أصح الأقوال دعوة من الله عز وجل.

الاستطاعة ثلاثة أنواع ؛ بدنية ومالية وأمنية:

الحج كما تعلمون هو الركن الخامس من أركان الإسلام، فرضه الله على المستطيع والاستطاعة ثلاثة أنواع ؛ بدنية، ومالية، وأمنية، واستطاعة رابعة خاصة بالمرأة أن يكون لها مَحرَماً، فمن لم تجد محرماً فلا حج عليها، لأنها ليست مستطيعة.

وعند الرجال ثلاثة أنواع من الاستطاعات، فلو أن الطريق غير آمن فلست مستطيعاً، ولو أنك مُنِعتَ من أن تحج فلست مستطيعاً، ولو أنك لا تملك المال الكافي فلست مستطيعاً.

ولا يجوز أن تملك أجرة الوصول إلى مكة، وأن تتكفف الناس هناك، فليس الحج واجباً على الفقراء، إنه قد فُرض على الأغنياء المستطيعين، فأنْ تنام في الطرقات، وأن تشوه سمعة المسلمين، وأن تكون في مظهر لا يليق بالمسلم، فأنت لست مستطيعاً إلا أن تملك أجرة المبيت في بيت يؤويك.

إذاً الاستطاعة ثلاثة أنواع ؛ بدنية، ومالية، وأمنية، بأن يكون الطريق إلى الحج سالكاً.

الإيمان بالله و رسوله أعظم عمل على الإطلاق:

ثمّة شيء آخر ؛ قال بعض العلماء:

((الحج أفضل العبادات لاشتماله على عبادة إنفاق المال، وعلى عبادة شعائرية، وعلى عبادة التفرغ، فيه معنى الصيام، ومعنى الصلاة، ومعنى الاعتكاف، ومعنى الزكاة، ومعنى المرابطة في سبيل الله، ومعنى الغزو، ومعنى تلبية الدعوة، فكل هذه المعاني مجموعة في الحج))

ولكن عند بعض العلماء أن الصلاة هي أفضل الأعمال لأنها عماد الدين كما قال عليه الصلاة والسلام، على كلٍ هذه قضية خلافية.

والنبي عليه الصلاة والسلام سئل أي الأعمال أفضل: قال: إيمان بالله وبرسوله.

هذا أعظم عمل، لأن الإيمان أساس الفضائل، ولجام الرذائل، وقوام الضمائر، وأساس العزائم، والنجاة، والاستنارة، والفلاح، والنجاح، والتفوق، والفوز، وأساس السلامة و السعادة، لما قيل للنبي عليه الصلاة والسلام:

((أي الأعمال أفضل قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: ثم الجهاد في سبيل الله))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

أنواع الجهاد:

والجهاد كما تعلمون على أنواع كثيرة، فيمكن أن تجاهد نفسك وهواك، ويمكن أن تجاهد في طلب العلم، وفي تعليم العلم، قال تعالى:

﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (52) ﴾

(سورة الفرقان)

ويمكن أن تجاهد العدو، فالجهاد جهاد العدو، وجهاد النفس والهوى، وجهاد طلب العلم، وتعليم العلم، وهذا أيضاً يحتاج إلى جهد، ووقت، وصبر.

((قيل: ثم ماذا، قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا ؟ قال: حج مبرور))

[متفق عليه عن أبي هريرة]

ومعنى مبرور أي حج مقبول، وكيف يُقبل ؟ أي لا يكون فيه إثم.

وفي حديث آخر:

((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

والمبرور كما قيل: المقبول.

الاختلاف في الأحاديث الشريفة يعود إلى حال المخاطب:

لكن هناك علماء قالوا: كيف أن النبي ﷺ فضل مرة الحج، ومرة الصلاة، ومرةً الجهاد، ومرةً إنفاق المال ؟ قالوا: هذا الاختلاف فيما يبدو لنا أساسه أن النبي عليه الصلاة والسلام نظر إلى حال المخاطب، فإذا كان المخاطب غنياً نقول له: أفضل عمل تفعله أن تنفق من مالك، وإذا كان المُخاطَب قوياً شجاعاً، وهناك عدوٌّ متربصٌ، نقول له: أفضل عمل أن تجاهد العدو، وإذا رأى رجلاً مغرماً بطلب العلم وتعليم العلم، فطلب العلم وتعليمه من أفضل الأعمال لهذا الرجل، إذاً إذا رأيت في الأحاديث الشريفة اختلافاً فهذا يعود إلى حال المخاطب. والنبي الكريم قال له أحدهم: عظني، فقال له: لا تغضب، ويبدو أنه رآه غضوباً، وقال لآخر: قل آمنت بالله ثم استقم، وقال لثالث: فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، فاختلاف الموضوع أساسه

اختلاف المُخاطب.

فوائد الحج:

على كلٍّ: فالحج له فوائد كثيرة، وهذه قاعدة، لأنّ أمر الله عز وجل لا يمكن أن يُحدَّ بفائدة واحدة، وأمر الله عز وجل لا نهاية لحكمه، ولا نهاية لثمرته اليانعة، فإذا تحدثنا عن الحج فعن بعض فوائده الشخصية. والحج يحقق للمؤمن نقلة نوعية، فلو ذهب إلى الحج رجل له مخالفات قبل أن يحج، فأغلب الظن أنه بهذا الحج يتوب من هذه المخالفات، ويقبل الله توبته، فينقل هذا الإنسان من المعصية إلى التوبة.

فلو أن الحاج مسلم صحّ إسلامه، ولكن عندما يدخل الإيمان في قلبه، فالحج لهذا الإنسان ينقله من مرتبة الإسلام إلى مرتبة الإيمان، ولو أن الحاج مؤمن، فلعله ينتقل بالحج إلى مرتبة التقوى والإحسان، ولو أن الحاج متّقٍ، فلعله ينتقل إلى مرتبة الصديقية، فهناك نقلة نوعية كبيرة ، لأنها أيام طويلة ومديدة يقضيها الحاج في رحاب بيت الله الحرام حول الكعبة، وفي المسعى، وفي منى، وفي عرفات، فتارة يصلي، وتارة يطوف، وتارة يسعى، وتارة يدعو، وتارة يبتهل، وتارة يذكر، وتارة يتلو القرآن، وتارة يتصدق، وتارة يقدم الهدي، فهناك أنواع منوعة، وأفعال كثيرة، وأوقات مديدة، فلذلك الحج يحقق نقلة نوعية للمؤمن.

وبصراحة من ذهب إلى الحج وعاد منه كما ذهب فإنّ الله غني عن عبادة شكلية، وماذا يستفيد الله من ترك بيوتنا وأموالنا وأولادنا، والذهاب إلى مكان بعيد، حيث الحر الشديد والازدحام، وإنفاق الأموال، من دون أن تشعر بهذه الصلة بالله عز وجل ؟ فمن وقف في عرفات ولم يتيقن أن الله قد غفر له فلا حج له، فإلى أين أنت ذاهب ؟ أنت ذاهب إلى الله عز وجل، أفيُعَقل أن الله عز وجل لا يقبلك، وقد دعاك ؟ لا، سيتجلى عليك، سيسعدك، وقد سمح لك أن تأتي إلى بيته العظيم.

الحاج ينتقل بالحج نقلة نوعية من المعصية إلى الطاعة ومن الإسلام إلى الإيمان:

((الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

[متفق عليه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

هذه نقطة مهمة، فمن جمعة إلى جمعة، ومن صيام إلى صيام، ومن عمرة إلى عمرة ومن حج إلى حج. إنّ الإنسان أحياناً تدركه غفلة قليلة، ويدركه تقصير، فتأتي الصلاة فتمحو هذا التقصير، وتأتي صلاة الجمعة

فيُشحن الإنسان شحنة عاطفية وعقلية، ويُدفَع مرةً ثانية إلى الله ورسوله، فحضور خطبة الجمعة شحنة يشحن بها المؤمن، ومجيء رمضان شحنة أخرى يُشحن بها المؤمن، وهي قفزة، وحركة جديدة، وتطور نوعي، والحج كذلك. فالفوائد الشخصية أولاً: أن الحاج ينتقل بالحج نقلة نوعية، من مرتبة إلى مرتبة، و من المعصية إلى الطاعة، ومن الإسلام إلى الإيمان، ومن الإيمان إلى الإحسان، ومن الإحسان إلى الفناء.

فلابدّ أن تنتقل بهذه النقلة النوعية في الحج.

دعوة الله عز وجل الناس الذين لم يحجوا أن يعينوا الحاج على أداء حجه:

وهناك حديث آخر:

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]

وفي حديث آخر:

((الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ وَفْدُ اللَّهِ إِنْ دَعَوْهُ أَجَابَهُمْ وَإِنْ اسْتَغْفَرُوهُ غَفَرَ لَهُمْ، وقال أيضاً – وفي هذا الحديث لفتة دقيقة جداً – يُغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج))

[رواه البيهقي في شعب الإيمان ابن ماجه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

ما هذه اللفتة، الحاج مغفور له، ولكن أي إنسان استغفر الحاجُ له فهذا الإنسان يُغفر له، لماذا ؟ كأن الله عز وجل يدعونا جميعاً إلى خدمة الحاج، فإذا جهَّزنا الحاج، وسهلنا أموره، وأعنّاه على حجه بالكلمة الطيبة، والخدمة الصادقة، والمعونة البالغة، فإذا سُر هذا الحاج من خدمتنا، واستغفر لنا، غفر الله لنا، فهذه دعوة لجميع الناس، ولجميع الحجاج، لأنه لو فرضنا أن هذا الحاج اضطر لأن يذهب إلى الحج وقال لك: أوصيك بولدي خيراً، فلو أن أمَّاً طلبت منها ابنتها أن تحج مع زوجها، وأن تدع ابنها عندها، فلو أنها قبلت واستغفرت لها ابنتها لغفر الله لها ولابنتها، فهذه إشارة لطيفة في أن دعوة الله عز وجل لهؤلاء الناس الذين لم يحجوا أن يعينوا الحاج على أداء حجه.

الحج لا يكفِّر إلا ما كان بينك وبين الله فقط:

ولكن هناك وقفة لابد أن أقفها ؛ فقد يتوهم بعض الناس أن الإنسان إذا ذهب إلى الحج كأن ذنوبه موضوعة في وعاء، وقد أفرغ هذا الوعاء في الحج وعاد بلا ذنوب.

أيها الأخوة الأكارم ؛ الذنوب المتعلقة بالعباد لا تُغفر، ولو بمليون حجة ؛ فاغتصاب الأموال، وأكل الحقوق، واغتصاب بيت، ومحل، وحقوق أخوته الصغار، وكان الأخ الأكبر فيهم، وقد أكل أموال أخوته من ميراثهم، وذهب إلى الحج فلعل الله يغفر له !! هذا هو الجهل بعينه، فقد أجمع العلماء على أن الحج لا يكفِّر إلا ما كان بينك وبين الله فقط.

هناك صحابي جليل خاض مع النبي معارك ضارية، وبذل هذا الصحابي حياته على كفه في سبيل الله، ومع كل هذا إذا مات هذا الصحابي يسأل النبي عليه الصلاة والسلام أعليه دين ؟

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِيَ بِرَجُلٍ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَلُّوا عَلَى صَاحِبِكُمْ فَإِنَّ عَلَيْهِ دَيْنًا، قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: هُوَ عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِالْوَفَاءِ ؟ قَالَ: بِالْوَفَاءِ، فَصَلَّى عَلَيْهِ))

[الترمذي عَنْ أَبِي قَتَادَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

حديث آخر:

((يُغْفَرُ لِلشَّهِيدِ كُلُّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ)).

[مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

فهل من عمل أعظم من أن تقدم حياتك في سبيل الله ؟ ومع ذلك الدين لا يُغفر للشهيد دَيْنُه.

إذاً فهذا الذي يتوهم أن الإنسان إذا أدى الحج غفر الله جميع ذنوبه، هذا إنسان واهم ، والمقصود بالذنوب في قوله: "رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه"، الذنوب التي بينك وبين الله، أما التي بينك وبين العباد، فكما تعلمون حقوق العباد مبنية على المشاححة، بينما حقوق الله عز وجل مبنية على المسامحة، لذلك قال بعض العارفين:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد حجة الإسلام))

الحج عمليةُ صُلح مع الله و إعلان العبودية له و شكرِه على نعمتي الغنى و الاستطاعة:

فما معنى حجة الإسلام ؟ هي حجة الفرض، فترك دانق من حرام، والدانق سدس الدرهم، والدرهم افترضه ليرة سورية، فسدسه عشرون قرشاً، فترك هذا المبلغ اليسير من حرام أفضل من ثمانين حجة تؤديها. والشيء الثاني هو أن الحج يطهِّر النفس مما علق بها من أدران الدنيا، ويصفيها، ويقربها من ربها، ويجعلها مستنيرة، وأن الوقوف بعرفة من معانيه أن تعرف الله عز وجل، لأن الحج من معانيه أن تقيم الحجة بنفسك، فأنت في مناسبة تقترب بها من الله عز وجل، فإذا اقتربت منه ألقى في قلبك نوراً، والله عز وجل مسعد إذا اقتربت منه، فاملأ قلبك سعادة، و هو الغني، فإذا اقتربت منه ملأ قلبك غنى، والإحساس بالصفاء، والغنى، والطمأنينة، هذه كلها مشاعر الحجاج.

فبشكل أو بآخر الحج عمليةُ صلح مع الله، ومع الصلح فتح صفحة جديدة، وبالضبط هذا المثل، هناك دفتر حسابات، من، وإلى، وذمم، وديون، وحسابات معقدة، فحينما يحج العبد إلى ربه عز وجل، كل هذه الصفحات تطوى، وتُفتح صفحة جديدة مع الله عز وجل.

فكل إنسان أراد الحج فهو يبحث عن علاقة جديدة مع الله، وعن صفحة جديدة تُفتح في علاقته مع الله عز وجل.

شيء آخر في الحج، وهو أنّ الحج نوع من أنواع الشكر، فالشكر على أية نعمة ؟ على نعمتين ؛ أليس الحج بذل جهد بدني ومالي؟ فإذا ذهبت إلى الحج فقد شكرت الله على نعمة الغنى، ونعمة الاستطاعة، وعلى نعمة القوة التي متعك الله بها.

من معاني الحج إظهار العبودية لله عز وجل، تعال إليّ.. لبيك اللهم لبيك، واخلع عنك الثياب، وارتدِ هذه الثياب غير المخيطة.. لبيك اللهم لبيك، إياك أن تتطيب.. لبيك اللهم لبيك، إياك أن تتكلم كلمة، لا فسوق، ولا جدال.. لبيك اللهم لبيك، فهو عملية خضوع تام لله عز وجل، وهذا نوع من أنواع إعلان العبودية لله عز وجل.

أهداف الحج الفردي و الجماعي:

فكل إنسان له مستوى في معرفة الله عز وجل، وهناك إنسان معرفته بالله تجعله مع الله في أكثر أوقاته، وهناك إنسان معرفته بالله تجعله مع الله من حين إلى آخر، وهناك إنسان معرفته بالله تسعده بمراقبة الله له دائماً، فكل مستوى من هذه المستويات يمكن أن ترقى منه إلى مستوى أعلى في الحج، وهذه بعض الأغراض الشخصية في الحج، وأما الجماعية فالله عز وجل قال:

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (28) ﴾

(سورة الحج)

هنالك يلتقي المسلمون مِن شتى أقطارهم، فيتعارفون، وقد يلتقون بعلمائهم، وزعماؤهم، وقد يتباحثون، فهو مؤتمر سنوي لجميع المسلمين في الحج، وقد تُنشر الدعوة إلى الله في الحج، وهذا له عمل علمي أطلع عليه زملاءه في الحج، وهذا له فكر نيّر، وهذا له دعوة، فهذا التبادل بين الحجاج، تبادل الخبرات، والمعلومات، واللقاءات، والتعارف، هذا كله من أهداف الحج الجماعي.

الحجاج جميعاً سواسية أمام مناسك الحج:

وشيء آخر يوحي أن الحج فيه مساواة ثانية، أولاً: الإنسان في الحج يخلع الدنيا كلها، وأحد مظاهر الدنيا اللباس، فيُقَيَّم مستوى الإنسان المالي من مستوى ثيابه، واللباس مستويات، فيمكنك أنْ ترتدي بذلة ثمنها يقدر بثمانمئة ليرة، أو بثلاثة آلاف، أو بخمسين ألفاً.

فحينما أمرنا أن ننزع ثيابنا كلها، معنى ذلك أن هناك مساواة، وكأن الحج يذكِّرنا بيوم الحشر، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ (94) ﴾.

(سورة الأنعام)

والحج كذلك.. النواحي الاجتماعية أبلغ درجات السواسية، والآن في المسجد يوجد مساواة، فترى الإنسان الغني والفقير، والخطير وغير الخطير، والقوي والضعيف، يقفون في صف واحد، ليس هناك أماكن خاصة لفئات معينة، وليس في المسجد مكان درجة أولى ودرجة ثانية، إنّ بيت الله عز وجل للجميع، ولكن يمكن أن ترتدي ثياباً في المسجد أغلى ثمناً، وأكثر أناقة، لكن في الحج جميع الحجاج سواسية أمام مناسك الحج.

الحج مرة واحدة ومن كان صحيح البدن ميسور الدخل عليه أن يحج كل خمسة أعوام:

هناك شيء آخر في موضوع الحج، أولاً: الحج في العمر مرة واحدة، والدليل أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ فَحُجُّوا، فَقَالَ رَجُلٌ: أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ لَوَجَبَتْ وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ، ثُمَّ قَالَ: ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا

نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ))

[مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

إذاً الحج مرةً واحدة، ولكن ورد في بعض الأحاديث القدسية التي رواها البيهقي وابن حبان أن الله عز وجل يقول:

((إن عبداً أصححت له جسمه . جسمه قوي ،. ووسعت عليه في المعيشة . دخله كبير. تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إلي لمحروم))

[الجامع الصغير بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري]

معنى ذلك أنّ الحج يتجدّد، والذي حج مرة أو مرتين، كل حجة تشعرك أن هذه الحجة في مستوى أكبر من المستوى السابق.

والحج مراتب كثيرة، فالذي حج مرةً للفرض، يمكن أن يحج كل خمسة أعوام إذا كان صحيح البدن، ميسور الدخل.

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الْفَقْرَ وَالذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَيْسَ لِلْحَجَّةِ الْمَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ))

[الترمذي عن عبد الله بن مسعود]

لكن الحج مرة ثانية قد يكون واجباً، فلو أنّ شخصاً قال: إنْ رزقني الله ولداً لأحجَّنَّ بيت الله الحرام، وقد حجَّ سابقاً، فقد صار الآن نذراً، والفرض مرةً واحدة، وصار هذا الحج في حقك واجباً، ويحرم الحج بمال حرام ؛ لأن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً.

يُكرِه الحج بلا إذن ممن يجب استئذانه:

ويُكره الحج بلا إذن ممن يجب استئذانه، كأحد أبويه المحتاج إليه، رجل له أب محتاج إليه، أو له أم محتاجة إليه، لا يُقبل حجه إلا أن يستأذن أمه أو أباه، أو كلاهما، وهذا من باب الكراهة، وعند بعض المذاهب من باب الكراهة التحريمية، فيكره تحريماً أن تحج بيت الله الحرام دون أن تستأذن ممن له حق عليك.

يُكره كراهة تحريمية أن تحج دون أن تستأذن غريمك، عليك دين لشخص، وقد رآك تذهب إلى الحج، وعليك خمسين ألف ليرة ديناً، فإنّ صاحب الدَّين يتألم ؛ فقبل أن تحج البيت أدِّ ما عليك، أو أنْ تستأذنه فيأذن لك.

والعمرة كما قال بعض العلماء: يمكن أن تتكرر في العام الواحد مرات عديدة، والعمرة عند بعضهم واجبة، كوجوب الحج، لقوله تعالى:

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ (196) ﴾

(سورة البقرة)

***

موضوع القِبلة:

استقبال القبلة أحد شروط الصلاة و يمكن للإنسان أن يميل عنها بحالات خاصة جداً:

هناك موضوع قصير، أريد أن أبحثه معكم، لأنه بلغني قبل أيام أن أحد الأخوة الكرام قال: القبلة مائلة، وفي هذا تشويش على المصلين، فأردت أن أعرض عليكم موضوع القبلة بشكل دقيق ؛ لأن الفقه قوام الدين. أولاً: حينما قال الله عز وجل:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ (150) ﴾

(سورة البقرة)

شيء بديهي ومعروف عندكم ؛ أحد شروط الصلاة استقبال القبلة، ولكن القبلة نقطة أم خط ؟ فهل يجب أن نتجه إلى عين الكعبة أم إلى خطٍ يمر بالكعبة ؟ وهل القبلة جهة أم نقطة ؟ استمعوا إلى رأي العلماء:

أولاً: في حال الخوف الشديد يمكن ألاّ تتجه إلى القبلة ؛ لأن قبلة الخائف جهة أمنه، في حال المرض الشديد يمكن ألاّ تتجه إلى القبلة ؛ لأن قبلة المريض جهة راحته، وفي حال صلاة النافلة على الدابة يمكن ألاّ تتجه إلى القبلة ؛ لأن قبلة المسافر جهة دابته.

فقبلة المريض جهة راحته، وقبلة الخائف جهة أمنه، وقبلة المسافر جهة دابته ، يمكن أن تصلي صلاة نافلة على الدابة، أو السيارة – هي دابة اليوم – أو الطائرة متجهة نحو الشمال، ويمكن أن تخاف من عدو أو من سبع فتتجه نحو الشرق وأنت تصلي، ويمكن أن تتجه نحو الغرب إذا كنت مريضاً وترتاح بهذه الطريقة.. على كل هذه أعذار أما إذا انتفت الأعذار فالقبلة يجب أن تتجه إلى بيت الله الحرام، لهذه الآية التي هي أصل في القبلة.

أيُّ خط اتجه نحو الجنوب فهو نحو القبلة في المذاهب الثلاثة:

لكن هناك حالات خاصة، لمن هم في مكة المكرمة، إذا دخلت إلى بيت الله الحرام، ورأيت الكعبة رأي العين، فالقبلة يجب أن تكون عين الكعبة، وأن تتجه إلى الكعبة بعينها، والعلماء يقولون: وسكان مكة المكرمة يجب أن يتجهوا إلى عين الكعبة، لا إلى جهتها في صلاتهم. فمن دخل إلى بيت الله الحرام أو من كان مقيماً في مكة المكرمة، فالقبلة ليست جهة الكعبة، بل عين الكعبة، وما سوى ذلك فالأحناف، والحنابلة، والمالكية، يعتبرون القبلة هي جهة وليست نقطة، و يعتمدون في هذا على قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

فالقبلة هي الجهة، فإذا اتجه المسجد نحو الجنوب فهو وفق القبلة الصحيحة، أما أن تطالب أن يتجه المصلي إلى درجات من الزاوية . سبع وثلاثين درجة وربع . فقد جعلت القبلة نقطة، وهذا خلاف الأحناف، والمالكية، والحنابلة، ولكن هناك نقطة في هذا الموضوع الإنسان دائماً حينما ينسى جوهر الصلاة، ويتعلق بخلافيات، وبأشياء صغيرة جداً، ويلقي على الناس كلاماً من دون تحقق، ومن دون دقة، فقد يوقع التشويش بينهم، وهذا ليس من الحكمة في شيء، فلذلك المذاهب الثلاثة تجعل القبلة جهة الشرق والغرب معاً، فهي خط يبدأ من المشرق وينتهي من المغرب ويمر بالكعبة، فإذاً أيُّ خط اتجه نحو الجنوب فهو نحو القبلة.

ولو أردنا هذه الدقة التي يقولها بعض الناس لم تصحَّ صلاة الصف المستقيم، أليس كذلك ؟ ولو كان الصف طويلاً يجب أن يتجه من على اليمين نحو الوسط، ومن على اليسار نحو الوسط، فصار الصف منحنياً، وهذا ليس وارداً في الصلاة إطلاقاً، فالصف يجب أن يكون مستوياً، ألا تسمعون الإمام يقول:

((سووا صفوفكم فإن تسوية الصفوف من إقامة الصلاة))

إذاً هذا التشويش درجتان ؛ درجة ونصف، درجة وربع، ونقول: نحن في المذاهب الثلاثة الاتجاه إلى جهة الجنوب هي القبلة الصحيحة.

لكن مذهب الشافعية يرى أن الاتجاه نحو عين الكعبة، وهذا المذهب يوجب الدرجات، وحساب الجنوب الحقيقي والجغرافي، وهذا كله لسنا بحاجة إليه.

الاجتهاد في تحرِّي القبلة في المدر:

هناك شيء آخر ؛ يجب الاجتهاد في تحرِّي القبلة، أفي الحضر أم في المدر ؟ هل في الحضر اجتهاد ؟ لا، المدينة كلها مساجد، فادخل إلى أي مسجد ترى المحراب نحو القبلة، فلا يوجد اجتهاد في الحضر، أما إذا كنت مسافراً، وكنت في أرض فلاة، فعندئذ يجب عليك أن تجتهد في تحري القبلة، ويمكن أن تحمل بوصلة أو أجهزة تعطيك القبلة بحسب الشمال بالدرجة، أو بحسب الشمس، أو بحسب القمر، فيمكن أن تهتدي بالشرق والغرب، أو تهتدي بنجم القطب، أو باتجاه الرياح، وأضعف الأدلة اتجاه الرياح، وأقواها نجم القطب.

من لم يتحرَّ القبلة فصلاته غير مقبولة ولو أصاب أما إذا علم أنه قد أصاب فصلاته مقبولة:

انظروا إلى الدِّين ما أعظمه، فلو اجتهدت في تحري القبلة، وصليت الصلوات كلها، وبعد أن انتهيت من الصلاة تبين لك أن اجتهادك غير صحيح فالصلاة مقبولة، وليس عليك أن تعيدها.. هذا الدين ؛ لأن أصحاب رسول الله، صلوا مرةً واجتهد كل واحد منهم في القبلة، واختلفوا في اجتهادهم، فلما عادوا إلى النبي قصوا عليه ما حدث فنزل الوحي بهذا:

﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115) ﴾

(سورة البقرة)

فيمكن أن تصلي نحو الشمال على أنه الجنوب، والصلاة مقبولة وليس عليك أن تعيدها، إذاً هل يُعقل أن نشوش على الناس إذا كان الفرق درجة، أو نصف درجة، ذكرت لكم هذه الأحكام كي لا نسمح لإنسان أن يشوش صلاتنا، أو نغير اتجاهنا.

وهناك تعنت، وإلقاء كلام غير مسؤول.. والذي يقول هذا الكلام ليس فقيهاً في الأصل، ولو عرف المذاهب الأربعة وأدلتها، فالنبي الكريم يقول:

((مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ قِبْلَةٌ))

[الترمذي عن أبي هريرة]

إذاً القبلة جهة وليست نقطة، وكل مسجد متجه نحو الجنوب فقبلته صحيحة، أما إذا أردت أن تتبع مذهباً واحداً، وهو مذهب الشافعي تحتاج إلى مشقة بالغة في تحري جهة المصلي وهي نقطة عين الكعبة.

فأنت مسلم، واللهُ أمرك أن تجتهد، تجتهد بالساعة، أو بالشمس، أو بالقمر، أو تسأل إنساناً، ولكن: لا سألت ولا اجتهدت فهذا اسمه إهمال، ولذلك من لم يتحرَّ القبلة فصلاته غير مقبولة ولو أصاب، أما إذا علم أنه قد أصاب، فقال العلماء: إن صلاته مقبولة.

ومن اجتهد في الحضر أيضاً فصلاته غير مقبولة، لأنّ الحضر لا اجتهاد فيه والحضر كله مساجد، وكلهم يقيمون، ويصلون.

القرآن يبعث في القلب الطمأنينة و الراحة:

رجل قال كلمة أحببتها، قال: القرآن يبعث في القلب الطمأنينة، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، والسنة تنوِّر الوجه، والدليل:

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))

[الترمذي عن عبد الله بن مسعود]

فإذا سمع الإنسان من رسول الله حديثاً، أو قرأه، وبلغه للناس فهذا ينير الوجه.

والفقه يوسع الأفق، فلما يضيّق الإنسان عليك الأمر تضييقاً شديداً فهذا ليس فقيهاً لأنّ الفقه فيه اتساع، وفيه يسر، وفيه اختلاف رحمة ، لا اختلاف تناقض، فالإنسان إذا عرف الحكم الفقهي، وعرف أدلة الفقهاء، يشعر أنه في بحبوحة، وأن الإسلام يسر، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا وَبَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا))

[البخاري عن أنس]

((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا فَإِنَّهُ لَا يُدْخِلُ أَحَدًا الْجَنَّةَ عَمَلُهُ قَالُوا وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ]

والحمد لله رب العالمين

الدرس 10 : آداب السفر وأحكامه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً ، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه ، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه ، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه ، وأَدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين .

الحج رِحْلةٌ إلى الله تعالى :

أيها الأخوة المؤمنون ؛ مع اللقاء الأول من لقاءات توضيح مناسك الحج إن شاء الله تعالى .

بادىء ذي بدْء الحجّ رِحْلةٌ إلى الله تعالى ، وله طبيعةٌ خاصَّة ، فإذا لم يتفَقَّه الحاجُّ في مَقاصد الحج العُلْيا ، وما لم يتعرَّف إلى أحْكام الحجّ الأساسيّة ؛ ربما كان حجُّهُ باطِلاً ، تَصَوَّروا طالباً ذهب إلى بلد غرْبي ، وفي هذا البلد ملاه ودُوَر لَهْو ومكتبات وحدائق ، إنه ما لم يكُنْ واضِحاً في ذِهْن هذا الطالب أنَّ مُهِمَّتَهُ الأخيرة والأولى هي الدِّراسة قد لا ينجح ولا يُحَقِّقُ هدفهُ الكبير ، فأكبر خطأ يُمْكن أن يقع فيه الحاجّ أن ينسى أنَّهُ حاج ، وينقلب من حاجٍّ إلى سائِح ، ومن حاج إلى مُسافر ، فالذي يحْصل أنَّ الحاج ينتقل إلى بلادٍ لا يعْرفها ، فتُبْهِرُهُ الطرقات والجُسور والمحلات والعمارات ، ويُراقب في المطار المُعاملة ، فَيَعود لِيُحَدِّثَكَ ساعةً من الزَّمَن عن مُشاهداته ، والشيء الذي ذَهَبَ من أجله ليس في مُسْتواه إطْلاقاً .

فحَجُّ الفريضة ، وحجَّةُ العُمْر رِحْلةٌ إلى الله عز وجل ، فما لم يكن الهَدَفُ الكبيُر واضِحاً جليًّا في ذِهْن الحاج ، والمقْصد الأسْمى من هذه العبادة ومن هذه الرِّحْلة الله عز وجل ، ربما لم يكن حجُّهُ في المُسْتوى المطلوب ، لأنَّكم تعلمون أيها الأخوة أنَّ العبادات مُعَلَّلَة بِمَصالِحِ العِباد . مثلاً قوله تعالى :

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

[سورة العنكبوت : 45]

هذه هي عِلَّتُها ، وهذا هو هدفها ، فَمَن صلى ولم تنْهَهُ صلاته عن الفحْشاء والمنكر لم يزْدد من الله تعالى إلا بُعْداً ، فقد تعَطَّلَتْ الغاية الكُبْرى من الصلاة ، والصيام من لم يدع فيه قوْل الزور والعمل به ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ، قال تعالى :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

[سورة التوبة : 80]

قال تعالى :

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾

[سورة التوبة : 53]

هذه الزكاة فقَدَتْ قيمتها وحِكْمتها ، والحجّ كذلك . ففي الحجّ لا رفث ولا فسوق ، فهذه الرِّحْلة تُكَلِّفُكَ عَشَرات الأُلوف ، وتُبْعِدُكَ عن أهْلك وأُسْرَتِك عَشَرات الأيام ، وتجْعلك تتجَشَّمُ آلاف المصاعب ، ثمَّ لا تُقْبل ! واللهِ هذه مُشْكلة ، لذلك الذي رأيْناهُ في الحجّ مِن انْحرافات فاحِشَة وخطيرة ، وتطاوُلٍ باللِّسان على عِباد الله ، ولَغْوٍ في الحديث ، وانْغِماسٍ في اللَّهْو والشراب ؛ من الطُّرَف التي تُرْوى أنَّ مجلَّةً مِصْريَّة رسَمَتْ حاجاً عاد إلى بلاده وهو مُحَمَّل بالأغْراض ؛ عَشَرات بل المئات من الكيلوغرامات ؛ هدايا وأجْهزة كهْربائِيَّة ، وفجْأةً ضَرَبَ جبْهَتَهُ وقال : الله ! لقد نسيتُ أن أحُجَّ !! فإذا ذهب الإنسان كسَائِح ونَسِيَ أن يحُجّ ، يا تُرى بالطواف أَيُعْقل أن يقول الله لك : تعال يا عبْدي من بلدك البعيد من أجْل أن تطوف حوْل الكعْبة وأنت ساهٍ لاهٍ ؟ أَيُعقَل هذا ! هل يُعْقل أن يأمرك الله أن تأتي بيته الحرام والكعْبة والوُقوف بِعَرَفات ثمَّ يكون حديثك بها عن أُمورٍ لا علاقة لها بالعبادة إطلاقاً ؟ وهل يُعْقل أن تزور مئة حاجّ ولا تسْمع منهم إلا ما أكلوه في عرفات ومع من الْتَقَوا والمشاهد التي أعْجَبَتْهم والنِّظام في المملكة؟ فالله عز وجل غَنِيٌّ عن عبادة في مظْهرها تواجد جِسْمي ، وإنّ الله غنِيٌّ عن عبادة تبْدأ بِتَرْك الطعام ، وتنتهي بِتَناوله ؛ فهذه ليْسَتْ عبادة .

أخْطر شيء في الحجّ حِكْمة الحجّ وجَوْهَرِه ومقاصِده :

هذه الكلمات التي يُرَدِّدُها الحُجاج ؛ لَبَّيْك اللَّهُمَّ لبيْك ، قد ينسون مضْمونها ، صَعِدْنا إلى مكان مُرْتفع ، وكلما دخلْنا إلى مدينة ، وهبْطنا وادٍ نردّدُ هذه الكلمات ، ما معنى لَبَّيْك ؟ كأنَّ لِسان حال الحضْرة الإلهيَّة يقول لك : تعال يا عبْدي لأُريحَكَ من هموم أثْقَلَتْ صَدْرك ، تعال لأَنْقُلَكَ من عملك الوضيع إلى آفاق معْرفة الله ، تعال

لِتَذوق طَعْم القُرْب ، تقول : لبَّيْك اللَّهُمَّ لبَيْك أيْ سَمْعاً وطاعَةً واسْتِجابَةً لِنِدائِكَ يا ربّ مرَّةً بعد مرَّة ، فأخْطر شيء في الحجّ أن تضع يدك على حِكْمة الحجّ ، وجَوْهَرِه ، ومقاصِدِه ، وأن تكون في المُسْتوى الذي يُمْكن أن يكون مَعْقولاً من تَرْكِكَ البلاد والعباد ، وتأتي لِتُلَبِّيَ الله عز وجل ، وهذه المُقَدِّمَة أنا شَرَحْتُها في دُروس كثيرة ، وإن شاء الله تعالى لي خطْبة عن حكمة الحجّ لا عن مناسك الحجّ أضَعُها بين أيديكم ، لماذا فُرَضَ علينا الحجّ ؟ ولماذا أمَرَنا الله تعالى بِأداءِ هذه الفريضة ؟ كلكم يعْلم أنَّ الصلاة رِياضَة بَدَنِيَّة ، والزكاة عبادة ماليَّة ، والدعاء عبادة قوليَّة ، والحجّ عبادة قوليَّة وشعائِرِيَّة وماليَّة وبَدَنِيَّة ، فالعبادة التي تجْمع كُلَّ العبادات هي الحجّ وهو في العُمْر مرَّة ، وكذا الصيام مرة في السَّنة ، والجمعة في الأسبوع مَرَّة ، والصلاة في اليوم خمْس مرات ، فمادامت هذه العبادة مَرَّة في العُمْر معنى ذلك أنَها تكْتَسِب أهَمِيَّة كُبْرى .

الاستشارة و الاستخارة :

واليوم نبدأ بآداب السَّفر في الإسلام لأنَّ الحجّ سفَر ، والموضوع الأوْسع من الحجّ هو السَّفر ، والشيء الأساسي في السّفر أن تُشاوِرَ في سَفَرِك من تَثِقُ بِدينه وعِلْمِه ، أيها الأخوة الأكارم من اسْتشار الرِّجال اسْتعار عُقولهم ، فإنسان له خِبْرة من أربعين أو خمسين سنة في حَقْل مُعَيَّن إذا أنت سألْتَهُ أخذْتَ كُلَّ عِلْمه وخِبْرته ، فالنبي عليه الصلاة والسلام عَلَّمنا شيئين ؛ عَلَّمنا الاسْتشارة ، وعَلَّمَنا الاسْتِخارة ، لِمَن الاسْتِشارة ؟ لأُولي الخِبْرة من المؤمنين حَصْراً ، لأُولي الخِبْرة لينْصَحوك ، فاِجْعل هذه قاعِدَة في حياتك وتِجارتك وسَفَرِك ، وفي أيِّ مَشْروعٍ تُقْبِلُ عليه ، قبل كُلِّ شيء اِسْتَشِرْ أهل الخبرة من المؤمنين والاستِخارة لله عز وجل ، وأنا أعْتقد أنَّهُ لا اسْتِخارة ولا اسْتِشارة في الفرائِض ، وهي حقيقة مُهِمَّة ، فأنت تسْتخيرُ في المُباحات ، وفي أشْياء لك أن تفْعَلَها ، وألا تفْعلها ، أما في الأشْياء التي أمرك الله بها فلا اسْتِخارة ولا اسْتِشارة ، ولكن السَّفَر لا بدّ أن تسْتشير من تَثِقُ بِدينِه وعِلْمِه وعقْله وخِبْرته ، والمُسْتَشار مُؤْتَمن ، من اسْتُشير فلْيُشِر ما هو صانِعٌ بِنَفْسِه ، فقَبْلَ أن تُسافر وتُقيم في بلدٍ أجْنبي ، قبل أن تنْقل تِجارتك في هذا المكان ، قبل أن تُمَثِّلُ شيئاً يُمَثِّلُ انْعِطافاً في حياتك ، عليك أن تسْتشير أهْل الخِبْرة من المؤْمنين حَصْراً ، فإذا اسْتَشَرْتَهم على السَّفَر وأشاروا عليك بذلك وجب عليك اسْتِخارة الله ، وأرْوَعُ ما في الاسْتِخارة أنَّ الشيء الذي أسْمَعُهُ من إخْوة كثُر : اسْتَخَرْتُ ولم أر مناماً !! من قال لك : إنَّ الرؤْيا من لوازم الاسْتِخارة ؛ اسْمعوا الحديث ؛ أخرج البخاري وأصحاب السنن

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِاللَّهِ رَضِي اللَّهم عَنْهما قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي ، قَالَ : وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

[البخاري عن جابر]

فَمِنَ البشَر من يعْلم ولكنَّهُ ليس قادِراً ، ومنهم من يقْدر ولكنَّه لا يعْلم ، لكنَّ الله تعالى له العِلْم المُطلق ، والقدْرة المُطْلقة .

الله تعالى رفيق الإنسان في السفر و خليفته في أهله و ماله :

بالمناسبة في الكوْن كُلِّه لا توجد إلا جِهَة واحدة يُمْكِنُ أن تُرافقك في السَّفر ، وأن تكون خليفتك في الأهل والمال والولد ، هذه الجهة هي الله ، أقرب الناس لك إذا سافر معك ليس بِإمْكانه أن يكون خليفةً على أهْلِك ، وإن بقِيَ خليفةً في أهْلك وولدِك ليس له أن يُسافر معك ، لكنَّ النبي الكريم ﷺ كان يدْعو قبل السَّفر ويقول :" اللَّهم أنت الخليفة في السَّفر ، والرفيق في المال والأهل والولد ..." فإذا دعا الإنسان بِهذا الدعاء وسافر فأغْلب الظنّ أنَّهُ يعود إلى بلده ، وليس هناك أخْبار سيِّئَة ولا مُفاجأة ، أحْياناً إبريق شاي ساخن يسيل على خدّ ابنتك فيصيبها بعاهة طول الأبد ، كلَّما ألْقى الأب نظْرةً على ابنته احْتَرَقَ قلبه أليسَ كذلك؟! فأنا أجزم بأنَّ من قال هذا الدعاء أدَّى سَفَرَهُ في طمأنينة وهناء .

من استخار الله بعلمه و قدرته يسر له الخير :

دعاء الاسْتِخارة كما قلنا :

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعاقِبَةِ أَمْرِي ، أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ، فَاقْدُرْهُ لِي ، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ، ثُمَّ أَرْضِنِي، قَالَ : وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

[البخاري وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله]

كنتُ مُزْمِعاً على سفرٍ بِبَلد ، وقبل أن أخرج من بيتي قلتُ له يا رب :

((اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ، فَاقْدُرْهُ لِي ، وَيَسِّرْهُ لِي))

[البخاري وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله]

ذَهَبْتُ فإذا بي أرى الطريق مَسْدودًا ، ثمَّ علِمْتُ أنَّ هناك أخْطارًا تنْتظِرُ كُلَّ من يقْدم إلى هذا البلد لأسْباب طارئة، فالمؤمن حياته رائِعة ، والله وَكيلُه ، فَهُوَ تعالى يعْلم وأنت لا تعلَم، وهو تعالى يقْدِر وأنت لا تقْدِر ، فإذا اسْتَخَرْتَهُ بِعِلْمِه وقُدْرتِه انتهى الأمْر ، قال :

((اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ، أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ ، فَاقْدُرْهُ لِي ، وَيَسِّرْهُ لِي))

[البخاري وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله]

التَّيْسير دليل المُوافقة الإلهيَّة :

لكن هنا السؤال : كيف تعْرف أنَّ الله تعالى أحبَّ لك هذا العمل أم لم يُحِبَّهُ لك ؟! بالتَّيْسير ، إذا أحَبَّ الله لك هذا السَّفَر يسَّرَهُ لك ، وإذا لم يُحِبَّه لك وأنت صادِقٌ في اسْتِخارتِك عَسَّرَهُ عليك ، فالتَّيْسير دليل المُوافقة الإلهيَّة ، والتَّعْسير دليل المُعارضة ، بِتَعْبير المرور نقول : تألَّق الضوْء الأخْضر أمامه ، أي امْشِ ، فالإنسان إذا اسْتخار الله عز وجل ورأى كُلَّ الأمور مُيَسَّرة معنى ذلك أنَّ الله عز وجل أحَبَّ له هذا السَّفَر . ثمَّ قال :

((....وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ))

فلو فرضْنا شَخْصاً ما تعلَّق بِفَتاة لِيَتَزَوَّجَها ، وهذه الفتاة لا تُناسِبُهُ وفي دينها رِقَّة ، فالله عز وجل صَرَفَها عنه ، هل يكْفي أن يصْرفها عنه ؟! لا يكْفي ، لابدّ من أن يصْرِفَهُ عنها ، إذْ لو تَعَلَّقَ بها صار الأمر مُشْكلة كبيرة ، فلا بدّ من أن يصْرِفَها عنك ويصْرِفَك عنها ، دِقَّة الدعاء :

((........فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي))

هناك شخْص يقول لك : حظُّه غير ميْسور كُلَّ حياته ، تجده يقول : لعن الله الساعة التي تَعَرَّفْنا بها على فلانة!!! قال :

((...... وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

يا رب إنَّي مُزْمِعٌ السفرَ إلى هذا المكان ، هذا الموضوع قد يتعلَّق بالحجّ ، وبالتِّجارة، والزواج ، وعقْد شراكة ، ومشْروعٍ جديد ، فلا بدّ من حفْظ هذا الدعاء غَيْباً ، أنا إن شاء الله قبل أن تذْهبوا للحجّ أُوَزِّع عليكم كُتَيِّبًا فيه أشْياء أساسِيَّة ، يكون رفيقاً لكم في الحجّ ، فأيُّ مَشْروع تُقْبِل عليه تأتي بِهذا الدُّعاء .

المُهمات المنوطة بالإنسان من البداية وحتى الحجّ :

أيها الأخوة ، اسْتَشَرْتَ أهْل الخِبْرة والإيمان ، واسْتَخَرْتَ الله عز وجل واسْتَقَرَّ عَزْمُكَ على السَّفر ، أو على الحجّ ، الآن ما المُهمات المنوطة بك من البداية وحتى الحجّ ؟

أيها الأخوةِ الأكارم ، يجب أن تعْلموا عِلْمَ اليقين أنَّ هناك وَهْماً خطيراً وكبيراً ، هو أنَّ الإنسان إذا حجَّ رجع من ذُنوبه كَيومِ وَلَدَتْهُ أُمُّه ! وهذا حديث شريف ، أُوَكِّد لكم أيها الأخوة أنّ الذنوب التي يغْفرها لك الله في الحجّ هي حَصْراً ما كانت بينك وبين الله ، أما الذنوب التي بينك وبين العباد فوالله لا تُغْفر إلا بالأداء ، ولا تسْقط إلا بالمُسامَحَة ، يغْتَصِبُ الإنسانُ بيْتاً ، ثمَّ يقول لك : أحُجُّ ويتوب الله عليَّ !! هذا توْجيه شَيْطاني ، أنْصح لكم أيها الأخوة أن تؤدوا ما عليكم من الذِّمم والحقوق ، أذْكر أنَّني حتى الكتب المُستعارة أعَدْتُها لأصْحابها ، وحتى المَجلات، كانت لي مَجَلَّة قديمة لِشَخْصٍ يسْكن بالميدان ولم أرهُ منذ فتْرة ، ذَهَبْتُ إليه وأدَّيْتُها له، أُنْظر لحال الإنسان لما يريد أن يُغادر الدنيا كيف يُصَفي علاقاته ، ذِمَم وحِسابات وحقوق ، لذلك قال : إذا اسْتَقَرّ عَزْمُك فبادِر إلى التوْبة ، وأدِّ ما عليك من حُقوق ودُيون ، واسْتَسْمح من نالهم منك ظُلْمٌ أو أذى ، ولا تشْعر أنَّك أكبر

من ذلك ، فإذا كنت قد ظلمْتَ من كان يشْتغل عندك في الماضي فابْحث عنه واسْتسْمِحهُ ، فهذا له حق عندك ! وقَدِّم له هَدِيَّة ، وإذا أردت أن يتجلى الله عليك في الحج ، وأن تكون مقْبول الحج ، وأن تشْعر بالطواف الحقيقي، فأنت لك مهِمَّة أصْعب من الحج ؛ كُلّ علاقاتك الماليّة ، وكُل الذِّمم ، والأشياء المُسْتعارة ، وتعْويضات مع تقادم الزَّمن نَسِيَها صاحبها ، ومَلَّ من مُطالبتك ، جاء الآن وقْتُ تَصْفِيَة الحُقوق ، وأداء الواجبات ، وأداء ما عليك من دُيون وحُقوق ، والتوبة النَّصوح ، ويجب أن تسافر إلى الحج وقد فَتَحْتَ بينك وبين الله صَفْحةً جديدة .

وعلى الزَّوْجة إرْضاءُ زَوْجِها ، فإذا كان بينها وبين زوْجها مشْكلة ، ولو حَجَّتْ مع أخيها فَحَجُّها غير مَقْبول ، فعلى الزَّوْجة أن تُرْضي زَوْجَها قبل أن تَحُجّ ؛ لأنَّ دين المرأة أربعة أقْسام : رُبْع دينها رِضى زوْجِها عنها ، فإذا صَلَّتْ المرأة خمْسها ، وصامَتْ شَهْرها ، وحَفِظَتْ نفْسَها ، وأطاعَتْ زوْجها ، دَخَلَتْ جَنَّة ربِّها ، فَكُلُّ زوْجةٍ عاصِيَة لِزَوْجِها ، ومُغْضِبَة له ولا يرْضى عنها وتُزْعِجُهُ ، فليس العِبْرة أنْ تَحجّ مع أخيها ، إنما العِبْرة أن يقبلها الله عز وجل ، وأن يتجلّى عليها هناك .

وَيُسنُّ للرَّجُل أن يصْطحب في الحجّ زَوْجته ، هناك أشْخاص يقولون لك : أُحِبُ أن أكون خفيفاً ، والمرأة صَعْبة وعِبْء ! لكن إن لم تَحُجّ عن طريقك فَعَن طريق من تَحجّ ؟! طبْعاً هذا على المَيْسور . ولا يجوز للوالِدَيْن منْعُ الابن مِن حَجَّة الإسلام ، فإن قالا لك : رِضى لنا لا تحجّ ، فلا يجوز طاعتهما إن كانت هي حجَّة الإسلام ، أما إن حجّجْت وكانت هذه للتَطوّع وقالا لك : رضيً بنا لا تحجّ هذه السنة نحن بِحاجتك أمامنا ، فلا مانع من طاعتهما ، وربما وجبتْ طاعتهما ، أما حجَّة الإسلام فلا اسْتِشارة ، ولا إذْن ، ولا شيء ، وعلى الابن أن يجْتهد في إرْضاء والِدَيْه .

لو أنَّ أحداً في ماله شُبْهة ، وفي دَخْله جزء من الحرام ، وله معاش ، فإذا أراد أن يحجّ بِهذا المال المَشْبوه ، فقد ورد في بعض الأحاديث : " يقول لبَّيْك اللهم لبَّيْك فيقول الله تعالى: لا لبَّيْك ولا سَعْدَيْك" إذاً يجب أن تحجّ من المال الحلال الذي اِكْتَسَبْته من كَدِّك وعرق جبينك ، وليَسْتَكْثِر من طيب الزاد والنَّفَقة ما أمْكنه ، لِيُعينَ ذوي الحاجة ، فإذا كان الإنسان مَيْسورًا وأخذ معه أدْوِية زائِدَة كان هذا من باب تقديم يد المساعدة للإخوة ، وأذْكر أنَّهُ لَزِمني علبة دواء ثمنها خمسون ريالاً ، مما يُعادل سبعمئة ليرة ! وهنا ثمنها ستّ عشرة ليرة !! أدْوِيَةُ الإسْهال أكْثر شيء ومُسَكِّنات ، وخافِضات حرارة ، والرَّشْح ، إذاً يمكن أن تأخذ مجموعة أدْوِيَة ، وإذا احْتاج أحدهم هناك للأدْوِيَة تُعْطيه ، فليس هناك عمل أمْتع من خِدْمة الناس ؛ من طعام ودواء وأجْهزة ، والأمْرُ الوحيد العملُ الصالح ، لأنَّك في عبادة وطاعة ، فالإنسان إذا كَثَّر الزاد ، وأطْعم الطعام يشْعر بِسَعادة ، فهذا من السنَّة ،

وأذْكر في العام الماضي لما كنت رئيس بعثة أنَّني أخذْت زاداً كبيراً حتى رآه الحاضرون كثيراً ، إلا أنَّه كان له أثر كبير في أثناء ذهابنا ، فقد بقي معنا لِمُدَّة ثمانية أيام ، وأطْعمْنا منه وضَيَّفْنا .

والمشكلة هناك ظروف صعْبة ، فأنت تَصِل مُتْعبًا ، والخروج فيه إرْهاق ، والسيارات ربما لا تُلَبِّي حاجتك ، فإذا أخذتَ الأكل والدواء اللازم سُرِرْت .

الآن تَرْك المُجادلة والمُشاحنة في الحجّ ؛ فلا رفث ولا فسوق ولاجدال في الحج ، أما المجادلة والاعْتِراض : ما هذه الأسْعار ! فأنت في حجّ ولا يجوز عليك فعْل هذا .

أيها الأخوة ، أُكْتُب وَصِيَّتك قبل السَّفر على الوَجْه المَشْروع ، سأُوَزِّع عليكم منها وادْرُسوها ووقِّعوها ، وهذه هي السنَّة .

المَشَقَّة في الحجّ ليْسَت مطْلوبةً لِذاتِها :

الحقيقة أنَّ المَشَقَّة في الحجّ ليْسَت مَطْلوبةً لِذاتِها ، أنا لي أجْرٌ بالشَّمْس أكثر !! لا هذا وَهْم وجهْل ، فالحجّ الآن بالطائِرة أكثر راحةً من البرّ ، والحجّ بِالبَرّ أقلُّ تعبًا من المَشْي ، فليْسَتْ المَشَقَّة مَطْلوبَةً لِذاتِها ، فلا تقل : إذا ركِبْتُ حافلةً مُكَيَّفَةً يَخِفُّ أجْري ، وكذا خيْمة مُكَيَّفة هو أفْضل لك لأنّ الحرّ أحْياناً يشْتد لِدَرجة أنَّهُ يُعيقك عن الإقبال على الله عز وجل ، لذلك احْفَظوا هذه القاعدة : المَشَقَّة في الحجّ ليْسَت مطْلوبةً لِذاتِها ، وكُلُّ من يتَوَهَّم أنَّ من ازْدادتْ مَشَقَّته ارْتَفَعَ أجْرهُ فهذا وَهْم ! لكن إذا كانت المَشَقَّة لا بدّ منها في سبيل الله فَمَرْحباً بها ، مثَلاً ؛ الآن حوْل الكعْبة هناك رُخام يمْتَصّ الحرارة ، أشِعَة الشَّمْس مُسَلَّطة عليه عَشْرُ ساعات وهو بارد ، وهناك رُخام بالأرْوِقَة كالمِكْواة تماماً ، إياك أن تظنّ أنَّ المشقّة إذا طلبْتها لِذاتها فهذا مما يرْفع ثوابك عند الله تعالى ! لا ، النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً قابِعاً في الشَّمْس ، فقال: لمَ يقف هذا في الشَّمْس ؟ فقالوا : نذر هذا أن يقف في الشّمْس تقرُّباً إلى الله عز وجل ، فقال عليه الصلاة والسلام : مُروهُ أن يتحوَّل ، فإنَّ الله غنِيٌّ عن تعْذيب هذا نفْسه ، مثَلاً ؛ هل يجب أن تُصلي الصلوات كلها بالحرم ؟! إذا كان البيت قريبًا من الحرم فهذا أحسن ، أما إذا كان البيت بعيدًا ويجب أن ترْكب السيارة مَرَّتين ، وتمْشي في الشَّمْس ساعة ، وضَرْبة الشَّمْس مؤلمة، فلا تخرج في النهار إلا لِسَبب قاهر ، إنما عليك صلاة المغرب والعشاء والصبح ، فلا تُخاطر ، فحياتك غالِيَة ، وهي ليْست ملْكك وحْدك ، بالمناسبة ضربات الشَّمْس مُميتَة ، واللهِ كنت أخرج إلى الحرم الساعة العاشرة ليْلاً ، وكأنَّني في التنور فكيف بالنهار ؟! أنا لا أُخَوِّفكم ، إلا أنني أُبيِّن لكم حُكْم الشَّرْع في مسألة المَشَقّة ، لا

تخرج من البيت في أثناء النهار وهذا بِإجماع العلماء ، أما إذا كنت بِجانب الحرم فهذا أمر آخر ، أذكر أنَّني كنت بِجانب الحرم، بيني وبينه عشرون مترًا ، فكنت أُصلي الأوقات الخمس في الحرم ، ولله الحمد ، فالخروج من البيت يتعلَّق بعدم المَضَرَّة أما إذا رافق هذا خطر فلا ، فمثلاً ضرْبة الشَّمس من الأخطار ، وأوَّل ما تشعر دوخة ، وشِبْه إغْماء ، فأوَّل شيء لا بدَّ أن تأكل أشْياء مالحة ، لأنَّ هذا الشيء المالح يشْرب الماء ، حتى إنه توجد مُستشْفيات من أجل ضرْبات الشَّمْس .

التفقه في أحكام الحج قبل الحج :

يجب على من عزم على الحج التَفقُّه في أحكامه ، وكذا حُكْم كُلِّ عمل ولا يُقَلِّدُ العوام ، والمفْروض أن يكون حَجّك صحيحاً ، رأيْتُ بِعَيْني أشياء ينْدى لها الجبين ؛ حُجاجٌ ما أحْرموا من الطائرة ، فلما وَصَلْنا إلى جدَّة قالوا : متى الإحْرام ؟! هؤلاء عليهم دم ، ومنهم من لم يطف طواف الإفاضة وهو رُكْن ، وهناك من يسْأل وهو في المدينة أين قبْر محمَّد ؟! هناك جهْل شنيع وأحدهم قال : أين القبلة ؟ فقالوا له : هذه هي الكعْبة ، فقال لهم : أنا أقول : أين القبلة وليس الكعبة ؟!! ، وهذا قالوا له : أُرْجم إبْليس ، فقال : ليس بيني وبينه شيء !! لا أُحِبُّ أن أرْجُمَهُ ، فهذا الحاج دفع ماله جُزافاً ، وضَيَّع وقْته ، وهو لا يعلم منه شيئاً! وقد كنا بِعَرَفات فرفع أدهم باب الخَيْمة فسَبَّهُ أحدهم بالدِّين !! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بِعَرَفات ! والآخر قَبَّل زوْجته بالباص قائِلاً لها لقد اشْتَقْتُ إليك !! فهذا مُسْتوى سوقي ، لذلك يجب أن يتَفَقَّه الإنسان قبل أنْ يحجّ .

مُصاحبة الإنسان من يُعينه على طاعة الله :

من السنَّة أن يبْحث الحاجّ على رفيق عالِمٍ ورِعٍ راغِبٍ في الخير والتُّقى ، وكأنَّ الحجّ يتضاعف أجْرهُ إذا صاحبك رجلٌ تقِيّ عالِم ، كُنْ في صُحْبة الأخْيار ، فإذا رأيْتَ في الحجّ من تعرفه من أهْل التُّقى فاصْحَبْهُ ودَعْ رِفاقَكَ ، فهذا العالم أو الداعيّة الملتزِم يُعَلِّمُكَ أحْكام حجِّك ومناسكه والآداب ، فالأصْل مُصاحبة من يُعينك على طاعة الله؛ عالِمٍ أو داعِيَة أو صاحب خِبْرة ومُتَخَلِّق ، فلا تبْحث عن السُّرور مع الأصْدِقاء ، إنما من هم فوْقك من أهْل العِلْم، هذه عِبادة لا يلْزمك فيها أن تمْزح وتتسَلَّى ، يلْزمك صُحْبة عالِمٍ .

على الإنسان أن يجعل سفره خالصاً لله :

من السنَّة أن يجْعل سَفَرَهُ خالِصاً لله تعالى ، فلا يتَّخِذهُ فُرْصَةً للتِّجارة ، وإن كان ذلك جائِزاً بِحُدود الشَّرْع ، فالإنسان يخرج من الحَرَم فَيَجِد مَحَلَّات فَخْمة ، وبِضاعة بأنواعها المُدْهِشَة؛ تجد هؤلاء الحُجَّاج مُلْتفين حوْلها ، وذلك لِرُخَصِها ، أو غيرها من الأمور ، دَعْك من البِضاعة ؛ أرْخَص ! لا يَهُمُّك ، تجدهم أصبحوا مُشْترين وزبائن ، ليْست هذه مُهِمَّةُ الحاج ، فإذا كان للواحد منا أقرباء بِجَدَّة تمرُّ عليك الأيام فتجد أنَّك قَضَيْت عندهم يومين دون أن تشْعر ، لأنَّها مدينة فَخْمة وعمارات شاهقة ، ومقاصف جميلة على البحْر ، وتجد نفْسك انْتقلت إلى غير طبيعة فليس من مصْلحة الحاج الانْتِقال إلى الأماكن الحضارِيَّة ، إنما مصْلحتك الحرَمَيْن لأنَّك ذهبْت للحج وليس للسِّياحة . فعلى الإنسان إذا كان في عبادة الحج أن يترك القرابة إلى حين الانْتِهاء ، لأنَّك إن ذهبْت وجدْتَ نفْسك في المُزاح والضَّحِك . ويُسْتَحَبُّ أن يكون سفره صباحاً باكراً ، أو أن يكون الخميس أو الاثنين ؛ لكن هذا ليس بِيَدِك إنما على حسب الحج .

ما يفْعله الحاج بعد أن يُزمِع المُغادرة :

ماذا يفْعل الحاج بعد أن يُزمِع المُغادرة ؟ يُسْتحَبُّ أن يُصلي قبل خروجه ركْعتين في غير أوْقات الكراهة ؛ وهي معْروفة ، انْتِصاف الشمْس في كبِدِ السماء حتى تزول ، واصْفِرار الشَّمْس حتى تغيب، وبُزوغ الشَّمْس حتى تعْلو في الأُفق ، و يقرأ في الأولى بعد الفاتِحَة : قل يا أيها الكافرون ، وفي الثانِيَة : قل هو الله أحد ، وهما سُنَّة السفر ، وبعد سلامه يقْرأ آية الكُرْسي وسورة قُرَيْش ، ثمَّ يدْعو الله سائِلاً بِخضوعٍ وخُشوعٍ التَّيْسير والعفْو ، فإذا نَهَض قال : " اللهمَّ إليك تَوَجَّهْت ، وبك اِعْتصمْت ، اللهمّ اكْفِني ما أهَمَّني ، وما لا أهْتَمُّ به " فلِسَبَبٍ تافِهٍ تُضَيّع عشْر ساعات ! وقد حكى لي الحُجاج أنهم جلسوا في الحافلة أربعاً وعِشرين ساعة ؛ لماذا ؟! لأنّ أحد الحُجاج لم يجِد جواز سَفَرِه ، ويقول : " اللهمَّ زَوِّدْني التَّقْوى واغْفِر لي ".

ومن السُّنَّة أن تُوَدِّع أنت الأهْل وليس هم الذين يُوَدِّعونك ، فإذا جئْت من الحجّ هم الذين يهَنَّؤونك ، أما حين المُغادرة فأنت الذي تُوَدِّع – طبْعاً من هم أكبر منك – لك أب أو عمّ تذْهب إليهم قبل أنْ تَحُجّ ، وحينما تعود من الحجّ هم الذين يسْتَقْبلونك ويُهَنِّؤوك .

وفي الوَداع يقول كُلٌّ من المُوَدِّع والمُوَدَّع : " أَسْتَوْدِعُ الله دينك وأمانتك وخواتيم عمَلِك ، زوَّدَك الله التقْوى ، وغفر الله ذنْبك ، ويسَّر لك الخير حيث كنت "، وهذا في الحجّ وغيره، فإذا خرجْت من بيتك قل : " بسم الله تَوَكَّلْتُ على الله ولا حوْل ولا قوة إلا بالله ، اللهمّ إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلّ ، أو أزِلّ أو أُزَلّ ، أو أظْلم أو أُظْلم ، أو أجْهل أو يُجْهل عليّ " فإذا ركِبْت في السيارة قلت : " بسم الله ، سبحان الذي سَخَّرَ لنا هذا وما كنا له مُقْرِنين ، وإنا إلى ربنا لَمُنْقلبون ، الحمد لله ثلاثاً ، والله أكبر ثلاثاً ، سبحانك اللهمّ إني ظَلَمْتُ نفْسي فاغْفِر لي فإنَّهُ لا يغْفِرُ الذُّنوب إلا أنت "، هذه الأدْعِيَة مَوْجودة في الكُتُب ، وأنا إن شاء الله قبل أن تذْهبوا أزَوِّدُكم بِمِثْل هذه الكُتُب، والدُّعاء الأخير : " اللهمّ إنَّا نسْألك في سَفَرِنا هذا البرّ والتَّقْوى ، ومن العمل ما تحِبُّ وترْضى ، اللهمّ هَوِّن علينا سَفَرَنا – فالدُّعاء مَطْلوب ؛ فقد بقِيَ فوْج من الحُجَّاج سبعة أيام ولياليها في المطار ! – اللهمَّ أنت الصاحب في السَّفَر ، والخليفة في الأهل والمال والولد ، اللهمّ إنا نعوذ بك من وَعْثاء السَّفَر ، وكآبة المُنْقلب ، وسوءِ المنْظر في الأهْل والمال والولد ."

ما يستحب في الحج :

ويُسْتَحَبُّ أن يتجَنَّب التَّرَفُّه والإسْراف في الطَّعام ، ففي الحج خَفِّف قَدْر ما اسْتَطَعْت أكْلات خفيفة ، كما أنَّني أنْصحُ أخْواننا الكِرام بِتَجَنُّب المَشْروبات الغازِيَّة ، عليك بالماء أو اللَّبن.

وقال : يُسْتَحَبُّ أن يتجَنَّب المُخاصَمَة والمُجادلة والمُزاحمة ، تجد في الطائِرَة قد وصل الأمْر للقتْل من أجل مقاعد الطائِرَة ، ولو وَقَفَ كُلٌّ منهم لَجَلَسَ كلُّ واحد في مكانه .

ويُسْتَحَبُّ أن يصون لِسانه عن الغيبة والنَّميمة والشَّتيمة ، والله سَمِعْت عَشَرات بل مِئات الأشْخاص وهم في عَرَفات يغْتابون المُسْلمين ، وفي الحَرَم ، أين الانْضِباط ؟!

ويُكْرَهُ أن يذْهب في طريق سَفَرِهِ مُنْفَرِداً أو مع واحِدٍ ، لِقَوْل النبي عليه الصلاة والسلام :

((الرَّاكِبُ شَيْطَانٌ وَالرَّاكِبَانِ شَيْطَانَانِ وَالثَّلَاثَةُ رَكْبٌ))

[الترمذي عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ]

وإذا كانوا ثلاثة فلْيُؤَمِّروا عليهم واحداً ؛ هذه هي السُّنَّة ، نحن لنا أمير فإذا قال : نمْشي مَشَيْنا ، فلا تُناقِش ، ولا تُخاصِم ، ولا تُعارِض. فإذا أشْرَفْتَ على قرْيَةٍ قلْتَ : " اللهمَّ إني أسْألك خيرها ، وخيْر أهْلِها ، وخيْر ما فيها ، وأعوذ بك من شَرِّها ، وشرِّ أهْلها ، وشَرِّ ما فيها " وإذا نزلْت منْزِلاً قلت : " أعوذ بِكَلِمات الله التامات من شرّ ما خلق "، فإذا أطْبق الليل : " يا أرْض ربِّي وربُّك الله ، أعوذ بك من شرِّك وشَرِّ ما فيك ، وشَرِّ ما خُلِقَ فيك ،

وشرّ ما يدبُّ عليك ، أعوذ بالله من أُسود وأفاع ، ومن ساكن البلد ، ومن والدٍ وما ولد " هذا دُعاء قريب ، لأنَّ في الخِيام هناك عقارب ووُحوش .

وإذا خِفْتَ شَخْصاً قلت : " اللهمَّ إنا نجْعلك في نُحورِهِم ، ونعوذ بك من شُرورِهم " ويُكْثِر من قوْل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله ربُّ العرْش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات وربّ الأرض ، وربّ العرْش الكريم، يا حيٌّ يا قيُّوم بِرَحْمَتِك أسْتَغيث .

ويُسْتَحَبُّ للمسافر أن يكون مُداوِماً على الطَّهارة ، فسِلاحُهُ الوُضوء ، لأنَّك إن لم تَكُن مُتَوَضِّئاً ، ودَخَلْت الحَرَم ، تحْتاج أكْثر من ساعة كي تتوَضَّأ ، فَكُنْ دائِماً على وُضوء في الحجّ .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 11 : أركان الحج والعمرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً ، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتّباعه ، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه ، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أَحْسنه ، وأَدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين .

الحج رحلة روحية إلى الله تعالى :

أيها الأخوة الأكارم ؛ مع اللّقاء الثاني من دروس الحج ، ففي اللّقاء الأول تحدَّثنا عن آداب السَّفر ، والحج سفر إلى الله عز وجل ، ورِحْلةٌ روحِيَّة إلى الله تعالى ، وفي هذا اللّقاء الحديث عن أركان الحج ، بهذا سَنَدْخل في صميم مناسك الحج .

أنتم لا يغْنيكم أركان الحج عند أبي حنيفة وعند الشافِعي ، فَكُلُّ حاجٍ عليه أن يؤدي الأركان والسُّنن والشروط ، فأركان الحج عند أبي حنيفة الوُقوف بِعَرَفة ، وطواف الإفاضة ، فهي عنده – رحمه الله تعالى – رُكْنان ، والشيء الذي يُؤْلِمُ أَلَماً كثيراً أَنَّ حُجاجاً كثيرين عادوا إلى أوطانهم ولم يَطوفوا طَواف الإفاضة . يا أيها الأخوة الأكارم ، إنَّ هذه العِبادة هي عِبادة العُمْر ، وهي فيه مَرَّة واحدة ، وهي من أرْقى العِبادات ، فلا بدَّ من أن تتَفَقَّهَ في مناسِكَها وشُؤونها ودقائِقِها ، وهي عند الإمام الشافِعي الإحْرام ، والوُقوف بِعَرَفَة ، والطواف ، والسَّعْي ، والحَلْقُ أو التَّقْصير ، والترتيب بين الإحرام والوقوف والطواف ، فإذا قلنا : عند الشافعي سِتَّة ، وعند أبي حنيفة اثْنان ، فَكَيْفَ نُوَفِّقُ بينهما ؟ فهذه الأربعة تنْقلب عند الإمام الحنفي إلى واجِبات ، فكما قُلْتُ قبل قليل: لا يغْنيكم هذه الخِلافِيات فلا بُدَّ أن تُحْرِموا وتَقِفُوا بِعَرَفة وأن تطوفوا وأن تَسْعوا وتُحَلِّقوا أو تقْصروا ، وأن تطوفوا طَواف الإفاضة ، إذاً نحن نَدْخل الآن إلى صميم الدَّرْس .

الإحرام في الحج :

أوَّلُ شيءٍ هو الإحْرام ، وفي الحقيقة من الأخْطاء الشائِعَة عند بعض الحُجَّاج أنَّهُ بِمُجرَّد أن يخْلع ثِيابه ويرْتدي ثِياب الإحْرام يظُنُّ أنَّهُ قد أحْرم ، لو تَصَوَّرْنا أنَّ إنْساناً دخل الحمام وخلع ثِيابه واغْتَسَل وارْتَدى مناشِف ليتنَشَّفَ بها فهل أحْرم ؟ الإحْرام ليس هذا ، لكنَّ الإحْرام أساسه نِيَّةُ الحجّ والدُّخول فيه ، لأنَّ الحجَّ عِبادةٌ عظيمة ، فإذا بدَأْتَ بِها كان عليك إتْمامها لِقَوْل الله عز وجل :

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

[سورة البقرة : 196]

فهي عِبادة من أرْقى العِبادات ، فَبِمُجَرَّد أن تبدأ بها عليك إتْمامها ، وهناك تَلْبِية خاصَّة فيما إذا كان الحاج أصابه أمْرٌ قاهِر ، كما حصل في العام الماضي ؛ أُناسٌ كثيرون ما تمَكَّنوا أن يَقِفوا في عَرَفَة ، فما حُكْمهم ؟ بعد قليل نَصِل إلى هذا الموضوع . فالإحرام نِيَّةُ الحجّ والدُّخول فيه ، وليس هو مُجَرَّد خَلْعِ الثِّياب ، ولُبْس الإزار والرّداء ، وثمة مُلاحظات ، فَبَعْضُ الحُجاج يحْرِمون من بُيوتِهم ، وهذا جائِز ، إلا أنَّني لا أنْصَحُهُم أن يفْعلوا هذا، لأنَّك إذا أحْرَمْتَ من بيْتِك ، ولِسَبَبٍ قاهِر لم تتمَكَّن من السَّفَر ، فأنت مُحْرِم ، وتُطَبَّق عليك كُلّ مَحْظورات الإحرام ، لذلك لا تُحْرِم إلا وأنت في الطائِرَة ، وهناك حُجاج أحْرموا ولم يتيسَّر لهم الحج ، فعادوا إلى بُيوتِهم ، وظنُّوا أنَّ الحج أُلْغي ، فالْتَقوا مع زوْجاتِهم ، وقد فعلوا كبيرة من كبائِر الحج ، إذاً لا تُحْرِم إلا وأنت في الطائِرَة ، من أجل أن تضمن أنَّ الإقْلاع قد حصل ، لكن بالمناسبة هناك طَيَّارون لا يعْبَؤون بِمَناسِك الحج ، ولا يُبَلِّغونهم الميقات فأنا أنْصَحُكم نصيحة ثانِيَة ، وهي أن تُحْرِموا بعد نِصْف ساعة من إقْلاع الطائِرَة ، أما الإحرام الصحيح فهو بعد ساعة .



الآن نتحَدَّث عن الإحْرام من دمشْق ، أو من المدينة فهو واحد ، الإحرام أيها الإخوة له ميقات زماني وله ميقات مكاني ، فأما الميقات الزماني فهُوَ شَهْرُ شوال وذو القِعْدة وعَشْر ليالٍ من ذي الحجَّة ، ولا يَصِحُّ الإحرام قبل هذه الأشْهر ، ولا بعدها إذْ يكون الحج قد انتهى ، ولو أنَّه أحرم قبل هذه الأشهر كان إحْرامه عُمْرَةً ، أما الميقات المكاني فيخْتَلِف على

حسب مَوْطن الحاج .

وبادِئ ذي بدْء ، لدينا حاج آفاقي وحاج مكِّي ، فَمَن كان بلده مَكَّة ، أو من كان مُقيماً بين مكَّة وبين حُدود الميقات ، فهذا الحاج ليس آفاقيًّا وله أحْكام خاصَّة ، ولكِنَّنا كُلُّنا حُجاج آفاقيون ، أي نقْطُن خارِجَ حدود الحرم ، فميقات إحرام الحاج آبار علي إن كان من أهل المدينة ، والجُحْفة أو رابِغ إن كان من أهل الشام أو أهل المغرب أو مصْر ، وقرن المنازل إن كان من أهْل نجْد ، ويَلَمْلَم إن كان من أهْل اليمن أو تِهامة ، وذاتُ عِرْق إن كان من أهْل العِراق ، وقد قال العلماء : هذه المواقيت لِمَن كان بِها ، ولِمَن مرَّ بها ، فالصينيون إنْ جاؤوا من العراق فَميقاتهم كأهل العراق ، وأهل المغْرب إن جاؤوا من جهة الشام فميقاتهم كأهل الشام وهكذا .

بالمناسبة هناك خطأ يُمْكن أن يقع فيه الحاج ؛ وهو حينما جمع أغراضه في المحافظ الكبيرة وضع المناشف مع هذه الأغراض ، وحينما أقْلَعَت الطائرة قال : أعْطونا المناشف هذه لا حلَّ لها ، إذا دَخَلْتَ منطقة الحرم وأنت غير مُحْرِم يجب عليك الدمّ ، أما إذا دخلْتَ مُتَعَمّداً فلا يصِحُّ حجُّك إطلاقاً ، فلو أنَّ غَنِياً قال : أنا لا أحبّ أن أرتدي لِباس الإحرام إذا دخلت مكَّة فماذا عَلَيَّ ؟ يقولون : عليك كذا وكذا ، فيقول : أنا أدفع ثلاثة أضعاف ما تقولون ! فنحن نقول لِهذا الصِّنْف : لو دفعْت ألف مليون لما صَحَّ حجُّك ! فالذي يقصد الخطأ ويتعمَّده لا يصِحّ حجُّه البتَّة ، أما الناسي والساهي فعليه دم فقط ، فالملاحظة المُهِمَّة أنَّ ثياب الإحرام يجب أن تكون في مِحْفظة اليد ، لا في محفظة الشحن .

وكما قلتُ قبل قليل يجوز أن يُحْرِم الآفاقي من بيته قبل الوصول إلى الميقات ، إلا أنَّ الأفضل الإحرام من الميقات ، والأحْوط قبل الميقات بقليل مثلاً كنت في رِحْلة للحج قبل عامين أو ثلاثة ، وَزَّعوا الطعام ، ووزَّعوا مناديل مُعَطَّرة ، ولم يتجَشَّم الطيار أن يُبَلِّغ الحُجاج أنَّ هذه المناديل توجِبُ عليهم هدْياً ! أقول لكم هذا الكلام ، هناك طيارون لا دين لهم ، ولا يعْرفون شيئاً من الدِّين ، لذا الأفضل الإحرام بعد نصف ساعة من إقلاع الطائرة حتى يتجنَّب المرْء الخطأ ، أو أنَّ الطيار نَسِيَ أن يُذَكِّر بهذا ، فإنْ كان الحاجُّ مُقيماً بين حُدود الميقات وبين مَكَّة فإحْرامُهُ من قَرْيَتِه ومن مكان إقامَتِه ، أما إذا كان مُقيماً بِمَكَّة فيُحْرِمُ من بيتِه .

هناك حالة من الحالات ، وهي لو تجاوَزَ الحاجُّ الميقاتَ وهو يريد حجَّة أو عُمْرة ولم يُحْرِم ، فلهُ خِياران ؛ إما أن يعود إلى ميقات بلدِهِ وإما عليه الدَّم .

آداب الإحرام :

أمّا آداب الإحْرام ، فيُسْتَحَبّ إذا أراد الحاجُّ الإحرامَ أن يقوم بالأعْمال التالية :

أوّلاً : الغُسل ، يغْتَسِلُ اغْتِسال الإحرام ، وغُسْلُ الإحرام سُنَّة ، حتى الحائِض والنُّفساء ، الذي معه زوْجَتُه بِإمْكانها أن تفعلَ كُلَّ شيءٍ في الحجّ إلا الطواف والصلاة ، أما الإحْرام ، والتَّلبِيَة ، والوُقوف بِعَرَفة ، فإن لم يجِدِ الحاج فلْيَتَيَمَّم ، والغُسل أحبّ .

ومن لوازِم الغُسل اسْتِكْمال التَّنْظيف بالحَلْق ، وقَصِّ الأظافر ، والنَّتْف وقص الشوارب ، أي التنْظيف لا بدّ أن يكون كامِلاً ، من حلْقِ العانة ، والإبِط ، وغَسْلِ الرأس بالصابون ، ونحوه ، هذه من سُنن الإحرام ، ثمَّ خلْعُ المخيط والمحيط ، فلو فَرَضْنا أنَّ هناك ثِيابًا ليسَتْ مَخيطة ، ولَكِنَّها مُحيطة فهي لا تجوز ، لكنَّ المنْشفة لو دَرَزْت الخيوط الخارجة منها شرْط أن تكون سائِبة فلا مانع ، أما المرأة فتَلْبسُ كُلَّ شيء ، بل حجّها يقوى كلَّما أكثرتْ من اللِّباس وتَسَتَّرَتْ .



والتَجَرُّد عن المَلْبوس المَحظور للمُحْرِم ، وأن يلْبِسَ رِداءً ، وهو ما يضعُهُ الحاج على كَتِفَيْه ، لِيَسْتُرَ به جُزْءَهُ الأعلى ، هناك مُلاحظة ؛ ثمّة حُجاجٌ كثيرون يَخْلعون هذا الرِّداء فما دام هناك حجاج وحاجات فهل من اللَّباقة ومن أدب الحاج أن يبْدُوَ أمام النِّساء عارِياً من قِسْمِهِ الأعلى ؟! فأنا أتمنى من إخواننا أن يكونوا في المُسْتوى الأعلى من الأدب ، لذلك فهذا الرِّداء يوضَعُ على الكَتِفَيْن ، ولك أن تجْمَعَهُ ، فأصبح الكتفان والظهْر والصَّدْر مُغَطّى بِهذا الرِّداء ، والإزار هو ما يسْتر به الحاج عَوْرته من سُرَّتِه إلى رُكْبَتيْه ، وكثيرٌ من الأشْخاص تَجِدُ الإزار تحت سُرَّتِه ، معنى ذلك أنَّ سُرَّتَهُ مَكْشوفة ، فلا بدَّ أن تضع الحزام بِقِسْمٍ عالٍ ، وينبغي أن يكون الإزار واسِعاً لِيَلُفَّ الحاج عِدَّة لَفات ، وينبغي أن يُباعِدَ بين قَدَمَيْه حينما يلُفُّه عليه ، أما إذا لَفَّهُ وهو متقارب القَدَمَيْن شَعَر بِصُعوبة الحركة ، كما أنَّ المناشف القصيرة لا تصْلح إطْلاقاً ؛ لأنَّهُ ليْس في الحجّ أبْشع من أن تظْهر عَوْرةُ الحاج ، فلإخْواننا الذين لم يَحُجُّوا القَضِيَّة ليْسَت سَهْلة ترْتَدي مَنْشَفة بلا ألْبِسَة داخِلِيَّة ، وأن تبْقى مُحْرِماً عَشْرة أيام ، ولا تبْدو عَوْرتُكَ لأحدٍ فهذا من الأدب العالي والحِرْص الشديد ، لذلك عليك أن

تسْعى لأنْ يكون الإزار طويلاً ، وعريضاً ومعنى أنّه عريض ، حيث بإمْكانك أن ترْفَعَهُ فوق السُرَّة ، وبإمكانك أن تجْعله يتجاوز الركْبتين ، وبإمكانك أن تلفَّهُ لفات كثيرة ، وقد لاحظْتُ في الحج بعض الإخوة اشْتَرَوا مناشف خفيفة ، ولما غسلوها قصُرَت ، فينبغي التنبيه لهذا ، حتى إذا اشْترى الحاج منشَفَة تنبَّه لأن تكون طويلة وعريضة أكثر من اللازم ، حتى إذا غُسلتْ أصبَحت بِقِياسِها اللازم ، والأفْضل أن يكونا أبْيَضَيْن إذْ أحْياناً نجد ألواناً مُزَرْكَشَة ومُلَوَّنة ، فهذا يُلفِتُ النَّظر .

لُبْس نَعْليْن لا يسْتُران أصابع القدمين ولا الكَعْبين ، فأنا بِحَسب خِبْرتي الشحاطة الصينيَّة زنوبيا طَرِيَّة جداً ، وهي شَرْعِيَّة ، فالسنَّة أن يُكْشَفَ العَقِب ، والكعب وعقد الشِّراك أي ظاهر القدم ، وأخْطر شيءٍ في الحج هذا الذي تَلْبَسُهُ بِرِجْليك ، فإذا صار هناك دمامات، وفقاعات بالجلد ، والْتِهابات ، أصبح الحج مُعَكَّرًا ، فعلى الإنسان الاهتمام بما يلبسه في رجله . ولك الحق في الإحرام أن تُطَيِّب بدنك ، فلو طَيَّبْتَ المنْشَفَة فَسَدَ إحْرامك ، لأنَّ الطيب يبقى فيها، ثمَّ إنّ الإنسان حينما يُحْرِم له أن يغْتسل ما شاء ، ويعود ويرْتدي ثياب الإحرام . ثم يصلي ركعتين سنَّة الإحرام ، ولك أن تُصَلي وأنت في مقعد الطائرة ، أما أن تُصَلي في ممرّ الطائرة ، والمُضيفات ذاهبات وراجِعات ، فهذا غير وارد إطْلاقاً ، لأنّ قبلة المسافر جهة دابَّته ، أي طائِرَتِه ، وتقرأ في هذه الصلاة ما تقرأه في سنَّة السَّفر ؛ قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ، بشرْط عدم وجود أوقات الكراهة ، وبعد أن يصلي الحاج ركعتي الإحرام في الميقات أو في بيته ينوي بقلبه الدخول في الحج .

وأقول لكم من علامة القبول البِداية الطيِّبة ، فالحاج حينما يقول : لبَّيك اللهمّ لبَيْك ، يدْخل في عبادة الحج ، ويشعر بأشْواق وتَجَلّيات وكأنَّهُ يبكي ، فَحَجُّهُ يبْدأ حينما يبْدأ بالتَّلْبِيَة ، أما ما يجب أن يقول : نوَيْتُ الحج وأحْرَمْتُ به لله تعالى : لَبَّيْك اللهم لبِّيْك ، لبِّيْك لا شريك لك لبَّيْك إنَّ الحمد والنِّعْمة لك والمُلك ، لا شريك لك .

الإفراد والقِران والتَّمَتُّع :

في الدرْس القادم إن شاء الله تعالى نتَحَدَّث عن الإفراد والقِران والتَّمَتُّع ، فإذا أردْتَ أن تُفْرِد ، ولا أقول ينبغي ، وإنما أقول : يُمكن أن يأتي إفرادك في نِيَّتِك ، والأفضل أن تكون نِيَّة الحجّ مَلْفوظة بِلِسانِك ، وقد قال العلماء : العِبْرة بما نوى لا بما لبَّى ، فلو فرضْنا أنَّ أحداً نوى الحج وقال : نوَيْتُ العمرة فيَسِّرْها لي ! فالعبرة على ما انعقد عليه قلبه ، وإنما الأعمال بالنيات .

ومعلوم عند إخواننا الحجاج أنَّ الإفراد أن تنوي الحج فقط ، وهذا أفضل شيء ، فإذا انْقضَتْ أيام العيد لك أن تأتي بعمرة ، وانتهى الأمر ، وهناك من يدْخل الميقات مُعْتَمِراً ، يطوف ويسْعى ويحْلق ويفكّ إحرامه ، ويبقى في مكَّة أياماً طويلة مُتَمَتِّعاً ، يَرْتدي ثيابه العاديَّة ، ويأكل ويتطَيَّب ويحلق ويقلِّمُ أظافره ويفعل ما يشاء ، كما لو كان في بلده ، فإذا كان اليوم الثامن من ذي الحِجَّة نوى الحج ؛ هذا اسْمُهُ مُتَمَتِّع وعليه هَدْيُ جَبْر ، فَهَدْيُ التَّمَتُّع هَدْيُ جبْر ، لأنَّ هناك نقْصًا أما دمُ القران فَدَمُ شُكْر ، فأنت أكرمك الله تعالى بِعُمْرة ، وبقيتَ مُحْرِماً إلى أيام الحج ، فَحَجَجْتَ وبقيتَ مُحْرِماً أياماً كثيرة ، فقد جَمَعتَ بين الحج والعمرة ، فأنت إذاً قارن ، وعليك دم الشُّكْر لكن أكثر العلماء وأكثر أعضاء البِعْثات الدينيَّة يَحُجون مُفْردين .

والتمتّع أن يحْرم من الميقات بعمرة في أشْهر الحج ، فإذا انتهى من مناسكها تَحَلَّلَ ولَبِسَ ثيابه ، إلى أن يحينَ وقْتُ الحج ، فَيُحْرِم بالحج من مكَّة ، وعليه إذا تَمَتَّعَ دمُ شاةٍ، وبالمناسبة أنا مع أنصار من يروْن بأنَّ ذبائِحَهم تُهْدى إلى فقراء المسلمين من الصُّومال وباكستان وهو عبارة عن اشْتراء شيك ، وثمنها مئتان وخمسون ريالاً ، تذهب طائرة خاصَّة تَرَوْنها في الأخبار إلى هذه البلدان الفقيرة ، ويجوز التوكيل في موضوع الهَدْي ، فكُلُّ الأماكن في مكَّة وجدَّة هناك بنك التوكيل الراجحي ، وأنت تكتب في الشيك نوع الذَّبْح إن كان شكْراً ، أم جبْراً ، أم ذبح كفارة ، وهم الذين يتَوَلَّوْن الأمر ، وعلى الإنسان أن يُبَكِّر في اشْتِراء هذا الشيك ، ثمَّ إنَّ المملكة حرصتْ على عدم ضياع هذا الهدْي ، لأنه في الأوَّل كانت منى لأشْهر فيها رائِحةِ جِيَف ، هذه القَضِيَّة انْتَهَت والحمد لله.

وعليه إذا تَمَتَّع دَمُ شاةٍ فمن لم يجِد فَصِيامُ ثلاثة أيامٍ في الحج ، وسبعة أيام بعد أن يعود إلى أهْله ، وإنَّما يجب الدمُ والصوم على المُتَمَتِّع بأرْبعة شُروط :

الشرط الأول : ألاَّ يخْرج عندما يريد الإحرام بالحج إلى ميقات بلده فَيُحْرِم ، فإذا دخل الإنسانُ من الميقات ، وأدى عمرة ، ثمَّ عاد إلى الميقات ، وأدَّى الحج لم يصبح مُتَمَتِّعًا ، أما أن يبقى في مكَّة ويُحْرِم من مكَّة فهذا هو التَّمتّع .

والشرط الثاني : أن يكون إحْرامه بالعُمْرة في أشْهر الحجّ ، ولو ذَهَبَ قبل شوال وأحْرم لم يكن مُتَمَتِّعاً ، ويجب أن يُحْرِمَ بالعُمْرة في أشْهر الحجّ ، والشيء الثاني أن يكون إحْرامه بالحجّ في نفْس سنة العُمْرة ، وألاّ يكون من حاضِري المَسْجد الحرام ، فإذا كان آفاقِياً وكان الحج والعمرة في سَنَة واحدة ، وتَمّتْ العُمْرة بأشْهر الحج ، وما عاد إلى الميقات لِيُحْرِم بالحج من جديد فقد وجب عليه الدم ، فإن لم يسْتَطِع وجب عليه صيام ثلاثة أيام في

الحج ، وسبعة إذا رجع إلى بلده .

أما القران فأن يُحْرِمَ بالحج والعُمْرة معاً ، فَيَطوفُ طوافاً واحِداً ، وسَعْياً واحِداً ، وحَلْقاً واحِداً ، ويُجْزئ عن ذلك أعمال الحج والعمرة معاً ، إذْ تدْخل أعمال العُمْرة في الحجّ ، ويجب عليه الدم أيْضاً كما في المُتَمَتّع ، بِشرْط ألا يعود إلى الميقات فَيَكون من حاضِري المسْجد الحرام، فأنت مُخَيَّر بين القران والإفراد والتَّمَتّع ، ففي القران تتداخل المناسك ، وفي التمتَّع تتباعد وفي الإفراد حجٌّ فقط ، والعمرة بعد أيام عيد الأضْحى .

والوجْهُ الرابع وأنا أُرَجّحُ هذا الوَجْه وهو الإطلاق ، وهو أنْ ينْوي الإحرام دون أن يُحَدِّد ، فهو حُرّ .

الإكثار من التلبية :

والتَّلْبِيَةُ سنَّة ، ويُسْتَحَبّ أن تكون كما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام : لَبَّيْك اللهم لبّيْك ، لبّيْك لا شريك لك لبّيْك ، إنَّ الحمد والنِّعْمة لك والمُلك ، لا شريك لك ؛ ثلاثًا ، ثمَّ يُصلي على النبي صلى الله عليه وسلّم بِصَوْتٍ أخفض ، وبِصيغة الصلوات الإبراهيميَّة ، ثمَّ يقول : اللهمّ إني أسألك رضاك والجنَّة ، وأعوذ بك من سَخَطِك والنار ، ثمَّ يدْعو لنفسه ، ولِوالِدَيه ولِمَن أحبّ ، ويُسْتَحَبّ الإكثار من التَّلْبِيَة على كُلِّ حال ، عند تغاير الأحوال ، وتلاقي الرِّفاق ، وإقبال الليل ، وإدْبار النهار ، وفي المَسْجد الحرام ، وفي مسْجد الخيف ، وسائر المساجد ، ويرْفع بها صَوْته من غير مُبالغة بشَرْط ألا يُشوّش على مُصَلٍّ أو قارئٍ أو نائِم . ولا يُلَبِّي في أثناء الطَّواف والسَّعْي ؛ لأنَّ للطواف والسَّعْي أذْكاراً مَخْصوصة ، ولا ترْفع المرأة صَوْتها بالتلْبِيَة ، وهذا من عُيوب الحاجَّات . ولا ينبغي أن تُسَلِّم على من يُلَبّي ، لأنَّهُ في ذِكْرٍ ، أما إذا سُلِّمَ عليه فعليه أن يَرُدَّ السلام ، وإذا رأى الحاج ما يُعْجِبُهُ من مظاهر الدنيا ينبغي أن يقول : لَبَّيْك إنَّ العَيْش عيْش الآخرة ، طرقات وقُصور وسيارات وتكْييف وسوبرماركتْ .

ويبدَأ وقْتُ التلْبِيَة حينما يُحْرِم ، وينتهي حينما يشْرع في التَّحلُّل بِرَمْي جمْرة العقبة صباح يوْم العيد ، وبعد ذلك تنتهي التَّلْبِيَة .

ما يجوز لمُحْرِم بِحجٍ أو عمرة إذا خاف مَرَضاً أو عَدُوًّا :

هناك حالة خاصَّة ؛ وهي إذا كان جسْمُ الإنسان فيه بعض الأعْراض ، ويمكن أن يمْرض في الحج ، واللهُ تعالى من كرمِهِ للحجاج أنَّه يُعافيهم من أمْراض يُعانون منها في إقامَتِهم، ولكن من باب الاحْتِياط يجوز لمُحْرِمٍ بِحَجٍ أو

عمرةٍ إذا خاف مَرَضاً ، أو عَدُوًّا ، أو نفاذ زادٍ ، أو أيّ مانعٍ يشُقّ معه الاسْتِمرار في الحج أن يشْترط في نفْسِه عند الإحْرام التَّحَلّلَ عند طروء العُذْر بِهَدْي ، أو دون هَدْي بأنْ يقول : نَوَيْتُ الحجّ ، وأحْرَمْتُ به لله تعالى ، لَبَّيْكَ اللهمَّ بِحَجٍ ومَحَلّي حيث حَبَسَني العُذْر أتَحَلّل ، فهذا الكلام يجْعل حجَّك مقبولاً فيما إذا طرأ بينك وبين إتمام الحج طارئ ، وقد بلغني أنَّ المملكة عادَتْ إلى التَّقْنين ، وهي أنَّ مليون ونصف فقط ، وهذه الفئة يمكنها الحج بِرَاحة تامَّة ، أما أربعة ملايين فهذا غير معْقول !! كالعام الماضي . ويجوز أن يشْترط الحاج في نفْسه عند العُذْر أن يقْلب حجَّهُ إلى عمرة ، وتُعَدُّ العمْرة مُجْزئة عن عُمْرة الإسلام ، لأنَّ الله تعالى قال :

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

[سورة البقرة : 196]

فالعمرة لا بدّ منها ، وهي غير الحج .

الأشياء التي لا يجوز أن يفعلها المحرِم و المُحرم :

الأشياء التي لا يجوز أن يفعلها المحرِم ، والأشياء التي لا يجوز أن يفْعلها المُحْرم ؛ اللِّباس بالنِّسْبة للرَّجل ، فَيَحْرُمُ عليه لُبسُ المخيط والمُحيط ، المصنوع على قَدْر البدن ، أو على قدْرٍ منه ، ويحْرُمُ عليه أيْضاً ستْرُ رأسِه بأيّ شيءٍ يُعَدُّ ساتِراً ، وتُكْرَهُ المِظَلَّة عند الشافعِيَّة ، وتجوز عند الأحناف من دون كراهة ، إلا أنّ المظلَّة الآن واجبة ، لأنَّ تحرُّك الإنسان بِمَكَّة أو المدينة فيه احْتِمال كبير لضربة الشَّمْس ، والله تعالى قال :

﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

[سورة البقرة : 195]

أما من ضاعت مِنْشفته فلا بأس أن يضع عليه جُبَّة ، ولو أنَّها مخيطة إلا أنَّها ليْستْ مُحيطة .

فلو الْتَحَفَ بِجُبَّة أو لحافة عند نومه جاز له ذلك ، لكِنَّكم لا تحْتاجون لا إلى جبَّة ولا إلى لحافة ، إنما تحْتاجون إلى مُكَيِّف ، وله أن يشُدَّ عليه نِطاقاً ، وأن يلبس خاتماً ونظارات وساعة ، وله أن يعْقِدَ الإزار من طَرَفَيْه فعند الشافِعِيَّة يجوز ، وله أن يجْمعه بالدبابيس ، طبْعاً نحن نتَكَلَّم عن الإزار وليس عن الرّداء ؛ فالإزار في القِسْم السُّفلي أما الرِّداء في القِسْم العُلوي .

وله أن يجعل في إزارِه تكّةً أو خيطاً أو مطاطاً يعْقِدُهُ من طَرَفَيْه كي يشدّ الإزار على وسطِه ، ولكنّه ليس له أن يخيطه من جانِبَيْه على بعْضِهما ، أما المرأة فيجوز لها أن تلْبِسَ ما تشاء ، كما تلْبِسُ في حالتها العاديَّة ، ثمّ

مسألة وجْه المرأة تعود على حسب القناعات فإذا الزَّوْجة تسْتر وَجْهها في بلدها فينبغي أن تسْتره هناك ، وهناك طريقة لِسَتْر وجْهها في الحج وهي أن تضع واقِيَة صغيرة بِمَطاطة يأتي المنديل بعدها ، فيأتي المنديل بعيداً عن وَجْهها وهي عَمَلِيَّة مَشْروعة ، وأنا أُفَضِّل سَتْر الوجه بِهذه الطريقة ؛ واقِيَة صغيرة بِمَطاطة يأتي المنديل بعدها والوجْه وجْه مهما كان بالحج أو بغيْره ، والدليل :

" كنا مُحْرمات مع رسول الله صلى الله عليه وسلَّم – السيّدة عائِشَة – فكان الركبان إذا مروا بنا أو حاذَوْنا أسْدَلَتْ إحْدانا جِلْبابها على وَجْهِها " فإذا خَشِيَتْ المرأة كَشْف وَجْهها جاز لها أن تسْترهُ بمنديل كما ذكرنا قبل قليل ، ولُبسُ القُّفازَيْن عند الأحْناف جائز ، وعند الشافِعِيَّة لا يجوز . ولو احْتاج الرجل إلى أن يسْتر رأسه بِنَحْو مُداواة ، أو المرأة أن تسْتر وجْهها لِمِثْل ذلك جاز ووجَبَتْ الفِدْية .



ويحْرم على المُحْرم أن يتطيَّب في بدنه أو ثوْبه أو فراشه بِكُلِّ ما يُعَدُّ طيباً ، أما ما كان طَيِّبَ الرائِحَة ، ولَيْس بِطِيبٍ كرائِحَة الفواكه ، كالتفاح والبرتقال فلا تحْرم ، لكن الذي يحْرم أن تدَّهِنَ بالأدْهان والكريمات فهذه كُلُّها مُحَرَّمة ، ودُهْنُ ما ليس بِطيبٍ كالزَّيْت والسَمْن ونحوهما فلا يحْرم الادِّهان بهما إلا في الرأس واللِّحْيَةِ ، ومن العادة قديماً أن يدْهنوا الشَّعْر بالزيت ويحْرُمُ اسْتِعمال الكُحْل المُطَيَّب ، وأكْل الطعام المُطَيَّب ، كبعض الحلويات .

وشمُّ الورْد عند الشافِعِيَّة يُعَدُّ تطيُّباً ، وعند الأحْناف مكْروهٌ ، فلو جلَسْتَ بِحانوت عطَّارٍ بِقَصْد شمِّ رائِحة ما عمدًا كُرِهَ ذلك ، وتطِّيب الناسي والجاهل والمُخْطئ والمُتَعَمِّد سواءٌ في وُجوب الجزاء ، إلا أنَّ الناسي لا يُحاسب عند الله ، والجاهل يُحاسب على جهْله ، والمُخْطئ كذلك ، إلا المُتَعَمِّد فيُحاسب على تَعَمُّدِه ، أما في الجزاء فهم فيه سواء .

ثمَّ على الإنسان أنْ يأخذ ما يكْفيه من أكْل وشُرْب ومُواصلات بالحدِّ الأدْنى ولا يزيد. وتُحْرَمُ إزالة الشَّعْر بنَتْفٍ ، أو حلْقٍ ، أو حرْقٍ ، أو قَصٍّ في أيِّ موْضِعٍ كان من البدن ، وتُحْرَمُ إزالة الظُّفْر أيضاً ، أو جُزْءٍ منه ، فلو فعل أثِم وعصى ، ولَزِمَتْهُ الفِدْية ، فلا يتسَلَّى الإنسانُ بِوَضْع ظُفْره في فمه ، والمُهِمّ الانْتِباه لهذه الأمور ، ثمَّ الحلْق أوْلى من التَّقْصير ، وكذا لو عَلِمَ أنَّ شعْرهُ خفيف وكلَّما مشَطَه سقط فلا يمسّ شعْره ، أما إذا سقط شعْره من تلقائِهِ فلا شيء عليه .

((وعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الْعَجُّ وَالثَّجُّ))

[الترمذي عن أبي بكر رضي الله عنه]

فكلَّما كانت هيْئتك مُنَفِّرَة كلَّما كان حجّك أضبط ، فالأناقة بِبَلَدِك ، أما في الحج فالعجّ والثجّ .

بالمناسبة بلغنا أنَّ معْجون الأسنان كريستال فيه لحْم خنزير ، وقد أخْبرنا بهذا إخوانٌ لنا .

و يحْرُمُ على المُحْرِمِ أن يُزَوِّجَ أو يتزَوَّج ، و كُلُّ عقْدُ نكاح كان فيه الوليّ والزوْج أو الزوْجة مُحْرِماً فهو باطِل ، و يجوز للمُحْرم الشهادة في عَقْدٍ لِغَيْر المُحْرِم ، قال تعالى :

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾

[سورة البقرة : 197]

ويدخل في ذلك الجماع ومُقَدِّماته كُلُّها . وإتْلاف الصَّيْد من كُلِّ حيوانٍ برِيٍّ وَحْشيٍّ مأكول مُستأنس أو غير مُستأنِس ، مملوكٍ أو غير مملوك يحْرُمُ على المُحْرِم ، فإن فعله لزِمَهُ الجزاء ، وقيمته لِصاحِبِه إن كان مملوكاً ، ولو توَحَّشَ إنسيٌّ لم يحْرُم ، ولا يحْرُمُ صَيْدُ البحْر وتحْرُمُ الطُّيور .

كما يحْرُمُ على المُحْرِمِ كُلّ شكْل من أشْكال المُعاوَنَة على الصَّيْد المُحَرَّم ، ويجوز للمُحْرِمِ أن يغْتَسِل ، ويكون ذلك بالصابون غير المُعَطَّر ، فَكُلُّ هذا مُتَعَلِّقٌ بالإحْرام ، وفي الدَّرْس القادِم إن شاء الله تعالى نتحَدَّثُ عن دُخول مكَّة زادَها الله تعْظيماً وتَشْريفاً .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 12 : دخول مكة – الطواف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً ، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه ، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه ، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه ، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين .

الحج مناسك و مشاعر :

أيها الأخوة الأكارم ، مع اللِّقاء الثالث من لقاءات مناسك الحج ، وقد تَحَدَّثنا في اللِّقاء السابق عن الإحرام ، وعن محْظوراته ، وبعد أن أحْرم الحاج واتَّجه إلى مكَّة المُكَرَّمة ، بقي أمامه دُخول مكَّة زادها الله شرَفاً وتعظيماً . وقبل أن نمْضي في الحديث عن تفاصيل مناسك الحج بعد الإحرام ، لا بدَّ من ملاحظة .



أيها الإخوة الأكارم ، الحجّ مناسك ، لكنَّ هذه المناسك لا بدّ لها من مشاعر ترافق هذه المناسك ، فإذا خَلَتْ هذه المناسك من المشاعر يشْعر الحاج بِعَدم جدْوى حجِّه ، ولا أقول : بعدم صحَّة حجِّه ؛ لأنَّ أمر الله عز وجل أعظم وأجلّ من أن يأمرك من أن تأتي من بلادٍ بعيدة وتدفع عشرات الألوف من أجل أن تقوم بِحَركات وسكنات ، ولا تشْعر معها بِشَيْء ، فهذا الذي أتمناه عليكم ؛ فإذا طاف أحدكم ولم يشْعر بِشَيْء ، وسعى ولم يشْعر بشَيْء ، وخواطره مُتَعَلِّقة بالدنيا ، ينبغي أن يعدّ هذا مُؤَشِّراً خطيراً في حياته ، كيف أنَّ الإنسان يجد ضوءًا أحْمر يتألّق في مرْكَبَتِه ، فهذا الضوء الأحمر مُؤَشِّر خطير ، وذلك أنَّ الزيْت انتهى في المُحَرِّك ، وربَّما احْترق المُحَرِّك .

فيا أيها الأخوة ، الدِّينُ النَّصيحة ، فإذا طُفْتَ البيْت ، وسَعَيْتَ بين الصفا والمرْوة ووقَفْتَ في عرفات ، ونَفرْتَ إلى مِنى ، وفي أثناء الصلاة ، وفي أثناء الدعاء ، لم تشْعر بِشَيْء إطْلاقاً فهذا مُؤَشِّر خطير ، ماذا تفْعل ؟ تُتابع المناسك على هذه الطريقة ، ويجب أن تُراجع نفْسك وتبْحث عن السَّبب وعن العلَّة ؛ لعلَّ هناك تقْصيرًا ومعْصِيَة، وأنا أقول لكم – وهو ليس مفْروضاً عليكم – : إذا طُفْت البيْت ولم تشْعر بِشَيْء أعِدِ الطواف ، لأنَّك أنت هناك للطاعة والعبادة ، هل هناك في الحرمين الشريفين شيءٌ يُغْريك غير الصلاة أو الطواف والدعاء ؟ أنا أقول لكم : هناك حجَّاج مَحَلُّهم الأسْواق والشِّراء والأقرباء ، فهم من دون أن يشْعروا انْتَقَلوا من عبادة عظيمة إلى سِياحة ممتِعَة ! ومن لوازم السِّياحة الأكْل الطِّيِّب ، والمناظر الجميلة ، والكلام المُمْتِع على حِساب مشاعر الإيمان التي كان ينبغي أن يشْعروا بها ، وهم يؤَدّون مناسك الحجّ .

الحجّ رِحْلةٌ روحِيَّة لها ميزاتٌ خاصَّة :

إذاً بادئ ذي بدْء دخلتَ إلى مكَّة ، وزُرْتَ الكعبة وطُفْتَ حولها ، وسَعَيْتَ بين الصفا والمروة ، فإن لم تشْعر بإقْبالك على الله ، وإن لم تشْعر بوجل واضْطِراب وقُشَعْريرةٍ ودموعٍ تنْهَمِر ، إذْ أنَّك في ضِيافة الرحمن فهذا مؤشر خطير ، وأنا أقول لك : صلاتك في البيْت الحرام، وصلاتك في مقام النبي العدنان صلى الله عليه وسلَّم غير صلاتك في بلدك ، إذا صحَّ التعْبير صلاتك في بلدك كأنَّك تسْبح معاكِساً للنَّهْر ، لكنَّ صلاتك في الحرمين الشريفين كأنَّك تسْبح باتِّجاه النَّهْر ، وبِبَساطة يخْشع قلبك وتتأثَّر ، لأنَّك في ضِيافة الرحمن ، فأوَّل عطاء إلهي تسْتحِقّه هناك أن يتَجَلَّى على قلبك ، وأن يُشْعِرَك بِطَعْم اللِّقاء وطعْمِ القُرْب ، ففي بلدك يمكن أن تُحاول أن تخْشع فلا تتمَكَّن إلا أنَّه هناك أدْنى مُحاوَلَة تفْعلها في البيت الحرام تجد الجواب جاهِزاً، وهو التَّجلي ، فالأمر أعظم بِكَثير ، إنَّنا دخلْنا مكَّة ، ما شاء الله ، ما هذه الشوارع وهذه الجُسور وهذه الإضاءة ؟ وقد يقول : ربَّما حرمُهم يمْلك إضاءة قطْرنا كُلِّه ! خطر ببالي أن أضع بينكم هذا المثل : دعوْتُ أخوةً لنا لِيَتَغدُّوا ، فجاء أحدهم ، وحينما حضر رفع العتب وما أكل ، أنا أحرص على أن يأكل ، وكذا إذا دعانا ربُّنا إلى بيته ، لا من أجل أن يسْقط عنا الفرض ، وهو يسْقط لا شكّ ، فالله تعالى حينما يدْعو عبده إلى بيته فقط من أجل ألاَّ يُحاسبه على تقْصيره ، بل هناك دعوة إلى اللِّقاء مع الله عز وجل ، وضَعْ في ذِهْنِك أنَّ هذا الحجّ رِحْلةٌ إلى الله ، وهي رِحْلة روحِيَّة لها ميزاتٌ خاصَّة فالذي يُؤْلموني أشَدَّ الألم أنَّهُ في كُلِّ عام أُهَنِّئ الحجاج القادمين ، فأصبحتْ لي هواية أن أسْتَمِعَ إلى ما يقولون ، ستون بالمئة منهم أو ثمانون بالمئة ولا أُبالغ يُحَدِّثُكَ عن كُلِّ شيء إلا عن الحج ، يحْكي

تفاصيل رُكوب الطائِرةِ ودُخول جدَّة، وتفاصيل الطعام والمَحَلات التِّجاريَّة ، وتفاصيل مُعاملة الجوازات ؛ هل هذا هو الحج ؟! إلهٌ يدْعوك إلى بيته من أجْل العبادة ثمَّ تنْقلب إلى سائِح !!

أوّلاً أنت مُحْرم ، بالإحرام نركب الطائرة ، ومحَطَّةُ الطائِرَةِ في مطار جدَّة ، وخرجْنا من المطار ، واتَّجَهْنا إلى مكَّة المكرَّمة ، ثم يتَوَجَّه الحاج بعد إحرامه إلى مكَّة أوّلاً ؛ ما معنى ذلك ؟ إذا كان لك صديق أو قريب فهذه الزيارات الجانِبِيَّة دليل عدم الشَّوْق الكافي ، أما إن ذَهَبْتَ قبل الحج إلى جَدَّة فلا مانع ، ولكن ليس في أيام الحج الحَرِجَة ، لذلك فالآداب أن يتَوَجَّهَ الحاج بعد إحْرامه إلى مَكَّةَ أوّلاً ، فإذا دَخَلَ حُدود الحرَمِ – أي حرَمَ مكَّة ، وأيّ كتاب ممكن أن تجد فيه حدود الحرم – يُسْتَحَبّ أن تقول : اللهمّ هذا حرمك وأمْنك ، فحَرِّمْني من النار وأمِنِّي من عذابك يوم تبعث عبادك ، واجعلني من أوْليائك وأهل طاعتك ؛ هذا قبل دُخول مكَّة ، فإذا وصل إلى مكَّة يسْتحبّ أن يغْتَسِل اتِّباعاً للسنَّة قبل أن يبْحث عن بيْتٍ ، يمكن أنه في الأيام السابقة كانت هناك أماكن للاغْتِسال ، أما الآن فلا يوجد أماكن تغْتَسِلُ فيها بِمَكَّة إلا في بيتٍ ، فإن كنتم أعضاءً في فوجٍ فهذه المُهِمَّة مُعْفَوْن منها ، والله عز وجل سَخَّر لكم أُناساً يبحثون لكم عن هذا البيت والمُقام .

البِداية الناجحة يعْقِبُها نِهاية ناجحة :

هناك نقْطة سَأضَعُها بين أيْديكم ، إن في مَكَّة أو المدينة الذي يحْصل عند بعض الحجاج أنه بِمُجرَّد أن وصل إلى المدينة ، علْماً أنَّ الإنسان أغلب الظنّ يكون له يومان إن لم نقل أكثر لم ينَمْ فيهما ، فإذا كنت مُنَهك القوى ، وخائر العزيمة ، ومتاعب المطار ، وانْتِظار الطائرة ، والصُّعود للطائرة ، والنُّزول من الطائرة ، والانْتِظار في الدَّوْر ، إذا أردْتَ أن تدْخل مكَّة المُكَرَّمة مُباشرةً رُبَّما تُفاجأ أنَّ تعَبَكَ الشديد وقواك المُنْهمرة حالَ بينك وبين هذا الحال القلبي الرائع الذي ينبغي أن يشْعر به الحاج إذا دخل مكَّة ، فهذه نصيحة أخَوِيَّة لا علاقة لها بِمَناسك الحج اِبْحث عن بيت ، وانْطلق إليه ، واغْتَسِل ، وخُذْ قِسْطاً من الراحة ، والْبِسْ ثِياباً جديدة ، أو المناشف الجديدة ولا تدْخل إلى الحرم المكّي إلا وأنت في كامل قِواك ، لأنَّ البِداية الناجحة يعْقِبُها نِهاية ناجحة ، ولأنَّك إن دخلت مع التعب والإرهاق لِتَطوف سبعة أشواط مُتتالِيَة ، وبعْدها تسْعى بين الصفا والمروة سبْعة أشْواط ، وتُصَلي بعدها، فأغْلب الظنّ لن تشْعر بالمشاعر التي ينبغي أن تُرافق المناسك ، وإذا لم تشْعر بها شَعَرْتَ بِما يُسَمَّى الإحْباط، فلئلا تقعوا في هذه المُشْكلة أنْصَحُكُم أن تتَوَجَّهوا إلى البيت الذي أُعِدَّ لاسْتِقْبالكم ، وأن تأخذوا قِسْطاً جيِّداً مديداً من الراحة ، وأن تنْطلقوا للطواف في أوْقات يُرَجَّحُ أنَّها أقلّ الأوْقات ازْدِحاماً ، فلو أنَّك انْطَلَقْتَ إلى

الحرم بلا خبرةٍ ، وكان هناك ازْدِحام شديد ، وهذا دَفَعَك ، والآخر أزاحك ، وذاك عَصَرك ، وأنت أوَّل مرَّة تدخل فيها إلى الحرم ، فأنا أريد أن تكون خِبْرات الآخرين بِأَيْديكم ، فالذين حَجُّوا ثلاثين حَجَّة يعْرِفون من أين تُؤكَل الكَتِف ، فعلى سبيل المثال لو أنَّ أحداً ذهب للحرم المدني وصلى الفجْر وبعد الصلاة مباشرة ذهب إلى المقام النبوي الشريف سَيَجِد ازْدِحاماً لا يوصف ، ودفْعاً غير معقول ، ولا يزال يدْفع حتى يجد نفْسه في الطريق ، أليس كذلك ؟ فأين المشاعر إذاً ؟ وأين الشوْق وأين المقامات التي يتحدَّث عنها العلماء في الخطب ؟ لذلك أنا أنصح أخواني بِصلاة الفجْر ؛ صَلِّ الفجْر واجْلس لتقرأ القرآن ساعة ، حتى ينْفضّ أكثر المُصلين إلى البيوت ، وفي الساعة السابْعة بإمكانك أن تقف أمام النبي عليه الصلاة والسلام نصف ساعة أمام الحائط من دون أن يُزْعِجَكَ أحد ، طبْعاً كُلُّ إنسان لا بدّ أن يقع فيِ خطأ في أوّل حجّه ، لكن باعتبار أنَّكم أعضاء فوْج ، وأُمناء الأفواج خبراتهم بين أيديكم مبْذولة ، فاسْألوا : أيّ الأوقات المناسبة للطواف حوْل الكعْبة ؟ فلو ذهبت وقْت المغْرب والعشاء، ووجدْتَ ازْدِحاماً غير معْقول ، فالأفضل الطواف على الساعة الثانية عشرة ليلاً أو الساعة الثانية ليلاً ، أو الساعة الثالثة بعد الظهْر ، حيث يكون هناك حرّ شديد ، وأنت شاب ومعك مظلة ، إذْ يمكن اسْتعمالها في أثناء الطواف ، وليس المهمّ أن تطوف ، وإنما المهمّ أن تشْعر أنَّك تطوف ؛ تأدية المناسك مع حصول المشاعر، والله لو بكى أحدكم في أثناء الطواف من شِدَّة القرب يعْرف أنَّ هذا هو الحجّ ، وهذا هو الصلْح مع الله ، وهذه هي حجَّة الفرْض ، وهكذا أمرَ الله بتأدية الحجّ ، والقُرْب يُعَبَّر عنه بالبكاء أحْياناً ، وبالقُشَعْريرة ، وبالوَجَل أو الخوف ، وبالسرور أحياناً ، فهذه هي مشاعر الحاج .

ما يستحب في مكة :

يُسَنّ أن تدْخل مكَّة حافِياً ، ويجوز أن تمْشي حافياً وقْتاً مُعَيَّناً ، دليلاً على التواضع إلا أنَّ الأوْلى أن تكون مع المجموع في الأمور الفرعيَّة ، ويُسَنّ أنْ يتجَنَّب الحاج إيذاء الناس ومُزاحمتهم ، وأنْ يتلّطَّف ويرْحم إخوانه الحجاج ، ويُسْتحبّ أن يكون أوَّل عملٍ له حينما يدْخل مكَّة الطواف ، وذلك قبل السَّكن وتغْيير الثِّياب ، وقد علَّقْنا عليها تعليقًا بسيطًا وهو أنَّ السفر كان على مراحل ، أما الآن فقد صار مُتَّصِلاً ، فقد وصل المُتَحَدِّث في الحج الماضي منهكًا ، يقول : يمكن أنّه لم يمرَّ بِحياتي منذ خمْسين عاماً شُعورٌ بالتَّعَب المُتَّصِل كهذا الوقْت .



فإذا أراد الحاجُّ أن يدْخل الحرم ، أي المسْجد الحرام ، فعليه أن يسْتحضِر الخُشوع والخُضوع لله تعالى ، ويبْدأ الدُّخول بِرِجْلِهِ اليُمْنى قائِلاً : أعوذ بالله العظيم ، وبِوَجْهه الكريم ، وسُلْطانه القديم من الشيطان الرجيم، بسم الله والحمد لله ، اللهمّ صلِّ على نبِيِّنا محمَّد وعلى آل محمَّد ، اللهمَّ اغْفِر لي ذُنوبي ، وافْتَحْ لي أبواب رحْمتك ، إذْ أساساً دُخولك لى المسْجد من أجل الرَّحْمة ، وخُروجك منه من أجل الفضْل ، وقد عَلَّمنا النبي عليه الصلاة والسلام إذا دخَلْنا المسْجد أن نقول :" اللهم افتح لي أبواب رحْمتك . . . ." فإذا خرجت من المسجد :" اللهمّ افتح لي أبواب فضْلك "، فالمسْجد لنزول الرحمة ، وخارجه لاكتساب فضل الله تعالى ، وهناك بشارة لكم وهي إذا وقع بصرك على الكعْبة أوَّل مرَّة ، هناك دعْوة مُستجابة ، فاطْلب وتمنَّ ، هكذا ورد في السنَّة، وإذا كنت بطلاً فاسْأل الله خير الآخرة قبل خير الدنيا ، فالدنيا زائلة ، اللهمّ اهْدِني واهْد بي ، اللهمّ دُلَّني عليك ولا تجْعل حوائِجي إلا إليك ، أُدْع ساعة مثلما تريد ، شُغْلُك هو الدعاء والمناجاة والاتِّصال بالله ، فينبغي أن تدْعو ، لأنَّ لك دعْوةً مُسْتجابة ، ولك دعوة مُسْتجابة إذا الْتَزَمْتَ المُلْتَزَم ، وكذا عرفات ، فالمَنْسَك الواحد فيه الدعاء ، فالصلاة تُجْمع وتُقْصر من أجل الدعاء ، وأقول لكم : يا خَيْبة الحاج إذا اشْتَغَل بِعَرَفات بغير الدعاء ، ويا خسارته ، وقد أتى من بلادٍ بعيدة ودعاه المولى عز وجل لِيَسْتجيب له ، ويغْفر له ، لذلك من وقف في عرفات ولم يغْلب على ظَنِّه أنَّ الله تعالى قد غفر له فلا حجَّ له ، أنت في ضِيافة أكرم الأكرمين ، وأنت تأتي لهذه البلاد وليس لك لا أهل ولا تجارة ، ولا مصالح ولا منافع ، كُلُّ هذا من أجْل الله . أذكر أوَّل حجَّة بِعَرفات ، كان الحرُّ شديدًا ، فناقشْتُ نفسي وقلت : يا ربّ أنْ يأتي الباكستاني من عشرات ألوف الكيلومترات ، ويدْفع آلاف الدولارات من أجل أن يقف في هذا المكان كالصَّنَم؟! ليس هذا هو الحج ! إنما الحج لِقاءٌ مع الله ، ولذلك: لَبَّيْك اللهمّ لبَّيْك أساسه نداءٌ تسْمعه ؛ تعال إليَّ يا عبدي ، وإلى ضِيافتي ، ولِأُريحك من هُمومٍ كالجبال . فإذا وقع بصر الحاجِّ على الكعبة المُشرَّفة ، رفع يديهِ وقال : " اللهمَّ زِدْ هذا البيت تشْريفاً وتعظيماً ، وتكْريماً ومهابَةً ، وزِدْ من شَرَّفَهُ وعَظَّمَهُ ممَّن حجَّهُ واعْتَمَرَهُ تشْريفاً وتعْظيماً وتكْريماً وبِراً ، اللهمّ أنت السلام ومنك السلام ، تباركتْ يا ذا الجلال والإكرام " ، وقد ورد أنَّهُ يُسْتجاب دُعاء المُسْلم عند رؤيته للكَعْبة المُشَرَّفة ، فلْيُكْثِر من الدُّعاء ، فعليك أن

تأخذَ قِسْطاً وافِياً من الراحة حين وُصولك لِمَكَّة ، واغْتسِل وارْتَدِ المناشف الجديدة ، وتوجَّه إلى الكعْبة وحينما يقعُ بصرك على الكعْبة أكْثِرْ من الدُّعاء ما اسْتَطَعْتَ .

وإذا دخلتَ البيت الحرام فليس هناك صلاة تَحِيَّةِ المَسْجد لكِنَّ طوافك هو التَّحِيَّة ، أما إذا وَجَدْتَ أنّ هناك ازْدِحاماً لا يُحْتَمَل ونُصِحْتَ أن تبْقى إلى ساعَةً متأخِّرَةٍ من الليل قبل أن تطوف فصلِّ حينئذٍ ركعتين تَحِيَّةً للمسْجد ، ولا تُصَلَّى ركعتا تحيَّة المسْجد إلا إذا أَخَّرْتَ الطواف عن وقْتِ دُخول المسْجد .

بِحَسَب الدرْس السابق ، إذا أحْرمْتَ مُفْرِداً فطَوافُكَ طواف القُدوم ، وإذا أحْرَمْتَ مُعْتَمِراً وفي نِيَّتِكَ أن تتمَتَّع بين العمرة والحج فَطَوافك طوافك الرُّكْن ، فالأمْر يخْتلف بين طواف السنَّة – طواف القُدوم ، وبين طواف الركنِ – وهذا بِحَسَبِ النِّيَّة ، وقد اتَّفَقْنا جميعاً على أنّ أنْسب حجَّةٍ لنا الحج المُفْرِد ، فإذا أحْرَمْنا من رابغ أحْرَمنا بِحَجّ ، فهذا الطواف طواف القُدوم .

كيفية الطواف :

كيْفِيَّةُ الطواف : الكعْبة فيها رُكْن يماني ، والحجر الأسْود ، ولها أربع جِهات اتِّجاه نحو الشام ويُقابله الحِجْر وهو القوْس ، ونحو اليَمَن الرُّكْن اليماني ، والشرْق الرُّكْن العِراقي ، والغرب معْروف ، فأنت يجب أن تأتي الكعْبة من جِهَتِها المُقابلة لليَمَن . فيستقبل الحاجُّ القبلة من الجهة التي بين الركن اليماني والحجر الأسود جاعِلاً الحجر عن يمينك ، ومَنْكِبَكَ الأيْمن عند طرف الحجر ، وهذا سنَّة ، وإلا فهناك طريقة أُخرى أشْرحها بعد قليل . وتكون الكعْبة على يسار الحاجّ ، ويمْشي فيَتَجاوز الحجَر وفالباب ، حتى يبْلغ الركن العِراقي ، ولا يفْعل في الأشْواط التالية ما يفعله في المرة الأولى ، أي أن تتَّجِه إلى الكعْبة من عند الحجر . قبل أن نمْضي في الحديث عن كيفيّة الطواف ، لا بدَّ من شروط الطواف .

شروط الطواف :

شروط الطواف : أوَّلاً : الطهارة من الحدث الأكبر والأصْغر ، والطهارة من النَّجاسة ، فإذا انْتَقَضَ وُضوءك في أثناء الطواف فقد لا تُصَدِّق أنَّك تحْتاج إلى أكْثر من ساعة ونِصْف كيْ تُعيد الوُضوء لأنَّهُ ليس في الحرم المَكِّي دَوْرة مياه إطْلاقاً ، إلا مكان الشُّرْب ، وحينما تُحاوِل أن تتوضَّأ بِمَكان عالٍ ، تجد مَشَقَّة ما بعْدها مَشَقَّة ، فَمُلَخَّص كلامي ؛ الأوْلى قبل أن تدْخل البيت الحرام أن تنْقُضَ وُضوءك ، وأن تقْضي حاجاتك ولو بِشَكْلٍ قصْري

حتى تضْمن أنَّك تبْقى ولو ساعَةً في البيت الحرام ، فَكُنْ مُسْتَعِداً ، ولا تترك قضاء الحاجة يشْغلك عن الطاعة ، فلا تدْخل الحرم المكي إلا متوضِّئًا ، وأنت تشْعر بالخِفَّة ، واللهِ لما كنت أحجّ لا أغْبِطُ إلا الشباب ، وأقول : إنَّ الحجّ يحْتاج إلى شباب ! لأنَّهُ سبْعة أشْواط ، وازْدِحام ، وسَعْي ، فالقَضِيَّة ليسَتْ سهْلة لهذه الدَّرجة ! الحجّ عبادة بَدَنِيَّة بأعلى درجات العبادة ، فالطهارة من الحدث الأكبر والأصْغر ، والطهارة عن النَّجاسة .

ثانياً : مُلامسة الرجل المرأة تنْقض الوُضوء عند السادة الشافِعِيَّة ، فإذا كان الإنسان شافعِياً ومَسَّتْ يده امْرأة أجْنَبِيَّة عنه انتقض الوضوء ، إلا أنَّني أُبَشِّرُكم وأُطَمئِنُكم وأنتم في الحرم المكي ؛ صَدِّقوني إذا كنت مُخْلِصاً وصادِقاً ، وتبْتغي وجْه الله عز وجل لا تشْعر أنَّك رجل ، وأنَّ عنْصر النِّساء لا يدْخل في حِسابك إطْلاقاً ، بِمَعْنى إذا مسَّت يدك يد امْرأة لا تشْعر بِشَيْء إطْلاقاً لأنَّك في مكانٍ عظيم ، فهذا الموضوع ينْتَسِخ كُلِيًّا ، وهي مُلاحظة أضعُها بين أيديكم ، قَلِّدْ المذْهب الحَنَفي وأنت مُطمئنّ ، لن تشْعر بِشَيْء من جهة النِّساء ، إلا إن كان ذهابك لِشَيْء آخر فهنا تكون علامة الاسْتِفهام . والطهارة عند الأحناف واجبة وليست بِفَرْض ، فمن طاف طواف الإفاضة مُحْدِثاً حَدَثاً أصْغر فعليه دم ، أي هَدْي ، أما عند الشافِعِيَّة فالطهارة شرْط لِصِحَّة الطواف ، فالوُضوء شرْط أساسي لِصِحَّة الطواف ، إذْ لا يُعْقل من أجل الوُضوء تُقَدِّم هَدْياً بِخَمْسة آلاف .

ثالثاً : سَتْرُ العوْرة ، وما أكثر الحُجاج الذين يتساهلون فَتَنْزِل المنْشفة عن نصف بطنه ، وتظْهر سُرَّتُه ، ويكون طوافه غير صحيح ، وإذا كان في طواف الرُّكن أصبح حجُّه غير صحيح ، فتجد عَشَرات الحجاج منْشفتهم تحت السرَّة ، لذلك عليك بضبط المنشفة بِشَكْل صحيح حتى تتأكَّد أنَّهُ في أثناء الطواف لن تُكْشَف عَوْرتك . وأن يكون طوافه ضِمْن المسْجد الحرام ، فإذا دَخَل في الحجر أصبح طوافه باطِلاً ضِمْن المسْجد وخارج الكعْبة ، لأنَّ الحِجْر يُعَدّ من الكعبة ، فالطواف به باطل ، ولو طاف بالطابق الثاني جاز له ذلك ، كما أنَّني أنصحكم أن تطوفوا حول الكعبة من تحت ، وهذا هو الشعور الروحاني فإن لم تجد ففي الطابق الثاني . وأن يسْتكمل سبعة أشواط كاملات ، فلو شَكَّ هل طاف سِتَّةً أو سبْعةً ماذا يفْعل ؟ أخذ باليقين ، وهو السِتَّة ، أما عند الأحناف إذا شَكَّ في الطواف عليه أن يُعيد الطواف ! وهذا في طواف الركن ؛ وطواف الإفاضة ، وهو أخْطر طواف ، فإذا شَكَكْتَ فالأولى لك أن تُعيدَهُ ، إلا أنَّ هناك طريقًا يمكنك أن تسْتعملها كي تعرف عدد الطواف ، ولكن ليس أن تأخذ سُكَّرَة ولما تنْتهي من أكلها تدرك أنَّك طفْتَ سبْعاً !! لأنَّك إن شككْت بالركن عليك الإعادة ، أما إن شككْتَ بغير الركن كَطَواف القُدوم فيُمْكن أن تبْني على الأقلّ وتُكْمِل ، أحدهم أخذ كتاباً وبدأ يطوف ثمّ اخْتلط عليه كم طاف فذَهَب لِشَيْخه فقصَّ له ما حدث ، فقال الشيخ : يا بنيّ ، أنت طُفْتَ بالبيْت ولم

تطُف برَبِّ البيت ، فعاد الغُلام ، والْتَجأ إلى الله ، وأخْلص فإذا به ينْسى كم طاف فعاد لِشَيْخه فقصَّ عليه ما جرى ، فقال الشيخ : أنت طُفْتَ برَبِّ البيت ولم تطُف بالبيت ، فالإنسان عليه أن يجْمع ببين الحال والضَّبْط ، أحدهم سأل شيْخاً فقال : يا شيخ ، لو أنَّ رمضان جاء في شهر الحج فهل أصوم ؟!! هذا سؤال فخّ ؟!! . إذاً فالطواف بِعَكْس عقارب الساعة ، ومع حركة الذَّرة حول النواة ، كما أنَّ نظام الذَرَّة وحتى المَجَرَّة وكُلُّ ما في الكون يدور عكْس عقارب الساعة .



ثمَّ إنَّ مسألة تقبيل الحجر أيها الأخوة قلتُ لكم : إنَّهُ سنَّة ، وعدم إيذاء المؤمنين فرْض ، فكم هو جاهِلٌ ذاك الذي يُضَحي بالفرْض من أجْل السنَّة ، وما رأيْتُ من مَثلٍ حول هذه الحادثة ، مِن أبٍ حوله أولاده ، جاءه أحد أولاده الأشْقياء ، فرَكَلَ أوَّل ولدٍ فَطَرَحَهُ أرْضاً ، وضرب الثاني ، ودفع الثالث حتى وصل إلى أبيه ، وقال : عْني أُقَبِّلُ يدك يا أبت !!! وهذا الذي يفعله أكثر الحجاج ، لا يهمُّه الأمْر ، فتجده يضْرب بالمرفق ، مما قد يُصيب الآخرين بالإغْماء ، فأنت يا أخي المؤمن لسْتَ مُضْطرًّا ، فَكُلَّما كان علْمُكَ أعْمق تكون مناسكك أرْقى، يُمْكن أن تُتاح لك خمْسون حَجَّة ، ولا يُتاح لك أن تُقَبِّل الحجر ، ولا شيءَ عليك ، فمن بعيد تُسَلِّم وتُشير ، إلا أنَّهُ يمكن للإنسان إذا اشْتاق له ، وأراد أن يُقَبِّلَهُ جاء في وَقْتٍ نادر ، فينْتظر دَّوْره ، فهذا لا مانع منه أما أن يدفع، ويؤذي ، ويجعل بعض النِّساء ينْكَشِفْن من أجل التَّقْبيل فهذا لا يجوز ، ثمَّ إنَّ الحجر الآن قِطَع متناثِرَة ضِمْن بلاستيك شَفاف .

ثمَّ إنَّ المألوف في الطواف في هذه الأيام أن يكون حاجٌّ وراءه مجموعة وبيده كتاب، فهم يُرَدِّدون وراءه ، ولكن أنت كحاجٍّ راقٍ ولك علاقة بالله تعالى ، الشيء الجماعي لا قيمة له ، فأنت إن دعوْت الله في دينك واسْتِقامتك وأمور أولادك ، ثمَّ هذا الدُّعاء الجماعي يُصْبِح مثل الفُلْكلور ، وانتَفَتْ الرُّوحانِيَّة منه ، وهي تحْتاج إلى خلْوة مع الله ، ومن أهَمِّ الأدْعِيَة أن تقول : " اللهمَّ آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار " أجْمل شيء بالحج هو الدعاء ، وأن تدْعو لِزَوْجتك ، وأولادك ، ومن ناسبك .

ونِيَّةُ الطواف واجِبَةٌ في غير الحج والعُمْرة ، فالنِّيَّة في الحج والعمْرة سنَّة ، لأنّ الطواف أساس الحج .

سنن الطواف :

سنن الطواف : أمّا السنن فأن يطوف ماشِياً ، ولو طاف راكباً أو محْمولاً صَحَّ ، وفاتَتْه الفضيلة فليس لأتْفَهِ سَبَبٍ تقول : أريد حمَّالة ! أما لسبب كالمرض ، أو مُقْعد فلا مانع ، اللهمَّ لا تجْعلني لِطَواف محْمولاً .

ومن السُّنَن الاضْطِباع والرَّمَل في الطواف الذي بعْده سَعْي للذَّكَر لا للأنثى، فالاضْطِباع أن تجْعل الرِّداء على الكَتِف الأيْسَر ، والكَتِف الأيْمن مَكْشوف ، هذا هو الاضْطِباع، وأوَّل الأشْواط الثلاث تَرْمُل ، إلا أنَّ الرَّمَل في الطواف المُزْدَحِم مُسْتحيل ، وهو سنَّة من تركه لا شيء عليه ، لكن إذا كنت شاباً ، وأمكنَك إذا وَسَّعْتَ الدائِرَة أنْ تَرْمُل فهو أفْضل ، وقد ذكر لي أخوة أطِباء كثيرون وأقسَموا لي أنَّ لهم مئات المرْضى عندما يذْهبون للحجّ يُجَمَّد مَرَضُهم ! لأنَّهُم في ضِيافة الله تعالى ، فأنا أُطَمئِن كُلّ من له متاعب صِحِيَّة إن شاء الله تعالى لن يجد شيئاً منها وهو في بيت الله ، إذاً الاضْطباع والرَّمَل في الطواف الذي بعده سَعْي بالنِّسْبة للذَّكَر لا للأنثى ، وهو في الأشواط الثلاث الأولى ثمّ يكون الطواف عادِياً .

القُرْب من الكَعْبة إنْ اسْتطاع ، ولم يخْش ازْدِحاماً ولا إيذاءً ، وأمْكن معه الرَّمَل وهو مُسْتَحَبٌّ للرَّجُل دون المرأة .

واسْتِلام الحجر وتقْبيله عند الطواف الأوَّل ، وعند كُلّ طواف ، واسْتِلامُ الرُّكْن اليماني وتقْبيل اليد بعْده عند مُحاذاته ، فإن خَشِيَ الزِّحام أشار بيَدِه وقَبَّل يدَهُ ، ولا يجوز للنِّساء اسْتِلامٌ ولا تقْبيل الحجر والرُّكْن إلا عند خُلُوّ المطاف ، واللهِ أرادتْ حاجَّةٌ أن تُقَبِّلَ الحجر فَخَرَجَتْ كما خلقها الله تعالى ! هذا لا يجوز ، تَفَقَّهوا قبل أن تَحُجُّوا:

((عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ : كَانَ الرُّكْبَانُ يَمُرُّونَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحْرِمَاتٌ فَإِذَا حَاذَوْا بِنَا أَسْدَلَتْ إِحْدَانَا جِلْبَابَهَا مِنْ رَأْسِهَا عَلَى وَجْهِهَا فَإِذَا جَاوَزَنَا كَشَفْنَاهُ))

[أحمد عن عائشة]

فكيْف إذا خلَعَتْ كُلَّ ما على الرأس من أجْل أن تُزاحم الرِّجال ؟!



وعند اِسْتِلام الحجر الأسود أوَّل مَرَّة يقول : " بسم الله، والله أكبر ، اللهمَّ إيماناً بك، وتَصْديقاً بِكِتابك ، ووفاءً بِعَهْدك ، واتِباعاً لِسُنَّة نَبيّك محمَّد ﷺ "، ويقول عند كُلِّ شَوْطٍ : " الله أكبر ، ولا إله إلا الله " ويقول في أثناء رَمَلِهِ في الأشْواط الثلاث الأولى : " اللهمّ اجْعله حجاً مبْروراً ، وذنْباً مغْفوراً ، وسَعْياً مَشْكوراً " ، وفي الأربع الأخيرة : " اللهمّ اغفِر وارْحَم واعْفُ عما تعْلم إنَّك أنت الأعزّ الأكْرم ، ربَّنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حَسَنة وقِنا عذاب النار ".



أنْصح أخواننا الكرام أن يقْتَنوا كُتباً صغيرة في الأدعية النبَوِيَّة ، فأنت كيف بك إذا كنت بِصَحْراء في أيام الصيْف الحارة ، أثْمن شيء بِهذه الرِّحْلة الماء البارد ، وأثْمن شيء في الحج أن تحْفظ الأدْعِيَة النَّبَوِيَّة ، فالحجُّ دُعاء ، بِعَرَفَة دُعاء ، وبِمِنى دُعاء ، وبالطواف دُعاء، وبالسَّعْي دُعاء ، وأينما كنت دُعاء، وما أكثر كتب الدُّعاء ، والأسْواق تَعُجّ بهذه الكُتب ، لأنَّها سبْعة أشواط ، فهل يُعْقل أنْ تَظَلَّ ساكتاً ؟! ولو أدَّى الأمْر أن تدْعوَ بالعامِيَّة ، المهمّ ألا تسْكت احْفظ الأدعية ، وتذاكرها مع إخوانك ، كما أنَّه مما يُفْسد الدُّعاء التفاصيل ، وادْع بِجَوامع الدعاء وبِأدْعِيَةِ النبي صلى الله عليه وسلَّم وأدْعِيَة القرآن .

هناك بعض الأدْعِيَة كأن تقول : " اللهمّ البيت بيْتك ، والحرم حرمك ، وهذا مقام العائذ بك من النار " .

الحج عبودية لله :

اِسْمحوا لي بهذه الملاحظة من خِبْرتي في الحج والعُمْرة : إذا ذهب الإنسان إلى الحج وله مرْكز اجتماعي مُتألِّق ببَلَدِه وذهب بهذه النَّفْسِيَّة فَصَدِّقوني أنَّهُ يُحْجب عن الله تعالى لماذا ؟ لأنَّ هذا الحج عبوديَّة لله ، فإذا كان لك مرْتبة عسْكَرِيَّة أو دينيَّة أو مدير له شهادة كبيرة كُلُّ هذا اتْرُكْهُ بِبَلَدِك ، وكُنْ عبْداً لله تعالى في هذا الموْطن ، صار الحج لا طعْم له ، وذهب مقْصَدُه ، الكبرياء



رداء الله تعالى فلا تُنازعه فيه ؛ هذا الأمْر الأوَّل .

الشيء الثاني : إذا كنت من أهل اليسار ، فلا تقل : أنا أُذِلُّ الدراهم ولا أُذَلّ ، تضيعُ على الفندق ، فإذا اعْتَمَدْتَ على مالك في الحج فلا ينْفعك مالك ، وإن اعْتَمَدْتَ على مكانتك الرفيعة فالله يُلْهم رجلاً وضيعًا يُهينك في الحرم ، فإياك أن تدْخل الكعْبة ، وأن ترى أنَّ لك مكانةً وحجمًا بالبلد ، فَكُلُّ الرُّتب والمقامات والوجاهات ضَعْها على جنبٍ .

هناك حالة ثالثة إلا أنَّها خاصَّة بالإخوة المُتَفَوِّقين ، أحياناً يكون للرجل منا دَعْوةٌ ببَلَدِه ، طليق اللِّسان ، خطيب مسْجد ، وله التِزام بالدِّين ، فهذا يذهب للحج مُعْتَمِداً على مكانه عند الله عز وجل فَيَنْحجب ! فالحاصل أن تذْهب للحج دون أن تعْتمد على مكانتك ، ولا على مقامك عند الله ، ولا على مالك ، إذاً يجب أن تأتي الحج ، وأنت مُفْتَقِر ، وعَبْدٌ لله تعالى ، لذلك :

((عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ أَيُّ الْحَجِّ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : الْعَجُّ وَالثَّجُّ))

[الترمذي عن أبي بكر]

فلا تحْتاج إلى أناقة ، إذْ تجد من يتباهى بالمَنْشَفة التي يلفُّها عليه ، وذاك يقول لك: أخذْتُ هذا النعل بثمانين ريالاً ! هل هذا الكلام يُقال وأنت في بيتِ الله تعالى ؟! فيا أيها الحجَّاج عليكم بالافْتِقار .

أحياناً تكون للإنسان مكانة في مجْتمعه تمْنعه من الجلوس في أرض المطار ، وهو ذاهب للحج ، إلا أنَّ الأمْر يخْتلف في الحرم المكّي وغيره ، فتجد هذا الأخير في الدرج ، وفي الأرْض ، ويضْطجع على الأرض ، ويركب أتعس سيارة ، فالتواضع في الحج مُمْتِع ، فالطبيعة هي التواضع وليس التكَبّر ، والحج العج والثجّ ، شعْر طويل، وعرق ، ولهَث ، كُلُّ هذا جائِز لأنَّك في مقام العُبوديَّة ، وجهاد الضعيف والمرأة الحج ، ألا أنه جهادٌ لا شَوْكة فيه .

تتمة سنن الطواف :

من سنن الطواف الموالاة بين الأشواط ، فالأفضل ألا يفرِّق بين أشواطه بِشَيْءٍ ولو بطل وُضوءه في أثناء طوافه تَوَضَّأ ، وبنى على طوافه أيْ أتَمَّهُ ، صحَّ ، إلا أنَّ الأفْضل أنْ يستأنِفْ ، ويبْدأ طوافه من جديد .
وينبغي أن يكون في أثناء الطواف خاضِعاً خاشِعاً حاضِرَ القلب مع الله تعالى ومُتأدِّباً مع المقام الذي هو فيه ، ظاهِراً وباطِناً ، فهُوَ في صلاةٍ ، وأيُّ صلاةٍ فهو يطوف بِبَيْتِ خالق الكون سبحانه وتعالى .

مكروهات الطواف :

مكروهات الطواف : ويُكْرَهُ التَّكَلُّم في أثناء الطواف إلا بِخَيْرٍ ، كأمْرٍ بالمعروف ، ونَهْيٍ عن المنْكر ، فلو وقع لأحَدٍ من الطُّوافين ساعة فعليك أن تُنَبِّهَهُ ، فالطواف عبادة وصلاة، إلا أنَّهُ ليس كالصلاة يمكن أن تتكَلَّم من أجل الخير .



ويُكْرهُ الأكْل والشُّرْب في أثناء الطواف ، وتَشْبيك الأصبع والفَرْقعة ، ويُكْرهُ الطواف مَحْصوراً أو جائِعاً ، ولْيَخفض بصره ، وبعْضَهُنَّ كاشِفات الوَجْه ، فالإنسان بِبَلَدِه عليه أن يَغُضَّ بصره ، فكيف بالبلد الحرام ؟!! وبعد اسْتِكمال الطواف يُسَنُّ سنَّةً مُؤكَّدة أن يُصلي ركْعتين ، والجَهْلُ كلّ الجهْل حينما يحْرص الحاج أنْ يُصَليّ عند مقام إبراهيم ، فمع أنَّ هذه سنَّة إلا أنَّهُ يُسيء للحجاج وللطائِفين فتجد كُلَّ الحركة

سَهْلة إلا عند مقام إبراهيم حيث المُزاحمة والمُشادَّة ، وهذا يدُسّ فوق المُصَلِّي وتنشأ معارك ومُدافعات ، نسْأل الله العافية ، وأنا أرْجوكم أن تُصَلوا هاتين الركعتين في أيِّ مكان بعيدٍ عن مقامِ إبراهيم ، أنت في عبادة هل يُعْقل أن تؤذي المسلمين ؟! لذلك صَلِّها بِمكانٍ بعيدٍ وأيُّ مكانٍ بالحرم يُجْزئ في الصلاة ، والأفْضل أن يُصَلِّيهما خلف مقام إبراهيم إن أمْكَنَهُ ، ولا يُحْرج بذلك الطائِفين ، فإن لم يُمْكِنْهُ ففي الحطيم ، فإن لم يمْكنه ففي أيِّ مكان من المَسْجد الحرام فلا تؤذِ المسلمين من أجل سنَّة ، إذْ الفرض ألاَّ تؤذِيَ المسلمين ، فتَنَبَّه ! وهاتان الركعتان مطْلوبتان مادام الإنسان حَيًّا ، والأَوْلى أنْ يُصَلِّيهما بعد الطواف على التوالي ، يقرأ بعد الفاتحة الكافرون ، وفي الثانية الإخلاص ، وبعدهما يدْعو بما شاء من خيْري الدنيا والآخرة ، وأجْمل شيءٍ بالحج الطواف ، ففي أيام العيد تكون قد تَحَلَّلْتَ وستُصَلي بالحرم ، ما الذي يمْنعك أن تطوف باليوم طوافاً أو أكثر وبعد كُلِّ أوقات الصلاة ؟ وهو أجمل ما في الحج .

نحن ولله الحمْد كما يقولون بالتعبير العامي قاتَلْنا من أجْل أن يكون الحج من حقِّ أيِّ إنسان لم يحجّ ، ولو كان عمْره ثمانيَ عشرة سنة ، فقد كان سنُّ الحج سابِقاً ثلاثًا وخمسين سنة فما أكثر .

والحمد لله رب العالمين

الدرس 13 : السعي – الوقوف بعرفة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا ، وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً ، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه ، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه ، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه ، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين .

السعي بين الصفا و المروة :

أيها الأخوة الأكارم ، مع اللقاء الرابع حول موضوع مناسك الحج ، وقد أنْهَيْنا في الدرس الماضي بحول الله عز وجل الطواف حول الكعبة ، واليوم ننتقل إلى السعْي بين الصفا والمروة .

النقطة الدقيقة أنَّ السعي بين الصفا والمروة منْسَك من مناسك الحج ، وكُلُّ منْسك من مناسك الحج لا بدّ أن يُقابله شُعور يشْعر به الحاج ، فلما لا يشْعر الأخ الحاج بِشيء في بعض المناسك نقول له كما قال بعض الفقهاء : سقط الوُجوب وإن لم يحْصل المطْلوب ، فلا بدّ من حُصول المطْلوب ، لأنَّ الحج فريضَةٌ لا تتكَرَّرُ في الأصْل ، وهي تجب عليك في العُمْر مرَّةً واحدة ، فإذا تَفَقَّهْتَ قبل الحج ، وأتْقَنْتَ هذا المَنْسك ، ورافق هذا المنسك شُعور داخلي لأنَّ الله سبحانه وتعالى قَبِلَ منك ، وذكرت لكم في الدرس الماضي أنَّ الذي يقف في عرفات ولم يغْلب على يقينه أنَّ الله تعالى غفر له فلا حجَّ له ، لأنَّه يسْتحيل على إلهٍ عظيم يدْعوك إلى بيته بلا معنى ، بل أمْرُ الله أعظم من ذلك ، فَكُلُّ منْسك له شُعور ، وبالتعبير الشائع والذي يسْتعمله أولو الأمْر في ديار الحج ، يقولون لك : المشاعر مُقَدَّسة ، فالأماكن مُقَدَّسة ، ولا بدّ من أن يشْعر فيها الحاج بِمَشاعر مُقَدَّسَة ، فهذا الكلام قَدَّمْتُهُ لكم من أجل ذلك الإنسان الذي سعى بين الصفا والمروة وما شَعَرَ بِشَيْء ، وهو في بلاد الله الحرام، فأنا أتَمَنى عليه أن يُعيدَ السَّعْي مَرَّةً ثانِيَة ، فقد لا يتمكَّن أن يُعيده في اليوم نفْسه ، لكن لا بدّ أن تطوف طوافاً كما أراده الله عز وجل ، وسَعْياً كما أراده الله عز وجل ، لكن بِشَكْلٍ أو آخر يجب أن تعْلم عِلْم يقين أنَّ الحاج إنْ لم يخْرج من بيته تائِباً من كُلِّ الذنوب ، مُؤَدِّياً كُلَّ الحقوق والواجبات ، عاقِداً العزْم على ألا يعود إلى الذنوب ، ربما لا يشْعر بالمشاعر المُقَدَّسَة التي يتفضَّل الله بها على الحاج ، فالقضِيَّة أنَّ الحج صُلْح مع الله ، ونقْلَةٌ

نَوْعِيَّة، وقفْزَة عليَّة ، أما إذا ذَهَبنا وطُفْنا وسَعَيْنا ، ونحن على ما عليه ، فهذا المُسْتوى مِن الحجاج لا يرْقى بهم إلى الله عز وجل ، ولم يُحَقِّقوا المُراد الإلهي من هذه الفريضة العظيمة التي فَرَضَها الله علينا في العُمُر كُلِّه مرَّةً واحدة ، وبعض هذه المعاني ذَكَرْتها البارحة في الخُطْبة لعَلَّ بعضكم سمِعها .

أداء ركعتي الطواف دون مزاحمة أو إرباك :

ويُسَنُّ إذا انتهى من ركعتي الطواف ؛ طُفنا سبعة أشواط ، وأنْهيناه بركعتين بأيِّ مكانٍ من الحرم ، دون أن نُزاحِم، إذا تَوَهَّمْتَ أنَّ الركعتين عند مقام إبراهيم أفضل ؛ فهذا الكلام صحيح لأنّ الله عز وجل ذَكَر مقام إبراهيم ، إلا أنَّ الشيء الواقع بعد هذا الازْدحام الشديد أنَّك إذا صَلَّيْتَ في هذا المكان آذَيْتَ وتأذَّيْتَ ، وتشْعر أنَّك قد أسأتَ إساءة بالغة لذلك أنْصح الأخوة الكرام إلى أنْ يُؤَدُّوا الركْعتين في أيِّ مكان من الحرم ، وفي الحقيقة ضَعْفُ الفقه يُسَبِّب بعض الإرباك ، فإرْباكات الحُجاج أساسها ضعْفُ الفقه ، طوافٌ مُزْدَحِم ، وحركة مُسْتَمِرَّة تتعثَّر عند مقام إبراهيم ، ولا تجد إلا حاجاً يرْكع ويسْجد ، والحُجاج فوقه ، فهو يلجأ إلى أساليب لا تُرْضي الله عز وجل ، ويُهَيِّئ حُراسًا ومُرافقة يقفون حوله ، ويقبض أحدهم ذراع الآخر ويدْفعون بِأكْواعهم كُلَّ من سَوَّلَتْ له نفْسه أن يقْترب من هذا الحاج في هذا الزِّحام الشديد ، ذكرتُ هذا الكلام مراراً ، لأنَّ النفْس تتوق إلى أن تُصلي خلف مقام إبراهيم ، وقد ذَكَرْتُ في الخطْبة البارحة من ضَعْف فقه الحاج أنْ يحْرص على سُنَّة وينْتَهِكَ من أجْلها حُرْمة، ويقع في معْصِيَة ، ويُفْسِد الحج على بقِيَّة الحجاج ، وكما أنَّكم إذا دخلتم إلى المسْجد لِتُصَلوا ولم يَحِنْ بعدُ وقْت الصلاة فالنبي عليه الصلاة والسلام طَمأننا وقال : من انتظر الصلاة فهو في صلاة ، وإذا كنت تحْضر مجالس العلم لتتفقَّه في مناسك الحج فهذا من الحج ، اِعْتبر أنَّهُ من الآن إلى أن يحين وقْتُ الحج يجب أن تُطالع وتسأل ، لأنَّك كلَّما ازْدَدْتَ فِقْهاً اِرْتقى حجُّك إلى المُسْتوى المَقْبول ، ولهذا قال سيّدنا عمر رضي الله عنه: " تَفَقَّهوا قبل أن تَحجُّوا ".

يُسَنُّ إذا فرغ من ركْعتي الطواف أن يتوَجَّه إلى المسْعى ، وهو على وزْن مفْعَل أيْ اسم مكان ، بعدما يسْتلم الحجر الأسْود فَيَخْرج من باب الصَّفا إلى باب المَسْعى ، وفي الحرم المكي هناك ضوْء أخْضر مُتأَلِّق ، هذا الضَّوْء هو الذي ينقلك إلى المَسْعى ، فالإنسان داخل الحرم الواسع يضيع ، وهناك ضوْء أخضر مُتأَلِّق ، إذا تَوَجَّهْتَ إليه ينْقلك إلى أوَّل المَسْعى .

الدعاء شيء ثمين في الحج :

وتصْعد إلى الصَّفا ، وتشْعر أنَّ هناك صَخْرات مُرْتفِعَة ، والأوْلى أن تقف على هذه الصَّخْرات كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام ، وأن تتوَجَّه نحو الكعْبة ، هذا قبل أن تسْعى وأن ترْمُقَها بِنَظَرِك ، وتقول : الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد ، الله أكبر على ما هدانا ، والحمد لله على ما أوْلانا ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يُحْيي ويُميت بِيَدِه الخير ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير .

مرَّةً ثانِيَة : قد تشْعر بالضِّيق لأنَّك لا تحْفظ هذا الدعاء ، إلا أنَّك إذا وقفْتَ في هذا المكان ، بِقَلْبٍ خاشِع ، وتَوَجَّهْتَ إلى الله عز وجل ، فأيُّ دُعاءٍ آخر يُجْزِئُك ، وهذه من السُّنَن والآن أنا مُقْبِلٌ على السَّعْي ، ومعي كُتَيِّب صغير أقْرأ فيه ، وأُعيدُ ما سَمِعْتُ ، وأحْفظ الدُّعاء وهَيأت نفْسك قبل كُلِّ مَنْسَك ، فإذا كنتُ ذاهِباً لِرَمْي الجِمار اقْرأ الأدْعِيَة ، وحاوِلْ حفْظَها ، فالوقت الذي يسْبق أداء المَنْسك يجب أن يكون إعداداً لهذا المَنْسَك : " لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يُحْيي ويُميت بِيَدِه الخير ، وهو على كُلِّ شيءٍ قدير ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنْجزَ وعْده ، ونصر عَبْده ، وهَزَمَ الأحْزاب وحْده ، لا شيء قبله ، ولا شيء بعده ، لا إله إلا الله ، ولا نعْبد إلا إياه ، مُخْلِصين له الدِّين ولو كَرِهَ الكافرون " ، ثُمَّ يدْعو بما شاء من أمْر الدنيا والآخرة ، بِشَكْل أو بآخر يكاد الحجُّ كُلُّه أن يكون دُعاءً ، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول : " الدعاء مُخُّ العبادة . . ." فأنت الآن في أعلى درجات العبادة ، لذلك كما اتَّفَقْنا ، أكْثِر من حِفْظ الأدْعِيَةِ التي أُثِرَتْ عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وهناك في الحج ترى أنَّ الدعاء من أكْثر ما تمْلكه ، لأنَّكَ سَتُمْضي وقْتاً طويلاً ، فَكَيْف تكون فيه ساكِتاً ؟! أو أن تدْعو بِدُعاءٍ مُتَكَرِّر أو بالعامِّيَّة من دون تَحْضير ؟ فالدُّعاء شيءٌ ثمين في الحج . الآن بدأنا بالسَّعْي ، الشَّوْط ثلاثمئة وخمسة وتسعون مِتْر ، وكذا الرَّجْعَة ، سَبْعة أشْواط تحْتاج إلى ثلاث أرباع الساعة ، أليس كذلك ؟ الذَّهاب شَوْط ، والعَوْدَةُ شوْط ، وهناك ازْدِحام ، وهي عبادة ، وأنت في البيت الحرام ، ماذا تفْعل ؟ أثْمَن شيء تفْعلهُ هو الدُّعاء ، وكلَّما حَفِظْتَ أدْعِيَةً أكْثر شَعَرْتَ أنَّك أقْرب إلى الله عز وجل ، فأنا أرى أنَّ الذي ينْبغي هي كتب الدُّعاء ؛ اِحْفظ أدْعِيَةَ النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن بعْد حينٍ تحْفظُها عن ظَهْر قلب ، وتُصْبِحُ جُزْءًا من كيانك .

يدْعو الحاجُّ بما شاء ، من أمْر آخرته ، فإذا قال الواحد منَّا قال : أُرْزقني بِزَوْجٍ مؤمنٍ لابنتي ، هل هو ممكن ؟ نعم ، هذا مَطْلب شريف ، فأنت في ضِيافة الرحمن ، إنْ كان في الطواف ، أو المُلتزم ، أو السَّعْي ، وقال تعالى:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾

[سورة غافر : 60]

والاسْتِجابة مُحقَّقَة .

استجابة الدعاء عند رؤية الكعبة لأول مرة :

كما قلنا لكم في الدَّرْس الماضي : إذا وَقَعَ بصرك على الكعْبة المُشَرَّفة فلَكَ أنْ تدعوَ، و في المُلْتَزم كذلك ، وفي الطَّواف ، يا ربِّ وَفِّق أوْلادي ، خَصِّص شَوْطاً لأوْلادك ، وشَوْطًا لإخوتك ، وكذا الدعاء للشفاء من الأمراض ، فالله عز وجل يخْلق الشِّفاء خلْقاً ، وينبغي أن تشْعر أنَّك في ضِيافة الرحمن ، والأمْر بِيَدِه ، وكذا أمْرَ آخرتك ؛ اهْدِني ، واهْدِ بي ، أطْلِق لِساني بالدَّعوة إليك ، والقرب منك ، هَبْني عمَلاً صالِحاً يُقَرِّبُني إليك ، لا تجْعل تعاملك روتينيًّا، دَعِ الأمْر يحوي الرَّجاء ، وتمْريغ الوجْه بأرْضِه وكذا في السُّجود ، وهو أقْدَس مكان ، والصلاة في الحَرَم تعْدل ألف ركْعة في غيره .

" اللهمّ إني أسْألك كما هَدَيْتني إلى الإسلام ألاّ تنْزِعَهُ مِنّي ، وتوَفَّني مُسْلماً " يدْعو بهذا كُلَّما وَصَلَ إلى الصَّفا في سَعْيِه ، وكما قال النبي عليه الصلاة والسلام : نبْدأ بما بدأ به الله تعالى ، فالصَّفا هو المُنْطلق ، وكلَّما وَصَلْتَ إلى الصفا قِفْ على هذه الصخْرات وتَوَجَّه إلى الكعْبة المُشَرَّفَة وادْعُ بما شِئْت ، وفي أثْناء السَّعْي أيْضاً أُدْعُ بما شئْت ، فإذا اخْتَرْت وقْتاً مُناسبًا للسَّعْي إذْ هناك أوْقات فيها ازْدِحام شديد ، ومع الازْدِحام سَتَجِدُ هؤلاء الحجاج – أصْلحهم الله تعالى – يرْفعون أصْواتهم ، كُلُ فوج يمْشي وراء مُوَجِّه ، وهذا الصَّوْت يُشَوِّش على الحاضرين ، فإذا اخْتَرْتَ وقْتاً بعد الساعة الواحدة ليلاً ، أو فما فوق ، أو في وقْتٍ مُريحٍ كي يخُفَّ الضجيج عليك كي تخْلو مع رَبِّك ، فإذا وجدت أنَّ النَّظر يُزْعِجُك فأغمِض عينيك ، وامْشِ على مَهْلِك ، فواجب عليك أن تكون مع الله في هذه الأشْواط .

الحرص على تأدية الحج كما أراد الله عز وجل :

أنا أتَعَجَّب من الحاج وهو يسعى وكأنَّهُ يمْشي في طَريق الصالِحِيَّة ! أين أنت ؟! هنا مكان للتَّعَبُّد وليس للتطَلّع ، وفُضول النَّظر والتّعْليقات ، فهذه بعض المُلاحظات . لَدَيْك ميلان أخْضَرَان ، بعد الثلث الأوَّل من المَسْعى تجد إضاءة خضْراء بين هذين الميلين ، فينْبغي أنْ تُهَرْوِل ، لكن أخْطر شيء أن يكون الإنسان مع زوْجتِهِ فَيُهَرْوِل

وتُهَرْوِل هي معه ! فلا يجوز للمرأة أن تُهَرْوِل إذْ تبْدو مفاتِنُها ، فالهَرْوَلَة للرِّجال فقط ، فأنا كنت أُهَرْوِل وأنْتَظِر ، ثمَّ تمْشي هي مَشْياً طبيعِياً ، ولما ينتهي الميل الأخْضر تقف على اليمين ، وتنْتظر مجيء زَوْجتك ، فلا بدَّ أن تُنَبِّهها ، وأنا أُلاحظ أنَّ تسعين بالمئة من النِّساء يُهَرْوِلْنَ مع أزْواجهم ! وهذا من قِلَّةِ فقْه الحُجاج . فالملاحظة الأولى أنَّهُ إذا كان مَنْسَكٌ من مناسك الحج لم يُعْجِبْكَ ، ووجَدْتَ في القلب غفْلة ، وشَعَرْتَ بعدم تأدِيَتِه بحقِّه ، فالأفضل أن تُعيده ، وبالمناسبة أقول إنَّ الله عز وجل يعْلم أنَّك حريصٌ على تأديَة الحج كما يُريد ، فيتجلّى في المرَّة الثانِيَة على قلْبك ، وتشْعر وكأنَّ الله قبِلك وهذا ليس بالسَّهْل ، هناك أشْخاص يطوفون كُلَّ صلاة ، أجْمل ما في الحج الطواف ، وحتى بعد التَّحَلّل ولبس الثياب .

واجبات السَّعْي :

أن يقْطع جميع المسافة بين الصفا والمرْوة فلا يترك منها أيَّة خُطْوة ، هناك نقْطة مُهِمَّة ، فالمَسْعى عبارة عن مَمْشى كبير مَسْقوف ، هناك طابِقٍ ثانٍ ، إلا أنَّ رأي العلماء أنَّ المَسْعى الأفضل أن يكون في الطابق الأرْضي، على خِلاف الطواف ، فالطواف له حُكْم والسَّعْي له حُكْم ، فالطابق الأرضي أوْلى لأنَّ الطابق العُلْوي فيه خِلاف، أما الطواف في الطابق العلوي على الكعبة فليس فيه خِلاف ، إذْ كُلُّ الفراغ الذي فوق الكعْبة من الكعْبة، إلا أنَّك لا تشْعر بالسعادة إذا كنت تطوف والكُعْبة من تحت ، فالأفْضل الطواف من تحت ، أما من دون شكّ أنّ السَّعْي من الطابق العُلْوي قَضِيَّة مُختلف على صِحَّتِها فأنت كُنْ مع الأحْوَط ، وأخْواننا السَّعودِيّون أقَرُّوا أنَّ هناك فَتْوى عندهم ، دَفْعاً للازْدِحام ، فأنت كُنْ مع الأحْوَط . فبالمَسْعى طريق للذَّهاب ، وآخر للإياب ، وبينهما طريقان للعَرَبات ، ويتوَهَّم الحاج أنَّ أوَّل هذا الحاجز للعربات هو للمَسْعى ، فهذا خطأ فالمَسْعى يبْدأ من الصَّفا ، فإذا عُدْتَ من المَرْوة يجب أن تدور حَوْل الصَّخْرات ، ولا تخْتَصِر الطريق ، فأوَّل واجبات المَسْعى أن تقْطع جميع المَسافة بين الصفا والمرْوة ، فلا تترك منها أيَّة خُطْوة ، ولْيَعْلَمْ أنَّ بِداية الحاجِز بين طريق الذَّهاب والإيَّاب بين طَرَفَيْ المَسْعى كما هو مُوَضَّح لا يُمَثِّل بداية المسْعى ولا نهايته إن لم يصْعد بِمِقْدار قامَةٍ على كُلِّ من الصفا والمرْوة ، وأينما تجد الصَّخْرات اصْعَد عليها ولو بِمِقْدار قامة مِتْر واحد فقط ، فإذا صَعدْت على الصَّخْرات كان سَعْيُك صحيحاً .

ويبْدأ بالصَّفا ولو بدأ بالمَرْوة لم يَصِحّ ابْتِداؤُه ، ويُعْتَبَرُ الصَّفا ابْتِداءَ سَعْيِه ، لأنَّ هذا مَنْسَك يُؤَدى كما أمر النبي عليه الصلاة والسلام ، وإتْمام سَبْعة أشْواط ، الذَّهاب من الصَّفا مَرَّة والعَوْدة من المَرْوة مَرَّة ، فالطريق الواحد شَوْط .

وأن يكون سَعْيُهُ بعد طوافٍ صحيح ، دون أن يفْصل بين الطواف والسَّعْي بِرُكْنٍ من أرْكان الحجّ ، فَيَصِحُّ السَّعْيُ سواء بعد طواف القُدوم وهو سنَّة ، أو بعد طواف الإفاضة وهو رُكْن ، وأنا أنْصَحُكَ أيّها الحاج إذا أتَيْتَ البيْت الحرام ، أوَّل عمل من أعْمالك طواف القُدوم ، لكن هذا سنَّة ، والسَّعْي مَرَّةً واحدة ، فبِإمْكانك أن تسْعى بعد طواف القُدوم ، وبإمْكانك أن تسْعى بعد طواف الإفاضة ، لكن بعد طواف الإفاضة الحُجاج جميعاً مُتَواجِدون في هذا المكان ، لذلك هناك إحْراج ، فأنا أنْصَحُكَ أن تسْعى بعد طواف القُدوم ، لأنّ الازْدِحام سيَكون أشدَّ بِكَثير ، وسَيَكون معك طواف الإفاضة الذي هو رُكْن الحجّ الثاني صعبًا ، ومعه سَعْي فيمكن ألاَّ تتحَمَّل. كما أنَّهُ لا يُسَنُّ تَكرار السَّعْي ، نحن قلنا إنَّك إنْ لم تجد في نفْسك أنَّك أدَّيْت السعْي جيِّداً تُعيدُه، لكن هذا ليس كالطواف كلَّما تجد نشاطاً تطوف حوْل الكعبة ، فالسَّعْيُ مَرَّةً واحدة . فالواجبات أن تقْطع جميع المسافة ، وتبْدأ بالصفا ، مع إتمام سبْعة أشْواط ، و أن يكون السَّعْيُ بعد الطواف الصحيح ، و أنت مُخَيَّر أن تسْعى بعد طواف القُدوم ، أو بعد طواف الإفاضة .

سنن السعي :

أما السنن ؛ فالذِّكْرُ والدعاء اللَّذيْن ذَكَرْناهما آنِفاً ، "ربِّ اغْفِر وارْحم ، وتجاوَزْ عمَّا تعْلم إنَّك أنت الأعَزُّ الأكْرم ، اللهمَّ ربَّنا آتنا في الدنيا حَسَنَة ، وفي الآخرة حَسَنة وقِنا عذاب النار" . ولا بدَّ من الطهارةِ في السَّعي ، وهو أن تكون مُتَوَضِّئاً ، إلا أنَّها سُنَّة ، فَيَصِحُّ سَعْيُ المُحْدِث ، والحائِض ، فلو كان مع أحدنا زوْجته ، أو قريبته وجاءَتها الدَّوْرة وهي تسْعى ، فإذا كانت تطوف وشَعَرَتْ أنَّ الدَّوْرة قد جاءَتْها ، فلا يمكنها المتابعة ، إلا أنَّها تستطيع أن تسْعى .

ويُسْتحبّ السَّعْيُ الشديد بين الميلين الأخْضَرين ، إلا المرأة فَتَمْشي مَشْياً عادِياً وينْبغي أن يتجنَّب إيذاء الناس ومُزاحمتهم ، فالأفضل أن يسْعى ماشِياً ، فإن سعى راكباً لعَجْزٍ أو غير ذلك صَحَّ سَعْيُه ، فاللهمَّ متِّعْنا بالصِّحة كي نؤدي مناسكنا مَشْياً ، ثمَّ إنَّ الله تعالى يتولى المرض ويُجَمِّدُهُ في أثناء الحج ، إلا أن يقول لك الطبيب : لا تبقَ تحت الشمْس فإن فعلْتَ أثِمْت ثمَّ إنَّ ضربات الشَّمْس مُؤْذِيَة ، وأحْياناً تصل الحرارة في الظلّ إلى ست

وخمْسين درجة ، وأنا أنصح أخواننا بما قال تعالى :

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾

[سورة النساء :]

ونحن لدينا في الشَّرْع مقاصد كُبْرى ؛ حِفْظ الدّين ، والنَّفْس ، والعقل ، والعرض ، و المال ، فالحياة ليسَت مِلْكك بل هي مِلْكُ المُسْلمين ، فالخُروج في مكَّة والمدينة في النَّهار ينْبغي أن يكون لِضَرورةٍ بالغة ، فالأولى أن تكون كُلُّ أعْمالك بالليل ، كما أنَّني أرى على من كان سكنُه بعيداً عن الحرم أن يُصلي بالبيت ، والإنسان عليه أن يُرَكِّز في أداء هذه المناسك على وقت المغرب والعشاء والفجْر ، لأنَّها أوقات للبرودة .

الوقوف بعرفة :

الآن سننتَقِل إلى الوُقوف بِعَرَفة ، وهو رُكْنُ الحج الأعظم ، كأنَّ الله سبحانه وتعالى جعل الوُقوف بِعَرَفة اللِّقاءَ الأساسيَّ للحاج ، فأنت مع موْعِد مع الله عز وجل في عرفة ، لذلك الاهْتِمام بالذي ستأكله وتشْربه هذا شيءٌ بعيدٌ عن مناسك الحج ، ففي هذا اليوم المُهِمّ عدم التركيز على الأكل ، لأنَّكَ مَدْعُوٌّ لِلِقاء الله عز وجل ، فالصلاة والذِّكْر والتِّلاوة والدعاء أهمّ شيء . فالأيام الخمْس أو السِت التي قبل وُقوف عرفة على الإنسان أن يوفر جسمه اسْتِعداداً لِهذا اللِّقاء ، أنا أُفَضِّل للإنسان قبل عرفة بِيَوْمٍ أو يوْمَيْن أن يُوَفِّر جسْمه بشيء قليل ، لأنَّ هذا اليوم يحْتاج إلى صِحّة وقوَّة ، فلا بد أن يرْتاح كي يشْعر بِعَرَفات أنَّهُ بأتَمّ اسْتِعداد ، لأنَّ الحج كُلَّه عرفة ، والنبي عليه الصلاة والسلام قال :

((الحج عرفة))

[أحمد عن عبد الرحمن بن يعمر]

ما ورد في السّنة حول الحج :

الآن ذَكَرْنا أنَّ أوَّل طواف للحجاج حين دُخول مكَّة هو طواف القُدوم وهو سنَّة ، أما للمُعْتَمِر فهو طواف رُكْنٍ ، فإذا سَعى المُعْتَمِر بعد الطواف حلق شَعْر رأسه ، أو قَصَّر وتَحَلَّل إلى أن يُصْبح اليوم الثامن من ذي الحجَّة ، وعلى كُلِّ الشيء الذي ورد في السنَّة أنَّ الإنسان يتوَجَّه بعد فجْر اليوم الثامن من ذي الحجَّة إلى مِنى ، والمبيت بِمِنى قبل عرفات سُنَّة ، لكن أكْثر الأفواج الآن يتجاوزون هذه السنَّة ، نَظَراً للازْدِحام الشَّديد فَيَتَوَجَّهون إلى عرفة مُباشَرَةً ، فأنتم مُخَيَّرون بين أن تتوَجَّهوا إلى منى ، وتُصلوا الظُّهْر والعصْر ، والمغْرب والعِشاء ، والفجْر ، ثمَّ

تتوَجَّهون إلى عرفات ، أو تتوجَّهون في اليوم الثامن من ذي الحجّة في أيّ وقْتٍ تشاؤون إلى عرفات وتنامون بها، ويَصِحّ أن تتوَجَّهوا إلى عرفات في اليوْم التاسِع لكن نحن نأخذ بالأحْوط ، إذْ في اليوم التاسع هناك أناس لم يصلوا إلى عرفات ، فهؤلاء الأفواج يتجاوزون المبيت بِمِنى ، وهي سنَّة ، فَمَن ترك الواجب فعليه دم ، ومن ترك رُكناً بطل حجّه ، ومن ترك سنّة فلا شيء عليه .

ونحن في عَرفات ماذا نفْعل ؟ نحن في يَوْم اللِّقاء الأكبر ، فالوقْت المناسب للدعاء بعد أن تُصلي الظهر والعصْر مُؤْتماً بإمام جمْعَ تقْديمٍ ، وهناك خطْبة بِجامِع نَمِرَة ، إلا أنَّ الحجاج ألِفوا أنّ كُلَّ فوْجٍ يقوم فيهم خطيب ، ويُصلون الظهْر والعصْر جمْع تقْديم ، فَمِن بعد الزَّوال إلى بعد الغروب ليس هناك عمل أفْضل من أن تدْعو الله عز وجل واقِفاً ، وأنت مَدْعوٌّ في هذا اليوم إلى لِقاءٍ روحيٍّ مع الله عز وجل ، وإلى أن تعرض حاجاتك أمام الله عز وجل ، وإلى أن تطْلب المغْفرة عمَّا مضى ، وإلى أن تصْطَلِحَ مع الله ، لذلك على الإنسان أن يُهَيِّئ نفْسه تهْيئة كاملة وكافية ويلْتَفِتَ إلى الله بِكُلِّيَّتِه ، ولا يوجد شيء يُؤْلِمني بِعَرفات إلا هؤلاء الحجاج الذين يتبادلون أطراف الأحاديث ، وهم يجْلِسون في خِيامهم وكأنَّهم في نُزْهة ، أو في سَهْرة ، ولك أن تقْرأ القرآن وتدعو ؛ مَرَّةً جالساً ، ومرة قاعِداً ، ومرة واقِفاً ، فأنت في فُرْصة لا تتكَرَّر ، فالوِرْد له طَعْم ، والاسْتِغفار له طعْم ، والذِّكْر له طعْم ، فهذا الوقْت من بعد الظهر إلى بعد الغروب مِن أشْرف الأوْقات ، قال تعالى :

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

[سورة البقرة : 198]

شُعور الحاج وهو يخْرج من عرفات وكأنّه رجع كَيوم ولدتْه أمّه ، وبعد ذلك الذَهاب إلى مزْدلفة ، هناك من يجْلس في مسْجد نَمِرَة ، إلا أنَّ فيه مكانًا ليس من عرفات وهذا مشْكلة ، فلا بدّ من أن تتواجد بِعَرفات ولو لحْظة واحدة من بعد الظهْر إلى أن تغيب الشَّمس ، وبِالخِيام أفضل ، لأنَّك لن تجد في هذا المسْجد مكانًا ، وذلك لأنه مُكَيّف فَيَتَهافت عليه الناس من كُلِّ مكان وبِالخِيام هناك ذِكْر جماعي ، ويقف العلماء ويدْعون وأنتم تُؤَمِّنون ، والمُؤمِّن كالداعي تماماً ، قال تعالى :

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[سورة يونس :]

مع أنَّ الداعي هو سيّدنا موسى فقط ، وكان معه سيّدنا هارون ، فهناك دعاء جماعي ودعاء فرْدي ، وصلاة ، و تِلاوة ، و اسْتغفار ، فالحج عرفة ، وعرفات كُلّها موقف ، والسنَّة أن تقف وتتوَجَّه نحو الكعبة .

ويُسَنُّ أن يخطب الإمام قبل الظهْر في مسْجد سيّدنا إبراهيم خطبتين ، يُرْشِدُ فيهما الحجاج إلى ما ينبغي أن يشْغلوا أنفسهم به ، ومع الخطبة الثانية يقوم المُؤَذِّن فَيُؤَذِّن للظهْر فَيُصلي الناس الظهْر والعصر جمْعاً وقصراً ، وعليهم بعد إتمام الصلاة أن يُبادِروا إلى الوُقوف بِعَرَفة ، وعرفات كُلَّها مَوْقف ، وأفضل مكان بِعَرفات عند الصَّخرات أسفل جبل الرَّحْمة ، لكن إذا كان الوقتُ ظُهْراً ، والوقتُ شديد الحَرّ ، وربَّما كان هذا الشيء مُهْلِكًا ، وأنا أنصحُ أخواننا وقْتَ الظهْر الحار أنْ يبْقوا في الخِيام ، وقبل الغروب بِساعة انْطلِقوا إلى خارج الخِيام . وقْتَ الوُقوف بِعَرَفة يبْدأ بعد زوال شمْس اليوم التاسع من ذي الحجّة إلى طُلوع فجْر ليلة يوم العيد . أنا حججتُ مَرَّتَين ، وأخواننا بالبِعْثة قالوا : نبْقى بِعَرَفات للساعة العاشرة أو أكثر و أعتقد أنّ هذه السَّنة الأمورُ مُيَسَّرَة كلُّها ، لأنَّ مأساة العام الماضي لن تتكَرَّر إن شاء الله .

ما يسن في عرفة :

وفيما يخص عرفة ؛ أوّلاً الاغتِسال ، و يجزئُ الاغتسالُ في مَكَّة قبل أن تأتي إلى عرفات . ثانياً : المُبادرة بالوُقوف في عرفة بعد الصلاة ، فلا تتأخَّر .

ثالثاً : الحِرْص على الوُقوف بِعَرَفة في موقف النبي عند الصَّخرات ، أسفل جبل الرحمة ، أما إذا تَعَسَّر الأمْرُ فهذه سُنَّة .

يُسَنُّ للرجل أن يدْعو واقفاً إلا إن شَقَّ عليه ذلك ، فله أنْ يجْلس ، وأنا أنْصحك أن تُنَوِّع بين هذا وذاك ، أما المرأة فالأفْضل لها القُعود ، لأنَّهُ أسْتَرُ لها ، وأصْوَنُ .

ويُسَنُّ أن تُحافظ في عرفات على تمام الطهارة ، وسَتْر العوْرة ، ودَوْرات المياه مَيْسورة، فالطهارة ضروريَّة ، ويُسَنُّ أن تكون مُفْطِراً كي تتَقَوَّى على طاعة الله ، ولأنَّهُ أكثر عونًا له على الدعاء ، كما أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام وقف مُفْطِراً .

كما يُسَنُّ حُضور القلب وفراغه عن المشاغل الدنيَوِيَّة ، فعليه أن يُنْجِزَ كُلَّ مشاغله كالطعام والشراب قبل الزَّوال. بالمناسبة لَدَيَّ تعْليق صغير وهو أنَّ هناكُ تَفَرُّغاً وهناك تَفْريغاً ، فأنت حينما ذَهَبْتَ إلى الحج وتركْتَ بيْتك ، ومشاكل العمل ، ومشاكل بلدك ، والخُصومات ، كُلُّ شيء تَرَكْته وذهَبْت إلى البيت الحرام ، فهذه العَمَلِيَّة اسْمها تَفَرُّغاً ، إلا أنَّ الله تعالى يتَفَضَّلُ عليك بِنِعْمة أُخْرى اسْمها التَّفْريغ ، وهي عَدَمُ خُطور ولو قَضِيَّة صغيرة في بالك على بلدك ، فأولادك وبيْتك ومشاكلك لا تخْطر بِبَالك ولو كانت ضَخْمة ، وهي نعمة من الله تعالى ، ولكن حينما

ينتهي الحج تقْفز الهُموم فَجْأةً واحدة .

والإكثار من التَّلْبِيَة مع رفْع الصَّوْت بشَكْلٍ مُعْتَدِل ، والإكثار من الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، وغير ذلك من الأذْكار ، وأن يبْرز للشَّمْس ولا يسْتظِلّ ، إلا إن خاف على نفْسه ، أو أجْهده ذلك ، أو أعاقهُ عن الخُشوع .

وأن يظَلّ في الموْقف حتى غُروب الشَّمْس ، حيث يجْمع بين الليل والنهار ، فإن خرج من عرفات قبل الغروب ولم يعُدْ إليها أراق دماً اسْتِحْباباً ، كما يُسْتَحَبُّ الإكثار من الدعاء بِتَذَلّل وخُشوع وافْتِقار ، وأن تُلِحَّ في الدعاء بِرَجاءٍ قوِيّ ، وأَمَلٍ كبير ، لأنَّ الله تعالى يُحِبُّ المُلِحِّين في الدعاء ، ويمكن أن تُكْثر من التَّسْبيح والتَّحْميد والتَهْليل والتَّكْبير ؛ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وسوف نأخذ في الدرس القادم إن شاء الله أدْعِيَةَ عرفات التي أُثِرَتْ عن النبي صلى الله عليه وسلَّم ، وبعدها الانْطِلاق إلى مزدَلِفة ، ورمْي الجِمار ، وطواف الإفاضة والزِّيارة.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 14 : مزدلفة – منى – الرمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين.

عرفة لقاء حميم و اتصال وثيق بالله عز وجل :

أيها الأخوة الأكارم، مع اللقاء الخامس من دروس مناسك الحج، وفي الدرس الماضي فيما أذْكر أنْهَينا موضوع الوُقوف بِعَرَفات، وبيَّنْتُ لكم أنَّ الحجّ عرفة، وأنَّ عرفة لِقاءٌ حميم، واتِّصال وثيق، وأنَّ الله سبحانه وتعالى ما دعا عباده إلى البيت الحرام إلا لِيُكْرِمَهم ولا سيَّما في هذا المَشْهد العظيم، وقلتُ لكم: إنَّه من وقف في عرفات ولم يغْلب على ظَنِّه أنَّهُ قد غفِرَ له فلا حجَّ له، لأنَّ الحج كما روى البخاري :

((مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[البخاري عن أبي هريرة]

والحج المَبْرور الذي لا لغْوَ فيه، ولا رَفَث، ليْس له جزاءٌ إلا الجنَّة.

والإنسان بِإمْكانه أن يَصِحَّ وُقوفه بِعَرَفات إذا وُجِدَ بها من زوال اليوم التاسع إلى فجْر اليوم العاشر، أما إذا وُجِدَ بعَرَفات قبل الغُروب فيجب أن يبْقى إلى ما بعد الغُروب ولو بِلَحَظات فإذا غرَبَتْ شمْسُ يوم عرفة انْطَلَق الحجاج إلى مُزْدَلِفَة.

الخروج من عرفات إلى مزدلفة :

وكما قلنا: المناسك شيء، والخِبْرات شيءٌ آخر، والحُجاج جميعاً يتزاحمون وقْتَ الغُروب للخروج من عرفات إلى مُزْدَلِفَة، وَجَدْتُ أخواننا رُؤساء الأفواج يؤخِّرون الخروجَ، ولا سيَّما إذا كانت سياراتهم تحت سَيْطَرَتِهم إلى ما بعد الساعة العاشِرَة ليْلاً، وعندئِذٍ تجدون أنَّ الطرقات قد أصْبَحَتْ مَعْقولة، وكُنَّا ننتقل في سَاعة واحدة من عرفات إلى

مزْدلفة، إلا في العام الماضي فَهُوَ أمر اسْتِثنائي، فقد بلغ عدد الحجاج أربعة ملايين !! الآن نحن في الحج، وهناك عِدَّة مذاهب، والحقيقة لا تجد رَوْعَةَ اخْتِلافِ الفقهاءِ إلا في هذا الموْقف، لأنَّكَ لو تَصَوَّرْتَ مليون حاج تحَرَّكوا وِفق مذْهبٍ واحِدٍ لَهَلكوا ! فالمذْهب المالكي يُجيز أن تنْطلق من مُزْدلفة قبل مُنتصف الليل، والمذْهب الشافعي يُجيز أن تنْطلق من مُزْدلفة بعد مُنتصف الليل، والمذْهب الحنفي يُوجب البقاء إلى بعد صلاة الفجْر، فالحُجاج لو انْقسَموا وِفْق هذه المذاهب لأصْبح عددهم قليلاً، والأمر فيه بَحْبوحة، وفي الحج يُمْكن أن تُفْتي بالأسْهل، لأنَّ النبي عليه الصلاة والسلام حجَّ معه عَشْرة آلاف، أما الآن فملايين! وهناك ظُروف جَدَّتْ الآن، فإذا اخْتار الإنسانُ بعضَ المذاهب التي من شأنها أن تُيَسِّر على الحاج وعلى أهْله، فَمَن كان معه أهل ؛ زَوْجة، أو أمّ، أو أخت، هل هم كُثُر يا تُرى ؟! هناك فَتْوى من رسول الله صلى الله عله وسلَّم من كان له أهل فيجوز له أن ينطلق من مزدلفة بعد منتصف الليل على المذْهب الشافعي، فإذا قَلَّد الإمام الشافعي فلا شيء عليه، وهو على العَيْن والرَّأس.

فإذا انطلقنا من عرفات إلى مزدلفة، سواء انطلقنا بعد المغرب أو بعد العِشاء، وعلى كُلٍّ المذْهبُ الوسطُ بين الأحناف والمالكِيَّة، لا بدّ أن تنطلق من مزدلفة بعد منتصف الليل، والمَبيت بِمُزْدلفة واجب إلا أنَّهُ يمْكن أن تُمْضي شَطْراً من الليل، وعند الشافعي أن تُمْضي نِصْف الليل، وعند المالكي تمضي جُزْءًا من الليل، وعند الأحْناف مُعْظم الليل، فإذا كان الإنسان معه أهله فأرْوَع طريقة أن تنطلق من مزدلفة بعد أن تصلي المغرب والعِشاء جمْع تأخير، وتلتقِط حصِيات جمْرة العقبة، وتنطلق بعدها إلى مُزْدَلِفة بعد منتصف الليل، إلى أين ننطلق؟ مزدلفة كُلُّها مَوْقف، وإذا كان معك بَحْبوحة فانْطلق إلى المَشْعر الحرام، والدعاء الذي كان يدْعوه عليه الصلاة والسلام: " اللهم كما أوْقفْتنا فيه، وأرَيْتنا إياه، وفِّقْنا لِذِكْرِك كما هَدَيْتنا، واغفر لنا وارْحمنا كما وَعَدتنا، لقولك وقولُك الحق:

﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

[سورة البقرة: 198]

والدعاء الذي ينبغي أن تُكْثِروا منه في هذا الموقف: " اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حَسَنة وقِنا عذاب النار.

هناك طريق عام، وإذا بقِيَ الإنسان في الطريق العام فإنَّ نِسْبة التَّلوُّث عاليَةٌ، تَصَوَّر عشْرة آلاف سيارة لا تقف مُحَرِّكاتها، فإذا أمْكَنَكم أن تتوَغَّلوا إلى الداخل فإنَّكم سَتَجِدون الجوّ ألْطف، فاجْلِسوا ساعة أو أكثر، أينما وقفْتَ بِمُزدلفة فالوُقوف مقْبول، فهي كُلُّها مَوْقف، المُهِمّ أن تقْضي هذا الوقت بالذِّكْر والدعاء وصلاة المغرب والعِشاء،

والْتِقاط سبْع حَصَياتٍ لا تَقِلّ عن حَبَّة الحمّص، ولا تزيد عن حَبَّة الفول المِصْري، ويُسَنُّ أن تغسِلوا هذه الحَصَيات إذا أمْكن، ويُسَنُّ أخْذ أكثر من سبْع حَصَيات للاحْتِياط، فالسنَّة أن تلتقط الحصيات من مزدلفة لِجَمرات العقبة، أما الباقي فَمِن مِنى.

الانطلاق من مزدلفة إلى منى :

الآن ماذا نفعل إذا انْطلقنا من مزدلفة إلى مِنى ؟ أوَّلاً: مِنى فيها ثلاث جمرات: الجَمْرة الصُّغْرى، والوُسْطى، والكُبْرى أو جَمْرة العقبة، الجَمْرة الصُّغْرى من جِهَة عرفات، والكُبرى من جهة مكَّة، أنت في طريقك من مزدلفة إلى مكَّة تبدأ بالجمرة الصغرى فالوُسْطى فالكُبْرى، إلا أنَّك في صبيحة العيد، أو ليلة العيد، أو بعد منتصف ليلة العيد مُكَلَّفٌ أن ترْمي جمْرة العقبة أو الجمْرة الكُبْرى فقط، أما رَمْيُ بَقِيَّة الجَمَرات فهذا يكون في اليوم الثاني والثالث والرابع من أيام العيد، فنحن الآن من أجْل أن نرْمي جمْرة العقبة فقط.
انْطلقنا من مزدلفة على المذْهب الشافعي بعد منتصف الليل، أو انطلقنا من مزدلفة قبل منتصف الليل على المْذهب المالكي، على كلٍّ الأفضل المذْهب الشافعي لِمَن معه أهْل، لأنَّهُ عَمَلِياً الحجاج مليون وسبعمئة ألف أو أكثر، فعلى المذْهب الحنفي ينطلقون بعد الفجر، فيَكون الازْدِحام شديدًا، وقد حَدَّثني مَرَّةً أخٌ كريم فقال: أردْتُ أن أُطَبِّق المْذهب الحنفي فاسْتَغْرق الوقت مِنِّي سبْع عشرة ساعة مِن منى إلى مكَّة، وضاعَتْ علينا صَلَوات، ونَدِمْتُ نَدَماً شديداً، لأني لم أُقَلِّد المذْهب الشافعي، فالانطلاق بعد منتصف الليل، لا سيَّما مَن كان معه أشْخاص مُتَقَدِّمون في السنّ أو نِساء فالأَوْلى أن ينطلق بعد منتصف الليل، وعلماء أجِلاء وكُثُر يفْعلون هذا، ثمَّ إنَّ الشاب الذي ليس معه أغْراض، وليس معه أهل، فليس هناك أفْضل من المَشْي ففي العام الماضي اسْتغرقنا من عرفات إلى مزدلفة والمسافة عشْرة كيلو متر سبْع عشرة ساعة بالسيارات! فكم يمكن أن تقضِيَها مشيًا؟ في ساعتين أو أكثر بقليل، لذلك الآن هناك تفْكير بِوَضْع قِطارات من تحت الأرْض بِشَكل دائري للتَّخَلّص من موضوع التَّلَوُّث، ويكون المسار من منى إلى عرفات، ومن عرفات إلى منى، ومجموع المسافة بين مكَّة وعرفات خمسة وعشرون كيلو متراً.

أعمال يوم عيد الأضحى :

أمّا أعمال يوم عيد الأضْحى، فإما ليلة الأضْحى لِمَن انْطلق بِمنتصف الليل، أو يوم الأضْحى لِمَن انطلق بعد صلاة يوم الفجْر: أوّلاً: رَمْيُ جَمْرة العقبة، ثانياً: ذَبْحُ الهَدْي لِمَن أراد الهَدْي، ثالثاً: الحلْق أو التَّقْصير، رابعاً: طواف الإفاضة، وهو رُكنُ الحجّ الأعظم.

فهذه الأعمال إذا فعَلْتَها ينبغي أن تفْعلها بالتَّرْتيب، وهي عند الأحناف واجب، وضَعْ في ذِهْنِك أنَّ كلمة واجب إذا تَرَكْتَهُ لَزِمَكَ الدَّم، والرُّكْن إذا تركْتَهُ بطل حجُّك، والسنَّة إذا تَرَكْتها فقد أسأتَ، والمُسْتَحَبّ إذا تركْتَهُ فقد تَرَكْتَ الأوْلى، والترتيب في بقِيَّة المذاهب سُنَّة، فمَن لم يأخذ به فقد ترك السنَّة، ولا شيء عليه. والأفضل المُبادرة إلى رَمْي جمْرة العقبة، ويُسَنُّ أن تُرْمى بعد طُلوع الشَّمْس وارْتِفاعها بِمقْدار رُمْحٍ، فلو تَعَسَّر ذلك فله وقْتٌ آخر، حتى غُروب شمْس ذلك اليوم، ويمكن أن ترْمي جمْرة العقبة حتى غُروب ذلك اليوم من دون كراهة، ولك أن ترْمِيَها حتى اليوم الثاني من العيد مع الكراهة، أما إذا أخَّرْتَ رَمْي جمْرة العقبة بعد اليوم الثاني من العيد فلَزِمَك الدّم، فنحن كما اتَّفقْنا لو أنَّك خرجْت من مزدلفة في منتصف الليل، فعليك أن ترْمِيَها بعد منتصف الليل مباشرةً، ولن تجد الازْدِحام في هذا الوقْت، فَرَمْيُ الجمار في هذا الوقت تجد فيه ازْدِحاماً مَعْقولاً، فالذي معه زوْجته فالوقت مناسب له، واحْذر أنْ تأخذ زوْجتك في أوْقات الازْدِحام، إذْ يمكن أن تُزاحِم زوْجتُك في هذا الرَّكْب، وهذا لا يجوز، فعلى الإنسان أن يكون واقِعياً، وبالذات في رَمْيِ الجمار أنا أُفَضِّل أن يكون ليلاً، وكذا في اليوم الثاني والثالث من أيام العيد.

التوكيل في الرمي :

أمّا مسألة التَّوْكيل في الرّمي، فالمرأة لها أن تُوَكِّل، إلا أنَّ الرجل لا يجوز له ذلك عند الأحناف، وهناك حجاج لا يفقهون فلِسَبَبٍ تافِهٍ يُوَكِّلون، حَدَّثني أخٌ صديق فقال: هناك أخوة مُقيمون بالمملكة، كيف يَحُجُّون؟ يُصَلون العصْر في جدَّة يوم عرفات، ويركبون سيارتهم وينطلقون إلى مكَّة والطريق فارغ، يطوفون لوحدهم – لأنَّ الحجاج كلهم بعرفات – طواف القدوم، ثمَّ السَّعْي، وينطلقون بعدها إلى عرفات قُبيل المغرب بِقَليل، ويجْلِسون أوَّل صفٍّ فإذا مضى عليهم غُروب الشَّمْس، عادوا إلى مزدلفة، وقَلَّدوا الإمام مالك، وخرجوا منها بعد المغرب بقليل – من مزدلفة – ولم يرْجُموا وإنما وكَّلوا، وطافوا طواف الإفاضة لوحْدهم، وانتهى الحج كلُّه في ثلاث ساعات !!! هذه المناسك يجب أن تُعَظِّمها، قال تعالى:

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾

[سورة الحج: 32]

ويُسَنُّ الوقوفُ لِرَمْي جمْرةِ العقبة جاعِلاً مكَّة عن يساره، ومزدلفة عن يمينه، ويسْتقبل الجمرة بِوَجْهه، وعلى الحاج أن يلاحظ ألاّ يكون اتِّجاهه في أثناء رمْي الجمرةِ نحو مكَّة إنما الاتِّجاه نحو رمْي جمرة العقبة، ورمي هذه الجمرة لا يصحّ إلا كذلك، بل يجب أن يكون مَوْقفه بِعَكْس اتِّجاه طريق مكَّة.

يجب أن يرمي سبع حَصَياتٍ واحدة فواحدة، فلا يجوز أن ترْمِيَها دُفعةً واحدة وهذا مَنسك ؛ وهو أنَّك عاهَدْتَ الله على مُعاداة الشِّيطان، فهذا السُّلوك رمْزي، فَبَعْد الحج كُلَّما وَسْوَسَ لك الشِّيطان تتذَكَّر أنَّك رَمَيْت الشيطان بهذه الحَصَيات ؛ وهو سُلوك رمْزي راقٍ.

ولو وُضِعَتْ الحصاة في الجمْرة وضْعاً لم تَصِحّ، ويُشْترط أن يقصِدَ بِرَمْيِه جمْرة العَقَبة، فلو رمى حصاةً بِقَصْدٍ آخر فسَقَطَتْ في الجَمْرة لم تَصِح، لأنَّ العبادات أساسها النِّيَّة أما المُعاملات فتَصِحّ بلا نِيَّة. وعند السادة الشافعِيَّة لا بدّ أن ترْمي بالأحجار، أما عند السادة الأحناف فيُمْكن أن ترْمي بالكَدَر، بل إن لم تجد أخذتَ قَبْضةَ تُرابٍ مكانَ الحصاة، ويكون الرَّمْيُ باليد، ولا يصِحُّ إلا بها. فإذا شَكَّ في إصابة المَرْمى لم تُحْسَب تلك الحصاة، لذلك فالأولى أن يقترِب الإنسان إذْ لا يُعْقل أنَّ الإنسان في الحج يُرْمى عليه الحجر أو النعل! ولو أصَبْتَ المَرْمى ثمَّ تدحْرَجَت حتى خرجت من المرمى صَحَّ رَمْيُك، ويرفع الحاج عند الرَّمْي يده حتى يُرى باطن الإبط وبياضه، أما المرأة فلا، ومع أوَّل حصاةٍ ترميها في جمرة العقبة تُقْطع التَّلْبِيَة، ويبْدأ التَّكْبير، فالتَّلْبِيَة من ساعة الإحرام ؛ لَبَّيْك اللهم لبَّيْك، إلى رَمْي جمْرة العقبة، وبعدها تقف التَّلْبِيَة لِيَبْدأ بعدها التَّكْبير.

فلو عجز الحاج عن الرَّمْي لِمَرَضٍ أو مانع شَرْعي لا يزول طيلة أيام التَّشْريق جاز أن يُنيب من يرْمي عنه، بِشَرْط أن يكون مَن ينوب عنه قد رمى عن نفْسِه، وينوي النائبُ الرَّمْيَ عن فلان، فهذا ممكن إذا كانت المرأة كبيرةً، أو الإنسان عاجزًا، كما أنَّهُ يَصِحُّ الرَّمْي في الطابق الأعلى، فهناك المَمْشى الأساسي والطابق العُلوي، وغداً تجدون أنّ المسلمين لو نَظَّموا أنفسهم لن تحدث مشكلة، لأنَّ الطريق مُسْتَمِرّ، لكن من عدم التَّنْظيم هناك حُجاج يرْمون ثمّ يعودون، فهذا التعاكس في السَّيْر يخلق مُشْكلة كبيرة.

الحلق أو التقصير :

الحَلْقُ أو التَّقْصير هو عند الشافعِيَّة رُكْن من أركان الحج، لا تكْتمِلُ مناسِكُ الحجّ إلا به، وعند الأحْناف واجبٌ من واجبات الحج، وعلى كُلٍّ فلا بدّ من الحَلْق أوالتَّقْصير، قال صلى الله عليه وسلّم: "رحم الله المحلِّقين " والسنَّة أن يكون الحلْق أو التَّقْصير بعد رَمْي جمْرة العقبة، وأن يكون بِمِنى، وله أن يحْلق بأيِّ مكانٍ شاء، وبعد الحلق يكون الحاج قد تَحَلَّل من مَحْضورات الإحرام عدا النِّساء، فيَمَكَّن أن يتطَيَّب وأن يلْبِسَ ثيابه، ولا يَحِلُّ له النِّساء إلا بعد طواف الإفاضة.

وأقلّ شيء في الحلق والتَّقصير ثلاثُ شَعْراتٍ، فإذا لم يكن مع الإنسان شَعْرٌ، يُمَرِّر الموسى على رأسه حتى يكون مِمَّن نفَّذ أمْر الله، وتأدُّب بأدب الإسلام.

ولو كان به أذىً من رأسه يَمْنع من الحلْق أو التَّقْصير، ينتظر حتى يزول المانع، ولا يسْقط عنه الحلق أبداً، ويُسَنُّ أن يسْتقبل القبلة عند الحلق، ويبْدأ بِمُقَدَّم رأسِه، فالشِّقِّ الأَيْمن فالأيْسَر، ثمَّ بَقِيَّةُ الرأس، ثمَّ يُدْفنُ شَعْرُهُ بالرَّمْل، ويُكْرَهُ أن تحْلِقَ المرأة شَعْرها، بل تُقَصِّر، والسنَّة أن تُقَصِّر بِمِقْدار أُنْملة من جميع جوانب شعْرِها.

طواف الإفاضة :

أما طواف الإفاضة فهو رُكْن الحجّ الأساسي، وصَدّقوني ولا أُبالغ، كم من حاجٍّ عاد من حَجِّه ولم يَطُفْ طواف الإفاضة !

أيها الأخوة تَفَقَّهوا، قبل أن تَحجّوا، والتَّفَقُّه في مناسك الحج من الحجّ.

طواف الإفاضة ركن في الحج، وسأُبَيِّنُ لكم مَثلاً بسيطاً، وهو الفرق عند المذاهب، فعند الأحناف المرأة إذا جاءَتْها الدَّورة الشَّهْريَة، وحالتْ بينها وبين طواف الإفاضة فعليها بدَنَة، والبَدَنة تتراوح ما بين سبعين إلى ثمانين إلى مئة ألف ! وهو مبلغ فوق طاقة الإنسان ؛ فهذا عند الأحناف، أما عند الشافِعِيَّة فتُصْبح المرأة أميرة ركْبِها، فيجب أن ينتظرها أهلها إلى أن تطْهر وعند الإمام مالك – ولولا مالك لكان الدّين هالِكًا – تتَحَرَّى وَقْتاً ينقطع فيه الدّم قليلاً، وتطوف البيْت، ولا شيء عليها، لأنَّ الحيْض عارِضٌ سماوي، فلو جاءَتْك امْرأة فقيرة جَمَعَتْ المال دِرْهماً فوق دِرْهم طوال حياتها، حتى جاءتْ البيت الحرام، وجاءَتْها الدَّورة قبل طواف الإفاضة وكنت مُفْتِياً ماذا تقول لها؟ أنا سَمِعْتُ مرَّةً شخصًا يقول لامرأة: عليكِ بَدَنَة، ولما سألتْ ما البَدَنة؟ قال: جمل، فقالتْ: وما ثَمَنُ الجمَل؟ فلما قيل لها: كذا ليرة بَرَكَت كما يبْرك الجمل، ومرَّةً قال أحد العلماء: قلَّدْتُ ثلاثة مذاهب، وأنا في

الطواف بدأتُ شافِعِياً، فلامَسَتْ يدي امرأة فقلَّدْتُ الحنفي، ثمَّ سال منِّي دمٌ فقَلَّدْتُ الإمام مالك! فالدِّينُ يُسْر، ففي بلدك خُذْ بالأحوط، أما في الحج فخُذْ بالأيْسَر.

أمّا طواف الإفاضة فإذا تَمَكَّنتم أن تطوفوا طواف الإفاضة في ساعة متأخِّرة من الليل؛ الثانِيَة مثلاً، سَتَجِدون بَحْبوحة بالطواف، إلا أنَّ الطواف بالنَّهار بالعدد الهائل ستجدون هناك عُسْرة، وشبه اسْتِحالة، والطواف بالأرْوِقَة يُكَلِّفُكم كُلُّ شوط قرابة ساعة، فإذا انطلقتم من منى إلى مكَّة بعد رَمْي الجِمار، ثمَّ إلى بيت الله الحرام، وطُفْتُمْ طواف الإفاضة، ربما كان طوافكم مُسْعِداً، لأنَّكم لم تجدوا ازْدِحاماً شديداً.

و قت الطواف :

يدْخل وقْتُهُ من منتصف ليلة العاشر من ذي الحجّة، وهو يوم عرفة، ولا نِهاية لوقْته، إلى آخر العُمر، إلا أنَّ العلماء قالوا: يُكْره أن يُؤَخَّر إلى بعد أيام التّشْريق، وتشْتدُّ الكراهة بعد أيام التَّشْريق، والأوْلى أن يطوف قبل زوال شَمْس أيام العيد، أي من منتصف ليلة العيد إلى ظهْر العيد، وهو أكمل وقْت لِطَواف الإفاضة. ومن لم يطُف طواف الإفاضة يظَلّ مُحْرِماً، ولا تَحِلّ له النِّساء مهما امْتَدَّ به الزَّمن.

ولو طاف طواف الوداع، ولم يطُفْ طواف الإفاضة، وقع طوافه عن طواف الإفاضة، ووجب أن يطوف طواف الوداع، فأنت لما قَدمْت إلى مكَّة، وطُفْتَ طواف القُدوم، ولم تسْعَ بين الصفا والمروة بإمكانك بعد طواف الإفاضة أن تسْعى بين الصفا و المروة، فالسَّعْي لا يتكَرَّر، فإما مع طواف القُدوم، و هو أفْضل بِكَثير، وإما بعد طواف الإفاضة وهو غير منْصوح به، فَبَعْد أن تطوف طواف الإفاضة، وتسْعى بين الصفا والمروة إن لم تسعَ من قبل، تذْهب إلى البيت وتَحْلِق وتغْتَسِل وتتطَيَّب، وتكون بِهذا قد تَحَلَّلْتَ من كلِّ مَحْظورات الإحرام وما بَقِيَ عليك إلا رَمْيُ الجِمار.

رمي الجمار :

يكون رَمْيُ الجِمار ثاني أيام العيد، وثالث يوم، ورابع يوم، قال تعالى:

﴿ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾

[سورة البقرة: 203]

وكثير من الحجاج، وأنا فعلْتُ هذا مع أعضاء البِعْثة يذْهبون إلى مِنى الساعة العاشِرَة ليْلاً، من ثاني أيام العيد، ويرْمون الجمرات، الأولى والثانية والثالثة وينتظرون إلى أذان الفجْر، فإذا أذَّن الفجْر يُصَلون الفجْر، ويرْمون الجمرات الثلاثة للمَرَّة الثانية، فقبل صلاة الفجْر عن ثاني أيام العيد، وبعد صلاة الفجْر عن ثالث أيام العيد، ومن الساعة العاشرة حتى طلوع الشَّمْس فقد تَحَقَّق المبيت بِمِنى، وهو واجب عند الأحناف، وسنَّة عند السادة الشافعيَّة، فَتَكون قد جمَعْتَ بين المبيت بِمِنى، وبين رَمْي الجمار عن اليوم الثاني من أيام العيد، وعن اليوم الثالث من أيام العيد، فإذا ذَهَبْتم الساعة العاشرة إلى منى، هذا الوقت يجب أن يمْضي بِذِكْر الله، وتِلاوة القرآن، وأدعية وابْتِهالات، كما أنَّني أنصح الذي معه زوجته، أو أمّه، أو أخته، أن يرمي بالليل خوف الانسِحاق وليس الازدِحام.

التحلل :

ويكون التَّحلّل بعد رَمْي جَمْرة العقبة والحلْق أو التَّقصير والطواف مع السَّعْي إن لم يكن قد سَعى. ويُسَنُّ للحاج التَّكْبير في أعْقاب الصَّلوات الخمْسة، والأرجح إلى آخر أيام العيد المبارك، ثمّ طواف الوداع، وبعدها التَّوَجُّه إلى مسْجد النبي عليه الصلاة والسلام.

وإن شاء الله في درْس قادم ننتقل إلى زيارة مسجد رسول الله ﷺ ولها آداب وأدْعِيَة وتَرْتيبات.

والحمد لله رب العالمين

الدرس 15 : زيارة المدينة المنورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بِما علَّمتنا وزِدْنا عِلماً، وأَرِنا الحق حقاً وارْزقنا اتِّباعه، وأرِنا الباطل باطِلاً وارزُقنا اجْتنابه، واجْعلنا ممن يسْتمعون القول فَيَتَّبِعون أحْسنه، وأدْخِلنا برحْمتك في عبادك الصالحين .

الأحكام الفقهية لزيارة النبي عليه الصلاة و السلام :

أيها الأخوة الأكارم، بقي معنا زيارة النبي عليه الصلاة والسلام، ومهما قيل في حُكْم الزِّيارة فهناك من يثْفي وُجوبها، ومن يجْعلها من لوازم الحجّ، مهما قيل في حكمها، فما من حاجٍ يحجّ البيت الحرام إلا ويزور النبي عليه الصلاة والسلام .

فالحديث عن مَشْروعِيَّة الزِّيارة، وعن حكمتها حديثٌ دقيقٌ ومهمّ، إلا أنَّنا نبْدأ بالأحكام الفقْهِيَّة في الزِّيارة، وبعدها ننتقل إلى بعض الحكم التي يمكن أن تُسْتنبط من زيارة النبي عليه الصلاة والسلام .

الأحكام الفقهية للزيارة:

أوَّلاً: ما يُشاع بين الحُجاج أنَّهُ لا بدّ أنْ تُقيمَ ثمانِيَةَ أيامٍ في المدينة المنوَّرة، لِتُصَلي أربعين فرْضًا في الحرم النبوي الشريف، فهذا ليس من الأشياء الثابتة في الدِّين، وهذا هو الكلام الدقيق، فأنت بِإمكانك أن تمْكثَ في المدينة أربعة أيام، أو خمْسة، أوثلاثة، وذلك بِحَسَب الاسْتِطاعة والقدْرة والتَّيْسير، وبحسَب الظروف التي تطْرأ، أما أن تعْتَقِد أنَّه لا بدَّ أن تُقيم ثمانية أيامٍ في المدينة المنوَّرة فهذا كلامٌ ليس له أساسٌ من الصِّحَّة، إلا أنَّهُ كلَّما مَكَثْتَ هناك كان أفْضل، أما أنْ تعدّ هذا من أحكام الدِّين، والأحكام الشرعِيَّة فهذا ليس له أصل .

هناك نقطة دقيقة، وهي أنَّ الله عز وجل قال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾

[سورة النساء : 64]

يا ترى هذه الآية هل هي في حَياة النبي ﷺ أم تنطبق بعد وفاته صلى الله عليه وسلَّم ؟ فَهُم ظلموا أنفسهم حينما لم يُطَبّقوا السنّة، جاؤوك، لماذا ؟ كأنَّهم ما صَدَّقوا النبي عليه الصلاة والسلام إذْ جاء بِهذا الوحْي العظيم، وحينما بيَّن هذه السنَّة، فَتَكْريماً للنَّبيّ عليه الصلاة والسلام، وتنْويهاً لشأنه العظيم، وتعْظيماً لِمَقامه العالي، لا يقبل الله منك توْبَةً، ولا اسْتِغفاراً، ولا اصْطِلاحاً إلا إذا اصْطَلَحْتَ مع نبِيّهِ، لأنَّك حينما لم تُطَبِّق سنَّتَهُ ﷺ كأنَّ لسان الحال يُكَذِّبُ هذا النبي، فالله تعالى قال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً ﴾

[سورة النساء : 64]

نحن ليس عندنا إشراك بالله، فَمِن الثوابت أنَّك إذا زُرْتَ مقام النبي عليه الصلاة والسلام لا يمكن أن تشْعر أنَّك أمام قبْر، تشْعر أنَّك في حَضْرته، فإذا خاطَبْته تشْعر أنَّك تُخاطبه وكأنَّهُ حيٌّ أمامك، فتُخاطبهُ بأدَبٍ جَمّ، وتقف بأدِب رفيعٍ فتَشْعر وكأنَّهُ أمامك، هذا من علامة المؤمن، ولهذا كان بعض العارفين وهو الشيخ بدْر الدِّين الحَسَني لِهَيْبة مقامه الجليل وقف في أوَّل باب السلام ولم يجْرؤ أن يتخَطَّى باب السلام، أما هؤلاء الذين ينْكَبُّون على مقام النَّبيّ ﷺ ويؤذون المسلمين، ويتَمَسّحُون بالحديد الذي على النافذة، هؤلاء أقلّ أدَباً مما ينبغي، فيجب أن تقف أمام مقامه الشريف كما لو كان حيًّا، فالاقْتِراب الشديد ليس من الأدب .

بعض الخِبْرات الشَّخْصِيَة في موضوع الزيارة :

إليكم الآن بعض الخِبْرات الشَّخْصِيَة في موضوع الزيارة، ماذا الذي يحْصل أيها الأخوة ؟ الذي يحْصل أنَّك مُشْتاق لِمَقامِ النبي عليه الصلاة والسلام، وما أن تَصِل إلى المدينة حتَّى تتَوَجَّه إلى الحرم الشريف، وغالباً ما يكون الوقْت وقْت صلوات، فَتُصلي الفريضة وتنْطلق إلى مقام النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا بك أمام زِحامٍ لا يُعْقَل، ولا يُحْتَمَل، وأمام تيارٍ من البشر تكاد تنْسَحِقُ بين أفْراده، وكلُّهم يدْفعك نحو الأمام، ويحْشُرُك في أضْيَقِ الأمْكِنَة إلى أن تجد نفْسك فجْأةً في الطريق، ففي القديم كنت أمام المقام النَّبوي تنحرف نحو اليسار وتدور حوْل المقام، والسلطات السعودِيَّة – وأنا معهم في هذا – خافوا أن يطوف الناس حوْل مقام النَّبيّ ﷺ، لأنَّهُ بِدْعة، فأغْلقوا الطريق من الجِهَة التي حول المقام، وصار الطريق إجْباريًّا إلى خارج الحرم، فأنت لو ذَهَبْتَ في وقْتٍ غير مناسب لزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلّم أقول لكم: تكون لك نكْسة في هذه الزِّيارة ولا أُبالغ، فتجد نفسك

مُضْطربًا، ولم تشْعر بِحَال تِّجاه هذا النَّبي العظيم، ولم تدْمع عَيْناك، وتجد نفْسك تُدْفع من كُلِّ الجهات، إلى أن تصير خارج الحرم النَّبوي، ماذا ينبغي أن تفْعل ؟ أنا أنصح أخواننا الكرام ورُؤساء الأفواج حفظهم الله تعالى الذين عندهم خبرات أن يذْهبوا إلى بيوتهم وهم في المدينة، ويسْتريحوا ساعات إلى أن يشْعروا أنَّهم عادوا إلى أعلى درجات النَّشاط، لأنَّ أثر السَّفر أثرٌ سلبي لزيارة النبي عليه الصلاة والسلام، فأنتم عليكم أن تسْتريحوا، وكُلوا واخْلَعوا ثيابكم، وبعد أن تشْعروا بالنَّشاط اغْتَسِلوا، فهو من آداب الزِّيارة، والْبَسوا أجْمل ثِيابكم، ولا بدَّ من ثَوْبٍ أبيَض خاص لأوَّل زيارةٍ للنبي عليه الصلاة والسلام، وأن تتعَطَّر، لأنَّك أنت مُتَحَلِّل الآن، واذْهَب إلى المقام النبوي الشريف إن تَمَكَّنْت عند صلاة الفجْر، وصَلِّ الفجْر مع الجماعة، وإياك أن تقْترب من المقام ! لماذا ؟ لأنَّ كُلَّ الناس بل مُعظمهم يَتَوَجّهون إلى المقام الشريف، بازْدحام ودفع شديد ومنازعة تجْعلك لا تشْعر بأيِّ حال، ولقد رأيْتُ أصْحاب الخِبْرات الطويلة يجْلِسون في الباحة السَّماوِيَة التي أرى منها القبَّة الخضْراء، هذا المنظر الذي لا يُنْسى، وهذه القبَّة التي ضَمَّت جسد النبي عليه الصلاة والسلام وحقيقته النَّبَوِيَّة، وكنت أقرأ القرآن إلى ساعة من الزَّمن، وبعد ساعةٍ من صلاة الفجْر تجد معظم الناس قد انْصَرَفوا إلى بُيوتهم، لماذا ؟ لأنَّهم جاؤوا إلى مقام رسول الله مع الأذان الأوّل، وهو قبل أذان الفجْر بِساعة، وحينها يتسنى لك البقاء ما تشاء، وتَوَجَّه للنبي عليه الصلاة والسلام وَسَلِّم عليه، وقل له: أشْهد أنَّك قد بَلَّغْتَ الرِّسالة، وأدَّيْتَ الأمانة، ونصَحت الأمّة، وكشَفْتَ الظُّلْمة، وجاهَدْتَ في الله حقّ الجهاد، وهَدَيْتَ العباد إلى سبيل الرَّشاد، وأنا أنْصحك أيّ شيء تذْكره عند مقام النبي عليه الصلاة والسلام خاطِبْهُ به، يا من وقفت في الطائِف، وقلتَ كذا وكذا، فأيّ حديث تذْكره عن رسول الله، وأيْ قِصَّة تذْكرها قلْها، وليس المقْصود أن تبْقى برْهة من الزَّمن، وتذْهب بعدها، ليست هذه هي زيارة النبي عليه الصلاة والسلام، يجب أن تبْكي هناك، وتجْهشَ بالبُكاء، وأن تشْعر أنَّك في حضْرة أعْظم مخْلوقٍ في الكَوْن، وأنَّك في حَضْرة إنسان أنْقذ البَشَرِيَّة من الضَّلال، وفي حضْرة إنسانٍ حريصٍ على المؤمنين وغيرهم، قال تعالى:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾

[سورة التوبة : 128]

ويجب أن تُخاطبه وكأنَّك بين يديه، ويجب أن تسْتغْفِرَهُ، فالمفروض هنا أن تُسْكب العَبَرات، ويُناجى النَّبيّ صلى الله عليه وسلَّم، ولا بدّ أن تبْقى ساعة أو ساعة ونِصْف، فإذا تعِبْتَ اجْلِسْ، فلك أن تُصَلي وأن تُواجه النبي عليه الصلاة والسلام، ولك أن تدْعو، افْعَل هذا كُلَّ يوم وأنت في المدينة، وهذا أنْسب وقْت، ولو سألتَ الخُبراء الذين حَجُّوا ثلاثين حَجَّةً أفضل الوقْت بعد صلاة الفجْر بِسَاعة، تقريباً خمْسون بالمئة أو سبعون ينْصَرِفون إلى بيوتهم وبإمكانك أن تقف الوَقْفة الطويلة والجَلْسة المُتأنِّيَة، وأن تُناجيه المناجاة الحارَّة، وأن تعْتَذِرَ إليه، فحالك بين أن

تُصلي للقبلة إذْ هي عكْس المقام، وبين أن تقرأ القرآن، وبين أن تكون واقفاً، أو أن تكون جالساً، سوْفَ تَرَوْن في هذه الزِّيارة أنّ أعْظم مَشْروع تَكْييف في العالم هو عند النبي عليه الصلاة والسلام، فالناس قديماً كانوا يزورون ويعودون إلى بيوتهم حيث المُكَيِّفات، أما الآن فقد انتهى هذا الأمر، التَّكْييف أرقى في الحرم المدني، وأنت مُتَّجِهٌ إلى باب الحرم النبوي الشريف قبل خمْسين متْرًا تهُبّ عليك نسَمات عليلة من التَّكْييف الشديد، لأنَّ مساحة المُكَيِّفات مئتان وسبعون ألف متْر مربَّع، والتَّبْريد مُساق بأنابيب ماءٍ بارد، ثمَّ مُحَوَّلة إلى ماءٍ باردٍ في أسْفل الأعْمِدَة، والأعمدة أعتقد أنها ألفان وأربعمئة عمود بالحرم النَّبوي، فَيُصْبح البيت لا طعْم له إطْلاقاً، البيت للطعام والنَّوْم، وهي نصيحة لِوَجْه الله، وإذا أراد الواحد منكم أن يُطالع فَلْيَتَوَجَّه إلى مكْتبة الحرم النَّبوي الشَّريف، سَيَجِد مكْتبة مُتواضعة، فإذا كان لك الوقْت يمكنك أن تتعَرَّف على معالم المدينة، هنا حينما كان حَيًّا كان مسْجده بِهذا الحجْم، فالأعمِدَة لها لون خاص، وكانت فسْحته السَّماوِيَة إلى هذا الحجْم، ثُمَّ مُدِّدَ وتَوَسَّع إلى هذا الحجْم، فهذا قبْر النبي، وهذا مُصَلاه، وهذا منْبره، ولديْك الرَّوْضة الشريفة، "ما بين منبري وقبري روْضة من رياض الجنَّة" أشْواقك وأحْوالك تظْهر بهذا المكان، فالمُكوث في البيت غير مُجْد، ولا طعْم له، فالمدينة لا طعْم لها دون الحرم النَّبوي، وواللهِ كنتُ أُشاهد أناساً أتألَّم من أعْماقي، يصلون الصبح في البيت وكذا باقي الصلوات، ما الذي جاء بك إلى هذا المكان إذا آثَرْتَ البيْت على مقام النبي عليه الصلاة والسلام؟ فَعُذْر الحرّ انْتفى الآن، فالحرم مُكَيَّف بأعلى طرق التَّكْييف، فكما قلتُ أنا أنْصَحُكَ أن تبْقى في الحرم المدني، عدا الطعام والراحة والنَّوْم .

زيارة مكتبة الحرم المدني للإطلاع على معالم المدينة :

لو أنَّ أحدكم زار المكْتبة سيأخذ منها معْلومات قَيِّمَةً، وأذْكر في السَّنة الماضِيَة ذهبْتُ لِمَكْتبة الحرم المدني وسألْتُ أين كتب معالم المدينة ؟ فَدَلَّني أحدهم، وأمْضَيْتُ ساعات لم أجِدْ أمْتَعَ منها، ثمَّ هناك بالمدينة زيارة المعالم الأثَرِيَّة ؛ جبل أُحد، ومؤْقعة الخَنْدق، وقباء والقبلتين، وكُلّ النخْل الموجود هو الذي كان في عَهْد النبي عليه الصلاة والسلام، فالنَّخْلة عُمْرها ستَّة آلاف عام ! فهذا الذي تَرَوْنَهُ هو النَّخْل نفْسه الذي كان على عَهْد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، شَهِدَ الله تعالى أنَّني وَقَفْتُ في ساحَةٍ في قباء، حالتْ مِنِّي الْتِفاتَةٌ فرأيْتُ في وسط هذه الساحة عموداً، وفي نِهاية العمود كرة مُضاءة، وكُتِبَ على هذه الكُرة: طلع البدْر علينا، ووالله الذي لا إله إلا هو يمكن أنَّ هذا النَّشيد سَمِعْتُهُ في حياتي عَشَرات ألوف المَّرات، ما أعْرِفُ أنَّني اقْشَعَرَّ جلْدي واضْطَرَبْتُ وبكيتُ إلا ذلك الوقْت الذي كان مُؤَشِّراً أنّ الصحابة اسْتَقْبلوا النبي عليه الصلاة والسلام، وهناك البقيع، هذه كُلُّها

معالم ينبغي أن تزورها، وتقرأ عنها، هناك كتاب لمحمّد حُسين هيْكل اسمه معالم التنزيل، لو أنَّ رؤساء الأفواج أخذوه معهم، وطالعوا فيه ليكونوا على عِلْم، فأنا أحبّ أن تكون الزّيارات فيها عُمْق، كما أنَّني آسف أشَدَّ الأسف على المسؤولين في السَّعوديَّة على إلْغائِهم جميع المعالم، بيت النبي أين هو ؟ كُلّه مُلْغى، فرُؤساء الأفواج كلَّما اطَّلعوا على معالم المدينة، وأطْلعوا الحجاج عليها يكون لهم الأجر.

إذاً الجَلْسة بالمدينة جلْسة روحانِيَّة، فأنت بِمَكَّة تشْعر بالجلال، لكِنَّك في المدينة تشْعر بالجمال، لذلك الآيات الكريمة المُتَعَلِّقة بذات الله تعالى تقْرؤها في مَكَّة المكرَّمة فَيَقْشَعِرّ جلدك، لكن بالمدينة أنْصحك أن تقْرأ الآيات المُتَعَلِّقة بالنبي عليه الصلاة والسلام، كَسُورة المزَّمل والمدّثر والجنّ والمنافقون و التوبة والحجرات، فهذه السور لو قرأتها أمام النبي صلى الله عليه وسلَّم لا تسْتطيع أن تتَحَمَّل . وأنت مُتَّجِهٌ إلى المدينة تقرأ كتاباً عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وأنا فعلْتُها فكانت أجْمل رحْلة في حياتي، ولن أنْساها أبداً، لأنَّ في المدينة هناك ما يُحَرِّكُكَ، فأنت أمام النبي عليه الصلاة والسلام، فَيَلْزَمُكَ كتاب عن أخْلاق النبي، وعن شمائِلِه، فهي تُفيد في الطريق إلى المدينة، والطريق إلى المدينة أربعمئة وخمسون كيلومتراً !

ما يستحب للزائر عند الاتجاه للمدينة المنورة :

يُسْتَحَبُّ للزائر أن يُكْثِرَ في طريقه إلى طيبة من الصلاة على الحبيب، ولا سيَّما إذا بدتْ له معالم المدينة، وأشْجارها، وأبْنِيَتُها، وما شَعَرْتُ بِمَديح النبي حق الشعور إلا هناك، وتشْعر بِشُعور لا تشْعره في بلدك إطْلاقاً . وأنت ذاهب إلى روْضة من رياض الجنَّة ! لي أخٌ مُقيم بالمدينة لما أخذني إلى موقعة بدر، والطريق طويل ومُعَقَّد، وبعد حوالي مئة وسِتِّين كيلو متراً عن المدينة، الجبال التي كنا نمرّ عليها قلتُ في نفْسي: سبحان الله ! هذه الجبال التي أراها الآن هي التي رآها رسول الله ﷺ ! أصْبح هناك قاسم مشْترك في الرؤْية، فعلى الزِّيارة أن تكون ممْتِعَة ومُسْعِدة وروحانِيَّة وعِلْمِيَّة، فالأكل والشرْب ضَعْهُ على جنب، والْتَفِت إلى طاعة الله عز وجل . ويُسْتَحَبُّ للزائر أن يُكْثِرَ في طريقه إلى طيبة من الصلاة على الحبيب ولا سيَّما إذا بدتْ له معالم المدينة وأشْجارها وأبْنِيَتُها، وأن يسأل الله تعالى أن ينفعه بِزِيارته، وأن يتقَبَّلها منه، ويُسْتَحَبّ الاغْتِسال قبل الدُّخول إلى مسْجِدِه صلى الله عليه وسلَّم، وأن يُنَظِّفَ نفْسه، وأن يلْبس أحْسن الثِّياب، ويتطَيَّب، وعلى المرْءِ أن يسْتشْعر في نفْسه أنَّهُ على أشْرف بِقاع الأرض، لما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام قال: " اللهمّ خرجْتُ مِن أحَبِّ الدِّيار إليّ – من مكَّة – فأسْكِنِّي أحبَّ الدِّيار إليك" فالعلماء اسْتنْبطوا أنَّ المدينة المُنَوَّرة أحبُّ البلاد إلى الله تعالى،

وأنت تشْعر بِهذا، هدوءٌ تام، لا خِناق، ولا جدال، وسلام تامّ، لأنَّ أكثر المَدَنِيّين المُجاوِرين جاؤوا حُبًّا بِرَسول الله، وتجد تعاملهم لطيفًا، وأكثر شيء يدْعوك للتَّعَجُّب أنَّ هؤلاء ما رأوْهُ، وما سَمِعوا كلامه، ولا أخذوا من عطائِه، لماذا يبْكون ؟! ما الداعي للبكاء ؟ هذا من سرِّ النُّبُوَّة، كما يُسْتَحَبّ أن يقول عند دُخول المسْجد النَّبَوي ما ذَكَرْناهُ عند دُخول المسْجد الحرام، وأن يدْخل مُقَدِّماً رجْله اليُمْنى، ثمَّ يقْصِد الرَّوْضة الشريفة، فهذه الرَّوْضة صلى فيها أبو بكر وعمر بن الخطاب، وكبار الصَّحابة، فيَجوز أن تُصلي في مكانٍ صلى فيه هؤلاء الخيرة، فإذا أتيح لك أن تُصلي في مِحْراب النبي الذي صلى بأصْحابه فيه تشْعر حقيقةً أنَّك في رَوْضة، ووالله إنَّ هذا الكلام ليس فيه مُبالغة إطْلاقاً، وأنت في الروضة تشْعر أنّك في رياض الجنَّة . أُسْطوانة الوُفود، أحد الصحابة ارْتَكَب خطأً فَرَبَط نفْسه بأُسْطوانة اسمها أُسْطوانة التوبة، وهي عبارة عن عمود، ثمَّ إنَّ الألوان مختلفة فالبيْضاء للرَّوْضة، والحمْراء خارجها، وهناك مُؤَشِّرات مكتوبة في الأولى: أنَّ هذه حدود المسجد النبوي في عهْده، وهذه في عهْد عمر، فهذه العلامات لها أثر بالغ في نفْسِكَ المُنيبة إلى الله تعالى .

والرَّوْضة هي ما بين المِنْبر والقبْر الشَّريف، المُحاط بالحُجْرة الشَّريفة، وهي مُتَمَيِّزة بِسواريها ذات الرُّخام الأبْيَض، ويُصلى في الرَّوْضة سُنَّة تَحِيَّة المَسْجد، فبِالحَرَم المكي الطواف هو التَّحِيَّة، ويشْكر الله تعالى على النِّعْمة، ويسْأله القبول، ثمَّ يأتي القبْرَ الشريف حيث مثوى نبِيُّنا محمد صلى الله عليه وسلَّم، فَيَقِفُ مُسْتَقْبِلاً القَبْر، والقِبْلة خلْفهُ، ففي الدعاء اِتَّجِه نحو القبلة، ولا تتَّجِه نحو القبْر، وأخواننا السَّعوديّون يظنون أنَّك تتَوَسَّل بالنبي عليه الصلاة والسلام ناظِراً إلى أسْفل المُواجهة الشريفة، غاضًّا الطَّرْف، ممتلىء القلب هَيْبَةً وإجْلالاً، لِمَنْزلة مَن أنت في حَضْرته، ثمَّ تُسَلِّمُ بِصَوْتٍ مُعْتَدِل قائِلاً: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نَبِيَّ الله، السلام عليك يا خيرة خلْق الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا طُهْر السلام، السلام عليك يا نبِيَّ الرحمة، السلام عليك يا نبِيَّ الأمة السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا رسول ربِّ العالمين، السلام عليك يا سيِّد المرسلين ويا خاتم النَبِيِّين، السلام عليك يا خير الخلائق أجْمعين، السلام عليك يا قائِد الغرّ الميامين، السلام عليك وعلى آل بيْتك وأزواجك وذُرِّيَّتِك وأصْحابك أجْمعين، السلام عليك وعلى سائر الأنبياء وجميع عباد الله الصالحين، وإن لم يحْفظ هذا الدُّعاء فلا مانع، جزاك الله يا رسول الله أفضل ما جزى نبِيًّا عن أُمَّتِه، وصلى الله عليك وسلَّم كلَّما ذَكَرَك ذاكر، وغفل عن ذِكْرك غافل أفْضل وأطْيَبُ من صلى على أحد من الخلْق أجْمعين، أشْهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشْهد أنَّك عبدك ورسوله، وخيرته من خلقه، وأشْهد أنَّك قد بَلَّغْتَ الرِّسالة وأدَّيْت الأمانة، ونصحْتَ الأمَّة، وجاهَدْتَ في الله حق جهاده، اللهمّ آته الوسيلة

والفضيلة، وابْعَثْهُ مقاماً مَحْموداً الذي وَعَدْتَه، وآته نهاية ما ينْبغي أن يسأله السائِل، اللهمّ صلِّ على سيّدنا محمدٍ عبْدك ورسولك ونبيّك، النبيّ الأميّ وعلى آل سيّدنا محمّد، وأزواجه وذُرّيَّتِه كما صَلَّيْتَ على سيّدنا إبراهيم وعلى آل سيّدنا إبراهيم، وبارك على سيّدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، كما باركت على سيّدنا إبراهيم وعلى آل سيّدنا إبراهيم في العالمين إنَّك أنت الحميد المجيد .

وهذه الصِّيغة مُسْتَحَبَّة، وللزائر أن يقْتَصِرَ على بعْضِ ما يحْفظه، وأنا لا أُفضِّل أن تفْتح كتاباً، فالكتاب يُذْهب الحال، فأن تقرأ ربعها وتبكي أحسن من أن تقرأ كلّ الكتاب وعينك جامدة ! فالقصْدُ الشُّعورُ بالقرب، لا أن تقرأ الدعاء . ويُبَلِّغُ سلاَم من أوْصاهُ بالسلام على النبي صلى الله عليه وسلّم، السلام عليك يا رسول الله من فلان ابن فلان . ويتأخَّر من اليمين فَيُسَلِّم على سيّدنا الصِّديق، يا خليفة رسولِ الله، ويا من قال النبي في حقِّه: ما ساءني قطّ، وزوَّجني ابنته، ويا من قال النبي في حقِّه: "ما طلعتْ شمْس على رجل بعد نبِيٍّ أفْضل من أبي بكْر "، كل شيء تحْفظه عن هذا الصِّديق العظيم ناجه به، وتَذَكَّر أقواله، وأفعاله، ومَحَبَّته للنبي عليه الصلاة والسلام . ثم يسلم على عمر بن الخطاب، ويُثني عليه بما هو أهله، ثمَّ يعود إلى مواجهة النبي صلى الله عليه وسلّم حيث وقف أوَّل مرَّة فيتَوَسَّل به ويتشَفَّع به إلى الله عز وجل، سائِلاً الله تعالى المَغْفرة والهُدى والصلاح والتَّقْوى، وحُسْن الخِتام، ويدْعو لنفْسه ولِوالِدَيه والمُسْلمين أجْمعين، مَكْتوبٌ على المقام:

يا خير من دُفِنَتْ بالقاع أعْظمـه فطاب من طيبِهِنَّ القاع و الأكمُ

نفسي الفداء لِقَبْر أنت ساكنـــه فيه العفاف وفيه الجود و الكرم

أنت الشَّفيعُ الذي تُرْجى شفاعته على الصِّراط إذا ما زَلَّت القـــدمُ

وصاحِباك فلا أنْساهمــــا أبـداً مِنّي السلام عليكم ما جرى القلم

***

فإذا انتهى تأخَّر، فوقف مُسْتَقْبِلاً القبلة حيث أمْكنه من الرَّوْضة، والأفضل إنْ تَيَسَّر بين القبر والسارِية، فَيَحْمَدُ الله تعالى، ويُمَجِّدُه ويدْعو لنفْسِهِ، ولوالديه، وإخوانه المؤمنين، ولْيَحْرَص على الصلاة في الرَّوْضة الشَّريفة :

((مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ))

[البخاري عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ زَيْدٍ الْمَازِنِيِّ رَضِي اللَّه عَنْهم]

ولا يجوز الطواف بالقبر النبوي الشريف، ويُكْرَهُ التَّمَسُّحُ به، أو بالمُواجهة الشريفة والتَّقْبيل، بل الأدب أن يبْتعد كما لو حضر أمامه في حياته، كما ينبغي أن يحرص على الصلوات كلِّها في مسْجد رسول الله صلى الله عليه وسلَّم،

وأن ينْوِيَ الاعْتِكاف فيه.

الخروج إلى البقيع كل يوم بعد السلام على النبي :

ويُسَنُّ الخروج إلى البقيع كُلَّ يوم، ولا سيما يوم الجمعة، وذلك بعد أن يُسَلِّم على النبي صلى الله عليه وسلَّم، ويقول عندما يَصل إلى البقيع: " السلام عليكم دار قوْمٍ مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحِقون، اللهمّ اغْفر لأهل البقيع، اللهم اغْفِر لنا ولهم" وحبَّذاَ لو صَحِبَ إلى البقيع عالماً ثِقَةً، ويُسْتحبّ زيارة شهداء أحد، ويبْدأ بحمزة عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

ويُسْتحبّ اسْتِحباباً مؤَّكداً أن يأتي مسْجد قباء، والأوْلى أن يأتِيَهُ يوم السّبت :

((عن أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ الْأَنْصَارِيِّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الصَّلَاةُ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ))

[الترمذي عن أُسَيْدِ بْنِ ظُهَيْرٍ الْأَنْصَارِيِّ]

ويُسَنّ أن يأتي بئر أريس، ويشرب من مائه، ويتوضَّأ منه، ولا بدّ أن يتخَلّق في المدينة بالأدب، والخلق الرفيع، ويُسَنُّ أن يُكْثِرَ التَصَدُّق على الفقراء . ويُحْرَمُ صَيْدُ المدينة، وقطع شَجَرها، قال النبي:

((ما بين لابتيها حرام))

[عوالي مالك بن أنس رواية الكندي عن أبي هريرة]

واللابتان هما الحرَّتان ؛ منطقة بُرْكانِيَّة .

ما يستحب عند العودة إلى الوطن :

وإذا أراد العوْدة إلى وطنه يُسْتَحَبُّ الصلاة في مسْجده النبوي الشريف ركْعتين ويدعو بهما لِمَن أحَبَّ، ثمَّ يأتي قبْر النبي عليه الصلاة والسلام، ويُعيد السلام على النَّحْو الذي فعله في قُدومه، ويقول: " اللهمّ لا تجْعل هذا العهْد آخره برَسولك، ويَسّر لي العودة إلى الحرمين سبيلاً سَهْلاً، وارزُقني العفْو والعافِيَة في الدنيا والآخرة، ورُدَّنا سالمين غانمين".

والحمد لله رب العالمين

الدرس 16 : الحج عن الغير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

الحج عن الغير:

أيها الأخوة الكرام ؛ لازلنا في أيام الحج، واخترت لكم من موضوعات الحج موضوعاً يتصل بأكثر المسلمين والمؤمنين، وهو الحج عن الغير، وله موضوعات دقيقة تغيب عن معظم الناس، والعلماء قالوا: " من وجب عليه الحج وحضره الموت يجب عليه أن يوصي أنْ يُحَجَّ عنه "، لأن الحج فريضة، قال تعالى:

﴿ فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾

(سورة آل عمران)

وقال العلماء:

((من استطاع أن يحج ولم يحج فقد كفر، ومن وجب عليه الحج وحضره الموت وجب عليه أن يوصي بأنْ يُحجَّ عنه، فإذا فعل برأت ذمته قصراً، فالدين يسر، فإنْ كان صحيحاً وغنياً، ومستطيعاً والطريق سالك، وكل شيء ميسر ولم يحجَّ، وقد دنا أجله والحج فريضة، نقول له: أوصِ أن يحج عنك الغير، وبهذا تبرأ ذمتك))

معنى هذا إذا كان الإنسان مستطيعاً وأَلَمَّ به مرض، أو عجز، أو لم يُسمَح له، ومن لوازم الاستطاعة سلامة البدن، وتوفر الزاد والراحلة، ونفقة الأهل، وأمن الطريق، وموافقة السلطان التي هي جزءِ من الاستطاعة فقدَّم طلباً ولم يوافقوا عليه، وهو على مشارف الموت، فماذا يفعل ؟ نقول له: أوصِ أن يُحجَّ عنك الغير، وبهذا تبرأ ذمتك.

الحديثان الصحيحان التاليان أصل ودليل في الحج عن الغير:

من استوفى شروط الحج من نفسه، ولم يحج حتى عجز عن الأداء بنفسه، لِكَبر سن أو مرض لا يرجى برؤه، أو ذهاب البصر، أو عدم أمن الطريق، أو عدم وجود المحرم بالنسبة للمرأة، وجب عليه أن يوصي بأنْ يُحجَّ عنه "، لأنّ الحج صار فريضة، وإذا لم يتمكن الإنسان أن يحج عن نفسه وجب أن يوصي من يحج عنه، فالأصل في هذا الحكم – والفقه مؤصل – ما معنى أنه مؤصل ؟ أي له أصول في القرآن والسنة:

((جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى الرَّاحِلَةِ فَهَلْ يَقْضِي عَنْهُ أَنْ أَحُجَّ عَنْهُ قَالَ: نَعَمْ))

[البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا]

هذا الحديث أصل في الحج عن الغير.

((أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي نَذَرَتْ أَنْ تَحُجَّ فَلَمْ تَحُجَّ حَتَّى مَاتَتْ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا، قَالَ: نَعَمْ حُجِّي عَنْهَا أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً اقْضُوا اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ))

[البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا]

فهذان الحديثان الصحيحان أخرجهما البخاري، أصل ودليل في الحج عن الغير، وهناك خلاف بين المذاهب.

شروط الحج عن الغير:

1 . أن يأمر الأصيل بالحج عنه:

أقول لكم: الأشياء الأساسية في هذا الموضوع "شروط الحج عن الغير" يشترط لصحة حجة النائب عن الفريضة الواجبة عن المحجوج عنه ما يلي:

يوجد عندنا قاعدة أن تنوب عن إنسان في حجة الفرض، أو أن تنوب عنه في حجة النافلة، فحجة النافلة قضية سهلة، وشروطها قليلة، أما أهم شيء حجة الفرض، الشروط التي تتوجب على النائب في حجه عن الغير حجة الفريضة.

أولاً يشترط أن يأمر الأصيل بالحج عنه، انطلاقاً من قوله تعالى:

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) ﴾

(سورة النجم)

فإذا أمر الأصيل فهذا من سعيه، وأمره، ووصيته، وإنفاقه على من يحج عنه من ماله و سعيه.

حكم الحج عن الغير عند:

1 . الحنفية والمالكية:

لذلك عند السادة الحنفية يشترط أن يأمر الأصيل بالحج عنه، فلا يجوز الحج عن الحي دون إذنه، أن يكون أحدهم حيَّاً يرزق ولكنه مريض، وقد يكون مشلولاً، ثم يأتي إنسان يحج عنه دون أن يعلِمَه، فهذه ليست واردة إطلاقاً.

وأما الميت فلابد من أن يوصي بالحج عنه عند الحنفية والمالكية، والأحناف استثنوا الوارث، من هو الوارث ؟ هو الابن، وهو أقرب الناس للميت، فالوارث إذا حج عنه من غير أن يوصي صحَّ حجُّه، لأن الوارث من كسب المتوفى، فرجل ترك ابنًا ولم يوصِه عن جهل وتقصير، فجاء ابنه فحج عن أبيه، فهذا الوارث لأنه من كسب الميت يصحُّ أن يحج عنه، فعند الأحناف لا يقبل أن يحج عن أحد إلا إذا وصى فإن لم يوصِ يقبل من الوارث، وفي الأعم الأغلب الوارث ابن، فإذا حج عن مورثه بغير إذنه فإنه يجزئه، وتبرأ ذمة الميت إن شاء الله تعالى، وعند الأحناف لابد أن يوصي، فلو جاء ابنه أو وارثه فحج عنه من دون إذنه أجزأه ذلك، وسقط الحج عن الميت إن شاء الله تعالى.

من أين جاؤوا بهذا الحكم ؟ من حديث الخثعمية:

((جَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنْ خَثْعَمَ عَامَ حَجَّةِ الْوَدَاعِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ فَرِيضَةَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الْحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَسْتَوِيَ عَلَى الرَّاحِلَةِ فَهَلْ يَقْضِي عَنْهُ أَنْ أَحُجَّ عَنْهُ قَالَ: نَعَمْ))

[البخاري عن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا]

2 . الشافعية والحنابلة:

أما الشافعية والحنابلة . فأول حكم الحنفية والمالكية، والثاني الشافعية والحنابلة. إذْ ذهبوا إلى أنه من مات وعليه حج وجب أن يُحجَّ عنه، سواء أوصى أم لم يوصِ، وهذا دَين يجب الوفاء به، فكما تقضى عنه ديونه سواء أوصى أم لم يوصِ، كرجل مات وعليه دين، إن وصى أو لم يوصِ فالدين يُقضى قبل توزيع التركة، قال تعالى:

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (11)﴾

(سورة النساء)

والدين مقدم.

حجة الفرض دين على الميت عند الشافعية والحنابلة

إذاً: الشافعية والحنابلة عدوا حجة الفرض ديناً على الميت، فإذا مات وعليه حج وجب أن يحج عنه من تركته، أوصى بذلك أو لم يوصِ، فإن لم يكن له تركة استحب لوارثه أن يحج عنه، ولكنه غير ملزم، وأغلب الظن من هو وارثه ؟ الابن من صلبه وكسبه، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِنَّ وَلَدَ الرَّجُلِ مِنْ كَسْبِهِ))

[النسائي عن عائشة رَضِي اللَّهُ عنها]

فاستحب لوارثه أن يحج عنه، واللغة العربية دقيقة، فإن حج عنه بنفسه أو أرسل من يحج عنه سقط الحج عنه، وهناك حالة ثالثة، لو يوصِ، وما ترك تركة، فعلى الوارث أن يحج عن أبيه أو يرسل من يحج عنه، وعندئذ تبرأ ذمة الميت من هذه الفريضة، حتى عند السادة الشافعية والحنابلة لو حج عنه أجنبي جاز، كصهره، وإن لم يأذن له الوارث فيصح أن يحج عنه أجنبي، والحجة صحيحة، وتبرأ ذمة الميت كما يقضي دينه بغير إذن الوارث، ولو كان لرجل عم أي والد زوجته، وعليه دين، والورثة جاهلون فذهب ودفع الدين عن عمه، هل هذا مقبول ؟ نعم مقبول، والسادة الشافعية والحنابلة مأخذهم هذا الحكم من تشبيه النبي الحج بالدين، فما دام النبي شبه الحج بالدين يقضى عنه من أجنبي إن أذن الوارث أو لم يأذن، وإن ترك تركة أو لم يترك، وإن وصى أو لم يوصِ،

فلذلك الإنسان الحريص على سلامة والده من المؤاخذة بعد الموت أن يحج عليه تبرعاً.

2 . أن تكون نفقة الحج من مال الآمر كلها:

والشرط الثاني أن تكون نفقة الحج من مال الآمر كلها، والآمر بالحج قد يكون وارثًا، وقد يكون الحاج نفسه وصيًّاً، كمشلول أوصى في حياته، فحج عنه إنسان في حياته، هذا اسمه الآمر، والآمر إما الإنسان نفسه المكلف بالحج، ولم يحج لمرض مزمن أصابه، أو الوصي، أو الوارث عن والده، فأَن تكون نفقة الحج من مال الآمر كلها أو أكثره عند الحنفية، سوى دم التمتع والقران، فهما على الحاج عندهم، أي هو كلفك أن تحج عنه، ولم يكلفك أن تتمتع تدخل بعمرة وتتحلل، وتعيش أنت عشرة أيام تغتسل وتتطيب، بل كلفك بحجة الفرض إفراداً لذلك دم التمتع الخمسة آلاف على الحاج، لا على الآمر بالحج، إلا الوارث إذا تبرع بالحج عن ميته، تبرأ ذمة الميت إذا لم يوص بالحج عنه.

ولو أخذنا أوسع حكم عند الشافعية، أوصى أو لم يوصِ، ترك مالاً أو لم يترك، أذن الوارث أو لم يأذن، فهي ست حالات، وارثه أو أجنبي عنه، هذا أوسع حكم عند السادة الشافعية والحنابلة.

وعند الأحناف يجب أن يوصي، انطلاقاً من قوله تعالى:

﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) ﴾

(سورة النجم)

أو الوارث لأنه من كسب الميت، فيجوز أن يحج عنه، أما الشافعية والحنابلة فقد أجازوا أن يتبرع بالحج عن الغير مطلقاً، كما يجوز أن يتبرع بقضاء دينه من أي شخص كان، وتبرأ ذمته.

ومرة قلت لكم: النبي عليه الصلاة و السلام مات أحد أصحابه فقبل أن يصلي عليه سأل أعليه دين ؟ قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم . لم يصلِ عليه . قال أحدهم: عليّ دينه، سأله في اليوم التالي أدفعت الدين ؟ قال: لا، سأله في اليوم الثالث أدفعت الدين ؟ قال: لا، سأله في اليوم الرابع أدفعت الدين ؟ قال: نعم، قال: الآن ابترد جلد صاحبك، ابترد جلده لا بالتعهد، بل بأداء الدين، لأن الشهيد الذي قدم نفسه في سبيل الله يغفر له كل ذنب إلا الدين.

3 . أن يحج عنه من وطنه إذا اتسع ثلث التركة:

ويشترط أن يحج عنه من وطنه، فهو من سكان دمشق يجب أن يحج عنه رجل من سكان دمشق، أما سوف نكلف رجلاً من مكة نعطيه ثلاثة آلاف يحج حجًّاً مختصراً، يحرم يوم عرفة، ويصعد إلى عرفة، ويجلس ربع ساعة وينزل، أو إنسان وكّل بالرمي، وانتهت العملية، وهذه ثلاثة آلاف، فهذا غير مقبول.

يشترط أن يحج عنه من وطنه إذا اتسع ثلث التركة، فإنْ ترك مئتي ألف، فثلث التركة ستون ألفًا، تكفي حجة إنسان من وطنه دمشق مثلاً، فيشترط أن يحج عنه من وطنه إذا اتسع ثلث التركة، وإن لم يتسع يحج عنه حيث يبلغ عند الحنفية والمالكية، فترك مئة ألف تكفيه ثلاثون ألفًا من عمان، فرجل له قريب من عمان، أو رجل من تبوك، بهذه الثلاثين من أين تكفي من دمشق أم من عمان أم من تبوك ؟ هذا عند الحنفية، أما عند الشافعية والحنابلة فيعتبر اتساع جميع مال الميت، لأنه دين واجب، فإذا كلّفتْ الحجة مئة ألف نأخذها كلها إلى الحج، وهذا عند الشافعية.

ويوجد رأي معتدل يجب أن يحج عنه من الميقات، باتجاه دمشق الميقات هو رابغ، قبل جدة بمئتي كيلو متر، وهذا هو الميقات، أما الحنابلة فيصرون على أن ينوب عنه من بلده، فصار الحج من بلدك، أو الميقات، أو من أي مكان يسمح لك المبلغ بالحج عنه.

حكم المأمور بالحج عن الغير:

الموصي أو الوارث أعطى توجيهاً لشخص بذاته، فلا يقبل الحج إلا من هذا الشخص، فيجب أن يحج المأمور بنفسه، هكذا نص الحنفية والشافعية والمالكية.

فلو مرض المأمور، أو حبس، فدفع المال إلى غيرهِ بغير إذن المحجوج عنه، لا يقع الحج على الميت، فرجل له ثقة بشخص، والثاني دينه رقيق، ولقد سمعت عن حج يحجُّه بعض الأخوة المقيمين في السعودية، فيصلي العصر في جدة يوم عرفات، ثم يركب سيارته، ويرى الطريق إلى مكة سالكًا، ولا يوجد أحد ولا سيارة، فيدخل إلى الحرم بمكة، والكعبة فارغة، لأنّ الكل في عرفات، فيطوف حول الكعبة في ثلث ساعة، ويسعى في ثلث ساعة ثانية، والطريق إلى عرفات سالك، ثم يصل إلى عرفات ويجلس، ثم تغيب الشمس ويرى الطريق سالكاً فيرجع ويرمي جمرة العقبة، ويوكل في الرميِ، وانتهى الحج، أنا لي ثقة برجل ورع أعرفه، يؤدي الحج بشكل متقن،

وسيبقى عشرة أيام أو عشرين يوماً، وهذا حج في ثلاث ساعات.

إذا أناب الموكل بالحج رجلاً ليحجَّ عن الميت لم يصح، ولو مرض المأمور، أو حبس، ودفع المال إلى غيره بغير إذن المحجوج عنه لا يقع الحج على الميت، والحاج الأول والثاني ضامنان نفقة الحج، يدفع الخمسين ألفاً، لأن شرط الموصي أن يحج فلان، إلا إذا قال الآمر: أنا وكلتك أن تحج عني وهذا المبلغ وأنت اصنع ما تشاء، فإذا لم تستطع ووكلتَ إنساناً صالحاً جاز، لإطلاق اليد، فيجوز للذي يحج عن الميت أن يوكل غيره بهذا الإطلاق، أما إذا وُجِد تقييد فلا يجوز.

4 . أن يحرم من الميقات بالحج والعمرة عن الشخص الذي يحج عنه ويذكر اسمه:

ومن شروط الحج عن الغير: أن يحرم من الميقات بالحج والعمرة عن الشخص الذي يحج عنه، ويذكر اسمه كما أمر به من غير مخالفة، لبيك حجةً عن فلان، أو لبيك حجة عن فلانة، اللهم تقبلها مني ويسرها لي، لبيك اللهم لبيك، وفي أثناء الإحرام يذكر اسم الذي يحج عنه، ولو أمره أن يحج مفرداً فقرن أو تمتع فهو مخالف وضامن لنفقة القران والتمتع.

5 . على المأمور أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً:

وتُشترك أهلية المأمور بصحة الحج أن يكون مسلماً بالغاً عاقلاً.

6 . لا يشترط أن يكون المأمور قد حجّ حجة الإسلام عند الحنفية و العكس عند الشافعية:

ولا يشترط أن يكون المأمور قد حجّ حجة الإسلام عند الحنفية، بل تصح هذه الحجة البدليّة، وتبرأ ذمة الميت مع الكراهة التحريمية، فالشخص الذي لا يعرف ولم يحج، وحج عن الغير نقول: هذا الحج فيه كراهة تحريمية، ولكن الحج سقط عن الميت، وإن كان قد ارتكب الكراهة التحريمية، من أين جاؤوا بهذا الحكم ؟ لأن الخثعمية ما سألها النبي، بل قال لها: حجي عن أبيك، فلو أن إنساناً حج عن الغير، برأتْ ذمة الميت، سواء أكان حاجاً أو غير حاج، وإذا لم يحج وقع فيما يسمى بالكراهة التحريمية، إلا أن الشافعية والأحناف اشترطوا أن يكون الحاج عن الغير قد حج عن نفسه، والدليل استدلوا:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلاً يَقُولُ لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ، قَالَ: مَنْ شُبْرُمَةُ، قَالَ: أَخٌ لِي أَوْ قَرِيبٌ لِي، قَالَ: حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ، قَالَ: لا، قَالَ: حُجَّ عَنْ نَفْسِكَ ثُمَّ حُجَّ عَنْ شُبْرُمَةَ))

[أبو داود وابن ماجة عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا]

فهذا الحديث يبين أنه ينبغي أن تحج عن نفسك أولاً.

أمّا حج النفل عن الغير، فمرةً أخت كريمة سألتني عبر الهاتف أنها حجَّت الفرض، وقالت: إني مشتاقة للحج، وسوف أكتب عقد زواج صوري على رجل، وسأذهب معه إلى الحج لأنني مشتاقة إلى الكعبة، قلت لها: إنّ أقدس عقد في الأرض يُلعب به من أجل حجة نافلة ؟ أنت حججت حجة الفرض، فلا يجوز أن تستخدمي هذا الأسلوب في حجة نافلة.

هذه الشروط للحج الفرض، أما الحج النفل فلا يشترط فيها شيء ؛ إلا الإسلام، والعقل، والتمييز، والنية، وذلك لاتساع باب النفل، فإنه يتسامح في النفل ما لا يتسامح في الفرض، وهذا مذهب الإمام أحمد وأبي حنيفة، وأجازه المالكية مع الكراهة.

الحج فرض على كل مسلم:

ملخص هذا الموضوع المختصر أن الحج فرض، قال تعالى:

﴿ فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97) ﴾

(سورة آل عمران)

فمن مكنه الله بصحته وماله أن يحج ولم يحج فهو في كفر جزئي ؛ أي كفر بهذه الفريضة، ومن استطاع أن يحج ولم يحج، فإن شاء مات غير مسلم فلا عليه ذلك، لأنه كفر وأوسع حكم شرعي أنّ الميت أوصى أو لم يوصِ، ترك تركة أم لم يترك، أذن الوارث أم لم يأذن، كان الحاج عنه وارثاً أو أجنبياً، فإنها تبرأ ذمته بحج الغير عنه، وهذا أوسع حكم شرعي، والأحناف قالوا: ينبغي أن يوصي أو يجزئه أن يحج عنه ابنه، أو وارثه، من ماله الشخصي، والحج أكمل من بلد الموصي، كرجل مقيم بالقاهرة فمن القاهرة، ومقيم بدمشق فمن دمشق، إلا إذا كان المبلغ قليلاً فالحج حينئذ من الميقات.

أحاديث عن الحج:

ثمَّة بعض الأحاديث عن الحج نختم بها الدرس، ونعود إن شاء الله تعالى إلى موضوعاتنا المتسلسلة، بعد الحج، ويكون الدرس القادم إن شاء الله تعالى بعد المغرب.

((سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الأعْمَالِ أَفْضَلُ، قَالَ: إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا، قَالَ: جِهَادٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قِيلَ ثُمَّ مَاذَا، قَالَ: حَجٌّ مَبْرُورٌ))

[البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

((مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَمَا وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))

[البخاري عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

((الْحَجَّةُ الْمَبْرُورَةُ لَيْسَ لَهَا جَزَاءٌ إلا الْجَنَّةُ، وَالْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا))

[النسائي عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ]

((يَا رَسُولَ اللَّهِ نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ أَفَلا نُجَاهِدُ، قَالَ: لا لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ))

[البخاري عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا]

((مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ اللَّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ الْمَلائِكَةَ فَيَقُولُ مَا أَرَادَ هَؤُلاءِ))

[مسلم عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ]

يوم عرفة يوم العتق من النار، " اشهدوا يا ملائكتي أن عبادي جاؤوني شعساً غبراً، اشهدوا أني غفرت لهم، يغفر لهم ويلقي في روعهم أنه غفر لهم "، وكأن النبي عليه الصلاة والسلام استشرف المستقبل، سوف يكون ملايين مملينة، وازدحام شديد:

((فقال عليه الصلاة والسلام بحكمة بالغة لِامْرَأَةٍ مِنَ الأنْصَارِ يُقَالُ لَهَا أُمُّ سِنَانٍ: مَا مَنَعَكِ أَنْ تَكُونِي حَجَجْتِ مَعَنَا ؟ قَالَتْ: نَاضِحَانِ كَانَا لأبِي فُلانٍ زَوْجِهَا حَجَّ هُوَ وَابْنُهُ عَلَى أَحَدِهِمَا، وَكَانَ الآخَرُ يَسْقِي عَلَيْهِ غُلامُنَا، قَالَ: فَعُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي))

[البخاري عَنْ ابن عباس رَضِي اللَّهُ عَنْهمَا]

من حج الفرض الأولى أن يكثر من العمرة ليفسح المجال للآخرين:

إذاً إذا حجَّ الإنسان فليفسح المجال لمن لم يحج، لأنه كما قلت لكم سابقاً: سجادة تتسع لخمسين مصلياً، يوجد عندنا ثلاثمئة إنسان، خمسون منهم لم يصلِّ الفرض، فإذا الإنسان حج الفرض مرة أو مرتين، فالأولى أن يكثر من العمرة، وهي على مدار السنة، وسمعت في مكة المكرمة أنهم جاؤوا بالخبراء من أمريكا لتنظيم الحج، فدرسوا الوضع فوجدوا أربعة ملايين في كل سنة، فأعطوا خطة رائعة !!! أن يكون الحج كل شهرين في دورة، أي على ست دورات، هكذا خرجوا هذا الرأي !!!.

((فَعُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي))

[البخاري عَنْ ابن عباس رَضِي اللَّهُ عَنْهما]

((كَانَتْ عُكَاظُ وَمَجَنَّةُ وَذُو الْمَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَتَأَثَّمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي الْمَوَاسِمِ فَنَزَلَتْ (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ) فِي مَوَاسِمِ الْحَجِّ))

[البخاري عَنْ ابن عباس رَضِي اللَّهُ عَنْهما]

فَتَأَثَّمُوا أي شعروا بحرج، وشعروا أنهم آثمون، فإذا كانت للإنسان تجارة معينة، وبعد أن انتهى الحج بحث عن مواد وشحنها، فلا يوجد مشكلة.

هذا الموضوع أنا اخترته، فإذا أحب إنسان أن يحج عن غيره، فليراجع نفسه إذا كان هناك أقارب، والد، والدة ما حجت، وما أوصت بالحج، فيجوز للابن أن يحج عن والدته، تركت أو لم تترك، أذنت أو لم تأذن، أوصت أو لم توصِ، أذن وارثها أو لم يأذن، فلابد من أن يحج عن الغير، وهذا هو الحكم الشرعي الواسع عند الشافعية والحنابلة، أما الأحناف فيجب أن يكون موصى، أو أن يحج ابنه عنه من دون إذن ولا وصية.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الفصل الأول : الوضوء

الفصل الثاني : الصيام

الفصل الثالث : الصلاة

الفصل الرابع : الزكاة

الفصل الخامس : الحج